روجي لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الأول



دار الغرب الإسلامي

فاس قبل الحماية

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

روجي لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الأول

ترجمه إلى العربية

محمد حجي
دكتور دولة في الآداب والعلوم الإنسانية

محمد الأخضر
دكتور دولة في الآداب والعلوم الإنسانية

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

كتاب لوطورنو فاس قبل الحماية من الدراسات المنوغرافية التي وضعت إبان الحماية ولقيت رواجاً لدى المهتمين بتاريخ المغرب منذ الأربعينيات حتى اليوم . ألف لوطورنو هذا الكتاب بعد أن عاش في فاس عشر سنوات (1930 - 1940) مدرساً ثم مديراً لثانوية مولاي إدريس ، متجولاً في الأزقة والدروب واقفاً على المنازل والمتاجر والأطرزة والأضرحة والأطلال ، متصلاً بمختلف طبقات السكان ، حاكمين ومحكومين ، مثقفين وتجار وحرفيين ، مطلعاً في نفس الوقت ـ مباشرة أو بواسطة ـ على ما كُتب عن فاس ، سواء من طرف المؤرخين والرحالة المسلمين القدامى ، أو من طرف الأوروبيين المحدثين ، رحالة وتجار وعيون وديبلوماسيين وفضوليين ، خاصة في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، لا تكاد تند عنه من ذلك كله شاذة ولا فاذة ، فكانت الحصيلة هذه القائمة البيبليوغرافية الطويلة المستوعبة التي تطالعنا في أول الكتاب ، والتي استغلها المؤلف أحسن استغلال في كتابته عن مختلف المظاهر الحضارية للعاصمة الإدريسية .

تتعدد المناهج العلمية التي أخذ بها المؤلف في فاس قبل الحماية ، بعضها تاريخية وجغرافية ، وبعضها اجتماعية واتنوغرافية ، وكان لا بد منها جميعاً ـ كما ذكر في المقدمة ـ لإعطاء صورة كاملة عن فاس والفاسيين قبل

مجيء الفرنسيين وإقامة الحماية . وقد وُفِّق لوطورنو فعلاً ـ في الإبان المناسب ـ إلى رسم صورة واضحة المعالم عن هذه المدينة الأصيلة العريقة ، وهو لا يعرف ان كثيراً من المظاهر التي حرص على تأملها ووصفها بدقة متناهية عن طريق الكتابة والرسوم الجغرافية والبيانية والصور الفتوغرافية ستختفي في ظرف وجيز نسبياً بسبب الهجرات المتوالية للتجار الفاسيين إلى الدار البيضاء منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ثم الهجرة العارمة للمثقفين الفاسيين إلى الرباط بعد الاستقلال . وكان المؤلف فعلاً يشعر ويتنبأ بتغير الأوضاع في فاس على يد من يسميهم « المتطورين » ، ولكنه لم يخطر بباله ـ على ما يبدو ـ ان يتم هذا التطور خارج إطار الحماية وعلى النحو الذي تم به .

يبقى كتاب **فاس قبل الحماية** وثيقة حية شاهدة بعمران فاس وجمالها ، ونشاط أهلها وحيويتهم في مختلف الميادين الصناعية والتجارية والفكرية في مطلع القرن العشرين ، بعد أن طمست التطورات المؤسفة في العقود الأخيرة هذه المعالم ، فخلت الدور والقصور من أهلها ودخلها مِن البدو مَن أفسدها وأحال نضارتها وبهجتها إلى كآبة وخراب . وعسى أن توفق اللجنة الوطنية لإنقاذ فاس المتعاونة مع اليونيسكو إلى إيقاف مد التدهور ، واستصلاح ما يمكن استصلاحه في هذه المدينة التي تعد بحق من أكبر وأعرق حواضر الإسلام .

المؤلف :

ولد روجي لوطورنو في باريس سنة 1907 ، وتخرج من مدرستها العليا للأساتذة ، ثم حصل على شهادة التبريز من السربون ، فدكتوراة الدولة في الآداب . والتحق بفاس سنة 1930 كأستاذ بثانوية مولاي إدريس ، ثم صار مديراً لهذه الثانوية ولم يغادرها إلا أثناء الحرب العالمية الثانية . وشغل بعد ذلك منصب مدير التعليم العمومي والفنون الجميلة بتونس ، فمُلحق بمركز الدراسات العليا الحديثة لأفريقيا وآسيا بجامعة باريس، ثم أستاذ بجامعة الجزائر ، فأستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة إكس ـ مرسيليا .

كتب لوطورنو عدداً كثيراً من الأبحاث المتعلقة بالتاريخ الإسلامي عموماً وتاريخ المغرب وفاس بصفة خاصة ، نشر بعضها في مجلات علمية بالمغرب والجزائر وتونس وفرنسا . ونشر كتاب **فاس قبل الحماية** سنة 1949 بالدار البيضاء . كما ألقى محاضرات ، كأستاذ زائر ، بجامعة برينسيطون بالولايات المتحدة الأميريكية ، وتوفي بمدينة إكس في 7 أبريل سنة 1971(*) .

وقد حرصنا على أن ننقل إلى العربية هذا الكتاب القيم بأمانة ، نصاً وهوامش ورسوماً وصوراً ، ولم نُضف إلا قليلاً من الهوامش رأيناها ضرورية وميزناها عن الهوامش الأصلية بكلمة (مترجم) في ختامها، واحتفظنا بترتيب المصادر الأعجمية على حالها عند المؤلف عندما نقلناها إلى العربية ، ثم نشرناها بنصها الأعجمي وترتيبها في الأخير لتسهل الاستفادة منها على من يريد الرجوع إليها في لغاتها الأصلية .

الرباط في فاتح شتنبر 1984
المترجمان

(*) نشكر زوجة لوطورنو ، والأستاذ بريسوليط ، على المعلومات المتعلقة بالمؤلف التي تفضلا بإمدادنا بها .

مقدمة

من الممكن أن يتساءل المرء ، دون أن يحيد عن الصواب ، إلى أي مادة تنتمي هذه الدراسة ؟ فسيجد فيها بالفعل فصولاً تاريخية ، وشروحاً اجتماعية وعرقية ، وملاحظات تتعلق بالجغرافيا المدنية . وأتمنى ألا يبلغ ذلك إلى درجة اتهامي بالخلط وتشويش الأفكار . فهناك مواضيع تساعد على احترام التصنيفات المعهودة ، وهناك مواضيع أخرى لا تخضع لها حتماً لكونها تمتُّ إلى حقيقة متعددة الجوانب . فمحاولة التعرف على مدينة ما وتقديمها كما كانت عليه في فترة من فترات تطورها ، يعني ذلك اللجوء ضرورة إلى جميع أنواع المواد .

قد يقال لي إنه كان بإمكاني أن أقتصر في موضوعي على أحد مظاهر فاس ، بدلاً من أن أحاول ـ ربما بشيء من الزهو ـ إعطاء نظرة شاملة عنها في أوائل القرن العشرين . فكيفية تصوّر الأشياء مثل هذه صالحة ولا شك بالنسبة للمدن العظيمة التي لا نستطيع الإحاطة بها في نظرة واحدة ، أو بالنسبة لمدن أقلّ التحاماً مما هي عليه العاصمة الإدريسية . لكن كل من أتيحت لهم فرصة التأمل حول فاس مجمعون على ملاحظة أنها تشكل حقاً كلاً لا يتجزأ . فكيف يمكن دراسة التاجر والصانع بفاس ، دون التعرف على حياتهما العائلية ، وواجباتهما الاجتماعية ، وأصلهما ، وعقيدتهما التي لها هذا القدر من الوزن على سلوكهما العام ؟ وكيف يمكن عزل حياة فاس الفكرية ، والعلماء

مرتبطون أشدّ الارتباط بأسر التجار ، قائمون بدورهم في مجموع الحياة الحضرية ، والتجار قد تكوّنوا قليلاً أو كثيراً في جامعة القرويين ؟ وكيف يمكن إدراك نظام التجارة الفاسية دون اختبار البنية العامة للمدنية ؟ فالبحث على انفراد في جانب من جوانب حياة فاس يتمثل لي كدراسة شخصية واحدة من بين شخصيات كثيرة في لوحة فنان ماهر : فبعد أن قضيت عشر سنوات بين أظهر الفاسيين ، سأعتبر عدم محاولتي تقديمهم في واقعهم الحيّ المعقّد نوعاً من الخيانة .

وعندما تصوّرت الموضوع بهذه الكيفية ، أقبلت طبعاً على استعمال طرق متنوعة للتنقيب بقدر تنوّع المواد التي كنت أحتاج اليها ، كالرجوع إلى المصادر العربية والأوروبية ، واستعمال الوثائق والإحصائيات كلما أمكن ذلك ، ولا سيما التنقيب المباشر . لقد كان من حسن حظي أن جئت إلى فاس عام 1930 ، في عهد كان فيه أثر التطوّر الناجم عن إقامة الحماية ما زال ضعيفاً بحيث إنني ، في كثير من الحالات ، كان يكفيني للتزود بالمستندات أن أفتح عينيّ وأسجّل ما أشاهده . ومن جهة أخرى ، لجأت كثيراً إلى الرواية الشفوية ، إذ ساعدني الحظ على الاتصال بالعديد ممن عاشوا في العهد الذي أهتمّ به خاصة . واستطعت بذلك أن أجمع كمّيّة هامة جداً من معلومات تطابق بدقة المظاهر الرئيسية لفاس في بداية القرن العشرين ، وهي طريقة خطيرة لو كان عدد الشهادات الفردية محدوداً ، لكنها تتخلص من مساوئها عندما يتّسع ميدان التنقيب ، كما هو الشأن في الحالة الراهنة .

فلا يُستغرب إذن ، قبل القيام بعرض نتائج بحثي ، أن أعبّر عن امتناني العميق لكل من تفضلوا بالاهتمام بهذا العمل والمساعدة على إنجازه ؛ وفي الطليعة المسلمون بفاس ، وهم كثيرون جداً ، سهّلوا عليّ مهمتي بشتى الوسائل ، واضعين رهن إشارتي وثائق غير منشورة ، أو رابطين الاتصال بيني وبين من هم أكثر كفاءة لإفادتي حول نقطة من النقط ، أو مجيبين بالأخص وبدون ملل عن أسئلتي غير المتناهية والفضولية في غالب الأحيان . لا أريد

سرد الأسماء ، إذ ستكون القائمة مفرطة الطول وسأتعرض إلى إغفال الكثير ، أي إلى جور لا أريد اقترافه ، فليكفني القول إنني وجدت في كل مكان اقتبالاً في غاية الأدب واللطف سواء عند أسمى السلطات الإدارية والفكرية للمدينة ، أو عند أبسط الصناع . إلا أن من واجبي أن أقدّم فكرة خاصة حافلة بالشكر والود لقدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس الذين لهم عليّ فضل جمّ والذين لولاهم لنقص عملي جزءاً من مادته الجوهرية .

ويتّجه امتناني طبعاً كذلك إلى من تفضلوا بتشجيعي وإرشادي عند استئناسي بفاس والشؤون الإسلامية ، إلى أستاذي السيد إ. ليڤي بروڤنصال الأستاذ بالسربون ، الذي تشكّل أبحاثه البالغة الدقة والنفوذ نماذج رائعة ؛ وإلى السيد روبير مونطاني ، الأستاذ بكوليج فرنسا ومدير مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية ، الذي كانت مشاركته الوجدانية الأخاذة لي مساعداً نفيساً في شتى المناسبات ؛ وإلى لويس برونو ، المدير الشرفي لمعهد الدراسات العليا المغربية ، الذي ما فتىء يهتم بدراساتي المتواضعة ويفيدني بتجربته العميقة ؛ وإلى جول سالانك ، رئيسي الأول وأول أستاذ تعلمت على يده اللغة العربية في آن واحد . ولا يسعني أن أنسى عناية يوحنا كُوطلان ، المدير العام السابق للتعليم العمومي والفنون الجميلة والآثار بالمغرب ، الذي بقيت الخصائص السامية لقلبه وذكائه ونفوذه ، راسخة في ذاكرة من تشرفوا بالخدمة تحت إمرته . ولا يسعني بالتالي أن أنسى الاقتبال المشجع جداً الذي لقيته دوماً عند شيوخ ممتازين ، أمثال السيدين وليام وجورج مارسي ، عضوي المعهد ؛ وإلى السيدين لويس ماسينيون ويوحنا صوڤاجي ،الأستاذين بكوليج فرنسا ، الذين ما زالت نصائحهم وتشجيعاتهم تساندني في مهمتي بدون انقطاع .

ولإنجاز عملي ، ساعدني الحظ في التمكن من الاتصال باخصائيين محنكين لم يضنوا علي بنصائحهم النيّرة وتفضلوا بإفادتي من تجربتهم . وآبى هنا إلا أن أوجه عبارة امتناني الخاص إلى السيد هانري طيراس ، مدير معهد

الدراسات العليا المغربية . الذي قبل إدماج هذا الكتاب في مجموعات هذا المعهد وأفادني بمعرفته العميقة في الشؤون المغربية ؛ وإلى السيد روبير ريكار الأستاذ بالسربون ، الذي أطلعني أو دلّني على وثائق نفيسة ؛ وإلى السادة ج. س. كولان ، مدير الدراسات بمعهد الدراسات العليا المغربية ؛ وريجيس بلاشير الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية ، وإيميل ديرمنگيم ، محافظ خزانة الحكومة العامة بالجزائر ، فقد تفضلوا بقراءة هذا القسم أو ذاك من عملي وأدلوا لي بملاحظاتهم . كما يجب علي أن اعرب عن أحرّ امتناني لزميلي السابق وصديقي ، السيد محمد الأخضر الأستاذ بثانوية مولاي إدريس بفاس ، الذي تفضل بجمع كمية من المعلومات في عين المكان كانت تنقصني عند تحرير هذا الكتاب ، وقد ساعدته معرفته المعمقة لفاس على جمعها حسب إشاراتي . ويطيب لي أيضاً أن أشكر جميع من تفضلوا بالاستماع إلى أسئلتي أو تزويدي بوثائق غير منشورة أمثال الشريف سيدي عبد الحي الكتاني ، والكولونيل جوستينار ، ويهودا بن سمحون وغيرهم كثير . كما لا يسعني أن أهمل مجاملة السيد جاك ريش ، محافظ الخزانة العامة للحماية بالرباط ، الذي تفضل ففتح أمامي بسخاء المجموعات النفيسة للكتب والوثائق التي يسهر عليها ؛ والسيد إيلي لامبير الاستاذ بالسربون ، الذي تمكنت بفضله من توسيع وثائقي الفتوغرافية على أحسن وجه ؛ والسيد الكاتب العام لناحية فاس والسيد رئيس المصالح البلدية بفاس اللذين فتحا لي أبواب مستنداتهما على مصاريعها .

وأخيراً فإن فكري يتجه إلى أولئك الذي أجريت معهم أول تجرباتي عن فاس ، سائراً شيئاً فشيئاً نحو العمل الإجمالي الذي أقدمه الآن ، ألا وهم : صديقي العزيز القديم لوسيان پاي ، المندوب العام للتصميم بالجزائر ؛ والضابطان الترجمانان گويور وكاربونيـي ؛ والسيد مارسيل ڤيكير ، رئيس مصلحة الحرف والفنون الأهلية بالمغرب ؛ وعدد من زملائي القدماء بجمعية أصدقاء فاس . فسيجدون في هذا الكتاب الكثير من نتائج أعمالنا المشتركة والتطبيق على أرضيات أخرى لطرق التنقيب التي مهّدناها جميعاً .

وما كنا نستطيع ، أنا وهم ، أن ننهي بنجاح الدراسات التي قمنا بها لو لم نستفد من كمية الوثائق والأعمال التي ضبطها من سبقنا ممن اهتموا بفاس منذ أزيد من خمسين سنة وجمعوا في شأنها مجموعة من الوثائق من الدرجة الأولى ، ألا وهم : إدوارد ميشو- بلّير وجميع أعضاء البعثة العلمية بالمغرب ؛ ألفريد بيل ، وپروسپير ريكار ، وشارل روني - لوكلير ، وموريس لوگلي ، وهانري گايار ، وغيرهم كثيرون ممن ستذكر أعمالهم غالباً خلال هذه الدراسة . فالجرد المنهجي الدقيق للمدينة الإدريسية هو من عملهم ، ولا يمكن التحدث عن فاس والفاسيين دون إثارة ذكراهم في الأفكار باحترام، وامتنان . . .

وستجدون في أول هذا الكتاب ببليوغرافيا مستوعبة بقدر الإمكان ، وكشافاً في الآخر ظهر لي من المفيد ، عملاً بنصيحة ليڤي - بروڤنصال ، أن أقسمه إلى فهرس لأسماء الأماكن ، وآخر للأعلام ، وثالث للمصطلحات المنقولة من اللغة العربية والمصطلحات الفرنسية . وأرجو بذلك أن يكون هذا المؤلَّف سهل التناول للباحثين رغم ضخامته .

مدينة الجزائر : في ديسمبر 1947.

* * *

حاشية : إنني لمدين بالأخص إلى السيدين جاك لادريت دي لاشارير وهانري پيريس الذين تفضلا فأعاناني في تصحيح تجارب هذا الكتاب .

لائحة المؤلفات التي اطّلعت عليها وذكرت

I . المصادر العربية(*)

1 ـ ابن أبي زرع . كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر النص طورنبيرك (أوبصال، 1843) ، وترجمه إلى اللاتينية (أوبصال ، 1846) وترجمه إلى الفرنسية بومبي ، تحت عنوان : تاريخ ملوك المغرب وحوليات مدينة فاس ، باريس ، 1860 .

2 ـ ابن الأحمر . تاريخ بني مرين ، ملوك فاس ، بعنوان روضة النسرين ، نشره وترجمه ، غ. البوهالي وج. مارسي ، باريس ، 1917 .

3 ـ ابن بطوطة رحلة ، نشرها وترجمها ديفريموري وسانكينيتي ، في 4 مجلدات ، باريس ، 1874 -1879 .

4 ـ ابن حوقل . وصف إفريقيا الشمالية ، ترجمة دو سلان في الجريدة الأسيوية ، 1842 .

(*) أعدنا ترتيب المصادر العربية على الحروف ، وتركنا المصادر الأوروبية على حالها كما وردت عند المؤلف ، معربة هنا ، وبنصها الفرنسي في آخر الكتاب .

5 ـ ابن خلدون . **تاريخ البربر** ، نشره دو سلان، مدينة الجزائر ، 1847 -1851 وترجمه في 4 مجلدات ، مدينة الجزائر العاصمة ، 1852 - 1856 .

6 ـ ابن زيدان (مولاي عبد الرحمن) **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** ، في 4 مجلدات ، الرباط 1929 -1932(*) .

7 ـ ابن عسكر . **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر** ، طبع على الحجر بفاس ، 1309 هـ . وترجمه ڭرول ، في الوثائق المغربية ، العدد 19 (1913) .

8 ـ ابن فضل الله العمري . **مسالك الأبصار ، في ممالك الأمصار** ، الجزء 1 ، **إفريقيا ما عدا مصر** ، ترجمة وهوامش ڭودفروا دو مومبين ، مكتبة الجغرافيين العرب ، الجزء 2 ، باريس ، 1927 .

9 ـ ابن القاضي . **جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس** ، طبع على الحجر بفاس ، عام 1309هـ .

10 ـ الإدريسي . **وصف إفريقيا وإسبانيا** ، نشره وترجمه ر. دوزي وم. ج. دي ڭوج ، لايد ، 1866 .

11 ـ الإفراني . **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** ، تاريخ السعديين بالمغرب (1511 -1670) ، ترجمة أ. هوداس ، باريس ، 1889 .

12 ـ البكري أبو عبيد . **وصف إفريقيا الشمالية** ، نشر النص وترجمه دو سلان في مجلدين ، الجزائر ، 1911 -1913 .

13 ـ الجزنائي (أبو الحسن علي) . **زهرة الآس في تأسيس مدينة فاس** ، نشر النص وترجمه أ. بيل، مدينة الجزائر ، 1923 .

14 ـ الزياني (أبو القاسم بن أحمد) . **الترجمان المعرب عن دول المشرق**

(*) نشر جزء خامس من هذا الكتاب بعد ذلك .

والمغرب (المغرب من 1631 إلى 1812) ، نشر النص وترجمه أ. هوداس باريس ، 1886 .

15 ـ القادري (عبد السلام) **الدرّ السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني** ، طبع على الحجر بفاس ، عام 1303 و 1308هـ .

16 ـ القادري محمد ، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني** ، ترجمه كْرول في الوثائق المغربية ، العدد 21 (1913) وميشو بللير ، نفس المرجع عدد 24 (1917) .

17 ـ الكتاني (محمد بن جعفر) **الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس** ، طبع على الحجر بفاس ، عام 1314هـ .

18 ـ الكتاني محمد بن جعفر . **سلوة الأنفاس ومحادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ، طبع على الحجر بفاس ، في 3 مجلدات ، عام 1316هـ .

19 ـ ليڤي ـ بروڤنصال . **وثائق غير منشورة للتاريخ الموحدي** (مجموعة النصوص العربية المتعلقة بتاريخ الغرب الاسلامي ، المجلد 1) باريس ، 1928 .

19م ـ الناصري أحمد بن خالد السلاوي . **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، القاهرة ، 1312هـ ، في 4 مجلدات ، ترجمة دو فومي في الوثائق المغربية ، العدد 9 (1906) و 10 (1907) (الدولة العلوية) وترجمة كْرول ، نفس المرجع ، العدد 30 (1923) (الأصول) ، ترجمة كْرول وكولان ، نفس المرجع ، العدد 31 (1925) (الأدارسة والمرابطون) ،ترجمة إسماعيل حميد ، نفس المرجع ، العدد 32 (1927) و 33 (1934) (المرابطون والمرينيون) ، ترجمة محمد الناصري ، نفس المرجع ، العدد 34 (1936) (السعديون) ، باريس ، 1951 .

20 ـ نهليل ، **رسائل شريفة** ، باريس ، 1915 .

21 ـ الونشريسي . **كتاب أقضية الونشريسي** ، النص ، والترجمة والهوامش لهنري برونو وڭودفروا دو ممبين (مجموعة النصوص العربية لمعهد الدراسات العليا المغربية ، المجلد 8 ، الرباط 1937) .

22 ـ الونشريسي . **كتاب المعيار** ، ترجمة عمار في الوثائق المغربية ، العدد 12 (1908) و 13 (1909) .

23 ـ **إفريقيا الشمالية في القرن الثاني عشر من تاريخنا** (وصف مستخرج من كتاب الاستبصار ، وترجمه فانيان) ، قسنطينة ، 1900 .

24 ـ **كتاب إسباني في الحسبة** ، حقق النص ج. س. كولان وإ. ليڤي ـ بروڤنصال ، مع مقدمة ومعجم ، باريس ، 1931 .

25 ـ مؤلف مجهول . **تاريخ الدولة السعدية** ، نشر النص العربي ج. س. كولان ، مجموعة النصوص العربية لمعهد الدراسات العليا المغربية ، المجلد 2 ، الرباط ، 1934 .

II وثائق ورحالة أوروبيون

ـ إ . دي أميسيس . **المغرب** ، ترجمة عن الإيطالية هـ . بيلل ، باريس ، 1882 .

ـ مؤلف مجهول . **يوم الصلاة بفاس** ، في مجلة العالمين ، 1906 ، عدد32 ، ص 871 ـ 905 .

ـ مؤلف مجهول [أوبان] . **فاس ، آخر مركز للحضارة الإسلامية** ، في مجلة بارس 15 فبراير (ص 851 ـ 872)،فاتح مارس (ص . 173 -196) ، 15 مارس (ص 424 -448) ، 1904 .

- أوبان . مغرب اليوم ، باريس ، 1904 .
- بادية إي لبليش [علي باي] . رحلات علي باي العباسي إلى إفريقيا وآسيا ، في 3 مجلدات، باريس، 1814 (عن فاس، المجلد 1، الفصل 8).
- كـريسطـوبال بينيتيز . سفري داخل إفريقيا ، طنجة ، 1899 .
- بونصال . المغرب كما هو ، لندن ، 1894 .
- برايتوايت . تاريخ ثورات مملكة المغرب منذ وفاة آخر امبراطور مولاي إسماعيل ، ترجمة فرنسية ، أمسطيردام ، 1731 .
- الكونت كونراد دي بويسيري في بلاط فاس ، بروكسيل ، 1907 .
- روني كايـي . يومية رحلة إلى تنبكتـو وجني ، 3 مجلدات ، باريس ، 1830 (عن فاس ، المجلد 3 ، ص 113 -118).
- لـ. دو كامپو . مملكة تنهار : المغرب المعاصر ، باريس ، 1886.
- الكونت هنري دو كاستر . مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب ، نشرت تحت إدارة م . دو كاستر .
- الدكتور سيرديرا . مغرب ، فاس ، في مذكرات دبلوماسية وقنصلية وإخبارية (وزارة الدولة للإعلام التجاري) ، العدد 73 ,1904 .
- گابريال تشارمز . سفارة بالمغرب ، باريس ، 1887.
- ل. دو شينيـي . أبحاث تاريخية حول المغاربة وتاريخ مملكة المغرب ، 3 مجلدات ، باريس 1787 .
- أندري شيڤرييون . انحطاط الإسلام (فاس عام 1905) الطبعة الخامسة ، باريس ، 1923 .
- نيكولا كلينار . مراسلة نشرها أ . رورش ، 3 مجلدات ، بروكسل ، 1940 - 1941 .

- القبطان هـ. إ. كولفيل . **جولة في بدلة خفيفة** ، لندن 1880 .

- أوجين دولاكروا . **رحلة أوجين دولاكروا إلى المغرب** ، صورة طبق الأصل لألبوم متحف اللوفر . مقدمة يوحنا ڤيفري ، باريس ، 1909 .

- دييڭودي طورّيس . **تاريخ الشرفاء** ، ترجمة دوق دو أنڭوليم الأب ، وألحق بالجزء الثالث من مؤلّف مارمول (انظر ما يأتي) .

- **تقارير دبلوماسية وقنصلية** ، نشرتها وزارة الشؤون الخارجية والتجارة ، لندن :العدد 1304 . (1892) ، و1476 (1893) و 1633 (1894) ، و1810 (1895) ، و1995 (1896) ، و2131 (1897) ، و2296 (1898) ، و 2603 (1899) ، و2723 (1900) ، و3597 (1905) .

- **وثائق دبلوماسية . مسألة الحماية الدبلوماسية والقنصلية بالمغرب** ، باريس 1880 .

- ج. إركمان . **المغرب الحديث** ، باريس ، 1885 .

- ف . شارل دو فوكو . **استطلاع بالمغرب** ، مجلدان ، باريس ، 1888 .

- لورانس هارّيس . **مع مولاي حفيظ بفاس من وراء مشاهد بالمغرب** ، لندن 1909 .

- و. هارّيس . **بلاد سلطان إفريقي** . أسفار في المغرب . لندن 1889 .

- و . هارّيس . **المغرب المضمحل** ، باريس ، 1929 .

- موريس لوگلي . **تاريخ مغربي لعام 1911** ، باريس ، 1933 .

- و. ليمبريير، طبيب جراحي للأسنان . **جولة من جبل طارق إلى طنجة ، وسلا ، والصويرة ، وسانطاكروز ، وتارودانت ومن هناك إلى جبل الأطلس حتى مراكش** ، لندن 1791 .

- ليون الإفريقي . وصف إفريقيا . طبعة جديدة بتعليق ش . شيفّير ، 3 مجلدات 1896 -1898 (عن فاس ، المجلد 2) .

- بيير لوتي . في المغرب ، باريس ، طبعة 1928 .

- مارمول . إفريقيا ، ترجمة نيكولا بيرّو دابلانكور ، 3 مجلدات ، باريس 1667 .

- هـ. دولامارتينيير . ذكريات حول المغرب ، باريس ، 1919 .

- مويط . رواية اعتقال السيد مويط في مملكتي فاس ومراكش ، باريس ، 1683 .

[illegible] فاس ، باريس ، 1902 .

- [illegible] ماريادي موركا . ذكريات مغربية للمغربي البيسكانيي خوصي ماريادي موركا ، بلباو ، 1868 .

- پيدو دي سانت أولون . الحالة الراهنة لمملكة المغرب ، باريس ، 1694 .
تقرير إحصائي وتجاري مؤرخ في 17 أبريل 1898 ، في وثائق البعثة العلمية للمغرب .

- ش. روني - لوكلير . المغرب الشمالي . ذكريات وانطباعات (صيف 1904) ، مدينة الجزائر ، 1905 .

- راي . ذكريات سفر إلى المغرب ، 1844 ، باريس ، 1845 .

- إ. ريشي . رحلة إلى المغرب ، باريس ، 1912 .

- جيرار روهلفس . رحلة إلى المغرب (1861) في المجلة الإفريقية ، العدد 7 ، ص 205- 226 .

- ج. رولو - دوكَاج . رسائل المغرب ، باريس ، 1915 .

- ج. سان طاياندييي . أصول المغرب الفرنسي . رواية بعثة (1901-1906) ، باريس ، 1930 .

- طروطير . **بعثة إلى بلاط المغرب عام 1880 برئاسة م . دجوهن دروموندهاي** ، إديمبورغ ، 1881 .

- كَابريال ڤيير . **في المغرب . في مودة السلطان** ، باريس ، 1905 .

- دجوهن ويندوس . **رحلة إلى مكناس ، دار مقام الملك الحالي لفاس ومراكش بمناسبة فداء الأسرى الانجليز من طرف بعثة الضابط ستيوارت عام 1721** لندن ، 1725 .

III مؤلفات عامة ودراسات إجمالية

- المشرف . **إصلاح التعليم بالجامع الكبير (الزيتونة) لتونس العاصمة** ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1930 ، العدد 4 ، ص . 441 -515 .

- **دليل العالم الإسلامي** ، نشرة لويس ماسينيون ، الطبعة الثالثة ، باريس 1929 .

- ج . بيرك : **دراسة حول المنهاج القضائي المغربي** ، الرباط ، 1944 .

- س . بيارني . **مذكرات عن إيتنوغرافية ولغوية شمال ـ إفريقية** . نشرها ل . برونو وإ . لاووست . منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، الجزء 3 ، باريس ، 1924 .

- فرانسوا بونجان . **أسرار إحدى بنات الليل** ، باريس ، 1939 .

- فرانسوا بونجان . **الروح المغربية** ، الرباط ـ باريس ، 1948 .

- جوزيف بوريللي . **عناصر الإيتنوغرافيا المغربية** ، نشرها إ . لاووست ، باريس ، 1932 .

- مارسيل بوسير . **مشكل النقل بالمغرب** . مجموعة مراكز الدراسات القضائية للمغرب ، الجزء 10 ، باريس 1934 .

ـ روني برونيل . بحث حول الطائفة الدينية لعيساوة بالمغرب ، باريس 1926 .

ـ جيروم كاركوبينو . المغرب القديم ، باريس ، 1939 .

ـ أليكسي شوطان ، لوحة الموسيقى المغربية ، باريس ، 1939 .

ـ مارسيل كليرجي . القاهرة ، دراسة للجغرافيا الحضرية والتاريخ الاقتصادي ، مجلدان ، القاهرة ، 1934 .

ـ إيميل ديرمنگام ، الخمرية ، قصيدة صوفية لابن الفارض ، باريس ، 1931 .

ـ دومازيير . أندري دو سبوطيل .

ـ ج . ديروش . المغرب ، ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله ، باريس ، 1913 .

ـ دوتي . مذكرات حول الإسلام المغربي ، باريس ، 1900 .

ـ دوزي . ملحق بالمعاجم العربية ، لايد ـ باريس ، الطبعة الثانية 1929 .

ـ محمد الفاسي وديرمنگام .قصص فاسية ، باريس ، 1926 .

ـ محمد الفاسي وديرمنگام . قصص فاسية جديدة ، باريس ، 1928 .

ـ هانري گايار . مدينة إسلامية : فاس ، باريس ، 1905 .

ـ يوحنا گاللوتي . الحديقة والدار العربية بالمغرب ، مجلدان ، باريس ، 1926 .

ـ إ . ف . گوتيي . ماضي شمال إفريقيا ، القرون الغامضة ، باريس ، 1937(عن مملكة فاس ، ص 299 -316).

ـ ليون كودار . وصف المغرب وتاريخه ، باريس ، 1860 .

ـ د. لوسيان گرو . المغرب الاقتصادي ، باريس ، 1928 .

ـ ف. گاي . مدينة فاس وعلاقاتها بالعالم الإسلامي ، في المجلة الجزائرية والتونسية للتشريع والقضاء ، الجزء 47 ، ص 239 -252 .

ـ وهاريس . **تافيلالت** ، لندن، 1895 .

ـ هوبير ـ جاك . **أيام فاس الدامية** ، باريس ، 1913 .

ـ هـ . كوهلير . **الكنيسة المسيحية بالمغرب والبعثة الفرانسيسكانية** (1221 - 1790) ، باريس ، 1934 .

ـ إ . لاووست . **كلمات وأشياء بربرية** ، باريس ، 1920 .

ـ پ . لاڤودان . **ما هو تنظيم المدن ؟** باريس ، 1926 .

ـ پ لاڤودان . **جغرافية المدن** ، باريس ، 1936 .

ـ ش لوكور . **العادة والأداة ، بحث حول المنطقية الاجتماعية وتعدد الحضارات** ،باريس ، 1939 .

ـ موريس لوگلي . **موت الروگي** ، الطبعة العاشرة ، باريس ، 1926 .

ـ إ . ليڤي ـ بروڤنصال . **تاريخ إسبانيا الإسلامية** ، الجزء 1 ، القاهرة ، 1944 .

ـ إ . ليڤي ـ بروڤنصال . إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ، باريس ، 1932 .

ـ إ . ليڤي . بروڤنصال . **مؤرخو الشرفاء** ، دراسة حول الأدب التاريخي والبيليوغرافي بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، باريس ، 1922 .

ـ ج . لوكا . **فاس في المغرب الحديث** ، مجموعة مراكز الدراسات القضائية بالمغرب ، الجزء 15 ، باريس ، 1937 .

ـ دونالد ماكيتري . **الخلافة في الغرب** ، لندن ، 1911 .

ـ ديديـي مادراس وإيلي مالكا . **فاس ، عاصمة فنية إسلامية** ، الدار البيضاء ، 1947 .

- إيلي مالكا . دراسة حول الإيتنوغرافيا التقليدية لأحياء الملاح ، الرباط ، 1946 .

ج. مارسي . كتاب الفن الإسلامي ، الهندسة المعمارية ، مجلدان ، باريس ، 1926 -1927 .

- ج . مارسي . ملاحظات حول الجمال الفني الإسلامي ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، العدد 4 (1938) ، ص 55-71 .

- ج. مارسي . بلاد البربر الإسلامية والشرق في القرون الوسطى ، باريس ، 1946 .

- ج. مارسي . الإسلام والحياة الحضرية ، في تقرير أكاديمية النقوش والآداب ، 1928 ، ص 96 وما بعدها .

- و . مارسي . نصوص عربية لطنجة ، باريس ، 1911 .

- و . مارسي . كيف عُرِّبت إفريقيا الشمالية ؟ في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، العدد 4 (1938) .

- ل . مارتين . نظام الوقاية بالمغرب ، في مجلة الوثائق المغربية ، العدد 15 (1909) ، ص 1 -32 .

- پ . مارتي . مغرب الغد ، باريس ، 1925 .

- ل. ماسينيون . المغرب في السنوات الأولى من القرن السادس عشر . مشهد جغرافي حسب ليون الافريقي . مذكرات الجمعية التاريخية الجزائرية ، الجزء 1 ، مدينة الجزائر ، 1906 (عن فاس ، ص 219-236) .

- ل . ماسينيون . 1 . تحقيق حول الطوائف (الحناطي) الإسلامية للصناع والتجار بالمغرب ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 58 (1924) .

2 . تتمة للتحقيق بتاريخ 1923 -1924 حول الطوائف الإسلامية ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، العدد 2 (1928) ، ص 273 -293 .

- بودجيت ميكين . **بلاد المغاربة** ، لندن ، 1901 .

- بودجيت ميكين . **المغاربة** ، لندن ، 1902 .

- لويس ميليو . **تمزّق الأحباس** ، باريس ، 1918 .

- هانري دو مونطيتي . **الزواج الإسلامي بتونس** ، تونس العاصمة ، 1941 .

- ف . ناطاف . **القرض والبنك بالمغرب** ، باريس ، 1929 .

- شارل پانز . **الأسرى الفرنسيون بالمغرب في القرن السابع عشر (1577 - 1699)** ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، المجلد 41 ، الرباط ، 1944 .

- ك . م . دوپيرينيي . **في المغرب ، فاس عاصمة الشمال** ، باريس ، 1917 .

- **دفتر المطالب المغربية** ، أنجزته وقدمته إلى جلالة سلطان المغرب وإلى حكومة الجمهورية الفرنسية والإقامة العامة ، لجنة العمل الوطني ، الطبعة الفرنسية ، 1934 .

- ك . روبيرت پلايفير والدكتور روبيرت براون . **بيبليوغرافية المغرب منذ عهد مبكر إلى آخر سنة 1891** ، لندن ، 1892 .

- پ . ريكار . **المغرب** ، مجموعة « الأدلة الزرقاء » باريس ، 1936 .

- پ . ل . ريڤيير ، **معاهدات المغرب ، ونظمه وقوانينه** ، الجزء 1 ، باريس 1924 .

- ج . صوڤاجي . **حلب ، دراسة حول تنمية مدينة سورية كبرى من البداية إلى منتصف القرن التاسع عشر** ، باريس 1941 .

- ب . سِدْبون بَيْدا . **مسألة العملة بالمغرب** ، باريس ، 1921 .

ـ ن . شلوش . دراسة حول تاريخ اليهود بالمغرب ، القسم الثاني ، في وثائق مغربية ، العدد 6 (1906) ، ص 1 -167 .

ـ ج . سپيلّمان . دراسة غير منشورة حول طوائف المغرب وزواياه ، في وثائق مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية .

ـ ج دو طايـي . المغرب الرآئع ، باريس 1905 .

ـ هـ. طيراس . الفن الإسباني ـ المغربي من البداية إلى القرن الثالث عشر ، باريس ، 1932 .

ـ هـ . طيراس . المدن الأمبريالية بالمغرب ، كُرونوبل ، 1937 .

ـ ج . و ج . طارو . فاس أوبرجوازيو الإسلام ، باريس ، 1930 .

ـ ج . ڤاتيـي . أرواح مغربية ، باريس ، 1931 .

ـ پ . ڤيرنيـي . الفرّان ، مدينة الجزائر ، بدون تاريخ (1944) .

ـ إدوارد ڤيستير مارك . حفلات الزواج بالمغرب ، ترجمة ج . أران ، باريس ، 1921 .

ـ إدوارد ڤيستير مارك . بقايا وثنية في الحضارة المحمدية ، باريس ، 1935 .

ـ ج . ڤوليرسي ، أنطاكية ، دراسة في الجغـرافيا الحضرية ، في نشرة الدراسات الشرقية ، الجزء 4 (1934) ، ص . 27 -80.

IV دراسات خاصة ومقالات

ـ مؤلف مجهول . إعادة تنظيم الأحباس بالمغرب ، الرباط ، 1916 .

ـ إ . س . علوش . تصميم لقنوات فاس أيام مولاي إسماعيل حسب نص غير منشور ، مع دراسة مختصرة حول طائفة (حنطة) القـوادسية ، في هيسبيريس ، العدد 18 (1934)ص . 49 -63 .

- عبد الرزاق عمّور . زرزاية ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- د . دالتقروفيل . المغاربة في إفريقيا الشرقية الفرنسية ، في معلومات مشتركة ، مارس 1905 ، ص 155 -156 .

- وثائق غير منشورة الجمعية أصدقاء فاس ، مجموع محاضرات مرقّنة (1933 - 1942) .

- أ . بيل . صناعات الخزف بفاس ، باريس ، 1918 .

- أ . بيل . صنع زيت الزيتون بفاس وناحيتها ، في نشرة جمعية الجغرافيين بالجزائر ، العدد 22 (1917) ، ص 121 -137 .

- أ . بيل . فهرس الكتب العربية لخزانة جامع القرويين بفاس ، فاس ، 1918 .

- أ . بيل . كتابات عربية بفاس ، باريس ، 1919 .

- أ . بيل . سيدي أبو مدين وشيخه الدقاق بفاس ، في متنوعات روني باسي ، الجزء 1 ، ص 31 -68 .

- ق . ابن عبد الجليل . تجارة المنسوجات بفاس قبل الحماية ، مذكرة لتدريب بيداغوجي غير مطبوعة .

- ق . ابن عبد الجليل . حفلات الزواج بفاس ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- محمد ابن شَنَب وإ . ليفي - بروفنصال . محاولة وضع فهرس زمني لمنشورات فاس ، في المجلة الإفريقية العدد 62 (1921) ، ص 158 -173 و 275 -290 ؛ والعدد 53 (1922) ، ص 170 -185 ، و 333 -347 .

- أحمد بناني . كناري عزور ، في نشرة التعليم العمومي بالمغرب ، عدد 180 (1944) .

- ج. بيرك . نوازل المزارعة في معيار الوزاني (دراسة وترجمة) الرباط ، 1940 .

- ج . بيرك . ستتان من العمل الحرفي بفاس ، في مسائل شمال إفريقية ، 1939 ، العدد 15 . مطبوع على حدة ، باريس ، 1940 ، 28 صفحة .

- ر . بلاشير . فاس عند الجغرافيين العرب في القرون الوسطى ، في هيسبيريس ، العدد 18 (1934) ، ص 41 -48 .

- ج . هـ . بوسكي وج . بيرك . البيع بالمزاد العلني بفاس ، في مجلة الاقتصاد السياسي ، ماي 1940 ، ص 320 -345 .

- م . بويون . حول « الرقّاصة » المبعوثين من القنصل دو مارسيللي إلى طائرات الخطوط الجوية الفرنسية ، في جريدة تقدّم فاس ، 19 يناير 1941 .

- هـ . بريسوليت . تحقيق حول التعمير الأهلي ومستوى المعيشة بفاس الجديد ، مذكرة غير منشورة قدمت للقبول في تدريب شهادة الدراسات العليا للإدارة الإسلامية .

- لويس برونو . نصوص عربية من الرباط ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، الجزء 20 ، باريس ، 1931 .

- لويس برونو . مذكرات حول العربية العامية ليهود فاس ، في هيسبيريس ، العدد 22 (1936) ، ص 1 -32 .

- برونو ومالكا . نصوص يهودية - عربية فاس ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، الجزء 33 ، الرباط ، 1939 .

- برونو ومالكا - معجم يهودي - عربي لفاس . منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، الجزء 38 ، الرباط ، 1940 .

- ش . برونو - داڤيد . **مطرّزات الرباط** ، مجموعة هيسبيريس ، المجلد 9 ، الرباط ، 1943 .

- م . ت . بوري . **لالة جامع الزهر** ، في كتاب مذكرات هانري بامي ، الجزء 1 ، ص . 117 -127 .

- ج . كايـي . **نفقات بعثة فرنسية في البلاط الشريف عام 1825** ، في هيسبيريس ، العدد 30 (1943) ص 163 -181 .

- ج . كايـي . **التجارة الأنجليزية مع المغرب خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر** . جلب وتصدير في المجلة الإفريقية ، العدد 84 (1940) .

- كاربونييـي ، وكَويو ، ولوطورنو وپاي . **دراسة غير منشورة حول دباغة الجلود بفاس** .

- كو . هنري دو كاستر . **مذكرة تاريخية حول قصر بو جلود بفاس** ، الدار البيضاء ، 1918 .

- ج . سيليريـي . **الشروط الجغرافية لتنمية فاس** ، في هيسبيريس ، العدد 19 (1934) ، ص 1 -19 .

- بيير دو سينيڤال . **أسطورة اليهودي ابن مشعل وعيد سلطان الطبة بفاس** ، في هيسبيريس ، العدد 5 (1925) ، ص 137 -218 .

- فرانسوا شارل - روكس . **سفارات فرنسية بفاس** ، في جريـدة العالـم الفرنسي ، المجلد 4(نوفمبر1946) ، ص 355 -368 .

- أ . شوطان . **ألحان شعبية جمعت بفاس** ،في هيسبيريس ، العدد 3 (1923) ص 275 -285 .

- ج . س . كولان . **أسماء صناع وتجار بمراكش** ، في هيسبيريس ، العدد 12 (1931) ص . 229 -240 .

- هـ. كوفوريـي . **تاريخ من حياة مولاي الحسن** ، في وثائق مغربية ، العدد 8 (1906) ، ص. 330 -395 .

- كوسطو . **واد فاس** ، مذكرة غير منشورة لنهاية التدريب للمراقبة المدنية بالمغرب .

- ج . دولاروزيير . **حبس الزبّالة بفاس الجديد (دراسة حول هري)** ، في أعمال المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العلمية بإفريقيا الشمالية ، العدد 2 ، ص. 619 -628 .

- ج . دولاروزيير وهـ . بريسوليط . **الناعورة الكبرى وقناة المشور القديم بفاس الجديد** ، نفس المرجع ، العدد 2 ، ص . 627 -640 .

- ديلبريل . **مذكرة حول تافيلالت** ، في نشرة الجمعية الجغرافية ، 1894 ، الشهور الثلاثة الثانية ، ص 199 -227 .

- ج . ديلفان . **فاس ، جامعتها والتعليم العالي الإسلامي** ، باريس ، 1889 .

- يوحنا دوني . **مدربون عسكريون أتراك بالمغرب في عهد مولاي حفيظ** ، في مجموع ذكريات هنري باصي ، العدد 1 ، ص 219 -227 ، باريس ، 1928 .

- إ . دوتي . **الخطبة الهزلية لعيد الطلبة بالمغرب** ، في مجموع المذكرات والنصوص المنشورة تكريماً لمؤتمر المستشرقين الرابع عشر ، ص 197 - 219 . مدينة الجزائر ، 1905 .

- هـ. دوفيريـي . **طريق السفارات من طنجة إلى فاس ومكناس عام 1885** ، في نشرة الجمعية الجغرافية ، 1886 . الشهور الثلاثة الثالثة .

- **دائرة المعارف الإسلامية** ، لايد ـ باريس ، 1908 -1937 ، 4 مجلدات وملحق ، وبالأخص مقال « الجزولي » (الجزء 1 ، ص . 1062) (لابن شنب) ؛ وفاس (الجزء 2 ، ص . 76) (ج . إيڤير) ؛ وإدريس (الجزء 2 ، ص. 478) (ر . باصي) ؛ وعياض (الجزء 2 ، ص. 602) (لابن

شَنَب) ؛ وقيصرية (الجزء 2 ، ص . 700) (م . ستريك)ض ؛ وملّاح الجزء 3 ، ص . 523) (ج - س . كولان) ؛ ومزوار (الجزء 3 ، ص . 616) (ليفي - بروفنصال) ؛ ومحتسب (الجزء 3 ، ص . 751) (ر . ليفي) ؛ وشريف (الجزء 4 ، ص . 336) (فان أراندونك) ؛ وشرفاء (الجزء 4 ، ص . 401) (ليفي بروفنصال) .

- كامي فيديل . تجارة المغرب في سنة 1900 و 1901 ، باريس 1903 .
- كامي فيديل . المصالح الفرنسية والمصالح الألمانية بالمغرب ، في معلومات مشتركة ، يوليوز 1905 ، ص. 253- 265 .
- كايار . تجارة فاس في سنة 1902 . في معلومات مشتركة ، دجنبر 1904 .
- كاللوتي . مصابيح قديمة ، وفوانيس قديمة ، في مجلة فرنسا [illegible] العدد 1) .
- هنري كودبارج . طائفتان بربريتان بفاس « زرزاية » و « الكرابة » ، في وثائق غير منشورة لمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية .
- أ . م . كواشون . امرأة البرجوازية المتوسطة الفاسية ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1920 ، العدد 1 .
- أ . م كواشون . التطريز بالصقلي (الخيط الذهبي) بفاس علاقاته مع التطريز بالحرير ، لوازمه للقيطان المزركش ، في هسبريس . العدد 26 (1939) ، ص . 49 -98 و 241- 281 .
- ب . كريمولت . جامعة فاس والمثقفون المغاربة ، في [illegible] يونيو 1920 .
- ف . كاي . زواج ابن عائلة بفاس ، في أعمال المؤتمر [illegible] الجمعيات العلمية بإفريقيا الشمالية ، العدد 2 ، ص [illegible]
- ر .كيو .الطاحونات المائية بفاس وطائفة الطحانين الذين يستعملونها . [illegible]

مقتضب غير منشور قُدّم إلى المؤتمر السابع لمعهد الدراسات العليا المغربية (1928) .

- كيو ، ولوطورنو ، وباي . طائفة الدباغين وصناعة الدباغة بفاس ، في هيسبيريس ، العدد 21 (1933) ، ص . 167 -240 (الدباغون) .

- كيو ، ولوطورنو ، وباي . صناعة الدباغة بفاس ، في النشرة الاقتصادية للمغرب ، المجلد 2 ، العدد 9 (يوليوز 1935) ، ص. 219 -226 .

- كيو ، ولوطورنو ، وباي . صناعة الفخار بفاس، في النشرة الاقتصادية للمغرب المجلد 2 ، العدد 10 (اكتوبر 1935) ، ص. 268 -272 .

- كيو ، ولوطورنو ، وباي . الخرازون بفاس ، في هيسبيريس ، العدد 23 ، (1936) ص . 9 - 54 (الخرازون) .

- كيو ، ولوطورنو ، وباي . تجارة الأحذية (البلاغي) بفاس ، في النشرة الاقتصادية للمغرب ، المجلد 3 ، العدد 11 (يناير 1936) ، ص 36 -42 .
- كيو ، ولوطورنو ، وباي . مجلدو الكتب بفاس ، في النشرة الاقتصادية للمغرب ، المجلد 3 ، العدد 12 (ابريل 1936) ، ص. 107 -114 .

- كيو ، ولوطورنو ، وباي . فخارو فاس ، (دراسة غير منشورة) .

- ر. هنري . أين كانت زاوية الدلاء ؟ في هيسبيريس ، العدد 31 (1944) ، ص . 49 -54 .

- ج. هيربير . حمادشة والدغوغيون ، في هيسبيريس ، المجلد 3 (1923) ، ص . 217 -236 .

- هيربير . الدار البيضاء ، مذكرة غير منشورة في وثائق مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية .

- ف. جابر . في المغرب الجديد : دور جامعة إسلامية ، في حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، العدد 51 (1939) ، ص . 195 -207.

- جولي ، **الصناعات بتطوان** ، في وثائق مغربية ، العدد 8 (1906)ص . 196 - 329 ، والعدد 9 (1907) ، ص . 261 - 393 ، والعدد 15 (1909) ، ص . 80 - 156 ، والعدد 18 (1912) ، ص . 187 - 256 .

- جان جوان **تقاليد العروسة الحضرية في الإسلام الشمال - الإفريقي**، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1931 (العدد 4) ، ص. 313 -339 .

- پول جوكًان . **معاصر الزيت بفاس** ، في النشرة الاقتصادية للمغرب ، المجلد 6 ، العدد 24 ، ص. 99 -104 .

- ج . كامفميير . **نص حول فاس** ، برلين ، 1909 .

- عبد الوهاب لحلو . **مذكرة حول البنك ووسائل المبادلات التجارية بفاس قبل الحماية**، في هيسبيريس ، العدد 24 (1937) ، ص. 223 -232 .

- محمد الأخضر . **مراحل الحاج من سجلماسة إلى مكة والمدينة** ، في أعمال المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العلمية لإفريقيا الشمالية ، العدد 2 ، ص . 671-688 .

- محمد الأخضر . **زرزاية أو الحمالون البربر بفاس** ، في هيسبيريس ، العدد 19 (1934) ، ص . 193 -194 .

- إ . لاووست . **أسماء واحتفالات نيران المباهج عند بربر الأطلس الكبير والأطلس الصغير** ، في هيسبيريس ، العدد 1 (1921) ، ص. 253 -316 .

- ج . لاپان - جوانڤيل . **الأنوال بفاس . معجم مصطلحات النسيج** ، في هيسبيريس ، العدد 27 (1940) ، ص. 21 -98 .

- محمد العراقي . **خزانة جامعة القرويين** ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- لاراس . **تصميم فاس** بمقياس 1/ 5.000 .

- لاراس . **سكان المغرب** ؛ في الجغرافيا ، العدد 13 ، 5 و 15 ماي 1906 .

- ر. لوطورنو . **مذكرات حول الرسائل اللاتينية لنيكولا كلينار وهو يروي مقامه بفاس (1540 - 1541)** ، في هيسبيريس ، العدد 19 (1934) ، ص . 45 - 63 .

- ر . لوطورنو . **الحركة الاقتصادية بصفرو** ، في فهيسبيريس ، العدد 25 (1938) ، ص . 269 - 286 .

- ر. لوطورنو ، ونوييل ، وفيكير ، **تقنية النسيج بفاس والوسائل الملائمة لتحسينها** ، في أعمال المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العلمية لإفريقيا الشمالية ، العدد 2 ، ص. 885 -893 .

- لوطورنو وفيكير . **صنع الصقلي (الخيط الذهبي) بملّاح فاس** ، في هيسبيريس ، العدد 24 (1937) ، ص. 67 -88 .

- لوطورنو وفيكير . **صناعة الصقلي (الخيط الذهبي) بملّاح فاس** ، في النشرة الاقتصادية للمغرب المجلد 3 ، العدد 13 ، يوليوز 1936 ، ص. 185 -190 .

- لوطورنو وفيكير **صنّاع ترصيع الحديد بفاس** ، بحث مقتضب غير منشور قُدّم الى المؤتمر الخامس لاتحاد الجمعيات العلمية لإفريقيا الشمالية (1939) .

- لوطورنو وفيكير . **حاكة فاس** ، دراسة غير منشورة .

- إ. ليفي بروفنصال . **الأطلالُ المرابطية ببلاد ورغة** ، في النشرة الإركيولوجية ، 1918 ، ص. 194 وما بعدها .

- إ. ليفي - بروفنصال . **مذكرات حول أسماء المواقع الجغرافية الإسبانية - المغربية : أسماء الأبواب ، « باب الشريعة » و « الشريعة » في مدن الغرب الإسلامي بالقرون الوسطى** ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، العدد 2 (1936) ، ص. 210 -234 .

- إ . ليفي - بروفنصال . **تأسيس فاس** ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، العدد 4 (1938) ، ص. 23 -52 .

- د. ليناريس . **رحلة إلى تافيلالت مع جلالة السلطان مولاي الحسن عام 1893** ، في نشرة المعهد الصحي بالمغرب ، 1932 ، العددان 3 و 4 .

- ميطرو دو لاموط ـ كابّرون والدكتور طرينكًا . **مراسل ثورة يومية إسرائيلي بفاس** (1908 -1910.) في نشرة الجمعية الجغرافية مدينة الجزائر ، 1936 .

- مارشان . **الوضعية التجارية بفاس في 1906** ، في معلومات مشتركة ، ديسمبر 1906 ، ص. 421 -422 .

- ل . مارتن . **وصف مدينة فاس ، حي الكذّان** ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 9 (1909) ، ص. 433 -443 . و 621 -642 .

- جيرمين مارتي . **دراسة حول المسلمين الطارئين بتونس : التونسيين ، والطرابلسيين ، والجزائريين ، والمغاربة** ، دبلوم للدراسات العليا غير مطبوع ، الجزائر ، 1947 مقطع منشور في إبلا العدد 42 (الشهور الثلاثة الثانية 1948) ، 159 -188 .

- پول مارتي . **السنة الدينية الإسلامية بتونس** ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، العدد 1 ، ص. 1 -38 .

- پول مارتي . **النظم الإسرائيلية بالمغرب** ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1930 ، العدد 3 ، ص . 297 -332 .

- السيدة ماص . **الطفولة الصغيرة بفاس والرباط** ، دبلوم للدراسات العليا غير منشور .

- بوريس ماصلو . **مساجد فاس وشمال المغرب** ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، الجزء 30 ، باريس ، 1937 .

- ماصلو وطيراس . **دار مرينية بفاس** ، في أعمال المؤتمر الثاني لاتحاد الجمعيات العلمية لإفريقيا الشمالية ، العدد 2 ، ص. 503 -510 .

- ل. ميرسيي . لمحة اقتصادية عن تافيلالت ، في معلومات مشتركة ، يونيو 1905 ، ص. 210 -221 .

- ل. ميرسيي . الإدارة المغربية بالرباط ، في وثائق مغربية ، العدد 7 (1906)

- ل . ميرسيي . المساجد والحياة الدينية بالرباط ، نفس المرجع ، العدد 8 (1906) .

- ميشو بلّير . مذكرة حول التعليم بالمغرب ، في وثائق غير منشورة للفرع الاجتماعي بالمغرب .

- ميشو - بلّير . لمحة غير منشورة عن فاس ، في وثائق غير منشورة للبعثة العلمية بالمغرب .

- ميشو - بلّير . الضرائب المغربية ، في وثائق مغربية ، العـدد 1 (1904) ، ص. 96- 56 .

- ميشو - بلّير . وصف مدينة فاس ، في وثائق مغربية ، العدد 11 (1907) ، ص. 252 -330 (وصف فاس) .

- ميشو - بلّير . نظام المالية بالمغرب ، في وثائق مغربية ، العدد 11(1907) ، ص. 251- 171 .

- ميشو - بلّير . دار وزّان ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 5 (1908) ، ص. 89- 23 .

- ميشو - بلّير . محاولة إدريسية لاسترجاع الحكم بفاس ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 5 ، ص. 393- 423 .

- ميشو - بلّير . في قصر السلطان المغربي ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 5 ، ص. 647- 662 .

- ميشو- بلّير . **جهاز للحكومة المغربية** ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 5 ، ص. 242 -256 .

- مشيو- بلّير . **الرقّ بالمغرب** ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 11 (1910) ، ص. 422 -427 .

- ميشو- بلّير . **الغرب** ، في وثائق مغربية ، العدد 20 (1913) .

- ميشو- بلّير . **دراسة حول تاريخ الطرق الصوفية بالمغرب** ، في هيسبيريس ، العدد 1 (1921) ، ص. 141 -159 .

- ميشو- بلّير . **فاس والقبائل البربرية عام 1910** ، في نشرة التعليم العمومي بالمغرب ، العدد 37 (يناير 1922) .

- ميشو- بلّير . **محاضرات** ، في وثائق مغربية ، العدد 27 (1927) .

- ميشو- بلّير . **توات وشرفاء وزّان** ، في مجموعة ذكريات هنري باصي ، العدد 2 ، ص. 139 -151 .

- ر. مونطاني . **تطور سلطة قواد تاكُونطافت** ، في مجموعة ذكريات هنري باصي ، الجزء 2 ، ص. 169 -184 .

- إ. مونطي . **دراسات شرقية ودينية** ، جـنيف- باريس ، 1917 . (عن فاس ، ص. 269 -276) .

- كُي موريزي . **المدينة (فاس البالي) موقع أهمّ الفنادق** ، تصميم بمقياس 2.000/1 .

- المُتبصِّر . **ماء العينين** ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 1 (1907) .

- الآنسة موزو . **مذكرة حول جهاز المولودين الجدد المغاربة** ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- ب. أودينو . الطريق الكبرى المباشرة من فاس إلى مراكش في القرن السادس عشر ، في نشرة الجمعية الجغرافية للمغرب ، 1921 ، الجزء 2 ، الكرّاستان 7 و 8 .

- أورتلييب (الضابط) . تصميم فاس بمقياس 5.000 ، خُطط من أكتوبر 1912 إلى أبريل 1913 .

- بول ماكينيون . المولد بالمغرب ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 14 (1911) ، ص. 525 -536 .

- بول ماكينيون . بعض الوثائق عن وضعية اليهود بالمغرب ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 9 (1909) ، ص. 112 -123 .

- إ. بوتي ، تصميم جامعة القرويين بفاس ، في هيسبيريس ، العدد 3 ، (1923) ، ص. 515 -523 .

- إ . بوتي ، حمّامات القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسي بمصر ، 1933 .

- هـ. پيريتيي . مدارس فاس (حسب مذكرات ج. سالمون) ، في وثائق مغربية ، العدد 18 (1912) ، ص. 257 -372 .

- ريشّير . دراسة وافية عن صفرو (1916) ، في وثائق غير منشورة لمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية .

- د. رونو . طاعون 1799 حسب وثائق غير منشورة ، في هيسبيريس ، العدد 1 ، (1921) .

- د. رونو . طاعون 1818 بالمغرب ، في هيسبيريس ، العدد 3 (1923)، ص 21 وما بعدها .

- د. رونو . بحوث تاريخية حول أوبئة المغرب . طواعين منتصف القرن الثامن عشر ، في هيسبيريس ، العدد 24 ، (1939) ص. 293 -319 .

- ش . روني ـ لوكلير . **التجارة والصناعة بفاس** ، في معلومات مشتركة ، يوليوز ـ غشت ـ سبتمبر 1905، ص. 229 -253 . و 295 -321. و 337 -350 .

- ش. روني ـ لوكلير . **الفنادق** ، في مجلة فرنسا ـ المغرب ، 1917 .

- پ . ريكار. **دار عديّل** ، في مجلة فرنسا ـ المغرب ، 15 سبتمبر 1919 .

- پ . ريكار . **الحرف اليدوية بفاس** ، في هيسبيريس ، العدد الرابع (1924) ، ص. 205 -224 .

- پ . ريكار . **المولد بفاس ؛ عيساوية** ، في مجلة فرسنا ـ المغرب ، 14 مارس 1917 .

- پ . ريكار . **سوق المركَّطان وتطريزات فاس** ، في مجلة فرنسا ـ المغرب ، العدد 1 ، 1917 .

- پ . ريكار . **نهضة التجليد الفني بفاس** ، في نشرة التعليم العمومي للمغرب ، 1922 .

- پ . ريكار. **الصانع بفاس** ، في مجلة فرنسا ـ المغرب ، 15 سبتمبر 1918 .

- پ . ريكار . **رحلتا الأب فيرناندو كونطريراس إلى فاس** ، في هيسبيريس ، العدد 19 (1934) ، ص 39 -44 .

- پ . ريكار . **المغرب الشمالي للقرن الخامس عشر حسب تواريخ برتغالية** ، في هيسبيريس ، العدد 23 (1936)، ص. 89 -143 .

- پ . ريكار . **المواقع البرتغالية للمغرب وتجارة الأندلس** ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، العدد 4 (1938) ، ص . 129 -156 .

- دو لارونسيير . **البعثة الفرنسية الأولى إلى المغرب** ، في جريدة « المراسل » 25 يونيو 1901 .

- سالانيي (الضابط) محاضرة غير منشورة حول فاس ، في وثائق المصالح البلدية لفاس .

- ج. سالمون . التجارة الأهلية وسوق طنجة ، في وثائق مغربية ، العدد 1 (1904) ص 38 -55 .

- ج . سالمون . الشرفاء الأدراسة بفاس . في وثائق مغربية ، العدد 1 ص . 425-459 .

- ج. سالمون . الشرفاء الفيلاليون والجيلاليون بفاس حسب ابن الطيب القادري ، في وثائق مغربية ، الجزء 3 ، ص . 97 -118 .

- ج. سالمون . حقّ الالتجاء إلى القوانين ، في وثائق مغربية ، الجزء 3 ، ص. 144 -153 .

- ج. سالمون . تقديس مولاي إدريس وجامع الشرفاء بفاس ، في وثائق مغربية ، العدد 3 (1905) ، ص . 413 -429 .

- ج. سالمون . حول بعض أسماء النباتات بالعربية والبربرية ، في وثائق مغربية ، العدد 8 (1906) ، ص 98.1 .

- أندري إ. سايوس . فاس والفاسيون ، مقتطف من المجلة الاقتصادية الدولية (يونيو 1930) ، بروكسيل ، 1930 .

- إ. سوكري . مولاي يعقوب الشافي ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- إ. سوكري . حمّامات فاس ، في نشرة المعهد الصحي بالمغرب ، السلسلة الجديدة ، العدد 2 (1942) ، ص . 61 -77 .

- أحمد الصفريوي . ليلة القدر ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- أحمد الصفريوي . احتفالات الولادة ، بنفس المرجع .

- دو سيگونزاك . **التوغّل الاقتصادي لجنوب المغرب** ، في معلومات مشتركة ، يونيو 1905 ، ص. 205 -210 .

- پ. د. سِماك . **حولية يهودية لفاس** ، « يا هاس فاس » للربّي أبنير السرفاتي ، في هيسبيريس ، العدد 19 (1934)، ص. 79 -94. (**حولية**) .

- پ. د.سِماك. **صالح وزان ، الربّي عمران بن ديوان ، وأولياء اليهود بالمغرب** ، في نشرة التعليم العمومي للمغرب ، مارس 1937 ويونيو 1938 . (**صالح وزان**) .

- مصلحة الاشغال البلدية لفاس . **تصميم فاس** ، بمقياس 000. 1 /1 .

- فتحي التازي . **قصة الطالب سيدي العزيز** ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

- هـ . طيراس. **جامع الأندلس بفاس** ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، الجزء 38 ، باريس ، بدون تاريخ .

- هـ . طيراس . **باب مريني لفاس الجديد** ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، العدد 6 (1942 -1947) .

- د. ڤيسجربير . **مدينة فاس** ، في مجلة فرنسية للخارج والمستعمرات والاستكشاف ، الجزء 24 (1899) ، ص . 591 وما بعدها .

- د. ڤيسجربير . **وصف مدينة فاس** ، في تقرير الجمعية الجغرافية ، يونيو 1899 .

- محمد الزغاري . **الكُتّاب** (المسيد) ، في نشرة التعليم العمومي للمغرب ، العدد 159 (1938) ، ص . 198 -206 .

١

الكتاب الأول

فاس

من خلال التاريخ

الفصل الأول

1/1 مصادر تاريخ فاس

أسست مدينة فاس ـ كما سنراه فيما بعد ـ أواخر سنوات القرن الثامن من تاريخنا او أوائل القرن التاسع . إلا أن أقدم الوثائق التي نعرفها عنها لا تتعدى النصف الثاني من القرن الحادي عشر (للميلاد) . فإذا تركنا جانباً بضعة أسطر نفيسة مفيدة ولو أنها قليلة جداً للمؤرخ القرطبي أبي بكر أحمد بن محمد الرازي الذي عاش في القرن العاشر[1] ، وبضعة أسطر أخرى للجغرافي المشرقي ابن حوقل الذي عاش هو الآخر في نفس القرن[2] ، وجدنا ان أول نصّ جغرافي يزوّدنا بمعلومات مفصّلة شيئاً ما عن فاس هو **وصف إفريقيا الشمالية** للبكري الذي ترجمهدو سلان[3] . وهناك وصف آخر للمدينة على عهد الموحدين من تأليف الجغرافي الإدريسي[4] ، غير انه مفرط في القصر والإجمال بالنسبة لما كان يُـنتظر منه . وأخيراً نجد في نفس الفترة بعض الإشارات المفيدة في مذكرات البيدق ، أحد الأصحاب الأولين للمهدي بن

---

(1) ذكره إ. ليڤي بروڤنصال : تأسيس فاس ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية (كلية الآداب لجامعة الجزائر) جزء 4(1938) ، ص. 23 -53 .

(2) وصف إفريقيا الشمالية ، ترجمة دو سلان ، في الجريدة الآسيوية (1842) .

(3) أبو عبيد البكري ، وصف إفريقيا الشمالية ، طبع وترجمة دو سلان ، مجلدان الجزائر ، جردان ، 1911-13 .

(4) وصف إفريقيا وإسبانيا ، طبعه وترجمه إلى الفرنسيه ر. دوزي وم. ج. دو ڠوج ، ليدن ، 1866 .

تومرت[5] . فباستثناء القطع النقدية التي استغلّها ليڤي بروڤنصال في المقال الآنف الذكر والكتابات التي اكتُشفت على منبر جامع الأندلس[6] ، لم يقع العثور بعد على أية وثيقة أصيلة تتعلق بفترة ما قبل المرينيين (آخر القرن الثالث عشر) . فنحن إذن مضطرون إلى إعادة تركيب القرون الأولى من تاريخ فاس باللجوء إلى وثائق متأخرة جداً عن الأحداث ، الشيء الذي يترتب عنه الغموض المأسوف له المحيط بنشأة المدينة وتطورها إلى أن فتحها المرينيون .

وأهمّ هذه الوثائق هي :

1) تاريخ للقرن الرابع عشر ، يُدعى إجمالاً : **روضة القرطاس** ، ولا نعرف عن مؤلفه سوى اسمه وهو ابن أبي زرع الفاسي[7]* .

2) رواية تتعلق بتأسيس فاس مع وصف لجامع القرويين غني

---

(5) طبع وترجمه إ. ليڤي بروڤنصال ، في **وثائق غير منشورة للتاريخ الموحدي** باريس ، ڭوتنير ، 1928 .

(6) هـ. طيراس ، **جامع الأندلس بفاس** ، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية ، جزء 38 ، منشورات الفن والتاريخ ، باريس ، بدون تاريخ ، ص . 35 -40 .

(7) العنوان بالضبط هو : **كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس ، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** . طبعه طورنبوك (أوبسال ، 1843) . وترجمه هو نفسه إلى اللاتينية (أوبسال ، 1846) تحت عنوان **حوليات ملوك موريطانيا** وتوجد ترجمة الى الفرنسية لا ينبغي اللجوء إليها بدون حذر ، وهي **تاريخ ملوك المغرب وحوليات مدينة فاس** ، ترجمه أ . بوميي ، باريس ، طبعة 1860 .

(*) نُشر **الأنيس المطرب بروض القرطاس** بأوروبا مراراً مع ترجمات ألمانية وإسبانية ولاتينية وفرنسية ، وطبع على الحجر بفاس مراراً أولها عام 1303هـ/1885م ، ثم بالمطبعة الوطنية بالرباط سنة 1936 ، بعناية جمعية النشر المغربية في جزءين يقف الثاني منهما عند نهاية عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ، ولم يُطبع الجزء الثالث .ثم أعادت نشره دار المنصور بالرباط ، 1973 ، في جزء..

انظر عن هذا الكتاب ومؤلفه عبد السلام ابن سودة ، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** (طبعة الدار البيضاء 1960) 1:125 -128 . وبحث محمد التطواني السلوي ، **التعريف بابن أبي زرع** ، في مجلة الثقافة المغربية، السنة 2 ، العدد 10 ، ماي ـ جوان 1943 ، ص. 234 -238 ؛ والعدد 9-10 من السنة الرابعة ، جوان ـ جويي . 1945 ، ص. 480 -483. (مترجم).

بالتفاصيل ، تحت عنوان زهرة الآس[8]* .

ويتناول كلاهما ، بتفصيلات عديدة متطابقة ، تأسيس إدريس الثاني لفاس وتطوّر هذه لمدينة إلى عهد بني مرين ، لكنهما لا يكادان يذكران إطلاقاً المصادر التي يستقيان منها معلوماتهما ، بحيث لا يمكننا إثبات قبول هذه المعلومات من غير التحفظ بالتحقيق ، لا سيما وأن **روض القرطاس** على الأقلّ كتب بصراحة لتمجيد المرينيين . وتجدر الإشارة كذلك إلى **تاريخ البربر** لابن خلدون ، لكن بالإضافة إلى أن فاساً لا تحتل فيه إلا حيزاً ضئيلاً[9] .

وتصبح الوثائق الخاصة بفاس ، أكثر غزارة وصحة ابتداء من العصر المريني . فهناك كتابات عديدة تتعلق بهذه الفترة وتقدّم عنها ببيانات من كل نوع[10] نتمنى أن تكمّلها في يوم من الأيام وثائق مصلحة الأحباس التي هي بعيدة المنال لحدّ الآن . ومن جهة أخرى ، فلدينا عدة مؤلفات باللغة العربية معاصرة تقريباً **لروض القرطاس** و **زهرة الآس** المذكورين ، وأهمّها **روضة النسرين**[11] ، و**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** للجغرافي الشرقي ابن فضل الله العمري[12] الذي يتضمّن وصفاً مفيداً لفاس ، وبالأخص فاس

---

(8) طبعه وترجمه أ. بيل (الجزائر ، كاربونيل ، 1923) . ومؤلفه شخص يُدعى أبا الحسن عليا الجزنائي ، وعنوانه بالضبط هو : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس .

(*) وقد أعيد نشر هذا الكتاب بتقديم عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية بالرباط ، 1967 ، 150 صفحة . وانظر عن الجزنائي وكتابه ، عبد السلام بنسودة ، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ، 53-52:1 . (مترجم) .

(9) عبد الرحمن بن خلدون ، **تاريخ البربر** ، المستخرج من كتاب العبر ، طبعه دو سلان ، الجزائر ، 1847 -1851 ، وترجمه أيضاً في 4 مجلدات ، الجزائر ، 1852 -1856 .

(10) نشرها وترجمها أ. بيل في كتابه : **الكتابات العربية بفاس** (المستخرج من **الجريدة الآسيوية**) باريس ، المطبعة الوطنية . 1919 .

(11) طبع النص وترجمه غ. البوهالي وج. مارسي ، منشورات كلية الآداب بالجزائر ، باريس ، لورو ، 1917 .

(12) ترجمة كودفروا ـ دو ممبين (إفريقيا ما عدا مصر) ، مكتبة الجغرافيين العرب، الجزء الثاني ، باريس ، كُوتنير، 1927

الجديد في منتصف القرن الرابع عشر .

وفي القرن السادس عشر استغنت وثائقنا عن فاس غنى واسعاً بالمؤلف العظيم يوحنا ليون الإفريقي[13]* الذي تحتلّ فيه فاس مكانة ممتازة بحيث لا توجد في غيره قبل بداية القرن العشرين لوحة بهذه الدقة والحيوية للمدينة الإدريسية . ثم تأتي رسائل الأديب الإنساني كلينار[14] التي يمكن استخراج عدة مقاطع هامة منها تتعلق بفاس ، تُتمّ وتؤيد وصف ليون الإفريقي . وتجدر الإشارة كذلك من الناحية الاقتصادية إلى رسائل القنصل البرتغالي سيبستيان دي برگاس[15] .

وأخيراً فإن آثار العهد المريني كثيرة في كل من مدينتي فاس القديمة والجديدة ، تمكّن بسهولة من استذكار للتكتل السكني بفاس في السنوات الأولى من القرن السادس عشر .

وفيما يخص العصر السعدي لدينا مؤلفان باللغة العربية تحتل فيهما مدينة فاس حيزاً هامّاً هما : **نزهة الحادي** للإفراني[16]* و **تاريخ المؤلف**

---

(13) يوحنا ليون الإفريقي، **وصف إفريقيا ، ثالث أجزاء العالم** ، طبعة شيفير ، 3 مجلدات ، باريس ، لورو ، 1896 -1898 . يوجد الفصل الخاص بفاس في الجزء الثاني ، ص 65 -186 . انظر بهذا الصدد : « ل. ماسينيون ، **المغرب في أوائل القرن السادس عشر ، لوحة جغرافية حسب ليون الإفريقي** ، الجزائر ، جردان ، 1906 . ص 219 -236 .

(*) لقد ترجمه إلى الفرنسية ترجمة ثانية منقّحة في جزءين ، الطبيب إيبولار ، ونقلناه عن هذه الترجمة إلى اللغة العربية ، في جزءين كذلك ، الطبعة الأولى بالرباط ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ،1980 -1982 . والطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ، مع فهارس عامة . (مترجم) .

(14) **مراسلة نيكولا كلينار** ، من نشر أ. رويرش ، بروكسيل ، 1940 -1941 . وبشأن الرسائل المتعلقة بفاس ، انظر ر. لوطورنو ، **مذكرات حول الرسائل اللاتينية لنيكولا كلينار التي يروي فيها مقامه في مملكة فاس** ، في **هسبيريس** ، عدد 19 ، 1934 ، ص. 45 -63 .

(15) نشرت في **المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب** ، السلسلة الأولى ، البرتغال ، الجزء الثالث ، باريس ، پول گوتنير ، 1948 .

(16) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الإفراني ، **نزهة الحادي (تاريخ الدولة السعدية بالمغرب ، 1511 .1670)** ترجمه أ. هوداس ، باريس ، لورو ، 1889 .

المجهول الذي نشره ج. س. كولان[17] . فهذان المؤلفان لا يعطيان فقط فكرة عن الظروف العصيبة التي عاشتها فاس ما بين 1550 و 1650 ، ولكنهما يأتيان أيضاً ببعض التفاصيل الثمينة حول الحياة اليومية لأهل فاس ، لا سيما الكتاب الثاني ؛ وقد أكملهما مصدران أوروبيان لا شك في فائدتهما ، أعني كتاب : **إفريقيا** لمارمول[18](*) الذي يكتفي ، في غالب النقط ، بنقل وصف ليون الإفريقي ، لكنه يضيف عدداً كثيراً من التوضيحات ، خصوصاً أسماء أماكن لا يكاد يمكن التعرف عليها رغم رسومها المفاجئة ؛ **وتاريخ الشرفاء** لدييكو دي طُرّيس ؛ الذي يمكن الاطلاع فيه على عدد من المعلومات النفيسة ، لا سيما فيما يتعلق بفاس الجديد[19](*) .

وأهمّ المصادر العربية المتعلقة بالدولة العلوية هو **تاريخ الزياني** الذي يذكر الأحداث حتى سنة 1812 . (آخر ثُلُث حكم مولاي سليمان)[20] وكتاب **الاستقصا** ، للناصري الذي ينتهي بموت مولاي الحسن[21]* .

(*) طبعت **نزهة الحادي** على الحجر بفاس بدون تاريخ ، وطبعت كذلك بمدينة أنجي بفرنسا سنة 1888 بعناية هوداس ، ثم أعيد تصويرها بالأوفسيط عن هذه الطبعة الأخيرة بالرباط ، منذ بضع سنوات . (مترجم) .

(17) **تاريخ المؤلف المجهول للدولة السعدية** ، نشر النص العربي ج. س. كولان ، سلسلة النصوص العربية لمعهد الدراسات العليا المغربية ، مجلد 2 ، الرباط، مونشو، 1934 .

(18) **في افريقيا** ، ترجمة نيكولا بيرّو دابلانكور، 3 مجلدات ، باريس ، 1667 . بيانات عن فاس في الجزء 2 ، ص. 157 -195 .

(*) ترجمناه ـ بالاشتراك مع بعض الزملاء ـ الى اللغة العربية . وقد طبع الجزء الأول منه بمطبعة المعارف بالرباط ، 1983 (مترجم) .

(19) نشر هذا الكتاب ملحقاً بالجزء الثالث من كتاب مارمول ، ورُقّمت صفحاته ترقيماً خاصاً .

(*) نحن الآن بصدد ترجمته كذلك إلى اللغة العربية (مترجم) .

(20) أبو القاسم بن أحمد الزياني ، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب** ، نشره وترجمه أ. هوداس تحت عنوان : **المغرب من 1631 إلى 1812** ، باريس ، لورو ، 1886 .

(21) أحمد بن خالد الناصري السلاوي ، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، ترجمة فومي ، مجلة الوثائق المغربية ، جزء 9 و 10 ، باريس ، لورو ، 1907 .

(*) نشر **الاستقصا** أولاً في أربعة أجزاء ، القاهرة ، 1312/1895 ؛ ثم أعيد نشره في 9 أجزاء بعناية ابني =

وانطلاقاً من القرن السابع عشر ، يتزايد عدد الرحالة الأوروبيين أكثر فأكثر ويمكن العثور في رحلاتهم على عدد كثير من التفاصيل ذات الفائدة الكبرى ، على ما فيها من علّات وأخطاء في وثائقهم لا مندوحة عنها ، مثل رحلات **مويط**[22] ، **وويندوس**[23] ، **وبريتوايت**[24] ، **وعلي باي العباسي**[25] . وتتضاعف المصادر الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بما في ذلك المستندات الرسمية ، والرحلات ، والمراسلات ، وما زال معظمها لم يطبع بعد . وأفضل المؤلفات حول فاس لهذه الحقبة هو : **مغرب اليوم** لأوجين أوبان[26] ، **وفاس إحدى مدن الإسلام** لهنري كَايار[27] . ويجب البحث عن المعلومات باللغة العربية في المستندات الرسمية والخاصة ، وكلاهما صعب المنال ، وخصوصاً الشهادات الشفوية للشيوخ الذين عرفوا تلك الحقبة .

ونجد بالتالي عدداً من التفاصيل المفيدة حول جميع الحقب المتعلقة بتاريخ فاس في كتب التراجم ، أمثال **جذوة الاقتباس** لابن القاضي (الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع عشر)[28] ، **ونشر المثاني** ، لمحمد

= المؤلف محمد الناصري وجعفر الناصري ، الدار البيضاء 1954 -1956 . وقد ترجما في المقدمة لوالدهما المؤلف ترجمة ضافية . (مترجم) .

(22) رواية أسر م . مويط في مملكتي فاس ومراكش ، باريس ، 1683 .

(23) جون ويندوس ، رحلة إلى مكناس ، حاضرة الأمبراطور الحالي لممـلكتي فاس ومراكش ، بمناسبة زيارة ستيوارت لفداء الأسرى البريطانيين سنة 1721 ، لندن ، 1725 .

(24) برايتوايت ، تاريخ ثورات مملكة المغرب منذ وفاة آخر ملوكها مولاي إسماعيل ، ترجمة فرنسية ، أمستردام ، 1731 .

(25) باديا ولبليش (هو الاسم الحقيقي للمؤلف) ، رحلات علي باي العباسي إلى إفريقيا وآسيا ، باريس ، ديدو ، 1814 ، 3 مجلدات . (وعن فاس ، المجلد 1 ، الفصل 8) .

(26) باريس ، كولان ، 1904 .

(27) باريس ، أندري ، 1905 .

(28) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس ، طبعت على الحجر بفاس سنة 1309 .

(*) طبعت الجذوة أولاً على الحجر بفاس ، عام 1309/1891 ، في جزء واحد ثم أعيد طبعها على الحروف ، مطبعة المنصور ، الرباط ، 1973 ، في جزءين . (مترجم) .

القادري (الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر)[29] ، وسلوة **الأنفاس** لمحمد بن جعفر الكتاني (الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر)[30] . تقدم هذه الكتب المؤلفة من طرف أولئك العلماء كثيراً من المعلومات المتنوعة المدعمة بمراجع عن تاريخ فاس ، لكنها غير سهلة التصفح لانعدام أي كشاف فيها ، بالإضافة إلى أن **جذوة الاقتباس** ، **وسلوة الأنفاس** ما زالتا مطبوعتين على الحجر ، الأمر الذي يجعل قراءتهما شاقّة.

يجب ألا نخفي على أنفسنا أن هذه المجموعة الوثائقية ، وإن كانت تساعد على أخذ نظرة شاملة وكافية تقريباً عن تاريخ فاس ، فإنها تترك عدداً من النقط الهامة غامضة ، لا سيما فيما يخص فترة القرون الأربعة والنصف السابقة للمرينيين ؛ وحتى فيما بعد ذلك تفوتنا عدة تفاصيل : فإننا مثلاً لا نعدو الافتراضات في سبب الخصومات وتطوراتها بين أحياء المدينة من لمطيين ، وأندلس وعدوة ، وقد أدمت فاساً خلال النصف الأول للقرن السابع عشر كله ؛

---

(29) محمد القادري ، نشر المثاني ، ترجمة كُرول وميشو بـلّير ، في مجلة **الوثائق المغربية** ، جزء 21 و 24 .

(*) طبع نشر المثاني على المطابع الحجرية بفاس ، في جزئين ، عام 1892/1310 . ونعيد (محمد حجي وأحمد التوفيق) الآن نشره محققاً موسعاً على المخطوطات المعروفة بنشر المثاني الكبير ، وقد صدر منه حتى الآن جزآن ينتهيان بنهاية القرن الحادي عشر (دار المغرب ، الرباط ، 1978 ، ومطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، (1982) ؛ وهناك جزآن آخران يتعلقان بالقرن الثاني عشر هما الآن قيد التحقيق والطبع (مترجم) .

(30) **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ، طبعت على الحجر بفاس سنة 1316هـ ؛ 3 مجلدات .

ملحوظة : نشير إلى أن قسم إحصاء الممتلكات الثقافية بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، أصدر منذ سنوات ـ بدون تاريخ ـ كتيّباً بعنوان : **فاس ، كشاف المراجع البيبليوغرافية للتراث الثقافي** ، يشتمل على 514 مرجعاً بالعربية ، و 680 مرجعاً بالفرنسية والإسبانية والانجليزية والألمانية والإيطالية وهو ـ على علّاته ـ بما في قسمه العربي من أخطاء وتكرار وإغفال وحشو ، لا يخلو من فائدة . كما نشر الصندوق الدولي لتعزيز الثقافة التابع لليونسكو أعمال المناظرة التجريبية للتنشيط الثقافي المقامة بفاس (مطبعة معهد الدراسات والأبحاث للتعريب ـ (الرباط ـ د. ت) .
7 مارس 28 أبريل 1978 . وتشتمل ، زيادة على خطب الافتتاح والاختتام ، على عشر محاضرات باللغة العربية ، وخلاصة سبع محاضرات ألقيت باللغة الفرنسية ، وكلها حول فاس . (مترجم) .

كما نجهل التاريخ الذي سيق فيه العبيد السود إلى فاس بأعداد كثيرة ، إلخ . . . .

فالشروح التالية ، التي لا تشكل سوى قسم من دراسة اجتماعية أكثر منها تاريخية ، لا تطمح إلى الاتيان بالجديد ، بل إلى ضبط ما هو معروف ، مع الإشارة إلى الحقب أو ترتيب الأحداث القليلة الوضوح ، الأمر الذي يمكّن الباحثين النشيطين من أن يجدوا فيها مادة للعمل .

الفصل الثاني

2/1

نشـــأة فـــاس

هناك مدن يضمحلّ أصلها في غياهب الحقب أو يلوح على الأقل كأنه محاط بهالة من ضباب الأسطورة . وليست تلك حالة فاس التي نملك نسخاً عديدة من عقد ولادتها ممضاة من لدن شهود مشهورين ، أمثال ابن حوقل الجغرافي الشرقي من القرن العاشر[1] ، والبكري[2] الجغرافي الأندلسي من القرن الحادي عشر ، وبخاصة ابن أبي زرع الفاسي من القرن الرابع عشر مؤلف الكتاب المعنون بروض القرطاس[3] والمخصّص لدول فاس ، من الأدراسة إلى بني مرين . ويذكر هذا الكتاب الذي نقل عنه فيما بعد عدد كثير من المؤرخين تفاصيل عديدة عن تأسيس إدريس بن إدريس للمدينة عام 192هـ/ 708م .

وقبل الرجوع إلى هذه الأحداث وفحصها على ضوء الدراسات الحديثة ، يكون من المفيد أن نذكّر بشخصية إدريس هذا ، والظروف التي حملته على تأسيس مدينة جديدة .

---

(1) نفس المرجع ، ص. 236 .

(2) نفس المرجع ، ترجمة دو سلان ، ص. 226 .

(3) إحالات هذا الكتاب مستقاة من طبعة طورنبيرك (أبسال، 1843) ومن الترجمة اللاتينية لنفس المؤلف (أبسال، 1846) . انظر أيضاً أبا الحسن عليا الجزنائي : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس .طبعه وترجمه أ. بيل .

إدريس الأول : في عام 172هـ/788م وصل إلى المغرب الأقصى - هكذا يسمي المؤلفون العرب هذه البلاد المعروفة عندنا بالمغرب - لاجئ سياسي قادم من الشرق ، هو إدريس بن عبد اللّه ، من سلالة علي صهر النبي (عليه السلام) ؛ وقد شارك إدريس ، وفاء لأهله سنة 786 في إحدى المؤامرات الفاشلة التي دبّرها العلويون ضد الخلفاء العباسيين ، فاضطر إلى الفرار ، وهو سعيد أن ينجو بنفسه مصحوباً بأحد مواليه ، وهو راشد الوفي[4] .

كانت المنطقة التي استقر بها إدريس قد دخلها الإسلام . ذلك أن القائد العربي عقبة بن نافع كان قد وصل إلى طنجة سنة 682 أو 683 ، في انطلاقة مذهلة على فرسه ، حاملاً الدين الإسلامي إلى جنوب المغرب - أي السوس الأقصى ، حسب تعبير المؤلفين العرب في العصر الوسيط - . ولم يستطع حقاً أن يجعل هذه البلاد مسلمة لشدة قصر أمد عبوره ؛ لكنه عرف كيف يخلق جوّاً مناسباً للديانة الجديدة التي استهوى إليها أفئدة الكثير من أعيان البلاد . وبعده وطّد موسى بن نصير الإسلام في المغرب ، أوائل القرن السابع ، غير أن الخوارج لم يلبثوا أن وجدوا فيه ميداناً لنشر بدعتهم ، فنشأ عن ذلك ظهور عدة دول أو إمارات مستقلة بعضها عن بعض .

كانت البلاد إذن تعيش في جوّ من الفوضى السياسية والفكرية عندما جاء إدريس ليستقر في وليلي أو وليلى - وهو ڤوليبيليس الرومانية - في وسط قبيلة أَوْرَبَة البربرية المنتمية إلى ناحية القيروان التي استقبلته استقبالاً حسناً . حقًّا أن كونه من آل بيت الرسول (عليه السلام) قد ضمن له شيئاً من الحظوة ، إلا أنه كان لا بد له ، بالإضافة إلى ذلك ، من أن تكون له شخصية قوية ليستفيد ، وهو الأجنبي ، من تلك الوضعية المرتبكة التي وجدها هناك . وكانت له فعلاً تلك الشخصية القيّمة بدون شك ولا ريب، إذا اختارته قبيلة أَوْرَبَة على الفور

---

(4) انظر عن هذا الشخص الذي يسمى عموماً بالمغرب مولاي إدريس الأكبر ، مقال ر. باسي في دائرة المعارف الإسلامية جزء 2 ، ص. 478 ، و ج. مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، ص. 116 وما بعدها .

رئيساً لها ؛ فاعتمد عليها وقام يشيّد صرح مملكة لنفسه .

إلى هنا ، فالرواية المأثورة متفقة مع النقد الحديث . وها هما الآن سيختلفان حول النقطة التي تهمنا ، أي حول تأسيس فاس . وبعد أن أذكّر بالرواية التقليدية للأحداث التي ستتابع وتفضي إلى إنشاء المدينة ، فسيبقى عليّ أن أبحث التصحيحات التي يرى النقد التاريخي الحالي من اللازم إدخالها ، لأُقدِّر بعد ذلك إلى أي مدى تبدو هذه التصحيحات مبررة .

تأسيس فاس حسب الرواية التقليدية : - لم يلبث الخليفة العباسي هرون الرشيد أن علم باستقرار إدريس بالمغرب وبالنجاح الذي أحرزه هناك ، فتوجّس منه خيفة وعزم على إهلاك هذا الخصم المتوقع . فأوفد لهذا الغرض إلى المغرب رجلاً يدعى سليمان بن جرير ، تمكّن من الحظوة بثقة إدريس وسمَّه عام 177هـ/ 793م[5] . وترك إدريس أمة بربرية اسمها كنزة حاملاً منه ، فولدت بعد موته بشهرين ابناً سمي كذلك إدريس . فنشأ الطفل في حضن مولى أبيه الوفي ، وكانت سجاياه الطبيعية متناهية حتى انه لما بلغ الحادية عشرة من عمرة (804/188) بايعه برابرة أُوْرَبة رئيساً لهم .

وقد أثار خبر تأسيس دولة إدريسية بـالمغرب بعض الآمـال عند المعارضين للدولة العباسية ، فأتى العرب بكثرة ، من الأندلس وإفريقية ، ليتكتلوا حول إدريس بن إدريس في وليلي . فلقوا منه قبولاً حسناً جداً ، لأن الأمير الشاب بقي متشبثاً كثيراً بأصله العربي ، وإن كانت أمه بربرية، ونشأته في وسط البربر ، فأحاط نفسه بأرومته من العرب بكل رغبة وربما كان ذلك بتأثير من مولاه راشد . فاختار من بينهم عمير بن مصعب الأزدي وزيراً ، وعامر ابن محمد بنْ سعيد القيسي قاضياً[6] .

ضاقت مدينة وليلي بهؤلاء المهاجرين ، وربما ازدروا هذا الحي

---

(5) روض القرطاس. ص 8-9 .

(6) نفس المرجع ، ص 13 .

البربري البعيد كل البعد عن تصوّرات العرب للعمران والتنظيم . فشرع إدريس في البحث ، ابتداء من عام 190هـ/ 805-806م ، راغباً ، يقول النص العربي[7] في « أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته » . فاختار أولاً مكاناً على الحدور (ربما الشمالية) من جبل زلاغ المشرف على فاس ؛ وكان السور قد برز من الأرض عندما هبّت عاصفة وجاء سيل ذهب بالجدران والخيام والقوم . فعدل إدريس عن مشروعه .

وفي السنة الموالية خطر بباله أن يؤسس مدينته بجانب حمّة خولان (سيدي حرازم الحالية) القريبة جداً من وادي سبو ، على بعد 15 كلم ، جنوبي شرق فاس ؛ لكنه خشي فيضانات هذا النهر العظيم الذي تغذيه ثلوج الأطلس المتوسط ، فعدل عن هذا المشروع الثاني .

وأرسل وزيره عميراً يـرتاد له البلاد ، فوصل إلى سهل سايس ، غرب الموقع الحالي لفاس ، فأعجبه مظهره الخصب وتابع سيره وهو يكتشف العيون التي ينيف عددها على ستين حسب **روض القرطاس**[8] وهي التي تكوّن واد فاس . فمشى على ضفة النهر ووصل إلى الوادي حيث ينحدر من سهل سايس إلى وادي سبو . « فنظر إلى ما بين الجبلين غيضة ملتفة الأشجار ، مطردة بالعيون والأنهار ، وفي بعض مواضع منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناتة يعرفون بزواغة وبني يرغش . فرجع عمير إلى إدريس وأعلمه بما وقع عليه من الأرض وما استحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها واعتدال الهواء . فأعجبه ما رآه من ذلك ، وسأل عن مالك الأرض فقيل له قوم من زواغة يعرفون ببني الخير . فقال إدريس رضي اللّه عنه : هذا فال حسن ! فبعث إليهم واشترى منهم مواضع المدينة بستة آلاف درهم »[9] .

فأقام معسكره في مكان يسمى كرواوة ، وما زال يحمل هذا الاسم ،

---

(7) نفس المرجع ، ص 13 .

(8) نفس المصدر . ص 15.14 .

(9) نفس المصدر ، في نفس الصفحة .

على الضفة اليمنى للنهر وأحاطه بسياجات من الخشب والقصب ، لأن الوحوش لم تكن منعدمة في هذا الوادي الكثيف ، خصوصاً منها الأسود والخنازير الوحشية . وبمجرد إقامته هناك أمر بالشروع في أشغال البناء ، وذلك في فاتح ربيع الأول عام 192 للهجرة أي 4 يناير 808 للميلاد . فشيّد سوراً مستديراً مبتدئاً من الجنوب ؛ ثم أمر ببناء مسجد قرب بئر وهو جامع الأشياخ الذي دشّنه بخطبة . وبعد سنة من ذلك ، أي في فاتح ربيع الثاني عام 22/193 يناير 209 ، تولّى بناء مدينة أخرى على الضفة اليسرى للنهر ، مع بناء سور آخر مستدير ومسجد آخر هو جامع الأشراف ، وقيصرية . وشيّد في المكان الذي كان قد نصب فيه خباءه أثناء بناء هذه المدينة الثانية قصراً اتخذه دار مقام له وأطلق عليه منذ ذلك الحين اسم دار القيطون . وقبل الشروع في هذا البناء الجديد ، كان عليه أن يطارد ويقتل أحد قطاع الطريق المدعو علّو .

تلك هي الرواية التقليدية لتأسيس مدينة فاس التي كانت مقبولة دائماً بدون مراء من لدن علماء فاس ومَنْ تبعهم من المستشرقين ، إذ لم تكن وفرة التفاصيل ودقّتها لتجعلها محلّ شك .

الاعتراضات الحديثة : ـ ومع ذلك بقيت نقطة غامضة : لماذا بنى إدريس مدينة ثانية في نفس الموقع ، بعد مرور سنة على تأسيس الأولى دون أي تبرير لهذا القرار المدهش ؟ إن النصوص العربية التي تسهب فيما عدا ذلك قد لزمت الصمت في هذه النقطة . وهذا هو السؤال الذي تساءله ليڤي بروڤنصال في مقال هام خصصه لتأسيس فاس[10] .

وفضلاً عن النصوص من مختلف العصور التي تذكر ، بغزارة متفاوتة من حيث التفاصيل ، الرواية التي لخصناها عن تأسيس فاس ، هناك نصوص أخرى تنقل الحدث بكيفية أخرى . أولها عبارة عن خبر رواه ابن الأبّار عن المؤرخ القرطبي أبي بكر بن محمد الرازي ، من القرن العاشر جاء فيه :

(10) تأسيس فاس ،في حوليات معهد الدراسات الشرقية (كلية الآداب بجامعة الجزائر) ، جزء 4 ،(1938) ص. 23 -53 .

« يؤكد أبو بكر الرازي أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب في رمضان سنة 172 (فبراير 789) ، هارباً بنفسه من أبي جعفر المنصور. فنزل موضعاً يقال له وليلي بوادي الزيتون . فاجتمعت إليه قبائل من البربر ، فقدّموه على أنفسهم ، وبنى مدينة فاس ، وكانت أجمة شعراء . ولما احتفرت أساساتها أُلْقِيَ(*) في بعضها فاس فسميت بمدينة فاس ، وسكنها البربر . فلم تطل أيامه حتى هلك سنة 174 ، وترك جارية حاملاً منه فولدت بعده ابناً سمي بإدريس بن إدريس ، ملك بعد أبيه مدينة فاس ، وطالت مدته ، وتوفي في شهر ربيع الأول عام 213 (ماي يونيه 828) ، وكان مولده في شهر ربيع الآخر سنة 175 (غشت 791) » . كذا قال الرازي[11]* .

وثانيها نصّ لابن سعيد (من القرن الثالث عشر) يؤيد النص السابق ، وقد نقله مؤلفان متأخران ، وهو : « قال ابن سعيد في **المُغرب** : وهي ـ فاس ـ مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعدوة الأندلس ، والأخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين »[12]* .

وهناك نصان آخران يزيدان أيضاً في هذه التوضيحات : الأول من تأليف المؤرخ الأندلسي أبي الحسن النوفلي ، ذكره الجغرافي البكري . يقول إنه في عام 808/192 « جاء إدريس الثاني ليقيم بمدينة فاس في عدوة الأندلس

(*) كذا عند ليفي ـ بروفنصال وعبد الله الطباع ، وهو تحريف ظاهر لكلمة أُلْفِيَ ـ بالفاء مبنياً للمجهول ـ ويؤيد ذلك ما ورد عند المتأخرين الذين نقلوا معنى نص الرازي . (مترجم) .

(11) النص الذي ذكره ليفي ـ بروفنصال ، نفس المقال ، ص . 34 .

(*) **الحلة السيراء** ، تحقيق عبد الله الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، 1962 ، ص. 396 . (مترجم) .

ملحوظة : وقع خطأ في نسخة الطباع في التاريخين الهجريين إذ كتب بالتتابع 513 و 875 بدلاً مما أثبتناه عن ليفي ـ بروفنصال : 213 و 175 .

(12) **نفس المصدر** ، ص . 35 .

(*) القلقشندي **صبح الأعشى** ، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1915 ، 5 :153 -154 . (مترجم) .

(إذن كانت فاس موجودة آنذاك) ، فأقام بها شهراً ، وكانت عدوة القيروانيين لهذا العهد أرضاً مليئة بالأشجار تحيط بها خيام قبيلة زواغة . فاستدعوا إدريس ، فدخل إلى أرضهم وأسس مدينة القرويين عام 193 »[13] . وهو دليل آخر على أن مدينة فاس كانت موجودة قبل عام 192 .

والنص الأخير الذي ذكره ليفي - پروڤنصال مأخوذ من ديوان تاريخي مجهول المؤلف جمع في القرن الرابع عشر بغرناطة[*] ، وجاء فيه أن بعض النازحين الأندلسيين جاؤوا ليقيموا بفاس عام 817/202 -818 في العدوة التي طلق عليها اسمهم منذ ذلك العهد وحينئذ « اتخذت صورة مدينة وتمدّنت » ، كل معنى الكلمة . وقد مضت ثلاثون سنة على بناء مدينة فاس القديمة حين عاد الأندلسيون بناءها . وفعلاً « بنيت مدينة فاس عام 172 حين دخل إدريس ابن‌عبد اللّه إلى المغرب . . . فاجتمع عليه البربر وأمّروه عليهم وبنوا له مدينة فاس في موقع مستنقع ذي أشواك »[14] .

تجد هذه النصوص البالغة التأكيد تأييدها في فحص القطع النقدية المسكوكة بفاس التي تُعرف منها اثنتان ، واحدة محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، والأخرى في متحف خارخوف ، الأولى مؤرخة بعام 805/189 ، والثانية بعام 801/185 ، أي انهما معاً سابقتان للتاريخ التقليدي لتأسيس فاس . لكن القطع النقدية المضروبة باسم إدريس الثاني بعد عام 808/192 تحمل علامة « العالية » لا مدينة فاس[15] [*] .

---

(13) نفس المصدر ، ص 36 .

(*) اسم هذا الديوان : الزهرة المنثورة ، في الأخبار المأثورة . انظر مجلة الثقافة المغربية ، السنة 2 ، العدد 8-9 ، ماي 1943 ، ص. 264 . (مترجم) .

(14) نفس المصدر، ص. 37 .

(15) نفس المصدر، ص 31 -32 .

(*) لخص هذا المبحث أندري آدم الأستاذ بثانوية مولاي إدريس بفاس ، في محاضرة ترجمها عبد الحميد عمور من تلاميذ نفس الثانوية ، ونشرها في مجلة الثقافة المغربية ، العدد 7 أبريل 1943 ، ص. 216 ، والعدد 8-9 ، ماي 1943 ، ص. 264 . 266 . (مترجم) .

تلك هي الأحداث والنصوص التي اعتمدها ليفي ـ بروفنصال ليقدم تأويلاً جديداً للأحداث كما يلي :

تأسيس فاس حسب النقد الأوروبي : ـ أول مؤسس لفاس هو إدريس بن عبد اللّه ، إدريس الأول ، لا ابنه ، كما تسوقه الرواية التقليدية ، إذ لا شك أنه ضاق به المكان في وليلي التي جلب إليها نجاحه على الفور جمهوراً غفيراً من الناس كـما يعبّر عنه بصراحة روض القرطاس(16) . ومن المحتمل كذلك أن يكون قد رغب ، مثلما ما رغبت عدد من الدول العربية ، في إبراز صعوده السياسي بتأسيس مدينة جديدة ، إذ لو اكتفى بوليلي لكان ذلك منه كاعتراف بعجزه .

أسست المدينة عام 789/172 ، بناها البربر وعمّروها ، ذلك ما تتفق عليه قطعاً جميع النصوص الآنفة الذكر . ومن جهة أخرى فإن التسمية الحديثة للأماكن ما زالت محتفظة ببعض الآثار لهذا الأصل الغير العربي لفاس ، ففيها أسماء كُرواوة ، وواد مصمودة ، وأشنيخن ، وتامدارت ، وهي ألفاظ بربرية بدون جدال .

ولم يكن لإدريس الأول الوقت الكافي لتطوير هذه المدينة ، حيث كان نجاح تحركاته يلزمه بالتنقل المستمر . فمنذ السنة الأولى لحكمه ، أصبح يحارب في تامسنا حيث حاصر سلا ، ثم في تادلا ؛ وفي السنة الموالية ذهب نحو الشرق حتى وصل إلى تلمسان . لذلك يمكن أن نقبل أن فاساً الأولى التي كان من المقرر أن تكون حاضرة ، بقيت مجرد قرية بربرية بسيطة ، بسبب انعدام الوجود المنعش لصاحب البيت . ومع ذلك فإن موت إدريس لم يُؤَدِّ إلى اضمحلالها ، إذ كانت العملة تسكّ بها عام 185 .

وفي هذه الأثناء كان إدريس الأزهر ينمو بوليلي تحت رعاية مولاه

---

(16) القرطاس ، ص. 7 .

راشد . وفي عام 805/189 وفد عليه بعض العرب من الأندلس وإفريقية : وعددهم خمسمائة فانقاد إلى تأثيرهم حتى إنه بعد ثلاث سنوات ، عام 808/192 ، أمر بقتل رئيس قبيلة أَوْرَبَة أبي ليلى إسحاق[17] . فمن السهل إذن إدراك أن إدريس وأصحابه العرب لم يعودوا يشعرون بالأمن في وليلي وفكّروا في الإقامة بفاس التي كان يوجد فيها استقرار حيث يعيش بربر مخالفون لأَوْرَبَة لم يغظهم حتماً مقتل أبي ليلى إسحاق .

لكنَّ فاساً التي وجدها الوافدون الجدد لم تكن سوى أسوإ ما يكون ، قرية لا حاضرة ، فصمّموا العزم حيناً على بناء مدينة حقيقية إلى جانب المدينة السابقة ، في موقع أكثر ارتفاعاً ولكنه أغنى ماء . وكانت أعلى قليلاً من القرية البربرية الأولى ، ولأجل هذا أطلق عليها اسم العالية[18] الموجود في النقود المسكوكة هناك . ويلاحظ أنها ، منذ نشأتها ، كانت تشتمل على عنصرين حضريين لم يكونا في الأخرى ، وهما قصر أو نواة قصر أعني دار القيطون ، وسوق هو القيصرية .وهذه التفاصيل التي يقدّمها **روض القرطاس** والتي لا جدال في صحتها تبرز جيداً الفرق النوعي الذي كان منذ البداية يفصل بين الكتلتين .

فنستخلص من هذا كله أن المدينتين اللتين كوّنتا فاساً من بعد قد تكونان أُسستا بفارق فترة عشرين سنة لا سنة واحدة ، الأولى بربرية بكاملها على يد إدريس الأول بمجرد قدومه إلى المغرب ، والثانية معربة أكثر على يد إدريس الثاني الذي يُحتمل أن يكون أراد أن يَتحرر أكثر من البيئة البربرية التي عاش فيها إلى حين ذاك .

ومن الملاحظ أن هذه النظرية تستند إلى دلائل حقيقية ودقيقة جداً لا

---

(17) ابن خلدون ، تاريخ البربر ، ترجمة دو سلان ، جزء 2 ، ص. 561 ؛ والبكري ، ترجمة دو سلان ، ص . 240 .

(18) انظر معنى هذه العبارة عند ليفي بروفنصال ، نفس المصدر ، ص 33.32 .

يشوبها سوى عيب واحد ، حسب البعض ، وهو التضارب مع رواية **روض القرطاس** . ولا يتعلّق الأمر في الواقع بمناقشة رواية واحدة مقدسة معبّرة لعقيدة من العقائد، بل بالاختيار بين روايتين اثنتين تستند ثانيتهما إلى نصوص أكثر عراقة في القدم . ومن جهة أخرى فإن لهذه الرواية الثانية فضل التفسير بكيفية مقنعة لسرّ المدينتين التوأمتين الذي يتركه **روض القرطاس** كاملاً (غامضاً) . لذلك يبدو من المعقول ألّا نتردد في الانحياز إلى مستنتجات ليفي ـ بروفنصال وقبول الترتيب التاريخي الذي يقترحه .

موقع فاس : لابد أن نبحث الآن في السبب الذي دعا كلا من إدريس الأول والثاني إلى اختيار موقع فاس . إن صاحب **روض القرطاس** يفيض القول في فوائد هذا الموقع الذي جمع « بين عذوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطيب المدرة ، وحسن الثمرة ، وسعة المحرث وعظيم بركتـه ، وقرب المحطب وكثرة عوده وشجرته . . . »[19] بالإضافة إلى معدن الملح المجاور ، والحامات القريبة . وقد أشاد أحد المؤرخين المعاصرين بدوره في نص مشهور ، بمطابقة موقع فاس مع المفهوم الشرقي للمدن ، فكتب [20] : « فاس هي المدينة الشرقية التي يُحلم بها . . . ، إحدى تُحَف التكيّف مع البيئة . فوادي فاس، كما صنعته الطبيعة، لا يحتاج إلى تهيىء ولا صيانة ولا حماية . فلا يستطيع أن يحوّل ولو نقطة واحدة من مائة لا مجهود القبائل البربرية المتهافت ، ولا حتى مجهود متواصل دؤوب لمحلّة السلطان . تستقبله فاس بين أسوارها كاملاً ، غير متغيّر ، كأنه سقط من السماء . وفي دائرتها الفسيحة وسط بساتينها ، وفي حمى أسوارها المتتالية التي تقف عاجزة أمامها دائماً أية محلّة شرقية ، تستطيع فاس أن تواجه كل شيء ، وهي جاثمة بثبات على المؤن التي كدّستها التجارة في مخازنها ، واثقة بمائها ، غير مكترثة بكون بلاد العدو تبدأ على أبواب فاس ذاتها ، كما كان ذلك أمراً عادياً منذ ألف

---

(19) **القرطاس** ، ص 16 .

(20) إ. ف. ڨوتيي ، **ماضي إفريقيا الشمالية** ، ص. 311 .

سنة . . . فاس معجزة التطابق ، وربما كانت الوحيدة ، مع شروط الدولة الشرقية » .

إن هذا الإطراء لحارّ وجذّاب، إلا أنه لا يستطيع أن ينسينا أن فاساً حرمها أحياناً من نهرها الرجال الذين حاصروها، كعبد المؤمن الموحدي مثلاً عام 1145 ، أو السماء التي لم تمطر ؛ فقد عرفت فاس ، أثناء ربيع 1945 الرهيب ، أفنية خالية من خرير فوّارات الماء المفرج ، وأزقة لم يعد يُسمع فيها هدير النهر ولا أنين الأرحاء . فمثل هذا الصمت قليل ، لكنه من الممكن أن يحدث ، والماء قد يخون فاساً ، خلافاً لما يظنه كُوتيـي . بالإضافة إلى أنه ، مع ذلك كان لابدّ من أن يحمله أناس على خدمتهم ؛ فلم يكن وحده ليغذي الآلاف من الدور ، والحمّامات ، والمساجد ، والطاحونات ؛ وكان لا بد من تطويعه مع اعترافنا بأنه كان قابلاً لذلك . على أنه في منتهى الغزارة بصفة عامة ، الأمر الذي يجعلنا متأكدين من أن واد فاس والعيون المضافة إليه كان لهما الحظ الأوفر في اختيار الموقع الحضري .

وينبغي كذلك أن نأخذ بعين الاعتبار مواد البناء التي توفّرها تربة فاس بسخاء ، بما فيها الطوب ، وأحجار الجير ، والطين ، والجبس . كل ذلك موجود في حدور وادي إدريس ذاتها أو على بعد قريب منها[21] .

وأخيراً فإن فاساً واقعة في ممرّ لابد منه لمن يريد الذهاب من السهول الأطلنطيقية إلى وادي ملوية العليا ونواحي المغرب الأوسط ، إذ لا يوجد إلا مسلك واحد هو ممر تازا الذي ينساب بين كتلة جبال الريف وكتلة الأطلس المتوسط. وليس بين تازا وفاس إلا طريق سهلة واحدة هي وادي إيناون أحد روافد نهر سبو . وفيما وراء فاس إلى جهة الغرب يشكل سهل سايس منطقة أخرى للمرور الإجباري تقريباً نحو الساحل الاطلنطيقي بين الأطلس المتوسط

(21) انظر ج. سيليريي ، الشروط الجغرافية لتنمية فاس ، هيسبيريس ، 1934 ، جزء 19 ، 1 و 2 ص. 1 وما بعدها .

وجبال ما قبل الريف (زرهون ومرتفعات لمطة) . وهاتان الشقتان للممرّ الكبير بين الشرق والغرب، أي سهل سايس ووادي إينّاون، يفصلهما خندق سبو الذي لا يسهل اجتيازه أكثر إلا على مستوى فاس ، إذ تفصله نحو الشرق عن وادي إينّاون عتبة واحدة قليلة الارتفاع ؛فيجتازونه في ثنية عنق الجمل الواقع بالضبط شرقيّ وادي فاس ، وفي امتداده . ويساعد تدفّق نهر فاس نحو الغرب على الارتفاع دون كبير عناء حتى قاعدة سهل سايس . فتقع فاس إذن في نقطة التقاء سهلة جداً إن لم تكن إجبارية ، وفي مكان من هذا الممرّ يمكن مراقبته منه بسهولة أكثر[22] .

فاس في القديم : لماذا لم تُشيد إذن أية مدينة قبل فاس الإسلامية في هذا الموقع المختار منذ الأزل ؟ لأنه أولاً قد لا يكون هناك موقع مختار ، لأن الموقع الجغرافي المقدر إيحائي لا أمري . أضف إلى ذلك أن الفتوحات العربية منحت الحياة لهذا المسلك القارّي ، ويبدو أن المغرب الروماني كان موصولاً بالمغرب الأوسط بكيفية غير مستقرة ؛ وكانت المواصلات بين طنجة والقيصرية بحرية أكثر[23] منها برّيّة ، بينما استعمل الفرسان العرب طريق البرّ منذ وثبتهم الأولى. فهل نحن موقنون أولاً أن موقع فاس لم يُستغل قبل أن يقيم فيه إدريس ؟ حقّاً إنه لم يقع به أي اكتشاف أركيولوجي لما قبل الإسلام[24] ؛ ولكنه ينبغي القول أيضاً إنه لم تُجر به أية تنقيبات ، لأنه اتضح أن التنقيبات، تكون صعبة جداً في مدينة كثيفة مثل فاس العصرية . ويستحيل القيام بأي تنقيب منظم ؛ فلا بد من اللجوء إلى الاعتماد على صدفة الأسس التي تُحفر لبناء عمارات جديدة ؛ ولحد الآن لم تسعد الصدفة علماء الآثار .

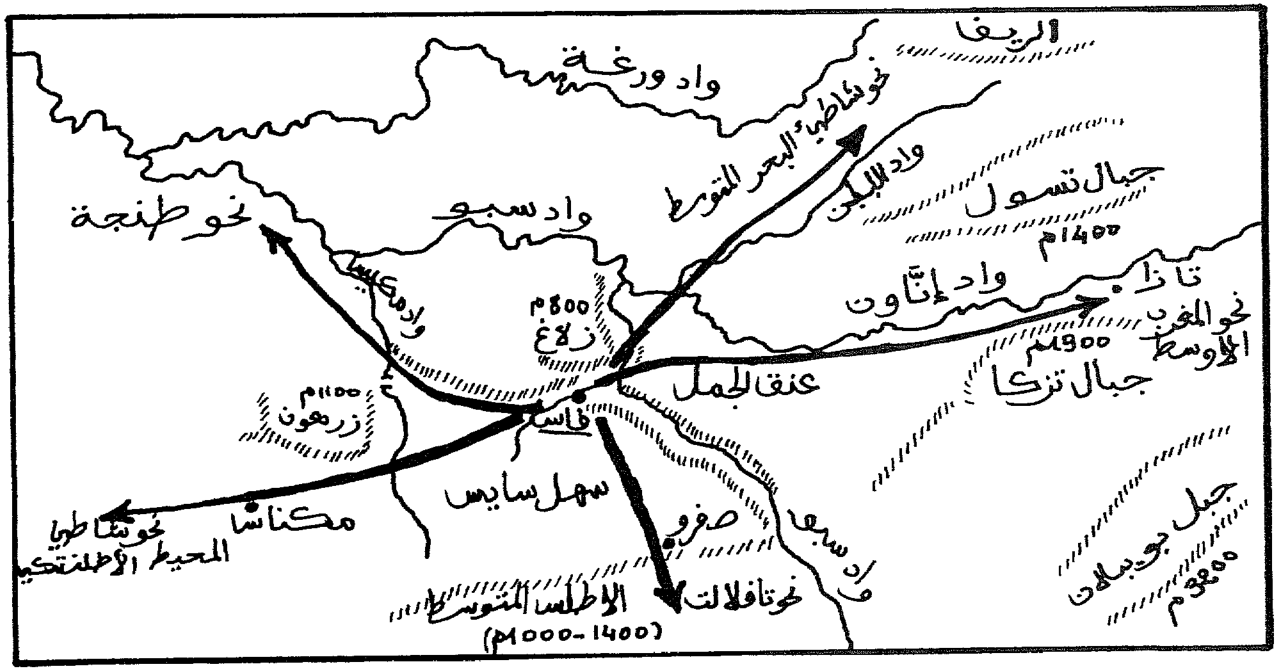
غير أنه من الممكن أن يسعدهم الحظ يوماً ما ، إذا نحن صدّقنا الرواية

---

(22) انظر الرسم رقم 1 .

(23) غير أن ج. كاركوبينو يؤكد (في المغرب القديم ، ص 236-247) أنه كانت هناك مواصلة برية بين المغرب والجزائر في عهد الاحتلال الروماني وأنها استمرت إلى ما بعد انسحاب الرومان إلى منطقة طنجة ، في نهاية القرن الثالث .

(24) عن افتراض إقامة الرومان في موقع فاس ، انظر ج. كاركوبينو ، المغرب القديم ، ص. 284 .



الرسم 1

فاس في ملتقى الطرق

(عن خارطة بمقياس 1/1.000.000 للمصلحة الجغرافية للجيش)

التقليدية التي ذكرها المؤرخون العرب . وفعلاً نقرأ في **روض القرطاس** أنه في يوم كان إدريس مشتغلاً بتخطيط المدينة الجديدة ، أتاه راهب مسيحي يربو سنه عن مائة وخمسين سنة وسأله عما يفعل . فلما أخبره إدريس بمشاريعه ابتهج الشيخ فرحاً وقال له : « أخبرني راهب كان قبلي في هذا الدير هلك منذ مائة سنة أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خربت منذ ألف سنة وسبعمائة سنة ، وأنه يجددها ويحيي آثارها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس ، يكون لها شأن عظيم ، وقدر جسيم ، لا يزال دين الإسلام قائماً بها إلى يوم القيامة »[25] .

ويروي أيضاً صاحب **روض القرطاس** أن يهودياً ، عندما كان يحفر أساس دار يبنيها لسكناه ، اكتشف دمية رخام لفتاة منقوش على صدرها بالحروف الهندية أو الحميرية : « هذا موضع حمّام عمّر ألف سنة ثم خرب ، فأقيم بموضعه بيعة للعبادة »[26] .

هذه علامات خفية وهشّة من باب الأسطورة الذهبية ، لكنها مع ذلك إشارات لرواية عتيقة جداً عفى عليها الزمان ، من شأنها أن تحمل على الافتراض بأن فاساً الإسلامية لم تكن المحتلة الأولى لهذا الموقع المناسب جداً .

المدينتات الإدريسيتان : لنحاول الآن أن نتصور ما كانت عليه هذه المدينة الناشئة . ولنقطع النظر ، إن أمكننا ذلك ، عن هذا السيل العظيم من الدور الرمادية والشهباء الذي يغطي كقشرةٍ الترابَ الأول . ولنسلك الطريق الأسطوري الذي سلكه الوزير ابن عُمير ، ولنتجاوز منطقة المستنقعات حيث يستجمع واد فاس أفكاره ، إن صح هذا التعبير ، قبل أن يتدحرج نحو مصيره . . . في الوقت الذي يتوغّل فيما سيكون فاسا ، يتجه مجراه من

---

(25) **القرطاس** : ص. 18.
(26) **القرطاس** ص. 19 .

الجنوب إلى الشمال نحو جنوب الجنوب الغربي وشمال الشمال الشرقي ، إذا أردناالدقة الكاملة، وكأنه يريد أن يسطو على جبل زلاغ الذي يشبه ،بكل جرمه المدوّر ، الرمادي أو الأشهب حسب مساقط الضوء ، حيواناً ساكناً يحمي الموقع ويشرف عليه . وإلى يمين النهر رقعة أرضية لا تكاد تكون منبسطة قليلة العرض جداً ـ 40 أو 50متراً على الأكثر ـ ثم نتوء شبه شاطىء صخري ذي انحدار وعر ؛ وبالجملة تضاريس بسيطة شيئاً ما . تلك هي التي ستكون عدوة الأندلس .

وإلى اليسار نفس الملامح إجمالاً ، لكنها أكثر تعقيداً . فالرقعة الأرضية السفلى المحاذية للنهر ذات عرض متقلب ، يقارب 100 متر جنوباً ، و200 متر شمالاً ، وبضعة أمتار فحسب في وسطه . الصخرة أكثر علواً وأشدّ وعورة في بعض الأماكن . وفي الأخير يشكّل النجد منحدراً أكثر بروزاً بنتوءات مباغتة ووواد صغير أو واديين حادثين ، هما مجريان قديمان لبعض سواعد النهر ، حسب كل وجه احتمال . كل هذا مكسوّ بخضرة كثيفة كما تصرح به جميع النصوص . وهنا وهناك ، في البقاع التي تستوي فيها الصخرة ، بضع خيام للرعاة لا تكاد تظهر في وسط الأحجار والأدغال .

يجيء إدريس الأول فيقيم في الضفة اليمنى المكسوّة أقلّ (من الأخرى) بالخضرة ؛ وترتفع بناءات على الطراز البربري : جدران من اللبِن ، وسقوف منبسطة مؤلفة من جذوع الصنوبر المغطاة بطبقة وقائية ، على غرار المساكن البربرية التي ما زال من الممكن مشاهدتها بأزرو أو عين اللوح ، ومسجد بدون صومعة لا شيء يميزه من بعيد . وفي هذه الأثناء تكونت كتلة بشرية ، وأخذ الدخان يرتفع مساء في الوقت الذي تلتحق القطعان بحظائرها .

وبعد عشرين سنة يجيء إدريس الثاني وعربه بدورهم فيجتازون النهر ويحرثون الأرض ، ويقيمون في النتوءات الأولى للحدور ، ويبنون نواة لأحد القصور ، ومسجداً صغيراً ، وسوقاً حضرية ؛ وبذلك ينشئون خلية حيّة ستأخذ فاس في التوسع حولها . وما زالت صغيرة جداً هذه المدينة المزدوجة في وسط

موقع هائل معدّ لحاضرة ؛ في كل مكان جبال مدرَّجة : في الشمال كتلة زلاغ الحارسة ، وفي الغرب المنحدرات المفضية إلى سهل سايس ، وفي الجنوب تلال تمتد ببطء على شكل الغنم إلى قمم الأطلس المتوسط المكسوّة بالثلوج ، وفي الشرق ، بعد أن تجاوز خندق سبو الذي تسطع منعرجاته تحت الشمس ، الأطلس المتوسط والريف وكأنهما يلتقيان: موقع فسيح ، مركَّب كما ينبغي وكأنه ينبىء بما سيكون لفاس من إشعاع .

كيف كانت مدينتا إدريس الأول وإدريس الثاني منسّقتين في المكان ، مدينة فاس والمدينة العالية ؟ إن المؤلفين العرب قد زودونا في الموضوع بعدة معلومات لكنها للأسف لم تكن كلها صالحة للاستعمال ، لأن الكثير من الأسماء ماتت بعد أن أبلاها تعاقب الأزمنة ، ولم تعد بالنسبة لنا سوى مجرد كلمات . إلا أنه يمكننا أن نكوّن فكرة تقريبية عن تخطيط السورين[27] . هناك شيء واحد قطعي ، هو أن مدينة إدريس الثاني العالية ، أخذت أول الأمر من الضفَّة اليمنى للنهر[28] مثبتة بذلك استعلاءها . ونجد حتى الآن في تصميم فاس أثر رأس الجسر هذا .

هذا ما يخص المكان وعمل القوم . ولننظر في الأخير من كان هؤلاء القوم وكيف عُمِّرت المدينتان في بدايتهما .

السكان الأولون : ـ الكل متفق ، سواء النقد الحديث والرواية التقليدية على القول بأن أساس سكان فاس كانوا بربراً ، وعلى الأقل فيما يخص مدينة الضفة اليمنى التي أسسها إدريس الأول . ولقد ذكرت أعلاه أن تسمية الأماكن احتفظت بذكرى هذا الاحتلال البربري الأول . فاسم جامع

---

(27) انظر أسماء الأبواب القديمة في **روض القرطاس** ، ص 20 وفي **زهرة الآس** (ص 51-52) ؛ وانظر الرسم رقم 2 والرسم رقم 3 .

(28) **روض القرطاس** ، نفس المرجع .

الأشياخ ذاته ذو دلالة ، فالأشياخ طبعاً هم أعيان البربر الذين « يجلسون في المساء بالمسجد ويتداولون » .

ومن بين هؤلاء البربر يُعَدّ أَوْرَبة ، أصحاب إدريس الأولون ، الذين أنشؤوا بدون شك أهمّ نواة انـضم إليها بعض أفراد القبائل التي اشتريت منهم الأرض ، مثل زواغة وبني يرغـشِ . ويبـدو حسب ما جـاء في **روض القـرطاس** أنهم لم يسلمـوا كلهم في عهد إدريس ؛ أما الذين أتـوا من وليلي مع الرئيس العربي فكانوا مسلمين قطعاً . لكن كان يوجد بجانبهم مجوس كان لهم معبدهم في مكان يُدعى الشيبوبة في الجزء الأوسط من عدوة الأندلس الحالية . وهناك كتاب تاريخ في أواخر القرن الخامس عشر بعنوان **ذكر مشاهير أهل فاس في القديم**[29](*) يعطي حتى اسم الأسرة التي كانت تتولى الوظائف الكهنوتية لهذه الفرقة ، وهي أسرة بني عبودة[30] .

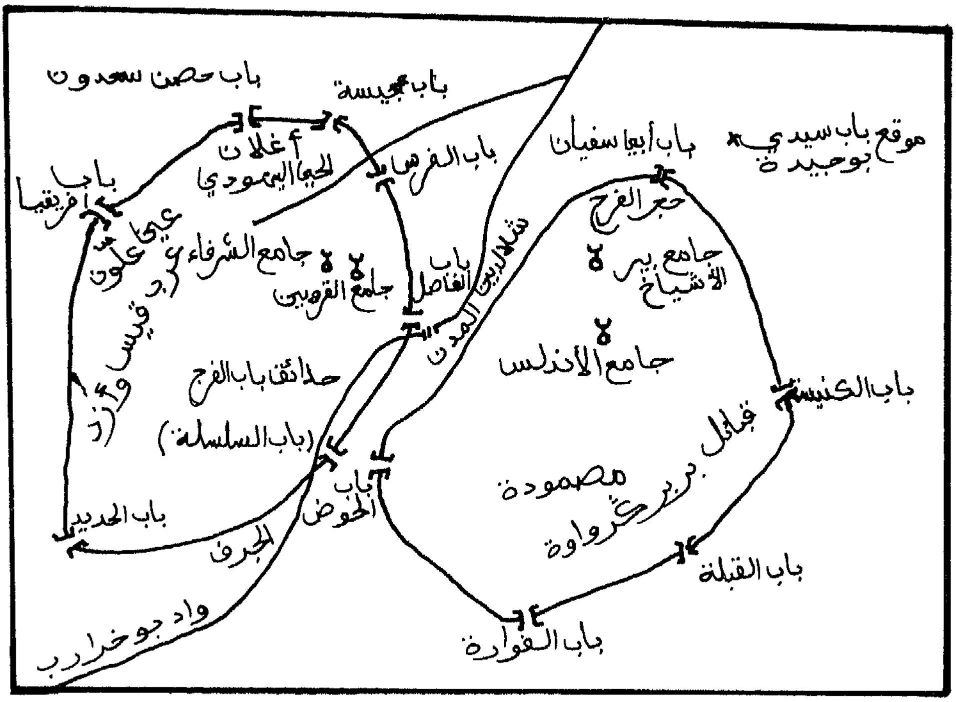
ويؤكد **روض القرطاس** كذلك وجود بعض النصارى هناك ، علاوة على أن أحد أبواب عدوة الأندلس احتفظ طويلاً باسم ذي مغزى هو باب الكنيسة .

ويمكن الافتراض ، لأن هذه ظاهرة تشاهد بصفة عامة ، أن هذه المجموعات السكنية المختلفة جنساً وديناً كانت كل واحدة منها تحتل حومة ودرباً ، وأن مدينة فاس البربرية الأولى كانت عبارة عن كتلة مؤلفة من وحدات صغيرة يقيم بعضها بجانب بعض ، لكنها لم تُسكَب بعد في بوتقة جماعة منظمة . ومن الممكن أن مدينة إدريس العالية ، اتسمت في بادىء الأمر بخاصية مغايرة ؛ وقد بينـا آنفاً ، اعتماداً على ما جاء في النصوص ، أنها كانت تشكّل مظهراً حضرياً أكثر من أختها البكر ، لا من حيث تنسيقها

---

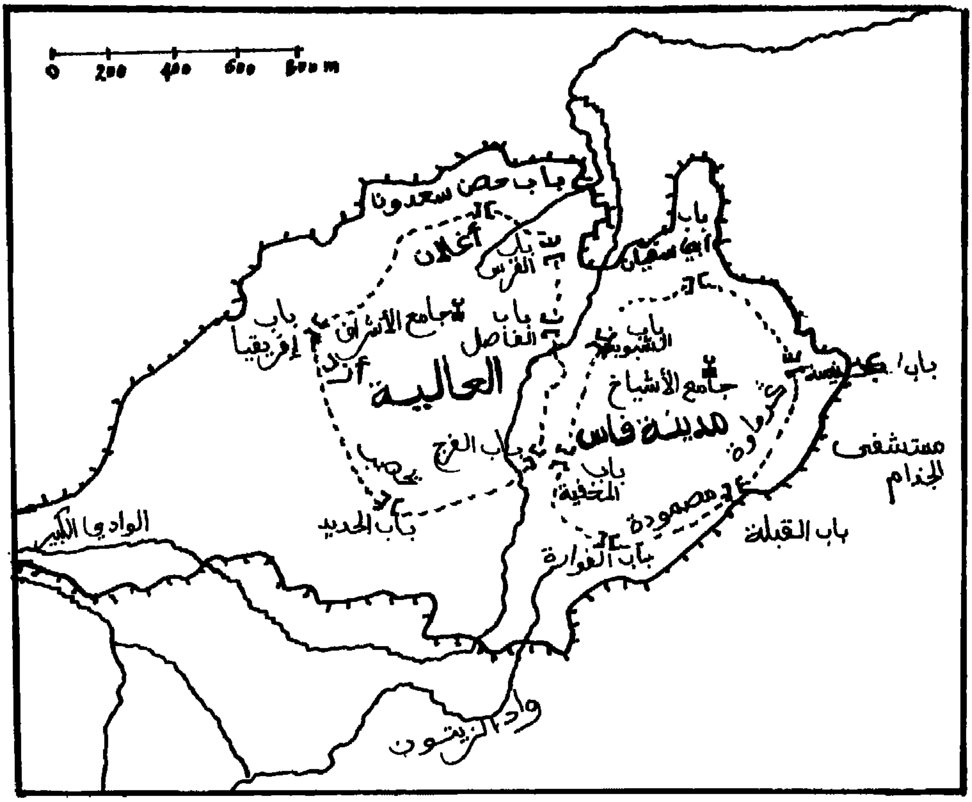
(29) (*) يعرف هذا الكتاب باسم **بيوتات فاس الكبرى**، من تأليف اسماعيل ابن الأحمر ، واختصار عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي . طبع على الحجر بفاس ، ثم أعيد طبعه بدار المنصور بالرباط سنة 1972 (مترجم) .

(30) ليفي برفنصال ، **المقال المذكور** ، ص 48 .



الرسم 2

المدينتان الأصليتان حسب هـ . ڤايار



الرسم 3

المدينتان الأصليتان حسب ليڤي - بروڤنسال.

وقد اهتم المؤلف بالإشارة إلى التخطيط الحالي للسور.

ويتضح ذلك في أن هذا الترميم يطابق تقريباً ما سبق.

فحسب ، ولكن أيضاً من حيث سكانها . فقد أسسها العرب من حاشية إدريس وسكنوها . وليس معنى هذا أنها لم تحتضن البربر قط : فالرواية المحلية تقول : إن الحمّالين البربر ، (زرزاية) ، جاؤوها منذ العصر الإدريسي . لكن سكانها في مجملهم كانوا عرباً ؛ ومع ذلك ، فإن تسمية الأماكن الراهنة تمِدُّنا مرة أخرى ببعض القرائن : وهكذا يوجد قرب وسط المدينة زقاق هو اليوم تجاري يحمل اسم رحبة القيس ؛ وقيس اسم قبيلة عربية اختار منها إدريس الثاني قاضيه الأول . ومن جهة أخرى ، فإن أول مساجد هـذه الحاضرة ، وهو جامع الأشراف ، يبين بوضوح رغبة المؤسس في التعلّق بالسنة الشرقية النبوية . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء العرب قد تجمعوا قبائل ، وحدث بالعالية تعايش شبيه بما حدث بمدينة فاس ، مع مـركز أكثر التحاماً مُؤلَّف من قصر الأمير (أو الإمام ، كما تقول النصوص عندما تتحدث عن إدريس لتبرز أكثر طبيعته الدينية) ، ومن الجامع والسوق .

ولم يكن البربر والعرب وحدهم بالعالية ، بل كان فيها بعض اليهود أيضاً ، وهم بكل احتمال بربر من زناتة اعتنقوا الديانة اليهودية في تاريخ يعسر تحديده . وكانوا كثيرين حسب النصوص العربية ، وكما تدل عليه المبالغ المالية التي كانوا يؤدونها برسم الجزية والتي كانت تبلغ 30.000 دينار[31] . وقد سمح لهم الإمام إدريس بأن يؤسسوا حارة شمال العالية ، هي مخطط حارة فندق اليهودي استقبالاً .

فلنجمل هذه العناصر المختلفة ، ونقل : هناك بربر مقيمون أساساً بمدينة فاس الواقعة على الضفة اليمنى ومنتمون إلى مختلف القبائل وشتى الديانات ؛ وعرب مؤسسو العالية وسكانها الرئيسيون ، وكلهم مسلمون بطبيعة الحال ؛ مع عدد هام من اليهود القاطنين في حارة خاصة بالعالية ، لكنها رغم ذلك غير منفصلة تماماً ـ على ما يبدو ـ عن باقي المدينة بنفس الكيفية التي

---

(31) **روض القرطاس** ، ص 24(الترجمة ص 35) .

تنفصل بها اليوم حارات اليهود بالمغرب .

وستقدم جماعات أخرى ـ في وقت مبكر جداً ـ لتلتحق بتلك الجماعات ، مضيفة فروقاً دقيقة جديدة ، وثروة بشرية عظمى . إلا أن فاساً ، منذ تأسيسها ، تظهر مع ذلك كخلاصة لما سيكون عليه عمران المغرب طوال قرون : عرب وبربر يُكوِّنون ، في العصر الذي نحن بصدده ، عنصرين متميزين سينصهران شيئاً فشيئاً في عنصر واحد ، دون أن يفقدا مع ذلك تماماً خاصياتهما ؛ وحتى الآن فليس لأحياء الضفة اليمنى لنهر فاس ـ أي المدينة البربرية الأولى ـ نفس الشكل الذي لغيرها . فهي تقدّم مظهراً شبه قروي لا يوجد في غيرها ؛ فكل صباح تغدو منها قطعان البقر لتذهب فترعى النهار كله في البادية القريبة ، ثم تروح عند غروب الشمس إلى إصطبلاتها الملاصقة للأسوار . ويعترف الكثير من سكان هذه الأحياء بأنهم فلاحون ، لا لكونهم ما زالوا يحرثون بأيديهم ، لكنهم يراقبون عن كثب أعمال خمّاسيهم ، خاضعين بذلك لتقليد قديم للقرويين، وبالتالي فإن أهل فاس كلهم يقولون إن سكان العدوة ـ كما تسمى الآن أحياء الضفة اليمنى ـ ليس لهم نفس الطباع التي لغيرهم ؛ فهم يمثلونهم وكأنهم أكثر خشونة ، وأسرع غضباً وأشدّ فظاظة من سكان الضفة اليسرى . لذلك فإنه ليس بمجرد إدراك القول بأن الازدواجية الأولية ما زالت تتراءى من خلال بعض الخصائص تحت الوحدة العميقة للمدينة ، بالرغم على الإمدادات والامتزاجات المتأخرة .

وإلى جانب هذين العنصرين الأساسيين ، هناك يهود عديدون منذ البداية ، سيحتفظون بدور هام جداً في الحاضرة .

الفصل الثالث

3/1

توحيد فاس

انطلقت المدينة التي أسسها إدريس الأب وإدريس الابن بشائبة ازدواجية ظاهرة ، ليس في الأرض فحسب ولكن أيضاً في السكان . وإن فرضنا أنه في يوم من الأيام سوف تقوم إحدى المدينتين على الأخرى ، فإنه سيقضي على هذا البناء الهشّ .

غير أن فاساً كانت منذ سنواتها الأولى ، إلى جانب هذا الشغف الجوهري ، تملك وسائل تنمية للنجاح ، فكانت أولاً تحت حكم عاهل نشيط ذكي ، هو إدريس الثاني الذي كان منذ أن شبّ عن الطوق يُذكِّر بفضائل أبيه الجليلة ؛ كما أن الرجل المكتمل لم يخيّب ظن الشاب . وبعد أن خصص ثلاث سنوات لتنظيم حاضرته الجديدة والمناطق المجاورة ، خرج عام 812/197 -813 غازياً لجنوب المغرب فاستولى على مدينتي نفيس وأغمات بسفح الأطلس الكبير ، وأخضع الجبليين الغلاظ مصمودة إلى طاعته . ثم رجع إلى فاس فاستراح بها قليلاً وذهب هذه المرة نحو الشرق ففتح مدينة تلمسان التي كان أبوه قد أخضعها[1] . وهكذا ، في ظرف بضع سنوات ، كوّن مملكة حقيقية كانت تشتمل على كل ما أسماه الماريشال ليوطي من بعد : « المغرب النافع » . وما كادت تولد فاس حتى أصبحت عاصمة لهيكل سياسي

(1) روض القرطاس ، ص 27 .

كبير ؛ وها هي الآن تستفيد من الإغراء الذي كان ينقصها أيام إدريس الأول . فلم تعد ، والحالة هذه إلا أن تكون مطمح الأنظار .

عناصر جديدة للتعمير : ـ وفعلاً ، فقد وصلتها عام 202/ 818 جماعة مهمة من المهاجرين القرطبيين . لم يكن هؤلاء القوم البؤساء قط مغامرين اجتذبتهم مدينة ناشئة نمت بسرعة ، لكنهم كانوا حقاً لاجئين سياسيين . ذلك أنه ، على إثر ثورة خطيرة نشبت في ربض قرطبة ـ أي الأحياء الواقعة على الضفة اليسرى للوادي الكبير[2] ـ قرر الأمير الحكم الأول ، بعد أن صلب ثلاثمائة من الأعيان ، اكتساح الربض وتحويله إلى أرض زراعية . ولم يكن أمام السكان الراغبين في النجاة بأنفسهم إلا أن يغادروا قرطبة بدون تأخير ، ولم يسمح سوى للفقهاء بأن يستقروا بها . فتوجه إلى المنفى عشرون ألف أسرة ، حسب قول المؤرخين . وحتى إذا اعتبرنا هذا العدد مبالغاً فيه فلا بد أن يكون عدة آلاف من الأشخاص قد بحثوا عن ملجإ لهم في مكان آخر . التحق بعضهم بطليطلة ، لكن جلهم فضلوا أن يعبروا البحر ليتقوا أكثر شرٍّ إعادة مثل هذه الوقعة . ولم يتردد بعضهم في الذهاب إلى مصر ، بينما أقام الآخرون بشمال المغرب ، ثم بفاس التي كان إدريس الثاني قد دعاهم إليها ، لِمَا رأى فيهم من دم جديد ، لقاعدته . فعرض عليهم أن يقيموا بمدينة فاس التي أنشأها إدريس الأول ، أي المدينة البربرية ، مؤملاً بذلك أن يجعل منها مدينة حقيقية . فجاء منهم 8.000 بيت ـ كما يقول **روض القرطاس** ـ[3] و « حملوا إلى الحاضرة الجديدة في نفس الوقت ـ حسب تعبير ليڤي ـ بروڤنصال ـ تجربتهم في الحياة الحضرية ، وتقنياتهم العتيقة في الفلاحة ، والبناء والصناعة التقليدية » . ومنذئذ أخذت مدينة فاس القديمة اسم مدينة الأندلسيين . ويفترض أن يكون النازحون الجدد قد غيّروا في أمد قصير شكل هذه البلدة البربرية ، لأنهم ـ كما يقول **روض القرطاس** ـ[4] سرعان ما أخذوا

---

(2) ليڤي ـ بروڤنصال ، **تاريخ إسبانيا الإسلامية** ، جزء 1 ، ص 115-121 .

(3) ص 25 .

(4) نفس المرجع .

يبنون الدور يميناً وشمالاً ، أي في البقع التي بقيت خالية من البناء طبعاً .

وبعد بضع سنوات ، جاءت عام 210/ 825-826 ، جماعة أخرى من المهاجرين السياسيين وافدة هذه المرة من القيروان ، تلتمس ملجأ بفاس . فأقام إدريس الثاني أسرهم التي كان عددها 300 أسرة بالمدينة العالية ، تلك التي أسسها هو ، فأصبحت منذ ذلك الحين غالباً ما تدعى مدينة القرويين .

وهكذا بينما المدينتان التوأمتان لا تزالان في عنفوان عهد نموّهما لم يشتدّ عودُهما بعدُ ، كان لهما حظ اقتبال جماعات غفيرة من الناس لم يكن عليهم أن يتمرَّنوا على الحياة الحضرية ، بل بالعكس من ذلك جاؤوا من مدن قائمة منذ عهد طويل ، حاملين معهم تقنيات ووسائل عيش لم يكن لبربر مدينة فاس وربما أيضاً حتى لعرب المدينة العالية إلا فكرة ناقصة عنها . وتخطّت فاس بفضلهم خطوات الطفولة وتلمساتها الأولى ، وبدأ بمجيئهم ولا ريب تاريخ موهبتها الصناعية والفنية ، وهو تاريخ عريق في القدم كما نرى .

فاس تحت حكم خلفاء إدريس الثاني : - لكن إدريس الثاني توفي عام 213 /828 ، تاركاً عدة أبناء تقاسموا الأمبراطورية الإدريسية ، بنصيحة كنزة أم إدريس الثاني التي قد تكون خضعت لعادة بربرية قديمة تقضي بالتجزئة السياسية . ولم تعد المنطقة التابعة لفاس على قدر المدينة التي أصبحت رأساً بدون جسد . ورغم ذلك فإنها ما زالت تنمو ، لأنها وإن كانت حياتها السياسية عرفت كسوفاً ، فقد كانت تقوم بدور اقتصادي وحضاري وديني لا بد لنا من أن نكوّن فكرة عنه . كانت حينئذ المدينة الكبرى الحقيقية في داخل المغرب ؛ فَلْنَتَجَنَّبْ حتى الكلام عن المنطقة التي ستُشيَّد بها مراكش بعد قرنين والتي ظلت دائماً خارجة عن مدار فاس ؛ وَلْنَعتبرْ فقط المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلنطيقي ونهر ملوية من جهة ، وبين الأطلس المتوسط والبحر المتوسط من جهة أخرى : فلا نجد بها مدينة هامة أخرى غير فاس ؛ فطنجة وسبتة منحرفتان جداً ، ولم تكن مكناس سوى قرية بربرية ضخمة ، وقد انحطت وليلي منذ أن تركها الأدارسة . فكانت فاس حتماً ملتقى التيارات

الاقتصادية لمنطقة غنيّة ، وبفضل صناعتها الناشئة كان لديها ما تعطي مقابل منتجات الأرض التي كانت تجيء إليها من كل جانب ؛ ولربما كان تيار تجاري قد أقيم بين فاس والأندلس بواسطة بعض القرطبيين المهاجرين .

كانت فاس أكثر وأفضل من مركز تجاري كبير : كانت دار حضارة ، لم تنشأ جامعتها بعد ، لكن المدينة كانت بفضل القيروانيين والقرطبيين تشكّل مركزاً للثقافة العربية والأدب والأبهة في قلب المناطق البربرية المحدقة بها .

والحاصل أن الإسلام ثبت في الشمال المغربي كله بفضل فاس ، رغم التقلبات السياسية والاتجاهات الفوضوية للقبائل . وهذا الطابع الديني الذي احتفظت به فاس طوال القرون هي مدينة به للأدارسة ، آل بيت الرسول (عليه السلام) الذي يجمع كافة المؤرخين على التنويه بتقواهم وحماسهم الإسلامي . ولا أدلَّ على ذلك من تأسيس جامع القرويين وجامع الأندلس في عهد يحيى حفيد إدريس الثاني عام 859/295[5] .

فالرواية واضحة في هذا الصدد لكنها غير يقينية تماماً ، اذ يروي بعضهم أن امرأة من القيروان اسمها فاطمة بنت محمد الفهري جاءت لتستقر بفاس . مات زوجها وأختها بالتوالي تاركين لها ثروة طائلة . لم تحاول فاطمة استثمارها ، بل أنفقتها في أعمال صالحة ؛ فقرّرت شراء أرض فيها أشجار ما زالت خالية من البناء ، وشيّدت عليها مسجداً أطلقت عليه فيما بعد اسم جامع القرويين . ويقول مؤلفون آخرون إنه كان لمحمد الفهري ابنتان ، فاطمة ومريم ، ترك لهما بعد موته ثروة عظيمة . فتنافستا في الخير ، وبنت كل واحدة منهما مسجداً ، شيّدت فاطمة جامع القرويين ، وأسست مريم جامع الأندلس ، وقد ساعدها في ذلك الأندلسيون المقيمون بهذا الحي .

ليس لنا ما يبرر ترجيح إحدى هاتين الروايتين دون الأخرى ، وأكثر ما

---

(5) انظر عن هذا التأسيس بالخصوص : روض القرطاس ، ص. 30 وما بعدها ، وزهرة الآس ، ص. 84 وما بعدها .

يمكننا قوله ان الرواية الثانية ، بما فيها من توازٍ كامل شامل بين الأختين والجامعين تبدو مفرطة التنميق لتكون صحيحة .

فلنحفظ على أي حال أن تشييد هذين المكانين المقدسين كان مبادرة خاصة ، وأصبح الإيمان قوياً بعد ذلك بفاس أن العاهل لم يعد ملزماً بالإيحاء بكل شيء . ومن جهة أخرى ، فإن هذين الجامعين ليسا فقط دليلاً على حماس ديني طيّب ، بل يدلان بوضوح على تزايد سكان فاس ، وخاصة السكان المسلمين . ومن الممكن افتراض أن مدينة فاس أصبحت كلها إسلامية في منتصف القرن التاسع أو كادت ، إذ لا شك أن المجوس اضمحلوا وأن المسيحيين إن بقيت منهم بقية لم يكونوا كثيرين . والجالية الوحيدة الغير المسلمة التي بقيت هم اليهود .

ولا ينبغي مع ذلك أن نعتقد (أو نتوهم) أن الجامعين كانا آنذاك كبيرين مثلما هما عليه الآن . **روض القرطاس**[6] يوضح أن جامع القرويين لم يكن مؤلفاً سوى من أربعة بلاطات ، وصحن صغير وصومعة غير مرتفعة . ولا تَنْسَ أن كلاً من مدينتي فاس كانت ما تزال صغيرة جداً . ويجب أيضاً التنصيص على أن المعبدين الأولين ، جامع الأشياخ وجامع الأشراف ، قد احتفظا بالصدارة إذ كانت تقام بهما صلاة الجمعة .

وهكذا فإن مدينة فاس المزدوجة المسلمة دينياً ودنيوياً سوف تستطيع أن تتحمل بدون خسارة النكبات القريبة . وفعلاً ، فقد خَلَفَ يحيى التقيَّ ابنُهُ الأمير الخليع الذي أثار ضده السكان فسُلب الحكم . لم يكن طلّاب الملك منعدمين . لكن عدم التمكن من جمع الأغلبية جعل بعضهم يعتمد على مدينة الضفة اليمنى ، والآخرين يلجؤون إلى الضفة اليسرى ، فكانت مناوشة مستمرة أدّت إلى الخراب .

وفي عام 292 /904 ، استطاع أحد حفدة إدريس الثاني ، المسمى

---

(6) ص. 30 .

يحيى ، أن يتولى الحكم بدون منافس ، وأعاد للسلطة الإدريسية بهاءها السابق . « لم يدرك أحد من الأدارسة مثل هذه السلطة » ، كما جاء في **روض القرطاس**[7] . واستأنفت فاس دورها كعاصمة ؛ إلا أن هذا البهاء لم يكن سوى وميض برق ، فبعد ثلاث عشرة سنة ، أي عام 305 /917 ، أمر صاحب إفريقية عبيد الله الفاطمي ، حلفاءه، برابرة مكناسة بالهجوم على المملكة الإدريسية .

فأصبحت فاس منذ ذاك الحين محور الصراعات القائمة بشمال المغرب بين فاطميي إفريقية وأمويي الأندلس ، والقبائل الزناتية الباحثة عن فضاء حيوي ، والأدارسة الذين لم يفقدوا الأمل لإعادة أمبراطورية أجدادهم على أن تكون فاس عاصمة لها ؛ وبالتالي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار القبائل المقيمة بالبلاد إذ غالباً ما كانت تجرفها الاضطرابات الحربية والسياسية ، وحيث إنها لا تتدخل إلا باندفاعات مفاجئة غير متبصرة فإنها كانت تزيد هذه المجموعة من القوات المشتبكة تعقيداً .

وأثناء هذه الفترة المضطربة ، كانت مدينتا فاس في غالب الأحيان تتحاربان إحداهما ضد الأخرى جهاراً ، لدرجة أن المؤرخين ينعتون لنا المكان الذي كانت تجري فيه عادة هذه الاصطدامات ، وهو المكان المعروف بكهف الرقّادين ـ حسب **روض القرطاس**[8] ـ ، والمكان المعروف بكدية الفول ! حسب البكري[9] ـ .

لم تستطع صروف الدهر القاسية إلى هذا الحد أن تقضي على هذه المدينة المختارة[10] ، فكانت دائماً قوية عندما قامت بها ، مهما كانت الحال ،

---

(7) ص 45 .

(8) ص. 22 .

(9) ترجمة دو سلان ص 227 .

(10) ساهم بعض السادة العابرين في تجميل الحاضرة ، أمثال عبد المالك العامري (انظر ليفي ـ بروفنصال ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، جزء 1 ص 455 .

دولة زناتية أواخر القرن العاشر ، عام 376 /87 -986 ، إلى مجيء المرابطين . حقاً إن هذا الهدوء قد شابته بعض الكسوفات ، إذ كان حكم زيري بن عطية أول أمير في هذه الدولة مضطرباً جداً ، كما سنشاهد بعد ذلك (من 451 إلى 453 /1059 -1061) الأخوين الفتوح وعجيسة ، اللذين استقر كل منهما في إحدى المدينتين ، يتقاتلان بضراوة . والمجاعة ضاربة أطنابها فتدفع الحكام إلى اتخاذ إجراءات بالغة الشدة : « فكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يدخلون على الناس في ديارهم ، فيأخذون ما يجدون فيها من الطعام ، ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك ولا يجرؤ أن يكلمهم فيه . ومن لم يوافقهم في شيء من ذلك أو صدّهم عنه قتلوه . وكان سفهاؤ هم وعبيدهم يصعدون على قنة جبل العرض[11] فينظرون إلى الديار التي بالمدينة ، فأي دار رأوا فيها دخاناً قصدوا إليها فدخلوها وأخذوا ما يجدون بها من الطعام . . . . .

« فاتخذ أهل مدينة فاس المطامير في ديارهم وبيوتهم للخزن والطحن والطبيخ لئلاّ يسمع دوي الرحا . وفيها أيضاً أتخذوا غرفاً لا أدراج لها ، إذا كان عشي النهار طلع رجل فيها بسلم هو وعياله وأولاده ، ثم يرفع السلم معه لئلاّ يدخل عليه فجأة »[12] .

لكن وسائل التدمير كانت ضعيفة ، فاستمرت فاس في نموها ، بعيدة كل البعد عن أن تتألم في بؤرة هذه النكبات كلها ، بل تزداد غنى أثناء الحقب الهادئة ، بالأبواب ، والحصون ، والحمامات ، والفنادق : 20 حمّاماً و 300 طاحونة ، حسب البكري الذي كتب ذلك بعد هذه الفترة بقليل[13] . وفي عام 345 /956 ، كان الأمير الزناتي أحمد بن أبي بكر بن عثمان قد أمر بتشييد

---

(11) لقد اضمحلت هذه التسمية ؛ وهي مذكورة عند مختلف المؤلفين وخاصة في مذكرات البيدق (ليڤي - بروڤنصال ، وثائق من التاريخ الموحدي) ، حيث وردت مرتين .

(12) روض القرطاس ، ص 72 .

(13) ترجمة دوسلان ، ص 226 .

صومعتين ما زالتا قائمتين إلى أيامنا هذه لجامعي القرويين والأندلس ، فحلّتا بصفة نهائية محلَّ الصومعتين الإدريسيتين القديمتين . بل حدث أكثر من ذلك ، فتدفّقت المنازل خارج الأسوار ، وأخذ الفراغ الفاصل بين المدينتين يمتلىء شيئاً فشيئاً ، بينما صارت ستة جسور - وهي أكثر عدداً مما هي عليه اليوم - تربط بين العدوتين . يقول الجزنائي : « وما زال الأمراء والملوك في أثناء ذلك يزيدون البناء بفاس إلى أن صار الناس يبنون بأرباض المدينتين ، واتصلت العمارات من كل جهة إلى انقراض أيام زناتة : فأدار منهم دوناس بن حمامة بن المعزّ بن عطية بن زيري الأسوار على جميع أرباضها من كل جهة وبنى بها المساجد والفنادق والحمّامات وغير ذلك ، **وصارت مدينة واحدة** » [14] .

وقد كسرت المنافسة بين الفتوح وعجيسة هذه الوحدة التي كانت ما تزال هشّة ، لكن اتجاهها كان يبدو واضحاً تماماً . فحاولت مدينتا فاس ، بكيفية لا رجعة فيها ، أن تنضما الواحدة إلى الأخرى كما تنضم أنصاف تلك الكائنات المشطورة شطرين ، التي يتحدث عنها أرسطوفان في وليمة أفلاطون .

المرابطـون : - إذ ذاك جاء المرابطون . وليس هنا مجال سرد التاريخ الشبيه بالملحمي لهؤلاء الصحراويين الذين خرجوا من الصحراء الغربية ، في منتصف القرن الحادي عشر ، وانتشروا في المغرب . إذ يكفي التذكير بأنهم اقتحموا المغرب من الجنوب ، فأسس رئيسهم يوسف بن تاشفين مراكش عام 454 /1062 وتابع سيره نحو الشمال ؛ وبعد محاولة أولى فاشلة ، استولى على فاس عام 462 /1068 -1069 . ولم يذهب هذا الفتح بدون خسارة ، اذ فتك المنتصرون ، بأعدائهم الزناتيين ونهبوا المدينة ، لكن من غير أن يكون هذا التخريب - على ما يبدو - لم يُشَوِّه المدينة .

وما كاد يوسف بن تاشفين يستقر بفاس حتى تأثر بالوضعية المتناقضة

(14) زهرة الآس ، ص. 73 .

للمدينتين المتلاصقتين ؛ فأمر بتحطيم الأسوار الفاصلة بينهما ، لتعجيل الوحدة التي لاحظنا بوادرها .

كان هذا القرار صَائباً في النسق المنطقي للأشياء ، لأنه يثبت تطوراً سبق أن رُسمت خطوطه الأولى في الميدان ، لكنه لم يستطع أن يقضي على الخلافات دفعة واحدة ، ولا حتى على المعارضات التي كانت تلاحظ بين المدينتين . وما زلنا نذكر أن سكان المدينتين كانوا من عناصر مختلفة ، وأن لكل واحدة منهما مسجدها الجامع ، وسوقها المركزية ، ومعملها الخاص بسكّ النقود .

فكان توحيد المدينتين يواجه تعارض مصالح معنوية ومادية ، لا يمكن أن يوقفها عند حدّها أقلّ من قوة كفّ المرابطي الخشن . لكن ذلك الإيقاف لا يعني محوها ، فقد احتفظت المدينتان الموحدتان لمدة طويلة بذاتيتهما وأسلوب عيشهما ، إذ كتب الإدريسي الجغرافي في منتصف القرن الثاني عشر ـ أي بعد قرابة قرن من القرار الذي اتخذه الفاتح المرابطي ـ يقول : « وفي كل مدينة منهما جامع ومنبر وإمام ، وبين المدينتين أبداً فتن ومقاتلات . وبالجملة ، إن أهل مدينتي فاس يقتل فتيانهما بعضهم بعضاً »[15] . وما زالت بعض آثار هذه الازدواجية قائمة حتى الآن .

لم يقتصر يوسف بن تاشفين ، الذي كانت له تصوّرات واضحة وإرادة قوية على إزالة الأسوار ، بل ساعد بكيفية واضحة وسط مدينة القرويين بتوسُّع الجامع الذي وجده فيها ، وترك جامع الأندلس على حالة .

لقد أدرك أن كل مدينة محتاجة إلى مركز لتكون موحَّدة . فوقع اختياره على وسط مدينة القرويين الذي كان بلا ريب أعرق في القدم من الآخر ، وربما كان أحسن تجهيزاً منه وأكثر حيوية . وهكذا صارت فاس حاضرة مركَّزة كما يجب .

---

(15) وصف إفريقيا وإسبانيا ، طبعة دو كـوج ، 75 -76 .

وقد حقّق يوسف بن تاشفين وابنه عليّ من بعده بتوسيعهما جامع القرويين الشهير عملاً سياسياً ـ دينياً . فالمرابطون لم يخرجوا من الصحراء للفتوح والغنائم فقط ، وإنما كانوا يتزعمون إسلاماً متشدداً مستمداً من ينابيع المذهب المالكي . وبهذه الصفة كان إنماء مسجد لم يفتأ فيه المذهب السني مزدهراً ، يندمج بطبيعة الحال في عملهم الإجمالي . ومن جهة أخرى فقد شيّد يوسف مساجد في كل أحياء المدينة التي لم تكن فيها مساجد[16] .

وبالإضافة إلى ذلك شجّع العاهل المرابطي التنمية الاقتصادية للمدينة : فقد أمر ببناء فنادق وطاحونات ، ويضيف صاحب **زهرة الآس**[17] أنه جلب إلى فاس صُنّاعاً من قرطبة زيادة على الذين كانوا جاؤوها على عهد إدريس الثاني .

وقد عمل مجيء يوسف بن تاشفين وتطوير سياسته كذلك على تحويل فاس إلى قاعدة عسكرية . وكانت إلى ذاك الحين على ما يبدو لا تحتضن سوى حاميات متواضعة ، إذ المنشآت العسكرية الوحيدة كانت عبارة عن الأسوار والبرجين اللذين شيّدهما في القسم الأعلى بكل من المدينتين الفتوح وعجيسة أيام منافستهما .

وأصبحت فاس ، مع يوسف بن تاشفين ، القاعدة الرئيسية لعملية أمبراطورية كبيرة ، وأمبراطورية حربية . فسواء تعلق الأمر بالزحف إلى الشرق ، نحو تازا ، وملوية ، وتلمسان وحتى الجزائر ، كما حدث ذلك من 1070 إلى1082 . أو أراد يوسف إخضاع قبائل الريف وجبالة وإماراتهما إلى سلطته ، أو ذهب لإغاثة مسلمي إسبانيا المضطهدين من طرف المسيحيين ، أو ذهب بعد ذلك بقليل لفتح إسبانيا المسلمة ، فإنه كان يتخذ فاساً دائماً كقاعدة أساسية . ولهذا الغرض بنى القصبة التي يمكن التعرف عليها بالحي الذي ما زال يُسمى بقصبة بوجلود . فكانت هذه القصبة آنذاك مفصولة تماماً

(16) في القرطاس (ص. 91) .
(17) ص. 78 .

عن باقي المدينة وتشرف عليها إشرافاً مباشراً . وحسب ما تقول الرواية التي استقاها ليون الإفريقي من نفس المكان إنه « كان بإمكانها أن تضاهي مدينة أخرى في الكبر » . ولم يكن هذا المعسكر الكبير المحصّن بعناية الذي تتمركز فيه دورياً جيوش لإغارات مقبلة ، متوفراً قطعاً على جميع الآلات الضرورية للحياة الاقتصادية ؛ فمن الأكيد أنه كان يشتمل على مخازن (ما زالت بهذه المنطقة مطامير كبيرة مبعثرة هنا وهناك) . لكن ليس فيه سوق ولا مؤسسة صناعية . فكانت فاس إذن تتزود بحاجاتها المعاشية على نطاق واسع جداً ، إذ لا شك أن الذهاب والإياب كان لا ينقطع بين حي القرويين والقصبة . ويمكن أن نذهب حتى إلى افتراض أنه منذ العهد المرابطي ، شُيِّدت مبانٍ خارج الأسوار في اتجاه القصبة[18] . وهكذا فإن المدينة وقد اجتذبها هذا المبنى الجديد ، أخذت تتسلق الربى الغربية ـ برشاقة ـ متجهة شيئاً فشيئاً لأخذ شكلها الحالي .

ومن غير المحتمل أن تكون القصبة قد أثّرت تأثيراً جدياً في تعمير فاس ،لأن الجنود إنما كانت تمرّ بها بدون أمل في المقام بها . إلا أنها أسهمت بدون شك في التنمية الاقتصادية للمدينة عن طريق تزويدها بمنبع غزير ومستمر للموارد ، ويبدو أنها لعبت دوراً رئيسياً في تطور تخطيط فاس . ومن الممكن أيضاً أن الأشغال التي أُنجزت لتزويدها بالماء قد ساعدت على أشغال أخرى في المدينة الواقعة في الأسفل ؛ ولعله ينبغي أن يبحث هناك على أصل الشبكة الحالية للقنوات التي توزع ماء المنبع على مساحة عدوة القرويين كلها ؛ وفعلاً ، يذكر **روض القرطاس**[19] أن يوسف بن تاشفين أمر ببناء طاحونات وحمّامات ، الأمر الذي لا يمكن إنجازه دون إعداد سابق لمجاري المياه . وكان أمراء زناتة قد شرعوا في الاستفادة من الموارد الهائلة للمياه التي

---

(18) تؤكد مذكرات البيدق (نفس المرجع ، ص. 99) وجود مسجد بحي طريانة (بالطالعة) حينما عاد ابن تومرت من الشرق ، أي حوالي عام 514 /1120 .

(19) ص. 79 .

كانت تمتلكها فاس . فأتمَّ المرابطون الجهاز ورسموا له الخطوط العريضة التي احتفظ بها .

نستطيع إذن أن نتيقَّن بأن العاهل المرابطي الأول كان أحد الروّاد الكبار لتنمية فاس ، ولو أنه لم يتخذهاعاصمة له . لكن المدينة الإدريسية ، عندما افتقدت البلاط والمؤسسات السياسية للأمبراطورية المرابطية ، احتضنت المؤسسة العسكرية الرئيسية ، وأسهمت بحظ وافر - مستفيدة أكبر استفادة لتجارتها وصناعتها - في تهيـيء الغارات الموجَّهة نحو بلاد الجزائر الحالية ، والريف ، وإسبانيا . ولا شك أن تأثيرها الديني تزايد وقد تمَّ توحيدها ؛ وبرزت بالتالي من جرّاء ظهور القصبة المرابطية ، أرضية النماء المقبل لفاس .

لم يبق من هذا كله ، للأسف ، سوى نصوص ، لأن الموحدين لما استولوا على فاس حطموا أسوارها وهدموا المؤسسة العسكرية لسلفهم ليشيدوا مكانها أخرى . إلا أننا إذا فكرنا في القلعة المرابطية لأَمَرْكُو[20] ، على بعد نحو 70 كلم شمالي فاس ، بصهاريجها ، وأبراجها المدوَّرة ، ومظهرها الشامخ ، يمكننا أن نأخذ فكرة عن القصبةالمرابطيةبفاس التي كانت مساحتها أعظم بكثير والتي كان مجملها قمينا بهذه المدينة في أوج ازدهارها .

الموحـــدون : - يظهر أن فاساً لم تعرف طوال عهد الأمبراطورية المرابطية تقلّبات خطيرة ، بل كانت هذه الفترة بالنسبة لها فترة سلم ونموّ سريع ومنتظم . لكنه ، عندما اندفع الموحدون إلى فتح المغرب ، بعد أقلّ من قرن من دخول يوسف بن تاشفين إلى فاس ، فإن المدينة الإدريسية التي لا ننسى أنها كانت المؤسسة العسكرية الرئيسية للدولة المحتضرة ، أخذت تتألم كثيراً من ضرباتهم .

---

(20) انظر في شأن هذه القلعة إ . ليڤي . بروڤنصال ، آثار المرابطين في بلاد ورغة ، في النشرة الاركيولوجية . 1918 ، ص. 194 وما بعدها .

ففي عام1145/540 ، حضر أمام فاس عبد المؤمن ، قائد الموحدين وأمير المؤمنين . فتحصن الحرس المرابطي في المدينة وحاصرها عبد المؤمن . ولما طال به الأمر عمد إلى الوسيلة التالية : « وفي سنة أربعين وخمسمائة فتح عبد المؤمن مدينة فاس بعد الحصار الشديد ، وقطع عنها النهر الداخل إليها بالألواح والخشب والبناء حتى انحصر الماء فوقها في الوطاء ، فوصل إلى مستواه الأصلي ثم خرقه فهبط الماء عليهم دفعة واحدة فهدم سورها وهدم من دورها ما يزيد على ألفي دار ، وهلك به . خلق كثير ، وكاد الماء أن يأتي على أكثرها »[21] .

ولم تقتصر إتلافات عبد المؤمن على هذا ، بل أمر بتخريب قصبة المرابطين وسور المدينة ، لشدة غضبه من المقاومة التي لقيها ، وهو يردّد مزهواً هذه العبارات : « إنا لانحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا »[22] .

لم يتخذ الموحدون ـ كالمرابطين ـ فاسا حاضرة لهم ، وإنما جعلوا من مراكش دار مقام لهم وقاعدة لأمبراطوريتهم . لكنهم كانوا ، مثل المرابطين ، محتاجين إلى فاس ليجعلوا منها إحدى قواعدهم الرئيسية للعمليات العسكرية ، لاسيما أعمالهم الحربية في إسبانيا . فاضطروا إلى إعادة بناء ما حطموه . وقد قام الخليفة الموحدي الرابع ، محمد الناصر ، بإحاطة مدينة فاس بأسوار متينة بقي بعضها قائماً إلى أيامنا هذه ، وجعل لها أبواباً بعضها فخم عظيم ، أشهرها الباب الذي كان يُعرف قبل بباب الشريعة ؛ لكنه ما كاد يتمّ بناؤه حتى دعاه الناس كلهم باب المحروق ، في نفس اليوم الذي ركّب فيه مصراعا الباب جيء إليه بثائر من ناحية وزان يدعى العبيدي أُسر أخيراً ؛ فعلق رأسه في أعلى الباب وأحرقت جثته تحت الباب نفسه . ومن ثم أطلق

---

(21) روض القرطاس ص. 123 ، ومذكرات البيدق (نفس المرجع ص. 162 -165) .

(22) نفس المرجع ، في نفس الصفحة .

عليه هذا الاسم ، وأصبح من العادة أن تجري هناك العقوبات والإعدامات .

يقول صاحب زهرة الآس: «وهي باب يدخلها الفارس بالعلم العالي والرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح لارتفاعها »[23] وشيّد الموحدون أيضاً قلعة في موقع القلعة المرابطية لنفس الأهداف ، بالإضافة إلى أنهم وسعوا كثيراً جامع الأندلس[23م] .

وعرفت فاس تحت حكم الموحدين والمرابطين على حدّ سواء ، فترة طويلة من الازدهار لم تعترضها سوى مجاعة قاسية مصحوبة بالفتن ، بين 1224 و 1232 ، عندما اقتربت الدولة من نهايتها .

يشهد لهذا الازدهار النص الآتي للجغرافي الإدريسي : « وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتـهم ، ونعمها كثيرة ، والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها ، وفواكهها كثيرة وخصبها زائد ، وبها في كل مكان منها عيون نابعة ، ومياه جارية ، وعليها قباب مبنية ، ودواميس محنية ، ونقوش وضروب من الزينة . وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة ، وجهاتها مخضرة مونقة ، وبساتينها عامرة ، وحدائقها ملتفة ، وفي أهلها عزة ومنعة . . . . ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى . . . . ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى ، ومقصدها الأشهر ، وعليها تُشَدّ الركائب ، وإليها تقصد القوافل ، ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة ، وأهلها مياسير، ولها من كل شيء حسن أكبر نصيب وأوفر حظ»[24] .

يؤ يد هذا الوصف الأرقام الموجودة في **زهرة الآس وروض القرطاس** ، ويقول الجزنـائي[25] إن المشرف (على المالية) علي بن عمر الأوسي ذكر أنه هو نفسه ،نقلها من خط مشرف مدينة فاس ، في أيام المنصور (ثالث الخلفاء الموحدين) :

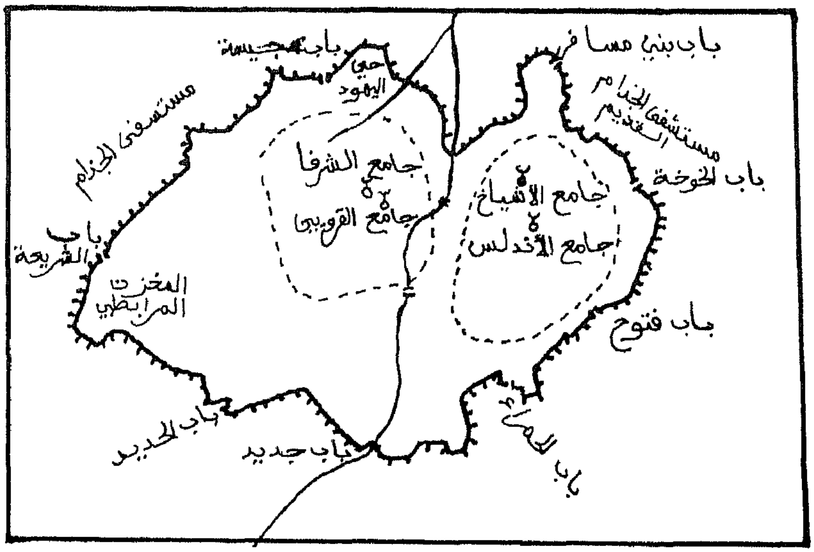
---

(23) ص. 4 .

(23م) الرسم رقم 4 .

(24) المرجع المذكور ، ص 86 وما بعدها .

(25) زهرة الآس ،ص 33 . الأرقام التي ذكرها المؤلفان متشابهة ما عدا القليل منها .



الرسم 4

فاس قبل تأسيس فاس الجديد حسب ݣايار

كـثير من آثار السور الموحدي تسمح بتأكيد أنّه السور الذي بناه الخليفة الناصر الموحد يتطابق في عدة نقط مع التخطيط الحالي لسور المدينة .

والخطوط المقطعة تذكّر بالمظهر المفترض للمدينتين الإدريسيتين .

785	مسجداً	2	قيصريتان
42	داراً للوضوء	3.064	طرازاً = (3.094)[3]*
80	سقاية	47	داراً لعمل الصابون
93	حمّاماً	86	داراً للدباغين
372	أرحى الماء (دخل المدينة) [1]*	116	داراً للصباغين
89.236	داراً	12	داراً لسبك الحديد والنحاس
19.041	مصاري[2]*	135	فرناً للخبز (1.770)[4]
467	فندقاً	11	داراً لعمل الزجاج
9.082	حانوتاً	188	داراً للفخارة (خارج المدينة)[5]*

وحتى إذا اعتبرنا أن بعض هذه الأرقام خاطئة ، وافترضنا أن بعضها الآخر ، كعدد دور الدباغة ، مطابق لحقيقة مغايرة لما نشاهده عياناً ، فإننا مضطرون إلى الاعتقاد بأن فاساً عرفت في بداية القرن الثالث عشر نشاطاً اقتصادياً قوياً وأن الازدهار الذي تذكره النصوص العربية ليس من الغلو في شيء ، بل إننا إذا أمعنا النظر استغربنا من عكس ذلك ، لأن فاساً ليست العاصمة الموحدية ، وإنما هي أحد المراكز الاقتصادية الرئيسية ، إن لم يكن المركز الرئيسي لأمبراطورية عظيمة تشمل جميع جنوب إسبانيا وإفريقيا الشمالية كلها . وقد مكّنت علاقات فاس العريقة في القدم مع الأندلس عُمَّالَها

(1*) في زهرة الآس 472 من أرحاء الماء .

(2*) في زهرة الآس 17.041 من المصاري .

(3*) في المصدر المذكور 3.094 من الأطرزة .

(4*) في المصدر المذكور 1.170 من أفران الخبز .

(5*) في نفس المصدر 180 من دور الفخارة .

ولم يذكر لوطو رنو ـ مما جاء في زهرة الآس ـ في نفس السياق :

135 من كوش الجير .

400 حجر لعمل الكاغيد .(مترجم) .

من أن يكتسبوا تقنيات في منتهى الدقة ؛ فالسلم سائد ، وجميع الشروط متوفرة ليعرف اقتصاد البلاد اتزاناً قوياً وثابتاً .

ومن الافتراء على مثل هذه المدينة الاعتقاد بأن الاقتصاد هو كل شيء فيها . فقد عرفت الحياة الفكرية فيها أيضاً بالتأكيد تطوراً قوياً . ولو أنها أقل إشعاعاً من الحياة الفكرية بإسبانيا ، والشعراء فيها أقل عدداً ، بحيث لم يذكر بيريس منهم تماماً سوى اثنين في الدراسة التي خصصها للحياة الأدبية بفاس على عهد المرابطين والموحدين[26]، والمؤرخون والفلاسفة لم يشتهروا فيها بعد . لكن الفقهاء والمتكلمين كانوا فيها كثيرين ومشهورين ، ويمكن الاعتقاد ، ولو أن النصوص لا تفيدنا بأي خبر دقيق في ذلك ، أن الدروس كانت منتظمة في جامع القرويين وربما أيضاً في جامع الأندلس .

وباختصار ، يمكن القول إن فاسا كانت في أوائل القرن الثالث عشر مدينة في أوج الازدهار ، وأن طفولتها كانت صعبة عندما كانت مؤلفة من مدينتين متخاصمتين في غالب الأحيان ، محاطة بقوات معادية كثيرة موجهة إليها من كل جانب . لكنها ، بعدما قاومت جميع هذه العواصف ، وترعرعت حتى في الظروف الغير المواتية ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، منذ اليوم الذي دلَّها المرابطي يوسف بن تاشفين على طريقها وجعل منها مدينة عظيمة ، كما يكتمل شابٌ عندما يحصل على توازنه .

وها هي من الآن فصاعداً محاطة بحزام متين من الأسوار ، فُتحت فيها أبواب أكثر عدداً من التي كانت فيها أوائل القرن العشرين؛ تحرسها وتمنعها من العدوان عند الاقتضاء ، قلعة كبيرة ، ويتوسّطها مركز اقتصادي وديني تنتظم حوله الأزقة . الصناعة فيها مزدهرة متوازنة ، منها صناعات غذائية كالطحانة ، وصناعات خاصة بالمنتجات العادية كدور الصابون ، وصناعات تعمل

(26) هـ. بيريس ، الشعر في فاس على عهد المرابطين والموحدين هسبيريس 1934 ، الشهور الثلاثة الأولى، ص. 9 . وما بعدها .

للتصدير كمعامل الخزف والنسيج والدباغة . والتجارة ممدّة بكل ما تحتاج إليه : سوقان مركزيان معززان بعدد كثير من أسواق الأحياء الصغيرة ، فيها الأشياء الضرورية الأولى ، وفنادق ومستودعات للتجار الغرباء وللبائعين بالجملة من أهل البلد ؛ ومبادلات نشيطة مع الأندلس ، والمغرب الأوسط ، والصحراء[27] ، وربما أيضاً مع الشرق بحراً أو عن طريق القوافل ، وربما حتى مع بعض البلدان المسيحية .

لم يذكر لنا المؤلفون العرب كيف كانت هذه الحياة الاقتصادية النشيطة منظمة ؛ إلا أننا مع ذلك يمكن أن نأخذ فكرة عنها بالرجوع إلى نُظُم إسبانيا المسلمة[28] ، لأن فاساكثيراًما اقتبست من إسبانيا ، ليس في مجال التقنيات الصناعية فحسب ، ولكن أيضاً في مجال النُظُم المدنية . لذلك يمكن الافتراض بأن الحِرَف كانت ، منذ عصر الموحدين بل وحتى في عصر المرابطين ، مجموعة حسب الأحياء والأزقة ، جلّها في وسط المدينة ، وفي الأحياء المتطرفة إذا كانت بحاجة إلى فضاء واسع كالفخارين ، أو كانت مزعجة الجوار ، كالزياتين . وكانت بعض الحرف المتكاثرة ، لاسيما منها الحياكة والخرازة متناثرة عبر مساحة المدينة كلها ، ويجزم بذلك صاحب **روض القرطاس** فيما يخص الحاكة . ولتنسيق نشاطات هذه الطوائف وخلق تجانس بينها بكيفية مفيدة ، كانت الحكومة تعيّن بدون شك موظفاً خاصاً يسمى **المحتسب** ، مكلفاً بالسهر على الأمانة في المعاملات .

وما ذلك إلا افتراضات ، لأن النصوص صامتة ، وهي افتراضات محتملة مع ذلك نظراً لما نعرفه عن نُظُم العهد الأموي بالأندلس من جهة ، ولما عثرنا عليه في شأن المغرب عند الكتّاب المتأخرين ، لاسيما ليون

---

(27) يذكر الإدريسي (نفس المرجع السابق ، ص. 93) أن القوافل التي كانت تذهب من تلمسان إلى سجلماسة ، كانت تمرّ بفاس .

(28) انظر ليفي بروفنصال ، **إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر** .

الإفريقي ، من جهة أخرى ، ثم في واقع الأحداث ، عندما أتيحت الفرصة لدراسة هذه النظم دراسة مباشرة .

ومهما يمكن من أمر ، فلا شك أن هذا النشاط الاقتصادي الكثيف إلى هذا الحد كان منظماً ومنظماً جداً حسبما يحتمل . إن النُظُم البربرية لم توضع لحياة مدينة معقدة بهذه الدرجة . فمن المنطقي إذن التفكير بأن المسؤولين عن تشييد هذا الصرح المدني لجؤوا في بادىء الأمر إلى النُظُم الإسلامية التي جُرّبت بإسبانيا وحملها المهاجرون الأندلسيون معهم بطبيعة الحال .

وتنتهي مع الموحدين الفترة الكبرى الأولى لتطور فاس . فالمدينة متينة الهيكل ، لا على الأرضية فحسب ، بمساجدها ، وأسواقها ، ونظام ريّها ، وأسوارها وقلعتها ، ولكن أيضاً في مجال النُظُم ، بتنسيق طوائف حِرَفها التي يشرف عليها المحتسب ، وفي المجال الفكري بجامعتها الناشئة ، وفقهائها ، وكتّابها . ويضفي الإسلام ، السني المسيطر ، على كل ذلك لونه وشكله ، الشيء الذي لا يمنعنا مع ذلك من التفكير بأن هذا الإسلام الرسمي لم يكن يعبر تماماً عن تعقيد الروح الإسلامية بفاس . فعندما نتصور اليوم ، رغم مرور قرون على العادة الإسلامية المتشددة ، أن بعض الشعائر المتعلقة بالطبيعة ما زالت راسخة في هذه العاصمة ، حيث تشاهد بها أشجار تزار ، وأن تقديس الأولياء انتشر بها إلى حد بعيد[29] ، نجد أنفسنا مضطرين إلى القول بأنه ، في فاس القرن الثالث عشر ، حيث كان البربر يحتلون رتبة هامة حتى إن الموحدين ، في بداية سلطانهم كانوا يرغمون خطباء جامع القيروان على أن يخطبوا بالبربرية[30] ، كانت المعتقدات القديمة للبلاد مزدهرة أكثر ، لكننا سوف ندرك السبب الذي من أجله كانت النصوص أكثر صمتاً في هذا الصدد منها حول النُظُم الاقتصادية .

---

(29) انظر فيما يلي الفصل 3 .

(30) زهرة الآس ، ص. 101 .

الفصل الرابع

4/1

فاس في عهد المرينيين

ترتبط مدينة فاس في مخيّلة العامة ، بذكرى بني مرين؛ ولا بد من الاعتراف بأن قدم الإنسان تتعثّر في كل خطوة بذكرى مرينية . ففاس الجديد كله من إنشاء المرينيين ، وكذلك المدارس ، ومنار جامع الشرابليين الجميل ، وعيار مقياس الطول الذي كان معروضاً إلى عهد قريب في السوق المركزية ، وحتى تعظيم مولاي إدريس ، مؤسس المدينة .

كانت العلاقات الأولى بين الدولة الجديدة وأهل فاس سيّئة . فقد دخل الرئيس المريني أبو يحيى إلى فاس عام 645 / غشت 1248 ؛ وبعد نحو ثمانية عشر شهراً ، في شوال 647 / فبراير 1250 ، اضطر إلى الخروج منها غازياً . فاغتنم السكان فرصة غيابه وثاروا لصالح الموحدين ، ثم لم يستسلموا إلا بعد حصار دام تسعة أشهر . ونصّت الاتفاقية على أن الفاسيين سيدفعون مبلغاً قدره مائة ألف قطعة ذهبية برسم التعويض ؛ ولما تأخروا في أداء المبلغ أمر الأمير المريني بإعدام ستة من الأعيان المسؤولين عن الثورة[1] .

---

(1) يقول ابن خلدون (كتاب البربر ، الجزء 7 ، ص 360) « . . . ورفع على الشرفات رؤوسهم . وأخذ الباقي بغرم المال طوعاً أو كرهاً ؛ فكان مما عبّد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين . وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد ؛ فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم ، ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة » .

فاس الجديد : ـ لعل هذه الذكرى السيّئة هي التي أوحت إلى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب فكرة تشييد مدينة جديدة ، متميزة عن الأخرى ومشرفة عليها ، لما تمكن أخيراً عام1276/674 من التفرغ إلى تنظيم فتوحاته . فقد تمّ استئصال مَنْ بقي من عقب الموحدين ، وانتهت حملة عسكرية ضد نصارى إسبانيا بالانتصار عليهم . فحق للمرينيين أن يتنفسوا الصعداء ويتمركزوا ، الشيء الذي لم ينجزوه فعلاً لحدّ الآن .

وفيما يلي تأسيس هذه المدينة ، كما يرويه ابن الأحمر في **روضة النسرين** :

« ركـب رحمه الله فرسه من قصبة مدينة فاس القديمـة[2] في ضحى يوم الأحد ثـالث شوال من عام أربعة وسبعين وستمائة إلى ضفة وادي فاس ، ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء ، فوقف حيث حدث وشرع في حفر أساسها . وكان الذي أخذ له طالعها الفقيه المعدل محمد بن الحباك[3] . ولما تمّ سورها بنى بها قصره والجامع الأعظم والسوق الذي حده من باب القنطرة التي يقال لها الآن باب الوادي [4] المصاقبة إلى باب السبع إلى باب عيون صنهـاجة[5] والحمام الكبير . وأمر الوزراء وأشياخ بني مرين ببناء الدور بها ، وكلفت همم الملوك من بنيه بها ، فشيدوا القصور الضخمة الرائعة المنظر المخنفة الأسماء ، وجلبوا إليها الماء العذب من العين المعروفة بعين عميّر . وهذه المدينة يأتيها الوادي المسمى بوادي الجواهر . . . »[6] .

---

(2) معلوم أن الأمر يتعلق بقصبة الموحدين .

(3) كان الطالع حسناً جداً ، حسب نصوص أخرى ؛ والدليل على ذلك أن أي ملك لم يهلك به ولم يرجع إليه قط جيش وهو منهزم ؛ وإذا كانت هذه البيانات صحيحة بالنسبة لبداية الدولة فإنها باطلة بالطبع فيما بعد .

(4) اضمحل الآن هذا الباب وعُوّض بباب دار المخزن المؤدي الى المشور القديم .

(5) يسمى هذا الباب حالياً باب السمّارين .

(6) ترجمة غ . البوهالي وج . مارسي ، ص . 63 - 64 .

ويضيف أيضاً بعض المؤرخين أن هذه المدينة سُميت المدينة البيضاء ، خلافاً للمدينة الأخرى التي كان الدهر قد غيّر لون مبانيها . وما أسرع ما أُطلق عليها اسم فاس الجديد تمييزاً لها عن فاس البالي . وتُجمع كل النصوص التي لدينا ، وبعضها متأخر قليلاً عن هذا الحدث كروض القرطاس على التاريخ والتفاصيل التي ذكرناها آنفاً . ويضيف البعض بأن البناء أُنجز بنشاط إذ لم تمرَّ سنة على بَدء الأشغال حتى تمكن العاهل المريني من الاستقرار في مقامه الجديد. فما هو الغرض من هذا التأسيس ؟ .

هناك تفسير أول يعلّل ذلك بضيق المكان . فالقصبة الموحدية السالفة الذكر إنما كانت مؤسسة عسكرية . ولم يكن على المرينيين أن يُسْكِنُوا جنودهم فحسب ، لكن كان لا بد لهم أيضاً من إسكان جميع هيئات سلطتهم السياسية ، والأتباع ما داموا قد اتخذوا فاساً عاصمة لهم . وكان بإمكانهم ، والحالة هذه ، أن يكتفوا بتوسيع القضية الموحدية ، إذ المكان فسيح والأرضية مناسبة .

لكنهم ، من جهة ، كرهوا أن يسترجعوا إقامة أسلافهم ، ولو موسَّعة ، وهذا إحساس متكرر عند الدول الإفريقية التي تعتبر من العار ، بل من الاعتراف بالفشل ، ألّا تأتي بجديد ؛ ولعلها كانت تخشى أيضاً أن تتعرض لتأثيرات وخيمة إذا أقامت في موقع سبق له ان آوى المغلوبين ؛ ولا تنس أن السلطان المريني أمر قبل أن تبدأ أشغال فاس الجديد ، باكتشاف الطالع الفلكي ليتيقن أن المدينة الجديدة ناشئة تحت طالع سعيد .

ويمكن بالتالي ان نفترض أن أبا يوسف يعقوب فضل ، وهو يتذكر ثورة سنة 1250 ، أن يأخذ بالاحتياط ضد أية مفاجأة من الفاسيين ، ويجعل بينه وبينهم مسافة معقولة مع النهر .

فكانت المدينة التي بناها بنو مرين مدينة إدارية ، على حدّ تعبيرنا الحديث ، لا يقيم بها سكان المدينة ، بل قبيلة بني مرين الذين استولوا على

الحكم أخيراً ، والخدم الذين يمكن أن يستخدموهم استقبالاً . وها هو تعمير فاس الجديد يُحدّد لعدة قرون : وما زالت هذه المدينة إلى يومنا هذا مدينة المخزن ، مدينة الغرباء . وها هي في نفس الوقت الازدواجية الأصلية تعود إلى فاس ، متمثلة في مدينتين منفصلتين انفصالاً أكثر وضوحاً من المدينتين الإدريسيتين ، مدينتان ليس لهما نفس المصالح ، والاهتمامات ، ولا نفس الاستجابات والسكان ، ولا بد من أن تتعارضا الواحدة ضد الأخرى إن عاجلاً أو آجلاً .

ومع ذلك ، فإن حكمة مؤسسي فاس الجديد دفعتهم إلى ان يتفادوا على الأقل عنصراً من عناصر النزاع ، ألا وهو المتعلق بالماء . فرغم كون هذه المدينة مشيّدة على جانب النهر ، فإنها لا تأخذ منه ولو قطرة واحدة ، وذهبت تبحث عما تحتاج إليه من ماء في عين عميّر ، البعيدة من هناك بكيلومترات عدة . لأن مسّ ماء الفاسيين يدفعهم بجدّ إلى الدخول في ثورة دائمة ، وذلك ما أدركه المرينيون جيداً .

تضم المدينة الجديدة أولاً دار مقام الأمراء التي هي سبب وجودها ، ومسجداً بالطبع هو الجامع الكبير ، الذي ستُضاف إليه مساجد أخرى كلما اتسعت المدينة ، وسوقاً ، ومساكن أهمّ شخصيات الدولة . ولم تـذكر النصوص بطبيعة الحال أن فاساً الجديد هو أيضاً معسكر محصّن يتوقف فيه الجنود المرينيون ؛ لأنه لا حاجة إلى التنصيص على ذلك ، فالتحصينات التي ما زالت قائمة تنبئنا عن ذلك بوضوح .

وحيث إن الدولة المرينية ، ثم الوطاسية ، فرضتا وجودهما بفاس هكذا وهكذا طوال ثلاثة قرون ، فمن الطبيعي أن تطرأ على المدينة الجديدة تغييرات في مثل هذه المدة المديدة من الزمان . يدلّ على تطوّر فاس الجديد خلال العصر المريني مساجد الأحياء التي قام بعضها إثر بعض لتُضَاف إلى الجامع الكبير الذي شُيّد في نفس السنة التي أُسست فيها المدينة . فالمسجد المعروف بجامع الحمراء (نسبة إلى المرأة الحمراء أو المنارة الحمراء) الواقع

بجانب المحجة الكبرى لفاس الجديد لم يعرف بالضبط تاريخه ؛ إلا أن تنسيقه يذكّر بالجامع الكبير ، ويحتمل أن يرجع تاريخه إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ، أو أوائل القرن الرابع عشر . وكأنّ بناءه يبرهن على أن الشارع الأوسط للمدينة كان محاطاً بالدور على طوله وأن الأحياء المجاورة لباب السمّارين الحالي كانت مأهولة .

وفي منتصف القرن الرابع عشر عام 759 /1457 شُيِّد الجامع المدعو « للاّ جامع الزهر » غربي الطريق الكبرى في الحي الواقع حالياً بجانب القصر[7] . ومن المحتمل أن يكون جميع الجزء الشرقي لفاس الجديد في ذلك الوقت ما زال موضعاً للمطامير والمخازن ، وفضاء فارغاً تعسكر فيه الجنود العابرة .

وأخيراً تحوّلت هذه المنطقة ذاتها إلى حي سكني ، كما يبرهن عن ذلك بناء المسجد المدعوّ « للاّ غريبة » الذي أُسس عام 1408[8] . والجزء الجنوبي الشرقي لفاس الجديد هو وحده الذي ما زال موضعاً للمطامير قليل المباني .

إن وصف ابن فضل الله العمري لفاس[9] الذي يلحّ فيه إلحاحاً على فاس الجديد يساعد على تكوين فكرة عامة[10] لِما كان عليه فاس الجديد في ذلك العهد . فكانت المدينة الجديدة مكوّنة من ثلاثة أحياء متميّزة بعضها عن بعض لدرجة أن العمري يسميها **مُدُناً**: [11]

---

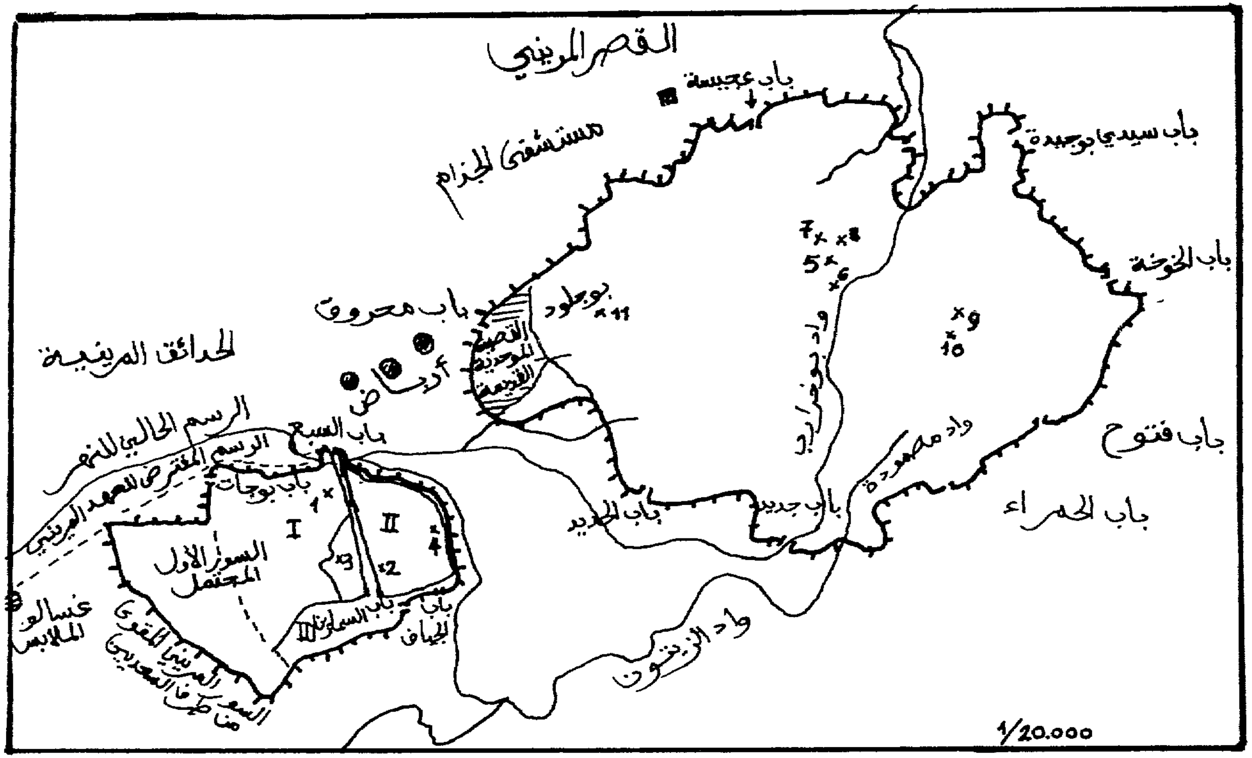
(7) انظر فيما يأتي الفصل الأول من الكتاب الثاني .

(8) انظر الكتابات التي نقلها بيل **الكتابات العربية** ، ص . 65 - 69) والتي تعطي بالضبط تاريخ التأسيس وهو 16 ذي القعدة 14/810 أبريل 1408 .

(9) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، ترجمة كودفروا ـ دومومبين ، ص . 153 - 161 .

(10) فكرة عامة صحيحة بالتأكيد ، لكن الصعوبات في التفاصيل جسيمة ويجب أن تُنسب إما لنص مشوّه، وإما بالأحرى لطريقة بحث الجغرافي الذي تحدّث عن فاس استناداً الى معلومات كتابية أو شفوية تمكّن من روايتها دون أن يذهب إلى عين المكان ؛ وإما كذلك إلى تغييرات عميقة في بنية فاس الجديد لم يعثر لها على أثر لا في الأرضية ولا عند الكتّاب المغاربة الذين تحدثوا عن هذا التكتل .

(11) الرسم رقم 5 .



الرسم 5

فاس في عهد المرينيين

I المدينة البيضاء II ربض النصارى III حمص

1 . الجامع الكبير 2 . جامع الحمرا 3. للآجامع الزهر . 4. للآغريبة 5. جامع القرويين 6. مدرسة الصفارين 7. مدرسة العطارين 8. المدرسة المصباحية 9. جامع الأندلس 10. مدرسة الصهريج ومدرسة السبعيين 11. المدرسة البوعنانية .

1 ـ حي القصر ، بما فيه الجامع الكبير ومساكن أهمّ شخصيات الحكومة ، ويمكن أن يطابق القصر الحالي أو على الأقل قسماً من المساحة التي يحتلها الآن ، مع الحي الحالي لمولاي عبد الله . وهو ما كان على الأرجح يدعى المدينة البيضاء ؛

2 ـ حيّ أو ربض النصارى الذي كانت تقيم به الميليشيا المسيحية التي اتخذها المرينيون مبكّراً لخدمتهم . وتمكّن البيانات الطوبوغرافية التي يدلي بها العمري (« يقع بعيداً عن النهر أمام فاس القديم ») من التعرف في هذا الحي على التجمّع السكني المسمى اليوم بالأخص فاساً الجديد . ولما اضمحلت الميليشيا المسيحية بعد ذلك ، عُوّضت جزئياً بالأسرى المسيحيين الذين كانوا يشتغلون في دار الصناعة المشيّدة بهذا الحي(12) ؛

3 ـ وتجمّع سكني ثالث بُني بعد ذلك وسُمّي منذ البداية حمصاً (باسم المدينة السورية) لأنه كان يأوي الرماة المنتمين إلى هذه المنطقة من الشام . وقد شيّد الحي في موقع يُدعى ملّاحاً في التسمية المحلية . ولم يكن في منتصف القرن الرابع عشر يُؤْوي سوى العسكريين(13) .

وفي القرن السادس عشر(*) تحدَّث مؤلفان آخران عن فاس الجديد ،

---

(12) انظر مارمول ، الجزء الثالث ، ص . 171 ور. ريكار ، **المغرب الشمالي في القرن الخامس عشر حسب التواريخ البرتغالية** . هيسبيريس ، الجزء 23 ، الكراسة 2 (الأشهر الثلاثة الرابعة ، سنة 1936) .

(13) إن التفاصيل المقدمة أعلاه تحمل على التفكير بأن هذا الحي في تاريخ لاحق للمعلومات المقتطفة من طرف العميري ، اتُّخذ كمأوى لليهود الذين طردوا من المدينة . وقد أيَّد ليون الإفريقي هذه انظرية (الكتاب 2 ، ص . 177) . لكن البيانات الطوبوغرافية التي أدلى بها العمري (« راكباً على النهر » و « مشرفاً على الكل ») تنطبق على تكتُّل يبدو أنه كان واقعاً شمال غرب القصر الحالي ، في مشور باب بوجات ، على سبيل المثل . فهل نفترض أنه حدث تحويل لهذا الحي يكون العمري وحده قد ذكره ، أو بالأحرى حدث تأويل خاطىء في المعلومات التي لم يستطع المؤلف أن يحققها محلياً ؟

(*) في الأصل : القرن الرابع عشر ، وهو تحريف وقع في الأرقام الرومانية . (مترجم) .

هما ليون الإفريقي، ومارمول، ويقدّمان بشكل ملموس نفس النظرة التي عند ابن فضل الله العمري، باستثناء بعض التفاصيل التي يكتسي بعضها أهمية خاصة.

لم تطرأ - على ما يظهر - تغييرات على القصر وملحقاته، أو على الأقل تغيرات عميقة؛ « فربض النصارى » القديم أصبح حياً إسلامياً نشيطاً بدار صناعة يعمل فيها الأسرى المسيحيون الذين أُخذوا من ميدان القتال أو استولى عليهم القراصنة. والحاصل أن فاساً الجديد أصبح منذ ذلك العهد مدينة جامعة لأجناس مختلفة.

وأخيراً عُوّض الرماة السوريون في التجمع السكني الثالث باليهود. لكن متى نُقل اليهود إلى هناك؟ وعلى إثر أي حوادث نُقلوا؟ يبقى هذان السؤالان غامضين نظراً لما هي عليه وثائقنا في الوقت الراهن. وقد ظن بعض المؤلفين أنهم يستطيعون التأكيد بأن اليهود أُنزلوا هناك منذ تأسيس فاس الجديد، معتمدين في ذلك على نص لروض القرطاس[14] جاء فيه أن الحي اليهودي بالمدينة (القديمة)، تعرض لهجوم ليلة تأسيس فاس الجديد بالذات، أدى إلى هلاك أربعة عشر يهودياً. فنُقِلوا على إثر ذلك لحمايتهم من غضب الشعب. لكن روض القرطاس لم يذكر بتاتاً أنهم رحلوا آنذاك، وشهادة العمري قاطعة تقول إنه لا وجود لليهود بفاس الجديد في منتصف القرن الرابع عشر. وأكثر من ذلك، فإن كتاب تاريخ يهودي يرجع أصله إلى آخر القرن التاسع عشر[15] عُثر عليه بفاس يشهد بأن ميموناً سكن في بداية القرن الرابع عشر دار المكّانة بالمدينة وذلك يدلّ على أن اليهود كانوا يقطنون بالمدينة، مختلطين بالمسلمين اختلاطاً كثيراً أو قليلاً.

ويذكر ليون الإفريقي ومارمول، بخلاف ذلك، أن اليهود كانوا في ملّاح فاس الجديد في بداية القرن السادس عشر. فماذا حدث في هذه

---

(14) ص. 216.

(15) سماش، تاريخ، ص. 83.

الأثناء ؟ وما هي الظروف التي فرضت الهجرة على اليهود[16] ؟ لم تكن الشروط القائمة مساعدة إلى حد ما ، فقد فضل عدد من الإسرائيليين أن يعتنقوا الإسلام على أن يخضعوا لها ، هذا ما يفسر وجود عائلات من بين مسلمي فاس تحمل أسماء عبرية بنوع خاص أمثال الكوهن وابن شقرون .

وباختصار ، فإن فاساً الجديد اشتمل في القرن السادس عشر على حي إسلامي محض في ضواحي دار المخزن ، حي يهودي محض يحمل اسم الملاّح ، وحي عسكري تجاري دولي في آن واحد ، يحتك فيه ، دون أن يصطدم على ما يبدو المسلمون والنصارى من هؤلاء الأسرى أو الأحرار .

ذلك هو المظهر البشري لفاس الجديد ، ولا بد من إيراد كلمات عن مظهره المعماري . فالشيء الذي يسترعي النظر أكثر هو خاصيته العسكرية المتمثلة في وجود عدد قليل من الأبواب المحروسة بقوة إذا ما اعتبرنا باب السمّارين القديم القائم في الطرف الجنوبي للطريق الكبرى ؛ وفي السور المزدوج[17] الذي يفصل بينه درب واسع للعسس حيث يستطيع عدد كثير من الجند أن يتمركزوا فيه في حمى من القذائف ، الواقع على جزء كبير من الحافة ، وبخاصة جهة المدينة . هذه الأسوار ذات الشرفات التي كانت تُضاف إليها من مسافة لأخرى أبراج متينة مربعة ذات شرفات كذلك ، كانت لها قيمة عسكرية كبرى ، نظراً لوسائل الهجوم في ذلك العهد ؛ ولم تخل أيضاً من جمال فيه شيء من السذاجة والضخامة . وفعلاً ، كان يوجد على الأقل مجموعة معمارية ذات مظهر أنيق في هذه الوفرة من التحصينات ، كالباب المدعوّ باب السبع الذي لا شك أنه سُمي بسبب صورة كانت تزينه واضمحلت اليوم ، والباب يحمل اليوم اسم باب الدكاكين في أرضية خالية . وقد اشتهر

(16) يروي التاريخ اليهودي الذي ذكرته أن هذا الحدث كان سنة 1838 ، لأن اليهود اتُّهموا ـ على ما يبدو ـ بكونهم ملؤوا خمراً مستودعات مصابيح الجامع (؟) . ويضيف أن ذلك « كان منفى مُرّاً وبشعاً » (نفس المرجع ، ص . 91) .

(17) انظر العمري ، ترجمة كودفروا دومومبين ، ص . 156 .

رسم هذا الباب بالصور العديدة وطوابع البريد العتيقة . ومن هذا الباب كان الدخول إلى المدينة الأمبريالية عندما يصل القادم إليها من خارج . وما زلنا نجد آثاراً كثيرة دالّة على العهد المريني ، كالجامع الكبير ومساجد الأحياء السالفة الذكر ، وبناية كانت تقوم مقام مخزن للحبوب، ثم أصبحت سجناً باسم حبس الزبالة[18] . هذه الآثار الأنيقة أو الفخمة ، لكنها كلها مفيدة لسبب أو لآخر ، دلائل قاطعة على المجهود الذي بذله المرينيون لتجميل حاضرتهم .

أضف إلى ذلك أنهم ربما كانوا قد أحدثوا منذ أواخر القرن الثالث عشر (1286 -87) في شمال المدينة على حدور ربوة عارية الآن ، بستاناً تزينه أحواض مربّعة ما زال ممكناً مشاهدة أثرها على التربة ، ويُسقى من ماء قناة كانت تأخذه ناعورة عظيمة قطرها 26 متراً وعرضها متران في وادي فاس (وكان هذا مأخذ الماء الوحيد في عالية المدينة)، وترفعه الى العلو المرغوب فيه[19] .

المدارس : ـ مهما بذل المرينيون من جهود لصالح مدينتهم الخاصة ، فإنهم لم يهملوا مع ذلك المدينة (العتيقة) إذ يوجد أثر مجهودهم البنّاء في كثير من المواضع .

ـ الكلّ يعرف أنهم مشيّدو المدارس . فخلافاً للمرابطين والموحدين ، كان المرينيون قد دخلوا إلى المغرب فاتحين ليس غير ، دون أن يستندوا إلى أية إيدولوجية دينية ، ولا أن يدَّعوا إصلاح معتقدات فاسدة .لكنهم بمجرد ما استقروا بالبلاد وخصوصاً بفاس ، أحسوا بالرغبة في تنصيب أنفسهم كحماة للإسلام ، فأدّى بهم ذلك إلى القيام بحملات عسكرية في إسبانيا للوقوف في وجه الغزو المسيحي من جديد ، وإلى تحمّسهم في نشر الديانة الإسلامية .

كان التعليم ، حتى مجيء المرينيين ، يُلقَّن بدون شك في المساجد ، أو في أهمّها على الأقل ، وهو جامع القيروان وجامع الأندلس . لكن مثل هذا

(18) دولار وزيير ، حبس الزبالة بفاس الجديد ، ص . 619 - 626 .

(19) بريصوليه ودولاروزيير ، الناعورة الكبرى وقناة المشور القديم بفاس الجديد ، ص. 627 - 640.

النظام كان من شأنه أن يستبعد مادياً الطلبة الغرباء عن فاس ، أو الذين ليست لهم اتصالات تمكنهم من الحصول على سكن . فقرر المرينيون إحداث مؤسسات خاصة يجد فيها شبان البوادي السكنى والطعام والغذاء الفكري . فكانت المدرسة تشتمل على عدة حجرات يبيت فيها هؤلاء الشبان ، وأحياناً على قاعات للدروس ، على الأقل في البوعنانية البعيدة بعض الشيء عن المساجد الرئيسية ، ثم على قاعة يؤدي فيها الطلبة فرائضهم الدينية . وقد أنشئت اثنتان من هذه المدارس كمساجد جعلت لهما صومعتان كان المؤذن يدعو منهما إلى الصلاة سكان الحي وطلاب المؤسسة الداخليين في آن واحد . وخُصصت موارد مالية للأحباس لصيانة هذه المدارس وتوفير الخبز اليومي للطلبة .

أول مدرسة شُيّدت هي مدرسة الصفّارين(*)، الواقعة بين جامع القرويين والوادي، وسط دكاكين الصفّارين. ومعلوم أن مؤسسها هو أبو يوسف، مؤسس فاس الجديد ، لكن في تاريخ نجهله . ويكتفي روض القرطاس بالقول إن الكتب العربية التي سلّمها دون سانش لبني مرين في الصلح المبرم عام 1285/684 -86 حُفظت في المدرسة التي أسسها أبو يوسف . فالمدرسة التي تهمّنا سابقة إذن لهذا التاريخ .

وفي عام 1320/720 أمر السلطان أبو سعيد عثمان بتشييد مدرسة ثانية بجوار الجامع الكبير بفاس الجديد حيث كانت تُلقّن بعض الدروس بدون شك . وسرعان ما اتخذت اسم مدرسة فاس الجديد أو مدرسة دار المخزن ، إذ لم تلبث أن ضُمّت إلى كتلة القصر .

(*) هذه هي الرواية الشائعة المستندة إلى كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ، لكن هناك نصوص تاريخيّة أخرى تؤكد قيام كل من المرابطين والموحدين بتأسيس مدارس، ومنها مدرسة الصابرين التي بناها يوسف بن تاشفين اللمتوني عندما دخل الى فاس في منتصف القرن الخامس الهجري . انظر عبد الهادي التازي ، جامع القرويين ، 1 : 122 . (مترجم) .

وفي السنة الموالية عزم ابن أبي سعيد ، وهو أبو الحسن الذي لم يكن آنذاك سوى ولي عهد ، على بناء مدرسة ثالثة بالقرب من جامع الأندلس . وقد قام بذلك أحسن قيام ، إذا اعتبرنا على الأقل المصاريف التي قيل إنها جاوزت مبلغ 100.000 قطعة ذهبية . وفعلاً ، كانت هذه المدرسة أكثر سعة وأحسن زخرفة من سابقاتها ، مؤلفة من بنايتين تحيط كل واحدة منهما بصحن ، أطلق عليهما أولاً اسم المدرسة الكبرى والمدرسة الصغرى ، ثم سميت الأولى مدرسة الصهريج ، لأن صهريجاً مربعاً كان يحتل وسط الصحن كله ؛ ثم سميت الأخرى مدرسة السبعيّين نسبة إلى القراءات السبع التي من المحتمل أنها كانت تُدرَّس بها .

وبعد سنتين ، في عام 1323/723 ، أمر أبو سعيد عثمان بفتح ورش لبناء مدرسة رابعة ، بجانب جامع القرويين ، في مدخل سوق العطارين . حملت اسم مدرسة العطارين وتم بناؤها سنة 1325 .

وبعد فترة من التوقف ، أستؤنف بناء المدارس في 747/1346-47 ، حين قرر أبو الحسن وقد أصبح سلطاناً تشييد مدرسة جديدة قرب جامع القرويين ، أفسح وأجمل من سابقاتها . فاستورد من ألمرية بيلة من الرخام الأبيض نقلت بحراً إلى مصبّ سبو ، ثم وُسقت وجُرَّت بالجبال عبر النهر إلى أن وصلت إلى ملتقاه مع وادي فاس ؛ وهذه إحدى المناسبات النادرة جداً لاستعمال سبو كطريق صالحة للملاحة . تلك هي المدرسة المصباحية أو مدرسة الرخام .

واختتم السلطان أبو عنان أخيراً سلسلة المدارس المرينية بفاس بتشييد المدرسة العظيمة التي تحمل اسمه (المدرسة البوعنانية) بحي الطالعة ، القريبة جداً من القصبة المرابطية القديمة ـ الموحدية ببوجلود . وشيد في الجانب الآخر من الطريق دار المجانة التي ما زالت تشاهد بها النواقيس الثلاثة عشر من البرونز المركّبة على دعامات من الخشب المنقوش ، والتي يصعب استرجاع كيفية تشغيلها . قد كلف كل ذلك أثماناً غالية ، كما يقول ليون الإفريقي . ولما زار أبو عنان المبنى عند انتهائه وطلب سجل الحسابات فسلّمه

له أرباب الأشغال خائفين على ما يبدو من ثقل المصاريف ، لكن صدرت عنه حركة أمير عظيم ، حيث إنه مزَّق الوثيقة ، وألقى بها في النهر الذي يخترق المسجد ، ثم أنشد هذا البيت لأحد الشعراء العرب :

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما قرَّت به العين ثمن(*)

ولمزيد من التدقيق ، لابد من ذكر مدرسة اللَّبَّادين التي تشير النصوص إلى وجودها بمقربة جامع القرويين ، ومن المحتمل أن تكون مرينية ، لكن يجهل تاريخ تشييدها واسم مؤسسها . ويدعو الإشعاع الخافت الذي كان لها إلى الاعتقاد بأنها كانت مدرسة متواضعة من الفترة الأولى[20] .

وتجمّع هذه المدارس في الموقع إيحائيّ يطلعنا تماماً على الأهمية النسبية لمختلف المراكز التعليمية بفاس لذلك العهد . فجامع القرويين هو الذي يحتضن أكبر عدد من الدروس ، وأهمها على وجه الاحتمال . وبقربه شيدت المدرسة الأولى ، وهي مدرسة الصفارين ، ولعلّ الثانية هي مدرسة اللّبّادين ، إذا كانت ـ كما هو المحتمل ـ معاصرة لها أو تكاد . وأضيفت بعد ذلك مدرستان جديدتان إلى الأولى ، في نفس المكان تحت جدران الجامع الشهير ، وهما مدرسة العطارين والمدرسة المصباحية . هنا يجب إذن أن نجعل المركز الفكري والروحي لمدينة الأمبراطورية المرينية ، دون أن نتعرض لخطإٍ محتمل .

وما زال جامع الأندلس مركزاً فكرياً لا يخلو من أهمية ، إذا حكمنا عليه

(*) يتعلق الأمر بالسلطان أبي الحسن المريني لا بولده أبي عنان ، وذلك على أثر إنشائه مدرسة الرخام المعروفة بالمدرسة المصباحية جوف جامع القرويين . انظر أ. الناصري ، **الاستقصا** ، 3 :176- 177. (مترجم).

(20) كانت هذه المدرسة تحتل ـ حسب رواية احتُفظ بها بفاس ـ موقع عمارة بنك الدولة المغربية ودمرت بأمر من السلطان العلوي مولاي رشيد، لأن الطلاب دنَّسوها بالحياة الخليعة التي قضوها فيها . وقد استفدت هذا الخبر من صديقي السيد عبد الوهاب لحلو .

من خلال ضخامة المدرستين المتجاورتين التوأمتين : مدرسة الصهـريج ومدرسة السبعيّين . وبالاقتصار على اسم هذه المدرسة الأخيرة ، يبدو أن المركز الثقافي لحي الأندلس كان متخصصاً في بعض العلوم الفرعية .

ويظهر أن مركز التعليم الذي أراد المرينيون إحداثه في الجامع الكبير بفاس الجديد لم يَنْمُ كثيراً حيث إن مدرسة القصر الصغيرة لم تكن لها أخت في هذه المنطقة . ولما أراد الملك المَزهوّ أبو عنان تشييد مركز ثقافي جديد على مستوى طموحاته ، لم يفكر في إقامته بفاس الجديد ، لكن في المدينة القديمة . وكأن إنشاء المدرسة البوعنانية يعني أن اللامركزية الفكرية بفاس لا يمكن أن تتم خارج فاس البالي . ومن المحتمل كذلك أن المدرسة البوعنانية ، بالرغم عن مساحتها الفسيحة وترفها ، لم تستطع منافسة جامع القرويين العتيق ، لأن أحداً من المؤلفين لم يخبرنا عن الدروس التي كانت تُلقى فيها ولا عن الأساتذة الذين كانوا يدرِّسون فيها ، إذ لو كان ذلك مشهوراً لعُرف .

إن الذين زاروا فاسا يعرفون جمال هذه الآثار التي هي في نفس الوقت متشابهة ومختلفة . فالمدارس تشكّل الإطار لتأملات العلماء أو لأحلام الصبا لطلبة فاس ، وهي بالتأكيد تسهم في تهذيب وتنويع أرواح البدويين البسيطة وإظهار الفروق الدقيقة لهم حين يأتون ليقيموا بها سنوات . تلك هي مدرسة الصفّارين ، بكرومها المحيطة بالصحن وصومعتها الصغيرة المتـواضعة ؛ ومدرسة الصهريج ، الساذجة الوقورة ؛ ومدرسة العطارين ، الدقيقة ، الرقيقة التي تكاد تكون مفرطة في زخرفتها ؛ والمصباحية بحوضها الرخامي ، والبوعنانية الفخمة الشاهدة الوفيّة بعظمة أفكار أبي عنان ، كلّها تلعب في المخيّلة بفوارقها الدقيقة المتنوعة ، مشكِّلة لها جميعها مظهراً أخّاذاً بكيفية خاصة لشخصية فاس .

شيّد بنو مرين بفاس البالي كذلك مساجد لطيفة على العموم ، كجامع الشرابليين أو جامع أبي الحسن القريب جداً من المدرسة البوعنانية ، لكنهم لم يشيدوا مسجداً كبيراً يماثل مساجد فاس الجديد ، ولم يتعرضوا إلا قليلاً

للمساجد الموجودة لكونها كانت مطابقة بدون شك لحاجيات الوقف .

ولا يمكن أن ننسى بالتالي أن تعظيم مولاي إدريس ، الذي أُهمل منذ الدولة الزناتية، قد بُعث أيام المرينيين . ففي عام 1437/841 اكتشف قبر ولي المدينة الصالح ، المنسي منذ قرون ، ووجد جثمانه محفوظاً بكيفية خارقة للعادة . فاسترعت هذه الكرامة مرة ثانية انتباه الجماهير إلى هذا الصالح الكبير ، ومنذئذ لم يزل تعظيمه يزداد شأناً . فترك المرينيون الحرية للناس في ذلك عن طيب خاطر، مقتنعين بأن إشعاع هذا الصالح سينعَكس على دولتهم.

ولم تكن المباني الدينية وحدها هي التي أُنشئت تحت حكم هؤلاء الأمراء المشيّدين ، بل ما زالت تُشاهَد بفاس بعض الدور الراجعة إلى عهدهم بأبواب جميلة من الخشب المنقوش ، وتيجان أعمدة مزخرفة باعتدال ، ونقوش دقيقة على الجص[21] . كما يوجد مستودع هو فندق التطوانيين الذي نُقشت قبة مدخله المصنوعة كلها من الخشب مزخرفة بنقوش دقيقة . ويسمح اسم هذا الفندق بالظن أن التجار الغرباء عن فاس كانوا يجتمعون في ذلك التاريخ بحسب أصلهم .

ولم يكن فاس الجديد والمدينة القديمة كل شيء ، بل كانت المدينة تتدفق خارج أسوارها . فبالإضافة إلى البساتين التي تحدثنا عنها شمال فاس الجديد ، شيَّد السلاطين المرينيون قصراً ومسجداً على الربوة التي تشرف مباشرة على المدينة العتيقة من جهة الشمال . إلا أنه للأسف لم يبق منها سوى محراب وبعض أنقاض بلا شكل محدود لا تسمح باستعادة تصميم البناء .

لا أعرف هل كان هذا البناء جميلاً ، لكن كان يتيح للملوك التمتع من ثمَّ بمنظر شامل عجيب : مدينة ضخمة تحت أقدامهم ، وسلسلة من الجبال الشامخة في الأفق بينهما قطعان من التلال الشقر أو الخضر حسب الفصول ، حيث يتلاعب الضوء والظل عند مغيب الشمس .

---

(21) ماسلو وطيراس ، دار مرينية بفاس ، في أعمال المؤتمر الثاني لرابطة الجمعيات العالمة لإفريقيا الشمالية .

وعلاوة على ذلك يشير ليون الإفريقي إلى وجود خمس قرى خارج الأسوار ، منها أولاً مستشفى الجذمي المشتمل على مائتي دار شمال المدينة القديمة ، بداية بين باب المحروق وهضبة المرينيين ، ثم عند قدم هضبة المرينيين قرب باب عجيسة[22] ؛ فثلاثة تجمعات سكنية ، يتركب أحدها من خمسمائة كانون ، في ناحية مطامير المرابطين ، يتردد عليها أشخاص يعيشون عيشة فجور ، ويشتمل الثاني على مائة وخمسين كانونا ، والثالث على أربعمائة كانون في شمال فاس الجديد ، يسكن كلا منهما عمّال ؛ وأخيراً على ضفة النهر ، في عالية فاس الجديد ، نحو مائة كوخ للصبّانين . وتجدر الإشارة إلى أنه ، في عهدنا هذا ، حيث تختنق فاس مرة أخرى داخل أسوارها ، فإن بعض المواقع قد مُلئت من جديد بالبنايات الخفيفة التي أشار إليها ليون الإفريقي .

وضعية فاس في آخر الفترة المرينية : ـ هكذا تظهر لنا فاس في آخر الدولة المرينية،مطبوعة بعمق بطابع هؤلاء البُناة العنيدين. إنهم لم يخلقوا مدينة جديدة أخذت تنمو نمواً مطرداً فحسب ، ولكنهم ، بمدارسهم ، ومساجدهم ، بالازدهار الذي نشروه فساعد على إحداث الدور ، والفنادق ، والدكاكين والفسقيات ، أضفوا على المدينة الإدريسية المظهر الذي ما زالت تحتفظ به . ورغم ذلك ، فإن فاسا لم تكن على عهد المرينيين إلا عاصمة امبراطورية منقوصة : إسبانيا لن تُذكر بعد قليل بسبب الغزو المسيحي الذي يتقدم بسرعة ؛ واتضح أن انتصارات بني مرين بإفريقيا الشمالية تبيّن أنها هشّة زائلة ، فقد انهارت قوات ملوك المغرب في الكفاح ضد تلمسان دون طائل ، ولم يبسطوا في الواقع نفوذهم سوى على المغرب ، وأفلت من أيديهم جنوب البلاد بكامله منذ القرن الخامس عشر . لكن فاساً استفادت من السرعة المحصل عليها أيام الموحدين وأحسنت استغلال مكانتها كحاضرة مرينية ؛

---

(22) كان مستشفى الجذمي يحتل أولاً مكاناً شرق المدينة في ناحية كَراواوة ، ونراه في أيام المرينيين ينتقل مرتين ليختفي تماماً في تاريخ نجهله .

ولما لم تجد بعدُ أمامها إسبانيا إسلامية، فإنها عقدت علاقات تجارية مع اسبانيا والبرتغال المسيحيّتين ، ومع الجنويّين والبندقيّين . ويبين لنا وصف ليون الإفريقي أنها كانت تحتفظ بمظهر من الازدهار في الوقت الذي كان آخر الوطاسيين يجرّون بعناء بقية رمق من الحياة .

يمكن اعتبار أن سكان فاس في بداية القرن السادس عشر مثل السكان الذين نراهم فيها الآن . فقد وفد عليها آنذاك عنصران أساسيان ، هما عنصر اليهود الذين أسلموا ، وعنصر وحدة جديدة من الأندلسيين الذين غادروا إسبانيا عقب احتلال المَلِكَيْن الكاثوليكيَّيْن لغرناطة . ويستحيل تدقيق الأهمية العددية لهاتين المجموعتين ؛ إلا أنه لا يمكن تصوّر أنها كانت ضعيفة إذا راعينا المكانة التي احتفظ بها هؤلاء حالياً في المدينة .

يُعدّ اليهود الذين أسلموا من أهم تجار المدينة ، لأنهم ظلوا أوفياء لتقاليد أسلافهم وللمكانة التي كانوا يحتلونها بدون شك في الوقت الذي اعتنقوا فيه الإسلام ؛ فكان الباعة بالجملة في فاس يُختارون خاصة من بينهم . وقد امتزجوا حسب الظاهر امتزاجاً كلياً بالسكان المسلمين ، إلا أن بعض الفوارق الطفيفة ما زالت تميّز بينهم[23] . وفي العهد الذي نتحدث عنه كان اعتناقهم الإسلام ما زال حديثاً ، والمفروض أن تكون هذه الفوارق أكثر بروزاً .

أما الأندلسيون فقدموا كلاجئين ، حاملين معهم ـ كما يقال ـ مفاتيح منازلهم بغرناطة ، أرواحهم مفعمة بالحنين إلى الوطن . وما زالت هذه المشاعر يُعبَّر عنها إلى يومنا هذا في قصائد تنشد في الأعياد مصحوبة بالموسيقى الأندلسية ؛ ومن أشهرها قصيدة تحمل عنوان ، « يا أسفي ! »[24] . غير أن هؤلاء اللاجئين لم يكونوا مغتربين كثيراً بفاس إذ كانوا يجدون فيها

(23) انظر ما يأتي ، الكتاب 7 ، الفصل 1.

(24) انظر ترجمة بعض مقاطع هذه القصيدة عند أوبان ، مغرب اليوم ، ص. 345.

كثيراً من مظاهر الحضارة الأندلسية التي صنعها أجدادهم ، فتأقلموا بدون عناء وأتوا لتقوية النخبة الفكرية والفنية والتجارية للقاعدة الإدريسية . ومنذئذ اتخذ سكان فاس المظهر الذي ما زلنا نراهم عليه حتى اليوم ، باستثناء العبيد السود ، والجزائريين ، وبعض العناصر الوافدة من الصحراء أو جنوب المغرب ، أمثال الفيلاليين وأهل توات ، والسوسيين .

ومنذ القرن السادس عشر ـ والأمر أقدم من ذلك جداً بالتأكيد ـ اتخذت فاس صورة مدينة متحضرة تماماً ، ويكفي لمعرفة ذلك قراءة الصفحات الشهيرة التي خصصها لها ليون الإفريقي . ومع ذلك فإن هذا المارق الجديد(*) لم يكن دائماً عطوفاً على إخوانه القدماء في الدين ، لكنه لا يخلو من أن تتسلط عليه ذكرى هذه المدينة المتحضرة التي لم تستطع فخامة رومة في عهد ليون العاشر أن تنسيه فاساً تماماً ؛ بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بذهن صائب ، فإذا لم يُخْفِ عنا عيوب أهل فاس ، بَلْهَ رذائلهم ، فإنه يعرّفنا بقيمة حضارتهم .

كان يدبّر شؤون المدينة ، كما هو الحال في بداية القرن العشرين ، والٍ يقيم في البناية الوحيدة الباقية في قصبة بوجلود الموحدية[25] ، الأمر الذي يدل على أنه لم يكن ينتمي إلى المدينة القديمة ، وإلا كانت سكناه بها وعاش فيها . وهو يمثل العاهل وينفذ أوامره ، ويرأس الشرطة ويحكم في القضايا التأديبية والجنائية .

ويراقب النشاط الاقتصادي مَنْ يسميه ليون « رئيس القناصل » يعني المحتسب . ويضيف مارمول أنه « يُختار للقيام بهذه المهمة أعظم شخصية ؛ لذلك فإن مشاغله أكثر من مشاغل الوالي »[26] .

(*) الراجح أن الحسن بن محمد الوزان الفاسي الذي أُسر بروما وسُمّي جان ليون بعد أن أظهر التمسح ، بقي على إسلامه . انظر مقدمتنا للترجمة العربية لكتاب وصف إفريقيا (مترجم).

(25) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 112 .

(26) مارمول ، الكتاب 2 ، ص. 165.

وأخيراً كان الحكم في قضايا الأحوال الشخصية بيد القاضي يساعده نائب « مكلف ـ يقول ليون ـ بمسائل الزواج ، والطلاق ، واستنطاق الشهود والحكم العام »[27] .

فكان نظام فاس إذن أيام المرينيين ـ باستثناء بعض التفاصيل ـ كما وجدناه في بداية القرن العشرين[28] .

وتحت هؤلاء الموظفين الرئيسيين الثلاثة يأتي الذين يسميهم مترجم مـارمول[29] « ضباط الأحياء » ، أي المقدّمين الموجودين دائمـاً « الذين يُختارون من بين أهم السكان » ؛ غير أن المؤلف لم يوضح ـ للأسف ـ مَنْ كان يقوم بهذا الاختيار . وكانت المهام المنوطة بهم هي السهر على النظام ولاسيما ـ على ما يبدو ـ تجنيد من يطلبهم المخزن للغارات العسكرية وجباية الضريبة المتوقعة للتعويضات[30] .

وكان لليهود نظامهم الخاص : « يحكمهم شيخ أو والٍ يفصل بينهم شرعاً[31] ويقوم بتوزيع ما يؤدونه للأمير »[32] . وأما التجار المسيحيون ، الذين كانوا يسكنون بناية تدعى الديوان ، قرب جامع الـقرويين[33] ، فإنهم جُمِّعوا هم الآخرون ـ على ما يبدو ـ في طائفة ، تحت سيطرة نوع من قنصل مشترك بين جميع الجنسيات تدعوه النصوص البرتغالية فَيْطور[34] .

---

(27) ليون الإفريقي الكتاب 2 ، ص. 113.

(28) انظر ما يأتي الكتاب 4 ، الفصل 1 .

(29) الكتاب 2 ، ص. 158.

(30) نفس المرجع ، ص. 184.

(31) لا يتعلق الأمر هنا إلا بالقضايا الجنائية؛ أما النزاعات الخاصة بالأحوال الشخصية ، فكانت تبتّ فيها المحكمة الربّينية .

(32) نفس المرجع ، ص. 170.

(33) لوطورنو، كلينار ، ص. 51 . ما زال يوجد بالمدينة القديمة ، قرب جامع القرويين ، حي يحمل إلى الآن اسم الديوان (الجمرك) ؛ وقد حُوّل الجمرك ، أيام السعديين ، إلى فاس الجديد بجوار القصر (انظر دييگو دي طرّيس ، ص. 132) .

(34) انظر **المصادر الأوروبية لتاريخ المغرب** . البرتغال ، الكتاب 3 ، هنا وهناك .

إن ليون الافريقي ، ومارمول الذي يقتبس منه ، تركا كلاهما مشهداً كاملاً شاملاً للنشاط الاقتصادي بفاس في القرن السادس عشر . وهذا النشاط منظم بنفس الكيفية التي هو عليها بعد ثلاثة قرون[35] : فمختلف فروع الصناعة والتجارة مجمَّعة في طوائف[36] وخاضعة لمراقبة المحتسب . والصناعة والتجارة منفصلتان تماماً وتجدان نقطة تلاقيهما في المبيعات بالمزاد العلني ؛ وقد استمر تمركز الحِرَف في مختلف أحياء المدينة تقريباً على الحالة التي هو عليها حتى عهدنا هذا . وتنقسم الأسواق إلى عدة أصناف ، حسبما يتعلق الأمر بأسواق الأحياء التي يجتمع فيها تجار من جميع الأصناف ، أو بأسواق مختصة ، كأسواق الحبوب ، والزيت ، والمواشي ، والقنّب المغزول[37] .

إن الفرق البارز بين العهد المريني والعهد الحديث هو أن الحياة الاقتصادية كانت آنذاك أكثر نشاطاً جداً : فإن الأرقام التي يدلي بها ليون الافريقي لكل تخصّص غالباً ما تكون أعلى من أرقام سنة 1912[38] ، فكان النسيج مثلاً يستخدم عشرين ألف شخص في أوائل القرن السادس عشر[39] .

---

(35) انظر ما يأتي، الكتاب 5 ، الفصل 2.

(36) الحق يقال ان ليون لا يذكر طائفة ، هي طائفة زرزاية (الحمّالين البربر ، الكتاب 2 ، ص. 91 وما بعدها) . لكن مَن هم يا ترى « القناصل » الـذين يترأسهم المحتسب ، إن لم يكونوا هم أمناء الطوائف ؟

(37) إليكم التفاصيل الرائعة التي يعطيها ليون (الكتاب 2 ، ص. 97) عن سوق خيط الكتّان هذا الذي كان يقام - على ما يحتمل - في ساحة حي الصاغة التي ما زالت لوقتنا هذا تظلها أشجار التوت : «وقد غرس في وسط ساحة السوق عدد من أشجار التوت لنشر الظل . ويذهب الناس إليه أحياناً بقصد التسلية ، ولا يمكن الخروج منه إلا بجهد جهيد لكثرة ما به من نساء يختصمن في بعض الأحيان ، ويتحول سبابهن إلى عراك وقذف بأبشع ما يمكن من الشتائم فيُضحكن الحاضرين » .
الجزء 1 ، ص 188 من الطبعة الأولى لترجمتنا لهذا الكتاب .

(38) انظر ما يأتي ، الكتاب 2 ، هنا وهناك.

(39) ليون الافريقي ، الكتاب 2 ، ص. 108 . وحتى إذا قدرنا أن هذا الرقم مبالغ فيه وأنه يجب تخفيضه إلى النصف أو حتى إلى الثلث ، فإن عدد النساجين أيام بني مرين كان بالتأكيد أعلى من الرقم المسجل في القرن العشرين .

ومن جهة أخرى فإن التجارة إذا كانت مركّزة في عدوة القرويين ، فإن الصناعة كانت متزايدة في عدوة الأندلس . وأخيراً ، فإن التجارة مع أوروبا ، التي ربما نشأت منذ العهد الموحدي ، عرفت ازدهارا عظيماً بقدر ما أخذت المبادلات مع إسبانيا الإسلامية تتناقص شيئاً فشيئاً . كانت فاس تبيع إلى البرتغال الحبوب والجلد[40] ؛ وتتبادل مع الإنجليز منتوجات متنوعة ، خاصة منها المنسوجات والمواد الصناعية التي كانت تستوردها ، والتمر ، والجلود والزرابي التي كانت تصدّرها[41] . وكانت الموانىء التي ترسو فيها السفن الجنوية والبندقية هي سلا والمعمورة (المهدية)، والعرائش ، ولا سيما بادس (ڤيليز دي كميرة) ، « وهو أقرب ميناء من مدينة فاس »[42] .

ويعطي ليون الإفريقي أيضاً عدة معلومات عن أخلاق فاس . ومهما تعلّق الأمر بالزواج ، وقضاء الوقت ، وآداب الأكل ، واللباس ، وترتيب المنازل[43] ، فإن كل ما يقوله تقريباً يمكن أن يطبّق على فاس أيام مولاي عبد العزيز ، دون أن يدخل عليه أي تغيير .

والفرق الكبير الذي يجب تسجيله هو أنه يظهر أن الأخلاق كانت أكثر إباحية مما هي عليه في العهد الحديث : فكأن مؤلفنا يذكر أن النساء لم يكنّ يخرجن كلّهن منتقبات[44]. ويلحّ بالخصوص متلطفاً على اللوطيين وشاربي

(40) ر. ريكار ، الحصون البرتغالية بالمغرب .

(41) ج كايي ، التجارة الإنجليزية .

(42) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 275 .

(43) إن النص التابع يبدو أنه يبين أن سطوح فاس ، في القرن السادس عشر ، كان فيها شبه مقاصير عُدِلَ الآن عن استعمالها : « كما أن من عاداتهم اتخاذ برج في دورهم يشتمل على حجرات جد مريحة وميسورة تأتي إليه النساء ليتسلين بعد الملل من خدمة الإبرة ، إذ يمكن من أعلاه الإشراف على مجموع المدينة » (الكتاب 2 ، ص. 68) . كما أنه يتكلم عن « أحواض مصونة بنقاوة ونظام» حيث « يجعل النساء والأطفال يستحمّون ويسبحون » في فصل القيظ . وعاد مثل هذا الترف اليوم شيئاً استثنائياً تماماً .

(44) إليكم النص الذي يمكن أن يستخرج منه هذا التأكيد : « بعضهن يحجبن وجوههن بقماش . . . » (الكتاب 2 ، ص. 117) . فكأن استعمال كلمة بعضهن يدلّ على أن غيرهن لا يستعملنه .

الخمر الذين كانوا يترددون إلى فنادق ذلك العصر ويعملون في الجيش كطهـاة[45] . إلا أنه سرعان ما يضيف قائلاً « إن الشعب كله قاطبة يكنّ لهم كراهية قاتلة » . ولنستنتج من ذلك فقط أن الاهتمام بالظواهر أيام المرينيين كان أقلّ شيئاً مّا مما سيكون عليه تحت تأثير دول الشرفاء .

ويبدو أخيراً أن الحياة الفكرية كانت أقلّ إشعاعاً في القرن السادس عشر مما يُحتمل أنها كانت عليه من ذي قبل : يؤكد ذلك ليون بأتمّ وضـوح[46] ويؤيد كلينار قولـه[47] . وقد يقال إن هذه الاستشهادات مشبوه فيها بعض الشيء لكونها صادرة عن مسيحي مترهب مارق حديث العهد بالتنصر ؟ إلا أنه يجب أن نسلّم أنهما معاً عاقلان يحسنان النظر إلى الأشياء ، وقد برهنا على ذلك بأكثر مما يكفي ، إضافة إلى أن كلينار كان يذهب إلى فاس وكأنه يقصد أحد مصابيح الإسلام غير أنه خاب ظنه بها كثيراً . وهكذا إذن ، فعلى الرغم من الجهود التي بذلها الملوك المرينيون لتنمية العلوم الإسلامية ، يبدو أن المركز الفكري لفاس ، وهو بعيد كل البعد عن النمو ، قد تقلّص بكيفية مذهلة . يتّهم ليون الإفريقي بذلك « حروب سعيد » ، يعني الفترة المضطربة التي بلغت ذروتها أيام حكم أبي سعيد عثمان الثالث (1414-1420) . لكن ينبغي أن يُعزى ذلك إلى الانكماش التدريجي للدولة المرينية المختنقة بين ملوك تلمسان والبرتغاليين الذين تمكنوا من وضع أقدامهم في المغرب عام 1415 ، من جهة ، وبين ولاة مراكش الذين أصبحوا عملياً مستقلين في الثلث الأول من

---

(45) الكتاب 2 ، ص. 84 -87 .

(46) « . . . لا يلازم المدارس سوى بعض التلاميذ الغرباء الذين يعيشون من صدقة المدينة وإقليمها ، وإذا حدث أن يوجد منهم مَنْ ينتمي إلى المدينة ، فلا يتجاوز الاثنين أو الثلاثة » . (الكتاب 2 ، ص. 76) .

(47) لا يتحدث كلينار عن عدد الطلبة ، بل عن جودة محصولهم ، كما يلي : فحسب رأيه ، إن طالب فاس الذي يستظهر أحزاباً من القرآن يفهمها « تقريباً كما يفهم شعرَ إِنّيُوس تُومَائِيٌّ يقرأ الفلسفة في القرون الوسطى بعد دراسة الإسكندر وبيير الإسباني . . . » (لوطورنو، المقال المذكور ، ص. 56) .

القرن الخامس عشر من جهة أخرى . فانخفض الإشعاع الفكري لفاس بمقدار أهميتها السياسية .

إذا فكرنا جيداً في كل شيء ، وجدنا أن الارتسام الذي تتركه فاس في الوقت الذي يوشك المرينيون أن يغادروها هو أنها مدينة مائلة إلى الانحطاط، انحطاط سياسي بالغ الوضوح ، وانحطاط اقتصادي كذلك ، لأن المبادلات التي بدأت مع المسيحيين كثيراً ما كانت تعرقلها الفوضى المتصاعدة والانحطاط الفكري الناتج هو الآخر عن تدهور الدولة المرينية . فالواجهة ما زالت بعد مشرقة، لكن الفراغ وراءها كان يُحفر أعمق فأعمق: ذلك أن الوثوب الذي عرفته مع الموحدين وبداية المرينيين قد تحطم ، وكما عادت فاس بعد ذلك أيام مولاي عبد العزيز ، أخذت توجه نظرها شطر أوروبا ، والسلطان يقتبل عن طيب خاطر لا التجار المسيحيين فحسب ، ولكن حتى الرهبان مثل كلينار . فتسامحٌ بهذا القدر له جماله ، لكن ليس جمال الشدة .

تنسب المخيلة الشعبية للمرينيين أوج عظمة فاس ، وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للسنوات الخمس والسبعين الأولى من ملكهم، مع أنهم استفادوا من العمل الجبار الذي أنجزه الموحدون ، لكنه غير صحيح إطلاقاً بعد غياب أبي عنان . ولا شك أن فاساً عاشت سعيدة طوال قرنين من الزمن ، لكن نموها قد توقف ، مندفعة في ميدانها . وستعرف سقوطها بعد قليل .

5/1

الفصل الخامس

أيام فاس القاتمة

السعديــون : - في سنة 1549 ، أقام الرئيس السعدي أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي الحصار أمام فاس ، وهو إذ ذاك يملك المغرب كله تقريباً . ومرة أخرى أرسلت الصحراء غزاة جدداً نحو الشمال[1] . كانوا يتقدمون مرحلة مرحلة ، أقاموا أولاً في وادي سوس ، ثم في ناحية مراكش ، وأخيراً شعروا بضعف آخِر عاهل وطاسي ، فجاؤوا يهاجمونه في عقر داره .

دام حصار فاس عدة شهور[2] ؛ وكان يمثل روح المقاومة عالم ذو صيت كبير هو عبد الواحد الونشريسي . وحاول السلطان السعدي اجتذابه إلى جانبه ، لكنه لم يتلقَّ منه إلا هذا الجواب الجميل : « تعهَّدتُ بالوفاء لعاهلي ؛ ولا شيء غير موجب شرعي يستطيع أن يحررني من قسمي ، وهذا الموجب غير موجود» . حينئذ عزم محمد الشيخ على اختطافه بواسطة

---

(1) أهمّ المصادر العربية المتعلقة بدولة السعديين هي **نزهة الحادي** للإفراني و**تاريخ الدولة السعدية** لمؤلف مجهول الذي اعتنى بنشره ج. س. كولان .

(*) يظهر أن لوطورنو لم يدرس الدولة السعدية كما يجب ، ولم يطلع من مصادرها إلا على بعض ما ترجم كهذين المصدرين اللذين ذكرهما . ومعلوم أن المصادر العربية وحدها يبلغ تعدادها المئات ، وقد ذكرنا منها جملة صالحة في كتابنا **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين** ، سواء في الهوامش أو في قائمة المراجع آخر الجزء الثاني ، فلتراجع هناك . (مترجم) .

(2) انظر عن هذا الحصار : **تاريخ الدولة السعدية** لمؤلف مجهول . ص. 9 و 15 .

عملاء ، لكنهم قتلوه حين قاومهم . ولم يغفر سكان فاس للدولة الجديدة مقتل عالمها الجليل . ومع ذلك استولى السعديون بعد ذلك بقليل على المدينة ، وهم ما يزالون بحالة بداوة ـ حسب قول المؤرخ الإفراني ـ عاداتهم لا تروق الفاسيين المتعودين على تهذيب أكثر. يكتب الإفراني: «يقال إنه لما دخل مدينة فاس وعليه وعلى أصحابه المدرعات الصفر وسمة البداوة لائحة عليهم ، حملوا أنفسهم على التأدب بآداب الحاضرة والتخلق بأخلاق المدينة »[3] . وكان وزير مريني سابق وقَيِّمة في القصر هما اللذان توليا تعليمهم الآداب الحسنة ، سواء لتدبير الحكم أو القيام بأعمال الحياة اليومية[4] .

فكان الطارئون الجدد يبدون لأهل فاس غلاظاً وسفاكين . فليس من المستغرب إذن أن يكون أحد الوطاسيين الذي أفلت من مذبحة الأسرة المخلوعة ، وهو أبو حسون ، قد استطاع أن يقيم مرة ثانية بفاس بمساعدة جيش تركي جاء به من عاصمة الجزائر برئاسة الباشا صالح رايس ، عام 1553 أو 1554[5] . لكن السعديين عارضوه بشدة : إذ رجعوا بقوة بعد تسعة أشهر ، فحاصروا فاساً للمرة الثانية واستولوا عليها . وقتلوا على الفور قاضي قضاة المدينة أبا محمد عبد الوهاب الزقاق الذي اتهم بتواطؤ مع المُطالب بالعرش الوطاسي . وكان هذا ثاني مقتل أساء جداً إلى سمعة السعديين . بالإضافة إلى أن المنتصرين لم يكتفوا بإصابة الثوار ، وإنما أصابوا السكان كافة . « وتحكم [السلطان] في أهل فاس بالإذلال والإهانة وأدى حسائفه فيهم ونفى أكثرهم للمشرق وأجلاهم للجبال والبوادي »[6] .

وستتخذ فاس منذ ذلك الوقت موقف معارضة صامتة ، لا سيما وأن السعديين سيجعلون من مراكش عاصمة لهم ، غير مهتمين بفاس إلا قليلاً .

---

(3) نزهة الحادي ، ص. 28 .

(4) تاريخ المؤلف المجهول ، ص. 24 و 5 .

(5) كان حماس فاس كبيراً إلى حد أن أبا حسون قضى ثلاث ساعات لقطع المدينة يوم دخوله الرسمي ، لشدة ما كان السكان يزدحمون في طريقه (نفس المرجع ، ص. 17 -21) .

(6) نفس المرجع ، ص. 22 .

فإذا اهتموا بها ، كان اهتمامهم موجهاً إلى استنفار الجنود وإلى مراقبتها ، كما يشهد بذلك الحصون التي شيدوها بها ، الأول بباب فتوح وهو قصبة تَامْدَارْت[7]؛ وبعد بضع سنوات شيدت بنايات أخرى قام بها الأسرى المسيحيون وحملت من أجل ذلك اسم باستيون : واحد في شمال المدينة ، والآخر في جنوبها على تلال تشرف عليها[8] ، وثالث في طرف فاس الجديد الأقرب من المدينة القديمة . ويبيّن موقع هذه الحصون الأربعة جلياً أنها لم تكن مخصصة لحماية المدينة ضد هجوم خارجي ، لكن من أجل مراقبتها وجعلها خاضعة لتهديد مدافعهم .

ورغم ذلك عرفت فاس السلم من جديد ، وربما عرفت أيضاً شيئاً من الازدهار تحت حكم أكبر الملوك السعديين ، أحمد المنصور الذهبي . كان هذا العاهل يكره رعاياه . وذكر الإفراني[9] أنه فاه بالكلمة الآتية أمام قاضي الجماعة بفاس : « إن أهل المغرب مجانين ومارستانهم المحن بالسلاسل والأغلال »[*] ولم تكن مثل هذه الكلمات لتجعل منه ملكاً شعبياً ، لكنه كان حازماً يعرف كيف يفرض النظام فضلاً عن كونه لا يخلو من عظمة . فقد استقبل في فاس عام 1582 سفير سلطان بُرْنُو ، وفد عليه حاملاً كمية هائلة من الهدايا ؛ لا شك أنه كان منظراً رائعاً[10]** .

---

(7) نفس المرجع ، ص. 25 .

(8) **نزهة الحادي** ، ص. 144 .

(9) نفس المرجع ، ص. 143 .

(*) هذا من آثار قصور اطلاع المؤلف في هذا الموضوع ؛ وفصل عبارة الإفراني عن سياقها يفسدها ويلحقها بآية « فويل للمصلين » المقطوعة عما بعدها . وإلا فمحبة المنصور للعلماء ومبالغته في إكرامهم وتعظيمهم أشهر من نار على علم . وفهرس أحمد المنجور كافٍ وحده في الدلالة على ذلك (مترجم) .

(10) نفس المرجع ، ص. 86 .

(**) نسي المؤلف أو تناسى الهدايا العظيمة التي حملها سفراء الدول العظمى إلى المنصور في فاس عقب معركة وادي المخازن ، ومن بينهم سفير فرنسا ! وعمي عن الحفل العظيم الذي عرفته فاس يوم دخلت إليها هدية ملك قشتالة ، والقائم بملك البرتغال عم سيبستان الهالك . . . انظر م . الافراني ،**نزهة الحاوي**، ص. 74 -75 (من الطبعة الحجرية الفاسية) . (مترجم) .

وقد أمر المنصور ببعض الأشغال في فاس ، ولو أنه كان لا يجيء إليها إلا نادراً[11](***) . فعلاوة على التحصينات التي تحدثنا عنها منذ قليل ، أقام خصة من المرمر عند قدم صومعة جامع القرويين[12] ؛ وبعد بضع سنوات بنى أحد حفدته على هذه الخصة رواقاً أنيقاً لوقايته مستوحىً من الرواق الموجود بفناء الأسد في حمراء غرناطة(****) . كما أن أحمد المنصور أمر ببناء قاعة جديدة لخزانة الجامعة(*****) . وكان لفاس الجديد مظهر جميل إذا نحن صدّقنا الرحالة الأوروبيين ؛ فكان التجار المسيحيون يقطنون به في جوار القصر ، كما كان الأسرى فيه دائماً كثيرين[13] . فإذا كانت فاس لم تعش حقاً في سعادة (إذ كانت العاطفة منعدمة) ، فقد عرفت على الأقل الهدوء وربما أخذت نصيبها من الثروات التي حصل عليها السلطان من حملته العسكرية إلى النيجر . فقد أرسل إليها على أي حال فيلاً خرج جميع السكان لمشاهدته وهو يدخل إلى المدينة في 13 أبريل 1599[14] . ومن المحتمل أن تكون العلاقات التجارية بدأت في ذلك التاريخ بين فاس وبلاد السودان عبر تافيلالت وتوات .

الفوضـــى : - لكن موت السلطان الذهبي كان نذير الفـوضى ؛

---

(11) مرتين في المجموع أثناء حكمه الذي دام سبعاً وعشرين سنة ، حسب الإفراني (نفس المرجع ، ص. 169) .

(***) كأن لوطورنو لم يعرف أن فاساً هي مسقط رأس أحمد المنصور ، وأنه بها نشأ وتعلم ،وفيها أقام حاكماً طول ملك أخيه عبد الملك ، ومنها جيش الجيوش التي أبلت البلاء الحسن في معركة وادي المخازن . (مترجم) .

(12) نفس المرجع ، ص. 144 .

(****) بنى المنصور قبة الخصة المجاورة للصومعة ، وحفيده عبد الله بن محمد الشيخ هو الذي بنى القبة المقابلة لها في الصحن . (مترجم) .

(*****) هذا أيضاً جهل أو تجاهل ؛ فالمنصور بنى خزانة مستقلة قبليّ جامع القرويين بجميع مرافقها وعمّرها بالكتب النفيسة التي أوقفها عليها . وما زالت خزانة المنصور هي الخزانة الرسمية للقرويين بالصفارين . ومعلوم أن هناك خزانة مرينية من تأسيس أبي عنان المريني تقع في الركن الشرقي من جامع القرويين . (انظر كتابنا : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، 1 :184)(مترجم) .

(13) دييكو دي طريس ، ص. 137 .

(14) الاستقصا ، 5 :126 (طبعة الدار البيضاء) .

فالمتنافسون على العرش تسابقوا إلى الوزيعة ؛ والقبائل العربية الهلالية التي كان السعديون جعلوا منها جيشاً دائماً رهن إشارتهم ، استرجعوا غرائز النهب التي استطاع المرينيون والمنصور كبحها . فانطلقت عندما شعرت بأنها لم تعد مقيّدة . يقول الإفراني[15] : « وبهم (شراكة) كان السلطان عبد الله بن الشيخ يستعصم حتى أعطاهم أجنّة الناس وديارهم . فكان الرجل يأتي بستانه فيجد أعرابياً بخيمته في وسطه فيقول له : « أعطانيه السلطان » . ومدوا أيديهم في حريم الناس ونهبوا الأموال وجاهروا بالفساد وأظهروا السكر في الطرقات . واقتحموا على الناس ديارهم حتى إن امرأة كانت تطبخ خليعاً وولدها رضيعاً عندها. فاقتحم عليها الدار أحد شراكة فهربت المرأة وأغلقت عليها مشرفة لها ، فلم يقدر لها على شيء . فراودها على النزول إليه فأبت المرأة فقال لها : « إن لم تنزلي إليّ رميت الولد في الطنجير » . فتمادت على الامتناع ، فرمى به . فما هي إلا أن رأته رمى به صاحت صيحة عظيمة وألقت بنفسها عليه فاندقت عنقها فماتت » .

فأمام مثل هذه الفظائع التي لم تعد فاس تعرفها منذ زمن طويل، قامت بثورة تلبيةً لأحد سكانها وأوقعت مذبحة شراكة ؛ وقع ذلك سنة 1611 . ومنذ ذلك العهد بقيت المدينة المسكينة طوال سنوات عديدة متأرجحة بين الأمراء السعديين الذين كانوا يتنازعون الحكم ، والصلحاء البربر الذين كانوا يحاولون تأسيس حكومات ، والقبائل الهائجة . فقُطعت مواصلات فاس بالخارج، وعرفت المجاعات ، ونقص السكان ؛ وخرب العديد من الدور ، ابتداء من الأرباض والأحياء الخارجة عن المركز[16] . وقد أحيت مثل هذه الكوارث المنافسات القديمة ؛ وقامت العدوتان إحداهما ضد الأخرى ، أو بالأحرى انقسمت عدوة القرويين إلى معسكرين ، معسكر اللمطيين ومعسكر الأندلسيين النازحين على إثر احتلال غرناطة ؛ وغدت عدوة الأندلسيين القديمة التي

(15) نفس المرجع ، ص. 207 .
(16) نفس المرجع ، ص. 210 .

صارت تُدعى « العدوة » ثالثة الأثافي .

ولما كانت مدينة فاس الجديد وفيَّة دائماً للعاهل مهما كان الأمر باعتبارها مدينة المخزن، فإنها دخلت مراراً عديدة في معارك ضد المدينة القديمة . يقول الإفراني : « وكانت فاس في أيام هؤلاء على فِرَق وشِيَع لا يأمن التاجر على نفسه إلا إن استجار بأحد من هؤلاء . ووقع من الفتن ما أظلم به جوّ فاس وأنتن أفقها الذي كان عاطر الأنفاس . وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشرُّ بين أهل العدوتين حتى كادت فاس أن تضمحل ويعفو رسمها »[17] . إلى حدّ أنه ، حوالي 1640 ، انقطع الآذان من أعلى صومعة القرويين ردحاً من الزمان[18] .

وسقطت فاس ، سنة 1649 ، في حكم الدلائيين ، وهم بربر من الأطلس المتوسط كانوا قد أسسوا زاوية في بلاد آيت إسحاق[19]* ، واكتسبوا شيئاً فشيئاً تأثيراً كبيراً في وسط البلاد كله . وكانت الزاوية الدلائية حقاً أقوى جميع الخلايا الدينية التي كانت تنتشر في المغرب لذلك العهد[**] . غير أن الدلائيين لم يستطيعوا قط تركيز حكمهم ، فلم تعرف فاس في أيامهم الهدوء الذي كانت تطمح إليه ، مستبدلة سادتها مراراً متعددة . وهكذا أصبحت ، عام 1651 ، لبضعة أسابيع في حكم أحد شرفاء تافيلالت استنجد به الفاسيون ضد أهل الدلاء ، هو مولاي محمد بن الشريف العلوي . وفي عام 1666 ، في الوقت الذي كان علوي آخر ، هو مولاي رشيد المؤسس الحقيقي للدولة ، يقترب من فاس ، قادماً من المغرب الشرقي ، كانت الحالة في

---

(17) وخصوصاً عام 1620 و 1624(نفس المرجع ، ص. 211) .

(18) نشر المثاني ص. 389 .

(*) في طبعتنا الجديدة ـ دار المغرب بالرباط، 1978 -1 :376 .

(19) انظر هنري ، أين كانت زاوية الدلاء ؟ هسبيريس ، جزء 31 (1944) ، ص. 49-54 .

(**) معلومات سطحية ناقصة ، وقد أغفل المؤلف ـ فيما أغفل ـ عهد حكم المجاهد العياشي السلوي لمدينة فاس . انظر كتابنا . الزادية الدلائية . (مترجم) .

المدينة الإدريسية كما يلي : « وكانت فاس قبله تَقَاسَمها الثوار منها في كل جهة قائمٌ وصاحَ في كل كدية ديك . فكان ابن صالح حامي بيضة الأندلسيين ومَن انضاف إليهم كما ألمعنا إليه قبل هذا ، وكان أمر فاس الجديد في يد رجل يقال له الدُّرَيْدي »[20] . وعام 1664/1074 . هُدِّم حي الطالعة الذي كان قد خرب وعُوِّض بمزروعات امتدت من باب المحروق إلى درب الحُرّة[21] .

مولاي رشيد : ـ وبعد عدّة محاولات فاشلة استولى مولاي رشيد على فاس عام 1666/1076 . فقتل أهمّ رؤساء الفرق المتنازعة ، دون ان يثير أهل المدينة ضده ، لأنهم تعوّدوا على أعمال العنف منذ نحو خمسين سنة . على أنه لم يلبث أن عامل الفاسيين معاملة حسنة : « [ولما تمت له البيعة] أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة ، وأظهر إحياء السنة ونصر الشريعة . فحلّ من قلوبهم بالمكان الأرفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة »[22] .

ولم تخدع الفاسيين غريزتُهم ، على ما يبدو ؛ فكان مولاي رشيد يتوفر على فضائل كبيرة من العزم والحاسة السياسية ، بالإضافة إلى أنه كان يهتم بفاس التي اختارها قاعدة له ، إما لغاية بعيدة أو بحسب ذوق شخصي . وبمجرد ما تغلب على خصومه الباقين ، خاصة صلحاء الدِّلاء ، تفرغ لإصلاح حاضرته المنهارة جداً بعد خمسين سنة من المحن وأزيد من مائة سنة من الانزواء .

ويظهر أن الحالة الاقتصادية كانت على أسوإ حال ، إذ اضطر الملك إلى أن يقرض التجار الفاسيين أموالاً لتسهيل استئناف التجارة ، وهذا حدث فريد في تاريخ المدينة[23] . ولكي يسترجع مولاي رشيد الثقة ، ويعطي من جديد

---

(20) **نزهة الحادي** ، ص. 270 .

(21) **الزياني** ، ص. 14 .

(22) **استقصا** ، جزء 7 ، ص. 35 .

(23) نفس المرجع ، جزء 7 ، ص. 41 .

انطلاقة للصناعة ويحمل الخواص على تقليده ، أمر ، علاوة على ذلك ، بإنجاز بنايات مهمة ، منها جسر كبير على وادي سبو لتسهيل المواصلات مع تازا ، وقصبة هي قصبة الخميس شمال فاس الجديد لإيواء قبيلة شراكة العسكرية وترميم قنطرة الرصيف داخل المدينة ، وقصبة أخرى هي القصبة الجديدة التي قد تكون هي قصبة فيلالة الحالية قرب باب المحروق ، وأخيراً بناء مدرسة جديدة بجوار جامع القرويين ، هي مدرسة الشراطين أو المدرسة الرشيدية (باسم مؤسسها) .

فمن المحتمل إذن أن الفاسيين كانوا قد بدؤوا يؤملون بل يتفتحون ، عندما مات السلطان في حادثة بمراكش عام 1672 ، بعد ست سنوات من توليه الحكم . وما أن ذاقت فاس طعم السلم حتى سُلبته من جديد .

مولاي إسماعيل : ـ وفعلاً ، فإن خلف مولاي رشيد ، وهو أخوه الصغير مولاي إسماعيل ، الذي كان عمره 26 عاماً ، لم يخلُ هو الآخر من العزم ؛ ذلك العزم الذي أبداه خلال حكمه الطويل ، فاستطاع أن ينشر الأمن حتى كانت « تخرج المرأة والذِّمّي من وجدة إلى وادي نول (أو وادي نون في الصحراء) فلا يجدان من يسألهما من أين ولا إلى اين . . . . ولم يَبق في هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق . . . . وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية ثقف بها إلى أن يعرف حاله . ومن تركه ولم يحتط في أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره »[24] .

ربما كان كل ذلك على أحسن ما يرام لو لم يكن السلطان نافراً من فاس . فبمجرد توليه الحكم استقرّ بمكناس وبدأ ينجز فيها أعمالاً ضخمة . ولهذا الغرض أمر بإخلاء فاس من جميع الأسرى المسيحيين الموجودين بها لاستخدامهم بمكناس[25] . وفي ذلك التاريخ غادرت البعثة الفرنسيسكانية

---

(24) استقصا ، جزء 7 ، ص. 98 .

(25) هـ. كهلير ، الكنيسة المسيحية بالمغرب ، ص. 150 .

التي كانت تساعد الأسرى مدينة فاس على إثر خروجهم منها .

ولا بد من الاعتراف بأن الفاسيين ساهموا في إذكاء أحقاد السلطان ضدهم ؛ فقد ثاروا عليه لسبب نجهله بعد أن تولى الحكم ببضعة أشهر ، واستدعوا أحد العلويين الطامعين في العرش من أبناء أخي العاهل . فقاومه هذا الأخير ، كما كان من المنتظر ، لكنه لم يتمكن من إعادة الأمن إلا بعد أربعة عشر شهراً[26] . ففرض على المدينة إتاوة ضخمة ، وأخذ لنفسه جميع عبيد الثوار[27] . ومنذ ذلك العهد أصبحت فاس في نظره مدينة متمردة يعاملها بدون هوادة ، غير متردد في أخذ بعض سكانها ؛ وفي سنة 1688 ، « أمر والي المدينة بإيفاد جميع الريفيين إلى تارودانت لإعادة سكانها »[28] .

وفي عام 1704 ، « ورد أمر السلطان على فاس بأن تعطي كل عتبة عظم سرج ، ولا يحرر من ذلك أحد كائناً من كان »[29] . وسقطت فاس ، في نفس المدة ، في قبضة سلسلة من الولاة القساة من أسرة الروسي الذين لم يرحموها ، وأخذوا يعاقبون بالإعدام لأدنى سبب ، ويفرضون الغرامة الثقيلة جداً ، حتى « تغيب الناس [في تلك المدة] وخلت المدينة من ذوي اليسار »[30] . وقد أيَّد هذه الحقيقة الرحالة الأوروبيون لذلك العهد . يقول إنجليزي ، اسمه وِينْدُوس : « بما أنَّ كسب الثروات يتسبب لهم في كثير من البؤس ، فلا عجب أن يهملوا الوسائل التي تساعدهم على تملكها ويتركوا تجارتهم تنهار؛ لذلك تردَّى مجدهم وخُرِّبت المباني العمومية. والذين يشاهدون الآن هذه المدينة يعتبرونها كل شيء بالنسبة لما كانت عليه » . ويشهدون جميعاً بتفوق التجار المسيحيين أو اليهود في التجارة الفاسية .

---

(26) حدث ذلك سنة 1083 -1673/84- 74 (استقصا ، جزء 7 ، ص. 48) .
(27) ش ، بانس ، الأسرى الفرنسيون بالمغرب ، ص. 84 ، هامش 26 .
(28) استقصا ، جزء 7ص. 69 .
(29) نفس المرجع ، جزء 7 ، ص. 91 .
(30) نفس المرجع جزء 7 ، ص. 98 .

لكن ، قبل القرن السابع عشر وبعد القرن الثامن عشر ، كان المسلمون هم الذين بيدهم مقاليد التجارة ؛ فيُعزى إذن أفول نجمهم في آخر القرن السابع عشر وأول الثامن عشر إلى تشتتهم في المغرب كله : ذلك لأن الكثير منهم غادروا فاساً في انتظار أيام خير من تلك الأيام .

ورغم هذه العداوة العميقة ، فإن مولاي إسماعيل ترك للفاسيين أثراً لا يمكن إلا أن يكون عزيزاً عليهم فهو الذي أمر بتجديد وتوسيع ضريح مولاي إدريس على نحو ما هو عليه الآن تقريباً . ومن السخرية الغريبة أن يكون هذا المزدري بفاس أحد الذين قاموا بأكبر تمجيد لوليها الصالح وخصصوا للمدينة وباديتها مركزاً لحماس ديني بالغ الحيوية .

وبمجرد ما توفي المولى إسماعيل (عام 1727/1139) استؤنفت الاضطرابات : فقد ترك العاهل أولاداً كثيرين لتكون سلسلة المطالبين بالعرش أطول من أن تنتهي .

الأوداية ومولاي عبد الله : سارع أهل فاس من جهتهم إلى قتل الحاكم الذي كان يستلب أموالهم منذ سنوات . ثم بدأت حربهم ضد الأوداية التي كانت ستستمر أكثر من ثلاثين سنة . وكان هؤلاء الأوداية يشكلون قبيلة عسكرية (جيش) أقامها مولاي اسماعيل أمام أبواب فاس وفي قصبة الخميس . وعندما يكون العاهل ممسكاً بزمام الأمن ، يبدون وكأنهم أحسن دعائم الحكم ؛ لكن بمجرد ما يضيع الحزم أو يحدث أخطر من ذلك ، فإنه يصبح تحت رحمة القبيلة ، ويسترجع هؤلاء الأعراب عاداتهم القديمة كبدو قطاع للطرق . فبعد موت مولاي إسماعيل ببضعة أسابيع اقتحموا سوق الماشية (سوق الخميس) فنهبوا وقتلوا ؛ وتحصن أهل فاس بمدينتهم وقاوموا بها حصاراً منظماً . ولما أعلن الفاسيون الحرب ضد السلطان بعد بضعة أشهر أدركوا أنهم سيتحملون حصاراً جديداً ، ولكي يضمنوا لأنفسهم ذخيرة من المؤن فإنهم استولوا بدورهم على قطعان الأوداية . وتم الحصار كما كان

متوقعاً ، لكن السلطان لم يتردد في رمي المدينة المتمردة بالمدافع وإحداث خسائر جسيمة بها .

وفي سنة 1728 ، انضم عدوّ جديد إلى الأودية ، وهو السلطان مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل . فخلال الثلاثين عاماً التي عاشها بعد توليته الأولى للحكم لم تقلَّ تولياته الملك عن ست مرات تخلّلتها تمردات وتوليات لمختلف المطالبين بالعرش . ومع ذلك قوبل مجيئه بالترحيب الطيب ، وذهب إليه أعيان المدينة ليقدموا له ولاءهم ؛ فاستقبلهم السلطان بلطف ، واتفقوا على أن يدخل العاهل الجديد ، من الغد ، دخولاً رسمياً إلى فاس ، ويخترق المدينة كلها في موكب عظيم . وفعلاً فإن الفاسيين ، « أخذوا زينتهم ولبسوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا لميعاده . فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبه ، وفي جملتهم حمدون الروسي عدوّ أهل فاس »[13] . وقد أفسد وجود هذا الحاكم القديم كل شيء ، إذ سرعان ما تعرض للعداء السافر من القوم الذين سبق لهم أن عانوا من تعسفاته . ولما رأى ذلك ، ركض فرسه إلى السلطان وأخبره بما جرى حسب روايته . وكان الموكب الذي دخل إلى المدينة من حي الأندلس قد أوشك على عبور النهر إلى عدوة القرويين ، فإذا بمولاي عبد الله يرجع على عقبيه ، خارجاً من أقرب باب ، متوجهاً إلى قصره وأغلق الأبواب دونه . لم يغفر له الفاسيون قط هذه الإهانة ، والسلطان من جهته لم تفته فرصة للإساءة إلى هذه المدينة التي لم ينقطع مع ذلك عن اتخاذها قاعدة لملكه . وأمر أن تبنى له دار محصنة بالضاحية سميت دار دبيبغ ، على بعد بضعة كيلومترات جنوب فاس ، وبها كان يقيم عادة كلما تولى الحكم .

ومنذ ذلك العهد قامت فاس بحرب متواصلة تقريباً ضد الأوداية ومولاي عبد الله ، أصابها منها شر كثير . وتجدد أكثر من مرة الحصار ، والرمي

---

(31) الاستقصا ، جزء 7 ، ص. 126 .

بالمدافع ، والتحطيم ، كتحطيم برج المهراس في رأس جنوب غرب الملاّح . وكان حمدون الروسي الذي عُيّن حاكماً على المدينة ، يعمل على تدميرها مكسراً عدة أبواب ومُهدِّما بعض أجزاء السور[32] . ولما لم يعد يحظى برضى العاهل ، فإن الفاسيين أمّلوا حظاً أسعد ، لكن خلفه ، وهو بربري من زمّور ، تلقى من مولاي عبد الله الأوامر التالية : « خذ منهم المال واطرحه في وادي أبي الخراريب ولا تتركه لهم ، فما أطغاهم إلا المال حتى استخفوا بأمر الملك »[33] . ونفّذ الوالي بدقة الأوامر الموجهة إليه . واستعان بجواسيس ليدلُّوه على الأثرياء ؛ فسجنهم وفرض على المدينة غرامة قدرها 500.000 قطعة ذهبية ، على أن يدفع كل تاجر أو مالك مبلغاً يتراوح بين 1.000 و 10.000 قطعة ذهبية . وجُلد المتعصبون وزُجَّ بهم في السجن ، بينما عُوض الفارون بأقاربهم . ثم جاء دور الصناع والملاكين الزراعيين الذين حُددت غرامتهم في 100 إلى 1.000 قطعة ذهبية . ويُعتقد أن الذين حاولوا الإفلات من هذه الأساليب كانوا عديدين ، هربوا إلى البوادي وحتى إلى الخارج ، في تونس ، وسوريا ، ومصر وحتى إلى السودان ، كما يخبرنا بذلك المؤرخون المغاربة . « حتى لم يبق بفاس إلا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال ، حتى إن الذين كانوا بالسجن فبنفس خروجهم منه فروا بأنفسهم ولم يعرجوا على أهل ولا ولد »[34] . ودام هذا « الرعب الكبير » ثلاثة عشر شهراً . وحتى بعد خلع مولاي عبد الله ، استمرت محنة فاس . ففي سنة 1734 استولى على الحكم ولد آخر لمولاي اسماعيل هو مولاي علي الأعرج ، لكنه عَيَّن والياً على المدينة أحد أفراد أسرة الروسي التي يكرهها الفاسيون . فاشتعلت الثورة في الحين ، وأطلق السلطان الجديد بدوره الأوداية على المدينة[35] . وبعد أربع سنوات لم يكن أخ آخر لمولاي عبد الله ، وهو مولاي محمد بن عربية ،

(32) نفس المرجع جزء 7 ص 135 .

(33) نفس المرجع ، جزء 7 ص. 134 .

(34)نفس المرجع جزء 7ص. 135 ، والزياني ص. 72 -73 الذي يعطي تاريخ 1146/1733 -34 .

(35) نفس المرجع جزء 7 ، ص. 137 الزياني ، ص. 75 -76 .

ليتصرف أحسن، وكان النهب منتشراً لدرجة أن السكان لا يجرؤون على الخروج ، لا من المدينة ولا حتى من الأحياء المركزية : فخلت الأحياء البعيدة أو ما تبقى منها وخربت[36] .

وغني عن القول أن مثل هذه الكوارث أحيت الضغائن القديمة ؛ فاستؤنفت الخصومات بشدة ، وزادت الحالة تفاقماً[37] .

كان لابد من الإلحاح على هذه الحوادث لتفسير تدهور فاس وإدراك مداه إدراكاً جيداً . فلما مات مولاي عبد الله عام 1757 ، وقد مرَّ أزيد من مائتي عام بقليل على فقدان فاس مكانتها كعاصمة (باستثناء السنوات الست لحكم مولاي رشيد) ، وما يناهز مائة وأربعين سنة وهي تتحمل وثبات المحن عليها ، متعرضة دورياً لأهوال الحرب ، والتعسف ، والنهب ، وبطش الملوك أو الولاة الذين يسترخصون الحياة البشرية . فمن السهل إدراك السبب الذي من أجله كانت فاس ، في منتصف القرن الثامن عشر ، خالية من السكان ، مخربة ، مزعزعة معنوياً .

ورغم كل هذه الضربات المصوَّبة إليها من لدن الرجال والقدر لم تستسلم المدينة الإدريسية للموت . وحتى أثناء عشرات السنين المتميزة بالخوف وأحياناً بالهول ، كانت تُشيَّد بفاس بنايات تُعدُّ من بين الذخائر الفنية لفاس ، مثل فندق وسقاية النجّارين ، ودار الماليّ عديّل ، بفاس الجديد وجامع مولاي عبد الله حيث دُفن منذ ذلك العهد أهمّ أعضاء الأسرة العلوية . كما أن التجارة لم تتنازل هي الأخرى ، فكلما أمكن لقافلة أن تمر كانت تحمل إلى فاس بعض المواد من أوروبا ، وبخاصة من انكْلترا ؛ وكانت قوافل أخرى تتردد بين فاس وبلاد السودان[38] ، حاملة إلى السينغال الملح ، والحرير المغزول ، وأصداف النقود ، ومنسوجات الصوف ، وأخرى أنجليزية ، وترجع

---

(36) نفس المرجع جزء 7 ، ص. 145 والزياني ، ص. 82 -83 .

(37) مارتان ، كذّان ، ص. 629 .

(38) ويندوس ، نفس المرجع ، ص. 210 -212 .

إلى فاس محمَّلة بالعبيد الذين كانوا يستقرون بها ، والتبر ، وريش النعام ، والعاج التي كانت تُصدَّر ثانياً إلى أوروبا .

نهضة فاس: ـ لقد ساعد حكم سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1790) فاساً على أن تتنفس الصعداء، وتشرع في ترميم أنقاضها ، بعد أن أقصى السلطان على الخصوص قبيلة الأوداية الطائشة التي طالما أساءت إلى المدينة . أما ابنه ، مولاي اليزيد القاسي الذي لم يدم حكمه سوى سنتين ، فإنه وجّه غيظه المَرَضِيّ ضد اليهود الذين عاشوا في الرعب طوال مقامه بفاس[39] . وعرفت المدينة الإدريسية الازدهار من جديد في أوائل حكم مولاي سليمان الذي كان تقياً نشيطاً ، أبدى عناية كبرى بعاصمته ، مشيداً بها عدة مساجد ، خاصة جامع الرصيف ، مجدداً بنايات جميلة كجامع الشرابليين والمدرسة البوعنانية ، ومصلحاً الأبواب التي دمّرها حمدون الروسي ، ومعيداً الجسور إلى حالتها الأولى ، مهتماً بطرقات فاس الجديد .

إلا أن السنوات الأخيرة من حكمه عتّمتها للأسف اضطرابات جديدة ؛ فما كان السلطان يذهب إلى مراكش أو غيرها ، إلا والبرابر يبدون جرأة كبيرة جداً : « كانوا يأتون إلى أبواب فاس ليستولوا على مال وسلع السكان . ويدخلون حتى المدينة ليفرضوا عليهم حقوق الحماية ويبيعوا المؤ ن »[40] .

ثم إن الأوداية عادوا إلى المسرح . كان مولاي اليزيد أعادهم إلى فاس ، وحيث إن خلفه مولاي سليمان كان محتاجاً إليهم لردع القبائل ، فإنهم ازدادوا غطرسة وجرأة إلى أن كانت سنة 1820 فقاموا بنهب منظم ، لحي اليهود أولاً حيث استولوا على كل ما عثروا عليه حتى ما كان يملكه التجار المسلمون ، ثم هجموا على المدينة القديمة . كان ذلك رجوعاً إلى الأيام الحالكة لحكم مولاي عبد الله ، لكن الفتنة الداخلية لم تصب فاساً لأن

---

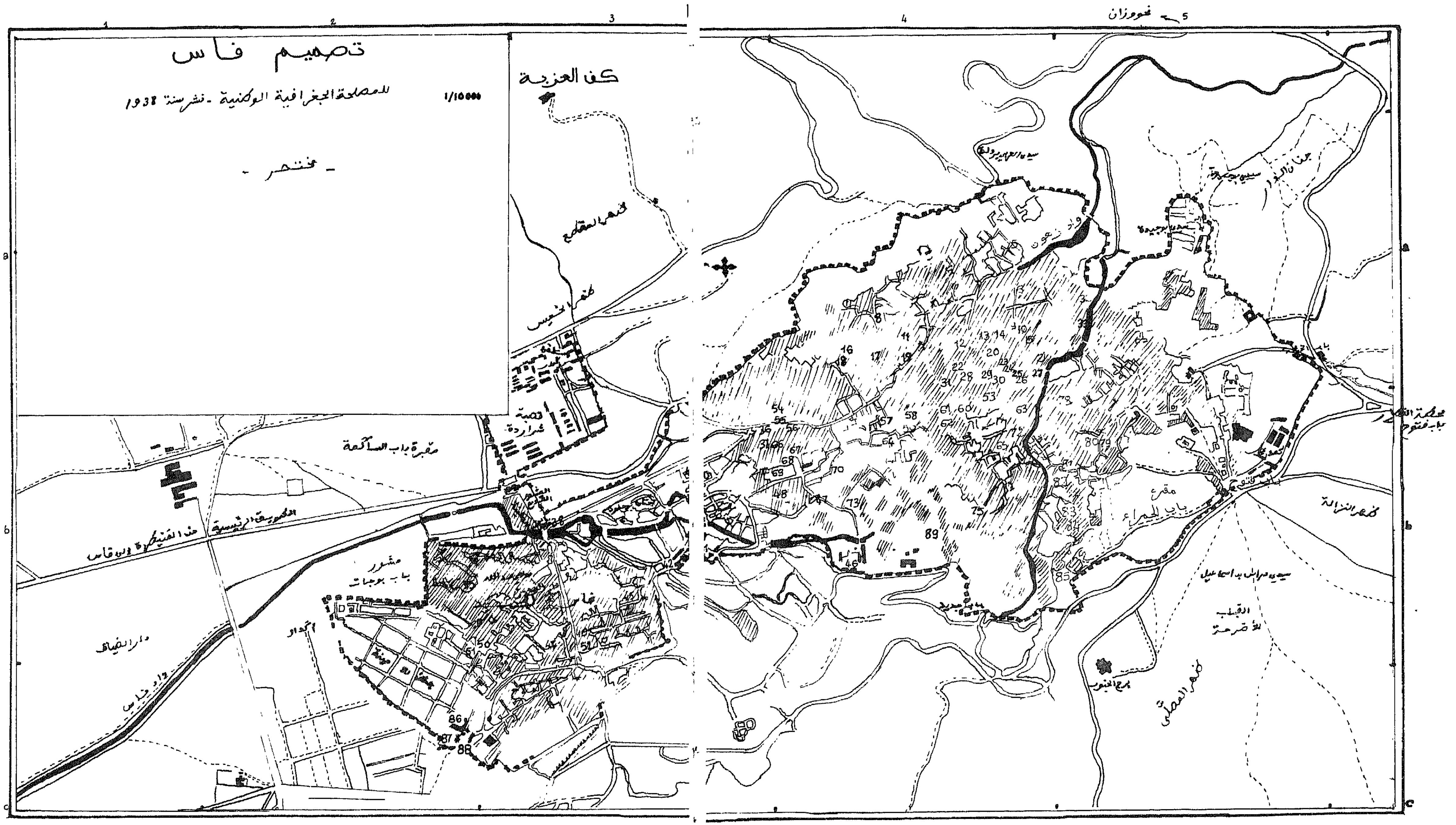
(39) سيماك ، تاريخ ، ص. 39 .
(40) استقصا ، جزء 8 ، ص. 144 .

الأحياء الثلاثة الكبرى للمدينة ، وهي العدوة ، والأندلس واللمطيين انتخبت نوابها الذين حافظوا على النظام . وفي سنة 1824 ، أجلى السلطان الجديد مولاي عبد الرحمان الأوداية نهائياً عن فاس .

ومنذ ذلك العهد إلى الأيام المضطربة لمولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ ، يمكن القول إن فاساً عاشت في السلم واسترجعت شيئاً فشيئاً دورها كعاصمة .

وقد ساعد الحظ المغرب آنذاك حيث كان يحكمه ملوك أكفاء ، آخرهم وأعظمهم مولاي الحسن (1873 -1894) . ولو كان له طبع مولاي عبد الله العنيف لكره فاساً ، بسرعة ، لأنه ما كاد يتولى الحكم حتى اضطر إلى قمع ثورة . فمنذ القرن الثامن عشر كان السلاطين قد فرضوا المكس على الأسواق الذي لم تكن له أية صبغة دينية ، وكان مكروهاً جداً من لدن الشعب . وقد استطاع الرأي العمومي إسقاطه أحياناً ، لكن الحالة المالية كانت تجبر دائماً على إعادته . وفي الوقت الذي بويع مولاي الحسن سلطانا فإن دباغي فاس ، الذين كانوا أكثر كراهية لهذه الضريبة من غيرهم ، حصلوا على ضمانات بإلغائها . إلا أن الأمين الحاج محمد بن المدني بنّيس الذي كان قد استأجر محصول هذه الضريبة استمر في جبايتها ، وهو يريد بدون شك الوصول إلى نهاية عقده . فثار عليه الدباغون وأرغموه على الالتجاء إلى حرم مولاي إدريس حيث تمتع بحق الالتجاء . وبمجرد عودة السلطان إلى فاس ، وكان متغيباً عنها حينما وقع هذا الحادث ، اهتم بالأمر ، ووقعت محاولات لإقناعه بإلغاء هذه الضريبة ، لكنه رفض رفضاً باتّاً ، بسبب العصيان الذي لاشك أنه أغضبه . فثار الدباغون من جديد ضد السلطان هذه المرة ، وتحصنوا في المدينة القديمة وذهبت بهم الجرأة إلى التسلق في صوامع المنطقة العليا من المدينة ليطلقوا طلقات نارية بكيفية رمزية في اتجاه القصر الملكي . فاضطر السلطان إلى محاصرة المدينة للقضاء على هذا التمرد ، لكنه استعمل الليونة في معاقبة المجرمين .

هل كانت هذه الذكرى هي التي حملته على أن يصل فاساً الجديد


تصميم فاس
للمصلحة الجغرافية الوطنية - نشر سنة 1938
1/10000
- مختصر -
كف العزبة
مقبرة باب السائحة
قصبة شراردة
مشور باب بوجات
واد فاس
مقرع باب الحمراء
كدية الزيتون

بالمدينة القديمة بمجموع كامل من الأسوار ، أو بالأحرى رغبته في أن يُخفي عن الأنظار المتطفلة بساتين بوجلود التي جعل منها منتزهاً لسيدات القصر ؟ وعلى كل حال فإنه صهر المدينتين في كتلة واحدة محصنة ، دون أن يقضي مع ذلك على فوارق العقلية والسكان التي كانت تميزهما . فقد طرأت إذن على فاس في ناحية بوجلود وفاس الجديد آخر تغييراتها قبل إقامة الحماية . وكان مولاي عبد الرحمن قد أمر بإعادة بساتين للاّ أمينة المحادية للقصر من جهة الغرب ، وشيد بها مسجداً ؛ ومن جهة أخرى ، فإن الإسلامي عبد الرحمن دي سولتي ، الضابط السابق للهندسة[41] جهّز في شمال القصر ساحة فسيحة للعرض العسكري تشتمل على عدّة هكتارات ، هي المِشْوَر الكبير ، وتستعمل كميدان مناورات للجيش الشريف ؛ ولهذا الغرض حوّل قليلاً مجرى واد فاس . وأقام مولاي الحسن قرب باب الدكاكين دار صناعة أسند إدارتها إلى ضباط إيطاليين وسُمّيت الماكنة ؛ فاستخدم بها صناعاً من مختلف الطوائف ، فوجؤوا كثيراً بالطاعة التي فرضت عليهم . وبعد مدة ، أمر مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ بإنجاز بنايات أخرى داخل القصر ، خصوصاً منها بناية ضخمة ذات طبقات ، بقيت دائماً غير تامة ، وتشرف على فاس الجديد بحجمها غير الأنيق ، كما أنهما شيّدا إقامتي الصيف المدعوتين الدار البيضاء (وهي الإقامة العامة الحالية) ودار البطحاء (التي صارت متحفاً للفنون الأهلية) . ولم ينجز الملوك المستقلون الأخيرون داخل المدينة أي بناء على نطاق واسع ، ما عدا مدرسة باب عجيسة قرب الباب الذي يحمل نفس الاسم .

وفيما يخص التعمير ، فقد ورد على فاس أيام السعديين جماعة غفيرة من اليهود الذين طردهم فيليب الثاني من إسبانيا ؛ واستمر هؤلاء اللاجئون مدة طويلة متشبثين بعاداتهم القديمة حتى إنه في حوالي 1835 كان ما يزال العديد

(41) انظر ما يأتي ، الكتاب 3 ، الفصل 3 .

من نساء الملاّح قادرات على التحدث باللغة الإسبانية[42] ؛ بالإضافة إلى طائفة هامة من التلمسانيين وصلوا إلى فاس حوالي 1835 ، واستقروا في الأحياء غير المركزية بالمدينة القديمة وعاشوا مدة طويلة على حدة . وأخيراً فقد تزايد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدد العبيد السود وتأثيرهم الاجتماعي تزايداً عظيماً. ويمكن كذلك ذكر وجود مجموعة صغيرة من أهل سوس المتخصصين في حرفة بائعي المواد الدهنية ، ممثلين مقدّماً البقّالين الذين انتشروا ، منذ الحماية ، في جميع المدن المغربية ، على غرار الجربيين بتونس والمزابيين بالجزائر . ومنذ قدوم الدولة العلوية ، فإن نسبة الصحراويين ارتفعت في فاس الجديد بصفة مرموقة[43] .

فاس والاقتصاد الأوروبي : - إن الحدث البارز لهذا العهد هو إقامة العلاقات الاقتصادية المطردة بين فاس والبلدان الأوروبية . فعقب هزيمة إسلي ، تفاوض السلطان مولاي عبد الرحمن مع فرنسا ومنح تسهيلات للتجار الفرنسيين للقيام بأعمال تجارية في المغرب ، وقد مدّ مع تمديد بالطبع هذه المعاملة إلى سائر الدول الأوروبية . ويضيف صاحب كتاب **الاستقصا** ، الذي يذكر هذا الخبر بحق أن السكة الأوروبية « كانت هي الغالبة وهي أكثر رواجاناً من سكة المغرب فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها ؛ والتجار يعتبرون فيها من الفضول والأرباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهتدي إليه غيرهم من العامة . وتبعهم على ذلك تجار المسلمين »[44] .

وفي عام 1856/1273 أبرم السلطان معاهدة تجارية مع أنكلترا ، وأوفد عام 1868/1285 تاجراً فاسياً إلى المعرض الدولي لباريس « وبعث معه كل

---

(42) دي أميسيس، المغرب ، ص. 236 .

(43) وهكذا فإن قبيلة البطاطحة أقيمت في أواخر القرن الثامن عشر بشمال فاس الجديد ، والبلاغمة ، في عهد مولاي عبد الرحمن ، في الزاوية الجنوبية الشرقية لنفس المدينة (بريسوليط ، بحث غير مطبوع) .

(44) **الاستقصا** ، 9 ، ص. 54 .

شيء غريب مما اختص به قطر المغرب ، من سروج مذهبة ، ومناطق مزخرفة ، وقطائف منمقة ، وغير ذلك من الأعلى إلى الأدنى ، حتى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه في محاله »[45] .

وعام 1892 اتخذ أول تجار أوروبيين منازل لهم يقيمون فيها بفاس : فرنسي هو م . فاباريس ، وأنجليزي هو مستر ماكْ إيفوْرماك لسيد ؛ وفتحت قنصلية أنجليزية في نفس السنة ، وقنصلية فرنسية بعد سنتين . وفي المقابل ، لم يتردد بعض التجار الفاسيين في أن يغتربوا أحياناً لمدة طويلة ، في صالح تجارتهم : فقد لوحظ في أواخر القرن التاسع عشر وجود جاليات فاسية لا في الجزائر، ومصر ، والسنغال ، التي هي أقطار إسلامية وإفريقية ، ولكن في مرسيلية ، وجنوة ، ومنشيستر .

وهكذا فقد رسمت التجارة الفاسية ميلها للاندماج في الاقتصاد العالمي ، وهو ميل قديم جداً كما رأينا . لكن المغرب لم يكن يتوفر على سكة صالحة في نفس الوقت بقدر كاف ؛ ومن المعلوم أنه في عهد مولاي عبد العزيز ، العاهل المبذر الغر ، ازدادت الحالة سوءاً وأدَّت إلى تدخل القوات الأوروبية .

ومن جهة أخرى ، إذا كان المغرب ، وفاس بصفة خاصة ، أظهرا أنهما ميّالان لمسايرة الموكب الاقتصادي العالمي ، فقد بقيا مجمَّدين في موقف اجتماعي وفكري ، وسياسي ، لم يكن منسجماً مع نزعاتهما التجارية . وهناك على ما أظن يجب البحث عن السبب العميق لِمَا سُمِّيَ بالأزمة المغربية التي أفضت إلى إقامة الحماية الفرنسية .

يضاف إلى ذلك أن فقد التوازن كان حتى في المجال الاقتصادي فالتجار الفاسيون الذين بدؤوا يستعملون خطاب الاعتماد والشيك ويطلعون

---

(45) **نفس المرجع** ، 9 ، ص. 122 .

على الأسعار العالمية بواسطة مراسليهم من طنجة ، كانوا ملزمين بمسلسل من الصرف معقَّد إلى أقصى حد ، كانوا لا يخسرون في العملية بالطبع لكنهم كانوا يلمسون جيداً شيئاً مزعجاً . أما البضائع المستوردة من أوروبا ، فكانت تُنزل من سفن شاحنة لتُنقل بين بين على ظهور الجمال والبغال التي تسير في قوافل على مسالك معرَّضة لرداءة الطقس ولقطَّاع الطريق .

لم يكن كل ذلك ليدوم ، وكان تجار فاس يعلمون ذلك جيداً ، وإن لم يذهبوا إلى أن يتمنوا علانية على الأقل تدخلاً أوروبياً ، فإنهم لم يكونوا معارضين له ، إذ كان ذلك يسير جيداً في اتجاه مصالحهم .

إلا أن الرأي العام ، الذي كان يشرف عليه الفقهاء ، لم يكن موافقاً على مثل هذا التدخل ؛ فكان يُنَدِّد ببِدَع مولاي عبد العزيز ، مُغَذِّياً جَوّاً من كره الأجانب شديداً في بعض الأحيان ، لا في المدينة فحسب ، ولكن كذلك في البادية . فكانت الصدمة قوية ، ولا بد من الاعتراف بذلك . كانت فاس تعيش منعزلة عن باقي العالم ، منذ قرون ، منذ بداية محنها ، ولم يكن يعد علماؤ ها قد تأثروا بعدُ بحركة النهضة العربية التي كانت مزدهرة بالشرق . فلم تزل جامعة القرويين تتعيَّش . كأن العالم ، وحتى العالم الإسلامي ، لم يتغير من حولها . وبغريزة طبيعية للدفاع الذاتي ، فإن هذا الوسط الفكري المنغلق جداً قد عارض التجديد بصفة قطعية .

فكان لهذا المجتمع ، المختلف جداً عن المجتمعات العصرية ، شعور غامض بأن تطوراً لا مفرّ منه يوشك أن يتحول سريعاً إلى ثورة إذا دخلت فاس في اتصال مع الخارج .

تلك كانت الوضعية عندما جاء طابور الجنرال موانيي لإغاثة فاس ، وأمضى السلطان مولاي حفيظ معاهدة الحماية مع م . رينيو في شهر مارس 1912 . لم يعد في الإمكان الشك بأن فاساً دخلت في مرحلة جديدة من تاريخها ، إذ لم يسبق لها قط أن تلقت مثل هذه الصدمة .

2

الكتاب الثاني

صورة فاس الطبيعية[1]

(1) لأخذ فكرة شاملة عن فاس ارجع إلى تصاميم مختلفة عند ، ب . ريكار ، دليل المغرب ، ص. 305 -334 ، و هـ. طيراس ، مدن المغرب الملكية ، ص. 11 -53 .

هناك طرائق عديدة للتعرض إلى فاس . إذ يمكن الانقضاض على المدينة من أعلى ممرات زلاغ كما ينقضّ على الفريسة . فتظهر إذ ذاك كبقعة صغيرة ضاربة إلى لون الرماد ، مطوَّقة بوشاح دقيق من الخضرة ، في وسط بادية موشّاة ،كانت قديماً أقل خضرة بكثير مما هي عليه الآن ، منقَّطة فقط بلون أخضر حزين مغبَّر لأشجار الزيتون المتناثرة . وكلما انحدرنا اختفت المدينة جزءاً جزءاً خلف طيّات الأرض ؛ ثم لا نكاد نجتاز باب عجيسة ونخترق أحياءه شبه البدوية ، حتى نجد أنفسنا فجأة في وسط التجارة دون أدنى تمهيد . ليست هذه هي الوسيلة المختارة للدخول إلى فاس ، لأننا نراها قبل الأوان وعلى بعد سحيق ، ثم نغوص بكيفية مباغتة جداً في قلب المدينة .

ويمكن أيضاً المجيء إليها من جهة الشرق ، لكن الرسم المنظوري محرّف هناك كذلك ؛ وإذا طلعنا إليها من وادي سبو ، تبدو لنا فاس كأنها جاثمة على شُعفة رأس جبل كمدينة أنكْوليم العليا ؛ غير أن فاسا ليست مركَّزة حول ارتفاع ، وإنما مدّت إليه بعض زوائدها .

والمسافر المنحدر من صفرو من مرتفعات الجنوب يقف لحظة على حافة تلّة ظهر المهراس ليشاهد المدينة وهي تظهر له من الجانب الآخر للوادي ، لكن ما يراه هو حي اليهود وخلفه فاس الجديد ؛ وليس له سوى منفذ

صغير جداً ، على المدينة في الجانب الأكثر بداوة الأقل سكاناً ، وهو جانب مقابر باب الفتوح .

وأظن إجمالاً أن أفضل طريقة لاكتشاف فاس هو الوصول إليها عن طريق الغرب : طريق مكناس وطنجة والساحل الاطلنطيقي ، وهي في آن واحد أكثر سلوكاً ورمزية تسمح باتصال تدريجي بطيء وتحتفظ بالمهمّ لآخر المطاف .

يرى المسافر من بعيد خطاً رقيقاً من الأسوار يرتسم على صفحة الأرض ، وتتراءى فوقه صومعتان أو ثلاث صومعات شاهقة . وعن اليسار ، يحجب زلاغ الشامخ الأفق بكتلته الصخرية الكاملة ؛ وعن اليمين ، ترتفع الأرض في صعود لا يكاد يُلمس نحو جبال صفرو الحالكة . وبعيداً إلى الأمام يسدّ الأفقَ خطٌّ ضخمٌ من الجبال ، من قمم الريف إلى القبّة والكفل المعمَّمَيْن بالثلوج لجبلي موسى أو صالح وبويبلال . الإطار فخم فسيح ، على مستوى عاصمة ؛ لكنكم لا تدرون ما وراء أسوار هذه العاصمة من ألغاز ، وقد تتوهّمون لأوّل وهلة أنها منبسطة مثل مراكش . وعلى كل حال لا تستطيعون أن تتمالكوا أنفسكم عن انطباع خشونة وتحفّظ عنيف ، لا تكاد تخفّف من حدّتهما غير بقعة خضرة حدائق دار دبيبغ ، على بعد مسافة من الأسوار نحو الجنوب .

ويتقدم المسافر ، تاركاً عن يمينه جداراً مستقيماً مسنّناً لا طابع له ، تعلوه الصومعات التي كان يشاهدها من بعيد ؛ وعن يساره ، تتسلق مقبرة فسيحة ربوة تنحدر انحداراً خفيفاً . ويُتَوّجها جدار صغير أبيض ، هو مصلّى السلطان(2) . ويسير المسافر نحو خط ثان من الأسوار تسدّ طريقه وتعلوها أبراج ضخمة ؛ ذلك هو باب الساكمة ؛ وبعد اجتياز هذا الباب ، يدخل في ممرّ وسخ تحيط به بعض الدكاكين الفقيرة ؛ كل ذلك مُخيّب للأمل ، يكاد يكون

(2) انظر عن هذا المصلّىٰ ميشوبلّـير . وصف فاس ، ص. 257 ، وما يأتي ، الكتاب 8 .

مزعجاً : وكأن المدينة بذلت جهدها لإفشال مَنْ يأتيها من هناك ، من أجل إقصائه وإرغامه على الرجوع من حيث أتى . ثم إن الدكاكين تتنحَّى بغتة عن اليمين ، لتكشف عن باب آخر ، هو باب قُبَيْبات السمن[3] ؛ وتتلاشى الخيبة في الوقت الذي نجتازه : ساحة فسيحة مستطيلة الشكل محاطة بأسوار عالية ، تنحدر نحو كتلة معمارية ذات اتزان متين ، وهي عبارة عن برجَيْن مسنَّنَيْن من طابقين ملتصقين بباب فخم . قد تكون الأرضية خشنة محدودبة ، لكن المسافر لا يبالي بها ، لشدة ما هو مشرئبٌ إلى مشاهدة هذا البناء العظيم : إنه في هذه المرة حقاً أمام مدخل عاصمة . ورغم ذلك فإنه ليس أمام فاس بالذات ؛ فما يُفسح إليه المرور بابُ الدكاكين الهائل أو باب السبع[4] ، إنما هو فاس الجديد أو المدينة البيضاء ، كما كانت تُدعى في الأصل ، تلك المدينة التي أسسها أمراء بني مرين عام 1276 ، فهي مجرد ملحق وفرع للمدينة الحقيقية .

---

(3) انظر عن اسم قُبيبات السمن هذا ، ميشو بلّير ، نفس المرجع ، ص. 258 هامش 1 .

(4) من المحتمل أنه سمي هكذا بسبب شكل زخرفي كان يمثّل أسداً ، وقد اضمحل منذ ذلك العهد (ليڤي - بروڤنصال ، طوبونوماستيك ، ص. 210) .

الفصل الأول

1/2

كتلة فاس الجديد

إنها مجموعة متشعبة يمكن أن نميز فيها العناصر الآتية :

ا . القصر وملحقاته ،

ب. الأحياء الإسلامية ،

ج . الحي اليهودي أو الملاَّح ،

د . القصبات وضواحي فاس البالي (أو المدينة القديمة) .

أ ـ القصر وملحقاته : ـ إذا كان القصر لا يشكّل المركز الهندسي لفاس الجديد ، فإنه يقع في قلب هذه المدينة بالذات ، وهو سبب وجودها ؛ فإرادة السلاطين المرينيين جعـل إقامتهم في هذا المكان مع مصالحهم المدنية والعسكرية ، هي التي خُلقت من أجلها ، في الربُع الأخير من القرن الثالث عشر ، هذه الكتلة التي تهمنا[5] .

يـطلق أهل فاس على هذا المجموع اسم دار المخزن . ويحتوي في الحقيقة على عدة عناصر ، في طليعتها دار المخزن بمعنى الكلمة ، أي المباني الإدارية . وهي بناءات غير منتظمة تحيط بفناءات فسيحة إلى حدّ ما ،

(5) انظر عن قصر فاس ، ميشو بلّير ، في قصر السلطان المغربي ، في مجلة العالم الإسلامي ، جزء 5 ، ص. 647 -662 وجهاز للحكومة المغربية ، نفس المرجع ، ص. 243 -256 . وانظر الرسم رقم 6 .

وفيها مكاتب مختلف الهيئات الرسمية .

دار المخزن : ـ كان الفناء الذي يُصادفه الداخل حينما يجتاز باب دار المخزن ، مخصَّصا للإدارة المحلية لفاس الجديد ؛ وكان باشا المدينة وباشا شراكة يعقدان به جلساتهما(6) ؛ كما كانت به محكمة قاضي فاس الجديد(7) . وهناك أيضاً كان الوزراء وأعيان الهيئة المخزنية ينزلون من بغلاتهم كل صباح قبل التوجه الى عملهم ، بينما يحرس الخدم هذه الحيوانات اللامعة ذات السروج القطيفية اللون ، الى أن يقوم سادتهم بمهمتهم أحسن قيام . وكان هناك فناء ثانٍ مبلّط بالرخام أفسح وأفضل تخطيطاً ، محاط بمكاتب يجلس بها الوزراء والموظفون السامون . وهذان الفناءان يُفتحان للعموم في أوقات العمل الإداري ، فيمتلئان بجمهور غفير خليط .

ثم تأتي ، في اتجاه الغرب والشمال الغربي ، سلسلة من المباني المتباينة والملتصق بعضها ببعض دون أي تصميم إجمالي ، وهي التي تشكّل قصر السلطان . فالمساجد ، والفناءات المبلطة ، والحدائق الداخلية ، والبنايات المخصصة للسكنى ، والأحواض ، والسقايات ، تتزاحم بعضها مع بعض ، وتشرف عليها بعض الصوامع الأنيقة ، وبناية كبرى ذات طوابق ، تركها مولاي حفيظ ، غير تامة . وكان يوجد به حتى معرض للوحوش ، إذ كان من عادة ملوك المغرب أن يتخذوا في قصورهم بعض الحيوانات المفترسة ومن بينها الأسد(8) .

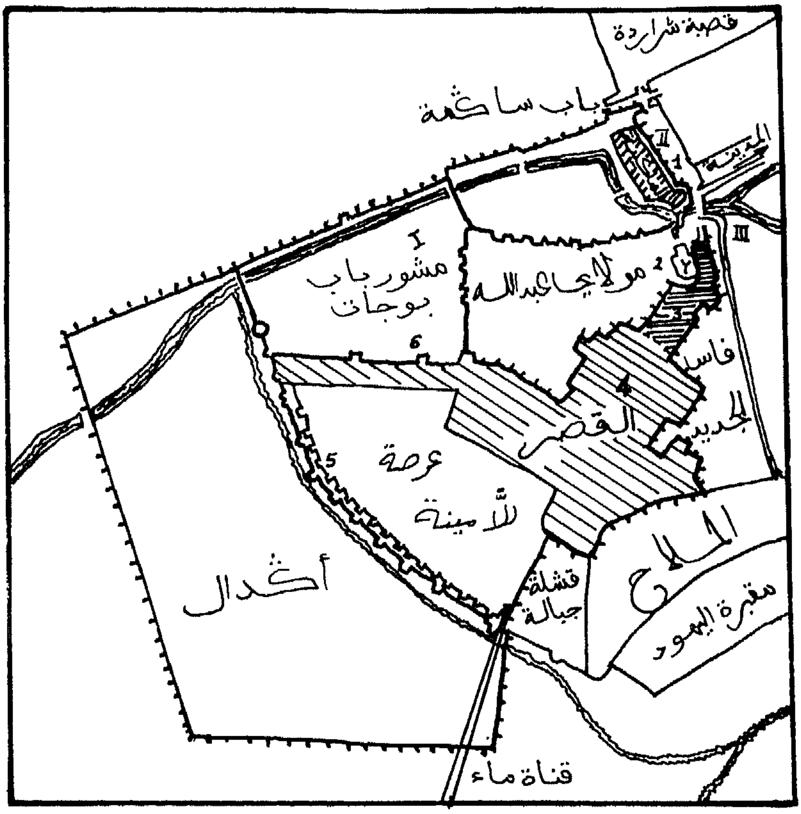
البساتين : ـ تمتدّ غرب هذه البنايات بساتين أشجار مثمرة فسيحة هي عرصة للاَّمينة التي تحصرها الأسوار ذات الحصون الضخمة التي تحمي فاسا والقصر من جهة سهل سايس . ويوجد فيما وراء هذه الأسوار في اتجاه الغرب

---

(6) انظر عن هذين الموظفين ، ما يأتي الكتاب 4 ، الفصل 4 .

(7) روني كلير ، المغرب الشمالي ، ص. 141 .

(8) عن معرض الوحوش بفاس ، انظر ڤيير ، في المغرب ، ص. 163 وما بعدها. وقد استعمل هذا المكان ملجأ لليهود ، أثناء اضطرابات أبريل 1912 .



الرسم 6

القصر وملحقاته

I . مشور باب بوجات II . مشور باب الدكاكين III . المشور القديم

1 . باب الدكاكين 2 . الجامع الكبير 3 . دار المخزن 4 . القصر 5 . السور المريني الذي دعمه السعديون 6 . منزه مولاي عبد العزيز .

والجنوب الغربي ، دائماً ، بساتين أشجار الزيتون بأكْدال ، وهي ملك للدولة المالكة . ويأتي وادي فاس يتعثّر بتحصينات القصر ، ثم ينقسم إلى فرعين بعدما يترك مجراه الطبيعي : أحدهما يحاذي السور من الخارج ، ويذهب ليصبّ في الواد الأعظم عند قدم الملاّح ، مشكّلاً شبه منفذ لشدة الامتلاء ؛ والآخر يدخل في مِشْوَر باب بوجات ، مغذياً مصنع الماكنة ، قبل أن يتفرع بين مختلف القنوات التي تنتشر في المدينة . وأما الماء المعدّ لتزويد القصر وفاس الجديد ، فلا يجلب من هناك ، بل يأتي بواسطة قناة تفضي إلى الزاوية الجنوبية الغربية للسور قرب الملاّح . وهذا الماء مجلوب من عين تسمى عين بوعمير[9] تقع بين القصر والملك المخزني لدار دبيبغ .

دار دبيبغ : ـ كان هذا الملك المخزني[10] ، الواقع في السهل على بعد أكثر من كيلو مترين بقليل من الملاّح ، متركباً من قصبة وحديقة ممتدة كان قدأحدثهمامولاي عبد الله[11] وهما في ملك الدولة المالكة . وكان بالقصبة دار بدوية فسيحة ، ومسجد كان ما يزال له خطيب حتى آخر القرن الثامن عشر[12] .

المشاور : ـ ينبغي أن تضاف إلى هذه البنايات والبساتين بعض الملحقات ، كالمشاور والماكنة . فالمشاور عبارة عن مساحات عارية ، محاطة بالأسوار ، تستعمل لتحركات تعبئة الجيش الشريف ومختلف الحفلات

---

(9) انظر فايسكَربير ، وصف مدينة فاس ، في مركز الأبحاث لجمعية الجغرافيا ، 1899 . اسم هذه العين مرتبط بوزير مولاي إدريس ، انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 2 .

(10) عن دار دبيبغ ، انظر كَايار ، نفس المرجع ، ص. 79 -80 . وكانت هذه القصبة مركزاً للإقامة العسكرية ـ الفرنسية عام 1911 وبقيت ملكاً عسكرياً . انظر أيضاً ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 255 -257 .

(11) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 5 .

(12) هذا الخبر منقول عن سلوة الأنفاس (جزء 1 ، ص. 123) في ترجمة أبي بكر ابن سودة ، المتوفى عام 1215/800 .1 -1801 ، والذي كان خطيباً بجامع دار دبيبغ ، قبل أن يكون خطيباً بالمدرسة البوعنانية .

المقامة في الهواء الطلق . وكان عددها ثلاثة : مشور باب بوجات ، في الشمال الغربي ، وهو ساحة للعرض العسكري مساحتها أربعة هكتارات ، جهّزها الإسلامي دي سولتي[13] . وكان مولاي عبد العزيز قد شيّد بها في الواجهة الجنوبية إلى جانب سور القصر ، منزهاً أنيقاً مرتفعاً يستطيع أن يشاهد منه الحفلات التي تقام به ، محميّاً من تقلّبات الطقس ؛ ومِشْوَر باب الدكاكين أو المِشْوَر الجديد في الشمال الشرقي ، وقد أعطيت عنه نظرة موجزة سابقاً ؛ وأخيراً المِشْوَر القديم ، وهو أضيق الثلاثة ، ويربط الأخير بدار المخزن .

الماكنة : ـ كان مصنع الماكنة مفتوحاً في الواجهة الغربية لِمِشْوَر باب الدكاكين ، وهو دار صناعة أنشأها مولاي الحسن عام 1885 ، بمساعدة ضباط إيطاليين[14] . كان الباب ، المصنوع بشكل أثري إيطالي ، متنافراً مع باقي الزخرف ؛ يفضي إلى معامل فسيحة قبابها شاهقة مظلمة ، عولجت بأسلوب البنايات الشهيرة لمولاي إسماعيل بمكناس . وكان الفرع الرئيسي لواد فاس يحاذي هذا المعمل غرباً ؛ وكان قديماً يحرك ناعورة عظيمة ربما كانت تسقي بساتين أنشأها المرينيون على منحدرات الكدية التي كان بها المصلى . وقد حُطّمت هذه الناعورة حوالي 1888[15] ؛ ويمكن حتى الآن مشاهدة الجهاز الضخم من الحجر الذي كان يقوم عليه محورها .

ب ـ أحياء المسلمين بفاس الجديد : ـ [16] ـ تبدو دار المخزن مع القصر كأنهما مدخلان في زاوية بين أحياء المسلمين بفاس ، يقسمانها إلى كتلتين متفاوتتي الأهمية : حي مولاي عبد الله في الشمال ، والأحياء المختلفة المعروفة عادة بفاس الجديد في الشمال الشرقي والشرق .

---

(13) انظر ما يأتي ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، والكتاب 5 ، الفصل 3 .

(14) انظر ما يأتي ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، والكتاب 5 ، الفصل 3 .

(15) و . هريس (بلاد سلطان إفريقي ، ص . 124) يصرح بأنه شاهد هذه الناعورة سنة 1887 ،وأنه لم يجدها ثانياً سنة 1889 . انظر عن هذه الناعورة ، ليون الإفريقي ، نفس المرجع ، الكتاب 2 ، ص. 178 .

(16) الرسم رقم 7 .

مولاي عبد الله : ـ لقد تغيّر مظهر حي مولاي عبد الله منذ أن أصبح بعد الحماية ، الحي الرسمي للبغـاء . فمنذ القـديم كان يؤوي بعض المواخير[17] إلى جانب جامع المرينيين الأعظم بفاس الجديد[18] ومقبرة مولاي عبد الله الملكية[19] . وليس لهذا الحي الآن سوى مدخل واحد ، هو المؤدي إلى المشور القديم ؛ وكان له قديماً مدخلان ، لأن الباب المعروف بباب بوجات لم يكن مغلقاً دائماً كما هو الحال اليوم ؛ فكانت أزقة العمارة لهذه المجموعة تدور حول محور المرور بين المشور القديم وباب بوجات .

وكان لبعض رجال المخزن بـه منازلهم ، لكنها متواضعة نسبيّاً قريبة من المشور ؛ والحي في مجمله حقير . كان ضلعان من هذا المربع المنحرف محاطين بدار المخزن والقصر ؛ والضلعان الآخران في الغرب والشمال مسوّرين بأسوار مسنّنة وأبراج مربعة من العهد المريني . ولا بد من الإشارة الى أن تخطيط سور الشمال ، الذي يبدو حالياً متعذر التعليل ، كان يقتضيه يقيناً مجرى النهر الأول الذي كان يحيط بقدم السور . وفعلاً ، فإن ترتيب مشور باب بوجات ، ثم بناء الماكنة ، تطلبا أشغالاً لتحويل الوادي عن مجراه ؛ فقد نقل المجرى الأول بحوالي 75 متراً إلى جهة الشمال بين مدخل الوادي في المشور ووصوله إلى الماكنة . لذلك لم يعد السور محيطاً بالنهر ، كما كانت عليه الحال يقيناً في القديم .

فاس الجديد : ـ كانت الأحياء التي يطلق عليها اسم فاس الجديد بصفة خاصة تشكل مربعاً آخر أكثر انحرافاً ، يحدّ ضلعه الغربي دار المخزن ، بينما كانت الأضلاع الأخرى مغلقة بحزام من أسوار مزدوجة غالباً[20] . وكان

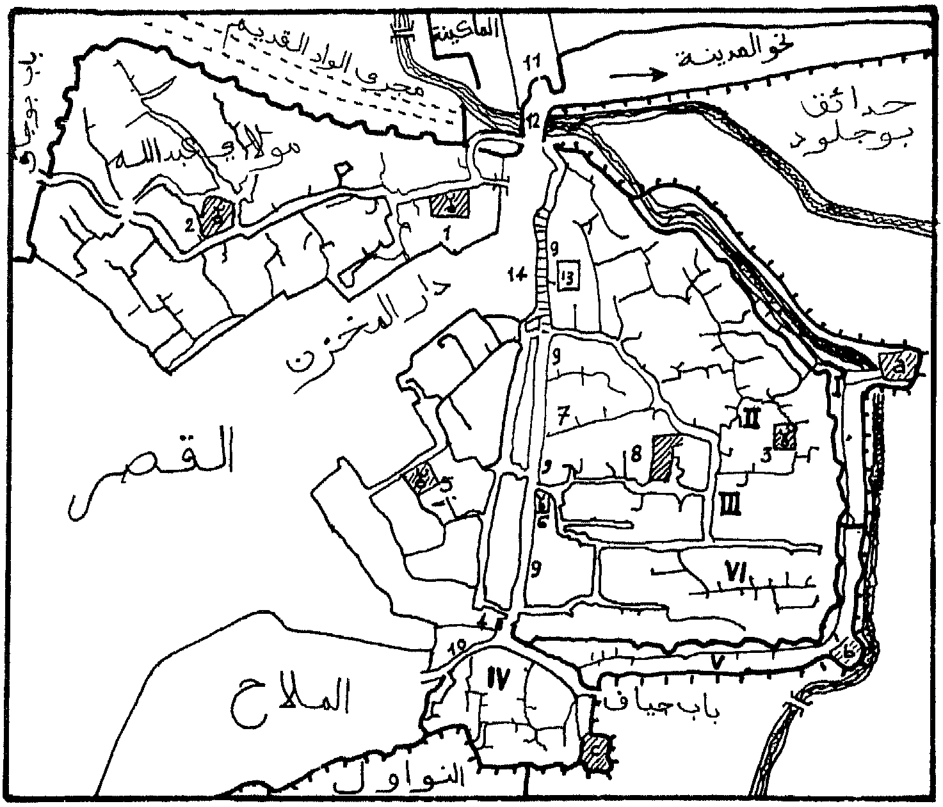
---

(17) ميطرودي لاموط ـ كايرون وطرينكا ، نفس المرجع ، ص 27 .

(18) انظر عن المسجد الأعظم بفاس الجديد ، ماصلو ، **مساجد فاس وشمال المغرب** ، ص 38 -53 وأبيل **الكتابات العربية بفاس** ، ص. 86 -91 .

(19) انظر عن هذا الأثر ، ماصلو ، نفس المرجع ، ص. 86 -91 .

(20) انظر عن أسوار فاس الجديد ، ج مارسي ، **كتاب الفن الإسلامي ، الهندسة العمارية** ، الكتاب 2 ، ص. 565 .



الرسم 7

الكتلة الإسلامية لفاس الجديد (حسب تصميم أورثلييب ، بمقياس 5.000 /1 -1913) .

الأحياء : I . قصبة البطاطحة II. للاّغريبة III . الزبالة IV. سيدي بونافع V. بوطويل VI . بلاغمة.

الباستيونات : أ . برج الشيخ أحمد بـ . برج الطويل ج . برج سيدي بونافع .

1 . الجامع الكبير 2 . جامع مولاي عبد الله 3 . للاّغريبة 4 . باب السمارين 5 . للاّجامع الزهر 6. جامع الحمراء 7 . جامع البيضاء 8 . حيس الزبالة 9 . الشارع الكبير 10 . زنقة السكاكين 11 . باب الدكاكين 12. المشور القديم 13 . رحبة الزرع 14 . السوق المغطى .

يدخل إليها من بابين ، أحدهما من الشمال ، وهو عبارة عن مجرد ثلمة في السور ، ويُفتح على المشور القديم ، والآخر في الجنوب ، أكثر تحصيناً وأهمية ، وهو باب السمارين . وبين هذين البابين ، كان زقاق واسع جداً بالنسبة لمدينة إسلامية وشبه مستقيم لا يشكل المحور الهندسي ولكن المحور الحي لهذه المجموعة السكنية . ونظراً لكونه محاطاً على طوله الكامل تقريباً بدكاكين تُكوّن سوقاً مغطى بحصر من قصب ، فكان هو محور المرور المطروق جداً بين حي اليهود والمدينة القديمة[21] .

وكان يمتد في غرب هذا الزقاق الكبير حي صغير هادىء ، وكأنه معشش عند قدم جدران دار المخزن ، ومجتمع حول جامع الأزهر الصغير الأنيق[22] . وفي القسم الشمالي لهذا الحي كانت تنتصب بعض الدور الفخمة ، كدار الحاج بريك باشا فاس الجديد أيام الحماية . وأما الباقي فلم يكن غير مبان منخفضة آهلة بسكان ضعفاء . وكان زقاق مستقيم تقريباً موازٍ للزقاق الكبير يخترق هذا الحي ، وهو أثر محتمل للوقت الذي كان فيه تقدّم دار المخزن أقلّ نحو الشمال الشرقي . فكان هذا الزقاق شارعاً رئيسياً هناك[23] .

فاس الجديد الحقيقي ، الزاخر بالسكان الطيّب بالنسبة للقبائل العسكرية القاطنة فيه كان ينمو شرقي الزقاق الكبير ، في سلسلة من الطرق الواسعة المستقيمة في غالب الأحيان ، في اتجاه عام غربي شرقي ، تصل

---

(21) أصبح الزقاق الكبير لفاس الجديد ، الشارع الرئيسي الوحيد داخل الأسوار الذي يربط بين المدينة الأوروبية والملاّح من جهة ، والمدينة القديمة من جهة أخرى ؛ وكانت حركة الراجلين وراكبي الدراجات والمركبات فيه قوية .

(22) انظر عن هذا الجامع ، الذي كان يسمى رسمياً جامع الحجر ، ماصلو ، نفس المرجع ، ص 65 - 73 وبوري لَلاّ جامع الزهر .

(23) تغيير تصميم فاس الجديد هذا ناتج عن التوسعات المتكررة لدار المخزن في اتجاه بساتين بوجلود . وكان آخر توسع في عهد مولاي الحسن (انظر بريسوليط ، بحث غير مطبوع عن فاس الجديد) .

بينها أزقة مستعرضة عاهرة . وكانت هذه الكتلة القليلة التماسك تقسم عادة إلى ثلاثة أحياء[24] : القصبة أو قصبة شراكة ، أو قصبة البطاطحة التي كانت تؤوي ، كما يدل على ذلك اسمها ، وحدات عسكرية من شراكة كانت مُعدَّة لتشكيل حامية برج الشيخ أحمد في حالة الإنذار ، وذلك في الشمال الشرقي ، بجانب البستان الحالي لبوجلود ، والحي المسمى خطأ الجامع الكبير الذي هو في الواقع جامع للاّغريبة المسمى باسم الجامع المريني الموجود به[25] ؛ في الشمال الشرقي ؛ وأخيراً حي الزبَّالة ، أو زبّالة النصارى[26] في الجنوب الذي كان من المحتمل جداً مطابقاً لموقع دار صناعة حيث كان يشتغل الأسرى المسيحيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر[27] . ولا شك أن دار صناعة هذه كانت هي المبنى الذي حُوِّل إلى سجن (حبس الزبّالة) ، حيث كان يُحتجز فيه قبل الحماية المعتقلون السياسيون . كما كان يوجد بهذا الحي أيضاً جامعان متفاوتان في الأهمية ، أحدهما مريني هو جامع الحمراء (أي جامع [المرأة أو الصومعة] الحمراء)[28] الذي كانت ترتفع صومعته الخشنة بعض الشيء على جانب الشارع الكبير ؛ والآخر لاحق هو جامع البيضاء (أي جامع [المرأة أو الصومعة] البيضاء)[29] ؛ وبعض المنازل الفسيحة وبجانبي الزقاق الكبير وبالجهة الشمالية ؛ وكلما كنا نسير نحو أرباض المدينة وجهة الجنوب ، كلما كانت المساكن حقيرة ، وكان سوق للحبوب قرب السوق المغطى يكمّل التجهيز المدني البدائي لفاس الجديد .

---

(24) انظر روني -لوكلير المغرب الشمالي ، ص. 141 .

(25) يوجد اسم الجامع الكبير هذا عند روني - لوكلير (نفس المرجع) وعند لارّاس (تصميم فاس الذي نقله هوبير-جاك في أيام فاس الدامية ، في الأخير) .

(26) ݣايار، نفس المرجع ، ص 83 .

(27) مارمول ، الكتاب 2 ، ص. 171 ، وديیݣو دي طرّيس ، ص. 132 .

(28) ماصلو ، نفس المرجع ، ص. 54-64 .

(29) نفس المرجع ، ص. 120-121 .

بوطويل وسيدي بونافع : ـ وكان في الجنوب والشرق خارج السور الداخلي ، حيان ملحقان حقيران ، هما حيا سيدي بونافع وبوطويل ، يسكنهما حرس الحصنَيْن السعديّين الضخمَيْن ، برج الطويل وبرج سيدي بونافع ، اللذين كانا يُؤَطِّران الباب العاديّ المدعوّ باب الجياف أو باب سيدي بونافع[30] . وكانا مفصولين عن فاس الجديد بأسوار ذات أبراج مربعة ولم يكن لهما اتصال آخر بهذه المجموعة السكنية غير باب السمارين .

وانطلاقاً من هذا الباب وشمال هذين الحيين الذين تحدثت عنهما سالفاً ، كان يوجد ممرّ ضيّق تكتنفه دكاكين ويؤدي إلى باب حي اليهود ؛ كانت الدكاكين الواقعة على اليسار للمسلمين ، والواقعة على اليمين للصاغة اليهود ، ومن ثمّ جاء اسم هذا الزقاق السكّاكين ؛ وكان سوق الزيت وراء دكاكين اليهود يباع فيه الزيت ، والسمن ، والصابون الأسود والعسل ، مشتركا بين فاس الجديد والملاح .

وبالجملة ، فإنه كان للأحياء الإسلامية بفاس الجديد مظهر عسكري أساساً : تحيط بها أسوار محصنة بأبراج ، ومزدوجة على طول خطها الشمالي الشرقي ، والشرقي والجنوبي ؛ وكانت ثلاثة باستيونات هي برج الشيخ أحمد شرقا ، وبرجا الطويل وسيدي بونافع في الجنوب الشرقي ، تزيد في تعزيز حمايتها ، بالإضافة إلى وقايتها بأحد فروع وادي فاس ؛ ولم يكن يسمح باجتياز هذا النسق الدفاعي إلا قليل من الأبواب . وفي داخل الأسواق كانت توجد الأكثرية من دور بيضاء ، منخفضة ، شبه بدوية ، ما عدا في الأطراف المباشرة لدار المخزن ، حيث كان يقطن بعض أعيان القصر والرؤساء العسكريين . وكان التجهيز الحضري بدائياً باستثناء المساجد ، يقتصر على بعض الأفران والحمّامات ، وسوق صغير مغطى ، وقاعة للحبوب وأخرى للزيت ، ويقع ذلك كله تقريباً في

---

(30) گايار ، نفس المرجع ، ص. 88 . وسبب تسمية باب جياف بهذا الاسم هو أنه ، عند مخرج هذا الباب تماماً ، كانت تتكدس ركام الأزبال وفيها جياف الحمير والبغال ، وغيرها . . .

القسم الشمالي للمدينة ، في جهات مدخل دار المخزن[31] : ففي هذه المنطقة يجب أن يوضع المركز البشري لفاس الجديد ، لا حول الجامع الرئيسي كما هو الشأن في غالب المدن الإسلامية . ويبدو هذا الشذوذ وكأنه عاديّ إذا نحن فكرنا في أن الإقامة الملكية كانت هي السبب الموجب لإحداث هذه المدينة ؛ فلا غرو أن لا تجد المعطيات المعتادة في العمارة الإسلامية تحققياً لها هنا[*] .

ج . **الحي اليهودي أو الملاح** [32] : - إن من خرج من باب السمارين وعبر باب الحي اليهودي (باب الملّاح) غادر أزقة فاس الجديد الواسعة المضيئة ليتوغل في أزقة ضيقة ملتوية مظلمة ، محاطة بدور ذات طبقات عديدة فُتحت فيها نوافذ كثيرة ، مطلية باللون الأصفر أو الأزرق ، وأبواب مصبوغة بالأحمر القاني . فيتوهّم أنه في عالم آخر ولو أنه لم يسر أكثر من مائة متر .

ليس السبب في ذلك الانتقال من عالم إسلامي إلى عالم يهودي فحسب ، ولكن ذلك راجع أساساً إلى أن الملّاح ، الذي هو محصور داخل حاجز غير قابل للتمدد وواقع على مساحة متناهية الضيق ، كان مضطراً إلى أن يكتسب عن طريق العلو والاكتناز « ما لا يتوفر عليه مساحة »[33] . فهو مؤلف إذن من دور عالية ، من طابقين في الغالب وأفنية ضيقة ، جداً ومتزاحمة بعضها مع بعض إلى درجة أن الحيّز المُعدّ للأزقة كان محدوداً ما أمكن . يرتفع هذا الحي في جنوب فاس الجديد ، على شكل مدرج في ردف يشرف على الوادي الأعظم ، محاذياً القصر السلطاني من جهة الشمال والشمال الغربي .

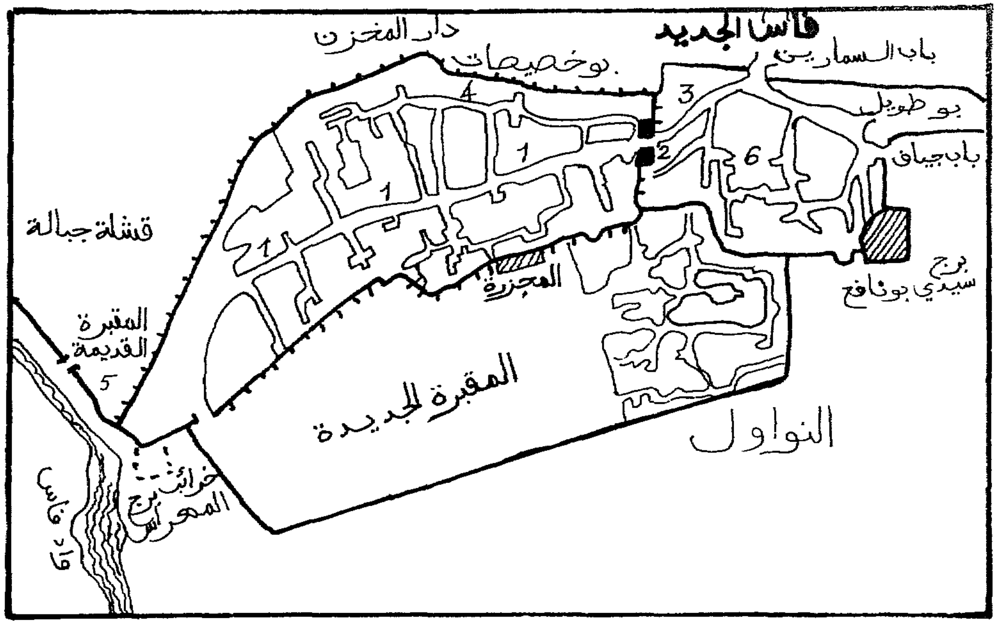
---

(31) غير أنه كانت توجد بعض الأحياء المتميزة بمساجد ، وسوق أصلي ، وفرن ، تُغلق بالأبواب ، وخير مثال لذلك هو حي البلاغمة ، في جنوب - شرقي فاس الجديد .

(*) هذا تعليل بارد ، فجميع المدن الإسلامية أسس فيها دور الإمارة بجوار المساجد الجامعة .

(32) انظر عن اشتقاق هذا اللفظ ج . س . كولان ، مقال ملّاح ، في **دائرة المعارف الإسلامية** ، جزء 3 ، ص . 523 . وانظر الصورة رقم 8 .

(33) إن هذا الحي ، الذي كان أوسع بكثير فيما سلف ، قد أُرجع إلى حدوده الحالية في أيام مولاي اليزيد . وهو حديث نسبياً في الحالة التي هو عليها الآن . (انظر سيماك ، **تاريخ** ، ص . 93) .



الرسم 8

الملاّح (حسب تصميم أورثيب بمقياس 1/5.000)

1. الشارع الكبير 2. باب الملاّح ، برج القيصرية 3. زنقة السكاكين 4. درب الفوقي 5. باب العامر 6. سيدي بونافع .

الزقاق الكبير : كان زقاق وسطي ضيق ملتو[34] يتجه عموماً نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، ويقسم المجموعة السكنية إلى شطرين ؛ ينطلق من باب الملاّح الذي هو على شكل حربة محاطة ببرجين ضخمين (برج الملاّح) ، ويؤدي إلى المقبرة القديمة التي أصبحت اليوم ساحة التجارة . كانت قيصريّة تحتل نحو اثني عشر دكاناً تحت قبة الباب بالذات ، ودكاكين متنوعة تحيط بالزقاق الكبير على طوله . وهناك كانت تقوم تجارة الحي اليهودي بالتقسيط .

الحيان العالي والسفلي : ـ كان القسم العالي من الملاّح ، شمال غربي الزقاق الكبير ، يشكل الحي الأرستوقراطي ؛ توجد فيه دور فاخرة ذات جدران داخلية مكسوّة بالزليج ، على غرار ما يوجد بالمدينة القديمة ، كدار أسرة ابن سمحون ، التي نزل بها شارل دو فوكو أثناء إقامته بفاس[35] . وكانت هذه المنازل واقعة على الخصوص على أطراف بساتين بوخصيصات التي كانت تعطيها الهواء والنور ، وكان اتجاهها إلى الشمال يُؤمِّن لها في الصيف برودة سارة . وفي هذا الحي شُيِّد أيضاً الحمّامان الباردان للملاّح . أما الحي السفلي ، وهو أكثر بؤساً لكثافته وحرارته ، فكان يؤوي الطبقة الدنيا من الشعب والمعامل الصغيرة حيث كان يشتغل الصناع اليهود .

المقابـــر : ـ كان الملاح يتعثّر في جهة الغرب بمقبرته القديمة ، التي كانت القبور ما تزال مبعثرة فيها عام 1912 ؛ وفيما وراءها استناداً إلى سور المدينة ، في الموقع الحالي للمستوصف الإسرائيلي ، كان مركز لريفيين مكلفين بحراسة هذا الجزء من السور (قشلة جبالة) ؛ وكان مفصولاً عن الحي اليهودي بسور يقطع بانحراف ساحة التجارة العصرية . وكانت تمتد إلى الجنوب المقبرة

---

(34) ليس الزقاق الكبير للملاّح ، الذي هو مستقيم تقريباً وواسع نسبياً ، هو الذي أتكلم عنه بالضبط ، لأن الحريق الذي أضرمه مثيرو الفتنة في شهر أبريل 1912 ، هو الذي ساعد على أن يكون ما هو عليه اليوم .

(35) ش . دوفوكو، نفس المرجع، ص. 19 . وقد أقام بفاس من 11 إلى 28 يوليوز 1883 ؛ وكان مضيفه يسمى م . صامويل بن سمحون (هكذا) .

الجديدة ، التي هي اليوم المقبرة اليهودية الوحيدة بفاس ؛ ولم تزل هذه المقبرة عامرة قليلاً في العهد الذي أحدث عنه ، ولم يكن جزؤها الشرقي كله سوى أرض فارغة يلعب فيها الأطفال اليهود ، لاسيما يوم السبت . كما كان ينتصب ، بين المقبرة القديمة والجديدة ، تلٌّ صغير يستطيع اليهود أن يأتوه للتفسح والتلهي باللعب في أمن تام ؛ وكان يحتل الموقع الذي ترتفع فيه حالياً عمارة الشركة الجزائرية .

النواويـــل : ـ كان لابد من المرور عبر المقبرة الجديدة للوصول إلى المجزرة المبنية عند قدم السور المريني ، وأبعد من ذلك ، إلى الحي الجديد الذي أنشىء في الجنوب الشرقي للملاّح وجنوب الحي الإسلامي لسيدي بونافع : وهو حي النواويل الذي سُمِّي هكذا لأن السكان الأولين لم يقيموا فيه إلا أكواخاً من قصب وتبن ؛ وقد شُرِع قُبيل الحماية في تشييد بعض المنازل بكل معنى الكلمة عوَّضت شيئاً فشيئاً المنشآت الفقيرة العتيقة . وكان يمتد بين النواويل والمقبرة الجديدة فضاء فسيح يقال له بستان الاتحاد ، إذ كان مقرراً أن تُشيَّد فيه مدرسة للاتحاد الإسرائيلي العالمي ؛ وفي الانتظار كان يُستعمل كمكان للتنزه ، قبل أن يتحول في عهدنا إلى سوق الخضر للملاح[36] .

ولم يبرز أي مبنى عام جدير بالانتباه من هذا الركام المزدحم بالألوان .

د . القصبات وضواحي المدينة القديمة : ـ تكوَّن بين فاس الجديد والمدينة القديمة نظامٌ معقَّد من الحصون ، والبساتين ، والأسوار ، بقي عليَّ الآن أن أدرسه[37] .

أظن أنه ينبغي بادىء ذي بدء الانطلاق من الملاحظات الآتية : كـان فاس

---

(36) إني مدين بجلّ هذه المعلومات لـم . يهودا بن سمحون ، عضو الجماعة الإسرائيلية ، والأديب المؤرخ ، الذي أرجوه أن يجد هنا عبارات امتناني الحار لكل البيانات القيمـة التي تفضل بتقديمها إلي .

(37) انظر الرسم رقم 9 .

الجديد وفاس البالي يشكلان في البداية مدينتين مفصولتين تماماً ، لم يُؤَمِّن ربطُهما القارّ إلا في عهد مولاي الحسن ولإرضاء حاجيات المخزن خاصة ؛ ومن جهة أخرى ، فإن المنشآت العسكرية الواقعة بين المدينتين لم تكن مُعدَّة لحماية مواصلاتهما بقدر ما كانت مُعدَّة لتأمين دفاعهما الواحدة ضد الأخرى ، لاسيما فاس الجديد ضد فاس البالي . فهناك حدث تاريخي وهو أن المدينتين حاصرتا بعضهما البعض مراراً متعددة ، في عهود مولاي عبد الله المتتالية[38] ، وأن السلاطين السعديين بنوا قبل ذلك بقرن ونصف ، مسلسلاً كاملاً من المنشآت كانت الغاية الوحيدة منها هي تأمين المراقبة العسكرية لأصحابها على المدينة : فبرجا الشمال والجنوب اللذان سأتحدث عنهما فيما بعد ، وكذا برج الشيخ أحمد ، أقوى دليل على هذه السياسة .

قصبة شـراردة : ـ ربما كانت قصبة الخميس المدعوَّة اليوم قصبة الشراردة التي شيَّدها مولاي رشـيد[39] تستجيب هي الأخرى لانشغالات مماثلة . حقاً إنها كانت تتحكم في طريق مكناس وطنجة ، بواسطة رأس الجسر الذي كانت تشكله شمال النهر مع نسق باب الساكْمة ـ باب الدكاكين ، فتحمي فاسا الجديد ومواصلاته مع المدينة القديمة ، لكنها كانت تشرف كذلك على باب المحروق وهو الباب الغربي لفاس البالي ، بكيفية مهمة جدا . كانت هذه القصبة عبارة عن مُضلَّع رباعيّ يكاد يكون مستقيماً ، مكوّن من أسوار مسنَّنة نُصبت فيها أبراج مربعة منيعة . ولها بابان فخمان يؤديان إليها ، الأول في الغرب نحو سهل سايس ، والآخر في الشرق نحو باب محـروق ؛ وكان هذا الأخير مغلقاً في أواخر القرن التاسع عشـر[40] ؛ وأخيراً كان هناك باب سرّي يسمح بالالتحاق مباشرة بالمشور الجديد وفاس الجديد ، دون المرور بالخارج . وفي الزاوية الجنوبية الغربية أقيمت بعض مبان حقيرة ، كان يُطلق عليها الاسم الطنَّان القشلة ، بينما كان الباقي

---

(38) انظر الاستقصا ، والزياني ، هنا وهناك ، وفيما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 5 .

(39) الاستقصا ، جزء 7 ، ص. 42 .

(40) أوبان ، نفس المرجع ، ص. 255 ، وميشو بـلّير ، وصف فاس ، ص. 260 .

خالياً . وكان يُقام على طول الأسوار الشمالية والشرقية سوق الخميس ، ومنه أُخذ الاسم الأول للمنشأة . وفي الشمال أيضاً ، كان أحد قواد شراردة قد بنى قصبة صغيرة مُعدَّة لحماية مطامير القبيلة التي حُفرت هناك[41] . وأخيراً في جنوب وفي شرق قصبة الخميس وتحت أسوارها بالذات ، كانت أضرحة مقبرة باب المحروق تصطف على أرضية تنتشر فيها مطامير المرابطين أو الموحدين ؛ ويتميز من بينها ضريح سيدي أبي بكر [ابن] العربي ، وبجانبه نخلة ضامرة .

الربط بين فاس الجديد والمدينة : ـ لننتقل الآن إلى الربط بين فاس الجديد والمدينة القديمة . كان هذا الربط يتمثل على شكل برزخ عرضه 300 متر تقريباً في جزئه الأكثر انحصاراً ويحدّه صفّان من الأسوار متجهان عموماً إلى ناحية الغرب الشرقي . كان السور الشمالي يستند إلى جدار مشور باب الدكاكين ثم يسير ليلتحق بباب محروق[42] ؛ والسور الجنوبي ينطلق من برج الشيخ أحمد ، فيسير منتشياً مخترقاً البساتين إلى باب الحديد .

وكان الجزء الجنوبي كله لهذا البرزخ محتلاً من طرف مركز للريفيين [43] ، مع بساتين معظمها في ملك السلطان ويُوصل بدار المخزن قصور الاصطياف المشيّدة في القرن التاسع عشر بجانب المدينة القديمة[44] . ومن هناك كان وادي

---

(41) أصبحت قصبة ابن دبّاب ، إحدى مدن الصفيح بفاس ، وكانت قديماً تحمل اسم قصبة بوشويهة . وهي « قصبة القائد سعيد » المبينة في خريطة فاس للمصلحة الجغرافية للمغرب (سنة 1928) .

(42) الجزء الواقع بين باب الدكاكين وباب الشمس حديث ، وكان متصلاً بالسور ـ سواء السور المريني أو ما قبله ـ لساحة بوجلود . والسور الجنوبي كله ينتمي إلى عهد مولاي الحسن .

(43) كان مركز الحراسة هذا ، القريب جداً من برج الشيخ أحمد ، يحتل المكان المدعو حالياً بباب ريافة أو باب جبالة .

(44) تحوّل القصر الغربي (الدار البيضاء) إلى الإقامة العامة ؛ أما الآخر (دار البطحاء) فإنه حُوّل إلى متحف الفنون الأهلية . انظر عن هذين القصرين دوكاستر : **مذكرة تاريخية حول قصور بو جلود بفاس** . ووقع اقتناء الأراضي الممتدة بين فاس الجديد وقصبة بوجلود لفائدة الملكية الشريفة من طرف سيدي محمد بن عبد الله ، في النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولم يشيد بها السلاطين إلا بعض المقاصير حتى دولة مولاي الحسن . فهو =

فاس يدخل إلى المدينة : يمرّ في سرداب تحت المشور القديم ويقسمه مُـوزِّع[45] إلى فرعين أساسين مُعدَّين ليمدَّا بالماء ، أحدهما يُمدّ عدوة الأندلس ، والآخر عدوة القرويين ؛ وحتى قبل الدخول إلى المدينة ، كانت هذه الشبكة تمر بموزِّعات أخرى تقسم الماء بين مختلف أحياء عدوة القرويين . وكان يحمي هذه الأراضي المخزنية على طول واجهتها الشمالية سور عالٍ مسنَّن من جهة باب الدكاكين إلى جامع بوجلود .

فلم يبق حقاً لربط فاس الجديد بالمدينة سوى فضاء ضيق ينطلق من باب الدكاكين لينتهي عند باب بوجلود ، بعد قطع مسافة نحو 750 متراً . وكان من باب الدكاكين إلى باب الشمس ممرّ بين صفين من الأسوار وقصبة صغيرة يحرسها بعض الجنود السود ، هي قصبة الشمس .

ساحة بوجلود : ـ وبعد اجتياز ضيق باب الشمس ، تأتي الساحة المنحدرة لبوجلود . كانت على شكل مثلث محاط بأسوار مسنّنة لا فرجة فيها ، يقوم في وسطها بناء مريني مستطيل ضخم ، هو هري بوجلود . وكانت تصطف على السور الشمالي الغربي كله حُجَيْرات (بنيقات) يلتجيء إليها الجنود العابرون ليلا ، وفي الزاويتين الشمالية والشرقية كانت مبان ملفّقة ، منها مستودعات ، وضريح بسيط لأحد الأولياء ، وقصبة صغيرة حُوِّلت إلى حظيرة للمواشي . وكانت هذه الساحة تصلح أصلاً ، كما يدلّ اسمها على ذلك[45م] ، لتمركز الجنود ، وقد بقي شيء منهم ، إذ كان الجنود يعسكرون بها أحياناً ، لكنها كانت بصفة خاصة مكان تخييم القوافل ومنتزها للسوقة من سكان الأحياء العليا للمدينة ،

= الذي بنى قصر البطحاء على أرض اشتريت من أسرة ابن جلون ؛ كما بدأ بناء الدار البيضاء الذي واصله مولاي عبد العزيز وأنهاه مولاي حفيظ .

(45) يحمل هذا المُوَزِّع اسم سيدي مجبر ، بسبب ولي أُقبر هناك ، عند قدم البرج الشرقي لباب الدكاكين .

(45 م) لفظ بوجلود تحريف شعبي لعبارة أبي الجنود « ساحة العرض العسكري » . انظر دو كاستر ، نفس المرجع ، ص. 4 . ومن جهة أخرى ، فإن هذا المكان منعوت دائماً « بأبي الجنود » في جميع الوثائق المطبوعة .

والغرباء العابرين ؛ فكانت طول النهار وفي العشي بالأخص ملتقى المشعوذين والحلاقين المتجولين الذين يحلّق حولهم المتسكّعون .

وكانت الساحة تختنق ، في زاويتها الشرقية ، بين قصبتين يبقى عليَّ أن أتكلم عنهما : قصبة فيلالة وقصبة بوجلود . كانت هاتان القلعتان القديمتان غير مستعملتين بعدُ لأغراض عسكرية في بداية القرن العشرين ، وإنما احتفظتا في اسمهما فقط بذكرى العهد الذي كانتا فيه تقومان بحماية فاس من جهة الغرب ، قبل أن يوجد فاس الجديد ؛ وفي نفس الوقت كانتا تشرفان على المدينة المضطربة . وما زالتا مفصولتين عنها بأسوار متينة لم يفتح فيها أي باب للاتصال مع حي الطالعة المجاور .

قصبة فيلالة : ـ أهمّ القصبتين قصبة فيلالة . وهي محاطة بسور ذي أبراج مسنّنة ، على شكل مثلث . تفضي الزاوية الغربية إلى باب محروق ، والزاوية الجنوبية إلى الجزء الأعلى من زقاق الطالعة الكبرى والشمالية الشرقية إلى السور الخارجي للمدينة القديمة ؛ ويحاذيها ، بين باب محروق والطالعة ، زقاق واسع مستقيم تقريباً يُفتح فيه الباب الوحيد الذي يصل القصبة بالخارج ، وهو باب هائل على شكل حربة ، من بناء العلويين ، يحيط به برجان مزخرفان . ويوجد تحت الباب بالذات وفي الزقاق التابع له بعض الدكاكين لبيع المواد الغذائية ، وبعد اجتياز بضعة أمتار نصل إلى ساحة صغيرة مستطيلة ، هي (وُسْعة باب الجامع) ، حيث شُرع باب جامع الحي بصومعة مربعة غير مزخرفة . ومن هناك تنتشر نحو السور أزقة صغيرة لا صلة بينها . فتتشعب بدورها إلى دروب غير متوازية . مساحة الحي كلها مملوءة بدور فقيرة شبيهة بدور فاس الجديد ومولاي عبدالله . فالباب ، والجامع ، والسوق الصغير ، هي العناصر المجمّعة التي تدور حولها حياة هذه القصبة ، التي هي بدون شك قديمة ، لكن بدون تاريخ محدد .

قصبة بوجلود : ـ وعلى النقيض من ذلك نعلم أن جارتها قصبة بوجلود تنتمي إلى عهد المرابطين ، وأن جامعها الجميل ، وهو أحد أقدم مآثر

فاس ، من بناء الموحدين ؛ وهو أحد جوامع فاس السبعة التي تقام بها صلاة الجمعة ، ويحضرفيها السلطان هذه الصلاة . لكن ، إذا استثنينا المسجد فيا له من انحطاط ! لم تعد قصبة بوجلود على عهد مولاي عبد العزيز ، عامرة إلا بدور حقيرة وأكواخ من تبن ، ومجرد سكن حقير لبعض الصعاليك والعاهرات المتضوّرات جوعاً[46] . كانت على شكل غير منظم ، محاطة بجدران الدار البيضاء ، ودار البطحاء وحدائق السلطان ، ولم يكن لها سور خاص إلا من جهة الشرق تجاه المدينة القديمة التي كانت تشرف عليها من أعلى أكمتها ، ومن جهة الشمال بين الجامع والباب الحالي لبوجلود ؛ وكان الباب العادي المؤدي إليها مفتوحاً في هذه الواجهة .

لجميع الأحياء التي وصفناها آنفاً نفس الميزة ، وهي أنها لا تشكل مدينة حقيقية ، كما يمكن أن يوهمنا بذلك اسم المدينة البيضاء الذي أطلق في البداية على فاس الجديد . فلو كان للملّاح حرية التفتح لأمكن أن يكون مدينة قمينة بهذا الاسم ، لكن المكان الضيق الذي خُصص له جعل منه كتلة متناهية الكثافة ، ومتناهية الاندفاع إلى العلو (في البناء) الذي ما زلنا نعرفه . وما عدا ذلك فهو خاضع قبل كل شيء لمقتضيات عسكرية أو لجاذبية القصر ؛ إن الجامع الرئيسي والحي التجاري بفاس الجديد ، يحيط أحدهما بالآخر ، وليسا وسط المدينة ، كما هو المعتاد في المدن الإسلامية ؛ وإنما يدور الكل حول القصر أو حتى حول منشآت الدفاع ، مثل أحياء قصبة البطاطحة ، وبوطويل ، وسيدي بونافع . ومن جهة أخرى ، فإذا صحّ أن مساجد فاس الجديد أو بوجلود لا تكون في غير محلها داخل حاضرة كبيرة فإن الأسواق بعكس ذلك هزيلة ، والتجهيز العمراني ناقص إلى أدنى حد . فيجب البحث عن سبب ذلك في مقتضيات الحياة العسكرية . وهذه فكرة ستُتاح لي فرصة الرجوع إليها عند دراسة سكان فاس الجديد وملحقاتها .

---

(46) أوبان ، فاس ، آخر مركز للمدينة الإسلامية ، ص. 857 ؛ وڤيير المرجع المذكور ، ص. 219 ، و . روني لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص. 139 .

2/2

الفصل الثاني

المدينة

بزيارة قصبة فيلالة وقصبة بوجلود ، اقترب المسافر الذي أدلّه من المدينة إلى أن ماسَّها ، لكنه لم يستطع أن يأخذ عنها أية فكرة ؛ فما كاد يـرى ، من ساحة بوجلود ، سوى صومعتين بين صومعتي القصبتين ، لا تدلان إلا على أن هناك شيئاً آخر يوجد وراء هذا الركام من الأبواب والأسوار التي تفتح أو تحرس الطريق بين المدينتين .

وقد حان الوقت الآن لرفع الستار عن الحاضرة الأساسية ، كما كان يقول پيكّي ؛ لكنني أدعو قرائي قبل الدخول إليها ، إلى القيام بجولتين خارج الأسوار ، حتى نأخذ عنها نظرة شاملة قبل الدخول في التفاصيل . وفعلاً إذا دخلنا توّاً إلى المدينة ، وجدنا أنفسنا منغمرين فجأة في متاهة من الأزقة الملتوية ، قلّما توجد فيها فضاءات فارغة ، وينعدم فيها كلياً مكان طليق يمكن الإشراف منه على المدينة ومحاولة فهمها ؛ وإلا ، فلا بد من الدخول إلى أحد المنازل ، والصعود في سُلّم ضيق عالي الدرجات إلى سطح يكون قد اختير جيداً ساطعاً بالشمس ، حتى يمكننا من أعلاه أن نلقي نظرة خاطفة وشاملة على هذا القطيع المؤلف من الدور والمنـارات . لكن المسافر الذي يحتكّ بفاس غير مقبول على الفور في منزل فاسي ، ثم إن لفاس هذه المزية العجيبة ، وهي أنها تتمدّد أمامنا من أعلى تلال الشمال وتلال الجنوب ، وكأنها خريطة حيّة .

باب محروق : - وصل إذن مسافري إلى بوجلود ، أمام باب القصبة ، مشاهداً أمامه جداراً يسد المدينة القديمة ، وقد عُوِّض عام 1913 بباب ذي ثلاث فتحات وزخرف متعدد الألوان سمي باب بوجلود(*) أو « باب الفرنسيين » . كذلك وإلى جانبه الأيسر باب عاديّ على شكل حربة ، هو باب بوجلود القديم ، الذي كان يشكل فيما سبق المنفذ الوحيد للدخول إلى المدينة القديمة إذا جيء إليها من فاس الجديد . وهو يؤدي إلى سوق مغطى يتوغل يميناً في المدينة القديمة ؛ لكن إذا صعدنا إلى جهة اليسار فإننا نحاذي أسوار قصبة فيلالة ونصل إلى باب حصين يُدعى باب محروق[1] ، باب الشريعة سابقاً[2] . وهذا الباب هو أكثر أبواب فاس كآبة ، حقيقة ومجازاً ، فهو داكن بلون طلائه الرمادي الذي تعفيه دوماً الأمطار والرياح الغربية ؛ وقاتم أيضاً لأنه كان باب العقوبات تُعلق فيه رؤوس الثوار الذين تقتلهم الجيوش الشريفة ؛ ويظل المحكوم عليهم فيه معلّقين من معاصمهم طول النهار لا تكاد أرجلهم تمس الأرض[3] . وفي نفس المكان . وعندما كان قطع الرؤوس ما زال العمل جارياً به ، كان الجلاد يطير الرؤوس هناك ومن ثم جاءت العبارة المأثورة إلى الآن : « اقطع لي رأسي وعلّقه على باب محروق ! » ؛ ثم لما

(*) يكتبه المؤلف باللام دائماً « بوجلود » كما تنطق به العامة . (مترجم) .

(1) يشار إلى حذف « أل » في محروق : وهذه علامة معتادة في تسمية أماكن فاس ، باستثناءين : باب الحديد وباب الحمراء ؛ كما أن الفاسيين يقولون الآن (باب الـگيسة محرّفين اسم العَلَم عجيسة) . ونجد ذلك حتى في كتب علمية كسلوة الأنفاس (انظر على سبيل المثال ، جزء 2 ، ص. 78 وهنا وهناك)(*) .

(*) انظر بحث عبد القادر زمامة ، باب بوجلود بفاس ، في مجلة المناهل، العدد 13 دجنبر 1972 ، ص. 374 -382 . (مترجم) .

(2) انظر عن معنى الشريعة وعن الباب الذي يهمنا ، ليڤي - بروڤنصال ، دراسة أسماء مواقع جغرافية (طوبونوماستيك) ، ص. 223 وما بعدها . وحُوّل اسمه إلى باب محروق لأنه في عام 600/1203- 04 أحرق فيه جثمان الثائر العبيدي الذي علق رأسه في الشرفات (الذخيرة السنية ، المذكورة في سلوة الأنفاس ، جزء 3 ، ص. 186 .

(3) أ . هاريس، مع مولاي حفيظ بفاس ، وكانت مشنقة مثبتة لهذا الغرض في الجدار الكائن على اليسار عند الخروج من الباب .

أدخل مولاي عبد العزيز استعمال فصيلة تنفيذ الإعدام ، قُتل بالرصاص شخص على الأقل يسمَّى ابن زاكور في مقطع أحجار قريب جداً من هناك .

ويبتدىء عن يمين الباب مباشرة وادٍ صغير مخضر ، حيث تبتسم البساتين والحدائق بين أسوار المدينة العابسة والجانب المنحدر من التلّ الذي تنتشر فيه هنا وهناك أفران الجير ، وتنفتح فيه كهوف ، ويقطع عمودياً في الغالب من طرف قلّاعي الأحجار ، إذ يستخرج منه قسم من المواد التي تستعمل لبناء مدينة فاس . وكان هناك ، في عهد ليون الإفريقي[4] قرية للجذمى ، لم يبق منها أي أثر . وفي قمة أحد هذه المقالع تنتصب الكتلة الشهباء لقلعة تُدعى اليوم برج الشمال والتي كان أهل فاس يطلقون عليها ببساطة اسم : الباستيون ، الذي قد يدلّ على أنها كانت من عمل الأسرى المسيحيين في دولة أحمد المنصور السعدي[5] .

مقابر المرينيين : يجب إذ ذاك الصعود إلى التل بين أشجار الزيتون والصبَّار والباهرة الزرقاء ، حتى نصل إلى أنقاض لا شكل لها كانت قصراً ومقبرة للسلاطين المرينيين[6] تُدعى الآن « قبور المرينيين » أو ، باختصار أكثر « المرينيين » . وهي تشرف على مقبرة مدرَّجة تمتد إلى انتصاب باب عجيسة وتُسمى « مقبرة باب عجيسة »[7] . وتقع على أنف الجبل بين الواديين الصغيرين لنهري فاس والملّاح ، وينكشف من أعلاها مشهد لا يكاد يُحدّ نحو الشرق والجنوب .

لكن الأنظار لا تتأخر طويلاً في الخلفيات ، رغم جمالها ، لأن المدينة هنا في مقدمة المشهد تعجّ عجيجاً بصياح الديكة ، وصراخ الأطفال ، وضجّة

---

(4) الكتاب 2 ، ص. 168 .

(5) نزهة الحادي ، ص. 260 ؛ وج مارسي ، كتاب الفن الإسلامي ، الهندسة المعمارية ، الكتاب 2 ، ص. 730 ؛ وميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 261 .

(6) مارمول ، الكتاب 2 ، ص. 175 ، وميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 266 .

(7) انظر عن هذه المقبرة ميشو بلّير ، المرجع المذكور ، ص. 269 .

أهل الحرف ؛ ويُقدَّر مع هذا الإرغاء والإزباد وجود حركة كبيرة تحت هذه السطوح والأبراج تسترعي الانتباه بشغف، ويشعر المرء أمام هذا المنظر بانطباع الأبعاد الشاسعة ، ولو أن المدينة إجمالاً غير ممتدة كثيراً[8] ؛ ونتلقى صدمة لا تُنسى عندما نشاهد فجأة هذه المدينة بكاملها وهي مكلّلة بهالة مجد عريق ، مكوّن من شهرة فكرية ، وإشعاس اقتصادي ، ونفوذ سياسي ، فنحس حيناً بالرغبة في معرفة الكيفية التي ينتظم بها هذا المجموع الحضري للقيام بمهمته .

لكن صبراً : فقبل إرضاء حبّ الاطلاع الذهني ، لا بد من الاستسلام بعض الوقت للتأمل ، لأن المنظر ليس عظيماً وجذّاباً فحسب ، ولكنه جميل . لا بد من تذوُّق تناسق الألوان الرمادية والشهباء والسوداء للظلال ، مع بعض البقع البيضاء هنا وهناك للبنايات الجديدة ؛ فإذا شوهدت فاس هكذا ، فإنها لا تبدو مدينة بيضاء ، بل رمادية وشقراء ، ومزنجرة بكيفية مدهشة ؛ ولا بد من تحديد النظر برهة في بعض الصوامع المتدفقة ، هيفاء مزركشة بهذه الرمادية الغنية بفوارق دقيقة من الألوان ، فتنثر عليها بقعاً خضراء مبرقشة ؛ ولا بد من الارتياح لمواقع الخضرة التي تكوّنها البساتين بين الدور ؛ ولا بد من الإعجاب بالنباتات القوية التي تحتوي على المدينة وتُخفي أحياناً تحت أوراقها الأسوار السمراء المتهدّمة؛ ولا بد من الاستمتاع بتلاعب الأنوار على السطوح والقبب والمنارات ، سواء أظلّت سحابة خفيفة المدينة ، أو أبرزت شمس الهاجرة المحرقة المتناقضات ، أو زادت سحب كثيفة منخفضة في عمق الألوان القاتمة ، ملبسة بذلك المدينة الإدريسية حلّة الوقار . فهنيئاً للرسامين والشعراء القادرين على التعبير عن إحساسهم بلغة الجمال !

---

(8) تمتد مدينة فاس (بإدخال قصبة بوجلود وقصبة فيلالة) على مساحة 248 هكتاراً ، وناحية بوجلود (بين المدينة وفاس الجديد) على 23 هكتاراً ، والقصر وملحقاته على 69 هكتاراً ، وفاس الجديد (بإدخال مولاي عبد الله وسيدي بونافع) على 25 هكتاراً ، والملاح على ما يزيد قليلاً على 7 هكتارات ، الجميع 372 هكتاراً . بينما تبلغ الدائرة الإدارية للمدينة الجديدة الحالية 722 هكتاراً ونصف هكتار .

منظر المدينة من الشمال : ـ وَلْنُعِد الآن إلى روح البحث حقوقَه ، ففي قمة الربوات التي تتدرج عليها المدينة ، عن اليمين ، تلوح أسوار قصبة شراردة الشقر وأبراجها ، ومبنى مولاي حفيظ بطبقاته ، ومنارات فاس الجديد وخضرة حدائق بوجلود ، أي المعلوم بالنسبة إلينا . أما المجهول وهو المدينة القديمة ، فهي أمامنا ، لا تُحَلُّ رموزها إلا قليلاً ، لأن هذه الكتلة من المباني توهم بمجموع لا يتجزأ ، يسيل بمنحدر الربوات نحو قعر الوادي . لا نميّز فيه شق الأزقة ، والفراغات التي تتركها الساحات ، والتي يمكن أن تساعدنا ، والتصميمُ في يدنا ، على استرجاع هيكل هذه الكتلة . ومع ذلك ، فإن بعض التفاصيل تتضح ، كلما أمعنت العين في تفحّص هذا اللغز المعمّى . فهذه قبة هرمية الشكل خضراء بجانب صومعة عالية متعددة الألوان تستلفت النظر حتماً ، إنها زاوية مولاي إدريس ، مدفن جثمان مؤسس المدينة ؛ وتلوح عن يسارها عدة صفوف من سقوف ذات انحدارين لا تكاد تبرز من بينها صومعة صغيرة رمادية اللون ، قصيرة ، عريضة ، تعلوها قبة ، : هي صومعة جامع القرويين ، الجامع الأعظم ، كما يقول ليون الإفريقي. فهناك بلا ريب المركز الديني ، وقلب المدينة الروحي . ونلمح بين الجامعين مربعاً منحرفاً ضيقاً من البنايات المنخفضة المتفاوتة الارتفاع ، إنهما إحدى المساحات المستوية النادرة التي يمكن مشاهدتها بفاس : ألا وهي القيصرية ، المركز التجاري للمدينة . ها نحن قد اكتشفنا الخلية الأم القطب الذي تدور حوله المدينة .

وهنا ملاحظة أخرى تفرض نفسها ، وهي أننا لا نرى النهر ، لشدة انخفاضه بين المباني ، لكننا نحرزه في الشق الذي يظهر بين منحدري الوادي الصغير المبني ، عدوة القرويين التي تنحدر محدودبة إلى أقدامنا من نجد فاس الجديد ، وعدوة الأندلس التي تواجهنا وتبسط أمامنا في المحل الثاني . كما نلاحظ أن هذين القسمين من المدينة متفاوتان امتداداً ، إذ تبدو عدوة القرويين أكثر اتساعاً وسكاناً من الأخرى التي تكثر فيها البقع الخضراء ، وتنبسط فيها

مقبرة كبرى داخل الأسوار . والصومعات أقلّ عدداً كذلك ، وأقل ارتفاعاً بصفة خاصة ،باستثناء ملتقى كبير واحد لقوس أسود ينفرج في أعلى هذا الحي ، هو المدخل الفخم لجامع الأندلس شقيق جامع القرويين . وعن يسار المعبد تنبعث من خلال أشجار الزيتون سحب ضخمة من الدخان الأسود الدالة على إقامة الفخّارين هناك . تلك هي نتائج هذا الاتصال الأول .

وادي الزيتون : ـ وللقيام بالجولة الثانية، سوف ننطلق من باب الجياف وننحدر نحو قرار الوادي الصغير الذي يشرف عليه . تنبع عند قدم برج سيدي بونافع عين في حوض يستعمل كمغسل لنساء سكان فاس الجديد الفقراء . وفي الجانب الآخر للنهر، الذي ما زال يسمى هنا وادي العظام (بسبب ركام الجثث القريب من باب الجياف) والذي سيصبح بعد قليل وادي الزيتون، يبرز الكفل الطيني الشديد الانحدار لظهر المهراس حيث كان يُنصب خباء السلطان (أفراك) ، عندما كان يستعدّ للقيام بعملية عسكرية صوب الشرق ، وحيث كان يحلّ أحد معسكرات الجيش الشريف الهامة ، وهو معسكر الطبجية[9] . وكانت تقوم هناك منذ زمن سحيق معامل صنّاع الآجر (اللواجريين) ، بأفرانهم وأفنية التجفيف، بين الوادي وبداية مرتفعات ظهر المهراس، التي يستخرج منها الصناع طينهم[10] .

ـ وسنترك إلى اليسار البساتين بين باب الجياف وصفّ باب الحديد ـ باب جديد ، وهي خصبَة جداً لأنها تسقى بعدة سواق منحرفة من النهر[11] ، يزرع فيها على الخصوص الكتان[12] والقنب[13] ذلك القنب الذي كان مع قنب بني

---

(9) روني لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص. 158 .

(10) انظر عن الآجريين ، بيل ، صناعات الفخار بفاس ، ص. 39-59 ، وكْيِيو ، ولوطورنو وبي ، دراسة غير منشورة عن فخاري فاس .

(11) انظر خريطة فاس بمقياس 10.000 (1928) .

(12) ميشو بلّير ، محاولة للأدارسة ، ص. 407 .

(13) روني ـ لوكلير ، نفس المرجع ، ص. 159 .

يازغة يوفّر المادة الخام لصانعي الحبال بفاس . ونسير عبر البساتين متبعين منعرجات وادي الزيتون ، وبعد قطع مسافة كيلومتر ونصف تقريباً ، نصل إلى ملتقى ثلاثة وديان ، هي وادي الزيتون المتجه من الغرب إلى الشرق ، ووادي بوفكران المتجــه من الجنوب إلى الشمال ، والخندق ذو الانحدار السريع جداً الذي حفره انحراف من وادي فاس في منحدر تلّة باب الحديد. فهذه في الجملة نقطة تجمع المياه قبل دخولها إلى المدينة . وهذا الموقع الطبيعي قد غيّرته صناعة أهل فاس خلال القرون : فقد كان الماء يسيل بطبيعة الحال إلى النقطة السفلى ويدخل من القوس المتصل بباب جديد ؛ لكن الفاسيين أحدثوا بالقرب عن طريق الردم انحرافاً للنهر الذي كان يجرّ الماء إلى نقطة من السور تُسمى أحياناً باب الشبّاك ؛ فإذا دخل النهر إلى فاس حمل اسم وادي مصمودة[15] وزوّد عدوة الأندلس كلها. وكان فرعا النهر، قبل اجتياز السور ، يربط بينهما نسق من أحواض معدّ لاجتناب الفيضانات في الأحياء السفلى من عدوة الأندلس[16] . وكان جسران يسمحان باجتياز هذا النسق ، أحدهما في عالية باب جديد مباشرة، والآخر في ملتقى وادي الزيتون بوادي بوفكران[17] . وكان حاجز الإسمنت الذي يحصر المياه المنحرفة في سافلة محطة توليد الكهرباء الحالية يستعمل مثل ما هو عليه اليوم كمغسل ، لكن للرجال فقط ؛ لأن المكان المنعزل جداً عن كل سكنى لم يكن يسمح للنساء أن يخاطرن فيه بأنفسهن[18] . ومباشرة عند سافلة ملتقى وادي بوفكران، يتسع النهر مدة على عمق ضئيل جداً : وهناك كانت ترد قطعان الماشية .

(14) انظر عنه هوبير ـ جاك ، نفس المرجع ، ص. 88-92 ، زحف طابور فيليبو نحو باب الحديد ، في مجرى واد الزيتون ، في 17 أبريل 1912 .

(15) يدفعنا هذا الاسم إلى الظن بأن هذا الانحراف كان من عمل الموحدين ، أو أنه كان يمرّ بحي يسكنه قوم من قبيلة مصمودة .

(16) انظر على سبيل المثال الفيضان المتحدث عنه في نشر المثاني ، في أحداث عام 1600/1009 ، جزء 1 ، ص. 79 .

(17) بُني جسر ثالث في هذا القطاع بعد الحماية ، لطريق تازا ، في سافلة محطة توليد الكهرباء مباشرة : انظر تصميم فاس ، 10.000 (1928) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانطلاقاً من هذا المكان ، وعوضاً عن تتبع الطريق المحاذي للأسوار حتى باب فتـوح ، سنصعد بين أشجار الزيتون التي هي أكثر كثافة هنا من جهة قبور المرينيين ، مارّين تحت الباستيون الجنوبي الذي هو أقلّ ارتفاعاً وضخامة من شقيقه باستيون الشمال ، منتهين إلى مصلى يسمى الآن مصلى الباشا لتمييزه عن المصلى القريب من القصر المسمى مصلى السلطان[19] . ويشرف هذا المصلى على المقبرة الواسعة الممتدة خارج الأسوار والمسماة « مقبرة باب فتوح » والمنقسمة إلى قسمين ، يفصل بينهما واد صغير يجري فيه جدول صغير : القسم الأول يقع إلى جهة الغرب ويسمى القباب ، بسبب وجود العديد من الأضرحة فيه ، أو سيدي درّاس بن إسماعيل[20] والقسم الثاني يقع إلى جهة الشرق ويسمى سيدي حرازم[21] . ويشرف هو الآخر على المدينة ، المشهد هذه المرة من الجنوب .

منظر المدينة من الجنوب : ـ ليس منظر فاس من هنا كمنظرها من أعلى هضبة المرينيين . لأننا لا نرى أولاً أي شيء تقريباً من عدوة الأندلس التي تكاد تخفيها ثنية رأس القُلَيْعة ، وإنما نميّز في الطرفين بساتين المخفيَّة وباب سيدي بـو جيدة ، وفي الوسط المقبرة العظيمة الداخلية التي تمتد من أسفل الأسوار إلى طرف رأس القليعة وتُدعى « مقبرة باب الحمراء » ، بسبب الباب القديم الذي كان مفتوحاً في السور غرب باب فـتوح ، ولا نلمح حتى قبة صومعة جامع الأندلس .

---

(18) روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 160 . وكان ذلك المكان مغسلاً في القرن السابع عشر . يروي لنا صاحب **سلوة الأنفاس** (جزء 2 ، ص. 86) أن الولي سيدي أحمد أو علي السوسي ، المتوفى عام 1636/1046 ، كان يذهب إليه بثوبه الوحيد؛ والتزاماً للحياء كان يقطع الثوب نصفين : يستتر بنصفه ويغسل النصف الآخر ثم يخيطهما إذا تم غسلهما معاً .

(19) يذكّر هذان المصليان بالعهد الذي كانت فاس الجديد وفاس البالي تشكّلان مدينتين متميّزتين لكل واحدة منهما مصلاّها .

(20) انظر عن هذا الصالح ، **سلوة الأنفاس** ، جزء 2 ، ص. 176 -179 .

(21) انظر عن سيدي علي بن حرزهم ، **سلوة الأنفاس** ، جزء 3 ، ص. 71 -78 ، وعن ضريحه ، ماصلو ، نفس المرجع ، ص. 148-151 .

وعلى النقيض من ذلك ، تبدو لنا جيداً عدوة القرويين ، معروضة للأنظار في اتساعها الكامل ، من باب الحديد إلى قصر الجامعي ، الذي كان حينئذ آخر بناء هذا الحي من جهة الشمال الشرقي . فكأن المدينة غيّرتها عصا سحرية : فلم تعد دكناء شقراء ، كما كنا نراها من الشمال ، بل تكاد تكون بيضاء . والسبب في ذلك هو أننا ، في المكان الذي نحن فيه ، نقابل أحسن اتجاه لفاس ؛ فالمطر والريح لا يلفحان وجه الجدران من هذه الناحية ، فتحتفظ طلاءات الجير بنصاعتها ، وتكاد جميع الفناءات المكشوفة ، وهي كثيرة في الأحياء العليا ، تكون موجّهة نحو الشرق والجنوب ـ الشرقي ، وتبدي لنا أقواس أروقتها النقية .

ونكتشف كذلك حيّاً كاملاً كانت تحجبه عنا ثنيَّة عندما كنا نشرف من هضبة المرينيين ، هو حي العيون الذي يمكن أن يُسمَّى أيضاً حي البساتين . فقد كان وما زال مخضراً جداً عام 1945 ، مع أنه أُنشئت فيه عدة بنايات منذ الحماية . وكانت توجد به ، قبل 1912 بعض الدور الفخمة التي هي في الواقع قصور ، كدار أسرة المقري ، ودار أسرة الكْلاوي ، أو حتى دار التازي اللطيفة التي تحوَّلت إلى إقامة رئيس ناحية فاس ؛ ولم يكن الباقي سوى أشجار الصفصاف والتين والليمون ، والحامض ، والرمان ، وكلها خضرة شديدة كان أهل فاس يتركونها تنمو بغزارة .

ومن هنا يقع التعرف بكيفية أفضل على مدى التواء تضاريس عدوة القرويين ، ويسهل الاقتناع بأن الحي الذي تشرف عليه زاوية سيدي أحمد الشاوي قد أُطلق عليه قديماً اسم « الجرف »[22] ؛ فما هي إلا فروق ارتفاعات طبقات متتالية تدل عليها زوايا السطوح الحادة . فمن الشمال ، كنا نتوهم أن جامعي مولاي إدريس والقرويين يحتلان الجزء الأسفل للمدينة ؛ ومن هنا

---

(22) سلوة الأنفاس ، جزء 1 ، ص. 132 ؛ وقد ثبت هذا الاسم في المواقع الجغرافية العادية لفاس . انظر أيضاً بيل ، الكتابات العربية ، ص. 238 ، هامش 6 .

نراهما بالعكس جاثمين على شبه جرف يشرف على النهر .

ولنخصص مرة أخرى بعض اللحظات للتأمل ، تاركين أنظارنا تتتبع تموّجات هذه الكتلة من المباني التي يحكم بياضها بجرأة في التلال الشقر أو السمر الواقعة في المشهد الخلفي وفي زلاغ المستقيم الهادىء الأجرد ؛ ولنستسلم لهدهدة خرير الماء الرتيب وحفيف أوراق الأشجار . . . . والآن ، كفانا حلماً ، فنحاول تجاوز المظاهر وتحليل الواقع البهي الذي تملّت به أبصارنا .

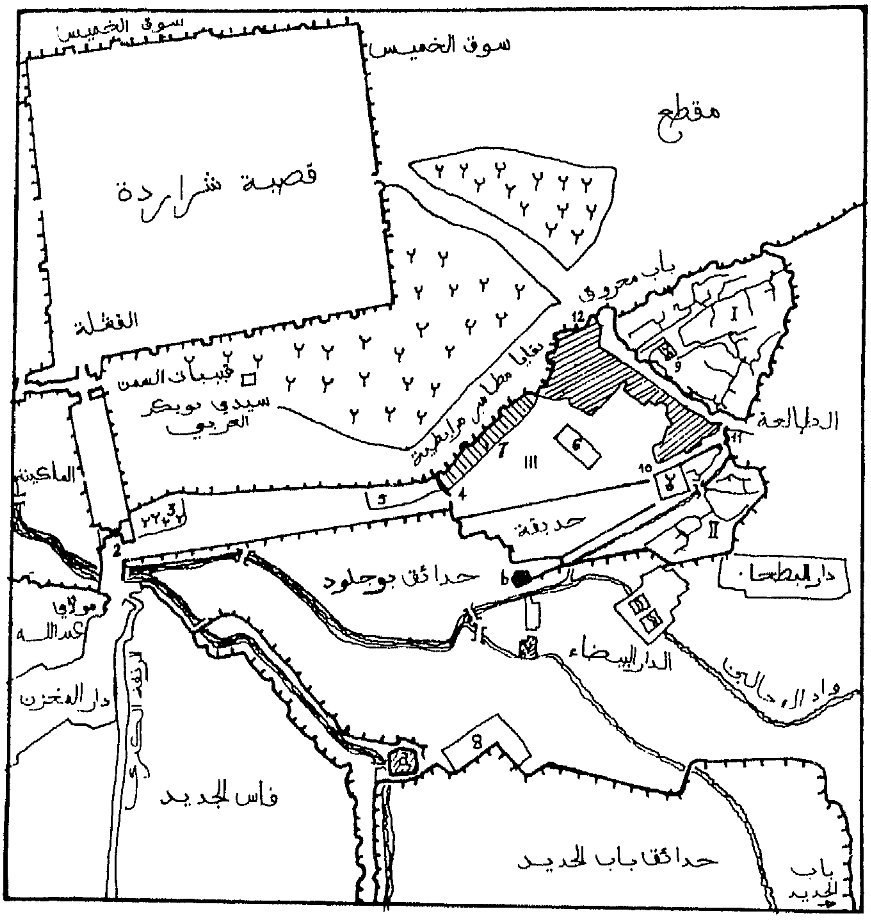
أحياء المدينة القديمة : ـ فاس البالي مقسم إدارياً إلى ثمانية عشر حياً قائمتها كما يلي ، وسأقدم أولاً اللائحة الرسمية الحالية ، التي روعي فيها النظام القديم بشكل محسوس ، ثم أسرد كمسودة معكوسة ، أحياء مدينة فاس كما نجدها في الجزء الأول من **سلوة الأنفاس** . سنرى ، إذا ما تركنا دراسة المواقع الجغرافية جانباً ، مع ذلك أن الأشياء لم تتغيّر كثيراً .

اللائحة الحالية لاحياء مدينة فاس[23]

1 ـ الطالعة .
2 ـ العيون .
3 ـ القلقليين .
4 ـ رأس الجنان .
5 ـ كُرنيز .
6 ـ القطّانين .
7 ـ سويقة ابن صافي .
8 ـ الشرابليين .
9 ـ زقاق الرمّان .

---

(23) بيان ملحق بتصميم مدينة فاس للملازم الأول أورتليب ، موضوع من طرف الملازم الأول ، الترجمان كُبيو ، الرسم رقم 10 .



الرسم 9

القصبات وضواحي المدينة (حسب تصميم أورثيب بمقياس 1/ 5.000 -1913)

1 . قصبة الفيلاليين II . قصبة بوجلود III. ساحة بوجلود

أ . برج الشيخ أحمد بـ . برج بوجلود

1 .باب الساكمة 2. باب الدكاكن 3. مقبرة سيدي مجبر 4. باب الشمس 5. قصبة الشمس 6. هري بوجلود 7. بنيقة 8. مركز الريفيين 9. جامع قصبة الفيلاليين 10. جامع بوجلود 11. باب بوجلود .

10 ـ فندق اليهودي .

11 ـ البليدة .

12 ـ الصاغة .

13 ـ المخفيّة.

14 ـ سيدي العوّاد ، الأقواس .

15 ـ الكدّان .

16 ـ الفخّارين .

17 ـ وادي الزيتون .

18 ـ الكُزيرة .

لائحة سلوة الأنفاس (جزء 1) بنفس الترتيب[24]

1 ـ الطالعة .

2 ـ العيون، السياج ، الدوح ، الجرف[25] .

3 ـ القلقليين ، الرصيف .

4 ـ رأس الجنان ، رحبة الزبيب .

5 ـ القطانين ، المعدي ، زقاق البغل .

6 ـ كُرنيز ، النجّارين ..

7 ـ سويقة ابن صافي ، زقاق الحجر .

8 ـ الشرابليين ، المنية ، الشرشور .

9 ـ زقاق الرمّان .

10 ـ فندق اليهودي ، الحفّارين ، سيدي أحمد ابن يحيى .

11 ـ البليدة ، الدرب الطويل .

12 ـ الصاغة ، درب النقبة ، سبع لويات .

---

(24) لتسهيل المقارنة ، اتخذت ترتيب اللائحة السابقة .

(25) أضاف المؤلف ، بالنسبة لبعض الأحياء ، تعيين أهم الأقسام الثانوية التي اتخذها العرف .

13 ـ المخفية ، كُزام ابن برقوقة .
14 ـ سيدي العواد ، كُزام ابن زقّون .
15 ـ الكدّان ، الشيبوبة ، الرميلة ، جامع الأندلس .
16 ـ الأقواس .
17 ـ درب الشيخ .
18 ـ الكُزيرة .

نلاحظ أن اللائحتين تتطابقان تماماً بالنسبة للأحياء الخمسة عشر الأولى وللحي الثامن عشر . ولم يكن حي الفخارين في اللائحة الحديثة يُعتبر قديماً كحي ، وإنما كان تابعاً لحي الكدان[26] ، وكان ذلك من الإنصاف ، لأنه إذا ما استثنينا معامل الفخارين ، وبعض الأكواخ وفندقين أو ثلاثة فنادق ، فإن هذا الجزء من فاس كان خالياً من البنايات .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن حي سيدي العواد ـ الأقواس العصري كان يشكل قديماً حيين متميزيين . وأخيراً فإن حي درب الشيخ القديم كان مؤلفاً من عناصر حي وادي الزيتون الذي ما زال يكاد يكون قفراً ومن عناصر حي الكُزيرة المجاور الذي كان أقل امتداداً من الآن .

وهناك أيضاً لائحة وضعها ديلفين[27] وأخرى وضعها ميشو بلّير[28] . الأولى لا تستحق الوقوف عندها طويلاً ، لأنها وُضعت حسب معلومات قدّمها للمؤلف طلبة جزائريون من جامعة القرويين . فلا غرابة ألا يكون هؤلاء العلماء الأجانب حصلوا إلا إجمالاً على التقسيمات الإدارية لفاس . والثانية شبيهة تقريباً بالتي ذكرتها ما عدا أن المؤلف يخلط حيَّـي درب الشيخ والكُزيرة ، فيجعلهما حياً واحداً يسميه « العدوة » . لكنه يذكر مع ذلك ثمانية

(26) انظر مارتان ، حي الكدان بفاس ، مجلة العالم الإسلامي ، جزء 4 ، ص. 433 وما بعدها .
(27) المرجع المذكور ، ص . 62 .
(28) مذكرة غير منشورة عن فاس (وثائق البعثة العلمية بالمغرب) انظر بداية الفصل التالي .



الأسماء التي تحتها خط (الأقواس) هي أسماء الأحياء التي كانت قديماً مستقلة ؛ والأسماء المكتوبة داخل إطار الفخارين هي أسماء الأحياء المستخدمة منذ الحماية .

1 . محكمة العامل (دار بو علي)

2 . محكمة المحتسب (سيدي فرج)

3 . محكمة قاضي السماط ـ محكمة قاضي الرصيف.

الرسم 10

أحياء المدينة

عشر حياً ، مدخلاً قصبة فيلالة في المدينة[29] .

يبدو إذن أن عدد الأحياء ثمانية عشر مقدّر لابد من الوصول إليه بأي ثمن ؛ وقد احتفظت به الإدارة العصرية بدورها إلى الآن . ويُحتمل أنه يطابق تقسيماً قديماً نجهل تاريخه ومضمونه[30] .

القسم الثلاثي : ـ هناك تقسيم آخر ، لم يظهر في النصوص إلا منذ القرن السابع عشر ، ويميّز في فاس ثلاث وحدات كبرى : العدوة (وهي عدوة الأندلس) ، التي تشمل الأحياء الستة الواقعة شرقي النهر (أي المخفية ، وسيدي العواد ، والأقواس ، والكْزيرة ، ودرب الشيخ ، والكدّان) ؛ والأندلسيين ، التي تشمل ستة أحياء جنوبيّ وغربيّ عدوة القرويين (وهي العيون ، ورأس الجنان ، والقلقليين ، والقطانين وكْرنيز ، والطالعة) ؛ واللمطيين ، التي تشمل ستة أحياء شماليّ وشرقيّ نفس العدوة (وهي الصاغة ، والبليدة ، وفندق اليهودي ، وزقاق الرمان ، والشرابليين ، وسويقة ابن صافي) . ولعل هذا التقسيم الثلاثي ينتمي أصله إلى الاضطرابات التي أزعجت فاسا في أواخر القرن السادس عشر والثلثين الأولين من القرن السابع عشر[31] . وهذا التقسيم من جهة أخرى ليس من الدقة بمكان ، لأن أحياء الطالعة ، وكْرنيز ، وسويقة ابن صافي والشرابليين تنتقل من معسكر إلى آخر حسب المؤلفيين[32] .

العدوتـــان : ـ وعلى أي حال فإن هذا التقسيم لم يوفق في أن يحلّ

---

(29) وقد تغيّر المؤلف في سرده لأحياء فاس : وهكذا فإن اللائحة التي يدلي بها في وصفه لفاس (ص. 275) ليست مماثلة للتي توجد في مذكرته غير المنشورة .

(30) يتحدث مارمول (2, 156) عن اثني عشر حياً ، لكن سياق الكلام لا يسمح بتوضيح هل يتعلق الأمر بمدينة فاس أو بعدوة القرويين فقط .

(31) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 5 .

(32) حسب ميشو بلّير (وصف فاس ،ص. 275) كان يفصل بين الكتلتين زقاق الطالعة ، بين باب محروق إلى القرويين ثم الدرب الطويل ودرب باب النقبة .

نهائياً محلّ التقسيم القديم الذي يجعل فاسا حيّين اثنين ، والذي يرجع أصله إلى بداية فاس الإسلامية حسبما تؤيده الجغرافيا التي تميز في المدينة عدوة الأندلس شرقيّ النهر ، وعدوة القرويين ، غربيّه[33] . هذا هو التقسيم الذي يبدو لي معبراً أحسن عن الشخصية العميقة لفاس .

(33) هكذا فإن مؤلف سلوة الأنفاس، إذا أراد تحديد موقع أثر ما بفاس لم يفته قط أن يبين بأنه يوجد في عدوة القرويين أو في عدوة الأندلس .

وهذا تقسيم طبيعي تماماً ، ففي باريس يميز بين العدوة اليمنى والعدوة اليسرى . حقاً ان نهر السين هو خندق آخر غير واد فاس .

الفصل الثالث

3/2

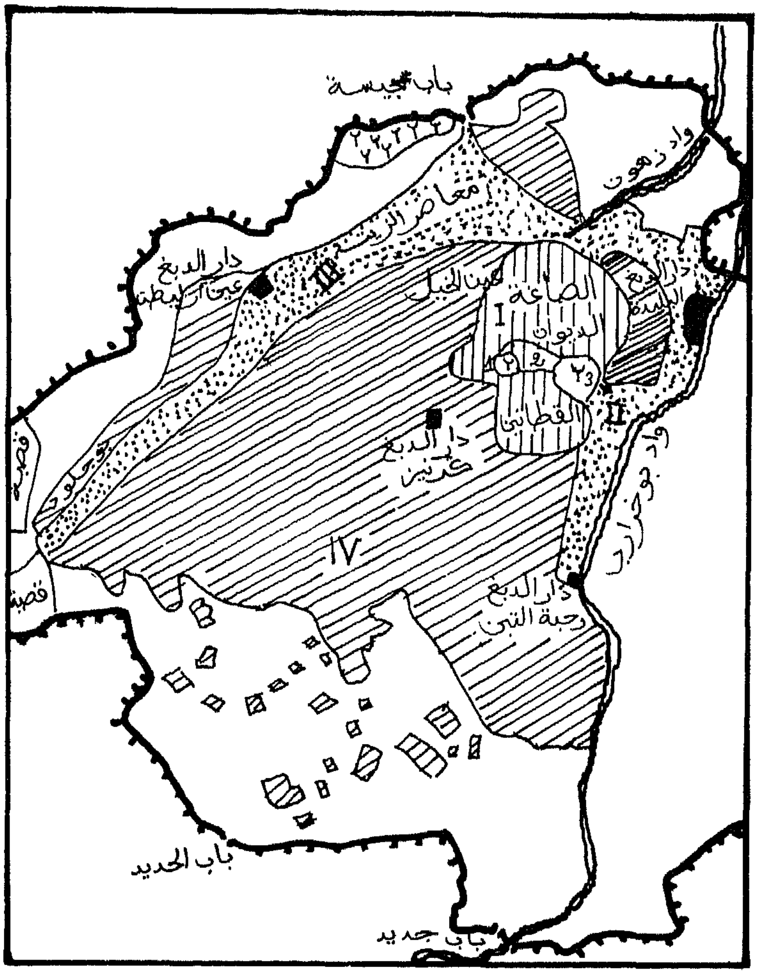
عـــدوة القـرويـين

الخلية ـ الأم : ـ يكفي إلقاء نظرة شاملة على فاس لاكتشاف مركز المدينة . فهو مكوّن من جامعين هما ضريح مولاي إدريس وجامع القرويين ، وسوق مركزي هو القيصرية [1] . فإذا تناولنا خريطة ، لاحظنا أن هذا المركز البشري لا يتطابق بالضبط مع المركز الجغرافي لعدوة القرويين : فمن الممكن أن هذا التطابق كان موجوداً أو كاد فيما مضى ، لأن المدينة بقيت مدة طويلة أقلّ نموّاً بكثير عما هي عليه الآن في جهتي الجنوب والجنوب الغربي . ومع ذلك فمن المؤكد أنه المركز الجغرافي لهذا الجزء من فاس ، إذ هو المكان الوحيد المنبسط الممتد شيئاً ما الذي يمكن العثور عليه في هذه المنطقة ، وهو شبه مسطح بين المنحدرات الهابطة من الغرب والشمال ، والجرف المحاذي للنهر .

وهو أيضاً مركزها التاريخي ، إذ أن المولى إدريس نصب خيمته بنفس جانب المسجد الذي أُهدي إليه عندما استقر في عدوة القرويين [2] . وفي موقع هذا المسجد بالضبط بنى أول أثر مقدس في هذا الحي ، وهو جامع

(1) عن لفظة « قيصرية » ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 2 ص. 700 ؛ وبيل الكتابات العربية ، ص. 387 ، هامش 1 .

(2) ذلك ما يذكر به المبني المدعو دار القيطون ؛ انظر ما يأتي الكتاب 8 ، الفصل 3 ، الرسم 35 .



الرسم 11

مختلف مناطق عُدوة القرويين

تجارة صناعة سكن

I. منطقة تجارية II. منطقة صناعية شرقية III . منطقة صناعية شمالية IV. منطقة سكنية.

1. زاوية مولاي إدريس 2. القيصرية 3. جامع القرويين

الأشراف . فنحن إذن بالتأكيد أمام الخليَّة ـ الأم لحاضرة القرويين . وتتألف ، كما هو الشأن في كثير من المدن الإسلامية الأخرى ، من نواة دينية ونواة اقتصادية[3] ؛ غير أنه لابد من الإشارة إلى أن النواة الدينية هنا مزدوجة ، لأنها مؤلفة من ضريح مولاي إدريس وجامع القرويين . وسأعود فيما بعد إلى هذه الازدواجية[4] .

الدائــرة : ـ انتشرت حول هذه الخلية ـ الأم مدينة معقدة يحدُّها : شرقاً نهر يُسمى على طول مجراه وادي بوخرارب أو الوادي الكبير،والأسوار في الجهات الأخرى . وقد فُتحت في هذه الأسوار خمس فتحات : باب عجيسة شمالاً ، وباب محروق ، وباب بوجلود غرباً ، وباب الحديد في الجنوب ـ الغربي ، وباب جديد جنوبا . ولم تملأ المدينة بالضبط هذا الإطار الذي سطّرته الطبيعة وسطّره الناس. فكان يمتد به شمالاً ، بين قصبة فيلالة وباب عجيسة ، شريط أرضي خال متفاوت العرض بين السور والمباني ؛ والزاوية الشمالية الغربية كلها ، التي يشغلها حالياً حي الزنجفور الذي ما زال بطور البناء ، كانت خالية من كل سكن ، مشكّلة شريطاً جديداً من البساتين بين حي البليدة والسور الشرقي . وأخيراً ، كان حيا العيون ورأس الجنان ، في الجنوب والجنوب الغربي ، من باب جديد إلى قصبة بوجلود ، لا يشتملان إلا على بعض الدور الفخمة في وسط أوراق أشجار كثيفة . والحَاصل أن المدينة لم تلتصق بالسور إلا بواسطة سُوَيْقَتين في البابين الرئيسيين ، هما باب بوجلود وباب عجيسة .

المناطق المختلفة[5] : ـ يمكن أن نميز أربع مناطق في داخل الكتلة

---

(3) انظر و. مارسي ، الإسلام والحياة الحضرية ، في مركز الأبحاث الأكاديمية الكتابات والآداب الجميلة ، سنة 1928 ، ص. 96 . وج . مارسي ، التمدين الإسلامي ، في المؤتمر الخامس لاتحاد الجمعيات العلمية لشمال افريقيا ، ص. 32 -33 .

(4) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 5 .

(5) الرسم رقم 11 .

المبنية المحددة كما ذُكر ، دون أن يكون هذا التحديد دقيقاً تمام الدقة .

أ ـ منطقة تجارية حول الخلية الأم ، خاصة في حي الصاغة شمالاً ، وحي القطانين (I) جنوباً[6]. وكانت فيها المخازن الرئيسية للتجارة بالجملة ومختلف الأسواق الهامة بالتقسيط[7] .

ب ـ منطقة صناعية شرقاً ، على طول النهر من منعطف رحبة التبن إلى مخرجه من المدينة (II) مع دور الدباغة ، ومعامل النساجين والخرازين والشراطين ، إلخ . . . ، ومع الطاحونات طبعاً .

ج ـ منطقة صناعية ثانية شمالاً ، من بوجلود إلى وادي زهون (III)[8] ، مع دار دباغة ، ومعاصر الزيتون ، ومناشر خشب ، ودور صابون ، وطاحونات ومعامل حيـاكة .

د ـ وأخيراً منطقة سكنية شاسعة في الغرب والجنوب أكثرها رفاهية ما يوجد منها في الأطراف (IV) .

وأُلحُّ على الطابع النسبي لهذا التقسيم ؛ فإذا كانت بعض الأحياء ، كحي العيون ورأس الجنان ، خالية من كل منشأة صناعية أو تجارية ، باستثناء بعض الطاحونات ، وإذا كانت أخرى ، مثل التي تحاذي النهر مباشرة ، لا توجد فيها تقريباً أية دار للسكنى ، فإن الأمر في غالب الأحياء الأخرى لا يتعلق إلا بتفوّق هذا الطابع أو ذاك ، وفي بعضها ، مثل حي عين الخيل ، يعسر جداً التمييز بينها . ومن الأمثلة الدقيقة على ذلك أنه توجد دار دباغة هامة في حي كُرنيز ، عند الحد الفاصل بين المنطقة التجارية والمنطقة السكنية . لكن التخصص

---

(6) تُحيل الأرقام الرومانية على الرسم الملحق (رسم رقم 11) .

(7) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

(8) يتكوّن واد زهون من مجمع عدة فروع لواد فاس ، تتجمّع في حي عين الخيل ، بعد أن تسيل تحت الأرض على طول المدينة كلها تقريباً ، ثم تعود إلى الهواء الطلق بعيداً شيئاً ما تحت اسم واد زهون (النهر البطيء) انظر ما يأتي ، الكتاب 4 ، الفصل 3 .

الذي ذكرته واقع يجب الاحتفاظ به في الجملة .

هذا : ويطابق هذا التخصص مظهرٌ خارجي يتغير ولا يخلو من أن يسترعي نظر المسافر . لا أتكلم عن القيصرية التي ما هي إلا دكاكين ، لكنَّ حيَّـي الديوان أو رياض جحا ، اللذين هما معاً جزء من الصاغة ، يحملان طابع نشاطهما التجاري ، فالأزقة محاطة بأبواب عريضة مفتوحة على مصاريعها ، تفضي رأساً إلى فناء كُدِّست فيه حزمات أو ركام من السلع ، ونلتقي فيما حولها بخيول وبغال محمّلة بصناديق رُصَّت بضائعها بمتانة ؛ وكانت الفرصة تتاح قبل الحماية ، لأن تلقى هناك أكثر من أي مكان آخر يهوداً أو أوروبيين يُعرفون بسهولة بواسطة بذلتهم . ومما يميز الأحياء التجارية ، أيضاً ساحات صغيرة هنا وهناك كان الزبناء والتجار يجتمعون فيها لإبرام صفقاتهم . وكانت شجرة توت كبيرة أو كرمة عظيمة معقدة تضفيان على المكان بعض الظل : ذلك هو سوق الحنَّاء[9] القريب من القيصرية ، أو رحبة الزبيب ، بجوار جامع الرصيف .

ويُسمع في الأحياء الصناعية ، من الزقاق الصوت المخنوق لمشط الحائك الذي يدقّ الثوب ، أو الضربة الخاطفة لمدقّ الخرازين وصانعي الأدوات الجلدية ، أو الغناء المتوازن للمطارق على سندان الحدادين ، أو ضجة النحاسين أو خرير أرحاء الحبوب . وأحياناً تكون الرائحة هي المخبرة : من أريج الدقيق الطري الحاد إلى العطر الفائح للزيتون الذي يسيل زيته ، ونتانة الدباغة المنتشرة في الأزقة المجاورة . ويكفي في أغلب الأحيان مشاهدة الصناع وهم يشتغلون في دكاكينهم الصغيرة المفتوحة على الزقاق ؛ وقد يتفق لهم حتى التطاول على الطريق العمومي ، كالخياطين الذين ينزل متعلموهم الصغار إلى الزقاق لمدّ الخيوط وتشبيكها ، أو نساجي الحرير الذين يُعِدّون في الخارج لحمتهم الطويلة إذا كان الطقس جميلاً ، أو الإسكافين الذين يبسطون

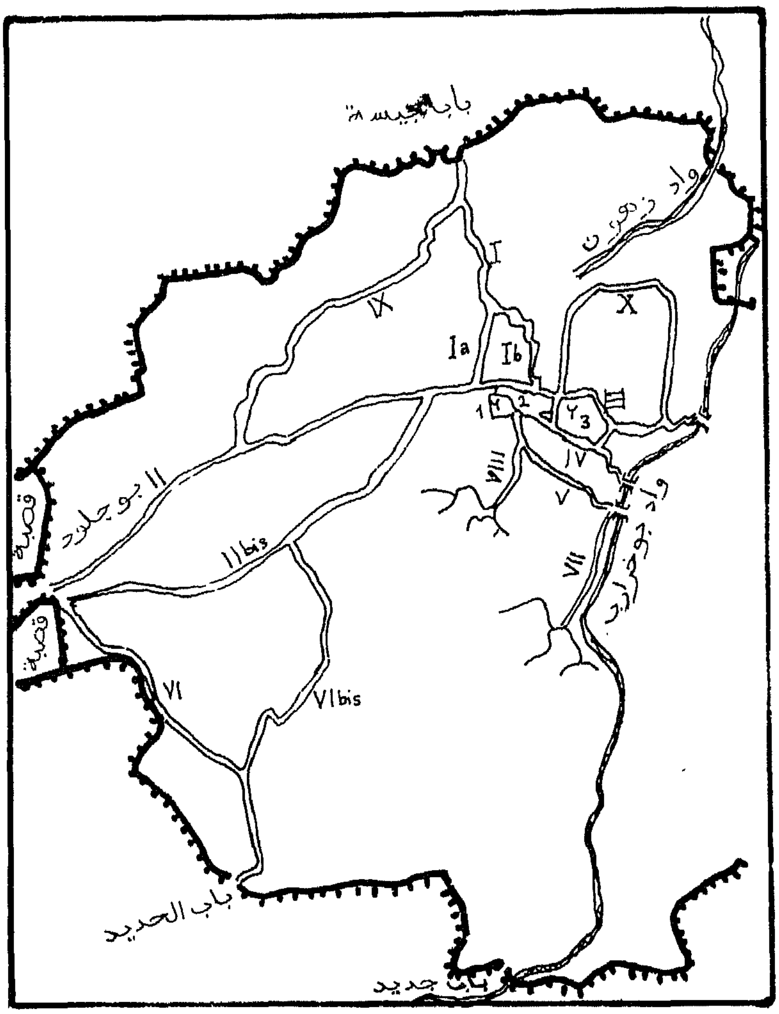
(9) انظر ما يأتي عن هذا السوق ، ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 310 -313 ؛ وما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

الجلود على الأرض ليليّنهـا المارّة بـالمشي عليها . وعلى أي حـال ، فالجدران ، في المناطق الصناعية ، مفتوح فيها نوافذ ذات شبابيك تعطي الضوء للمعامل . وعلى العكس من ذلك ، إذا سرتم في مسالك صامتة ، محاطة بجدران لا نوافذ فيها وبها فتحات قليلة ، وأبواب موصدة أو مفضية إلى حائط ممرّ متعرج ، وإذا لم تسمعوا سوى صدى خطواتكم ، أو مناداة نساء وأطفال أخمدتها الجدران ، فذلك يدلّ على أنكم في حي سكني . وهو ميدان الأزقة الضيقة المتشعبة بلا كلل ، والدروب المغطاة المظلمة الطويلة في غالب الأحيان التي تذكّر بالأنفاق ؛ هناك يصطدم ويتكوّن الظل والنور في الأيام المشمسة ؛ وتُصَـادَفُ نساء متلفعات بالبياض ، وشيوخ قصار يمشون بخطى متّئدة وهم متأبطون لبدتهم ، وبرجوازيون نظيفون ممتطون بغلات كبيرة متعجرفة ، يتبعهم خادم وهو يمسك بأحد أحزمة السرج ليتابع الجري أحسن .

الأزقة : ـ وتتصل هذه الأحياء المختلفة بعضها ببعض بواسطة متاهة من الدروب المتعرجة ؛ وليست طبيعة الأرض بالتأكيد مساعدة على الخطوط المستقيمة ؛ فالمنحدر يكاد يكون حقاً قوياً جداً إن لم يلجأ إلى المنعطفات في عدة أماكن ، لكن الأزقة بعيدة كل البعد عن أن تتطابق مع منحنيـات المستوى ، إذ أن تخطيطها قد تحكمت فيه على الأصح أسباب تاريخية وعقارية . فعندما نلقي نظرة على تصميم المدينة ، يكون أول انطباعنا هو انطباع متاهة عويصة ، وعندما ننطلق إلى الاكتشاف ، لأول مرة ، يكون هذا الانطباع أقوى وأكثر تثبيطاً من ذي قبل[10]. ومع ذلك فهناك بعض المحاور الكثيرة الاتصال تتدفق الحياة بفضلها في مختلف أحياء عدوة القرويين . وأهمّ هذه المحاور طبعاً هي التي تربط المركز بالضاحية ، أو بالأحرى بمنافذ هذه الضاحية ، أي الأزقة التي تصل الخلية ـ الأم بأبـواب الأسوار وجسـور النهر[11] .

---

(10) انظر عن تصميم المدينة هـ . طيراس ، مدن المغرب الملكية ، ص. 40-43 .
(11) الرسم رقم 12 .



الرسم 12

محاور السير في عدوة القرويين

1. زاوية مولاي إدريس 2. القيصرية 3. جامع القرويين

(تحيل الأرقام الرومانية على النص المتعلق بالأزقة)

وهكذا نجد :

1 ـ محور باب عجيسة ـ المركز (I)[12] ، ينطلق من الباب ، مخترقا حي فندق اليهودي بدون التواءات كثيرة إلى سوق العشّابين . وهنا تقع في مفترق‌طرق يؤدي فرعه الشرقي (I ب) إلى سوق العطارين بتعرجات ، مروراً بحي الصاغة ، ويؤدي فرعه الغربي (I أ) توّاً تقريباً إلى سوق الجزارين وإلى المكان المدعوّ عين علّو أو علّون[13] الذي هو امتداد لسوق العطارين نحو الغرب .

2 ـ ومحور باب محروق ـ بوجلود ـ المركز . وهو مؤلف أساساً من أحد أزقة فاس الأكثر اتساعاً وأقلها اعوجاجاً ، وهو الطالعة الكبيرة (II) . ولا يوجد بها سوى ممرّ متعرج في المكان المدعو قنطرة بوروس الذي يطابق احتمالاً باباً قديماً في العهد الـزناتي[14] . وهذا الشارع الرئيسي محاط بدكاكين على طوله الكامل تقريباً ، ومُؤَدٍّ إلى القيصرية وجامع الـقرويين[15] ، بعد امتداده بأسواق رأس التيـالين[16] ، وعين علّو والعطارين . ومن بوجلود إلى عين علّو ، يُضاف إليه جنوباً مسلك آخر ليس أكثر التواء يدعى الطالعة الصغيرة ، من بوجلود إلى سويقة ابن صافي ، ثم يحمل اسم زقاق الحجر في جزئه السفلي ، ويلتقي بالشارع الأول في عين علّو (II مكرر) فيشكلان معاً اهليلجيا ممدداً جداً .

3 ـ ومحوراً ينطلق من الجسر المسمى بين المدن إلى المركز (III) . وبعد اجتياز الجسر ، نصعد إلى درب باب النقبة المعوج في وسطه تذكيراً

---

(12) تُحيل الأرقام الرومانية على الرسم الملحق (الرسم رقم 12) .

(13) انظر عن عين علون ، ميشو ـ بلّير في الوثائق المغربية ، جزء 11 ، ص. 305 وما بعدها .

(14) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 2 و 4 .

(15) انظر عن مختلف أسماء هذا المسلك وعن عين علّو ، ميشو بليّـر ، نفس المرجع ، ص. 303 .

(16) ميشو بلّير ، نفس المرجع . وعن اشتقاق كلمة التيالين ، انظر ج س . كولان أسماء صناع وتجار بمراكش ، هسبيريس ، جزء 12 .

على الأرجح بباب زنـاتي[17] ، ثم نصل إلى سوق الصفارين عبر سوق المشاطين . وللوصول من هناك إلى القيصرية لابد من الالتفاف حول جَامع القرويين ، إما شرقاً بسلوك الـدرب الطويـل ، وإما غـرباً بتسلق درب السبيطريين .

4 ـ و 5 ـ ومحورين متوازيين ومتجاورين جداً يربطان القيصرية بقنطرة الصباغين[18] (أو قنطرة كُزام ابن زقّون) وقنطرة الطرافين[19] . ينطلقان من طرفي سوق الشماعين فيمر الشرقي منهما بدرب السبيطريين الأنف الذكر ، ويلتحق بقنطرة الصباغين (IV) عبر الصفارين ؛ وينحدر الغربي من رأس الشراطين الى باب السنسلة وينتهي إلى قنطرة الطرافين(V) .

ويلاحظ أنه لا يوجد أي محور هام للمواصلة بين المركز والبابين الجنوبي ـ الغربي والجنوبي ، وهما باب الحديد[20] وباب جديد لأنه لم تكن لهما معاً أهمية تجارية وكانا يُستعملان خصوصاً لحركة المرور عبر بساتين فاس الجنوبية الغربية . ومن باب الحديد لا بد من الالتحاق ببوجلود عبر حي الدوح(VI) أو سويقة ابن صافي عبر عقبة السبع ودرب السياج(VI مكرر) : وننتهي من هناك إلى المركز عبر زقاق الحجر . ومن باب جديد فإن الأمر أكثر تعقيداً ، إذ لا بد من الاندفاع في المتاهة الملتوية لدربي رأس الجنان والقلقيين ، للوصول إلى النهر في منطقة الرصيف(VII) .

وهناك فعلاً تلتقي الأزقة الرئيسية لحيي رأس الجنان والقلقليين ، بينما يتدفّق حيا العيون والقطانين في محجّ القطانين(VIII) .

---

(17) انظر ما سبق ، الكتاب 1، 2، 3، وليڤي ـ بروڤنصال ، دراسة مواقع جغرافية ، ص. 220 . هامش 10 .

(18) سمي هكذا لمجاورته حي الصباغين الواقع بجانب النهر ، مباشرة في عالية القنطرة .

(19) هذا الجسر محاط من جانبيه بدكاكين يشغلها خصوصاً الطرافون ، وهذا سبب تسميته .

(20) انظر عن هذا الباب ، ليڤي ـ بروڤنصال دراسة مواقع جغرافية ، ص. 219 ، هامش 1 و 2 .

وتتصل المناطق الخارجية البعيدة عن المركز بعضها ببعض بواسطة مسالك متلوية ، لا تشكّل من الوجهة الاقتصادية محاور هامة للمرور ؛ ويمكن أن نذكر منها على الأكثر الطريق الرابط باب عجيسة بالطالعة الكبيرة ، وهو شبه خط مواصلات إضافي لجبهة شمال فاس ، على طول البساتين الداخلية(IX) ؛ يمر على التوالي بزنقة باب عجيسة ، والدرب العامر[21] ، ودرب الشرشور ، ودرب بوحاج ، لينتهي إلى الطالعة الكبيرة ، في عالية قنطرة بوروس . وسأذكر أيضاً ، من باب حب الاطلاع ، الشارع النصف الدائري الذي ينطلق من جامع القرويين تحت اسم حارة القيس ، ويلتفّ بحي البليدة ، حاملاً أولاً اسم محج البليدة ، ثم درب شوّارة ، وهو الشارع الدائري الوحيد الذي أعرفه بفاس(X) .

وتكون الأزقة ، داخل كل حي ، رسوماً معقدة ، غالباً ما تكون مضلّعات رباعية غير مستقيمة ، تغوص نحو مركزها دروب غير نافذة تُؤَمِّن المواصلات لمجموعة من الدور[22] ؛ وإذا تعلق الأمر بحيّ خارجي ، فإن هذه الدروب تتجه نحو السور أو نحو البساتين المحيطة به كزوائد متفرعة[23] . وأغلب الشوارع الكبيرة ، وبعض الصغيرة ، وحتى بعض الدروب الغير النافذة ، منتظمة بأبواب كانت تغلق في القديم ليلاً وبمجرد ما تحدث اضطرابات[24] . وهكذا كان بالإمكان تقسيم فاس إلى عدد كثير من الأجزاء المحكمة السدّ .

وباختصار ، إذا وضعنا جانباً بعض مسالك المرور الكبرى ، فإن أزقة فاس تظهر كأنها وليدة الاتفاق المتقلب للممتلكات والبنايات . وكأن أي تصميم إجمالي لم يحدد تسطيرها ولو بكيفية تقريبية . وكان ذلك شأن المدن الأوربية في القديم ، لكن ، كلما نمت وكانت الحاجيات الجماعية أكثر

---

(21) انظر عن هذا الزقاق ، ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 289 .
(22) انظر الرسم رقم 13 .
(23) انظر الرسم رقم 14 .
(24) انظر ما يأتي ، الكتاب 4 ، الفصل 3 .

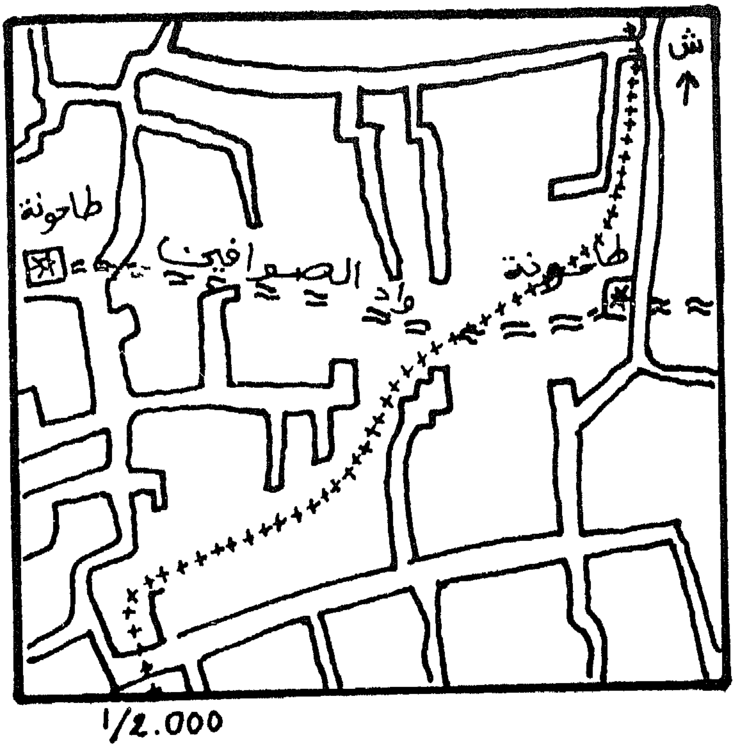
إلحاحاً ، كلما تغير تنسيق الطرق الحضرية للمواصلات ؛ ولا شك أن المصالح الخاصة تحالفت معه ، وأما الآن فلم نعد نتصور خلق حي جديد ، وبالأحرى حاضرة جديدة ، بدون تصميم إجمالي موضوع مسبقاً يلزم العمارات بالخضوع لضروريات المرور ؛ لا شيء مثل ذلك بفاس : بقيت الأزقة خادمة للدور أو الممتلكات ولم يغيِّر تطور الحاضرة تخطيطها القديم .

الآثار : ـ تقلّ المحجات المستقيمة في هذا الركام البالغ الكثافة ؛ وقد نكتشف فجأة في محور زقاق منفذاً للبصر على زاوية حي ، وسطوحاً منضدة تبرز في السماء أو على زلاغ الرهيب ، تعلوها إحدى الصومعات . لكن يمكننا القول إن أي أثر ، أو أي مجموع معماري لم يُنشأ ليشاهد من مسافة معقولة : فنجد أنفسنا في فاس دائماً في صدر المسرح أو الرواق الأعلى ، وليس في أرائك الشرفة على الإطلاق . ومع ذلك فهناك في عدوة القرويين هذه ، آثار مشهورة حقاً ، لكن روعتها تبقى كلها داخلية . وكيف نستغرب ذلك إذ جميعها إمّا مبان دينية أو منازل خصوصية ؟ فلا قصر بلدية ولا أسواق غنية ، ولا وزارات أو مراكز إدارات كبرى : فإذا وجب أن يجتمع الشعب ففي المساجد ؛ وحالة الطقس تساعد على البيع والشراء في الهواء الطلق في معظم السنة ؛ وأخيراً فإن مصالح الحكومات مجموعة في حي على حدة .

تبقى إذن قصور الأعيان ، دار الجامعي ، ودار المقري ، ودار الكّلاوي ، وغيرها كثير من منازل الأسر الشهيرة ، لكن لا يدخلها من يريد .

والآثار التي يمكن للعموم الدخول اليها هي المباني الدينية ، من مساجد ، وزوايا ، ومدارس .

جامع القرويين : ـ هو أقدم جامع بهذه العدوة ، إذ لم يبق شيء من جامع الأشراف العتيق الذي بناه إدريس الثاني . وقد وُسِّع منذ القرن التاسع



الرسم 13

تنظيم الأزقة داخل المدينة

تعيّن العارضات حدود حي العيون في الشمال الغربي

ورأس الجنان في الجنوب الشرقي

وهو تاريخ تأسيسه ، عـدة مرات إلى عهد السعديين[25] ، ليتحول إلى الشكل الذي نشاهده عليه الآن . وإذا طفنا به أمكننا من خلال الأبواب المفتوحة على مصاريعها أن نعجب بأناقة الرواقين المتقابلين في طرفي الصحن ، كما هو الشأن في ساحة الأسد بغرناطة ، والأبعاد التي لا تكاد تنتهي للسواري البيضاء خلال النور الضعيف بقاعة الصلاة . ولم يبق من البناء الأول سوى الصومعة ذات القبة الخشنة بعض الشي ، يرتفع بجانبها برج مربع بدون مَنْوَر دَرَج ، وهو برج المنجمين ، أو برج النار حيث تُشاهد منه مراحل القمر ويُتعرَّف على الحرائق بالمدينة .

زاوية مولاي ادريس : ـ هي أحدث بكثير (من القرويين) ، إذ يرجع تاريخها إلى دولة مولاي إسماعيل[27] . كما أنها أقل اتساعاً بكثير : فقاعة الصلاة والصحن اللذان يشاهدان من خارج ، متوسطان حجماً . لكن القبة الهرمية الشكل التي تغطي ضريح الولي الصالح ، والصومعة المختلفة الألوان التي ترتفع بجانبها ، لهما هيئة زاهية قمينة بشهرة الضريح ؛ وهناك شيء نادر بالنسبة للأماكن المقدسة بفاس ، هو أن الجدار الخارجي لقاعة الضريح مزيّن بالزخارف المزركشة التي تستهوي الأنظار .

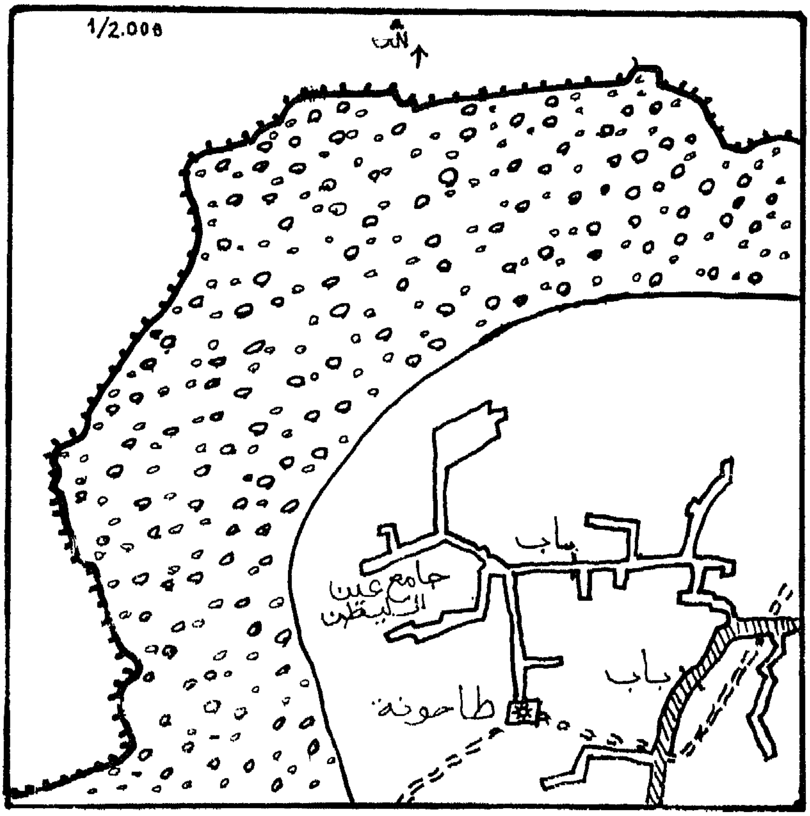
جامع الرصيف : ـ وهناك صومعة أخرى تلوح من بعيد ، ولو في هذا

---

(25) وقد شُرع في توسيعه مؤخراً : ففي 9 ماي 1940 وضع السلطان سيدي محمد بن يوسف الحجر الأساسي لخزانة جديدة ، استكملت سنة 1944 .

(26) انظر إ . بوتي ، تصميم جامعة القرويين بفاس ، في هسبيريس ، الجزء 3 ، عام 1923 ، ص. 515 -523 ؛ وبيريتيي ، مدارس فاس ، في الوثائق المغربية ، الجزء 18 ص. 356- 346 ، مع رسم ؛ وماسلو ، نفس المرجع ، ص. 165 -174 ؛ وهـ . طيراس ، الفن الإسباني ـ المغربي من أوله إلى القرن الثالث عشر ، ص. 214 وما بعدها ، وهنا وهناك ؛ وج . مارسي ، الوجيز في الفن الإسلامي ، الهندسة المعمارية ،الجزء 1 ص. 307 -313 .

(27) انظر سالمون ، تقديس المولي إدريس وجامع الشرفاء بفاس ، في الوثائق المغربية ، الجزء 3 ، ص. 413 -429 الاستقصا ، ترجمة فومي ،(الجزء 10 ص. 102 ، من مطبعة الدار البيضاء) وسلوة الأنفاس ، جزء 1 ، ص. 97 .



الرسم 14

تنظيم الأزقة الخارجية للمدينة . الزنقة المظللة هي درب بوحاج .

(انظر الرسم IX.12)

الحشد الذي لا ترى أبعاده من عدوة القرويين ، إنها صومعة جامع الرصيف . وهذا الجامع المشيّد في منتصف علو الجرف المحاذي للنهر لا يخلو من عظمة ولا من جمال، ولو أنه هو الآخر ليس بالعتيق[28]. ولكي يراه جيداً من لم يكن مسلماً،لا بد أن يذهب أمام أحد أبوابه المفتوحة على درب الحمّام وهو درب صغير لا مخرج له ينطلق من رحبة الزبيب . ويشرف من هناك على الجزء المركزي للصحن وقاعة الصلاة ، ويمكن تقدير امتداد وتنسيق البناء .

جوامع أخرى : ـ هناك جامعان آخران يثيران الانتباه ؛ الأول هو جامع الشرابليين ، الذي نلاحظه عندما ننحدر من الطالعة الكبيرة ، بعد قنطرة بوروس ، بسبب صومعته الرشيقة المتعددة الألوان ، التي تنتمي الى العهد المريني[29] . والثاني هو جامع عجيسة ، الذي تشرف صومعته الواقعة بجانب الباب الذي يحمل نفس الاسم ، على كل الجزء الشمالي الشرقي لعدوة القرويين[30] . وفي صحنه شجرة تين جميلة تعطيه صبغة بدوية .

الزوايا : ـ هناك فرق قليل بين جامع وزاوية في نظر الجاهل بالفن وبحسب الظاهر ؛ لكن ، إذا كان الجامع مجرد بيت للصلاة ، فإن الزاوية

---

(28) يرجع تاريخ تأسيسه فقط إلى عهد مولاي سليمان . انظر **الاستقصا** ، جزء 8 ، 172 .

(29) انظر ماصلو ، نفس المرجع ، ص. 74 -79 . وهذا الجامع يرجع تاريخ بنائه إلى بني مرين وقد رُمّم في عهد مولاي سليمان .

(30) نفس المرجع ، ص 92 -98 . يرجع تاريخ هذا الجامع إلى بني مرين ، لكنه رُمّم ترميماً كثيراً أواخر القرن التاسع عشر ؛ انظر ڭايار ، **نفس المرجع** ، ص. 127 ؛ وميشو بلّير ، **وصف فاس** ، ص 280 . عندما سطرت هذا الوصف الوجيز لعدوة القرويين ، اقتصرت على الآثار الرئيسية ، لكنّ هناك آثاراً أخرى ، ولو أنها أقلّ أهمية ، فإنها ذات روعة كبيرة . وأحيل في هذا الصدد على مؤلَّف ماصلو حيث يوجد الوصف والتصميم الوجيز ، مع بعض الصور ، للجوامع الآتية : جامع أبي الحسن (بالطالعة الصغيرة) : ص . 80 -85 ؛ وجامع اللباغين (بحارة القيس) : ص . 99 - 102 ؛ وجامع ماشين (بزقاق الحجر ـ سويقة ابن صافي) : ص 103 - 104؛ وجامع ڭزام ابن عامر (برأس الجنان) : ص . 105 - 106 ؛ وجامع راس عين أزليطن (انظر الرسم رقم 14) : ص . 107 -109 ؛ وجامع المزلجة (بالسياج): ص. 114 - 112؛ وجامع وادي الرشاشة (بكْرنيز) ص. 115 - 117 .

تحتوي على ضريح صالح ، أو تستعمل أيضاً كموضع تجتمع فيه طائفة دينية . وبالإضافة إلى زاوية مولاي إدريس ، هناك ثلاث زوايا تعدّ من الآثار الهامة ، وهي : زاوية سيدي أحمد الشاوي ، وزاوية سيدي عبد القادر الفاسي ، وزاوية سيدي أحمد التيجاني . الأولى جاثمة على رأس الرابية المدعوة الجرف[31] مشرفة على كل الجزء الجنوبي لعدوة القرويين ؛ وهي بالتالي معدودة من المساجد الجوامع[32] . والثانية واقعة في حي القلقليين على حدود المباني والبساتين ، تقوم في وسطها صومعتها النحيفة التي رُسمت فيها نوافذ وهمية بالزليج الأخضر . والثالثة تبسط تمدد قبابها الهرمية الشكل في حي البليدة ، حيث تنحدر المدينة وتنبسط .

المــدارس : ـ والمدارس أو المعاهد هي الأخرى مآثر دينية[33] . تضمّ عدوة القرويين ستّاً منها ، تحيط أربع منها بجامعة القرويين ، هي مدارس الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ، والشراطين ؛ وتوجد الأخريان بالأحياء المنحرفة ، إحداهما قرب جامع باب عجيسة الذي تحمل اسمه ، والأخرى بأعلى حي الطالعة ، قرب بوجلود ، وهي مدرسة أبي عنان .

شيّد المرينيون أربعاً من هذه المدارس ، وهي ذات قيمة فنية لا تنكر : مدارس الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية والبوعنانية ؛ وإنني لن أعيد وصفها الذي تناولته عدة مرات[34] . فمدرسة الشراطين يرجع تأسيسها إلى

---

(31) انظر ما سبق .

(32) انظر ما يأتي ، الكتاب8 ، الفصل 1 . وعن سيدي أحمد الشاوي ، انظر **سلوة الأنفاس** ، جزء 1 ، ص . 274 -280 .

(33) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 4 . وعن المدارس عامة ، انظر ج مارسي : **الوجيز في الفن الإسلامي . الهندسة المعمارية** ، جزء 2 ، ص. 500 -503 و 512 -523 .

(34) انظر على الخصوص أ . بيل ، **الكتابات العربية** ، ص. 86 -93 و 168 -317 ؛ وج مارسي ، المرجع السابق، جزء 2، ص. 503 - 521. **وملاحظات**، ص. 50 - 62، وما سبق، الكتاب 1 ، الفصل 4 .

مولاي رشيد ، وهي رشيقة أيضاً[35] . أما مدرسة باب عجيسة ، فلا ينتمي تاريخ تأسيسها إلا إلى دولة سيدي محمد بن عبد الله[36] (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) ، وليس لها أية قيمة فنية . وسأكتفي بالتذكير أن حالة هذه المؤسسات في أوائل القرن العشرين كانت سيئة جداً ، يوشك بعضها أن يتداعى للسقوط .

الفنادق : ـ وفيما عدا هذه الآثار الدينية ، لا أجد ما أذكره إلا فندقين اثنين ، يستحق مدخلهما على الأقل أن يشار إليه . الأول هو فندق التطاونيين من إنشاء مريني (القرن الرابع عشر) ، ويحمل الرقم 26 من الدرب الطويل تجاه الجدار الشرقي لجامع القرويين ؛ فالسقف الخشبي لقبة المدخل مزدان بنقوش ممشوقة جداً[37]. والآخر هو فندق النجارين الذي بناه الأمين عديّل في القرن الثامن عشر[38] . ويشكّل بابه العظيم ، مع السقاية الأنيقة التي بجانبه ، أحد المجموعات المعمارية الشهيرة عن جدارة بفاس ، لا سيما وأنه يفضي إلى ساحة صغيرة تكاد تسمح بالبعد الضروري لإمعان النظر فيه [39] .

التجهيز الحضري : ـ سوف تتاح لي الفرصة فيما بعد[40] للرجوع إلى عدوة القرويين إلا أنه لا بد من الإشارة ، حتى لا يكون هذا المخطط الإجمالي بدون شكل محدود جداً ، إلى أنه بالإضافة إلى المعامل والمخازن ، ودور التجارة والآثار التي ألمحت إليها قبل قليل ، يوجد كل ما هو

---

(35) انظر **الاستقصا** ، جزء 7 ، ص. 41 ، وبيريتيي ، **مدارس فاس** ، **في الوثائق المغربية** ، جزء 18 ، ص 269 -272 ؛ وج مارسي ، نفس المرجع ، جزء 2 ، ص 703 -707 .

(36) **الاستقصا** ، المرجع السابق ، ص . 360 وبيريتيي ، المرجع السابق ص . 267 .

(*) الجزء 8 ، ص. 69 من طبعة الدار البيضاء .

(37) انظر عن هذا الفندق ج مارسي المرجع السابق ، جزء 2 ، ص. 557 .

(38) ب . ريكار ، **دار عديّل** ، **في فرنسا ـ المغرب** ، 15سبتمبر 1919 .

(39) ب . ريكار ، **دليل المغرب** ، ص. 318 .

(40) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 2 و 3 ، وما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 2 و 3 و 4 .

ضروري لحياة حاضرة كبرى أي : عدة أفران للخبز في كل حي ، وسبعة عشر حمّاماً ، وسوقان للحبوب ، وسوق للمواد الدهنية (قاعة الزيت) ، في حي الديوان ، ومجزرتان ، إحداهما خارج باب محروق ، والأخرى مباشرة بأسفل جسر بين المدن ؛ وأخيراً أسواق عديدة هامة ، بقطع النظر عن مجموعات كثيرة صغيرة من خمسة أو ستة دكاكين منتشرة هنا وهناك .

وبقي لي أخيراً ، قبل مغادرة عدوة القرويين ، أن أشير إلى أنه توجد بها مقبرة واحدة فقط داخل الأسوار ، هي مقبرة سيدي علي المزالي[41] غربي باب عجيسة ، قريبة جداً من السور ، على ربوة ذات انحدار قوي . وهناك عدة أماكن أخرى يُقبر فيها الموتى بعدوة القرويين ، لكنها مدافن خاصة مجاورة لروضات لا يمكن اعتبارها كمقابر ؛ أذكر منها على سبيل المثال روضة الشرفاء الوزانيين بدرب الشرشور ؛ والمقابر التي تستخدمها عادة عدوة القرويين هي مقبرتا باب محروق وباب عجيسة ، خارج الأسوار ؛ لكن الكثير من سكان هذه العدوة لهم مدافنهم في المقابر « الأنيقة » داخل باب فتوح ولا سيما خارجه .

(41) عن سيدي علي المزالي أو مصالي ، انظر سلوة الأنفاس ، جزء 1 ، ص . 211 ؛ وعن هذه المقبرة ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 280 .

الفصل الرابع

4/2

عـدوة الأندلس

هذا القسم الثاني من فاس كثير الاختلاف عن القسم السابق . مساحته أصغر وهو شيء ظاهر للعيان ، سواء نظرنا إلى تصميم أو شاهدناه من هضبة المرينيين ؛ وهو أقلّ سكاناً حتى بالنسبة لمساحته ، وذلك ما يُرى بالعين المجردة أيضاً ؛ وتؤيده المعلومات التي يمكن الحصول عليها : ستة أحياء في مقابل اثني عشر ، وستة حمّامات في مقابل سبعة عشر ، وأربعة وعشرون كتّاباً قرآنياً في مقابل ستة وتسعين[1] و500 . 26 ساكن في مقابل 52.000 ، حسب تقييم ميشو بلّير[2] .

وليس هذا كل شيء : فليس لعدوة الأندلس مركز حقيقي ، إذ التاريخ ، والهندسة والمعطيات الحضرية الإسلامية التي سبق لي ذكرها تحمل على التفكير بأن جامع الأندلس وسوق الصفّاح القريب منه جداً يشكّلان نواة مركزية شبيهة بنواة العدوة المجاورة : ويقدم لنا ليون الإفريقي[3] أيضاً الجامع والحي التجاري المجاور له كجزء رئيسي للعدوة ، مع أن الأحياء الممتدة جنوبي الجامع كانت قد حلّت ابتداء من عصره ؛ فمن اليقين أنه عندما كانت هذه الأحياء قائمة ، كان المسجد والأسواق المحيطة به نقطة التقاء نشاطات عدوة

---

(1) بيريتيي ، مدارس فاس ، في الوثائق المغربية ، الجزء 18 ، ص. 309.

(2) انظر ما يأتي ، الكتاب 3 ، الفصل 1 .

(3) الكتاب 2، ص 108 .

الأندلس الرئيسية . لا سيما وأن هذا المركز ، من الناحية الهندسية ، أكثر تمركزاً بكثير من مركز العدوة المقابلة ، إذ هو بالتقريب على مسافة موازية بين باب سيدي بوجيدة وآخِر دور حي المخفية ، وبين باب الفتوح وقنطرة الطرافين . وأخيراً ، فالتاريخ يفيدنا أن عدوة الأندلس كانت مدينة مستقلة ، قبل أن تشكّل مع جارتها الغربية مدينة موحدة ؛ ونجد بها فعلاً الجامع والسوق الذين هما على العموم الخلية الأولى للمدن الإسلامية .

لكن كل هذه المعطيات غير قادرة على أي شيء في ذلك : إذ كان مركز العدوة هذا ، في أوائل القرن العشرين ، طللاً بالياً وخليّة ميتة ، تبتعد الحياة عنه ، عوضاً من أن تتكاثر حوله[4] . ويساعد التاريخ على إدراك هذه الظاهرة . فلا بد من التذكر أولاً بأن الخلية الأولية لم تكن هناك ، بل على بعد مسافة إلى الشمال الشرقي ، حيث ما زلنا نشاهد على تخوم بساتين كْـراوة ، أنقاض أول مسجد بناه المولى إدريس ، وهو جامع الأشياخ[5] . إذن ، فبدلاً من أن يكون محدَّداً لأول وهلة وبصفة نهائية ، كما هو الحال بالنسبة لعدوة القرويين ، فإن مركز عدوة الأندلس تحوّل خلال قرن ونصف تقريباً ؛ وأخطر من هذا أنه ترك نجداً فسيحاً إلى حدّ ما ليتعلق كيفما اتفق بمنحدر وعر قبل كل شيء . لكن هذا ليس المهم هنا : بل المهم يكمن في توحيد فاس على يد يوسف بن تاشفين[6] . فمنذ أن ضُمَّت المدينتان المتجاورتان في مدينة واحدة ، أضحى من المستحيل على هذا التكتل الجديد أن يحتفظ بمركزين . وشيئاً فشيئاً ، فإن مدينة القرويين التي هي أحسن تزوداً بالماء وأكثر تطوراً من الناحية الاقتصادية ، وربما كانت أيضاً أكثر ثروة من الناحية البشريـة ، فرضت

(4) إن التطور الحالي للأحياء الجديدة ، التي أحيتها محطة السكة الحديدية لباب فتوح وحركة السيارات في الجزء الشرقي لعدوة الأندلس ، لتسمح بالظن بأن هذا النصف من فاس سيسترجع حياة أقوى ، وأن ما كان يبدو ميتاً ربما سيحيا من جديد ، لكن على أي شكل ؟ انظر في هذا الصدد هـ . طيراس ، **المدن الأمبرالية للمغرب** ، ص. 45 .

(5) كْايار ، المرجع المذكور ، ص. 115، ومارتان ، **المقال السابق** 443 .

(6) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 3.

قانونها ، وصار المركز الحقيقي لفاس هو بالطبع مركز الغالب . وكانت الجاذبية قوية جداً حتى إن عدوة الأندلس استدارت ببطء إلى العدوة الأخرى، كتلك النباتات التي تجتذبها الشمس قهراً ، فتكدّست بجانب النهر ، وتجمعت حول الجسور التي تربطها بعدوة القرويين ، تاركة بحدّها الجنوبي جامع الأندلس وسوق الصفّاح . وهكذا لم يعد المركز مركزاً وكأنه أقصي إلى الضاحية، على غرار تلك الأجسام الغريبة أو الميتة التي تفرزها خلية حية بدفعها إلى خارج ذاتها. وكانت عدوة الأندلس، في عهد مولاي حفيظ، مركزة على قناطر النهر، وفيما وراء ذلك على جامع القرويين، وزاوية مولاي إدريس والقيصرية .

هذا ما يفسر شكل العدوة ، التي تبدو كأنها منطوية على نفسها داخل صدفة أصبحت مفرطة الكبر . وكانت كذلك في عدوة القرويين فراغات بين الدور والأسوار ، لكنها مهما يكن من أمر ، قليلة الأهمية ، وربما كانت موجودة دائماً بالنسبة لجلّها ، إذ لا شيء يسمح بالتأكيد أن أحياء رأس الجنان والعيون جنوباً ، والزنجفور شمالاً ، قد سبق أن شُيِّدت إطلاقاً . وعلى النقيض من ذلك ، فإننا موقنون بأن حيي الجنوب والشمال لعدوة الأندلس كانا مبنيّين قديماً ، بدلاً من أن يكونا مقابر وحقولاً أو حدائق ، كما كانا عليه في مطلع القرن العشرين. وفعلاً فإننا نعلم أن بابين كانا يفضيان إليهما لم يعودا موجودين أيام ليون الإفريقي ، هما باب الحمراء ، غرب باب فتوح ، وباب الكنيسة أو باب الخوخة[7] ، بين باب فتوح وباب سيدي بوجيدة . وعلاوة على هذا ، فإن **سلوة الأنفاس** تفيدنا بأنه في مكان مقبرة باب الحمراء كانت تعيش أحياء تُدعى سوق الجزارين[8] ، وحومة الكغّادين[9] ، وحومة سَرِيوَة[10] .

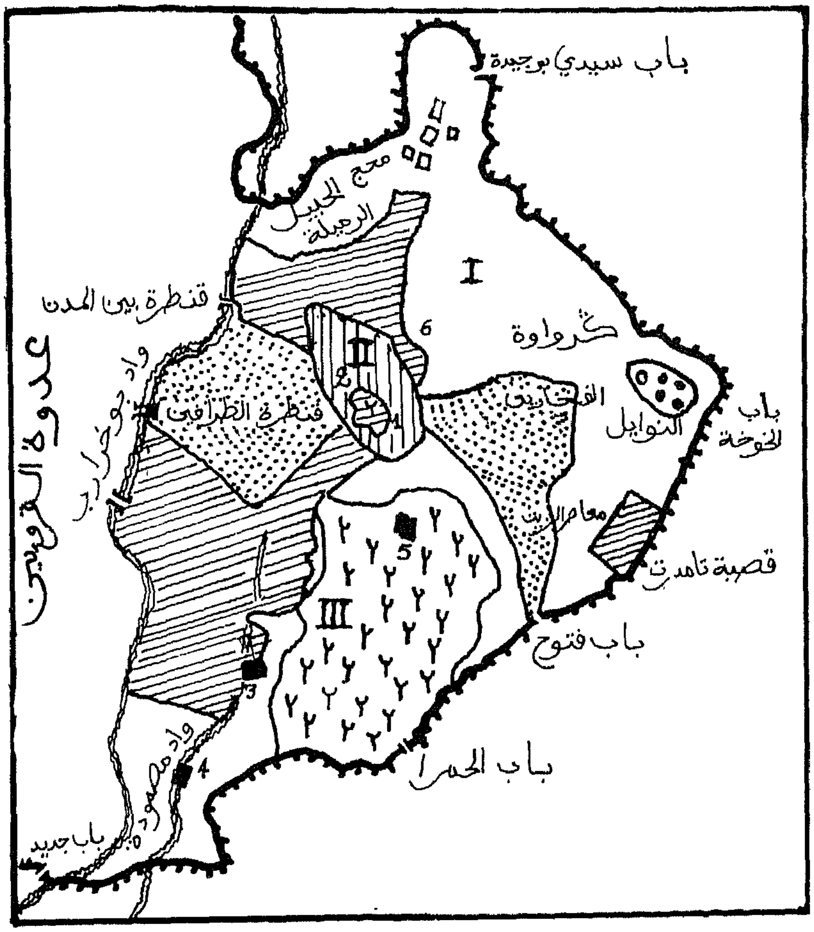
---

(7) انظر عن مدلول كلمة « خوخة » ، دوزي ، ملحق ، جزء 1 ، ص. 411 ، وليفي ، بروفنصال ، **المواقع الجغرافية** ، ص. 220 .

(8) **سلوك الأنفاس** ، جزء 2، ص. 21 .

(9) **المرجع المذكور** ، ص. 76 وهنا وهناك .

(10) المرجع المذكور ، ص 16 وما بعدها . وقد تكون سريوة اسم قرية لقبيلة بني يازغة التي يكون سكانها قد أتوا لتعمير هذا الحي .



الرسم 15

مختلف المناطق في عُدوة الأندلس

التجارة	الصناعة
السكن	النواول

I . منطقة سكنية ـ شمال II. منطقة صناعية وتجارية III. منطقة سكنية ـ جنوب

1. جامع الأندلس 2 . سوق الصفاح 3. رياض السيد فضول غرنيط 4. دار ماكلين 5. سيدي علي بوغالب 6. جامع الأشياخ .

الأبواب : ـ لم يبق أي شيء من هذا كله،وكأن المدينة تعاني تعباً في زحفها حتى البابين الوحيدين اللذين بقيا لها من هذه الجبهة ، وهما باب فتوح في الجنوب الشرقي ، وباب سيدي بوجيدة في الشمال ؛ ذلك لأنها لا تتصل بهما في الواقع بواسطة سُوَيْقات نشيطة شبيهة بسويقات بوجلود وباب عجيسة ، لكن بواسطة بعض الفنادق ، من جهة باب فتوح ، وبعض الدور الترفيهية ، من جهة باب سيدي بوجيدة ، الضائعة في وسط البساتين والأراضي البور[11] . ولولا أهمية هذين البابين الذاتية ، لأمكننا أن نتساءل هل كان مصيرهما كمصير جاريهما باب الحمراء وباب الخوخة، وهل تخلّت عدوة الأندلس عن مواصلتها بالخارج إلا عن طريق باب السرّ ، لشدة ما كانت عليه قدرة استيعاب جارتها الثريّة ؛لكن باب الفتوح هو نقطة النهاية الحتمية المفضية الى الطرق الآتية من تازا والمغرب الشرقي وصفرو وجبل البربر ، وباب سيدي بوجيدة ، يفضي إلى بادية وادي فاس الغنية : إنهما لا يفضيان إلى حي ولكن إلى المدينة كلها ، وذلك ما مكّنهما من الاستمرار في الحياة .

المناطق المختلفة : ـ نشاهد هنا بعض التخصص للأحياء ، مثلما هو الشأن في عدوة القرويين ، لكن التوزيع ، في عدوة الأندلس ، أبسط وأدق : فيمكن تمييز ثلاث مناطق فيها من الشمال إلى الجنوب[12] :

1) في الشمال ، في أحياء باب سيدي بو جيدة ، والرميلة ومحج الحبيّل ، منطقة للمنازل الترفيهية والبساتين تمتد إلى الشرق ببساتين كْـراوة وحقول[13] باب الخوخة وتَامْدَارْت ؛ وبين تامدارت وباب الخوخة مجموعة من أكواخ من القصب

---

(11) انظر في هذا الصدد تصميم لاراس ، عند هوبير ـ جاك ، الأيام الدامية لفاس ، في الأخير ، وتصميم حي الكدّان الذي نقله مارتان في المقال المذكور ، مجلة العالم الإسلامي ، جزء 9 ، ص. 434 . وقد حظيت بالعثور على النسخة الأصلية لهذا التصميم ، وهي أوفى وأكثر تعبيراً من النسخة المنقولة في خزانة الحماية بالرباط . انظر سلسلة الصور في آخر هذا الكتاب .

(12) الرسم رقم 15 .

(13) انظر تصميم مارتان .

والحشفة (النوايل) ، يسكنها بعض الصعاليك المساكين من أصل غريب : ذوي منيع ، وأولاد الحاج ، وفيلالة ، وجبالة[14] ؛ وفي جنوب هذه المنطقة أخيراً ، قصبة تامدارت التي كانت حظيرة لبغال السلطان قُبَيْل الحماية[15] .

2) في الوسط ، منطقة صناعية وتجارية كانت تمتد من النهر إلى باب فتوح ، مروراً بجامع الأندلس . وكان ممكناً أن تنقسم هذه المنطقة ذاتها إلى ثلاث مناطق : قطاع تجاري حول الجامع ، مع سوق مغطى هو سوق الصفّاح[16] ، وسوق للحبوب (رحبة الزرع) وسوق للخضر[17] مع فنادق في المنطقة الجنوبية لحي الكذّان المجاور لسوق الصفّاح ، وفي جنوب ـ شرق الجامع في اتجاه باب فتوح[18] ؛ ومنطقتان صناعيتان ، الأولى في الغرب ، بين الجامع والنهر ، حيث معامل النساجين ، والخرازين ، والشراطين ، والحدادين (هناك حي قريب من قنطرة الطرافين يسمى سوق الحدادين) ، وأرحاء ، لا سيما في قطاع قنطرة بين المدن ؛ والثانية في الجنوب الشرقي للجامع في منطقة تكاد تكون غير مسكونة : هناك كانت الصناعات ملتجئة ، اذ كانت ربما تضيّق على الجيران بقاذوراتها : تلك هي معاصر الزيت برائحتها اللاذعة وأوساخها ، والفخارون بدخانهم القاتم[19] .

3) وفي الجنوب ، منطقة جديدة للمساكن والبساتين تحتوي على أحياء

---

(14) مارتان ، المقال المذكور ، ص. 622 .

(15) انظر عن قصبة تامدرت مارتان ، نفس المرجع ، وقد استعملت هذه القصبة كثكنة للفرق الشريفة عام 1911 ، وبقيت ثكنة منذ ذلك العهد.

(16) نفس المرجع ، ص 628 .

(17) انظر **سلوة الأنفاس** ، جزء 2 ، ص. 7 . ويسمى عامة السويقة أو سويقة الخضرة ؛ ويقع جنوب جامع الأندلس .

(18) انظر مارتان ، **المقال المذكور** ، هنا وهناك ؛ وكانت عدة فنادق منها ملاجيء للبغايا ، مثلما كانت عليه أيام ليون الإفريقي (الكتاب 2 ، ص109) .

(19) عرفت هذه الأحياء عام 1930 وهي تكاد تكون مقفرة ، ومنذئذ شُيِّدت بها مستودعات للسيارات والسلع ودور سكنية ، بينما بدأ الفخارون يرحلون ليقيموا خارج الأسوار .

سيدي العواد ، ودرب الشيخ ، والمخفية ، وجزء من الكُزيرة ، وكانت توجد جنوبي هذا القطاع ، على حدود المساكن والبساتين ، بعض المنازل الجميلة ، كدار ماك لين ورياض السي فضّول غرنيط . وتحتل الجزء الواقع شرقي وادي مصمودة كله مقبرة باب الحمراء الفسيحة ، التي شُيّد في جزئها الشمالي ضريح سيدي علي بو غالب ، وهو أهم مَن في هذه المقبرة .

وللأحياء الصناعية أو التجارية تقريباً نفس المظهر الموجود في العدوة الأخرى ، مع هذا الاختلاف في أنها تبدو أقلّ غنىً وأكثر بساطة ، إذ الحياة فيها لا ترفل في جوّ الثراء والنشاط الخصب الذي تتميز به القيصرية أو مستودعات الصاغة . وتضفي معامل الفخارين على هذا الجزء من المدينة حلة رائعة ، بوجهات التجفيف المغطاة بالصحون والآنية المنشورة في الشمس ، وسحب الدخان الكثيفة المتصاعدة من الأفران ، ومواكب الحمر الصغيرة المحملة بالدوم الذي يستعمل كوقود رئيسي .

ولا تشبه الأحياء السكنية تماماً أحياء العدوة الأخرى ؛ فطابعها الحضري اقلّ ظهوراً : فالدور أقل ارتفاعاً ، والبساتين أكثر عدداً حتى في أحياء المركز ؛ وتخرج قطعان هامة من البقر في الصباح وتروح في المساء إلىى اصطبلات أرباض المدينة ، الشيء الذي يكسب عدوة الأندلس مظهراً قروياً واضحاً جداً . وحتى القصور فيه أقلّ فخامة : فرياض غرنيط مثلاً قد يكون أكثر جمالاً ، لكنه يقيناً أقلّ عظمة من دار الجامعي أو دار المقري .

جامع الأندلس : ـ والآثار هنا أيضاً أقلّ عدداً . وأهمها جامع الأندلس[20] أخو جامع القرويين وتوأمه ، الذي يحتفظ مثله بصومعة زناتية تعلوها قبة . فإذا صعدنا إليه من جهة الصفّاح ، وجدنا أمامنا ، في قمة منحدر وعر ، بابه العظيم الذي يعلوه إفريز من خشب الأرز المنقوش ، ويتجلى حقاً في مظهر مهيب ؛ على

---

(20)انظر الدراسة الوافية لـ هـ . طيراس : جامع الأندلس بفاس .

أن الجامع كله مطبوع بطابع من الجلال لا يمكن إنكاره ، ولو أنه أقلّ اتساعاً من جامع القرويين .

المدارس : ـ وقد شُيِّدت بجوار الجامع مباشرة إلى جهة الغرب مدرستان مرينيتان ، هما مدرسة السبعيين الصغيرة جداً[21] ومدرسة الصهريج الساذجة[22] . وكانت هاتان المدرستان مغلقتين متهدمتين في بداية القرن العشرين[23] .

وكانت بالعدوة قديماً مدرسة ثالثة ، غير بعيدة عن الأخريين ، هي مدرسة الوادي ،وقد هدمها مولاي سليمان وأعاد بناءها على شكل مسجد[24] .

أضرحة أخرى : ـ وفيما عدا ذلك لا يوجد أي أثر يستحق الانتباه ؛ ويتردد الناس على بعض الأضرحة ، كضريح سيدي بو مدين في حي الرميلة الذي كان يجتمع فيه الجزائريون[25] ، أو ضريح سيدي عبد الرحمن المليلي ، ضامن الاستقامة بفاس[26] ، في الطرف الشمالي لحي الكُزيرة ، لكن ليس لهذه الأضرحة إلا قيمة معمارية ضئيلة ، وكانت معابد أخرى متهدمة ، كجامع الأشياخ أو جامع الفخارين[27] .

طرق المواصلات : ـ لقد بيّنت آنفاً أن التجهيز الحضري كان بدائياً

---

(21) معناه الحرفي : « جامع القراء الذين يعرفون القراءات السبع للقرآن » . أنظر عن هذه المدرسة ، أ. بيل ، **الكتابات** ، ص. 158 -167 .

(22) انظر بيل ، نفس المرجع ، ص. 116 -158 وج مارسي ، **ملاحظات** ، ص. 58 -60 .

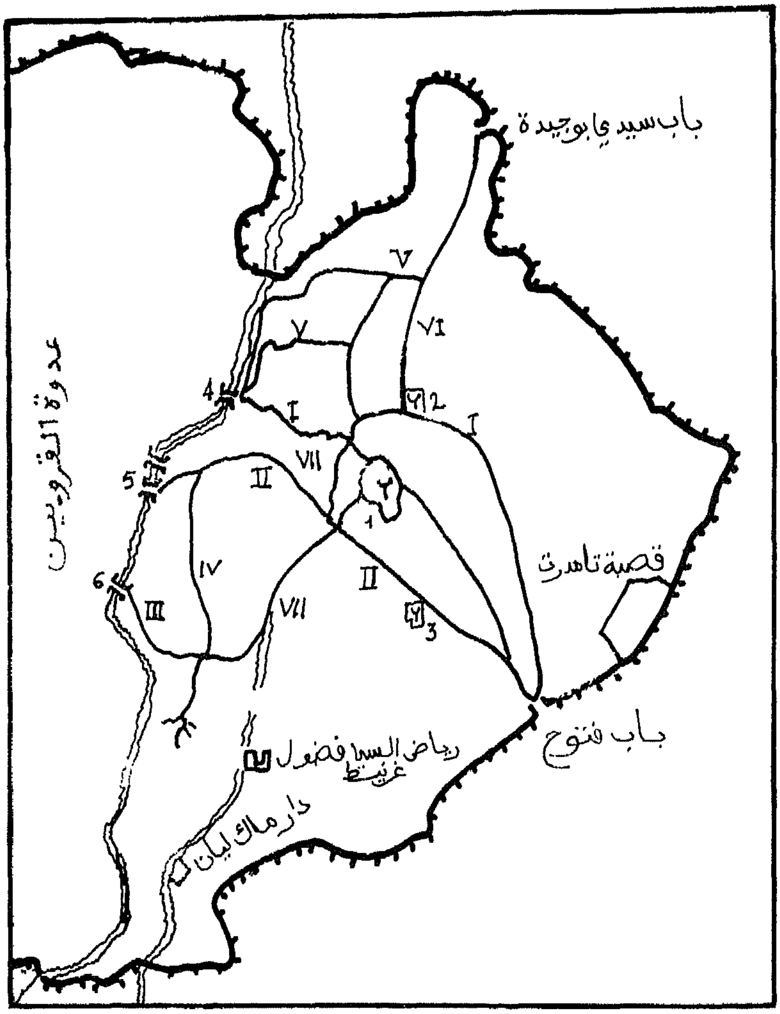
(23) انظر ميشو بـلّير ، **مذكرة حول التعليم بالمغرب** ، مقال غير منشور في وثائق فرع علم الاجتماع للمغرب ، ومارتان ، المقال المذكور ، ص. 440 .

(24) انظر **الاستقصا** ، 10 ص. 102 (جزء 7 ، ص 172 من طبعة الدار البيضاء) . وسُمّيت كذلك لكونها كانت واقعة على ضفة وادي مصمودة .

(25) انظر ما يأتي ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(26) انظر ما يأتي الكتاب 5 ، الفصل 5 .

(27) هُدّم جامع الفخارين حوالي 1935 وعُوّض بجامع جديد كله يحمل نفس الاسم ومبنيّ جيداً بالنسبة لهذا الحي الذي يعمر من جديد . وتقام فيه صلاة الجمعة .



الرسم 16

محاور السير في عدوة الأندلس

1. جامع الأندلس 2. جامع الأشياخ 3. سيدي علي بوغالب 4. قنطرة بين المدن 5. قنطرة الطرافين 6. قنطرة سيدي العواد 7. سوق الصفّاح .

تحيل الأرقام الرومانية على النص المتعلق بطرق المواصلات .

بالنسبة لتجهيز العدوة الأخرى [28] . فلم يبق لي سوى دراسة نظام طرق المواصلات للعدوة . إنه معقّد نسبياً من جراء كون الأزقة تلتقي بدءاً من الأبواب إلى جامع الأندلس ، ثم تتجه نحو الجسور ، عندما أصبح اجتذاب القيصرية والمحور الديني للقرويين ومولاي إدريس يتزايد إلحاحاً . فنحن إذن أمام شبكة مزدوجة ، إحداهما تربط الأبواب والأحياء الدائرية بالمركز القديم الذي هو جامع الأندلس ـ الصفّاح ، والأخرى تؤدي من الأبواب وأحياء العدوة المختلفة إلى الجسور الثلاثة الرئيسية : بين المدن ، والطرافين ، وسيدي العواد .

وأهمّ الأزقة هي التي توصل باب فتوح الذي هو الباب الرئيسي ، بقنطرتي بين المدن والطرافين ، حيث تلتقي بمحوري المرور (III) و (IV) لعدوة القرويين[29] .

الزقاق الأول (I) ، يؤدي تقريباً توّاً من باب فتوح إلى قنطرة بين المدن ؛ وهو عبارة عن طريق عريض يكاد يكون مستقيماً ، حتى جامع الأندلس ، وكان قبل الحماية محاطاً عن اليسار بأراض خالية ، يُزرع فيها البطيخ وغيره من البقول ؛ وعن اليمين كانت بَعض الفنادق والأضرحة[30] . ولم يكن يدخل إلى المدينة بالذات إلا على مستوى الجامع ثم كان يؤدي عبر عقبة وعرة إلى سوق الصفّاح ، حيث كان يحمل اسم درب اللمطي[31] ؛ ومن ثم يفضي إلى القنطرة ، بعد التواءات شاقة .

وهناك بديل لهذه الطريق (I مكرر) يُدعى محجّ الفخّارين ويؤدي بدون

---

(28) لم تعد هذه الملاحظة صالحة الآن : فإن حيي باب فتوح وباب خوخة في حالة تحول إلى حيين صناعيين عصريين لفاس البالي ، بمرائب للسيارات ، ومناشر ، ومعاصر الزيت ، وطاحونات ميكانيكية ، وطرق واسعة لسير السيارات .

(29) الرسم رقم 16 .

(30) انظر تصميم مارتان ، ومارتان ، المقال المذكور ص. 624 . وقد ارتفعت حالياً مبان هامة في كل جانب من الزقاق : وأصبحت سويقة باب فتوح سوقاً ضخمة .

(31) انظر عن هذا الشارع مارتان ، المقال المذكور ، ص. 623 .

منعرجات إلى حي الفخارين وجامع الأشياخ العتيق[32] ، محاذياً بعض المعاصر ومعامل الفخار[33] ؛ ثم يتحول إلى اليسار ويلتحق بالصفّاح ودرب اللمطي ، باسم زنقة فندق العطّار[34] ، بعد الإفضاء إلى بضعة فنادق مـجتمعة بين جامع الأشياخ والصفّاح . وهذا الشارع هو قبل كل شيء ممرّ الدواب ، بينما يفضّل الراجلون سلوك الأول الذي هو أقصر .

والمحور الثاني للسير (II) يوصل باب فـتوح بقنطرة الطرافين ، يسير سريعاً عبر مقبرة باب الحمراء ، محاذياً ضريح سيدي علي بو غالب ، ثم يغوص في المدينة ، ماراً بمحجّ بَشّقْ عَيْنُه ، ويخترق محجّ مصمودة ، ويجتاز باب سيدي حنين القديم ثم يلتحق بالحدادين والنخالين عن طريق محجّ سيدي المغيث ، ومن ثم إلى قنطرة الطرافين .

ويوصل محور ثالث (III) ، حي المخفية الخارجي بقنطرة سيدي العواد عبر كُزام ابن برقوقة ؛ وبعد اجتياز القنطرة يلتحق بالمحور (VII) لعـدوة القرويين .

ومن المخفية يمكن كذلك الوصول إلى قنطرة الطرافين (IV) عبر درب الشيخ ، ومحج سرّادة ، ودرب سيدي عبد الرحمن المليلي الذي يفضي إلى النخالين .

وبطبيعة الحال ، فإن باب سيدي بو جيدة يتصل بقنطرة بين المدن وحدها ، لكون القناطر الأخرى بعيدة عنه جداً . ونأخذ ، من الباب ، محجّ دار الراعي ، مارين بين منازل ترفيهية[35] . ثم نعرج إلى اليمين ودائماً وسط البساتين ، ونتبع

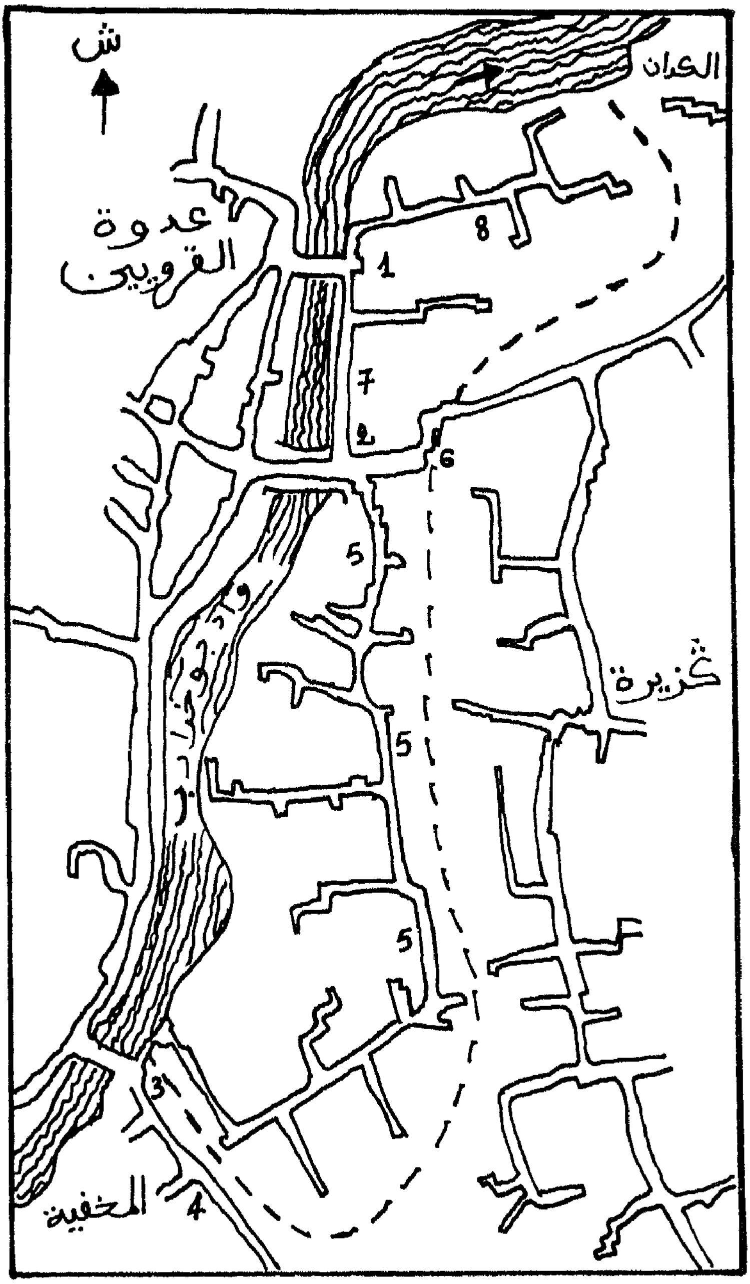
---

(32) لعلها كانت إحدى الطرق الرئيسية لذلك العهد الذي كان فيه هذا الجامع مركز العدوة .

(33) تُضاف إليها حالياً مرائب للسيارات ، ومستودعات ، ومعاصر الزيت ، إلخ .

(34) انظر عن هذا الزقاق مارتان ، المقال المذكور ، ص. 626 .

(35) إن هذا الحي الخشن تماماً ، بحظائره وحقوله المزروعة ، أخذ يعمر شيئاً فشيئاً بالمنازل. وتسلكه السيارة .



الرسم 17

قنطرة الصباغين وحي سيدي العواد (مقياس 1/2000)

1 . قنطرة الصباغين 2. قنطرة الطرافين 3. قنطرة سيدي العوّاد 4. كُزام ابن برقوقة 5. درب سيدي العواد 6 . النخالين 7. محج الخراشفيين 8. كُزام ابن زكّون .

يحدد الخط المقطوع نهاية حيّ سيدي العوّاد .

تعرجات محج الحبيّل[36] حتى القنطرة(V) . وبدلاً من المرور من هذا الشارع الخارجي ، يمكن سلوك زنقة الكدّان المعقوفة في مكان باب بني مسافر القديم ، ثم زنقة الرميلة الوعرة[37] التي تلتحق بمحجّ الحبيّل بقرب القنطرة مباشرة (V مكرر) .

وأخيراً هناك محوران طوليّان يربطان حيـي المخفية وباب سيدي بوجيدة المتداخلين بالمركز الحضري القديم : الصفّاح ـ الأندلس .

يؤدي أولهما من باب سيدي بوجيدة إلى جامع الأشياخ ، ومن هناك إلى الصفّاح (VI) ؛ وله بديل (VI مكرر) يمكّن من الالتحاق بالصفاح عبر الكدّان (I مكرّر) .

وينطلق الثاني (VII) من ساحة المخفية ويلتحق بمحجّ مصمودة عبر عقبة ابن بكّار ، متبعاً على الطول كله شارع مصمودة المستقيم تقريباً حتى جامع الأندلس ؛ وعند باب سيدي حنين ، يوجد بديل (VII مـكرر) يمكّن من الالتحاق بالصفّاح والكدّان دون المرور بجامع الأندلس .

قنطرة الصباغين وحي سيدي العواد[38] : ـ إن ما قيل ، بصدد عدوة القرويين ، عن تنسيق الأزقة داخل كل حي ، صحيح كذلك بالنسبة لعدوة الأندلس . إلا أن هناك حالتين خاصتين ينبغي التوقف عندهما هنيهة ، هما حالتا حي سيدي العواد وقنطرة الصباغين .

لقنطرة الصباغين خاصية غريبة وهي أنها لا تؤدي إلى شيء على الضفة اليمنى للنهر ، سوى إلى درب لا منفذ له (هو كْزام ابن زقّون) و . . . إلى قنطرة أخرى ، هي قنطرة الطرافين ، وذلك عبر الزقاق المعروف بمحج الخراشفيين

(36) انظر عن هذا المحج مارتان ، المقال المذكور ، ص . 639 .

(37) انظر عن هذا الزقاق ، نفس المرجع ، ص. 641 .

(38) الرسم رقم 17 .

الذي لا يبلغ طوله أكثر من خمسين متراً . فهذان إذن جسران يكادان يكونان توأمين ، أحدهما بدون منفذ ؛ وذلك أول لغز .

وأما حي سيدي العواد ، فهو مؤلف من زقاق ينطلق من القنطرة الحاملة لنفس الأسم ، وينتهي إلى ما وراء قنطرة الصباغين ، دون أن يكون له اتصال أو يكاد لا يكون له اتصال بالأحياء المجاورة للمخفية والكَزيرة والكدّان. وفعلاً فإنه إذا كان متصلاً بعدوة القرويين عن طريق ثلاث قناطر ، فإنه لا يتصل بسائر أحياء عدوة الأندلس إلّا بمسلكين اثنين :

1 ـ كُزام ابن برقوقة الذي يتوغل نحو المخفية مشكلاً زاوية حادة جداً ، وشاقة مع درب سيدي العواد (وهو وَصْلٌ بكل تأكيد) .

2 ـ النخالين الذي يشكل ، كما هو معلوم ، نهاية أحد محاور السير الكبرى بين باب فتوح والنهر .

إن الطبوغرافيا لا تفسر هذين الشذوذين ؛ فلا بد من اللجوء إلى التاريخ لتفهمهما . ينبغي أن نتذكّر أن فاساً ، عندما كانت منقسمة إلى مدينتين متميزتين ، كانت مدينة القرويين تتجاوز العدوة اليمنى للنهر . ولذلك يتضح كل شيء : فحي سيدي العواد ، بتنسيقه الغريب إلى هذا الحدّ ، ما زال يحمل بعد تسعمائة سنة ، شهادة على دقة البيانات التي يقدمها روض القرطاس[39]: فإذا كان منعزلاً أو كاد يكون منعزلاً عن سائر أحياء العدوة ، فلأنه كان تاريخياً رأس قنطرة لمدينة القرويين على عدوة الأندلس ، ولأن حياته الاقتصادية كانت دائماً موجهة نحو العدوة اليسرى للنهر .

أما قنطرة الصباغين ، فمن المحتمل أنها كانت في الأصل الوسيلة الوحيدة للمواصلة بين رأس القنطرة هذا ومدينة القرويين ، ثم شُفعت بقنطرة الطرافين عندما التحمت المدينتان ، في نفس الموقع الذي كان فيه حي سيدي العواد أقلّ

(39) ص. 38 .

عرضاً والذي كانت فيه الفرجة الضرورية للربط بين المدينتين أكثر سهولة .

وبالجملة ، فإن نظام السير لعدوة الأندلس أقلّ بساطة من نظام العدوة الأخرى ، إذ يُحتمل أنه تغيّر بحسب العهود ، استجابة لحاجيات أضحت مختلفة ، وأن رأس القنطرة القديم لمدينة القرويين على الضفة اليمنى للنهر زاد الأشياء تعقيداً .

الفصل الخامس

5/2

تركيب المدينة

لم يبق الآن سوى إعادة ربط القسمين الذين فُرّق بينهما تسهيلاً للعرض بلا شك ، وحرصاً كذلك على التقيد بمعطيات التاريخ . فإذا كانت ازدواجية العدوتين عميقة وما زالت ثابتة من وجهات نظر عديدة فإنه لا يمنع مدينة فاس أن تشكل منها وحدة متينة قوية ينبغي اعتبارها في مجملها .

دور النهر : ـ لقد أتيحت لنا الملاحظة بأن النهر لم يشكل قط فاصلاً قطعياً بين جزأي المدينة ، لأن مدينة القرويين كانت تتجاوزه منذ عهد إدريس ، ولأن الجسور الثلاثة الرئيسية ، المنتمية على الأقل إلى عهد الموحدين ، كانت كافية تماماً ـ وما زالت كافية ـ للسير داخل فاس ؛ وهي توصل بأسرع ما يمكن أحياء العدوة اليمنى بباب فتوح مع المركز ، نظراً لتشابك المدينة ، ولا تصلح إلا لذلك ؛ كما لا ننسى فعلاً أن أحياء خارجة عن المركز كالمخفية والقلقليين لا تحتاج ـ من الجانب الاقتصادي بالطبع ـ إلى الاتصال بينها ، إذ المهم بالنسبة لها هو علاقاتها مع حي التجارات ، ومن هذه الوجهة فالقناطر الموجودة كافية[1] .

لم يشكل النهر هو الآخر طريقاً للمواصلة ، لأن قلة عرضه ، وعمقه وسرعة

---

(1) بَنَتِ البلدية عام 1932 (عبّارة) تربط بين حيي المخفية والقلقليين ، وكان المبرر لذلك هو إنماء الحيين على العدوتين (تجزيئات المخفية وبوعجّارة) ، لكن هذا البناء كان للتسهيل لا للضرورة ، ولم تترتب عنه أية مضاعفة على التيارات الكبرى للسير في المدينة .

مجراه منعت منعاً كلّيّاً الملاحة فيه . فكان لا يصلح إلا لتوفير القوة المحركة للطاحونات عند انحداره الأقصى ، بين قنطرة الصباغين وقنطرة بين المدن ؛ وأقيمت بعض الصناعات على ضفتيه ، لكن ، لما كانت فاس يتخللها تحويل المياه تحت الأرض أو فوقها ، فإن الوادي الكبير لم يُولِّد على ضفتيه مجمعاً صناعياً ذا أهمية خاصة .

وبالتالي فالدليل على أن النهر ، على الضفة التي هو عليها ، لا يؤثر في حياة الحاضرة ، هو أنه لم يسئ إلى اجتذاب مركز القرويين - مولاي إدريس - القيصرية للأحياء الشرقية للمدينة ، ولم يمنعه من امتصاص مدينة الأندلس وإفراغها من بعض مادتها .

وبالجملة ، فبقطع النظر عن روعة هذا المجرى المائي ، فإنه يمكن أن يُغطَّى ، دون أن يُغيِّر شيء يذكر من مظهر المدينة ولا من حياتها العميقة . فالذي يهم فاسا ، ليس المجرى الطبيعي للنهر ، ولكن الاستعمال الذي جعل من مياهه صناعة بشرية ، لأن الماء الذي يسيل في جميع الأحياء ، وحتى في جميع الديار ، ليس إلا من صنع الإنسان .

تفاوت العدوتين : ـ ذلك واقع لاحظه المهندسون المرينيون ، وهو أن النهر او الوادي يقسمان المدن في جميع الحالات تقريباً[2] إلى قسمين غير متساويين . ولم تشذَّ فاس عن هذه القاعدة ، فليست المساحة المبنية للعدوتين فقط بنسبة واحد لاثنين تقريباً ، بل جلّ المآثر المهمة ، وأكبر حصة من الصناعات الرئيسية (من حياكة ودباغة وخرازة) ، وجميع المؤسسات التجارية الكبرى تقريباً (حتى البنوك منذ الحماية) ، كلها في عدوة القرويين ما عدا الفخارين ومربي الماشية فإنهم لا يخضعون لهذه القاعدة ، لكن نشاطاتهم هي بالضبط أليق بالضاحية منها بالحاضرة .

---

(2) انظر ب . لافيدان ، جغرافية المدن ، ص . 23 .

تصميم فـــاس : ـ ينتج عن قلة أهمية النهر وأسبقية عدوة القرويين أن السير الداخلي بفاس ليس خاضعاً للنهر أو للازدواجية الأصلية للمدينتين ، ولكنه خاضع للمركز الروحي والاقتصادي الذي حدّدته . وإذا أُخذ تصميم المدينة في مجمله ، فإنه يبدو إشعاعي المركـز على التقريب . فهناك ثلاث طرق رئيسية ، تصل المركز بالأبواب الثلاثة التي تمرّ بها تجارة فاس : باب عجيسة ، وباب فتوح وباب بوجلود ـ باب محروق؛ وهناك مسالك أخرى أقلّ أهمية تُؤَمِّن الاتصال بين الأحياء الدائرية والمركز ، والمواصلات بين الأحياء الدائرية بعضها ببعض متقلبة جداً . وأخيراً فإنه لا يوجد ، كما هو الشأن في عدة مدن غربية ، ذلك الشارع المستدير الذي حلّ محلّ سور عتيق ، ولم يبق بفاس أثر للأسوار التي كانت تضم المدينتين الأصليتين ؛ أما السور الحالي ، فلم تخرج عنه الديار قط ، بل لم تلتحق به قط في عدة نقط[3] . فالآثار الوحيدة الأكيدة من التصميم الأول لفاس توجد في عدوة الأندلس : فهناك تداخل بين التخطيط العصري للأزقة والوضعية القديمة .

مساحات فارغة ومساحات مبنية : ـ إذا تأملنا في نسبة المساحات المبنية والمساحات المكشوفة ، فإنه يمكن مقارنة المدينة القديمة أيام مولاي عبد العزيز ـ على ما أعتقد ـ بعدد من مدن أوروبا ؛ وأجدني مقتصراً في هذه النقطة على مجرد انطباع ، لانعدام الإحصائيات[4] ؛ إلا أنه يكفي أن نلقي نظرة على تصميم أورتلييب أو مخطط الضابط لاراس لنقتنع بـأن نسبة المساحات العارية (من بساتين ، ومقابر ، وأراض بور) كانت كبيرة جداً في

---

(3) ما زال النموّ السريع لفاس منذ بضع سنوات يريح المدينة في حزامها السوري ؛ لكن ، إذا استمرت الوتيرة الحالية للبناء فلن يبقى الأمر قريباً هكذا . فالبلدية تعتزم منذ الآن إنشاء أحياء إسلامية خارج الأسوار ، وخصوصاً بين فاس الجديد وباب جديد . ولا بد من أن نتذكر أن مدينة صفيح هامة قد نشأت شمال باب محروق بالذات وأخرى شمال قصبة الشراردة .

(4) من المعلوم أنه لم يوجد إحصاء قبل الحماية ، ولم تجد اشغال بلدية فاس قط الوقت الكافي للقيام بهذا الحساب بالنسبة للعهد الراهن ، لشدة ما ألقي على كاهلها من التكاليف الاستعجالية .

أوائل القرن العشرين[5] . لكن توزيع هذه الفضاءات الفارغة خاص جداً : إذ تكاد كلها توجد بالحاشية ، بينما الأراضي المبنية مجتمعة كلها نحو المركز ، مع هوائيات متفاوتة الأهمية في اتجاه الأبواب الرئيسية ؛ وتنخفض في هذه الأحياء المسكونة نسبة الفضاءات العارية انخفاضاً كثيراً ، حيث لا توجد فيها إلا محلات قليلة وفي غاية الضيق ، والأزقة بها ضيقة جداً ؛ ولحسن حظ صحة السكان ، فإن الأفنية تعيد التوازن إلى حدّ ما .

تخصص الأحيـــاء : ـ لقد بيّنت تخصص بعض الأحياء بالنسبة لكل من العدوتين . فإذا اعتبرنا مجمل المدينة ، لاحظنا أن الأحياء المتفوقة صناعياً وتجارياً تشكل قوس دائرة واسعاً، أو حديد حافر فرس ينطلق من باب بوجلود إلى باب فتوح ، ويكون أكثر سمكاً في المركز مما هو عليه في الطرفين . وتوجد في شمال هذه الرقعة للحياة الاقتصادية وشرقها أحياء سكنية (كعين أزليطن ، وفندق اليهودي ، والبليدة ، وباب سيدي بـو جيدة ، والرميلة) ، لكن منطقة السكن الحقيقية توجد في الجنوب الغربي ، محصورة بين فرعي حديد حافر الفرس الاقتصادي .

منظر عام للمدينة كلها : ـ ولننظر الآن إلى الكتلة الفاسية في مجموعها ، فسنلاحظ أن مختلف الأجزاء التي تؤلّفها لم يُفرَّق بينها بطريقة تعسفية من أجل سهولة العرض ، ولكنها تشكل فعلاً عناصر مشتتة بدون وحدة عميقة : فهناك من جهة المدينة الإدارية والعسكرية ، فاس الجديد ، بقصرها وحصونها العديدة ، وحيها اليهودي ذي الطابع المدني البارز جداً والغريب في وسط أحياء بدوية ، تذكِّر بمخيّم منظم أكثر مما تذكّر بمدينة ؛ وهناك من جهة أخرى المدينة الحاضرة الإسلامية من الطراز التقليدي ، لكن حيث لم تضمحل منها تماماً الازدواجية الأصلية للعدوتين[6]. ولا أية رابطة بين هاتين

---

(5) لقد انخفضت منذ ذلك العهد .

(6) ففي عام 1908 ، أثناء الاضطرابات التي عرفها آخر عهد مولاي عبد العزيز ، طالب أهل =

الكتلتين . فإرادة مولاي الحسن هي التي ربطت بينهما في أواخر القرن العشرين ، بواسطة ممرّ من الأسوار ، لكن هذا العمل لم يحدث بينهما وحدة حقيقية : فتبدو هاتان الكتلتان ، وهما غير مشدودتين جيداً على الأرض ، كأنهما غريبتان جداً الواحدة عن الأخرى ، إذا ما درسنا تعميرهما .

العدوة باستقالة الممثل الذي كان مولاي حفيظ قد بعث به الى فاس ، بينما كان سائر سكان المدينة يرغبون في إقراره . انظر ميطرودي لاموط ـ كابرون ، وترينكا ، المرجع المذكور ، ص . 30 .

3

الكتاب الثالث

السكان

الفصل الأول

1/3

تقديرات

لا يمكن أن تكون لدينا إلا فكرة مبهمة غامضة عن أهمية سكان فاس في بداية القرن العشرين نظراً لعدم وجود أي إحصاء . ويقدم بادجيت ميكن(1) رقم 150.000 نسمة مع عبارة « ربما » ذات الدلالة . ومن المؤكد أن تقديره لا يستند على أي معطى قوي عندما نلاحظ أنه يقدر عدد السكان اليهود بثلاثين ألف نسمة(2) ، وهو رقم يستحيل قبوله . ويقدّر التقرير القنصلي الأنجليزي لسنة 1908 عدد السكان الأهالي (مسلمين ويهود) بنحو 102.000 نسمة ، والجالية الأوروبية بنحو 125 نسمة(3) . ويكتب أوبان بحذر : « لا يمكن أن تحتوي فاس على حوالي مائة ألف من السكان »(4) . أما الدكتور ڤيجيربير فإنه لا يجازف إلا بعدد الدور فيقول : « يتركب كل حي من أحياء اللمطيين الستة من 600 إلى 700 منزل، ولا يضم حيا الأندلس والعدوة أكثر من 250 إلى 300 منزل في كل واحد منهما ، ويمكن بذلك تقدير عدد منازل فاس البالي بنحو

---

(1) **المغاربة** ، ص . 5 . وفي مكان آخر (**أرض المغاربة** ، ص 252) يؤكد نفس المؤلف أن سكان فاس لا يصلون تماماً إلى 100.000 حتى عندما تقيم فيها حاشية السلطان ، وهذا تناقض غريب .

(2) نفس المرجع ، ص . 426 .

(3) **تقارير ديبلوماسية وقنصلية** ، 1908 ، تجارة المغرب .

(4) **مغرب اليوم** ، ص . 268 .

7.000 منزل »[5] . ويتحدث دولفان عن 80.000 من السكان[6] ، ويجعلهم ڭايار 75.000 [7] ، وأخيراً يعتقد لاراس أن السكان العاديين لفاس لا يتجاوزون 65.000 نسمة ، ويزداد عددهم بنحو 10.000 إلى 15.000 فرداً عندما يقيم المخزن بين أظهرهم[9] . ويسود نفس الشك فيما يتعلق بسكان الملاح ، إذ يقدرهم روني ـ لوكلير[10] من 5.000 إلى 6.000 نسمة بينما يجعلهم ڭايار[11]، وشفريون[12] ، والدكتور ڤيجيربير[13] 10.000 ساكن .

وفي تقرير قنصلي فرنسي لسنة 1898[14] ، وتعداد سكان فاس حسب الأحياء الذي قام به ميشو بلّير حوالي سنة 1900[15] ، نجد معلومات أكثر دقة ولو أنها ما تزال تقريبية . فالتقرير لا يقدم عن كل حي من أحياء المدينة إلا عدد ما به من منازل ، ويقول إنه يجب عدّ معدل 15 شخصاً في كل منزل ، وها هو في صيغته الأصلية ، وأكتفي بأن أضيف (بين قوسين) عدد السكان الحاصل في كل حي :

---

(5) **وصف فاس** ، في تقرير الشركة الجغرافية ، يونيه 1899 .
(6) **فاس ، جامعتها والتعليم العالي الإسلامي** ، ص 63 . ص . 108 ، رقم 1 .
(7) المرجع المذكور .
(8) **سكان المغرب** ، في مجلة الجغرافيا ، العدد 13 ، 5 ماي 1906 .
(9) القنصل الأنجليزي ماك ليود (**تقرير ديبلوماسي وقنصلي** ، العدد 1304 ، سنة 1892 ، ص. 31) يقدر أن وجود الحاشية الملكية بفاس يحمل إليها من 20 إلى 30.000 من السكان الإضافيين .
(10) المقال المذكور ، في إفريقيا الفرنسية ، معلومات استعمارية ، العدد 8 ، غشت 1905 .
(11) المرجع المذكور ، ص. 90 .
(12) **شفق الإسلام** ، **فاس** ، ص. 204 .
(13) **مدينة فاس** ، في المجلة الفرنسية ، العدد 250 ، الجزء 24 ، اكتوبر 1899 .
(14) **تقرير إحصائي وتجاري** في 17 أبريل 1899 ، وجد في وثائق البعثة العلمية بالمغرب معلّقاً عليه من طرف ميشوبلّير الذي استغلّه بدون شك في تهييء الوثيقة المذكورة أعلاه .
(15) توجد هذه الوثيقة في صفحتي 5 و 6 من **لمحة عن فاس** (ست صفحات خطية مكتوبة على ورق مسطر ـ وزارة) بدأها ميشوبـلّير حوالي سنة 1900 ولم تكمل (وثائق البعثة العلمية بالمغرب) .

ـ راس الجنان	200 منزل	(3.000 من السكان)
ـ العيون	300 منزل	(4.500 من السكان)
ـ القلقليين	250 منزل	(3.750 من السكان)
ـ المخفية	500 منزل	(7.500 من السكان)
ـ سيدي العواد	200 منزل	(3.000 من السكان)
ـ الأقواس	300 منزل	(4.500 من السكان)
ـ الصفّاح[16]	400 منزل	(6.000 من السكان)
ـ القطانين	400 منزل	(6.000 من السكان)
ـ الصاغة	300 منزل	(4.500 من السكان)
ـ البليدة	200 منزل	(3.000 من السكان)
ـ كُرنيز	400 منزل	(6.000 من السكان)
ـ فندق اليهودي	200 منزل	(3.000 من السكان)
ـ سويقة ابن صافي	200 منزل	(3.000 من السكان)
ـ عين الخيل	250 منزل	(3.750 من السكان)
ـ زقاق الماء[17]	200 منزل	(3.000 من السكان)
ـ الطالعــة	400 منزل	(6.000 من السكان)
ـ درب تادلا[18]	300 منزل	(4.500 من السكان)
ـ الشرابليين	200 منزل	(3.000 من السكان)
	5.300 منزل (5.200)	(78.000 من السكان)

(16) شطب ميشو بـلّير على هذا الاسم وعوضه بالكدّان . .

(17) شطب ميشو بلّير على هذين الاسمين في الوثيقة التي حررها ، وكتب بدلهما حيي العدوة وقصبة فيلالة .

(18) الرقم 5.300 ناتج عن خطإ في الجمع ، ويجب أن يقرأ 5.200 .

ثم نقرأ بعد ذلك : « فاس الجديد 15.000 من السكـان » ، وزاد ميشو بلّير بالهامش الكشف التالي :

فاس الجديد	6.000 من السكان[19]	
المـــلاّح	5.000 من السكان [20]	
قصبـة البطاطحة	2.000 من السكان	المجموع 15.700
قصبة بوجلود	1.500 من السكان	
قصبة الشراردة	1.200 من السكان	

فيكون المجموع العام لمدينة فاس كلها 93.700 نسمة .

وهذه الأرقام التي أعطاها ميشو بلّيـر في الوثيقة الثانية :

العدوة (خمسة أحياء)

العدوة	4.000 من السكان [21]
المخفيــة	8.000 من السكان
سيدي العواد	3.500 من السكان
الأقـــواس	5.000 من السكان
الكـــدّان	6.000 من السكان
المجموع	26.500 من السكان (في التقرير السابق 21.00)

(19) سجل ميشو بلّير أولاً 8.000 .

(20) كتب المؤلف أولاً : 6.000 .

(21) في الهامش بخط المؤلف : « لا يمكن أن تكون هذه الأرقام إلا تقريبية ، إذ لم يقع حقيقة بفاس أي إحصاء ، ولم تكن في المغرب حالة مدنية » .

الأندلس (خمسة أحياء)

راس الجنان	3.300 من السكان
العيـــون	3.800 من السكان
القلقليـــن	4.000 من السكان
القطانيـــن	6.200 من السكان
كُرنيز	6.000 من السكان
المجمـــوع	23.300 من السكان (في التقرير السابق 23.250)

اللمطيين (ثمانية أحياء)

فندق اليهودي	3.200 من السكان
سويقة ابن صافي	3.400 من السكان
عين الخيـــل	4.100 من السكان
الطالعـــة	7.000 من السكان
الشرابليين	3.000 من السكان
الصاغـــة	5.000 من السكان
البليـــدة	3.000 من السكان
قصبة فيلالة أو النوّار	2.500 من السكان
المجموع:	31.200 (في التقرير السابق 33.750 وليس فيه قصبة فيلالة، لكن فيه حي زقاق الماء ودرب تادلا) .

المجموع	81.000

وإذا أضفنا إلى هذا المجموع الرقم السابق الذي أعطاه ميشو بلّـير لمجموع فاس الجديد ، حصلنا على مجموع إجمالي قدره 96.700 من السكان . وينبغي أن نلاحظ ، والحالة هذه أن هذه المحاولة الإحصائية لفاس الجديد وقعت في وقت كان المخزن مقيماً بمراكش ، ولم يدخل فيها السكان

الدائمون بدار المخزن . ويمكن أن يقدر الجميع بنحو عشرين ألف شخص ، وبذلك سيكون عندنا في سنة 1902 ، وهو التاريخ الذي رجع فيه السلطان إلى فاس ، نحو 15.000 نسمة في مختلف أجزاء المدينة .

والاختلاف بين التقديرين ضعيف : 3.000 شخص ، وهو حاصل من كون التقرير القنصلي لم يشمل قصبة فيلالة (2.500 من السكان حسب ميشو بلّير) . وقد عمل كل منهما بدون شك بناءً على عدد المساكن المقدم غالباً من قبل مقدمي الحومات . وذلك في الواقع أدقّ المعطيات التي يمكن الاعتماد عليها في ذلك العصر ، لأن مقدمي الحومات كانوا يعرفون معرفة جيدة منطقتهم الصغيرة لطول مكثهم في وظيفتهم .

عدد سكان المدينة :

وإزاء هذه المعطيات يمكن كنوع من التحقيق ، صفّ أرقام اليوم . وسأعتمد أساساً على معطيات الإحصاء الخماسي لسنة 1936[22] الذي يقدم أكثر ما يمكن من الضمانات ، وسأعتبر استطراداً المعلومات التي يمكن استخلاصها من عدد أوراق التموين المعطاة بفاس منذ سنة 1940 .

وسآخذ كنقطة انطلاق عدد الدور المسكونة التي وقع احصاؤها بمدينة فاس سنة 1936 ، وهي 6.128 . وقد رأينا أن الدكتور فيجيربير عدّ منها سنة 1899 نحو 7.000 بينما لم ينصّ التقرير القنصلي لسنة 1898 إلا على 5.200 على أن مدينة فاس قد اتسعت ، دون منازع ، منذ سنة 1899 . وأحياء الأرباض : الطالعة والزنجفور ، وباب الخوخة، وباب جديد ، والدوح التي لم تكن في عهد مولاي عبد العزيز سوى بساتين أو شبهها قد عمّرت بالدور ، وهو تغيير

(22) وثائق الكتابة العامة لناحية فاس ، ملف : إحصاء . ولا تعطي هذه الوثيقة ـ للأسف ـ إلا أرقاماً إجمالية ، دون توزيع على الأحياء ، الذي كان من المفيد مقارنته مع توزيع ميشو بلّير .

شاهدته بنفسي ابتداء من سنة 1930 ، ويتفق الجميع على أنه لم يبتدىء إلا بعد إقامة الحماية . لذلك فإن تقدير الدكتور ڤيجيربير مرتفع بكثير في الواقع ، لأن من بين 6.128 دار التي وقع إحصاؤ ها سنة 1936 هناك بالتأكيد عدة مآت لم تكن موجودة سنة 1899 ، فقد كانت فاس في ذلك العهد أقلّ سكاناً مما هي عليه سنة 1936 ، وتلك حقيقة مكتوبة على الأرض . ويظهر أن تقدير التقرير القنصلي أقرب إلى الحقيقة ولو أنه قد يكون أيضاً مرتفعاً قليلاً .

يعطي إحصاء سنة 1936 مدينة فاس عدد 190.179 من السكان المسلمين . وأقبل بسهولة أن يكون هذا العدد أقلّ من الواقع ، لأنه بالرغم على الدعاية التي قامت بها الحكومة للحصول على أجوبة دقيقة ، فإنه من المعقول افتراض كون عدد كثير من الفاسيين غفلوا عن إحصاء أنفسهم أو قدموا تصريحات أقلّ من الحقيقة ، إما بسبب الإهمال أو لكونهم كانوا يرون في هذا الإحصاء تهيآت للتجنيد أو لإقامة ضرائب جديدة ، أو لأسباب أخرى غامضة . ويمكن الاستفادة من مقارنة هذا الرقم لسنة 1936 برقم حصص التموين الموزعة على مسلمي المدينة سنة 1945 الذي هو 169.619 ؛ لكن المستحسن أن نلاحظ من جهة أن السكان المسلمين بمدينة فاس قد ازداد عددهم بكيفية ملحوظة فيما بين سنتي 1935 و 1945 : إذ بالرغم على بناء عدد كبير من الديار الجديدة[23] فإنه من الصعب حالياً العثور على سكنى في المدينة . ومن جهة أخرى ، يجب أن نفترض لأسباب يسهل تصوّرها ، أن عدد حصص التموين الموزعة يفوق العدد الحقيقي للمستهلكين[24] .

---

(23) يجب أن نسجل حقيقة أن عدد الديار تزايد كثيراً منذ 1936 ؛ وحسب إحصائية تفضلت بلدية فاس فسلمتني إياها سنة 1945 ، فإن البنايات المشيدة بالمدينة الأهلية ، من سنة 1936 إلى سنة 1944 ، بلغ عددها 941 . وهذا العدد ينطبق على فاس الجديد والملاّح ويشمل البنايات البسيطة ، مثل مرائب السيارات ، والحوانيت ، والغرف الجديدة المضافة في ديار قديمة . ولم يبق حقاً وفعلاً إلا أن رقم سنة 1936 قد زاد بعدد من المئات .

(24) تفترض المصالح الرسمية نفسها أن عدد حصص التموين الخيالية تبلغ نحو % 10 ، وهي متفائلة من التحديد .

ويلاحظ أنه لا يخرج من جميع هذه المواد البعيدة كثيراً عن الدقة إلا شيء تقريبي عامّ ، وأنه يمكن تقدير سكان المدينة حالياً بعدد 150.000 نسمة ، وأن البنايات المشيَّدة منذ الحماية لم تضاعف عدد السكنى بفاس ، ولكنها زادت فيها بنسبة قوية . ومن جهة ثانية فإن معدّل الكثافة قد بلغ 18 شخصاً على الأقلّ في كل دار ، في حين أن تقديره سنة 1898[25] كان لا يزيد على 15 ؛ لذلك فإن تقدير ميشو بلّيـر يقارب الواقع كثيراً، وإن سكان مدينة فاس على عهد مولاي عبد العزيز لم يكن عددهم يجاوز 100.000 نسمة . وربما كانوا بعيدين شيئاً ما عن بلوغ هذا العدد .

عدد سكان فاس الجديد : ـ والتقريبات بالنسبة لفاس الجديد أكثر إغراقاً في الوهم ، لأن معظم سكان هذه الكتلة كانوا من مستخدمي الحكومة ، مدنيّين وعسكريّين ، الذين يتبعون السلطان في مختلف إقاماته . وكان فاس الجديد والقصر يُكوّنان إجمالاً مدينة مرنة تفرغ أو تمتلىء حسب ذهاب الحاشية أو إيابها . فماذا كان مدى سعة هذا الاضطراب ؟ وماذا كانت أهمية السكان القارّين ؟ لقد أجابت بعض الأرقام عن هذين السؤالين ، لكنها غير أكيدة . وسأعطي على سبيل البيان ، أرقام إحصاء سنة 1936 : كان فاس الجديد يضمّ رسمياً 14.250[26] من السكان ، لكن يجب التفكير بأن فاس الجديد قد كبر منذ الحماية ، حيث بنيت فيه ديار جديدة ، بعضها مؤلّف من عدة طبقات ، وأصبح سكانه أكثر استقراراً ، وأصبح تأثير حركات الذهاب والإياب للمخزن لا يكاد يحسّ بأهميته الآن . وأما القصر فإنه لم يظهر في الإحصاء ويمكن أن نفترض أن سكانه القارّين قد نقصوا ولم يعودوا يبلغون العدد من 3.000 إلى 6.000 شخص ، الذي قدّمه ميشو بلّير[27] .

(25) **وثائق الكتابة العامة لناحية فاس** ، ملف : إحصاء .

(26) 8. 917 لفاس الجديد بمعنى الكلمة ، و 5.333 لحي مولاي عبد الله . وفي مارس 1945 كان عدد حصص التموين الموزعة في الحين 342 .26 .

(27) **في قصر السلطان المغربي** ، في مجلة العالم الإسلامي ، العدد 5 ، غشت 1908 ، ص. 650 .

وسأزيد قبل مغادرة فاس الجديد إشارة غريبة حسب إحصاء 1936 ، وهي أن 8.917 سكان فاس الجديد المسلمين كانوا يعيشون في 1.162داراً، و 5.333 سكان حي مولاي عبد الله كانوا يسكنون في 436 داراً . وبذلك كان معدّل كثافة السكان في الحي الأول 8 في كل منزل ، وفي الحي الثاني 13 في كل منزل ، بينما كان معدل الكثافة في المدينة 18 . وتساعد هذه الملاحظة على التمييز بين الطبيعة الخاصة بكل من المجموعتين السكنيتين : فاس الجديد الذي هو خليط من أناس لم يستقروا بعدُ استقراراً تاماً ، ويعيشون في ديار منخفضة ، ميّالين ، كما هو الشأن في باديتهم الأصلية ، إلى الانتشار في الأرض (والحق أن هذه البقعة تناسب ذلك) ، بينما تمثل المدينة طبيعة حضرية أكثر وضوحاً ؛ فالبنايات تتركب من عدة طبقات ، والسكان المدنيون منذ عدة أجيال اعتادوا العيش في بقعة ضيقة ، والأرض غالية الثمن . وقد كانت هذه الفوارق بدون شك أكثر بروزاً قبل إقامة الحماية .

عدد سكان الملاح : ـ أشرت فيما سبق إلى أن تقدير سكان فاس اليهود يختلف من مؤلف لآخر ؛ ومع ذلك فإن لدينا هناك إشارة يمكن أن تكون أقرب إلى الحقيقة ، قدّمها أوبان نقلاً عن نشرة الاتحاد الإسرائيلي العالمي[28] . إن الحساب الذي قام به معلمون تابعون لهذه المؤسسة عاشوا في الوسط المدروس وتوفرت لهم عناصر جدّيّة للتقويم ، لهو الذي يحتمل أن يقدم ضمانات أكثر من التقديرات التي نمتلكها عن مدينة فاس الجديد . ويمكن أن نعتبر من الأكيد أن عدد يهود فاس في مطلع القرن العشرين كان حوالي 8.000 أو بالأحرى أقل من ذلك لا أكثر . وعددهم في إحصاء 1936 هو 9775 شخصاً[29] و820 داراً، أي بكثافة 18 ساكناً في كل دار . لكن لابد من

(28) مغرب اليوم، ص 359 ، نقلاً عن يهاس فاس (إ. د. سماك، تاريخ، ص. 87) . وكان يعد بالملّاح سنة 1879 من المنازل 235 ومن غرف السكنى 1.461 ، ومن الأشخاص 5.844 .

(29) كانت مصالح التموين البلدي سنة 1945 توزع 14.113 حصة على الإسرائيليين المغاربة بفاس .

أن تحذف من عدد عمارات السكن جميع المؤسسات التجارية والصناعية والدينية التي تكون دائماً تقريباً جزءاً لا يتجزأ من دور السكنى ولا يسكنها أحد ؛ وأن يؤخذ بعين الاعتبار نقصان مساحة كل دار هنا عن مساحة دور المدينة ، وذلك ما يعطي في الواقع كثافة سكنية أكثر بكثير من كثافة سكان فاس الجديد ، ومن المدينة على ما يحتمل . وقد رأيت فعلاً سنة 1936 داراً متركبة من طبقة أرضية وطبقتين علويتين حول فناء ضيق ، وفي الغرف الثلاث بكل طبقة أسرة من أب وأم وعدد كثير من الأطفال ، مع جدين أو ثلاثة أحياناً ، أي ما يتراوح مجموعه بين 70 و 80 شخصاً . وليس لهذه الدار أي طابع خاص،ويوجد بالملاّح كثير من هذا النوع. يضاف إلى ذلك أن حي النواويل لم يكن موجوداً قبل الحماية ، وأن الحي الذي يحيط حالياً بساحة التجارة كان أقلّ اتساعاً مما هو عليه الآن[30] .

أرقام إجمالية : ـ وبالجملة فإن سكان مدينة فاس لا يزيدون على 80.000 ونحو عشرة آلاف بفاس الجديد ، والقصر والقصبة ، عندما لا يكون السلطان بفاس ، و 30.000 على الأكثر عندما يكون فيها ، و 8.000 على الأكثر بالملاّح . ويمكن أن نكون متيقنين بأن مجموع سكان فاس قبل الحماية لم يكن يجاوز قطعاً 120.000 نسمة ، إن هو بلغ هذا العدد . وعند غياب حاشية السلطان كان عدد السكان الذين يعيشون في هذه المدينة يقل قليلاً عن 100.000 شخص .

وبعد تقديم هذه المعطيات العددية ، فإنه لابد من دراسة مفصلة لهذه العناصر المكوّنة لسكان المدن الثلاث .فالملاّح يكون طائفة متميزة لها حياتها الخاصة ؛ وفاس الجديد مدينة مخزنية يسكنها قوم غير مستقرين قليلو التمدن ؛ وفي المدينة ، إلى جانب الفاسيين بمعنى الكلمة الذين سأحاول تحليل مميزاتهم الخاصة ، تعيش طوائف إسلامية حافظت إبان الحماية على

(30) كان معدل كثافة السكان سنة 1879 ، حسب أرقام يهاس فاس المذكورة أعلاه ، تبلغ 24 شخصاً في كل دار .

شيء من الأصالة وبقيت في كثير من الأحوال بمعزل عن الحياة الفاسية ، أمثال الجزائريين والتواتيين والفيلاليين ومجموعات أخرى أقل أهمية أو أقل تماسكاً . وأخيراً فلابد من أن تؤخذ بعين الاعتبار الجالية الأوروبية المقيمة بفاس موزَّعة على المجموعات السكنية الثلاث حسب ما يمكن أن تصادفه من مأوى .

الفصل الثاني

2/3

الجالية الاوروبية

أرقـــام : ـ هل يمكن حقيقة أن نتحدث عن جالية أوروبية ؟ إن هذه الكلمة تثير فكرة أناس أقاموا نهائياً مكوّنين خلية اجتماعية صغيرة . ولا شيء من ذلك بفاس حتى السنوات الأخيرة من عهد مولاي حفيظ : ففي سنة 1909 اهتمّ م . كايار ، عميد السلك الديبلوماسي ، بإفراغ المدينة من الرعايا الأوروبيين ، لأن عدداً كثيراً من القبائل كانوا يجاهرون بالانشقاق ويهددون العاصمة . وقد أحصى بطبيعة الحال الأشخاص الذين كان عليه أن يؤمنهم فوجدهم 64 ، منهم 10 أنجليزيون ، و4 ألمانيون ، و7 إسبانيون ، و3 إيطاليون ، و15 إسرائيليون فرنسيون ، و3 جنود جزائريون ، و22 فرنسيون . وكان يفكّر أيضاً في أن يستقدم من صفرو المبشرين الأمريكيين الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا يوجدون هناك[1] . وقد كانت هذه الأرقام ضخمة إذا قارناها بالأربعة والعشرين من الأوروبيين الذين يتحدث عنهم أوبان سنة 1903[2] ، وبالأوروبيين الستة الذين ذكرهم لوتي سنة 1889[3] .

تاريـــخ : ـ يؤكد بودجيت ميكن[4] أن أول من أقام من الأوروبيين

(1) وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، رسالة ديسمبر 1909 .
(2) المرجع المذكور ، ص. 351 .
(3) لوتي ، في المغرب ، ص. 140 .
(4) أرض المغاربة ، ص. 259 .

بفاس بصفة نهائية . . . ثلاث نساء أوروبيات مبشرات من بعثة الشمال الإفريقي ولا يمكن بالفعل اعتبار أعضاء البعثات العسكرية الفرنسية والأنجليزية التي أقامت لدى السلطان سنة 1877[5] ، لكنها كانت تتبعه في حركاته وتسكن تارة في فاس ، وتارة بمكناس أو مراكش أو الرباط . والرجال أمثال الطبيب ليناريس[6] أو القائد ماك لين [7] هم من رجال المخزن أكثر منهم فاسيين ، ومع ذلك فإن الضباط الإيطاليين المكلفين بتكوين مصنع الأسلحة قرب القصر السلطاني ، كانوا ينتقلون أقل من الضباط الأجانب الآخرين ، ويستحقون أكثر أن يلقبوا بالفاسيين ، وكانوا ثلاثة سنة 1888[8] .

(5) أتحدث عن بعثة عسكرية انجليزية لتبسيط الأمور ، وفي الواقع لم يكن م . ماكلين مقلداً ببعثة رسمية ، وهاك ما حدث : ذهب مولاي الحسن سنة 1876 إلى وجدة بعد أن قاسى الأمرين أمام قبيلة غياثة . واستقبل في وجدة الجنرال قائد فرقة وهران الذي استعرض أمام صاحب الجلالة بعض جند الحرس .فاستحسن السلطان كثيراً مهارة الجنود الفرنسيين وبراعتهم ، لا سيما الطبجية ، وطلب من الحكومة الفرنسية أن ترسل إليه ضباطاً لتدريب جيشه ، لكن الإدارة كانت بطيئة كعادتها . ولما وصل ضباطنا في ديسمبر 1877 ، وجدوا ضابطاً انجليزياً مقيماً كمدرب للمشاة المغاربة ، وكان الوزير الأنجليزي بطنجة قد علم بالمحادثة التي جرت لإرسال بعثة فرنسية إلى المغرب . فسارع إلى المساندة لدى السلطان مقترحاً سيرهاري ماكلين ، ضابط مستقيل من حامية جبل طارق . وكان ماكلين رسمياً في خدمة السلطان وحده ، ولم يعد في عداد الجيش البريطاني . ولم ترسل انجلترا إلى المغرب بعثة كبعثتنا في سنة 1983 (**وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، بعثة عسكرية**) .

(6) كان الدكتور ليناريس طبيباً عسكرياً عين في البعثة العسكرية الفرنسية منذ 1877 ، في وجدة أولاً ، ثم في الرباط . وقد وصله فنه بأسمى الشخصيات المخزنية ، وحوالي 1887 صار صلة الوصل الشبه الرسمية لوزير فرنسا لدى السلطان مع بقائه رسمياً طبيب بعثتنا العسكرية . وبهذه الصفة لعب دوراً هاماً جداً ، على الأقل أثناء السنوات الأخيرة من عهد مولاي الحسن . وغادر المغرب سنة 1901 عندما لم يعد يعجب مولاي عبد العزيز .

(7) كان سيرهاري ماكلين ضابطاً تابعاً لحامية جبل طارق ؛ وغادر الجيش الأنجليزي لأسباب شخصية ، وصار مدرباً للمشاة في الجيش المغربي . ولم يكن له خلال مدة طويلة سوى تأثير ضعيف ، لم يهتم الا بالشؤون العسكرية . ثم اكتسب أهمية بعد غياب الوزير باحماد ولعب دوراً خطيراً لدى مولاي عبد العزيز . انظر أوبان ، مغرب اليوم ، ص . 160 وما بعدها ، وج قيير ، **في المغرب** ، ص . 65، 82 .

(8) رسالة المعتمد القنصلي الفرنسي بفاس ، بتاريخ 8 صفر 14/1306 اكتوبر 1888 .

وفي سنة 1892 أخذ تحرّك الأوروبيين نحو فاس يتضح بدقة . ففي هذه السنة أرسل إليها الأنجليزيون تاجراً إسكتلندياً هو ماك إيفور ماك ليد الذي كان يحمل لقباً شبه رسمي كنائب قنصل، ويؤسس مكتباً بريدياً أنجليزياً منتظم الاتصال بطنجة[9] . وبعد بضعة أشهر تبعه الرجل الثقة لدار تجارية فرنسية بطنجة ، دار وشركة كُوتش . هذا الوكيل المدعو فاباريس ، أسس بفاس فرعا لدار كُوتش ومكتباً بريدياً خاصاً ، أقامهما معاً بأحد فنادق المدينة في درب المشروم ، بالقرب من باب عجيسة . وأظن أنه يمكن التعرف في شخصه على أول فرنسي استقر بفاس[10] . وكان يقيم أخيراً في رقم 39 من زنقة وادي الصوافين .

وقد وصل النائب الأول للقنصل الفرنسي م. دو مارسيلّي سنة 1894 ؛ ثم استقرت دار ريشتر الألمانية بدورها سنة 1895 ، مع عاملين ألمانيين[11]، في رقم 20 من زنقة رياض جحا، وسط الحي التجاري . ويوجد في العاصمة المغربية سنة 1896 خمسة إسبانيين ، من بينهم طبيب يهودي ، وساعاتي ، ومدير خمارة بالملّاح[12] . وأنشأت الحكومة الإسبانية قنصلية حوالي سنة 1900 ، لكن في سنة 1902 لم يعد يوجد ولو إسباني واحد في مدينة المولى إدريس باستثناء القنصل . وأقام الألمانيون سنة 1901 مكتباً بريدياً يتصرف فيه عامل من دار ريشتر ، وأحضروا إليه سنة 1902 نائب قنصل لاثنين من الرعايا وثلاثة أو أربعة من المحميّين[13] .

---

(9) وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، هنا وهناك . انظر عن القنصل ماك ليود ، لوكُلاي ، تاريخ مغربي ، ص. 125 - 126 .

(10) انظر أوبان ، المقال المذكور ، ص. 445 ، ووثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، هنا وهناك ؛ وقد استفدت أيضاً ببعض هذه المعلومات من صديقي السيد عبد الواحد الحلو ، رئيس مصلحة بفرع بنك دولة المغرب بفاس .

(11) وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، رسالة بتاريخ 12 نوفمبر 1902 .

(12) وثائق مفوضية فرنسا ، ماي 1896 .

(13) انظر عن القنصل الألماني لسنة 1911 ڤاصيل ، لوكُلي ، المرجع المذكور ، ص. 147 .

إنه العصر الذي كان مولاي عبد العزيز يحلم فيه بحب التجديد ، ويشتري الدراجة ، وقطار السكة الحديدية ، ومدافع السيارات ، ويحيط نفسه بالتقنيين الأوروبيين ، ومنهم ماك لين الذي أصبح المموّن لـذلك[14] . وقد أوقفت عاصفة بوحمارة سنة 1903 لمدة من الزمن هذه التجارة العمياء الناشئة ، إذ خاف الأوروبيون وغادروا فاساً . ثم أخذوا يرجعون إليها قليلاً قليلاً ، لشدّة إغراء الربح السهل المليء بالمخاطر ؛ لكن كان من بينهم عصافير عابرة وجوارح كاسرة أكثر منهم مقيمين . ولم يبق متعلقاً بفاس سوى الرواد وحدهم تقريباً ، أعني فاباريس ، وماك لين ، والقنصل ماك ليـد ، ومع ذلك فلن يموت منهم فيها أحد .

هكذا نرى كيف تكوّنت هذه المجموعة الأوروبية الصغيرة ، من ضباط أولاً ، جاؤ وا في جميع الحالات تقريباً قبل أفراد من الخواص ، لأن المخزن كان من القوة بحيث يستطيع طرد الناس العاديين ، لكنه عاجز عن أن يقاوم طويلاً ويقف في وجه الدول الأوروبية العظمى ووكلائها المعتمدين .

البعثات العسكرية : ـ كانت الموجة الأولى للاقتحام ، بطبيعة الحال ، مؤلفة من عسكريين : وهم المدربون الأوروبيون الذين استدعاهم مولاي الحسن سنة 1877 ، ويرجع تاريخ أول مقام لهم بفاس إلى شهر غشت من سنة 1879 . وكان رئيس البعثة الفرنسية آنذاك قبطان المدفعية إيركمان الذي ألف كتاباً مهماً عن المغـرب[15] . وابتداء من سنة 1883 كان ضابطاً سامياً برتبة كومندار أو ليوطنان ـ كولونيل . ولم يكن معظم هؤلاء العسكريين سوى عابرين ، ما عدا الدكتور ليرانيس الذي يكون وحده استثناء خاصاً . وابتداء من سنة 1893 ، كان هناك زيادة على ماك لين ، بعثة أنجليزية رسمية كان أفرادها على ما يظهر أكثر استقراراً بقليل من أفراد بعثتنا ، وما رست علينا

(14) هاريس ، المغرب المختفي ، هنا وهناك .
(15) هـ . إيركمان ، المغرب الحديث .

سلطة قاسية حتى سنة 1904[16] .

وأما البعثة الايطالية التي كان يرأسها على التوالي الكولونيل فيرارا والكولونيل بريكُولي ، فقد أنشأت مصنع الأسلحة بالماكنة (بالقرب من باب الدكاكين) وحاولت أن تعقد صفقات لكن بدون نجاح كبير ، ولم يكن لمقامها الطويل بفاس أثر يذكر .

وأرسل الألمانيون هم أيضاً في وقت مبكر بعثة عسكرية إلى المغرب ، هي بعثة المهندس روطانبورغ ، كانت مكلفة بإقامة سرية مدفعية ساحلية بالرباط . لكنها وصلت إلى فاس حوالي 1885 و« أقامت فيه نمطاً من الرشاشات والحمّامات مع بذخ كبير في أجهزة التسخين والتجفيف والأنابيب والصنابير التي نالت إعجاب رجال القصر »[17] . وبعد ذلك أقام مدربون ألمانيون بعض الوقت بفاس حوالي سنة 1905 .

وأخيراً فإن بعثة عسكرية إسبانية لم يكن لها إلا وجود عابر ، وحلّت محلّها بعد زمن وجيز بعثة طبوغرافية اتخذت تطوان قاعدة لها .

ويجب الوصول إلى عهد مولاي عبد الحفيظ لنجد بفاس بعثات عسكرية كثيرة[18] ويحسن أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن أعضاءها كانوا في معظم الأحيان في البادية أكثر مما كانوا في المدينة ، وذلك بسبب الفتن المتناثرة . وقد مهّد المدربون الفرنسيون المتأخرون للجيش المغربي الطريق إلى الجيش الفرنسي[19] . وقد فقد الكثير منهم حياتهم ـ للأسف ـ ثمناً للخدمات الجلّى التي قدّموها أثناء مذابح فاس في أبريل 1912 .

(16) كان المأجور أوجيلفي أحد أعضائها الأكثر تأثيراً ، مع الدكتور ڤيردون .

(17) هـ . دي لامارتينير ، ذكريات المغرب ، ص. 116 .

(18) كان أيضاً في سنة 1909 مدربون أتراك بقيادة القبطان عارف باي (انظر ج . ديني ، مدربون عسكريون أتراك بالمغرب على عهد مولاي حفيظ) وكانت بعثتنا حينئذ بقيادة الكومندان إيميل مانجان .

(19) وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، المجموعة القديمة ، القطاع 16 .

القنصليات : - ويأتي الديبلوماسيون بعد العسكرين . وكان أول نائب قنصل أوروبي تاجراً أنجليزياً ، م. ماك لين . ولم تكن الدول العظمى قبل ذلك ممثلة بفاس إلا بواسطة بعض الوكلاء والقناصلة اليهود أو المسلمين . وكان آخر وكلاء قناصل فرنسا مثلاً مسلماً من أصل جزائري يدعى الحاج حمادي الوجدي ، الذي زاول مهمته طوال نحو عشر سنين[20] .

ولم يقع الاعتراف عاجلاً بماك لين رسمياً من طرف الحكومة الشريفة التي كانت تعمل كل ما كان في استطاعتها لمنع إقامة تمثيلية ديبلوماسية أوروبية في جهة أخرى غير الثغور الشاطئية . ومع ذلك فإن فرنسا هي أيضاً قرّرت منذ سنة 1892 تحويل وكالتها القنصلية[21] ، لكن أول نائب قنصل م. دو مارسيبي لم يقع تعيينه ويزاول عمله إلا سنة 1894 . ولم يبق مدة طويلة ، ثم خلفه عدد من القائمين بالأعمال والرسميين الذين كانوا يقومون بالمهمة لمدة قصيرة إلى أن جاء م. ڭايار سنة 1901 . ولا يدخل في إطار عملي التحليل التفصيلي لدور م. ڭايار بفاس . وسأكتفي بالقول إنه كان أحد الصناع الرئيسيين لإقامة حمايتنا بالمغرب . وقد كان صبوراً مالكاً زمام نفسه لبقاً معتدلاً ، فعرف كيف يثبت حتى سنة 1904 . وبدون اصطدام وضع فرنسا تجاه السلطان الذي كان شبه مفتون بماك لين، ميّالاً إلى مساعدة الأنجليز . واستفاد ڭايار من فترة التفوق الظاهري هذه لتكوين فكرة في غاية الدقة والعمق عن المدينة وضواحيها وربط شبكة استعلامات حقيقية ؛ وكتابه عن فاس الذي هو في غاية الجدية والمتانة شاهد قاطع على هذا العمل في العمق[22] . ثم لما أصبحت الظروف مواتية أكثر للقنصل ڭايار عرف كيف يستفيد استفادة عظمى

---

(20) انظر لوڭلاي ، تاريخ مغربي سنة 1911 .

(21) توصل الحاج حمادي الوجدي بهذا النبأ في يوليوز 1892 .

(22) لقد سبق أن ذكرت هذا الكتاب مراراً ، وسأذكره أيضاً . وقد عرف م . ڭايار كيف يسجل فيه السمات الدائمة لفاس . والآن بعد مرور 40 سنة وإدخال كثير من التغييرات ، فإنه ما يزال أساسياً لمن يريد التعرف على فاس .

من الألفة التي اكتسبها مع الناس والأشياء وظهر في الحين قادراً على تطوير عمله . وهو أحد الذين عارضوا معارضة حاسمة العمل الألماني منذ سنة 1905 . وبالجملة ، فإنه ظهر بالمظهر اللائق بممثل فرنسا في السنوات الأخيرة للمغرب المستقل : وندرك أن بلادنا كسبت الرهان مع أمثال هؤلاء الرجال لتقوم بدورها .

المبشّرون البروتيستانيون : ـ سبق أن أشرت[23] إلى أن المبشرين كوّنوا أحد العناصر الأكثر استقراراً للجالية الأوروبية قبل الحماية . ولا يتعلق الأمر ببعثة كاثوليكية في هذا العصر؛ فقد غادر آخر الفرنسيسكيين مدينة فاس في عهد مولاي إسماعيل[24] ولم يرجعوا إليها إلا مع الحماية . وإنما جاء مبشرون بروتيستانيون ليقيموا بالمدينة الإدريسية في نهاية القرن التاسع عشر[25] . وكانت بعثة الشمال الإفريقي البريطانية هي الأولى ، وصلت ثلاث نساء من أعضائها إلى فاس سنة 1887 . وكان من حكمتهن أنهن لم يقمن بتبشير مثير ، وإنما أسسن عيادات طبية وأخذن يقدمن إرشادات صحية ، واكتفين بأن ينشدن أحياناً بعض التراتيل أمام المرضى . وانضمّ إليهن سنة 1893 زوجان من نفس البعثة المذكورة أقاما في أحد أملاك المدينة العليا (عرصة كُنون) وعَمِلا على تنظيم درس بسيط في اللغة الأنجليزية لأولاد المنطقة المجاورة . وحيث إن الذباب لا يصطاد بالخلّ ، فإن هذين المبشرين الأستاذين كانا يستجلبان تلاميذهما بإعطائهم مكافأة صغيرة (بليون في اليوم : 0,25 فرنك) . وقد تأثر المخزن لما علم بذلك ووضع له حداً[26] . وبالرغم على بعض الأخطاء الطفيفة من هذا النوع ، فإن المبشرين الأنجليز عرفوا كيف يجتذبون لأنفسهم تقدير السكان ، إن لم يتوصلوا إلى ان يفتنوهم في أي شيء

(23) انظر ما سبق ، ص 160 .
(24) انظر ما سبق ، الكتاب الأول ، الفصل الرابع .
(25) انظر بادجيت ميكن ، **أرض المغاربة** ، ص. 258 ، وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 352 .
(26) رسالة المعتمد القنصلي الفرنسي بتاريخ 28 جمادى الأولى عام 8/1311 ديسمبر 1893 .

من أمور دينهم . ومع ذلك كان لهم شهيدهم وهو المبشر كُوبر الذي اغتاله بالقرب من زاوية مولاي إدريس ، سنة 1902 ، متعصب قرّر أن يقتل أول أوروبي يلقاه ، فأرادت الصدفة أن يكون ذلك المبشر .

وفي سنة 1896 جاءت بعثة تبشيرية أمريكية للمساعدة ، متركبة من خمسة أشخاص : زوجين اثنين وعازب ، أرسلتها الجمعية الدينية الأمريكية لمدينة كانساس. وقد لجأ هؤلاء الأشخاص إلى تستّر أقلّ بكثير من زملائهم البريطانيين : فكانوا يلبسون ملابس المسلمين ، ويعظون الجمهور في الشوارع والأسواق ، وبدؤوا يهيجون السوقة ضدهم . وقد خاف الأوروبيون المقيمون في المدينة على أنفسهم واجتهدوا في إقناع هؤلاء المبشرين القليلي التبصر بأن فاساً لم تكن راضية عن كهنوتهم ؛ فاندفع المبشرون حينئذ بشجاعة لمهاجمة البادية المغربية ، وقد قلت إن اثنين أو ثلاثة منهم كانوا لا يزالون يعيشون في صفرو سنة 1909[27] .

التجـــار : ـ عندما نقرأ تاريخ تلك الفترات ونقيس أهمية العمل الاقتصادي الأوروبي بفاس فإننا نساق إلى الاعتقاد بأن التجار وأصحاب الصناعة كانوا يكوّنون قسماً كبيراً من الجالية الأوروبية ؛ وذلك خطأ ، لأن أوروبا كانت تعمل في الميدان الاقتصادي بواسطة أشخاص مسخرين يهود ومسلمين . وحتى سنة 1900 ، فإنه لا يمكن ذكر غير القنصل ماك لـيد الذي ترك مبكراً الصفقات التجارية وانصرف إلى السياسة ؛ وم. فاباريس ممثل الدار الفرنسية كُوتش ثم الشركة المغربية ؛ وأخيراً العاملين بالدار الألمانية ريشتر . تلك هي المقاولات الجديدة ، لأنه لا يلزم أن نعير اهتماماً إلى هذا السويسري الذي أوشك سنة 1898 أن يثير فتنة بالملاّح عندما أراد ان ينشىء به معصرة زيت وطاحونة ميكانيكية[28] ؛ ولا إلى الساعتي الإسباني المتجر في

---

(27) انظر ما سبق ، ص. 161 .

(28) تقرير ديبلوماسي وقنصلي ، رقم 2131 ، ص. 18 .

الخمر الذي سبق أن تحدثت عنه[29] ؛ فإن هذه المقاولات الأخيرة العابرة قبل كل شيء ، هي إلى المغامرات الصغيرة أقرب منها إلى التجارة . وظلت الحالة كذلك سنة 1905[30] ، باستثناء إسباني آخر أنشأ بالملاح معملاً للمشروبات الغازية[31] .

وإذا أضفنا إلى ذلك بعض الأطباء ، وأطباء الأسنان[32] الذين هم دائماً - تقريباً - إسبانيون أو يهود أو مشارقة ،وفي الغالب متاجرون ومشعوذون أكثر منهم أطباء متمرسين[33] ، فإننا نكون قد أحطنا بما سميته الجالية الأوروبية .

وباختصار، يلاحظ أن الأوروبيين بفاس هم بصفة خاصة موظفون وعابرون ، لم يعش منهم أحد تقريباً بعد الحماية ، وهم رواد هيؤوا المستقبل بقليل أو كثير من الوعي والوسائل اللائقة ، واختفوا شيئاً فشيئاً عندما فتح عهد البناء والتنظيم والاستقرار، بل وغادر الكثير منهم المغرب ولم يعودوا إليه . وكان من بينهم الفرنسيون والجزائريون مسيطرين تأثيراً وعدداً ، وحاول الألمانيون ابتداء من سنة 1905 أن يتداركوا تأخيرهم ؛ لكن مواطنينا استغلوا فراغ الميدان الذي تركه لهم الأنجليز بعد المعاهدة الفرنسية ـ البريطانية لسنة 1904 ، واتخذوا من المواقف العادية والمعنوية التي لم يستطع معها الألمانيون قط ذلك التدارك ، ولم يقم الإيطاليون والإسبانيون إلا بأدوار الأشخاص الثانويين .

فكيف أمكن لجميع هذه العناصر المتباينة أن تكوّن جالية بكل معنى

---

(29) انظر ما سبق ، ص 160 .

(30) انظر روني لوكلير ، في مجلة معلومات استعمارية ، يوليوز 1905 ، ص. 232 .

(31) نفس المرجع ، غشت 1905 ، ص. 319 .

(32) مثل طبيب الأسنان كورطيس ، الذي مات أخيراً ، وكان قد استقرّ نهائياً بفاس حيث كان يزاول باستمرار مهنته ، خاصة في الوسط الإسلامي واليهودي .

(33) يجب استثناء الطبيب الفرنسي مورا الذي أسس بفاس أول مستشفى فرنسي الذي يحمل اليوم اسمه .

الكلمة ؟ إن القناصل بما لهم من التقاليد الديبلوماسية القوية ، كانوا أحياناً يوحّدون جهودهم مكوّنين كتلة تجاه المخزن . وهكذا نجحوا ، بفضل مساعيهم المدبرة ، في الحصول على امتياز مقبرة أوروبية[34] ، واتخذوا بصفة خاصة إجراءات جماعية من شأنها ضمان أمن المقيمين الأوروبيين عندما كانت فاس مثلاً مهددة من طرف بوحمارة والقبائل المتمردة خلال سنتي 1903 و 1909 . وذلك شيء قليل بالنسبة للدسائس الخفية التي كان الأوروبيون يحيكها بعضهم ضد بعض للمقرّبين إلى المخزن . فلم تكن هناك إلا مؤامرات ومحالفات ليوم واحد ، ومكايد ، وجاسوسية ليس بين مختلف الفرق الوطنية فحسب ، ولكن أيضاً داخل كل فريق وطني[35] .

وحتى لا تبقى هذه اللوحة ناقصة ، فإنه لا بد من الكلام أيضاً على عابري السبيل من الأجانب ؛ لأنه ، إذا كان الأوروبيون المستوطنون بفاس ظلّ عددهم قليلاً جداً إلى النهاية تقريباً ، فإن المسافرين على العكس من ذلك ، لم يكونوا قليلين . كان منهم جميع الأصناف ، مجرد فضوليين مكلفين بفن الرسم الأصيل ، وعلماء باحثون عن الدراسات الأصلية ، ومغامرون يترقبون فرصة الثروة في موطنها الأسطوري ، وتجار أو ديبلوماسيون جاءت بهم مهنتهم إلى هناك .

السفـــراء : ـ إن تقليد السفارات الأوروبية بالمغرب قديم جدّاً يرجع على الأقل إلى عهد السعديين . وابتداءً من عصر مولاي الحسن ، أصبحت

---

(34) انظر روني لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 154 ؛ وميشو بلّير ، **وصف فاس** ، ص. 259. وقد منحت هذه المقبرة للأوروبيين في نهاية سنة 1903 ؛ وتقع على ربوة شرقي مصلى السلطان ، وقد كانت حينئذ « حقلاً صغيراً عالياً غير مزروع ، تحيط به شجيرات صبر ضامرة » . ولم يكن فيها سنة 1904 غير قبرين ، قبر المبشر كُوبير وقبر ضابط أنجليزي من البعثة الشريفة الذي مات في حادثة هذه المقبرة التي تعرف الآن بالمقبرة القنصلية . أبطل تخصصها منذ إقامة الحماية وسُوِّرت .

(35) انظر في هذا الموضوع ، ڤيير ، المرجع المذكور ، هنا وهناك ، وكُلاي ، المرجع المذكور ، هنا وهناك .

هذه السفارات عادية أكثر ، لأن العلاقات بين المغرب وأوروبا صارت وثيقة جداً . وها هي قائمة هذه السفارات فيما بين سنة 1889 وسـنة 1912 :

- سفارة م. پاطنوطر وزير فرنسا ، من 4 أبريل إلى 15 يونية 1889[36] .

- سفارة كونت طاطّنبـاخ وزير ألمانيا ، من 27 أبريل إلى 4 يونيو 1890 .

- سفارة سير شارل إيڤان شميت ، وزيربريطانيا العظمَىٰ ، من 13 ماي إلى 15 يوليوز 1892[37] .

- سفارة كونت دو بينيـي ، وزير فرنسا ، من 27شتنبر إلى 5 ديسمبر 1892 .

- سفارة كونت دو طاطّنبـاخ وزير ألمانيا ، من 22نونبر إلى متمّ ديسمبر 1894 .

- سفارة م. ساطو وزير بريطانيا العظمى ، من 25أكتوبر 1894 إلى 20 أبريل 1895 .

- سفارة م. دو مونبيل وزير فرنسا ، من 16 ماي إلى 16 غشت 1895 .

- سفارة كونت دو بويسري وزير بلجيكا ، من 3 ماي إلى منتصف يونية 1904[38] .

- سفارة م. سان روني طاياندييـ وزير فرنسا ، من 26 يناير إلى 26 أكتوبر 1905[39] .

- سفارة كونت دو طاطّنبـاخ وزير ألمانيا ، من 11 ماي إلى 5 نونبر 1905 .

---

(36) كانت هذه السفارة سبب تأليف كتاب لوتي ، في المغرب ، وقد كان ضابط البحرية جوليان ڤيود عضواً مرافقاً لـ م . باطنوطر .

(37) انظر خبر هذه السفارة عند بونصال ، مغرب .

(38) انظر كونت دو بويسري ، في بلاط فاس .

(39) انظر سان روني طاياندييـ ، أصول المغرب الفرنسي .

- سفارة م. لوثر وزير بريطانيا العظمى ، من 31 ماي إلى 31 ديسمبر 1905 .

- سفارة م. مالموزي وزير إيطاليا ، من 3 إلى 28 يونيه 1906 .

- سفارة م. كُوميري وزير الولايات المتحدة ، من 27 شتنبر إلى 26 نونبر 1906 .

- سفارة الدكتور روزان وزير ألمانيا ، من 2 إلى 27 أكتوبر 1906 .

- سفارة م. رينيو وزير فرنسا ، من 31 يناير إلى 2 يونية1909 .

- سفارة م . ليستر ، وزير بريطانيا العظمى ، من 19 أبريل الى 2 يونيه 1909 .

- سفارة م. ميري ديلڤال وزير إسبانيا ، من شهر مارس إلى 16 ماي 1909 .

- سفارة م. رينيو وزير فرنسا ، من 24 مارس إلى 25 ماي 1912 .

تستدعي هذه القائمة بعض الملاحظات ، إذ يلاحظ أولاً أنه قلما تأتي سفارة منفردة : فكلما أرسلت إحدى الدول الكبرى الرئيسية الثلاث : أنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وزيرها لدى السلطان ، قلّدتها الأخريان في الحين. ويتفق أحياناً حتى وجود عدد من السفارات مجتمعة في فاس. وذلك لأسباب يسهل تصوّرها، وهي أن الدول الكبرى المعنية بالشؤون المغربية كان يراقب بعضها بعضاً بدقة ، لا يمكن أن تحصل إحداها على امتياز دون أن تسارع الأخريان إلى محاولة الحد من أهميته أو الحصول على تعويض . أما السفراء الآخرون لإسبانيا وبلجيكا وإيطاليا والولايات المتحدة فقلّما كانوا يتوجهون لدى السلطان ، إلا عندما تدعو الحاجة إلى ذلك .

وفي أثناء السفارات ، كانت البعثات الديبلوماسية بطنجة كثيراً ما تنتدب بفاس أحد ممثليها ، مكلفاً بالأعمال أو الترجمان الأول لمعالجة مسائل خاصة . وهكذا نلاحظ في فاس وجود م. هيلويس الترجمان الأول للمفوضية الفرنسية سنة 1890 ، وم. دي ڤيسميس بونتيـي الترجمان الأول للمفوضية البريطانية سنة 1893 ، وم. جنتيلي الترجمان الأول للمفوضية الإيطالية في

نفس الفترة ، وم . ديسكو القائم بأعمال فرنسا سنة 1903[40] ، وكونت دو سانت أولير القائم بأعمال فرنسا سنة 1904 . كانت هذه الشخصيات بطبيعة الحال ضيوف المخزن ، لكنها لا تستقبل بالرسميات التي تخصص للسفارات .

ويلاحظ أخيراً وجود فراغ كبير بين سنة 1895 وسنة 1904 ، يُفسَّر أولاً بالمقام الطويل لمولاي عبد العزيز بمراكش ، من سنة 1896 إلى سنة 1901 . ثم لم يكد السلطان يرجع إلى فاس حتى انفجرت ثورة بوحمارة (1902) ، وإذا بمولاي عبد العزيز على رأس حركة لا يستطيع استقبال السفراء ، أولاً لأن فاساً كانت في مطلع سنة 1903 مهددة بكيفية مباشرة من طرف الروكي ، فالجالية الأوروبية شرعت في حركة تراجع نحو الشاطىء ؛ فليس من الموضوع أن يخاطر سفير بنفسه في مثل هذا المأزق . وهناك فراغ آخر بين سنتي 1906 و 1909 لأسباب مماثلة ، فالسلطان مولاي حفيظ بويع بمراكش سنة 1907 ، فانسحب مولاي عبد العزيز نحو الرباط ، ولم تستأنف البعثات الديبلوماسية نشاطها إلا بعد أن اتضحت الوضعية ووطد مولاي حفيظ سلطته بفاس .

لن أدخل في تفاصيل هذه السفارات[41] ، فهي تجري دائماً على نفس المخطط . عندما يُحدّد التاريخ الملائم للوزير المعني بالأمر والمخزن ، يرسل السلطان إلى طنجة قافلة من الجند ودواب الركوب لاستدعاء السفير وحاشيته . وفي حالة سفارة م. فيرو سنة 1886 ، كانت هذه القافلة مركبة من

---

(40) نتج عن هذه البعثة الكتاب القيّم : مغرب اليوم ، لأوجين أوبان ، وهو اسم مستعار ل . م . ديسكو .

(41) انظر عن السفارات بفاس او غيرها ج. كايي ، **مصاريف سفارة بالبلاط الشريف سنة 1825** ، في هيسبريس ، عدد 30 ؛ لوتي ، **في المغرب** ؛ شارمز ، **سفارة بالمغرب**، إ. دي أميسيس ، **المغرب** ؛ طروطر ، **بعثتنا إلى البلاط المغربي سنة 1880** ، رئاسة سيرجون دورومانذهيي ؛ بونصال ، **المغرب كما هو** ، كونت دو بويسوري ، **في بلاط فاس** ؛ مولاي عبد الرحمن بن زيدان ، **إتحاف أعلام الناس** جزء 2 ، ص. 533 ؛ ف. شارل رو ، **سفارات فرنسية بفاس** .

170 بغلاً لحمل الأمتعة ، و 52 بغلاً أخرى لنقل بطاريتين لمدفعية الجبل أهدتهما الحكومة الفرنسية إلى السلطان ، و 18 فرساً للديبلوماسيين والضباط ، و 13 فرساً لضباط الصف والضباط المرافقين والحشم ، و 12 بغلاً مجهزاً ، و 12 بعيراً ، و 10 من الخيل والبغال الاحتياطية ، و 69 من جند الخفر الدائم[42] .

وكانت السفارة تتكون على العموم من نحو عشرين شخصاً على الأقل : السفير ، وزوجته (في بعض الأحيان) ، وكاتب أو كاتبان أو ملحقان ، وترجمان أوروبي ، وترجمان مسلم أو يهودي ، وثلاثة أو أربعة ضباط ، وعدد مختلف من ضباط الصف والجنود الأوروبيين ، وخدم ، وأحياناً عالم أو فنان يستغل هذه الفرصة للتوجه إلى فاس[43] .

وكانت طريق القافلة تمرّ في أغلب الأحيان بالعرائش وبني عمّار ووادي مكّيس ؛ وكانت آخر محطة هي نزالة فراجي على بعد بضع كيلوميترات من فاس . وفي صباح اليوم الأخير يسير السفير وسط موكب يتيه بتنظيمه . وقبل باب الساكْمة بقليل يصطف على جانبي الطريق صفٌّ مزدوج من الجنود، يشتمل على جمهور غفير مختلف الألوان[44] . ويأتي قائد المشور لاستقبال السفير باسم العاهل ومهما كان الوقت قليل الجمال والألوان تتأرجح تحت الشمس ، فإنه مشهد رائع

---

(42) شارمز ، المرجع المذكور ، ص 28 .

(43) كانت سفارة باطنوطر سنة 1889 متركبة كما يلي : م. باطنوطر وزير فرنسا ؛ م. بوتيرون كاتب أول ؛ م. دو لافوري ـ ديڤون ملحق ؛ م. بيا ترجمان أول ؛ م . كولومب نائب قنصل بالدار البيضاء ؛ م. بنشيمول ترجمان كاتب مسلم ؛ كومندان ريمون ـ كاهوزاك ؛ الدكتور ليناريس ؛ قبطان دو ڤيـلار ؛ القبطان شلومبير ـ جي ؛ ليوطنا سفينه ڤيو (لوتي) ؛ اليوطنا لافيس ؛ نائبا ليوطنا ديستري و مينار ؛ كابورال مهندس ؛ خمسة من خيّالة إفريقيا ؛ موظفان لمربط الخيل ؛ جنديان من دار المفوضية ؛ عدد من الخدم الأهالي .

(44) كان هناك فضوليون كما كان هنا أيضاً ممثلون صامتون في خدمة موجهة : كان وكيلنا القنصلي بطنجة يذكر أنه وقع استدعاء مائة من سكان كل حي لاستقبال سيرجون درومون هي بباب ساكْمة ، سنة 1880 ، وقد كان هناك 18 حياً . (رسالة 17 أبريل 1880) .

أحياه لوتي من جديد بطريقته البالغة حدّ الغنى والدقة[45] . وفي وسط انسجام عجيب للألوان والأصوات ، يدخل السفير تحت قبة باب الساكْمة، ويسير محاذياً مقبرة سيدي أبي بكر (بن) العربي ، ويغيب تحت باب محروق الذي ربما تكون معلّقة عليه بعض رؤوس الثوار الدامية ، وبعد أن يسير في أزقة مزدوجة بالسكان وهادئة دواليك ، يرى فجأة باب حديقة مخضرة ينفتح أمامه تتخللها مياه جارية ، مزدحمة بالجند والخدم وهم يحملون المؤونة[46] في طيافير ذات أرجل تعلوها أغطية مخروطية الشكل ، مصنوعة من نسيج الحلفاء. وهناك فإن السفير ، وهو مرهق بالتعب ، مغبر العينين ، مندهش بالمشاهد الغريبة ، يذهب ليذوق طعم الراحة والجو البارد في المنزل الذي أُعِدَّ له .

وهو في الغالب دار الحاج المدني بنّيس القريبة من باب الحديد ، وإلا فدار غيرها في نفس الحي[47] . وكانت هذه المنطقة من المدينة في ذلك الحين مغطاة بالبساتين وتوجد منعزلة حتى إن الزوار لا يكادون يضايقون جيرانهم ولا يتضايقون منهم . وأخيراً فإن ذلك المكان جميل والحي صحي . وكان السفير ينزل في دار فسيحة أو في جناح صيفي يدعى المنزه[48] ، أو في خيمة واسعة تُضرب بعناية المخزن[49] . ويسهر على راحته وأمنه نحو عشرة من الأمناء ، ويوضع رهن إشارته عدد كثير من خدم المخزن بينما يقوم جنود بالحراسة . ويأتي في كل صباح أمينان يستفسران عن أحواله ، أحدهما من قبل السلطان ، وآخر من قبل الصدر الأعظم . ويأتي هذا الأخير بنفسه لزيارة السفير في أول يوم وصوله ، ويذهب السفير بدوره للسلام على الصدر الأعظم ووزير الخارجية في انتظار أن

---

(45) لوتي ، المرجع المذكور ، ص 119 -128 .

(46) هكذا كان يسمى الطعام الذي يهديه المخزن لضيوفه .

(47) كان م. ديسكو (أوبان) قد نزل أثناء مقدمه بفاس سنة 1903 بدار في درب الزربطانة وسط حديقة مليئة بأشجار الليمون والورود ، تجري فيها مياه غزيرة (المرجع المذكور ، ص 257) .

(48) شارمز ، المرجع المذكور ، ص 136 إلى 208 .

(49) طروطر ، المرجع المذكور ، ص 98 وما بعدها .

يتفضل السلطان باستقباله استقبال الوصول الرسمي .

ويطول الانتظار يومين أو ثلاثة ، ثم يُستدعى السفير ليتوجه صباحاً حوالي الساعة الثامنة ، أو بعد ذلك ، إلى المشور الكبير بباب الدكاكين أو باب بوجات[50] اللذين كان لإطارهما الفخم الرهيب بالأبراج والأسوار المسنّنة العظمةُ اللائقة . ويتبادل السلطان والسفير الخطب البروطوكولية ، ثم يقدم رئيس البعثة إلى السلطان مساعديه ؛ وكانت مدة الاستقبال قصيرة[50م] .

وفي أثناء مقام السفارة ، كان وجوه رجال المخزن ينظمون استقبالات فاخرة في الغالب . وعندما تسوى المسائل المعلقة ، كان السفير يخبر السلطان برغبته في الالتحاق بطنجة ، فتتكوّن قافلته من جديد ، ويتقبل هدايا ، ويُخصص استقبال لوداعه قبل أن يغادر فاسا . ولم تكن للمغادرة أية رسميات على العموم ؛ إلا أن م . سان ـ روني طايانديي وقع توديعه سنة 1905 إلى مسافة بضع كيلوميترات من المدينة من طرف موظفين كبيرين من رجال المخزن ، فصار ذلك تقليداً .

إن ما ذكرناه سابقاً يسمح بملاحظة أن طول مقام هذه السفارات كان مختلفاً ، وأقصرها سفارتا م . مالموزي ، والدكتور روزان سنة 1906 اللتان لم تتجاوزا خمسة وعشرين يوماً ، بينما أقام بفاس في السنة قبلها م . سان ـ روني طايانديي تسعة أشهر . وهذا راجع بالطبع إلى نوع المفاوضات الجارية وإلى الإشكالات التي قد تطرأ أثناء المحادثات . ومع ذلك فإنه كقاعدة عامة ، لم يكن السفراء الأجانب يقضون أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر بفاس ، لأنهم أولاً لم يكونوا مقيمين على أتمّ ما يرام ، ولأنهم كانوا يقنطون في هذه المدينة التي بعدما يستنفدون حب الاطلاع الأول ، لا يجدون فيها من يرونه غير رعاياهم وشخصيات المخزن

---

(50) استُقبل سير درومون هي في مشور باب بوجات (نفس المرجع) . وابتداء من سنة 1905 صار السفراء كثيراً ما يستقبلون في القصر نفسه : انظر كونت دو بويسوري ، المرجع المذكور .

(50م) شارمز ، المرجع المذكور ، ص. 136 -208 ؛ لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 151 -161 إلخ . . . .

الرسمية[51] ، ولأنهم أيضاً باعتبارهم ضيوف المخزن كان الإنفاق عليهم من طرف السكان ، فلم يكونوا يريدون أن يثقلوا كاهلهم بتكاليف باهظة[52] .

رجال الأعمال : ـ كانت فاس تعرف كل سنة ، علاوة على السفراء ونوابهم ، عدداً مهماً من الزوار من بين رجال الأعمال ، من أبسط الممثلين التجاريين إلى السادة الأقوياء ، مثل آل مانسمان ؛ بعضهم تجار مقيمون بطنجة يأتون إلى فاس بانتظام للاتصال بالمسؤولين الأهالي ، مثل م . برونشڤيك ؛ وبعضهم يأتون من أوربا في رحلات تجارية كهذا الممثل لمعمل النسيج بسان ـ كانتن الذي أقام بفاس في مطلع سنة 1887 ، وبدا مغتبطاً جداً من الاستقبال الذي خصصه له وكيلنا القنصلي[53] . وابتداء من سنة 1900 تضاعف عدد هؤلاء المسافرين واستقبل مولاي عبد العزيز جميع أصناف الناس الراغبين في الربح السهل : كان أحدهم يرغب في إقامة يانصيب مغربي وحاول أن يغري بها بعض كبار رجال المخزن ؛ ويعدّ غيره مشاريع واسعة للسلف ؛ ويبتزّ آخرون من السلطان العصري طلبات لشراء آلات ، وأدوات سكة الحديد ، وآلات فطوغرافية ؛ وأخيراً كان لتجار الأسلحة الحربية دورٌ راجح .

---

(51) انظر دي أميسيس ، المرجع المذكور ، ويعترف أوبان من جهته (المرجع المذكور ص. 354) بأن المخزن حفي بضيوفه ، لكنه يشعرهم دائماً بتبعيتهم بسبب العديد من العراقيل لرغباتهم الحرة ، كمنعهم من الخروج من المدينة ، وحتى الخروج من الحي الذي يقيمون فيه أياماً عديدة ، على سبيل الأمن طبعاً . ويشير لوتي (المرجع المذكور ص. 254) إلى « هذه الرغبة في الذهاب . . . التي تصيب السفراء بلا ريب على ما يظهر ، عندما يقضون خمسة عشر يوماً بفاس » .

(52) يقدر أوبان (المرجع المذكور ، ص. 258) أن محادثاته هو ورفاقه كانت تكلف المخزن ، أي الفاسيين ، نحو 500 دورو في الشهر . ولم يكن إلا مكلفاً بالأعمال ، غير مصحوب بالعدد العديد من الأتباع الذين يكونون مع السفير ، ولا مُنْعَم عليه بمؤونة فاخرة كذلك . ويقدر كونت دو بويسوري نفقات سفارة متوسطة كسفارته بـ 1 500 فرنك في اليوم. وكان بعض موظفي المخزن يستفيدون من هذا المبلغ استفادة كبيرة (المرجع المذكور ص . 55) .

(53) رسالة 2 فبراير 1887 إلى وزير فرنسا بطنجة .

علماء وصحافيون : ـ كان من الطبيعي أن تجتذب فاس أيضاً علماء وفنانين كانوا يسافرون في مهمات دائماً تقريباً ، ويستفيدون من إعانة المخزن النظرية على الأقل . أذكر من بينهم المهندس دو كامبو المكلف من طرف الحكومة الفرنسية بالتنقيب عن المصادر المائية للمغرب ، الذي استفاد من سفره كتاباً قبيحاً جداً[54] ؛ وم . دو لامارتينيير ، وهو ديبلوماسي وأركيولوجي ، اجتذبته وليلي أكثر مما اجتذبته فاس[55] ؛ وم. أندري شڤرييون الذي لم تُنْسِ ملاحظات رحلته ملاحظات لوتي[56] ؛ والأستاذ موليبراس الذي اجتهد بدون جدوى في حمل علماء القرويين على اعتناق العقلانية[57] ؛ وم . شارل روني ـ لوكلير الذي يرجع إليه الفضل في إحصاء ثمين للنشاط الاقتصادي بفاس سنة 1904[58] ؛ وأخيراً أعضاء البعثة العلمية بالمغرب ، أمثال فومي ،وسالمون،وجولي ، ومرتان ، وميشو بـلّير الذين شرعوا في الاستغلال المنهجي للبلاد ، وتركوا أعمالاً جوهرية نشرت في **الوثائق المغربية** أو **مجلة العالم الإسلامي** .

ولا يسعني أن أنسى الصحفيين ، وربما كان أشهرهم و. هريس، مراسل التايمس ومؤلف كتاب **المغرب المختفي** ، من رواد فاس القدامى ، حيث جاءها لأول مرة سنة 1887[59] . أما سميّه لورانس هريس فقد اضطر الى مغادرة طنجة والتوجه إلى فاس في سرية تامة ، لأنه نظراً للاضطرابات السائدة آنذاك (1909) ، فقد منعه وزير بريطانيا العظمى من الخروج . ولما وصل بالسلامة نجح في الحصول على مقابلة من طرف السلطان مولاي حفيظ ، بل وعلى الترخيص له في رسم صورة السلطان الذي سرّ كثيراً بشدة الشبه ، فأحب الصحافي البريطاني

---

(54) لودوڤيك دو كامبو ، **أمبراطورية تنهار** ، **المغرب المعاصر** .

(55) هـ. دو . لامارتينيير ، **ذكريات المغرب** .

(56) أندري شڤريون ، **شفق الإسلام** ، **فاس** .

(57) أوكُوست موليبراس ، **فاس** .

(58) ش. روني ـ لوكلير ، **التجارة والصناعة بفاس** ، في **معلومات استعمارية** يوليوز ـ غشت ـ شتنبر 1905 .

(59) و. هريس ، **أرض سلطان إفريقي** ، انظر عن هريس ، ڤيير ، المرجع المذكور ص. 81.75 .

واحتفظ به قريباً منه عدة أسابيع[60] .

ويوجد أيضاً صنف المستكشفين والجواسيس السريين الذين يسافرون متنكرين ويجمعون معلومات عن البلاد : وذلك حال فيكومط شارل دو فوكو[61] ، والقبطان الأنجليزي كولفيل الذي كانت معه زوجته مرتدية مثله لباس الأهالي ، وقطعا معاً[62] في سنة 1879 ، المسافة من فاس إلى وجدة لجمع معلومات عن المغرب الشرقي .

وهناك أخيراً ، كما هو الشأن في كل مكان آخر ، سائحون عاديون يسافرون لمجرد المتعة ، مثل ابن عمٍ لنا خيَّم تحت أسوار فاس سنة 1911 ؛ وكان قاضياً بدولته ، واستعمل عطلة للتخييم بالمغرب المشتعل فتنة ! كم كان عدد المسافرين من هذا النوع الأخير ؟ ربما كان أكثر مما نظن ، لكن لم يبق أثر لزيارتهم .

لقد كان على الأوربيين المقيمين بفاس أو المارين بها فحسب ، أن يحلوا عدداً من المشاكل التي بقي علينا دراستها : السكنى ، والطعام ، والتسلية والعلاقات مع الفاسيين .

السكـــنى : ـ عندما يتعلق الأمر بسفير فإن مسألة السكن تسوى بدون صعوبة ، لكن ذلك كان الحالة الوحيدة . أما الأوربيون الآخرون ، ولو كانوا متقلدين مهام رسمية حاملين توصية للمخزن ، فإنهم يجدون صعوبة كبرى للعثور على سكن لائق . ولم يكن باستطاعتهم النزول بالفنادق ، وهي نوع من خانات القوافل لا يسكنها إلا البغالون والعمال الموسميون وَمَنْ هم في عداد المتشردين عندنا ، وسط دواب الركوب والمومسات . ومع ذلك فقد خاطر أحد الأتراك بنفسه فيها سنة 1892[63] : وهو ضابط مستقيل من الجيش العثماني كان راغباً في العمل

---

(60) ل. هويس ، مع مولاي حفيظ بفاس .

(61) ش. دو فوكو ، التعرف على المغرب .

(62) القبطان هـ. ا. كولفيل ، رحلة في بدلة خفيفة .

(63) رسالة وكيلنا القنصلي بتاريخ 4 ذي الحجة 30/1309 يونيه 1892 .

بالقوات المغربية ، لم يكن معه على ما يحتمل إلا قليل من المال ، ولم تكن له قطعاً أية علاقة بأحد ، فاستقر في البداية بفندق للبغالين قريب من باب عجيسة المعروف بفندق المصلوحي . ولا أعرف مثالاً آخر لمثل هذه الجرأة .

وكان أكثر الأوربيين الراغبين في التوقف بفاس يطلبون سكناً للمخزن بواسطة معتمدهم الديبلوماسي بطنجة . ولم يرفض المخزن قط طلباً ، الا أنه كان بحسب الظروف يهتم قليلاً أو كثيراً بالوفاء بوعوده المبهمة ، ولم يكن يجد في أغلب الأحيان ما يعرض إلا سكناً تافهاً ؛ وهكذا فإن النائب الأول لقنصلنا م . دو مارسيلي قاسى الأمّرين للحصول على منزل ، مثل كثير من رؤساء بعثتنا العسكرية[64] .

ويجب أن نوضح ، والحق يقالْ ، بأن المخزن نفسه كان يعاني من مشاكل عويصة ، لأن الملاكين الفاسيين لم يكونوا يتخذون أية مبادرة لتسليم منازلهم للنصارى ؛ ولا تفسر هذه القلّة في المبادرة فحسب بمسألة كره الأجانب التي لا جدال فيها والتي سأعود إليها فيما بعد ، وإنما تفسر أيضاً بكون المنازل الشاغرة حقيقة نادره . ويجب ألا ننسى أنه إذا كان السكان أقل بكثير مما هم عليه اليوم ، فإن المساحة المبنية كانت أيضاً أقل سعة . فمدينة فاس لم تجعل للأجنبي العابر السبيل ، نصرانياً كان أو مسلماً ، ولا تستضيفه إذا لم تكن له صلات بأهلها .

وقد يحدث أحياناً أن الملاّك يطلب داره بعد فترة من الزمن ، فيلتزم المخزن حينئذ أن يجد مسكناً آخر لضيوفه الأوربيين : وقد وقع ذلك للضباط الإيطاليين الأولين الساكنين بفاس : ففي سنة 1888 قام أولاد بنّاني ، الذين كان أولئك الإيطاليون يحتلون دارهم بدرب الزربطانة ، بطالبون بإفراغ ملكهم فشقّ على المخزن أن يجد حلاً بين مطالبة الملاّكين والاحتجاجات العنيفة للآخرين[65] .

---

(64) وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، هنا وهناك ؛ ف . هربيس هو أيضاً لقي صعوبات في العثور على مسكن سنة 1887 ؛ ويحكي بنكات مناقشاته مع باشا فاس في هذا الموضوع . (ص . 136 من أرض سلطان إفريقي) .

(65) رسالة معتمدنا القنصلي بتاريخ 8 صفر 14/1306 اكتوبر 1888 .

وكان بعض المسافرين ممن لهم علاقات ينجحون أحياناً في الاستغناء عن مساعي المخزن الحميدة : ففي سنة 1897 ، استطاع م . دو لامارتينيير الحصول على سكنى بفضل توصية أعطاه إياها شريف وزان لممثله بفاس[66] . وكذلك استفاد القبطان كولفيل سنة 1879 من مساندة القائد ماك لين[67] .

وكقاعدة عامة ، كان الأوربيون ينزلون إما في الأحياء العليا للمدينة (الدوح ، العيون) ، وإما في الملاح ، لأن اليهود المستنيرين ، بما لهم من العلاقات التجارية مع أوربا والرغبة في الحماية الأوربية ، كانوا يبدون أكثر ترحيباً من المسلمين . ومع ذلك فإن بعض القنصليات أقيمت في قلب المدينة وحسب روني ـ لوكلير[68]، فإن قنصليتي ألمانيا وبريطانيا العظمى كانتا توجدان سنة 1904 في حي باب سيدي بو جيدة ، بضواحي باب بني مسافر القديم[69] ؛ وفي سنة 1909 ، كان منزل المعتمد القنصلي للنمسا ـ هنغاريا ، م . لور في كُزام ابن برقوقة بحي المخفية[70] ؛ وفي سنة 1911 ، كان اليوطنان جوستينار ، وم . بيارناي ، وم . طرانشان دو لونيل ، يسكنون في حي الكدّان ، بين باب الفتوح وباب سيدي أبي جيدة[71] .

الطعام والصحة : ـ لم يكن الطعام دائماً موافقاً لذوق الأوروبيين وحتى هؤلاء الذين كانوا يتلقون« مونـة »[71م] فاخرة من سفراء وشخصيات رسمية ، كان

(66) رسالة نائب قنصلنا بتاريخ 29 شتنبر 1897 .

(67) **رحلة في بدلة خفيفة** ، ص. 119-120 .

(68) **المغرب الشمالي** ، ص. 123 .

(69) مارتان ، كدّان ، ص. 641 .

(70) وثائق مفوضية فرنسا بطنجة ، 1909 .

(71) تفضل الكولونيل جوستينار فأفادني بهذه المعلومات .

(71م) « المونة » الأولى التي قدمت لكولفيل (المرجع المذكور ، ص. 124) كانت مركبة من خروف واثنتي عشرة دجاجة ، وخمسة موائد (طيافر) مليئة بالزاد وعشر خبزات من السكر ، وعدة أرطال من الشاي الأخضر ، وعدة آصع من التمر والبيض والحلوى .

عليهم أن يتزودوا بكمية وافرة من الزاد[72] ، خاصة الخمر والماء المعدني ، لأن ماء فاس كان يعتبر بحق خطيراً للشراب . وفضلاً عن ذلك ، كان عليهم أن يتزودوا بأدوية تكون في حوزتهم ، لأنه لم يكن باستطاعتهم الحصول عليها في عين المكان ، وكانوا معرضين إلى الإصابة بحمى المستنقعات أو الإسهال ؛ وقد أصيبت زوجة القبطان كولڤيل سنة 1879 بنوبة حمى شديدةفاضطرزوجها إلى أن يدعو طبيباً مغربياً ليعالجها[73] ؛ وفي سنة 1894 لم يتمكن م.ساطـو من أن يباشر المفاوضات المكلف بإجرائها منذ وصوله ، لأن ترجمانه الأول م. دو ڤيسميس يونتيو سقط مريضاً بسرعة ولزم نقله[74] .

التسليات : ـ الأوروبيون بفاس الذين كان مسكنهم رديئاً وطعامهم زهيداً وهم معرضون للأمراض المحلية ، لم يكن لهم حتى ألهية يتسلون بها . فالسير للتنزه محدود جداً لأسباب أمنية[75] ، ونزهات الصيد من باب أولى وأحرى ، وليس هناك ما يقرأ إلا ما يحملونه من كتب ، ولا مقاهي غير خمارات الملاّح الكريهة ، ولا نساء غير مومسات الفنادق القذرات . ويحكي دو أميسيس أن أحد الخدم الإيطاليين في السفارة التي كان يصحبها رأى امرأة في حديقة ، وأراد أن يغازلها ، لكن أربعة من الرجال الأشداء انقضوا عليه بسرعة وكادوا يمزقونه لولا تدخل أحد الشخصيات المخزنية الذي كان هناك لحسن الحظ[76] . وليس ثمة نادٍ يمكن أن يلتقي فيه الأوروبيون ، ولم يكن لهم مكان مشترك غير المقبرة ، زد على ذلك أن علاقاتهم لم تكن ملائمة بينهم لأنهم كانوا من أجناس وأوساط اجتماعية مختلفة[77] .

---

(72) انظر ج. كايي ، مصاريف بعثة فرنسية بالبلاط المغربي سنة 1825 ، في هيسبريس ، العدد 30 ص. 166 .

(73) كورڤيل ، المرجع المذكور ، ص. 187 .

(74) مراسلة الدكتور ليناريس ، متمّ 1894 .

(75) انظر ما سبق ، ص 171 ، هامش 1 .

(76) المرجع المذكور ، ص. 318 .

(77) ومع ذلك نظم الأنجليز لعبة بولو (على متون الخيل) بل ودربوا عليها بعض الضباط المغاربة . انظر دو بويسوري ، المرجع المذكور، ص. 51 .

العلاقات مع الفاسيين : ـ كانت اتصالات الأوروبيين بالفاسيين تقتصر على الاستقبالات الرسمية والعلاقات التجارية ، لأن السكان على العموم كانوا غير مكترثين بهم أو كانوا معادين لهم . وكان عدم الاكتراث هو الغالب عموماً ، شريطة أن يكون الأوروبيون حذرين . والحال أنهم لم يكونوا دائماً كذلك : فقد كان طبيب إيطالي يدخن بالقيصرية أحد أيام رمضان ، وتسبب في حادثة كاد أن تكون لها أسوأ العواقب ؛ وعلى صعيد آخر أوشك السفير الأنجليزي شارل إيفان سميث مرتين أن يثير هياجاً شعبياً لكونه اتخذ إجراءات لرفع العلم البريطاني على نيابة القنصلية الانجليزية وهي ما تزال شبه رسمية[78]. وحتى دون رعونة من طرف الأوروبيين، كانت تتصاعد أحياناً ثورة التعصب الديني بفاس إلى درجة القتل. ففي سنة 1899، كاد يهودي من وهران كان يرتدي لباساً أوروبياً أن يهاجموه بالقيصرية لأنهم ظنوه « رومياً »[79] ، وفي سنة 1900 ، كان يهودي آخر متجنس بالجنسية الأميركية ومرتد كذلك لباساً أوروبياً ، يدعى ماركوس الصاغي ، قد تعرض للضرب من طرف أحد الأشراف عندما دفعه بدون قصد ؛ فأخرج مسدسه وقتل مهاجمه ؛ وثارت حينئذ ثائرة الجمهور الذي هيجه الخصام ، واندفع نحو اليهودي ،وحاصره في حانوت تمكن من اللجوء اليها ، ثم صرعه وأحرق نصف جثته ؛ وقد جرى ذلك في المكان المعروف بالسمّارين ، بالقرب من باب بو جلود الحالي[80] . وفي سنة1902 اغتيل كُوپير بدون أية إثارة[81]. وفي سنة1906 كان وصول ماء العينين وأصحابه راكبي الجمال المتغطرسين الذين يكيلون السباب للنصارى ، فأثار ذلك انتكاسة جديدة من التعصب الديني[82] . وقد اتخذ المخزن ـ عبثاً ـ إجراءات صارمة لم تمنع دائماً من وقوع الحوادث ، ولم تستطع على أي حال القضاء على كراهية الأجانب الغريزية

---

(78) انظر هـ. كوفوريـي ، تاريخ حياة مولاي الحسن ، في مجلة الوثائق المغربية ، العدد 8 ص. 330 -395 ، ومراسلة الدكتور ليناريس سنة 1892 .

(79) رسالة نائب قنصل فرنسا بتاريخ 10 فبراير 1899 .

(80) بادجيت ميكن ، المغاربة ، ص. 426 ، ومراسلة رسمية ، 1900 .

(81) انظر ما سبق ، ص. 164 .

(82) رسالة نائب قنصلنا بتاريخ 11 غشت 1906 .

عند الجمهور . وتتجلى هذه الكراهية في البصقات ، والشتائم ، والأغاني الهجائية كهذه التي يرويها أوبان[83] :

شيخ النصارى في الصنّارة .
شيخ اليهود في السفّود .
شيخنا في الجنة ، وحنا عليه شهود[84] .

كانت هذه المظاهر العدائية من عمل الأطفال والنساء والسوقة ، ويتصرف الأعيان بخلاف ذلك ، ولا يتركون هذه المدنيّة التي هي طابع البلاد المتحضرة . ويروي و. هريس أنه في يوم من أيام سنة 1887 أراد أحد مرافقيه شراء تطريز أعجبه كثيراً ، لكن التاجر اعتذر بأنه لا يمكنه أن يبيعه إياه لكونه شريفاً ، ولا يستطيع بهذه الصفة أن يتاجر مع النصارى ، لكنه جامله قائلاً : « لا يمكنني أن أبيع للنصارى ، ولكن يمكنني أن أشرب القهوة معهم » . وأمر في الحين بإحضار القهوة . وقد أرسل إليه الأنجليزي هدية ليشكره على صنيعه معه ، ومع ذلك أخذ كل منهما يسلم على الآخر في الطريق وكأنهما صديقان . وعندما غادر الأنجليزي فاساً أرسل إليه الشريف سلة من التمر لتوديعه[85] . وإذا رجعت إلى تجربتي الشخصية فإنني أجدني متأكداً بأن هذه العملية لم تكن وحيدة .

ولم يكن اليهود في البداية على الأقل أحسن تصرفاً بكثير من المسلمين ؛

---

(83) المرجع المذكور ، ص. 355 .

(84) انظر هذا المثل الآخر الذي ذكره برونو و إ. مالكا في **نصوص يهودية ـ عربية بفاس** ، (ص. 93/394) :

ليهُودْ فالسّفُّود
والنّصارى فالسّنّارة
والمسلمين فالْيَاسمين

(85) و. هاريس ، **أرض سلطان إفريقي** ، ص. 137 . وانظر أيضاً لوتي ، المرجع المذكور، ص. 249 : بينما كان ينظر طيوراً في وكناتها بأبراج باب دكاكن ، جاءه ثلاثة شيوخ كانوا مارين وقدموا إليه شروحاً حبية .

ففي سنة 1898 كادوا أن يمزقوا سويسرياً أنشأ مؤسسة صناعية بالملاّح[86] ؛ ورفضوا بإصرار سنة 1896 أن يتركوا أحد الإسبانيين يدفن في مقبرتهم ، بدعوى أنه لم يمت داخل الملاح[87] . ومع ذلك فلا بد من الإضافة بأن عداءهم زال أسرع بكثير من عداء المسلمين ، ومنذ سنة 1900 لم يعد يسجل عندهم أي حادث من هذا النوع .

وباختصار ، فإن حياة الأوروبيين بفاس لم تكن مرحة جداً ، والعكس كان غير متوقع . فعندما غصت في المدينة لأول مرة ، سنة 1928 ، كشاب سائح ، كنت أحس بشعور مضن بالعزلة وبالغربة التامة . وكنت أمثل عمل جسم غريب في وسط حيوي يمكن أن يبتلعني ويهضمني دون أن تسبب حالتي أقلّ رد فعل في هذا الجهاز العضوي المخالف لي تماماً . زد على ذلك أن هذا كان يقع في مدينة مألوفة مجهزة بجميع وسائل الراحة التي يمكن أن يتمناها المرء . وكم كان هذا الشعور أقوى وأكثر تبريراً عند الأوروبيين الذين يتسللون إلى فاس قبل الحماية[88] ! . هذه المدينة الغنية جداً بالمادة البشرية والحضارية التي تقر العين بالنظر إلى حيويتها لا تُكَلِّف نفسها للأجنبي الذي يخاطر بنفسه فيها ، فهي في غاية التسامي والوثوق من تفوقها وشخصيتها بحيث لا تنزل إلى التحبب إلى الناس ؛ ولا بد من أخذها مع صرامتها وقسوتها ومقابلتها الباردة الأولى ؛ فإنها لا تفتح لك كنوز مجاملتها ولطافتها إلا إذا أحسنت الوصول إليها[89] . وقد قام فيها أوروبيو ما قبل الحماية بتجربة متعبة .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف أن جوّ فاس قد تغيّر كثيراً في أواخر عهد استقلال المغرب ؛ فبشهادة الكولونيل جوستينار الذي وصل إلى فاس في ربيع سنة

---

(86) انظر ما سبق ، ص. 165 .

(87) مراسلة نائب قنصل فرنسا بفاس سنة 1896 .

(88) عانى لوتي نفسه، ولو أنه عابر لم يقم غير بضعة أيام ، من هذا الإحساس (المرجع المذكور ، ص. 143) .

(89) انظر لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 231 : « ومن جهة أخرى ، فإن جميع السرّ الخفي والكآبة التي تظهر لأول وهلة كأنها تلف الأشياء ، تسقط بسرعة لمجرد ما يألف المرء مظاهرها . . . يدعوني بعض التجار دائماً عندما أمر بهم إلى الجلوس عندهم» .

1911 ، كضابط في البعثة العسكرية[90] ، كان الأوروبيون ، والضباط منهم على الأقل ، يجدون السكن بدون مشقة ، ويستطيعون بسهولة أن يأمروا بتهييىء أطعمة تناسب أذواقهم ، ويخدمهم أصحاب يرضون بأجر زهيد ويشتغلون بإخلاص ؛ وكانت الأسعار رخيصة ، والفاسيون ملاطفين . ويجب ألا ننسى أن الناس كلهم في ذلك الوقت كانوا يعرفون بأن فرنسا قد ربحت الرهان ، وأن الفاسيين بخوفهم من القبائل المتمردة كانوا يتمنون التدخل الفرنسي ، فقد بدأ شهر العسل .

المحميون ومستخدمو المؤسسات التجارية الأوروبية : ـ يمكن أن يُتوهم ، من قراءة ما سلف ، أن الأوروبين في ذلك الوقت كانوا إجمالاً يعيشون عيشة ضنكاً على حدة في ضيق وحذر شديدين ، لا تأثير لهم في الحياة العميقة للحاضرة الإسلامية ؛ ويكون ذلك تجاهلاً لأهمية ودور المحميين ومستخدمي المؤسسات التجارية الأوروبية[91] .

إن اتفاقاً أُبرم في 9 ديسمبر 1856 بين بريطانيا العظمى والمغرب ، وآخر فرنسياً ـ مغربياً أدق أُبرم في 17 غشت 1863[92] ، متبوعين باتفاقات أخرى من نفس النوع بين المغرب ومختلف الدول المعنية بالأمر ، أكّدت الحماية الأوروبية بالمغرب التي أثبتها اتفاق برونيون عام 1767 . وقد تناول هذه المسألة وزادها إيضاحاً معاهدة مدريد بتاريخ 3 يوليوز 1880[93] . وانطلاقاً من هذه الفترة كان هنالك ثلاثة أصناف من المغاربة المحميين :

---

(90) أشكر م . الكولونيل جوستينار على تفضله بإطلاعي على بعض ذكرياته عن فاس سنة 1911 ، ويفضله عرفت كيف أن هذه المدينة ، التي كانت في غاية الكراهة قبل سنوات قليلة ، أصبحت جذّابة جداً منذ بداية الحماية . وقد أسهم رجال أمثاله في هذا التحوّل . وقد تلقيت شهادة من هذا القبيل من طرف م . و . سودان ممثل الشركة المغربية بفاس من 1906 إلى 1914 الذي أعبر له هنا عن خالص امتناني .

(91) انظر عن الحماية (القنصلية) ل . مارتان ، نظام الحماية بالمغرب .

(92) انظر ب . ل . ريڤيير ، المعاهدات ، والقوانين والشرائع بالمغرب ، جزء 1 ، ص . 36 و 59 .

(93) انظر الوثائق الدبلوماسية . مسألة الحماية الدبلوماسية والقنصلية بالمغرب .

1 ـ المحميون الدبلوماسيون ، أي مستخدمو القنصليات ، وكان عددهم محدوداً جداً ؛ فكانت الحماية الأوروبية تمتد إلى أقربائهم لكنها لم تكن وراثية ؛ وكانت تعفيهم من جميع الضرائب والرسوم[94] .

2 ـ مستخدمو المؤسسات التجارية الأوروبية ، ولم يتجاوز عددهم مبدئياً اثنين لكل مؤسسة. كانوا يدفعون مبلغ ضرائبهم للقنصل الأوروبي التابعين له ، ولم يخضعوا لأي رسم استثنائي[95] .

3 ـ المشاركون الفلاحيون أو خدام المحميين، الذين لا يمكن إلقاء القبض عليهم أو إحالتهم على العدالة ، دون أن يُشْعَر مسبقاً القنصل التابعون له[96] .

وهكذا نرى أن الأوروبيين كانوا يتدخلون في الحياة العادية لمدينة مثل فاس ؛ وبفضل تدخل القناصلة الأوروبيين ، حصل المحميون أومستخدمو المؤسسات التجارية الأوروبية شيئاً فشيئاً على عدة إعفاءات مالية ؛ وذهب بعضهم حتى إلى عرض خدماتهم على مغاربة آخرين لتخليصهم من أداء واجبات السوق مثلاً[97] .

واستناداً إلى تأييد الدول العظمى لهم ، كانوا يخلقون صعوبات في تأدية الغرامات الاستثنائية التي كان يفرضها المخزن أحياناً[98] . فلم يكن للقناصلة وحدهم الحق في إبداء الرأي ، ولكن كذلك للأوروبيين المقيمين بالمغرب ، الذين كانوا يكوّنون لأنفسهم بهذه الطريقة بعض الزبناء ويحملون موظفي المخزن على أن يُعدُّوا معهم .

وكان عدد الشركاء الفلاحيين بفاس قليلاً ، لأنهم بحسب التحديد كان

---

(94) اتفاقية مدريد الفصل 2 إلى 8 .
(95) نفس المرجع ، الفصل 10 .
(96) نفس المرجع ، الفصل 12 و 13 .
(97) رسالة وكيلنا القنصلي بفاس المؤرخة في 14 رمضان 12/1309 أبريل 1892 .
(98) النشرة السياسية العشارية لناحية فاس ، 2 اكتوبر 1912 .

معظمهم قرويين ، لكن المحميين ومستخدمي المؤسسات التجارية الأوروبية كانوا كثيرين . وغير خاف أن هذه الوضعية كانت مرغوباً فيها جداً نظراً للمزايا المتعددة التي كانت تضمنها[99] . إلا أن المنتخَبين كانوا قليلين ، لأن البعثات الدبلوماسية كانت مقيَّدة باتفاقية مدريد التي تنصّ على ألا تُمنح صفة مستخدم أو محميّ إلا بعد بحث جدي وتحت شروط معيّنة : فزيادة عن الشروط العامة المذكورة في المعاهدات ، كان على الطالب أن يبيّن بأنه ليس موظفاً شريفيًا ، وليست له أية دعوى معلقة أمام المحاكم المغربية ، وأن له بالتالي سمعة حسنة[100] . ويبدو أن هذه الشروط احتُرمت بدقة من طرف البعثة الفرنسية على الأقل .

وفي سنة 1889 ، كانت الوكالة القنصلية بفاس قد سلّمت بطاقتين لمحميّين وخمس بطاقات لمستخدمين (أربعاً ليهود وواحدة لمسلم)[101] ، وفي سنة 1906 ، سلّم نائب القنصل بفاس بطاقتين لمحميّين وست بطاقات لمستخدمين (خمساً لمسلمين وواحدة ليهودي)[102] ؛ وفي سنة 1911 ، سُلِّمت خمس بطاقات لمحميّين ، اثنتان منها ليهوديين ، وخمس وعشرون لمستخدمين ، أربع منها ليهود[103] .

المتجنســـــون : ـ كان يوجد بالإضافة إلى بعض المتجنسين، تجار قد أقاموا مدة طويلة بالبلاد الأجنبية ، واتخذوا جنسية البلاد التي كانوا يعيشون فيها تسهيلاً لعملياتهم التجارية . وكان الأمر يتعلق خصوصاً بالتجار المقيمين بالجزائر او السينغال الذين كانوا يتمتعون بالجنسية الفرنسية ؛ وقد رأيت مثلاً ، نسخة من مرسوم يتعلق بتجنيس المدعو الحاج الزبير بناني ، التاجر بوهران

(99) انظر شفريون ، المرجع المذكور ، ص. 110 .

(100) رسالة الوكيل القنصلي الفرنسي بتاريخ 4 محرم 10/1309 غشت 1891 .

(101) نفس المرجع ، رسالة بتاريخ 9 ذي القعدة 7/1306 يوليوز 1889 .

(102) تقرير نائب قنصل فاس بتاريخ 8 ديسمبر 1906 .

(103) تقرير قنصل فاس بتاريخ يوليوز 1911 .

الذي أصبح فرنسياً سنة 1892[104] . وكان بفاس سنة 1889 ، خمسة متجنسين ، أربعة منهم مسلمون وواحد يهودي[105] . وكان جلّ هؤلاء المتجنسين يتخلون عن حقوقهم كأجانب عندما كانوا يعودون إلى المغرب ليعيشوا فيه ؛ وقليل منهم من كانوا يصرّحون بها لدى قنصليتهم . والدليل على ذلك هو الأرقام التي قدمتها آنفا . ومن جهة أخرى فقد كانت اتفاقية مدريد تفرض عليهم استرجاع الجنسية المغربية أو مغادرة البلاد إذا ما « قضوا مدة موازية للمدة التي تكون قانونياً ضرورية للحصول على التجنيس »[106] .

الجـزائـريـون : - وزيادة على هذا ، فكان للتمثيلية الفرنسية بفاس تلقائياً الحق في القضاء بين الجزائريين المستقرين بالمدينة الذين يصرحون بأنهم يعتبرون أنفسهم كرعايا فرنسيين . والحقيقة أن جلّ هؤلاء الجزائريين ، الذين هاجروا فراراً من الاستيلاء الفرنسي ، لم يحاولوا الاستفادة من هذه الوضعية ذات الامتياز ؛ وسُجل من أرباب الأسر سبعة عشر بنيابة قنصليتنا سنة 1901[107] ، وعشرون سنة 1906[108]، وسبعة وعشرون سنة 1911[109] .

وبالجملة فقد كان لفرنسا الحظ الأوفر من زبناء مدينة فاس ، بما فيهم محميّون ومستخدمو المؤسسات التجارية الأوروبية ، ومتجنسون وجزائريون ؛ وبسبب هذا كانت تؤثر في الحياة اليومية للحاضرة تأثيراً لم يزل بعد ضعيفاً ، لكنه كان من الضروري إبرازه .

---

(104) انظر وثائق الكتابة العامة لناحية فاس : دراسة حول مدينة فاس ، بتاريخ 1931؛ (رقم 1823 إدارة الشؤون الأهلية - 3) وابنه الآن موظف ببنك الدولة المغربية بفاس (المدينة) .

(105) المرجع المذكور ، 7 يوليوز 1889 .

(106) اتفاقية مدريد ، الفصل 16 .

(107) رسالة نائب القنصل بفاس ، بتاريخ . 9 ديسمبر 1901 .

(108) نفس المرجع ، 8 ديسمبر 1906 .

(109) تقرير قنصل فاس ، يونيو 1911 .

الفصل الثالث

3/3

المعتنقون للإسلام

لقد كوّن المعتنقون للإسلام لمدة طويلة صنفاً لا بأس به من سكان فاس . وكلما تقلصّت حرب القرصنة ، لا سيما بعد غزو الجزائر ، كلما انخفض عددهم جدا إلى أن انقرضوا .

عبد الرحمن دي سولتي : - إلا أنه كان مع ذلك يوجد البعض منهم في أيام مولاي الحسن . فقد تحدث مؤلفون كثيرون عن عبد الرحمن دي سولتي(110): وكان ضابطاً للهندسة بالجزائر سنة 1832 ؛ وساقته مغامرة غرامية إلى تونس أولاً ، ثم إلى المغرب حيث انخرط في خدمة السلطان مولاي عبد الرحمن في الجيش الشريف . وقد كُلِّف أولاً بتحسين الطريق الرابطة بين فاس ومكناس ، ثم حاول أن ينظم فيلقاً للمدفعية والهندسة بمساعدة بعض الفرنسيين الذين هربوا من الجندية أو كانوا أسارى . وفي سنة 1844 ، بذل جميع جهوده لردّ الملك عن دخوله في الحرب ضد فرنسا ، منبئاً ، من جملة أدلّة ، بانهزام الجيش المغربي ؛ فحكمت له واقعة إيسلي وزادته اعتباراً . فكُلِّف حينئذ بأشغال هامة : فهو الذي حوّل مجرى واد فاس ، وأنشأ مشور باب بوجات ، وساحة للعرض العسكري في نحو أربعة هكتارات قام فيها الجيش المغربي منذ ذلك العهد بالمناورات ؛ وهو أيضاً الذي بنى بعض

(110) انظر لامارتينيير ، المرجع المذكور ، ص. 184 ؛ شارمز ، المرجع المذكور ، ص. 122 .

الجسور التي ما زالت مستعملة في الطريق بين فاس ومكناس ، وكذلك قنطرة واد مكّيس في طريق طنجة ؛ وأخيراً أسندت اليه أشغال متعددة في قصر فاس وأقام به عدة ساعات شمسية ، ومات سنة 1879 ودفن في مقبرة سيدي أبي بكر (ابن) العربي[111] .

العسكريون : - إنه أشهر المعتنقين للإسلام ، لكن كان هناك آخرون يقارب عددهم الثلاثمائة في المغرب بكامله ، حسب دو أميسيس[112] ؛ وكان من بينهم على الخصوص إسبانيون فروا من سجون بلادهم ، وفرنسيون هربوا من جيش إفريقيا : كانوا يعتنقون الإسلام شكلاً ويُرغَمون على الزواج والخدمة في الجيش الملكي الذي كانوا يتقاضون فيه أجرة زهيدة بصفة عامة ، من خمسة فلوس إلى فرنكين اثنين في اليوم حسب درجتهم ؛ وكان معظمهم يعملون في المدفعية[113] وبعضهم في الموسيقى . وبالرغم على اعتناقهم الإسلام وزواجهم ، فإنهم لم يكونوا مزكّين من طرف السكان الذين كانوا يعتبرونهم في الواقع كمسيحيين ؛ وغالباً ما كان أبناؤهم أنفسهم يكنون لهم الازدراء والكراهية .

ولهذا كانوا يندمون دائماً تقريباً على مجيئهم إلى المغرب ؛ ومع ذلك فإن بعضهم ، أمام أوروبي على الأقل ، كانوا يتظاهرون برضاهم التام جداً بمصيرهم وقطع كل صلة مع ماضيهم . وقد دخل دو أمسيس ذات يوم في حديث مع فرنسي كانت له درجة توازي درجة نقيب ؛ كان في المغرب منذ 1869 تقريباً ويدعي أنه مرتاح ، إذ بالاضافة إلى مهامه العسكرية ، كان « يزاول صناعة صغيرة » ، مثل الكثير من هؤلاء المعتنقين للإسلام ، ويعيش عيشة راضية . فأخبره دو أمسيس بحرب 1870التي كان يجهلها وبهزيمة فرنسا : ففي لحظة واحدة عاوده الحنين إلى الماضي واخترق نظره وميضُ انفعال ،

---

(111) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 266 .

(112) المرجع المذكور ، ص. 266 .

(113) انظر ري ، ذكريات رحلة بالمغرب ، ص. 135 .

لكنه سرعان ما انضبط وتكلم في موضوع آخر .

وفي سنة 1895 كانت بعثتنا العسكرية ما تزال تذكر بفاس إسلامياً اسمه فيّول ـ عبد الوهاب : وكان من آخر عينات جنس في طريق الانقراض . ومن جهة أخرى ، فإن المخزن ، منذ إدخال البعثات العسكرية ، لم يعد يقدم على تجنيد المعتنقين للإسلام . كان يسلم الهاربين من الجندية إلى السلطات الفرنسية عندما كانوا يأتون من الجزائر[115] .

وهكذا لم يعد المعتنقون للإسلام في العهد الذي نحن بصدده ، سوى مجرد ذكرى واختلط عقبهم بالجمهور المغربي ، دون أن يمكن تمييزهم من بينهم .

(115) هكذا وجد مولاي الحسن خمسة هاربين فرنسيين في تافيلالت عام 1893 . فأمر بالقبض عليهم لتسليمهم إلى المفوضية الفرنسية بطنجة . مراسلة الدكتور ليناريس ، الشهور الثلاثة الثانية عام 1893 .

الفصل الرابع

4/3 الجمَاعـة اليهوديـة (116)

إن هذه المجموعة البشرية التي كانت تعيش على هامش الحاضرة ، منطوية على نفسها ، لم تكن لها وحدة الأصل التي يمكن افتراضها . وفعلاً ، فلا بد من أن نميز فيها بين أربعة عناصر مُركّبة ، على الأقل :

1) اليهود المقيمون في المدينة منذ تأسيسها والمذكورون في روض القرطاس(117) وهم مجهولـو الأصل . هل كانوا يهودا نزحوا من فلسطين أو بربرا متهوّدين ؟ وحيث إننا لا نعرف عنهم سوى وجودهم دون إيضاح آخر ، فإننا نقتصر على افتراضات اعتباطية في حقهم .

2) برابرة متهوّدون ليس لهم أسماء عائلية وإنما يُدعون بأسمائهم الشخصية وأسماء آبائهم ، مثل رفائيل بن ميمون . وما زال لبعضهم الشكل الجسدي لبعض الجبليين . ولعلهم امتزجوا مع الأولين حتما .

---

(116) انظر عن اليهود بالمغرب وبفاس بالأخص : ن . سلوش ، **دراسة حول تاريخ اليهود بالمغرب** ، القسم الثاني ، **في وثائق مغربية** ، عدد 6 ، ص. 1. 167. برونوومالكا ، **نصوص يهودية عربية بفاس** ؛ أوبان المرجع المذكور ، ص . 356 -382 ؛ كْايار ، المرجع المذكور ، ص. 91.90 - 104.101 ؛ج. س. كولان ، مادة **ملّاح** في دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 3 ص. 523 . كما أنني مدين جداً للمعلومات الشفوية التي تفضل م . يهودا بنسيمحون بتزويدي بها ، فأرجوه أن يجد هنا عبارة امتناني الحار .

(117) ص 24 .

3) يهود جاؤ وا من إسبانيا أيام استرجاعها وطُرد اليهود منها من طرف الملوك الإسبانيين في القرن السابع عشر . وما زال الكثير منهم يحملون ألقاباً إسبانية ، أمثال طوليدانو ، ومونسونيكُو ، ومانسانو ، ومرسيانو ، وأزويلوس ، إلخ . . . وهم كثيرون جداً بملّاح فاس . فهذا العنصر إذن حديث نسبياً ، ويبدو أنه كان هو أهم العناصر ، إذ رجحت الطقوس الإسبانية في الحياة الدينية إلى درجة أن بيعة واحدة فقط تحمل الاسم النموذجي لبيعة الفاسيين هي التي بقيت وفية للطقوس القديمة ؛ ومن جهة أخرى فإن هؤلاء اليهود الإسبانيين قد مارسوا اللغة الإسبانية مدة طويلة : يشير دو أمسيس إلى أن نساء بعض العائلات ما زلن يتكلمن بها بطلاقة في عهد مولاي الحسن[118] .

4) وأخيراً يهود من سوس ، استقبلهم مولاي إسماعيل بفاس في أوائل دولته[119]، وآخرون من تادلا جاؤوا في عهد مولاي رشيد سنة 1673[120] .

إن المساكنة الطويلة الوثيقة ، والمصالح والمخاوف والمخاطر المشتركة لم تلبث أن محت هذه الاختلافات في الأصل ويمكن القول إن الطائفة اليهودية كانت حقاً المجموعة الأكثر تجانساً بفاس في أوائل القرن العشرين .

فهؤلاء القوم الذين كانوا يعيشون سجناء في نطاق ضيّق ، ويتزوجون فيما بينهم دون أن تكون لهم أية علاقة تقريباً بالخارج ، ويقطنون في مساكن غير صحية في أغلب الأحيان، مرغمين بالقضاء والقدر على اختلاط مؤلم،لم يكن في استطاعتهم أن يعرفوا نشاط توازن جسماني جيد . لا يمكن اليوم للشبان اليهود الذين يترددون على الملعب الرياضي والمسبح أن يكوّنوا فكرة عما كان عليه أجدادهم يوم كانوا في سنهم ، لم يكن لهم ولو وسيلة

---

(118) المرجع المذكور ، ص. 236 .

(119) سلوش ، نفس المرجع ، ص. 154 .

(120) د. سماك ، تاريخ ، ص. 83 .

الحمّامات ، لأن المسلمين لم يكونوا يسمحون لهم ببناء حمّام دافىء[121] ؛ وبذلك لم يمتلكوا سوى حمّامين باردين بالدرب الفوقي ، في الحي المرغوب فيه أكثر[122] . وكانت الطبقة الدنيا تتعاطى أحياناً الرياضة في مساحة تُركت فارغة في المقبرة ، ويذهب الأعيان في بعض الأحيان ليتنزهوا في فصل الربيع على ضفاف واد فاس أو في حدائق دار دبيبغ[123] ، لكن ذلك لم يكن سوى أحداث عارضة ونادرة في حياة جسمانية هزيلة .

لذلك لا يمكننا أن نتعجب مما كانت تحدثه الأوبئة من فتك ذريع بملاّح فاس : فقد خلّف وباء 1901 (وهو التيفوس أو الحمى الخبيثة) ـ حسب ما قيل ـ 3.000 وفاة في ظرف أربعة أشهر[124] . وفي السنوات المعتدلة كانت الوفيات عند الصبيان مرتفعة جداً في الصيف . لذا كان المتطببون كثيرين ؛ منهم أولاً سحرة وسيميائيون ، وكل من كانوا يزعمون امتلاك التقاليد الطبية والصحية اليهودية ، لكن كان هناك أيضاً أطباء : ففي 1888 كان « طبيب الطائفة الإسرائيلية بفاس » يعطي شهادة طبية باللغة الإسبانية في قضية ضرب وجرح[125] وبعد خمسة عشر عاماً كان في سنة 1903 أربعة أطباء يقيمون بالملاّح ، وكلهم على الديانة اليهودية : إسباني ، وهو إبرهام أُمْسيلي ، وتركي هو سلومون كوهن ، وروسي ، هو سلومون شَابِيرًا ، وفرنسي هو مخلوف أمسلّم[126]؛ كما كان منهم مَنْ أصله ألماني[127]. وكان هؤلاء الأطباء

(121) انظر باكينيون ، **بعض الوثائق عن وضعية اليهود بالمغرب** ، في **مجلة العالم الإسلامي**، عدد 9 ، ص. 112 -123 ؛ ولوكْلي . **موت الروكْي** ، ص. 67 .

(122) انظر ما سبق الكتاب 2 ، الفصل 1 .

(123) معلومات يهودا بنسيمحون .

(124) أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 367 .

(125) وثائق طنجة ، المال القديم ، الفرع 16 ، رسالة بتاريخ 25 ربيع الأول 29/1306نوفمبر 1888 .

(126) سيرديرا ، **تقرير عن فاس** ، ص. 32 .

(127) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 376 .

يعملون في ذات الوقت كصيدليين ويحصلون من أوروبا على بعض الأدوية البسيطة(128) .

إلا أن الحياة اليومية لم تكن شاقة كما كان يمكن أن يُتصوّر : إذ كانت العادة تمنع اليهود من أن ينتبهوا إلى رائحة الجيف المتراكمة تحت جدرانهم والأزبال التي تسد أزقتهم(129) ؛ وتجعلهم العادة أيضاً يتحملون ذلك النوع من الانحباس الذي كانوا يعيشون فيه . وكانوا يشعرون ، في داخل حيّهم ، بانطباع أمن أكثر من انطباع احتجاز عندما كان يحميهم ، في المساء ، بابهم الموصد بشدة وأسوارهم الشاهقة . وعندئذ كان جمهور لجبٌ يملأ الزقاق الكبير الذي كانت تضيئه ، عندما يأتي المساء ، بعض مصابيح الغاز ، وكان ذلك ترفاً غير معروف في المدينة القديمة ؛ وكانت السطوح تمتلىء بالرجال والنساء الذين يستنشقون الهواء عند غروب الشمس ؛ وفي عشية يوم السبت ، يذهب أفراد الأسر وقد أخذوا زينتهم للتفسح في المقبرة ، وهو الحيّز الوحيد المكشوف في الحي .

كان جميع يهود فاس يسكنون الملاّح وكانوا وحدهم فيه بالفعل ، لأنه ينبغي ألا نعتبر إلا قليلاً من الأوروبيين من أصل وضيع حصلوا على سكنى فيه . فلم يكن يعيش فيه أي مسلم فحسب ، ولكنَّ الوافدين عليه منهم كانوا قليلين على العموم : لم تجتذبهم إليه سوى التجارة أو الملذات السهلة المحرمة ؛ ويمكن التأكيد بأن قسماً وافراً من مسلمي فاس لم يدخلوا قط إلى هذا الحي(130) . لذلك كان اليهود بالملاح في محلهم وفي حمى من كل تنكيد

---

(128) معلومات م . يهودا بنسيمحون .

(129) انظر هريس ، بلاد سلطان إفريقي ، ص. 131 وروني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ص. 149 .

(130) لقد تغيّرت هذه الحالة في اليوم الذي أصبح الزقاق الكبير للملاح الطريق الرئيسي الرابط بين الأحياء الإسلامية والمدينة الأوروبية ؛ ومنذئذ جعل كل الشعب الصغير الكادح بفاس الجديد وكذا الكثير من أهل المدينة يدرجون كل يوم في وسط اليهود . وبالعكس من ذلك ، تدفق اليهود ، الذين كانوا في ضيق بحيهم ، على المدينة الجديدة ، وأيضاً على الأحياء المجاورة لفاس الجديد (الزبالة) ولبو طويل ، وسيدي بونافع .

وكل تعسف بصفة عامة[131] . إلا أن الأشياء كانت تتغير عندما يخرجون منه : كانوا أولاً يرتدون بذلة متميزة مؤلفة من طاقية سوداء ، وجلباب أسود ، ونعال سود[132] . بالإضافة إلى أن عليهم ألا يمتطوا إطلاقاً بغلة، وأن يخلعوا نعالهم أمام السلطات الإسلامية (من سلطان وباشا وقاض)[133] وكذا عند مرورهم بالمساجد والأماكن المقدسة . وأخيراً فإنهم غالباً ما كانوا عرضة للسخريات والتنكيدات : وهناك ألعوبة معروفة جيداً عند أولاد السوقة بفاس الجديد ، وهي أن تُطرح على أرض طاقية يهودي ويُرغم على دوسها برجليه وهم يصيحون : « اقتل العقرب ! » . ويكيلونه سباباً وهزءاً[134] كان ذلك مؤلماً وسخيفاً ، لكنه لم يكن خطيراً ؛ كان السوقة من المسلمين يندفعون أحياناً الى أعمال عنف أكثر خطورة تؤدي إلى مقتل إنسان[135] أو قد تتحول إلى مجزرة حقيقية ، كما حدث في أبريل1912 .

كانت هذه الحوادث أقل وقوعاً مما يقال ، وبقيت من صنع الطبقات الدنيا ، لا سيما منها طبقة فاس الجديد ؛ إلا أنه كان يتفق أن يقع إزعاج الصناع اليهود ممن كانوا يشتغلون بفتل الحرير في حي الطالعة ؛ فكان اليهود يدركون أن العاصفة تدوّي فيمكثون في الملاح بضعة أيام[136] . أما بين البرجوازيين والمثقفين لكلتا الديانتين ، فكانت العلاقات حسنة ، تتجاوز

---

(131) سأبيّن في الكتاب التالي أنهم كانوا يتوّلون تدبير شؤونهم بأنفسهم ، تحت المراقبة الهشّة للسلطات الإسلامية .

(132) انظر عن لباس اليهود ، برونوومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 239 -241 . ويرتدي اليهود واليهوديات الآن اللباس الأوروبي أكثر فأكثر .

(133) نفس المرجع ، ص. 225 ، الفقرة 8 .

(134) ميطرودي لاموط ـ كابرون وطرينكا ، المرجع المذكور ، ص. 25 (الهامش) .

(135) فمثلاً ، عام 1886 تشاجر مسلم ويهودي ؛ وجرح اليهودي خصمه بضربة سكين ؛ وفوراً هجم أهل فاس الجديد على الملاّح ؛ واتخذ المخزن إجراءات سريعة واجتنب المذبحة ؛ لكن جُرح أحد عشر يهودياً وألقت عدة يهوديات ما في أرحامهن قبل الأوان (رسالة وكيلنا القنصلي بتاريخ 23 شعبان 27/1303 ماي 1886) .

(136) معلومات م. يهودا بنسيمحون .

أحياناً نطاق الاتصالات المهنية ، حيث كان يستدعي بعضهم بعضاً من الجانبين . وكان المخزن ينظم عادات المجتمع بمنحه اليهود حماية فعالة . إلا أن بداية دولة مولاي حفيظ طُبعت بالرجوع إلى النظام القديم للأعمال المرهقة والعقوبات البدنية بالنسبة لبعض المحترفين الذين كانوا يعملون بالقصر كالغرّاسين والجزّارين[137] .

وعلى كل حال ، فإن يهود فاس ، الذين سأدرس فيما بعد حياتهم الاجتماعية ودورهم في النشاط الاقتصادي للحاضرة الإدريسية[138] ، كانوا يعيشون منزوين جداً ويُعامَلون من عدة وجهات نظر كسكان أجانب . إنهم كانوا يعيشون أحراراً في حيهم لكنهم كانوا في ضيق شديد وظروف صحية سيئة جداً ؛ وبمجرد ما كانوا يخرجون ، كانوا يعتبرون سافلين خاضعين لبعض التعسفات المهينة ومعرضين أحياناً لاستفزازات خطيرة .

---

(137) تقرير مدير مدرسة الاتحاد الإسرائيلي والربّيين الأكرين بفاس ، بتاريخ 15 أكتوبر 1909 .

(138) انظر ما سبق الكتب 5 ، 7 ، الفصل 8

5/3

الفصل الخامس

تعمير فاس الجديد(139)

لعل هذا الجانب من فاس هو الذي تغير أكثر منذ الحماية : فأصبح فاس الجديد اليوم حياً مزدحماً مختلطاً يتساكن فيه بدون اصطدامات كثيرة أوروبيون من مرتبة صغيرة، ويهود في المنطقة المجاورة للملاح، وجزائريون، وعمّال جاؤوا من كل جهات المغرب وخاصة من الجنوب ، وحتى بعض أعقاب أُسر مخزنية وقبائل الجيش القديمة ؛ ويؤوي حي مولاي عبد الله الذي أصبح الحي الرسمي للبغاء ، زيادة على ذلك ، مغاربة من أصل وضيع ومن مختلف الأوساط . كل ذلك يكون تكتلاً خليطاً لكنه في غاية الحيوية بشكل لم يسبق له مثيل .

لم يكن فاس الجديد ، قبل إقامة الفرنسيس سوى قاعدة عسكرية وحاضرة مخزنية ؛ وقد استمرت حاضرة المخزن ودار المخزن والقصر على أي حال ، بينما تحوّلت تحوُّلاً كليّاً .

لقد ذكرت آنفاً كيف كان يتكوّن ما يُسمى اليوم بفاس الجديد ؛ فشكله الخارجي لم يكن مختلفاً كثيراً عما نراه بأعيننا . ويمكن أن نضيف إليه أيضاً ،

---

(139) استفدت فيما يتعلق بفاس الجديد من الدراسة غير المنشورة لصديقي هـ. بريسوليط : بحث حول التعمير الأهلي ومستوى المعيشة بفاس الجديد (يناير 1939) . فأرجوه أن يجد هنا عبارة امتناني الحار .

من حيث التعمير ، قصبة شراردة ، وقصبة فيلالة وقصبة بوجلود ؛ ويكفي اسم هذه الأحياء الثلاثة الأخيرة (قصبات) للتدليل على طابعها العسكري . وهي تكوّن جزءاً من نظام المخزن الذي يختلف كثيراً عن نظام المدينة ، وعلى الأقل فيما يخص السكان .

وكان يسكن هذه الأحياء قوم من قبائل الجيش أمثال شراكة ، وأولاد جامع ، والأوداية ، والشراردة ، وفيلالة[140] وأهل سوس ؛ وكان هؤلاء الأخيرون مقيمين بحـي سيدي بو نافع وحي بو طويل الحقيرين اللذين كانا أكثر قذارة مما هما عليه الآن[141] ، وكذا عبيد البخاري[142] ، كانوا من أوساط مختلفة متباينة لكنهم كانوا يشتركون في كونهم بدواً وفي أن حرفتهم كجنود أو خدام تابعين للمخزن كانت تحول بينهم وبين اتخاذ أية عادة حضرية . لذلك كان الفرق شاسعاً بين فاس الجديد وتوابعها من جهة ، والمدينة من جهة أخرى . عندما كان يقيم المخزن بفاس ، كان الزقاق الكبير بفاس الجديد يمثّل المشهد الملوّن والمرح لمدينة بدوية كمراكش ، على عكس التقشف الفاسي ؛ ومن جهة أخرى ، كانت الدور منخفضة جداً أقرب إلى دور قرية ضخمة منها - إلى جارتها بفاس البالي ؛ وأخيراً كان التنظيم الحضري بدائياً يشتمل على: سوق للحبوب ، وآخر للزيت ، وثلاثة حمّامات ، وطاحونة واحدة ، وبعض الدكاكين للمواد الغذائية ، وخاصة على « سوق للبراغيث »

---

(140) وبالخصوص البطاطحة المقيمون بفاس الجديد أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر ،والبلاغمة الذين أتى بهم إلى فاس السلطان مولاي عبد الرحمن . وكانت هتان المجموعتان تسكنان في الأصل الحيّين الذين يحملان اسمهما .

(141) انظر گايار ، المرجع المذكور ، ص. 88 .

(142) حسب هـ. بريسوليط ، كانت نسبة مختلف المجموعات العرقية المجمّعة بفاس الجديد في يناير 1939 كما يلي : فيلالة وصحراوة 35 % ؛ المنتمون إلى ناحية فاس - مكناس ، 20 % ؛ السوسيون ، 11,5 % ، الجزائريون 8,5 % . ولم يكن هناك الجزائريون قبل الحماية ، لكن المجموعات العرقية الأخرى كانت لها بعد بدون شك أهميتها النسبية الحالية .

تباع فيها أسلحة قديمة وبذلات عسكرية بالية[143] : وكان ذلك أكثر شبهاً بسوقٍ متنقلة لمعسكر أو سوق بالبادية منه بحي تجاري في مدينة . ومن هذا القبيل ، كانت قصبة شراردة نموذجية ، وهي الآتية مؤخراً ؛ لم يكن يضم السور الضخم المربع سوى بعض الأكواخ المتداعية ، بينما كان باقي المساحة المسوّرة موضوعاً بحرية بين أيدي الناس والحيوانات يقضون فيه ليلة أو شهوراً .

ولم تكن قصبة فيلالة أقل بؤساً ، وإن كان بنيانها أكثر إتقاناً حسب ميشو بـلّير[144] الذي يقول : « لا يعمرها إلا الشرفاء الفيلاليون أهل السلطان . والدخول إليها ممنوع على الأوروبيين واليهود ، ويتعرض حتى المسلمون غير المنتمين إلى الأسرة الفيلالية للخطر إذا دخلوها . وقد جعل السلطان من هذه القصبة شبه ملجإ لأهله الفقراء الذين ليس لهم شيء من مظهر الإمارة . ويتعاطى الفيلاليون من الجنسين جميع ضروب العربدة والمجون في قصبتهم المشهورة في فاس بخطورتها »[*] .

فلنراع حظ المُخبر المتحيّز ، إذ إن ميشو بـلّير لم يدخل بالتأكيد إلى هذه القصبة ولم يتمكن من معاينة ما يرويه ، إلا أنه من اليقين على الأقل أن هؤلاء السكان الفيلاليين كانوا يعيشون في فقر مدقع ، وما زال هذا الحي يحمل حتى اليوم آثار الفقر ، لكنه فقر محتشم .

وكان البغاء منتشراً في هذه الأحياء ، لاسيما في مولاي عبد الله (سابقاً !) وفي قصبة بوجلود . وأخيراً فإن المثلث الواسع لبوجلود الذي يكاد يكون قفراً كان يستعمل مضرباً لخيام رجال القوافل العابرين ، وميـداناً للمشعوذينَ من كل صنف يقومون فيه بألعابهم ، وللعقاريين والمجبرين

---

(143) ڭايار ، المرجع المذكور ، ص. 86 ، وأوبان المرجع المذكور ، ص. 264-265 .

(144) موجز غير منشور عن فاس .

(*) التحامل والتشويه باديان في عبارات ميشوبـلّير المعروف بأنه كان من أكبر الممهدين والمتعهدين للاستعمار الفرنسي في بلادنا .

ينشرون فيه سلعتهم ، وللمتسولين يطلبون الصدقة[145] .

وأما سكان القصر فكانوا مؤلّفين من عنصرين متميزين : خدام من الجنسين أغلبهم من جنوب المغرب ، وعدد كبير من أعضاء الأسرة الملكية ، ويشكّل الكل مجموعة من عدة آلاف نسمات وعالماً صغيراً على حدة[146]، له مشاغله الخاصة سواء بفاس أم بمراكش .

وعندما كان المخزن يغادر فاساً ، كانت هذه الأحياء تخلو بنسبة لا يستهان بها وتفقد كل حيوية ؛ ولا تبقى سوى بيئة تكاد تكون خالية ، مع ممثلين صامتين مشدوهين من وجودهم في سعة بهذا المقدار. وبالجملة، فإن الكلمة التي تقفز إلى القلم دائماً لوصف هذا القسم من المدينة هي كلمة معسكر ، ومعسكر محصّن بإنشاءات مستمرة ، لكن بدون أية نسبة لا في السكان ، ولا في التجهيز الحضري ، مع الحاضرة الكبرى القريبة منه جداً .

---

(145) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 266 ووايسجربير : مدينة فاس ، في **المجلة الافريقية** ، 24 أكتوبر 1899 .

(146) ميشو - بـلّير : **قصر السلطان المغربي** ، في مجلة العالم الإسلامي ، عدد 5 ، ص. 650 ؛ وڤيير ، المرجع المذكور ، هنا وهناك ؛ وحسب هذا المؤلف ، فإنه كان يعيش في القصر ثلاثة آلاف شخص (ص. 132) .

6/3

الفصل السادس

تعمير المدينة

أَصِلُ الآن إلى التكتل الذي يسمى فاس البالي في مقابل فاس الجديد ، والذي يطلق عليه أهل فاس عادة اسم المدينة ، لأنها تستحق وحدها هذا اللقب ، وفاس الجديد ليست مدينة حقيقية .

يسكن المدينة أساساً أولئك الذين يسميهم بعض المؤلفين ، مثل ڭايار ، المغاربة ، ويعرفون في المغرب « بأهل فاس » ، على أن هذا الاسم يعني أقل بكثير مَنْ يسكنون فاساً ممن لهم فعلاً بها حق المواطنة لاستقرارهم فيها منذ أجيال ومشاركتهم في الجماعة التي تشكلت فيها طوال القرون . وبعبارة أخرى إننا لا نجد فاسيين فقط حتى في المدينة ، إذ نصادف فيها أيضاً أشخاصاً أو مجموعات عرقية لا يعترفون لأنفسهم بخاصية فاسيين ويقولون « أهل فاس » وهم يتحدثون عمن يعيشون بجوارهم ، كما لو كانوا يتحدثون عن غرباء . وربما انضموا في يوم من الأيام إلى هذه المجموعة المتميزة ، ولعلهم سيصبحون « جديرين بالدخول » ، لكن ليس هذا شيئاً لم يتحقق بعد إذا افترضنا أنه لا بد أن يتحقق .

ومن جهة أخرى فإن بعضهم لا يفكرون في الاندماج إطلاقاً في الجماعة وهم عابرو السبيل ، والسكان المتموّجون الذين سأتناول دراساتهم قبل كل شيء .

السكان المتموّجون : ـ لا بد من التمييز بين نوعين من عابري السبيل : الذين ينزلون عند الأصدقاء ، وهم ينتمون عادة إلى الطبقة المترفة ، وكذلك يستضافون في ملحقات زاوية طريقتهم ، إذا كانوا من وسط بسيط لكنهم ينتسبون إلى طريقة صوفية ، وليسوا أكثر عدداً . وأما الآخرون ، سواء منهم العمّال الفصليون كعمّال معاصر الزيتون والبساتين ، أو مساكين يبحثون عن عمل ، فلا بد أن يقيموا في محل خدمتهم أو في الفنادق .

الفنـــادق : ـ يُطلَق هذا الاسم بفاس على نوعين من العمارات يتشابهان في بنائهما ، لكنهما يختلفان جداً في استعمالهما ؛ فالنوع الأول الذي نحن الآن بصدده ؛ يُستعمل لإيواء البهائم والناس العابرين ؛ وهو شبيه بخانات الشرق . والنوع الثاني ، الذي سندرسه فيما بعد[147] يصلح لإيداع البضائع ولمختلف الحاجيات الصناعية والتجارية . وكانت الفنادق ـ الخانات مجمّعة بطبيعة الحال حول أبواب المدينة المسلوكة أكثر ، كباب عجيسة[148] ، وباب فتوح[149] ، وباب بوجلود ؛ وكان يوجد منها أيضاً واحد أو اثنان في وسط المدينة ، كفندق الشمّاعين[150] . يُدخل من شبه عربات ، إن صحّ هذا التعبير ، مباشرة إلى فناء واسع نسبياً ، محاط برواق محمول على أعمدة مربعة من الآجر حيث تقيم البهائم . وتُطلّ على هذا الفناء بعض الغرف المظلمة التي تُستعمل في أغلب الأحيان كمستودع للسلع عند وصولها وذهابها ؛ وتطلّ غرف أخرى أحسن إضاءة على رواق الطابق لكنها خالية من كل تأثيث ؛ ولا يوجد إلا طابق علوي واحد بصفة عامة ، كان يشغل غرفه ضيوف عابرون ، وعاهرات أيضاً في الغالب خصوصاً في ناحية باب فتوح[151] . وهذه الفنادق

---

(147) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 1 .

(148) انظر ميشو بـلّير ، وصف فاس ، التصميم ، ص. 278 -279 .

(149) انظر مارتان ، كذان ، التصميم ، ص. 344 -435 .

(150) قاسم ابن عبد الجليل ، دبلوم غير منشور ؛ وليون الإفريقي ، الجزء الثاني ص. 84 .

(151) مارتان ، المقال المذكور ، ص. 626 وهنا وهناك ، وروني ـ لوكلير ، في معلومات =

في ملك الخواص او الأحباس ، وتكاد تكون دائماً مكراة لوكلاء بما معدّله أربعون أو خمسون ريالاً (دورو) في الشهر ، يُؤدَّى مسبقاً في كل ثلاثة أشهر . وكانت التعريفات ، في سنة 1903 -1904 ، هي 20 سانتيماً حسنياً في اليوم عن بعير ، و 12 سانتيماً عن بغل ، و 6 سانتيمات عن حمار ، و 20 سانتيماً إلى بسيطة عن إنسان[152] . وبصفة عامة كان لكل فندق زبناؤه الخصوصيون الذين كانوا يُعيّنون من بين مواطني الوكيل : وهكذا ، فإن فندق درب اللمطي ، على الضفة اليمنى ، كان يتردد عليه بالأفضلية أهل تافيلالت ، لأن الوكيل كان من تلك الناحية[153] . ويمكننا أن نتصور بسهولة مدى الاختلاط والقذارة وانعدام الرفاهية في هذه الفنادق . وفوق ذلك ، كانت بعض القوافل المزوّدة بعتاد التخييم تفضل عدم اللجوء إليها ، فتضرب خيامها في ساحة بوجلود[154] .

الغــذاء : ـ ها هم القوم قد سكنوا ، لكن كان عليهم كذلك أن يتغذوا ؛ ومن أجل هذا كان في إمكانهم أن يشتروا الخبز ، والزيتون والفواكه من جميع أسواق التغذية الصغيرة بالمدينة[155] ، فإذا أرادوا أن يأكلوا شيئاً ساخناً ، كان عليهم أن يقصدوا أصحاب المطاعم الحقيرة (الشوتة) ، وبائعي اللحم المفروم (الكفايتية) والقضبان (الكوايحية) وبائعي الإسفنج (السفايجية) . وكان الأولون ، وكلهم ينتمون إلى سوس[156] ، يطهون فقط

= استعمارية ، غشت 1905 ، ص. 307 ، العمود 1.كانت هذه عادة تقليدية قديمة في هذا الحي ، يجعل فيه ليون الإفريقي (الجزء 2 ، ص. 109) « عاهرات يستسلمن بأبخس ثمن » .

(152) روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور وأوبان المرجع المذكور ، ص. 296 . يجب مقارنة هذه الأثمنة بالتي ذكرها ل . برونو بالنسبة للرباط . **نصوص عربية بالرباط** ، ص. 159 .

(153) مارتان ، المقال المذكور ، ص. 631 .

(154) شيڤريون ، المرجع المذكور ، ص. 128 .

(155) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

(156) ماسينيون ، **بحث حول أهل الحرف** ، ص. 52 .

الحساء ، ورؤوس الغنم وكراعها مشوية ؛ وكان زبناؤهم من الغرباء عن المدينة فحسب ، كان الفاسي يفضل بكثير الصوم على أن يبتلع طعاماً خشناً كهذا ؛ ولذلك كانوا يقيمون بأحياء العشّابين قرب باب عجيسة ، وباب السنسلة بجوار مركز التجارة ، وبالصفّاح قرب باب فتوح : ولا وجود لهم في الأحياء الحضرية بكل معنى الكلمة . وكان بائعو الكفتة والقضبان يتمتعون بشيء أكثر من الاعتبار ، إذ كان الفاسي عند اللزوم إذا جاع كثيراً خاطر بنفسه فاشترى منهم شيئاً خلسة . وأما بائعو الإسفنج ، فكانوا يقدمون طعامهم للفاسيين والغرباء على السواء ، وكان يوجد منهم عدد قليل في جميع أحياء المدينة ؛ غير أنهم كانوا يقيمون خصوصاً في الأماكن التي كان يسعف فيها الحظ بمرور الغرباء ، أي في أحياء العشّابين ، وباب السنسلة، والنخّالين ، والصفّاح والطالعة الكبيرة[157] .

الأصل العرقي : ـ كان هؤلاء الغرباء من مختلف الأصول ؛ يُميَّز من بينهم على الخصوص بدو ناطقون بالعربية من القبائل المقيمة بضواحي فاس : كأولاد الحاج ، وآيت سادّن ، والشراردة ، وشـراكة ، وحميـان ، وأولاد جامع ، والحياينة ، وجبليو الشمال ، المعروفون عادة « بجبالة » المتخصصون في الأشغال البستانية وتحضير زيت الزيتون[158] ؛ وأخيراً ، قوم من مناطق ما قبل الصحراء من أودية ݣير وزيز وغريس ، يسمون جميعاً فيلالة . والذي يثير الانتباه حول الغياب الكامل تقريباً لجبليي الأطلس المتوسط وملوية العليا الذين لم يقصدوا المدينة للبحث عن العمل ، سواء كانوا حضراً أو رُحَّلاً ، مفضلين الذهاب إلى صفرو أوتازا لشراء مؤونتهم . حقاً إنهم كانوا أحياناً يحملون إلى فاس الفحم[159] ويشترون منها بعض الأشياء لكن بكراهية ، إذ كانوا لا يفدون إليها عن طيب خاطر إلا مسلحين لينهبوها .

---

(157) إني مدين بجميع هذه المعلومات لتلميذي القديم وصديقي السيد محمد التازي . فليجد هنا عبارة امتناني الحار .

(158) بيل ، صناعة زيت الزيتون بفاس ، ومارتان ، المقال المذكور ، ص. 624 .

(159) ݣايار المرجع المذكور ، ص. 116 .

ب) الجاليات الغير المتجانسة المستقرة بفاس : ـ بالإضافة إلى هذا الجمهور المتموّج واللاعضوي الذي هو أقل حجماً بكثير مما هو عليه بمراكش ، نجد بفاس مجموعات من أصل أجنبي احتفظوا بنوع من التماسك الداخلي ؛ فكان بعضهم ، مثل الجزائريين ، مستقرين نهائياً بالمدينة ، لكنهم على الأقل في العهد الذي نحن بصدده ، لم يكونوا بعد قد انصهروا في السكان ؛ وكان البعض الآخر منهم ، على النقيض من ذلك ، مثل البربر الذين كانوا يأتون ليزاولوا حرفة حمّال ، يتجدد مراراً بدون ميل إلى الاستقرار تقريباً ، لكنهم كانوا يحتفظون بروح التضامن التي كانت تميّزهم عن جمهور العمّال المؤقتين. وكان هؤلاء وأولئك عامة يُعَيِّنون ممثلاً يكون واسطة لهم بخصوص علاقاتهم مع السلطات المحلية .

أهل سوس : ـ ومع ذلك فإن بعضهم يشكّلون مجموعات واضحة البنية أقل بكثير من كتلات أشخاص يُقرِّب بينهم نفس الأصل العرقي وعادات معاشية مماثلة : أولئك هم السوسيون (سواسة) الذين كانوا وحدهم يشكّلون طائفة أصحاب المطاعم الحقيرة ، كما أسلفنا[160] ، وطائفة البائعين بالتقسيط للزيت ، والسمن ، والعسل والصابون الأسود (بقّالة)[161] وبائعي الفحم (الفحّامة) ، مع أهل توات[162] ، والذين ربما كانوا يتعاطون ، كما يفعلون الآن ، تجارة البقالة وحرفة السحرة والمنقّبين عن الكنوز والعرّافين[163] . فلو كانت هناك « كوميديا فاسية » على غرار الكوميديا الإيطالية ، لكان الطالب[164]

---

(160) انظر ما سبق ، ص. 192 .

(161) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ص. 299 ، العمود 1 ، ومـاسينيون ، بحث حول أهل الحرف ، ص. 52 .

(162) معلومات التقطها السيد الأخضر الأستاذ بالثانوية الإسلامية بفاس . كان السوسيـون بفاس يزاولون حرفاً مختلفة حسب القبيلة التي ينتمون إليها . كان المنتمون إلى قبيلة أَجَرْد إمَلّال يشتغلون بالزيت ، والمنتمون إلى قبيلة أقّا يشتغلون بالقمح .

(163) وفي تونس أيضاً ، اشتهر السوسيون بالتنقيب عن الكنوز والتنبا بالغيب (ج مارتي ، دبلوم غير منشور) .

(164) يطلق لفظ طالب بالذات على من يطلب العلم ، ثم توسعوا في ذلك وأطلقوه على نصف =

السوسي أحد الشخصيات الرائعة الأساسية فيها . فهل كان هؤلاء السوسيون القدامى كثيرين ؟ إن المعلومات تعوزنا ، فقد كانوا يختارون من بينهم أميناً ذا دور مزدوج، كان قبل كل شيء يضمن كل سوسي جاء ليشتغل بفاس ، ولا يستطيع واحد منهم مزاولة حرفته ما لم يحصل على هذا الضمان[165] . كما كان يفصل في الخلافات المتعلقة بالمهنة التي قد تقوم بينهم ويعرض قراراته على المحتسب الذي كان يوافق عليها ويجعلها تنفيذية ؛ ويبيّن هذا التفصيل بكفاية أن السوسيين كان لهم تنظيم عرقي أقل من تنظيم مهني[166]

أهل درعة : ـ وكان كذلك أيضاً دراوة المنتمون إلى قبائل وادي درعة ؛ يذكرهم لاراس[167] بفاس كمزاولين لحرفتي البنائين والسقائين[168] قائلاً إنهم كثيرون ؛ لكن ماذا يعني بكثير ؟ لا أظن أن هذا العدد كان قط هائلاً ، لأن فاساً لم تكن لها في أي عهد علاقات جدية مع مناطق وادي درعة . وكان لهم أمين ، مثلما كان للسوسيين ، بنفس الاختصاصات .

الفيلاليون : ـ كانت مجموعة فيلالة (بما فيهم أهل تافيلالت، وزيز، وكِير، وغريس) بالتأكيد أهم بكثير ؛ فقد كانت هذه الأقاليم دائماً في عداد منطقة التأثير بفاس ؛ وكانت القوافل متنقلة دائماً بين بلاد زيز ومدينة مولاي إدريس ؛ وقد توطدت هذه العلاقات أكثر منذ أن تولّت الحكم الدولة العلوية ، التي دُفن جدها مولاي علي الشريف بتافيلالت . وبالنسبة لسكان هذه البلاد

عالم لا يستحق لقب عالم حقيقي ، مع كونه يعلم بعض الأشياء .

(165) ماسينيون ، بحث حول أهل الحرف ، ص. 116و م. دو بيريني ، مدينة فاس ، ص. 134 .

(166) لاشك أن عدد السوسيين الآن أكثر مما كانوا عليه قديماً ؛ وهم بقّالون ، وخدام في المدينة الجديدة ، وميكانيكيون وسائقو سيارات ، يعرف بعضهم بعضاً ، لكنهم غير مؤلفين في هيئة متماسكة ، حسب معرفتي على الأقل .

(167) المقال المذكور .

(168) وحسب المعلومات التي جمعها السيد الأخضر ، فإنهم أقاموا بفاس أيضاً كبائعي الفول والحمص .

الفقيرة ، فإن فاساً هي مطمح أنظارهم ، لا سيما عندما تكون السنة سيئة ولا تُغذِّي الواحة سكانها ؛ ومن جهة أخرى ، كانت تافيلالت في كل وقت منجماً للأدباء ؛ وكان عدد الفيلاليين الذين أتوا إلى جامع القرويين لإتمام دراستهم وافراً فأصبحوا بذلك علماء وصلحاء مرموقين[169] . وهكذا ، فمن الفقهاء إلى الفقراء الذين طردهم الجوع ، مروراً بالتجّار والصنّاع[170] والبغّالين ، لم تفتأ تافيلالت ترسل الى فاس عدداً كبيراً من أبنائها ، ولم يشكل هؤلاء النازحون كلًّا متجانساً ، بسبب اختلاف أوضاعهم بلا شك ، ولم نرهم قط يعملون في مجموعة منظمة[171] ، رغم وجود نقيب للشرفاء الفيلاليين ، كما ذكر ذلك ميشو ـ بلّير[172] .

* * *

فالمجموعات المتماسكة حقاً هي مجموعات الحمّالين من ملوية الوسطى وأهل توات والجزائريين .

الحمّالون البرابرة : ـ يشكّل « زرزاية »[173] أو الحمّالون المجموعة

---

(169)سلوة الأنفاس، هنا وهناك .

(170) ماسينيون ، بحث حول أهل الحرف ، ص. 52 .

(171) مسلمو الجزائر بالمغرب ، ص. 72 .

(172) يلاحظ مع ذلك أن الفيلاليين يؤلفون موكباً خاصاً في مواسم الخريف المقامة على شرف مولاي إدريس ، ويذبحون ثوراً أمام ضريحه . وحسب المعلومات التي جمعها السيد الأخضر ، يبدو ان ميشو ـ بلّير تلقى معلومات خاطئة وأنه كان في الواقع ثلاثة نقباء لشرفاء تافيلالت : نقيب الشرفاء الإسماعيليين ، ونقيب الشرفاء العبدولاويين ، وأخيراً نقيب للمتشرفين (مدّعي الشرف) . وفي حالة خصومات بين مرؤوسيهم ، كان هؤلاء النقباء يصلحون بينهم ، لكن إذا لم يكف الإقناع ، فإنهم يلجؤون إلى عامل المدينة للموافقة على قراراتهم وجعلها نافذة .

(173) انظر عن « زرزاية » فاس ، الأخضر، إِزَرْزَايَن أو الحمّالون البربر بفاس ؛ عبد الرزاق عمور ، « زرزاية بني حيّون » ، في الوثائق غير المنشورة لأصدقاء فاس ؛ مذكرة حول زرزاية ، في وثائق الكتابة العامة لناحية فاس . وقد استطعت كذلك أن أطلع في وثائق مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية على مذكرة هامة. م. هانري ڭودبارج بعنوان : **طائفتان بربريتان بفاس ، « ايزرزاين » و « إڭراين »** . وحسب مذكرة الكتابة العامة بفاس ، المؤرخة في 1918 ، كان أول الحمالين هم أولاد جرّار ويكون اسم زرزاية تحريفاً لهذا اللفظ . وهذا الاشتقاق بعيد الاحتمال ، اذ يسهل أكثر ربط كلمة زرزاية باسم أحد قصور قبيلة أولاد جرّار الذي يسمى زرزاية : انظر =

البربرية الوحيدة المتينة بفاس : ورغم أنهم مستقرون بالمدينة ، فإننا سنرى الظروف التي كانوا وما زالوا محتفظين فيها حتى اليوم بلباسهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، دون أن يؤثر فيهم الوسط الذي يساهمون في حياته مساهمة دقيقة أيّ تأثير . وحتى لو كانوا حديثي عهد بالقدوم ، لقلنا بأن هذا الوسط لم يكن له الوقت الكافي للتأثير فيهم . لكن الرواية التقليدية البربرية[174] والفاسية[175] ترجع إقامتهم إلى عهد مولاي إدريس ، وعلى أي حال ، فإن ليون الإفريقي يذكر وجودهم في أوائل القرن السادس عشر[176] .

فكيف نفسر إذن هذه الظاهرة لمحافظة تامة بهذا المقدار ؟ يكفي أن نلاحظ أنه ، إذا كانت طائفة (زرزاية) مستقرة بفاس منذ قرون ، فإن كل واحد من أعضائها يقيم بالمدينة زمناً يسيراً ، ولا يكون له من الوقت ما يكفي ليُغيِّره المحيط الفاسي .

وكل هؤلاء الحمّالين بربر ، ينتمون إلى بعض قبائل ملوية الوسطى ، وكِير الأعلى . وإليكم القبائل التي كانت ممثَّلة بفاس سنة 1918 ؛ وأُثبتت بين قوسين الأهمية العديدية لكل مجموعة[178] :

= خريطة المغرب ب 200 000 مليم ورقة رِكُو ، 23 (الشرق) ، وفهرس أبجدي لتكتلات المغرب ، المنشور من طرف مصلحة الشغل بالمغرب ، طبعة 1936 ، ص. 689 .

(174) الأخضر ، المقال المذكور .

(175) عبد الرزاق عمور ، نفس المرجع . وحسب كُودبارج (المرجع المذكور) ،فإن البربر النازحين إلى فاس أيام إدريس الثاني قد أصيبوا بأزمة بطالة خطيرة ؛ وعندما كانوا يستعدون للعودة إلى ديارهم ، قال لهم الأمير الذي لم يرد حرمان عاصمته من يدٍ عاملة نفيسة كهذه : « لا أريد أن تتركوا المدينة ، متأثرين بهذه الأزمة الوقتية . استقرُّوا بفاس ، وسوف تؤمنون نقل البضائع والأدوات بعون الله وكأنكم جمال الصحراء التي لا تكلّ . وهذا وقف أهبه لكم ولأحفادكم ، إلى يوم الدين » . (ترجمة مأخوذة من أفواه زرزاية اليوم) .

(176) الكتاب 2 ، ص. 91 .

(178) مذكرة حول زرزاية .

بني حيّون(54) .
أولاد الحاج (80) .
أولاد جرّار (33) .
أهل تُخير(35) [179] .
أهل تيرنست (74) .
آيت جليدّاسن(8) [180] .
مختلفـــون (55) .

من المفيد ملاحظة أن مجموع عدد الحمالين المحصل عليه ، وهو 289 ، قريب جداً من العدد 300 الذي أعطاه ليون الإفريقي[181] . وتنتخب كل واحدة من المجموعات المختلفة ، التي تحمل اسم (تربيعات)[182] أميناً لها لمدة ستة أشهر ؛ ويجتمع هؤلاء الأمناء بدورهم في أحد الفنادق أو الأسواق ويعيّنون أميناً رئيساً يعترف به المخزن كرئيس الطائفة ، لمدة سنة واحدة[183] . فلماذا هذا التفويض القصير بهذا القدر ؟ هل كان ذلك خوفاً من السلطة الشخصية ؟ أم هي ظاهرة أخرى لميول البربر إلى الديـمقراطية ؟ إني لا أجرؤ على تأكيد العكس ، لكن ها هو تفسير آخر : يتجدّد عادة زرزاية فاس كل ستة أشهر ، وعند انقضاء هذا الأجل ، وبمجرد ما يصل خلفهم من القبيلة النائية[184] . يسيرون في الطريق

(179) وحسب م . كودبارج : كان مقر سكنى حمّاني كير بين جبل مسروح في الشمال ، وجبل أشير في الشرق ، وجبل ضاية في الجنوب ؛ وأهم قراهم هي تِوّازجين ، وتِيطْ ن علي أموكوان ، وإملاّحين وتَافَنْدَاسْت .

(180) عن آيت جليداسنّ انظر ، ج مارسي : قبيلة بربرية من اتحادآيت وَارَايْن : هم آيت جليدّاسن ، في هسبيريس ، 1929 ، الثلاثة الأشهر الأولى .

(181) المرجع المذكور .

(182) نقارن بتقسيم الخطّابات (النكّافات) إلى رباعات (انظر ما يأتي ؛ الكتاب 7 ، الفصل 3) .

(183) عبد الرزاق عمور ، المرجع المذكور .

(184) هذه على الأقل حالة بني حيّون ؛ وتكون مجموعات أخرى أكثر استعجالاً وأقل تدقيقاً فتغادر فاساً قبل وصول البديل . انظر مذكرة حول زرزاية .

راجلين في العهد القديم ، وفي الحافلة اليوم أحياناً ، فيلتحقون ببلادهم عبر صفرو ، وتازوطة ، وتِلْميرات (بين جبال بويبلال وجبال تشوكت) ، وآيت بازّة ، ومرموشة وجبل تْسِيوانْت ، إن سمح الفصل بذلك ؛ وعبر تازا وكْرسيف وأوطاط الحاج ، إذا كان الثلج كثيراً في الجبل[185] . ولن يعود البعض منهم أبداً إلى فاس ؛ وسيقيم بها البعض الآخر مدداً أخرى ؛ ولا يكاد يستقر بها أحد منهم .

لا ينتمي زرزاية في الجملة إلى نفس القبائل والفروع فحسب ، ولكن حتى إلى نفس الأسر ؛ ويقوم بتقديمهم إلى الطائفة حمّالان يتوليان تدريب حديث العهد منهم ، ويؤديان له طوال ثلاثة أشهر راتباً ثابتاً ، ويتقاضيان في المقابل أرباحه الحقيقية .

إنهم يتغدون بالشيء القليل في فاس ، ويبيتون كحراس بالليل في أسواق وسط المدينة ، وفي الفنادق ذات الاستعمال التجاري ، وعند الخواص . ولباسهم الموحّد معروف تماماً عند الفاسيين : وهو عبارة عن برنس رمادي فوق قميص أبيض ضيّق عند الخصر ، وعمامة بيضاء أو حبل أسمر من الوبر حول الصدغين ، ونعال مربوطة في الرجل بحبال دقيقة ، تمر إحداها بين إصبعي الرجل الأولين ، وجراب بِشَكْلٍ متصالب أُدخل في حلقته حبل ، وأخيراً كيس على الكتف[186] . ولم يتبنوا من عادات فاس إلا تقديم القربان السنوي لمولاي إدريس[187] . وبالتالي فأمانتهم ورصانتهم معترف بهما بالإجماع ، وإن كانوا يجيؤون مجرَّدين من كل شيء إلا من نعلين وما على ظهرهم من لباس[188] . وسأدرس فيما بعد دورهم في المدينة[189] .

كيف أقامت بفاس هذه الجماعة البربرية التي هى بهذه الدرجة من الاستقرار

---

(185) عبد الرزاق عمور ، المقال المذكور .

(186) نفس المرجع ، والأخضر ، المقال المذكور .

(187) عبد الرزاق عمور ، المقال المذكور .

(188) يقول مثل فاسي عن مُحَدثي النعمة : « جاء إلى فاس مثل زرزاي : لا يملك إلا نعليه » .

(189) انظر ما يأتي ، الكتاب الرابع ، الفصل 3 ، والكتاب الخامس ، الفصل 2 .

والحركة في آن واحد ؟ لماذا استمرت بها طوال القرون ، بالرغم على التغييرات الاقتصادية والسياسية ؟ لماذا لم تساهم قط في الحركات السياسية التي كثيراً ما زعزعت الحاضرة الإدريسية ، بينما كان في استطاعتها أن تشكّل فريقاً للاصطدام يُباع للمزايد الأعلى ؟ كل هذه الأسئلة تبقى بدون أجوبة .

* * *

أهل توات : ـ وبجانب هذه المجموعة البربرية الجبلية ، هناك مجموعة بربرية صحراوية ، هي مجموعة التواتيين (أهل توات)[190] ، وهم ، على العموم ، أقوياء طويلو القامة ، سمر البشرة ، يرتدون غندورة زرقاء ويضعون على رؤوسهم عمامة زرقاء قاتمة ويزاولون حرفاً مختلفة : كبستانيين ، وسقائين ، وحراس وحمّالين بالفنادق ، وخاصة كفحّامين وعاملين في مخازن الزيت والسمن بسوقي هاتين المادتين[191] .

وبالرغم على تنوع أعمالهم ، وإقامتهم الطويلة بفاس ، (لأن بلادهم نائية وليس لهم بديل منظم كزرزاية) ، فإنهم تمكنوا من الاحتفاظ بشخصيتهم ، على غرار إخوانهم بتونس[192] . وقد كانوا قبل الحماية مثلاً يكوّنون طائفة الرماة بالبنادق[193] ولا يختلطون برماة المدينة الآخرين ؛ وكذلك كانوا يشكّلون داخل الطائفة التهامية التي كانوا منضوين تحتها بكثرة ، مجموعة متميزة كان لها مقدّمها الخاص[194] .

في أي عهد وفد هؤلاء التواتيون على فاس للمرة الأولى ؟ ليس لدينا معلومات دقيقة حول ذلك وإنما المؤكد أنهم ابتداء من النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كانوا مقيمين بها منذ زمن طويل ، إذ أن مولاي عبد الرحمن منح

---

(190) انظر ميشـو ـ بـلّير ، مسلمو الجزائر بالمغرب ، ص. 113-116 .

(191) ماسينيون ، بحث حول أهل الحرف ، ص. 53 .

(192) يكوّن أهل توات بتونس العاصمة مجموعة منظمة ؛ ويزاولون على الخصوص حرفة حرّاس بالليل ، بالتنافس مع مغاربة الريف وسوس .

(193) انظر مـا يـأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 3 .

(194) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

لشريف وزان ، الحاج العربي ، امتياز تدبير التركات الشاغرة للتواتيين المتوفين بفاس ، ومكناس ، وغيرهما من البلدان[195] . وهذا الحدث ، مثل انتماء التواتيين إلى طائفة التهاميين، يمكّن من التأكيد على الأقل بأن هؤلاء الصحراويين ، كانوا تحت تأثير شرفاء وزان . لكن ، كيف نما هذا التأثير ؟ وهل يرجع إلى تاريخ مجيء أهل توات إلى فاس ، أو كان موجوداً من قبل واستجلب هؤلاء القوم الى شمال المغرب[196] ؟ وهنا أيضاً لا يسعني إلا أن أعترف بجهلي . وآخر توضيح في النهاية هو أن التواتيين كانوا يشكّلون بفاس مجموعة تضم أزيد من ثلاثمائة أسرة[197] .

* * *

الجزائريـــون : ـ من بين الجاليات الأجنبية المستقرة بفاس التي كانت مع ذلك محتفظة بأصالتها وبشيء من استقلالها الذاتي ، يحتـلّ الجزائريون رتبة مرموقة ، بسبب عددهم وتماسكهم . وقد كانوا موضوع دراسة مستفيضة لميشو بلّير[198] .

ولابد من التمييز بين طبقتين منهم : طبقة المهاجرين الأقدمين وطبقة المهاجرين الجدد ؛ فالأولون كانوا قد غادروا بلادهم لأسباب سياسية ، مثلمـا حدث قديماً للأندلسيين والقيروانيين الذين عمّروا فاساً لدى نشأتهـا[199] . جاء بعضهم أولاً سنة 1746 عندما ثارت تلمسان ضد يوسف باي ، ثم أيضاً تحت حكم مولاي سليمان عند ثورة أبي الشريف ؛ وكانت أسرة المقري من بين موجة الهجرة الأولى هذه . والطبقة الثانية ، وهي الأكثر عدداً ، كانت

---

(195) ميشو ـ بلّير ، دار وزان ، في مجلة العالم الإسلامي ، عدد 5 ، ص. 46 . وانظر عن علاقات شرفاء وزان بتوات ، ميشو ـ بـلّير ، توات وشرفاء وزان .

(196) ينبغي الإشارة على كل حال إلى أن أهل توات المستقرين بتونس ، منضوون هم الآخرون تحت لواء الطريقة الوزانية (ج مارتي ، دبلوم غير منشور) .

(197) ميشو ـ بلّير ـ وصف فاس، ص. 328 .

(198) انظر ميشو ـ بلّير ، مسلمو الجزائر بالمغرب ، في الوثائق المغربية ، عدد 11 ، ص. 1 -116 وكذلك أوبين المرجع المذكور، ص. 353 .

(199) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 3 .

طبقة المهاجرين الذي فضلوا مغادرة بلادهم على أن يقبلوا السيطرة الفرنسية (المهاجرين في سبيل الله) . وينتمي تاريخها إلى السنوات الأولى من غزو الجزائر ، وتضم قوماً من الغرب الجزائري ، معظمهم من تلمسان ثم معسكر ، ومستغانم ووهران[200] . وكان هؤلاء الجزائريون يشكّلون ، في المجموع ، كتلة من 4000 إلى 5.000 شخص .

وقد خصص مولاي عبد الرحمن استقبالاً حسناً للمهاجرين ، تضامناً مع المسلمين ، ومنحهم شبه استقلال ذاتي استمر حتى سنة 1906 : كانوا يتداولون ليعرضوا على موافقة السلطان أحداً منهم كان له لقب نقيب[201] ؛ وكان هذا النوع من الجمع الانتخابي يُعقد بجامع سيدي بو مدين ، الواقع في درب سيدي بو مدين ، بحي الرميلة[202] . وكانت للنقيب نظريّاً سلطات قائد ، ودوره في الواقع هو التسوية الودية للخلافات المحتملة بين مواطنيه والتوسط بينهم وبين المخزن . وكان ذلك النقيب على العموم ، تاجراً يقصده الجزائريون في دكانه .

إذا كان المخزن قد استقبل هؤلاء المهاجرين بكيفيةلائقة ، فيبدو أن الفاسيين كانوا على الأقل غير مكترثين إن لم يكونوا معادين لهؤلاء القوم الذين لم تكن لهم نفس اللهجة ، ولا نفس العوائد ؛ لهذا ، لم يزل الجزائريون يكوّنون حتى بداية القرن العشرين جماعة متميزة تماماً : كانوا يتزوجون فيما بينهم ، محتفظين بلهجتهم وأسلوب معيشتهم ، مع أنهم قطعوا كل صلة تقريباً

(200) كما أن تونس ، اقتبلت عام 1837 عدداً كبيراً من المهاجرين من إقليم قسنطينة الفارين من السيطرة الفرنسية (ج. مارتي ، دبلوم غير منشور) .

(201) كان مبدئيّاً ممثلاً لشرفاء تلمسان ، ولكن عمليّاً ممثلاً للجالية الجزائرية برمّتها .

(202)انظر مارتان ، كذان ، ص. 638 . يفترض المؤلف أن الجزائريين اختاروا مكان الاجتماع هذا ، والذي هو مع ذلك بعيد عن الأحياء التي كان يسكنها جلهم ، من أجل سيدي أبي مدين ، الولي المدفون قرب تلمسان ، وربما كذلك من أجل سيدي أبي عزة التلمساني المقبور هناك والمتوفي بفاس سنة 1860/1277 -61 . وانظر عن هذا الولي ، **سلوة الأنفاس** ، جزء 1 ، ص. 463 .

ببلادهم الأصلية . كانوا في كل مكان تقريباً في المدينة ولاسيما في الأحياء البعيدة عن المركز: رأس الجنان ،والعيون ،والقلقليين التي كانت قليلة السكان آنذاك . وكانت أصالتهم مطبوعة إلى درجة أنهم كانوا يشكّلون طائفة خاصة من طريقة التهاميين بفاس ، مع مقدّم خاص .

أسس بعضهم تجارات مزدهرة ، ودخل البعض الآخر الإدارة الشريفة ، مثل آل المَقْري ، واحتل القليل منهم مناصب صغيرة للكتابة أو التوثيق ، بعد أن تابعوا دراساتهم ؛ وكان أغلبهم ممن ينتمون إلى أصل وضيع ، يعملون بأيديهم كأجدادهم بتلمسان ، ويزاولون بالخصوص حرف النساجين والخرازين والقهواجيين[203] .

وبالرغم على وحدتهم الظاهرة فإنهم كانوا منقسمين ، وكانت هذه الأقسام مطابقة بالجملة لوضعيتهم الاجتماعية . فكان يوجد من جهة فريق تلمسان (أهل تلمسان كما كانوا يسمون أنفسهم) ، وهو مؤلف من عناصر شعبية ومعزز بكثرة العدد . وكان هناك من جهة أخرى ، فريق يمكن أن يسمى أرستوقراطيا ، ويشتمل على الأسر المثرية والشريفة التي كانت تتلقى إعانات مالية من الحكومة ، كسائر مجموعات شرفاء المدينة[204] . وغالباً ما كان هذان الفريقان يتواجهان ، وبحدة أكثر عندما يتعلق الأمر بتعيين نقيب ، إلى

---

(203) انظر ميشو- بلّير ، المرجع المذكور ، ص. 86 ، حيث يقول : يُحكى أنه قبل مجيء « الفرغليين » إلى فاس بقليل ، أبصر رجل ، وهو جالس في ساعة مبكرة من الصباح بباب حي القلقليين ، ما يقرب من ثلاثمائة قهوجي خارجين منه . كانوا « قرغليين » قاطنين في ذلك الحي ، وحيث إنهم لم يكونوا يحسنون أية حرفة ، فإنهم تعاطوا كلهم حرفة « قهواجي » .

(204) منح مولاي عبد الرحمن الشرفاء الجزائريين صلة قدرها 800 مدّ من القمح و 800 مثقال . وأصبح هذا السخاء متقطعاً جداً ابتداء من عهد مولاي الحسن . لكن ، في عام 1894 ، في الوقت الذي عُيّن بفاس نائب قنصل فرنسي ، أمر المخزن بأن يوزع على المجموعة الجزائرية كلها مبلغ 12.000 ريال لئلا تنضم جملة تحت الحماية الفرنسية . وقد نجحت العملية .

حدّ أنهم كادوا ينقسمون إلى عشيرتين متنافستين . إلا أنهم مع ذلك مكثوا متحدين في عواطفهم إزاء فرنسا ، إذ لم يسجل نفسه في جملة الرعايا الفرنسيين قبل الحماية إلا القليل النادر منهم[205] . وقد انصهروا شيئاً فشيئاً في سكان فاس ، وهم الآن جزء منهم لا يتجزأ ؛ ولعل هذا الانصهار قد عجّله مجيء مجموعة جديدة من الجزائريين بعد الحماية ، منهم العسكريون وموظفون مدنيون استقروا خصوصاً بفاس الجديد ، واتخذ إزاءهم المهاجرون القدامى نفس موقف الاحتياط والحذر الذي اتخذه منهم الفاسيون الأقحاح .

* * *

العبيد السود : ـ وتجدر الإشارة أخيراً إلى وجود عدد من العبيد السود بفاس[206] . ولا نعثر في أي مكان عن أي بيان عددي عنهم ، لكنه من اليقين بأنهم كانوا عدة مئات على الأقل ، وربما عدة آلاف .

ويظهر أن إدخالهم إلى فاس حديث نسبياً ، إذ لم يتحدث عنهم الرحالة المسيحيون في القرن السادس عشر ، الأمر الذي لم يكن يفوتهم ذكره لو كانوا موجودين إذ ذاك . ويمكن افتراض أن غزوات السعديين نحو السودان (في أواخر القرن السادس عشر) هي التي جلبت إلى المغرب مجموعة هامة من الزنوج الذين أُسروا أو اشتراهم السلاطين والرؤساء العسكريون . ونعلم أن مولاي اسماعيل أنشأ جيشاً حقيقياً من السود في أواخر القرن السابع عشر ، وذلك ما ينبىء بتجارة هامة من هذا النوع الخاص . وقبل أن يحتل الفرنسيون توات ، كان العبيد يُساقون من تنبكتو إلى تلافيلالت عبر توات ، ثم من هناك

---

(205) استقرت كذلك بتطوان جالية جزائرية ؛ وعندما احتلت إسبانيا هذه المدينة ، عرّف الجزائريون بأنفسهم كرعايا فرنسيين وأصبحوا أهم زبناء قنصلية فرنسا .

(206) تحدث رحالة أوروبيون كيرون عن الرقيق بفاس الذي كان في نظرهم موضوع فضول مستنكر . وأذكر من جملتهم : لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 186 -187 191 -192 وبونصال ، المرجع المذكور ، ص . 329 و 333 وأوبان المرجع المذكور ص. 317 ، وطروطر ، المرجع المذكور ص. 166 -170 وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص . 318 العمود 1و2؛ وقيير المرجع المذكور، ص 226 - 234، إلخ. . . انظر أيضاً أ. م. كواشون ، **المرأة من البرجوازية المتوسطة الفاسية** ص. 48 -49.

إلى فاس وغيرها من الأماكن . ولما قُطعت هذه الطريق ، صارت تجارة الزنوج أصعب وأقل انتشاراً ، حيث لم يكن الأمر يتعلق بعدُ سوى بأناس ملوَّنين من التخوم الصحراوية[207] ، أو بسود من السينغال أو غيره أُتي بهم إلى مراكش عبر موريطانيا ، بعد تحمل كثير من المخاطر ؛ ولعل بعض السفن أيضاً كانت تنزلهم أحياناً في مراسي الشاطىء ، لأن روني ـ لوكلير[208] يشير إلى أن فاساً كانت تتزود بالقصر من حين لآخر .

بيع العبيد : ـ ومهما يكن من أمر ، فإن الزنوج الذين يباعون بفاس كانوا يساقون إليها لحساب تاجرين أو ثلاثة متخصصين ، من جملتهم الحاج عبد الرحمن القصري[209]، والمدعو ابن كيران الذي كان يسكن في كُزام ابن برقوقة[210] ، والشريكان العمراني والصقلي . كان من صالح هؤلاء التجار أن يعتنوا جيداً بسلعتهم حتى تجد من يشتريها ؛ فكانوا يطعمون إطعاماً جيداً العبيد الذين اشتروهم قريباً وكان السفر أحياناً قد أنهك قواهم ، ويحاولون تعليمهم بعض الكلمات العربية ، الشيء الذي كان يزيد من قيمتهم . وكانوا يستعملون ، حتى سنة 1905 ، أسلوبين للبيع ، إما البيع بالتراضي بواسطة سمسارين أو ثلاثة[211] ، وإما البيع في سوق النخّاسة . ولم يكن يتم بيع السرايا إلا بالطريقة الأولى من أجل الكتمان ، وكان الزبناء يأتون عند التجار ليختاروا ما يشاؤون .

---

(207) أوبان ، نفس المرجع ، **ومحاضر دبلوماسية وقنصلية** ، عدد 2723، ص. 11 .

(208) روني ـ لوكلير ، نفس المرجع .

(209) أوبان ، نفس المرجع . كان هذا التاجر يسكن في درب البرْكة ، في حي القطانين ، قرب البنك الحالي لدولة المغرب . وكان محل بيع الرقيق بالرباط يسمى كذلك برْكة : انظر ل. برونو ، **نصوص عربية للرباط**، ص. 193 . ونفس الشيء في تونس العاصمة والقيروان . عن لفظ « برْكة » بهذا المعنى ، انظر دوزي ، **ملحقات** ، جزء 1 ص. 76 .

(210) ديرمينكْم ومحمد الفاسي ، **حكايات فاسية** ، ص . 93، هامش 2 . وإني لمدين أيضاً بجزء من معلوماتي للسيد عبد الوهاب بن طلحة ، الكاتب الترجمان بمصلحة الآثار القديمة بالمغرب ، الذي اعرب له هنا عن اصدق امتناني .

(211) أوبان ، نفس المرجع .

وكان سوق النخاسة يقام كل يوم بسوق الغزل ، المدعو بَرْكة حسب المقـام[212] ، بين صلاتي الظهر والمغرب ، وحتى إلى ظلام الليل ؛ كان يباع فيه بالمزاد العلني الزنوج الذين جاء بهم النخاسون ، وآخرون أراد سادتهم أن يتخلصوا منهم لسبب من الأسباب . يروي لـوتـي[213] ، على سبيل المثال ، أنه شاهد زنجية شابة كانت مولاتها مضطرة إلى بيعها ، لأنها أصبحت أرملة فقيرة غير قادرة على إعالة رقيق . وكانت الأثمان تختلف اختلافاً كثيراً حسب الواردات وخصال الأشخاص الذين يباعون . فحسب روني ـ لوكلير ، كانت القيمة تتراوح بين 50و 500 بسيطة حسنية بالنسبة للرجال ، وبين 500و 2.500 بسيطة حسنية بالنسبة للنسـاء[214] . وكانت هذه البيوع تثبت في عقود أمام العدول ، على شكل هذا العقد الذي بين يـدي[215] .

« الحمـد لله . اشترى الشريف سيدي هاشم بن الشريف سيدي إدريس الصقلي الحسني من بائعه الحاج العربي بن عبد الغني المومني ، الملكية التامة لأمة تسمى الآن[216] الياقوت ؛ لونها لون القهوة الممزوجة بالحليب ، وقامتها مائلة إلى القصر ، لها شفتان غليظتان ، وأنف أفطس جداً ، وحاجبان كثيفان . وبلغ ثمن البيع ثلاثين ريالاً (نقول : ثلاثين) . وأبرم الطرفان العقد وتبادلا فوراً الشيء المبيع والثمن بريال « بومدفع »

(212) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

(213) نفس المرجع ، ص. 187 .

(214) هذه أثمان 1904 . ويعطي طروطر حوالي سنة 1880 الأرقام من 100 إلى 150 دولار بالنسبة للزنجيات البالغات 16 إلى 18 عاماً ، ومن 70 الى 120 دولار بالنسبة للزنوج من نفس السن (المرجع المذكور) . وحسب ڤيير (المرجع المذكور ، ص. 229 كانت أمة سركسية ممتازة تساوي حتى 20.000 فرنك) .

(215) كان تسجيل البيوع هذا يمكّن من التسليم الى العبد « شبه بيان وصفي لأصله ، وخدماته والأثمان المتتالية التي بيع بها » . (ڤيير المرجع المذكور ، ص. 228) .

(216) كان معتاداً فعلاً أن يتغير أسماء العبيد في نفس الوقت الذي يتغير فيه أسماء سادتهم ، انظر برونو ، **النصوص العربية بالرباط** ، ص. 193 و194 .

الجـديـد[217] . وأبرأ كل واحد منهما الآخر ، حسب العرف في هذه المادة ، ممتنعين عن كل طعن بعد تصفية القضية والانتفاع . وقبل المشتري أن يتنازل عن فوائده العادية ، في شأن بيع هذه الأمة ، اللهم إلا إذا بالت في الفراش ، الشيء الذي لا يقبله هذا الشرط في علم شاهديه اللذين يصدقان العقد (والمتعاقدان) يتمتعان بقواهما العقلية . والمشتري معروف لشاهديه وعُرِّف لهما بالبائع الذي له حاجبان متقاربان ، ثقيل السمع تمري الأنف . في 7 جمادي الثانية 23/1316 اكتوبر 1898 » .

جميع المؤلفين مجمعون على القول بأن هذا السوق كان قليل الرواج حقيراً ؛ وكما قلنا سابقاً كانت الزنجيات الجميلات البدينات يُبعن بالتراضي . وفي عام 1905 ، وبإلحاح من م . سان ـ روني طايانديـي وزملائه بطنجة ، منع المخزن البيع العمومي للرقيق بفاس ، فلم يعد يوجد منهم أحد حتى عهد الحماية ، إلا عند المهرّبين .

وضعيات العبيد : ـ كان جميع هؤلاء العبيـد مُعَدِّين لـلأشغال المنزلية ؛ ولـم يكن يُستخدم الرجال إلا في الدور الكبرى ، كدور أعيان المخزن ، التي كانت تحتاج إلى خدام عديدين ؛ وكانوا يـرتدون عنـد الاستقبالات نوعاً من اللباس خاصاً بالخدم . وكانت النساء طباخات ، ومرضعات ، وخادمات يقمن بكل عمل ، ومغنيـات ، وسرايـا أيضاً في غالب الأحيان . وكان هؤلاء وأولئك يُعامَلون معاملة حسنة ، بصفة عامة ؛ وخير دليل على ذلك هو أنه ، عندما ألغت الحماية الرقيق ، بقي جميع العبيد تقريباً بفاس في أماكنهم . كانوا يتلقون بعض الضربات من حين لآخر ، وكان ربّ البيت أحياناً يستعين بزرزاية لتأديب العبد الذي ارتكب جريمة نكراء تأديباً صارماً[218] ، لكن الفاسيين لم يكونوا يبالغون ، ويحترمون واجباتهم بكامل الدقة : فكل أمة ولدت عُتقت[219] تلقائياً ، وكثير من المتقين كانوا يحررون

---

(217) نوع من « الدورو » الإسباني الذي ساعود إليه بصدد السكة (انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 1) .

(218) مذكرة حول زرزاية ذكرت سابقاً .

(219) ڤيير ، المرجع المذكور ، ص. 231 .

عبيدهم عندما يحسون بدنو أجلهم ، مقدّمين بذلك حسنة لوجه الله . هذا ، وكان بإمكـان العبد البائس أن يحتمي بأحد الأضرحة حيث كان حق الالتجاء معترفاً به[220] ويطالب ببيعه ؛ وكانت تُلبّى رغبته دائماً إذا كانت مطالبه جدية واعترف بها القاضي . وكانت الزنجيات يتمتعن بالحرية أكثر من سيداتهن ؛ يخرجن بسهولة أكثر ولا يحتجن إلى نقاب . وإذا كن ذكيات مخلصات كان لهن في الأسر تأثير حقيقي جداً في الشبان والشابات الذين كبروا بين أيديهن : فكم من مرة سمعت الحديث عن هؤلاء العجائز « دادات »[221] اللائي كنَّ يُستشرن في كل مناسبة واللائي كان رأيهن يرجح أحياناً رأي رئيس الأسرة ! .

وكان الرجال من العبيد يحتفظون بعض الوقت بذكرى لغتهم وأغانيهم من هنالك ، فكانت تحيا من جديد في محافل كْناوة[222] ؛ لكن ابتداء من الجيل الثاني ، كان كل شيء يُنسى ، وذلك من أجل بعد مسقط رأسهم الشاسع وسيطرة مدينة متفوقة بكثير عليهم . أما النساء ، فكن يندمجن بسرعة أكثر ، غير محتفظات من دغلهن الأصلي سوى بلونهن الآبنوسي ، ومرحهن الطبيعي ، وصراخهن الثاقب الذي كان يملأ الأفنية ، وبعض العبارات المزدوجة اللهجة التي تثير ضحك الفاسيين . وقد حمل العبيد السود إلى فاس ، فضلاً عن تأثير الدم الذي لا يُستهان به ، اعتقادات سحرية ، وطقوساً وحتى عبارات شاركت في طرافة الوسط البرجوازي بفاس[223] .

الفاسيون : ـ أرقـام . ـ قد يكون مفيداً التمكن من التقدير بأرقام جديّة للمجموعات التي استعرضتها ، إذ سنستطيـع من بعد ، بمجرد عملية طرح ، تقدير عدد أهل فاس بالذات ، لكني لم أجد بيانات بالأرقام إلا بالنسبة لزرزاية ، وهي مجموعة قليلة جداً ، وللجزائريين والتواتيين ؛ وهي ليست مع

---

(220) انظر ما يأتي الكتاب 8 ، الفصل 3 .
(221) هكذا تُسمى بفاس الإماء المرضعات .
(222) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .
(223)) انظر ما يأتي ، الكتاب 7 ، الفصل 5 .

ذلك إلا تقريبية . وحيث إن العدد الإجمالي لسكان فاس ليس أصحَّ من ذلك ، فلا بد أن نستسلم لعدم معرفة عدد الفاسيين في بداية القرن العشرين : فقد كانوا بضع عشرات آلاف ، وربما كانوا ستين ألفاً .

هذا ، وهل المفهوم ذاته لاسم « فاسي » ليس إلا وهماً ؟ وهل لسنا بالأحرى سوى أمام فسيفساء من أفراد من جميع الأصول والألوان احتفظوا ، وهم يحتكون بعضهم ببعض ، بعوائد الجسم والفكر التي حملوها معهم إلى شعب مولاي إدريس؟ . ويمكن أن يخالج هذا الاعتراض ذهن أي واحد لم يسبق له أن عاش في هذه المدينة ، وإنما يعرف تاريخها ويبرز الإمدادات المتواصلة التي تلقّتها من الخارج . لكنَّ تجربة الحياة بفاس تخالف قطعاً مثل هذا التصوّر ؛ فجميع من كان لهم اتصال بسكانها يعرفون أنهم يشكّلون مجموعة ذات شخصية مطبوعة جيداً وواقعية حقاً : فسواء منهم البربر أو الجزائريون ، أو السوسيون أو الأوروبيون الذين تمرَّنوا على الواقع الفاسي ، فَيُمكنهم أن يأتوا بأحكام مختلفة حولها ، لكنهم يتفقون على تثبيت كيانها ويستطيعون تمييزها أينما كانت ، حتى ولو لم يكونوا حاذقين جداً ، للكشف عن عناصرها .

الشخصية الذاتية : ـ هل شخصية الفاسيين منوطة بنموذجهم الذاتي ؟ وهل توصلوا أخيراً خلال القرون إلى تكوين شبه نوع بيولوجي سهل الاكتشاف ؟ قد نميل إلى تأكيد العكس إذا ما تقيدنا بمعطيات التاريخ . وفعلاً ، إذا نحن أردنا أن نتذكر جيداً البيانات التي أعطيناها أعلاه[224] ، لاحظنا أن سكان فاس مؤلفون من عناصر عرقية مختلفة جداً : فهناك بعض العرب أصحاب إدريس الأول ، الذين وإن حذوا حذو رئيسهم فقد تحالفوا بسرعة مع البربر المجاورين لهم ؛ وهناك بربر جبال زرهون والسهول المجاورة الذين صحبهم إدريس معه إلى عاصمته الجديدة فكوّنوا على ما يبدو العنصر

(224) انظر الكتاب الأول .

المهم من السكان الأولين ؛ وهناك مسلمون من الأندلس ، ومدنيون من القيروان ، وإسرائيليون اعتنقوا الإسلام فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر ، أمثال الكوهن ، وابن شقرون الخ . . . . ، وعرب آخرون دخلوا المغرب عند ظهور بني هلال (ومنهم قبيلة حميان المجاورة لفاس) ؛ وإسلاميون من جميع بلدان أوروبا ، ما زالت بعض الأسر منها تحمل الاسم المميّز لها (لعلج)؛ وبربر الشمال (الصنهاجي والغماري)؛ وصحراويون أتوا أيام المرابطين أو فيما بعد، وخاصة مع العلويين ؛ ومدنيون من مدن مغربية أخرى (كعائلات السلاوي ، والمكناسي ، والمراكشي ، والصفريوي) ؛ وأبناء الزنجيات ؛ ومشارقة لا نعرف متى جاؤوا (الشامي) . وإذا أردنا أن نقتنع أكثر بذلك فيكفي أن نتصفح لائحة الأولياء الذين يذكرهم مؤلف **سلوة الأنفاس** : فسنجد فيها قوماً من جميع الأصول أصبح لمعظمهم أحفاد بفاس ؛ ولا ينقص إلا بربر الأطلس الجبليون . وهل يمكننا أن نتصور خليطاً أكمل لنماذج ذاتية ؟ كنت أشاهد طوال عشر سنوات ، بثانوية مولاي إدريس بفاس ، شباب هذه المدينة ؛ رأيت فيهم أطفالاً شقراً زرق العيون لا يُستغرب لقاؤهم في مدينة إيطون (بأنكلترا) ، وصغاراً سمراً بسحنة برونزية كجميع المتوسطيّين ، وعيوناً متألقة وملامح دقيقة للمشارقة ، ووجوهاً مربعة خشنة ، وأشباحاً لصغار أمراء أندلسيين . ومع ذلك ، فإن قروناً من الحياة الحضرية ، واقترانات متكررة بين هذه العناصر المتباينة ، مع مناخ ، وغذاء ، وعادات مماثلة ، قد شكّلت نموذجاً فاسياً حقيقياً ، يتميز بلون شاحب حتى مع اسمرار اللون أو اصطباغه ، وعضلات ضعيفة ومشية بطيئة ، وأعصاب شديدة التأثر ، وجسم سيء النضج ، وملامح رقيقة نبيلة ، ونظرة عميقة .

الشخصية المعنوية : ـ إذا تركنا الميدان الشكلي إلى الميدان الاجتماعي والفكري ، فإن شخصية الفاسيين تظهر أكثر وأقوى ؛ إنها تشكلت في وقت مبكر ، وكيّفت منذ ذلك الحين الوافدين الجدد الذين استطاعوا أن يغنوها ببعض الدقائق الجديدة ، لكنهم لم يغيّروها جذرياً ، بل بالعكس

خضعوا لقانونها. فالعربي حمل معه نبله ، والأندلسي رقّته ، والقيرواني مهارته ، واليهودي حيلته ، والبربري صلابته ؛ وقد انضم إلى هذا المزيج من الاستعدادات مسطرة اجتماعية غير مكتوبة ، لكنها إجبارية ، هي « القاعدة » ، وذوق في غاية الحيوية للدراسة والأشياء الفكرية ، وميل طبيعي للحياة الدينية ، وطريقة ذهنية ثاقبة لاذعة . املؤوا هذه الأطر برصيد مشترك في غاية الأهمية من أفكار أخلاقية ، واعتقادات ، وذكريات ، وخرافات ، وعبارات ، تدركوا أن الحديث عن الفاسيين هو بمثابة حديث عن كيان .

وحتى يتعايش هؤلاء الناس تعايشاً مرضياً ، وهم متباعدون إلى هذا الحد بعضهم عن بعض أصلاً وسلوكاً ، فقد بذلوا مجهوداً عظيماً للتقنين الأخلاقي وتوفقوا في خلق أسلوب معاشي خاص بهم ، غني ومتنوع ، يطبق على جميع تصرفات الحياة ، انطلاقاً من طريقة الأكل والاقتبال ، إلى أسمى العلاقات الفكرية . يُسمَّى مثل هذا المجهود حضارة : ويمكن الحكم عليه بفاس كما نشاء ، لكن يجب أن نعترف بوجوده ، وبنموه الكبير وبأنه لا يخلو من لباقة .

افهموني جيّداً ؛ إنني لا أريد أن أصف الفاسيين وكأنهم مماثلون بعضهم لبعض ، فإنه توجد من بينهم أصول لغوية يسهل على العالم باللهجات أن يكتشفها ، وعشائر يتجاهل بعضها بعضاً : فبعض الشرفاء يتحدثون بشيء من السخرية عن « البلديين » ، أي اليهود الذين أسلموا وبيدهم مقاليد التجارة . لكن هذه الخلافات ليس من شأنها سوى أن تقوي أكثر وحدة الفاسيين العميقة وهي تذكر بتعدد أصولهم .

أولائك هم الناس الذين سأحاول ، في الفصول القادمة ، أن أقدمهم وهم يعيشون في حاضرتهم . فلن أطيل إذن هنا في تفصيل عوائدهم ، وسأكتفي بالإشارة إلى بعض خصائصهم العامة التي لا يسمح لي ، فيما بعد، التحليل المفصل بإبرازها إبرازاً كافياً .

إنه من الطبيعي أن يعتز مدنيون وصلوا إلى درجة من الحضارة بأنفسهم . ولا يُستثنى أهل فاس من هذه القاعدة : إنهم يلحون بسرور على

ماضيهم المجيد وجودة تنظيمهم المدني وحذاقة صنّاعهم ، ونشاط تجارتهم وسعتها وكمال ثقافتهم وعملهم الديني . وعندما تستمع إليهم ، تحسب أن فاساً أحد المراكز الأساسية في العالم الإسلامي ، بله العالم أجمع . وقد سخر بعضهم ، مثل صاحبنا موليبراس[225] ، من هذا الادعاء الساذج في نظرهم . ولعلهم لم ينتبهوا جيداً إلى وضعية فاس في مغرب 1900 . فإذا قورنت فاس بالسكان القرويين المحيطين بها ، وكذا بسائر مدن المغرب ، كان لها إذ ذاك تفوّق لا يُجحد من جميع النواحي التي ذكرتها آنفاً : فقد كانت بالطبع مركز حضارة وتهذيب في قلب عالم فوضوي لا يكاد يختلف ؛ وإذا نُظر من هذه الزاوية فإن شعور التفوق الذي يحس به الفاسيون ، كان مبرراً تماماً . وكيف كان يمكنهم الحكم على أنفسهم بالنسبة لباقي العالم ، ومعظمهم يجهلونه ؟ باستثناء بعض التجار المقيمين بأوروبا[226] ، والدبلوماسيين القلائل الذين كانوا يذهبون للتفاوض مع حكومات لندن ، وباريس، ومدريد أو برلين ، وحجاج البقاع المقدسة ، فهم وحدهم الذين كان في استطاعتهم أن تكون لهم أفكار مختلفة . فكم كان عددهم وهل كانوا قادرين على تأثير فعّال في اعتقادات مواطنيهم الراسخة ؟ ومن جهة أخرى ، كيف كانوا ينظرون إلى المشاهد التي كانت تعترضهم في أسفارهم ؟ لقد كانوا حقاً يعترفون بتفوق أوروبا التقني ، لكن غالباً ما كانوا يعزونه إلى شبه قوة سحرية أو شيطانية . ثم إن هذا التفوق لم يكن تفوقاً في نظرهم ، وهم المؤمنون الحقيقيون : فالتفوق الحقيقي كانوا يرونه في الإيمان والتعامل مع اللّه ، ولم يكونوا يظنون أن أوروبا تتفوق عليهم في هذه النقطة .

كراهة الأجانب : ـ كان شعروهم بقيمتهم الممتازة يحملهم على إظهار شيء من التنازل لكل ما ليس فاسياً . ومن هناك جاءت كراهة الأجانب الغير المكترثة التي أشرت إليها عند حديثي عن الأوروبيين الذين كانوا يعيشون

---

(225) نفس المرجع ، هنا وهناك .

(226) انظر ما يأتي ، الكتاب الخامس ، الفصل 6 .

بفاس[227] . لقد سبق لي القول بأنهم لم يخصصوا هذا الموقف للأوروبيين وحدهم ، بل جرّبه أيضاً الجزائريون[228] ، وقبلهم بدو المغرب[229] وخاصة البربر . يتحدث الدكتور ليناريس ، في مذكرات رحلته إلى تافيلالت ، عن « كره الأمازيغ »[230] » للمخزن ولأهل فاس[231] . وهذا شيء مشاهَد واضح ، وسجّله كذلك أوبان[232]. وغالباً ما تعرض سكان فاس ، خلال تاريخهم ، للغارات والنهب من قبل الجبليين البربر ؛ وحتى عام 1908 ، كانوا يذهبون بسلاحهم إلى الصلاة يوم عيد المولد(*) ، خائفين من هجوم القبائل المجاورة[233] ، وعام 1911 ، حوصرت فاس من طرف البربر قبل أن يخلّصها طابور موانيي . لكنَّ شعورهم ليس مركباً من الخوف والحقد فحسب ، بل تغذّيه كذلك شفقة الاحتقار التي يحس بها رجال الفكر إزاء الجهال ، والاستنكار الذي يشعر به المؤمنون الأتقياء إزاء قوم لا يعرفون تعاليم الكتاب الكريم ويخالفونها باستمرار .

ولا بد من الاعتراف قبل كل شيء بأن هذه العجرفة الفاسية تُلطِّفها روح قوية للضيافة في كثير من الحالات الخاصة : فقد جرّبها شخصيّاً العديد من الفرنسيين[234] ، ولا ينبغي أن ننسى أنه ، أثناء أيام أبريل 1912 القاتمة ، نجا

---

(227) انظر ذلك فيما سبق .

(228) المرجع المذكور ، ص. 199 .

(229) انظر المثل الفاسي الذي يقول : « كلما ولد فاسي ، خلق الله في نفس الوقت عشرة قرويين ليخدموه » ، وقد ذكره أحمد الصفريوي في عادات المولد بفاس ، في ف . بونجان ، **الروح المغربية** ، ص. 79 .

(230) يسمِّي جبليو الأطلس المتوسط أنفسهم إيمازيغن (الرجال الأحرار) ، وتسمى لغتهم تمازيغت .

(231) **رحلة إلى تافيلالت مع جلالة السلطان مولاي الحسن سنة 1893** ، ص. 8 ، وهنا وهناك .

(232) **مجلة باريس** ، 15 فبراير 1904 ، ص. 859 .

(*) عجيب ! وهل في عيد المولد صلاة ؟ ! . (مترجم) .

(233) ميطرو دي لاموط ـ كايرون وطرينكا ، **يومية إسرائيلي بفاس** ، ص. 155 و 176 .

(234) انظر لوتي المرجع المذكور ، ص. 249 .

الكثير من الفرنسيين من موت محقق بفضل بعض الفاسيين الذين لم يعرضوا إلّا أنفسهم للخطر بفعلهم هذا[235] .

روح المعارضة : ـ إن الموقف الذي رسمت خطوطه العريضة آنفاً يؤدي حتماً بأهل فاس إلى الدخول في المعارضة ، إن لم تكن معركة سافرة ، مع الحكم مهما كان . وقد تنازعت جميع الدول المغربية تقريباً مع هذه المدينة الناقدة : فمن يوسف بن تاشفين إلى مولاي عبد العزيز ، تطول لائحة الملوك الذين اضطروا إلى إخضاع فاس بالقوة . . . أو إلى الانصراف عنها[236] . وقد اتخذ أخيراً العلويون ، قبل الحماية ، القرار الحكيم الرامي إلى إشراك الفاسيين في الحكم بتوظيف عدة وزراء وموظفين سامين من بينهم ، إلّا أنهم لم يتوصلوا مع ذلك إلى استمالة فاس النافرة استمالة تامة . وفي الوقت الذي ثار بوحمارة ضد مولاي عبد العزيز سنة 1904 ، كان يُطلع أنصاره على رسائل واردة من فاس في شأن الانضمام إليه . هل كانت هذه الرسائل مزيَّفة ؟ لا يهم ، ما دامت محتملة إلى حدّ[237] . ولما بويع مولاي حفيظ سلطاناً بعد ذلك بمراكش سنة 1907 ، انضمت فاس إلى حزبه متحمسة لكن ما كاد يتولى الحكم في مدينتهم حتى انضم الفاسيون إلى المعارضة ابتداء من 1909 ، وأرسلوا صناديق الرصاص إلى بوحمارة ، وهو ما زال يدعي الملك[238] . إنها تصرفات ذهن ناقد متطور هنا أكثر منه في أي مكان آخر بالمغرب .

الترف (السيباريسية) : ـ هذه خاصية أخرى يظهر لي أنها جوهرية ، وهي ذوق الفاسيين لرفاهيتهم وما يعملون من تفنن في إرضائه .

---

(235) هذه خاصية قليلاً ما يلحّ عليها هوبير ـ جاك ـ لأسباب واضحة ـ في كتابه المتحيّز جداً ، أيام فاس الدامية . ولم تكن المذابح من فعل الفاسيين بل من فعل العسكر وغوغاء الضواحي .

(236) انظر الكتاب الأول ، هنا وهناك .

(237) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 405 .

(238) ميطرو دي لاموط ـ كاپرون وطرينكا ، المرجع المذكور ، ص. 277 .

يتحدث بعضهم عن المدينة المتقشفة ، وذلك فعلاً أول انطباع يشعر به المرء عندما يسير بين جدران بدون نوافذ ومتهدمة في غالب الأحيان ، في أزقة مظلمة أرضها غير مستوية . غير أن للقيصرية مظهراً فاخراً يدعو إلى التأمل ، وعندما يلتقي المرء بهؤلاء البرجوازيين المرتدين لباساً ناصعاً ، وهم يمتطون متن بغلات لامعات ، يكون مضطراً إلى التفكير بأن هؤلاء الأشخاص يعتنون بأنفسهم إلى أقصى حدّ . وفعلاً ، إذا دخل الإنسان إلى هذه الأفنية التي تتداعب فيها درجات ألوان الزليج ، وتغني فوّارات الماء ، وتدمدم على الأرضية أرجل الوصائف الحافية ، أحسَّ هنيهة بوهم الحياة في جو اللذة الذي أحاطت به ألف ليلة وليلة الشرق للأبد . وهذا انطباع خاطىء بقدر خطإ الأول والحقيقة بينهما .

لا نجد بفاس كل الترف والملذات التي غذّى بها المؤلفون العرب مخيلاتنا ، ولكننا لا نخاطر كذلك بأن يخنقنا كيان صارم زاهد . فالفاسيون أناس يحبون عيشة راضية ، ويلتمسون رغد عيشهم ويريدون إرضاءه تماماً ، لكنهم لتعقلهم يعرفون كيف يجعلون حداً لشهواتهم . وضيافتهم واسعة من غير أن تكون باذخة ؛ وأكلاتهم وفيرة من غير أن تكون شرهة ، وفي الإطار الذي حددوه لأنفسهم أو الذي سطره القدر لهم ، يعرفون قيمة الكثير من التفاصيل الصغيرة التي تجعل لحظة من الحياة ممتعة جداً : منها وضع مخدة وضعاً جيداً عقب الغداء ، وقطع من السكر تضاف أو تنقص لتعطي الشاي مذاقه التام ، والصوت المنخفض الذي يلطّف أتفه المحادثات ، والكلمات الحلوة التي ستكمّل وتلوّن نهائياً حديثاً بسيطاً . وقد كتب أوبان[239] : « لقد شاركت في تهذيب حياة الفاسيين وتدربت على تفصيل عوائدهم ، بين أناس متحفظين ومهذبين ، تزيد عندهم سعة اللباس في شرف العادات، ويتمتعون بهدوء بالموسيقى والأكل الفاخر ، وهم ملاطفون ، متؤدبون ، يتركون نعالهم في الباب حتى لا يحملوا إلى الزرابي قذارة الشارع ، ويدخلون برصانة ،

(239) المرجع المذكور ، ص. 335 .

ويتبادلون مع ضيفهم عبارات المجاملة أو يقبّلونه على كتفه ويجتهدون حتى في الخفض من صوتهم ، إذا ما أرادوا أن يقولوا شيئاً ، لكي لا يزعجوا الراحة العامة». ويدّل الحرص بهذا القدر على عدم إزعاج الغير أن الفاسي لا يحب أن يزعجه أحد ، ويرغب في أن يستفيد من الوقت الذي يقضيه أكثر ما يمكن من السعادة أو أقل ما يمكن من الملل .

هذا الترف (السيباريسية) الذي يمكن أن يكون خطيراً ، تعادله لحسن الحظ امتثالية قوية : هي « الحشومة » وهي شعور يعزفه الفاسيون من كل الطبقات الاجتماعية منذ نعومة أظفارهم . وهل هي امتثالية ؟ أو نفاق ؟ ذلك أمر محتوم : فإن مجتمعاً قوي النظام يؤثر أحياناً بشيء من الشدة في كل فرد . لكن الفاسي مدين لهذا « التهذيب » الذي يعطيه هذا القدر من الثمن . ثم إن ما يصرفه عن الاستسلام للفتور هو أن له ذوقاً قوياً للدراسة ونشاطاً فعالاً في الحياة العملية ؛ إني لا ألحّ على ذلك ، إذ ستتاح لي الفرصة للرجوع إليه في الفصول التالية .

وبالجملة ، فإن هؤلاء السكان الفاسيين قوم عقلاء أساساً ، نشطون في هدوء ، متمتعون مع تقوى ، توصلوا إلى الحل المرضي للمشاكل العويصة التي تطرحها حياة الناس المشتركين . وهل يطلق لفظ حضارة على شيء آخر غير هذا ؟

4

الكتاب الرابع

النظم الحضرية

إن الازدواجية التي بينتها بين فاس الجديد والمدينة في الأرضية أولا ، ثم عندما يتعلق الأمر بالسكان وندرس النظم الحضرية للكتلة الفاسية . وهنا أيضاً ، فإن لكل من المدينتين سيرتها الخاصة .

1/4

الفصل الأول

ادارة المدينة

كانت إدارة فاس البالي مسندة إلى ثالوث من الموظفين : العامل[1] والمحتسب ، والقاضي . وكان تحت أمرهم المنفذون وهم المقدّمون .

العامل : ـ كان العامل هو ممثل المخزن بفاس ؛ وكان يباشر سلطته تحت المراقبة المباشرة للسلطان او خليفته بفاس[2] . ويبدو بالتالي أن سلطاته لم تقتصر على مدينة فاس وحدها ، بل كانت تمتد ، حسب أوبان[3] حتى إلى قبيلة أولاد الحاج بسهل سايس ، وإلى عدة قرى فيه تابعة لقبائل مختلفة ؛ وهذا بدون شك أثر تصور أن الوحدة الإدارية الفريدة بالمغرب كانت هي القبيلة ، وأن المدينة كانت تعتبر كجسم طارىء في حظيرة البنية القبلية .

---

(1) يسمى الآن عامل فاس الباشا . ولم يكن هذا اللفظ مجهولاً بالمغرب ، إذ كان يشكّل اللقب الرسمي لرئيس قبيلة شراكّة العسكرية . ونحن الذين نشرنا استعماله باستيراده من الجزائر ، حيث كان كثير الاستعمال هناك ككثير من الألفاظ الإدارية التركية . وكان هذا الموظف ، في إسبانيا الإسلامية ، يحمل اسم صاحب المدينة أو حاكم المدينة . انظر ليڤي ـ بروفنصال ، **إسبانيا الإسلامية** ، ص. 93 -94 .

(2) عندما كان السلطان يتغيب عن فاس ، كان يسلم سلطته إلى شبه نائب ملك يهيمن على فاس وناحيتها : وكان دائماً أحد أقرباء العاهل ، إما أخوه أو أحد أعمامه . وإذا كان هذا النظام ضرورياً في عهد كانت المواصلات بطيئة وغير محققة ، فلا داعي الآن لوجوده . لم يبق لخليفة فاس وخليفة مراكش سوى دور شرفي : فبمناسبة الأعياد الكبرى يتقبلون باسم السلطات ولاء سكان ناحيتهم .

(3) المصدر المذكور ، ص. 392 .

وكان عامل فاس ، كسائر عمال المغرب وقواده ، يتولى في آن واحد سلطات إدارية وقضائية . وكان في نفس الوقت والياً رئيس شرطة[4] وقاضي الجنح والجنايات . وكانت محكمته بإحدى دور الأحياء العليا بفاس ، هي دار بوعلي ، تحت سيدي أحمد الشاوي بقليل[5] . وكان يساعده في مهمته خليفة[6] . بالإضافة إلى أنه كان محاطاً بعدد مختلف جداً من أعوان التنفيذ (المخازنية) كان المتقاضون يؤدون لهم أجراً معيناً يسمى السخرة (هدية) ، كلما التجؤوا إليهم . وكان رئيس هؤلاء الأعوان (الشاوش) يتقاضى نسبة مائوية يحددها العرف من جميع هذه الأجور ، فكانت له بمثابة راتب ، وبذلك لم يكن موظفو العامل يكلفون الدولة ثمناً غالياً .

وبصفة عامة ، فإن المخزن لم يختر العامل من بين الفاسيين ؛ وهكذا فإن صاحب هذه الوظيفة كان في سنة 1903 طنجياً من أصل ريفي ، هو الحاج عبد الرحمن بن عبد الصادق الذي كان يحظى مع ذلك برضى السكان[7] ، بخلاف خليفة العامل الذي يكون عادة من أسرة فاسية عريقة ، كابن شقرون في نفس السنة .

المحتسب : - وثاني شخصيات الثالوث هو المحتسب[8]. وكان

---

(4) كانت هذه الوظيفة مسندة بإسبانيا إلى قاضٍ لم تعرفه فاس قط ، هو صاحب الشرطة . انظر ليفي - بروفنصال ، المرجع المذكور ، ص. 88 -94 .

(5) الرسم 10 بقيت مكاتب العمال هناك إلى سنة 1934 . ثم نقلت من ذلك التاريخ إلى مقر بنك الدولة المغربية بزنقة وادي الفحّالين بالقرب من الإقامة العامة ، وصارت دار بو علي حينئذ مقراً لإدارة أحباس القرويين .

(6) لباشا فاس ، في الساعة الراهنة ، ثلاثة خلفاء ، أحدهم مكلف خصيصاً بفاس الجديد .

(7) أوبان . المقال المذكور ، ص.860 . وكان سلف الحاج عبد الرحمن ، وهو بوشتى البغدادي ، من أسرة قبيلة بْغَدَّة ، في الغرب . وكان ابنه باشا فاس من 1914 إلى 1932 .

(8) انظر وظيفة المحتسب (الحسبة) ، ليفي بروفنصال ، المرجع المذكور ، ص. 175 -178 ؛ ج. س. كولان وليفي - بروفنصال ، موجز إسباني للحسبة ، المقدمة ، ص. 61 . كتاب الولايات في الخطط الشرعية للونشريسي ، ص. 18 -24 ور. ليفي ، مقال المحتسب في =

يُعيَّن ، كالعامل ، من طرف المخزن ، ولكن دائماً تقريباً من بين الفاسيين العريقين ؛ وكان محتسب فاس ، في بداية القرن العشرين ، هو السيد محمد التازي ، أخو وزير مالية مولاي عبد العزيز[9] . وكانت محكمته في قلب المدينة بباب سيدي فرج ، في شبه سقيفة خشبية[10] ؛ لكن ، نظراً لضيق المحل فإنه كان قلما يذهب إليه ويعقد جلساته في عتبة منزله[11] .

وكانت اختصاصات المحتسب تتعلق بالاقتصاد والأخلاق ، وفق السنة الإسلامية . فكان يسهر على انتظام المعاملات التجارية ، مراقباً الموازين والمكاييل ومحدداً ثمن المواد الأساسية للتجارة الفاسية ، بما فيها الخبز ، واللحم ، والفحم ، والزيت ، والسمن والإسفنج[12] . وهذه التسعيرة المحددة تختلف مدتها اختلافاً كثيراً ، إذ تدوم بضعة أيام أو بضعة أشهر . وكان يدخل في نطاق اختصاصه كذلك مراقبة أفران الخبز ، والأسواق وجميع الصناعات بفاس ، حيث كان في استطاعة أي مشتر ظن أنه خُدع في الجودة أن يلجأ إليه . وفيما يتعلق بالأخلاق ، لا يبدو أنه احتفظ بمراقبة المومسات التي كانت تؤول إلى زملائه بإسبانيا في الأزمنة القديمة[13] ؛ وخلافاً لذلك فإنه لم يزل محتفظاً بمراقبة الحمّامات . وأخيراً كان يبتّ في كافة النزاعات

دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 3 ، ص. 751 . وفي الواقع ، إذا رجعنا إلى حق التصدر ، فكان المحتسب يأتي بعد قاضي القضاة (انظر روني - لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 300 . وانظر عن وظيفة المحتسب بالقاهرة ، كليرجي ، **القاهرة** ، جزء 2 ، ص. 131 -132 و 136 -137 .

(9) انظر ميشو - بلّير ، **وصف فاس** ، ص . 313 . وقد أصبح هذا الشخص ، وهو والدباشا فاس السابق ، لمدة طويلة ، مندوباً للسلطان بطنجة . وتوفي منذ قليل .

(10) ميشو - بلّير ، وصف فاس . انظر عن سيدي فرج ما يأتي . وفي عهدنا هذا أقيمت محكمة المحتسب في الزقاق التجاري للقطانين ؛ وكانت أيام مارمول قرب عين علّون (الكتاب 2 ، ص . 165) ولعلها كانت مقامة بباب سيدي فرج .

(11) ميشو - بلير ، نفس المرجع .

(12) روني - لوكلير ، المرجع المذكور ، ص. 300 .

(13) انظر - ليڤي - بروڤنصال ، المرجع المذكور ، ص. 185 -187 . وسنرى فيما يأتي أن مراقبة المومسات كانت تسند إلى المقدّمين .

الصناعية أو التجارية ، بعد استشارة الخبراء[14] . وكان يُعتبر حقّ المعاقبة المخوَّل له مفرطاً ، إذ منعه السلطان سنة 1895 ، من الحكم على متقاضيه بالجلد أو بأكثر من السجن لمدة يومين[15] .

ونظراً لاختصاصاته المتعددة الأشكال ، كان الفاسيون يطلقون عليه اسم الفضولي ؛ ويتضمن هذا اللفظ طبعاً لوناً من التحقير ، ليس فقط لأن المحتسب كان يزعج الكثير من الناس (وذلك جوهر دوره بالذات) ، ولكن بالأخص لأنه كان يستسلم للإغراءات المتنوعة التي كانت ترهقه .

يروي نائب قنصلنا أن السلطان منعه من أن يسمح لأولاده بالمشاركة في إدارته[16] . ويحكي إيركمان[17] أنه عندما كان مكلفاً ببيع أطعمة مختلفة بعضها فاسد وهي في ملك المخزن ، كان يمنع من حين لآخر بيع أشياء جديدة من نفس النوع ، للضرر الكبير الذي يلحق التجار والمستهلكين . وحسب نفس المؤلف[18] ، كان يضع جانباً لأصدقائه أجود ما كان يصادف بالسوق ، وذلك رغم الاحتجاجات المتواصلة . وأخيراً فإنه لم يكن يتقاضى راتباً رسمياً بصفة خاصة ؛وإنما كان يجعل لنفسه على حساب أهل الحرف أي المساكين ، إتاوة هامة نقداً أو عيناً . وعلى سبيل المثال كان يدفع له كل صاحب طاحونة6 بسيطات في الشهر وبائعو السميد والخبز 60 أوقية (نحو 2,40 فرنك) [19] ، والجزارون 0,25 بسيطة عن كل خروف مذبوح ، ورطلين من اللحم يومياً : وغالباً ما كانت تُعوَّض هذه الإتاوة العينية بمبلغ مساوٍ لها نقداً . وإلى ذلك كان

(14) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 305 .

(15) رسالة نائب قنصل فرنسا بتاريخ 22 سبتمبر 1895 .

(16) المرجع المذكور . وبالإضافة إلى بعض أعوان التنفيذ (المخازنية) ، كان يساعد المحتسب خليفة غالباً ما كان من عائلته (ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 313) .

(17)**المرجع المذكور** ، ص. 166 .

(18) المرجع المذكور .

(19) رسالة من وكيلنا القنصلي بتاريخ 14 جمادى الثانية 24/1311 ديسمبر 1893 .

المحتسب يستخرج بعض الربح من مراقبة الموازين والمكاييل[20] . ولم تكن هذه الإتاوات تكتسي نظرياً أي طابع إجباري ، لكنها كانت تؤدَّى بدقة ، وإلا كان بإمكان المحتسب أن يفرض ضريبته بحيث يشتغل هؤلاء وأولئك بخسارة . فكان المحتسب لذلك شخصاً مخوفاً غير محبوب من الناس .

القـاضــي : ـ لم يكن بفاس ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، إلا قاض واحد ، وكان يدعى قاضي القضاة[21] . ولم تكن سلطته تمتد إلى الشؤون الدينية بفاس فحسب ، ولكن أيضاً بالمملكة الشريفة كلها[22] . كان يعيِّن جميع قضاة البلاد الخاضعة لحكم السلطان (بلاد المخزن)[23] ، ويسيِّر جامعة القرويين وله اليد العليا على أحباس مدينة فاس[24] ، أي كان له فعلاً مراقبة المدينة ، إذ كانت أهم المصالح العمومية تزوَّد من موارد الأحباس كما سنراه بعد ؛ وأخيراً ، كان من اختصاصه البتّ في جميع النزاعات المتعلقة بالأحوال الشخصية للمسلمين (بما في ذلك التركة ، والطلاق ، إلخ . . .) .

لذلك كان القاضي شخصية عظيمة ، من أرومة فاسية دائماً تقريباً أو ممن له فيها أوثق الصلات ، إذ كان إلزامياً أن يكون متخرجاً من جامعة

---

(20) روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور .

(21) هذا لقب شرقي . وكان القاضي الأعلى بإسبانيا يسمى قاضي الجماعة . انظر دوزي ، **ملحق** ، جزء 2 ، ص. 363 ، وليڤي ـ بروڤنصال ، المرجع المذكور ، ص. 81 -86 . ثم إن هذه التسمية كانت ما تزال معروفة بفاس ؛ انظر في هذا الصدد پيريتيـي ، **مدارس فاس** ، ص. 315 ؛ وتوجد في بعض النصوص الرسمية (انظر ما يأتي النص المتعلق بالنزاعات حول الماء) . وعن وظيفة القاضي ، انظر : **كتاب الولايات في الخطط الشرعية للونشريسي** ، ص. 31 -97 .

(22) سالمون ، **الإدارة المغربية بطنجة** ، ص. 24 .

(23) وحسب پيريتيـي (المرجع المذكور ص. 330) قد فقد قاضي فاس هذه المزية ابتداء من دولة سيدي محمد (منتصف القرن التاسع عشر) ؛ ثم أصبح تعيين القضاة من اختصاص الأمير .

(24) كما أن بإسبانيا الإسلامية كان قاضي الجماعة يحرس بيت المال حيث كانت تجمع موارد الأحباس ، انظر ليڤي ـ بروڤنصال ، المرجع المذكور .

القرويين . ومهما كان متحلياً قليلاً بشخصية قوية ، لم يفته أن يقلق المخزن . وهكذا لما طالب القاضي مولاي محمد الفيلاني العلوي ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بتعيين قاض ثان بجانبه ، قبل المخزن طلبه بسرعة[25] ، منتهزاً هذه الفرصة لتقسيم سلطة أصبحت شيئاً ما خطيرة ، ولاسترجاع المراقبة الإدارية في نفس الوقت ، وكان زمامهما قد أفلت من يده جزئياً .

فكان إذن دور قضاة فاس ، في أوائل القرن العشرين ، أقل أهمية[26] ، إلا أنه بقي خطيراً ، إذ كانوا يقترحون دائماً على المخزن مرشحين لكراسي جامعة القرويين ، وللمناصب الدينية ومراكز القضاة الشاغرة في البلاد الخاضعة للسلطان[27] ؛ يراقبون دائماً إدارة الأحباس ، محتفظين هكذا بالدور الأول في إدارة الحاضرة ؛ ويذهب أوبان حتى إلى القول : « إن أهم سلطة فاس البالي ترجع إلى العامل الممثل المباشر للمخزن ، أقل مما ترجع في الحقيقة الى الموظفين الدينيين والقضاة ، والرؤساء الحقيقيين لهيئة العلماء »[28] .

وكان نفوذ القضاة يتعزز أكثر باختصاصاتهم القضائية التي احتفظوا بها طبعاً كاملة غير منقوصة . فكان بإمكان المدعي أن يتصل بأحد القاضيين الذي يراه مناسباً ، لكنه لا يستطيع أن يبدله حتى آخر الدعوى .

العـــدول : ـ وكانت الإجراءات من اختصاص العدول الذين يبلغ عددهم نحو ثلاثمائة ، يعيّنهم قاضي القضاة بتقديم من طرف زميلين لهم ، ثم

---

(25) بيريتيي ، المرجع المذكور .

(26) هو حسب بيريتيي (المرجع المذكور) ؛ وابتداء من 1906 ، لم يعد لقب قاضي الجماعة يطلق على القاضي الكبير ، لكن لقب نائب المخزن في الأحكام الشرعية .

(27) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 275 .

(28) المرجع المذكور .

يطالَبون بإيداع إمضائهم (الخنفسة) في مكتب القاضي . وكانوا تابعين له تبعية مطلقة ، يعيّنهم ويعزلهم بكل حرية . وكانوا تقريباً جميعاً فاسيين ؛ أما الأجانب فلم يكونوا يتمكنون من الالتحاق بهم إلا إذا اشتهروا بأنهم مقيمون بفاس واكتسبوا فيها حق المواطنة ، الذي كانت له قوة قانونية ، ولو أنه لم يكن شرعياً . وكان أعوان العدالة هؤلاء يتمتعون بتأثير أكيد في حياة فاس ، لأنهم كانوا يحتكرون الإجراءات . فكانوا لذلك موضوع اعتبار كبير ، كان بالإمكان أن يكون أكبر لو برهنوا جميعاً على النزاهة[29] .

لم يكن لبعضهم مكتب ، وهم العدول السارحون ، ويحررون العقود إما في منازلهم وإما عند زبائنهم ؛ وكان الآخرون الذين يجتمعون اثنين اثنين في بعض الأحيان ، يحتلون نحو عشرين دكاناً[30] حول باب العدول من جامع القرويين ، في المكان المدعو سماط العدول[31] .

وكان لقاضي القضاة محكمة تدعى المقصورة ، ومن أجل ذلك يُدعى قاضي السماط ، بينما كان الآخر يعقد مجالسه بجامع الرصيف ويُدعى قاضي الرصيف ؛ وكانت الجلسات تفتح في الظهر (الأول) ، وفي العصر ، وحتى المغرب إذا اقتضت الضرورة . وفي حالة الاستعجال كان بإمكان القضاة أن يستقبلوا المتقاضين بمنزلهم ، بل يمكنهم أيضاً في حالة تغيّب أو مرض ، أن يختاروا من ينوب عنهم من الثقات (وهو النائب) . وكانت الدعاوى تطول والأحكام لا تستأنف ، لكن الطرفين المتقاضيين كانا يستطيعان أن يحصلا من القاضي على مراجعة حكمه بنفسه ، وذلك عن طريق الفتاوى

---

(29) كانوا أكثر عدداً من أن يكونوا نزهاء . وقد حاولت حكومة الحماية أن تعالج هذه الحالة الوخيمة بتعيين عدل واحد فقط في مكان منصبين شاغرين ؛ فإذا كانوا أقل عدداً ، استطاعوا أن يحصلوا على معاشهم دون اللجوء إلى وسائل غير مشروعة .

(30) ثمانون دكاناً أيام ليون الإفريقي ، في كل دكان عدلان (الكتاب 2 ، ص. 81) ؛ وربما كان عدد العدول المتنقلين أقل بكثير من أيامنا هذه .

(31) انظر عن كلمة سماط ، دوزي ، ملحق جزء 1 ص. 684 .

الصادرة عن أهم فقهاء جامعة القرويين [32] . ولم يكن أي شيء من هذا خاصاً بفاس ، إذ كانت السلطات القضائية مطابقة لتنظيم أحكام القرآن (الشرع) ، كما توجد في سائر الأقطار الإسلامية . وكان قاضيا فاس ، سنة 1906 ، السيد عبد السلام الهواري والسيد حميد بناني[33] .

وبالجملة ، كانت مدينة فاس خاضعة للسلطة الإدارية والجنائية للعامل ، وللمراقبة والسلطة الاقتصادية للمحتسب ، وللسلطة الدينية للقضاة الذين كانوا يلعبون أيضاً دوراً هاماً جداً في الحياة البلدية عن طريق الأحباس ، وكانوا السادة الحقيقيين لحياة فاس الفكرية ، بتأثيرهم في جامعة القرويين .

لم يكن هناك أي قانون مكتوب ينظم اختصاصات كل من هذه السلطات الثلاث ؛ فكانت تتناوب في الصدارة بحسب شخصية القائمين بها ؛ غير أن القضاة كانوا ينطلقون برأي مسبَّق مساعد في هذه الحاضرة المتمسكة كل التمسك بالأمور الدينية : وتشمل قيمتهم الفكرية واستقامتهم ما بقي .

---

(32) كانت الفتاوى تعطى مقابل نقود . وكان ثمنها في أوائل القرن العشرين حسب أهمية القضية وشخصية الفقيه (پيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 313) .

(33) بيرتيي ، المرجع المذكور ، ص. 329 .

الفصل الثاني

2/4

الأحيـــاء

مقدّمــو الحومــات : ـ ويأتي تحت السلطات الثلاث الآنفة الذكر عدد معين من أعوان التنفيذ ؛ ولا أهمَّ فيما يخص التـطبيق من مقدَّم الحومة[34] . ومع ذلك فإن مظهره لا يوحي بالثقة لأول وهلة ! فهو رجل من عامة الناس لا تميزه عنهم بذلة ولا مراسم ، قليل الدخل رغم ما يمكن أن توفر له وظيفته من أرباح مباحة قليلاً أو كثيراً ؛ وباختصار ، فإنه ليس رجلاً « معروفاً جداً » كما يقال عادة بفاس . فلا نذهب إلى الظن بأن الحماية هي التي نقصت من أهميته : بل بالعكس ، إذ طرأ على الحياة الإدارية تطور لا يُنكر بسبب النظام الجديد . فمقدم الحومة الحالي أكثر اشتغالاً من ذي قبل ؛ يتقاضى أجراً أحسن ، ويرتدي لباساً أحسن في الاحتفالات الكبرى على الأقل ، لكنني لن أقسم على أن تأثيره الحقيقي قد ازداد ، لأنه يُعيَّن اليوم مباشرة من طرف الباشا ، وغالباً ما ينتقل من حي إلى آخر ، بينما كان قديماً يُعيَّن من طرف العامل ، لكن باقتراح من أعيان الحي[35] ، ويستقر مدة طويلة

---

(34) انظر عن هذا الموظف ، ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 276 ؛ روني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص. 122-123 ؛ وأوبان ، مغرب اليوم ، ص. 124 .

(35) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 306 . ويظهر أن هذه الطريقة في تسمية مقدمي الحومـات شائعة في البلاد العربية ، فقد ذكرها ج وليرس فيما يتعلق بمدينة أنطاكية (أنطاكية . محاولة جغرافية حضرية ، في مجلة الدراسات الشرقية ،الجزء 4 ، ص. 40) .

جداً في نفس المكان إذا ما أظهر النزاهة والحذق الكافيين[36] . وكانت أهميتا ناتجة بالخصوص عن كونه الرابطة الحقيقية ، وصلة الوصل بين المخزن والسكان .

وكانت اختصاصات مقدمي الحومات أربعة أنواع :

1) كانوا مكلفين بتنفيذ أوامر المخزن المبلغة من طرف عامل المدينة ، أو في أكثر الأحيان من طرف نائبه[37] ، وبجمع مختلف الرسوم الاستثنائية التي كان يتقاضاها المخزن من حين لآخر (كمصاريف نفقة السفراء الأجانب ، والهدايا المقدمة إلى السلطان عند دخوله الرسمي إلى المدينة ، إلخ . . .) .

2) وكان عليهم أن يحافظوا على النظام في حيهم ، ويسهروا على النظافة وحسن الأخلاق فيه ، وبهذه الصفة كانوا مكلفين بمراقبة المومسات ، فكانوا يأخذون منهن معظم دخلهن الضئيل[38] .

3) وأخيراً ، عندما كان السلطان يعتزم تجنيد حركة عسكرية استثنائية ، كما حدث على سبيل المثال في يناير1903 ، إبان زحف بوحمارة على فاس ، فإن مقدمي الحومات ، بمساعدة أربعة من الأعيان كانوا يشرفون على عمليات التجنيد وأخذ ضريبة الإعفاء[39] .

---

(36) ما زال بعض مقدمي الحومات اليوم من بين الشيوخ ، في نفس المكان منذ عهد طويل ، كمقدم حي البليدة الذي يزاول مهمته منذ نحو ثلاثين سنة . وأما الشبان منهم فإنهم أقل استقراراً بكثير . وكان بعض مقدمي الحومات القدامى عديمي الضمير لا يترددون ، على سبيل المثال ، في أن يسهلوا مهمة اللصوص بالليل (رسالة نائب قنصل فرنسا بفاس ، رقم 71 ، بتاريخ 13 نوفمبر 1896). فلم يكونوا يستقرون طويلاً في مناصبهم ، كما هو واضح.

(37) ميشو ـ بلّير ، المرجع المذكور .

(38) المرجع المذكور . كان مقدم حومة المخفية ، في أوائل دولة مولاي عبد العزيز يتقاضى بسيطتين حسنيتين في اليوم ، وأعوانه العشرة ، يتقاضى كل واحد منهم بسيطة (معلومات شفوية) .

(39) أوبان ، المرجع المذكور .

وبمناسبة جميع الحفلات الرسمية (كالدخول الرسمي للسلطان ، والبيعة في الأعياد الدينية الكبرى) ، كانوا يحملون عصيّهم الطويلة بأسنّتها الحديدية ويصحبون عامل المدينة في أبهة كبيرة على رأس سكان حيّهم . وكان المخزن يقدم لهم كل يوم جمعة ، بعد أن يحضروا صلاة السلطان الرسمية ، غداء في الجامع الكبير بفاس الجديد[40] .

وكان ذلك كله يشكّل وظيفة هامة وأخّاذة ، لولا أن مقدمي الحومات قاموا بمهامهم بفتور كثير . وكانت أهميتهم في نفس الواقع لا تأتي من عملهم الإداري بكل معنى الكلمة بقدر ما تأتي من شخصيتهم : ذلك لأنهم كانوا ملزمين بأن يظهروا نشطين حذقين مرنين ، وغالباً ما كانوا يتمتعون في حيهم بتأثير حقيقي إذا ما نجحوا في التوفيق بين تشدد المخزن وحماية مصالح أهمّ مرؤوسيهم .

ولم يكن لمقدمي الحومات ، قبل دولة مولاي عبد العزيز ، سوى خليفة واحد ينوب عنهم في حالة وجود عائق أو مرض . وكانوا لا يتقاضون أي راتب رسمي ، وإنما تصلهم بعض الهدايا بمناسبة الأعياد الكبرى ، قفاطن ، وبرانس ، وأحذية يقدمها إليهم المخزن . وعندما كان أعوان العامل يقومون بتحريات في حيهم ، كانوا يقتسمون معهم الصلات المعهودة (السخرة) . وأخيراً ، كان الأعيان يستدعونهم بمناسبة الأفراح العائلية ، ولا ينسونهم في عيد الأضحى فيقدمون إليهم أكباشاً ويعطونهم حبوباً إبّان الحصاد .

وكان تحت إمرتهم ، ابتداء من أيام مولاي عبد العزيز ، شرطيون (عسّاسة) بعدد متفاوت ، وأصبحوا يتقاضون راتباً ثابتاً ، دون أن يتخلوا من أجل ذلك عن أرباحهم القديمة .

كانت الوحدة الإدارية بفاس إذن هو الحي[41] . وهل كان هذا التقسيم

---

(40) المرجع المذكور .

(41) انظر لائحة أحياء فاس فيما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 ، ص. 118 والرسم 10.

الرسمي مطابقاً للواقع ؟

للإجابة عن هذا السؤال ، سوف أدرس بالتتابع تعمير أحياء المدينة ، وحياتها الاقتصادية ، وحياتها الفكرية والدينية[42] .

تعمير الأحياء : ـ وفيما يخص التعمير لا يمكننا أن نضع تمييزاً فاصلاً واضحاً بين مختلف أحياء فاس : فالسكان مختلطون جداً في كل مكان ، ويُظْهِر البحث الذي قام به ميشو ـ بلّير حول جزائريي فاس مثلاً أنهم إذا كانوا كثيرين خاصة في حيّي رأس الجنان والقلقليين ، فإنهم يوجدون كذلك في سائر الأحياء ، حتى التي هي أبعد عن السكن العادي لهؤلاء المهاجرين ، كالبليدة وفندق اليهودي . وكذلك شرفاء وزان كانوا مجتمعين بالأخص حول زاوية طائفتهم بعين أزليطن[43] . وجبالة حول باب عجيسة ، لكن ليس بعيداً من هنالك خاصة .

صحيح أن نسبة الوافدين الجدد على فاس كانت عالية نسبياً في بعض الأحياء ؛ فكان يسكن حي المخفية ، حوالي 1880 ، خمس أسر مع أتباعهم[44] ، ثلاث منها ، وهم العبدلاويون ، والخصاصيون ، والطاهريون ، كانت مقيمة بفاس منذ قريب ، لكن الأخريين ، وهما الفاسيون ، والسوديون ، كانتا من الأسر القديمة بالحاضرة الإدريسية .

---

(42) سأستعمل خاصة خلال هذا البحث المعلومات التي استقيتها في حيي البليدة والمخفية أثناء ربيع 1945 . فقد اتصلت كما هو مطلوب برجال مسنين مقيمين بهذين الحيين منذ عهد قديم وتبين لي أن لهم ذاكرة ثابتة . كما استوحيت كثيراً من التفاصيل من الدراسات الآنفة الذكر لميشو ـ بلّير حول حي زقاق الرمان (وصف فاس ، في الوثائق المغربية ، عدد 11) ومارتان حول حي الكدّان (مجلة العالم الإسلامي ، عدد 9) .

(43) لامارتينيير ، المرجع المذكور ، ص. 340 .

(44) كان يطلق عليها اسم ذو مغزى هو القبائل . إن التعمير بالأسر ظاهرة عامة بفاس : فكثير من الأزقة تحمل اسم عائلة لأنها كانت ، في الأصل ، مخصصة لها فعلاً ؛ وهكذا نجد درب الدريسيين ، ودرب ابن سودة في حي العيون ، ودرب أكومي في حي سويقة ابن صافي ، ودرب الصقليين في حي سيدي العواد .

وكانت نسبة الفاسيين الجدد أقل في الناحية الأقرب من المركز مثل البليدة ، وإن كان يوجد فيها بضواحي مدبغة شُوَّارة ، صناع وإسكافـون بصفة خاصة ، أقاموا بفاس منذ أمد قريب وما زالوا يقطنون بعدُ في الفنادق التي يعملون فيها .

والحاصل أننا نصل إلى هذه النتيجة وهي أنه لا يوجد بمدينة فاس ، من ناحية التعمير ، أحياء متخصصة تماماً كما هو الشأن بفاس الجديد ، دون أن نبحث في أبعد من ذلك (كقصبة فيلالة ، وقصبة شراكّة ، وملّاح اليهود) وفي عدد كثير من المدن الإسـلامية[45] . إلا أنه لابد من التمييز بين الأحياء التي يكثر فيها الوافدون الجدد والتي يكاد يسكنها الفاسيون العريقون وحدهم .

تدرّج الأحياء : ـ وهكذا نصل إلى فكرة انعدام التخصص ، لكن بكيفية أدقّ إلى تدرّج أحياء المدينة ، وهو تدرّج معقّد أهمّ عناصره الوضعية الاجتماعية للسكان وقِدَم إقامتهم بفاس ؛ تضاف إلى ذلك اعتبارات أخرى ذات طابع طوبوغرافي وديني تتشابك بعضها ببعض وتزيد المشكل تعقيداً : فكانت مجاورة المدبغة ـ على سبيل المثال ـ تبعد الناس الممتازين عادة بسبب نتانة المكان ، وخشونة العمّال واستعمالهم المستمر لسطوح معاملهم لتجفيف الجلود ، فكانت نساء المنازل المجاورة يكدن حتماً يقعن تحت أنظارهم . لكن إذا كانت هذه المدبغة قريبة من مزار مقدس فإن هذه العراقيل كانت تفقد من أهميتها ويتحمل علية القوم تلك المجاورة الكريهة للمدبغة حتى لا يفقدوا مجاورة المزار : تلك كانت حالة مدبغة سيدي موسى المقامة غير بعيد من ضريح مولاي إدريس ، ومدبغة عين أزلطين ، المجاورة تقريباً للزاوية الوزانية بالشرشور .

---

(45) في مدن الشرق ـ على سبيل المثال أنطاكية ـ (انظر ج وكيرس ، **أنطاكية رسالة حول الجغرافية الحضرية** ، ص. 42 وما بعدها) ؛ وفي غات ، فإن التجار المنتمين إلى غدامس مجتمعون كلهم في زقاق واحد (انظر ب. ڤيرنييي ، **الفزّان** ، ص. 76) . وربما كان هذا التخصص قديماً بمدينة فاس ، كما تشهد بذلك أسماء الأماكن كدرب أهل تادلا في حي الطالعة ، ودرب الروم في حي سويقة ابن صافي ، واسم حي فندق اليهودي .

الأحياء العامية : ـ وبصفة عامة ، فإن المناطق التي تسكنها العامة والمهاجرون الجدد كانت تقع بالخصوص قريبة من الأبواب الثلاثة الرئيسية : باب عجيسة ، وبوجلود ، وباب فتوح . وعلى بعد مائة متر على الأقلّ من كل جهة من جهات هذه الأبواب ، يكثر البيطريون ، والفنادق ، وأصحاب المطاعم الحقيرة ، والمقاهي ؛ وكان صغار القوم وحدهم مع الأسر التي ما زالت لم تستقر بعدُ بفاس هم الذين يقبلون هذا الجوار الصاخب ، العامي ، الكريه الرائحة ، المواتي للمغامرات . كما أن الناحية الممتدة بين بوجلود وباب عجيسة ، شمال الطالعة الكبيرة والدرب العامر ، كانت عامرة بأناس قليلي الدخل ما عدا بعض الاستثناءات، مليئة في جوار باب عجيسة بالأخص ، بجبليين كانوا يعملون في المعاصر ، وبذوي منيع الذين كانوا يتعهدون قطعان البقر . وفي ضواحي واد زهون ، شمال شرقي المدينة ، كان يعيش الكثير من الصناع ، لكن عدداً كبيراً منهم كانوا قد استقروا بفاس منذ عدة أجيال . وكان المرء يقع في الجانب الشرقي مع حي الفخارين في منطقة تكاد تكون قروية ، حيث كانت تُنصب حتى أكواخ من قصب (نوايل) . ولم يكن جامع الأندلس في الجنوب ، مع شهرته ، مكتنفاً سوى بدور قديمة يسكنها صناع أو مياومون . وكان حي القلقليين وراس الجنان ، في الجنوب الغربي ، يؤويان في ضواحيهما على الأقل جزائريين من أصل متوسط أو وضيع ، وصناعاً . وأخيراً كانت ضفتا النهر محتلتين على طولهما تقريباً ، بالطاحونات ومعامل الإسكافين أو الحاكة لا يرغب فيهما البورجوازيون إلا قليلاً . وفي جميع هذه الأحياء المؤلفة من دور منخفضة وأفنية ضيّقة كانت عدة عائلات تقتسم نفس المسكن .

ونلاحظ بالجملة أن الأحياء الفقيرة كانت كلها في دائرة المدينتين القديمتين قائمة على ضفتي واد فاس .

الأحياءالبورجوازية : ـ كانت الأحياء المتوسطة التي تسكنها أسر من أصل فاسي عريق ذات ثراء متوسط أو واسع ، تشكّل كتلة كثيفة في وسط

الضفتين حول مولاي إدريس والقرويين وحتى مرتفع سيدي أحمد الشاوي ، على الضفة اليسرى ، بين النهر وجرف رأس القليعة ، على الضفة اليمنى . فكانت على الجملة تغطي المساحات التي كانت تحتلها عدوتا القرويين والأندلس عندما كانتا منفصلتين ، إلا يسيراً منها . وكان ذلك موطن الصناع الميسورين (وكانوا موجدين) ، وأصحاب الدكاكين ، وتجار القيصرية ، والفقهاء ، والشرفاء الذين كانوا غالباً ما يعيشون قرب روضة أسلافهم . وكانت المنازل مكونة من طابق سفلي وطابق أو طابقين علويين ، مرتفعة السقف حول فناء مزخرف بالزليج ، في وسطه خصة أو سقاية متعددة الألوان منتشرة على طول الجدار بجانب الزقاق في أغلب الأحيان ، فتوقّع بتدفقها الرتيب حياة المنزل ؛ وأحياناً تكون شجرة دالية أو ياسمين تنشر أوراقها على طول حائط وتمتد على سقيفة من خشب مصبوغ ؛ وقد يتفق حتى أن تنبت شجرة مثمرة في وسط الفناء ، كأثر من آثار بستان عتيق اضمحل منذ عهد طويل . وكانت بعض الأحياء نموذجية لهذه المنطقة السكنية ، كحي سيدي أحمد الشاوي على الضفة اليسرى وحي سيدي العواد على الضفة اليمنى . ولابد من الإضافة بأن بعض هذه الدور كانت تظهر فسيحة جداً ومزخرفة ، كدار المنبهي أو دار السبتي ، قرب سويقة ابن صافي ، متخذة مظهر قصر لكن بدون بستان .

الأحياء الأرستوقراطية : ـ كان أصحاب أرستوقراطية المال ، بصفة عامة ، يحتلون منازل فسيحة في بعض جهات دائرة المدينة ، حيث كانت الأرض المتوفرة تسمح بتغيير الفناء إلى رياض (أي حديقة داخلية) . وكانت الأحياء الرئيسية « الأنيقة » موزعة على ثلاث مجموعات : في شرق المدينة بجوار باب سيدي بوجيدة « دار جبينة بنجلون ، ودار الحاج المدني التازي »[46] ؛ وفي الجنوب ، بالقرب من واد مصمودة (رياض السيد فضول غرنيط ، ودار القاضي العراقي ، ودار ماك لين)، وخاصة في الجنوب الغربي على منحدرات العيون والطالعة (دار المقري ، ودار بنسليمان ، ودار

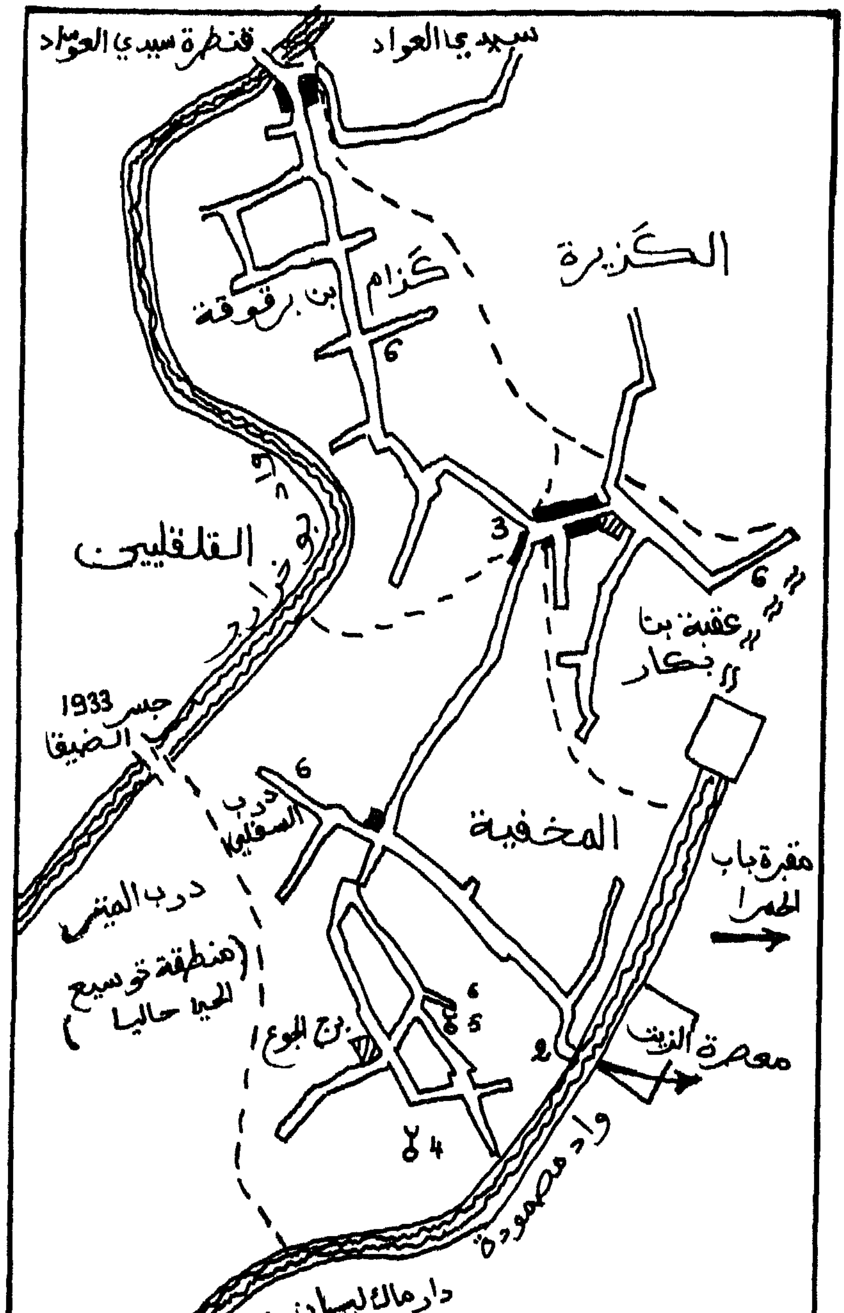
(46) انظر تصميم مارتان .

الكّلاوي ، ودار التازي ، ودار المدني بنّيس ، ودار عبد الله الفاسي ، ودار ابن سودة ، ودار خامي برّادة ، إلـخ . . . .)[47] . وكانت توجد أيضاً بشمال المدينة مجموعتان صغيرتان من المنازل من هذا الطراز ، مجموعة شرفاء وزان في ضواحي درب الشرشور، حيث كانت ترتفع بين دور أخرى الدار الفسيحة للحاج أبي بكر كْسّوس ، وفي شرق باب عجيسة دار الجامعي الشامخة التي كانت وحدها وسط بساتينها تشرف على المدينة كلها من سطوحها المسنَّنة . كانت هذه الأحياء الغنية تتميز بالأبعاد الفسيحة للمنازل وخصوصاً بالموقع الواسع الذي كان يحتله كل واحد منها؛وفعلاً كانت كلها تقريباً تشتمل على رياض ، يعني أن الفناء لم يكن مكتنفاً ببنايات من طابق واحد إلا من ثلاث جهات ، وكان يفضي من الجهة الرابعة إلى حديقة مسوَّرة ؛ وكانت ممرات مرتفعة في شكل صليب أو نجمـة ، مبلَّطة بالزليج ومزدانة بخصة في الوسط ، تحيط بأجمات تنبت فيها بعض الأزهار بشكل فوضوي لطيف ، وخاصة الأشجار المثمرة كالرمان ، والليمون الحلو والحامض ، والتوت ، وأشجار الورد ، والصفصاف ، والصنوبر التي يتسلَّقها الياسمين . فماء ذو خرير ، وخضرة ، وأزهار ، وعطور وفسيفساء ، وسوارٍ وأبواب مزخرفة ، تلك هي البيئة التي كان يعيش فيها الفاسيون المترفون وهم جاثمون على تلال تمكّنهم من إلقاء نظرة على مدينتهم المفضلة كلها أو بعضها . وهناك كان يتجمع أغنى التجار ، وكبار ملاّكي الأراضي ، وموظفو المخزن السامون ، الذين كانوا يعتبرون من الشرف امتلاك منزل لائق بمـرتبتهم[48] . إلا أنه ، مهما كان إيثارهم للحدائق وهواء المرتفعات النقي ، فإن الأسـر المتشبثة خـاصة بالتقاليد ، كبعض الشرفاء الصقليين، كانوا يفضلون الاحتفاظ بمنازلهم بجوار

---

(47) لقد نما كثيراً حي العيون هذا منذ الحماية : اشترت فيه كثير من الأسر التي أصبحت غنية قِطَعاً أرضية وشيّدت عليها دوراً فخمة ، بحديقة أو بدون حديقة .

(48) وقد احتفظ بهذه التقاليد : فإن باشا فاس السابق السيد محمد التازي ، والمحتسب الحالي السيد إدريس المقري ووزير العدل الحالي السيد محمد الحجوي ،شيدوا قصوراً فخمة على منحدرات العيون .



الرسم 18

حيّ المخفيّة (مقياس1/2.500)

تبين الخطوط المقطوعة حدود الحيّ وأقسامه .

1. وسعة المخفية 2. الباب الثانوي للحي 3. حمام

4. زاوية الحراق 5. سيدي المخفي 6. مكتب قرآني

أفران الخبز ▨ حوانيت ▬

أحد أضرحة المدينة الرئيسية ، أو كذلك في المكان الذي عاش فيه أجدادهم خلال أجيال . وكانوا يعوضون أنفسهم بامتلاك بستان ريفي على إحدى الربى داخل السور أو حتى خارجه ، بالقرب من باب الحديد أو باب جديد ، أو باب محروق أو باب سيدي بو جيدة .

اقتصاد الأحياء : ـ كانت معظم أحياء فاس تعيش ، من الناحية الاقتصادية ، حياة بدائية تماماً . ويجب طبعاً أن نضع جانباً الأحياء الصناعية والتجارية بمعنى الكلمة[49] ؛ فلا أريد أن أتحدث هنا إلا عن الأحياء السكنية ، والأحياء غير المتخصصة للمدينة . وكانت توجد فيها هنا وهناك بعض المؤسسات الصناعية، كدور النساجين والطحانين ، لكن ذلك قليل في الجملة ؛ فعلى سبيل المثال، كان بحي المخفية[50] في أوائل هذا القرن ، تسع طاحونات ، ومصنعان للحبال ، ومعصرة زيت في ضاحية الحي طبعاً بجانب مقبرة باب الحمراء ، ومعمل واحد للنسيج يقتسم العمل فيه خمسة صناع على أحد عشر نولاً .

ولم تكن التجارة بالجملة أحسن تمثيلاً ، إذ لا شيء منها في المخفية ، وفي البليدة مستودعان وثلاثة فنادق مباشرة على حدود حي الصاغة التجاري . فلم يبق إذن سوى التجارة بالتقسيط التي كانت مع ذلك أكثر تقلُّصاً مما قد نفترضه ، حتى في مناطق مثل المخفية البعيدة جداً عن مركز المدينة ، لم يكن من الممكن الحصول في عين المكان إلا على المواد الضرورية للحياة اليومية ، التي يمكن الاحتياج إليها في كل وقت ، كالزيت ، والسمن ، والعسل التي كانت توجد عند البقّال ، والخضر والفواكه الطريّة عند الخضّار والتوابل والسكر عند العطّار ، والفحم عند الفحّام مع مكنسات الدوم وغيرها من الأدوات المنزلية الصغيرة . ذلك هو كل ما كان من التجارة بالتقسيط في

(49) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصلان 3 و 4 .
(50) الرسم رقم 18 .

حيي البليدة والمخفية . ويلاحظ انعدام الجزّارين والحلاّقين ، بقطع النظر عن الخيّاطين ، والبزّازين ، وبائعي العطور ، إلخ . . . بالإضافة إلى أن كل حي كان متوفراً على فرنين أو ثلاثة أفران للخبز ، كان السكان يحملون إليها العجين الذي يعدّونه بأيديهم لطهيه . وهكذا كان بالمخفية فرنان وتسعة دكاكين[51] ، وبالبليدة[52] ثلاثة أفران وستة أو سبعة دكاكين ، وهذا هو كل الجهاز الاقتصادي للأحياء .

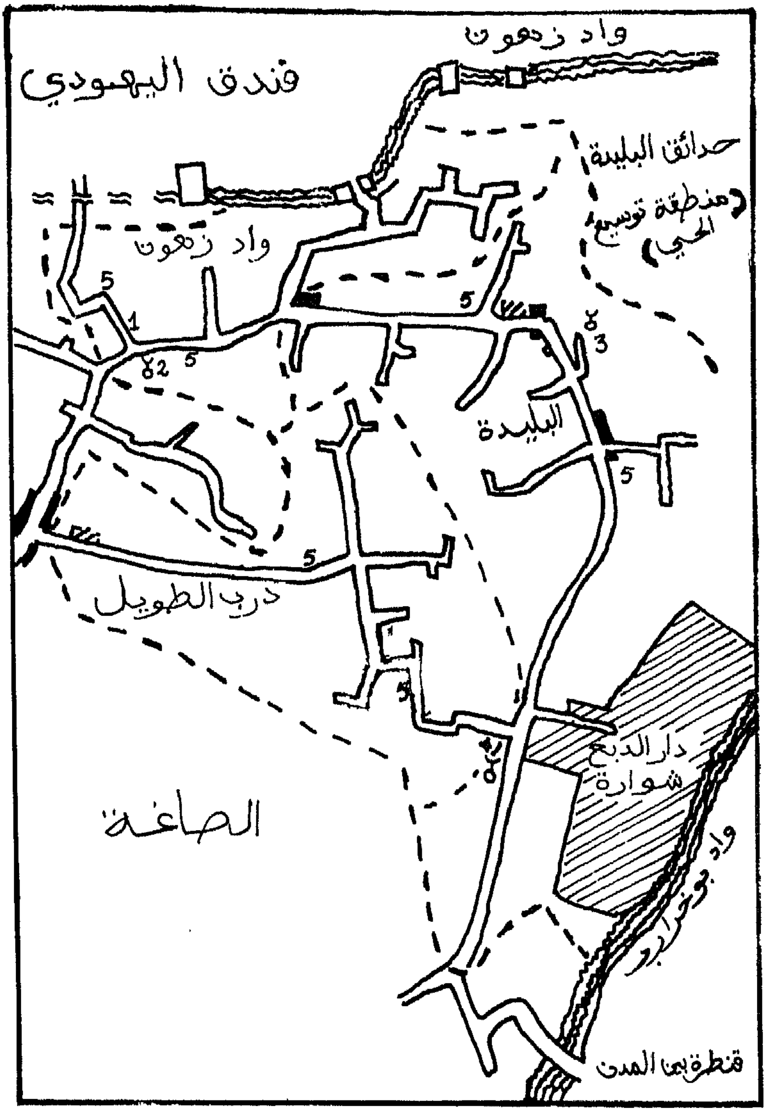
كانت الأفران متباعدة بعضها عن بعض إلى حدّ ما ، ويخدم كل واحد منها منطقة ضيّقة من الحي ؛ وكانت الدكاكين على النقيض من ذلك تكوّن عقدة اقتصادية صغيرة في مفترق الطرق ، أو على أحد أزقة الحي الرئيسية . وهكذا كان بالمخفية ثمانية دكاكين من جملة تسعة ، مجتمعة في وسعة المخفية ، ودكان واحد أبعد من هنالك قليلاً في مدخل الدرب السفلي . وكانت هذه الدكاكين ، في أغلب الأحيان ، مقامة في المركز الهندسي للحي . أقول المركز الهندسي ، لأن هذه الأحياء لم يكن لها مركز بالمعنى المعهود في مدننا بأوروبا . فالمركز لكتلة مّا عندنا ، عبارة عن ساحة ، ومدار ومفترق طرق ، تتجمع بها بعض العناصر المهمة للحياة المدنية ، كالكنيسة ، والمباني الإدارية (البريد ، والبلدية) ، والسوق أو الدكاكين الرئيسية . وهذا التحديد صالح تقريباً للمدينة إذا اعتُبرت في مجملها (انظر ما قيل أعلاه[53] عن مراكز القرويين ومولاي إدريس والقيصرية) ، لكنه لا يعني مطلقاً أحياء المدينة : فإننا نعلم أن الساحات تكاد تكون غير معروفة بها ، وأن الأزقة فيها لا تتجه نحو مركز ، لكنها تخضع لتقلبات كُتَل المنازل وتخطيط الممتلكات الخاصة . غير أنه لمّا كان من الضروري وجود دكاكين قريبة من أكبر عدد ممكن

---

(51) اثنا عشر ، إذا أضفنا الدكاكين الثلاثة (واحد لفحّام ، وآخر لبائع الإسفنج ، وثالث لبائع الزيت) الواقعة في مدخل سيدي العواد .

(52) توجد الآن حوالي عشرين دكاناً بالبليدة وحوالي أربعين دكاناً بالمخفية ، بإدخال الدكاكين العشرة في الحساب (عوض الثلاثة القديمة) لقنطرة سيدي العواد .

(53) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 3 .



الرسم 19

حيّ البليدة (مقياس :1/2.500)

1. حمام 2. زاوية سيدي أحمد التيجاني 3. زاوية مولاي العربي الدرقاوي 4. زاوية مولاي أحمد الصقلي 5. مكتب قرآني .

أفران الخبز [رمز مخطط] حوانيت [رمز أسود]

تدل الخطوط المقطوعة على حدود الحي وأقسامه .

من المشترين ، فإنها تقبع حسبما يتيسر لها بأحد أركان الحي ، في مكان يتصل بسهولة بأهم الأحياء الفرعية . ففي المخفية تقع الدكاكين في نقطة انطلاق المسالك المؤدية إلى جهات الحي الثلاث : كُزام ابن برقوقة ، وعقبة ابن بكّار، والمخفية بمعنى الكلمة؛ وكان هذا الموقع يتطابق تقريباً مع المركز الهندسي للحـي[54] . ويُطرح المشكل في البـليدة[55] بكيفية أخرى : ذلك أنه من صالح جميع كتل الدور الواقعة في الجنوب الغربي للحي أن تشتري المؤن من الأسواق الأكثر رواجاً وعدداً بحي الصاغة المجاور . فدكاكين البليدة إذن مقامة في الضاحية الشرقية للحي على الشارع المستدير (وهو محجّ البليدة) .

وباختصار ، فبمجرد ما كان سكان الأحياء ، البعيدة عن المركز يريدون اقتناء المواد التي لا تُستعمل بالضرورة كل يوم (كاللحم والحوت) أو يريدون شراء لباس أو حلق شعرهم ، كان عليهم أن يذهبوا إلى الأسواق المركزية التي سأرجع إليها فيما بعد[56] . ويمكن القول إذن إن الاكتفاء الذاتي لأحياء فاس كان ضعيفاً جداً[57] .

الحياة الدينية للأحياء : ـ نجد في الأحياء نفس الفقر فيما يتعلق بالحياة الدينية ، نعم ، توجد حقاً في كل مكان مساجد يستطيع جميع المؤمنين أن يؤدوا فيها عباداتهم اليومية ؛ لكن صلاة الجمعة لا تقام في البلدة

---

(54) لم يعد هذا صالحاً اليوم ، لأن الحي اتسع بكيفية مفرطة فيما وراء برج الجوع والدرب السفلي . لهذا فُتحت دكاكين جديدة ، جُمّعت بطبيعة الحال في هذا الحي الفرعي الذي لا يحمل اسماً آخر حتى الآن غير درب الميتر (أي درب التجزئة).

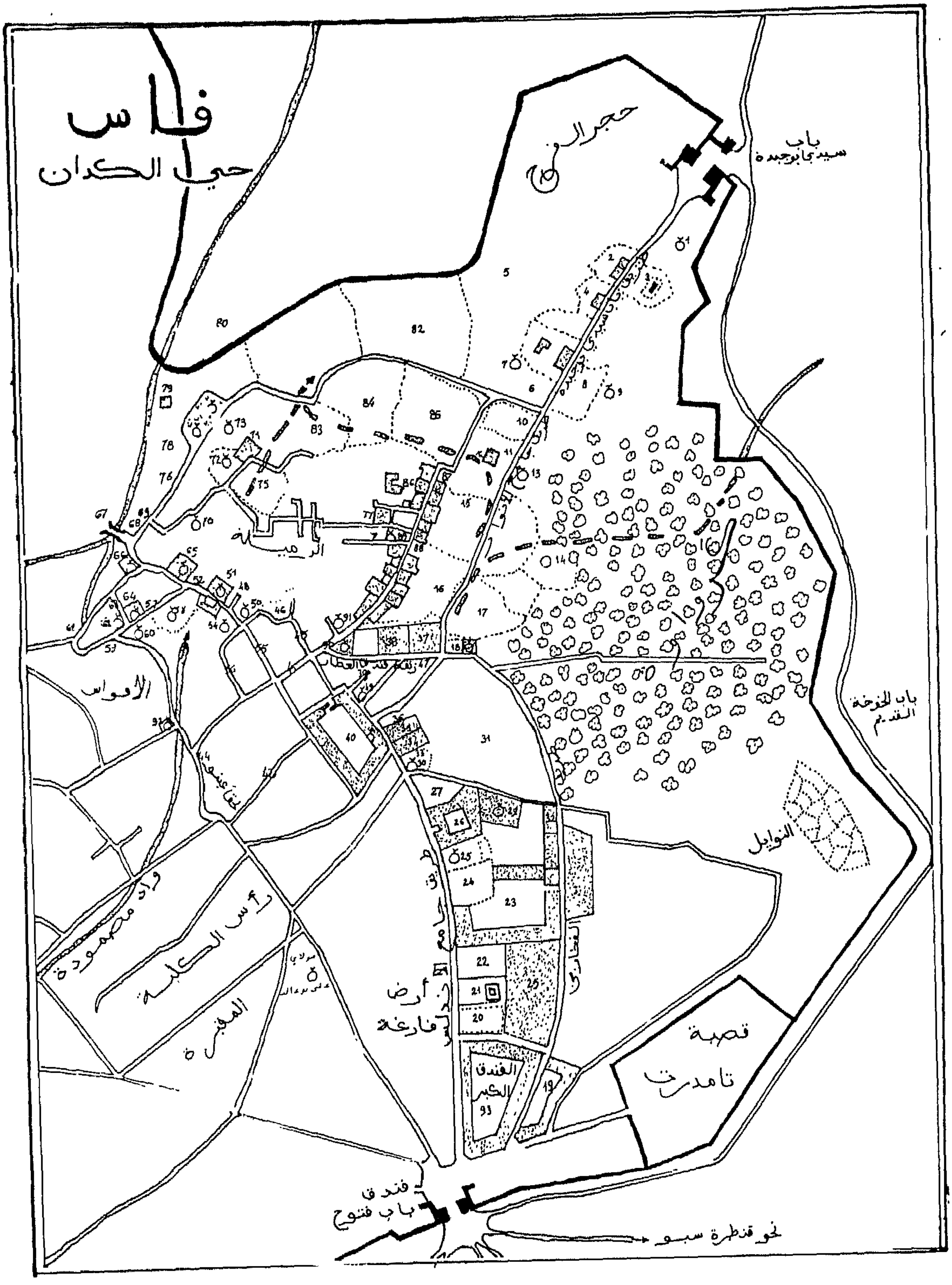
(55) الرسم رقم 19 .

(56) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

(57) ولا يزال كذلك : فإن أحياء في عنوان تطورها مثل العيون (الذي يسمى بالأحرى الدوح) خالية بكيفية غريبة من الدكاكين ؛ وهي تابعة لدكاكين بوجلود وسويقة ابن صافي أو رأس الجنان. إلاّ أنه قد فُتحت منذ الآن بضعة دكاكين أو هي في طريق البناء في الزقاق الرئيسي للدوح ، وذلك بداية سوق صغير للحي .

حي الكـــدان

1 ـ سيدي عمر الشريف ـ 2 ـ قبيبة القاضي ـ 3 ـ دار ورياض الجبينة ابن جلون ـ 4 ـ منزه بناني ـ 5 ـ دار الراعي ـ 6 ـ عرصة بناني ـ 7 ـ سيدي الجاوي الزواج ـ 8 ـ عرصة شهبون ـ 9 ـ جامع سيدي عمران المتهدم وقبر سيدي عبد الرحمن بن محمد السلاسي وسيدي عبد الله بن الشيخ ـ 10 ـ عرصة مولاي إدريس بن عبد الهادي ـ 11 ـ رياض اكبي ـ 12 ـ درب الحريقي ـ 13 ـ زاوية وقبر سيدي علي الحجام وسيدي عزيز الكييت وسيدي الحاج مسعود المراكشي ـ 14 ـ عرصة وروضة العراقيين ـ 15 ـ عرصة اللبار ـ 16 ـ عرصة الشفشاونيين ـ 17 ـ عرصة بو علي ـ 18 ـ جامع الأنوار أو الأشياخ ـ 19 ـ فندق الحاج الطاهر الأزرق ـ 20 ـ عرصة العيساوي برادة ـ 21 ـ فران الجص ـ 22 ـ روضة اولاد المراكشي ـ 23 ـ ملكية النشبة بنيس ـ 24 ـ البحيرة ـ 25 ـ سيدي أمين ـ 26 ـ فندق مولاي إدريس بن عبد الهادي ـ 27 ـ بحيرة ـ 28 ـ دار ومعصرة الزيت للمراكشي ـ 29 ـ جامع الفخارين ـ 30 ـ سيدي قدور الشرايبي ـ 31 -32 ـ معامل الفخار ـ 33 ـ روضة أولاد القباج ـ 34 ـ فندق مولاي إدريس بن عبد الهادي ـ 35 ـ فندق الشرفاء الوزانيين لتبودة ـ 36 ـ بحيرة ـ 37 ـ فندق العطار ـ 38 ـ فندق النشبة بناني ـ 39 ـ درب واد عبود 40 ـ جامع الأندلس ـ 41 ـ زنقة العقبة ـ 42 ـ زنقة الياسمينة ـ 43 ـ الصفاح ـ 44 ـ باب سيدي حرين ـ 45 ـ زنقة درب اللمطي ـ 46 ـ سوق الحبوب بالصفاح ـ 47 ـ الروضة الإدريسية ـ 48 ـ درب الجيار ـ 49 ـ سيدي عبود ـ 50 ـ سيدي المخفي ـ 51 ـ جامع درب اللمطي ـ 52 ـ باب درب اللمطي ـ 53 ـ فندق مولاي إدريس بن عبد الهادي ـ 54 ـ جامع سيد بوس ـ 55 ـ زنقة سيد بوس ـ 56 ـ زنقة العلوج ـ 57 ـ زنقة شيبوبة ـ 58 ـ زاوية سيدي محمد بن يوسف ـ 59 ـ باب سيدي مغيث ـ 60 ـ سيدي مغيث ـ 61 ـ باب الحدادين ـ 62 ـ زاوية عيساوة ـ 63 ـ زنقة درب الغرابلي ـ 64 ـ جامع درب الغرابلي ـ 65 ـ جامع درب فواح ـ 66 ـ جامع الشوك ـ 67 ـ قنطرة بين المدن ـ 68 ـ باب الحبليل ـ 69 ـ باب الرميلة ـ 70 ـ سيدي يحيى الزكاري ـ 71 ـ جامع سيدي بومدين 72 ـ زاوية سيدي علي الجمل ـ 73 ـ سيدي علي الحارثي ـ 74 ـ روضة أولاد ابن عطية ـ 75 ـ عرصة كنون ـ 76 ـ باب الحبيل الثاني ـ 77 ـ حمام ـ 78 ـ السهيلات ـ 79 ـ دار البارود ـ 80 ـ أقصيبة ـ 81 ـ جنان أقصبي ـ 82 ـ عرصة الكنيف ـ 83 ـ عرصة مزالق التازي ـ 84 ـ عرصة سيدي عبد الرحمن الإدريسي ـ 85 ـ عرصة ابن زاكور ـ 86 ـ دار ورياض الحاج المدني التازي ـ 87 ـ باب بني مسافر ـ 88 ـ مزارة مولاي إدريس ـ 89 ـ جامع النرنجة ـ 90 ـ جامع العلقة ـ 91 ـ سيدي خلوق ـ 92 ـ جامع الواد ـ 93 ـ فندق المراكشي .


فاس
حي الكدان
باب سيدي بوجيدة
باب الخوخة القديم
النوايل
قصبة تامدرت
الفندق الكبير
أرض فارغة
فندق باب فتوح
نحو قنطرة سبو
وادي مصمودة
المقبرة
الرميلة

ولا في المخفية ولا في العيون : وفي الساعة الراهنة هذه لم يُرفع بعد أي مسجد من مساجد الأحياء الثلاثة إلى المرتبة الشرفية كجامع للخطبة ، خلافاً للأحياء المركزية التي تزخر بمساجد من هذا النوع .

وتوجد في جميع الأحياء تقريباً زاوية أو أكثر يجتمع فيها مريدو هذه الطائفة أو تلك لذكر أورادهم . فتوجد مثلاً بالبليدة زاوية تيجانية (سيدي أحمد التيجاني) ، وزاوية درقاوية (تابعة لمولاي العربي الدرقاوي) وزاويتان صقليتان (إحداهما تابعة لسيدي عمر الصقلي والأخرى لمولاي أحمد الصقلي) ؛ وبالمخفية زاوية درقاوية (تابعة للحرّاق) . لكنه لا بد من الإلحاح على أن أية زاوية من هذه الزوايا لم يكن لها قطعاً أتباع من سكان الحي خاصة ، بل كانت منطقة نفوذها تتجاوز بكثير حدودها الضيقة ، ولا تعرف أسباب إقامتها هنا بدلاً من هناك بسبب تقادم الزمان .

وكان لسكان البليدة والمخفية جميعاً حمّام واحد يغتسلون فيه الاغتسال الواجب ، وهو غير كاف للسكان ، فكان كثير من الناس يضطرون إلى الخروج من حيهم للقيام بهذا الواجب الديني والصحي .

المـــدارس : - وأخيراً ، إذا نحن نظرنا إلى توزيع المؤسسات التعليمية ، فإننا نلاحظ أن الحي لا يشكّل أكثر من وحدة أساسية . فكل حي لا يحتوي على كُتّاب واحد بل على كتاتيب قرآنية : ستة بالبليدة[58] بالإضافة إلى كتّابين للبنات[59] وأربعة بالمخفية[60] . ولا يوجد في هذا الحي الذي هو أكثر تشبثاً بالتقاليد أي كتّاب للبنات ، وإنما فيه دار معلمة لتعليم التطريز .

(58) اثنان في قطاع البليدة ، واثنان في قطاع درب الطويل ، واثنان في قطاع واد زهون .

(59) واحد في قطاع واد زهون وواحد في قطاع درب الطويل .

(60) واحد في قطاع كُزام ابن برقوقة ، وواحد في قطاع عقبة ابن بكّار ، واثنان في قطاع المخفية .
هذه الأرقام زودني بها سكان الحي ، وهي تؤيد الأرقام التي يعطيها پيريتيي (مدارس فاس) ، ص. 309.

وفي بعض الأحياء ، يوجد بعض الأدباء الشبان الذين لم يستطيعوا بعدُ الحصول على كرسي بجامعة القرويين ، يلقون دروساً يمكن أن نسميها « ثانوية » وتشكّل مرحلة بين الكتّاب والجامعة . ولا شيء من ذلك بالمخفية ولا بالبليدة . وفي عهد مولاي الحسن ، كان أستاذ يسمى أحمد ابن سودة يشرح صحيح البخاري في الزاوية الدرقاوية بالمخفية ؛ ولما مات نُقل هذا « الكرسي » إلى مسجد سيدي المخفي بنفس الحي ، لكنه بقي شاغراً .

مفهـــوم الحي : - يمكن أن نستخلص مما سلف أن « الحي الرسمي » ، كما كان موجوداً بفاس في أوائل القرن العشرين ، لم يعد بعدُ مطابقاً تماماً للحقائق البشرية التي كانت قد أنشأته قديماً . ولم يكن الأمر دائماً هكذا ، إذ سبق في زمان بعيد قليلاً نسبياً أن كانت الأحياء المتطرفة على الأقلّ تشكّل بُلَيْدات داخل الأسوار تعيش حياة أكثر استقلالاً بكثير مما كانت عليه أيام مولاي عبد العزيز . ففي أواخر دولة سيدي محمد (حوالي 1870) ، حسب قول عجوز عرف ذلك العهد ، كان حي المخفية (بدون اعتبار كُزام ابن برقوقة) يشكّل خلية صغيرة مغلقة من 86 داراً ؛ وكان جميع السكان ينتمون إلى المجموعات العائلية الخمس الكبرى السالفة الذكر ؛ ولم تكن لهم أية علاقة بجيرانهم في حي القلقليين الذين لم يكن يفصلهم عنهم مع ذلك سوى الوادي ؛ كانت لهم شرطتهم الخاصة التي تراقب المنفذ الوحيد للحي (باب الحومة) الواقع بوسعة المخفية[61] ، ولا تسمح بدخول الأجانب بسهولة ، إذ كانت تخشى الاعتداءات في تلك الناحية المنعزلة . وكان كْناوة[62] يأتون كل يوم جمعة إلى ساحة المخفية ليقوموا بألعابهم الغريبة ؛ كانوا يرقصـون وينشدون أغاني باللغة الزنجية ، تحت إيقاع الجلاجل مما كان يسبب نشاطاً كبيراً لأطفال الحي . لكن هذه التسليات كانت تزعج كثيراً من الناس فأداروا

---

(61) كان هناك فعلاً منفذ آخر إلى مقبرة باب الحمراء ، لكنه يتعذر اكتشافه (وكانت النساء يستعملنه للذهاب إلى المقبرة) ولم تكن حاجة إلى حراسته بالنهار ، وكان يغلق ليلاً .

(62) انظر عن هذه الطائفة ، ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

البناء حول الساحة ، بحيث إن كناوة انتقلوا إلى اللعب في مكان آخر لانعدام الفضاء الكافي. ولم يُحدث مركز رسمي للحراسة بالمخفية إلا في عهد مولاي عبد العزيز ، مع مقدَّم وعشرة شرطيين كانوا يطلعون على السور للحراسة ومنع المتسكعين من التسلق للدخول إلى المدينة . فكان سكان المخفية في ذلك العهد يعيشون منعزلين ، لكنهم لم يكونوا مع ذلك أقل ارتباطاً بالمدينة من وجهات نظر عديدة ، لذلك يسعنا أن نقول إنهم كانوا مستقلين استقلالاً ذاتياً .

ربما كان الحي الرسمي مطابقاً لواقع تارخي قديم ، وربما وجب إرجاع أهله إلى الأزمنة القريبة من تأسيس فاس ، عندما كانت مختلف المجموعات العرقية للسكان الأولين تقطن أحياء متميزة . ولعلنا نجد أيضاً أثراً لهذه الوضعية القديمة في المنافسات التقليدية التي تدفع أبناء مختلف أحياء المدينة إلى المواجهة[63] . وربما كان علينا أن نرى في ذلك ذكرى تقسيم إداري وُضع لجلب الضرائب : فيكون المخزن قد فرض مبلغاً إجمالياً على كل حي ، ويكون توزيع هذا المبلغ بين مختلف الأسر قد تمّ داخل الحي ، تحت سلطة المقدَّم[64] . وعلى كل حال ، فيجب أن نتذكر بأن الأمر هنا يتعلق بواقع قديم جداً ومتجاوز منذ زمن سحيق : وفعلاً ، لما كانت فاس فريسة للحروب الأهلية[65] في القرن السابع عشر ، لم تكن الأحياء الثمانية عشر التقليدية هي التي استُعملت كإطار لهذه الفتن ، بل ثلاث مناطق سكنية ، أعني اللمطيين ، والأندلسيين ، والعدوة .

فإذا كان الواقع الحي لا يتفق والتقسيم الرسمي فإنه مع ذلك موجود . إنه يتجزأ إلى أجزاء يفوق عددها بكثير الأحياء الإدارية : وذلك بلا شك هو ما

(63) انظر السيد محمد التازي ، أعمال المؤتمر الثامن لمعهد الدراسات العليا المغربية ، في هسبيريس ، العدد 19 ، 1948 ، ص. 204 -205 .

(64) اقترح علي هذا الافتراض م. ليفي - بروفنصال .

(65) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 5 .

(66) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2.

حدا بصاحب **سلوة الأنفاس** إلى أن يطلق على عدة أحياء بفاس أسماء الوحدات الصغرى المتساكنة بها[66] .

إن « الحي الواقعي » هو مجموع دروب لا مخرج لها وأزقة يُفضي إليها شارع رئيسي هام أو تؤدي هي إلى شارع رئيسي هام كذلك . وإن هذه الكيفية لتصور الأشياء تؤدي إلى حالة تبدو متناقضة لأول نظرة ، ألا وهي أنه بالإمكان ألا يكون منزلان متجاوران منتسبين إلى نفس الحي ؛ إذ يكفي لذلك أن يلتصق ظهر أحدهما بظهر الآخر ويُفتح باباهما إلى زقاقين متعارضين في الاتجاه . فالزقاق في أوروبا هو الذي يُستعمل كخط فاصل في الحدود ؛ بخلاف الحال في فاس ، حيث يتمّ تحديد الأحياء حسب خط تجزئة يخترق كُتَل الدور بدلاً من أن يحيط بها ، مثلما يتبع خط تقسيم المياه القمم لا الأودية سواء بسواء[67] . إن حيوية الحي يُعبَّر عنها بمظاهر اقتصادية وعرقية أقل بكثير مما يُعبَّر عنها بوثائق فردية ومصالح مشتركة تربط بين السكان : فالأطفال يلتقون في نفس الكتّاب ، ويذهبون إلى نفس الفرن لأخذ الخبز ، وإلى نفس السقاية لأخذ الماء . فالكتّاب والسقاية ، والفرن على الأخص فيما يحتمل ، هي فعلاً المراكز الحية في الحي البدائي ، فهناك يجتمع مرة في اليوم على الأقل جميع أطفال الحي ، وتروج الأخبار ، ويتكوّن شبه إحساس جماعي ليس هو بالضرورة نفس إحساس الحي المجاور . فالفقيه الذي يعلِّم القرآن محترم رغم وضعه البسيط ، ويشكّل عنصراً روحياً ومعنوياً لا يُستهان به ، لا سيما في الأحياء الفقيرة . والفرّان هو الآخر يعرف العوائد العائلية لجميع زبنائه ، يستمع من الأطفال إلى نتف من أخبارهم الداخلية ، ويزوّد المساكين

---

(67) لقد أعطيت مثالاً واضحاً على الأخص لهذا الترتيب عندما تعرضت لحي سيدي العواد وللأحياء المحيطة به . انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 4 . وانظر مثالاً جيداً لنفس الواقع في رسم حي البليدة ، حيث تشكّل ناحية الدرب الطويل كياناً على حدة ، مركّزاً على حي الصاغة المجاور (الرسم رقم 19)

(68) انظر في هذا الصدد المثل الفاسي الذي يقول: «يَبنى الفرن قبل الجامع».

بالنار ، ويجفف ألواح التلاميذ ؛ ويحيط به طول النهار جمهور يكون أحياناً صاخباً متنازعاً ، منذ الساعة التي ينتشر فيها متعلموه في الأزقة معلنين بأن الفرن ساخن ؛ فلو كان شاعراً لأحسَّ بالحياة المشتركة للحي تخفق حوله . وبالإضافة إلى ذلك فإن النساء متجاورات من سطح إلى سطح ؛ والخدم يقضون نفس الحوائج في نفس الدكاكين ، ويلتقي الرجال في نفس المسجد ، يحيي بعضهم بعضاً في الزقاق ، وعليهم أن يفصلوا في نفس المسائل المتعلقة بإصلاح الطريق أو قنوات الماء أو إزالة الأزبال . وهذه الاهتمامات المتعددة هي رباط الحي .

الأعيـــان : ـ يوجد من بين الناس الذين يربطهم الجوار هكذا مَنْ هم أكثر تقوى ، وأكثر غنى وأكثر تأثيراً ، وأكثر جرأة أو أكثر خدمة للغير : أولئك هم الأعيان . لكل حي صغير واحد من الأعيان أو أكثر ، تلبي السلطات رغباتهم بكيفية متفاوتة ، لكن لهم دائماً بعض النفوذ . إذا وقعت حوادث هامة اجتمع هؤلاء الأعيان تلقائياً من حي لآخر ، وتبادلوا الآراء ، وتصوُّراتهم للأشياء ؛ حتى إذا ما رجعوا إلى حيهم الأصلي ، أطلعوا جيرانهم على الأخبار وأعطوهم الأوامر . وليست سلطة الأعيان هذه بمقنَّنة ، كما أنهم لا يُنتخبون ولا يُعيَّنون بأي طريقة قانونية : وإنما يُعيَّنون ، على غرار أشياخ القبائل الرُّحَّل بالجزيرة العربية ، بإجماع غير محدَّد كما ينبغي ، لكنه واقعي ، ملموس . وليس المخزن ملزماً بالإنصات إلى آرائهم ، ولا بأن يأخذها بعين الاعتبار ، لكن العادة موجودة ، وكذا التجربة والحكمة السياسية ، التي توحي بعدم مصادمة الفاسيين ، والاتصال بالأتقياء والفطناء الذين يشكّلون نخبة الحاضرة ويُسمّون أهل فاس[69] .

---

(69) وحسب لاكازينيير (البلديات المغربية ، ص. 24) ، « عرفت فاس ، في فترات ما بين الدول ، تدبير لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص ذوي نفوذ في كل حي من أحياء المدينة . كان تعيين هذه اللجنة يتمّ بمجرد الإعلان عن شغور العرش وكانت مهمتها هي المحافظة على النظام والأمن في المدينة إلى أن يبايع العلماء السلطان الجديد » . واستند الجنرال ليوطي إلى هذه العادة عندما أنشأ المجلس البلدي ، يُنتخَب أعضاؤه من طرف أعيان الأحياء .

لذلك ينبغي منذ الآن أن نميّز بين « الحي الإداري » الذي يظهر كأنه من يا الماضي ، بقايا ثابتة وملائمة ، لكنه لا يغطي مجموعات عرقية أو داثاً اقتصادية بيّنة المعالم ، وبين ما سأسميه بـ « الحي الاجتماعي » الخلية صغيرة التي تعيش بفضل الصلة الفردية التي أقامها الجوار بين سكانه ، والتي تطيع أن تقوم بدور سياسي في حالة وقوع حوادث هامة على الأقل .

كما أنه يجب أن نميّز بين « الأحياء الاقتصادية » التي ستكون فيما يأتي ضوع دراسة خاصة[70] .

---

7) انظر ما يأتي، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

الفصل الثالث

3/4

المصالح العمومية

إن مفهوم المصلحة العمومية يبدو لأول وهلة فارغاً تماماً من مدلوله بفاس ؛ فليس هناك غاز ولا كهرباء ، ولا مصلحة بريدية ، ولا هاتف ، ولا نقل عمومي ، ولا مستشفيات ، ولا أي شيء تقريباً مما يُغني تصوّر المصلحة العمومية لساكن إحدى المدن الأوروبية الكبرى . فلا يُشاهد سوى توزيع الماء ، والحفاظ على النظام ، وصيانة شبكات الطرقات ، التي تستجيب على أي حال لأفكارنا القارة . لكن ، إذا تفحصنا الأشياء بإمعان أكثر أدركنا أن المصالح العمومية كانت منذ ما قبل الحماية أكثر عدداً مما تتيحه نظرة سطحية للأشياء .

الماء : ـ [71] مدينة فاس غنية بالماء ؛ وقد أشار إلى ذلك جميع المؤلفين ، من لدن صاحب **روض القرطاس**[72] إلى العلماء المحدثين أمثال إ . ف . ڭوتيي[73] . ويأتي هذا الماء من بعض الآبار التي لا تكاد توجد إلا في حي الفخارين ، وفي عيون كثيرة كما تشهد بذلك دراسة المواقع الجغرافية

---

(71)تفضل المراقب المدني م. كوسطو فسمح لي بالاطلاع على مذكرته التدريبية غير المنشورة حول واد فاس . فأرجو أن يجد هنا عبارات امتناني الحار .

(72) ص. 16 .

(73) **ماضي إفريقيا الشمالية** ، ص. 310 -311 .

بفاس : عين البغل ، وعين الخيل ، وعين أزليطن (وهو اسم موقع من أصل بربري) ، (وعين علّو)[74] ، إلخ . . . وينبع معظم هذه العيون في أحياء العدوة اليسرى ؛ لكن العيون والآبار لا يمكن أن تكفي لتزويد عدد هائل من المنازل بالماء الجاري ؛ ولذلك أخذ الفاسيون من النهر نفسه الماء الذي كانوا في حاجة إليه لإدارة أرحيتهم ، وجرف قاذوراتهم ، وملء سقاياتهم وأحواضهم[75] ، وسقي بساتينهم ، وأنجزوا لهذا الغرض أعمالاً جسيمة لا يمكننا أن نأخذ عنها فكرة واضحة دقيقة نظراً لقدمها[76] .

واد فـــاس : - إنه ليس من السهل العثور بدقة على المجرى الطبيعي لواد فاس ؛ فبعد أن يسيل ببطء في سهل سايس ، كان يصل إلى ضواحي المزرعة التجريبية الحالية ، في منطقة من المستنقعات ، ربما كان يخرج منها من عدة منافذ ، أحدها غربي الملّاح ، على طول الباب العامر وبرج المهراس القديم[77] ، وآخر قد يكون شمالي باب الجياف بانحراف يسير ، وأهمها في منطقة واقعة بين برج الشيخ أحمد وباب الحديد . وقد تسبب بالتأكيد بناء فاس الجديد والقصر في تحويل مجرى واد فاس إلى الشمال ، ويسمى هناك واد

---

(74) إن أهم عيون الماء الشروب بفاس ، حسب كوسطو ، هي الآتية : وأسماؤها متبوعة بصبيبها في 24 ساعة .

سيدي بونافع (فاس الجديد)	248م^3
عين البغل (الدوح)	150م^3
رأس الجنان	342م^3
عين الخيل (زقاق الرمان)	137م^3
سيدي فرج	60م^3
بوطويل (الصاغة)	27م^3
عين أزليطن	74م^3
عين علّو	41م^3
عين الخدون (الكدّان)	14م^3

(75) انظر عن سقايات وأحواض فاس ، أ. بيل ، الكتابات العربية ، ص. 72 -75 .

(76) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 3 .

(77) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 5 .

الجواهر ، لكن من المفروض أنه ، قبل ذلك بكثير[78] ، أُنجزت اعمال لجعل الماء النافع يسيل على جميع المنحدرات المؤدية إلى وسط المدينة وبذلك أمكن توزيع الماء الجاري على قسم كبير من الكتلة السكنية ، والتقليص بمعنى الكلمة لصبيب النهر الذي كان ، إبان الفيضانات ، يتدفق بقوة في مجراه المنحصر بين الدور ، فيجرف القناطر[79] ويغمر الأحياء المجاورة .

ومن المحقق أنه ، في القرن الرابع عشر (وقبله بكثير حسب ما يحتمل) ، كانت فاس تمتلك نظاماً لجلب الماء وتصريفه ، وإنما طرأت عليه منذ ذلك العهد تعديلات جزئية[80] . والفروع الرئيسية لشبكة التوزيع مجاري مياه اصطناعية حقيقية ، وتوجد تارة عارية ، وتارة مغطاة بالدور والطاحونات والمساجد او الأزقة ، مع جسور هنا وهناك ، احتفظ موقعها الجغرافي بالذكرى في بعض الأماكن (كقنطرة بوروس مثلاً) . وكانت القنوات الثانوية مصنوعة من خَزَفات داخل بعضها في بعض ، من عمل صنّاع فاس .

القنوات الرئيسيــة : ـ وإليكم رسماً تخطيطياً مجملاً لنظام توزيع الماء بالنسبة للمدينة[81] : يصل الماء إليها في موضعين اثنين : في ناحية بوجلود (واد الجواهر) ، وباب جديد ، واد الزيتون ، وواد بوفكران) .

---

(78) أنجزت الأعمال الأولى ، حسب كوسطو (المرجع المذكور) ، في القرن الحادي عشر أيام الزناتيين .

(79) نشر المثاني ، ص. 216 .

(80) اكتفت الأشغال البلدية والأشغال العمومية ، منذ الحماية ، بتسوية مجرى الواد أكثر مما سبق وتصريف المياه من المستنقعات حيث كانت تضيع كمية لا يستهان بها من الماء قبل الدخول إلى المدينة ؛ كما أنها جددت موزعات ناحية بوجلود ومحطة توليد الكهرباء بواد الزيتون ، لكنها لم تغير شيئاً من الاقتصاد العام للنظام . ومن جهة أخرى ، جُلب الماء الشروب من المدينة الجديدة إلى المدينة القديمة فيما بين 1928 و1934 . وهو يزوّد السقايات المنصوبة في جميع الأحياء وعدداً من الدور ، لا كلّها ، هيهات ، لأن الفاسيين يقبلون بصعوبة أن يؤدوا ثمن الماء . وتوجد دراسة اضافية لكل هذه الأشغال في العمل الغير المنشور الذي قام به كوسطو ، والمذكور آنفاً .

(81) أذكّر بأن فاساً الجديد كان خارجاً عن هذا النظام . انظر الرسم رقم 21 .

I ـ يصل الماء إلى باب الدكاكن بعد مروره ببساتين أكْدال ومشور باب بوجات ، ولم يطرأ عليه إلا ثلاثة اقتطاعات طفيفة[82] : اثنان لدوالب مصنع الماكـنة ، وواحد بتحويل لتزويد قصبة فيلالة ؛ وهذه الاقتطاعات معوَّضة من جهة أخرى بالتكملة في بساتين بوجلود بواسطة ساقية تُدعى ساقية سيدي مجبر وتتصل بالواد في عالية الإقامة العامة الحالية . يمر النهر تحت المشور القديم ويخرج منه بواسطة مُوزِّع له أربع قِبَب : كل قبّتين تكوّنان فرعاً : يرسل أحدهما ماءه إلى عدوة القرويين، والآخر إلى عدوة الأندلس : « وفي وسط القِبَب الأربع جدار كبير يشكّل حاجزاً بين الفرعين»[83] . ومـن هـناك ينقسم الماء إلى أربع قنوات رئيسية هي من الشمال إلى الجنوب :

أ) واد الفجالين الذي ينقسم بدوره ، قبل الإقامة العامة الحالية بالضبط إلى مجريين للماء كبيرين : واد اللمطيين في الشمال ، وواد الفجّالين بمعنى الكلمة في الجنوب. وهذان النهران اللذان يمتصان 44/15 من الماء الخارج من باب الدكاكين ويبلغ صبيبهما 700 لتر في الثانية[84] ، يزوّدان الجزء الشمالي كله للمدينة ويلتقيان في حي زقاق الرمان ليُكوّنا واد زهون أو واد الزهول ؛

ب) واد الحامية الذي ينقسم إلى أربعة مجارٍ للماء هي ، من الشمال إلى الجنوب: واد شاين المليح، وواد الصوّافين، وواد ذراع الجنان، وواد الزبل ؛يزوّد الأولان الجزء الجنوبي لعدوة القرويين ؛ ويجتاز واد ذراع الجنان الواد الكبير على قناة باب جديد ويزوّد جامع الأندلس في العدوة اليمنى ؛

---

(82) تكاد تكون جميع التفاصيل التالية مأخوذة من تقرير للأشغال البلدية بفاس مؤرخ في 10 غشت 1938 ؛ وقد تفضل السيد رئيس المصالح البلدية لفاس فأتاح لي الفرصة للاطلاع عليها . كما أنها مأخوذة من الدراسة غير المنشورة لكوسطو . انظر أيضاً تصميم قنوات فاس أيام مولاي إسماعيل ، بقلم إ. س. علّوش .

(83) إفادة من النص المخطوط بعنوان : صلح ماء سيدي مجبر ، في عهد مولاي عبد الرحمن الذي تفضل باطلاعي عليها الشريف السيد إدريس الإدريسي ، الأستاذ بثانوية مولاي إدريس بفاس . انظر علّوش نفس المرجع ، ص. 55 -56 .

(84) يتعلق الأمر طبعاً بالصبيب إبّان التحاريق .

ويُستعمل واد الزبل لسقي بعض البساتين ، ويلتحق ما تبقّى من مائة بالواد الكبير في عالية باب جديد ؛ ولا يأخذ هذان المجريان الأخيران سوى ثُلُث مياه واد الحامية حيث يقدّر صبيبهما في باب الدكاكين بحوالي 1.000 لتر في الثانية ، ويصل اليهما 44/18 من ماء المُوزِّع . وتنصبّ كل المياه المتبقية من مختلف فروع واد الحامية في الواد الكبير ، في نقط متعددة من مجراها في المدينة .

ج) ساقية العبّاسية التي تُستعمل لسقي البساتين بين فاس الجديد لمدة أربع وعشرين ساعة في الأسبوع[85] ، بصبيب50 لتر في الثانية .

د) وأخيراً واد الشراشر الذي يصبّ فائض مياهه (44/11 من الحجم الخارج من باب الدكاكين ، بصبيب 600 لتر في الثانية)، في واد الزيتون ، بعد أن يكون قد سقى البساتين المدرّجة بين فاس الجديد وواد الزيتون ، وحتى بعض حدائق العدوة اليمنى لهذا النهر ، بواسطة قناة .

II ـ وكما ذكرت آنفاً[86] ، فإن جزءاً من واد الزيتون قد حُرف مجراه في مستوى المحطة الحالية لتوليد الكهرباء ، فيدخل إلى المدينة عبر باب الشباك ، حيث يحمل اسم واد مصمودة . وهذه هي القناة التي تُستعمل لتزويد عدوة الأندلس كلها ، معزَّزة بقناة جامع الأندلس . وينبغي أن نضيف بأن حي باب سيدي بوجيدة تابع لبعض العيون التي وضع المولى إدريس حولها أسس فاس . وتذهب جميع هذه المياه هي الأخرى لتلتحق بواد بو خرارب قبل خروجه من المدينة ، لكن على الضفة اليمنى .

وإذا أردنا تبسيط الأشياء ، كما فعل الدكتور ويسجيربير[87] ، أمكننا

(85) إيركمان ، نفس المرجع ، ص. 25 .

(86) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 .

(87) مقال مذكور في محضر جمعية الجغرافيا ، عام 1899 .

القول إن كل ناحية من نواحي فاس الثلاث يسقيها فرع من الواد : فناحية اللمطيين تابعة لواد الفجّالين ، وناحية الأندلسيين تابعة لواد الحامية (ما عدا فرع ذراع الجنان) ، وناحية العدوة تابعة لواد مصمودة . ويمكن حتى افتراض أن النزاعات المتعلقة بتوزيع المياه كان لها نصيبها في الصراعات التي قامت بين هذه النواحي الثلاث الكبرى للمدينة في القرن السابع عشر . فنحن نعلم فعلا أنه حدث خلاف هام ، أيام السعديين ، في شأن واد مصمودة ، وأنه لم يتمّ فصله إلا بتحكيم الولي الصالح سيدي عبد القادر الفاسي[88] . ويمكن افتراض حدوث نزاعات أخرى بنفس الخطورة في شأن فروع أخرى للنهر ، كانت لها انعكاسات سياسية ، خصوصاً في فترات الفوضى حيث كانت تنقص الحكومة القوة الكافية لفرض احترام حقوق كل واحد .

النزاعات بشأن الماء : ـ لا يساورنا شكّ فعلاً في أن النزاعات المتعلقة بحقوق الماء كانت كثيرة ، لا سيما في الصيف ، عندما يقل ماء العيون وتصاب البساتين والحيوانات والناس بالعطش[89] . ومن جهة أخرى ، فكثيراً ما كانت محطات التوزيع هشّة فتتلف في الغالب ، بحيث كان القاضي يتلقى دورياً شكاية سكان هذا الحي أو ذاك . ولما كانت القضية شائكة ولها انعكاسات سياسية محققة ، فإن القاضي كان يعرضها على المخزن ويعيّن هذا الأخير لجنة يشترك فيها ممثلو الأطراف الحاضرة وخبراء يؤخذون من مختلف نقابات الحرفيين ممن لهم بعض التجربة في هذا الميدان . وقد سبق أن ذكرت حكم سيدي عبد القادر الفاسي في القسم الأول من القرن السابع

---

(88) نتيجة المقدمات المحمودة في الرد على من زعم ملكية وادي مصمودة ، للإمام سيدي عبد القادر الفاسي رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به ، مخطوطة أطلعني عليها السيد إدريس الإدريسي الآنف الذكر .

(89) ليون الإفريقي (الكتاب 2 ، ص. 109) ـ 247:1 من الطبعة الثانية لترجمتنا : « تحتوي فاس على ستمائة عين ، وهي صهاريج طبيعية محاطة بجدران وأبواب تكون مغلقة ، ويُوزّع ماؤها لمختلف الحاجات على الدور والجوامع والمدارس والفنادق . وهذا الماء مرغوب فيه أكثر من ماء النهر الذي يجفّ أحياناً ، لاسيما في الصيف » .

عشر . ولا شك أنه إنما أقرّ عمل لجنة أو عدة لجن للبحث . وقد رُفعت إلى مولاي إسماعيل ، في أوائل القرن الثامن عشر ، مشاجرة من هذا النوع[90] .

وسأذكر أيضاً لجنتين تحكيميتين اجتمعتا في دولة مولاي عبد الرحمن (1240هـ/ 1825م)[91] ودولة مولاي الحسن عام 1884[92] . كانت الأولى مؤلفة من ستة عشر عضواً ، برئاسة القاضي مولاي عبد الهادي العلوي : فقيهان ، وممثلان لعدوة القرويين ، وممثلان لعدوة الأندلس ، وتعسة تقنيين ، من بينهم : خبير بدون تخصص معين ، وفلاحان ، وثلاثة نجارين ، وطحانان ، ومستخدم في القنوات . (قوادسي) على ما يحتمل[93] ؛ والثانية ، ذات مهمة أوسع ، إذ لم يكن الأمر يتعلق بموزِّع سيدي مجبر فحسب ولكن بشبكة توزيع ماء المدينة كلها تقريباً ، كانت مؤلفة من ثمانية وعشرين شخصاً ، برئاسة الرئيس[94] سيدي عبد الله بن أحمد بن الرئيس سيدي أحمد السوسي : ثلاثة أعيان (شريف وطالب ، وقائد) وعدلان ، وأمين (هو الحاج عبد السلام المقري) ، ومفتشان للأحباس ، وفلاحان ، ومستخدمان في القنوات ، وثلاثة طحانين ، وخبيران في الماء ، وخمسة تجار ، وخمسة أشخاص مختلفين[95] .

لم تقتصر هذه النزاعات على أهل فاس فيما بينهم ، ولكنها كانت تمتد إلى البدو في العالية . ذلك أن الفاسيين كانوا في الواقع يعتقدون أن لهم حق ملكية جميع مياه حوض واد فاس منذ أن اشترى المولى إدريس أرض المدينة

---

(90) انظر علّوش المقال المذكور ، ص. 54 .

(91) صلح ماء سيدي مجبر المذكور آنفاً .

(92) تقرير 5 رجب 1301 / فاتح ماي 1884 ، ذكره ماسينيون ، **بحث حول أهل الحرفة** ، ص. 231 -241 .

(93) اسم مشتق من كلمة قادوس ، ج قواديس ، أي أنبوب من الخزف .

(94) لاشك أن الأمر يتعلق بشيخ الماء ، الذي سأتحدث عنه فيما بعد .

(95) وفيما يخص بعض المسائل ، فقد أضيف إلى اللجنة أربعة ممثلين عن اللمطيين وأربعة ممثلين عن الأندلس .

والماء الذي يسقيها من بني يرغش وزواغة . فكانوا لذلك يقاومون بعناد كل أخذ للماء في عالية المدينة ، ولا يترددون في تنظيم لجن بحث حقيقية للتأكد من أن أهل البادية في العالية يحترمون فعلاً حقوق الحاضرة الإدريسية . وكانت هذه اللجن تتألف من عامل المدينة ، مع بعض الجنود ، وقائد مائة (وهو ضابط تابع) ، وأمين الطحانين ، وقائد الحمّارة (من كبار موظفي القصر) وشيوخ الفلاحين[96] .

وكان السلطان أيضاً ، من حين لآخر ، يعترف رسمياً بحقوق فاس ويأمر بتحطيم ما شُيّد من سدود لأخذ المياه في عالية المدينة[97] . ومن الممكن أن تكون هذه الحالة قد حملت الملوك على إسكان قبائل عسكرية أو مخزنية على جزء من حوض واد فاس ، لأن هذه القبائل كانت أكثر سهولة في الخضوع لأوامر السلطان ، وأقل خطراً في الدخول في نزاع مع الفاسيين بشأن الماء . وعلى كل حال ، فإن السلطان كان منشغلاً في غالب الأحيان بالفصل في الخصومات المتعلقة بالنهر بين سكان المدينة وباديتها في العالية[98] .

وكان الفصل في هذه القضايا صعباً لأنها كانت من جهة تتعلق بمصالح ملحّة جداً ، كما كانت من جهة أخرى تمسّ تقاليد عتيقة تنتهي ـ حسبما يقال ـ إلى المولى إدريس ، وقد تعقدت تعقيداً بالغاً بسبب عمليات المواريث[99] والتجزآت. فكان لا بد في حلّها من وجود خبراء مجرَّبين، وكان من بينهم صنفان : فقهاء ، مثل سيدي عبد القادر الفاسي ، كانوا يوفقون بكل مهارة بين

(96) كوسطو ، المرجع المذكور .

(97) يذكر كوسطو (نفس المرجع) قراراً اتخذ هكذا ضد الوزير با أحمد الذي بنى مأخذ ماء على النهر ، ظهير 18 شعبان 300 24/1 يونيو 1883 ، وقراراً آخر اتخذ في دولة مولاي عبد العزيز ، يقضيان بتحطيم السدود المشيَّدة في عالية فاس ، « لأن المياه المذكورة أعلاه ملك خاص للمدينة ، فيجب ألّا يمسها أحد .

(98) نفس المرجع .

(99) تتضمن جميع عقود الملكية العبارة التالية : « ويصبح المشتري مالكاً أيضاً حظ الماء الواجب للعقار » . (نفس المرجع).

أحكام الماء بفاس وعلم قضائي معترف به ، وتقنيون مطلعون على دقائق نظام القنوات والموزِّعات والقواديس بمدينة فاس .

كان (القوادسية) تحت مراقبة اثنين من الإخصائيين هما أمين الماء الحلو أو شيخ الماء أو مولى الواد ، بالنسبة للماء الصالح للشرب ، وأمين الماء المضاف أو بوخرارب ، بالنسبة للماء العكر ، وهما شبه مهندسين في مصلحة المياه[100] . وكان عدد هؤلاء العمال المؤهّلين حوالي خمسة وعشرين في سنة 1932 ؛ يجب أن يضاف إليهم عدد غير قارّ من العمال غير المتخصصين (الخدّامة) يؤخذون من مكانين للاستخدام (موقف) واقعين في حيي الشرابليين والقطانين . ومهما كان نشاط هؤلاء (القوادسية) جوهرياً في حياة فاس ، فانهم لم يحظوا بتقدير الفاسيين الذين كانوا يعتبرونهم أهل حرفة وسخة . لذا لم يكن معظم القوادسية من أصل فاسي وإنما كان يأتي بعضهم من الريف ، والبعض الآخر من المناطق الصحراوية حيث إن قلة الماء تعطيهم تقنيات متقدمة . وكانت مهمتهم هي السهر على صيانة القنوات والمنشآت الفنية[101] ، وفتح الأسكار وإغلاقها لإعطاء كل ذي حق حقه من الماء ، وإبداء رأيهم التقني بالطبع في حالة نزاع .

ورغم مجهودات نقابة الحرفيين هذه ، فإن نظام توزيع الماء لم يكن حرفياً دائماً . ويُعزَى ذلك إلى الحالة السيئة للقنوات التي كانوا يكتفون بإصلاح أماكن التسرب فيها، بينما كان يجب تجديدها تماماً من آن لآخر.

---

(100) اقتبس جلّ المعلومات التي ستأتي بعد هذا من دراسة إ . س. علّوش ، المقال المذكور ، ص. 2-54 .

(101) كانت الإصلاحات تنجز تحت مراقبة عامل فاس ؛ ويبدو أن الأحباس كانت تتحمل قسطاً من المصاريف ، على الأقل عندما كان الأمر يتعلق بالأماكن المقدسة ، لكن المستهلكين كان عليهم أن يؤدوا نصيبهم . وهكذا فإن وزيرنا بطنجة عام 1890 كلف بقضية أحد المحميين الفرنسيين الذي رفض أن يؤدي واجبه كاملاً لإصلاح سدّ واد وسلان في عالية باب الجديد ، انظر رسالة عاملنا القنصلي بفاس المؤرخة في 12 جمادي الأولى 24/1308 ديسمبر 1890 . (وثائق بعثة فرنسا بطنجة) .

ومن جهة أخرى كان الفاسيون يرمون كل شيء في واديهم ، غير مكترثين بالعواقب المترتبة عن ذلك : يذكر ل. هـريس[102] أن مجرى النهر كان مملوءاً بجثث الحيوانات « التي كانت تنشر التعفن في الحاضرة كلها » وتسدّ أحياناً بعض شبابيك القواديس . ورغم هذه المساوىء الخطيرة ، فلا بـد من الإشارة - كما يفعل كوسطو[103] - إلى أن فاسا « تكاد تكون بالتأكيد أغنى مدينة في العالم ماءً » ، لأن كل واحد من السكان يصل إلى أن يكون له 3.000 لتر في الثانية ، بينما يبلغ القدرالممنوح لكل واحد من سكان المدن المحظوظة بكيفية خاصة ، مثل رومة ومرسيلية، 1.000 لتر في الثانية ، ولا يتعدى 150 إلى 250 لتر في الثانية في المدن الكبرى كلندن ، أو باريس أو فيلاديلفي .

السـقّاؤون : - وبسبب هذه الغزارة في المياه ، كان العديد من الدور مزوّداً بالماء الجاري ؛ لكن هذا الماء لم يكن صالحاً للشرب إلا نادراً ، كما كانت كثير من المنازل الفقيرة لا ماء فيها ، لا سيما في أحياء العدوة ؛ وأخيراً ، فسواء في الزقاق ، أو السوق ، أو المقبرة ، أو في الساحات حول حلقات المشعوذين ، كثيراً ما يصيب الناس العطش ويُسرّون عندما يرتوون من قربة السقّاء (الكرّاب)..

كان السقّاؤون بفاس كلهم بربر يُستخدمون من نفس المجموعات العرقية من أعالي بلاد گير ، كأبناء عمهم زرزاية ؛ وكانوا يشكّلون مجموعة يسيّرها أمين ، ولا يسمح بالانضمام إليها إلا لمن قدّمه كفيلان منهم .

وكانوا يقضون النهار غادين رائحين بالأزقة ، حاملين على جنبهم قربة من جلد عنز ، وبيدهم عصا أحياناً إذا طعنوا في السن ، حتى إذا فرغت القربة ملؤوها ماء . وفي التجمعات الشعبية ، كانوا يدقّون بانتظام جرساً صغيراً من نحاس ليذكروا بحضورهم . كان أجرهم ضعيفاً ، لأن سقي الناس يُعتبر حسنة

---

(102) المرجع المذكور ، ص. 97 .

(103) نفس المرجع .

يُثاب من يستطيع القيام بها ، لكن ليست أجرة ، لذلك كانت النساء والأطفال والمساكين يشربون بدون مقابل . ومن حسن حظهم أن السقّائين كان لهم زبناء من بين تجار الأسواق ، ما عدا في شهر رمضان الذي كان بالنسبة لهم فترة فراغ أكثر من فصل البرد . وكان يُطلب منهم يوم الجمعة ويوم عاشوراء أن يفرغوا قربة ماء على القبور « لتبريد الموتى » ، كما كانوا يقومون بدور رجال المطافىء[104] .

مصلحة الطرق : ـ كانت صيانة أزقة فاس مختلّة جداً ، تقع مبدئياً على كاهل مقدَّمي الأحياء وأعوانهم ؛ ولم يبرهن في الواقع هؤلاء « الموظفون » عن كبير حماس في القيام بمهمتهم ، فكان الخواص يتدخلون بأنفسهم إذا أرادوا ألا تتعفن الأزبال أمام ديارهم . ويشير الرحالة الأوروبيون قاطبة إلى الحالة السيئة للأزقة[105] التي لم تكن سوى مستنقعات تتحوّل إلى قاذورات بمجرد ما يسقط المطر ؛ كانت الأزبال تمكث أياماً وأياماً في الأزقة ، وحتى الحيوانات الميتة تنتن في مكانها وسط سحب من الذباب ، متحوِّلة شيئاً فشيئاً إلى هياكل عظيمة بقدر ما تفترسها الكلاب الضالة أو الجرذان[106] . وإذا عزموا على إزالة هذه الجيف ، رموها أكداساً فوق ركام الجثث المجاورة للأبواب ، لا سيما قرب باب الجياف الذي يدل اسمه على معناه ؛ وكانت تفوح من هذا الركام المعفن[107] رائحة كريهة لا تُطاق .

وفي هذه الحالات كان كل من في استطاعته أن يمتلك فرساً أو بغلة

---

(104) لقد أخذت جلّ هذه المعلومات من الدراسة السالفة الذكر للسيد كُودبارج ، **مجموعتان بربريتان للحرف بفاس** . ومع امتداد شبكة الماء الصالح للشرب إلى المدينة ، فإن مجموعة السقائين غدت في طريق الاضمحلال .

(105) انظر مثلاً : كولفيل ، المرجع المذكور ، ص. 141 و143 ؛ شڤريون ، المرجع المذكور ص. 150 ؛ روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 122 ؛ دو أميسيس ، المرجع المذكور ، ص. 298 .

(106) كلولڤيل وشڤريون ، نفس المرجع .

(107) روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 159 .

يسير راكباً عليهما ، كما كان الشأن تقريباً بالنسبة لجميع الأوروبيين والفاسيين الأثرياء . وإذا اتفق لهؤلاء أن اضطروا إلى الخروج راجلين في يوم ممطر ، فإنهم كانوا يربطون تحت أحذيتهم لوحات خشبية مرفوعة على قوائم عالية أكثر ما يمكن. وأما الفقراء فكانوا يسيرون حفاة، وإلا أفلسوا من شراء الأحذية. وكانت الحالة أسوأ من ذلك في الليل لانعدام أية إنارة ، ولأن الكلاب الضالة كانت أكثر تحرشاً بالناس[108] ؛ لذلك كان المرور غير ممكن إلا بصحبة حامل فانوس[109] .

وكان العامل أحياناً إذا هزّه حماس جميل أو أزعجته روائح قوية يأمر بتنظيف عامّ للمدينة . فكان أعوان مصلحة المياه يفتحون سدّادات في الأحياء العليا ، دون إشعار أحد ، فتتدفق عبر الأزقة المنحدرة سيول حقيقية ، جارفة القاذورات وتجرف أحياناً حتى السلع التي لم يكف الوقت لحفظها ، والأثاث الصغير والحيوانات الحية التي يفاجئها السيل العارم . فيرتفع الماء في الأجزاء المنخفضة من المدينة قبل أن يجد له منفذاً ، ويبلغ منتصف الجسم عند المارين الذين لم يدروا كيف يتجنبونه[110] .

ولم يَسِرْ ذلك كله بدون أوبئة ، كما نتصوره بسهولة ؛ وعندما كان الداء يتخذ أبعاداً مفرطة الخطورة ، كان المخزن ، يتحرك ويصمم على معالجته : وتلك كانت حالة سنة 1901 [111] ؛ ففي ذلك الصيف قضى الوباء على عدة ضحايا ، وأمام انتشار الكارثة صمم المخزن على تنظيف الأزقة بانتظام ومنع السكان من أن يتركوا فيها جثث الحيوانات تتعفن ، لكن يُشك في أن هذه

---

(108) هاريس ، المرجع المذكور ، ص. 171 -172 .

(109) روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور ، ص. 122 .

(110) انظر عند شارمز (المرجع المذكور ، ص. 261 -262) وصفاً مثيراً لهذه الوسيلة الغريبة . وتوجد نفس الإشارة عند كولڤيل ، المرجع المذكور ، ص. 144 وعند إركمان ، المرجع المذكور ، ص. 25 .

(111) رسالة نائب قنصلنا بفاس ، مؤرخة في أكتوبر 1901(**وثائق مفوضية فرنسا بطنجة**) .

الإجراءات كان لها مفعولها ، عندما يُلَاحَظ أنه في عام1910 (112) كانت مسألة تنظيف الأزقة مدرجة من جديد في جدول الأعمال ، ويُتحدَّث عن تخصيص الأموال المستخرجة من الضريبة على مجازر المدينة لهذا التنظيف(113) .

وسائل النقل الحضري : ـ كانت الأزقة مع ذلك تستحق مصيراً أفضل ، إذ كان يشقها باستمرار الناس والبهائم الحاملة للسلع أو الأثقال من جميع الأنواع .

لم يكن الأمر يتعلق بالنقل العمومي ، بمعنى أن الجماعة لم تنظمه ، ولم تكن مسؤولة عنه ؛ إلا أن جماعة النقّالين ـ كسائر حرف المدينة ـ كانت خاضعة لقضاء المحتسب ، وتقوم إلى حدّ ما بدور الشركات صاحبة الامتياز في مدننا .

(زرزاية) : ـ وهكذا فإن جماعة « زرزاية » التي سبق الحديث عنها(114) قد احتفظت بأهمية رئيسية في حياة السير بالحاضرة . فهم يُستعملون في نقل الأمتعة عند الرحيل (وأثاث المسلمين صغير الحجم يمكن حمله على ظهر إنسان) ، وكحمالين في كل المناسبات ، سواء تعلق الأمر بالمؤ ن التي تحمل إلى دار العروسة(115) ، أو بلوحات خشب الأرز الكبيرة التي تُقطع في مناشر باب عجيسة ، أو بالفُرش والزرابي الضرورية للأفراح العائلية ، أو بالحصر التي تُبسط أمام جدار المصلى لصلاة الأعياد الكبرى كذلك(116) . وأخيراً ، فإنهم يُستعملون كوسطاء يقومون مقام الهاتف أو على الأصح مقام مراسلات تلغرافية .

---

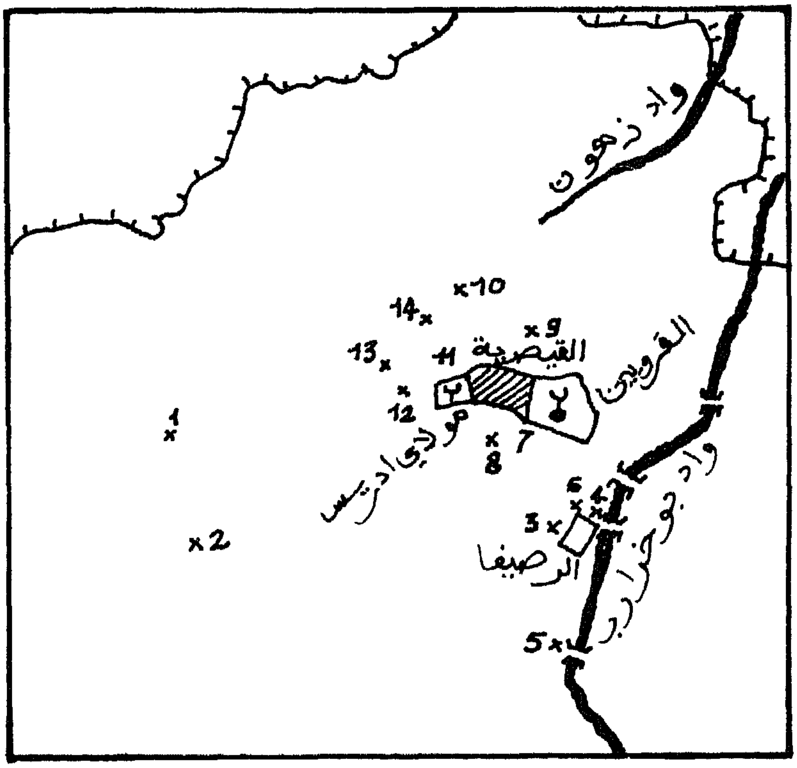
(112) رسالة قنصلنا بفاس مؤرخة في 12 سبتمبر 1910 .

(113) إن تنظيف الأزقة وصيانتها قد تحسنا جداً منذ إنشاء ميزانية بلدية ؛ ومع ذلك فإن فاساً ما زالت كريهة للراجل في إبان المطر .

(114 انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(115) بعضهم متخصص في نقل هدايا الزفاف وجهاز العروس .

(116) يحملون أثقالاً وازنة جداً ، ويروون بفاس أنهم لا يستطيعون حمل مثلها إذا خرجوا من المدينة ؛ ذلك لأنهم يستفيدون ، داخل حرمها من الإعانة الروحية لمولاي إدريس .



الرسم 20

جلسات زرزاية (مقياس 10.000 /1)

1 . قنطرة بورروس 2. سويقة ابن صافي 3. وسعة الرصيف 4. درج الرصيف 5. قنطرة سيدي العواد **6**. رحبة الزبيب 7. الشماعين 8. راس الشراطين 9. رحبة القيس 10. الصاغة 11. الفخارين 12. النجارين 13. عين علّو 14. الجوطية .

ولما كان يُحتاج إليهم في كل وقت وفي جميع جهات المدينة : فإنهم وُزِّعوا لهذا الغرض في عدة مراكز (جلسات) بمختلف أحياء وسط المدينة تقريباً كما هو شأن الطاكسيات الواقفة عندنا . إننا نعرف أربعة عشر مركزاً لزرزاية كلها في عدوة القرويين[117] : اثنان في الأحياء الغربية للمدينة ، في نصف المنحدر ، بقنطرة بوروس [10][118] وبسويقة ابن صافي [7] ؛ وجميع المراكز الأخرى منتشرة في الأحياء التجارية بوسط المدينة : أربعة قرب جامع الرصيف (ساحة الجامع) [19]، الأدراج المحاذية للجامع شرقاً [20] ، قنطرة سيدي العواد [33] ، رحبة الزبيب [47])، واثنان بالقرب من جامع القرويين (الشماعين [17] ، رأس الشراطين [16]) ، واثنان في ناحية المستودعات ودور التجارة بالجملة (رحبة القيس [16] ، الصاغة [14]) ، وأخيراً أربعة حول القيصرية (الفخارين [16] النجارين [24] ، عين علّو [30] والجوطية [21])[119] . إلا أن بعض زرزاية يتجولون قليلاً هنا وهناك مثل طاكسيات خطّافة .

ويلاحظ أنه ، من جهة ، لا يوجد أي مركز لزرزاية في عدوة الأندلس ، وأن هذه المراكز ، من جهة أخرى ، لا تتجاوز الحدود الأولية للحاضرة ، بينما كان من الواجب منطقياً أن توجد في الأبواب الأكثر طروقاً وفي المناطق التجارية كمنطقة مستودعات الكدّان . ويبدو أن هذا التوزيع يدل على تنظيم قديم جداً ينتمي الى العهد الذي استورد فيه سكان عدوة القرويين وحدهم هؤلاء البربر ولم تكن فيه مدينتهم إذاك تتعدى نصف المنحدر قبل عتبة بوجلود بكثير .

---

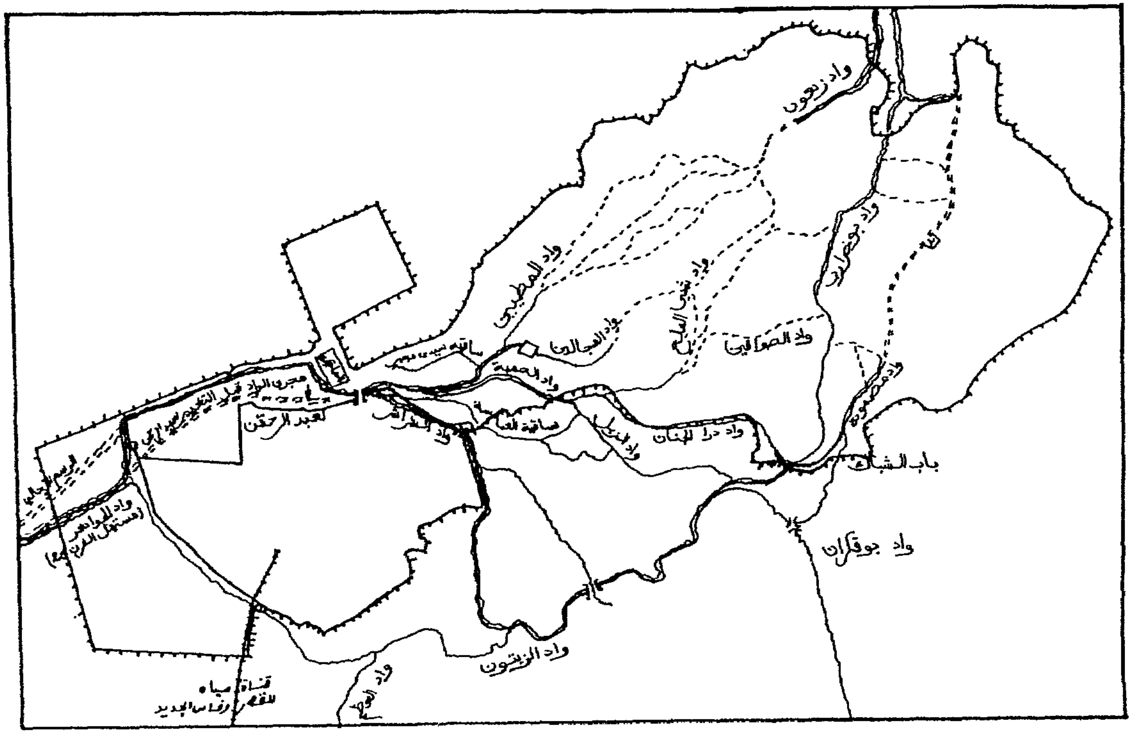
(117) مذكرة غير منشورة حول زرزاية ، سبق ذكرها ، ودراسة عبد الرزاق عمّور (وثائق أصدقاء فاس) ، ورونى ـ لوكلير ، المقال المذكور . الرسم رقم 20 .

(118) تشير الأرقام بين المعقوفتين إلى العدد المبدئي في كل محطة ، كما هو مبيّن في المذكرة حول زرزاية لعام 1918 .

(119) كل محطة مخصصة لمجموع عرقي (تربيعة) ؛ انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 4 ، وكودبارج ،جماعاتان بربريتان بفاس .

ويعود أجر هؤلاء الحمالين الوسطاء بالطبع الى الذين يستعملونهم ، لكنه ليس مسعَّراً ، فكل واحد يدفع حسب إمكانياته ، وحسب العمل المفروض ، وأيضاً ، كما هي العادة بفاس ، حسب تقاليد مشهورة معروفة لدى الجميع ؛ ومن النادر ألا يقنع زرزاية بما يُعطون ؛ فنزاهتهم أصبحت مضرب الأمثال ، وقليل منهم جداً من يحاول استغلال سخاء زبنائه ؛ فإذا اكتُشف ذلك فإنهم يعاقب بدون رحمة من طرف أهل الحرفة .

وإنني لا أملك نفسي من السرور الذي أشعر به لسرد حكاية واقعية في هذا الصدد قصَّها علي أحد الفاسيين . كان صديقي قد استدعى شيخاً يعرفه لتناول غداء في منزله قبل سفره . فاستحضر ، في وقت الذهاب ، زرزايا وكلفه بحمل أمتعة ضيفه إلى مكان معيَّن ، ودفع له مسبَّقاً وكما هو معلوم ما يستحقه من أجر بكل ما يلزم من الكتمان . ولما وصل الشيخ إلى مقصده ، دفع بدوره الأجرة إلى الزرزاي ، غير عالم بما حدث من قبل ، فأخذها الحمال بلا حياء . وبعد أيام اطلع صديقي صدفة على جلية الخبر أثناء الحديث ، فاغتاظ لهذا الاختلاس واستاء لمثل هذه المخالفة للتقاليد ، فذهب إلى رئيس زرزاية وطلب منه أن يرفع القضية إلى المحتسب . فقال له الرئيس : « كلا ، لا فائدة في الفضيحة ؛ دعني وشأني ، وَأْتِني هذا المساء في المستودع الذي نحرسه : فسترى ما يرضيك » . وصل صاحبنا إلى مكان الموعد ، وهو مشغول البال ، فوجد زهاء عشرين زرزايا اقتبلوه اقتبالاً حسناً : وتناولوا الشاي في البداية ، ثم أكلوا طعاماً كثيراً وشربوا الشاي مرة ثانية ، فهمس رئيس زرزاية في أذن المتظلم : « ألا ، هل أنت راض ؟ » . فأجاب : « نعم ، أنا راض من حسن استقبالك ، لكنك لم تذكر بعدُ الشكاية التي قدمتها لك » . قال : « لا ، فَكُلُّ طعامنا أدَّى ثمنه المجرم ؛ إنني لم أخبر الآخرين بسبب العقوبة التي فرضتها عليه ؛ لكن كن متيقناً من أنه إن عاد إلى مثلها سوف نضاعف عليه العقوبة ثلاث مرات ، فيعلم الجميع حينئذ لماذا يعاقب . أما المحتسب فسيكون قد حكم على زرزايك بإرجاع الفرنكات التي



الرسم 21

توزيع الماء بمدينة فاس

تدل الخطوط المقطوعة على مجاري المياه تحت الأرض.

كان من حقه ألا يقبلها ، ويكون الخزي قد انعكس على إخوانه كلهم ؛ فهنا نشطنا جميعاً ، وعُوّضت تعويضاً جيداً ، وأرجو أن يكون الدرس مفيداً . أليس هذا أفضل ؟ »[120] .

النقل على الدواب : ـ ولِنَقْل البضائع الثقيلة (كالحُزَم التي تحملها القوافل من الشاطىء)[121] كانت ـ وما زالت ـ تُستعمل البغال والأفراس . ويملك هذه البهائم نحو ثلاثين من النقالين الصغار المدعوّين حمّارة ، وهم فاسيون فقراء يضعون مدّخراتهم الهزيلة في دابة يشترونها . ويوجدون في فنادق وسط المدينة ، ولا سيما في الشمّاعين والسبيطريين ، ويُؤجرون للخدمة .

إنهم الذين يحملون ، يوم عيد الأضحى ، الكبش الذي نحره السلطان أو ممثله إلى منزل القاضي[122] .

وفيما يخص نقل المواد الدهنية ، يلجأ الناس إلى حمّارين خاصين (هم أصحاب الحمار أو نقّالة الزيت) وغالباً ما ينتمون إلى توات . وتقوم مجموعتان من بين الحمّارين بنقل الجير من أفران ضاحية المدينة إلى دور الدباغ ، وملتقاهم في مدخل المدبغتين الرئيسيتين لسيدي موسى والشوّارة .

وأخيراً، كان نقل مواد البناء الجير، والآجر، والرمل، وبقايا مواد البناء ، يقوم به المقاولون الذين يستغلّون المقالع في دائرة المدينة . وهم قوم أغنياء يملكون عدداً هاماً من الحمر الصغيرة ويبيعون الموادّ بالجملة .

---

(120) حكى لي هذه القصة السيد محمد التازي ، السالف الذكر . وقد أنشئت منذ الحماية ، مجموعة أخرى للحمالين بصفة تلقائية حول محطات السكك الحديدية ومحطات الحافلات ؛ وهي مؤلفة من أشخاص من أصول مختلفة ، وهم في الغالب عديمو الذمة . ويبيّن اسمهم جيداً وهو (البورطية) أنهم خُلقوا من الاحتلال الأوروبي ؛ ولم يتمكنوا من إزاحة زرزاية في مدينة فاس .

(121) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 5 .

(122) انظر عن حفلة عيد الأضحى ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 . لقد زوّدني بهذه المعلومات تلميذي السابق السيد محمد بن عبد العزيز الحبابي .

وكان البورجوازيون الأثرياء من التجار والفقهاء والملاكين ، يمرون في الأزقة على متن بغلاتهم الجميلة[123] اللاّمعة الشعر ، المسرّجة بالقطيفة ، التي تختال في سيرها ويغلو ثمنها . كانوا يغذونها بالتبن والشعير والنخالة ويخصصون للاعتناء بها خادم إصطبل (متعلم)[124] ليس له عمل سوى ذلك ؛ وبالتالي ، كانوا مضطرين إلى أن يكتروا أو يبنوا لها إصطبلاً . وفوق هذه الإصطبلات المظلمة القليلة الهواء ، كانت تقع دائماً تقريباً إحدى تلك الغرف المستقلة (المصريات) التي كان بورجوازيو فاس يحبذون اتخاذها في منازلهم لإيواء ضيوفهم العابرين . . . . أو لستر شهواتهم[125] .

الصحة العمومية : ـ لقد بيّنت ، بصدد شبكات الطرق ، أن أبسط قواعد الصحة العمومية كانت مجهولة جهلاً تاماً من طرف الفاسيين . فكان لا بد من إقامة الحماية لإنشاء مكتب بلدي للصحة والقوانين الصحية . لم تكن المومسات يخضعن للمراقبة إلا من الجانب الأخلاقي ، ولم يُتخذ أي احتياط صحي للوقاية من الأوبئة أو للحدّ من انتشارها ، كما لم يكن الماء مراقباً . لقد رأينا آنفاً أن المخزن كان يهتم بالصحة العمومية ، في حالة وقوع وباء خطير ، لكنه لم يكن يلجأ إلا لاتخاذ إجراءات تجريبية ومؤقتة . ولا بد من القول، لإبرائه من المسؤولية ، إن الأوبئة كانت نادرة : فهل تُعزى هذه الظاهرة ، كما أكده لي بعض الأطباء ، إلى عزل الديار ، الأمر الذي جعلها هكذا قليلة الانفعال بتأثيرات

(123) كانت التجولات بفاس تتم دائماً على متن بغلة أو فرس ، وإلا كانت تكاد لا تنتهي نظراً للمسافات الطويلة جداً التي كان لابد من قطعها أحياناً . لم يكن يسير راجلاً سوى الفقراء . وكانوا ينزلون في الأسواق أو الأزقة التجارية لقضاء حاجاتهم ، وتترك المطايا لأحد زرزاية يحرسها في ملتقى طرق مطروق (انظر روني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص . 130) .

(124) كان لفظ المتعلم يطلق ، في اصطلاح فاس ، على من يتعلم ، لكن أيضاً على العمّال بدون تخصص محدد ، خلافاً للمعلم الذي يعني العامل المتمكن في حرفة من الحرف .

(125) ما زالت البغلات موجودة ، غير أن عددها يقّل شيئاً فشيئاً ، لأن الكثير من الفاسيين اشتروا سيارات ورأوا أنه من الإسراف جداً الإنفاق على سيارة وبغلة في آن واحد ، وإن كانت هذه الأخيرة تكمل الأولى في المسافات عبر المدينة .

الزقاق ؟ إنني أترك هذا السؤال إلى تأمل الملائمين . من المحقق أنه ، خلال العشرين أو الخمس والعشرين سنة التي سبقت الحماية ، لم يُسجل فقط إلا وباء خطير ، من المحتمل أن يكون حمى المستنقعات المؤذية وقع عام 1901 ؛ مع أن المدينة ـ على ما يبدو ـ كانت إصابتها أقل خطورة من فاس الجديد والملاّح . وإذا رجعنا أكثر من ذلك إلى الماضي ، وجدنا إشارات متفرقة إلى الطواعين التي يبدو أنها من أخطر الآفات التي عرفتها فاس[126] . لكن كل هذا لا يتسم بأي طابع استثنائي ، وحتى إلى حدّ بعيد من القرن التاسع عشر ، لم تكن مدن أوروبا الغربية أحسن حظاً .

الحمّامــات : ـ كانت الحمّامات العمومية[127] تعمر جداً ، لقلة الدور التي كانت تحتوي على حمّام خصوصي ، وكان عدد الحمّامات العمومية بفاس 21 حمّاماً قبل الحماية[128] وكلها في ملك الأحباس ، كما هو واضح ، لأن الغسل

---

(126) انظر بالأخص المقالات الموثقة جداً التي خصصها الفقيد الدكتور رونو للأوبئة التي اجتاحت المغرب في 1799 و1818 (هسبيريس ، الجزء 1 ، 1921 الثلاثة الأشهر الثانية ؛ وج 3 ، 1923 ، الثلاثة الأشهر الأولى ؛ وج 5 ، 1925 الثلاثة الأشهر الأولى) . ويشير صاحب **سلوة الأنفاس** إلى أن عدداً كبيراً من الصلحاء الذين يذكرهم هلكوا بالطاعون بفاس .

(127) انظر عن الحمّامات العمومية بفاس ، ليون الإفريقي ، الجزء 2 ، ص. 79-83-1 :229-231 من الطبعة الثانية لترجمتنا ـ ؛ إد موند سوكري ، **حمّامات فاس** . وقد أكملت البيانات الموجودة في هذه الدراسة الممتازة ببحث شخصي أنجزته عام 1945 . ومن جهة أخرى ، توجد بعض المعلومات عند بيل ، **كتابات عربية** ، ص. 108 و129 و181 ، الهامش 4 وص. 4 ، 239 ، والهامش 2 ؛ ومارتان ، **الكدّان** ، ص. 631 و639 ، وأوبان ، المقال المذكور ، ص. 182 .

(128) أوبان المرجع المذكور . وقد بلغ عددها ، في 1942 ,30 حمّاماً ، 24 حمّاماً بالنسبة للمدينة ، و6حمّامات بالنسبة لفاس الجديد (سوكري ، نفس المرجع ، ص. 76 / 77) . ويدلي ليون الإفريقي (المرجع المذكور ، ص. 79) برقم « مائة حمّام » ، يبدو أن البعض منها خصص للنساء . ولم تحتفظ دراسة الموقع الجغرافي بذكر مثل هذا العدد الكبير للحمّامات ، ولا كذلك وثائق الأحباس التي أمكن فحصها إلا أن هذا العدد يكاد يطابق بدقة العدد المذكور في **روض القرطاس** ، ص. 25 .

واجب ديني وعمليته موصوفة بدقة في كتب الفقه[129] . فمن الإنصاف إذن أن تضع إدارة الأحباس المحلات الضرورية لذلك رهن إشارة المؤمنين[130] .

وكان لكل حي مبدئياً حمّامه، ما عدا حيي الفخارين ووادي الزيتون القليلي السكان ، وكذا منطقة العيون الأرستقراطية التي تتباعد فيها البيوت قليلاً وتكثر الحمّامات الخاصة . وعلى النقيض من ذلك ، كانت الأحياء الآهلة والممتدة كالطالعة ، ورأس الجنان ، والكدّان يحتوي كل واحد منهما على حمّامين .

وكان مبنى الحمّام وحجرة الثياب اللذان هما في ملك الأحباس يعرضان مبدئياً في المزاد كل سنتين ، لكن هذا المزاد قلّما كان يقع فعلاً ، لأن أهل الحي إذا رضوا بالمكتري طالبوا بإبقاء الكراء باسمه ، فتُلبى رغبتهم . وهو الذي يؤدي الكراء[131] ويقدّم السطول الضرورية للمستحمّين[132] ، ويؤدي أجرة لمُسخِّن الماء والمُمَوِّن بالوَقود والبوّاب والمنظف ، ويشتري الوقود ويتحمل مصاريف الصيانة العادية ، بينما كانت الأحباس تتحمل الإصلاحات الكبرى ؛ وبالمقابل كان يقبض واجبات الدخول الفردية[133] والكراءات الجماعية[134] .

(129) ومع ذلك فلا يُمنع الخواص من بناء الحمّامات . ولم يفتهم ذلك بفاس في هذه السنوات الأخيرة ، لكونهم وجدوا فيها مورداً لا يُستهان به : وهكذا ، ففي سنة 1942 كانت 8 من بين الحمّامات العمومية بفاس 5 بالنسبة للمدينة و3 بالنسبة لفاس الجديد ملكيات خاصة . انظر سوكري (المرجع المذكور ، ص. 64) .

(130) انظر عن تنظيم الحمّامات ، سوكري (المرجع المذكور ص. 64) . وقد سبق لليون الإفريقي ، أن بيّن التقسيم إلى أربع قاعات (الجلسة وهي قاعة الراحة ؛ والبراني وهي القاعة الباردة ؛ والوسطاني وهي القاعة الدافئة ؛ والدخلاني وهي القاعة الساخنة) انظر إدموند پوتي ، **حمّامات القاهرة** . وكانت قاعات الحمّام جد مظلمة حتى في النهار ، وذلك حفاظاً على الحياء . وكانت القناديل الزيتية تؤَمّن الإنارة ليلاً ، وكان الزبناء الموسرون يأتون بشمعاتهم .

(131) من 100 إلى 150 مثقال للشهر في 1906 (انظر مارتان ، المرجع المذكور ، ص. 631) .

(132) كان ذلك عبئاً ثقيلاً جداً عليه ، لأن الكثير من الزبناء كانوا قليلي الاعتناء ، بينما كانت السطول تكسر بسهولة ، وكان يصنعها القبّابون) . (انظر عنهم ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 3) .

(133) كان واجب الدخول ، في 1941 ، هو 0,75 للرجال وفرنك واحد للنساء . وكان يسجل يومياً معدل 200 دخول (انظر سوكري ، المرجع المذكور ، ص. 73) .

(134) يستطيع الخواص أن يكتروا حمّاماً في الليل ، إما لكونهم أرادوا أن يستحمّوا بكيفية عادية ، =

وكان المستخدمون ينقسمون إلى صنفين : مستخدمو المصلحة الخارجية ، أي الذين ليس لهم اتصال بالعموم ، ومستخدمو المصلحة الداخلية .

وكان من الصنف الأول المُمَوِّن بالوَقود (الغبّار) الذي كان يجوب فاساً وناحيتها بدابّته بحثاً عن الوقود[135] بأجرة درهمين في اليوم حوالي 1910 ؛ ومُسخِّن الماء (أو مولى الفرناطشي) ، الذي كان ينام في الحمّام ويعمل بدون انقطاع من الفجر إلى المساء وحتى الليل في غالب الأحيان[136] .

وكانت المصلحة الداخلية تضم فرقة من الرجال وفرقة من النساء ، حسب الزبناء[137] . وكان الصنف الأول يشتمل على :

بوّاب (كْلاّس) كان يمكث في البهو ويستلم واجبات الدخول ويحرس الملابس الموضوعة في خزانات مقفلة بالمفاتيح[138] . وفي مقابل الخدمة التي

= لكن بدون اختلاط النهار (وهذه حالة بعض العائلات الشريفة أو البرجوازيين الموسرين) ، وإما لكونهم ينظمون فيه حفلة طقوسية (كاستحمام العروسة أو النفساء) . وكان ثمن الكراء ، في 1942 ، من 30 إلى 40 فرنكاً لليلة . وتُكترى غالباً الحمّامات في كل الليالي تقريباً .

(135) كان يُحرق ما يُعثر عليه ، حسب الفصول : الخشب ، والنشارة ، وبقايا الزيتون المعصور ، والتبن والغبار (انظر ليون الإفريقي ، المرجع المذكور ، ص. 80 -1 :229 -230 من ط. 2 من ترجمتنا ـ) ؛ ومحمد الفاسي وديرمينكْيم ، حكايات فاسية ، ص. 97 ، هامش 1) .

(136) ومراعاة للمجهود المطلوب منه ، كان يتقاضى من 4 إلى 5 دراهم في اليوم ؛ على أنه كان يوجد مُسخِّنان للماء يعمل كل واحد منهما يوماً من يومين ، بالإضافة إلى أن مُسخِّن الماء كانت تصله هدية نقداً والعَشاء من طرف الذين يكترون الحمّام ليلاً . كما كان يطبخ بعض الأطعمة (لاسيما رؤوس الغنم وأرجلها) لمن لا خدم لهم أو المسافرين العابرين .

(137) كان الصباح مخصصاً للرجال ، من الفجر إلى منتصف النهار ؛ ثم يشرع في تنظيف الحمام وملء حوض الماء الساخن ؛ وبعد ذلك يكون دور النساء ، من الساعة الثالثة زوالاً إلى الثامنة أو التاسعة مساء . وفي هذه الأثناء كان يُمدّ حبل عُلقت فيه خرقة في مدخل الحمّام : وتلك كانت العلامة على أن الرجال غير مسموح لهم بالدخول إليه . وكان حمّامان مفتوحين للرجال طيلة النهار ، هما حمام الصفّارين وحمام العشّابين .

(138) وفي أهم الحمّامات كانت المهنة مزدوجة أحياناً ، إذ كان يوجد في نفس الوقت أمين للصندوق وحارس للثياب .

يقوم بها من الفجر إلى منتصف النهار كان يتلقى درهماً من صاحب الحمّام ، ويزاول مهنة أخرى في الغالب ، هي الدلالة مثلاً .

ورجلان أو ثلاثة يقومون بالتدليك ويوزعون الماء[139] (عمّـار ، ج عمّارة أو كيّاس ، ج كيّاسة) يكافئهم الزبناء بقرش أو حسنيّ ، حسب الخدمات التي قاموا بها وسخاء المستعمل ؛

وكنّاس (مولى النظافة) يؤجره صاحب الحمام بـ 8 أوقيات في اليوم ، وكان له شغل آخر يتمِّم به عمل يومه .

وكانت فرقة النساء التي تطابق تماماً فرقة الرجال ، تتكون من أمنية الصندوق (كَلَّاسة) ، وأربع مدلّكات (طيّابة ، ج طَيّابات أو طيايب) وكنّاسة (مولاة النظافة) .

وكان كـل هؤلاء المستخدمين من الرجال والنساء فاسيين ذوي سمعة حسنة ومسجَّلين مع اسم ضامنهم في سجلات المحتسب الذي كان مكلفاً بالسهر على أن تسود النظافة والحياء في الحمّامات ، يرسل أحياناً إليها نائبه أو أحد أعوانه للتأكـد من أن كل شيء على ما يرام . ومن الإنصاف القول إنه ، باستثناء خصومات النساء العابرة[140] ، كانت الحوادث نادرة[141] ، وكان النظام يسير على ما يرضي الفاسيين .

---

(139) وفي الحمامات التي هي أقلّ رواجاً ، كان يُكتفى بواحد للتدليك .

(140) كانت كل واحدة تريد أن تلبي رغبتها هي الأولى ولا تتردّد في أن تنزع سطلاً لجارتها ، الأمر الذي كان يؤدي إلى مشاجرات ، وعنف ، وكسر السطول .

(141) كانت تحدث مع الأسف أحياناً بعض السرقات . فكانت تُراعى إذن حالتان :

1 ـ إما أن السرقة كانت تخص الأشياء والملابس المودعة في خزانة الثياب ، فيكون صاحب الحمّام مسؤولاً عنها ؛ ويَعُدُّ الزبون ما فقده ويحلف على ذلك أمام مولاي إدريس أو سيدي عبد الرحمن المليلي ، أو على المصحف الكريم ، ثم يذهب برفقة صاحب الحمّام إلى سوق الملابس البالية (سوق المرقطان) ليشتري ثياباً مستعملة تعويضاً لما ضاع له ، ويؤدي ثمنها صاحب الحمّام .

2 ـ وإما أن السرقة حدثت داخل الحمّام ، فلا يتحمل حينئذ صاحب الحمام أية مسؤولية .

لم تكن الحمّامات فقط مكان الغسل الكبير ، ولكنها كانت أيضاً أحد مساكن الجن[142] المفضّلة ، وذلك ما نشأت عنه اعتقادات غريبة جداً عن السنة المتشدّدة[143] . فكان يُعتبر المجيء المبكر إلى الحمام والاغتسال فيه على انفراد ضرباً من الشجاعة . فكان ينبغي ، لاستمالة الجن ، أن تُحرق البخور ويوقد قنديل ، الشيء الذي لم يكن يفوت المستخدمين القيام به صباح مساء ، وإلاّ قلّ عدد الزبناء لا محالة ، لا سيما النساء . وكانت تُضاف إلى هذه العمليات اليومية عمليات أخرى استثنائية ، ذلك أنه عندما توضع جفنة جديدة لم يكن صاحب الحمّام يتردد في أن يذبح حتى خروفاً كي لا يعرقل الجن الاشتغال الحسن للجفنة . وإن حدث أن المستحمّين ظنوا أنهم « سمعوا أصواتاً غريبة أو شاهدوا أشباحاً عجيبة ، فإنهم كانوا يستحضرون كناوة[144] الذين يرقصون ويغنون طوال الليل ، ثم يضحون » بتيس أسود أو ديكة بيضاء أمام مطهرة أو قناة ماء ، وهما الموقعان المعروفان بأنهما الملجآن المفضلان عند الجن[145] .

وكان تعظيم الأولياء يختلط بتعظيم الجن : فحمّام الزبالة بفاس الجديد يحتضن إجلال لالّة شافية التي كان يحتمي بها المستحمّون ويدعونها بدعاء ملائم . وكان حمّام ابن عبّاد (بحي القطّانين)« مشهوراً لدى العامة بأنه يتصل كل يوم سبت بِحَـمَّـة مولاي يعقوب[146] وتُنسب إليه معجزات في الشفاء من أمراض الجلد »[147] . كما أن حمّامي مولاي إدريس وسيدي أحمد الشاوي كانا يُعتبران حمّامين مباركين متواتيين .

---

(142) انظر عند علي باي (المرجع المذكور ، ص. 125) شهادة عن هذا الاعتقاد في وجود الجن بالحمّامات العمومية .

(143) انظر عند ليون الإفريقي (الكتاب 2 ، ص. 88) ـ 1:230-231 من ط. 2 لترجمتنا ـ وصفاً للاحتفال السنوي لمستخدمي الحمّامات والمراسيم المتبعة للحصول على زبناء طوال السنة . وقد أُهمل هذا الاحتفال منذ زمن قديم .

(144) انظر عن طائفة الزنوج هذه ما يأتي ، الكتاب 8 الفصل 4 .

(145) إدموند سوكري ، المرجع المذكور ، ص. 63 .

(146) عين كبريتية واقعة على بعد 18 كلم غربيّ فاس .

(147) نفس المرجع ، ص. 72 . انظر أيضاً **سلوة الأنفاس** ، الجزء 2 ص. 142 .

ولما كانت الحمّامات العمومية مؤسسات خيرية ، فإنها تحمل أثر اعتقادات قديمة احتفظت بها النساء أكثر من الرجال .

مقاومة الحريق : ـ لم تكن مؤسسة رجال المطافىء موجودة بفاس . إلا أنه كان من الضروري اتخاذ بعض الاحتياطات في هذه المدينة المجمَّعة إلى هذا الحدّ التي كان للخشب في أبنيتها الحظ الأوفر . وبسبب انعدام هيئة رجال المطافىء ، كان هناك على الأقل أناس يسهرون في الليل على الأماكن المعرّضة أكثر من غيرها للحريق . لذلك ، ولاجتناب السرقات أيضاً ، كان زرزاية يبيتون في مجموعات صغيرة بأهمّ الأسواق والفنادق والمستودعات بالمدينة ، ويتقاضون أجرهم من أصحاب هذه المؤسسات مشتركين إذا كانوا كثيرين ؛ وكانوا يقومون بدوريات في أوقات منتظمة ، وبذلك نقص الخطر إلى أدنى درجة .

لم تكن هذه الاحتياطات تمنع النار أحياناً من الاندلاع ، لكن نظراً لوسائل المراقبة المذكورة وغزارة المياه في جميع الأحياء تقريباً ، فإن الحريق لم يكن ينتشر انتشاراً واسعاً إلا نادراً[148] . وبمجرد ما يقع الإعلان عنه ، كان العامل يستنفر السقّائين والدبّاغين الذين يتوفرون كلهم على القرب ؛ وكان الحمّالون ومساعدون متطوعون يعينون في مقاومة الحريق ، عند الاقتضاء

الشرطة والأمن : ـ كانت الشرطة والسهر على الأمن من اختصاص العامل ، وبالتالي من اختصاص مقدّمي الأحياء ومستخدميهم . ولم يكن هناك موظفون مكلفون خاصة بالشرطة ، كما هو الشأن في بعض مدن إسبانيا والشرق .

الإجرام بفاس : ـ هذا ، وإذا وضعنا على حدة الاضطرابات السياسية التي لم تكن هذه الشرطة الهزيلة المجنّدة محلياً كافية لمواجهتها ، فإن فاساً كانت تظهر كمدينة هادئة ، قليلاً ما تحدث بها الجرائم بالسلاح .

---

(148) كانت الأسواق المركزية ، والقيصرية والأسواق المجاورة بها هي الأكثر تعرُّضاً للحريق : وقد حدثت فيها حرائق واسعة في 1905 و 1917 ، وكذا في مارس 1945 .

غير أن القبطان إيركمان يؤكد عكس ذلك فيقول : « إن الجرائم كثيرة ، لا سيما بفاس ، حيث توجد بعض الدور السيئة السمعة التي تحتوي على زنزانات ، وحيث يساعد النهر على إخفاء الجثث بنفس السهولة التي يعيد بها المقيمون على ضفة النهر إلقاء الجثث فيه إذا وقعت عندهم ، اجتناباً للمزعجات[149] » . إن هذا النص يشعر بـ « القصة السوداء » ويبدو لي أنه من اختراع الخيال ؛ وجدير بالملاحظة أن المؤلف لا يذكر أي حادث معيَّن يشهد بصحة أقواله ، مكتفياً بتأكيد مبهم . وأكثر من هذا ، فإن البغاء ، في الوقت الذي كان يكتب فيه ، كان مركَّزا بالخصوص في فنادق العدوة ، ولم أسمع قط بوجود زنزانات في هذا الحي ، ومجاري المياه فيه قليلة : ولم تكن هذه التفاصيل تعني سوى قصبة بوجلود حيث حفر المرابطون مطامير ما زالت باقية ، وحيث يمر فرع النهر الذي يروي ناحية اللمطيين ؛ وكانت أحد الأحياء المشبوهة النادرة بفاس في ذلك العهد ؛ ولا يمكن أن تُعزى الأعمال الدنيئة التي قد ترتكب فيها إلى المدينة بأسرها . وهناك رحّالة أوروبي آخر ، هو و . هـريس[150] ، يعطي معلومات معاكسة تماماً ، إذ يقول : « إن الجريمة بفاس أقلّ بكثير مما هي عليه في الأحياء الدنيئة للعواصم الأوروبية ، حيث يمكن التجول فيها ـ فاس ـ بكل أمان ، نهاراً وليلاً ، حتى ولو كان المتجول أوروبياً ، وبالرغم على انعدام الشرطة » . هذه هي الرواية التي أعتبرها أكثر صحة ، إذا ما رجعت إلى تجربتي الفاسية : فخلال العشر سنوات التي قضيتها بها ، حدث اغتيالان أو ثلاثة ، على الأكثر ، وقلّما يقع فيها الضياع . فلن نعتقد أن الحماية قد غيّرت وعزّزت الشرطة بفاس ، فالشرطة الفرنسية لم تتوغّل في المدينة طوال مدة مديدة[151] ، وبقي أمن السكان تحت رعاية أعوان العامل ، الذين أصبحوا منظمين أحسن قليلاً وأكثر عدداً ـ على ما يبدو ـ مما

(149) المرجع المذكور ، ص. 138 .

(150) بلاد سلطان إفريقي ، ص. 98 .

(151) أُقيم على إثر اضطرابات 1944 ، مركز رئيسي للشرطة وعدة مراكز شرطية عادية في مدينة فاس . وبالعكس من ذلك ، فإن فاس الجديد كان مزوداً بمركز للشرطة منذ بداية الحماية .

كانوا عليه أيام مولاي عبد العزيز ، لكنهم بالتأكيد أصبحوا أقل تسليحاً بكثير . لقد جرى الحديث كثيراً عن وقوع حالات تسميم داخل بعض الأسر ، سهّلتها حصانة المنازل ، وانعدام الحالة المدنية ، والعادة التي تقتضي بدفن الموتى فور وفاتهم . لا أعتقد أن يكون الحادث ممكناً إنكاره : فقد أطلعني بعض الأطباء أثناء مقامي بفاس على بعض الحالات المشبوهة ، لكن لا يجب التهويل ، ولا التعميم ، بل ينبغي اتقاء الجو الحالك الغريب السائد في الحاضرة الإدريسية ، الذي بالغ فيه الرحّالة كثيراً تحت تأثير انطباعاتهم الأولى .

المتسكّعون : ـ وبالجملة ، يمكن القول بكل تجرّد ، أن الجريمية كانت وما زالت بفاس أضعف مما هي عليه في كثير من المدن الأخرى . هذا ، ولم يكن فيها الأمن دائماً تاماً ، فقد سبق أن ذكرت بأن الأوروبيين كانوا فيها عرضة لمخاطر حقيقية في بعض الظروف[152] . لكن الفاسيين أنفسهم لم يكونوا بمنجى من الاعتداءات ، لأن سكان المدينة ، إذا كانوا في مجملهم سليمين هادئين ، فإن البادية المحيطة بها ، لا سيما خلال دولة مولاي عبد العزيز ودولة مولاي حفيظ ، كانت مسكونة بمتسكّعين يبْخسون الحياة البشرية حقها . فبمجرد ما كان الناس يتخطون الأبواب ، يتعرضون للهجوم أو للنهب على الأقل : يذكر شيڤربون[153] حالة أربعة أشخاص قتلوا في الغسق غير بعيد عن باب سيدي بوجيدة ، ويبيّن الطريقة الكفيلة بالتقليل من المخاطر وهي : أن يمتنع الشخص من أن يُفصل بينه وبين المدينة ، وألا يمر عن يسار الفرسان المشبوه فيهم الذين ليس لهم في هذا الموقف سوى القيام بحركة لإسناد البندقية إلى الكتف وإطلاق النار . ويسجل أيضاً مارتان[154] أن ضريح سيدي بوجيدة الواقع خارج الأسوار لم يعد بعدُ معموراً بالنساء اللواتي كان من

(152) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 .
(153) نفس المرجع ، ص. 163 -165 .
(154) المقال المذكور ، ص. 437 .

عادتهن قديماً أن يزرنه كل يوم أربعاء ، لأنهن لم يعدن آمنات على أنفسهن فيه .

أبواب الأحيـــاء : ـ كانت هذه الاعتداءات نادرة في النهار ، لأن ضواحي المدينة[155] كانت مطروقة . وعلى كل حال ، لم يكن المتسكّعون يخاطرون بأنفسهم ويدخلو إلى المدينة ، إذ كانت الأبواب محروسة لا يستطيع أي أحد ان يجتازها وهو مسلح : كان أحد الموظفين مكلفاً بهذه الحراسة لا يسمح للبدو بالدخول إلا إذا سلّموا إليه أسلحتهم مقابل توصّل ؛ وكان يردّها إليهم عند خروجهم[156] . لكن كل شيء كان يتغير عند حلول الليل ؛ فمهما كان نصب الحراس في نقط الأسوار الأكثر تعرضاً للثلم ، فإنه[157] لم يكن إلا أمراً يسيراً على المتسكّعين أن يجدوا مكاناً مواتياً للتسلق خالياً من المراقبة ؛ فويل إذ ذاك للمتجوّلين ليلاً المخاطرين بأنفسهم في نواحٍ خالية ! كانوا يتعرضون على الأقل لطلقات نارية[158] . إلا أن النهّاب لم يكونوا يتقدمون بعيداً لأنهم ، بمجرد ما كانوا يصلون إلى المناطق الآهلة ، كانوا يصطدمون بجدران المنازل الشاهقة الملساء التي لا نوافد فيها ، وأبواب الأزقة الموصدة بإتقان . وكانت تلك إحدى خاصيات فاس وهي كونها مقسمة ليلاً إلى عدد كبير من الخلايا الصغيرة المحكمة السدّ[159] التي لم يعد يتصل بعضها ببعض إلا عن طريق السطوح التي يتعذر على اللصوص الوصول إليها من خارج ، وكان إغلاق الأبواب مبدئياً عند الغسق بعد صلاة العشاء ، وفتحها قبل صلاة

---

(155) انظر روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 153 .

(156) معلومات ذكرها ميشو ـ بلّير في **وصف فاس** ، ص. 277 .

(157) كانت تلك الحالة في قطاع باب الحمراء : فكان أعوان مقدّم المخفية يقيمون به الحراسة كل ليلة (أعطى هذا الخبر أحد شيوخ الحي) .

(158) هاريس ، نفس المرجع ، ص. 172 .

(159) وفي القاهرة أيضاً كانت الأحياء ذات أبواب تغلق ليلاً . وقد أسقط الفرنسيون العدد منها أثناء الحملة العسكرية إلى مصر ، وبقي منها أخرى حتى منتصف القرن التاسع عشر (كليرجي ، **القاهرة** ، الجزء 1 ، ص. 263) .

الفجر ، على يد مقدّمي الأحياء وأعوانهم . وفي الواقع ، فإنه نظراً لكثرة عدد أبواب كل حي وبُعدها الكبير أحياناً ، بعضها عن بعض ، كان سكان الحي يساهمون في هذه الخدمة العمومية ؛ وأما أعوان القوة العمومية فكانوا يُفوّضون أمرهم في شتى الأماكن إلى المبكرين والمتديّنين المتعوّدين على صلاة الفجر[160] ، ولم يكن هذا الإجراء الأمني الناجع بدون مساوىء : فكان التجول بفاس ليلاً مغامرة حقيقية ؛ وفيما يخص مواكب الزفاف ،كان الاتفاق يتمّ مع أعوان الأحياء المتوقع المرور بها ، مقابل مكافأة ، بطبيعة الحال ، وكان كل شيء يسير دون صدمات . لكنَّ المنفردين لم يكونوا يستطيعون دائماً أن يتخذوا هذا الاحتياط ، وكان عليهم أن يحدثوا لجباً كبيراً لإشعار المأمورين الذين لم يكونوا دائماً حاضرين في الوقت المناسب ؛ وكان يتفق أن يفتح جارٌ عيل صبره الباب بنفسه لجعل حد لهذه الضجة التي كانت توقظ أهل الدار جميعاً . والحاصل أنه لا بد للتجول ليلاً في مدينة فاس من الوقت والمال[161] .

الحرس الفاسي : ـ عندما كانت تثور القبائل المجاورة وتهدد الحاضرة ، كانت شرطة العامل ناقصة غير كافية . عندئذ ، كان الفاسيون أنفسهم يقومون بمهمة الدفاع ، فيستنفرون نوعاً من الحرس المكوَّن خاصة من المنضمّين إلى جمعيات الرماية بالمدينة[162] . كانت النواحي الكبرى للمدينة (القسمات) ـ وهي اللمطيين ، والأندلس ، والعدوة ـ تعطي كل واحدة منها

(160) انظر أوبان ، نفس المرجع ، ص. 306 .

(161) توبع إغلاق الأبواب ليلاً بعد إقامة الحماية ، ثم اضمحلت هذه العادة لوجود الأمن التام ، ما عدا بالنسبة للقيصرية والأسواق المجاورة لها . إلا أن الأبواب بقيت في أماكنها ، وما زالت تُغلق لدى حدوث اضطرابات في المدينة ، لكن هذا الاحتياط ليس ناجحاً تماماً لأن السطوح ـ كما ذكرت ذلك سابقاً ـ يمكن أن تصلح كوسيلة للمواصلات ، وكاد يكون من الممكن اجتياز الحاضرة ، بواسطتها ، من أقصاها إلى أقصاها .

(162) سأعود فيما يأتي إلى هذه الجمعيات (انظر ما يأتي الكتاب 5 ، الفصل 3) . كان أعضاؤها يُدعون الرماة (الرما) ، ويؤخذون خاصة من بين الصنّاع .

مجموعة ، بينما كانت تنظم خدمة للحراسة في «الباستيونين» المشرفين على فاس[163] ، وفي قصبة بوجلود وبعض النقط الحساسة للأسوار[164] . لا شك أن إنشاء هذا الحرس المدني قديم جداً ؛ وعلى كل حال ، فهو مذكور إبّان الفتن التي سبقت تبوّء مولاي الرشيد للعرش[165] . وكان متأصلاً في السنوات الأولى من القرن العشرين ؛ وفي أوائل سنة 1903 ، أثناء الاضطرابات التي حدثت في آخر دولة مولاي عبد العزيز ، كان ألفان من الشباب ـ حسب ما يقال ـ يتدربون على الرماية ، خاصة خارج باب فتوح ، تحت إشراف الشريف الكتاني[166] .

تنظيم السجـون : ـ كانت السجون ، في المدينة مخصصة فقط للجانحين في القانون العام ، الخـاضعين لحكم مختلف رجال السلطة بالمدينة ، وكان المعتقلون السياسيون يُحبسون في سجون فاس الجديد ، التي سنتحدث عنها فيما بعد[167] . كان بفاس البالي سجنان يضمان في 1910 مائة وعشرة سجين[168] .

كان أحدهما واقعاً بحيّ القطّانين وما زال موجوداً به ، وكان الآخر سجن النساء بسيدي فرج[169] . كانت المعتقلات ، وهن في الجملة مومسات ، مجمّعات في الطابق الأول للمبنى الذي يحتل المجانين طابقه السفليّ ؛ ولم يكنَّ محبوسات في زنزانات ، لكن كنَّ مصفدات الأرجل بالحديد ، الأمر الذي

---

(163) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 .

(164) أوبان المرجع المذكور ، ص. 305 . ويشير نفس المؤلف (نفس المرجع ، ص. 274) إلى وجود وَقْف مُعدّ لإقامة الصلاة وتلاوة القرآن في كلا « البسيتونين » إذا كانا عامرين ؛ وقد وقع ذلك في يناير 1903 ، أثناء ثورة بوحمارة .

(165) سلوة الأنفاس ، الجزء 2 ، ص. 127 .

(166) ميطرودي لاموط ـ كايرون وترنكا ، المرجع المذكور ، ص. 36 .

(167) انظر ما يأتي ، الكتاب 4 ، الفصل 4 .

(168) تقرير القنصل كايار بتاريخ 4 أبريل 1910 .

(169) ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 309 .

كان يساعدهن على إنجاز الأعمال التي كانت تفرضها عليهن الحارسة (العريفة) ؛ وكانت هذه الأخيرة ، المُعيَّنة من طرف العامل ، تجني مواردها من المعتقلات فتدفعهن بذلك سرًّا إلى البغاء . وكانت لها مساعِدات يعشن ، على غرار الأعوان التابعين للعمال والقواد ، (بالسخرة) المفروضة على السجينات .

لم تكن الأماكن في السجن تكتسي أية صبغة خاصة ، إذ كانت مبنيَّة حسب تصميم الدور العادية بفاس ، يجري فيها الماء وتسودها النظافة . كان المعتقلون يوجَّهون إليها من طرف مختلف رجال السلطة بالحاضرة ، من عامل ، وقضاة ، ومحتسب ومزوار[170] الشرفاء ، دون أن يبيِّن سبب العقوبة ولا مدّتها[171] .

ولا وجود لسجل الأمر بالحبس . وكان السجناء يُحرَّرون بأمر من نفس الشخصيات (التي أمرت بسجنهم) . وكان أغلبهم يتلقون المؤن من عائلاتهم أو يحصلون على الطعام مقابل نقود ؛ وقد يُحضِر بعضهم ، من الأغنياء جوقاً من المغنيات[172] ، ولم يكونوا تعساء .

كان الفقراء يعرفون مصيراً أقل رغداً ، إذ كانوا يستطيعون أحياناً الحصول على شيء من المال لغذائهم مقابل إنجاز أشغال صغيرة لكن ذلك كان مورداً غير منتظم ، ويأخذ عنه الحرّاس إتاوة ضخمة ؛ وكانوا معرَّضين للهلاك جوعاً ، رغم الخبز اليومي الذي كان يُؤمِّنه لهم مبدئياً وَقْفٌ خاص[173] . ويتلقون بفرح عمليات توزيع الخبز التي كانت تقوم بها القنصليات الأوروبية بمناسبة الأعياد الإسلامية أو مرور السفراء .

---

(170) انظر عن هذا اللفظ ما يأتي ، الكتاب 7 ، الفصل 1 .

(171) تقرير الكولونيل كُورو رقم 124 ، بتاريخ 21 اكتوبر 1912 .

(172) انظر عن هؤلاء المغنيات ما يأتي ، الكتاب 7 ، الفصل 7 .

(173) أوبان المرجع المذكور ، ص. 274 .

المؤسسات الخيرية : ـ كان للإحسان ، في مدينة كبرى كفاس ، مجال واسع . إننا نعلم أن الإسلام يجعل منه إحدى الفرائض الأساسية الواجبة على المؤمن ، وأن الدولة الإسلامية أعطته طابع ضريبة (الزكاة) . إضافة إلى أن لكل مؤمن الحرية في أن يتطوّع بالزيادة على هذه الصدقة الإجبارية ولا يتخلى عنها .

المتسوّلــون : ـ يلتزم الفاسيون تماماً بهذه الفريضة الخيريـة ، فللكثير منهم متسوّلوهم الخاصون الذين يأتون إليهم كل يوم ، طالبين منهم ما يسدّون به رمقهم وهم ينطقون بالعبارة المعتادة : « في سبيل الله » ، ثم يشكرونهم بعبارات أخرى معتادة مثل : « الله يجازيكم بالخير » ، أو يبخرون كذلك عتبة المنزل الكريم بمجمرة العطور يحملونها معهم في تجوالهم . ولكل حي متسوّله أو متسوّلوه العاديون ، ولكل فاسي غني زبناؤه من الفقراء . ويستفيـد هؤلاء المساكين ، بمنـاسبـة الأعيـاد الـدينيـة او الاحتفـالات العائلية[174] ، من الطعام الفاخر الذي يُقدّم إليهم بكل سخاء .

ويقيم متسوّلون آخرون من مقعدين وعميان بالخصوص في مركز قارّ ، بباب مسجد ، أو في ضواحي ضريح مولاي إدريس ، أو في زقاق يمر به الراجلون (إذ يوشكون في زقاق مطروق كثيراً أن تصدمهم الحيوانات) ، وهم يجهرون دون كلل ولا ملل بندائهم الرتيب ، طالبين الإحسان من المارة بقولهم : « على ربي » ، و« على الوالدين » . ولهؤلاء أيضاً محسنـوهم المعتـادون ، المؤمنون الـذاهبون لأداء فـرائضهم ، والتجار القـاصدون تجارتهم ، أو حتى الأطفال في طريقهم إلى المدرسة . وفي الليل كان العديد من هؤلاء المتسوّلين يجتمعون في حرم مولاي إدريس حيث يبيتون ، وهم ممتدون في الأزقة[175] .

---

(174) انظر عن جميع هذه الأعياد ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

(175) دي بيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 28 . وعام 1914شيِّدت بلدية فاس قرية من الأكواخ في بساتين كُرواوة لإيواء هؤلاء المتسوّلين .

سيدي فرج : ـ لكن ذلك لم يكن كافياً حتى بالنسبة للفقراء المقيمين عادة بفاس . ومنذ قرون ، أُنشئت مؤسسات خيرية لفائدة المحرومين ورُكِّزت حول مستشفى سيدي فرج[176] تحت اسم أحباس المارستان .

هناك كان المجانين يُدْخَلون إلى المستشفى[177] ، ويُحبسون في غرف معزولة ويوثقون بالحديد من العنق أو الخصر ؛ ويُعطَوْن رغيفين وماء في كل يوم ، ويُجعلون تحت مراقبة بعض الحرّاس الذين ليس لهم أي شبه بممرِّضين ، وكان هنالك حبس خاص ، حسب أوبان[178] ، لتنظيم حفلة موسيقية كل يوم جمعة لهؤلاء المحبوسين : وكانت انفعالاتهم للموسيقى مقياساً لحالتهم الصحية .

وفضلاً عن ذلك ، كانت أحباس سيدي فرج تُستعمل لإسعاف فقراء المدينة المسجلين بدار بوعلي عند العامل . وكان أمينان ، وهما في 1908 الحاج المكي بن عبد الله وعبد المجيد بن شقرون[179] ، مكلفين بتنظيم ومراقبة الإسعافات المخصصة لهؤلاء المعوزين الرسميين التي كانت عبارة عن مبلغ صغير من المال يُدفع كل يوم لمن كانوا يوفّرون لأنفسهم أسباب معاشهم ، وعن شبه حساء شعبي حيث كان الذين ليس لهم دار يجدون حساء في الصباح ، مع قليل من اللحم في الغداء والكسكسو في العشاء[180] . ومن حين لآخر ، كانت تُوزَّع عليهم أيضاً بعض الثياب ، وإذا توفّوا كانت أحباس سيدي فرج تُؤمِّن لهم جنازة لائقة[181]

---

(176) كان هذا المارستان مُعداً مبدئياً للمجانين ؛ وحسب صاحب سلوة الأنفاس (الجزء 1 ، ص. 216) ، كان اسمه الأول باب الفَرَج ، لكن العامة الجاهلة غيّرته إلى سيدي فَرْج ، وبقي هذا الاسم يطلق عليه . انظر عن هذه المؤسسة ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 309 .

(177) كان يسوقهم إليه زرزاية الذين كانوا مكلفين عادة بهذه المهمة الشاقة .

(178) المرجع المذكور ، ص. 274 .

(179) مارتان ، **الكذّان** ، ص. 623 .

(180) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 277 .

(181) وأنشئت منذ الحماية جمعية خيرية إسلامية لتدعيم عمل مصلحة الأحباس ، تراقَب من طرف البلدية وتتلقى منها إعانة مالية هامة .

الشرفاء الفقراء : ـ كان الشرفاء الفقراء يشكّلون صنفاً آخر ؛ كانت تساعدهم ، على العموم ، موارد الأسرة الشريفة التي ينتمون إليها . وكانت الشريفات يجدن ملجأ في دارين تقع أولاهما في المشّاطين ، قرب ساحة الصفّارين ، والثانية في وادي الرشاشة بجوار دار عديّل[182] . ويعشن تحت مراقبة موظف خاص ، هو عضو من أعضاء الأسرة الملكية ، كان يحمل لقب نقيب ؛ ويتكلف بهن مباشرة عدة سيدات مسنات (عريفات) وبوّاب زنجي كان يذهب إلى منزله كل مساء ، بعد أن يغلق الأبواب على الداخليات والعريفات . كانت كل شريفة تأخذ لباساً بسيطاً كل سنة ، ورغيفاً ومبلغاً زهيداً من المال كل يوم ؛ وكان العديد منهن يتعاطين أشغال الطرز أو غزل الصوف لكسب بضعة فلوس إضافية .

المكفوفون : ـ وأخيراً ، كان للمكفوفين داران[183] وُضعتا مجّاناً رهن إشارتهم ، إحداهما أمام مدرسة السبعيّين ، في حيّ الأندلس ، حيث كان حوالي اثني عشر مكفوفاً يجدون المأوى ، لا الطعام ، الأمر الذي من أجله كانوا يقضون نهارهم في التسوُّل[184] . وسيُلاحظ أنه لم يكن موجوداً لا مستشفى للمرضى المعوزين ، ولا ملجأ لليتامى[185] .

الأجانب المعوزون : ـ بقي المعوزون الغرباء عن المدينة ، الذين لا يجدون عملاً لدى قدومهم إلى فاس أو يصيبهم مرض ويصبحون في عوز تام . وحوالي 1906 على إثر جفاف 1905 والمجاعة المترتبة عنه ، تأثّر الفاسيون من حالتهم المحزنة ، وخُصِّص فندقان مجاوران لباب فتوح لإيوائهم ، أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . واتفق جميع الأعيان على

---

(182) انظر ميشو ـ بليّر ، **التنظيم المالي بالمغرب** ، ص. 240 ، الهامش 1 .

(183) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 277 .

(184) مارتان ، **الكذّان** ، ص. 628 .

(185) لقد ملأت هاتين الثغرتين حكومة الحماية ، بإنشاء مستشفى وعدّة مستوصفات لمغاربة فاس .

المساهمة في الإنفاق عليهم . فكان مقدَّمو الأحياء ، بمساعدة اثنين أو ثلاثة من الأعيان ، يجمعون الهبات ويسلمونها إلى تاجر ، هو أمين سابق ، الحاج عبد الرحمن لحلو ، المُعيَّن من طرف المخزن[186] . وكان ستة أمناء مكلفين بشراء المواد الغذائية الضرورية ، كالخبز ، والزيت ، والتين ، والماء (إذ لم يكن في باب فتوح ماء جارٍ فكان لابد من دفع الأجرة للسقّائين) ؛ وكانت الفاتورات المشهود بمطابقتها للأصل من طرف الأمناء تُدفع إلى عبد الرحمن لحلو الذي كان يسدّدها . وهكذا أُسعف ثمانمائة مسكين في البداية ، ولم يلبث عددهم أن وصل إلى أربعة آلاف مسكين ؛ وعندئذ اجتاح وباء الفندقين كليهما ، فنُقل البؤساء إلى برج الجنوب ، ثم أصبحت القضية منسيَّة ، إمّا من أجل الوفيات ، أو الخروج ، أو عدم أمانة بعض المكلفين بالعمل[187] .

المنادون العموميّون : ـ لم يكن المخزن عند نشر الإعلانات والأخبار يستطيع اللجوء إلى الصحافة لأنه لم تكن جريدة بفاس إلا ابتداء من دولة مولاي عبد العزيز ، ومع ذلك لم تكن تظهر بانتظام ولا يقرؤها إلا المثقفون .

أما الأميّون ـ وكانوا كثيرين حتى في هذه المدينة ـ فلم يكن يصلح لهم سوى التبليغات الشفوية . فلذلك كان المخزن يستعمل المنادين العموميّين ، لكن ، بما أن هذه الخدمة لم تكن تضمن لهم المعاش ، لأنهم لا يتقاضون أية أجرة بهذه الصفة[188] ، فإن هؤلاء المنادين الذين يبلغ عددهم نحو عشرين ، كلهم فاسيون[189] ، كانوا يزاولون حرفاً أخرى . فكانوا قبل كل شيء يحملون نعش الموتى (صحّافة)[190] لكنهم بالإضافة إلى ذلك يعملون

(186) وهكذا فقد جمعت ـ على ما يبدو ـ ثمانية عشر ريالاً .

(187) انظر مارتان ، **الكذّان** ، ص. 623 .

(188) كان الأمر يتعلق بالتالي بشبه عمل شاقّ أو إتاوة مُسلَّم بها عادة .

(189) تلقيت معظم المعلومات التابعة من شفتي رئيس الطائفة بالذات .

(190) سأعود أدناه إلى مظهر نشاطهم هذا . انظر ما يأتي ، الكتاب 7 ، الفصل 6 .

كدلاّلين لبيع العقارات وكرائها ، وكانت تقام هذه العمليات كل أسبوع أمام الأبواب الرئيسية لجامع القرويين وجامع الأندلس ؛ ويشاركون في تنظيم بعض حفلات الزفاف ، كحفلة القبَّة ، على سبيل المثال[191] . كما كانوا يضبطون مكتب الأشياء الضائعة بسيدي فرج ، حيث كان مقرّ جماعة حرفتهم ؛ وأخيراً كان رئيسهم حَكَماً للمدينة في تبادل المجاملات ؛ فإذا حدث أن أحد الفاسيين اشتكى من عدم استدعائه لحفلة من طرف أسرة سبق له أن استدعاها ، فإنه كان يعرض قضيته على أمين الدلاّلين ـ الصحّافين الذي كان يفضّ النزاع .

وكان المخزن وحده يستعملهم كمنادين ؛ فكان أحد أعوان العامل يذهب إلى رئيس الجماعة المقيم دائماً بسيدي فرج ، ويطلب منه أن يبعث بمنادين إلى دار بوعلي ؛ وكان الأمين يعيّن أربعة منهم على العموم ، اثنين للمدينة ، واثنين للأحياء العليا ، وفاس الجديد والملاّح[192] ، يختارهم من بين الصحّافين الحاضرين ذوي الصوت الممرَّن . وكان المنادون المعيّنون يقصدون دار بو علي حيث يتسلمون نص الإعلان ، وهو نص قصير جداً قلّما يتضمن أكثر من حوالي اثني عشر لفظاً . فكانوا يستظهرون إعلانهم في نفس المكان ، حتى يتحققوا من أنهم فهموه جيداً ، ثم ينطلقون فيجوب اثنان منهم الأحياء العليا للمدينة : العيون والطالعة والشرابليين ، ثم يلتحقان بفاس الجديد والملاّح ، مروراً بقصبة فيلالة وقصبة بوجلود ؛ وينحدر الاثنان الآخران إلى وسط المدينة وإلى العدوة ، ويتوقفان في الأسواق ومفترقات الطرق المطروقة ليقوما بالنداء . وكانت أهمّ مواقفهم هي الآتية : العطّارين ، القيصرية ، رأس الشرّاطين ، الرصيف ، رحبة التبن ، المخفية ، سيدي علي بوغالب ، باب فتوح ، الفخارين ، الكدّان ، الصفّاح ، درب اللمطي ، النخّالين ، الصفّارين ، بوطويل ، رحبة القيس ، البليدة ، العشّابين ، باب عجيسة ، عين علّو . وكانت الأخبار التي ستُنشر أخباراً رسمية فقط[193] :

(191) انظر ما يأتي ، نفس المرجع ، الفصل 3 .

(192) لم يكن منادون اسرائيليون .

(193) عندما كان يضلّ طفل ، كان رززاية هم الذين يقومون بالإعلان عنه .

كالإعلان عن أعياد عمومية ، ودخول السلطان أو سفير إلى فاس ، وموت أحد الأعيان . وأما النداءات ذات الصبغة السياسية ، التي كانت حتماً أطول ، فإنها كانت تُتلى في المساجد ، وبالأخص أثناء صلاة الجمعة التي كان يحضرها جمع غفير من المؤمنين .

ميزانية البلدية : ـ كانت بعض هذه الخدمات العمومية تُنجز بالمجّان ، كخدمة المنادين ؛ وكانت أخرى يؤدي عنها المستعملون . إلا أن جلّها كان يستلزم إيداع أموال تؤول ، حسب تصوّراتنا ، إلى ميزانية البلدية . غير أنه لم تكن توجد ميزانية بلدية[194] ، ولم يزل مبدأ تخصص الميزانيات غير معروف في الدولة الشريفة قبل الحماية . فكل المداخيل كانت تستوعبها الخزينة الشريفة وجميع النفقات تُستخرج منها . على أنه تجدر الإشارة إلى أن بعض الرسوم الاستثنائية كانت مخصصة لنفقات معيَّنة ، منها ، على سبيل المثال ، مساهمة كل أسرة بنصف دورو (فِدْيَة) وهي مفروضة على فاس لتغطية مصاريف رحلة مولاي يوسف من فاس إلى الرباط سنة 1912[195] ، وكذلك الضريبة التي فرضها مولاي الحسن أو مولاي عبد العزيز لتغذية الفيل الذي أهدته له ملكة أنكلترا[196] . وكان ناتج الضرائب المباشرة يُدفع إلى الخزينة (بيت المال) ؛ وكانت موارد الضرائب غير المباشرة تُجمَّع بدار عديّل[197] من طرف أمين المستفاد ، وهو شبه قابض الضرائب غير المباشرة ، الذي كان يودعها بعدُ في الخزينة .

ذلك كان مبدأ التنظيم المالي المغربي قبل 1912[198] . غير أن بعض

---

(194) كان أحد الاهتمامات الأولى لحكومة الحماية هو إنشاء ميزانية بلدية .

(195) النشرة السياسية العشارية لناحية فاس ، 20 أكتوبر 1912 .

(196) لامارتينيير ، المرجع المذكور ، ص. 138 . لم يحدد المؤلف تأريخ هذه الضريبة .

(197) ميشو بلّير ، في وثائق مغربية ، العدد 11 ، ص. 72 ، الهامش 1 .

(198) انظر عن ضرائب المغرب القديم وجباياتها ، ميشو ـ بلّير ، وثائق مغربية ، الجزء 1 ، ص. 82-56 والجزء 11 ، ص. 221 -251 .

الرسوم ، ابتداء من دولة مولاي عبد العزيز ، جُعلت بنوع خاص لنفقات مُعيَّنة .

هذا وإن الأحباس الكثيرة ، ولاسيما بفاس منذ قرون ، قد ساعدت على نطاق واسع في تصفية ما يمكن أن ندعوه بالنفقات البلدية .

الرسوم : ـ ربما كان يُعتقد أن حصيلة واجبات السوق المنشأة في القرن التاسع عشر[199] وضريبة الذبح (الكُرجومة) التي أنشأها مولاي عبد العزيز ، تُستعمل لنفقات النظافة العامة ، وكان الأمر كذلك نظرياً بالنسبة لضرائب الذبح ، التي كانت محصولاتها (0,25 بسيطة لكل رأس من الغنم و 0,50 بسيطة لكل رأس من البقر) مخصَّصة لصيانة وكنس أزقّة فاس[200] ، لكن المبالغ المحصلة برسم هذه الضرائب كانت تُدفع ـ عملياً ـ كالأخرى إلى أمين المستفاد ولا تكون موضوع أي حساب خاص .

الأحباس: كان إذن قسم كبير من النفقات البلدية تؤدي موارد الأملاك الحبسية. إننا نعلم مبدأ هذه المنشأة، وهو أن شخصاً تقيّاً راغباً في رضى الله، يحبّس تحبيساً أبدياً ملكية ومحاصيل دكان، أو فندق، أو دار للسكنى، أو بستان، أو حقل، الخ. . . لعمل صالح، كصيانة مسجد، أو مدرسة أو إسعاف الفقراء ، وهلمَّ جرّا . وقد تكاثرت هذه المؤسسات الخيرية بفاس بكيفية هائلة ، وعلى الأقل إلى القرن السادس عشر . فلم يكن هناك دكان ، أو فندق ، أو معمل ، لا يرجع فائده كلًّا أو بعضاً إلى الأحباس[201] .

---

(199) انظر الاستقصا ، ترجمة فومي ، الجزء 10 ، ص. 97 .

(200) انظر روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 185 وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 303 . وفي عام 1915 ، كانت أسعار ضريبة الذبح كالآتي : الأبقار والعجول : 7 بسيطات حسنية 50 ؛ الغنم : بسيطتان حسنيتان ؛ التيوس : بسيطة 50 ؛ البقرات : 20 بسيطة حسنية ؛ النعجات : 4 بسيطات حسنية ؛ الماعزات : 3 بسيطات حسنية (م. دو بيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 26 -27) .

(201) انظر عند بيل (كتابات عربية ، هنا وهناك) قوائم العمارات المخصصة لهذه المؤسسات الخيرية أو تلك .

يقدّر ليون الإفريقي أن الحصيلة السنوية ، لأحباس جامع القرويين وحده كانت 73.000 مثقال (دوكة)(*) وأنها كانت تستلزم استعمال موظفين إداريين حقيقيين ، ثم يقول « يتقاضى القابض الذي يجمع إيرادات الجامع مثقالاً في اليوم عن هذا الوظيف الخاص ، ويعمل معه ثمانية كتّاب ، أجر كل واحد منهم ستة مثاقيل في الشهر ، وستة مساعدين يستخلصون أثمان كراء الدور والدكاكين وغير ذلك من الإيرادات ، وينال كل واحد منهم خمسة بالمائة من المبلغ الذي يحصله لقاء أتعابه . وللقابض فضلاً عن ذلك نحو عشرين من الأعوان المكلفين بالذهاب الى الضواحي لكي يقدّموا للفلاحين والبستانيين وأصحاب الكروم ما يحتاجون إليه ، وأجر كل واحد من هؤلاء الأعوان ثلاثة مثاقيل في الشهر »[202] . وابتداء من ذلك العهد ، كثرت الأملاك المحبّسة خارج فاس ؛ ويذكر ليون الإفريقي ، مراراً متعددة ، أراضي كاملة كانت مواردها ترجع إلى أحباس جامع القرويين ، كأراضي بني بازل الواقعة على بعد ثمانية عشر ميلاً غربي المدينة[203] والزاوية على بعد خمسة عشر شرقيها[204] . حقًّا إن هذه الأملاك بُدِّدت على كل حال ، منذ القرن الثامن عشر ، من طرف الخواص أو الدولة المحتاجة إلى المال[205] ، فلم يمنعها ذلك من الاحتفاظ بأهمية كبرى ؛ ففي عام 1914 ، في عهد لم تستطع بعدُ إعادة تنظيم مصلحة الأحباس من لدن الحماية سوى إعطاء نتائج قليلة ، كانت موارد الأحباس الرئيسية بفاس كما يلي ، وهي محسوبة بالبسيطة الحسنية .

(*) الدوكة : عملة إيطالية ذهبية ترجمناها بمثقال ، وكانت تزن في عصر الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي 3 غرام و532 سنتيغرام . (مترجم) .

(202) الكتاب 2 ، ص. 71-72 ؛ ومارمول (الكتاب 2 ، ص. 160) ـ 1 :225 من ترجمتنا ـ يُقدِّر أن الحصيلة السنوية لجامع القرويين تفوق 80.000 مثقال (دوكة) .

(203) نفس المرجع ، ص. 56 .

(204) نفس المرجع ، ص. 193 ، ونفس المعلومات عنه مارمول ، الكتاب 2 ، ص. 196 .

(205) انظر لويس ميو ، **تجزئة الأحباس** .

	البنايات	الأراضي	المجموع
القرويين	207.386	10.000	217.386
سيدي فرج	110. 083	14.660	124.743
فاس الجديد	83.670	7.160	90.830
المجموع	401.139	31.820	432.959 [206]

وفي سنة 1944 ، كانت العمارات أو الواجبات العقارية المخصصة لأهمّ الأحباس في مدينة فاس وحدها مجزّأة على الشكل الآتي :

مولاي إدريس	361
القرويين	4.000
سيدي فرج (مارستان)	1.422
فاس الجديد	304
المجموع	6.087

وفي سنة 1943 ، فإن مداخيل الأحباس بناحية فاس التي جُبي معظمها لحساب مختلف أصناف أحباس فاس ، تجاوزت مليونين من الفرنكات[207] . وتعطي هذه الأرقام فكرة عن أهمية الممتلكات الحبسية في حياة فاس الحضرية . لا أريد أن أقول إنها كانت تشكّل ميزانية بلدية ، بمعنى الكلمة ، لأنها كانت مخصّصة قبل كل شيء لأغراض دينية . غير أنها ، خلافاً للمبالغ المحصلة من طرف الخزينة الشريفة ، كانت لها غاية محددة وكان بعضها مخصصاً بالاسم لأغراض تتعلق بالنظافة العامة : يذكر أوبان ، على سبيل المثال[208] ملكاً للأحباس مُعدًّا لإزالة الأزبال و ـ يا للسخرية ـ لإنارة المدينة ؛ وآخر مُعدّاً لالتقاط الجرذان الميتة من طرف مستخدم يتلقى عنها قِطَعاً من النقود ؛ وآخر ، وهو أشدّ تأثيراً ، معدّاً لصيانة دار يستطيع العروسان

(206) تنظيم الأحباس بالمغرب ، الرباط ، مطبعة ليكودي ماروك ، 1916 .
(207) معلومة تفضل بإفادتي إياها السيد المندوب لدى السلطة القضائية بفاس .
(208) نفس المرجع ، ص. 274 .

الفقيران أن يقضيا فيها أسبوعاً في مأمن من كل همّ ماديّ ؛ ومن الإنصاف أن نضيف (وأوبان هو الذي يعطي هذا المزيد من الأخبار) أن هذه الدار كانت متهدّمة عام 1903 . لقد قلت سابقاً إن نفقات الإسعاف كانت في معظمها على عاتق الأحباس . وتبيّن الأمثلة المذكورة منذ قليل أن عدداً كبيراً من هذه الأحباس قد أُهمل ، وإن كان الكثير ما زال ساري المفعول ، مُضْفياً على مدينة فاس شبه استقلال إزاء مالية الدولة .

تنظيم الأحباس : ـ كانت هذه الأحباس تُسيَّر من طرف نُظَّار ، تحت إشراف قاضي القضاة بفاس ؛ وكان لكل صنف من الأحباس ناظره أو نُظَّاره ؛ ففي حوالي سنة 1910 مثلاً ، كانت أحباس جامع القرويين تُسيَّر من طرف ثلاثة من النُظَّار السيد إدريس الإدريسي الزراوطي ، والحاج إدريس بن عبد الجليل ، والسيد محمد بن حفيظ الشامي . كان كل واحد منهم يتقاضى ريالين (دورو) اثنين في اليوم ؛ وكان مجموع موظفيهم مؤلفاً من ثمانية عدول ، بأجرة (دورو) واحد في اليوم ، وثمانية قُبَّاض كانوا يؤدون أجور العمّال أمام عدل ، ويقبضون المداخيل ويسدّدون حساباتهم كل شهر ؛ ويأخذون نسبة ثمانية عشرة بالمائة من المبالغ المقبوضة (درهم لكل مثقال)[209] . وكان لكل قابض مستخدمان أو ثلاثة مستخدمين (متعلمين) يؤدي لهم الأجر حسبما أمكنه ذلك .

إن أهمّ أصناف الأحباس كانت هي أحباس القرويين[210] ، وسيدي فرج (المارستان) ، وفاس الجديد ، بالإضافة إلى أن كل زاوية كانت لها أوقافها الخاصة يديرها أحفاد الولي المؤسّس لها أو خلفاؤه : وهكذا فإن الشرفاء

---

(209) بيريتيي ، نفس المرجع . وإذا قارنّا الأرقام التي يقدّمها هذا المؤلف مع أرقام ليون الإفريقي ، لاحظنا أن مجموع موظفي أوقاف القرويين لم يتغيّر من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين .

(210) انظر عن مختلف تخصيصات موارد أوقاف القرويين ، بيريتيي ، نفس المرجع ، ص. 297 .

الأدارسة كانوا يدبّرون الأملاك المخصصة لضريح مولاي إدريس .

وأخيراً ، كان عدد لا يحصى من الأوقاف الصغيرة المخصصة من طرف الفاسيين لمسجد حيّهم ، فكان القاضي يُعيِّن ناظراً خاصاً لتدبيرها[211] ويراقب هذا التدبير باسم السلطان ؛ وفي حالة العجز ، كان الرجوع إلى كرم أهل الحي . تلك كانت وضعية أضرحة ، كضريح سيدي عبد القادر الفاسي (بالقلقليين) ، وسيدي أحمد الشاوي ، وسيدي قاسم بن رحمون (بزقاق الحجر) ، وسيدي يوسف الفاسي (بالمخفية)[*] وجامع الليمونة (بالكدّان) ، إلخ . . .[212] .

ومن الأكيد أن هذا التنظيم المالي لمدينة فاس مخالف لجميع تصوُّراتنا في الموضوع ، وكان حقاً كافياً للحياة العادية بالحاضرة ، لكن إذا وقع حادث غير مرتقب ، كان لا بد من اللجوء إلى وسيلة الضرائب الاستثنائية التي لم يستحسنها الفاسيون قط ، وهذا شيء طبيعي . وكان هؤلاء من جهة أخرى يظنون أنهم يؤدون للمخزن أكثر بكثير مما يأخذون منه ؛ لذلك كانوا يحتجّون

---

(211) كان كل مراقب يقبض كراءات العمارات المخصصة للجامع المكلف به ويحتفظ بالعُشُر كأجرة له (پيريتيـي ، نفس المرجع) .

(*) ضريح أبي المحاسن يوسف الفاسي شهير خارج باب فتوح ، وليس في المخفية سوى زاويته (مترجم) .

(212) أنشأت حكومة الحماية وزارة للأوقاف ، يراقبها موظف سام لإدارة الشؤون الشريفة ، يحمل لقب مراقب الأوقاف . إن الممتلكات المحبَّسة قد أُحصيت وأقيمت ، حسب الإمكان ، في صيغتها الأكثر مساعدة ؛ وأعيدت إلى التطبيق واجبات عديدة جداً كانت مهملة . واحتُرمت رغبات المحبِّسين ، كلما كان ذلك ممكناً ومرغوباً فيه ؛ لكن جميع موارد الأوقاف تمركزت بالرباط ووُزِّعت من جديد وفق الحاجيات المحلية . ويمكن القول إن هذا العمل الهائل قد أرضى الجميع وإن إنشاء الأوقاف لم يسبق له قط أن كان أكثر ازدهاراً من الساعة الراهنة . وإنني لمدين بخصوص العديد من المعلومات المذكورة أعلاه ، للسيد عبد المجيد الجائي ، ناظر أوقاف القرويين ، الذي تفضل بإفادتي إياها ، فليجد هنا عبارة أحرّ امتناني .

في شتى المناسبات ، وحتى بالتمرد السافر ، كما حدث ذلك سنة1873 [213] بسبب المكس (واجب السوق) . إلا أن الصرح مع كونه متصدعاً وغير ملائم ، قد صمد بقوة العادة ؛ وكان لا بد من إقامة الحماية لتغيير هذا التنظيم العتيق[*] .

---

(213) الاستقصا ، ترجمة فومي ، الجزء 10 ، ص. 297 وما بعدها .

(*) دائماً يرى المؤلف ألا حلّ ولا تجديد إلا بالحماية !! (مترجم) .

الفصل الرابع

4/4

تنظيم فاس الجديد

رأينا أن فاساً الجديد كـان مدينة بدوية وعسكرية ، وهذه الخاصية مطبوعة جيداً بهيكلها الإداري . وحتى نتعرف على فاس الجديد كما ينبغي ، يجب أن نتذكر بأنها كانت قد عُمرت بقبائل مختلفة ، وقد بُنيت إدارة المدينة على اختلاف هذه القبائل ، لا على وحدتها الحضرية ؛ وهكذا فقد توطدت الخاصية القبلية للإدارة المغربية . وإذا تأملنا جيداً ، فإن مدينة فاس هي التي تشكِّل حالة استثناء في مغرب أواخر القرن التاسع عشر ، لا فاس الجديد التي كان يديرها ، كسائر البلاد ، قُوَّادٌ طبق ضوابط عرقية .

العامــل : ـ غير أنه كان لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أنه ، بجانب جماعات قبلية قوية ، مثل شراكَة والشراردة ، كان بفاس الجديد عدد كبير من أفراد جاؤوا من جميع أنحاء المغرب ، ولم يكن بالإمكان منطقيًّا اختيار رئيس جدير بهذا اللقب من بينهم . ذلك بدون شك هو السبب الذي من أجله كان على رأس الكتلة عامل أو باشا يُختار ، بصفة عامة ، من القبائل العسكرية لناحية فاس ، مثل أولاد الحاج ، وشراردة، والأوداية ، إلخ . . . كما حدث ذلك ، قبل الحماية ، بالنسبة للباشا بوشويمة والباشا الحاج بريك ، الذي كان يزاول مهامه إبّان فتنة أبريل 1912 . وكان هذا العامل الخليفة الرسمي لعامل مدينة فاس[214] ؛ إلا أنه عمليّاً كان مُعيَّناً من طرف المخزن ، خاضعاً له

---

(214) أفادني بهذه المعلومات السيد الأخضر .

مباشرة ، حتى إن الرحّالة الأوروبيين كانوا يعتبرونه مستقلاً تماماً عن عامل المدينة[215] . لكن سلطاته كانت محدودة جداً ، إذ لـم يتعلق اختصاصه إلا بالذين لا يخضعون لأحد القائدين اللذين سنتحدث عنهما فيما بعد ، أي النصف الصغير من المدينة . ولم يكن من جهة أخرى يساعده خليفة في مهامه المدنيّة ، وإنما كان يساعده على ما يبدو ، « مقدّمـو الأحياء » الشبيهون بالمقدَّمين في مدينة فاس[216] . لكن نفوذه ، كتعويض عن ذلك ، كان يمتد في بعض المناسبات إلى بعض القبـائل الجنـوبية بفـاس ، وحتى إلى صفرو[217] : فإذا نُظر إليه من هذه الزاوية ، فإنه كان يُمثِّل مسبَّقاً قائد ناحية فاس حالياً[218] ؛ وهذا دليل آخر على خاصية فاس الجديد ذي الصبغة المدنية الضعيفة ، إذ كان عاملها رئيس قبيلة في نفس الوقت .

القــوّاد : ـ وكان يعمل بجانب هذا العامل وأمامه قوّاد مختلفون : أولاً ضبّاط للجيش النظامي ، كانت لهم السلطة المطلقة على جنودهم ، ثم ضبّاط للقصر كان يرجع إليهم أمر خدَّام المخزن دون أية سلطة أخرى ، وأخيراً قوّاد أهمّ القبائل العسكرية التي كانت تسكن بفاس الجديد أو القصبات المجاورة . وكان أهمّهم قائد شراڴة الذي كان يعقد جلساته بفاس الجديد بالذات ، وكانت محكمته في ساحة الدخول لدار المخزن ، مقابلة لمحكمة عامل المدينة[219] ؛ وكان نفوذه يمتد على جميع شراڴة القاطنين بقصبة

---

(215) انظر إ . ريشي ، **رحلة إلى المغرب** ، ص. 105 ، وأوبان المرجع المذكور ، ص. 264 .

(216) تشهد فعلاً رسالة من نائب قنصل فرنسا بفاس (بتاريخ 22 اكتوبر 1895) بوجود مقدّم لحي بوطويل بفاس الجديد . وحسب بريسوليط (**رسالة غير منشورة**) ، كان هناك مقدَّمان بفاس الجديد بالذات ومقدّم واحد لمولاي عبد الله .

(217) ريسّير ، **دراسة وافية لصفرو (1916)** .

(218) أُلحـق فاس الجديد فعلاً ، منذ الحماية ، بباشا فاس الذي يزاول بها سلطاته بواسطة نائب خاص (خليفة) . وهذا دليل من بين أدلّة عديدة على أن الحماية غيَّرت جذرياً مظهر فاس الجديد وأعطته طابعاً مدنياً واضحاً جداً وجعلت منه ملحقاً بالمدينة .

(219) إ. ريشي ، المرجع السابق ، وأوبان ، المرجع المذكور .

البطاطحة . وهناك أيضاً قائد شراردة الذي يرجع إليه أمر سكان قصبة الخميس . وكان هذان القائدان مستقلين عن عامل فاس الجديد ، تابعين مباشرة للمخزن . وربما كان هنالك في القديم قائد لقصبة بوجلود ، لكن حيث إنها فقدت كل قيمة عسكرية ولم تعد غير حي للصعاليك المساكين ، فقد حذفت الوظيفة .

وكانت قصبة فيلالة[220] تتمتع بتنظيم خاص تماماً ، إذ لم يكن يقبل فيها إلا الأسر المنتمية إلى تافيلالت . وكانت هذه الأسر تنتخب لمدة سنة مجلس جماعة مؤلَّفاً من اثني عشر عضواً لا يمكن اختيارهم (وكانت هذه قاعدة تقليدية) إلا من بين المسنّين والملاّكين ؛ وكان الشرفاء ، وهم كثيرون في هذا الحي ، يشكّلون مجموعة على حدة ، ويمكنهم الانضمام إلى المجلس ، شريطة أن يكون أبوهم قد سكن القصبة من قبل . ولا يمكن أن يتعدى عددهم ستة أعضاء في الجمع . وكان هؤلاء الاثنا عشر « القدامى » يعيّنون من بينهم لجنة إدارية من ثلاثة أعضاء : مقدَّماً يمثل القصبة لدى المخزن ، وكاتباً وأميناً للصندوق .

وكان تحت تصرف الجماعة أملاك ، ربما كانت محبّسة لفائدتها ، تستفيد من محصول ثمانية عشر دكاناً ، والبرجين الملتصقين بباب الحي والمحتويين على اثنتي عشرة حجرة يمكن إكراؤهما،وأربع حجرات مستقلة (مصريات) ، وفرن ، وأربعة إصطبلات وثلاثة منازل .

وكانت النفقات عبارة عن إعانات تُقَدَّم للفقراء والمرضى خلال السنة كلها أو بمناسبة الأعياد فقط ، ورواتب الإمام والمؤذن بالمسجد ، ومستخدم ينظف المراحيض ، ومكافآت لحارس الليل والموسيقيين[221] في شهر رمضان

---

(220) إنني مدين بجميع هذه المعلومات للسيد الأخضر ، الاستاذ بثانوية مولاي إدريس ، الذي تفضل بجمعها بإشارة مني .

(221) انظر عن مراسيم رمضان ، ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 1 .

وإصلاح العمارات والقنوات والقواديس ، وإعانات للتلاميذ المعوزين بالكتاتيب القرآنية وحتى بالجامعة ؛ وأخيراً تجهيز الموتى من الفقراء أو مَنْ لا أهل لهم . وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن التركات الشاغرة في هذا الحي كانت تؤول إلى الجماعة الفيلالية ، لا إلى الدولة ، حيث إن أبا المواريث لم يكن له حق إبداء الرأي فيها .

وكان إصلاح قنوات الماء يُنجز تحت مراقبة مجلس الجماعة ، لكن على نفقة سكان القصبة ، باستثناء الشرفاء الذين لهم حق المواطنة ، أي المقيمين هناك منذ جيلين ، ولم يكونوا يؤدون كذلك شيئاً عن طهي خبزهم .

وبالجملة ، فقد نَقَلَ المهاجرون من تافيلالت إلى هذا الحي بفاس نظامَهم الجمهوري ، المتصل بحكم القلة ودفع الخراج ، والذي كانت تجعل فيه مكانة خاصة للشرفاء .

القــاضـي : ـ كان لفاس الجديد أيضاً قاضيه الخاص ، وكانت محكمته في ساحة الدخول لدار المخزن[222] . وكان كسائر قضاة المملكة الشريفة تابعاً نظريّاً لقاضي فاس « قاضي القضاة » الذي تحدثت عنه سابقاً ، لكن لا أكثر ولا أقل من زملائه بمراكش أو تارودانت .

المحتسب : ـ وأخيراً ، كان محتسب المدينة يُعَيِّن بفاس الجديد نائباً عنه كان له النظر أيضاً على الملاّح ؛ وكاننت اختصاصاته قليلة الأهمية ، لأن فاساً الجديد لم يكن إلا مدينة تجارية ، ولأن التجار الكبار من اليهود كانت لهم مستودعاتهم بالمدينة ، فلذلك كانت أهمّ المعاملات التجارية لليهود خاضعة مباشرة لمراقبة محتسب المدينة لا لمحتسب فاس الجديد . إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا المحتسب كان يشكّل الصلة الإدارية الحقيقية الوحيدة التي تربط فاساً الجديد بالمدينة .

(222) انظر روني ـ لوكلير ـ المغرب الشمالي ، ص . 141 . كان يُدعى قاضي الجيش ، مما يبيّن جلياً مَنْ هم المتقاضون لديه (معلومة استقاها السيد الأخضر) .

المصالح العمومية : - بالنسبة للنفقات المتعلقة بالنظافة ، كان لفاس الجديد أملاكه الحبسية الخاصة ، المتميزة عن أملاك المدينة ، إلى درجة أن نظام توزيع الماء فيه كان مغايراً . وفعلاً ، فبالرغم عن كون وادي فاس يمرّ محاذياً أسوار فاس الجديد ، فإن الماء الضروري لهذه الكتلة السكنية لم يكن يؤخذ منه أو يكاد : بل كان يحرّك طاحونة واحدة ما زالت أنقاضها بادية للعيان بجانب بستان بوجلود قرب باب الدكاكين، ولم تأخذه إلا ناعورة رافعة ذات صبيب ضعيف جداً[223] ، على بعد بضع عشرات أمتار في عالية هذه الطاحونة : وكان هذا الماء يغذي حي قصبة البطاطحة[224] . وكل ما بقي من فاس الجديد كان يُزوَّد بماء الآبار أو بقناة عين بوعامر التي بناها السلطان سيدي محمد بن عبد الله[225] . فلا يمكن تصوّر استقلال أتمّ لمدينتين متقاربتين إلى هذا الحد[226] .

وأخيراً كان لفاس الجديد ، وهي الحاضرة المخزنية ، الفضل ، إن كان هناك فضل ، في احتضان سجنين ؛ الأول ملاصق لباب الدكاكين بجانب المشور القديم ، كان يدخله معتقلو القانون العام ، القادمون من جميع الجهات والمحكوم عليهم بعقوبة طويلة الأمد ؛ والثاني ، وهو حبس الزبّالة

---

(223) كان مشروع تنظيم مياه واد فاس الموضوع عام 1929 ، يحدد صبيبه الأقصى في 10 ليترات في الثانية (كوسطو ، المرجع المذكور) .

(224) انظر وثائق الأشغال البلدية لفاس ، ملف : واد فاس ، تقرير 10 غشت 1938 .

(225) أفادنيه الشريف سيدي عبد الحي الكتاني ، الذي أرجو أن يجد هنا عبارة امتناني واحترامي . انظر أيضاً ويسجيربير ، المقال المذكور ، في تقرير جمعية الجغرافيا ، 1899 . إلا أنه يبدو أن مياه عين بوعامر جُلبت إلى فاس الجديد منذ عهد المرينيين (كوسطو ، المرجع المذكور) .

(226) يبيّن كوسطو بحق (في نفس المرجع) أنه كانت للملوك فائدة سياسية واستراتيجية في عدم ربط نظام تزويد فاس الجديد بالماء بنظام المدينة لأنها تهدف إلى عدم إغضاب أهل فاس ، واستراتيجية في حالة الصراع بين المدينتين .

(227) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 4 .

الذي سبق الحديث عنه[227] ، كان مُعدّاً مبدئيّاً للمعتقلين السياسيين[228] .

والحاصل أننا عندما ننظر في النظام الإداري لفاس الجديد ، نجد فيه - وربما كان ذلك أكثر وضوحاً - الخاصيات التي سبق لنا أن أشرنا إليها في الفصول السالفة : مدينة مخزنية[229] ومدينة بدوية ، ومدينة عسكرية على الخصوص ، بقياداتها المطابقة لأهمّ القطاعات المحصّنة لهذا المعسكر المنيع ، مدينة مباينة من جميع النواحي لجارتها الإدريسية ومتميّزة عنها كل التميُّز .

---

(228) إلا أنه كان يتفق ان يُحبس معتقلون سياسيون في سجن باب الدكاكن ، كما وقع ذلك للشريف الكتاني سنة 1909 . انظر كْايار ، مراسلة غير منشورة ، عام 1909 ، وميشو بـلّير ، محاولة لاسترجاع العرش الإدريسي بفاس .

(229) لم يكن فاس الجديد متصلاً بالمخزن فقط بنظامه الاداري ، بل كانت له أيضاً الروح المخزنية : فمنذ أوائل 1908 ، بمناسبة المنافسة بين مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ ، حُفرت هوّة بين المدينة التي انحازت إلى المنافس وفاس الجديد الذي أيّد العاهل الشرعي . (انظر ميطرو دي لاموط - كابرون وترينكا، المرجع المذكور ، ص. 26 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس 5/4

الملاّح

دور الموظفين المسلمين : ـ كانت الجماعة اليهودية موضوعة تحت سلطة عامل فاس الجديد ، لكن هذه التبعية الإدارية كانت من نوع خاص ، إذ كان الملاّح يتمتع فعلاً باستقلال ذاتي واسع جداً تحت نفوذ هذا الموظف المسلم .

وكان النظر في النزاعات التي تقوم بين اليهود والمسلمين للمحاكم الإسلامية بالطبع (الباشا أو القاضي حسب الحالات)[230] . وبخصوص القضايا الجنائية ، كان اليهود يخضعون لباشا فاس الجديد ؛ وفيما يخص القضايا المدنية والعقارية ، إذا كان الأمر يتعلق بالخصومات بين اليهود ، لم يكن الباشا يتدخل إلا عند عدم حصول الأحبار على اتفاق بين الأطراف . ومع ذلك فإنه لم يكن يلعب إلا دور السلطة المدنية ولا يتدخل البتة في عمق الدعوى .

بـالإضـافة إلى أن اليهود كانوا خاضعين للمحتسب فيما يتعلق بالصناعة والتجارة . وكانت مهمته تقتصر بالخصوص على أن تُحترم بالملاح التسعيرة

(230) إني مدين بجلّ المعلومات الآتية لم . يهودا بنسمحون الآنف الذكر الذي أفادني بكياسته النيّرة .

الأسبوعية المـوضوعـة للكتلة الفاسية كلها[231] .

وأخيراً ، وبمناسبة كل عيد إسلامي كبير ، كان على اليهود أن يبعثوا إلى السلطان وعامل فاس الجديد وفداً يقدّم لهما تهانىء الجماعة ويسلّم إلى السلطان الهدايا المعتادة . وكانت هذه الهدايا عبارة عن أساور من ذهب عندما يدخل السلطان إلى فاس دخولاً رسمياً ، وعن أقمشة ووشاحات من حرير بمناسبة سابع يوم من كل عيد كبير . وكان المبلغ الضروري للشراء يُجمع عن طريق التبـرعات : فكانت تُفرض على كل عائلة غنيّة ضريبة بقدر ثروتها .

وإذا تركنا هذا جانباً ، فإن يهود فاس كانوا يؤلفون جماعة مستقلة ذاتياً كان لها نظامها الخاص .

مجلس الجماعة : ـ كـان على رأسها مجلس للجمـاعة يُسمى « مَعْمَتْ » أو « جُـونْتَة » ، أو كذلك « سبعـة بْيَاعر » (المنتخبون السبْعة)[232] . وكان المجلس ، كما يدلّ عليه هذا اللفظ ، مؤلفاً من سبعة أشخاص ، ثلاثة من الأحبار وأربعة من العامة[233] . إلا أنه كان في الواقع أكثر عدداً من ذلك في غالب الأحيان[234] . كان أعضاؤه نظريّاً منتَخبين ، لكن توظيفهم كان يتمّ في الحقيقة عن طريق الاختيار ؛ وكان جميع أعضاء المجلس ينتمون إلى الأرستقراطية المالية بالملاّح وكانت الجماعة خاضعة لأقلية صغيرة[235] .

(231) ما زالت هذه القواعد الإدارية كلها سارية المفعول ، إذ ما زال اليهود المغاربة دائماً رعايا للسلطان .

(232) لاَحظْ لفظ جُونْتَة الذي حمله النازحون بالطبع من إسبانيا . وانظر عن مجلس الجماعة هذا ، برونو ومالـ ، المرجع المذكور ، ص. 227 -228 ومارتي نظم إسرائيلية ، ص. 308- 301 .

(233) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 368 .

(234) معلومات لم . يهودا بنسمحون .

(235) أوبان ، المرجع المذكور . وفي الحالة الراهنة ، ينتخب أعيان الجماعة الإسرائيلية فرعاً إسرائيلياً للجنة البلدية التي تجتمع دورياً تحت إشراف الباشا ومساعدة رئيس المصالح البلدية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت اختصاصات المَعْمَتْ واسعة جداً : فهو يتكلف بجميع المصالح المادية والمعنوية للجمـاعة ، من نظافة عامة ، وتوزيع الضرائب العادية والاستثنائية حسب الثروة ، والإسعاف ، وتدبير الأموال ؛ وكان يهتمّ حتى بالمسائل الدينية ما دامت تكتسي صبغة زمنية . ويمكن بالإجمال اعتباره كمجلس لتدبير « شركة الملاّح » .

موارد الجماعة : ـ كانت موارد الجماعة هي الآتية :

1 ـ الهدايا (نِدابة) التي يتبرع بها الأعيان قبل حلول الأعياد الكبرى بشهر .

2 ـ محصـول المؤسسـات الخيـريـة (هِكْـدِيش) . وكـان لهـذه المؤسسات ، كالأحباس الإسلامية ، على العموم تعيين خاص ، يصرح به الواهب . وكان يديرها إداريون يُعيَّنون من قبل الأحبار .

3 ـ قسم من مداخيل الحيين الجديدين (الكُذْيَة[236] الواقعة بجانب ساحة التجارة الحالية ، والنواويل، الواقعة خارج أسوار الملاح) كان مخصصاً للفقراء .

وكانت هذه الأموال تُستعمل أساساً في أعمال خيرية ، وخاصة في صيانة دار مُعَدَّة للضيوف العابرين الذين ليس لهم أصدقاء يستضيفونهم ؛ فكانوا يجدون المسكن والمأكل ، لأنه لم يكن بالملاّح نزل ولا حتى فندق[237] .

4 ـ وعلاوة على هذا ، كانت النفقات المتعلقة بالنظافة العامة بمعنى الكلمة تُؤدّى بواسطة ضريبة الذبح (كُرجومة) ، مثل ما هو الشأن في المدينة .

---

(236) كانت النسبة المئوية المخصصة للفقراء ، بالنسبة لهذا الحي ، هي 25% (أفادنيه م . يهودا بنسمحون) .

(237) كما كانت هناك جمعية تحاول إيواء العابرين عند الساكن .

مصلحة الطرق : ـ كانت أشغال النظافة العامة تُنجز من طرف السلطات الإسلامية وتحت مراقبتها . وكانت الأزقة تُكنس مبدئياً مرة في الأسبوع . وكان هذا غير كاف تماماً بحيث إن جميع الرحّالة الأوروبيين متفقون على ذكر وسخ أزقة الملاح ونتانتها ، حيث كان الأطفال يلعبون فوق أكداس من الأزبال ، بين الذباب والحشرات[238] . وابتداء مما قبل الحماية ، حاول المتطوِّرون الذين تكوَّنوا في مدرسة الاتحاد الإسرائيلي أن يتداركوا هذه الحالة المؤسفة . فحصلوا على أن يُخصص لهم دخل ضريبة الذبح التي يؤديها اليهود : وبفضل هذه الموارد ، أصبحت الأزقة مضاءة أوّلاً بالزيت ، ثم بالنفط ، وتُنظف كل يوم . والغريب أن المعارضة لهذا التجديد لم تصدر من المخزن ، بل من بعض اليهود الذين لهم حماية أوروبية وكان من عادتهم أن يعرضوا بضائعهم في الزقاق الكبير ، فكان التنظيف اليومي يزعجهم . فالتمس المتطوِّرون من القناصل الأجانب أن يتدخلوا لجعل حد لهذه المعارضة المدهشة[239] .

الشرطـــة : ـ كان النظام العام مُؤمَّناً من طرف موظف يهودي ، هو شيخ اليهود الذي كان يتم تعينه من لدن مجلس الجماعة ويُعرض على مصادقة المخزن . وكانت الشرطة مؤلفة من أربعة أو خمسة أعوان للباشا (مخازنية) كانوا يحرسون في نفس الوقت باب الملّاح الوحيد نهاراً . وعند حلول الليل كان يُغلق هذا الباب ويُسلَّم مفتاحه إلى يهودي كان يفتحه في الفجر عندما يأتي الحرّاس المسلمون . وفي حال وقوع اضطرابات كان عدد الحرّاس يرتفع ويسلحون بالبندقيات بدلاً من العصيّ .

إذا شبّ حريق ، كانوا يستحضرون السقّائين المسلمين ، فكان يذهب هؤلاء بمساعدة الحمّالين اليهود والمتطوِّعين لسقي الماء من عين برج سيدي

---

(238) انظر خاصة روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 149 ؛ وو. هارّيس ، **بلاد سلطان إفريقي** ، ص. 131 ، المرجع المذكور .

(239) معلومة من م. يهودا بنسمحون .

بونافع[240] . وفي الحالة العادية ، كان اليهود يجدون الماء في السّقايات العمومية التي تزوّدها قناة عين بو عامر[241] ، أو أحسن من ذلك في الآبار المحفورة هنا وهناك في دور الحي .

المحكمة الرِّبِّينية : ـ ولا بد ، في الأخير ، من أن نذكر بجانب مجلس الجماعة وشيخ اليهود ، المحكمة الرِّبِّنِية[242] التي كانت تفصل نهائياً في جميع الخلافات المتعلقة بالحالة الشخصية للإسرائيليين ولها تأثير كبير جداً .

وباختصار ، نُلاحظ أن الجماعة اليهودية كانت تتمتع باستقلال واسع جداً ، إذ كانت تستفيد من استقلال مالي يكاد يكون كاملًا وتدبِّر شؤونها بمدير شرطتها ومحكمتها . ولم تكن تخضع مباشرة للسلطات الإسلامية إلا فيما يخص القضايا الجنائية والتجارية . ولم ينته حقًّا استقلال اليهود الذاتي إلا في الوقت الذي كانوا يغادرون فيه الملّاح ويتصلون بالمسلمين ، أي في الوقت الذي كانوا يشاركون في الحياة العامة للحاضرة .

(240) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 .
(241) انظر ما سبق ، الباب 4 ، الفصل 4 .
(242) انظر عن هذه المحكمة : برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص. 222 -226 ؛ مارتي ، المقال المذكور ، ص. 308 -314 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

6/4

خلاصة

نرى كم كان التنظيم الحضري لفاس بعيداً عن مفاهيمنا : فهناك مصالح عمومية قليلة العدد ، قليلة المراقبة ، ولا وجود لسلطة بلدية ، ولا لميزانية ، ولا لمواد حقيقية تقريباً ؛ كما لا يوجد أي تقنين لا للصحة ، ولا للمرور ، ولا وحدة إدارية بصفة خاصة : فنحن لسنا أمام أربع هيئات متميِّزة فحسب ، وهي : المدينة، والمدينة المخزنية، والمدينة اليهودية، وقصبة فيلالة (ونحن نعرف شيئاً مماثلاً ، في مدننا الكبرى ، مع الحاضرة بمعنى الكلمة والجماعة في الضاحيـة المحيطة بها) ، ولكن أمام أربع هيئات من نوع مختلف جداً : المدينة القديمة التي يديرها ثالوث من الموظفين السـامين ، والمدينة الملكية الخاضعة لعدة قُوّاد يحكم كل واحد منهم « قبيلته » ؛ والمدينة اليهودية التي يديرها فعلاً أقلية دينية ومالية ؛ وقصبة فيلالة ذات المؤسسات الجمهورية المصبوغة بصبغة الشرف ، ولا يتماسك كل ذلك بعضه ببعض إلا بسلطة المخزن .

وهذا التفاضل البارز في المؤسسات ، يظهر ظهوراً أكثر في الروح الجماعية لكل من هذه التكتلات : فالجماعة اليهودية ، التي لا يربط بينها وبين الأخرى سوى مصالح اقتصادية ، كانت تعيش منكمشة على نفسها ولا تساهم في حياة الحاضرة الفاسية إلا بازدراء وبصفة رسمية محضة . وكانت

مدينة فيلالة قد احتفظت بنظم بلادها الأصلية ، متمتّعة باستقلال ذاتي إداري ومالي واسع جداً . كما كانت فاس الجديد خاضعة لأوامر الملك ، منضوية إليه باستمرار ، والرباط والوثاق الوحيد الذي كان يربطها حقّاً بالمدينة إنما هو رباط الإسلام ، وإن كان يُلاحَظ أن رجال القبائل كانوا يحملون معهم روحهم الدينية الخاصة التي كانت أكثر بساطة وأقل غناء في الفوارق الدقيقة مما كان عليه الإسلام في المدينة .

وكان للمدينة بالتالي وجودها الخاص : فبالرغم مما كان يظهر من خضوعها لنير حكّامها فإنها كانت هي الأخرى تتمتع باستقلال ذاتي حقيقي . لم يكن هذا الاستقلال مقرَّراً بأي نص ، ولا بأية مؤسسة بالمفهوم القانوني الذي نعطيه لهذا اللفظ . ومع ذلك فإن المدينة كانت تعرف كيف تُسمِع صوتها بواسطة أعيانها ، وتتوفَّق في غالب الأحيان في إنجاح تصوّرها للأشياء ؛ ولم يكن هؤلاء الأعيان يشكّلون أقلية معزولة عن جمهور الشعب ، وإنما كانوا كتعبير عن حيّهم ؛ لم يعيّنهم أي انتخاب ، ومع ذلك كان لكل واحد منهم زبناؤه الذين يحسنون إطلاعه على وجهة نظرهم ، وفرضها عليه عند الاقتضاء . وهكذا تكوَّن في المدينة رأي عام كان المخزن يأخذه بعين الاعتبار طوعاً أو كرهاً . وإذا حدث أن صُرف النظر عنه ، كان الشعب الفاسي يعرف جيداً كيف يُعيد التوازن ، حتى بالثورة إذا اقتضى الحال .

وباختصار ، فإن حياة التكتل الفاسي لم تكن تضبطها مؤسسات مبيَّنة جليّاً ومركَّزة على الرضى الصريح للمشاركين ، ولكن على تقاليد موروثة عبر القرون ، معروفة لدى كافة المعنيّين بالأمر ومعزَّزة بثبات الشيء الغير المكتوب .

5

الكتاب الخامس

الحياة الاقتصادية

الفصل الأول

1/5

أصول الحياة الاقتصادية

لقد أُتيحت لي الفرصة ، في الفصل السابق ، للإشارة إلى أن الحياة الحضرية بفاس ليست « منظمة » بالمدلول الذي نعرفه لهذا اللفظ : فهي مؤلفة من تراكم ، في الزمان أو المكان ، لشتى الهيئات التي لها حياتها الخاصة وتخضع أقلَّ ما يمكن لإرادة وحدوية . ونفس الشيء بالنسبة للحياة الاقتصادية ، وهذا الإطلاق يصلح لمدينة فاس كما يصلح للمغرب في مجموعه . ويكفي ، للتحقق من ذلك ، إلقاء نظرة على وسائل حياته الاقتصادية : فالنظام النقدي مثلاً معمول من عدة سلسلات وحدوية للحساب ومن علامات نقدية تجمَّعت على مرّ العصور وأفضت في الأخير إلى تكوين كتلة غريبة متشعِّبة يعسر الاهتداء فيها ولو بنوع من التجربة . فلا غرابة إذن إن كان لا بد من تخصيص فصل كامل لدراسة هذه المسألة ، بينما يكفي وضع مجموع اصطلاحات موجز وبسيط بالنسبة لبلدان أخرى .

الموازين والمكاييل : ـ بقي نظام الموازين والمكاييل تقليدياً تماماً إلى إقامة الحماية ، حيث لا يمكن تسجيل أي تدخل أوروبي فيه[1] . ولم

---

(1) أُدخلت إلى المغرب منذ الحماية الوحدات الفرنسية للموازين والمكاييل وأصبحت جارية الاستعمال في جميع المعاملات الهامة شيئاً ما وحتى في التجارة بالتفصيل للحواضر. ولكنها لم تحلَّ بعدُ محلَّ وسائل التقييم الأهلية الراسخة في العادات بفضل تقاليد عريقة . ولا حاجة بي إلى التوضيح بأن تحقيق الموازين والمكاييل الفرنسية كان يُؤَمَّن في ظروف ناجعة .

يكن هذا الصفاء مع ذلك ضماناً للبساطة ، لأن كل حرفة تقريباً كانت لها كيفيتها لقياس الأشياء ولم تكن لها حاجة إلى الرجوع إلى ضوابط مشتركة . وجاءت صعوبة أخرى من أنه ، بمجرد الخروج من فاس ، كانت وسائل التقييم تتغيَّر : فمدينة صفرو الصغيرة ، مع مجاوَرتها للعاصمة واتصالها بها بروابط اقتصادية ثابتة ، كانت تستعمل مكاييل بنفس الاسم تدلّ على مقادير مغايرة : فكان مثلاً رطل بائعي الزيت (الرطل البقّالي) يساوي بفاس 759 غراماً[2] وبصفرو 955 غراماً[3] ؛ ورطل الجزّارين (الرطل الجزّاري) وكذا رطل الخضّارين لهما نفس القيمة بفاس ، أي 1.012 غراماً ؛ وكان الأول يساوي بصفرو 1.145 غراماً والثاني 1.210 ، وهكذا دواليك . فبمجرد ما كانت البضائع تروج من كتلة إلى أخرى ، كان لا بد إذن من القيام بعدة أوزان أو مكاييل ووضع معادلات للأسعار التي كانت تتغير من ناحية إلى أخرى . وكان هذا الضرر محسوساً بفاس بصفة خاصة حيث كانت تلتقي البضائع من كل مصدر : فكان تجّار هذه المدينة ملزمين بتعاطي رياضيات ذهنية مستمرة لم تُنجز دائماً بدون فوائد ، لأن هذا التعقد كان يساعد على المضاربة ويجعل الفاسيين قادرين تماماً على إدراك الأنظمة الأوروبية : فلما تغلبوا على صعوبة الألفاظ الأجنبية ، لم يعد تنوُّع الموازين والمكاييل يفاجئهم ، إذ تعوّدوا عليه بمجرد اشتغالهم بالتجارة .

مقاييس الطول : ـ يمكن إرجاع مقاييس الطول إلى ثلاثة أصناف : صنف البناء ، وصنف الخشب ، وصنف الأقمشة[4] .

أ) كانت مختلف حرف البنّائيين والشرّاطين تستعمل عادة أربع وحدات

---

(2) م . دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 57 -59 .

(3) نفس المرجع ، ص. 232 .

(4) توجد المعلومات عن هذا الموضوع عند روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 308 . أما البيانات التي يعطيها م . دوبيرينيي (المرجع المذكور ، ص. 59) فلم تكن سوى تحديد لمقال روني ـ لوكلير .

للقياس الباع (القامة) ، ويشكّل مقياس طول ذراعين ممتدَّتين بتصالب[5] ؛ كانت تُقاس به أبعاد حجرة مبنية ، وأبعاد حبل ، وبالتالي أبعاد بئر ، إذ كان يقاس عمق البئر بحبل . كان هذا المقياس يعادل في المعدل 1,65 متر ؛ والذراع الذي كان يُعدّ ثُلُث الباع (أي 55 سنتيما تقريباً) ؛ والشبر ، وهو مدى ما بين الإبهام والخنصر في أقصى تباعدهما ، والذي يمثّل تقريباً نصف الذراع (أكثر بقليل من 27 سنتيماً)[6] ؛ وأخيراً القدم ، أي 30 سنتيماً بالتقريب ، وهو ينقسم إلى اثني عشر أصبعاً ، ويُمثِّل العرض من الإبهام إلى عظم السُّلامى .

ب) كان النجّارون وصانعو الأسلحة يعرفون أربع وحدات للقياس : الذراع ، والشبر الكبير ، يستعملونهما معاً مع الصنف السابق ، والشِّبْر الصغير (فم الكلب) الذي يوازي مدى ما بين الإبهام والسبَّابة في أقصى تباعدهما (18 سنتيما بالتقريب) ؛ والأصبع الذي يمثّل العرض بين الوسطى وعظم السُّلامى الغليظ (23 ملّليميتراً بالتقريب) ويُقدَّر بجزء من اثني عشر من الشِّبْر[7] .

نلاحظ عدم الدقة الأساسي لهذه المقاييس المتعلقة كلها ببنية كل فرد . ولم أجد في أي مكان أثراً لنموذج ذراع أو شِبْر .

---

(5) يدلّ لفظ قامة في اللغة على قدّ الرجل إذا كان واقفاً ؛ لكنّ صنّاع فاس رأوا من الأسهل أن يقيسوا بذراعَيْهم وهما ممتدتان ، وهو نفس الشيء تقريباً .

(6) ما زال العمل جارياً بهذا المقياس في فاس ، ورأيت مراراً متعددة البنّائين أو الصبّاغين يستعملونه .

(7) وما عدا هذه المقاييس الرسمية ، كان لكل نجّار مقاييسه الشخصية : فهذا يقيس بذيل بذلته ، والآخر بمسطرة (بلكّادة ، من الإسبانية بولكّادة وهو الإبهام) التي ليست في الغالب إلا ديسيميتر مضاعَف ، والثالث بمسطرة غير مرقَّمة (الفتقية) . ومن جهة أخرى كان للوحات الخشب والروافد اسمها الخاص حسب سمكها : فإذا تجاوز سمك الرافدة 3 سنتيمترات سُمِّيَت فردي ، وإذا كان سمكها 3 سنتيمترات سُمِّيَت بودي ، وإذا كان سمك اللوحة سنتيمترين سُمِّيَت قروبي ، وإذا كان سمكها سنتيمتر ونصف سُميت خزايني مزيان ، وسنتيم واحد خزايني حوانتي ، وإذا كان سمكها 7 ملّليميترات فأقلّ سُمِّيَت ورقة .

ج) كان حظ الدرّازين وبائعي القماش أحسن ، لأن الملوك المرينيين حدَّدوا رسميّاً طول الذراع الذي تُقاس به الأقمشة ، وأمروا بصنع صفيحتَيْن من رخام لتمثيله ، أُثبتت إحداهما بسيدي فرج ، بجانب مكتب المحتسب ، والأخرى بين دكّانين بسوق العطّارين . وبعد ذلك في عام 1234 هـ/1818-1819 م . كان مولاي سليمان قد حدّد ذراع الأقمشة المستوردة (القالة) وأمر بإثباتها على جدار دكّان بسوق الأقمشة القطنية[8] .

كان إذن صانعو الأقمشة وبائعوها يمتلكون مقاييس ثابتة ، لكنهم كانوا يستعملون نظامَيْن ، بحسب ما إذا تعلّق الأمر بأقمشة مصنوعة محلياً أو بأقمشة مستوردة ، فكانوا يستعملون بالنسبة للأولى قالة الدّرازين المسماة أيضاً « ذراع مولاي إدريس » (القالة الإدريسية) أو الذراع[9] بصفة أعمّ . كان ذراع التجّار يساوي 46 سنتيميتراً ، وذراع الدّرازين أطول قليلاً ، إذ يمتد القماش أكثر على النول . وكان ينقسم إلى نصف ذراع ، ورُبع ذراع وثُمن ذراع .

وكانت الأقمشة المستوردة تُقاس بذراع الكتّان (القالة الكتّانية) الذي كان يسمى أيضاً القالة السوسية ، ولا أدري لأي سبب . كان هذا المقياس يساوي 55 سنتيمتراً وله نفس الأجزاء كسابقه (نصف قالة ، رُبع قالة ، ثُمن قالة) ، لكن بمقادير مختلفة ، إذ لم تكن لوحدتي الأساس نفس الأبعاد .

أما مقاييس المسافة فلم تكن موحّدة ، وكانت الطريق التي ستُقطع تُقدَّر بالساعات أو بالمراحل ، لا بمقاييس الطول .

المكاييل : ـ كانت المكاييل نوعَيْن : نوع للحبوب ، ونوع للزيت[10]

---

(8) معلومات من بيل (الكتابات العربية ، ص. 2 وما بعدها) . وقد تلف الذراعان المرينيان من جرّاء حريق 1323 /1905 ، ثم حريق مارس 1945 .

(9) نفس المرجع . كانوا يفضّلون إطلاق لفظ قالة على القماش المستورد ولفظ ذراع على اللباس المصنوع .

(10) كان يُستعمل في الحليب واللبن مقياس قدره ليتران تقريباً يُسمّى كيْلاً(م . دوبيرينيي ، المرجع المذكور، ص. 59) ؛ وكان هذا اللفظ يُطلق أصلاً على مقياس للحبوب يعادل ستة أمداد (انظر دوزي ، ملحق ، الجزء 2 ، ص. 506) .

وكانت في كل سلسلة وحدة أساس ، المُدّ[11] والقُلّة اللذان كانا ينقسمان إلى نصف ، ورُبع ، وثُمن ، إلخ . . . وكانت هذه البساطة الظاهرة تستر واقعاً في غاية التعقيد ، إذا اعتبرنا معلومات الأوروبيين الذين أقاموا بفاس قبل الحماية: فكان المُدّ يُقدَّر بـ 64 ليتراً أو 40 كيلو من طرف روني ـ لوكلير[12]، وبـ 39 ليتراً أو 19 كيلو 800من طرف نائب قنصلنا سنة 1895[13] ، وبـ 21 كيلو من طرف النائب نفسه سنة 1898 [14] ، وبـ 24 ليتراً من طرف م . دوبيرينيي[15] ، وبـ 32 ليتراً من طرف ميشو ـ بلّلير [16] ؛ وكان الأنجليزيون يعدّون هذا المقياس متغيّراً[17] : فكانوا أكثر حكمة على ما أعتقد . ونفس الفوارق في التقدير بالنسبة للقُلّة : يقدِّرها روني ـ لوكلير بـ 30 رطلاً من 800 غرام ، أي 24 كيلو ؛ ويقدِّرها نائب قنصلنا بـ 19 رطلاً سنة 1895 و 9 كيلو و 108 غراماً سنة 1898 ، وم . دوبيرينيي بـ 10 أرطال و 550 ،[18] .

ليست هذه المعلومات المتباينة جداً ناتجة بدون شك عن معلومات خاطئة ، لكن عن الفوارق في المصادر المشار إليها آنفاً : وفعلاً ، فإن التقديرات القنصلية لسنة 1895 تطابق إجمالاً نظام المقاييس المعمول بها في صفرو[19] حيث كان المُدّ يساوي تقريباً 36 ليتراً (عوض 39) ، والقُلّة تساوي

---

(11) وفوق المدّ كانت الصحفة ، وهي 60 مداً .

(12) المرجع المذكور ، ص. 308 .

(13) تقرير تجاري في ديسمبر 1895 : بيان التسعيرة الأسبوعية (وثائق مفوِّضية فرنسا بطنجة) .

(14) تقرير إحصائي وتجاري بتاريخ 17 أبريل 1898 .

(15) المرجع المذكور ، ص. 59 .

(16) تنظيم المالية بالمغرب ، ص. 166 ، هامش 2 . وحسب معلومات أدلى بها تجار قدامى ، فإن المُدّ الحالي ، الذي يساوي أربعة ديكاليترات ، يمكن أن يعادل مُدّاً ونصفاً من المُدّ القديم ؛ فيجوز إذن أن يكون المُدّ القديم مساوياً لأكثر من 26 ليتراً بقليل .

(17) تقرير ديبلوماسية وقنصلية، 1908 ، تجارة المغرب .

(18) كانت القُلّة ، حسب المعلومات التي استطعت أن أجمعها ، التي تعادل الآن 10 ليترات ، تساوي في القديم 12 رطلاً بقّالياً ونصفاً ، أي نحو 9 كلغم 500 . وينسب إليها ب. ريكار (الحرف اليدوية ، ص. 210 ، هامش 33) سعة 10 ليترات تقريباً .

(19) دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 232 .

15ليتراً 15 ، أي نحو 19 رطلاً من 800 غرام . ولم أكتشف أصل التقديرات الأخرى ، لكن من المفروض أنها توجد في نظام المقاييس الجاري بها العمل في هذه القبيلة أو تلك من قبائل ناحية فاس . وعلى كل حال ، فإن هذا المثال المأخوذ من الواقع يبيّن جليّاً تعقيد المشكل .

الأوزان : ـ وإذا تعلّق الأمر بالأوزان ، فإننا نجد صعوبات مماثلة . فالنظام مبدئيّاً بسيط نسبيّاً : إذ كانت وحدة الوزن هي الرطل الذي كان يُجزَّأ إلى ست عشرة أوقية (ج أواقٍ)[20] ـ أوقيات ـ وتُكَوِّن مائة رطل قنطاراً لكننا سرعان ما نلاحظ أنه توجد عدة أنظمة للأرطال ، والقناطير والأوقيات ، حسبما يُوزن في الخضر ، أو السمن ، أو الفحم الخشبي ، أو التوابل ، إلخ . . . ، تتغيَّر قيمة نفس الوحدة الاسمية تبعاً للأنظمة : وهكذا ، فإن الرطل يعادل تارة 506 غرام ، وتارة 1012 غراماً ، وتارة أخرى 1.265 غراماً ، وهلُمَّ جرّا .

وإليكم أصل هذا التنوُّع المُحيِّر : إن وحدة الأساس للنظام كله الذي هو الوزن المعياري ، لهي القطعة الفضيّة الكبرى (الريال) من زنة 25 غراماً 3 تقريباً [21] ؛ فلا بد ، حسب الحالات ، من عشرين منها ، أو خمس وعشرين ، أو ثلاثين ، أو أربعين أو خمسين لتكوين رطل ؛ ولم يخطر ببال أحد أن يُوحِّد هذه التركيبات المختلفة مع كونها صادرة عن أصل واحد ؛ لذلك ينبغي وضع بيان للأنظمة الخمسة المتواجدة بفاس .

نجد قبل كل شيء « نظام العطّارين » ، المدعوّ هكذا لأنه يُستعمل في وزن البضائع التي يبيعها المستوردون والبائعون بالتفصيل للتوابل المستوردة ، وللبضائع المستوردة بصفة عامة . ويساوي القنطار العطّاري 50 كيلو 600 ، وينقسم إلى نصف قنطار ، ورُبع قنطار ، ونصف رُبع قنطار (ثُمن قنطار) .

---

(20) لم تكن لها سوى اثنتي عشرة في الشرق : انظر دائرة المعارف الإسلامية جزء 3 ، ص. 1208 .

(21) روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور .

ويعادل الرطل العطّاري بالفعل زنة 20 ريالاً ، لعدم وجود معيار رسمي ويُساوي إذن 506 غراماً ؛ وينقسم إلى نصف رطل ، وأربع أواقٍ ، وأوقيتَيْن . والأوقية هي جزء من ستة عشر من الرطل وتعادل ما يزيد قليلاً عن 31 غراماً 1/2 (31 غراماً 625 بالضبط) ؛ وتنقسم بدورها الى نصف أوقية ، وثُمُنَيْ أوقيـة (ثُمُنَيْن) ، وثـمُـن أوقية (ثمُن) ، وجزء من 16 من الأوقية (نصف ثمُن) وجزء من 32 من الأوقية (ربُع ثمُن) أي نحو غرام .

يأتي بعد ذلك النظام المشترك بين بـاعـة الإدام (البقّالين) وبائعي الدقيق ، والخضر والفواكه الجافّة (القشّاشين) . فهنا يعادل الرطل ثلاثين ريالاً ، أي 759 غراماً ، ويساوي القنطار 75 كيلو 900 ؛ وتجزئات أجزاء هاتين الوحدتين هي نفس تجزئات الأجزاء السالفة . فالأوقية تساوي ما يقلّ قليلاً عن 47 غراماً 1/2 (47 غراماً 4.375) وليس لها سوى تجزئة واحدة ، هي نصف الأوقية .

والنظام الثالث مشتـرك بين الخضّارين ، والجـزّارين والفحّامين . فيساوي الرطل 40 ريالاً ، أي 1012 غراماً وليس له سوى تجزئتَيْن : نصف رطل ورُبع رطل (أربع أواقٍ) ، ويعادل القنطار 101 كيلو 200 ، وينقسم على الشكل السابق .

ويأتي أخيراً نظام الدرّازين الذي هو في الواقع نظام مزدوج ، إذ إن قيمة الرطل ليست هي ذاتها حسبما يُشترى الصوف الخـام أو يُباع الصـوف المغزول .

ويساوي رطل صوف الكُزَّة (الرطل الدرّازي للكُزَّة) 50 ريالاً، أي 1.265 غراماً ، ويساوي القنطار 126 كيلو 500 والأوقية 79 غراماً تقريباً .

ورطل الصوف المغزول (الرطل الدرّازي للغزل) أقل بالنصف ، أي 25 ريالاً و 632 غراماً 5 ، وهكذا دواليك . وتجزئات الأجزاء في هذين النظامين هي نفس التجزئات في النظام « البقّالي » .

ونصل ، في المجموع ، إلى الجدول الآتي ، وهو غير مضمون من حيث الدقة المطلقة[22] :

	العطّاري	البقّالي	الكُزّاري	الدرّازي للكُزّة	الدرّازي للغزل
القنطار	50 كلغم 600	75 كلغم 900	101 كلغم 200	129 كلغم 500	63 كلغ 250
الرطل	506 غرام	750 غراماً	1.012 غرام	1.265 غراماً	632 غراماً 5
الأوقية	31 غراماً 5	47 غراماً 5		79 غراماً	39 غراماً 5

وإذا تعلق الأمر بوزن الجوهر أو الحلي ، أو المعادن النفيسة ، فتكون وحدة الأساس هي النواية (الحبَّة) التي تعادل جزءاً من 144 من أوقية « الرطل البقّالي » ، أي نحو 22 سنتيغراماً . وبالنسبة للجوهر فإن الوحدة المعمول بها هي الثمنُ (ثمنُ الأوقية) الذي يعادل ثماني عشرة نواية ؛ والوحدة بالنسبة للأحجار الكريمة هي النواية ذاتها ؛ وأخيراً فإن وحدة الذهب والفضة المسكوكين هي المثقال الذي يساوي أربعاً وعشرين نواية .

وكان وزن الأشياء الثقيلة يتمّ على موازين كبيرة توجد في أهمّ الفنادق ، كالنجّارين والصاغة ، أو في أهمّ الأسواق كسوق الحنّاء أو سوق الغزل . وكانت الأوزان على شكل قالب سكر ، في رأسها حلقة . وكان الباعة بالتفصيل يستعملون موازين أصغر وأوزاناً من نحاس ، أسطوانية الشكل . وكانت الموازين والأوزان تُصنع بفاس بصفة عامة من طرف الحدّادين ؛ وقبل أن تروج الأوزان ، كانت تُعرض على مراقبة المحتسب الذي كان ، بعد تحقيقها ، يضع عليها ختماً مبيّناً فيه تاريخ ضربها[23] .

(22) يساوي الرطل العطّاري بصفرو ، حسب م. دوبيرينيي (المرجع المذكور) ،510 غرام ، والرطل البقّالي 955 غراماً ، والرطل الجزّاري 1.145 غرام ، والرطل الخضّاري 1.210 غرام والرطل الفحّامي 1.020 غراماً .

(23) اشترى اليهود ، بعد إقامة الحماية ، تقريباً جميع الأوزان القديمة النحاسية لصنع المدافع أو لبيعها مرة ثانية بوزن النحاس .

عـــام 1240

الرسم 22

صورة الختم الموضوع على الأوزان المصنوعة بفاس :
يُقرأ فيه : عام ، والتاريخ المناسب

وما زال بعض الشيوخ يتذكرون العهد الذي كانت تُستعمل فيه بفندق الشماعين موازين من خشب ذات صنع عجيب .

وأخيراً ، كان البدويون غالباً ما يفدون إلى فاس حاملين ميزانهم المتنقل الشبيه بالميزان الروماني ؛ فكان يُستعمل بوضعه على السبّابة ؛ وكانت حزّات من القبضة تشير إلى وزن تقريبي .

تلك هي طرق الوزن الجاري بها العمل بفاس . وكان تنوّعها يفرض على المشترين والبائعين أن يتفقوا مسبقاً على النظام المتبع ، مهما كان هناك شك . ولم يكن الشك ممكناً عند البائعين بالتفصيل الذين كانوا يبيعون نوعاً واحداً من البضائع ولا يستعملون سوى طريقة واحدة في الوزن ؛ ولم يكن الأمر كذلك عند الباعة بالجملة أو بنصف الجملة الذين كانوا يعقدون صفقات من كل الأنواع ، متنقلين من نظام إلى آخر .

وأخيراً ، كانت صعوبة إضافية تأتي من أن مراقبة الموازين والمكاييل كانت عملياً منعدمة ؛ فهي تعود إلى المحتسب ، لكنه كان يعتبرها بالأخص فرصة لمضاعفة موارده ، فيقوم بها بشيء من التهاون . وكان يستدعي ، مرة أو مرتين في السنة ، تجّار حيّ للقيام بهذا التحقيق ، ويجلس تحت شجرة التوت بساحة سيدي فرج الصغيرة ويأمر بمراقبة أوزان المعنيين بالأمر بواسطة أوزان معيارية يحتفظ بها عنده . وعندما كان يتجوّل في المدينة ، كان يصحب معه أحد مستخدميه حاملاً الأوزان المعيارية المذكورة ، ويحقّق أحياناً فجأة أوزان أحد التجّار ، ويعاقب كل غش بالجلد .

والحاصل أن مختلف الأنظمة المستعملة لم تكن وحدها تدعو إلى الارتباك ، ولكن التنوعات داخل كل نظام ، ربما كانت أيضاً عظيمة بين تاجر وآخر ، دون أن تكون هناك نيّة للغش .

ب . **العملة** : ـ [24] لم تكن مسألة العملة أقل تعقيداً من مسألة الموازين المكاييل . والسبب في ذلك أن النظام النقدي تشكّل وتبدّل على مرّ العصور بحسب الظروف : وهكذا في أثناء الستين سنة التي سبقت الحماية ، أُقيمت على التوالي ثلاثة أنظمة على الأقل ، دون أن تتحدث عن العملات الأجنبية التي كانت تروج في نفس الوقت بالمملكة الشريفة : عملة سيدي محمد عام 1868[25] وعملة مولاي الحسن عام 1881[26] وعملة مولاي عبد العزيز في سنوات 1901 -1903[27] . وزاد في الطين بلّة أنّ العديد من هذه المنشآت المتتالية خلّف على الأقل آثاراً في المفردات الجارية[28] وفي طريقة تقسيم الوحدات .

ومن جهة أخرى ، كان نفس اللفظ يعني وحدات قيمة متباينة جداً ، وذلك حسب التغييرات النقدية ؛ ولا أتكلم هنا عن قيمتها المطلقة (ليس خفض قيمة العملة ظاهرة خاصة بالمغرب ، إذ نعلم عنه الكثير !) ، ولكن عن قيمتها النسبية : فإن الفلس مثلاً قد ساوى على التوالي 48/1 ، ثم24/1،ثم 6/1 من الموزونة ، الأمر الذي أدّى إلى هذا الشذوذ وهو أن القطعة المدعوّة

(24) انظر عن العملة المغربية قبل الحماية ، سيدبون بيّدا ، **المسألة النقدية بالمغرب** ، وش . دوفوكو ، المرجع المذكور ، ص. 22 ، هامش 1 ، ورونى - لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 309 -310 ، وميشو بـلّير ، **تنظيم المالية بالمغرب** ، ص. 201 ، هامش 1 وص . 203 و 218 إلى 221 .

(25) **الاستقصا** ، ترجمة فومي ، جزء 10 ، ص. 266 -267 .

(26) سيدبون بيّدا ، المرجع المذكور .

(27) نفس المرجع .

(28) وفي فرنسا أيضاً خلفت الأنظمة النقدية القديمة آثارا في مجموع الكلمات ، لكن فقط في بعض العبارات مثل « عشرة آلاف ليرات إيراداً » أو « فلسين اثنين سمناً » أو كذلك « عشرين لويس » ، لا في العبارات التقنية للحسابات إطلاقاً .

ثمانية فلوس كانت تساوي اثنين في الحقيقة : فقد احتفظت بالاسم الذي كانت تحمله في وقت كانت فيه الموزونة منقسمة الى أربعة وعشرين فلساً ، حيث تمثّل ثمانية فلوس ثُلث موزونة ؛ ولما انخفضت الموزونة إلى ستة فلوس ، بقي اسم « ثمانية فلوس » يُطلق على ثُلث موزونة ، أي فلسين اثنين[29] . وباختصار ، كان يتركب مع نظام معقّد في حدّ ذاته غاية التعقيد ، مجموعُ كلمات تؤدي إلى التباسات إضافية .

المفردات النقدية : ـ ينبغي إذن قبل تحليل الوضعية عشيّة الحماية ، إلقاء بعض الأضواء ، إن أمكن ، على المفردات النقدية لفاس .

تتواجد سلسلتان من الأسماء : أسماء عربية تُستعمل لتعيين وحدات الحساب القديمة ، وأسماء إسبانية ستبرهن ، عند الاقتضاء ، على الدور المتصاعد للعملة الإسبانية في مغرب القرن التاسع عشر[30] .

فالمفردات العربية هي ، بصفة عامة ، المفردات التي استعملتها في عهد مّا الأمة الإسلامية برمّتها والتي دخلت إلى المغرب بواسطة الفتح العربي ؛ ويوجد في أدنى السلم الفلس (ج فلوس)[31] الذي يُطلق على عملة نحاسية صغيرة ذات قيمة متغيرة ؛ فكان لا بد من ستة منها لتكوين موزونة واحدة في القرن التاسع عشر . وكانت الموزونة في الأصل تدلّ على عملة فضيّة[32] هي « البلانكية » ؛ ولم تعد تُطلق في مغرب القرن التاسع عشر إلا

---

(29) انظر ميشو ـ بلّير ، المرجع المذكور ، ص. 203 ، هامش 1.

(30) لم يذكر علي باي ، الذي قام برحلة إلى المغرب في أوائل القرن التاسع عشر ، اسماً واحداً للعملة الإسبانية ، ولو بطنجة (المرجع المذكور) ص. 56 -59 ؛ وإنما يتحدث عن القيراط ، والفلوس ، والموزونة ، والدرهم ، والمثقال ؛ واللفظ الوحيد ذو الأصل الأوروبي الذي يذكره هو البندقي الذي وُطّن بالمغرب أيام الأزدهار التجاري للبندقية . وعلى النقيض من ذلك ، فإن ش. دوفوكو (المرجع المذكور) ، يشير إلى أن الريال والبسيطة كانا كثيري الاستعمال بالمغرب كله .

(31) يسمى أيضاً زلاغي .

(32) انظر دوزي ، ملحق ، جزء 2 ، ص. 800 .

على عملة حساب ضعيفة القيمة ؛ وكانت تُعوَّض في التثنية والجمع بلفظي وجهين وأوجه[33] . وهناك عملة فضية أخرى هي الأوقية (ج أواقٍ) - أوقيات - التي كانت تساوي أربع موزونات ؛ وتُسَمَّى أيضاً الدرهم (ج دراهم) الذي يدل عادة في اللغة العربية ، على قطعة فضية . وأخيراً كانت القطعة الذهبية هي المثقال (ج مثاقيل) أو الدينار (ج دنانير) الذي كان يساوي عشر أوقيات ؛ وكانت زنة المثقال في الأصل 4 غرام 729 ذهب ولم يعد يساوي في عهد السعديين سوى 3 غرام 549 ، ثم 3 غرام في القرن الثامن عشر . وابتداء من سنة 1760 ، عُوّض عمليّاً بالمثقال الفضي[34] . وحاول سيدي محمد بن عبد الله في القرن الثامن عشر ، ثم مولاي عبد الرحمن في القرن التاسع عشر إحياء العملة الذهبية تحت اسم البندقي الذي كان يساوي مثقالَيْن ، لكن هذه العملة التي رُوّجت بكميّة قليلة ، سرعان ما اضمحلت ولم يبق حتى اسمها .

وفي آخر القرن التاسع عشر كانت كلمات موزونة ، وأوقية ، ومثقال ما تزال مستعملة ، لا سيما هذه الأخيرة ، لكنها لم تعد مطابقة إطلاقاً لواقع معدني راجح ، وإنما كانت تُستعمل في الحسابات الرسمية والخاصة : كان المخزن وإدارة الأوقاف يعدّون بالمثقال ، وكذلك التجّار في سجلاّتهم : لقد اطلعت على سجلات حسابات أحد تجّار فاس ، حيث كان لفظ مثقال القديم كثير الاستعمال لترقيم النفقات الشخصية وشراء المنتوجات الأهلية ؛ وكان بجانبه كلمات ريال وحتى فرنك ، فيما يتعلق بالمنتجات المستوردة من أوروبا[35] .

---

(33) لم يستعمل قط المفرد (وجه) للدلالة على قطعة نقدية .

(34) انظر سيدبون بيّدا ، المرجع المذكور . كان هذا المثقال الفضي يعادل اسمياً مثقال الذهب ، لكنه سرعان ما انخفضت قيمته .

(35) تفضل صديقي السيد عبد الوهاب لحلو ، العضو المؤسس لجمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإسلامية بفاس ورئيس مصلحة في بنك الدولة المغربية ، فأطلعني على الدفاتر التي كان أبوه يسجل فيها يومياً نفقاته الشخصية وعملياته التجارية . فأبيت هنا إلا أن أشكره على هذه الثقة وهذه المساعدة الثمينة .

وقد تكثفت التجارة مع أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، وتوغّلت العملة الأوروبية بالمغرب ، لا سيما الإسبانية ، ولما لم يكن في المملكة الشريفة ما يعادلها بدقة ، فإن تسمياتها الأساسية استقرت معها . فكان أولاً الريال أو دورو ـ الريال دورو الإسباني ـ أو القطعة الفضية الكبرى ، ثم البسيطة التي أصبحت في المغرب بْسِيطة (ج . بْسَاسط) وتقابل خمس الريال ؛ وأخيراً البليون (ريـال فيلّون) الذي يُـدعى أيضاً كُـرش ـ قرش ـ (ج كْروش)[36] ويقابل جزءاً من عشرين من الريال . ويساوي المثقال مبدئياً الريال ، والأوقية عُشُر الريال ؛ وفي الواقع كان في حوالي سنة 1908 لا بد من عدّ 8 إلى 14 مثقالاً لتكوين ريال ، حسب سعر الصرف وحسب الأقاليم[37] . ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز أمرا بضرب نقود دورو بأوروبا فدعاها المغاربة بأسمائها : ريال حسني وريال عزيزي .

العلامات النقدية : ـ ذلك ما يتعلق بأسماء الوحدات النقدية . ويجب الآن أن نبحث الحقيقة التي كانت تعطيها تلك الأسماء أي أن نحصي القطع النقدية المختلفة الرائجة قُبَيْل الحماية .

لم يكن باقياً من النظام القديم سوى بعض النماذج مع قطع نحاسية ، وقطع فضية صغيرة[38] : فمن النحاس الفلس الكبير (7 ميلّيمات) والفلس الصغير (3 ميلّيمات) وثمانية فلوس[39] فلسان ـ كذا ـ وأربعة فلوس ؛ ومن الفضة : الوجهين (موزونتان) ودرهم ثمانية أوجه (= أوقيتان ونصف) ودرهم أربع أواقٍ (= أربع أوقيات) ، وأخيراً المثقال . ولم يكن ذلك كله يكوّن سوى قليل في غاية الشذوذ للعمليات التافهة . وكانت هذه القطع تضرب أو

---

(36) هذه الكلمة منقولة إلى العربية من الألمانية كْردشن ، (الكبير) من الفرنسية القديمة .

(37) انظر ش.دي فوكو ، المرجع المذكور ، وميشو بلّير ، المرجع المذكور ، ص 201 ، هامش 1 .

(38) م . روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور .

(39) انظر فيما سبق تفسير هذا الاسم .

تصهر في دار السكّة بدار عديّل وفندق رأس الشرّاطين . وبعد 1881 طلب مولاي الحسن قطعاً من أوروبا ، فلم تعد دار السكة تستعمل إلا في طبع الحلي من الفضة والذهب . وكان أمين مسلم مكلفاً بهذه المراقبة[40]

كانت القطع الأكثر رواجاً هي التي أمر بضربها مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز . وكانت قطع مولاي الحسن كلها فضية ، الأوليان : الريال أو دورو الذي كانت قيمته الاسمية 5 فرنكات ، ونصف ريال (نصف دورو) كانتا بصفة 1000/900 ؛ والثلاث الأخرى كانت بصفة 1.000/835 :رُبُع الريال ، والدرهم الحسني أو الحسني (عُشُر الريال) والبليون أو القرش (جزء من 20 من الريال)[41] .

وقد أمر مولاي عبد العزيز بتغييرٍ خفيف لعنوان هذه القطع وأضاف إليها أربع قطع من نحاس : الموزونة بقيمة اسمية لسنتيم واحد ، والوجهين (موزونتين) والخمسة أوجه (خمس موزونات) ، والعشرة أوجه (عشر موزونات)[42] ، واختفت العملة الذهبية عملياً من جراء كثرة النقود المزوَّرة .

العملات الأجنبية ـ وفضلاً عن ذلك عُرفت ثلاث عملات أجنبية ، وهي الفرنسية والأنجليزية والإسبانية ، وراجت بفاس وعلى الأقل فيما يتعلق بالمعاملات المهمة ، واعتُرف رسمياً بسعر العملة الإسبانية بواسطة اتفاقيتين عُقدتا بطنجة سنتي 1881 و 1886 وبواسطة مبايعة السلطان سنة 1898[43] . لكن لا بد من الإشارة ، إلى أن جميع العملات الأجنبية لم تكن لها نفس الحظوة : فكان أكثرها استحساناً هو قطع دورو الإسبانية القديمة الراجعة إلى القرن

---

(40) م. دويبرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 56 .

(41) كان الضرب الأول بباريز عام 1881/1299 -1882 ، انظر عبد الوهاب لحلو ، البنك ووسائل الصرف بفاس ، ص . 224 .

(42) ميشو بـلّير ، المرجع المذكور ، ص. 219.

(43) انظر سيدبون بيّدا ، المرجع المذكور .

السابع عشر التي كانت مرسومة عليها أسلحة إسبانيا محاطة بعمودين (عمودي هرقل) ظنهما المغاربة مدفعين ؛ فكانوا يسمونه ريـال بو مـدفع ـ ريـال ذو المدفع[44] . كما كان يسمى أيضاً ريال بووذن ـ ريال ذو الأذن ـ ، لأن الصورة التي كانت عليه هي صورة الملك أميدي ، وأذنه بيّنة فيها . وكان هناك أيضاً الريال سَبيل الذي ينطق به اليهود زَبيل ، واسمه آت من كونه مضروباً وعليه صورة إيزابيل الثانية . وكان المغاربة يدعونه أيضاً ريال المرأة بسبب صورة الملكة. وكانت هذه الصورة النسوية قد خلقت تعصباً ضد هذا النقد؛ وكان هذا التعصب ناشئاً أيضاً عن كون هذه القطعة لم يكن لها إلا قيمة المعدن ، إذ أُلغيت نقداً وسُحبت من التعامل عند سقوط الملكـة سنة 1868[44] . وهناك قطع أُخرى كانت غير مقبولة بشدة ، مثل دورو الفيليبيّن التي أُدخلت إلى فاس إبّان الحرب الإسبانية الأميركية بعدد مائة ألف ، على ما يقال ؛ وكانت تُعطى قيمة أقلّ من قيمة دورو الإسبانيين ، وبلغ التأثر درجة أن خليفة العامل اضطر إلى أن يعلن السعر الإجباري[46] .

الصـــرف : ـ لم يكن تنوّع مثل هذا للعملات النقدية بدون مساوئ خطيرة ، وعلى الأقل في المدن التجارية كفاس ؛ فكانت هناك عمليات للصرف لا تنتهي . يذكر التقرير القنصلي الأنجليزي لعام 1905[47] أربع عمليات للصرف متطابقة أو متلازمة ، وهي : صرف العملة العزيزية بالعملة الحسنية ، بانخفاض من 33/4% إلى 41/2% ؛ وصرف العملة الفضية الصغيرة بالعملة

---

(44) كتب مولاي عبد الرحمن : « وها نحن جعلنا . . . للريال ذي المدفع عشرين أوقية ، وللذي لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية، وللبسيطة التي بالمدفع خمس أواقٍ ، وللتي لا مدفع فيها (الفرنك على الأرجح) أربع أواقٍ» . .(رسالة 14 ربيع الثاني 6/1268 فبراير 1852 ، في **الاستقصا** ، ترجمة فومي ، 188:10 -189) . الجزء 9 ، ص. 94 من النص العربي ـ طبعة الدار البيضاء .

(45) لحلو ، **البنك ووسائل الصرف بفاس** ، ص. 225 .

(46) رسالة نائب قنصلنا بفاس ، بتاريخ 19 يناير 1900 .

(47) **تقارير دبلوماسية وقنصلية** ، رقم 3.597 ، ص 51 .

الكبيرة ، حيث تفقد الصغيرة 1 إلى 11/2 % ، لأن كثيراً من هذه القطع الصغيرة كانت مزيّفة ، ولأن الصحيحة كانت مشهورة بكونها ناقصة جداً ومصنوعة من معدن رديئ ؛ وصرف العملة المغربية الحسنية بالعملة الإسبانية ، وصرف العملة الإسبانية بالعملتين الفرنسية والأنجليزية .

وكان أول ضرر لهذا الشلاّل من عمليات الصرف هو تعقيد الأمور وإثارة النزعات الكثيرة . يقول شارل دوفوكو : « يتطلب أدنى دفع للمال ، لا سيما في البوادي ، وقتاً لا حدّ له ، فلا تُقبل قطعة نقدية إلا بعد تقليبها ، وفحصها ، وعرضها على شخصين أو ثلاثة ، وإطلاع يهودي عليها ، إن كان موجوداً . . . »[48] ؛ ومن جهة أخرى ، كان الصرّافون ، وأغلبهم من اليهود ، يقبضون عمولة مناسبة للمخاطر التي كانوا يتعرضون لها رغم تجربتهم . وكان سعر الصرف في سنة 1892 يتراوح بين 75% ، 14% و 21% بالنسبة للعملة الفرنسية ، وبين 15,50% و 22% بالنسبة للأوراق الأنجليزية[49] ؛ وكان سعر الصرف سنة 1898 ، بالنسبة للعملة الفرنسية هو 36%[50] . بالإضافة إلى أن مختلف الأسعار لم تكن ثابتة بعضها بالنسبة للبعض الأخر ؛ وبما أن الانتقال كان يحدث غالباً من العملة المغربية إلى العملة الفرنسية عن طريق العملة الإسبانية ، فإن مخاطر العملية كانت أكبر . إذ كان تزييف النقود شيئاً عادياً ، يقول شارل دوفوكو ، والبسيطات الحقيقية كانت أقل عدداً من البسيطات المزيَّفة ، ويضيف قائلاً : « اليهود ، والطلبة ، والشرفاء هم الذين يصنعونها ، وبالتالي كل الذين لهم شيء من المعرفة : يشتغل جلّهم بالكيمياء ، ويصنعون العملة المزوّرة ، في انتظار اكتشاف حجر الفلاسفة » .

المضاربة النقدية : ـ كان عدم الاستقرار إلى هذا الحدّ يدعو إلى

---

(48) المرجع المذكور .

(49) تقارير ديبلوماسية وقنصلية ، رقم 1.304 ، ص . 32 .

(50) تقرير إحصائي وتجاري لنائب قنصل فرنسا بفاس ، بتاريخ 17 أبريل 1898 .

المضاربة النقدية ، ولم يشذّ الفاسيون عن ذلك . فقد سبق أن ذكرت المائة ألف دورو من الفيليبّين التي طُرحت فجأة في السوق . وهذه أمثلة أخرى : « في عام 1877/1294 ، قلّت فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم ، وذلك بسبب غلاء الريال الإفرنجي بمراكش ورخصه بفاس ، فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية . فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش إلى فاس ويصرفونها بالريال ، فيربحون في كل ريال نحو مثقال وتمالؤوا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلّت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح ، وتعطل معاش بذلك ولحق الناس ضرر كثير »[51] .

وفي حوالي 1906 كانت العملة النحاسية تُصرف بفاس 15 أو 16 مثقالاً مقابل دورو واحد ، بينما كانت تساوي بطنجة 18 مثقالاً للدورو : وفي الحين استورد الفاسيون من طنجة كميات من القطع النحاسية وتسبّب التدفق المفاجئ لهذه العملة في انهيار الأسعار واضطرابات اقتصادية كبرى[52] . وفي مارس 1908 حدثت نفس الظاهرة ، حيث إن العملة الفضية اختفت وعُوّضَتْ بعملة من نحاس ، وهي مصدر عدة نزاعات[53] . فكانت المضاربة في الصرف داء مستمراً تُعَكِّر تجارة فاس أيّما تعكير[54] .

تدخـلات المخـزن : ـ لقد حاولت الحكومة حقاً أن تجعل حداً لهذه العمليات ، باذلة الجهد بدون انقطاع لتثبيت الأسعار . ففي عـام

(51) **الاستقصا** ، ترجمة فومي ، جزء 10 ، ص. 317 -318 -9 :163 من الطبعة العربية بالدار البيضاء سنة 1956 .

(52) ميشو ـ بـلّير ـ المرجع المذكور ، ص. 220 .

(53) ميطرودولاموط ـ كاپرون وترينكًا ، المرجع المذكور ، ص. 157 .

(54) انظر في هذا الصدد بيانات روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص 306 ، التي يصف فيها تجار فاس وهم يترصدون جميع المعلومات التي من شأنها ان تنبئهم بارتفاع او انخفاض العملة المغربية .

1845/1261 جعل السلطان سعر البندقي30 أوقية ، وسعر الريال ذي المدفع 16 أوقية[55] ؛ وعام 1851/1268 ـ 52 ، جعل نفس السلطان وهو مولاي عبد الرحمن سعراً جديداً : للبندقي 40 أوقية وللريال ذي المدفع 20 أوقية[56] ؛ واتُّخذت تنظيمات جديدة في 1868/1285 ـ 69[57] وفي 1881 . وكانت جميع هذه المحاولات فاشلة ، باعتراف مؤلف **الاستقصا** نفسه : كان المضاربون يغيّرون فوراً طرقهم ويستعملون وسائل جديدة لتحقيق أرباح جديدة . ولما يئس المخزن ، كان يسنّ السعر الجبري[58] لهذه العملة أو تلك ، لكن بدون طائل . واستمرت الحالة هكذا إلى أن أُحدث بنك الدولة بالمغرب سنة 1907 .

وباختصار ، كانت الأدوات النقدية في غاية الكثرة والتعقيد ، نتيجة الإبقاء على وحدات للعدّ لاغية وإدخال نظم أجنبية إلى المغرب ، الأمر الذي عرقل كثيراً المعاملات التجارية وأفسدها في جوهرها بسبب مضاربة مُضرّة على غيّها . فالعملة ، والمقاييس والمكاييل ، كانت كافية طوال قرون لمغرب كان يعيش معتمداً على نفسه ، لكنها لم تكن قط مكيّفة مع الاقتصاد العالمي .

ج : تنظيم القرض : ـ[59] من الغلط اعتقاد عدم وجود القرض بفاس قبل الحماية ، أو حتى قبل تنمية العلاقات التجارية مع أوروبا . حقاً ، إنه لم يكن له نفس الاتساع الذي كان له بأوروبا بل هو بعيد كل البعد عن ذلك ـ كما

---

(55) **الاستقصا** ، ترجمة فومي ، جزء 10 ، ص. 172 .

(56) نفس المرجع ، ص. 188 -189 . ـ 9 :54 من طبعة الدار البيضاء ـ (فيها الحديث عن ارتفاع السكة وليس فيها تسعير !) .

(57) نفس المرجع ، ص. 266 -267 .-9 :64 من ط. الدار البيضاء ـ (وفيها تسعيرات كثيرة أخرى) .

(58) نفس المرجع ، ص. 317 -318 ورسالة نائب قنصلنا بفاس بتاريخ 19 يناير 1900 .

(59) انظر عن هذه المسألة ف. ناطاف، **القرض والمصرف بالمغرب**، ص. 54 وما بعدها ؛ ش . روني لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 304 -306 ؛ عبد الوهاب لحلو ، **مذكرات حول البنك ووسائل الصرف التجاري بفاس** ، ص. 223 -232 .

لم تكن له نفس الترتيبات الموجودة بها ، لكنه كان معروفاً : فحاضرة تجارية كبرى كفاس ، لا تستطيع أن تعيش بدون حدّ أدنى من القرض .

السلف بالفائدة : ـ من المعلوم أن الشريعة الإسلامية ، أو على الأقل تأويلها حسب المذهب المالكي ، تحرّم بتاتاً السلف بالفائدة ؛ ومن المعلوم أيضاً أن جلّ التجار المسلمين ، وهم يحترمون بدقة هذا القانون ، وجدوا وسيلة ليُؤمِّنوا لأنفسهم الضمان الحقّ ضدّ المخاطر التي قد يتعرضون لها بتسليف المال أو بيع البضائع بالدين . ولم تخرج فاس عن قاعدة عامة بهذه الدرجة : يذكر روني ـ لوكلير[60] عادة تجارية قديمة بهذه المدينة ، مفادها أن التاجر الذي يعجز عن الوفاء بالدين عند استحقاقه يجب عليه أن يؤدي فائدة سنوية قدرها 6٪ أو حتى أكثر ، حسب شروط العقد .

خطابات الاعتماد : ـ لم يكن استعمال خطاب الاعتماد غير معروف كذلك ، إذ كان العمل به جارياً بين فاس ، وتافيلالت ، والتخوم الجزائرية المغربية . فكان التجار الذين ينتقلون كثيراً بين هاتين النقطتين ـ كما سنرى[61] ـ يقطعون مناطق غير آمنة وينفرون من حملهم مبالغ هامة من المال . لذلك لجؤوا إلى وسيلة خطاب الاعتماد التي أصبحت شيئاً ممكناً ، لأن كثيراً من التجار الفاسيين كانت لهم وكالات تجارية في واحات تافيلالت ، وبوذنيب وغيرها . فلنضرب مثلاً بالفيلاليين الذين كانوا يفدون إلى فاس لبيع التمر ، والجلود ، أو للخدمة فقط ؛ فعندما كانوا يتأهبون للرجوع إلى بلادهم ، وهم مزوّدون بمبالغ مالية ، كانوا يذهبون إلى أحد التجار الفاسيين المعروف باتصالاته المنتظمة مع بلدان الجنوب ويسلّمون له المبلغ الذي يريدون استلامه في نقطة وصولهم ؛ ويتوصلون في مقابل ذلك بخطاب يطلب فيه هذا التاجر من مراسله هناك أن يدفع ذلك المبلغ إلى حامله ؛ ومعلوم أن هذه

---

(60) المرجع المذكور ، ص. 305 .

(61) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 5.

الخدمة لم تكن بالمجّان : فكانت العمولة بقدر 10٪ ، أي 50 بسيطة ل 100 ريال . وكان المراسل بتافيلالت يُشْعَر دائماً مسبَّقاً من طرف شريكه الموصي بفاس . وبمجرد ما يحضر المستفيد ، يؤدي له المبلغ أمام عدلَيْن : « وكان العقد الذي يحرره هذان الشاهدان بمثابة إبراء له نحو المعني بالأمر ، ووثيقة نحو الساحب »[62] . وكان المخزن هو الآخر يلجأ إلى هذه الوسيلة لأداء أجور الجنود المرابطين في منطقة التخوم الجزائرية ـ المغربية : فكان يدفع لتجّار فاس المبالغ اللازمة ، ويأمر هؤلاء مراسليهم بتسليمها للضباط الآمرين بالدفع (العلاّفين)[63] . وهكذا كان بعض التجار الفاسيين يلعبون دور المصرفيين .

سندات الأمر والكمباليات : ـ وكان يعرف أيضاً سند الأمر الذي لولاه لما استطاع البائعون بالتفصيل والتجّار المسافرون الذين كانوا يجوبون القبائل المجاورة أن يزاولوا نشاطهم بسبب انعدام نقود متداولة . ويقدم روني ـ لوكلير[64] لهذه الوثائق المثال الآتي : « الحمد لله وحده ـ بذمة فلان بن فلان لفلان . . . مائة ريال ، ثمن أقمشة قطنية (عشر قطع) تُؤدى بكاملها بعد أربعة أشهر من هذا التاريخ ، وقد علم المدين بهذا ووافق عليه ، وقبله بدون تحفّظ . وحُرِّر أمام العدلين في 21 صفر 1223/18 أبريل 1808 » .

وأخيراً ، كان تجّار الجملة بفاس كثيراً ما يلجؤون إلى نظام الكمبالية ، في علاقاتهم مع وسطائهم (قَبَّال ، ج قَبَّالين) بطنجة أو العرائش . فإذا كان الأمر يتعلق بمبلغ غير ذي بال كان الوسيط يؤدي نقداً ويبعث كمبالية بالبريد يؤديها بائع الجملة بفاس فوراً . فإذا كان المبلغ ذا بال ، لم يكن البائع بالجملة يؤدي الثمن إلا بعد استلامه البضاعة ، مقابل كمبالية المُوَرِّدين المرسلة بالبريد عند حلول الأجل المتفق عليه عند الطلب .

البنـــوك : ـ استطاعت تجارة فاس أن تكتفي بهذه الأساليب إلى

(62) عبد الوهاب لحلو ، المرجع المذكور ، ص. 231 .

(63) عبد الوهاب لحلو، المرجع المذكور ، ص. 231.

(64) نفس المرجع .

نحو 1890 ، وكانت تلجأ في بعض الأحيان إلى بنوك جبل طارق لعمليات أكثر تعقُّداً ، لكنها كانت نادرة[65] . إلا أنه ، بمجرد انتهاء عهد مولاي الحسن ، أنشأ بعض اليهود الموسرين بطنجة مؤسسات مصرفية سرعان ما أصبح الفاسيون زبناء لها . وكان أشهرها بفاس مؤسسات موسى وإسحاق ناهون ، مراسلي بنك إسبانيا ، وموسى باريانطي ، وحايم بنشيمول ، المعتمد القنصلي الفرنسي وممثل شركة پاكي للملاحة ، وأبرهام س. ناهون وشركته المدعوَّة « ناهون الصغار »[66] .

ولم يكن هؤلاء المصرفيون يكتفون بزبائنهم من تجار فاس ، بل كانوا يؤدون خدمات هامة للمخزن الذي كان في مقابل ذلك يمدهم بتأييد فعّال عندما كانوا يلجؤون إلى العدالة الشريفة . ولما بدأت البنوك الأوروبية تستقر بالمغرب ، ابتداء من دولة مولاي عبد العزيز ، فضّل المخزن اللجوء اليها[67] . وكانت البنوك اليهودية بطنجة في اتصالات تجارية مستمرة مع فاس، تقوم بالصرف مقابل عمولة من 1/2٪ وبتحويل اعتمادات إلى حساب المُورِّدين الأوروبيين من طرف التجار الفاسيين . وكان لها مراسلون لديهم ، أشهرهم مسعود ليڤي بنشيطون المدعوّ « زلّاشي » ممثل بنك موسى إسحاق ناهون الذي أنجز شيئاً فشيئاً ، بفاس ذاتها ، أهمّ العمليات التي كانت تُنجز قبل ذلك بطنجة[68] .

وقد أدخل هؤلاء المراسلون إلى الوسط التجاري بفاس بعض معاملات القرض الأوروبي ، لا سيما الكمبالية والشيك . وأسهم إنشاء البنوك الأوروبية بطنجة في نشر هذه المعاملات إسهاماً أكثر . وفعلاً ، فإن المصرف الوطني

---

(65) وحوالي 1860 استقر حتى بجبل طارق تاجر من فاس ، هو الشريف سيدي محمد أبو الطالب : كان يشتغل فيه بالتجارة لنفسه ويتكلف للتجار الفاسيين بعمليات الصرف ، مقابل عمولة 1% : انظر عبد الوهاب لحلو، المقال المذكور ، ص. 226 .

(66) ناطاف ، نفس المرجع ، وعبد الوهاب لحلو ، المقال المذكور .

(67) م. دوبيرنيي ، نفس المرجع ، ص. 41 .

(68) عبد الوهاب لحلو ، نفس المرجع .

للحسم أحدث فروعاً بطنجة ، والدار البيضاء والصويرة سنة 1896 ، متبوعاً في ذلك بالشركة الجزائرية سنة 1904 ، ودوتش أوريانط بنك أكتينكُسلشافط سنة 1906 ، إلخ . . .

ولما لم يكن لهذه البنوك فروع بفاس ، فإن البريد الألماني والبريد الفرنسي كانا يتكفلان بتحصيل كمباليات التجارة الصغيرة والمتوسطة الأهمية مقابل عمولة 1٪ . وعند ذلك ظهرت الأوراق البنكية بفاس .

ردود الفعل عند الفاسيين : - لم تقع كل هذه التجديدات دون إدخال بعض الاضطرابات على التجارة التقليدية للعاصمة القديمة . فقد أقيم فيها شيئاً فشيئاً سوق حقيقية للقيم : كان يسيّرها سماسرة إسرائيليون يقضون وقتهم بسوق العطارين ، وهم يتفاوضون بين تجار مسلمين ويهود في شراء النقود والمعادن النفيسة وبيعها ، لا سيما الحوالات والشيكات والأوراق البنكية ، مؤلفين حرفة حقيقية[69] . وقد أثبت الملاحظ الممتاز، السيد عبد الوهاب لحلو ، المضاعفات النفسانية لكل ذلك بقوله : « كان المشتري الفاسي لإحدى هذه الوثائق الذي يستعمل الشيكات والحوالات في دفع ثمن طلباته بأوروبا ، يسوده الخوف دائماً من أن يكون قد خُدع في النوع الحقيقي للورق الذي كان يشتريه ويؤدي ثمنه نقداً ؛ فكانت تساوره الهموم والهواجس باستمرار ، ولم يكن يطمئن إلا عندما يتوصل من مُورِّده بالإفادة بالاستلام وبالإشعار بتسديد الشيك . ولم يكن تجّارنا ، في عملياتهم بواسطة نقود الورق ، يثقون بالقيمة الصورية للشيك الذي ليس في نظرهم سوى ورقة لا قيمة لها ؛ فكانوا يعتمدون كلياً على حقهم في الرجوع بالضمان على البائع ، وعلى سمعته ومكانته الاجتماعية وحالته المادية . فإذا عُرض شيك للبيع من طرف شخص قادر على الوفاء بالدين ومعروف محليّاً وجد مَنْ يقتنيه بسهولة وبأحسن سعر للصرف . وبالعكس من ذلك ، إذا عُرض شيك من طرف تاجر مشبوه فيه أو ذي مكانة متواضعة ، بقي عدة أيام كاسداً بين يدي الدلال الذي

(69) نفس المرجع .

لا يحصل على بيعه إلا بشقّ الأنفس ، وبسعر منخفض جداً ، ولو كان الصرف في ارتفاع . كانوا يقولون : « لا نتشري الشيك في حدّ ذاته إنما نشتري توقيع البائع ، أي **المتحمل الأول** . » وحيث إن مشتري الشيكات أو الحوالات لم يكونوا يعرفون أية لغة أوروبية ، فلم يكن باستطاعتهم أن ينقلوا في سجلاتهم ، كأثر لهذه الوثائق ، سوى الرقم و المبلغ »[70] .

وأما الأبناك بمعنى الكلمة ، فكان جلّ الفاسيين يتخيلونها « كمصانع للمال » ومؤسسات حرة «تقدم الأموال لجميع الذين يطلبونها منهم ، وتوصي بأي واحد ، دون أن تحيط نفسها مسبّقاً بضمانات مادية » . وكان للمستوردين الذين لهم اتصال بأوروبا وحدهم فكرة ملائمة عن النظام البنكي ؛ وإن كان لا بد أن نميّز من بينهم الذين لم يغادروا قط فاسا فكانوا يحذرون من البنوك ، والذين هم بعكس ذلك اكتسبوا ، بفضل أسفارهم ، معرفة مباشرة بالقرض الأوروبي وأدركوا كل فوائده . فمنذ عهد ما قبل الحماية ، كان هؤلاء يلجؤون إلى البنوك بكل اطمئنان ، ويستطلعون بكامل الدقة ، من طنجة ، عن الحياة المالية بأوروبا . كان وسطاؤهم يطلعونهم كل يوم تقريباً على أسعار باريس، ولندن ومدريد التي كانت تعرف بطنجة عن طريق الإبراق .

وهكذا دخلت فاس شيئاً فشيئاً في تيار الاقتصاد الحديث .

يمكن القول إنه ، في أوائل القرن العشرين ، كانت وسائل الحياة الاقتصادية بفاس في عنفوان الفترة الانتقالية : فإذا بقي النظام العتيق للموازين والمكاييل على حاله، فإن الجهاز النقدي أصبح مهتزاً كثيراً وممزوجاً بعناصر أوروبية ؛ وقد تسرّبت الطرق الأوروبية في القرض إلى الحاضرة الإدريسية القديمة ببطء ـ وأنا أعترف بذلك ـ ، وفي الدوائر الأكثر تطوراً من التجارة الفاسية فقط . ومع ذلك ، فإن تجّار فاس اكتشفوا التشابك النقدي والمالي العالمي ، ولن يستطيعوا بعدُ أن يرجعوا إلى الوراء ، ولو أرادوا ذلك .

---

(70) عبد الوهاب لحلو ، نفس المرجع .

2/5

الفصل الثاني

تنظيم الحياة الاقتصادية

كانت الحياة الاقتصادية بفاس قبل الحماية مزيجاً غريباً من الفوضى، والتحرر والتنظيم التقليدي لم يفكر أحد في مخالفته. وعندما ندرس هذا المجموع العجيب، نشعر بانطباع هيكل صامد بمعجزة، وبمجرد مفعول كتلته والقرون المتراكمة. فكما يصف لنا ليون الإفريقي ومارمول هذه البنية الاقتصادية، ما تزال باقية على حالها في بداية القرن العشرين، ولا تزال كذلك في مجموعها تقريباً، رغم صلتها بالتجارة العالمية والاضطرابات الخطيرة التي أحدثتها الحربان (العالميتان).

فهل يا تُرى كان تحت هذه الفوضى الظاهرة هيكل لمؤسسات قوية؟ كلا، إذا نحن نظرنا إلى الأمور من جهة نظرنا نحن الغربيين. فلا يبدو فعلاً أن أي عاهل وأي محتسب حاول قطّ أن ينظم هذه النشاطات الغريبة، وأن يُخضعها إلى نسق وقع التفكير فيه مسبقاً. لا يوجد أثر لقوانين من شأنها تحديد النظم وتحسينها. ولا قاعدة لطوائف الحرف بفاس، بل يمكن على الأكثر العثور أحياناً على نظام خاص[71] وُضع بمناسبة صعوبة ظرفية. كما لا نرى مؤلفاً أخذ على نفسه أن ينكبّ على التفكير في هذا المشكل. فالبناء

(71) ومثله ذلك النظام الحرفي للخياطين المؤرخ في 9 شوال 4/1326 نوفمبر1908، المنشور في. البحث حول طوائف الحرف بالمغرب، ص. 191 -193 .

الاقتصادي بفاس قديم جداً وقد تسرّب إلى عوائد سكان المدينة لدرجة أنهم لم يعودوا يعيرونه اهتماماً أكثر من نبضات القلب أو تنفس الرئتين . ونكاد نعتقد أنه حُمل جاهزاً من طرف مهاجري القيروان والأندلس وأن فاسا لم تعرف قط أزمات النمو الاقتصادي التي ما أكثرها في التاريخ الأوروبي ؛ وحتى لو فرضنا أنها عرفتها ، فإن نقطة التوازن قد أُدركت منذ عدة قرون ، ومنذئذ ، تمتع اقتصاد المدينة الإدريسية باستقرار مدهش كان يجعل الإجراءات المشروعة للاستقرار عديمة التأثير والجدوى .

فالحياة الصناعية والتجارية بفاس ترتكز إذن على عرف غير مكتوب ، ولعله عرف أشدّ قوة من الأنظمة القانونية ، إذ كان يعرفه الجميع ويقبله بدون نقاش ؛ ومثل هذا التطبيق التفصيلي خليق بأن يثير احتجاجات ، لكن مبدأ التنظيم لم يعد موضوع نقاش منذ قرون ؛ وهكذا تثبت عبر العصور القواعد الأساسية للألعاب الصبيانية : يمكن للّاعبين أن يتناقشوا إلى ما لا نهاية له حول كيفية مّا للتطبيق ، لكن اقتصاد اللعب ذاته لا يكون أبداً موضوع نزاع ، ولم تكن التحريفات التي تصيبها إلا آلية غير متعمّدة لا تغيّر الجوهر .

المحتسب : ـ إن مفتاح عقد قبّة النظام الفاسي هو المحتسب بدون أي شك ؛ فهو الذي يقيم الانسجام الضروري بين قوات في مثل هذا العدد يشرِّق بعضها ويغرّب الآخر ؛ وهو الذي يسعّر فعلاً المواد الضرورية لحياة المدينة « المواد الأساسية » ، كما نقول اليوم ، ومن ثمّ فإنه يسهر على أن يسود شيء من الاستقرار في أسعار الصرف ؛ وهو الذي يتحكم في النزاعات التي لا تفتأ تُثار بين التجار والصناع ، وبين البائعين والمشترين ، وفي داخل نفس الحرفة بين أرباب العمل والعمال أو بين متنافسين ؛ وهو الذي يسهر بالتالي على أمانة المبادلات ويعاقب المدلّسين . ولكي يقوم بهذه المهمة على الوجه اللائق ، فليس لديه نظريات اقتصادية أو جهاز تشريعي دقيق ، وإنما يعتمد على مبادىء الإسلام ، وعقله السليم ، وبعض وسائل الإكراه

التقليدية المؤثرة ببساطتها[72] ، وكفاية الممثلين الأكثر أهلية من جميع نقابات الحرفيين ، ويعتمد أخيراً على بعض عناصر القضاء[73] ، عند الاقتضاء ؛ وإذا تجرأ أحد وثار على قراراته ، وهذا شيء نادر ، فإن له سند السلطة المدنية ، أعني عامل المدينة وأعوانه[74] .

(72) كعقوبة التشهير بالخرّازين والدبّاغين الغشّاشين (انظر كّيو ، ولوطورنو وباي ، **الخرّازون** ، ص. 50 ، **والدباغون** ، ص. 237) ؛ كانت الأحذية الرديئة تُسمَّر على جدار بسوق الأحذية ، مع اسم الصانع الذي صنعها والتاجر الذي باعها . وكعقوبة التطويف أيضاً أو « التجوال الإجباري » : فإذا ارتكب تاجر خطأ خطيراً بصفة خاصة ، من شأنه أن يسيء إلى الجماعة (كتزوير اللبن وبيع اللحم الفاسد ، إلخ . . .) ، كان يُلزم بالتجوّل ، حاملاً جسم جريمته عبر الأزقة والساحات ، معترفاً جهراً بخطئه ؛ وإذا حدث أن خفت صوته ، كان الأعوان الذين يحملون القضبانْ ويصحبونه سرعان ما يحملونه على استرجاع كل الوضوح المطلوب . وكان هذا العقاب نادراً وأغلبه ما يُطبّق على الجزّارين (انظر **بحث حول طوائف الحرف** ، ص. 109 ، وم . دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، (ص. 25 - 24) . بالإضافة إلى أن المحتسب كان في إمكانه أن يفرض الغرامة أو السجن أو الجلد بالعصا .

(73) كان هذا القضاء متركباً من عقود مبرمة أمام العدول كانت تربط في نقطة دقيقة بين أعضاء نفس الحرفة ، أو بينهم وبين المخزن .

فالعقد مثلاً المبرم بتاريخ 8 شوال 3/1326 نوفمبر 1908 ، ينص على أن الخياطين يتعهدون باستعمال الحرير ، والقطن والصوف في ظروف معيَّنة ؛ ومن لا يتقيدون منهم بهذا الالتزام « سيُقصون من رتبة معلِّم ويصبحون ثانياً مجرد متعلمين » . ويتفقون بنفس العقد على عدم الزيادة في أجور الأعوان على نفقة زملائهم (**بحث حول طوائف الحرف**) ، ص . 191 - 193 .

ومثل آخر؛ في 25 شوال 27/1331 سبتمبر 1913 ، ثبت على بقّال أنه مزج الفلفل الأحمر بمواد أخرى . فأُخذت أكياس هذا الخليط السبعة وأُتلفت ، وسُجن الجاني ، وأشهد المحتسب عدلين بهذا القرار بمحضر رئيس الحرفة وبقّالين اثنين .

وكان الأمر في بعض الأحيان يتعلق بقضاء شفوي فقط ، لأن كثيراً من أعراف الحياة الاقتصادية بفاس كانت تنتمي إلى عدة قرون وكانت معروفة جداً بحيث لا تحتاج إلى إشهاد وتوثيق كتابي . **والبحث حول طوائف الحرف** (ص. 112 وما بعدها) يذكر بعض هذه الأعراف من جملة أعداد أخرى . وإليكم مثلاً لذلك : « لا يحقّ لصاحب فرن عادٍ أن يمتنع من طهي خبز سكان حيه ؛ وبالمقابل ، لا يحق لهؤلاء أن يحملوا خبزهم إلى فرن آخر ، لا سيما إن كان عليهم أن يمروا بفرن حيهم للذهاب إلى فرن آخر » .

(74) وكان الباشا والمحتسب ، في أواخر المغرب المستقل ، يتشاجران غالباً بشأن الاختصاصات =

ولقد دُرست وظيفة المحتسب وحُدّدت عدة مرات في البلاد الإسلامية ، وعلى الأقل في إسبانيا المسلمة[75] ، لكن لا يوجد ، فيما أعلم ، كتاب للحسبة حُرّر بفاس مخصص للمحتسب المحلي(*). وقد اتخذ الفاسيون هذا النظام الأساسي كما حُمل إليهم من الخارج ، لم يغيروه إطلاقاً[76] ولم يرغبوا قط في تقنين التكييفات التي أدخلوها عليه لشؤونهم الخاصة . وقد أُدمج منذ قديم في حياتهم الجماعية ، واكتسب قوة كبيرة من وجوده نفسه ، فضلاً عن شخصية ممثّله . فإذا علمنا أن مهمة المحتسب قد زاولها في بعض العهود رجال من الدرجة الأولى[77] ، فإن تلك الحال لم تكن دائماً أبعد من ذلك . فكان المحتسب عشية الحماية يظهر وكأنه طفيلي : يباشر مراقبته للموازين والمكاييل بفتور ، لا يأتي بانتظام إلى محكمته ويكتفي في أغلب الأحيان بأخذ العُشر من جميع الحرف تقريباً . الأمر لا يهم ، فهو موجود بقوة قِدَم منصبه ونفوذه الديني ولو كان منحطا إلى هذا الحد ، ووجوده وحده يحافظ على التوازن في حياة الحاضرة[77] . لم يكن يعطي الاندفاع للآلة الاقتصادية

= والتأثير ، بعيدين من أن يتساندا . ومنذ الحماية انتصر الباشا واستُبعد خصمه نهائياً على ما يبدو ؛ ورغم ذلك فما زالت المؤسسة قائمة .

(75) انظر مثلاً ، ج س . كولان وليفي بروفنصال ، **مؤلّف إسباني في الحسبة** .

(*) بل كتب فقهاء فاس في الحسبة وتناولوها في كتبهم وفتاويهم . ومنهم قاضي فاس أحمد بن سعيد المجيلدي (ت 1094هـ / 1683 م) مؤلف كتاب **التيسير في أحكام التسعير** . وقد طُبع بالجزائر سنة 1981 بتحقيق موسى لقبال . (مترجم) .

(76) تجب الإشارة إلى أن المحتسب بفاس ، منذ عهد ليون الإفريقي ، لم تكن لمحتسب فاس اختصاصات اقتصادية ولم يكن يزاول المهام الدينية (مراقبة الأخلاق) التي كانت في بداية الحسبة الداعي الرئيسي لوجودها . وربما لم يزاولها قط .

(77) كان يُختار لمزاولة هذه الوظيفة - يقول مارمول (الكتاب 2 ، ص. 165) - أعظم رجال المدينة ؛ ولذلك فهو منشغل أكثر من العامل .

(77م) نشير الى أن **تخطيط الاصلاحات المغربية** (دفتر المطالب المغربية) المحرر سنة 1934 من طرف لجنة العمل الوطني الذي تنشّطه الاتجاهات العصرية ، لا يفكر بتاتاً في حذف المحتسب ، بل يقترح أن يعيّن بهذا الاسم الموظف المغربي الذي يمكن أن يرأس المصالح البلدية (فصل 1 فقرة 35 ، ص 47) .

بفاس ، ولم يكن الدماغ الذي يجتهد في التوقع والتسيير ، بل كان يظهر كمقاومة سلبية تثبت في الأرض نصب محالة الاقتصاد الفاسي وتمنعه من الاهتزاز والتفكك . وكان،على ما هو عليه ، موافقاً جداً لحياة فاس الاقتصادية التي كانت تجري على توالي الفصول ، والسنوات والقرون ، شبيهة بنفسها بكيفية غريبة .

طوائف الحرف : ـ كانت طُوائف الحرف (حنطة ، ج حناطي) تشكّل عنصراً ثانياً أساسياً لهذه الحياة الاقتصادية . ويثير هذا اللفظ فوراً في أذهاننا ـ نحن الأوروبيين ـ ذكريات قروننا الوسطى ؛ فنفكر في مجموعات عمال لنفس الحرفة،منظمين بكيفية دقيقة،ومتدرِّجين جيداً، ومنغلقين بغيرة عن الأجنبي ، لا يمكن الانضمام إليها إلا بفضل ضامنيْن ، ولا يمكن الترقي فيها إلا بقدر ما يبرهن عليه من كفاءات مهنية متينة . ولعل هذا التصوّر لا يعبر بدقة قصوى عن الواقع الذي كان يطبّق عليه قديماً ؛ وعلى كل حال ، فليس له إلا علاقات قليلة مع التنظيم الحرفي بفاس .

إذا بحثنا في الطائفة الحرفية بفاس ، اندهشنا لما يوجد فيها من قلة التماسك وقلة الفعالية . حقاً ، إن المؤسسة التي أتيحت لي دراستها ابتداء من سنة 1934 ، كانت قد فقدت بعض قواها منذ إقامة الحماية ، لكنَّ جميع الشهادات التي تلقيتها من صناع مسنّين سبق لهم أن عرفوا النظام القديم ، تسمح لي بالتأكيد أنها لم يكن لها أكثر من ذلك بكثير أيام الملوك المستقلين . كانت هذه المنظمة الظاهرة تُخفي واقعاً في غاية الفوضى : لم تكن طائفة الحرفة الفاسية مجموعة من قوات منسّقة بقوة ، وإنما كانت بالأحرى كتلة من قوات مكدَّسة فقط تنفر من أن يعتمد بعضها على بعض .

تشكيل طوائف الحرف : ـ كان جميع الرجال(78) المنتمين إلى نفس

(78) لا توجد نهائياً حرف للنساء بفاس ؛ وإني لا أعرف منها سوى الخطّابات (النكّافات) والمغنيات (الشيخات) اللائي سأعود للتحدث عنهن (انظر ما يأتي الكتاب 7 . الفصل 7) . وأما الغزّالات والطرازات بالمدينة وغزّالات الحرير وخيّاطات أو مرقّعات الثياب البالية =

الحرفة مبدئياً هم الذين يشكّلون الطائفة . إلا أن لهذا التحديد العام استثناءات عـدة : وهكذا ، فـإن مختلف أصناف الفخّـارين (الحرَّاشـة ، والزلايجيـة والطلّاية) ، الذين يمارسون حرفاً متميزة ، حسب تقنيات متباينة بعضها عن بعض كانوا مع ذلك مجموعين في حرفة واحدة . وعلى النقيض من ذلك ، فإن الدباغات الثلاث ، وإن كانت تباشر نفس المادة وحسب نفس الطرق ، كانت تشكّل ثلاث مجموعات متميزة . ربما يُتساءل : هل هو تجمّع جغرافي ؟ حيث إن الفخّارين كانوا مجمَّعين في نفس المكان الواحد ، بينما كان الدبّاغون يحتلّون ثلاث مؤسسات[79] بعيدة شيئاً ما بعضها عن بعض . لكنني سأذكر حيناً الحدّادين الذين كانوا يشكّلون حرفة واحدة ، وإن كانوا موزَّعين على ثلاث خلايا متميزة (الطالعة ، وعين علّو ، والنخّالين) . ومن المحتمل أن توزيع الصناع في المدينة هو الذي أحدث ، في الأصل ، تشكيل عدة مجموعات ضمن نفس الحرفة ؛ لكن النظام الأصلي غُيّر أحياناً من جرّاء ظروف تاريخية لا نعرفها ، أو لمجرّد نموّ بعض الحرف التي لم تعد تستطيع البقاء في الموقع الأوّلي ، فتفرقت في عدة نقط من المدينة : نعلم فعلاً أن الحدّادين كانوا كلهم مجتمعين قديماً في حي الطالعة الذي كان آنذاك أرضاً فارغة ، وشبه ربض داخل الأسوار[80] ، كانوا يشكّلون طبعاً طائفة واحدة : وبعد ذلك انقسموا إلى ثلاث مجموعات ، في تاريخ نجهله ، لكنهم احتفظوا بوحدتهم الحرفية . وبالعكس من ذلك ، يبدو أكيداً أن الدبّاغين احتلوا ، منذ البداية ، مواقع متميزة وشكّلوا جمعيات متفرقة[81] . غير أنه ، في أغلب الحالات ، كانت طائفة تقابل حرفة . ومن المعلوم أن م. ماسينيون عدَّ منها

= بالملّاح ، فإنهن لم يُجمَّعن في طائفة حرفية ، على كثرة عددهن ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى كونهن يشتغلن في بيوتهن .

(79) أترك جانباً الدباغة الصغيرة لرحبة التبن التي كانت تابعة لدباغة شوّارة ، نظراً لقلة أهميتها .

(80) **بحث حول طوائف الحرف** ، ص. 72 .

(81) تعتبر دباغتا سيدي موسى وشوّارة ، حسب التقاليد المحلية ، معاصرتين لمولاي إدريس . ولا يرجع تاريخ دباغة عين أزليطن سوى إلى القرن الثامن عشر . (انظر ڭيو ، ولوطورنو ، وباي ، **الدبّاغون** ، ص. 180) ، إلا أنها باندماجها في نظام تعدُّدي ، شكّلت بطبيعة الحال منظمة مستقلة استقلالاً ذاتياً .

161 ، حسب قائمة سلّمها له محتسب مدينة فاس .

علاقات الطوائف الحرفية فيما بينها : ـ ويمكن الاستغراب من أن مجموعات متفاوتة الأهمية تفاوتاً كبيراً ، كالنّساجين الذين كانوا يُعدّون بالآلاف ، والنخّالين الذين لم يكن يُعدّ من بينهم أكثر من نحو خمسة عشر ربّ عمل وُضعوا مبدئياً على نفس المستوى . لكنه ينبغي أن نسلّم أن الطوائف لم تكن تُعامَل في الواقع إن لم يكن في القانون بكيفية مماثلة : فقد كانت الأكثر غنى منها ، كطوائف القيصرية ، أو الأكثر عدداً ، كطوائف نسّاجي الصوف والحرير والخرّازين والدبّاغين ، متفوقة فعلاً على غيرها ، إذ كانت وحدها تلعب دوراً في النشاط العام للمدينة ، وكان ممثلوها الرئيسيون يُعدّون من جملة الأعيان . ومن جهة أخرى ، لم تكن طوائف الحرف موصولة بعضها ببعض لتشكّل شبه اتحاد للحرف أو غرفة تجارية ، كما نتصور ذلك عندما نفكر في منظماتنا الأوروبية ـ فكانت مساواتها إذن نظرية محضة لا تضايق أحداً ، حيث إنها لم تتمخّض عن الحق في عدد معيّن من الأصوات في جمع استشاري .

استقرار طوائف الحرف ـ توظيفها : ـ كان الانضمام إلى الطائفة الحرفية مباحاً ، مبدئياً على الأقل : فلم يكن محدوداً عدد المؤسسات ولا عدد مستخدمي كل واحدة منها ؛ كما أن العضو الجديد لم يكن ملزماً بتبرير معلوماته التقنية : فعلى الزبناء أن يعرفوا هل يجب عليهم أن يعطوه شغلهم أم لا . تلك كانت النظرية ؛ إلا أن الأشياء ، في الواقع ، لم تكن تجري تماماً على هذا النمط . كان معظم الطوائف الحرفية يشمل عدداً ثابتاً من المؤسسات : ومن الغريب أن نشير إلى أن كثيراً من الأرقام التي يقدّمها إلينا ليون الإفريقي تكاد تكون هي نفس الأرقام التي يدلي بها التقرير القنصلي لعام 1898 والذي ما زال يسجل بعد عشرين عاماً من إقامة الحماية : فيا له من استقرار للحرف بفاس ! هل كان ذلك ناجماً عن قاعدة وضعتها الطوائف نفسها ، أو وُضعت بتدخل من المحتسب ؟ لا وثيقة ولا تقاليد تسمح بتأكيد ذلك ، بل يجب البحث عن تعليله في الاستقرار المذهل لسوق فاس . وكان أرباب العمل ، في السنوات العجاف ،

كسنوات الحرب أو المجاعة ، يصرفون قسماً من عمّالهم ويترك حتى أرباب العمل أنفسهم حرفتهم لفترة معَيَّنة ، لكنهم ، بمجرد ما كانت الحالة تعود إلى طبيعتها ، كانوا يتناولون كل واحد منهم مخرزه ، أو مكّوكه ، ويلتحقون بأصحابهم أو يستأجرون آخرين . إنه كبحر بلا مدّ ، لا تهيّجه أحياناً إلا عواصف عابرة .

وكان هذا الاستقرار ناجماً أيضاً عن كون طوائف الحرف تُوظف غالباً في نفس العائلات ، لا بالنسبة للحرف التي يزاولها الفاسيون الأصليون فحسب ، ولكن كذلك بالنسبة للحرف التي يكثر فيها الغرباء : فكان من النادر أن يحاول أحدٌ الإثراء بفاس إن لم تكن له بها صلة مّا ، إذ كانت العلاقات الشخصية تلعب دوراً كبيراً جداً . فسواء أهل تاغزوت الذين كانوا يصنعون السلاح ، أو زرزاية أهل ملوية ، أو بقّالة سوس ، كل هذه المجموعات العرقية المتخصصة في حرفة أو تجارة كانت مؤلفة من رجال تربط بينهم أواصر القرابة ، فلم يكن المقيمون بفاس يستحضرون إليها غيرهم إلا إذا كانوا متيقنين من أن يجدوا لهم مرتزقاً . وحيث إنهم كانوا يعرفون جيداً إمكانات السوق الفاسية ، كانوا يحدّون استدعاءهم بأدقّ ما يمكن .

وأخيراً ، فإن حرية العمل ، في كثير من الطوائف ، كانت مقيّدة بقواعد تقليدية تُقصي عمليّاً كل دخيل . وكان على المعلمين الخيّاطين قبل الشروع في مزاولة عملهم أن يحضروا أمام العدول مع ضامن يتعهد بتعويض الزبناء إن هم تعرضوا لخيانة أو حتى لعيب في الصنعة : وهي قاعدة مُعدّة لحماية الفاسيين ضد سرقة الثياب أو إفساد الخياطة ، لكنها كانت لزوماً تجد كثيراً من استخدام الخياطين ، لأن الضامنين كانوا يمتنعون من الكفالة بلا تروٍ ولا يعطون ضمانتهم إلا لعمال مستقيمين كُفاة[82] . وكان الدلاّلون والبقّالون خاضعين لنفس الالتزام[83] .

---

(82) معلومات حصلت عليها بواسطة السيد الأخضر بإشارة مني .

(83) إن الذين لا يسمح لهم فقرهم بأن يؤدّوا أجر العقد العدلي كان بإمكانهم تسجيل أنفسهم مجّاناً في دفاتر المحتسب (بحث حول طوائف الحرف ، ص. 116) .

كما كان على عمّال الأفران أن يتقدموا أولاً إلى رئيس الحرفة (العريف) الذي كان يمتحنهم ؛ فإذا أرضوه أرسلهم إلى الفرّانين المحتاجين إلى أعوان ، وإلاّ ، صرفهم[84] .

وكان يوجد في طوائف أخرى تكاد تكون دائماً مكوّنة من قوم ينتمون إلى نفس الأسرة أو نفس القبيلة تضامن مالي ، حيث يعترفون كلهم تقليديّاً بأنهم مسؤولون عن الديون التي يمكن أن يستدينها أحدهم . وتلك كانت حالة باعة المواد الدهنية السوسيين (البقّالة) ، والحمّالين من ملوية ، والفحّامين وحمّالي الزيت التواتيين[85] . وبديهي أن هذه المسؤولية الجماعية كانت تؤدي إلى عدم السماح بمزاولة هذه الحرف إلا لمن يرضيه نظراؤهم . ويلاحظ أن هذه المؤسسة تهمّ فحسب طوائف الحرف الغرباء عن مدينة فاس وناحيتها ، وربما كانت تنتمي إلى العهد الذي استقرت فيه هذه المجموعات العرقية بالمدينة ، ولا يعرفهم أحد . فلما لم يجدوا ضامنين من بين الفاسيين تعهدوا بأن يتضامنوا جماعة ، فيما بينهم ؛ ولولا ذلك لما قُبلوا في المدينة .

والحاصل أننا نرى أنه ، لو لم يكن أي قانون يحدّ من عدد المؤسسات وعدد أعضاء طائفة من طوائف الحرف ، لكان في الواقع حاجز قد يكون أقوى من القوانين الإدارية يمنع التعدد اللاّنهائي للخلايا الحرفية : فكان لا بد أن يكون المرء معروفاً ليزاول حرفة بالمدينة ، أو مقبولاً في جمع معروف .

المراتب داخل طوائف الحرف : ـ كان الأفراد ، داخل كل طائفة حرفية ، مقسمين إلى ثلاثة أصناف : أرباب العمل ، والمستخدمون أو العمّال والمتعلّمون .

---

(74) بحث قمت به محليّاً في فصل الربيع 1945 .

(85) انظر البحث حول طوائف الحرف ، ص. 116 ؛ وم . دو بيريني ، المرجع المذكور ، ص. 134 ، وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 294 ؛ وروني ـ لوكلير المرجع المذكور ، ص. 312 .

وكان أرباب العمل (معلّم ، ج معلّمين بالنسبة للصنّاع ، وحوانتي ، ج حوانتية بالنسبة للتجار) هم المسؤولون عن المؤسسة ، يكترون الدكان أو الحانوت أو المعمل ، ويؤدون أجور المستخدمين ، ويعيشون من محصول المؤسسة . كان بعضهم قد انقطع عن الأشغال بأنفسهم ، مكتفين بتوزيع العمل على عمالهم والتفاوض في الشراء والبيع . كانت تلك حالة التجار الكبار، وبعض المعلمين النسّاجين واليهود الذين كانوا يسيّرون مؤسسات صنع الخيط الذهبي(86) ؛ لكن مديري هذه المؤسسات كانوا قلّة . وكان جلّ أرباب الحرف بفاس يشتغلون وسط عمّالهم ولا يربحون بالتالي أكثر منهم ، بعد أداء الأجور والضرائب . وأخيراً كان العديد من أرباب الحرف يستغنون عن المستخدمين : فيبقون وحدهم في مؤسستهم . وكان ينتمي إلى هذا الصنف معظم أصحاب الدكاكين الصغيرة المنتشرين في المدينة كلها وكذا الكثير من الصناع ، في كل الحرف التي يمكن العمل فيها على انفراد : كانت تلك حالة العديد من الإسكافين والخرّازين على سبيل المثال(87) .

وكان العمال (صانع ، ج صنّاع بالنسبة للصناعة ، وصاحب ، ج أصحاب بالنسبة للتجارة) مستأجَرين يتقاضون أجرة يومية ثابتة ، ونادراً ما كانوا يُؤَجَّرون حسب العمل . كانوا يعرفون حرفتهم معرفة جيدة مثل المعلّم ربّ الحرفة في كثير من الحالات ، وكان أرباب الحرف يُختارون من بينهم .

وأخيراً ، كان المساعدون (متعلم ، ج متعلمين) شباناً أو حتى صبياناً يتعلمون الحرفة ، يكتفون في البداية بمشاهدة المعلم والعمال يشتغلون ويؤدون بالمقابل بعض الخدمات الطفيفة : يذهبون إلى الجزّار القريب لشراء المِرَّة التي يستعملها الخرّازون كغِراء ، ويهيّئون البَكَرات التي يضعها النساجون في مكوّكهم، ويحملون إلى الخزفي مدرات الطين المُعدَّة

---

(86) انظر لوطورنو وڤيكير ، صناعة الخيط الذهبي بفاس ، ص. 69 .

(87) انظر ݣيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الإسكافون ، ص. 12 و15 و51 .

للدولاب ، ويضعون الأشياء التي صنعها على سطح التجفيف . وكان المعلم يعطيهم من حين لآخر قطعة نقدية صغيرة إذا سُرَّ بهم : تلك كانت جائزة لا أجرة . وإذا ما استطاعوا أن يؤدوا خدمات كافية ، كانوا يتقاضون أجرة أسبوعية تافهة في البداية ، وتزداد أهمية كلما ازدادت معلوماتهم . وأخيراً ، وبعد مدة متغيرة جداً حسب الحرف واستعداداتهم الشخصية، كانوا يصبحون عمّالاً ، أي يتقاضون أجرة يومية . لكنهم لم يكونوا ملزمين ، لعبور هذه الدرجة ، باجتياز امتحان مهني ، وإنما كانت ترقيتهم موكولة إلى تقدير معلمهم .

وكان جميع هؤلاء العمّال منضمين إلى طائفة الحرفة ، لكن المعلمين وحدهم هم الذين كان لهم تأثير حقيقي فيها ، لأنهم كانوا يجتمعون أحياناً في جمع عام لانتخاب رئيس الحرفة (أمين ، ج أمينات)[88] ومساعده (خليفة) . وكان هذان الشخصان المنتخبان مبدئياً مدى الحياة يُعرضان على موافقة المخزن في شخص المحتسب ؛ وهذا يعني أن اجتماعات الجمع الحرفي لم تكن تتكرر كثيراً[89] . إلا أنه كان يتفق أن الأمين لم يعد مرضيّاً عنه ، فيرغمه أعضاء الحرفة المؤثرون على تقديم استقالته ؛ فيقع الشروع إذ ذاك في انتخاب جديد . وفعلاً لم يكن يتمتع جميع أرباب الحرف بنفس التأثير ، لا سيما في الحرف الكثيرة العدد ؛ فكان بعضهم يبرزون من الجمع ويشكّلون حول الأمين شبه أركان حرب لم يخضع اختيارهم لأيّة قاعدة دقيقة . كان بعضهم يكتسبون مكانة ممتازة بفضل نسبهم ، كأبناء أمين أو أحفاده لم

---

(88) معنى الأمين هو « رجل ثقة » . ويُطلق هذا اللفظ أيضاً على بعض أعوان المخزن في النظام الاقتصادي والمالي (مثلاً قابض الجمرك يحمل لقب أمين ، وكذا مراقب الأملاك (أمين الأملاك) ؛ ويُجمع هذا اللفظ بهذا المعنى على أمناء . انظر عن انتخاب رئيس الحرفة ، مختلف الدراسات الحرفية ، ومن جملتها كُيو ، ولوطورنو ، وباي : **الدبّاغون** ، ص. 235 .

(89) كان أصحاب الحرف يعقدون أيضاً اجتماعات أُبَّهة بمناسبة الدخول الرسمي للسلطان إلى فاس ، وبعض الأعياد الدينية كموسم مولاي إدريس ، الذي سأتعرض له فيما بعد . فكانوا يجتمعون إذ ذاك حول رؤسائهم وعَلَمهم إن كان لهم علم .

يفقدوا استحقاقهم ؛ وكـان آخرون يتمتعـون بغنى نسبي يخوّلهم بعض الضمان ؛ كما كان للبعض الآخر ميزة ويعرفون كيف يحملون الناس على الإنصات إليهم في التجمعات . وكان من صالح الأمين أن يستشيرهم في الظروف الهامة وأن يأخذ رأيهم بعين الاعتبار ، بل كانت العادة تفرض عليه ذلك .

الأمـــين : ـ كان رئيس الطائفة الحرفية يقوم بثلاثة أدوار : يستطيع بالدرجة الأولى أن يتخذ مبادرة إجراءات المساعدة لصالح أحد أعضاء الحرفة الذي يصيبه عوز ؛ فإذا أُشعر الأمين بأن أحد أصحابه قد أُصيب بمرض عضال أو توفي تاركاً عائلته في مضيعة ، كان من حقه أن ينظم جمع تبرعات لتأمين قوت المريض أو جنازة الميت وإسعاف زوجته وأولاده . ومع ذلك لم يتعلق الأمر هنا إلا بإجراءات استثنائية .

وكان لرئيس الطائفة الحرفية بعد ذلك دور حَكَم وخبير . فإذا وقع خلاف بين عضوين من الحرفة ، أو بين أحد أعضائها وشخص ثالث ، سواء كان زبوناً أو مُمَوِّناً ، فإنهم يقصدون الأمين الذي كان يحاول تسوية الخصام بالتراضي . فإن لم يُوفَّق ، كانت الأطراف تعرض القضية على المحتسب الذي يحيلها فوراً على هيئة تحكيم مؤلفة من الأمين واثنين أو أربعة من أرباب الحرف[90] ، حسب أهمية الطائفة الحرفية ، يُختارون من بين أعيان المهنة . وغالباً ما كانت هذه الهيئة التحكيمية تتوفق في تهدئة النزاع ، فلا يبقى للمحتسب سوى المصادقة على قرارها ؛ غير أن المتنازعين لا يعبّرون أحياناً عن رضاهم ، فيُضطر المحتسب إلى عرض القضية أمام محكمته ذاتها ، متخذاً الأمين ومساعديه كخبيرَيْن[91] ؛ وكان قراره لا رجعة فيه . وفي كل الحالات ، كانت

(90) مُعَلِّمان عند الفخّارين (انظر كَيور، ولوطورنو، ورياي، صناعة الفخار بفاس، ص . 272) ، وأربعة عند الدبّاغين ، وهي أهمّ الحرف (نفس المؤلفين ، الدبّاغون ، ص. 236) .

(91) وفي حالة نزاعات تجارية هامة ، كانت القضية تُعرض على محكمة تجارية (عرف التجار) . انظر عنه ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

القضية تُفصل بإنصاف وصواب ، حسب التقاليد لا حسب قانون مكتوب .

وأما المهمة الثالثة لرئيس الطائفة الحرفية ، فتظهر كأنها أهمّ من غيرها ، إذ كانت تقتضي ربط الصلة بين الحرفة والمخزن . وكان هذا شيئاً دقيقاً ، لأن المخزن في أغلب الأحيان لم يكن يتصل بالحرف إلا للحصول منها على المال أو على خدمات مجّانية : المال على شكل ضرائب استثنائية أهمّها الهديَّة المُقدَّمة إلى السلطان من طرف كل طائفة حرفية هامة[92] بمناسبة جلوسه على العرش ، أو دخوله الرسمي إلى فاس أو حدوث فرح في أسرته ؛ وخدمات مجّانية في شكل تكاليف مألوفة ، وأعمال بدون عوض للأوقاف أو أعمال مرهقة (تويزة) لفائدة السلطان ، والوزراء وعامل المدينة[93] . وفي كلتا الحالتين كان دور الأمين في تنفيذ أوامر المخزن أقلّ بكثير من دوره في مقاومة مطالبه المفرطة . فكان لا بد له إذن من أن يتحلّى بشخصية قوية ، وحزم وثبات ، وبدبلوماسية كافية في نفس الوقت ، حتى لا يدخل مع المخزن في نزاع إلا في حالة اليأس . وما زال يُحتفظ في بعض الطوائف الحرفية ، اليوم ، بذكرى هؤلاء الأمناء الكبار في العهد القديم ، كالحاج أحمد السلاوي ، أمين دبّاغة كُرنيز الذي كان يحسن الدفاع عن مصالح نظرائه ، فكان يحظى منهم بالاحترام والتوفير ، كما كان عضواً في اللجنة العليا المؤلفة من ثلاثة أعضاء عيّنهم السلطان لتحديد قيمة الهدية المفروضة على كافة سكان فاس[94] .

(92) كانت الطوائف الحرفية الميسورة وحدها هي التي تقدم الهدية إلى السلطان ، بخلاف كل الحرف التي كانت تُعتبر كفقيرة ـ وكانت كثيرة ـ مثل الحلاّقين وأصحاب الأفران فانها لم تكن ملزمة بهذه التكلفة . (بحث أُنجز في عين المكان عام 1945) .

(93) بحث حول طوائف الحرف ، ص. 102 .

(94) گيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدبّاغون ، ص 235 . اضمحلت اليوم الأعمال المرهقة وكذا الضرائب الاستثنائية . فيكون إذن دور رؤساء الحرف أقلّ أهمية بكثير مما كان عليه في القديم ، وهم ، في معظمهم ، شيوخ صالحون لا يقومون بعمل هام . وقد حاولت حكومة الحماية إحياء هذه المهمة ، ابتداء من سنة 1937 ، عندما أنشأت السلف للصنّاع ؛ ولا يمكننا القول بأنه نجح تماماً .

الأعياد الحرفية : ـ بعد الإلمام بالحياة الحرفية بفاس ، يبقى الحديث عن أعياد أرباب المهن . كان لجميع طوائف الحرف بالمدينة رئيس مشترك هو مولاي إدريس ، مؤسس المدينة وحاميها . ومن الأكيد أن إجلال التجار والصناع لهذا الولي الصالح لا يرتقي إلى ما قبل القرن الخامس عشر ، لأن تعظيم مولاي إدريس يرجع إلى ذلك العهد[95] . ففي فصل الخريف من كل سنة كانت المدينة بأسرها تحتفل بموسمه ، وتساهم فيه طوائف الحرف بكيفية فعّالة . كان الحريريون ينسجون الكسوة التي تغطّي القبر (النقير) طوال سنة ويحملونها في أُبّهة عظيمة ليسلّموها إلى حفدة الولي الصالح سدنةِ الضريح . ويكون مُرصّعو الحديد قبل ذلك قد صقلوا من جديد التفافيح النحاسية فوق صومعة الزاوية[96] ؛ وأخذ الدباغون زرابي قاعة الضريح لينظفوها وينفضوها في بستان مجاور لباب الحديد[97] . ثم تتوالى طوائف الحرف حسب أهميتها لتقديم هديتها إلى سيد المدينة ؛ وكان أكثرها عدداً وغنى يذبحون ثوراً ، بعد الطواف به بشكل موكب في الأزقة الرئيسية للمدينة[98] ، بينما تكتفي الحرف الأخرى بتقديم هدية على قدر استطاعتها إلى الشرفاء الأدارسة[99] . وكان جميع أعضاء طائفة الحرفة يحرصون على التشرف بالمشاركة في هذه العطايا ، ولو بقليل ، لأن ذلك كان في رضى الله تعالى . وكان موسم مولاي إدريس هذا مناسبة للقيام بأفراح عظيمة .

كانت كل حرفة تنظم احتفالها . ويبدأ ذلك بجمع التبرعات من طرف الأمين ، إذ لا بد من المال لشراء الأضحيات ، والشموع ، والعطور والبخور ،

---

(95) سأتطرق فيما بعد (الكتاب 8 ، الفصل 3) إلى هذه المسألة المهمة .

(×) لا شكّ أن المؤلف يقصد ظهور الحديث عن ضريح مولاي إدريس بفاس ، وإلا فإن هذا الأمير الشريف كان دائماً محطّ تقدير وتعظيم (مترجم) .

(96) لوطورنو ، وفيكر . مُـرصّعو الحديد بفاس .

(97) كُيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، ص. 234 .

(98) كُيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، المرجع المذكور .

(99) كانت تلك حالة الحلاّقين وأصحاب الأفران مثلاً (بحث شخصي أُنجز في ربيع 1945) .

ومكافأة الموسيقيين المرافقين للموكب ، فكان الصناع يتبرعون بسخاء ، لأنهم كانوا يقدرون هذا الفرح ويحاولون أن يعملوا أحسن من طوائف الحرف المجاورة لهم .

كان الحريريون حسب التقاليد هم الذين يقومون بافتتاح سلسلة المواكب ويتقدمون في الدخول إلى ضريح المولى إدريس ، حاملين الكسوة التي نسجوها غطاءً لقبر الولي والمبْخرة التي سيتركونها أمام الضريح . وكان هذان الشيئان المحمولان من طرف أعضاء طائفة الحرفة يتقدمان الصفوف الأولى في الموكب .

ثم يتقدم الأمين ، محاطاً بالأعيان ، والعلماء ، والتجار أو آل بيت الرسول (عليه السلام) المدعوّين للحفل يمشون الهوينا وهم يتلون أذكاراً وصلوات .

ويسير وراءهم أربعة شبان يمسكون ثوباً ممدوداً من أطرافه الأربعة ويصيحون بدون انقطاع : « من أراد أن يقدم هدية إلى مولاي إدريس فليفعل ، الله يرحم مولاي إدريس ! » وهكذا كانوا يجمعون الهدايا التي يتبرع بها المارّة ، والمتسكّعون ، أو النساء اللائي يرمين من السطوح بعض النقود على الثوب . وعند كل هدية ، كان الشرفاء والأعيان يدعون للمتبرع .

وبعد ذلك تأتي الأضحيات ، وهي ثلاثة ثيران أو أربعة مزيّنة بثياب مزركشة يسوقها جماعة من زرزاية ؛ ويتبعهم آخرون رافعين شموعاً ثقيلة يصل وزنها أحياناً الى 50 كيلو ؛ وأخيراً يأتي معظم الطائفة الحرفية مع الجمهور ؛ كانوا يتقدمون وهم يغنون أو يهتفون بأعلى صوتهم : « يا عاشقي النبي ، صلوا عليه ؛ اللهم صلِّ عليك يا رسول الله ، يا رسول الله ! أحرمة النبي ! أمولاي إدريس! » وما يكادون ينتهون حتى تتصاعد من السطوح زغاريد النساء الصاخبة تشقّ عنان السماء .

وكان رجال الطريقتين الصوفيتين الشعبيتين ، عيساوة وحمادشة ،

يمشون في المؤخرة ، يسيرون وأمامهم الموسيقى وقبلهم النساء والأطفال ، يرقصون بجنون ، وقد تشعث شعرهم ، واجتذبهم إيقاع المزامير والطبول . وكانت الإثارة تلحق حتى النساء الموجودات فوق السطوح فيشرعن في رقصة موزونة . وكان رجال الطريقتين يشدخون رؤوسهم وينطلقون ، ملطّخين بالدماء . ويتوقف الموكب من حين لآخر ، ليترك لهم من الوقت ما يكفي لإفراغ جهدهم والتمكن من إعادة تأليف التجمعات الضرورية ، وكان يقطع عادة الطريق المؤدية من باب محروق إلى ضريح مولاي إدريس عبر الطالعة الكبيرة .

يبلغ الاحتفال أَوجَه في الضواحي المباشرة للزاوية حيث يزدحم الجمهور وتهتز الأرض بالرقص الذي لا ينقطع لرجال الطرق الصوفية ، ويشقّ عنان الهواء صوت المزامير الحادّ ، وضربات الطبول المخنوقة وهدير الأبواق ؛ وكان الغبار ، والعطور ، ودخان البخور وعرق الجمهور ، كل ذلك يحيط الاحتفال بجوّ غريب .

وعند باب الضريح ، كان مقدّم مولاي إدريس وهو محاط ببعض الشرفاء الأدارسة ، يستقبل وفد الطائفة الحرفية ويتسلم الهدايا والأضحيات ، فيقوم الجزّارون الملتحقون بالضريح بذبحها ، وفي نفس الوقت يدعو المقدم للمتبرعين بأن تنالهم بركة مؤسس المدينة ويسلم إليهم شموع البركة ، وذلك هو الإعلان عن انتهاء الحفل .

وبعد بضعة أيام ، كان الإسكافون ، والصفّارون ، والحاكة ، والطحانون والشراطون يقومون بنفس المراسيم وبنفس الهيجان ؛ ثم يأتي دور الطوائف الحرفية الأخرى ، كالدباغين مثلاً : « كانوا يضحّون في الصباح ، ويظلّون العشية كلها وطوال الليل ، ويعودون الدباغون في الغد لمحو آثار الدم

(100) بحث ، ص. 147 .

الباقية . وللقيام بهذا الغسيل ، كانوا يأتون بالدلاء من دار الدبغ وينظفون الضريح »[101] .

وفضلاً عن مولاي إدريس ، كان لعدد من طوائف الحرف سيّد خاص : فللدباغين سيدي يعقوب الدبّاغ ، وللإسكافين سيدي محمد بن عبّاد ، وللحلاّقين سيدي علي بوغالب ، وللفخّارين سيدي ميمون الفخّار ، وللخيّاطين سيدي بوجيدة ، وللطحّانين سيدي عبد الواحد الزنبور ،المدعوّ الكّندور[102] ، إلخ . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الأولياء أقدم من مولاي إدريس الذي أصبح منذ عهد ما قبل الحماية يحلّ محلّهم شيئاً فشيئاً[103] . وقد كان بعض هؤلاء الصلحاء يمارسون حرفة الصنّاع الذين يحمونهم : فتلك كانت حالة مولى الدبّاغين[104]، ومولى الفخّارين[105] ومولى الحلاّقين[106]. وكان الآخرون من العلماء أو الأولياء الصالحين ، وغالباً ما كانت تجهل الظروف التي أصبحوا فيها موضوع إجلال من طرف هذه الطائفة الحرفية أو تلك . كان ابن عبّاد مولى الإسكافين مثلاً ، فقيهاً أصله من رُندة وأصبح خطيباً بجامع القرويين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر[107] ، « لكنه كان يحب

---

(101) گيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، المرجع المذكور .

(102) وحسب رواية أوردها گيوو (بحث مقتضب حول الطاحونات المائية بفاس قُدِّم للمؤتمر السابع لمعهد الدراسات العليا المغربية) ، كان سيدي الكّندور هذا في بعض العهود مولى كل طوائف الحرف بفاس ، ثم أخذت تتخلى عنه الواحدة تلو الأخرى ، باستثناء الطحّانين .

(103) في الوقت الذي كان يكتب فيه مؤلف سلوة الأنفاس ، كان موسم سيدي يعقوب الدبّاغ قد أهمل . يقول إنه في عهد غير قديم جداً ، كان الدبّاغون بگرنيز يحتفلون سنوياً بموسمه في يوم ذكرى وفاته . (الجزء 3 ص. 105 - 106) .

(104) سلوة الأنفاس ، المرجع المذكور ؛ وگيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، ص. 179 .

(105) أ . بيل ، صناعة الخزف بفاس ، ص. 29 - 31 .

(106) بحث قمت به شخصياً في عين المكان في ربيع 1945 ؛ وسأعود فيما يأتي (الكتاب 7 ، الفصل 4) إلى الحديث عن الحلاّقين وصالحهم وموسمهم .

(107) سلوة الأنفاس ، الجزء 2 ، ص. 133؛ وليڤي - بروڤنصال ، مؤرخو الشرفاء ، ص. 314 ، هامش 6 .

الجلوس في دكاكين الإسكافين والتحدث معهم ، يدعو لهم ويتضرع إلى الله خصوصاً أن يحفظهم ـ لا سيما المبتدئين منهم ـ من الجراح التي يمكن أن تصيبهم من المخارز أو الإبر المستعملة على وجه غير لائق ، وكذلك كان غالباً ما يجمع ـ حسب ما يقال ـ الإسكافين في مسجد ويصلي بهم »(108) . لذلك اتخذوه وسيطاً لهم . وكان موسم هذه الحرفة يُقام يوم ذكرى وفاة الولي ، ويتكوّن أساساً من إحياء ليلة في ضريحه بالصلوات والأذكار(109) .

القاعدة الطائفية : ـ تلك كانت الخطوط الرئيسية للطائفة الحرفية بفاس . ونعجب عندما نلاحظ أن هذه الهيئة ، التي كنا نتصورها كأنها متينة للغاية ، مليئة بهذا القدر من الأشياء ، لم تكن تصلح في الواقع إلا لتزويد المخزن بحكّام ، أو على الأقل بخبراء في النزاعات التجارية والصناعية ، وتوزيع التكاليف المخزنية بين قوم من نفس الحرفة وجعلها أخفّ ما يمكن ، وأخيراً لتوزيع بعض الإسعافات على رفاقٍ أصابهم القدر ، وكان ذلك نادراً وبكيفية غير منتظمة . وقد نصل إلى التساؤل هل كان لهذه الهيئة فائدة من الجانب الاقتصادي ؟

غير أننا إذا فكرنا في أن التنظيم الحرفي بفاس ما زال قائماً منذ قرون وأنه صمد أمام إقامة الحماية والتغييرات الاقتصادية التي تمخّضت عنها ، فإننا نقتنع بأن هذه الهيئة ، مهما ظهرت منخورة منهارة، فإنها تحتوي على قوة باطنية وتستجيب لضرورة عميقة . إننا نودّ أن نستطيع تسطير تاريخ طوائف الحرف الفاسية منذ البداية إلى حين وجدت توازنها ـ وذلك ما قد تحقق منذ قديم في القرن السادس عشر ـ لنرى كيف تَشكَّل شيئاً فشيئاً النظام الذي يسوسها ؛ وهذه رغبة يجب العدول عنها ، لانعدام الوثائق ؛ ونقتصر على قبول الحالة على ما هي عليه ، والتفكير في هيئة قد أدركت رشدها منذ قديم .

---

(108) كيبو ، ولوطورنو ، وباي ، الإسكافون ، ص. 49 .

(109) كيبو ، ولوطورنو ، وباي ، هامش 2 ؛ وانظر فيما يأتي التفاصيل حول موسم سيدي علي بو غالب (الكتاب 8 الفصل 4) .

إن مزيتها الرئيسية - على ما يبدو - لهو فرض أقل ما يمكن من الطاعة والتماسك على أشخاص مندفعين كثيراً إلى الفوضى . وإن قوماً مولعين بالاستقلال كالفاسيين لم يكونوا يستطيعون ان يفرضوا على أنفسهم قواعد صارمة دقيقة ، إذ سرعان ما كانوا ينتهكونها أو يختنقون فيها . ولم يقبلوا سوى هيكل خفيف لكنه على كل حال كافٍ لتأمين النظام والانتظام للوظائف الاقتصادية بفاس ، تاركٌ لكل واحد استقلالاً ذاتياً واسعاً . ولم يكن هذا النظام خالياً من العيوب ، فإننا نشاهد ذلك في فترات الأزمة ، حيث لا يشكّل الصناع والتجار كتلة متينة بقدرٍ لتتمكن معه في الصمود كما يجب أمام الشدة ؛ لكن هذه العيوب يخفِّفها بصفة عامة كون الجميع يعرف بعضه البعض، ويراقب بعضه البعض ، ويستخبر بعضه عن البعض، وذلك بفضل التنظيم الحرفي بصفة جزئية . فإذا كانت الطائفة الحرفبة قليلة التماسك ، فإن التكتلات والاتحادات الاحتكارية شيء غير معروف في الواقع بحاضرة مولاي إدريس ، لأن مثل هذه العمليات لا يمكنها أن تنمو إلا في السرّ ، ولأن السرَّ لا يوجد - ولا يمكن أن يوجد - بين صناع فاس وتجارها . ذلك لأن الصانع يعمل علانية ، في دكان صغير مفتوح على مصراعيه على قارعة الطريق وفي واضحة النهار ، وبين أنداده في غالب الأحيان . والتاجر ينجز معاملاته كذلك بين نظرائه، وفي واضحة النهار؛ وإذا حدث أن حاول هذا أو ذاك تجاوز القواعد الموضوعة ، فسيحكم عليه نظراؤه ، أو بإشارة منهم . لا يخضع أي واحد منهم لقوانين متعددة وتعسفية ، لكنهم جميعاً يمتثلون لواجب اجتماعي في غاية التشدد ، يتجسد بدقة في الطائفة الحرفية ولا يعتبر أي تاجر أو صانع نفسه أكثر حرية من تجار فاس وصناعها ، كما لا يخضع أحد لقاعدة أشدّ وأعمّ أكثر منهم .

- **الفصل بين الصناعة والتجارة** . - إن الفصل المطلق تقريباً بين الصناعة والتجارة يُعَدُّ ثابتة أخرى للحياة الاقتصادية بفاس . فلا مانع نظرياً من أن يكون صانع تاجراً في نفس الوقت - الشيء الذي لا يُحرم منه بعضهم[110] .

(110) لم أعثر ، أثناء الأبحاث التي قمت بها حول الصناعة الفاسية ، فيما يخص هذه الحالة إلا =

ذلك لأنهم ينتمون مسبّقاً إلى عائلات تجار : فمع مزاولتهم حرفة صانع ، يُعدّون في « طبقة » التجــار ، لأن الحاجز الذي يفصل البعض عن الآخرين يبدو أنه من نوع اجتماعي أكثر منه اقتصادي .

للصناع في ترويج منتجاتهم ، مسلكان : البيع المباشر للزبون ، أو البيع بالمزاد العلني ، ولا ينتج (الصنف) الأول إلا جزءاً يسيراً من الربح لأنه ينجز يوماً بيوم ولأن الأثمان معروفة لدى الجميع ؛ وليس العمل بالطلب ، وهو نادر جداً ، أكثر كسباً بكثير : فلا الصانع يحسن حساب سعر تكلفته ، ولا الزبون الموصي الذي هو في الغالب رجل أعمال ، يكون على علم تام بالأسعار الجاري بها العمل ، فهو قليل الاستعداد لأداء السعر المرتفع . وقد يكون الربح في البيع بالمزاد العلني أكثر ـ وهذه مسألة حظ ـ ، لكنه بالأخص صلة الوصل التقليدية بين الصناعة والتجارة ، وهي الوسيلة الوحيدة التي تُمكّن المنتجين والتجار من المواجهة .

البيع بالمزاد : كانت جميع المنتجات الهامة للصناعة الفاسية ، كالأحذية ، والجلود المدبوغة ، والأقمشة ، والأدوات النحاسية تباع بهذه الكيفية[111] . وكان البيع بالمزاد يحدث دورياً (كل يوم بالنسبة للأشياء المصنوعة بكثرة) وفي مكان معيّن : تباع الأحذية كل يوم ، ما عدا الجمعة

= على صناع الخيط الذهبي (معلمين الصقلي) ـ ولكنهم يهود ـ وعلى بعض الفخارين وبعض النساجين (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 298) (وقديماً كان لأمين النساجين وحده هذا الامتياز) ، وبعض الدباغين ، الذين يطلق عليهم اسم معلمين الشكّارة والذين لا يزاولون فعلاً الحرفة ، لكنهم يشتركون مع دباغين قليلي الثروة (كُيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، **الدباغون** ، ص. 227) ولا يوجد أي خراز .

(111) انظر عن البيع بالمزاد بفاس ، روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 302 ، وبوسكي وبيرك ، **البيع بالمزاد بفاس** ، وهي دراسة عميقة جداً وغنية باللمحات . وقد بقيت هذه الوسيلة ، وهي مألوفة في الإسلام كله ، جارٍ بها العمل ، على الأقل فيما يخص الأشياء المستعملة ، في مدن متطورة مثل القاهرة ؛ انظر كليرجي ، المرجع المذكور ، الجزء 2 ، ص. 309 .

وأيام الأعياد ، بين صلاتي العصر والمغرب ، بسوق السبّاط ، أي في زقاق السوق حيث توجد دكاكين بائعي الأحذية[112] . وتباع الجلود المدبوغة كل يوم أيضاً ، من الساعة الثانية إلى الساعة السابعة ، الطابق الأرضي لفندق السبيطريين المدعوّ كذلك فندق الجلد[113] . وتباع الأقمشة في أربعة أفنية صغيرة مربعة متوالية ، يتصل بعضها ببعض ، وتكتنفها دكاكين تباع فيها الأقمشة المنسوجة بفاس ؛ وهي ، من الغرب إلى الشرق : سوق التلّيس أو سوق القشّاشبيين ، وسوق الحائك (الخاص بثياب النساء وكانت تباع فيه أيضاً الثياب المصنوعة محلياً لجلابيب الرجال) ؛ وسوق السلهام (الخاص بالبرانس والمعاطف الرقيقة) ؛ وسوق البالي ، ويدل اسمها وحده على تخصصها ؛ وكان البيع بالمزاد فيها يقام من العصر إلى المغرب[114] . وكانت بعض منتجات الصناعة الفاسية تخضع في الواقع إلى مسلسل من البيع بالمزاد : تباع المادة الأولية بهذا الشكل ، ثم الإنتاج النصف الجاهز ، وأخيراً المنتج الجاهز . وهكذا يباع الصوف الخام بسوق الغزل[115] طوال ساعتين كل صباح من شروق الشمس ، ثم الصوف المغزول بنفس الطريقة في نفس المكان ونفس الساعتين ، لكن في زاوية أخرى من السوق . وأخيراً ، تباع الأقمشة بالمزاد العلني ، كذلك في الظروف المذكورة منذ قليل . ونفس الشيء بالنسبة للجلد : تباع جلود الماعز الطبيعية بفندق السبيطريين ، كل صباح من الساعة التاسعة إلى الساعة الحادية عشرة ، وجلود البقر من الثانية عشرة إلى الواحدة بعد الزوال بفندق الزبيب ، وجلود الغنم بجزّاتها بفندق السبيطريين ، من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة ، وجلود الغنم دون صوف يحملها ناتفو الصوف

---

(112) انظر ڭيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الإسكافون ، ص. 57 وما بعدها .

(113) يتذكر دبّاغون شيوخ أن جلوداً كانت تباع في القديم بفندق كائن بسويقة سيدي عبد الله ، في حي واد الزيتون ، على الضفة اليمنى للنهر (انظر ڭيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، ص. 202 ، هامش 1) .

(114) و (115) لوطورنو وڤيكير ، بحث غير منشور حول النسّاجين .

إلى رحبية الجلود ، قرب فندق الجيَف الحالي[116] بحيّ العشّابين ؛ ثم تُعرض الجلود المدبوغة للبيع ، كما أسلفنا ، بفندق السبيطريين ؛ وأخيراً تباع الأحذية بالمزاد في سوق السبّاط .

لم يكن هذا البيع بالمزاد العلني مخصصاً فقط لمنتجات الصناعة الفاسية ، لكنه يمتد إلى عدد من المواد الأولية والغذائية[117] : الفواكه اليابسة بفندق الزبيب ، والحبوب في أربعة أسواق : سوق الغزل ، إثر بيع الصوف ، أي من الساعة الثامنة إلى بداية العشي ، بسوق الصفّاح في حي العدوة ، وفي بوجلود (برحبة الزرع) وبفاس الجديد (بسوق الزرع) ؛ والسمن والزيت بقاعة الزيت في حي الديوان ، والبيض في ضواحي سوق العشّابين ؛ والحنّاء بسوق الحنّاء ، إلخ . . .

وإليكم بالتالي جدول البيع بالمزاد بفاس ، كما بيّنه بوسكي وبيرك[118] :

الموقع	نوع البضاعة	التاريخ	وحدة البيع
I المواد الغذائية			
بين السواري (العشّابين)	الحبوب، والخضر اليابسة	يومياً في 8 صباحاً	المُدّ
الصفّاح	—	—	—
الطالعة	—	—	—
فاس الجديد	—	—	—
سوق الخميس	حيوانات للذبح	الأربعاء والخميس	الرأس أو القطيع
	دواب الحمل	الأحد والإثنين	
الجوطية	الشابل	غير منتظم حسب الصيد	وحدة أو زوجة

(116) خُصص فندق الجيَف لبيع الجلود بدون صوف عام 1931 : انظر ڭيور ، ولوطورنو ، وپاي ، الدبّاغون ، ص. 204 .

(117) انظر بحث حول الطوائف الحرفية ، ص. 93 .

(118) المقال المذكور ، ص. 324 و 325 .

سويقة باب فتوح	الخضر، والفواكه الطريّة	يومياً في 6 صباحاً (مارس، أكتوبر)	بيعة، مائة، كومة، سلّة.
سويقة رحبة الزبيب	—	يومياً في 6 صباحاً (أكتوبر، مارس)	حسب البضاعة
زريبة الخشب	الزيتون والعنب	يومياً حسب الفصل	المُدّ
فندق الشمّاعين	الفواكه اليابسة	يومياً في 9 أو 11	الشواري، أو المُدّ
	الزيتون المصبَّر، العنب، البواكير.	يومياً في 9 أو 11 صباحاً	أو القنطار.
قاعة الزيت، أو سوق الإدام	الشحوم، اللحم المصبّر (الخليع)، العسل	يومياً في 11 صباحاً	القُلّة والمدّة
II ـ المواد الأولية للحرف			
فندق السبيطريين	جلود الماعز الخضراء	يومياً في 8 صباحاً	طريحة (نصف مجموعة 12).
فندق رحبة الزبيب	جلود البقر الخضراء	يومياً في الواحدة زوالاً	وحدة أو نصف
فندق النعايريين	جلود الغنم الخضراء	يومياً في 11 صباحاً	طريحة
سوق الإقامة (فندق السبيطريين)	الجلد المحبّب	يومياً في السادسة مساء	زنة (مجموعة 12)
سوق الفرادا (فندق السبيطريين)	جلود مدبوغة ناعمة	يومياً في الثانية ونصف زوالاً.	زوجة
سوق الصفاري (فندق السبيطريين)	جلود البقر	يومياً في 5 مساء	وحدة أو نصف
دباغة شوّارة	تاكّاوات	يومياً في 8,1/2 صباحاً	المُدّ
سوق المكلّتة (فندق الرحيبة)	جلود الغنم المنتوفة	يومياً في 10 صباحاً	طريحة
سوق الغزل (العشّابين)	الصوف المغزول	يومياً في 6 صباحاً	مدجّة (ربطة)
فندق الشمّاعين	القنّب الخام	الجمعة في 2 زوالاً	لقّة (بلوط)
III ـ منتجات الصناعة الحرفية			
سوق السبّاط	أحذية	يومياً في 4 مساء	بيعة أو وحدة
راس التيّالين	الجلود المدبوغة الملوّنة	يومياً في 4 مساء	بيع بالمزاد حديث العهد

عين علّو	خرجات، زرابي	يومياً في 4 مساء	
سوق الحايك	الحايك، الأقمشة الرفيعة	يومياً في 4 مساء	قطعة
سوق التلّيس	أقمشة غليظة للبدويين	يومياً في 4 مساء	قطعة
سوق السلهام	أقمشة غليظة فاسية	يومياً في 4 مساء	قطعة
حرّارة (القيصرية)	ملابس ، مناديل	غير منتظم في 5,1/2 مساء	قطعة وبيعة
السبيطريين	حبال، خيط القنّب	غير منتظم في 5 مساء	حبل، ربطة
سوق النقرة	حلي	يومياً في 4 مساء	زوجة، وحدة، مثقال.
سوق السكّاكة	النحاس الجديد	يومياً في 10 صباحاً	
الصفّارين	النحاس الجديد والمستعمل	الجمعة في الواحدة زوالاً.	وحدة
النجّارين	أوانٍ من الخشب	الجمعة في الواحدة ونصف زوالاً.	وحدة
VI ـ أشياء مستعملة			
مركّطان	ملابس	يومياً في 11 صباحاً	وحدة
القيصرية	ملابس أكثر جودة	يومياً في 4 مساء	وحدة
سوق الفرش	مخدّات ـ حشيات	يومياً في 4 مساء	وحدة
سوق البالي	أغطية ، جلاليب	يومياً في 11 صباحاً	وحدة
جوطية فاس الجديد	ملابس مختلفة	يومياً في 5 مساء	وحدة
جوطية الأندلس	ملابس مختلفة	يومياً في 5 مساء	وحدة
رحبة الزبيب	أوانٍ، حُصر	الجمعة في الواحدة زوالاً.	وحدة
باب مولاي إدريس	أوانٍ معدنية	يومياً في 11 صباحاً	وحدة
الطرّافين	أحذية مستعملة	غير منتظم	وحدة
V ـ مختلفـات			
جامع الجنائز	كتب	الجمعة في 3 مساء	وحدة أو حزمة
سوق الحنّاء	حنّاء، غاسول، كحل	غير منتظم	وزن، كيس
سوق الفخارين	فحم	يومياً في الصباح	القنطار

وبالنسبة للمواد الغذائية ، كان البيع يتم عموماً بدون وسيط : كان المشترون يطوفون حول الباعة ويقترحون عليهم الثمن هم أنفسهم . لكن بالنسبة لبيع المواد المصنوعة والمواد الأولية الصناعية ، كانوا يلجؤون إلى البائعين بالمزاد (الدلّالة) وعددهم حوالي 700 في المجموع[119] ، ويشكّلون عدة طوائف تحتكر هذا السوق أو ذاك وتخضع لسلطة أمين . يضبط كل أمين قائمة مستخدميه وضامنيهم[120] ؛ فلا أحد يستطيع مزاولة المهنة إن لم يقبله على ضوء تزكية جدية . والمجموعات مجزّأة كثيراً بشكل يمكن كل أمين من القيام بمراقبة حقيقية : فباعة الجلود المدبوغة أو التي ستُدبغ ـ وعددهم 140 بائعاً ـ مقسّمون إلى ثلاث مجموعات لكل مجموعة أمينها[121] ، أحدهم يعمل بفندق السبيطريين ، وثانيهم بفندق رحبة الزبيب ، وثالثهم برحبة الجلود ؛ وحيث إنهم لا يشتغلون دائماً ، فإنهم يتممون نهارهم ببيع الأشياء البالية بالمزاد في (سوق الجوطية) ، كاللباس القديم أو الأحذية المستعملة وحتى الأحذية الجديدة بسوق السباط الذي يقام عشية . وتقوم مجموعة أخرى مؤلفة من 70 بائعاً تقريباً ، ببيع الصوف المغزول بالمزاد صباحاً بسوق الغزل ، والأقمشة عشية بسوق الحايك[122] تحت سلطة أمين خاص .

وكان هذا البيع يجري على النمط الآتي : في الساعة المعتادة يحضر البائعون والمشترون من الخواص أو التجار ، إلى المكان المعتاد ، بعضهم ببضاعتهم ، وبعضهم بمالهم ، إذ تُنجز عمليات تجارية كثيرة نقداً . وهناك

---

(119) بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص. 327 .

(120) انظر ما سبق ، ص. 297 ، وبوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص. 338 .

(121) كَيور ، ولوطورنو ، وباي ، الدباغون ، ص. 207 - 208 .

(122) لوطورنو وفيكير ، دراسة غير منشورة حول النساجين . وحسب بوسكي وبيرك (المقال المذكور ، ص. 327) كان عدد أعضاء هذه الطائفة 110 عضو في 1939 . بالإضافة إلى أن هذين المؤلفين يذكران الطوائف التي تبيع الملابس المستعملة (170 بائعاً) ، والبهائم (86 بائعاً) ، والحلي (7 باعة) ، والثمار والخضر (35 بائعاً) ، والجلود (116 بائعاً) ؛ وفعلاً فإنهما يفصلان بين بائعي الجلود وبائعي الأحذية .

أيضاً دلّالون جالسون على الأرض أو على مقاعد من حجر (تلك حالة فندق السبيطريين) ، منتظرين الزبناء . وبمجرد وصولهم ، يختار البائعون دلّالاً ، لأن من بينهم الحسن والقبيح : بعضهم مشهورون بصوتهم الحسن ، ونشاطهم ، ولباقتهم في عرض البضاعة . وفي الحين يشرع الدلّالة في جولاتهم ، سائرين بين جمهور البائعين والمشترين[123] معلنين بصوت مرتفع الأثمان التي حددها الباعة ، عارضين على المشترين الأشياء التي تهمهم ، منطلقين من هذا إلى ذاك للحصول على ثمن أعلى ، وأخيراً يربطون الصلة بين زبونهم والمزايد الأخير .

وتصحب كلَّ هذه التحركات والاتصالات عبارات أشبه بالطقوس « يذكر فيها اسم الله باستمرار . وهكذا ، فإن تحديد السعر الأساسي يطلب من أول تاجر جاء بهذه الكلمات البسيطة : على الله ! »[124] . وتُعَزِّز القولَ إشارات محددة هي الأخرى بالعادة : « هنا تُرمى قطعة الثوب على الكتف ؛ وهناك تُلفّ حزم الخيوط حول الذراع ويُلوَّح بها ، ويُنضَّد السمك في كُلَّاب مزدوج ؛ وتُدخل الأحذية الواحدة في الأخرى ، على شكل برج هشّ ، وتُرفع عالية على الصدر . وهنالك يمتطي الدلّال الدابة المعروضة ويقوم في ساحة السوق بركض متفاوت التلفيق ، ويسحب على الأرض الجلود المنتوفة ؛ ويصبح ، وبيده قصبة طويلةكالمزراق ،

---

(123) تطبق الأسعار المذكورة على « وحدة البيع » ، وهي تتغير حسب الأشياء المعروضة للبيع : فوحدة البيع هي ستة أزواج بالنسبة للأحذية (بيعة) ، لكن يمكن إرجاعها إلى النصف (نصف بيعة) أو بالعكس مضاعفتها (بيعتان) (انظر كْيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، **الإسكافون** ، ص. 39) . وتباع الجلود بنصف مجموعة اثني عشر (طريحة) (كْيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، **الإسكافون** ، ص. 207) ؛ وتباع الخرجات أربعاً أربعاً (بيعة) بسوق عين علّو ، من الساعة العاشرة إلى الثانية عشرة صباحاً (كاربونيـي ، وكْيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، **دراسة غير منشورة حول باعة الجلود المدبوغة الملوَّنة فاس** ؛ يعرض الصوف بربطات خيوط ، لكن الأسعار المعلن عنها صالحة لوزن معيَّن (الرطل قبل الحماية ، والكيلو بعدها) ويجب وزن ربطة الخيـوط قبل أداء ثمنها ؛ وتباع الثياب بالقطعة ، والسعر المعلن عنه هو سعر القالة (لوطورنو وفيكير ، **دراسة غير منشورة حول النساجين** .

(124) بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص. 328 .

يشير بها إلى أكداس الفواكه أو الخضر ؛ ويرفع بإحدى يديه زوجاً من الأساور المعروضة ، بينما تمسك يده الأخرى عنقوداً كاملاً من الأساور المنضّدة في كل أصبع »[125] .

يمرّ نصف الساعة الأولى في هدوء ، إذ لم يحضر الجميع بعدُ ، ولا بد من انتظار استقرار السعر ؛ ثم إنه ، إذا كان اليوم سعيداً ، ارتفعت الأثمان وتوالت الطلبات ، وتكاثرت الشراءات . وشيئاً فشيئاً ينسحب المشترون والبائعون ، ويخفِّف النشاط ، ولم يبق بعدُ سوى المتأخرون وسيئي الحظ أو الخاملين من جانب البائعين ، والمعوزين أو الماكرين من جانب المشترين ، الذين يريدون اغتنام تقلّب الأوقات الأخيرة واحتياج أحد الصناع الفقراء خاصة إلى المال ، الذي لا يستطيع أن يتخلى عن بضعة فلوس للحصول على خبزه اليومي او لشراء المادة الأولية في سوق الغد[126] .

---

(125) نفس المرجع .

(126) وإليكم ما يقوله بوسكي وبيرك (المقال المذكور ، ص. 331) عن سير البيع بسوق السبّاط .

« إن العامل الهام ، في سوق الحذاء (البلغة) هو حضور التجار المصدّرين (التجار المسوّقين) . يجلس هؤلاء في الدكاكين التي لهم معها صلات تجارية .

«والمصدّرون صنفان: الذين يعملون للأسواق القروية المغربية ، والمدن الأخرى ، إلخ . . . والذين يعملون للسينغال . ويشمل نشاطهم جميع أنواع الأحذية ، إلا أنه غير منتظم . فأصحاب السينغال يعملون بطفرات وحسب الفصول . ويشكّل ذلك أحد العناصر الضخمة لحياة سوق الذي لولاه لكانت كئيبة .

« وإذا كان التاجر حاضراً ، فالسعر المقترح من طرف أول صاحب دكان ، يكون عادة مرتفعاً بعض الشيء ، إذ يستوحي طبعاً من السوق الماضية ، مع ميل إلى المبالغة في الحركات التي لاحظ فيها من الميل إلى الارتفاع أو الانخفاض . وهكذا فإن سوق السبّاط ، في مجمله ، يتبع بالنسبة للسعر ، خطاً مقوّساً غير منتظم حقاً ، ولكنه ، بتعاقب ارتفاعاته وانحداراته ، لا يخلو من أن يتراوح ، منذ عقد من السنين ، بين حدود ثابتة بشكل محسوس .

« وحتى في خلال حلقة عندما يشتري شيئاً ما التاجر المصدّر ، فإن سعر الأساس يميل إلى الارتفاع بما يقارب 5 فرنكات للبيعة ، وذلك عظيم إذا نحن راعينا أن امتداد المزايدة ، بالنسبة لنفس البيعة ، لا يتعدى أبداً 15 أو 20 فرنكاً .

« وأخيراً ، بعد ثلاث ساعات تقريباً من النشاط ، والوصول إلى ذروته مع غروب=

ويظهر البيع بالمزاد لمشاهد غير مطلع كأنه ظاهرة رائعة ، لكنها جدّ مربكة . أما الممثلون فيعرف كل واحد منهم دوره ويراه بوضوح .

وقد حُلِّلت الحركة الاقتصادية لهذه البيوع بكثير من التعمق من لدن بوسكي وبيرك في مقالهما المذكور غير ما مرة .

كانت أهمية الزيادات محددة بالعرف بالنسبة لكل بيع بالمزاد : فكانت العملية تتم في سوق السبّاط بقفزات من 0,50 فرنك (حسني) ، وفي سوق الحوت (الشابل) بقفزات من 0,10 فرنك (بليون) ؛ وفي سوق النقرة بقفزات من 0,25 فرنك (قرش) ؛ وفي سوق السبيطريين بقفزات من فرنك واحد (بسيطة) ؛ وفي سوق الخميس بقفزات من 5 فرنكات (ريال)[127] .

ولا بد للغرباء أن يدفعوا الثمن نقداً دائماً ، وتعني كلمة الغرباء لا الغرباء عن المدينة فحسب ، ولكن الغرباء عن السوق ، في مقابل المترددين عليه . ويُسمح بالبيع لهؤلاء إلى أجل ، لكن في حدود ضيّقة بعض الشيء ، فالأجل دائماً قصير جداً ، من يوم واحد إلى ثلاثة أيام ؛ ولا يُسمح بالأجل ، في بعض الأسواق ، كسوق الجلود وسوق الإدام ، إلا بضمان الدلاّل ؛ ويتمّ البيع أخيراً في بعض الأسواق الأخرى ، كسوق الخميس نقداً وجوباً[128] .

ولا يشكّل المبلغ المدفوع للبائع الثمن الكامل للشيء ، إذ لا بد من أن يُقتطع منه « تخفيض ملاطفة »(هـو التخلية) يُمنح تلقائياً للمشتري ، إذا كان « مألوفاً » في السوق ، وكذا أجرة الدلاّل .

وما تخفيض الملاطفة سوى « الحسم » المطبق عند التجار الأوروبيين ؛

= الشمس ، يهدأ السوق . وقد ذهب جلّ التجار بعدما أتموا مدَّخرهم . ولم يبق إلا أصحاب الدكاكين يقومون بشراءات منفردة إن وجدوا منها ما يفيد : وهذه تصفية حقيقية للسوق . وتُخصص الأوقات الأخيرة للحسابات والتصفيفات » .

(127) بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص. 332 .

(128) نفس المرجع ، ص. 332 .

وهو فائدة ممنوحة لـ « أهل الحرفة » تساعدهم على الدفاع عن أنفسهم بشجاعة ضد الغرباء . ويختلف التخفيض بحسب الأسواق ، عملاً بقاعدة تقليدية ، متقلّباً بين دلالة أو أخرى[129] . على أن صاحب الدكان المشتري يتفق أحياناً سرياً مع الدلال للحصول على تخفيض أكثر قليلاً[130] .

وأجرة الدلال محددة مبدئياً حسب العرف في نسبة معينة من سعر البيع (2% بصفة عامة) أو في مبلغ إجمالي لكل قطعة[131] . وفي الواقع فإنه يتغير حسب الكمية المبيعة ، والاتفاقات الخاصة التي قد تحدث بين البائع والدلال ، وجوّ السوق الذي يدعو البائع إلى السخاء أو لا يدعوه[132] . ولا تعرف هذه الأسواق نفس الرواج طوال السنة : وحيث إنها تقام كلها تقريباً في الهواء الطلق ، فإنها رهينة بالأحوال الجوية ، إذ لا ينفعها المطر بشيء ، ولا كذلك الحرارة المفرطة . وهي مرتبطة كذلك بالأعياد : فقد اعتاد أهل فاس ، بمناسبة الأعياد السنوية الكبرى (عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والمولد النبوي ، وعاشوراء[133]) ، أن يجددوا خزانة ملابسهم ويقيموا ولائم وحفلات استقبال ؛ فيعرف إذ ذاك سوق السباط وسوق الحايك نشاطاً كبيراً في الخمسة عشر يوماً التي تسبق الأعياد ؛ سوق السباط حتى ليلة العيد ، وسوق الحايك إلى ما قبل ثمانية أيام أو عشرة ، إذ لا بد أن يسع الوقت المشترين لخياطة ملابسهم . وعلى النقيض من ذلك فإن الأيام التي تتلو الأعياد تكون ميّتة : تنقطع الدلالة نهائياً في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى ولا تُستأنف بعض الحياة إلا بعد مرور سبعة أيام . ويؤثِّر عيد الأضحى (العيد الكبير) تأثيراً واضحاً جداً في بيع الصوف والجلود . فإنه نظراً للعدد الضخم من الغنم المضحى بها في المدينة ، يكون العرض هاماً جداً والأسعار منخفضة ، لا سيما

(129) انظر عند بوسكي وبيرك (المقال المذكور ، ص. 335) جدول البيوع بالمزاد والتخفيضات في أهم دلالات فاس .

(130) نفس المرجع .

(131) في دلالة الخضر يُعطى الأجر عيناً (نفس المرجع ، ص. 335) .

(132) نفس المرجع ، ص. 338 .

(133) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

بخصوص الصوف[134] .

وأخيراً فإن للفصول مضاعفاتها ؛ يكون الصيف مساعداً بصفة عامة للعمليات التجارية : فهو فصل الأعراس في المدينة والبادية على السواء ؛ ومن جهة أخرى يحصل القرويون على المال من غلّتهم ويأتون إلى المدينة لإنفاقه ؛ وأخيراً فهو الوقت الذي يقوم فيه الحضريون بالتزوّد باللحم المصبّر في شهر ماي ، وبالحبوب بعد الحصاد ، وبالزيت في الخريف ؛ ويكثر الصوف بالسوق ابتداء من شهر أبريل . لكن سوق الجلود ، في آخر الصيف ، لا يكون مزدهراً ، لأن البهائم ليست في حالة حسنة آنذاك . وبالتالي ، فمن البديهي أن للوظيفة العامة للبلاد تأثيرها : فحسب وجود السلطان بفاس أو عدم وجوده ، وسيادة الأمن أو عدمه ، وكون السنة الفلاحية حسنة أو سيئة ، تعرف أسواق المدينة الازدهار أو يسودها الركود .

يتضح من كل هذه البيانات أن أسواق فاس تعرف حياة مضطربة جداً وأن مهنة الدلال خاصة ، على بساطتها ، ليست مهنة راحة تامة . فلا شيء في هذا النظام من شأنه أن يخفف من ضربات القدر :فالصدفةوالمضاربة يلعبان فيه أدواراً بحُرّيّة ، وبدون أدنى مُلَطِّف ، والصناع الذين ليسوا مجمّعين حقاً ، ولم يستعملوا قط ـ على ما يبدو ـ القوات الكامنة في طوائف الحرف للحصول على مرتبةأكثر إنصافاً لهم في النظام الاقتصادي للحاضرة ، يتحملون أكثر من نصيبهم في المخاطر التي تعترضهم هكذا .

تمركز الحرف : ـ رأينا سابقاً أنه من الممكن تمييز قطاعات اقتصادية

---

(134) كُييـوو ، ولوطورنو ، وپاي ، **الدباغون** ، ص . 211 ؛ ولوطورنو وڤيكر ، **دراسة غير منشورة حول النساجين** .

(135) في نهاية الخريف والشتاء ، تُقدّر كمية الصوف المبيع يومياً بفاس في 200 أو 300 كلغم . وابتداء من فصل الربيع يمكن أن يصل هذا الرقم إلى طنّين اثنين (لوطورنو وڤيكر ، **دراسة غير منشورة**) .

(136) كُيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، **الدباغون** ، ص. 211 .

بمدينة فاس : ليس لها الشدة ولا الترتيب العزيزان على المهندسين المدنيّين العصريّين ، لكنها موجودة بلا نزاع . ونجد داخل هذه القطاعات أيضاً تجمعاً طوبوغرافياً حسب الحرف : المشّاطون مجموعون في نفس الزقاق الذي يحمل اسمهم ، وكذا الصفّارون ، وصانعو النُّطُق ، والفخّارون الذين يحتلّون حياً كاملاً ، نظراً لحجم معاملهم . وغالباً ما يخضع التجار لهذه القاعدة : فبائعو الأحذية مجتمعون كلهم بسوق السبّاط والعطّارون في زقاق بالقيصرية والجوهريون في زقاق آخر ، وتجار الأقمشة المستوردة في آخر ، وتجار الأقمشة الأهلية بسوق الحايك ، وهلمّ جرّا . وتُثبت أسماء المواقع الجغرافية هذه القاعدة ، إذ هناك العديد من الأزقة أو الساحات التي تحمل اسم نقابة حرفيين ؛ وأحياناً لا يعود الاسم مطابقاً لانتقال نقابة الحرفيين ، لكن الاسم في أغلب الحالات ، ما يزال يدلّ على الواقع . نرى ذلك تقريباً في جميع مدن العالم الإسلامي ، وعلى الأقل في المدن التي حافظت على طابعها التقليدي بكفاية .

إلا أن هذا التمركز ليس مطلقاً وإن كان عامّاً : إن فاساً مدينة أعظم من أن يستطيع جميع الصناع أو التجار المنتمين لنفس الحرفة أن يظلوا دائماً مجتمعين : فعددهم يكون أحياناً مفرطاً ، لكن المدينة على الأخص أكثر إفراطاً في الامتداد ، فيكون من العسير جداً على المستعملين ألّا يجدوا البضاعة التي هم في حاجة إليها سوى في نقطة واحدة من الحاضرة . فتشذّ إذن ثلاثة أصناف حرفية من القاعدة المذكورة ، هي : الحرف الهامة ، التي تضم كل واحدة منها عدة مئات أو عدة آلاف من الأشخاص ، كالدباغين ، والخرّازين ، والنساجين ، والحرف ذات الضرورة الأولية التي نجدها اضطراراً منتشرة في الأحياء الرئيسية ، كالفرّانين ، وبائعي المواد الغذائية ، والحدادين[140] ، والحمالين ، والبيطريين ، إلخ . . ؛

---

(137) انظر ما سبق الكتاب 2 ، الفصلان 3 و 4 .

(138) تلك حالة حي الشرابليين ، حيث لا يكاد يوجد بعدُ صانعو الأحذية المطرّزة .

(139) انظر مثلاً ڤوليرس ، أنطاكية ، ص. 74 ، وصوڤاجي ، حلب ، ص. 220 -225 ؛ وكليرجي ، القاهرة ، جزء 2 ، ص. 139 -152 .

(140) كانوا مجتمعين في البداية ، لكنهم انقسموا إلى ثلاث مجموعات منذ عهد مبكّر ـ على ما=

وأخيراً الحرف التي اضطرت بطبيعتها نفسها إلى التشتت ، كالطحانين ، القائمين على طول مجرى المياه التي تخترق فاساً في الأماكن المواتية لإقامة شلّال ماء .

المحلّات الصناعية والتجارية : - إن المحلّات التي يحتلّها صناع فاس وتجارها أربعة أصناف ، فضلاً عن الإقامات الخاصة لبعض الحرف ، كالدباغين والفخارين ، والنجارين ، والزياتين ، إلخ .

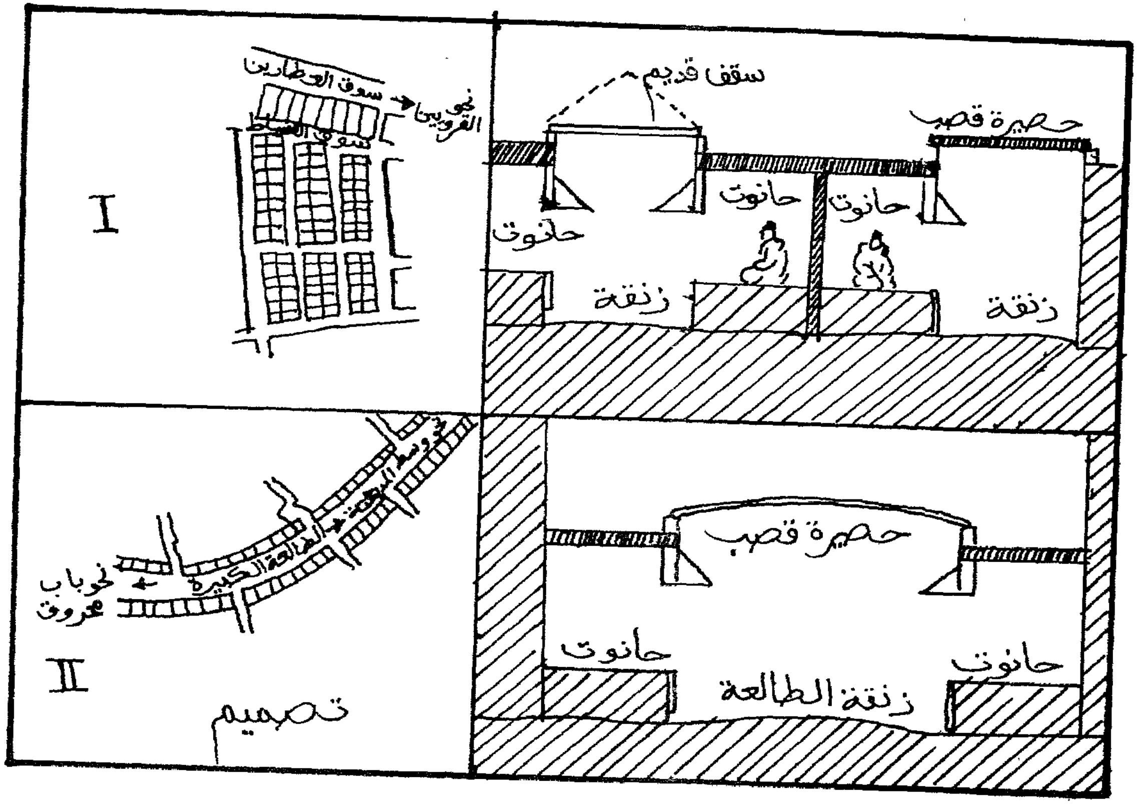
1) **الحانوت** (ج حوانيت) وهو شبه حجيرة متفاوتة السعة[141] توجد تحت عمارة ، أو تستند إلى جدران منازل لا نوافذ لها تحيط بزقاق واسع شيئاً مّا (وتلك هي حالة الدكاكين التي تحيط بزقاق الطالعة الكبيرة القريبة من المدرسة البوعنانية) ، أو تستند كذلك إلى دكان آخر يُطلّ على زقاق موازٍ (وذلك هو الترتيب المتخذ في القيصرية وفي الأسواق المتجاورة)[142]. وكلها مفتوحة إلى الشارع العمومي .

وتكون أرضية الدكان ، بصفة عامة ، على علو نحو 80 سنتيمتراً من الأرض ، بحيث إن التاجر أو الصانع المتربع في دكانه يوجد تقريباً في نفس علوّ المارّة ، وذلك ما يسهّل المحادثات ويجعل الصانع أو صاحب الدكان يتلافى

= يبدو- عندما أدركت المدينة درجة من النمو : انظر ما سبق ، ص. 296 .

(141) كدكاكين سوق السبّاط ، عامة ، 2,50 متر علوّاً ، و 1,50 متر عرضاً ومتران عمقاً (كُيوو ، ولوطورنو ، ورباي ، الإسكافون ، ص. 40) ؛ وهي كبيرة بعض الشيء ، وكثير من دكاكين الصناع أو الباعة الصغار أضيق منها . قارنوها بدكاكين القاهرة ، كما وصفها كليرجي (المرجع المذكور ، جزء 2 ، ص. 318 -319) .

(142) انظر الرسم رقم 23 . وفي هذه الحالة ، غالباً ما يكون الزقاق مظلّلاً بسقيفة من قصب تستند إلى سطح الدكاكين المتقابلة ؛ ويصادف هذا الترتيب كذلك في جميع الأسواق التي لها شيء من الأهمية في أعلى الطالعة الكبيرة وفي سوق الصفّاح ، وفي باب عجيسة ، وفي سوق الرصيف ، وفي سويقة ابن صافي ، وقنطرة بوروس ، وحتى في فاس الجديد ، في الزقاق الكبير . وكانت أزقة القيصرية قديماً مغطاة بسقائف من الخشب ، كأسواق تونس ، (انظر روني - لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 296) . وإثر حريق ، ربما يكون هو الذي نشب عام 1918 ، عُوّضت سقائف خشبية بأخرى من القصب ، كمّا هي في غيرها من الأمكنة .



الرسم 23 هيئة الحوانيت

I . حوانيت مستند بعضها لبعض (القيصرية) . II. حوانيت متقابلة (الطالعة) .

الإزعاج الدائم الذي يحدثه ظلّ المارة أمامه . ولصاحب الدكان حبل مثبت في السقف يتسلّق به دكانه ، ويقع الإقفال بمصراعين خشبيين عموديين مثبتين بقضيب حديدي يُغلق بقفل : وعند فتح الدكان ، يُطبق المصراع السفلي على القاعدة المبنية القائم عليها الدكان ، ويُثبت المصراع العلوي أفقيّاً أو مائلاً شيئاً ما بكُلّاب ، على شكل إفريز .

ونصادف أيضاً دكاكين على مستوى الأرض ، وهي أوسع عموماً من غيرها ؛ ولا يوجد هذا النوع إلا عند الصناع ، كالحدادين مثلاً ، أو الدباغين ، الذين يضطرون أحياناً إلى إنجاز نصف عملهم بالزقاق أو الخروج بكثرة من معملهم . ويحدث في هذه الحالة ، أن تكون الدكاكين منحدرة بعض الشيء عن أرضية الزقاق التي ارتفعت شيئاً فشيئاً عبر القرون .

معظم هذه الدكاكين مُعدَّة بأبسط كيفية : الجدران مطلية بالجير عارية ، باستثناء مكان رفّ ، والأرض مغطاة بحصير ، والسقف ومصاريع الإغلاق من الخشب الموحّد . لكن يسود في القيصرية نوع من الترف : فتغطي الرفوف كل مساحة الجدران تقريباً ، ويُعوَّض الحصير غالباً بزربية ، وقوائم مصاريع الإغلاق مزيّنة بخطوط متوازية محفورة في الخشب[143] ؛ وقد يحدث حتى أن يكون السقف مصبوغاً ، لكنه شيء نادر .

وجلّ دكاكين فاس ملك للأوقاف ، وعلى الأقل من حيث الملكية البارزة . وهي خاضعة نظريّاً إلى الكراء بالمزاد كل سنة لكنها في الواقع لا تنتقل كثيراً من محتلّ إلى آخر ، لأن المكتري المألوف ، في معظم الحالات ، هو المزايد الوحيد ، ولأنه غالباً ما يملك حقوقاً احتياطية جاءت على مرّ العصور لتثقل ملك الحبس وتُؤمِّن لصاحبها انتفاعاً طويل الأمد[144] . كانت أكرية الدكاكين وما زالت

---

(143) قد تكون هذه المصاريع، في مكناس، مزدانة بزخارف ملوّنة على واجتها الخارجية؛ وأما فاس ، فلا تعرف هذا الترف .

(144) أشهرها حقّ الزينة ، وهو حقّ حقيقي يخوِّل ملكية المباني المشيَّدة على أرضية الغير : انظر=

متواضعة : ومن الممكن تقليصها أيضاً إذا كان المكتري يملك حقاً يقلّل من فوائد الأحباس .

٢ ـ الفندق : (ج فنادق) . لقد أُتيحت لي فرصة التحدث عن الفنادق وعلى الأقل عن التي كانت تؤوي الحيوانات والناس عابري السبيل[145] ؛ لكنها ليست الأكثر عدداً ، لأن معظم فنادق فاس مخصصة للصناعة والتجارة ؛ وهي بالتالي مبنية على نفس النمط المعماري كغيرها[146] ، مع فارق بسيط وهو أن الفناء يكاد يكون دائماً أقل مساحة (حيث إنه لا يُستعمل لإيواء الحيوانات) ، وأنها تضمّ في كثير من الأحيان طابقين عوض طابق واحد .

وكما سبق ذكره ، فإن الفناء قد يكون محلاّ للبيوع بالمزاد ، ولا يُستعمل في أغلب الأحيان إلا كمكان للمرور والإيداع المؤقت للسلع التي لم تحلّ بعدُ . ويكتري الحجر المطلّة على الفناء في الطبقة السفلى وأروقة الطوابق العلوية الصنّاع ، خاصة منهم الإسكافون ، أو تجار الجملة أو نصف الجملة ، الذين يضعون بها سلعهم قبل بيعها في المدينة أو تصديرها . وقلّما يتعايش التجار والصناع في فندق واحد ؛ فكل الحجر يحتلها إما تجار أو صناع ؛ وهكذا فإن فندق النجارين مكريّ بكامله للتجار ، كفندق التطوانيين أو فندق القطانين أو الفندق الجديد ؛ وبعكس ذلك لا يؤوي فندق المشاطين أو فندق السبيطريين الآنف الذكر سوى الصناع .

والفنادق ، كالدكاكين ملك للأحباس على العموم ، لكن ، كما هي الحالة بالنسبة للدكاكين أيضاً ، فإن حقوق الأحباس فيها مقيَّدة بحقوق طارئة في ملك الخواص . وتجدر الإشارة إلى أنه ، خلافاً لفنادق القوافل ، فإن الفنادق الصناعية

= كْيور ، ولوطورنو ، وباي ، الدباغون ، ص. 181 ، وپ. ل. ريڤيير ، الوجيز في التشريع المغربي ، ص. 364 .

(145) انظر ما سبق الكتاب 3 ، الفصل 4 .

(146) انظر وصفها الوارد فيما سبق ، ص. 191 .

والتجارية لا تُكترى جملة لمتصرف واحد ، بل تُكرى قطعة قطعة لمحتلّين مختلفين ؛ وقد تحدث حالات إيجار فرعي ، لكنها ليست قاعدة عامة .

ونظراً لتخصص الفنادق ، فإنها لا توجد إلا في الأحياء التي تكون فيها حياة اقتصادية نشيطة : فليس هناك ما يمكن أن يكشف عن توزيع التجارة والصناعة في المدينة القديمة أحسن من تصميم لموقع الفنادق[147] . فلا يوجد منها في الضواحي إلا بالقرب من ثلاثة أبواب رئيسية ، هي باب عجيسة وباب فتوح ، وباب بوجلود ، ولا وجود لواحد منها بجوار الأبواب الثلاثة الأخرى ، الأمر الذي يبرز ضآلة قيمتها الاقتصادية . ثم إننا نشاهد ، في وسط المدينة حول مولاي إدريس والقيصرية ، هالة من الفنادق ، مع كثافة خاصة في حي صاغة الديوان حيث يتجمّع جلّ البائعين بالجملة في المدينة . وتقوم بعض الفنادق صلة وصل بين وسط المدينة والأبواب الرئيسية الثلاثة ، وتتدرّج في اتجاه بوجلود بالقسم الأعلى للطالعة الكبيرة ، حتى قنطرة بوروس ، ويكاد لا يُشاهَد واحد منها بالطالعة الصغيرة[148] . ولا حلّ للتتابع بين باب عجيسة ونواة فنادق الصاغة ، حيث إن الربط يتم في سوق العشابين . وأخيراً ، يبدو لنا من باب فتوح إلى النهر صفّان من الفنادق ، يفضي أحدهما إلى قنطرة الإسكافين ، والآخر إلى قنطرة بين المدن . وفي شَمال جامع الأندلس ، في مصبّ محجّ الكدّان ، ما زالت نواة صغيرة للمستودعات محتفظة بذكرى العهد الذي كان فيه لمدينة العدوة اليمنى حيّها الخاص بالتجارة .

تؤوي الدكاكين والفنادق على السواء صناعاً وتجاراً ، كما رأينا ذلك منذ قليل . وليس نفس الشيء بالنسبة للصنفين الآخرين للأماكن التي بقيت دراستها :

(147) وُضع هذا التصميم عام 1938 : انظر كُي موريزي ، موقع أهمّ الفنادق (الرسم رقم 24) .

(148) لم يكن هذا الفندق مُعدّاً ، في أوائل القرن العشرين ، ولو لمصلحة اقتصادية ، حيث كان يُستعمل كثكنة لطابور شريف . ومنذ الحماية أصبحت الطالعة الصغيرة ، لا سيما في جزئها الأسفل وهو زقاق الحجر ، شارعاً تجارياً ، لكن في نوع خاص وهو أن هناك كان يجتمع بائعو الأشياء المُعدّة للسوّاح .

الأول حصة التجار ، والثاني حصة الصناع .

٣ ـ **دار التجارة** : (دار السلعة) يُسمى هكذا محلّ تجاري يحتله تاجر واحد ، لا عدة تجار كما هو الحال في الفنادق . وهم دائماً بائعون بالجملة هامّون لهم في نفس المحل مكتبهم ومخزنهم ، ولا يمنعهم ذلك من أن يكتروا أيضاً حجرة أو حجرتين في أحد الفنادق . ويتعلق الأمر عادة بمنزل عادي حُوِّل إلى محلّ تجاري(149) ، لا يسكن فيه أحد ، ويقوم بحراسته ليلاً وصيانته أحد زرزاية . وجميع هذه الدور التجارية كائنة في الأحياء التجارية : صاغة الديوان ، والقطانين ؛ ويوجد قليل منها على الضفة اليمنى للنهر .

٤ ـ **المعمل** : (دراز ، ج درازات)(*) يطلق هذا اللفظ ، الذي هو خاص بفاس في الأصل على معامل النساجين وحدها ، لأن هؤلاء الصناع لا يستطيعون العمل في الدكاكين كغيرهم ، نظراً للاتساع الذي يحتاجون إليه لنصب نولهم . وامتد مدلول هذا اللفظ شيئاً فشيئاً ، حتى إن الفاسيين أخذوا منذ زمن قديم يطلقونه على كل محلّ صناعي غير الدكاكين . ويحتلّ النساجون دائماً أكثر عدد من هذه المعامل ، لكن يوجد بها أيضاً الإسكافون بكثرة ويتبعهم صانعو الجلود المصبوغة

(149) إن هذه المنازل التجارية لا تشبه في أي شيء المؤسسات الأوروبية من حيث تنظيمها العام ، بل كان حتى البعض منها يوحي بأنها متاجر أسقاط غير منظمة . وإليكم وصف ميشو ـ بلّير (**محاضرات** ، ص. 320) ، لأحدها ، وهو واقع بين جامع القرويين وزاوية مولاي إدريس في قلب حي تجاري :

« كان ثقباً حالكاً بعض الشيء ، مملوءاً بسلع غريبة أُلقيت بعضها فوق بعض بغير انتظام ، منها أقمشة عادية وبعض القطع من الحرير منبسطة جزئياً ، وعلبات موسيقى ، وساعات حائطية ، وحزامات من الحرير الخام وبعض المناديل ، وحتى لوحات من الشوكولاط وإناءات من المربّب وعطور المانية بخيسة الثمن . كل ذلك يوحي بأنه عرين لمخبّئي الاشياء المسروقة أكثر منه دار تجارة » .

ومنذ بعض سنوات يُشاهَد بالمدينة القديمة تنظيم بعض الدور التجارية من الطراز العصري .

(*) هذه الكلمة العامية مُحرَّفة عن « الطراز » الفصحى التي لها نفس المعنى . وليست خاصة بفاس كما زعم المؤلف (مترجم) .

(بما فيهم صانعو السروج والخرجات والجلود المصبوغة بمعنى الكلمة) .

ويوجد الدراز دائماً في عمارة ذات تخصص تجاري أو صناعي ، ولا يوجد أبداً في منزل مُعدّ للسكنى ، لأن ضجيج الأنوال ، وغناء العمال ومحادثاتهم ، والذهاب والإياب المستمر لهؤلاءوأولئك ،كل ذلك يتنافى مع سير الحياة العائلية عند المغاربة . وغالباً ما يكون في الطابق العلوي للعمارة ، بينما توجد في الطابق السفلي دكاكين أو إصطبلات ، ويُصعد إليه بدرج مستقلّ ، مع باب يفضي إلى الزقاق ويبقى مفتوحاً طوال النهار . ويمكن للمعمل المتفاوت المساحة أن يسع من نولين إلى عشرة ، ونادراً ما يسع أكثر ؛ وأكثرها المعامل ذات ثلاثة مناول أو أربعة . ولا يكون على العموم إلا معلم واحد في كل دراز ، لكن لهذه القاعدة شواذ كثيرة[150] . وإذا شغل الإسكافون أو صانعو الحديد هذه المعامل، فإنها تضم في المعدل ثلاثة أو أربعة معلمين[151] مع كل واحد منهم عاملان أو ثلاثة عمال أو متعلمين ؛ وفي مثل هذه الحالة يكون الأثاث بسيطاً ، مؤلفاً من (قرميل) في ثلاثة أرجل ومقعد صغير من خشب لكل عامل (لأن المتعلمين يجلسون على الأرض إن لم يخرجوا لقضاءالحوائج)وصندوق أو صندوقين من خشب كذلك لكل منشأة ، بالإضافة إلى بعض المسامير المثبتة في الجدران لتعليق المقصات والنماذج من الكاغد المُقَوَّى التي تُستعمل لتفصيل قطع الجلد .

وإذا كان الدراز فسيحاً شيئاً ما ، فإن سقفه يُدعَّم بسوارٍ من آجر مطلي بالجير . ويدخل الضوء من نوافذ مستطيلة بدون زجاج ذات قضبان من حديد ، كنوافذ السجن ، لتفادي السرقات عن طريق التسلق بلا شك : وهذه هي النوافذ الوحيدة التي يمكن مشاهدتها بفاس وهي تطل على الزقاق . وإذا كان الدراز بالطابق السفلي ، فتكون الأرض مبلّطة بالطين المدكوك على العموم ؛ وإذا كان

---

(150) كان الدراز الوحيد بحي المخفية ، قبل الحماية ، محتلاً من طرف خمسة معلمين كانوا يقتسمون بينهم أحد عشر نولاً (معلومة مقتطفة من النائب السابق لرئيس الحي) .

(151) إلاّ أنه يوجد حتى تسعة معلمين إسكافيين، في نفس الدراز (انظر ڭيوو ، ولوطورنو ، وبای ، الإسكافون ، ص. 11 هامش 1) ؛ لكن هذا الرقم شاذّ ونادر جداً .

بالطابق العلوي فتكون الأرض مبلّطة بتربيعات من الخزف الغير المُلمّع .

وكثيراً ما تكون المعامل ، كالدكاكين والفنادق ، ملكا للأحباس ؛ لكن ، سواء أكانت في ملك الأمة الإسلامية أم الخواص ، فإنها تُكرى بنفس الطريقة : يكتريها أحد المعلمين العاملين فيها باسمه ، ويُسدِّد له الباقون قسطاً من المبلغ المدفوع كل سنة ، حسب المكان المحتل[152] .

وكان زرزاية هم الذين يقومون بحراسة الفنادق والمعامل ليلاً . فيؤدي لهم أجرتهم كل واحد من المكترين ، وكانوا يتقاضون على الأكثر ريالاً واحداً في الشهر في دولة مولاي عبد العزيز . وكانت السكنى مضمونة لهم بطبيعة الحال في المحلاّت التي يحرسونها ؛ وبمجرد ما يحضر المكتري صباحاً ، كان الحارس يسلِّم له مفتاح الفندق أو المعامل ويذهب إلى عمله كحمّال .

وتيرة الحياة الاقتصادية : ـ كانت وتيرة الحياة الاقتصادية في القديم خاضعة فقط لتعاقب النهار والليل ، لانعدام الإنارة الاصطناعية ؛ فكان وقت العمل إذن أقل امتداداً في الشتاء منه في الصيف . كان الصناع والتجار يبدؤون عملهم في الصباح الباكر بعد صلاة الصبح ؛ غير أنه لم تكن هناك ساعة مُعيَّنة حتميَّة لا لبداية العمل ولا لنهايته ، إذ لم يكن العمل بالساعة بل بالنهار . وكان العمل يتوقف وقت صلاة الظهر ؛ وكان هذا التوقف قصيراً بالنسبة للصناع ، حيث كان الكثير منهم يتناولون في عين المكان طعاماً بسيطاً ، مفضلين إنهاء عملهم اليومي باكراً شيئاً ما ، بين صلاتي العصر والمغرب . وهكذا كانوا يستطيعون أن يبيعوا ما أنتجوه قبل الليل ، وأن يشتروا بالمال المحصل عليه مواد أولية ليومين أو ثلاثة أيام وما يعيلون به أسرتهم .

وعلى النقيض من ذلك ، كان التجار يغلقون دكاكينهم بين صلاة الظهر والعصر وهو وقت الغداء ، وفي الصيف وقت القيلولة ، حيث لا يكثر العمل . ثم

(152) انظر ڤيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الإسكافون ، ص. 11 ، هامش 1) .

كانوا يستأنفون نشاطهم إلى المساء وحتى إلى الليل ، مستنيرين إذ ذاك بالشمع أو بمصابيح الكربون أو النفط .

وكانت الحياة الفاسية تضطرب كثيراً في شهر رمضان ؛ ونظراً للنشاط الليلي الكثير في هذا الشهر المبارك ، فإن الدكاكين والمصانع كانت لا تُفتح إلا في وقت متأخر في الصباح ؛ فيشتغلون بدون انقطاع حتى قُبَيْل الإفطار ، لكن العضلات كانت متخدّرة والذهن أقلّ اتقاداً مما هو عليه عادة ، لاسيما أثناء الأيام الأولى والأخيرة من الصيام . فكان أصحاب الدكاكين ، وعلى الأقل بائعو المواد الغذائية ، لا يأتون إلى متاجرهم إلا أثناء العشي ، وبالعكس ، كان الزبناء يقصدونهم حتى صلاة العشاء على الأقل .

وكانت الأعياد الدينية (عيد الأضحى ، وعيد الفطر ، والمولد النبوي) تحدث عطلة شبه كاملة لمدة ثلاثة أيام أو أربعة . كما كانوا يعطلون يوم عاشوراء ، ويوم الدخول الرسمي للملك إلى فاس ، ويوماً أو يومين بمناسبة المواسم ، وأيضاً في حالة فتنة أو اضطراب في المدينة (كان إذ ذاك إغلاق الدكاكين والمعامل ردَّ فعل طبيعياً) . وأخيراً ، كثيراً ما كان يتفق ، في فصل الربيع أن أحد المعلمين الذي توفّر له بعض المال يستدعي مستخدميه إلى نزهة في حديقته إن كانت له حديقة ، أو على إحدى الربوات المحيطة بالمدينة ، تحت ظل شجر الزيتون . فكانوا يقضون النهار في شرب الشاي ، وأكل الأطعمة المحمولة إليهم من المنزل ، ورواية الحكايات .

لا صرامة في كل هذا ، ولا قلق يحدثه العمل المدقّق : فالتنظيم العائلي ، وقلّة اتساع المؤسسات يسمحان بمثل هذه المرونة .

* * *

3/5

الفصل الثالث

الصناعة (153)

إن جميع المؤلفين الذين درسوا فاساً في إحدى فترات تاريخها متفقون على إعطاء أهمية كبرى لصناعتها . وسواء تعلق الأمر بصاحب **روض القرطاس** ، أم بليون الإفريقي ومارمول ، أم بأقرب إلينا ككايار أوروني - لوكلير ، فليس هناك صوت نشز ، إذ يعتبرون جميعاً أن الصناعة ، مع التجارة والدراسة ، تُعدُّ من الأنشطة الجوهرية بفاس لا يعطينا أحد منهم أرقاماً دقيقة ، لأن الإحصائيات ، في عهدهم ، كانت شيئاً مجهولاً ؛ ويصعب حتى الآن التعداد المضبوط لعمّال الحرف التقليدية : فانعدام الحالة المدنيّة ، والجمهور المتقلّب للعمّال المُياوِمين والمتعلمين والعدد المهمّ من النساء ، وحتى الرجال ، الذين يعملون في المنازل وليسوا منخرطين ، بمعنى الكلمة ، في طوائف الحرف ، كل ذلك يجعل من المستحيل وضع أي إحصاء مضبوط .

---

(153) انظر عن هذه النقطة : ل. ماسينيون ، **بحث حول طوائف الصناع بالمغرب** ؛وروني - لوڤيلير ، المقال المذكور ، في **إحصاء جماعي** ، سبتمبر 1905 ؛وڤيور، ولوطورنو ، وپاي ، **صناعة الدباغة بفاس** ؛إسكافيو فاس؛ **المجلّدون بفاس** ، **صناعة الفخّار بفاس** ، لوطورنو وڤيكير ، **صناعة الخيط الذهبي بفاس**؛ وپ. ريكار ، **الحرف اليدوية بفاس**؛ وأ. بيل ، **صناعات الخزف بفاس**؛ وج. بيرك **ستتان للعمل الحرفي بفاس**؛ وليون الإفريقي ومارمول ، **المرجعان المذكوران**؛ وكايار، نفس المرجع ؛ **وتقرير إحصائي وتجاري** لنائب القنصل الفرنسي بفاس ، بتاريخ 17 أبريل 1898 (وثائق البعثة - العلمية بالمغرب) .

إلا أن بعض الملاحظين الجيّدين ، يقدِّرون الآن عدد الرجال والنساء الذين يخصصون نشاطهم كلاًّ أو بعضاً للحرف التقليدية[154] بأزيد من 10'000 . وإذا نحن قدّرنا أن كل واحد منهم يعول خمسة أشخاص في المعدل ، أمكننا أن نستخلص بأن ثُلُث سكّان فاس على الأقلّ يعيشون من الحرفية .

قائمة الحرف الصناعية : ـ إنه ليبـدو من البسيط جداً ، لأول وهلة ، وضع قائمة للنشاطات الصناعية بفاس ، إذ يكفي على ما يُظنّ ـ طلبها من المحتسب الذي هو الوصيّ الشرعي على طوائف الحرف ، كما[323] أسلفنا[155] . لكن سرعان ما نتحقق أن المعلومات المُدلَى بها غير ثابتة جداً . وأقتصر كحجة ، على القائمتين اللتين وضعهما پروسبير ريكار[156] وماسينيون[157] في نفس العهد ، وبفارِق بضعة أشهر تقريباً ، حسب مستندات موثوق بها جداً[158] . فالأولى تَعدّ 126 حرفة ، والثانية 161 : وهذا هو أول ريب . ومن جهة أخرى ، فإن هاتين القائمتين تضمان في آن واحد حرفاً صناعية بمعنى الكلمة ، وحرفاً تجارية ، وحرفاً يمكن أن تُدعى « قروية » مثل (البقّارة)[159] أو البستانيّين (جنـاينية)[160] ، وحـرفاً « وسيطة » كحرف النقّالين[161] .

وليس من السهل دائماً التمييز بين مختلف هذه النشاطات ، لا سيما وأن

---

(154) ماسينيون (بحث) يَعدّ منها 9.000 على الأقل وبيرك (سنتان من العمل الحرفي) 10.916 ، وإن كان هذا الرقم لا يُطلق إلا على صناع أهم الطوائف الحرفية . أما الصناعات الصغيرة المتعددة فلم تدخل في هذا الحساب .

(155) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، فصل 1 .

(156) المقال المذكور .

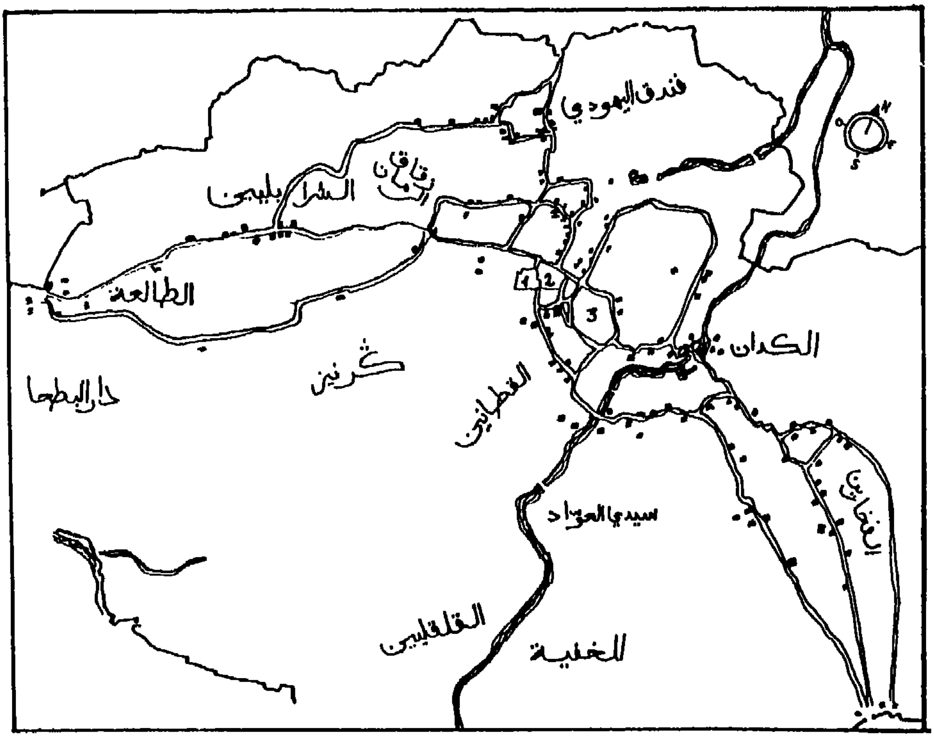
(157) نفس المرجع .

(158) وضعت قائمة السيد ماسينيون حسب وثيقة لمحتسب بعنوان : بيان الحرف والصنائع بفاس ، مؤرخة في 12 ماي 1923 . أما قائمة ريكار فقد « أملاها عليه الفاسيون أنفسهم » .

(159) ماسينيون ، رقم 80 ؛ ريكار ، رقم 15 ، تحت اسم زرايبية .

(160) ماسينيون ، من رقم 84 إلى رقم 97 .

(161) ماسينيون ، من رقم 84 إلى رقم 97 .



الرسم 24

توزيع الفنادق بفاس (حسب تصميم من قياس 1/2.000 وضعه م. كْي موريزي، 1938)

كل فندق مُعلَّم بنقطة سوداء .

1. مولاي إدريس
2. القيصرية
3. القرويين

نفس اللفظ يُستعمل أحياناً في الدلالة على نشاط صناعي ونشاط تجاري في آن واحد ، كلفظ « فخّارين » الذي يُطلق على صانعي الفخّار وبائعيه . وبالعكس ، فإن أهل فاس يستعمون أحياناً ألفاظاً كثيرة لتعيين فوارق دقيقة متنوّعة في نفس الحرفة : وهكذا يطلقون على الفخارين اسم حرّاشة (أي صانعي الفخّار الخشن الغير المُلَمَّع ، بما فيه القنوات ، والجرّات ، والأقداح والأباريق ، إلخ) ، وزلايجيّة (أي صانعي الفخّار المطلي بالميناء المُعدّ للبناء : مربّعات الخزف المُعدّة للقطع ، والقرميد المُلَمَّع ، والآجر المُلَمَّع) ، والطُّلاّية (أي صانعي الفخّار المزخرف) . في حين أن هؤلاء الصناع لا يشكّلون ثلاث طوائف حرف متميزة ، بل إنهم مجتمعون في حي واحد تحت سلطة نفس أمين الحرفة . وعلى العكس من ذلك فإن الدباغين الذين يقول عنهم ب. ريكار إنهم يشكلون مجموعة واحدة[162] منقسمون إلى ثلاثة فروع رئيسية على رأس كل واحد منها رئيس ، وتمارس نشاطات متميزة اللهم إلا بعض الاستثناءات القليلة ، كتهيىء جلود البقر بسيدي موسى ، وجلود الماعز بعين أزليطن ، وجلود الغنم والماعز بشوّارة .

وأخيراً ، فإن بعض الحرف التي تحمل أسماء مختلفة طبقاً لنشاطات متنوعة جداً ، تساهم في الواقع في نفس الدورة الصناعية . وهكذا فإن ناتفي الصوف (اللبّاطة) والطّحانين الذين يسحقون شتى موادّ الدباغة ، لا يمكن فصلهم عن الدبّاغين ؛ ونفس الشيء بالنسبة للطحانين الذين يسحقون موادّ الطلاء بالميناء ، والذين يقطعون تربيعات الخزف (زلايجية) . وبديهي أن صنفي الطحانين الذين ذكرتهم منذ قليل ، إذا كانا يعملان ، من الناحية التقنية ، في نفس الظروف كسائر طحّاني فاس ، فإنهما غريبان عنهم تماماً من الناحية الاقتصادية ، إذ ليس لهما نفس الزبناء ، ولا نفس المصالح ، ولا نفس الدورة العملية .

---

(162) ريكار ، رقم 86 .

يبدو إذن من اللائق ألا نتناول بشكل مماثل الدراستين الممتازتين المذكورتين آنفاً ، لكن ينبغي أن نحاول رسم لوحة إجمالية للصناعة بفاس في خطوط عريضة ، ومجموعات كبيرة ، وذلك ما سبق پروسبير ريكـار أن سطّر خطوطه الرئيسية ، جامعاً الحرف تحت العناوين الآتية : المواد الغذائية (الحبوب والخضر والفواكه ، واللبن ، واللحم ، والسمك ، والإدام ، والتوابل والمواد السكّرية) ؛ وصناعات البناء (الحجر والرخام ، والجير ، والجصّ ، والفخّار ، والخشب) ؛ والنسيج ؛ والجلد ؛ وصناعة السلال والحلفاء ؛ والمعادن ؛ والصحة ؛ والتسليات . وحيث إن الأمر هنا لا يتعلق بالحرف الصناعية ، إذ سيُخصص فصل آخر للحرف التجارية ، فسوف لا أتخذ هذا الترتيب ، وإنما سأتعرض بالتوالي :

1° ـ إلى الحرف الرامية أساساً إلى تأمين حاجيات المدينة ؛

2° ـ إلى الحرف التي تعمل فوق ذلك للتصدير القريب أو البعيد ؛

3° ـ إلى الحرف التي بيد اليهود ؛

4° ـ وأخيراً إلى محاولة « الصناعة الكبرى » التي قام بها مولاي الحسن .

1° ـ الصناعات التي تعمل لفائدة فاس : ـ كان جزء هام من الصناعة الفاسية يخصص نشاطه فعلاً للمدينة نفسها ، فيُؤمِّن للحياة الحضرية حاجياتها الخاصة ، تلك الحاجيات التي لا توجد في البادية حيث يتميز النشاط البشري بكيفية أقلّ تبايناً . وكانت هذه الحرف الحضرية بمعنى الكلمة تُؤمِّن لسكان الحاضرة طعامهم ، وسكناهم ، ولباسهم ، وآلاتهم المنزلية والصناعية . وكانت المواصلات الوقتية والفوائد المحدودة لهذه الأنواع من النشاط تجعل أن شعاعها لا يتعدى أبداً أسوار المدينة إلا في حالات نادرة ؛ وغالباً ما كان هذا الشعاع منحصراً في قسم من المدينة ، بل في حي واحد منها .

صناعات التغذية : ـ كانت صناعات التغذية الأساسية هي الطحانة ، والخبازة وعصر الزيت .

1) كانت الطاحونات موزعة على المدينة كلها ، على طول مختلف فروع النهر ؛ وقد ساعد جداً على إقامتها الانحدار السريع للأرض : فكان ارتفاع ناحية بوجلود قرابة 360 ، بينما يخرج واد زهـون من فاس على بعد كيلومترين بارتفاع قرابة 265 ؛ وهذا هو أعظم فرق في الارتفاع الموجود بالمدينة ، وأقلّه هو الخاص بمجرى الواد الكبير ؛ مع أن باب جديد يقع على ارتفاع 301 ، وقنطرة بين المدن على ارتفاع نحو 270 ، فيكفي إذن القيام بأشغال تمهيدية خفيفة لإقامة عدد هام من الطاحونات ؛ وحسب **روض القرطاس** ، فقد كانت موجودة في القرن الثالث عشر[163] ، وكان ما يزال يُعدّ منها 154 طاحونة سنة 1928[164] ؛ والانحدار قوي ، في مكان بحيّ زقاق الرمان ، لدرجة مكّنت من إقامة طاحونتين واحدة فوق الأخرى[165] . وكان عدد الطحانين (رحويّة) 700 تقريباً، عمالاً ومتعلمين[166]، وينقسمون إلى صنفين :

---

(163) **روض القرطاس** ، النص ، ص. 25 .

(164) بحث مقتضب قدّمه الملازم الترجمان كُيور إلى المؤتمر السابع لمعهد الدراسات العليا المغربية بعنوان : **مذكرات حول الطاحونات المائية بفاس وحرفة الطحانين الـذين يخدمونها** ، دراسة غير منشورة . وحسب دوپيرنييـي (**المرجع المذكور** ، ص. 135) ، كانت 221 طاحونة بفاس عام 1915 ، ويعد منها روني ـ لوكلير (**المقال المذكور** ، ص. 346) ، طاحونة عام 1905 ، وريكار (رقم 3) 200 طاحونة ؛ ويبيّن **التقرير القنصلي** بتاريخ 17 أبريل 1898 ، 165 طاحونة ؛ ويدلي ليون الإفريقي (الجزء 2 ، ص. 88) بما يقرب من 400 طاحونة .

(165) يقول ميشو ـ بلّير ، **الوثائق المغربية** ، جزء 11 ، ص. 302 : « هما طاحونتان مائيتان للقمح ، موضوعة إحداهما فوق الأخرى ، أي أن الواحدة في الطابق السفلي والأخرى في الطابق فوقها . والطاحونتان مستقلتان الواحدة عن الأخرى ، ويُدير كل واحدة منهما مجرى ماء مغاير ، يحرّك الطاحونة السفلى ذراع من النهر يسيل في مستوى الزقاق ؛ ويحرّك الطاحونة العليا ذراع آخر من النهر يأتي من العلوّ ، بفضل تباينات مستوى الأرض. وهذه الطاحونة المعلقة هي الوحيدة من نوعها بفاس » .

(166) كُيور ، نفس المرجع .

« الطرّاحية » أو الطرّاحينية »[167] ، الذين كانوا يشترون أنفسهم القمح ويبيعون الدقيق والنخالة لحسابهم الخاص ؛ وكانوا يملكون98 طاحونة ، مع 150 زوجة من الأرحاء ، و« الطحّانيّين » و« الطحّاينية »[168] ، وكانت لهم 56 طاحونة و 75 زوجة من الأرحاء ، وكانوا يعملون بلا مواد ويتقاضون ، كأجرة النخالة ، مع مثقال لكل مُدّ[169] . وكان الطحن والغربلة يُنجزان بالطاحونة بوسائل بدائية شيئاً ما ، وكانت جودة الدقيق ضعيفة ، وكذا المردودية ، إذ كان معدل المحصول اليومي هو خمسة عشر مُدّاً[170] ، لكن الفاسيين كانوا يكتفون بهذه الأداة رغماً عن عيوبها[171] .

ب) ذكر الخبازة[172] بفاس هو استعمال لفظ غير مناسب . ذلك أن جميع الفاسيين الخليقين بهذا الاسم يعجنون خبزهم في منزلهم ويخبزونه فقط في الخارج . إلا أنه يوجد الخبز الذي يباع في المدينة ، إذ لا بد من مراعاة الرجال المساكين الذين ليسوا متزوجين وليس لهم وقت ولا رغبة بصفة خاصة في صنع خبزهم ، حيث إن صناعة الخبز تُعدّ نشاطاً نسوياً ، لا يعرفه الرجال ولا يتدرّبون عليه عن طيب خاطر . وكان الخبز يباع دائماً لمثل هؤلاء بفاس في الأحياء الدائرية ، قرب الأبواب حيث يجد الغرباء مساكن يأوون إليها . ويصنع هذا الخبز الذي يُباع نساء فقيرات ، وهو سبب يمكّنهن من ربح بضعة

---

(167) ماسينيون ، رقم 98 ؛ وريكار ، رقم 4 .

(168) ماسينيون ، رقم 99 ؛ وريكار ، رقم 4 .

(169) نفس المرجع ، دوبيرنيي ، المرجع المذكور ، ص. 135 -138 ؛ وميشو ـ بلّيـر ، **الوثائق المغربية** ، جزء 11، ص. 316.

(170) دوبيرنيي ، نفس المرجع .

(171) أُقيمت ، منذ الحماية ، عدة طاحونات آلية بالمدينة القديمة ، فضلاً عن مطاحن المدينة الجديدة : وتتحمل الطاحونات المائية بعناء مقاومة هذه المنافسة وتتخلى شيئاً فشيئاً عن الميدان .

(172) هذه نتائج بحث شخصي قمت به في عين المكان في شهر فبراير 1945 . وانظر عن أفران الخبز بالمغرب ، النصّ الحيّ والشيّق جداً لو. مارسي ، **نصوص عربية لطنجة** ، ص. 127 -151 .

فلوس : يعجنّه في منازلهن ويحملنه إلى الفرن وكأنه خبزهن الخاص ، ثم يجلسن في أحد الأزقة المطروقة بجوار باب أو سوق ، يجلسن القرفصاء على الأرض والخبز مرتّب عى لوحة صغيرة أو منديل ، في انتظار المشتري . وتجارتهن حرة ، لكن معظم الخبز الذي يُباع يصنعه الفرّانون[173] الذين يشترون الدقيق ، ويعجنونه بواسطة عمال مختصين (خبّازة) بعجنه ، وكان عدد هؤلاء عشرين سنة 1923[174] ، فيكترون دكاناً أو يتفقون كذلك مع صاحب دكان ليزوّدوه بعدد مُعيَّن من قُرص الخبز في اليوم : ذلك ما يُسمى بخبز السوق ، يزن نحو ست أواقٍ ويسعِّره المحتسب ، ولا يخبز إلا خمسة أيام في الأسبوع : إذ يعطل العمل الزامياً يومي الثلاثاء والسبت . بالإضافة إلى أن رئيس طائفة الحرفة يملك حق طهي خبز الطلبة[175] والمساجين .

ويشكّل الخواص أهمّ زبناء الفرّانين . تهيّء النساء الخبز يومياً ويبعثن به خلال النهار[124] إلى فرن حيّهن[125] ، ثم يرسلن من يأتين به بعد نصف ساعة أو ساعة ونصف حسبما يكون الفرن أكثر أو أقل سخونة . يؤدي الزبناء الثمن يوميّاً أو أسبوعيّاً أو شهريّاً ، حسب نوع مواردهم ، ويتسلّم خادمو الخبّاز

---

(173) ماسينيون ، رقم 102 ، وريكار ، رقم 7 .

(174) ماسينيون ، رقم 103 ، وريكار ، رقم 6 .

(175) انظر ما يأتي ، الكتاب 6 الفصل 1 . أما القصر فكان له فرنه الخاص وخبازوه الخاصون .

(176) عندما يكون الفرن ساخناً ، حوالي منتصف الصبيحة ، ينتشر متعلمو الخباز (الطرّاحة) في أزقة الحيّ وهم يصيحون : «آ العجين! ليخبرُوا الزبناء أن بإمكانهم أن يأتوا » . وعلى العموم ، فالأطفال أو الخدام لكل منزل هم الذين يحملون الخبز وهو مرتّب قرصين أو ثلاثة أقراص على لوحة صغيرة (وصلة) ومغطى بمنديل ؛ غير أنه يُسلم أحياناً لخادمي الخبّاز . ويكون حشد الناس كثيفاً حوالي منتصف النهار : إذ يُشاهَد حتى 50 قرصاً في آن واحد تنتظر دورها ؛ وتكون العشية هي وقت النِّهمين ، لأن الفرن يكون معتدل الحرارة والطهي بطيئاً وسليماً .

(177) يُعدُّ من فرن واحد إلى 4 أفران لكل حي ، حسب كثافة السكان . وكانت في مجموعها 44 فرناً عام 1905 (انظر روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 347) و 61 فرناً عام 1923 (انظر ماسينيون ، القائمة المذكورة ، رقم 102) .

رُبُع قرص أوحتى نصف قرص أحياناً ، عندما يحملون خبز الأسر إلى المنازل . ويتألف مستخدمو الفرن من الرئيس الذي يراقب العمل ، وثلاثة عمال يتولّون ترتيب الخبز وطهيه ، ومن عدد متفاوت من متعلمين ، واحد على الأقل وأربعة على الأكثر ، حسب أهمية الزبناء ويُسْرِهم ، أي ستة أشخاص في المعدل ؛ فكان عدد الفرّانين إذن في أوائل القرن ، بالنسبة للأربعة والأربعين فرناً بالمدينة ، 260 رئيساً ، وعاملاً ومتعلماً ، وغالباً ما كان أصلهم من البادية وخاصة من قبيلة تسول ، شمال تازا .

ج) إن نواحي التلال الممتدة جنوباً ولا سيما شمال فاس (لمطة ، ونواحي سبو و ورغة ،إلخ) . مكسوّة بشجر الزيتون : يُعصر قسم من المحصول في عين المكان في معاصر عتيقة ذات لوالب خشبية ، لكن الفاسيين وهم أناس مهذّبون ، لا يحبون أبداً هذا الزيت الخشن ، فسرعان ما أقاموا في المدينة ذاتها معاصر كان فيها العمل أكثر إتقاناً[178] .

وكانت هذه المعاصر نحو الأربعين عام 1903[179] ، مجموعة حول البابين الذين كان يدخل منهما الزيتون : باب عجيسة وباب فتوح ، بأوفر كمية ، وغربيّ باب عجيسة ، على طول الدرب العامر ، كمعصرة « أولاد الحاج الطاهر » التي وصفها ميشو ـ بلّير[128] . وكان العمال (المعاصريّة) ،

---

(178) انظر عن معاصر فاس ، ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص. 291 وما بعدها ؛ وبيل صناعة زيت الزيتون بفاس وناحيتها ؛ودوبيريني، المرجع المذكور ص. 141 -143 ؛ وبول جوگان ، معاصر فاس ؛ وريكار ، رقم 32 ؛ وماسينيون رقم 82 .

(179) أوبان المرجع المذكور ، ولايبيّن منها التقرير القنصلي بتاريخ 17 أبريل 1898 سوى 20 . ويبدو هذا الرقم متواضعاً جداً .

(180) المرجع المذكور . وفي 1938 ، كانت تشتغل 33 معصرة بالمدينة بفاس ؛ 19 منها مجهزة بمعاصر مائية حديثة ذات محرّك كهربائي و 14 أخرى احتفظت بآلاتها التقليدية ؛ ولم يتغير التوزيع الجغرافي : 21 معصرة قرب باب عجيسة وزريبة الخشب ، حيث يُقام بيع الزيتون ؛ 12 أخرى بضواحي باب فتوح ، لكنها أكثر تقريباً من سابقاتها . انظر جوگان ، المقال المذكور ، مع تصميم لتوزيع المعامل .

وما يزالون كلهم جبليّين تقريباً ، منتمين خاصة إلى قبيلة بني حسان ، قرب تطوان[181] ؛ وكان منهم في كل معمل أربعة أو خمسة ، غالباً ما يسكنون في عين المكان ، أي نحو 180 إلى 200 عامل في المجموع ، يشتغلون السنة كلها تقريباً ، لأن الزيتون كان يُملَّح ويُخزن ولم يكن أي فراغ من محصول إلى محصول آخر .

وفضلاً عن هذه الصناعات الأولية ، يمكن أن يُضاف إلى هذه القائمة عدد من الحرف المخصصة لتغذية أهل فاس التي تتطلب شيئاً من التقنية ، دون أن تكتسي طابعاً صناعياً حقاً ، ويمكنها بذلك أن تُدرج في الصنف الذي يهمنا حاليّاً .

يأتي في الطليعة الجزّارون ، وعددهم 150[182] يوجد معظمهم بزقاق في المنطقة المركزية للتجارة بحيّ الصاغة[183] ؛ لكن للحرفة ملحقات في أهمّ الأسواق الثانوية بالمدينة[184] ، أي : الطالعة ، والصفّاح ، والنخّالين ، وفاس الجديد إلخ . يشترون حيواناتهم من سوق الخميس ، ويذبحونها في أحد مجازر المدينة ، إما قرب قنطرة بين المدن ، وإما قرب باب محروق ؛ ويتسلم أصحاب المجازر كتعويض لهم فضلات البهائم ، وخاصة منها الجلود . واللحوم المستهلكة بفاس هي لحوم الغنم ، والبقر ، وبعدها لحوم الإبل والماعز[185] .

ويتصل بالجزارين مباشرة المتخصصون الذين يهيئون في كل فصل

---

(181) ميشو - بلّير ، المرجع المذكور ؛ وبيل ، المرجع المذكور ؛ ومارتان ، الكدّان ، ص. 624 .

(182) تقرير إحصائي وتجاري بتاريخ 17 أبريل 1898 .

(183) انظر ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 93-94 . وكان الجزارون في ذلك العهد ، يحتلّون قرابة أربعين دكاناً ، ولم يتغيّر عددهم . وكانت مجزرة موجودة آنذاك بقنيطرة بين المدن .

(184) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

(185) أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 303 . ويلاحظ وجود جزارين يهود لهم مجزرة خاصة خارج سور الملاح ، قرب المقبرة الجديدة ، حتى تحترم بدقة في هذا الميدان تعاليم الشريعة الموسوية .

ربيع ، اللحوم المحفوظة التي ما زالت لحدّ الآن الأسر الفاسية ذات الشأن تدّخر منها كمية وافرة للشتاء ؛ وبالأحرى كانت تقوم بذلك في وقت لم يكن فيه تموين المدينة منتظماً باستمرار ، إما بسبب الطقس ، أو من جراء ظروف سياسية . وكان هؤلاء المتخصصون عمّالاً فصليّين يزاولون كلهم حرفة أخرى ، كدبّاغ مثلاً أو جزّار . كانوا يُسمّون « خلاّعة »[186] ويعرضون خدماتهم على الناس الذين يشترون حيوانات للذبح بسوق الخميس[187] .

ويجب أخيراً أن نذكر مجموعة مُحضِّري المأكولات الذين يشتغلون لإطعام عابري السبيل أو الغرباء المقيمين بهذه المدينة الخالية من المطاعم[188] . من أمثال بائعي الفول المشويّ والأطعمة الساخنة التي تؤكل في عين المكان (الفوّالة)[189] ، ومُقطّعي اللحم (الدقّاقين)[190] ، وبائعي قضبان الكبد (كبايدية[191]) ، والكفتة المشويّة (كفايتية)[192] ، وطهارة رؤوس الغنم (رُوّاسة)[193] ، والحوت (قلاّيين الحوت)[194] . وكان لبائعي الإسفنج (سفّاجة أو سفايجية)[195] زبناء أكثر عدداً من سابقيهم ، لأن البورجوازيين الفاسيين كانوا لا يأنفون من شراء هذا الطعام الذي لم يكن يُحضّر بالمنزل ؛ ونفس الشيء بالنسبة لصانعي الحلويات (حلوية)[195] الذين كانوا

(186) ماسينيون ، رقم 115 ؛ وريكار ، رقم 25 .

(187) ڭيور ، ولوطورنو ، ورپاي ، **الدباغون** ، ص. 228 .

(188) انظر ما سبق الكتاب 2 ، الفصل 6 .

(189) ماسينيون ، رقم 118 ؛ وريكار ، رقم 14 .

(190) ماسينيون رقم 116 ؛ وريكار ، رقم 20 .

(191) ماسينيون رقم 114 ؛ وريكار ، رقم21 .

(192) ماسينيون ، رقم 113 ؛ وريكار ، رقم 23 . انظر أيضاً كولڤي (المرجع المذكور ، ص. 156) : « تكتنف هذه الدكاكين الزقاق من جانبيه على مسافة نحو ربع ميل وتفوح منه رائحة قضبان اللحم المشوي » . ويتعلق الأمر بدرب الرصيف المحاذي للواد على الضفة اليسرى ، بين جامع الرصيف ورحبة التبن .

(193) ماسينيون ، رقم 117 ؛ وريكار ، رقم22 .

(194) ماسينيون ، رقم 79 ؛ وريكار ، رقم 28 .

(195) ماسينيون ، رقم 104 ؛ وريكار رقم 8 .

يطوفون في الأزقة وشريط الحلوى ملفوف حول قضيب . وأخيراً ، كان الحلوانيون (معلّمين كعب غزال)[196] يحضّرون للأعياد ، والاستقبالات الرسمية ، وحفلات الشاي ، حلويات ممتازة ، وكان زبناؤهم من الطبقة الفاسية الموسرة .

صناعات البناء : - تتحتّم إشارة أولية في هذا الصدد ، وهي أن الفاسيين ، على غرار سكان المغرب العربي عامة ، قبل مجيء الفرنسيين ، كانوا يتخذون طرقاً للبناء مخالفة تماماً لطرقنا . فليس عندهم مقاولون ، ولا مهندس معماري بالأحرى ، ما عدا فيما يخص المباني العمومية ، حيث كان المخزن يستحضر بعض الإخصائيين (مهندسين) الذين كانوا يحسنون وضع تصميم وإقامة بنايات هامة ، بمساعدة مقاول حقيقي (معلّم كبير) يشرف على الأشغال ويتكفل بتقديم مواد البناء . فكان[198] كل فاسي يريد البناء يتصل هو نفسه بمختلف أصحاب الحرف الضرورية ، متفاوضاً معهم مباشرة في شأن شراء المواد والأعمال التي ستُنجز ؛ وكثيراً ما كان يذهب إلى مكان الاستئجار (الموقف) لاستخدام العمّال البدويين الذين يحتاج إليهم . وكان المستشارون التقنيون هم المعلّم البنّاء والمعلّم النجّار الذان كانا ينجزان معاً أهم الأشغال . فنحن إذن لسنا أمام نقابات حرفيين - كما هو الشأن بأوروبا - متينة الالتحام بعمل المهندسين المعماريين والمقاولين ، لكن أمام صناعات تعمل ضمن نظام متفرق لا رابط بينهما سوى علاقاتها الشخصية .

ويجدر التمييز بين مختلف طوائف البناء ، إذ بعضها يقدِّم المواد فقط ، وبعضها الآخر يستعملها .

---

(196) ماسينيون ، رقم 104 ؛وريكار ، رقم 37 .

(197) تدل عبارة « كعب غزال » على عرقوب الغزال ويتعلّق الأمر بحلويات مصنوعة من عجين اللوز ، على شكل هلال . ماسينيون ، رقم 68 ؛وريكار، رقم 9 .

(198) دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 152 . وبدأ الفاسيون الموسرون الآن يتصلون بمهندسين معماريين أوروبيين ، ولو ليطلبوا منهم رسم التصميم المفروض من لدن المصالح البلدية لتُسلِم لهم رخصة البناء ؛ أما المقاولون فما زالوا غير معروفين .

١) ويمكن أن نذكر أولاً ، من جملة الطائفة الأولى ، صَانعي الآجر (لواجريين) ، إذ إن الآجر هو المادة الأساسية المستعملة بفاس لتشييد المباني[199] . وتقام هذه الصناعة ـ وهو شيء نادر ـ خارج المدينة جنوبيّ فاس الجديد والملاّح ، قرب مقالع الطين بظهر المهراس[200] ، وذلك منذ قرون ، إذا صدّقنا الرواية الشعبية ، مع أنه لم يذكرها لا ليون الإفريقي ، ولا مارمول . وكان هناك ، سنة 1934 ، 9 معلمين للآجر يقتسمون 16 فرناً ويستخدمون حوالي أربعين عاملاً ، جلّهم غرباء عن فاس ويعيشون في فاس الجديد ، لا في المدينة . كما أن عدداً من الفخارين يصنعون أيضاً الآجر في أوقات فراغهم أو عندما يكون يكثر الطلب . ولا يكتفي هؤلاء الفخارون ، وكلهم مقيمون جنباً إلى جنب في الحي الذي يحمل اسمهم[201] ، بتزويد مَنْ يقومون بالبناء بالآجر العادي ؛ فبعضهم (الـزلايجيـة)[202] يمدونهم كذلك بالقرميد المحدودب (القرمود) والآجر المُلَمَّع (بجمات) ، وبآجر العتبة أو درجات السلم (حصار) ، وأخيراً بمربعات الخزف (الزلّـيج ، ج ، زلايج) التي تشكل ، عندما تقطّع وتجمّع زخارف الفسيفساء العديدة بفاس ، وهي أحد مفاتن المدينة ؛ وينتج البعض الآخر (الحرّاشة)[203] عناصر الفخار التي تصنع منها القنوات العمومية والخصوصية (قادوس ، ج قواديس) . فإذا كان الزلايجية ، وعددهم نحو الستين عاملاً ، يخصصون تقريباً كل نشاطهم لصناعة الأشياء التي ذُكرت منذ قريب ، فإن الحرّاشة يصنعون هم الآخرون آنية المنزل : وسأتحدث عنهم من وجهة النظر هذه .

---

(199) انظر عن صانعي الآجر بفاس ، ا. بيل ، **صناعات الخزف بفاس**؛ وڤيوو ، ولوطورنو ، وبِاي ، **فخارو فاس** ، بحث غير منشور (1934) . ولا يعرف بفاس الطوب المستعمل بكثرة في شمال إفريقيا وخاصة في جنوب المغرب .

(200) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 .

(201) نفس المرجع .

(202) ريكار ، رقم 52 ؛ وماسينيون ، رقم 38 (تحت اسم « صنّاع الزلّيج ») .

(203) ماسينيون ، رقم 41 ؛ وريكار ، رقم53 .

ويأتي بعد ذلك صانعو الجير (الجيّـارة)[204] وأصحاب المقلع الذين يستخرجون حجارة الجير (فصّالـة)[205] والمقالع والأفران في مستوى واحد ، وتوجد في منحدر الربوات المحيطة بالمدينة شمالاً ، فوق قصبة الشراردة ، وفي سفح كدية بني مرين[206] .

وكان خشب هيكل البناء يعدّه النشارون طولاً (النـشّـارة)[207] المقيمون في ضواحي باب عجيسة ، قرب سوق الخشب الذي يقام بزريبة الخشب ، داخل الأسوار وشرقي باب عجيسة[208] . وكان الخشب المخروط المستعمل

---

(204) ريكار ، رقم 43 ؛ وماسينيون رقم ، 36 ، (تحت اسم « صناع الجير ») .

(205) ماسينيون ، رقم 43 ؛ وريكار ، رقم 44 .

(206) انظر مـا سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 . كان قبل الحماية ما يقرب من خمسة عشر فرناً للجير (وقد أُنشئ واحد فقط ، منذئذ ، من لدن جزائري ، بين مستشفى كوكار الحالي وبرج الشمال) . وكان يشتغل في كل واحد منها ثلاثة عمال على الأقل : النقال الذي كان يحمل الحجر إلى الفرن ، والسخان ، الذي كان يعمر الفرن ، وأخيراً الحراق أو الوقاد ، الذي كان يراقب طبخ الجير . وكان هؤلاء العمال يتقاضون أجرة يومية تتراوح ـ قُبَيْل الحماية ـ بين بسيطة واحدة وبسيطة ونصف . ولم تكن الأجرة اليومية قبل ذلك تزيد على مثقال واحد . وكان عدد مقاولي المقالع حوالي عشرة على الأكثر يستعملون من 70 إلى 80 عاملاً . كانوا يكترون من الأوقاف أو من بعض الخواص ؛ وكان بعضهم يملك المقلع الذي يستغله . وكانت جميع المقالع شمالي المدينة ، بين برج الشمال شرقاً ومصلى السلطان غرباً وأهمها وأقدمها استغلالاً كانت شمال ـ غربي قصبة الشراردة . وكانت تعرف باسم حفرة مولاي إدريس . وكانت أخرى في شمال باب محروق تدعى المقطع ويستخرج منها حجر البناء ، والرمل ، وحجر الجير .

(207) ماسينيون ، رقم ، 27 ؛ وريكار ، رقم 56 .

(208) كانت المناشر ، في القرن السادس عشر ، توجد بحي العدوة (انظر ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 109 ؛ ومارمول الكتاب 2 ، ص. 169) . وهذا شيء طبيعي أكثر نظراً لكون خشب الأرز ، الأكثر استغلالاً بفاس ، كان يأتي من الأطلس المتوسط ويدخل عادة إلى فاس من باب فتوح .

وكان النشارون طولاً يشكلون طائفة حرفية ، على رأسها أمين . كانوا يجلسون عادة في ساحة النجارين في انتظار الزبون ؛ وقبل ذهابهم إلى العمل كانوا يناقشون ثمن الخدمة . وكان كل منشار يحركه عاملاّن . وكان في المدينة كلها من خمسة عشر إلى عشرين زوجاً=

في البناء على شكل شبابيك (وهي حقّاً نادرة نسبيا بفاس) ، من صنع الخرّاطين (الخرّاطة)[209] .

وكان جميع حديد البناء يأتي من الحدادين (الحدّادة)[210] ، الموزعين إلى ثلاث مجموعات رئيسية ، الأولى بجانب الطالعة الكبيرة ، في عالية قنطرة بوروس ، والثانية بعين علّو[211] ، والثالثة على الضفة اليمنى للنهر ، في المكان المدعو النخالين[212] . وحسب التقرير القنصلي الآنف الذكر ، كان عدد المعلمين الحدادين 50 ، سنة 1898 . وكانت الأقفال أيضاً من صنعهم ، عندما يتعلق الأمر بأقفال حديدية ؛ لكن كان يوجد كذلك بفاس في أبواب كثير من المعامل ، والإصطبلات ، والخربات ، القفل البربري القديم من الخشب ، الذي يهيئه صناع متخصصون ، ويصنعون كذلك للطاحونات عجلاتها المائية[213] : وكانوا يُسمّون « بلّاجة » أو « بلّاجين »[214] .

وأخيراً ، كان الرخام يستعمل لتبليط الصحون ، أو لصنع خصّات الصحون والحَدائق ، ومشابات الأحواض ، ومصافي البرك ، يخدمه « الرخايمية » ، أي الرخّامون[215] . وكان عدد هؤلاء الصناع قليلاً ، لأن

= من النشارين . ولم تكن هذه المهنة تشغل صاحبها طوال النهار ولا طوال السنة ؛ لذلك لم يكن النشارون طولاً يزاولون هذا النشاط إلاحسبالصدفة، وكانت لهم دائماً حرفة أكثر استقراراً ؛ ويعمل معظمهم بالمعاصر (هم الجبليون) ، وانضم إليهم بعد ذلك الفيلاليون . إلاّ أنه اتفق في وقت ما أن تكاثر الشغل فتدخل المحتسب لتأمين اليد العاملة المنتظمة للزبناء . وقد قضت المناشر الآلية على هذه الحرفة .

(209) ماسينيون ، رقم 127 ؛وريكار ، رقم 59 .

(210) ماسينيون ، رقم 24 ؛وريكار ، رقم 99 .

(211) ميشو ، بلّير ، وصف فاس ، ص. 306 .

(212) انظر الكتاب 2 ، الفصل 4 .

(213) مارتان ، الكذّان ، ص. 636 .

(214) 1) ريكار ، رقم 63 ؛وماسينيون ، رقم 127 .

(215) ريكار ، رقم 42 ؛وماسينيون ، رقم 39 ، تحت اسم « صنّاع الرخام » . .

الكثير من القطع الرخامية كانت تُستورد جاهزة من إيطاليا .

ب) وحسب أوبان[216] ، فإن جماعات الحرف التي تستعمل المواد التي يقدمها الصناع السابقون ، ست جماعات : « البناؤون والفسيفسائيون ، ورسامو الخزف والجباصون والنجارون والصباغون » . وينقص في هذا العدّ على الأقل دكّاكو السطوح (الركّازة أو الكّصّاصَة) ، وكذا حافرو الآبار (بيّارة)[217] الذين تكون الحاجة إليهم بفاس أقل من غيرها من المدن ، بسبب كثرة المياه الجارية ، لكنهم يُستعملون في بعض الأحياء وبعض البساتين . ويجب بالتالي تحليل ألفاظ هذه القائمة لاستكشاف الحقيقة التي تكنّها .

البنّاؤون (البنّاية)[218] مؤلفون من مجموعات صغيرة يدير كل واحدة منها معلم بنّاء : بعضهم متخصصون في دكّ الجدران المبنية بالآجر ، ويُسمَّون إذ ذاك « موالين الطوبية »[219] ، وكلهم تقريباً من فيكْيك ولم أجد ، فيما يخص عددهم ، إلا بياناً جزئياً يدلي به **التقرير الإحصائي والتجاري** بتاريخ 17 أبريل 1898[220] ؛ وكان عدد المعلمين البنّائين بفاس ، في ذلك العهد ، حوالي 150 .

وعندما يتم تشييد الدار، يفرغ البناؤون المكان للركّازة[221] الذين يدكّون سطح الدار بمـدكّات خفيفـة جداً وهم في حـركاتهم يتـرنمون

(216) المرجع المذكور ، ص. 310 .

(217) ماسينيون ، رقم ، 49 .

(218) ريكار ، رقم ، 39 ؛وماسينيون رقم 42 ؛ انظر أيضاً روني ـ لوكلير ، **المقال المذكور** ،ص. 344 .

(219) ريكار ، رقم ، 40 ؛وماسينيون ، رقم 43 ، تحت اسم « لوّاحة » .

(220) سبق ذكره .

(221) كان عددهم 50 عام 1898 ، حسب التقرير الآنف الذكر .

ترنماً[222] ، وعندما ينتهي البناء ، يأتي الجبّاصون (كْبّاصة)[223] لطلاء الجدران والسطوح .

ويجب أن نميز من بين النجّارين ، من هم عاديون (نجّارة رقايقية) الذين يصنعون أموراً دقيقة بسوق النجّارين قرب الفندق الذي يحمل هذا الاسم ، ونجاري البناء (نجّارة شغايلية)[224] الذين يصنعون ويركبون جوائز السقوف ، والأبواب ، والنوافذ ، ودرابزين الشرفات ، قائمين مع البنائين ، مقام أرباب عمل ، لكنهم بخلاف زملائهم ، فاسيّو الأصل في الغالب .

وتتألف طوائف حرفة البناء الأخرى من طوائف الصناع : الفسيفسائيون (الزلايجية)[225] ، والنحّاتون على الجبص (زوّاقة الكْبص)[226] ، والنحّاتون على الخشب والرسّامون (الزوّاقة)[227] وهم الذين تضفي زخارفهم المعقدة والخفيّة في آن واحد على المنزل الفاسي أو المباني العمومية للمدينة رونقها المشهور عن جدارة المطابقة دائماً لتقاليد عريقة من أصل أندلسي على ما يُحتمل . وكلهم من أرومة فاسية عريقة[228] . وسواء نقشوا الجص أو قطعوا تربيعات الخزف ، فمهارتهم اليدوية كبيرة جداً ، ولا يمكن أن يقال نفس الشيء عن مخيّلتهم الخلاّقة ، إذ يقتصرون على نقل النماذج القديمة بلا تعب ، دون أن يضيفوا إليها أي شيء جديد ؛ وقد مضى عهد

---

(222) دو پيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 156 .

(223) ريكار ، رقم ، 59 ؛ وماسينيون ، رقم 31 ، تحت اسم « كْبّاصة » أو « بيّاضة » . وحسب التقرير الإحصائي والتجاري الآنف الذكر ، كان 100 معلم جبّاص بفاس عام 1898 .

(224) ريكار ، رقم ، 57 ؛ وماسينيون ، رقما 25 - 26 .

(225) ريكار ، رقم 52 ؛ وماسينيون ، رقم 48 .

(226) ريكار ، رقم ، 50 ، تحت اسم « زوّاقة الكْبص » ؛ وماسينيون ، رقم 31 .

(227) ريكار ، رقم ، 60 ؛ وماسينيون رقم 30. وكانت هذه الطائفة الحرفية تضم 12 معلماً سنة 1898 . (التقرير المذكور) .

(228) كانت هذه الحرف الفنية على وشك الاندثار سنة 1912 ، وقد أحيتها مصلحة الفنون الأهلية عندما أُسندت إليها زخرفة المباني العمومية ؛ واتبع الخواص هذه البادرة الحسنة .

طويل منذ أن انقطعوا عن أن يكونوا مبدعين وفنّانين حقيقيّين . إلا أن أعمالهم ، ولو أنها حُرمت لَمَعان الابتكار ، فإنها تكتسي روعة الأشياء القديمة الرفيعة . ولم تقتصر شهرتهم على فاس ، بل كثيراً ما يلجأ السلطان أو أحد أعيان مدينة مغربية كبيرة إلى مهارتهم .

صناعات الملابس : - لن أتعرض هنا إلى الصناع الذين ينتجون المواد الأولية الضرورية للملابس ، كالنساجين ، والدباغين ، والصباغين ؛ وحيث إن هذه الصناعات تعمل أيضاً للتصدير ، فسنجدها بعد قليل ، فيما يأتي ؛ وسأترك لنفس السبب الإسكافين جانباً بصفة مؤقتة . لذلك يتعلق الأمر هنا بالصناعات التي لا تتجاوز منتجاتها أسوار فاس إلا نادراً .

ا) تصنع بعض هذه الطوائف الحرفية الملابس بمعنى الكلمة، وتأتي على رأسها حرفة الخياطين[229] التي كانت تضم 50 معلماً سنة 1898[230] ، موزعين هنا وهناك في المدينة ؛ ولم يكن يعمل معهم سوى واحد وثلاثة أو أربعة أطفال (لا نجرؤ على أن ندعوهم متعلمين) يشبكون الخيوط ، ويهيؤون المكبّات أو يقضون بعض المآرب الصغيرة . ولا يستطيع أحد أن يصبح معلماً ما لم يقدم ضامناً يشهد أمام العدول بأنه كفيل بضمان الخيّاط الجديد .

وكان هؤلاء الخياطون المسلمون متخصصين في صنع الثياب من القماش المصنوع محلياً ، وكذا القفاطين ؛ أما جميع قطع اللباس المصنوعة من الجوخ المستورد فكانت من صنع خيّاطين يهود سأعود لأتحدث عنهم بصدد الصناع الإسرائيليين .

وكانت عدة طوائف حرفية أخرى تُمِدُّ الفاسيين أو الخياطين بشتى لوازم

---

(229) ريكار، رقم 84؛ وماسينيون، رقم 75 ؛ انظر أيضاً روني - لوكلير، المقال المذكور، ص. 342 .

(230) التقرير المذكور.

اللباس : فهناك القيطانيون (المجادلية)[231] المجتمعون في ضواحي مولاي إدريس ، وكان عددهم 40 سنة 1898[232] ، وصانعو النطُق (المضايمية)[233] وعددهم 20[234] ، وكلهم مجتمعون بجوار سوق الشمّاعين .

ب) وكانت القلنسوات من عمل (صانعي الشواشي)[235] : وهي إما قلنسوات صلبة ومخروطية الجذع (طربوش) ، أو قلنسوات مستدقة الرأس لأصحاب المخزن (شاشية) . وكان لهؤلاء الصناع مجموعة آلات عتيقة وغريبة جداً[236] لكن عددهم سنة 1898[237] لم يكن إلا نحو عشرة ، إذ أصبحت المنافسة الأوروبية منذ ذلك العهد ، تضايقهم جداً .

ج) سوف لا أقول الآن شيئاً عن الخرازين ؛ لكنهم لم يكونوا الصناع الوحيدين الذين يحذون الفاسيين إذ يوجد بعض الإسكافين المتخصصين في صنع الأحذية السوداء (ريحية أوريحية كحلا) التي كانت سيدات فاس ينتعلنها للسير في المدينة[238] . وكانوا أيام الحماية بمحج القطانين وهم زهاء

---

(231) ريكار ، رقم 82 ؛ وماسينيون ، رقم 18 ؛ انظر مارمول ، الجزء 2 ، ص. 162؛ وليون الإفريقي الجزء 2 ، ص. 99 .

(232) المرجع المذكور . وحسب مارمول كان القيطانيون يحتلّون زقاقين بالقيصرية ، كما هو الحال اليوم ؛ وحسب ليون الإفريقي ، كانوا يشكّلون مع تجار الحرير مجموعة من نحو خمسين دكاناً .

(233) ريكار ، رقم 83 ؛ وماسينيون ، رقم 9 .

(234) التقرير المذكور .

(235) ريكار ، رقم 72 ؛ وماسينيون ، رقم 64 ، تحت اسم « صناع الشواشي والطرابيش » .

(236) ريكار ، المرجع المذكور ، ص. 217 .

(237) التقرير المذكور . ومنذ الحماية ، توقفت نهائياً هذه الصناعة بفاس ، حيث أصبحت الشواشي والطرابيش تستورد من فرنسا . ولما توقف هذا الاستيراد في نوفمبر 1942، شوهد تكاثر قبعات غريبة على رأس الشباب الفاسي ، لأن الشيوخ ، كغيرهم في كل مكان ، كانوا محافظين .

(238) ماسينيون ، رقم 14 ؛ أما ريكار فلا يذكرها ؛ انظر كيور ، ولوطورنو ، وباي ، الإسكافون ، ص. 30.

اثني عشر معلماً .

وكان صناع آخرون ، وعددهم 13 سنة 1898 [239] ، يصنعون نعالاً عالية من خشب (قبقاب ، ج قباقب)[240] كان الفاسيون ينتعلونها عندما يكون الطقس رديئاً والأزقة كثيرة الوحل ، وكذلك عند السير على أرضية الحمّامات المبلّلة دائماً ، أو تجعلها الخادمات في أرجلهن ، عندما كنّ يغسلن أفنية المنازل بالماء الغزير. لا تدوم الأحذية (البلاغي) طويلاً في أزقة فاس المحصبّة ، فكان ، الأمر يتطلب إصلاحها في غالب الأحيان : ذلك كان عمل الطرّافين (الطّرافة أو الشرابليين)[241] . وكان عدد هؤلاء الصناع المتواضعين حوالي مائة[242] يعمل نصفهم في دكاكين موزعة في ثلاث مجموعات ، أكثرها عدداً بالشرابليين ، على جانبي شارع الطالعة الكبيرة ؛ ومجموعة ثانية بقنطرة سيدي العوّاد ، المسمّاة أيضاً قنطرة الطرّافين : وفعلاً ، إن هذه القنطرة - وهي وحيدة من نوعها بفاس - كانت محاطة بدكاكين من الجانبين ، كما يشاهد ذلك غالباً في مدن أوروبا القرون الوسطى ؛ والمجموعة الثالثة للطرافين كانت بفاس الجديد . لكن آخرين كثيرين منهم كانوا يزاولون حرفتهم في الهواء الطلق ، لاسيما في الأحياء الدائرية للمدينة القديمة ، في مجموعات متركبة

---

(239) التقرير المذكور .

(240) هذا الاسم مشتق طبعاً من الصوت الذي تحدثه هذه الأحذية على بلاطات الأفنية . وكانت تصنع خاصة بمكناس (معلومة من الشريف الكتاني) ؛ أما بفاس فكانت من عمل صانعي الأقفال الخشبية : البلاّجين ؛ انظر ميشو - بلّير ، **وصف فاس** ، ص. 304 ؛ وريكار ، المرجع المذكور ، ص 216 . انظر كذلك مارمول جزء 2 ، ص. 167 ؛ وليون الإفريقي ، جزء 2 ، ص. 105 . وكانت هذه القباقب في القرن السادس عشر ، أكثر بذخاً منها في القرن التاسع عشر ، إذ كانت مغشاة ب « الجلد أو الحرير » وأعلى ثمنها حتى إلى خمسة وعشرين مثقالاً . وكانت المعامل التي تُصنع فيها - على ما يبدو - بين قنطرة الصباغين وقنطرة الطرافين .

(241) ريكار ، رقم 89 ؛ وماسينيون رقم 11 ؛ انظر أيضاً ݣيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، **الإسكافون** ، ص. 51 - 53 .

(242) مائة حسب التقرير القنصلي الآنف الذكر ، ومن 120 إلى 140 حسب ݣيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، المرجع المذكور .

من أربعة أو خمسة . ولم يكن معظمهم من أصل فاسي ، بل كان معظمهم يأتي من تافيلالت .

صناعات الأدوات : ـ لن يتعلق الأمر هنا بأدوات الصناعات بفاس ، فقط ، ولكن أيضاً بمجموعة الأدوات الخاصة بالحياة اليومية ، والآلات أو المنتجات التي تحتاج إليها كل أسرة باستمرار .

1 ـ الأدوات الصناعية : ـ كانت الآلات ، والأدوات العادية أو الميكانيكية التي يستعملها صناع فاس بدائية على العموم ، يمكن صنعها محليّاً من طرف عمال قليلي التخصص ؛ ومن جهة أخرى ، كان ابتذالها قليلاً ، نظراً لكون الصناعة الفاسية كانت تعمل ببطء كبير . فكان يوجد إذن عدد قليل من الصنّاع لا يشتغلون إلا بصناعة مجموعة الأدوات الضرورية لأمثالهم ؛ فكان معظهم ، في نفس الوقت الذي يهيئون فيه هذا المجموع الصناعي أو ذاك ، يعملون لفائدة الخواص . وتلك كانت حالة الحدادين ، وخراطي الخشب ، وصانعي الأقفال الخشبية المذكورين بصدد صناعات البناء . فكان الحدادون يهيئون عدداً كبيراً من الأدوات لأصحابهم في شتى الطوائف الحرفية : مقصات الإسكافين ، ومصقلات مرصّعي الحديد ، ومحكّات الدباغين ، إلخ . وكان بعضهم متخصصين ، كصانعي المسامير والسلاسل (المسامرية[243] المقيمين بعين علوّ . وكان خرّاطو الخشب يصنعون قبضات الأدوات التي ينبغي أن تكون مستديرة كما يجب . وكان صانعو الأقفال الخشبية (البَلّاجين) يصنعون حلالات صناع الحرير والنسيج .

وكانت مجموعة الأدوات الصناعية الإضافية بفاس من عمل الطوائف الحرفية التالية : العوّادين ، (عوّادة) الذين سأعود للتحدث عنهم بعد قليل . كانوا يصنعون المجرفات الخشبية للفرانين ، وقبضات الأدوات الخشنة كالمطارق ، والمعاول ، إلخ ، ومدقّات الإسكافين ، وبصفة عامة جميع

---

(243) ماسينيون ، رقم ، 130 .

الأدوات الخشبية التي لا تحتاج الى الخرط . وكانوا مع الحدادين أكبر مُمَوِّني أدوات الصناع . وكانت تُستخرج من معامل البرميليّين (القبّابة) ، وعددها عشرون[244] ، جميع الدلاء ، والبراميل الصغيرة ومكاييل الخشب المطوّقة بالحديد أو النحاس ، التي كانت تستعملها عدة طوائف حرفية ، وعدد كبير من الخواص . وكانت خيوط السدى والأنوال من صنع (النيّارة) الذين كانوا يحتلّون عشرة معامل بجوار باب السلسلة[245] . وكان (لِلدلاّيين) ، أو صانعي الأوعية الجلدية حوالي عشرين دكاناً برأس التيالين ، في زقاق يحمل اسمهم (درب الدلاّيين)[246] . وكان صانعو الحبال (الشرّاطة) يفتلون خيط القنّب الذي يستعمله الإسكافون ، والخيوط والحبال التي تصلح لكثير من الصناع ، أمثال الدباغين ، والفخارين ، والصباغين ، الذين كان عليهم في الغالب أن ينزحوا الماء من النهر أو الآبار ؛ وكان أرباب هذه الطائفة الحرفية الخمسة والعشرون مجمّعين في خمسة عشر معملاً ، موزعة في عدة أحياء بالمدينة ، في العدوة[247] مثلاً ، ولكن بصفة خاصة حول رأس الشراطين .

وقد اضمحلت بعض الطوائف الحرفية من هذا النوع منذ ما قبل الحماية ، غير تاركة سوى اسم الموقع كآخر أثرٍ لها ، من أمثال صانعي عجلات الرحي أو المغازل (النعّاريين) الذين ما زال أحد أزقة حي زقاق الرمان يحمل اسمهم[248] .

---

(244) التقرير المذكور ؛وريكار ، رقم ، 62 ؛وماسينيون ، رقم ، 29 تحت اسم « قبايبية » . انظر ليون الإفريقي جزء 2 ، ص 105 ؛ ومارمول جزء 2 ص ، 168 .

(245) نفس المرجع ؛وريكار ، رقم 74 ؛وماسينيون ، رقم ، 21 تحت اسم « نيّارة » .

(246) نفس المرجع ؛وريكار ، رقم ، 9 ؛وماسينيون ، رقم ، 53 . انظر أيضاً ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص ، 317 ؛ ومارمول ، جزء 2 ، ص ؛ وكذا ليون الإفريقي الكتاب 2 ص ، 97 ، الذي يشير إلى أربعة عشر مصنعاً لدلاء الجلد .

(247) كان يوجد بالمكان المعروف بباب شيبوبة معملان لصانعي الحبال (انظر مارتان ، الكدّان ، ص، 636 .

(248) ميشو- بلّير ، المرجع المذكور ، ص، 324 .

2 ـ الأدوات المنزلية : ـ كانت طوائف الحرف المنتجة للأشياء المخصصة للحياة المنزلية أكثر بكثير .

وتشارك جل المهن المذكورة في هذه المهمة ، وعدد آخر منها مختص بها دون سواها . فالحدادون يصنعون الأقفال الحديدية والمفاتيح الضخمة لفتحها[249] . والنجارون (النجّارة الرقايقية) ، المجتمع قسم منهم بسوق النجارين ، والموزع قسم آخر منهم في المدينة ، وعددهم 160 نجاراً ،[250] يصنعون أحواض الغسيل وأسس الأرائك ، ورفوفاً مصبوغة ، وموائد مستديرة ومنخفضة ، وخزانات صغيرة ، إلخ . ومن النادر بفاس أن أدواتهم كانت تأتي كلها تقريباً من أوروبا ، من فرنسا أو ألمانيا .

وكانت الصناديق وقفاً على طائفة خاصة (كوافرية)[251] مجتمعة عادة في الجزء المنخفض لزقاق الحجر . وكانت لهذه الصناديق أهمية كبرى في الحياة المنزلية بفاس يُخزن فيها جهاز العرائس ، وتُستعمل كخزانة ، ويكون بعضها مزوداً بقفل ذي جرس لإفشال محاولات المستخدمين غير المأمونين ، وتُحمل كصناديق أو كحقائب عند القيام بسفر لمدة ما .

وفي ميدان الأثاث كذلك ، كان صانعو الحصر (حصايرية)[252] يهيئون الحصر التي تغطي أرضية المساجد ، والدكاكين ، والمنازل الفقيرة التي ليس في استطاعتها اقتناء الزرابي . وكان للمعلمين الذين يصنعون الحصر ، وعددهم عشرون ، خمسة عشر معملاً[253] ، وكلهم مجتمعون في الجزء الأعلى من الطالعة الكبيرة ، بين المدرسة البوعنانية وقنطرة بوروس .

---

(249) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص، 348 .

(250) التقرير المذكور ؛ وريكار ، رقم 57 ؛ وماسينيون ، رقم 25 ، و 26 ؛ وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص، 348 .

(251) ريكار ، رقم ، 61 ؛ وماسينيون ، رقم ، 10 .

(252) ريكار ، رقم ، 96 ؛وماسينيون ، رقم ، 70 ، تحت اسم « حصّارة » .

(253) التقرير المذكور .

وكانت الفوانيس التي يحملها الفاسيون للسير ليلاً في المدينة من عمل ستة عشر معملاً لصانعي القصدير (قزادرية)[254] ، وكذلك كانوا يصنعون أشياء أخرى متنوعة ، من الحديد الأبيض ، كأباريق القهوة والشاي . وكان هؤلاء الصناع مجتمعين بين زاوية المولى إدريس وزقاق الشراطين[255] .

وكانت السلال، من سلة اللعبة التي كانت تُشترى للأطفال بمناسبة رأس السنة ، إلى سلال الحبوب العظيمة التي كانت تسع حتى 60 صاعاً (صحفة) ، مروراً بأقفاص الدجاج ، وأقفاص الطيور ، وإطارات ربطات الخيوط للنساجين ، كل ذلك من عمل السلاّلين (سلاّلة) ، وعددهم زهاء عشرين ،[256] يقيمون داخل باب محروق ، أو خارجه ، ومعظمهم في الهواء الطلق .

وكان الفخّارون الآنفو الذكر يصنعون لأهل فاس جميع الأواني من الطين الناضج التي هم في حاجة ماسة إليها ، ما عدا الصحون المعدة للطبخ التي لا يصلح لها طين فاس ، فكانت تُستورد من الرباط .

وكانت بعض هذه الآنية كأباريق الفخار (برّادات) مصنوعة من الطين الأبيض ، وتُزيّن أحياناً بالقطران ، ويُجعل فيها الماء ؛ وبالنسبة للّبن ،

---

(254) نفس المرجع ؛وريكار ، رقم ، 103 ؛وماسينيون ، رقم 58 و59 : ويذكر هذا الأخير « الفنايرية » ، إضافة إلى « القزادرية » ؛ وربما يتعلق الأمر بصناع متخصصين في صناعة الفوانيس ، بينما كان باقي صانعي القصدير يصنعون الفوانيس وأشياء أخرى . وهناك أيضاً يهود يصنعون القصدير ، يقيمون بفاس الجديد ، وهم أكثر عدداً من نظرائهم المسلمين (روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص، 349) . وترك هؤلاء هم أيضاً صناعة الفوانيس ، لكنهم ما زالوا يشتغلون ؛ أما صانعو القصدير بالمدينة فإنهم اضمحلوا كلهم تقريباً .

(255) انظر ڤاللّوتي ، مصابيح قديمة ، وفوانيس قديمة ، في مجلة فرنسا (المغرب ، 1917 ، رقم 1) .

(256) التقرير المذكور ؛وريكار ، رقم 95 ؛وماسينيون ، رقم 66 الذي يسميهم أيضاً «قصايبيّة» (أي صانعي القصب) .

والزيت ، والسمن ، كانت تُستعمل جرار (خـوابي) مُلَمَّعَة من داخل ؛ وكانت جميع هذه الأشياء الخشنة الصنع من عمل الفخّارين المدعوّين « حرّاشة » ؛ وإذا تعلق الأمر بأطباق الكسكسو أو الحلويات ، وأقداح ، وأوعية يريدونها مزخرفة[257] ، كانوا يشترون خزفاً مزخرفاً برسوم متعددة الألوان ، يسودها الأزرق الداكن ؛ وكانت من عمل الخزفيين (الطُّلّاية)[258] ولها شهرة جديرة بها في المغرب كله ، بل حتى في الخارج . وفي سنة 1934 ، كان يزاول هذه المهنة أحد عشر معلماً ، يساعد كل واحد منهم ثلاثة أو أربعة من العمال أو المتعلمين[259] .

ويمكن أن نذكر أيضاً ، من جملة صانعي الأدوات المنزلية صانعي المكنسات الصغيرة من الحلفاء (الدوم) التي كانت تستعمل وحدها في تنظيف منازل فاس (الشطاطبية) . وكان هؤلاء الصناع ، وعددهم حوالي خمسين[260] مقيمين في جميع أحياء المدينة ، ولكن خاصة حول رأس الشراطين ، وكانوا يصنعون أيضاً قفافاً وأخرى لعصر الزيتون .

وكانت القدور والمراجل ، والسطول والآنية من النحاس الأحمر تخرج من معامل (النحايسية)[261] المقيمين في جوانب ساحة الصفارين الصغيرة التي كانت تدوي بطرقهم المرح دون انقطاع .

---

(257) انظر القائمة المستوفية لهذه الأشياء عند بيل ، المرجع المذكور ، ص. 201 - 272 .

(258) انظر عن هؤلاء الصناع بيل ، المرجع المذكور ؛ وكْيوو ، ولوطورنو ، وباي ، المرجع المذكور . يملك متحف الفنون الأهلية بفاس مجموعة رائعة من الخزف المحلي التي وهبها إياه القبطان جورج ميليي .

(259) وفي عام 1916 ، لم يكن موجوداً سوى تسعة معلمين حرفيين (بيل ، المرجع المذكور ، ص. 188 ، هامش) .

(260) التقرير المذكور ؛ وريكار ، رقم ، 97 ؛ وماسينيون ، رقم 69 . اسمهم مشتق من كلمة شطّابة ، ج ، شطاطب . وكان هؤلاء الصناع ، أيام ليون الإفريقي (جزء 2 ، ص 105) ، ومارمول (جزء 2 ، ص. 168) ، يحتلون خمسين دكاناً في نفس الموقع .

(261) ريكار ، رقم ، 101 ؛ وماسينيون ، رقم ، 57 .

وكان بجوارهم صناع النحاس الأحمر ، وهم الصفارون[262] الذين يصنعون الأدوات الضرورية لإقامة الشاي ، صينيات ، أباريق ، علب الإبر ، طاسات غسل اليد ، أقداح ، مبخرات ، غلّايات الشاي ، مواقد الجمر (كوانين) ، وذلك بالنحاس المستورد من أوروبا . وكان للصفارين والنحاسين نحو سبعين معملاً[263] .

ومن جملة الأدوات الضرورية للحياة المنزلية ، يجب ذكر الصابون الذي كان يُصنع محليّاً ، في نحو خمسة عشر معملاً[264] ، من فضالات ناتجة عن صناعة زيت الزيتون والبوتاس المستخرج من إحراق قشور الفول أو الحمص ؛ وفي حوالي 1907 ، كان الألمانيون قد أدخلوا إلى فاس استعمال الحامض البوتاسي الذي كانوا يبيعونه بثمن بخس . وكان صانعو الصابون (الصوابنية) يقيمون عادة غير بعيدين عن معاصر الزيت التي كانوا يتسلمون منها قسطاً وافراً من موادهم الأولية .

وكان الفاسيون إذا أرادوا قضاء حوائجهم ولو بـالمدينـة ، وأحْرى

---

(262) ريكار ، رقم 102 ؛وماسينيون ، رقم 55 و56. وهو يذكر أيضاً اسمي نقّاشين وصوابنية (صانعي الصينيات) . وكانوا هناك أيام ليون الإفريقي (جزء 2 ، ص، 89 .) .

(263) التقرير المذكور .

(264) نفس المرجع ؛وماسينيون ، رقم ، 132 ؛وريكار ، رقم ، 35 ؛ انظر كذلك دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 145 - 146 ؛ وميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 284 ، الذي يذكر مصنعاً للصابون قرب باب عجيسة يملكه أولاد بو عيّاد ؛ ومارتان، الكدان ، ص. 624 و 636 ، الذي يذكر منها اثنين أحدهما بسوق الكدّان ويملكه شخص يُدعى ابن شقرون ، والآخر قرب بين المدن ويملكه سيدي عمّي الفلالي . بالإضافة إلى أن روني ـ لوكلير (المقال المذكور ، ص. 313) يذكر أسماء ثلاثة من صانعي الصابون ، منهم من يُسمى بوعياد . وأثناء بحثي في حي المخفية ، وجدت أثر معمل صابون قديم بكرم ابن برقوقة . وكانت في حي البليدة سبعة معامل للصابون، اثنان في ناحية واد زهون وخمسة في درب سيدي بوعزّة . وكانت الأخرى بحيي فندق اليهودي وزقاق الرمان . انظر مارمول (جزء 2 ، ص. 166) ؛ وليون الإفريقي (جزء 2 ص. 96) : وكلاهما يتحدث عن بائعي الصابون المجتمعين في سفح فندق اليهودي ؛ ويضيف ليون أن الصابون ، في وقته ، كان يُصنع حتى « في الجبال » في شمال فاس على ما يحتمل .

خارجها ، يمتطون بالضرورة ظهور الخيل : ومن ثم جاءت أهمية صانعي لوازم الفروسية .

كان السرّاجون[265] مجتمعين بسوق السقّاطين بين ضريح المولى إدريس وعين علّو ؛ وكانوا يصنعون سروج البغلات التي كان يستعملها الفاسيون برغبة وسروج الخيل التي كانوا يمتطونها برغبة أقل ، وكان عدد هؤلاء الصناع يناهز خمسة عشر في أوائل الحماية[266] .

وكان جيرانهم بسوق السقاطين ، هم البرادعيون (اللّجايمية)[267] الذين كانوا يصنعون اللجُم والطقوم ، وما زال عددهم نحو الثلاثين سنة 1925 [268] .

وغير بعيد من هناك ، كان يوجد نقّاشو الركُب (ركايبية أو وشّاية)[269] الذين كانوا يزخرفون ركُباً يشترونها من الحدّادين بفاس ، وبمكناس بصفة خاصة . وكان عددهم حوالي خمسين في المجموع في مطلع القرن

---

(265) ريكار ، رقم ، 92 ؛وماسينيون رقم ، 128 ، تحت اسم « سرايجية » ؛ انظر أيضاً الدراسة التقنية المفصلة التي أنجزها أ ـ م . كُواشون **الطرز بالخيط الذهبي** ، ص. 241 -263 .
وحسب مارمول (جزء 2 ، ص. 167) وليون الإفريقي (جزء 2 ، ص. 98) ، كان يوجد سرّاجون في الجزء الأعلى للطالعة الكبيرة .

(266) كاربونيي ، وكُپوو ، ولوطورنو ، وپاي ، دراسة غير منشورة حول صانعي الجلود المدبوغة بفاس .

(267) ريكار ، رقم ، 91 ؛وماسينيون ، رقم ، 7 ؛وأ ـ م كُواشون ، المرجع المذكور؛ أنظر أيضاً مارمول ، جزء 2 ، ص. 165 .

(268) ولم يكن عددهم سنة 1936 سوى عشرة(كاربونيي) إلخ، المقال المذكور. ويكشف تقرير 1898 عن عدد عشرين .

(269) ماسينيون ، رقم ، 77 ؛ انظر أيضاً أ ـ م كُواشون ، المرجع المذكور ؛ولوطورنو ، وڤيكير ، **مُرَصِّعو الحديد بفاس** ،بحث قُدِّم الى المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا (تونس ، 1939) ؛ وميشو ـ بلّيـر ، وصف فاس ، ص . 306 . ويبدو أن هؤلاء الصناع كانوا أكثر عدداً في القرن السادس عشر منهم في أوائل القرن العشرين ، وأنهم كانوا مجتمعين في ضواحي حي بوجلود. انظر مارمول ، جزء 2 ، ص. 166 ؛ وليون الإفريقي ، جزء 2 ، ص. 98 : يذكر الأول خمسين دكاناً ، ويذكر الثاني أربعين دكاناً .

العشرين ، لا يباشرون الركُب فحسب ، ولكن أيضاً أنابيب البندقيات ، والسيوف والخناجر ، والمهاميز .

وكانت برادع الحمير والبغال تأتي من معامل البرادعية[270] المقيمين قرب الأبواب الرئيسية ، وهي باب عجيسة ، وباب محروق ، وباب فتوح ، وفي الضواحي المباشرة لقنطرة الطرّافين بوسط المدينة : وكان مجموعهم حوالي خمسين ، معظمهم غرباء عن فاس .

وأخيراً كانت هناك طوائف حرفية أخرى تُموّن الفاسيين بمختلف الأشياء اللازمة المتفاوتة الأهمية التي كانت تُعدّ من بين المواد العادية في حياتهم .

ونظراً لانعدام الجيب في اللباس التقليدي الفاسي ، كان الرجال يجعلون في خرج (شكارة) ما يمكن أن يضعه أوروبي في جيوبه : كالمفاتيح ، والأوراق ، والنقود . لذلك كان يوجد بفاس خمسة وثلاثون من المعلمين (الشكايرية) عام 1898[271] ، وكلهم مجتمعون بعين علّو ، يصنعون ، بالإضافة إلى (الشكاير) ، أكياس البارود (شكاير البارود) ، وأكياساً صغيرة للكيف (مطويّ) و (بزاطم) . أولئك الذين يمكن أن يُسَمّوا بصانعي الجلود المدبوغة[272] .

وكان صناع آخرون للجلد يكادون يعملون فقط لصالح الفاسيين ، هم المجلِّدون (السفّارة) ،[273] الذين كان عددهم نحو اثني عشر سنة 1898 ،

(270) ريكار رقم ، 93 ؛وماسينيون ، رقم 50 ؛والتقرير المذكور . يحمل زقاقان اسم البرادعيين ، أحدهما قرب باب عجيسة ، والثاني قرب قنطرة الطرّافين .

(271) التقرير المذكور ؛وريكار، رقم 88 ؛وماسينيون ، رقم 5. واسمهم مشتق من الكلمة العربية (شكّارة، ج. شكاير) .

(272) انظر ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 305وما بعدها ؛وكاربونيي ؛ وكْيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، المقال المذكور ، أ ـ م كْواشون ، المقال المذكور ، ص. 77 - 78 .

(273) التقرير المذكور؛وريكار، رقم 94 ؛وماسينيون ، رقم 8 ؛ وكْيوو، لوطورنو ، وپاي ، **مجلدو الكتب بفاس** ، بـ‍ﭙـ‍ﻴـ‍وريكار، **نهضة التجليد الفني بفاس** .

موزعين حول جامع القرويين ، يغلّفون بالجلد الناعم عموماً الكتب المطبوعة بفاس ، مزخرفين في غالب الأحيان الغلافات المجلّدة بالتذهيب بواسطة مكواة صغيرة أو ببعض الخطوط المسطرة على البارد . وهؤلاء الصناع الحذاق كانوا فاسيين .

وأخيراً ، لم تكن المُطرِّزات (المعلّمات) يشكّلن طائفة حرفية ، بالرغم على عددهن المرتفع[274] ، إذ كنَّ يعملن بلا مواد في بيوتهن لحساب صناع أو تجار ، من إسكافين و (شكايرية)، وسراجين ، وبرادعبين ، إلخ ، مستعملات الخيط الذهبي أو الفضي ، أو الحريري أو القطني ، او حتى الصوفي ، لتطريز الأحذية وزرابي السروج ، و (الشكاير) والطقوم ، والوسادات ، والمناديل ، إلخ .

والحاصل أنه يمكن القول ، إذا وضعنا جانباً المصنوعات المستوردة من أوروبا ، [275] بأن فاساً كانت تكتفي بمنتجات صناعتها ، باستثناء يسير لبعض الشكاير التي كانت تجلب من مراكش ، والركُب وأغطية الأحذية المصنوعة بمكناس ، وقليل من الزيت المعصور في طواحين لمطة البدائية والنواحي الواقعة بين سبو وورغة : وذلك شيء تافه في الجملة .

2 الصناعات التي تعمل أيضاً للتصدير : ـ لم تقتصر الصناعة الفاسية على القيام الكامل تقريباً بحاجيات المدينة ، بل كانت تصنع أيضاً من أجل التصدير : فكانت بعض طوائف الحرف لا تعمل إلا لبوادي ناحية فاس ، وبعضها ترى منتجاتها منتشرة في أهم مدن المغرب ، وعلى الأقل في مدن المغرب الشمالي ؛ وأخيراً ، كانت سمعة بعضها الآخر ، وخاصة الإسكافين والنسّاجين والدبّاغين ، بطريق غير مباشرة ، تتعدى حدود المغرب ، ممتدة

---

(274) انظر عن المطرزات الدراسة الممتازة المذكورة لأ ـ م . كُواشون ، وخاصة الفصل المتعلق بتنظيم العمل (ص. 50 - 53) . تشير الآنسة كُواشون إلى عدم التمكن من معرفة رقم ولو تقريبي للمطرزات بفاس ؛ ولا شك أنهن يعددن بالآلاف .

(275) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 5 .

إلى الجزائر وحتى مصر شرقاً ، والسينغال جنوباً .

ا ـ وبصفة عامة ، فإن الصناع الذين كانوا يعملون لنواحي فاس لم يكونوا على اتصال مباشر بزبنائهم القرويين : فكان هؤلاء يشترون موادهم إما من الأسواق القروية ، حيث كان يحملها تجار فاسيون ، وإما بالأحرى من دكاكين فاس ، عندما كانوا يذهبون إلى المدينة لبيع حبوبهم أو بيضهم أو دواجنهم . إلا أن بعض الصناع كانوا يبيعون بدون وسيط للقرويين الذين كانوا يقصدونهم لطلب السلع أو الذين كانوا محتاجين فوراً إلى خدماتهم : كانت تلك حالة البيطريين مثلاً ، أو صانعي العربات أو المناخل . وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أن هؤلاء الصناع لم يكونوا أثرياء بصفة عامة ، لأن زبائنهم لم يكونوا أيضاً أثرياء ، فكانوا يتلقون في الحين ردود فعل الظروف الفلاحية : فإذا كانت السنة جيدة ، لم يتردد الفلاحون إذّاك في تحديد عتادهم والقيام بشراءات في المدينة ؛ وإذا كان المحصول رديئاً ، فإن البدويين ، على النقيض من ذلك ، لا ينفقون إلا الحدّ الأدنى ، إذا كان بإمكانهم ذلك . وتنطبق هذه الملاحظة على مجموع صناعات فاس ، لأن ازدهار المدينة بأسرها كان منوطاً بازدهار البادية المجاورة ، وخاصة الأكثر قرباً بالنسبة للصناع الذين كان كل زبنائهم أو جلّهم من البادية .

وأخيراً ، كان جلّ هؤلاء الصناع من أصل قروي قريب : فكانت الحرف التي يزاولونها في الدرجة الثانية وتحظى بقليل من تقدير الفاسيين الأقحاح ؛ كانوا يشترطون في الفلاحين أن تكون لهم علاقات شخصية ، ومعرفة ملائمة بالوسط القروي ، وعاداته وحاجاته ، وكل الأشياء التي فقد المدنيون الحقيقيون منذ عهد طويل مدلولها الدقيق ، أو لم يتذوقوها . ولذلك كانت هذه الحرف في الغالب وقفاً على نازحين جدد ما زالوا بعدُ متشبثين بالوسط القروي .

وكان أكثرهم يقدمون للقرويين أهم الأدوات في الحياة القروية ، وعلى الأقل الأدوات التي لا يستطيع صناع البادية الأقلّ تخصصاً أن يهيؤوها، كصناع

الخشب ، والغرابيل ، والأسلحة ، وبدرجة أقلّ ، صناع السروج والبرادع والجلال والسلال والفخار والبراميل الآنفي الذكر، لأنهم كانـوا يعملون خصوصاً لفاس .

ا) كان صانعو الخشب (عوّادة)[276] ، وعددهم قرابة الثلاثين سنة 1898 ، مجتمعين بسوق العوّادين ، بين سوق الصفّارين وباب السنسلة ؛ وكانوا يصنعون المحاريث ومختلف أدوات الفلاحة ، وكذا المذاري ، وقبضات الفؤوس والمعاول ، إلخ . ، باتصال وثيق مع الحدّادين .

ب) وكان صانعو الغرابيل[277] ينقسمون إلى طائفتين منهم من كانوا ينسجون قماش الغرابيل (تـيّالـين) بالأسل ، أو الحرير أو الساف ، ومنهم من كانوا يثبتون هذا القماش على دوائر خشبية (غرابلية) . وكانوا مجتمعين بضواحي راس التيّالين ، على غرار ما كانوا عليه في القرن السادس عشر ، مؤلّفين مجموعة من خمسة عشر معملاً تقريباً .

ج) وكانت مدينة فاس ، حتى الحماية ، مركزاً هاماً لصناعة السلاح ، حيث كان القرويون المجاورون يأتون لاقتنائه . وكانت تُصنع فيه ، أيام ليون الإفريقي ومارمول ، السيوف ، والخناجر ، وأسنّة الرماح الطويلة والقصيرة[278]، والتروس[279] ، والأطبار المستطيلة[280] ، والقاذفات[281]. وكان الصناع الفاسيون

---

(276) التقرير المذكور ؛ وريكار ، رقم 64 ؛ وماسينيون ، رقم 51 ؛ ومارمول ، جزء 2 ، ص. 168 ؛ وليون الإفريقي ، جزء 2 ، ص. 106 .

(277) نفس المرجع ؛ وريكار ، رقم. 80 و 81 ؛ وماسينيون ، رقم 17 و 54 ؛ وميشو - بلّير ، لفظ « تيّالين » ؛ ج - س كولان ، أسماء الصناع ، ص. 232 .

(278) ليون الإفريقي ، جزء 2، ص. 95 ؛ ومارمول، جزء 2 ، ص. 166 . كانت هذه المعامل بضواحي سوق الجوطية.

(279) ليون الإفريقي ، جزء. 2 ص. 98 ؛ ومارمول، جزء 2، ص. 167 ؛ معامل واقعة بعين علّو .

(280) مارمول، جزء 2 ، ص. 168 ؛ معامل واقعة بباب سلسلة .

(281) ليون الإفريقي ، جزء 2 ، ص. 105 ؛ ومارمول، جزء 2 ، ص. 167 : عشرة معامل بدرب السبيطريين .

قُبَيْل الحماية يصنعون الأسلحة النارية ، رغم منافسة الأسلحة الأوتوماتيكية الأوروبية ، الأكثر إلحاحاً كل يوم . وكانوا موزعين إلى عدة طوائف ، حسب تخصصهم ؛ بعضهم يصنعون صفائح آليات القدح ويذيبون الرصاص (زنايدِيّة) [282]، وبعضهم يصنعون قنوات البنادق (سرايرية) ويركِّبون الأسلحة في نفس الوقت[283] ؛ وبعضهم الآخر يهيئون الصوّان وحبّات الإشعال . كانوا كلهم تقريباً ريفيين من ناحية تاغزوت ، وكانت دكاكينهم توجد ، كدكاكين الطّبّارين والقذّافين قديماً، في ضواحي باب السنسلة وراس الشراطين وعددهم نحو الخمسين ، بالنسبة لمجموع صناع الأسلحة . ومن جملة زبنائهم المخزن(بكيفية تتناقص شيئاً فشيئاً لانتشار استعمال الأسلحة الأوروبية أكثر فأكثر في الجيش الملكي) ، وطوائف رماة فاس ، الذين أشرت إليهم سابقاً ، وبعض المدنيين المضطرين إلى الخروج إلى البادية ، وأخيراً جميع القبائل المجاورة بصفة خاصة . وحتى صناعة السلاح الأبيض ما زالت قائمة لحد الآن[284] ؛ كانت النصال من عمل تسعة حدّادين متخصصين ، ستة في مجموعة باب سلسلة ـ النخّالين ، وثلاثة في الطالعة الكبيرة بجوار جامع الحدّادين . وكان صناع آخرون (جوايين) يصنعون مقابض الخناجر وأغماد السيوف ويركِّبون السلاح . وأخيراً ، كان مُرصِّعو الحديد يزخرفون النصل أحياناً، والجوهريون اليهود يصنعون حلقة الصيانة الفضية التي تُركّب على البندقية .

د) كان السراجون ، والبرادعيون ، وصانعو الجلال والسلال والبراميل

---

(282) تصفحت عن جميع هذه الطوائف الحرفية بحثاً في طور التهيء لڤيكير الذي أقدّم له تشكراتي الودية على تفضله بإطلاعي على مخطوطته . انظر ماسينيون رقم 24 ؛ وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 348 . ويذكر التقرير القنصلي لعام 1898 ، ثلاثة عشر صانعاً لقنوات البنادق ؛ أما ڤيكير فيعدّ منهم نحو العشرين .

(283) حسب تقرير 1898 ، فإنهم كانوا 20 .

(284) ان مراجعي حول هذه النقطة كذلك ، مستاقة كلها من العمل غير المنشور لڤيكر . انظر أيضاً إ. ريشي ، رحلة إلى المغرب ، ص. 91 .

والفخار ، يعملون لأهل البادية ولأهل فاس على حدّ سواء ؛ إلا أن هؤلاء الأخيرين ،كانوا يشكلون العنصر الأكثر استقراراً وربما الأكثر أهميـة من زبنائهم . وكان يتفق أحياناً في وقت شبه بطالة أن يكتري فخّار حماراً ويقوم بجولة تدوم بضعة أيام في الأسواق الأسبوعية بضواحي فاس(285) .

هـ) ويمكن أن يضاف إلى هذه القائمة البياطرة(286) (سمّارة البهايم) الذين كانوا يعالجون البهائم في نفس الوقت ؛ وكانوا حوالي سبعين ، 33 منهم معلمون ، يقيمون في مجموعات صغيرة بجوار الأبواب الرئيسية ، أو على طول الأزقة التي يكثر المرور فيها ، بالقرب من الحدّادين الذين كانوا يهيئون لهم الحديد والمسامير في غالب الأحيان ؛ وقد يحدُث أن يقتسم عدة معلمين نفس الدكان(287) .

هؤلاء الصناع المتواضعون ، المختلفو الأصل ، لكنهم كلهم تقريباً غرباء عن فاس ، كان زبناؤهم الرئيسيون هم بورجوازيو المدينة الذين يملكون

---

(285) كَيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، دراسة غير منشورة حول فخّاري فاس .

(286) ماسينيون ، رقم 52 ؛وريكار، رقم 100 ؛ وقد تفضل السيد عبد الرزاق عمّور ، أحد قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس ، فأطلعني بهذا الصدد على مذكرة غير منشورة أعبّر له من أجلها عن امتناني الودي . انظر أيضاً روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 348 . ولم يذكر التقرير القنصلي لسنة 1898 سوى ستة عشر بيطرياً .

(287) وها هو توزيع هذه الدكاكين الستة والعشرين إبّان الحماية :

فاس الجديد	4 دكاكين
باب محروق	4 دكاكين
باب السراحين (بوجلود)	1 دكان
الطالعة الكبيرة	2 دكانين
باب عجيسة	5 دكاكين
النخالين	3 دكاكين
بَشّقْ عينُه (باب فتوح)	4 دكاكين
الصفّاح	1 دكان
درب اللمطي	1 دكان
سوق العوادين	1 دكان

البغال أو الخيل ؛ وكان القرويون قليلاً ما يلجؤون إليهم ، إذ كانوا ينعلون دوابهم عند بياطرة جوّالين يترددون على الأسواق ، حسب أيام الأسبوع .

و) كما أن قرويّي النواحي كانوا يشترون بفاس المعاطف الغليظة والقصيرة من الصوف الخشن الأبيض ، أو الأسمر ، أو الأسمر والأبيض ، أو الأسود ، أو الأسود والأسمر ، التي كانت لباسهم الرئيسي الخارجي . وكان القماش من نسيج صناع متواضعين ، غالباً ما كان أصلهم من البادية ، وهم (الجلالبية) أي صانعو (الجلاّبة ، ج جلاليب)[288] أو (بونية) .

ز) بالإضافة إلى أن القرويين كانوا يشكلون أهم زبناء صانعي الشموع ، والأمشاط والصاغة اليهود ؛ وسأعود للتحدث عن هؤلاء الأخيرين فيما بعد . وكان صانعو الشموع (شمّاعة)[289] يقيمون بجوار ضريح المولى إدريس ، وحمل اسمهم أحد الفنادق الرئيسية بفاس في هذا الحي ، وهو فندق الشماعين . كانوا يفرغون الشمع في قوالب متفاوتة الأحجام « وهي أجمل المصنوعات التي أعتقد أنني شاهدتها في حياتي » يقول ليون الإفريقي ، ويزيّنونها أحياناً ، بملصقات من الكاغد المصبوغ .

وكان صانعو الأمشاط (مشّاطة)[290] كلهم مجتمعين قرب ساحة الصفارين ، على جانبي الزقاق المؤدي إلى قنطرة بين المدن ؛ كانوا يصنعون الأمشاط من القرن أو الخشب للاستعمال الخاص بنساء البادية ، والقبائل البربرية والجبلية . وكلهم تقريباً غرباء عن فاس ، من التسول أو عبدة .

---

(288) ماسينيون ، رقم 131 ، تحت اسم « قشاشبية » (مشتق من «قشّابة» وهي معطف من الصوف الخشن بغطاء الرأس)؛ وريكار ، رقم 70 ؛وبيرك، المرجع المذكور ، ص. 7 ، الذي يدلي بالنسبة لهذه الطائفة الحرفية بالأرقام الآتية : 112 مُعلّماً ، و 47 عاملاً ، و 17 متعلماً . وحسب المعلومات التي جمعتها سنة 1937 ، مع ڤيكير ، كان وقتئذ 110 أو 120 شخصاً يزاولون هذه الحرفة .

(289) ماسينيون ، رقم 63 ، رقم 36 ؛وليون الإفريقي ، جزء 2 ، ص. 89 .

(290) نفس المرجع ، رقم 61 ؛وريكار ، رقم 65 ؛وليون الإفريقي ، جزء 2 ، ص. 104 ؛ ومارمول، جزء 2 ص. 169 ؛وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 348 .

ب) ـ كانت صناعة فاس شهيرة في المغرب قاطِبة وبإمكانها تصدير عدد من منتجاتها إلى كبريات مدن المغرب : مكناس ، طنجة ، تطوان ، الرباط وسلا ، الدار البيضاء ، الجديدة وحتى مراكش ، فضلاً عن المدن الأقل أهمية ، مثل صفرو ، وتازا ووجدة ، إن لم تكن الطريق مقطوعة ، ومولاي إدريس ، والعرائش ، والقصر وشفشاون .

كان هذا التصدير يهمّ بخاصة المنتجات الكمالية التي كانت تنافس بسهولة منتجات الصناعات المحلية ، وثمنها مرتفع يتحمل مصاريف النقل المرتفعة . أما الأشياء العادية فلم تكن من الجودة بحيث يقبل سكان باقي المدن إضافة تكلفة النقل. وكثيراً ما كان الفسيفسائيون والنحاتون والمزخرفون على الخشب أو الجبس يُستدعون إلى مكان آخر لتزيين منزل فخم[291] ، بعكس البنائين والنجارين الذين كانوا يُستخدمون دائماً في عين المكان . ومن بين الفخارين ، كان الخزفيون وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعملوا للمدن الأخرى : كانت الأباريق ، والجرار ، وخوابي الزيت تصنع في مكان الشراء ذاته ، بينما كانت الأطباق المطلية بالميناء ، وآنية الكسكسو المزينة ، والأوعية الملونة الفاسية منتشرة في المغرب كله . وكانت ما زالت تطلب بفاس جميع الأشياء المطرزة بالخيط الذهبي (كَلِباد السروج ، والستور الحائطية ، والحزامات ، وأحذية النساء) ، والمجلدات المزخرفة بواسطة المكواة الصغيرة ، والصينيات النحاسية ، ومغاسل اليد المنقوشة والأسلحة ، وبعض الحلي . وأخيراً وبالأخص ، فإن أحذية فاس وأقمشتها بصفة خاصة كانت مشهورة في المغرب كله وحتى في الخارج .

ج) وفعلاً ، كان منتجان صناعيان بفاس مستحسنين خارج المغرب : الأحذية والأقمشة . كان كل من الإسكافين والنساجين ، مع تابعيهم من

(291) انظر و. هاريس (تافيلالت ، ص. 281) : « قيل لي إنه بالإمكان في بعض منازل النبلاء الأكثر غنى ، مشاهدة سقوف جميلة مصنوعة بالجص المنحوت والخشب المصبوغ ، وقد استُحضر من فاس صناع وعمال لزخرفتها » .

الدباغين والصباغين ، يعملون لفاس طبعاً ، ولكن أيضاً لمدن المغرب الأخرى ، والجزائر ، والسينغال ، وحتى لمصر : ذلك ما يفسر أهميتهم في الحاضرة .

أ) كان الاسكافون (خرّازة) يشكلون مجموعة كثيرة العدد : 700 معلم . يقول تقرير 1898 ـ ، 957 معلماً ، ومثل هذا العدد من العمال والمتعلمين على الأقل ـ يؤكد بحث أجري سنة 1935[292] ـ ، 2.840 معلماً ، و 3.400 عامل و 900 متعلم . وحسب دراسة نشرت عام 1940[293] هناك 2.840 معلماً ، و 3.400 عامل و 900 متعلم. ولعله يجب التسليم بأن عدد الإسكافين تكاثر منذ الحماية ، بالرغم على منافسة الأحذية الأوروبية. وعلى كل حال ، يمكن أن يقدر عدد الإسكافين بفاس أوائل القرن العشرين بنحو1.500أو2.000 كانوا يعملون ، إما في دكاكين إما في فنادق وسط المدينة ، أو في معامل نساجين هجرها أصحابها (دراز) ، وانتشروا في أنحاء المدينة كلها ، وخاصة في الأحياء الصناعية المحددة أعلاه[294] . وحسبما كانوا يصنعون من أحذية الرجال أو أحذية النساء ، فإنهم كانوا موزعين إلى طائفتين متميزتين : الخرّازة بمعنى الكلمة أو (البلايغية) بالنسبة لأحذية الرجال (بلغة ، ج. بلاغي) و (المساخرية) أو الشرابليين بالنسبة لأحذية النساء (مسخرة ، ج . مساخري أو شربيل ، ج .شرابيل). وكان جل هؤلاء الإسكافين ، وعلى الأقل المعلمون ، فاسيين أقحاحاً ، وغالباً ما كانوا يزاولون هذه الحرفة أباً عن جد . وكان للأحذية المخصصة لمصر والسينغال بعض الخاصيات في الصنع ؛ إلا

(292) ڤيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، إسكافوفاس ؛ انظر أيضاً روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 343 -344 . يقدم هذا المؤلف رقم 800 « عامل » الذي يبدو متواضعاً جداً . وعن الإسكافين ، لا يعطي ليون الإفريقي ولا مارمول بيانات مدققة . وفي عهدهما لم يكن شُرع بعدُ في تصدير أحذية فاس إلى السينغال ومصر .ماسينيون ، رقم 1 ؛وريكار، رقم 87 .

(293) ج. بيرك ، ستتان من العمل الصناعي بفاس ، ص. 7.

(294) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصلان 3 و 4 .

أنه لم يُعثر على إسكاف متخصص في ذلك تخصصاً تاماً ، بل كانوا جميعاً قادرين على إنتاج كل أنواع الأحذية .

ب) كان الدباغون بفاس يزودون الإسكافين بالجلد[295] ، ولهم أربع مدبغات ، اثنتان على طول الوادي الكبير،وهما مدبغة رحبة التبن وشوّارة ، وواحدة قرب ضريح مولاي إدريس(هي دار دباغ سيدي موسى أو كُرنيز)، وأخرى بشمال المدينة في حي شرفاء وزان (هي دار دباغ عين أزليطن أو شرشور) . وحسب تقرير 1898 ، كان بفاس 800 دبّاغ ، و 2.000 حسب روني - لوكلير ؛ ويظهر أن هذه الأرقام مبالغ فيها إذا ما قورنت بالأرقام التي تثبتها الأبحاث الحديثة ، وهي نحو 500 دبّاغ ، بما فيهم العمال والمعلمون جميعاً[296] . على أن معامل الدباغ لم تنقص أهميتها منذ بداية القرن ، إذ لا تُشاهد حفر دباغ غير مستعملة : فمن المعقول إذن الاعتقاد بأن الأرقام المدلى بها قبل الحماية قد زيد فيها بلا تعمد من لدن مخبرين غير مدققين . حقّاً إنه يجب أن يضاف إلى الدباغين بمعنى الكلمة عمال يزاولون حرفاً تابعة للدباغة ، هم : نحو عشرة ينتفون شعر جلود الماعز ، ومائة وأربعون يبيعون بالمزاد (دلّالة) الجلود النيّئة أو المدبوغة ، وسبعون من (اللّبّاطة)[297] الذين يزيلون الصوف من جلود الغنم ، وعشرون من بائعي الجير[298] ، وخمس أو

---

(295) انظر كُيوو ، ولوطورنو وباي ، طائفة حرفة الدباغين وصناعة الدباغة بفاس ؛ وروني - لوكلير ، المقال المذكور ، ص . 343 . ولا يتحدث ليون الإفريقي عن الدباغين إلا عرضاً (جزء 2 ، ص . 134) . ويذكر مارمول دباغة شوّارة فقط (جزء 2 ، ص . 168) ؛ وماسينيون، الأرقام 2 -4 ؛ وريكار ، رقم 86 .

(296) كُيوو ، ولوطورنو وباي ، المقال المذكور؛ وج بيرك ، ستتان من العمل الصناعي بفاس ، ص 7 ، الذي يقدم أرقام 175 مُعلِّماً (161 عند كُيوو ، إلخ) . و 226 عاملاً و 168 متعلماً .

(297) كُيوو ، ولوطورنو ، وباي ، المقال المذكور ، ص. 209 ؛ وج بيرك، (المقال المذكور ، ص. 7) يقدم فيما يتعلق (باللّباطة) الأرقام التالية : 108 معلمين ، 67 من العمال ، و 85 من المتعلمين ، أي ما مجموعه 260 شخصاً .

(298) نفس المرجع ، ص. 213 .

ست نساء يفرزن تاكّاوت في المجموع[299] ، والطحانون الذين يسحقون في أربع طاحونات (اثنتان بواد زهون ، واثنتان بين المدن) قشرة الدبغ وتاكّاوت ، أي قرابة اثني عشر عاملاً[300] ؛ فيكون المجموع 250 شخصاً على الأقل . وربما أُضيف إلى ذلك 400 يساهمون بكيفية أو أخرى في إعداد جلود الغنم ، والماعز ، والبقر ، المدبوغة بفاس . ويمكن افتراض أن هذه الصناعة كانت تشغل مباشرة ما يقرب من ألف شخص . وكان إنتاج دباغة فاس تستعمل حصة وافرة منه في عين المكان من طرف الإسكافين ، وصانعي (الشكّارات) والبرادعيين ، والسراجين وغيرهم من صناع الأشياء الجلدية ؛ وكان الفائض يُصدَّر إلى مختلف مدن الشمال المغربي ؛ ولم يكن يُشترى أي جلد مدبوغ خارج المغرب . وكان الدباغون ومساعدوهم ينتمون في معظمهم إلى فاس .

ج) وينقسم النساجون إلى عدة طوائف حرفية حسب ما كانوا ينسجون من الصوف الخشن ، أو الصوف ، أو القطن أو الحرير . وقد سبق أن تحدثتُ عن نساجي الصوف الخشن (الجلالبية) الذين لم يتجاوز إنتاجهم ـ كجميع الإنتاجات الرخيصة ـ حدود ناحية فاس . وكان الأمر طبعاً بخلاف ذلك بالنسبة لنساجي الصوف والقطن (الدرّازة)[301] ونساجي الحرير الذين كانوا ينقسمون هم أنفسهم إلى عدة طوائف: بعضهم يصنعون الخُمُر (حرّارة سبابنيّة)[302] وبعضهم يصنعون حمالات من الكريب (معلمين شرابي)[303] ،

(299) نفس المرجع ، ص. 217 .

(300) نفس المرجع ، ص. 221 .

(301) ماسينيون ، رقم 20 ؛وريكار ، رقم 71 . وتوجد أيضاً حول نساجي الصوف والقطن دراسة غير منشورة للوطورنو، ونوايال، وفيكير؛ وقدم نفس المؤلفين للمؤتمر الرابع للجمعيات العلمية بشمال إفريقيا ، المنعقد بالرباط سنة 1938 ، بحثاً حول تقنية النسيج بفاس وتحسيناتها الممكنة ، نُشر في أعمال هذا المؤتمر ، عدد 2 ، ص. 885 -893. انظر أيضاً روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 340 -342 ؛ ولاپان جوانفيل أنوال النسيج بفاس .

(302) ماسينيون ، رقم 17 ؛وريكار ، رقم 77 ؛ واسمهم مشتق من كلمة (سبنية ج. سباني) : خمار يغطي الرأس .

(303) ريكار ، رقم. 79 .

وبعضهم الآخر يصنعون أقمشة مقصّبة في النول الكبير (زرادخيّة)[304] . وتختلف الأرقام المتعلقة بها التي يقدمها مختلف المؤلفين ، كما هو الشأن بالنسبة للطوائف الحرفية الهامة الأخرى: فيذكر ليون الإفريقي[305] 520 معملاً و 20.000 عامل مجتمعين في حي العدوة ، الشيء الذي يظهر مفرطاً ، حتى ولو فرضنا أن هذه الصناعة كانت متطورة في القرن السادس عشر أكثر بكثير منها في القرن العشرين ، كما يدل على ذلك اسم (الدراز) الذي يحمله جل المعامل الصناعية ؛ ويذكر روني ـ لوكلير 500 نول وثلاثة أشخاص لكل نول ، الشيء الذي يعطي حوالي 1.500 نسّاج ؛ وحسب بيرك[306] ، كان في سنة 1939 ، من (الدرازة) 1.405 منقسمين إلى 405 معلمين ، و 500 عامل و 500 متعلم ، يُضاف إليهم نسّاجو الحرير. الذين يدرجهم هذا المؤلف في جمهور كل الذين يشتغلون بعمل الحرير (الحرّارة) ، أي : 400 معلم ، و 500 عامل ، و 200 متعلم . وحسب المعلومات التي جمعتها شخصياً ، أظن أنه يمكن تقدير عدد الأنوال بالنسبة للصوف بحوالي 600 ، بمعنى أن النسيج وحده إبّان النشاط الكامل ، يمكنه تشغيل ما بين 1.800 و 2.000 رجل تقريباً بفاس . وحسب م. دوپيرينيي[307] ، كان نسّاجو الحرير يشتغلون في 420 نولاً ، ويستخدمون ، في الإنتاج الكامل ، نحو 1.200 شخصاً . ويجب أن يُضاف إلى هذا الرقم الذين يحلّون الحرير واللاتي يغزلن الصوف ، ويمكن تقدير عددهم بألف على الأقل ، والذين يبيعون بالمزاد (الدلاّلة) المتخصصين في بيع الصوف والأقمشة ، وعددهم 70 . والحاصل إن النسيج كان بإمكانه أن يشغل مباشرة أزيد من 4.000 شخص ، في فترات الازدهار التام . وكان هذا

---

(304) ماسينيون ، رقم 17 ؛ وريكار ، رقم 78 ؛ واسمهم مشتق من كلمة (زردخان) : قماش من الحرير المقصّب .

(305) نفس المرجع ، جزء 2 ص. 108 .

(306) المرجع المذكور ، ص. 7 .

(307) المرجع المذكور ، ص. 171 -177 ؛ ويذكر التقرير القنصلي لسنة 1898 رقم 300 معلم بالنسبة للصوف و 500 بالنسبة للحرير .

بالتأكيد أهم صناعة بفاس . كانت معامل النساجين منتشرة في المدينة كلها ، من بوجلود إلى البليدة ، ومن باب عجيسة إلى المخفية ، بكثافة أكثر في المناطق الصناعية بالمدينة . وكان جلّ النسّاجين من أصل فاسي عريق ؛ إلا أنه كان يلاحظ من بينهم نسبة هامة من صناع منتمين إلى تلمسان[308] . وكانت أقمشة فاس ، فضلاً عن بيعها بالمدينة ، تجد من يشتريها في المدن الرئيسة بالمغرب ، والجزائر[309] وحتى مصر والسينغال[310] ، في أوقات متقطعة .

د) والمساعدون الطبيعيون للنساجين ، سواء بالنسبة للصوف ، أو للحرير ، كانوا هم الصبّاغين (صبّاغة)[311] مجتمعين مثلما كانوا عليه أيام ليون الإفريقي[312] ، في الضفة اليسرى للواد الكبير ، بين قنطرة الصباغين وقنطرة الطرافين وحول حمّام الصفّارين ، وكان عدد معاملهم أربعين[313] أهمّها حتى عشرة عمّال ، وكلهم تقريباً فاسيون ، إذ كان الأمر هنا يتعلق بعمل دقيق لا يمكن أن يتكيّف معه حقّاً سوى متحضرين من عهد طويل . وكان كل من النساجين والحريريين يكلفونهم بصباغة حزُم من الصوف ولا سيما من الحرير ؛ وقلّما كانوا يعالجون القطن الذي يُستورد من أوروبا مصبوغاً . وكانوا يعملون دائماً بلا مواد لعدم امتلاكهم المال الكافي لشراء المادة الأولية وبيعها ثانياً وهي مصبوغة . وكانوا يعملون على الساخن في أحواض ، أو على البارد في جرار بالنسبة للأعمال المتقنة بكيفية خاصة ؛ وكانوا منذ عهد قديم يستعملون الألوان الطبيعية ، كالقرمزية ؛ لكنهم ، منذ ما قبل الحماية ، بدأوا يستعملون مواد صباغة مستوردة من أوروبا .

(308) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(309) كان يقدر في سنة 1937 أن الجزائر تستوعب رُبُع الأقمشة الصوفية المصنوعة بفاس أو خُمسها . وفي نفس الوقت ، كانت المنطقة الإسبانية تشتري ربُع الإنتاج الفاسي .

(310) انظر ، روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص . 341 .

(311) ماسينيون ، رقم 19 ؛وريكار ، رقم 79 ؛وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 349 .

(312) المرجع المذكور ، جزء 2 ، ص. 106 ؛ ومارمول ، جزء 2 ، ص. 168 .

(313) التقرير القنصلي لعام 1898 . بيان مؤكد ببحث أُنجز في عين المكان في ربيع 1945 .ولم يبق بعدُ من الأربعين معملاً القديمة سوى اثني عشر أو ثلاثة عشر بسبب المنافسة الأوروبية .

هـ) ويأتي أخيراً السَّفَطيون (معلمين سفطاوين)[314] الذين كانوا يصنعون الأسفاط الخشنة التي تُلفّ فيها البضائع لـتُنقل إلى مسافة طويلة . وكانوا مقيمين بعين علّو (سوق الصفّارين) .

3) **الصناعات اليهودية** ـ لن تكون هذه القائمة للصناعات الفاسية تامة إذا لم تُضف إليها الحرف التي يزاولها اليهود ، حيث إن هؤلاء لم يكونوا يساهمون في الحياة التجارية بفاس فحسب ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، ولكنهم كانوا يساهمون أيضاً في نشاطها الصناعي . ويبدو أن بعض الحرف الـصناعية كـانت مخصصة لهم تقليدياً ، منذ عهد طويل جداً ، ولا سيما التي تتطلب معالجة المعادن الثمينة . ولم تحدث في غالب الأحيان أية منافسة بين الإسرائيليين والمسلمين ، بل تقسيم العمل . لا أعرف سوى القليل من الحرف التي يزاولها في آن واحد الصناع اليهود والصناع المسلمون ، هي : حرف ترصيع الحديد والسمكرية والفوانيس[315] ؛ ومن الغلوّ التحدث عن وجود منافسة ، وعلى الأقل بالنسبة للحرفتين الأخيرتين ، إذ كان صانعو الفوانيس والسمكرية اليهود يعملون تقريباً للملاّح وفاس الجديد فقط ، تاركين زبناء المدينة لزملائهم المسلمين .

وتوجد بالملاّح أيضاً بعض الخيّاطات بآلاتهن وبعض نشّاري الأخشاب على طولها ، في نحو اثني عشر[316] ، وكان زبنائهم من اليهود لا غير . وكقاعدة عامة ، كان الصناع اليهود يزاولون حرفهم في حيهم ، أو بفاس الجديد أيضاً ؛ وقلّما كان منهم من يتخذ دكاناً بالمدينة ؛ وإن حدث ذلك ، فإنهم كانوا يقيمون كلهم تقريباً بالحي الدائري في الطالعة الكبيرة ، وليس في

---

(314) ريكار ، رقم 98 ؛ وماسينيون ، رقم 65 ، تحت اسم صنّاع السفط .

(315) حسب **ياهاس فاس** ، كان أيضاً إسـكافون ، ونساجون ، وحزاميون ، وبناؤون ، ونجارون وحدادون من اليهود . ولعلهم لم يكونوا كثيرين ، لأنني لم أعثر على أثر لهم في مكان آخر .

(316) بحث حول طوائف الحرف ، ص. 152 .

قلب الحاضرة الإسلامية العتيقة . تلك كانت حالة بعض الصاغة ، وصانعي أمشاط تنفيش الصوف (قراشلية)[317] والعمال الذين يعملون بدار السكّة ، الكائنة بدار عديّل ، وملحقتها في فندق راس الشراطين .

هذا والتقسيم في العمل والتوطين للحرفية اليهودية كانا ينقصان إلى أدنى درجة من النزاعات التي كانت تحدث لا محالة ، إبّان التوتّر ، بين عمال الديانتين. إلا أن الفرصة قد أُتيحت لي[318] فأشرت إلى أن الصنّاع اليهود العاملين بالمدينة القديمة كانوا يتعرضون أحياناً لتعسفات أو سباب ، عندما كان القلق يسيطر على السكان المسلمين .

وفضلاً عن بعض الحرف الصغيرة القليلة الأهمية ، كصناعة الفُرش أو أمشاط التنفيش والفوانيس ، كان يهود فاس متخصصين في صناعات الألبسة والمعادن الثمينة .

ا) كان من بينهم نحو خمسين خياطاً[319] ، منهم خيّاطو الأسرّة الملكية ؛ ويعمل ثلاثون أو أربعون منهم بالمدينة القديمة[320]، يخيطون على الخصوص ملابس من الجوخ المستورد[321] . كان منهم أربعة عشر (مرايمية)[322] يفتلون خيوط الحرير فيقدمون للمدينة الجدائل والضفائر الضرورية لصنع الملابس ؛ كانوا ينسجون على نموذج فني ، وهم جلوس على الأرض في عتبة باب منزلهم أو معمل صغير ضيق ، يصنعون عصائب وشرائط من القطن أو الحرير ، مزدانة أحياناً بخيط ذهبي أو فضي ، وحمائل

---

(317) ماسينيون ، رقم 72 . اسمهم مشتق من مشط التنفيش (قرشال ، ج قراشيل) . حسب پيريتيي المدارس ، ص . 170 ، كان يوجد أيضاً بعض صانعي أمشاط التنفيش للصوف قرب رأس الشراطين ، بباب فندق اللبّادين .

(318) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 4 .

(319) بحث حول طوائف الحرف ، ص. 152 .

(320) معلومات من م. يهودا بنسمحون .

(321) ماسينيون ، رقم 75 : خياطات الملفّ .

(322) ماسينيون ، رقم 76 ، بحث ، ص. 152 ؛ودوپيرينيي المرجع المذكور ، ص. 185-186 .

لتعليق (الشكّارات) وجدائل لعقد السراويل ، وأحزمة لإسراج البغلات إلخ .

بالإضافة إلى أن عدداً من النساء اليهوديات الفقيرات كنّ يقضين قسطاً من وقتهن في صنع أزرار من حرير (عُقَد) يذهب اليهود إلى المدينة لبيعها ، بينما تشتغل يهوديات أخريات بترقيع الثياب ، يجلسن في صفين بباب السمّارين في انتظار الزبناء المسلمين لفاس الجديد . ولم يكن في ذلك العهد أية خيّاطة يهودية تعمل للنساء المسلمات . بل بالعكس كان الكثير من المسلمات يحسنّ الخياطة بالآلة ويصنعن ملابس لبورجوازيات الملاّح[323] .

ب) لم يكن المهم من صناعة ملاّح فاس مركّزاً على ذلك ، ولكن المهم حقاً هو خدمة المعادن الثمينة التي كانت تشغل عدداً كثيراً من الرجال والنساء .

كان بعضهم يعالج النحاس في مسبك صغير تخرج منه مهاريس ، وأقفال وركُبُ ، وكان شيئاً قليلاً[324] .

وكانت معالجة الذهب والفضة بالعكس من ذلك ، تشغل الكثير من الإسرائيليين ؛ فكان أولاً ، عندما كان الملوك يسكّون العملة بفاس ، المستخدمون بدار السكة ، الذين يعملون تحت سلطة أمين مسلم ، نصفهم من اليهود[325] .

وكان يوجد بالملاح أو بفاس الجديد خاصة يهود يصنعون الورق والخيط الذهبي والفضي كما كان عدد الذين يطرقون الذهب منهم نحو ثلاثين حوالي سنة 1910 وكان ما يزال منهم ستة سنة 1925 ؛ كان هؤلاء العمال يطرقون باليد

(323) معلومات من م . يهود بنسمحون .

(324) معلومات من م . يهود بنسمحون .

(325) لوطورنو ، وفيكير ، صناعة الخيط الذهبي بفاس ، ص. 186 . كان هؤلاء العمال اليهود الذين كانوا يعملون وعددهم ستة ، مع ستة عمال مسلمين ، قد مكثوا بدار السكة ، بعد انتهاء سكّ العملة ، وهم يُستخدمون في ترقيق الفضة إلى خيوط .

الفضة ، والذهب بصفة خاصة ليصنعوا منهمـا أوراقاً رفيعة يستعملها مُرصِّعو الحديد في تحلية الركُب ، والمجلدون في التذهيب بالمكواة الصغيرة ، وصانعو الخيوط الذهبية في عملهم[326] .

كانت صناعة الخيط من المعدن الثمين (تصقلّيت) تشغل أزيد من 500 يهودي ويهودية ، من بين سكان لا يتجاوز عددهم إطلاقاً 8.000 نسمة : وهكذا نرى الرتبة العظيمة التي كانت تحتلها هذه الصناعة في حياة الملّاح ؛ كانت الصناعة الكبرى في هذا الحي ، يزاولها الكثير حتى في المنزل لأنها لم تكن تتطلب إلا أدوات بسيطة لا تُربك ، باستثناء بعض العمليات التي كان يُعهد بها إلى متخصصين . كانت هذه الصناعة بين يدي نحو عشرين معلماً (معلمين صقلّي) يملكون رأسمالاً هاماً نسبياً ، نظراً لارتفاع ثمن المادة الأولية[327] ، ويتصرفون كتجار أكثر منهم كتقنيين ، وكانوا يستخدمون بدون مواد مختلف المتخصصين في هذه الحرفة ، وعمّـال دار السكة ، والذين يطرقون الذهب ويرققونه ويحلون به ، ويغزلون خيوطه من الرجال والنساء .

وهناك أيضاً الصاغة ، وعـددهم 70[328] ، ينقسمون إلى صنفين : صانعي الحلي الفضية (السكّاكين) وصانعي الحلي الذهبية (ذهّابين)[329] .

---

(326) انظر كُيور ، ولوطورنو ، وباي ، المجلدون ، ص. 112 .

(327) ماسينيون ، رقم 74 ، تحت اسم « صناع الصقلي » . وقد تغيرت الأشياء جداً ابتداء من 1929 ، حيث إن أحد المعلمين استورد من فرنسا مجموع آلات الصناعية مع المادة الأولية المعدة لهذا الصنع الجديد ، الأمر الذي أحدث انقلاباً بملاح فاس ، إذ أصبح عدة مآت من الأشخاص محرومين من العمل ، في ظرف بضعة أسابيع ، وانحطّت جودة الخيوط المنتجة بشكل ملموس . ويبدو أن الصناعات التقليدية لصنع الخيط المعدني وسلك الذهب قد اضمحلت نهائياً . انظر في هذا الصدد لوطورنو ، وڤيكير ، **صناة الخيط الذهبي بملاح فاس** .

(328) **بحث حول طوائف الحرف**، ص. 152 ؛ ولم يذكر منها التقرير القنصلي سنة 1998 سوى 30 ، لكنه يذكر 20 « مذهّبا » ربما لم يكونوا إلا صاغة .

(329) معلومات م . يهود بنسمحون. ولا ينبغي خلط هؤلاء الصاغة مع المذهّبين العصريين للجلد الذين يحملون نفس الاسم (ذهّاب) ، لكن هذا الاسم يجمع على (ذهّابة) =

كان الأولون يصنعون الحلي الفضية المعدة خصوصاً للقرويين والطبقة الدنيا من الناس . وحتى بعض هؤلاء كانوا يستطيعون صنع الطلاء بالميناء، ويقيمون إما بالملاح ، وإما بفاس الجديد ، أو بالطالعة الكبيرة، في علية قنطرة بورروس ؛ ولم يكن الصاغة يقيمون إلا بالملاح ، أو في زقاق السكّاكين ، بين باب الملاّح وباب السمّارين ؛ كانوا ينقشون الحلي الذهبية ، لأثرياء فاس ويتلقون أحياناً طلبات من مدن المغرب الأخرى ، لأن بعض الحلي الذهبية لم تكن توجد إلا بفاس ولا تتزين بها سوى نساء غنيات جداً ، يهوديات أم مسلمات . ولا بد من سكّ جميع الحلي بدار السكة قبل عرضه للبيع .

والحاصل أن اليهود كانوا يحتلون قطاعاً هاماً جداً في صناعة فاس ، لكنهم يعملون فيما بينهم ويتعاطون ، في غالب الحالات ، الحرف المخصصة لهم تقليدياً . وفيما عدا تخصص الحرفة اليهودية وانعزالها ، فإنها شبيهة تماماً بالحرفة الإسلامية . ويبدو أن اليهود في هذا المضمار لم يُدخلوا على فاس نظاماً أصيلاً وأنهم اكتفوا بتقليد النظم الإسلامية التي كانوا يرونها تسير بجانبهم .

4) **محاولة لصناعة حديثة : (الماكينة)**[330] ـ كان السلطان مولاي الحسن قد أدرك بأنه لا سلامة للمغرب دون تحديثه ، وعلى الأقل في كل ما يتعلق بالجيش . ومن ثم جاء إنشاء بعثات عسكرية ، وشراء عتاد الحرب من مختلف الدول الأوروبية، وإيفاد بعثات مغربية إلى أوروبا ، من شبان مؤهلين ـ في نظر العاهل ـ للتدريب على الطرق الأوروبية ، وإحداث « مدرسة للمهندسين » في مدرسة فاس الجديد[331] . لكن هذا كله لم يكن

= وكلهم مسلمون . وكان أشهر الصاغة ، سنة 1899 ، هم شالوم سمحون ، ويعقوب ممران ، وحايم هاروش ، وكانوا ثلاثتهم جميعاً يعملون لحساب المخزن . (رسالة نائب فرنسا بتاريخ 25 ماي 1899) .

(330) انظر عن الماكينة ، م . بيرينيي ، المرجع المذكور ، ص . 218 -219 ؛ وأوبان نفس المرجع ، ص . 351 ؛ وعبد الرحمن بن زيدان المرجع المذكور ، جزء 2 ، ص . 495 -499 .

(331) بيل ، **الكتابات العربية** ، ص . 97 -116 .

كافياً ، إذ كان على المغرب ، في حالة وقوع حرب مع دولة أوروبية ، أن يكون قادراً على صنع أسلحة وإصلاحها ، وإيجاد عتاد حربي محليّاً ، ومن أجل ذلك ، كان من الضروري تنظيم دار الصناعة . فقرر مولاي الحسن احداثها بفاس الجديد ، قرب قصره ووكل القضية لضباط ايطاليين أقاموا سنة 1888[332] .

وُضع رهن إشارة هؤلاء التقنيين أرض واسعة ، بالجانب الغربي لمشور باب دكاكين ، يشقّها فرع حُوّل من واد فاس بإمكانه إعطاء الطاقة المحركة ، فأمروا بأن يُشيّد هناك مبنى واسع مماثل في مبدئه لأهراء مولاي إسماعيل الشهيرة بمكناس ، وطلبوا الآلات من إيطاليا واستطاعوا أن يشغلوا المصنع في غضون سنة 1890[333] . كان مجموع الآلات التي رُكِّبت بمشقة عند وصولها إلى فاس « قوياً ، عظيماً وفي حالة جيدة » في أوائل الحماية[334] : فكان هناك معمل للحدادة بمطرقة آليـة ، ومخارط عـديدة وآلات مختلفـة لإصلاح الأسلحة ، وجهاز كامل لأشغال النجارة والعربات . ورغم ذلك ، كانت المردودية ضعيفة : فحسب أوبـان[335] لم يكن المصنع يستطيع أن ينتج سوى خمس بندقيات في اليوم ، إذا ما أُوقفت كل العمليات .

كان المستخدمون يتألفون من ضابط سام إيطالي[336] يساعده ميكانيكيان

---

(332) انظر ما سبق ، الكتاب ، 3 ، الفصل 2 .

(333) إلا أن الكل لم يكن جاهزاً بعدُ سنة 1891 : فإن رسالة من وكيلنا القنصلي بتاريخ 23 جمادى الأولى 4/1308 يناير 1891 تشير إلى أن «جزءاً من البنايات التي أُقيم بها المصنع الذي يديره الإيطاليون بفاس قد انهار. وقد تطلّب البناء الخرب ثلاثة أشهر أو أربعة من الأشغال. وقع هذا الحادث في الليل ، ولو وقع بالنهار لتسبب في عدد كثير من الضحايا ، سواء من بين العمال أو أرباب العمل » . (وثائق بعثة فرنسا بطنجة) . والفاسيون هم الذين أطلقوا اسم (ماكينة) من أجل « آلات » دار الصناعة .

(334) دوبيرينيي ، المرجع السابق .

(335) المرجع المذكور .

(336) كان آخرهم هو الماجور كامبيني الذي ترك اسماً بفاس .

إيطاليان . وكان تحت سلطتهم صنّاع من شتى طوائف الحرف بفاس أو حتى من مدن مغربية أخرى ، خاصة الذين يصنعون البندقيات الأهلية ، وحدّادون وحتى حمّالون ، وهم زرزاية الذين جنّدهم المخزن هناك؛ وكانوا يعملون بأجرة بَسِّيطة حسنية في اليوم ، من الساعة 8 إلى 12 ومن الساعة 3 إلى 6 مساء ؛ وكانت مراقبة الغياب تجرى على الشكل المعمول به في الصناعات الأوروبية ؛ ومن أجل هذه الطرق الغير المعهودة في العمل بالمغرب ، بالإضافة إلى قلة الأجرة ، كان الصناع يقصدون (الماكينـة) بدون أي حماس . هذا ، وكانوا كلهم تقريباً يشتغلون لحسابهم الخاص قبل أوقات العمل وبعده . وكان الملك يزور أحياناً المصنع في جوّ من الصمت الرهيب ويأمر بتوزيع بعض الهدايا على العمال كالأحذية ، وملابس أو مبالغ زهيدة من المال[337] .

كانت هذه المحاولة لإحداث صناعة دولة جديرة بالإشارة إليها كأمر غريب ، لكنها لم تترك أي أثر دائم في عوائد الصناع الفاسيين . ودلّت تجربة الحماية على أنه كان من الأفضل للسلطان لو أنه فكّر في أن يستحضر إلى الماكينة أناساً من البادية ، مجرّدين من كل كفاءة تقنية : إذن لتكيفوا مع متطلبات الصناعة العصرية أحسن من الصناع الفاسيين ، إذ لم يكن عليهم سوى أن يتخذوا عوائد جديدة ، بينما كان على عمال فاس أن ينسوا قبل كل شيء تقاليد تقنية عريقة كاملة يتشبثون بها كل التشبث . وعلى النقيض من ذلك ، شاهد آخر القرن التاسع عشر نهاية صناعة البارود ، من جراء تفوق العتاد الحربي الأوروبي . وفي سنة 1898 ، كان ما يزال بفاس خمسة صناع للبارود[338] ؛ وفي سنة 1909 لم يكن آخر مصنع للبارود ، وهو الواقع على الضفة اليمنى للوادي الكبير بمنحدر قنطرة بين المدن ، يقوم بعدُ إلا بصنع

---

(337) إن جل هذه المعلومات تفضل بإفادتي بها م . فيكير ، الذي تلقاها شفوياً من حـدّاد مسنّ ، هو المعلم عبد الرحمن البطّاحي ، الذي سبق له أن عمل بالماكينة في دولة مولاي عبد العزيز .

(338) تقرير قنصلي بتاريخ 17 أبريل 1898 .

كمية قليلة من الباردو[339] .

خاصية الحرفية الفاسية . ـ ليس لطوائف الصناع خاصيات بالنسبة للطوائف الأخرى بفاس : فالتدرج من المعلمين ، والعمال والمتعلمين ، ودور رئيس الطائفة ، وقضاء المحتسب ، والمواسم الطائفية كل ذلك موجود بعدها بدرجة أدنى طبعاً في الطوائف الصغيرة الفقيرة . إن الطرافين أو المشاطيين وأضرابهم لم يكن لهم قط صالح خاص بهم ، ولم ينحروا إطلاقاً ثوراً لمولاي إدريس ، أو تكن لحرفتهم أية راية ، ولم يساهموا قط في الهدية المقدمة إلى السلطان : كانت تلك مزايا وتكاليف راجعة للحرف الكبرى التي كانت الحرف الصغرى تعيش في ظلها . ورغبة هذه الأخيرة أقل من غيرها في تشكيل كتلة ما : فكيف يمكنها أن تشعر بالقوة ، حيث إنها لا تمتلك العدد ، لا الثروة ، ولا حتى المواطنة الفاسية في غالب الأحيان ، لكونها مؤلفة في غالبها من غرباء عن حاضرة المولى ادريس ، من قرويين يعاملهم الفاسيون الحقيقيون بتسامح مشوب بالعجرفة .

مراتب الحرف ـ تؤدي هذه الاعتبارات إلى توضيح أنه توجد ، من بين مجموعات صناع فاس ، مراتب بدون طابع رسمي ، لكنها واقعية بالفعل ، إذ تتمتع بعض الحرف باعتبار حسن في الحاضرة ، وتكون أخرى أقل اعتباراً . ويرتكز هذا التمييز الموضوع منذ قرون على أسس في غاية التعقيد ، إذ أن مراتب القيم المحددة تقليدياً في الأمة الإسلامية ، التي تقتضي ـ على سبيل المثال ـ أن حرفة الحداد مذمومة ، تلعب دورها بالتأكيد : فهذا الترتيب مرتبط ـ على ما يبدو ـ بالمادة التي يستعملها الصناع : فالحديد والمعادن بصفة عامة تعتبر كمعادن دنسة ، لكونها تستعمل في السحر بكثرة . وهناك مواد أخرى قذرة ، كالزيت ، وأخرى غير مهمّة كالخشب ، إلخ ؛ لكن ليس لهذه المعطيات بفاس ما قد يكون لها من تأثير في مكان آخر ، إذ المهم

---

(339) مارتان الكذّان ، ص. 639 .

على الخصوص هو الأهمية العددية والاقتصادية للحرفة ، وجودة تقنيتها والأصل العرقي لأصحابها ، فهذه عناصر ثلاثة غالباً ما تسير في خط واحد .

فكلٌّ من نساجي الحرير ، والصوف ، والقطن ، والدباغين ، والإسكافين ، والصباغين أيضاً لكن بدرجة أدنى ، يشكلون ما يمكن أن يسمى بالأرستوتراطية الصناعية لفاس ، وذلك عن جدارة واستحقاق لأنهم الأكثر عدداً ؛ وكان جميع المعلمين المهمين ومعظم العمال ، قبل الحماية[340] ، فاسيين ذوي أصول عريقة ؛ ثم إن لهم قسطاً لا بأس به في رفاهية فاس ، فهم الذين يخلقون الثروة حقيقة بما يصنعون من أحذية وأقمشة . وتأتي في الترتيب حرف البناء غير بعيدة عن هذه : فالنجّارون والمعلمون البناؤون ، والفسيفسائيون ، والمزخرفون على الخشب والجص لهم قسطهم الوافر من الاعتبار في المدينة ؛ فإذا كانوا أقل عدداً من سابقيهم ، فإنهم يعترف لهم بخلق الجمال والرفاهية ، إضافة إلى كونهم هم أيضاً جميعاً فاسيين تقريباً .

وتأتي بعد ذلك زمرة الحرف المتوسطة ، التي تضم كل واحدة منها نحو مائة أو مائتين من الأشخاص على الأقل ، لكن ليس من بينهم سوى الفاسيين وهم : الحزاميون ، والقياطينيون ، والبرداعيون ، والسراجون ، والصفارون ، والشماعون ، والفخارون ، والنجارون الصغار ، إلخ .

وفي أسفل السلم توجد جميع الحرف التي لا تأتي بأي ربح وهي وقف على الغرباء : كحرفة الطرافين ، والفرانين ، والطحانين ، ونجاري العربات ، والبيطريين ، والجلالين ، وعمال معاصر الزيت وآخرين كثيرين

---

(340) إن إقامة الحماية والتغييرات التي أحدثتها في الحياة الاقتصادية للبلاد قد سببت تحركات هامة في السكان ، إذ أصبحت للمدينة جاذبية أقوى مما كانت عليه قديماً ؛ فتضاعف عدد الغرباء عن المدينة على الخصوص في جميع أوساط الأعمال اليدوية ، وحتى في طوائف الحرف التقليدية ؛ وجميع المعلمين القدماء مجمعون على ذلك ، لا سيما من بين الإسكافين والنساجين .

جداً . لكن لا ينبغي أبداً الاعتقاد بأن هؤلاء الصناع المتواضعين محتقَرون ، إذ ليس من اللائق ، في هذه المدينة الحاذقة ، أن يُتَعَجْرَف على محترف ، على رجل منتج . بل يتعلق الأمر هنا بترتيب اجتماعي يجهل مفهوم المحتقَر المنبوذ ، حيث إن جميع الصناع ، مهما كان نشاطهم ، لهم حق لقب (المعلم) الشرفي (أي الذي يستطيع أن يعلم غيره كالفنان والأستاذ) . ثم إن هذا الترتيب ما هو إلا فوارق دقيقة ولا يطبق إلا على الحرف في مجملها . إننا نعلم جيداً أن هناك إسكافين مساكين يخدمون منفردين بؤساء في دكان صغير ضيق ، بينما ذلك الفران يكسب قوته بكفاية . غير أننا متيقنون بأن الإسكافين عديدون ، يعيشون كما يحلو لهم في غالب الأحيان ، وأن تقنيتهم تتطلب الحذق والذكاء ، وهم على العموم حضريون حقيقيون مطلعون جيداً على عوائد المدينة ويمكن الاحتكاك بهم بدون إزعاج .

التقنيات الصناعية : ـ إن الاعتبار الذي تتمتع به مختلف الحرف منوط جزئياً بالمزايا التقنية التي تفرضها . لكن ، يجب هنا توضيح نقطة أساسية ، وهي أنه إذا كان بفاس كما هو الشأن في كل مكان تقنيات أكثر تقدماً وأكثر تعقيداً من غيرها ، فلا بد من الإشارة إلى أنها أدركت كلها ، قبل إقامة الحماية ، نفس الدرجة من التقدم ، وأسفرت عن عدة خاصيات وأبدت عدداً من المميزات المشتركة[341]. وقبل كل شيء كادت الطاقة المستعملة تكون دائماً هي الطاقة البشرية ؛ ولا يمكن ذكر غير حرفتين كانتا تلجآن إلى طاقة

---

(341) ما زالت هذه الملاحظة صحيحة بعدُ في مجملها ، إذ قليلة هي صناعات فاس التي أصبحت آلية ، حيث لا يمكن أن تذكر من جملتها سوى معاصر الزيت (وكان عددها ـ حسب جوكًانت (المقال المذكور ، ص. 101) ، 19 معصرة آلية سنة 1938 و14 معصرة تقليدية)، والمنشر وصناعات الخيط الذهبي بالملاح (انظر لوطورنو ، وڤيكير ، المقال الذكور) ، وبعض الطاحونات الآلية المقامة بفاس الجديد وبوجلود ، وباب فتوح ، وأخيراً ، معمل للغزل والنسيج مقام بالماكينة من طرف فرنسي . وقد أدخلت بعض التحسينات الجزيئية على تقنيات أخرى ، كالنسيج ، والتجليد ، والدباغة . وبقي غالبتها كما كانت عليه في بداية القرن الحالي تماماً .

أخرى : الطحانة ، التي كانت تستعمل الطاقة المائية للنهر ، وعصر الزيت الذي كانت تحرك أرحاءها الدابة المدورة . وفي سائر الحرف ، كان العمل اليدوي هو القاعدة .

الأدوات: ـ كانت الأدوات[342] بسيطة نسبياً ومصنوعة دائماً تقريباً في عين المكان، باستثناء النجارين الذين كانوا يستوردون بعض أدواتهم من أوروبا. ومجموع هذه الأدوات هو المستعمل في شمال إفريقيا كلها ، من قابس إلى أكادير ، مع بعض التغييرات المحلية ، القليلة من حيث العدد والأهمية : تتغير أسماؤها ، ويتغير أحياناً شكلها ، لكن لا يتغير استعمالها ولا دورها في كل حرفة . كان الخشب ، والحديد ، والخيط هي المواد الأولية الوحيدة المستعملة لصنع أدوات فاس ؛ ولا يمكن أن يذكر من بين المستوردة من أوروبا سوى الكاغد المُقَوَّى الذي كان يصلح للإسكافين وصانعي الجلود المدبوغة لتقطيع نماذجهم . ولم يكن الصانع الفاسي في بعض الأحيان محتاجاً حتى إلى أداة حقيقية ، إذ كانت آجرّة واحدة ، وحتى قطعة منها ، كافية للدباغين بسيدي موسى لتليين جلودهم إثر أحد تغطيساتها المعتادة [343] ؛ وكان الفخارون، في تسطير زخارف بالتجويف على صحونهم وآنيتهم، يكتفون بقطعة من الخيزران أو قضيبين[343] من خشب[344] ، وهكذا دواليك . فإطلاق كلمة « بدائية » في كثير من الحالات على هذه الأدوات ليس مبالغاً فيه .

لكن مهارة الصانع اليدوية كانت تسترجع التوازن وتكاد تحقق

---

(342) انظر عن أدوات بعض صناعات فاس ، كَيور ، وبَاي ، ولوطورنو ، **الدباغون**، وهنا وهناك؛ **والإسكافون** ، ص. 23 ، وهنا وهناك؛ **والمجلدون** ، ص. 112 ؛ولوطورنو، وڤيكير ، **خيط الذهب مرصعو الحديد** ، هنا وهناك ؛ و ا ـ م. كَواشون ، **التطريز بالخيط الذهبي** ، هنا وهناك ؛ وبيل ، **صناعات الخزف بفاس** ، هنا وهناك ؛وجوكَان ، المقال المذكور ، ص. 101 .

(343) كَيور ، ولوطورنو ، وبَاي ، **الدباغون** ، ص. 196 .

(344) نفس المؤلفين ، دراسة غير منشورة حول الفخارين .

المعجزات . فمن المدهش أن يلاحظ بأن صناع فاس كانوا يحصلون على منتجات ذات جودة حقيقية بأدوات في مثل هذه الدرجة من عدم الدقة . يجب أن تُراعى هنا نتيجة مهارة اكتسبت منذ نعومة الأظفار (لم يكن من النادر مشاهدة متعلمين عمرهم نحو عشر سنوات) وطريقة عمل مجربة . ويمكن القول إن التقنيات الفاسية ، كما هي كانت قد وصلت إلى نقطة الكمال . فمنذ العهد السحيق الذي استُقدمت فيه من القيروان أو الأندلس ، كانت تتحسن شيئاً فشيئاً بفضل جهد صبور ، وتعيش على حساب قرون من التجربة . وكان بعضها كالفخارة أو التجليد، يميل إلى الانحطاط ، لكن غالبتها قد احتفظت بقوتها القديمة . وكان لهذا التحسن الآلي للحركات نتيجة خطيرة ، وهو أنه كان يبطل أو يكاد حظ الابتكار الشخصي ، وإمكانات التجديد ، بالإضافة إلى مخاطرة كبرى وهي النسيان التدريجي لهذه الحركة أو تلك ، أو لمجموعة من الحركات ، أو لنموذج يتسم بشيء من الصعوبة ، لأن الصانع لم يكن باستطاعته إلا أن يتّكل على ذاكرته ، ما دام لا يمتلك مجموعات رسوم أو مخططات إلا نادراً[345] .

المواد الأولية : ـ١ كانت جميع المواد الأولية تقريباً تأتي هي الأخرى من البلاد ، فالخشب من أشجار الزيتون المجاوة أو من أرز الأطلس المتوسط ، والصوف من غنم الناحية أو سهول الغرب (كان صوف عَبْدَه يباع بانتظام في فاس) ، وقشر الدبغ من غابة معمورة أو جبال غياتة وآيت واراين ، والجلود من ناحية شمال المغرب كلها وخصوصاً من بلاد زمور ، وتاكّاوت (عصفة الأتل) ، التي يستعملها الدباغون ، من تافيلالت وشعاب زيز وغريس ، و روث الحمام الذي كان يستعمله الدباغون ، أيضاً من سطوح نفس المدينة وساحاتها[346] ، ويجد الفخارون طينهم بجوار فاس مباشرة ، وهلم

---

(345) انظر ب . ريكار ، صانع فاس .

(346) انظر عن الموارد الأولية والعقاقير المستعملة في دباغات فاس ، كْيور ،ولوطورنو، وپاي ، **الدباغون** ، ص. 201 — 221 .

جرا . ولم يكن يستورد من الخارج سوى بعض المعادن كالحديد ، والنحاس ، والقصدير ، وكذا الحرير ، والقطن ، وبعض الأصبغة المستوردة عادة من ألمانيا التي كادت تحلّ محل مواد الصباغة التقليدية . والحاصل أن صناعات فاس كانت تتمون في أغلب الأحيان من الناحية ذاتها ، وأحياناً من نواحي المغرب النائية ، ونادراً من الخارج : فكان المغرب طوال قرون ، قد تعوّد على الحياة بنفسه[347] .

الأهمية الاقتصادية : ـ ينكشف الطابع الحرفي للصناعة الفاسية في سمة واضحة ألا وهي ضيق المؤسسات . فإذا وضعنا جانباً الماكينة ، وهي مؤسسة للدولة شاذة تماماً ، لاحظنا أنه لم يكن يوجد بفاس أي أثر لتركيزٍ صناعي . فإشراف المعلم على نحو عشرة عمال ومتعلمين كان شيئاً نادراً إذ أن عدد أصحابه لم يكن يتجاوز ، على العموم الخمسة أو الستة . وفي كثير من الحرف المتواضعة مَنْ كان يُدعى رغم كل شيء « بالرئيس » كان يعمل منفرداً أو بمساعدة أحد أبنائه أو شباب من أقاربه كان يخلفه إن شاء اللّه . فكان بالإمكان وجود الخلايا الأكثر أهمية في طوائف النساجين ، حيث إن بعض المعلمين كانوا يملكون حتى عشرة أنوال ، الأمر الذي كان يمثل عشرين أو خمسة وعشرين مستخدماً ، لكنهم كانوا قليلي العدد ، ونادراً ما كانت أنوالهم تشتغل كلها في آن واحد[348] .

وربما يمكن تفسير هذا التشتت في المؤسسات جزئياً بفردية الفاسيين ،

---

(347) لم يعد الأمر الآن كما كان عليه سابقاً : فقبل الحرب ، كان صانعو الجلود المدبوغة يستوردون من إيطاليا ورق الذهب لزخارفهم ، بينما كان الخيط الذهبي للمطرزات ، أو على الأقل الرقاقة التي كانت تصلح لصنعه ، تأتي من ليون (لوطورنو ، وفيكير ، **الخيط الذهبي** ، ص. 86) ؛ وكان صانعو الجلود المدبوغة ميالين إلى أن يتزودوا بالجلد من مدبغة أوروبية ؛ وكانت جل مواد الصباغة منتجات كيماوية أوروبية .

(348) يبدو أن مؤسسات النسيج كانت أهم في القديم : يروي المعلمون الشيوخ ، كالأمين السابق لحرفة المفضل الشرابيبي ، أن بعض المعلمين قديماً كانوا يملكون عشرات الأنوال ، لكنهم لم يشاهدوا ذلك عياناً ولا يستطيعون تحديد تاريخه . ولعله يجب الرجوع إلى عهد ليون الإفريقي ، حيث كان النسيج يضمّ عمّالاً كثيرين جداً (جزء 2 ، ص. 108) .

وكراهيتهم لترك نشاطهم خاضعاً للغير(349) . ولا بد أن يُرَاعَى أيضاً في ذلك بقاء تقاليد اقتصادية عريقة أدخلها إلى فاس صناع جاؤوا من الأندلس والقيروان وبقيت في المشرق العربي إلى أن بدأ الاقتصاد الأوروبي يلعب دوره . فطالما عاش المغرب منطوياً على نفسه في استقرار مدهش ، لم يشعر أحد بالرغبة في تغيير نظام كانوا قد تعوّدوا عليه منذ قرون(350) .

ومن الأكيد بالتالي أن صناع فاس لم تكن لهم قط الوسائل المالية الضرورية لإنشاء مؤسسات كبيرة . فكانت حرفهم تكسبهم معاشهم ، لكن لا تغنيهم ولم تغنهم قط، على ما يبدو : فثروات فاس تجارية أو عقارية وليست صناعية ، خلافاً لما كان يجري بتونس مثلاً ، حيث كان صانعو الشاشيات قد توصلوا إلى تبوُّئ رتبة بين أعيان المدينة(351) .

يحصل صناع فاس كلهم تقريباً على معاشهم يوماً فيوماً ، ويتقتير في غالب الأحيان . فليس لهم إذن أموال متداولة تساعدهم على ادّخار مواد أولية

(349) فمجرد فكرة طائفة تزعج صناع فاس . فالطائفة الحرفية للمجلدين التي أنشئت سنة 1931 بإيعاز من مصلحة الفنون الأهلية ، لم تدم سوى بضعة أشهر والتعاونيات المنشأة ابتداء من 1937 ، حين كانت الحرفية تمرّ بأزمة ، لم تعط نتائج أفضل .

(350) كانت القوة المحافظة لهذه المنظمة التقليدية من الشدة بحيث إن الحرفية الفاسية ظلت هي حتى عند اتصالها بالاقتصاد الأوروبي . والارتباكات المتعاقبة في الحرب العالمية الأولى لم تغيّر منها شيئاً ، ولا كذلك الأزمة الاقتصادية لسنوات 1933 -37 ومن الممكن أن الظروف الحالية قد تزعزع بجد الهيْكل القديم ، لكن ما يزال الإعلان عن ذلك سابقاً لأوانه .

(351) كان أحد الوزراء الأولين للباي الأقرب عهداً ، وهو سيدي الهادي لخوا ، الذي زاول مهامه حتى 31 ديسمبر 1942 ، ينتمي إلى الأسر التي تصنع الشاشيات . وعلى النقيض من ذلك ، فإن أعظم الأسر الفاسية ، التي أحرزت رتبة في المخزن ، تنتمي إلى عالم التجارة ، كأسرة المقري التي ينتمي إليها الصدر الأعظم للسلطان ، ومندوب الصدر الأعظم في المالية ، وباشا الدار البيضاء ، ومحتسب فاس ، وعدد كبير آخر من الشخصيات الهامة في الدولة الشريفة ، أو أسرة التازي التي كان منها وزير للمالية في دولة مولاي عبد العزيز ، والمندوب الراحل للسلطان بطنجة ، وباشا جديد بفاس ، إلخ . . .

في الوقت المناسب[352] ، وعلى ارتقاب سعر ملائم لبيع منتجاتهم ، وعن تحسين أدواتهم أو حتى تأمين استبدالها العادي ؛ وهم بالأحرى لا يملكون المبالغ الضرورية للزيادة في حجم مؤسستهم . وبالعكس من ذلك ، كانوا كثيراً ما يضطرون إلى المعاش بتسبيقات من زبنائهم المعتادين أي التجار . ورغم أن هذه التسبيقات لم تكن قط باهظة[353] ، فإنها تشكل مع ذلك رهناً يشقّ كثيراً على الصناع التحرر منه كاملاً ، ويمنعهم من اتخاذ انطلاقهم . ولا بد من جهة أخرى أن نضيف بأن التجار المموِّلين يظهر أنهم لم يستفيدوا قط من الوضعية لإنشاء مشاريع مشتركة مصغرة .

اليـد العاملة : - يتم اختيار الطوائف الصناعية لفاس حسب الجماعات : فينتمي عمال إحدى الحرف ، إن كانوا فاسيين ، إلى مجموعة صغيرة من الأسر ، أو إلى مجموعة صغيرة من القبائل المتجاورة أو إلى ناحية ، كتافيلالت أو سوس عند الاقتضاء ، إن كانوا غرباء . ويكون الأمر اشدّ وضوحاً عندما نعتبر الطوائف المتوسطة الأهمية ، لأن الطوائف الكبرى تتجاوز قسراً إطار جماعة صغيرة عائلية أو حتى اختيار إقليمي . وهكذا فإن

(352) كشراء تاكّاوت ، بالنسبة للدباغين ، في الصيف عندما لم يكن الثلج يمنع القوافل ، أو الشاحنات حالياً ، من اجتياز الأطلس الكبير والمتوسط ، ولما توجد هذه المادة بوفرة في سوق فاس وبأسعار مناسبة ؛ انظر كَيوو ،ولوطورنو ،وباي الدباغون ، ص. 219 و 221 . وقد أبرز جيّداً بوسكي ، وبيرك (المقال المذكور ، ص. 340 -341) قلة موارد الصانع الفاسي ، بقولهما : « يتم الإنتاج على العموم يوماً فيوماً ، بدون النظر إلى أمد طويل ، وبعيداً من أن يعتبر كغاية في حدّ ذاته . فالصانع لا يرى بعيداً جداً أمامه : عندما يخرج الخراز من سوق السباط ، على الساعة 19 ، حاملاً معه ربح يومه ، يذهب إلى سوق السبيطريين حيث يخصصه للنفقات المنزلية : الدقيق والخضر ، واللحم ليوم الغد إذا كان النهار مربحاً ، . . . فليس للصانع ما يسمح له بانتظار الغد ، ولا بد له من أن يبيع في اليوم بالذات » .

(353) لما أمرت الحكومة ، سنة 1937 ، بدراسة الحالة المالية لطوائف الحرف بفاس ، قبل إنشاء صندوق للقرض الصناعي ، لوحظ أن الدين السائر لنساجي فاس كان إبان أقصى أزمة اقتصادية طويلة ، 15.000 فرنك فقط لمجموع الطوائف الحرفية .

الإسكافين والنساجين يفدون من جميع أحياء المدينة أو من هنا وهناك من مختلف أنحاء المغرب إن لم يكن أصلهم فاسياً . لكن سبق لي أن بيّنت أن عمّال معاصر الزيت كانوا جبليين ، وصانعي السلاح من تاغزوت ؛ ويسكن حي الكدّان عدد كثير من عمّال الفخار ؛ أما أرباب هذه الحرفة ، فإن عشرين من بين الأربعين الذين كانوا فيها سنة 1934 ، ينتمون إلى أسر توارثت الحرفة ، وهم : بنو مخلوف (ستة معلمين) ، والطيفة (أربعة معلمين) ، وبنو حدّو (أربعة معلمين) ، ومكْزارة (ثلاثة معلمين) ، والعلميون (ثلاثة معلمين) ،[354] . ومن جملة الصناع الذين تمكنت من استنطاقهم ، صرح لي العديد منهم بأن أباهم وجدّهم كانا يزاولان نفس الحرفة .

إلا أنه إلى جانب العمال المؤهلين المستقرين الذين يحتفظ بهم المعلم حتى النهاية ، يوجد في جميع الحرف الهامة مُياوِمون عابرون ، وهم على العموم عمّال تخصّصهم ضعيف ، أو عمال يدويون يتقاضون أجرة بسيطة ، أو أولئك المتنقلون بطبيعتهم في بحث مستمر عن المنصب المثالي، فيخيب ظنهم بعد قليل وهم مستعدون دائماً لتجربة حظهم . وكل من يحتاج إلى عمال من هذا النوع يمكن أن يجدهم في أماكن التشغيل التي تسمى بالموقف[355] . وهناك أماكن عامة يجتمع فيها جميع العمال بدون تخصص : هي باب فتوح ، وباب عجيسة وباب ساكْمة بالنسبة لخدمة الأرض (كالحصاد ، وجني الزيتون ، وزراعة البقول) ، وباب مولاي إدريس ، وباب السمارين والرصيف لأشغال المدينة (كالحفّارين والبيّارين[356] ، إلخ) .

لكن هناك أيضاً أماكن مختصة للتشغيل ، يجتمع فيها العمال الذين يحسنون حرفة . وهكذا فإن موقف الحاكة يوجد في المدخل الرئيسي لسوق

---

(354) ڭيوو ، ولوطورنو ، وباي ، **صناعة الخزف** ، ص. 270 .

(355) معناه حرفياً : « المكان الذي يوقف فيه » ، أي ينتظر فيه .

(356) **بحث حول طوائف الحرف** ، ص. 85 -86 .

الغزل ، حيث يأتي المعلمون لشراء الصوف المغزول[357] ، وموقف الفخارين يوجد في الزقاق الذي يحيط بالمعامل[358] ، وبالنسبة للدباغين ، يتم التشغيل بباب المدبغات الرئيسية الثلاث [359] .

وضعيات الصناع : ـ إن الطابع العائلي أو القبلي للصناعة الفاسية مضافاً إلى بخس أرباح المعلمين يجعلنا لا نلمس بفاس فارقاً هامّاً بين الشغالين والمستخدمين . فقبل الحرب على الأقلّ ، كان ذلك إحدى المميزات للصناعة الفرنسية وأن هذا الفرق الذي يُبعد المشغل عن الأجير غالباً ما كان يتخذ مظهراً عدائياً . لا شيء من ذلك بفاس ، حيث إن ربّ مؤسسة صغيرة كالتي رأيناها ، أقربُ إلى عماله من أن تحدث بينهم انشقاقات أخرى غير تنافر الطباع . يعلم العمال باختلافات يسيرة ما يربحه رئيسهم ؛ ويطلعون على حياته العائلية ويتبيّن لهم بسهولة أن عيشته ليست أقل عناء من عيشتهم[360] . والحاصل أننا لسنا هنا أمام طبقتين اجتماعيتين متميزتين ، ولكن فعلاً أمام طبقة واحدة ، هي طبقة الصناع ، عمّالاً كانوا أو معلمين .

وضمن هذه الطبقة الاجتماعية ، كانوا يعيشون كلهم أو معظمهم يوماً بيوم بدون كبير عناء إن كانت لديهم حرفة جيدة ، وببؤس تقريباً إن كان نشاطهم من النوع الذي لا يعود بشيء ، ولو كان لهم ما يكفي من الشجاعة

---

(357) لوطورنو ، وفيكير ، دراسة غير منشورة حول النساجين .

(358) كّيوو ، ولوطورنو وباي ، صناعة الخزف ، ص. 269 .

(359) نفس المؤلفين ، الدباغون ، ص. 225 .

(360) لقد تمكنت من تحقيق الأمر في جميع الحرف التي درستها . وإن تحليلاً مكثفاً بقدر الإمكان لمداخيل المعلمين ونفقاتهم قد بيّن بأن ربحهم الصافي ، على العموم ، لم يتعدّ قط ربح أحسن عمّالهم (انظر كّيوو ،ولوطورنو ،وباي ، **الفخارون** ، ص. 217 ، **والدباغون** ، ص. 228 -229)؛ومن جهة أخرى يكاد أرباب الحرفة الفاسيون لا يكتفون بتدبير مؤسستهم ، حيث إنهم يشتغلون تماماً كأصحابهم ، باختلافات يسيرة ، وهو أنهم يكونون مضطرين من حين لآخر إلى مغادرة الدكان أو المعمل ليذهبوا إلى السوق لشراء المواد الأولية أو العقاقير ، أو لبيع حصيلة يومين أو ثلاثة أيام من العمل ؛ لكنهم يمضون جل أوقاتهم في أشغال المكوّك أو المطرقة أو الشفرة .

والحذاقة . ومن الأكيد ، مثلاً ، أن عيش عامل مزخرف (زوّاق) ، عند الفخارين ، أيسر من عيش إسكاف ، أو غربالي أو جلّال . ومهما يكن من أمر ، فمن النادر جداً أن يستطيع صانع « أن يعتزل » العمل إذا شاخ ، ما عدا إذا تمكّن أحد أبنائه من تسلق السلم الاجتماعي أو اتفق أن إحدى بناته تزوجت برجل غني كريم ، وذلك ما يحدث أحياناً بعون اللّه . أما الذين يمارسون حرفة متعبة ، كحرفة الدباغ ، فيحاولون عندما يطعنون في السن ، أن يبحثوا عن حرفة أخرى تستلزم جهداً أقل ، كبائعين بالمزاد العلني ، أو عن مُكْرٍ يساعدهم على فتح دكان ؛ بينما يستمر الآخرون في القيام ببطء بحركاتهم الدائمة حتى يفاجئهم الموت . فكم شاهدت من هؤلاء الشغالين الشيوخ ، كالإسكاف سيدي مسعود[361] أو الشيخ المجلد لحلو[362] ، الذين أفضى بهم الأمر إلى أن يفقدوا الذوق وحتى فكرة الراحة ، وأن يتشبثوا بحرفتهم كما لو كانت الداعي الوحيد لبقائهم في هذه الحياة الدنيا .

الصانع في الحاضرة : ـ لا ينبغي أن يستخلص مما سلف أن الصانع يعيش في فاس عيشة المنبوذ . فإنه يحتلّ مكانه ومكاناً مشرفاً في الحاضرة ؛ وله أوقاته للانشراح ؛ وقد يلعب دوراً في بعض الأحيان .

ليست العلاقات طيبة بين المعلمين والعمال فحسب ، ولكن أيضاً بين الصناع وكافة السكان ، إذ إن العامل الفاسي لا يظهر أبداً ككادح مُحتقَر شرس . إنه فقير ، وهذا شيء مفروغ منه ، إلاّ أن ذلك لا يمنعه من التمتع بالاعتبار المرتبط بالذين يعرفون شيئاً ، مهما كانت معارفهم ضئيلة . إن للآداب الإسلامية دخلاً في هذا ولا شك ، لكن يجب ألا يبالغ في تأثيرها ، إذ من المعلوم أنه ، بالرغم على أن الآداب تتّفق والآداب الإسلامية في هذه النقطة ، فإن الفوارق الاجتماعية كبيرة جداً في أوروبا وأمريكا وغالباً ما تحدث

---

(361) ڭيور ، ولوطورنو ، وپاي ، **الإسكافون** ، ص. 15 ، هامش 5 .

(362) نفس المؤلفين ، **المجلدون** ، ص. 107 و پ . ريكار ، **التعرف إلى التجليد الفني بفاس** .

بين الطبقات هوات سحيقة . فالأجدر أن نفكر بأن الوضعية المعنوية لصناع فاس ناشئة عن التنظيم الاقتصادي العام وعن الطابع العائلي للحياة الاجتماعية .

إن انعدام مؤسسات كبرى يمنع من أن يتوقف العامل عن أن يكون فرداً ليصبح رقماً ؛ ليس أن الرئيس يعرف عماله فحسب ، لكن الزبناء والمارة في الطريق يعرفون أيضاً أسماءهم ؛ ولا يشعر صناع فاس أبداً بما يشعر به في غالب الأحيان عمال أوروبا ، من أنهم يُعتَبرون كآلات أو كماشية رفيعة : فلا يوجد بعدُ بفاس العمل المجهول الاسم .

ومن جهة أخرى ، ففي هذه القرية الكبرى التي ما تزال عليها فاس ، من بعض وجهات النظر ، يتعارف الجميع ، ويمكن القول إنه باستثناء بعض الطبقات العرقية ، مثل الجزائريين أو الفيلاليين أو اليهود ، لا وجود لمجموعات اجتماعية منفصل بعضها عن بعض انفصالاً تاماً . وأكثر من هذا ، فليس من النادر العثور على صناع ينتمون إلى أفضل الأسر : فإما أن يتعلق الأمر بأطفال غير موهوبين في الدراسة أو التجارة فنزلوا إلى الحرفية ، وإما بصانع فقير لكنه مستقيم ، تزوج بنت عائلة مكينة وتصاهر هكذا مع تجار أغنياء أو علماء شهيرين . وقد عرفت أمثلة منهم . ويجب ألا ننسى أخيراً أنه يوجد من بين العمال بفاس عدد من آل البيت النبوي ، فكيف يمكن ، والحالة هذه ، أن تستبعد طبقة الصناع ؟ .

يحتلّ إذن الصانع الفاسي في الأمة مكانة مشرفة ، إن لم يكن محسوداً عليها ، فلا يطبعه أي مركَّب للنقص . وخير دليل على ذلك هو أن المدينة بأسرها تشارك في الاحتفالات الصناعية ، وسواء تعلق الأمر بموسم مولاي إدريس أو بالأعياد التي تحتفل بها عدة طوائف حرفية ، فإن الصناع يستدعون لأفراحهم نخبة المدينة ولا يتخلف أحد عن هذه الاستدعاءات .

كانت هذه الأعياد تشكل أوقاتاً للاستراحة ، لكنها ليست الوحيدة ، إذ كانت الأعياد الدينية تشكل هي الأخرى أوقاتاً للانشراح ؛ فكان يوم الجمعة ،

أو بالأحرى عشية الخميس وصبيحة الجمعة إلى صلاة الظهر يعطل فيهما على العموم ، بالإضافة إلى أن الصناع غالباً ما يشاركون في الأفراح العائلية ؛ وفي بعض الأحيان ، لا سيما في الربيع ، عندما يكون العمل مربحاً ، يستدعي رئيسٌ رجاله لقضاء نهار في الهواء الطلق[363] . ثم إن الشغل لا يسير على الوتيرة الصارمة المتشددة للصناعة الأوروبية : وفي نهاية المطاف، فإن صانع فاس لا يعمل أبداً أكثر من ست ساعات يومياً ، بحساب مائتي يوم في السنة[364] ، ولا يعرف التوتر العصبي ، ولا المجهود بدون توقف للعامل الذي عليه أن يخضع للوتيرة القاسية للآلة.

وكان يتفق بالتالي أن يلعب الصناع دوراً مهماً للغاية في الحاضرة ، لأنهم كانوا يمثلون بمفردهم أو يكادون القوة العضلية في هذه المدينة المنطوية على نفسها ، التي كان فيها أولاد عليّة القوم لا يمارسون تقريباً أية رياضة بدنية . وفي حالة وقوع حروب أهلية أو خارجية كانوا يلتفتون إليهم كما يلتفتون إلى سلطة[365] .

لم يكتف الصناع بخلق الاضطرابات أو المشاركة فيها ، بل كانوا

---

(363) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 2 ، ص. 323 .

(364) ب. ريكار ، صانع فاس .

(365) يروي المؤرخون المغاربة الدور الذي لعبته بعض الطوائف الحرفية أثناء الفتن . وأشهر قصة في هذا الصدد هي ثورة الدباغين عند تربع مولاي الحسن على العرش (انظر الاستقصا ، ترجمة فومي ، جزء 10 ، ص. 279 -286 و 291 -294) ؛ وانظر أيضاً ما سبق ،(الكتاب 1 ، الفصل 4) . كما أن الصناع وخاصة الدباغين ، لعبوا دوراً في الاضطرابات بآخر دولة مولاي عبد العزيز . ففي 7 فبراير 1908 ، حيث حوصر وكيل البريد الفرنسي ، وهو جزائري ، في مكتبه لكونه اتهم بإفساد امرأة من فاس . وكان الدباغون هم الأشدّ عنفاً من بين المهاجمين (انظر ميطرو دولاموط-كابرون وطرنيكًا ، المرجع المذكور ، ص. 45) . ومن المحتمل أيضاً أنه كان يوجد ، من جلمة الـ 2.000 شاب الذين كانوا يتدربون على الرماية خارج باب الفتوح تحت رئاسة الشريف الكتاني (نفس المرجع ، ص. 36) عدد هامّ من الصناع . وعلى العموم ، فقد كان الدباغون ، والجزارون والصباغون ينظمون عادات المجتمع (انظر بحثا حول الطوائف ، ص. 39) .

يحسنون أيضاً حماية الحاضرة. ويتأهبون لها بتمرينهم على الرماية خارج أسوار المدينة : ولهذا الغرض ، كانوا يشكلون جمعيات الرماة ، وهي « تشكيلات شبه عسكرية حقيقية » ، يتدربون في المقالع والشعاب بضواحي باب عجيسة ، أو كانوا يذهبون لقنص الوحش الضخم في الناحية ، وخاصة في إقليم أيت سادّن[366] . كانوا يجتمعون في فرق متجانسة من 40 إلى 50 رجلاً ويشكلون ، عند الاقتضاء، الميليشيا المدنية المشار إليها آنفاً[367] : وبفضلهم كانت المدينة تقدر على الصمود ضد السطوات المفاجئة للقبائل المجاورة .

ذاتية الصناع للفاسيين : ـ إن الصانع الفاسي ، الذي شكّلته قرون من الحياة الثابتة ، قد أصبح في النهاية نموذجاً لرجل نميّزه بدون صعوبة ، مهما كانت لنا تجربة قليلة للمدينة .

ومع ذلك فليست بالتأكيد بنية جسمه هي التي تساعد على تمييزه تمييزاً حقيقياً ، إذ يوجد عدد البنيات بقدر عدد الحرف ؛ إلا أن للصناع جميعاً تقريباً جسماً أكثر رشاقة ، وأكثر خفة ونشاطاً من البورجوازيين الضخام ، ومن أصحاب الدكاكين والعلماء المتعودين على الاستقرار بدون حركة والمصابين بتصلب المفاصل . لكن ، بما أنهم غالباً ما يشتغلون النهار كله وهم منحنون في الدكاكين أو المعامل المختبئة في مؤخر المدينة تماماً ، وفي الحوض الرطب حيث يتدحرج النهر ، فليس لهم تلك الأجسام المتألقة صحة ، وتلك البشرات المتفتحة التي تميز أحياناً العامل اليدوي ؛ فللكثير منهم لون شاحب وظهر مقوّس . وأحسنهم بنية هم ، بطبيعة الحال ، الذين يمارسون الحرف الشاقة المضنية ؛ وأستثني الحمالين البربر الذين يقضون معظم أوقاتهم في

---

(366) انظر كَيوو ، ولوطورنو ، وباي ، الدباغون ، ص. 232 وبحث ، ص. 38 -39 .

(367) نشأت جمعيات الرماية هذه عن صلات مهنية أو عرقية : فالبعض منها لم يضم سوى الدباغين (انظر كَيوو ، إلخ ، نفس المرجع) ، والبعض الآخر أهل توات (ا نظر ميشو- بلّير ، مسلمو الجزائر ، ص. 113 -116) .

بلادهم الصحية الوعرة ، أو جبالة الذين يعودون في أوقات معينة إلى مساقط رؤوسهم في الجبال . فلا أريد أن أتكلم إلا عن الفاسيين العريقين . وربما كان أكثرهم قوة هم الدباغون ، بالرغم على وقوفهم الطويل وأرجلهم في الماء ، وعلى الروائح الكريهة التي يستنشقونها طوال النهار ، فجلّهم رجال أقوياء يفتخرون بأنهم يعمّرون طويلاً ولا يمرضون أبداً[366] ، وهم أكثر مرحاً ، وأكثر دعابة من سائر الصناع .

وفعلاً ، فإن إحدى خاصيات عمال فاس ، هو تحفظهم ،وهدوؤهم في العمل . قد ينتظر المرء أن يسود جوّ المرح والفكاهة في هذه المؤسسات الصغيرة ذات الطابع العائلي . غير أنه ، مما يذهل الداخل إلى « دراز » مأهول بالإسكافين أو النساجين ، هو سكوت الرجال : فلا يسمع سوى حفيف المكّوك ، وطرقات المشط الصماء ، وصرير المقصات الكبيرة للإسكافين أو قرع مدقّهم ؛ وأحياناً بضع كلمات وجيزة تتعلق بالمهنة ، لكن الغناء والمزاح قليل ، ولا وجود لسباب ولا صفير ، ما عدا عند الدباغين حيث يختلط اصطفاف الجلود المبلّلة بالصياح ، أو عند دكّاكي السطوح الذين يصحبون طرقهم البطيء بأنشودة رتيبة ، وهي عبارة عن تنفس جهوري أكثر منها أغنية . ولا يمكن القول بأن هؤلاء العمال كئيبون ، بل إنهم جديّون ، بجد مستسلم قليلاً وبدون مبالاة . ويظهر المتعلمون أنفسهم وكأنهم تنازلوا عن حيوية سنهم ؛ يمتثلون في أغلب الأحيان لأدنى حركة وينشغلون بصمت ، كما لو كانوا قرب سرير مريض ؛ ولعل أحسن نماذجهم المتعلمون الصغار عند الخياطين : إنهم أطفال في السابعة أو الثامنة من عمرهم ، أو أقل من ذلك أحياناً ، يستطيعون المكوث طوال ساعات جالسين يشبكون بدون ملل الخيوط التي يخيط حولها العامل طرف أحد الملابس .

لذلك لا توجد أغنيات صناعية ؛ صحيح أن عمال فاس لا يريدون أن

---

(368) انظر كْيوو ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، ص. 226 .

يطلعوا أجنبياً على محتوى بنية شبكة أيامهم . فهناك حشمة يدركها المرء جيداً ، وقد اصطدمتُ بها مراراً عندما كنت ألقي أسئلة تطفلية . لكن هذه الحشمة لا تُخفي شيئاً كثيراً فيما يخص الأغنيات : ذلك أن العمل ينجز في صمت ، كما ذكرته منذ قليل ، ولا يغني الصناع إلا في مناسبات دينية ، لكنهم ينشدون حينئذ أغنيات الجميع .

أما الثقافة فليس لهم منها شيء البتة ؛ إن الذين يفدون منهم من البادية لم يسبق لهم قط أن ترددوا على المدرسة ، ما عدا بعض الاستثناءات(*) . ولم يكن الفاسيون أعرف منهم بكثير ؛ نعم ، إنهم ذهبوا إلى الكتّاب في صغرهم ، لكن لم يمكثوا فيه طويلاً ، إذ كان لا بد ، قبل كل شيء ، من الحصول على الخبز اليومي ؛ فجلهم لا يحسنون القراءة ولا يستطيعون حتى كتابة اسمهم ، وذلك بالعكس ، مَا لا يمنعهم من احترام العلماء وتقديسهم . غير أن بعضهم خالطوا المدرسة بكيفية عادية ولهم رصيد صغير من المعلومات لا سيما الدينية .

ذلك لأن الصناع أناس أتقياء ، إن لم يكونوا مثقفين ، فقد انغمروا منذ طفولتهم في البيئة الدينية بمدينة مولاي إدريس ، متلقّين من آبائهم ، أو من شريف من بين أصدقاء العائلة ، أو عالم يقضي بحض الوقت معهم عند خروجه من الدرس ، بعض المعلومات الأساسية للديانة الإسلامية . يحافظون بدقة على صيام شهر رمضان ، ويقيمون الصلاة كلما استطاعوا ذلك ، ويشاركون باستمرار في الاحتفالات الدينية الكبرى التي تجمع الحاضرة بأسرها . قد يبدو إيمانهم للمثقف بسيطاً بعض الشيء ، إلاّ أنه عميق وجميل في بساطته . فيمكن أن يشاهد في كل دار دباغة من الدباغات الثلاث الهامة

(*) بل العكس هو الصحيح ، فالكتاتيب القرآنية في البادية ، لاسيما بادية فاس ، لا تقل عن كتاتيب الحاضرة . بالإضافة إلى أن الحرفيين بفاس مشهورون بتفقههم وحضورهم المجالس العلمية بعد صلاة الصبح وبين العشاءين (انظر مثلاً الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، 1 :224) . (مترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بفاس مصلى يستطيع العمال أن يؤدوا فيه فرائضهم تقريباً بدون مغادرة عملهم ؛ بل يوجد بدباغة كُرنيز فقيه يأتي بانتظام ليعلِّم الدباغين ذوي الاستعداد . ويذهب بعضهم إلى القرويين أو إلى جامع آخر لتتبع الدروس العامة لأحد العلماء المشهورين[369] ، ولذلك فإنهم غير منقطعين تماماً عن الحياة الدينية لحاضرتهم ، في أرقى ما تتوفر عليه .

لكن إيمانهم يتجسد أكثر في ممارسات أقل ثقافة : فالكثير منهم منخرط في طوائف صوفية[370] وبالأخص الطوائف الشعبية ، كطائفة حمادشة التي تضم خاصة الحمالين ، والحدادين ، والفرانين ، والإسكافين والدباغين ؛ وطائفة عيساوة ، التي يوجد ضمنها عدد كثير من الدباغين ، والحدادين ولا سيما الجزارين ؛ وطائفة التهاميين التي ينضم إليها دباغو عين أزليطن ، وأهل توات ، وعمال معاصر الزيت ، وكلهم تابعون لشرفاء وزان[371] تقريباً . كما أن لدرقاوة والكتانيين بعض الأتباع من بين الصناع في مختلف الحرف[372] .

وأخيراً ، فإن الخرافات غير منعدمة ، وهي أشياء لا يُتحدث عنها ويصعب اكتشافها ؛ غير أنه ، بعد كثير من التحفظات ، ينتهي بعضهم إلى الاعتراف بأنهم يتخذون في بعض الحرف على الأقل ، احتياطات ضد الجنّ . فيبدأ عدد كثير من الفرانين عملهم بدعاء حتى يتركهم الجنّ في أمان ، ويُحرق البخور يوم الجمعة في كل فرن[373] . وليس من النادر ، إذا اضطر الدباغون إلى أن يشتغلوا ليلاً ، أن يترددوا في المجيء وحدهم ويحدثوا كثيراً من الضجيج لإرغام العفاريت على الفرار[374] .

---

(369) انظر عن الحياة الدينية للدباغين ، كُيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، **الدباغون** ، ص. 232-33 .
(370) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .
(371) **بحث** ، ص. 140 -141 .
(372) انظر كُيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، **الدباغون** ، ص. 234 .
(373) بحث أُنجز في عين المكان في ربيع 1945 .
(374) كُيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، **الدباغون** ، ص. 234 .

إن البيئة الدينية التي يعيش فيها هؤلاء العمال لتساعد بقسط وافر على الصحة المعنوية التي يبرهنون عنها ، إذ كلهم تقريباً رجال مستقيمون نزهاء . لا أريد أن أسقط في إطناب ساذج ، لكنني ملزم ، بعد ممارسة طويلة في الأوساط الصناعية بفاس ، بذكر ما شاهدته وباستعمال صيغة المدح . إنني لم أصادف تقريباً أي عامل فاسي يشتغل باشمئزاز ولا يعبأ بحرفته . إنهم يحبون مهنتهم ولا يتركونها عن طيب خاطر ، حتى ولو من أجل نشاط أكثر ربحاً ، ذلك لأن مفهوم الشرف المهني متأصل جداً في هذه المدينة . فإن أخلّ أحد به أُقصي عن طائفته بدون شفقة ، لأن الهيئة سليمة قوية بقدر ما يكفيها للفظ كل الحثالات . فالصانع غير المستقيم إذن شيء نادر وموضوع فضيحة : سرعان ما « يفلس » وليس له وسيلة أخرى سوى مغادرة المدينة . كما أن الرئيس غير محتاج إلى سنّ القوانين لتأمين انتظام العمل : فكل واحد يعتبر من الشرف أداء مهمته على أحسن ما يمكن ، غير مدّخر في ذلك ، وقتاً ولا جهداً . ويشبّه الدباغون أنفسهم عن طواعية « بطبّاخة يلزمها السهر باستمرار على كوانينها » ولا يترددون في المجيء ليلاً إلى دار الدباغة حتى لا تبقى الجلود بضع ساعات أكثر في بعض أحواض الدبغ[375] .

يُدرَك إذ ذاك التقدير الذي يعيره السكان لهؤلاء العمال ، ويُفهم لماذا شكّل الصنّاع عنصراً جوهرياً في إشعاع فاس ، بالرغم على ضعف تقنياتهم واستعداداتهم للتجديد ، وتشتّتهم وخشونتهم ، وتواضعهم[376] .

---

(375) نفس المرجع ، ص. 229 ، وهامش رقم 5 .

(376) يظهر أن الأشياء تطورت قليلاً منذ إقامة الحماية ، لكن الأزمات الاقتصادية التي تتعاقب بكيفية سريعة جداً وكذا تتبع حضارة متباينة جداً، كل ذلك جعل الحرفية تتحمل تغييرات داخلية هامة . فعدد العمال الغير المؤهلين ، الذين ينتقلون من حرفة إلى أخرى ، يتزايد باستمرار ؛ وذوق الكسب يتسرب إلى الأذهان ، وقد شجعته خمس سنوات من « السوق السوداء » ؛ وقد أصيب الشرف الحرفي القديم . فمن العبث أن نتألم ، لا سيما أن هذه ربما كانت إرهاصات لتجديد ضروري .

الفصل الرابع

4/5

التجـــارة

فاس مدينة تجارة أكثر منها مدينة صناعة : فنظراً لموقعها في مفترق الطرق المؤدية من البحر المتوسط إلى الصحراء ، ومن السهول الأطلنطيقية إلى المغرب الأوسط ، كان للمدينة الإدريسية نزعة تجارية مقررة سلفاً . وقد أدرك السكان ذلك جيداً ولم يعجزوا عن القيام بالمهمة التي اقترحتها عليهم الطبيعة . إن جميع المؤرخين أو كتّاب الحوليات المسلمين ، وجميع الرحّالة الأجانب ، من ليون الإفريقي إلى علي بـاي وإلى روني ـ لوكلير ، مجمعون على التنويه بأسواق فاس وثراء تجارها ؛ حتى إن بعضهم ، وقد بهرهم هذا القدر من الأبهة ، ربما استسلموا إلى المبالغة فيما شاهدوه . ومما لا شك فيه على كل حال أن التجارة أحد النشاطات الرئيسية ، إن لم تكن الأهم في هذه الحاضرة .

وقد تمكّنت تجارة فاس من تغيير اتجاهها تبعاً لتغير الأزمنة : فكانت بالتأكيد متجهة نحو إسبانيا طالما كان هذا البلد إسلامياً ؛ وترددت عندما قلبت حركة الاسترداد من طرف المسيحيين الظروف الاقتصادية ، وتوجهت بعض الوقت إلى داخل إفريقيا عندما كان السعديون يسوقون جيوشهم إلى تنبكتو ، ومع ذلك فإنها لم تقطع الصلات الوثيقة التي كانت تربطها بالتجار الأوروبيين ، كما يثبت ذلك كلينار[377] وغيره من الرحّالة ؛ ثم إنها منذ القرن السابع عشر ،

(377) انظر كلينار ، مراسلة ، هنا وهناك .

عندما كان مويط ورولاند فريجوس يفدان إلى المغرب ، اتجهت بعزم نحو أوروبا الغربية ، ومنذ الحماية أصبح تجار فاس يتعاملون مع العالم بأسره ، من الولايات المتحدة إلى اليابان ، لكن ، مهما كان اتجاه تجارة فاس فإنها كانت دائماً دولية ، ذات بضائع قيّمة وكمّيات هامة .

تصنيف تجّار فاس : يميّز الفاسيون أنفسهم تمييزاً دقيقاً جداً بين صنفين اثنين من التجار : أصحاب الدكاكين (حوانتي ، ج حوانتية) والتجار بمعنى الكلمة . وإن لفظ « صاحب دكان » الذي يُطلق عليه الصنف الأول لا يرضي في الحقيقة تماماً ، كما أن لفظ «بائع بالتقسيط » الذي يمكن التفكير في أنه يعوّضه ، لا يعبّر أحسن عن الواقع ، إذ يوجد بفاس « تجار » لهم دكاكين ويبيعون بالتقسيط : هم تجار القيصرية . فليس التمييز بين الصنفين مركّزاً على مكان التجارة ، ولا حتى على نوعها ، ولكن بالأحرى على الأرباح التي تعطيها ، وكذلك على المادة المتعلقة بها ، وإن كانت أقلّ درجة فالأمر يتعلق في الصميم، بتمييز في غاية البساطة بين التجار الكبار والتجار الصغار .

إننا نمتلك بالنسبة للمجموعات التجارية نفس الوثائق التي لدينا بالنسبة للمجموعات الحرفية ، أي على قوائم وضعها ماسينيون[378] وريكـار[379] ومعلومات جمعها ش. روني ـ لوكلير في البحث الذي أنجزه سنة 1904 حول الحياة الاقتصادية بفاس[380] .

وبخصوص التجار ، فإن التمييز بالطوائف ليس صالحا ، إذ يجب ذكر الأسواق . فأصحاب الدكاكين غير مجتمعين حسب تخصصهم ، ولكن حسب السوق الذي يقيمون به : فالتصنيف الطوبوغرافي هنا أكثر دقة مما هو عليه بشأن الصناع . إن بعض الأسواق متجانسة وتضم تجاراً من نفس التخصص : كما

---

(378) بحث حول الطوائف الإسلامية بالمغرب ، في مجلة العالم الإسلامي .

(379) الحرف اليدوية بفاس ؛ واعتباراً لوجهة نظر المؤلف ، فإن المعلومات الخاصة بالتجارة نادرة .

(380) المقال المذكور ، في الإحصاء الجماعي ، 1905 . إن المعلومات الموجودة فيه والمتعلقة بالتجارة أغزر وأتم بكثير من التي تهم الصناعة .

هو الشأن في سوق السباط أو سوق الكتب ، وجميع الأسواق المركزية ، بصفة عامة ؛ وفي هذه الحالة ، يتّـفق مفهوم السوق مع مفهوم طائفة . لكن أسواقاً أخرى متنوعة ، إذ يوجد بها جنباً إلى جنب بائعو الخضر ، والفواكه ، والبقالون والجزارون وبائعو الزيت ؛ وهذا شأن جميع أسواق الحي . إذ ذاك تفقد الطائفة حقوقها ، فلا يعود مختلف أصحاب الدكاكين يخضعون لأمين من تخصصهم ، بل لأمين السوق الذي له قانونياً سلطة على جميع أصحاب الدكاكين التابعين له ، مهما كان تخصصهم[381] . غير أنه يتعين استثناء بعض الأصناف العرقية ، كأهل سوس الذين يحتكرون تقريباً بيع الزيت وسائر الإدام بالتقسيط ويخضعون لأمين من تخصصهم له السلطة القانونية على جميع « بقّالة فاس »[382] .

ونجد في القاعدة أصحاب الدكاكين الصغار ، المنتشرين في المدينة كلها . ويشتملون على بائعي الزيت ، والسمن ، والصابون الأسود والعسل (بقّالة)[383] . والبقّالة بمعنى الكلمة ، الذين كانوا يبيعون التوابل ، والسكر ، والشمع ، والكاغد ، والتبغ ، واللُّعَب والحلويات (عطّار ، ج عطّارة)[384] ، وبائعي الفحم والحطب (فحّامة[385] ، وبائعي النعناع (الإقايمية)[386] ،

(381) كانت مهام هذا الأمين مقلّصة ، إذا قورنت بمهام رؤساء الطوائف الحرفية ، إذ كانت تقتصر على جمع مال التبرعات التي يأمر بها المخزن أو من أجل الصدقة ، وعلى توزيع ضرائب المخزن . ولم يكن أمين السوق يُستعمل قط كحكم ولا كخبير .

(382) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(383) ماسينيون ، الرقمان 107 - 108 ؛ وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 312 .

(384) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور . ويُسمون « عطّارة مفرّقين » للتمييز بينهم وبين بقّالة سوق العطارين ، الذين هم متخصصون بدقة أكثر في تجارة التوابل . ويمكن مقارنة بقّالة الحيّ ، ـ من بعض وجهات النظر ـ ببقّالتنا في القرية أو بزارات مدننا .

(385) ماسينيون ، الرقمان 109 - 110 .

(386) نفس المرجع ، رقم 125 ، أو « موالين الإقامة »؛ أنظر سالمون (وثائق مغربية ، عدد 8 ، ص. 55) . « يبيع تجار النعناع بفاس هذه العشبة وحدها في الدكان ؛ ويزينون بضائعهم المعروضة بورود صغيرة يغرزونها في حزمات النعناع ويسمون (موالين الإقامة) ، واسمهم »

وبائعي الخضر والفواكه (خضايرية أو بيّاعة الخضرة)[387] ، وبائعي النفط أخيراً (موالين زيت الغاز أو موالين الغاز)[388] ، الذين تزايد عددهم بدون انقطاع قُبَيْل الحماية . ويمكن أن يضاف اليهم بائعو الحليب الطري أو اللبن الحامض (لبّانة)[389] الذين كانوا يتجوّلون في غالب الأحيان .

من الأكيد أن بعض أصناف التجار كانوا مجتمعين في سوق فريد ، وما زال بعضهم هكذا ، يؤلّفن تقريباً «القسم المركزي» للحرفة . لكن الحرفة تفرقت شيئاً فشيئاً في بعض أسواق الحيّ الهامة بصفة خاصة ، مكوّنة هكذا فرعين، أوثلاثة فروع وأحياناً أربعة. أولئك هم باعة السمك والفواكه الجافة والفخار . والذين غادروا « القسم المركزي » لم يعودوا خاضعين لأمينه وأصبحوا تحت السلطة القانونية لأمين السوق الذي استقروا فيه .

باعة الحوت (الحوّاتة) موزعون إلى مجموعتين ، أهمها بفندق الجوطية ، حيث يباع خاصة الشابل الذي يصطاد في نهر سبو ، والأخرى بزقاق الرصيف ، في المكان المدعّو البستيونية[390] . ويحتل باعة الثمار الجافّة (قشّاشة) نحو خمسة عشر دكاناً في سوق الشماعين ، لكنهم يوجدون أيضاً في أعلى الطالعة الكبيرة ، قرب باب بوجلود ، وفي سوق الصفّاح . يبيعون الزبيب ، والجوز ، والبندق ، والتمر ، والزيتون المصبّر ، والقطاني ، كالحمص ، والعدس ، واللوبيا والأرز[391] .

= مشتق من النعناع الذي يطلق على الإقامة لأنها تصلح لإقامة الشاي ، وهي تطييب الشاي » .

(387) نفس المرجع ، رقم 119 ؛ يشكلون مجموعتين هامتين ، الواحدة في حي الصاغة، وأخرى في حي الرصيف .

(388) نفس المرجع ، رقم 60 .

(389) ريكار ، رقم 16 ؛وماسينيون رقم 81 .

(390)ماسينيون ، رقم 79 ؛ ورونى ـ لوكلير ، ص. 312 ؛ وأوبين، المرجع المذكور ، ص 303 . وقد تكاثر عدد باعة الحوت منذ الحماية ، من جراء الإيرادات المتواصلة لحوت البحر ؛ ويوجد بعضهم بالطالعة الكبيرة والصفّاح .

(391) ماسينيون ، رقم 106 ؛ ورونى ـ لوكلير ، ص. 313 .

ويشكل الفخارون سوقاً مؤلفاً من نحو خمسين دكاناً بين ساحة النجارين وسوق الحناء ؛ وتباع في الجزء الأقرب لساحة النجارين ، الذي يضم نحو أربعين دكاناً ويُدعى سوق الفخارين (المزدَّج) ، حيث تباع القطع المزخرفة من طرف الصناع الفخارين ؛ ويباع في الجزء الآخر القريب من سوق الحناء ، المدعو سوق الفخار الأحرش المؤلف من نحو عشرة دكاكين ، أواني المنزل المصنوعة من الخزف الأبيض ؛ وغالباً ما يزخرف تجار هذا السوق الأخير ، وهم ينتظرون الزبناء ، الأقداح والأطباق ، وأباريق الفخار المعدة للبيع ، وذلك بغمس إبهامهم في القطران . بالإضافة إلى أنه توجد بالمدينة عدة مجموعات من أربعة دكاكين أو خمسة لتجار الفخار بالنخالين ، ورأس الشراطين ، والطالعة الكبيرة في انحدار قنطرة بوروس ، وسويقة ابن صافي وحتى بفاس الجديد ، تحت ظل جامع الحمراء[392] .

وهذه هي الخلايا التجارية الوحيدة المتخصصة التي تفرقت حسب ما أعرف على الأقل ؛ وأما الأخرى فبقيت متماسكة وثابتة منذ قرون ، بالنسبة لمعظمها ، في نقطة من المنطقة التجارية بالمدينة ، وبصفة عامة في ضواحي القيصرية أو داخلها . وإليكم لائحتها ، موضوعة حسب الترتيب الطوبوغرافي ، من الشمال إلى الجنوب .

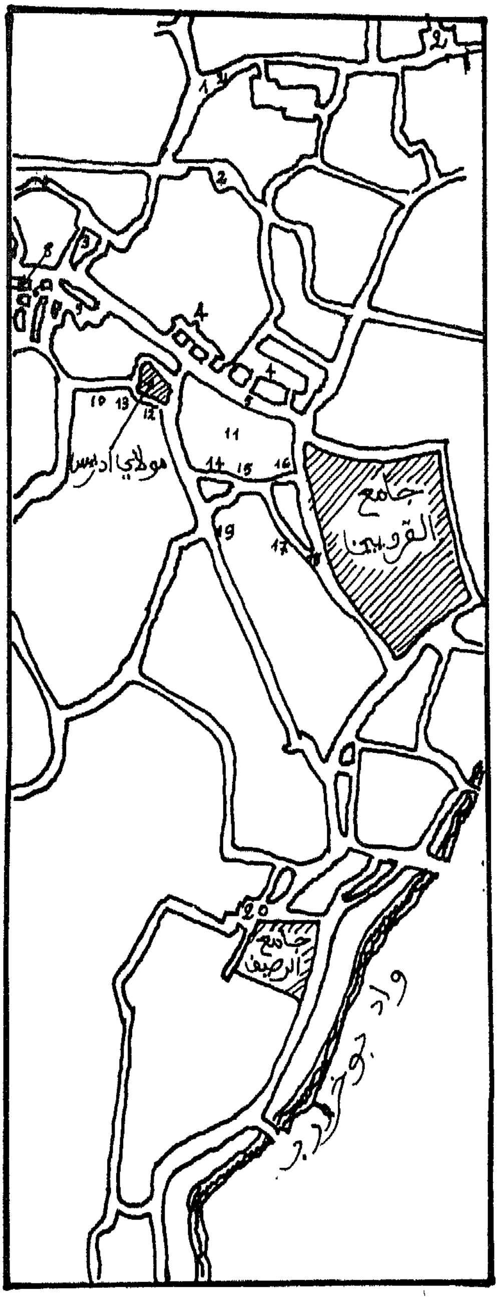
1° ـ « بائعو الأعشاب (عشّاب ، ج عشّابة)[393] مجتمعون بسوق العشابين الكبير ، في حدود حَيِّي الصاغة وفندق اليهودي . كانوا هم صيادلة فاس الذين يبيعون كل أنواع الأعشاب والنباتات الطبية[394] ، في خمسة

---

(392) روني لوكلير ، ص. 298 ؛ وڤيوو ، ولوطورنو ، ويباي ، دراسة غير منشورة حول الفخارين .

(393) ماسينيون ، رقم 125 ؛ وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 312 ، ولا سيما سالمون ، أسماء النباتات ، ص. 88 - 98 .

(394) انظر لائحة هذه النباتات عند روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 312 ؛ ولا سيما سالمون ، أسماء النباتات ، ص. 88 - 98 .



الرسم 25
الأسواق المختصة في البيع بالتقسيط

1. الأعشاب الطبية
2. الدجاج
3. خيوط الحرير
4. المنسوجات
5. التوابل
6. السروج وطقوم الخيل
7. الأوعية
8. قطران
9. الحنّاء
10. الزجاج والماعون
11. القيصرية
12. الشمع
13. الفشاغ
14. الأحزمة المطرزة (مضامّ)
15. فواكه ناشفة
16. أطباق مسطحة للطبخ
17. الخيوط
18. الكتب
19. ربطات خيوط الحرير
20. حطب التسخين
21. التبن .

وعشرين أو ثلاثين دكاناً .

2° ـ بائعو الدجاج (دجايجية)[395] ، وهم قرويون كانوا يجتمعون كل يوم في سوق العشابين ، بالساحة القريبة جداً من الصاغة وبساحة الرحيبة ، في حي فندق اليهودي ليبيعوا الدجاج ، والأرانب والحمام ، والبيض . فإن لم يمكن اعتبارهم كتجار مثل الآخرين ، فإنه تجدر الإشارة مع ذلك إلى أنهم كانوا يشكلون سوقاً حقيقية ، خاضعة لنفس القوانين كغيرها .

3° ـ بائعو الخيط الحريري بالتقسيط (بروالّيّة) ، المجتمعون بسوق الحرّارين بين الصاغة وعين علّو ، وعددهم نحو ستين . كانوا « يبيعون بالمزاد ، في أحد أزقة القيصرية ، ربطات صغيرة من الخيوط ، أربع عشرة ربطة في كل (طريحة) ، لتموين الحرّارين ، وصانعي الضفائر والسرّاجين »[396] .

4° ـ بائعو المنسوجات الأهلية من الصوف والقطن المجتمعون حول أربع ساحات صغيرة محاذية لسوق العطارين ، التي تدعى : سوق الحايك ، والقشاشبيين ، وسوق السلهام والسوق البالي . كان هناك مائة وسبعة عشر دكاناً ، يحتل بعضها معلمون نساجون[397] .

5° ـ بائعو التوابل (عطّارة) ، المقيمون على كلا جانبي سوق العطارين . كانوا يبيعون التوابل[398] ، ولكن يبيعون أيضاً الأقفال

(395) ماسينيون ، رقم 123 ؛ وروني ـ لوكلير ، ص. 298 .
(396) بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص. 343 .
(397) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 3 ؛ وماسينيون ، الأرقام 155 - 159 ؛ وروني لوكلير ، ص. 298 ؛ وليون الإفريقي (الجزء 2 ، ص. 95) الذي يقدر عدد الدكاكين ب 100 . والأرقام التي جمعتها عام 1945 هي 26 دكاناً بالنسبة لسوق التلّيس (قشاشبيّين) ، 40 بالنسبة لسوق الحايك ، و20 بالنسبة لسوق السلهام و31 بالنسبة للسوق البالي .
(398) انظر لائحة هذه التوابل عند روني ـ لوكلير ، ص. 310 - 312 .

والمقصـات ، واللُّعَب والكاغد ، إلخ . . .[399] ، محتلين مائة وخمسين دكانا .

6° ـ بائعو السروج وطقوم الخيل (سرايجية)[400] ، المجتمعون في مجموعة من الأزقة الصغيرة التي توصل ساحة النجارين بعين علّو والتي تحمل اسم سوق السقاطين .

7° ـ بائعو الشكارات (شكايرية) الذين كانوا يبيعون في آن واحد الشكارات ، وأوعية البارود ، والخناجر[401] ؛ وكانوا مجتمعين على كلا جانبي عين علّو .

8° ـ بائعو القطران والسلاسل (قطارنية) المقيمون في زقاق صغير موازٍ لعين علّو[402] . كانوا يبيعون بالإضافة إلى ذلك مختلف الأشياء المعدنية القديمة ، كالسلاح الأبيض ، والركابات ، واللجم ، إلخ . . ، وكان هذا السوق المسمى سوق عين علّو أو سوق المسامرية يشتمل على نحو خمسين دكاناً .

9° ـ بائعو الحناء وعددهم نحو الثلاثين ، مجتمعون حول الساحة الصغرى المدعوة سوق الحناء التي يفضي إليها مدخل مستشفى سيدي فرج . كان هؤلاء التجار يبيعون بالإضافة إلى الحناء ، الكحل الذي كانت النساء يكتحلن به ، والغاسول[403] ، والمداد (سماغ أو سماق) . وأقلام القصب لتلاميذ الكتاتيب القرآنية[404] .

---

(399) لائحة هذه الأشياء عند روني ـ لوكلير ، ص. 315 ؛ وماسينيون ، رقم 325 ؛ (انظر أيضاً ليون الإفريقي ، الجزء 2 ، ص. 103) الذي ينسب لهم 150 دكاناً .

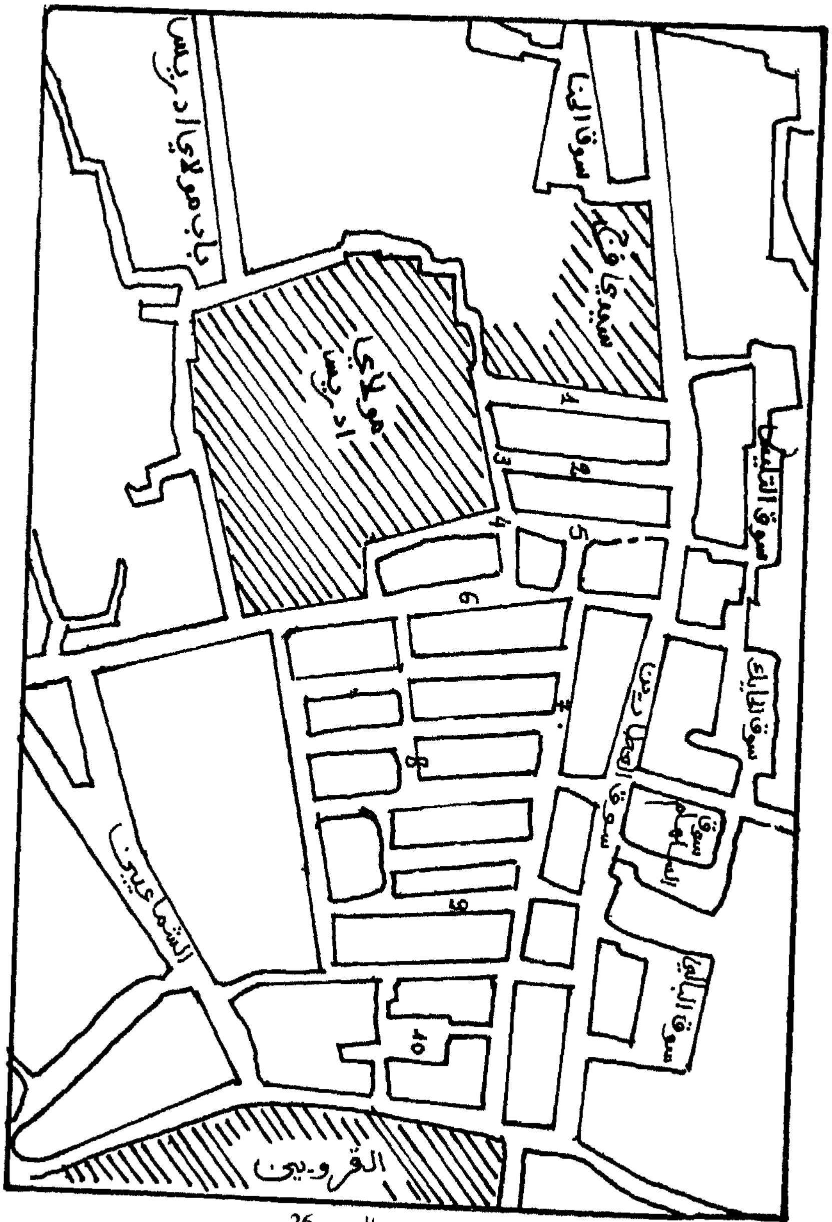
(400) ماسينيون ، رقم 128 ؛ وروني ـ لوكلير ، ص. 298 .

(401) روني ـ لوكلير، ص 299 ؛ وميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 307 .

(402) نفس المرجع ، ص 299 و 313 ؛ وميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 306 .

(403) ماسينيون ، رقم 158 ؛ وميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 310 وما بعدها ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص. 302 .

(404) معلومات جمعها السيد الأخضر حسب تعليماتي .



الرسم 26.

السقيصرية

1. ضفائر وخيوط
2. عطور
3. شموع
4. ملابس جاهزة
5. قبة القيصرية
6. قبة المديني
7. أحذية
8. نسيج مستورد
9. حلي
10. تطريز.

10° ـ بائعو الزجاج والأواني المنزلية من المعدن المجتمعون على كلا جانبي باب مولاي إدريس وهو زقاق يسير من ساحة النجارين إلى الباب الرئيسي لضريح المولى إدريس[405] . وهذا الزقاق مدرج في الحرم المحيط بالضريح[406] ، تماماً كالقيصرية ، لكنه ليس جزءاً منها ، ويفصله عنها هيكل الضريح . وأما الأسواق التي ستُذكر الآن فإنها على العكس من العناصر المؤسِّسة للقيصرية .

11° ـ القيصرية مجموع من أزقة متوازية تتقاطع في زاوية مستقيمة ، لكنها لا يحيط بها سوى دكاكين ، وليس بها أية دار للسكنى . يحدّها شمالاً سوق العطارين ، وشرقاً زقاق العدول الذي يفصلها عن جامع القرويين، وجنوباً سوق الشماعين ، وغرباً ضريح مولاي إدريس ومستشفى سيدي فرج . وكل زقاق أو جزء من زقاق مخصص لصنف من التجار : وهكذا نجد انطلاقاً من الغرب إلى الشرق بائعي الضفائر والخيوط من الحرير[407] ، والعطارين[408] ، والشماعين[409] ، وبائعي الملابس الجاهزة[410] ، والأحذية[411] ، والقماش المستورد[412] ، المقيمين في قلب القيصرية ، في

(405) روني لوكلير ، ص. 296 ، 298 و314 .

(206) انظر عن حرم مولاي إدريس ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 3 .

(407) ماسينيون ، رقم 17 ، **سوق الحرّارين** . يحمل هذا الزقاق أيضاً اسم سوق المجدليين ، ويضم 25 دكاناً . انظر الصورة رقم 26 .

(408) انظر لوتي ، المرجع المذكور ، ص 230 . يحمل زقاقهم اسم سوق الغالية ويضم 15 دكاناً .

(409) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص 313 .

(410) يشتمل هذا السوق على قسمين ، الأول يسمى قبّة القيصرية ، حيث كانت تقام دلالة الملابس البالية ، لكن من النوع الجيد ، والثاني يسمى قبّة الصدّيني ويتألف من نحو اثني عشر دكاناً . وهو مخصص لبيع الملابس الجاهزة المعدة للقرويين .

(411) ماسينيون ، **سوق السباط** ، الرقمان 153 - 154 ؛ وروني ـ لوكلير ، ص. 298 ؛ وڭيور ، وباي ، ولوطورنو ، **الإسكافيون** ، ص. 40 - 43 .

(412) ماسينيون ، رقم 148 ، سوق الحرم .

المكان الأكثر هدوءاً واعتباراً ، والجوهريين[413] الذين هم كلهم مسلمون خلافاً للصاغة ، وبائعي المطرزات والأقمشة المتقنة الصنع[414] . ونظراً لكونها جـزءاً من الحرم المحيط بضريح مولاي إدريس ، كانت القيصرية ممنوعة في الواقع على البهائم وعلى غير المسلمين مبدئياً : ففي فترات الحدّة الدينية ، كان على اليهود والمسيحيين أن يحذروا من المخاطرة فيها بأنفسهم .

كانت جميع المنافذ ذات أبواب توصد ليلاً : فمـنذئذٍ لم يعد يسكن في القيصرية سوى بعض« زرزاية » كانوا يحرسون الثروات المكدّسة في الدكاكين الضيقة[415] ، ويقومون بدوريات في الأزقة الخالية وعلى السطوح لاتقاء السرقات عن طريق التسلق . وفي الصباح كان الحراس يفتحون الأبواب من جديد فيصل التجار شيئاً فشيئاً ويجلسون في دكاكينهم باطمئنان ، منتظرين الزبناء ؛ لم يكن في الصباح كثير حركة ، إذ كان يُشرع في البيع بالمزاد حوالي الساعة الحادية عشرة ، في هذه الزاوية أو تلك . وكان العديد من التجار يغلقون دكاكينهم قُبَيْل صلاة الظهر ولا يعودون إليها إلا بعد الغداء ؛ وكانت الحركة على أشدّها في منتصف العشية ، ما عدا في حالة رداءة الطقس ؛ وكانت دلالة الأحذية تقام من العصر إلى المغرب ، في وسط خضمّ من الجمهور . وكانت أسواق القماش ، والعطور والمجوهرات تختلف إليها بصفة خاصة النساء[416] ، اللائي كن يأتين زرافات في أغلب الأحيان (إذ ليس من اللائق أن تتجول امرأة بمفردها) ، لقضاء حوائجهن ، أو ليشاهدن فقط البضائع المعروضة ويتأكّـدن من الأثمنة ، كما تذهب الباريسيات إلى المتاجر الكبرى.

°12 ـ وكان هناك أيضاً بائعو الشموع (شمّاعة) في الزقاق الذي يصل بين

---

(413) ماسينيون ، رقم 152 ؛ وروني ـ لوكلير ، ص. 298 ؛ سوق النقرة .

(414) سوق المركَّطان ؛ ماسينيون ، الرقمان 155 - 156 ؛ وروني ـ لوكلير ، ص. 297 .

(415) كان ذلك موجوداً أيام ليون الإفريقي الذي يعطي هذه المعلومة بصدد سوق العطارين

(416) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 297 .

باب مولاي إدريس والقيصرية من جهة وسوق الشمّاعين من جهة أخرى ، مارًّا جنوبيَّ الضريح .

°13 ـ كانوا يجاورون هنالك العشابين المتخصصين في بيع الفُشاغ (عشبة رومية) ، وهو مُنَقٍّ للدم يُستعمل كثيراً بفاس . كانوا يشكلون في ذلك الزقاق سوقاً من نحو عشرة دكاكين ، يسمى العشابين الصغير ، وكان كل تاجر يحقق فيه من المبيعات اليومية ما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ريالاً ، وهو مبلغ باهظ بالنسبة لفاس[417] .

°14 ـ وكان يوجد بسوق (المضنيمية) بائعو الأحزمة في نحو خمسة عشر دكاناً ، وهم صناع وتجار في آن واحد .

°15 ـ ثم يأتي « الجزء المركزي » لبائعي الثمار الجافة (قشّاشة) ، الكائن في سوق الشماعين ، في نحو عشرين دكاناً[418] .

°16 ـ وفي أقصى الشرق بهذا السوق ، وبالضبط أمام باب العدول لجامع القيروان ، كان دكانان متخصصين في بيع الأطباق الملمعة (طاجين ج طواجين) التي كان يُطبخ فيها الشواء والقديد . كانت هذه الأطباق تُستورد من الرباط ، لأن طين فاس لم يكن يصلح لصنع آنية مُعدّة للنار .

°17 ـ كان بائعو الخيط وبائعو الجلد (السبيطريين) يقيمون في الزقاق الذي يحمل اسم هؤلاء الأخيرين.

°18 ـ وكانت توجد في مفترق هذا الزقاق وزقاق العدول (سماط العدول) ، دكاكين الكتبيين[419] الذين كانوا يبيعون إما كتباً مطبوعة

---

(417) سالمون ، أسماء النباتات ، ص. 94 .

(418) يعطي ليون الإفريقي (الجزء 2 ، ص 89) رقم 50 دكاناً ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه .

(419) ماسينيون ، رقم 133 ؛ ورروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 298 ؛ وحسب ليون الإفريقي ، (2: 89) ، كانت هناك 30 دكاناً للكتبيين في القرن السادس عشر .

بفاس[420] ، وإما كتباً مستوردة من الشرق ، لكن بكمية قليلة جداً ، ولا سيما كتباً مستعملة اشتريت في دلالة الكتب التي كانت تقام ـ وما زالت ـ يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ، في جامع الجنائز من مسجد القيروان ، أمام درب السبيطريين[421] . ولم تكن تباع في هذه الدلالة الكتب المطبوعة فحسب ، ولكن أيضاً المخطوطات أو حتى قطع من المخطوطات، كما في عهد كلينار . كان الكتبيون ، وعددهم نحو عشرة ، تجاراً كغيرهم ، لا يشبهون في شيء أولئك الكتبيين الموجودين غالباً في مدن أوروبا ، الذين يقومون لدى زبنائهم بدور مرشدين ثقافيين . كانت الكتب الدينية ، والمؤلفات الفقهية ، وبقدر أدنى المؤلفات التاريخية تشكّل مادتهم الأساسية . أما الأدب المحض فكانت نسبته قليلة جداً .

°19 ـ وكان بائعو ربطات خيوط من الحرير الطبيعي أو المصبوغ (براولية) يقيمون في خمسة دكاكين أو ستة برأس الشراطين .

°20 ـ وبائعو خشب التسخين (عوّادة) ، الذين كانوا يقيمون في الهواء الطلق برحبة الزبيب[422] .

°21 ـ وأخيراً بائعو التبن (تبّانة)[423] ، الذين كانت لهم دكاكين حول رحبة التبن .

وتجدر الإشارة إلى أن هذين الصنفين الأخيرين من الباعة كانوا يقيمون خارج المنطقة التجارية الفاسية بمعنى الكلمة ويجدون أنفسهم في الحي الصناعي لباب سلسلة ـ رحبة الزبيب وكأنهم أطفال ضالّون .

---

(420) انظر عن المطبعة بفاس ، ما يأتي ، الكتاب 6 ، الفصل 2 .

(421) انظر عن دلالة الكتب ، لوطورنو ، كلينار ، ص. 59 - 60 ، وعن موقع جامع الجنائز ، بوتي ، تصميم القرويين .

(422) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 298 .

(423) ماسينيون ، رقم 136 .

لقد رأينا سابقاً أن عدداً كبيراً من تجار القيصرية ، وخاصة تجار الأقمشة المستوردة ، كان لابد من ترتيبهم في صنف « التجار » . إلا أن جل « التجار » لم يتخذوا دكاكين ، إذ كان مكتبهم ومخازنهم في الفنادق أو المستودعات الخاصة (دار السلعة) . إنني أحتار في أن أكتب كلمة « مكتب » نظراً لما يوحيه من صور أوروبية : كالهاتف ، والآلات الكاتبة ، وخزانات الملفات ، والمستخدمين العديدين . وبالرغم على أن مجموع مبيعاتهم كان في الغالب مرتفعاً جداً ولهم مراسلون بأوروبا ، فإن تجار فاس كانوا مجهزين على النمط التقليدي : يجلسون القرفصاء على لحاف صغير ، ليس لهم سوى قمطر يمكن حمله وبضعة دفاتر للحساب ؛ وكان مستخدموهم من أفراد عائلتهم في أغلب الأحيان : ابن ، أو أخ صغير ، أو ابن أخ ، أو ابن عم ، أو أبناء أصدقاء أو زملاء أيضاً ؛ لكنه يمكن القول إن صنف مستخدمي المكتب كان عملياً غير معروف بفاس على الإطلاق .

كان كبار التجار بفاس منقسمين إلى ثلاثة أصناف رئيسية : بائعو الحبوب (حنّاطة)[424] ، وبائعو العقارات (بيّاعة الفلاحة)[425] ، والمستوردون المصدّرون (تجار)[246] ، دون أن تكون هذه الأصناف واضحة التمييز فيما بينها . لقد أدلى روني ـ لوكلير[427] بلائحة لأهمّ تجار فاس ، صالحة لسنة 1904 ، وصنّفهم خمسة أصناف : الذين كان رأسمالهم يفوق مليونين من البسيطات الحسنية ، وعددهم سبعة ؛ والذين يتراوح رأسمالهم بين مليون ومليونين ، وعددهم خمسة ؛ وبين مليون ونصف مليون ، وعددهم سبعة ؛ وبين مائة ألف و500.000 بسيطة خمسين ألفاً ، و100.000 بسيطة وعددهم أربعة عشر . ووصل هكذا إلى رقم ستين تاجراً ،

(424) ماسينيون ، رقم 160
(425) تفس المرجع ، رقم 129 .
(426) المقال المذكور ، ص، 249 - 250 .
(427) ماسينيون ، رقم 141 .

يوجد من بينهم من تتكرر أسماؤهم غالباً (وهكذا فإنه يذكر اسم برّادة ثماني مرات ، والتازي سبع مرات ، ولحلو ست مرات ، والصقلي أربع مرات ، وبنيس أربع مرات) مع آخرين معروفين جداً بفاس مثل الأزرق ، وبنّاني ، سميرس ، وبنجلون ، وجسّوس ، والعمراني ، وبنشقرون ، والديوري ، والمراكشي ، والشرايبي ، إلخ . . . ؛ ونستغرب من عدم وجود أسماء ابن كيران والكوهن وبو عيّاد التي تدل على أسر تتعاطى التجارة تقليدياً . ومن الملاحظ التواجد المنسجم عند هؤلاء التجار بين أحفاد النبي ، كالصقليين والعمرانيين ، وأحفاد إسرائيليين أسلموا أمثال بنشقرون وبنّيس ، وبرّادة ، إلخ . . .

ومع أن هؤلاء التجار الكبار لم يكن لهم مستخدمون بمعنى الكلمة إلا أنهم كان يساعدهم سماسرة كانوا يشكّلون مجموعات صغيرة تابعة لمجموعات التجار ، لكنهم أكثر تخصصاً منهم ؛ وهكذا كان هناك سماسرة العسل[428] وسماسرة القطن[429] وسماسرة السكّر[430] وسماسرة الحبوب[431] وسماسرة العقارات ، وهلم جرا .

تجارة فاس الجديد : ـ لم يكن بفاس الجديد وبقصبة فيلالة إلا أصحاب دكاكين صغار ، أغلبهم مع ذلك من أهل المدينة ، لأن أعضاء قبائل الجيش الذين يكوّنون هم سكان فاس الجديد ، لم تكن لهم خبرة بالتجارة ، ولاسيما برأس المال الصغير الضروري لتجهيز دكان . ولا يتعلق الأمر سوى بمواد الاستهلاك العادي ، كالزيت ، والسكر ، والنعناع ، والأحذية العادية وبعض الملابس الجاهزة ؛ فإذا احتاج أهل فاس الجديد إلى شيء آخر كان عليهم أن يذهبوا إلى المدينة لشرائه . وكانت التجارة الأكثر رواجاً في هذه

(428) نفس المرجع ، رقم 142 .
(429) نفس المرجع رقم 143 .
(430) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 316 .
(431) نفس المرجع ، ص. 299 .

المدينة العسكرية البدوية هي التي تتعلق بالأشياء المستعملة التي كان يبيعها الخواص في « سوق البراغيث »[432] .

تجارة اليهود : ـ كانت التجارة في الملاح تسترجع حقوقها : فَتَحْتَ قباب باب الحي يوجد نحو اثني عشر دكاناً تشكل قيصرية مصغرة توجد فيها بصفة خاصة أقمشة مستوردة ؛ وكان الزقاق الكبير محاطاً بدكاكين يشبه معظمها دكاكين المدينة ؛ إلا أن بعضها قد اكتسى ، منذ 1904 ، صبغة أوروبية ، إذ كانت في مستوى انخفاض الزقاق ، وفي سعة أكثر ، وبها أحياناً حتى طاولة لبسط السلع[433] . وكانت تباع فيها ، علاوة على لوازم اللباس والمواد الغذائية المماثلة لما يُباع في المدينة ، مشروبات متخمرة (من خمر و « كاشير » ، وجعة ، وماء الحياة المقطّر في الملاح (ماحيا) ومشروبات روحية أوروبية) ، وكذلك أدوات البازار المستوردة من فرنسا أو ألمانيا ، من بينها أشياء لا يمكن العثور عليها في المدينة ، لأن المسلمين لا يستعملونها ، كدهان الأحذية ، وكربونات الكلسيوم الطبيعي ، والمراجل من الحديد المصبوب ، والمصافي ، والكراسي ، وسكاكين الأكل إلخ . . .[424] وبقطع النظر عن ميولهم إلى حبّ التجديد فإن أصحاب الدكاكين اليهود كانوا شبيهين بزمائلهم المسلمين من جميع النواحي .

ولم يكن يوجد من بين كبار التجار اليهود من يشتغل فقط ببيع العقار ، لأن أملاك الملاح كانت قليلة العدد ، ولأن العلاقات بين اليهود أنفسهم كانت وثيقة جداً لدرجة أنها لم تسمح بإحداث تجارة حقيقية ؛ ومن جهة أخرى ، لم يكن اليهود يستطيعون ملك أراض خارج المدينة إلا تحت شروط أمن قلّما كانت تتوفر[435] . وبالعكس من ذلك ، كان من بينهم العديد من بائعي

---

(432) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 5 ، ص. 188 .

(433) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 319 .

(434) نفس المرجع .

(435) ومنذ إقامة الحماية ، أقبل يهود فاس على الشؤون العقارية بجرأة .

الحبوب[436] ، الأمر الذي يبدو غريباً لأول وهلة ، لعدم وجود علاقة بين اليهود وأهل البادية ولأنهم لم يملكوا قط أراضي زراعية . إلا أن السر ينكشف عندما نفكر بأن اليهود كانوا يقرضون بالفائدة ، سواء بفاس أو بغيرها ، ويستسلمون الغلّات كرهائن عندما يعاملون أهل البادية . وغالباً ما كانوا يمتلكون زرعاً يبيعونه ، محتلّين شيئاً فشيئاً رتبة هامة في تجارة الحبوب .

وأما تجارة المال ، التي طالما كانت أحد موارد ثروة يهود فاس ، فقد أصابها كسوف منذ تربع مولاي عبد العزيز على العرش ، وذلك بسبب النشاط الناشئ للبنوك الأوروبية . إلا أنه لم يزل هناك صيارفة ومُرابون في ملاح فاس أوائل القرن العشرين ، يذكر منهم روني ـ لوكلير عشرين كانوا معروفين بمزاولتهم هذه المهنة .

ويمكن أيضاً بيان صنف آخر من التجار غير معروف في المدينة وهم بائعو الخمور والمشروبات الكحولية الذين كانوا يبيعون خمراً مصنوعة في الملاح ، على مقتضى الشريعة العبرية ، وماء الحياة المصنوع من التين أو الزبيب المقطّر محليّاً ، ويبيعون كذلك مشروبات كحولية أو كحولاً مستوردة من أوروبا (مثل الروم ، والجنييف ، والكونياك ، إلخ . . .) ؛ ويذكر روني ـ لوكلير[437] أسماء واحد وعشرين منهم .

لكن أعظم التجار اليهود كانوا هم الذين يستوردون المنتجات الأوروبية ، كما هو الشأن في المدينة . وكان لهم الاحتكار الفعلي للنفط الذي كان استعماله ينتشر بسرعة[438] ؛ بالإضافة إلى أنهم كانوا يستوردون من

---

(436) يذكر ـ روني لوكلير خمسة عشر منهم (المقال المذكور ، ص 320) حسب سيرديرا (المرجع المذكور ، ص 30) .

(437) المقال المذكور ، ص 320 .

(438) يذكر روني ـ لوكلير (نفس المرجع) مستوردين اثنين للنفط هما موشي دنان ويوسف بنطبول .

أوروبا أقمشة ، صوفية وقطنية[439] ، وأدوات البازار والخُردوات[440] ، ومواد البقالة (كالسكر ، والشاي ، والشمع ، والصابون ، والتوابل ، إلخ . . .)[441] .

وكان لهم طبعاً باعتبارهم بائعين بالجملة أو بنصف الجملة احتكار المواد التي تباع في الملاح ، لكنهم لم يكونوا يكتفون بهذا الميدان ، بل كانوا يتوصلون أيضاً إلى وضع بضاعتهم عند أصحاب الدكاكين في المدينة . كما استطاعوا أن ينافسوا التجار المسلمين حتى في أرضهم المختارة، وذلك بفضل اتصالاتهم بيهود طنجة التي كانت تمكّنهم من الحصول على أثمنة ملائمة[442] .

لذلك لم يكونوا يقيمون بالملاح فحسب ، ولكن حتى بالمدينة ، وكان لبعضهم حجرات بفندق النجارين ، والآخرون ، وهم الأكثر عدد ، كانوا يكترون مستودعات خصوصية (دار السلعة) في حي الديوان .ولم أسمع قط أن وجودهم في المدينة الإسلامية أثار أدنى حادث.

ومع ذلك ، لم تكن حصتهم في تجارة فاس قوية جداً ، بسبب المواقف الصلبة التي اتخذها التجار المسلمون[443] وتمسكوا بها . كانوا يعيشون في سعة ، لكنهم لا يملكون ثروات عظيمة ، إلا بعض الاستثناءات اليسيرة ، إذ كانت هذه الثروات ـ على ما يبدو ـ من نصيب الذين استطاعوا أن يتجروا مع المخزن : وفي هذا الصدد ، فإن أوبان[444] يذكر أسرة أفلالو التي كانت قد حصلت على استغلال الكيف وطابة المسحوقة ، وأسرتي بنسمحون وبنشامة

(439) وعددم ستة تجار ، حسب روني ـ لوكلير (نفس المرجع) .

(440) وعددهم ثمانية تجار (نفس المرجع) .

(441) وعددم أربعة عشر تاجراً (نفس المرجع) .

(442) معلومات من م. يهودا بنسمحون . ؛وروني ـ لوكلير، المقال المذكور ، ص. 319 .

(443) وحسب ياهاس فاس (سيماش ، تاريخ ، ص. 90) لم يكونوا سوى نحو عشرة سنة 1879 .

(444) المرجع المذكور ، ص. 374 .

اللتين عقدتا عدة صفقات لحساب المخزن . كانت الأمثلة من هذا النوع نادرة ، ويتحدث روني ـ لوكلير[445] ، على النقيض من ذلك ، عن أسر يهودية اضطرت في بداية القرن العشرين إلى مغادرة فاس ، بعد أن أفلست في التجارة .

المراكز التجارية : ـ رأينا منذ قليل أن الصرح التجاري كله مكوّن من أسواق تتشابك وتتقارب وتتطابق . ولابد من النظر بوضوح فيما يظهر لأول وهلة كركام ، وتحديد الاتصالات بين مختلف الأسواق بعضها ببعض وترتيبها وأهميتها الاقتصادية .

فالقيصرية سوق للأشياء المستوردة القيمة ولأجود منتجات الصناعة المحلية . تصلح في آن واحد للمعاملات الفردية عندما يأتي إليها الخواص ليشتروا منها ، وللمعاملات الجماعية إبان البيوع بالمزاد التي تجري يومياً في محيطها . وتتألف من شتى الأسواق المتآلفة بينها ، إن صح هذا التعبير ، وهو تآلف تجار من الدرجة الأولى . ويأتي على نفس الصعيد تقريباً تجار الأسواق التابعة لها ، كسوق الحايك ، وسوق العطارين ، وسوق عين علّو ، وسوق باب مولاي إدريس ، إلخ . . .

ويمكن أن يقارن المجموع بأحد متاجرنا الكبار ، حيث يمكن للمشتري أن يجد ، على مسافة صغيرة ، كل ما يحتاج إليه تقريباً ؛ لكن هنا كل رواق ، أو بالأحرى كل بائع يعمل لحسابه الخاص ولا ينتصر إلا إذا عرف كيف يربح في لعبة المنافسة الحرة الخالصة تماماً . وتتوالى الدكاكين ذات نفس التخصص جنباً إلى جنب؛ ولا تتضمن قاعدة اللعب الوسائل الاصطناعية للإشهار : فلا شيء دون الأشياء المعروضة بكيفية بارزة ، الأثمنة التي يعلن عنها التاجر من أعلى دكانه بنغمة مستسلمة ؛ مع قليل من الهيجات ومن المناقشات ؛ وكان أصحاب الدكاكين لا يكترثون بما يجري حولهم ، عندما

(445) المقال المذكور ، ص. 321 .

يتتبعون بأعين نصف مطبقة ، تحركات الزبناء في الظل الساخن بالأزقة التجارية . فنشاهد هنا التصرف التجاري مبسوطاً في عري يقارب التجرد . ورغم ذلك ، فإن هؤلاء التجار الذين يبدو وكأنهم يتلطفون مع زبنائهم عندما يتركون قراءة كتاب ديني ليهمسوا إليهم بالثمن ، ويمدوا أيديهم باسترخاء ليصلوا إلى شيء يراد النظر إليه من قرب ، إنهم تجار ماهرون يحصلون على مجموع مبيعات لا يستهان به . وترتبط فاس بالشرق من حيث هذا السلوك : فإن التظاهر بالتجرد ، والليونة المحسوبة والتأدب المتشامخ عند تجاره ، ليس لها أية علاقة بالمسارعة والتمويه اللذين تتصف بهما متاجر الغرب .

كما يظهر أن التسامح المطلق يسود في البيوع بالمزاد : يبيع من شاء ، ويشتري من شاء ، شريطة أن تكون البضاعة والعملة صحيحتين ، وأن تحترم القواعد التقليدية للبيع ، لكن الواقع مخالف لذلك بعض الشيء : فعندما تعرض للبيع بالمزاد منتجات الصناعة المحلية ، يعرف أصحاب الدكاكين جيداً كيف يمنعون الخواص من أن يشتروها كما يشاؤون ، حيث تُحاك بينهم اتفاقية سرية لتصعيد الأثمنة حتى تضيق أنفاس منافسيهم العابرين ويعدلوا لمدة طويلة عن العودة إلى الصيد في ملك محجوز . فالتجار ، في الحقيقة ، هم الذين يسيّرون البيوع بالمزاد ويؤمّنون لأنفسهم احتكاراً فعلياً بمساعدة الدلالين المتواطئين معهم بالفطرة[446] .

وبجانب هذا السوق المركزي ، هذا « المتجر الكبير » وهذا البازار ، كما يقول لوتي ، توجد أسواق متخصصة منتشرة على كل مساحة المدينة ، ولكل واحد منها مظهره الخاص .

أسواق الحبوب : ـ وأهمها أسواق الحبوب ، وكانت خمسة في أوائل القرن[447] :

---

(446) انظر في هذا الصدد بوكسي وبيرك ، المقال المذكور ، ص 330 و 333 .

(447) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 316. انظر الرسم 27 .

1° ـ سوق بين السواري ، ويُسمى أيضاً سوق الغزل لأنه يباع فيه الصوف في الصباح الباكر ، قبل أن يبدأ بيع الحبوب . ويُقام هذا السوق في ساحة مثلّثة الشكل ، محاطة بدكاكين تكريها الأوقاف ، لها منفذان ، أحدهما يفضي إلى سوق العشابين ، والآخر إلى درب سوق الغزل ، في حي فندق اليهودي . وكان شبه خراب في دولة مولاي عبد العزيز[448] .

2° ـ وسوق الصفّاح : (رحبة الزرع للصفاح) الواقع بحي الكدّان ، شماليّ سوق الصفاح تقريباً ، عند بداية درب اللمطي . وهي ساحة مثلثة ، محاطة بدكاكين ، يبدو أنها لم تخصص لهذا الغرض إلا في أيام مولاي عبد الرحمان[449] .

3° ـ وسوق الطالعة (رحبة الزرع) ، الذي يحتل مساحة مربعة الزوايا بطرف الطالعة الكبيرة التي يصلها به طريق ضيق قصير ، وتحت أسوار قصبة فيلالة .

4 ـ سوق رحبة التبن ، الذي ذكره روني ـ لوكلير[450] ، والذي لم يكن سوقاً بمعنى الكلمة . فكان هناك ستة أو سبعة دكاكين ، تُباع فيها ، في سنوات الرخاء ، الحبوب والخضر الجافة لسكان الحيّين المجاورين العدوة والقلقليين . كان يحمل هذه البضاعة قرويون يدخلون المدينة من باب فتوح أو باب جديد . ولم يكن قد بقي فيه ، أيام مولاي حفيظ ، سوى الشعير والتبن لعلف بهائم الفنادق المجاورة . وكانت الدكاكين ، وهي محفورة في مستوى منخفض بالطريق العمومية ، تقوم شيئاً مّا مقام المطامير .

5 ـ وسوق فاس الجديد (رحبة الزرع لفاس الجديد) المقام بساحة

---

(448) معلومة شفوية التقطت محليّاً .

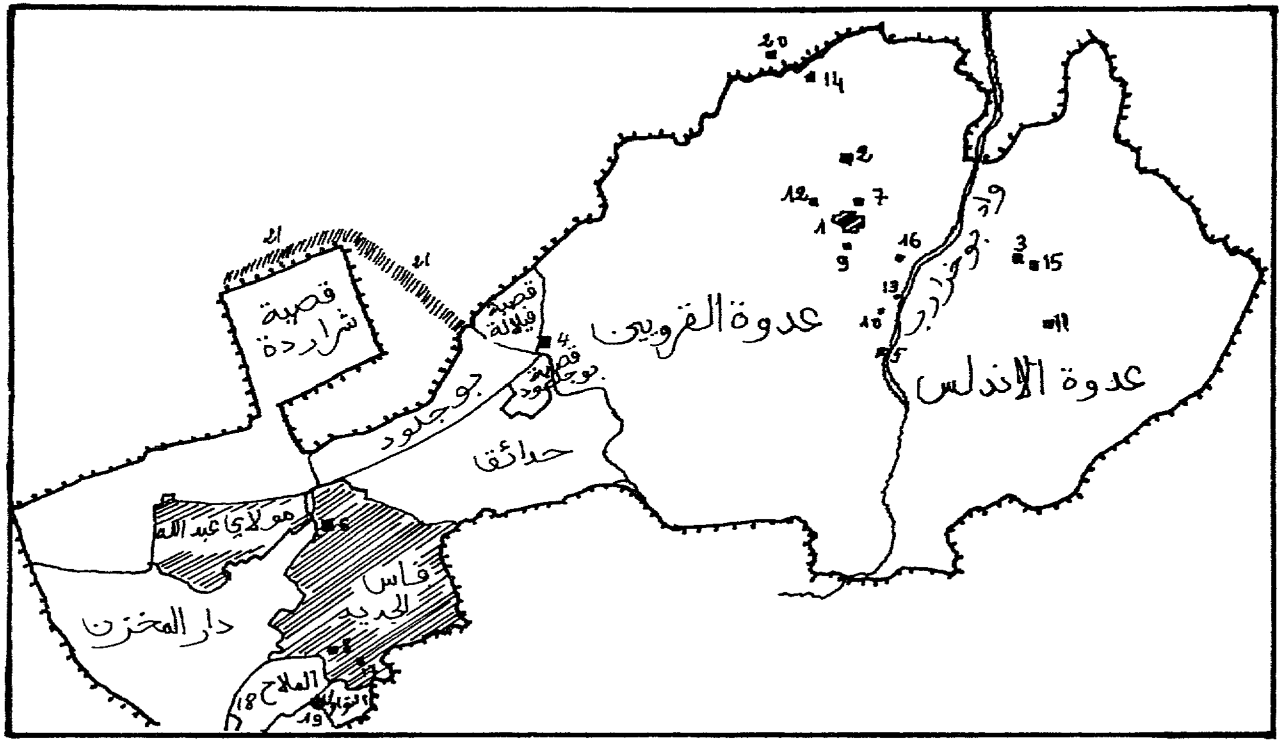
(449) انظر مارتان ، الكدّان ، ص. 629 . يوجد في هذا المقال معلومات مختلفة عن رحبة الزرع هذه ، ص. 629 - 630 .

(450) نفس المرجع .

الرسم 27

مراكز

التجارة بالجملة



1. القيصرية ـ رحبة الزرع 2 . بين السواري 3 . الصفاح 4. الطالعة 5. رحبة التبن 6. فاس الجديد ـ تربيعة الزيت 7. الديوان 8. فاس الجديد 9. فندق الشماعين 10. رحبة الزبيب 11. سوق الخضرة 12. سوق الحوت 13. سوق الملح 14 .زريبة الخشب ـ سوق الفحم 15. الكدّان 16. الصفارين 17. سيدي بونافع 18. قيصرية الملاح 19. سوق الخضرة 20. سوق الطيور 21. سوق الخميس .

مربعة مفتوحة على الزقاق الكبير بفاس الجديد من جهة الشرق ، على مقربة من المشور القديم .

إن بين أسواق الحبوب هذه عدداً من المشابهات ، وبعض الاختلافات البارزة أيضاً . فتجدر الملاحظة قبل كل شيء إلى أنها كانت الأماكن الوحيدة التي يمكن أن تُشترى فيها الحبوب بفاس ، إذ لم تكن الحبوب تباع في دكاكين الحي الصغيرة .

وكان بأسواق الحبوب (القمح الزرع) ، والشعير ، والذرة البيضاء والحمراء التي كانت تأتي من نواحي جبال صفرو وما وراءها ، والدخن (الزوان) للطيور والفول ، والحمص ، وأخيراً العدس ، ولكن بكمية صغيرة . كل هذه المواد كان يحملها إلى أحد أسواق الحبوب مهما كان ، فلاّحو القبائل المحيطة بفاس لأنه ، نظراً لعدم الأمن الذي ساد المنطقة خصوصاً في أواخر دولة مولاي عبد العزيز ، كانت الحبوب تُنقل أقلّ ما يمكن ؛ وكان أهم مُموّني فاس هم الحياينة ، وأيت سادّن ، وأولاد الحاج ، وشراردة ، وآيت وراين . كان في استطاعتهم أن يأتوا متى شاؤوا ، إذ كانت أسواق الحبوب تقام كل يوم ، ما عدا مدة أسبوع بمناسبة أحد الأعياد الدينية الكبرى الثلاثة ، ومدة ثلاثة أيام بمناسبة عاشوراء . وكانت المعاملات نشيطة خاصة في أواخر الصباح ، بين الساعة العاشرة والثانية عشرة ، لكن المشترين بالتقسيط كان بإمكانهم المجيء في أية ساعة من النهار ، لتيقّنهم من وجود بعض الدكاكين مفتوحة . ولا بد من استثناء سوق الغزل ، الذي لم يكن يشرع في تجارة الحبوب به ، إلا عندما تنتهي تجارة الصوف ، أي ابتداء من الثامنة صباحاً في الصيف ، والتاسعة في الشتاء ، ثم تسلم الساحة لتجارة الرقيق ابتداء من صلاة العصر ، وذلك على الأقل إلى حدود سنة1905 [451] .

وكان الباعة كلهم تقريباً قرويين يأتون إلى هناك بحمرهم التي كانوا

(451) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

يتركونها بمدخل السوق أو في فندق مجاور. وكان المشترون إما من الخواص وإما بالأحرى من تجار الحبوب (حنّاطة) الذين يشترون بالجملة ويبيعون بالتقسيط في دكاكين كل سوق . وعلى أن لفظة « دكان » إنما هي تلميح ، إذ لم يكن « الدكان » في الغالب سوى الأرضية الواقعة بين عمودي رواق يسير على طول أحد الجوانب للسوق على الأقل .

وفضلاً عن المشترين والبائعين ، كان يتردد على أسواق الحبوب بانتظام سماسرة كانوا يوصلون البعض منهم بالبعض الآخر . لم تكن هناك دلالة للحبوب ولكن بيع بالمزاد مع ذلك بالفعل ، يقوم فيه السماسرة بالدور الذي يقوم به الدلالون في مكان آخر . كما كان هنالك عبّارون مكلفون بالتحديد الدقيق للكميات المبيعة ؛ وحمالون خصوصيون[452] غير منضمّين إلى منظمة زرزاية ولا منتمين إلى ناحية ملوية ؛ وعدول مكلفون بتسجيل المعاملات واستلام الواجبات لحساب صاحب السوق ؛ وبهم كانوا يتصلون لمعرفة أسعار اليوم[453] .

وكانت تجارة الحبوب فعلاً خاضعة لواجبات السوق يستأجرها ملتزم ، كان العدول يعملون لحسابه . وكان الملتزم إما شخصاً مادياً أو شخصاً معنوياً : فكان سوق الصفاح ، سنة 1909 ، قد سُلّم إلى جماعة (حنطة) تجار

---

(452) كان من بينهم مثلاً خمسون حمالاً بسوق الصفاح قبل الحماية (معلومة شفوية التقطت في عين المكان) ؛ وماسينيون ، قائمة طوائف الحرف الأرقام 84 - 88 . تحت اسم حمّالة الحبوب ؛ وريكار ، رقم 2 ، تحت اسم حمّالة الزرع .

(453) بالإضافة إلى أن بوسكي وبيرك (المقال المذكور ، ص. 329 ، رقم 10) يذكران وجود مُضارب (برغاز) ، يشتري ويبيع حسب الأسعار ويتابع مضاربته الطفيفة لكنها مؤذية ، رغماً عن جميع أوامر الحظر الرسمية ؛ ووجود البائع الصغير بالتقسيط (سبايبي) ، الذي سيذهب ليبيع ثانياً عند البدويين ، بربح هزيل وكلام منمّق غزير : تماماً مثل « مُقابض » بوادينا ، واللفظ العربي نفسه يعبر عن الفارق الدقيق . وقد كانت هذه الحرفة الوضيعة أساس أكثر من ثروة في المغرب .

الحبوب[454] مقابل 30 أو 40 ريالاً للشهر في وقت عادي[455] . وكان للملتزم حق الشفعة في المواد غير المبيعة ، فكان يستعمل هذا الحق في آخر النهار ، مغتنماً الفرصة للشراء بثمن مناسب والاستفادة من الكيل الوافي . هذا ، ولم يكن هو المنتفع الوحيد من هذه الحبوب « لآخر ساعة » ، بل يستفيد كذلك السقّاء ، وبائع الحلويات ، والعجائز الفقيرات المترددات على أسواق الحبوب من هذا الحظ السانح[456] . وكانت فائدة كراء الدكاكين أو مساحات البيع من اختصاص علماء جامعة القرويين[457] .

كان لكل سوق تخصصه وزبناؤه : فكان يتردد على سوق بين السواري أناس من وسط المدينة ولا يباع فيه إلا بالتقسيط ؛ وكان للصفاح زبناء من سكان العدوة اليمنى ، كما كان للطالعة زبناء من الأحياء العليا بالغرب ؛ وكان هذان السوقان يضمّان أهم المعاملات ؛ وأخيراً لم يكن لسوق الحبوب بفاس الجديد سوى زبناء من السكان اليهود بالملاح والسكان المسلمين بحي المخزن ؛ ذلك ما يبيّن أن أهمية التجارة الرائجة هناك كانت تتغير في نسب عالية جداً ، حسبما كان المخزن مقيماً بفاس أو بمكان آخر .

وبالإجمال فإن معاملات حبوب التجارة بفاس كانت قليلة الأهمية نسبياً ، لأنها كانت لا تُؤمِّن تقريباً إلا تموين المدينة[458] ؛ أما المبادلات بين مختلف قطاعات البادية المحيطة بفاس ، فكانت تتم في الأسواق القروية الأسبوعية . ونظراً لصعوبة المواصلات ، لم تكن فاس لتأمل القيام بتجارة كبيرة لتصدير الحبوب ؛ فكانت الحبوب التي تطلبها أوروبا من المغرب تأتي

---

(454) كان هذا السعر يرتفع إبان الصيف ، حيث كان يُشرع في بيع المحصول الجديد .

(455) مارتان ، الكذّان ، ص. 640 .

(456) كانت الفقيرات المترددات على أسواق الحبوب يُدعين « كمّاشات » من « الكمشة » وهي ملء اليد . نفس المرجع .

(457) نفس المرجع ؛ وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 316 .

(458) روني ـ لوكلير ، نفس المرجع .

كلها من السهول الأطلنطيقية وتُحمل مباشرة إلى ميناء الشحن ، مثل العرائش ، أو الدار البيضاء أو الجديدة أو آسفي[459] .

أسواق المواد الدهنية : ـ كانت أسواق المواد الدهنية تعرف باسم « قاعات الزيت » وكان بفاس قاعتان ، إحداهما بالمدينة تنفتح على زنقة موازية لسوق العطارين تدعى « درب القاعة » في حي الصاغة ، والأخرى بين فاس الجديد والملاح في ضواحي باب السمّارين[84] .

كان الزيت يباع في هذه القاعة بالدرجة الأولى ، كما يباع فيها الزبد ، والعسل ، والصابون الأسود المصنوع بفاس ، واللحم المصبَّر (الخليع) . وكان الزيت يحمل في جرار كبيرة (قلّات)[461] ينقلها حمالون خاصون (حمالة الزيت)[462] كلهم من أهل توات[463] . وكان رواد هذه الأسواق ، علاوة على الحمالين ، الوزّانين (عبّارة الزيت)[464] وعدلين مكلفين بتسجيل المعاملات واستلام حقوق السوق لحساب الملتزم[565] ، وبالإضافة الى ذلك كان المخزن يأخذ عُشُر المبيعات عيناً[466] ، وكانت الحقوق المأخوذة عن

---

(459) تطوّرت الوضعية لفائدة فاس ، منذ الحماية ، فلم تعد مسألة المواصلات موضوعة ، لا سيما منذ تشييد الخطط الحديدية من فاس إلى طنجة والساحل الأطلنطقي . ومن جهة أخرى قد توسّعت جداً فلاحة الحبوب في ناحية شمال المغرب كلها ، بسبب إقامة استعمار كثيف جداً . فأصبحت فاس إذن سوقاً مهماً للحبوب ، يلعب فيه الإسرائيليون دوراً رئيسياً.

(460) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 1 ؛ وانظر عن قاعة الزيت بالمدينة روني لوكلير ، المقال المذكور، ص 312 .؛وأوبان، المرجع المذكور ، ص. 301 ؛وميشو بـلّيـر ، وصف فاس ، ص. 293 .

(461) انظر عن قيمة القُلّة ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 1 .

(462) ماسينيون ، قائمة طوائف الحرف ، رقم 89 -90 تحت اسم « حمّالة الإدام » ؛ وريكار ، رقم 34 ، تحت اسم « نقّالة الزيت » .

(463) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(464) ريكار ، رقم 33 .

(465) روني لوكلير ، المقال المذكور .

(466) أوبان ، المقال المذكور .

المنتجات الأخرى المعروضة بقاعة الزيت هي 0,40 بسيطة للقنطار[467] .

ولم يكن الزيت المعصور بفاس يمر دائماً بالسوق ، إذ يباع أحياناً مباشرة للزبائن ، لكن على رب المعصرة حينئذ أن يطلب إذناً بالبيع وتقديراً للحقوق التي عليه أن يدفعها[468] . وكان المشترون إما من الخواص وإما من باعة الزيت السوسيين[469] ، وكان الزيت المبيع بفاس لا يستعمل تقريباً إلّا للاستهلاك المحلي ، كالحبوب ، ولنفس الأسباب[470] .

أسواق الفواكه الجافّة : ـ يقوم سوق الفواكه والخضر الجافّة بفندق الشماعين[471] قريباً جداً من السوق الذي يحمل نفس الاسم ، وهكذا فإن الباعة بالتقسيط لا يضطرون إلى قطع مسافة طويلة ليتزودوا بما يحتاجون إليه من بضاعة ، وعلى الأقل من يوجد منهم بسوق الشماعين .

سوق الفواكه الطريّة والخضر : ـ تباع الفواكه الطريّة في أماكن أخرى ، فالعنب والرمان والحامض والليمون كانت تُقَاسِمُ جلود البقر النيّئة فندق رحبة الزبيب[472] ، وكان البيع فيه طوال السنة ، وتوجد فيه مختلف الفواكه بحسب الفصول .

وكانت فواكه الصيف والخريف تجد مكاناً لها مع خضر جنات فاس في فندق قريب من جامع الأندلس يدعى سوق الخضر أو السويقة[473] ، ولم يكن هذا السوق ، حسب أوبان[474] ، يعمر سوى خمسة أشهر في السنة ، من وقت

---

(467) نفس المرجع ، ص 302 .

(468) نفس المرجع .

(469) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(470) تقتضي العادة أن الجرار التي لم تبع في آخر المزاد يقع تحملها تلقائياً ويوزعها الأمين على البقالة (بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص. 344) .

(471) انظر روني لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 313 ، وأوبان ، المصدر المذكور، ص. 302 .

(472) انظر أوبان ، نفس المرجع .

(473) انظر **سلوة الأنفاس** ، 2 :7 ، في الترجمة المخصصة لسيدي الحسن بن ريسون .

(474) المرجع المذكور ، ص. 303 .

الفول في الربيع إلى وقت البطيخ والدلاع في الخريف[475] .

سوق السمك : ـ وكان سوق السمك يقام بفندق يشرف على الساحة الصغيرة للجوطية ، وكان يوجد فيه أساساً الشابل والبوري اللذان يصادان في نهري سبو وإينّاون ، وكذلك السمك الناشف المجلوب من شاطئ الأطلنتيق[476] .

سوق الملح : ـ كانت تجارة الملح في فندق يقع بحي الرصيف أمام جامع البستيونية[477] ، وكذلك في سوق الخميس الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

سوق خشب البناء : ـ خشب البناء المتكوّن من أرز الأطلس المتوسط وحده تقريباً ، كان يوجد بسوق يدعى « زريبة الخشب » بالقرب من باب عجيسة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة بعد الزوال[478] .

سوق الفحم الخشبي : ـ كان الفحم الخشبي ، وهو الوقود الوحيد الذي تستعمله خادمات المنازل بفاس ، يباع في ثلاثة أماكن :

1 ـ في فندق مجاور لسوق الصفّارين يدعى فندق الفخار[479] .

2 ـ في فندق بأعلى مرتفع الصفاح بحي الكدان ، يدعى فندق الغاسول .

---

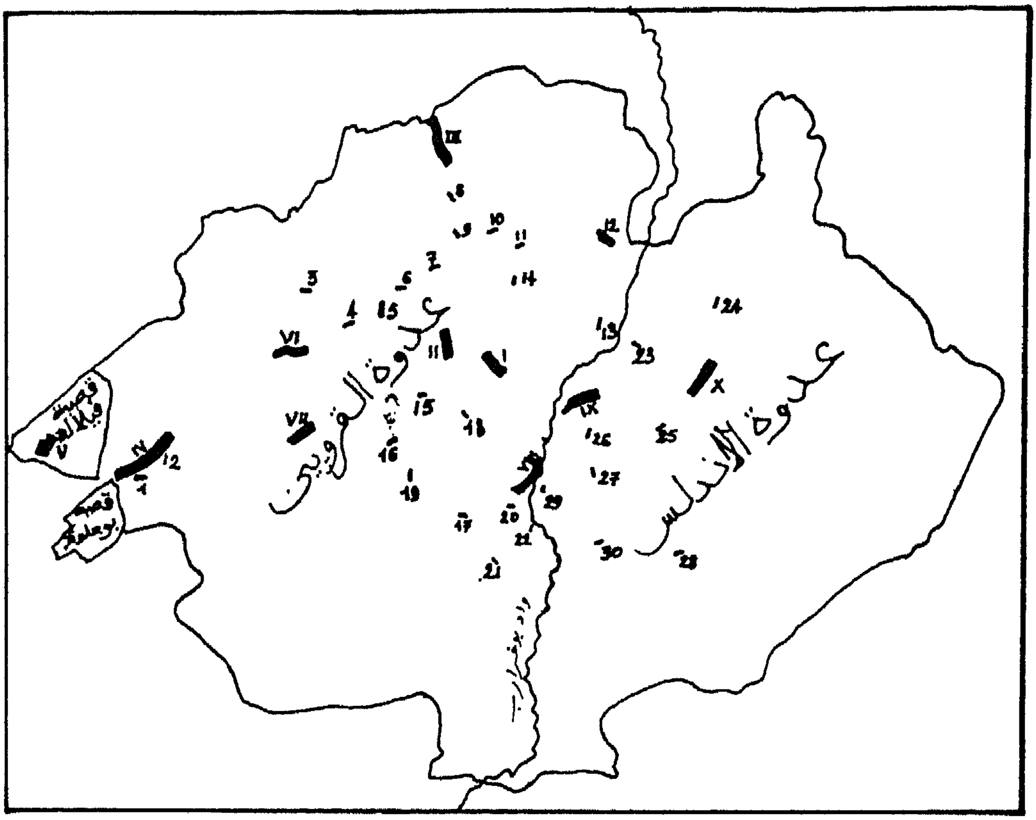
(475) هناك في أسواق الخضر من يعرفون « بالكدّاسة » الذين يقومون قبل الفجر بجمع ما يأتي به البستانيون (الجنانية) إلى السوق أكواماً متجانسة حسب النوع . على أن معظم هؤلاء البستانيين شركاء متضامنون مع خمسة أو ستة من باعة الجملة (القبّاضة الذين يحتكرون، بدلاً من هؤلاء البدو السذج ، البيع وقبض الثمن ودفع المصاريف المختلفة ، أو يؤجلون المشترين المحترفين من الباعة بالتقسيط الخاضعين للضريبة المهنية ثلاثة أيام التي يقتضيها العرف . (بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ، ص 329 ، هامش 10) .

(476) بوسكي وبيرك ، المقال المذكور ؛ وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص 313 .

(477) **سلوة الأنفاس** ، 1 :309 .

(478) م . دو پيرينيـي ، المرجع المذكور ، ص. 56 .

(479) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 302؛ وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 313 .



الرسم 28
أسواق الماشية
(مقياس 1/ 10.000)

أسواق ثانوية : I . باب سنسلة II . درب سيدي موسى III. باب عجيسة IV. الطالعة الكبيرة V. قصبة فيلالة VI. قنطرة بوروس VII. سويقة ابن صافي VIII . الرصيف IX . النخالين X. الصفاح.

أسواق أولية : 1 -2. الطالعة 3 -4. الشرابليين 5 -6 -7. زقاق الرمان 8 -9 -10. فندق اليهودي 11 -12 -13. البليدة 14 . الصاغة 15 -16. كْرنيز 17العيون 18 -19. القطانين 20 -21. رأس الجنان 22. القلقليين 23 -24. الكدان 25. الأقواس 26 -27. الكْزيرة 28. درب الشيخ 29 -30. المخفية .

3 ـ في فندق بحيّ سيدي بونافع بدرب الدروج ، كان يُمَوِّن فاساً الجديد والملاح[480]. وكان الفحم المهيأ في جبل البربر جنوبيّ فاس، يحمل إليها على ظهور الحمير ، وكان وصوله مُتقطّعاً غير منتظم في فصل الشتاء بسبب الثلج . وكان الاتجار بالفحم في فاس من نصيب أهل توات الذين كانوا يرشِّحون أنفسهم للالتزام بهذه الأسواق[481] .

أسواق الملاح : ـ كانت جميع الأسواق التي ذكرناها آنفاً تقام بأرض المسلمين ، وكان الملاح تابعاً لها على العُموم ، غير أنه كان يحتوي على أسواق صغيرة خاصة على مستواه . وقد سبق أن تحدثت على الحوانيت الاثنتي عشرة تقريباً التي تدعى قيصريّة ـ بالتفخيم ـ ، وبالإضافة إلى ذلك ، كان بعض البدو المسلمين يأتون إلى الزقاق الكبير لبيع البيض والطيور (وكانت تباع سبع بيضات برُبُع بسيطة حوالي سنة 1910)[482] . وكان السوق الحقيقي الوحيد بالملاح هو سوق الخضر التي كان يهود فاس يرغبون فيها كثيـراً[483] ويقام بحي النواويل في الأرض المخصصة مبدئياً لبناء مدرسة للاتحاد الاسرائيلي[484] ويُزوَّدُ أساساً من طرف يهود صفرو الذين كانوا يأتون يوم الخميس مساءً ببضاعتهم ، وينامون تحت قباب باب الملاح ، ثم يرجعون يوم الجمعة بعد الزوال بعد أن يبيعوا خضرهم ، وفواكههم عندما يكون الفصل

---

(480) يباع الفحم الخشبي أساساً منذ الحماية ، بفندق في الطالعة الصغيرة كان يستعمل سنة 1911 ثكنة لفرقة عسكرية شريفية .

(481) روني لوكلير وأوبان ، المرجع المذكور .

(482) إفادة من يهودا بنسمحون .

(483) يزعم سلمون أن ذلك هو سبب كون المسلمين يستهلكون قليلاً من الخضر ويقول : كون اليهود يحبون هذا الطعام أو ذاك كافٍ ليجعله كريهاً عند المسلمين : لذلك فإن الخضر التي تباع في أسواق فاس قليلة جداً بينما توجد أنواع كثيرة منها بالملاح (اسماء النباتات ، ص 70 . هامش 1) .

(484) يقام هذا السوق دائماً بنفس المكان ، ويمثل مشهداً غريباً أثار فضول كثير من الرسامين . انظر بالخصوص لوحة للآنسة ماريوط بمتحف فرنسا وراء البحار بباريز ، وانظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 1 .

فصل فواكه : فيحملون حب الملوك والبرقوق في شهر ماي[485] .

أسواق خارج الأسوار : - كانت جميع الأسواق المذكورة آنفاً تقام داخل المدينة تحت حماية الأسوار ، غير أنه على غرار جميع المدن الإسلامية ، كانت هناك أسواق أخرى خارج المدينة ملاصقة للأسوار فوق أرض شبه محايدة ليست تماماً من المدينة يغامر فيها البدو دون كبير تردد ، وهي مع ذلك غير بعيدة عن المدينة حتى لا يشعر أهل الحاضرة أنهم في غير مأمن .

لن أذكر بقصد الاطلاع إلاَّ سوقَ الطيور الذي يعمر يوم الجمعة بعد الزوال في حدود الساعة الثالثة خارج باب عجيسة[486] ،حيث يستطيع الفاسيون المغرمون بالطيور المغردة أن يشتروا من أنواع « القصار » المجلوبة من جزر كاناريا عن طريق العرائش أو طنجة (أم قنين أو بليق) ، أو العصافير (أنثاها سمريس) التي تصاد بالصمغ في الحدائق[487].وقد حكى أحمد بناني بأسلوب في غاية الروعة والظرف قصة (كناري عزّوز) [488] ، وإني أنصح بقراءة هذه الصفحات المليئة بالرقة والحساسية : إنها تنمّ عن جانب رفيع من الروح الفاسية .

سوق الخميس : - كان السوق الوحيد خارج الأسوار هو سوق الخميس[489] الذي ينعقد في الحقيقة مرتين في الأسبوع، الاثنين

---

(485) إفادة من يهودا بنسمحون .

(486) كان في عصر ليون الافريقي (104:2) دكاكين لتجار الطيور ، بلغ عددها حسب مارمول (167:2) ستة عشر دكاناً ، بجوار باعة القطن في طرف الحرم الادريسي الذي يحمل هنالك اسم باب البراطليين .

(487) ميشو بلير ، وصف فاس ، ص. 273 .

(488) أحمد بناني ، كناري عزّوز ، في مجلة التعليم العمومي بالمغرب ، رقم 180 . أبريل - يونية 1944 .

(489) انظر عن هذا السوق روني لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 317 -318 . بحث عن طوائف الحرف ، ص. 93 -94 ؛ ولوتي ، المرجع المذكور ، ص. 234 -240 ؛ وطروطي ،=.

والخميس . لكن الخميس اليوم التقليدي[490] كان هو يوم الازدحام الحقيقي ، ولم يكن يوم الاثنين إلا نوعاً من المضاف الزائد على الامتلاء . كانوا يجتمعون على طول الأسوار الشمالية الشرقية لقصبة شراردة ، وعلى طول الطريق الذاهب من ثَمَّ إلى باب محروق بين المقبرتين اللتين تكونان أُكَمَتَيْن[491] .

وكان أهم أسباب وجود هذا السوق هو التجارة في الماشية التي تذبح أو تركب ، لكن أهل البادية كانوا يأتونه ليبيعوا فيه زيادة على ذلك منتجات ما يربون ويصنعون : بيض ، طيور ، (الشواري) والتليس المضفور لحمل الفحم الخشبي ، وأواني الفخار الخشنة ، والدوم الذي يستعمل في بعض صناعات المدينة كوقود ، والملح المعدني المستخرج من المناجم الواقعة على منحدر جبل تغات ، أو أبعد من ذلك في اتجاه الشمال الغربي .

يأتي إلى هذا السوق المشعوذون ، والموسيقيون ، وملاعبو الحيات ، وفرق صغيرة من حمادشة أو عيساوة ، وحلاقون في الهواء الطلق ، فيضفون عليه جواً من الاحتفال الشعبي كان بهجة الفنانين وموضوع وصف ضاف لكل من لوتي وهريس . وكانت فرقة من جبالة تقيم به أحياناً ـ وهي راجلية ـ[492] مشهد إطلاق البارود ، فكان ضجيج الانفجار ينشط العمليات التجارية .

هذه التفصيلات على ما هي عليه من روعة ، يجب ألا تنسينا الجانب

= المرجع المذكور ، ص. 173 -174 ؛وكامبفمبير، نصوص فاس ، ص. 21 -20 ؛وو. هاريس، أسفار في المغرب ، ص. 118 -123 ؛ وايركمان، المرجع المذكور ، ص. 164 .

ويظهر أن الخميس هو الاسم المفضل للسوق الواقع خارج المدن المغربية . ففي مراكش أيضاً سوق الخميس . والواقع أن العمليات التجارية تقع منذ يومي الأحد والأربعاء بعد الزوال .

(490) كان هو اليوم المختار لهذا السوق منذ عهد ليون الإفريقي (170:2) .

(491) ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 260 .

(492) هاريس، المرجع المذكور .

الأهم الذي هو الاتجار في الماشية حيث لا تفتقد الجاذبية أيضاً .

إن بيع الخيل والبغال في الواقع يجري حسب طقوس وصفها العديد من الكتاب[493] . أما البغال فإن أمين السوق يبدأ بجمع الدواب والناس حوله ، وفي وسط صمت عميق يدعو بأن يحفظ مولاي إدريس السلطانَ والناس ، وعندما ينتهي هذا الدعاء كانت الدواب تُصفُّ في دوائر ، وتُجرى عليها أمام المشترين شبه ألعاب فروسية ، في حين كان الباعة يعلنون الأثمان المطلوبة في المزاد ويصيحون بأعلى أصواتهم ، وعندئذ فقط كان يُشرع في عقد الصفقات . وأما أصحاب الخيل فإنهم كانوا يرسلون دوابهم تجري ليرى الناس مزاياها ويعجبوا بها ، ثم يطوفون بين الجمهور معلنين المزايدة ، وعندما تصبح صفقة مهيأة للعقد ، يطلب المشتري (باب الله) أي أنه يرجو من البائع أن يَحُطَّ عنه شيئاً من الثمن المتفق عليه لوجه الله . وقد يطلب المتبايعان المختلفان من المارة عند الاقتضاء الشهادة بصحة ما يطالبون بـه[494] . وأما الحمير ، والجمال ، والبقر والغنم ، فإن أمرها يتم بطريقة أكثر بساطة ، ولا يمنع ذلك من تجمهر الناس والدواب ، وارتفاع الأصوات ، والشكاوى والخُوار ، والحمحمة ، ودقّات أجراس السقائيين ، يُكوِّنُ ذلك كله تناغماً عجيباً من الضجيج والحركة . فخلال الأيام الثمانية أو العشرة التي تسبق عيد الأضحى أو (العيد الكبير) لم تكن ترى سوى أكباش تُعَدُّ بالمئات يصعب على الباعة والمشترين أن يفتحوا لأنفسهم طريقاً بينهـا ، ويُعقد السوق آنذاك كل يوم بدون انقطاع[495] .

كان الباعة من بادية إقليم فاس ، وأيضاً ، في فترات الأمن على الأقل ،

---

(493) انظر بالخصوص روني ـ لوكلير وكمفميير وطروطي ، المرجع المذكور .

(494) إيركمان ، المرجع المذكور . ويتعلق الأمر هنا بشكل من « التخفيض اللطيف المشار إليه فيما سبق . (انظر الكتاب 5 ، الفصل 2) .

(495) يقدّر أنه في خلال هذه الفترة كان يباع في سوق الخميس من 30 إلى 50.000 كبش (**تحقيق عن طوائف الحرف** ، ص. 93) .

من ناحية تازا ، ومكناس ، وحتى من السهول الأطلنطيقية[496] الذين لم يكونوا يترددون في السفر إلى فاس لبيع دوابهم من وسطاء يتجهون بها بعد ذلك إلى الجزائر[497] . ومع ذلك فإن أهم المشتركين كانوا هم الجزارين بفاس ، إلا في فترة عيد الأضحى ، حيث يأتي جميع أرباب العائلات ، باستثناء المساكين ، ليشتروا الكبش الذي يضحّون به .

لم يكن الباعة والمشترون وحدهم الممثلين في هذا المشهد : فكان هنالك أيضاً الباعة بالمزاد الذين ينشطون المزايدة ، والعدول الذين يسجلون البيوع ومحصلو مكوس السوق الذين يمثلون بيت المال ، والبيطريون الذين كانوا يستشارون ويؤجرون كخبراء ، وذوي منيع « شبه بوهيميين حاذقين في تزيين الـدواب»[498] ، وأخيراً الصعاليك الذين يأتون لمجرد المشاهدة .

وكانت طريقة العمليات كما يلي : عندما يلاحظ مشترٍ دابةً تعجبه فإنه يتصل بدلال يربط الصلة بينه وبين من أتى بها سواء كان رب الدابة أو نائبه ، فتبدأ المفاوضات وتستمر مدة طويلة في بعض الأحيان . وقبل الاتفاق على الثمن النهائي ، كثيراً ما يذهب المشتري لاستشارة بيطار ينظر عادة إلى الدابة بعين ناقدة ، اللهم إلاّ إذا كان البائع قد جعله أولاً متساهلاً ، وفي جميع الحالات كان البيطار يستفيد استفادة مهمة من خبراته . فإذا كان في الدابة عيب مؤكد لحق بالثمن بعض التخفيض ، يذهبون عندئذ إلى العدول ، على الأقل إذا تعلق الأمر بفرس أو بغل ويحررون عقداً بالبيع ، على نحو هذا الذي ذكره روني ـ لوكلير[499] والذي سنلاحظ مشابهته لعقد بيع العبد المذكور آنفـاً[500] .

---

(496) حسب التقرير الإحصائي والتجاري لسنة 1898 ، فان المترددين الرئيسيين على سوق الخميس بفاس كانوا يأتون من قبائل زيان ، وبني مگّيلد ، وتادلا ، وزمّور ، وبني حسن ، وزعير، والحياينة ، وآيت يوسي ، وأولاد جامع .

(497) روني ـ لوكلير، المرجع المذكور ، ص. 318 .

(498) بوصكي وبيرك ، المرجع المذكور ، ص. 329 ، وهامش 10 .

(499) المصدر المذكور ، ص. 317 .

(500) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 ، ص. 202 .

« الحمد لله ، اشترى السيد عباس بن المعطي نيابة عن فلان . . . بحضرة العدول ، ودفع الثمن لحساب فلان . . . سيده ، للبائع إلِيذُو بن يعقوب الكوهن بفاس ، بغلة متوسطة القامة ، كستنائية اللون ، عمرها أربع سنوات ، خالية من النار (الكي) بثمن قدره 72 ريالاً (ناقص ريالا لباب الله) شراءً تاماً بتاً بتلاً لا ثنيا فيه ولا خيار ، على السنة في ذلك ، وحرر بعد مشاهدة البياطرة لها وقبولها القبول التام من قِبل المشتري الذي يعرف الثمن المتفق عليه شهادةً وإثباتاً تامَّين .

وقد أخذنا أوصاف المسلم والذمي ، البائع (الذمي) متوسط القامة ؛ شاب بوجهه شعر يسير أسود العينين والحاجبين .

شهد به موقعاه في ثالث محرم عام 10/1323 مارس 1905 .

توقيعان : عبد الهادي وعبد الحكيم (العدلان الشاهدان) حفظهما الله » .

وإذا كان المشتري لا يعرف البائع فإن بإمكانه المطالبة بضامن معروف ليحتاط لنزاعات لاحقة في حالة ما إذا كانت الدابة مسروقة قبل ذلك مثلاً . وكان هذا الضامن على العموم أحد الجزارين المترددين على السوق بانتظام والمعروفين من طرف الجميع[501] .

وإذا تم ذلك ، لم يبق سوى أداء المكس ، وهو بسيطة عن الثور ، وست سنتيمات عن الخروف أو الماعز ، وقرش عن كل ريال مدفوع في ثمن الجمال والخيل والبغال والحمير . ويؤدي كل من البائع والمشتري نصف المبلغ اللازم ، ويلزم أخيراً دفع مقابل أتعاب البائع بالمزاد الذي كان واسطة في العملية . ويستغرق كل ذلك من الوقت الصباح كله أو ما يقاربه .

---

(501) كمفمبير ، المصدر المذكور ، ص.18 -20.

وحسب الشهادات التي تلقاها روني۔ لوكلير[502] فإن سوق الخميس كان أكثر ازدهاراً على عهد مولاي الحسن منه على عهد مولاي عبد العزيز[503]. فقد قطعت ثورة بوحمارة العلاقات التجارية مع الجزائر[504] وساد انعدام الأمن المتزايد كثيراً منطقة جاذبية فاس ، بدرجة أنه في بداية القرن العشرين كانت مشتريات الماشية في سوق الخميس إنما تستجيب لحاجيات الفاسيين فحسب .

أسواق الحي : - جميع الأسواق التي سبق الحديث عنها ، هي - مبدئياً - سهلة المنال للخواص ، لكنها في الواقع أسواق للجملة أو نصف الجملة يشعر المشتري العادي فيها بالحيرة ، فإذا احتاج إلى شيء فإنه يذهب بالأحرى إلى سوق حيّه . وهناك أيضاً يجب التمييز ، لأن أسواق الحي أنواع كثيرة :

سبق أن أتيحت لي الفرصة ، عندما حاولت تحديد مفهوم الحي[505]، أن أقول كلمة عن الأسواق الصغيرة التي توجد مبعثرة ، هنا وهناك في فاس ستة دكاكين أو سبعة أو أقل من ذلك في بعض الأحيان ، توجد مجتمعة حول محيط ساحة صغيرة أو ملتقى طرق أو على طول زقاق مطروق . إنها الخلايا الأصلية للحياة التجارية بفاس .

ويلاحظ فوقها وجود أسواق هي ، دون اختلاف في ماهيتها ، أغنى

---

(502) المصدر المذكور ، ص 318 .

(503) حسب التقرير الإحصائي والتجاري المؤرخ في 17 أبريل 1898 ، فإن المعاملات التجارية من مارس 1897 إلى مارس 1898 تناولت 000 35 رأساً من البقر ، و 150.000 من الغنم ، و 20.000 من الماعز . وفي سنة 1915 يُقدِّم م. دي ييرينيبي (المصدر المذكور ، ص 70) رقماً للمبيعات ، هو 9.000 دابة في الشهر .

(504) حسب التقرير الإحصائي والتجاري لسنة 1898 ، فإن 000 3 رأس من البقر أرسلت خلال سنة إلى الجزائر .

(505) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 2 .

مظهراً وتستجيب لحاجيات أكثر : تلك هي الأسواق التي تخدم قطاعا مهما للمدينة مكوناً من حيين إداريين أو ثلاثة ، لم يبق منها شيء في وسط المدينة ، لأن وجود القيصرية وملحقاتها جعلها عديمة الفائدة . وتوجد في أرباض المدينة أو في الأحياء المتوسطة . على أنه توجد واحدة من هذه الأسواق بزنقة باب السنسلة[506] التي تكاد تماسّ القيصريّة بقسمها الأعلى ، وأخرى بزنقة سيدي موسى متاخمة لباب مولاي إدريس وسوق النجارين . وتفضي هذه إلى حي كُرنيز ، والأخرى إلى حي القطانين .

وتوجد الأسواق الأخرى في المواقع الآتية : في باب عجيسة بأعلى الطالعة الكبيرة ، وفي جوار بوجلود (هذان السوقان قريبان من البابين الرئيسيين لعدوة القرويين ، يفضي الأول إلى حيي فندق اليهودي وزقاق الرمان ، والثاني إلى حيي الطالعة والعيون في قسمه الأعلى) ، وفي مدخل قصبة فيلالة ، وفي قنطرة بوروس وسويقة ابن صافي (أي في منتصف الطريق تقريباً بين بوجلود ووسط المدينة ، الأول لحيي الشرابليين والطالعة ، والثاني لسويقة ابن صافي والقسم الشمالي للعيون) ، وفي رحبة التبن ـ الرصيف لتزويد جميع أحياء القسم الجنوبي ـ الغربي للمدينة (القلقليين ، رأس الجنان ، العيون) ، وعلى الضفة اليمنى ، في النخالين لأحياء درب الشيخ ، وسيدي العواد ، والمخفية ، والكُزيرة ، وفي الصفاح (القيصرية القديمة لعدوة الأندلس) لأحياء الكدّان ، وباب سيدي بوجيدة ، وواد الزيتون .

يشتمل كل سوق من هذه الأسواق على خمسة وعشرين إلى ثلاثين حانوتا ، ثلاثة أو أربعة للبقالة ، ومثلها لباعة الخضر والفواكه ، ومثلها كذلك لباعة الفواكه الجافة ، وأخرى للعطارين ، ومثلها للجزارين . ويوجد فيها علاوة على ذلك حانوتان أو ثلاثة للحلاقين ، ومثلها للخياطين ، وغالبا ما يوجد حانوت أو حانوتان لباعة الفخار لاسيما بجوار أبواب المدينة ، وثلاثة أو

(506) انظر الرسم رقم 28 .

أربعة مقاهي ، ويوجد أخيراً في بعض الأحيان ، لكن بصفة غير منتظمة ، صانعو جِلال الدواب وبيطارون[507] . ويسيّر كل سوق منها من طرف أمين يقوم تقريباً بنفس الدور الذي يقوم به رؤساء الطوائف المهنية ، لكنه يمثل تجمعاً جغرافياً للتجار ، لا تجمعاً متخصصاً في تقنية .

أما الأسواق الأصلية فهذا توزيعها حسب الأحياء[508] .

1 ـ الطالعة : سوقان في القسم الأعلى من الحي .

2 ـ الشرابليين : سوقان ، أحدهما في محج الشرابليين ، امتداد للطالعة الكبيرة ، والآخر بعيد عن الطرق الكبرى للمواصلات ، في قلب الحي .

3 ـ زقاق الرمان : ثلاثة أسواق ، تكاد تقع كلها شمال الدرب الكبير : الطرافين ـ عين علّو .

4 ـ فندق اليهودي : ثلاثة أسواق ، اثنان على الطريق الرئيسي للمواصلات الرابط بين باب عجيسة وسوق العشابين ، في ملتقى زنقتين مستعرضتين ، وثالث أكثر بعداً نحو واد زهون .

5 ـ البليدة : ثلاثة أسواق ، تقع كلها على الشارع الدائري من البليدة إلى الطرفين وإلى المركز .

6 ـ الصاغة : سوق واحد ، في حارة القيس ، في ملتقى درب الطويل ودرب رياض جحا .

7 ـ گُرنيز : سوقان ، أحدهما في الوسط ، والثاني ـ في أقصى جنوب ـ غرب الحي .

---

(507) ينبغي الآن ان تضاف إلى هذه القائمة دكاكين باعة الحلويات والكهربائيين ـ المصلحين الهاتف اللاّسلكي ، وباعة الأحذية الأوروبية ، ومكتبات ـ وراقة ، وباعة المشروبات . بعض هذه الدكاكين الحديثة أقيمت على الطريقة الأوروبية مستوية مع الأرض ، مع واجهة ، لكنها بقيت مع ذلك في أحجام صغيرة .

(508) انظر الرسم رقم 28 .

8 ـ سويقة ابن صافي : لا شيء (يكفي سوق الحي الكبير) .

9 ـ العيون : سوق واحد في القسم الأسفل من الحي ، وهو الوحيد الذي يمثل الإعمار فيه كثافة عادية .

10 ـ القطانين : سوقان ، في طرفي الحي .

11 ـ رأس الجنان : سوقان ، في القسم المركزي ، وأقصى الجنوب الغربي .

12 ـ القلقليين : سوق واحد ، نحو وسط الحي .

13 ـ الكدّان : سوقان ، أحدهما بالقرب من النهر ، والثاني بأقصى الشمال .

14 ـ سيدي العوّاد : لا شيء (سوق النخالين آلكبير كاف) .

15 ـ الأقواس : سوق واحد ، في القسم الأعلى .

16 ـ الكُزيرة : سوقان ، في القسم الأسفل .

17 ـ درب الشيخ ، سوق واحد ، في أعلى الحي تماماً ، يحتمل أن يكون بقية سوق أهم عندما كان هذا الحي أكثر سكاناً .

18 ـ المخفية : سوقان ، أحدهما بالقرب من قنطرة سيدي العواد ، والآخر بوسط الحي .

يجتمع من ذلك ثلاثون مجمّعاً تجارياً صغيراً ، لا يشتمل أي واحد منها على أكثر من عشرة دكاكين ، ولا يحتوي بعضها إلا على أربعة أو خمسة دكاكين . وسنلاحظ أنها تكاد تكون كلها مقامة في ملتقى طرق ليتمكن الزبناء من الوصول إليها من جهات متعددة في نفس الوقت دون اضطرار إلى كثير من اللف والدوران . كما سنلاحظ أيضاً أن ليس لعدوة الأندلس إلا ثمانية أسواق أصلية وسوقان فرعيان ، في مقابل ثمانـية أسواق فرعية واثنين وعشرين سوقاً

أصلياً في عدوة القرويين ، وذلك دليل آخر على عدم تكافؤ توزيع الساكنة بين العدوتين. وسنلاحظ أخيراً أن أسواق العدوة مجمّعة كثيراً بالقرب من النهر والقناطر، كأنها مجتذبة نحو الوسط البالغ الحيوية في العدوة المجاورة. كل شيء يسير كما لو أن الحياة التجارية تنسحب من العدوة لتلتجي إلى عدوة القرويين .

التنظيم التجاري : ـ كراء الأماكن التجارية وبيعها ـ معظم الدكاكين والفنادق في ملك الأوقاف ، لذلك يمكن التفكير في أن إدارة الأملاك الحبسية تلعب دوراً مهماً جداً في الحياة التجارية بالمدينة . غير أن الأمر ليس كذلك: فمن الواقع المسلَّم أن الأملاك الحبسية لم تبق لها في مطلع القرن العشرين تلك الأهمية التي كانت لها في الماضي . وقد بينت ذلك في بعض الدراسات المنجزة في السنوات الأولى من الحماية بصفة قاطعة[509] . وزيادة على ذلك فإن الملك الحبسي كان دائماً مثقلاً ، ولا سيما في فاس ، بالحقوق الفرعية التي تقلل من أهميته بكيفية غريبة . إن معظم هذه الأملاك مستولى عليها بالطريقة الآتية : الملكية الأصلية هي للأحباس التي تملك الأرض ، خاصَّةً في القيصرية ، لكن البناء في الغالب من عمل الخواص الذين تمكنوا من التصرف فيه كما شاؤوا ، في مقابل مبلغ زهيد (حق الزينة) ؛ واشترى خواص آخرون حقوق الاستعمال (حق المفتاح) بعد احتلال طويل أو بواسطة عقود خاصة ، بحيث إن حقوق الأحباس تقلصت في كثير من الحالات إلى استخلاص شهري لمبالغ تافهة ، إلا إذا هُجر العقار وصار خراباً . ويبقى مع ذلك أن الأحباس كانت تمتلك امتلاكاً تاماً عدداً من الحوانيت التي تكرى بالمزاد العلني في كل سنة ؛ ولو أن هذه الطريقة طبقت حرفياً لكانت شؤماً على الاستقرار التجاري . والواقع أنه كان هناك دائماً تقريباً اتفاق ضمني بين أصحاب الدكاكين حتى لا يكون المزاد سوى إجراء شكلي .

---

(509) انظر بالخصوص لوي ميليو ، تقطيع أوصال الاحباس بالمغرب .

لم تكن الأحباس تستطيع قط بيع حقوقها : فلم تكن تمارس سوى الإكراء الذي يتراوح بالنسبة للملكية الأصلية لحانوت بين بسيطتين حسينتين ونصف ، وخمس بسيطات في الشهر . وكان بإمكان مالكي حقوق الزينة أو حق المفتاح أن يبيعوا ذلك أو يُكروه كما يشاؤون : وتتدرج الأكرية حسب حجم الحانوت وموقعها ، من 50 إلى 100 بسيطة حسنية في الشهر ، ويتراوح ثمن بيعها بين 5.000 و 25.000 بسيطة حسنية[510]، ويبلغ بيع الغرف في الفنادق وكراؤ ها أثماناً مماثلة : لم أجد معلومات مدققة عن هذه المسألة . ولم يبق ملكاً خاصاً إلا المخازن الخاصة المعروفة بدار السلعة .

كنانيش الحساب : ـ كان لتجار فاس عموماً حساب منتظم جداً ، ليروا فيه بوضوح قضاياهم الخاصة ، وفي نفس الوقت ليتمكنوا من تقديم الحجج في حال وقوع نزاع.. وحسب ـ روني لوكلير[511] كان يوجد عند باعة الجملة على الأقل سلسلة الكنانيش التالية :

- كناش الدخل .
- كناش الخرج .
- يومية .
- كناش الوسخ .
- كناش الكوبيا : مجموعة لنسخ الرسائل .

ويكتفي أصحاب الحوانيت الصغرى بأقل من ذلك طبعاً ، فلم يكن لكثير منهم حتى كناش الحساب لجهلهم بالكتابة . على أنه يظهر أن هذه الكنانيش ، بالنسبة للتجار ذوي الأهمية المتوسطة على الأقل ، لم تكن سوى مذكرات لا يستعملونها تماماً إلاّ وهم وحدهم . وقد وقفت على « يومية » كانت لأحدهم في نهاية القرن التاسع عشر ، فتفضل ابنه بالسماح لي بالاطلاع عليها . يوجد فيها جنباً إلى جنب وبدون ترتيب ظاهر إشارةً إلى العمليات

---

(510) توضيح قدمه روني لوكلير ، المصدر المذكور ، ص 299 .

(511) نفس المصدر .

التجارية من كل نوع ، والمصاريف العائلية ، والمداخيل الشخصية . والمبالغ معدودة بالمثقال تارة ، والريال أو الفرنك أخرى . وبالجملة ، إنه من الصعب ، حتى على مَن هو مطلع تماماً على الممارسات الفاسية ، أن يعيد تركيباً ولو تقريبياً لمجموع العمليات المذكورة . ومن الأكيد أن التاجر المُتحدَّث عنه وأضرابه كان مخطط عملهم في ذهنهم ، فلا يسجلون إلا بعض الجزئيات الدقيقة التي يمكن أن ينسوها . وقد سبق أن ذكرت فيما يتعلق بالصناع هذا النفور من أن يسجلوا بوضوح إشارات عامة يمكن أن يستعملها الغير إذا وقعت في يده . فلكل واحد سره الخاص الذي لا يطلع عليه سوى من يثق به تماماً ، وعندما يدنو الموت أو الهرم فقط .

الرسوم والضرائب : كان على التجار ، كما هو الحال في جميع بلاد العالم أن يؤدوا للدولة عدداً من الإتاوات . لم تكن هذه الإتاوات ذات أصل شرعي كالزكاة ، والجزية المفروضة على غير المسلمين ، وكلها تصرف للدولة أو للأمير دون أن تأخذ المدن منها أي شيء ولو قليل .

1 ـ كانت هنالك أولاً الهدية التي تقدم للعاهل عند جلوسه على العرش ، وكلما دخل إلى المدينة دخولاً رسمياً ، وبمناسبة الأعياد الإسلامية الكبرى الثلاثة ، ولا يتحمل التجار وحدهم عبء هذه الهدية ، وإنما يدفعون القسط الأوفر منها . كان عامل المدينة يحدد المبلغ العام المفروض على سكان فاس ، وهو يختلف بحسب الظروف ، يساعده في ذلك لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأعيان المعينين من قبل المخزن[512] وعليه بعد ذلك أن يوزع هذه الكلفة بين مختلف طبقات الشعب : وتؤديها كلها تقريباً طوائف الحرف وبخاصة التجار .

2 ـ لم يكن على التجار أن يؤدوا ضريبة المهنة ولا الضريبة على قدر المعاملات ولا على الأرباح ، غير أن العمليات التي تتم في جميع أسواق

---

(512) ڭيور ، ولوطورنو ، وپاي ، الدباغون ، ص. 236 .

المواد الخام أو المصنوعات الجاهزة المذكورة آنفاً[513] تخضع كلها إلى حق السوق (مكس)، وهو مرتفع يُقدَّر مبدئياً بـ 75% و18 حسب القيمة[514]، ويقع قبضه مبدئياً كذلك إما من قبل الدلالين ، أو العدول ، ثم يدفعون المبالغ المقبوضة إلى الملتزم بكل سوق ، الذي يدفع بدوره كل شهر ما قبض إلى أمين المستفاد ، وهو شبه قابض للخزينة بالمدينة[515] والواقع أن تجار كل سوق يبرمون شبه اشتراك سنوي ويوزعون بينهم المبلغ الواجب أداؤه، بحسب قدر معاملاتهم . وعلاوة على ذلك ، فإن مبلغ هذا المكس عرف أنواعاً من التغيرات ، فقد حدده ظهير سنة 1896 في 10% بالنسبة للفواكه الجافة والمنتجات المشاكلة لها ، و 5% بالنسبة للخيل والبغال والحمير ، ورُبُع قرش للغنم ، وبسيطة للبقر . ولم يكن للمكس في الحقيقة دخل كثير إذا ما صدَّقنا رسالة لوكيلنا القنصلي بفاس الذي يذكر شخصاً يدعى الحاج عَدُّو ، ملتزم بأربعة أسواق في نفس الوقت : السوق البالي بستمائة مثقال في الشهر ، وسوق التليس بألفين ومائتين وخمسين ، وسوق الحناء بأربعمائة ، وسوق العطارين بأربعمائة[516] . ووجدت أيضاً أثرَ واحدٍ يدعى عبد السلام الصفريوي سمسار التاجر دڤيد كوهن ، كان المخزن يطالبه بمبلغ 33.000 مثقال لاحتكار (كونطرادة) سوق السباط ، لكن لم تحدد المدة الزمنية التي كان يتطلب لها هذا المبلغ . ولما كان المحميون الأوروبيون وسماسرتهم معفين من المكوس ، فإن بعضهم كانوا يتبرعون بخدماتهم على مغاربة آخرين ليجنبوهم أداء المكس ، الأمر الذي كان يثير من حين لآخر شكاوي أصحاب السوق[517] .

---

(513) انظر ما سبق ، ص. 308 -309 .

(514) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 303 ؛وميشو بلّير، تنظيم المالية .

(515) انظر عن هذا الموظف روني ـ لوكلير ، المصدر المذكور ؛ وأوبان، المصدر المذكور ، ص. 303

(516) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور .

(517) رسالة الوكيل القنصلي لفرنسا بفاس بتاريخ 1 جمادي الثانية 1311 / 10 ديسمبر 1893 ، (وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة) .

3 ـ كانت البضائع التي تدخل الى المدينة خاضعة للمكس ، إلا إذا كان هذا المكس قد دُفع في مدينة أخرى . وحسب روني ـ لوكلير، كان السعر كما يلي :

أ ـ المنتجات الصناعية :

1 بسيطة حسنية ونصف عن حمل الجمل .

1 بسيطة حسنية عن حمل الفرس أو البغل .

0 بسيطة حسنية ونصف بسيطة عن حمل الحمار .

ب ـ المنتجات الفلاحية غير الحبوب :

1 بسيطة حسنية عن حمل الجمل .

0 نصف بسيطة عن حمل الفرس أو البغل .

0 رُبُع بسيطة عن حمل الحمار .

ج ـ الحبوب :

0 نصف بسيطة عن حمل الحمار .

0 رُبُع بسيطة عن حمل الفرس أو البغل .

1/2 قرش عن حمل الحمار .

د ـ الحلفاء والدوم والفواكه الطرية :

3/4 قرش عن حمل الجمل .

1/2 قرش عن حمل الفرس .

1/4 قرش عن حمل الحمار .

أما العشب ، والتبن ، وجذور الدوم ، والفحم الخشبي ، والحطب ، والخضر الطرية فإنها كانت معفاة من المكس . وكان تحصيل المكس يقع في عين المكان : ففي كل باب من أبواب المدينة كان يوجد وكيل أو أكثر يقيم تحت القبة نفسها لتحديد المبالغ الواجبة وقبضها ، أو لمراقبة التوصل (البطاقة)

الذي يثبت أن واجب المكس قد دُفع في مكان آخر . ويُدفع هذا المكس أيضاً لأمين المستفاد .

4 ـ وكانت البضائع التي تخرج من فاس ، ومن فاس فقط ، خاضعة لإتاوة تُدعى عشر فندق النجارين باسم المكان الذي تدفع فيه[518] ، وقد وضعت هذه الإتاوة في الأصل من طرف مولاي عبد الرحمن ، بعد المعاهدة المغربية ـ الفرنسية لسنة 1845 ، ليتاح للمخزن أن يستفيد من تجارة التصدير المهمة نسبياً التي كانت تصدر من فاس نحو الجزائر . ثم رأت الحكومة الشريفة فيها وسيلة ملائمة لأخذ ضريبة عن البرابرة (بلاد السيبة) الذين كانوا يرفضون أداء أية ضريبة مباشرة . وقد فُرض عُشُر فندق النجارين على جميع البضائع الصادرة عن فاس مهما كان اتجاهها. فكانت تُعَشَّر في هذا الفندق بظهير 11 جمادي الثانية 12/1306 فبراير 1889 . وكان في نية المخزن أن تمتد هذه الضريبة لتشمل البضائع المعدة للتصدير خارج المغرب ، لكن نظراً لكونها لم تكن مذكورة في المعاهدات المبرمة بين المغرب والدول الأوروبية ، فان هذه الدول احتجت وحصلت على إبقاء ما كان على ما كان .

وقد تغير قيمة العشر مراراً مع مرور الزمن كما حدث في المكس ، فكان دائماً 10% في بداية القرن العشرين بالنسبة للسلع المستوردة من أوروبا، ومتغيراً كثيراً بالنسبة لغيرها كما تدل عليه القائمة التالية المقدمة من قبل روني ـ لوكلير[519] .

ثياب الصوف	5% حسب القيمة
زيت الزيتون	6 بسيطات حسنية وربع عن القنطار
الأحذية	5% حسب القيمة
أنيسون (اليانسون)	2 بسيطتان ونصف عن القنطار

---

(518) انظر عن هذه الإتاوة ميشو بلّير ، **تنظيم المالية** ، ص. 65 ؛وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 304 ؛وأوبان ، المصدر المذكور ، ص. 296 .

(519) المصدر المذكور .

القنب	4بسيطات عن القنطار .
أرائك الجلد المطرز	5% حسب القيمة
الجلباب	5% حسب القيمة
التمر	5% حسب القيمة
ركاب (الخيل)	8% حسب القيمة
خيوط الصوف	8% حسب القيمة .
ماعون النجاس	8% حسب القيمة .
الحايك	5% حسب القيمة
أوعية الجلد (زابولاط)	5% حسب القيمة
الغربال	5% حسب القيمة
أحزمة الصوف	12 بسيطة ح ونصف عن المائة
الصوف المغسول	10 بسيطات ح.عن القنطار
أمشاط الخشب	0 نصف بسيطة ح.للمائة
جلد البقر والماعز والغنم	4 بسيطات ح.ونصف للقنطار
الجلد المدبوغ	12 بسيطة ح.ونصف للقنطار

وكان هذا العشر يؤدى في فندق النجارين ، ويقيم في أبواب المدينة مراقبون يطالبون بتقديم شهادة بالأداء (نفولة)[520] أو بالاعفاء في حالة كون البضائع موجهة للتصدير الى خارج المغرب . وكل من لم يقدم هذه الوثيقة لزمه أن يؤدي هذه الحقوق أو يمنع من الخروج . ويوجد مركز للجند عند أبواب المدينة الرئيسية لإرجاع المعاندين إلى الصواب عند الاقتضاء[512].ولم تكن محاولات الغش قليلة ، وأكثر ما كان يقع هو رمي البضاع من فوق سور

---

(520) هذه الكلمة التي توجد في معاجم العربية المغربية ـ الدارجة ـ (بوصي الطبعة الجديدة) ولا توجد في معاجم اللغة العربية الفصحى ، دلت أولاً على ورقة إعفاء ، كما هو المراد هنا ، ثم على مكتوب صغير الحجم يحمل أمراً من طرف سلطة رسمية يقال : « نفولة القاضي » والقايد ، والباشا » إلخ . (معلومة استقاها السيد الأخضر بطلب مني) .

(521) ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 255 .

المدينة ، وعندما يعلم المخزن بذلك يعاقب عليه بشدة[522] .

الشركات التجارية : ـ التنظيم الذي يأتي فيه كل واحد بقسط من رأس المال كان قليلاً بفاس إلا فيما بين أفراد العائلة الأقارب جداً ، لأن كل واحد يفضل أن يجرب حظه الشخصي بدافع الرغبة في الربح ، وبدافع الفردانية أيضاً .

كانت الشركات التجارية تظهر في أغلب الأحيان في شكل شركة توصية (دون إسهام في الإدارة)[523] تنعقد بين تاجر ثري وحانوتي محتاج إلى المال ، أو بين شاب غني بالأمل فقط وبين قريب أو صديق للعائلة سبق أن زودها . يقع الإشهاد أمام العدول ويأخذ كل واحد من الشركاء نسخة من العقد . وكانت العقود نوعين : قراض ، وشركة . فكان نصف الربح في القراض لكل واحد من الشريكين . « وفي حالة النقص أو كساد التجارة تكون الخسارة على رب المال » . و طُرُق ردّ رأس المال المقدم متنوعة جداً فحسب عقد الشركة « لكل من الشريكين نصف الربح وعليه نصف الخسارة مناصفة بينهما » وفي نهاية كل سنة يعمل الحساب .

والعملاء أو الممثلون الذين يدعون وكلاء أو سماسرة ، أو شركاء عندما يتعلق الأمر بأحد أقطار ما وراء البحار ، كانوا مستخدمين لا شركاء ؛ أما الوسطاء البحريون (القبَّالة ، الواحد قبَّال) الكثيرون بصفة خاصة في طنجة والعرائش فإنهم لم يكونوا أيضاً شركاء ، فكانوا يقيمون على حسابهم الخاص ، وفضلاً عن ذلك يتقاضون أجراً غالياً جداً .

الخصومات التجارية : ـ لم تكن النزاعات المتعلقة بالتجارة ترجع

---

(522) وهكذا ففي رسالة مؤرخة في 5 محرم 1/1307 شتنبر 1889 سلم وكيلنا القنصلي إلى وزير فرنسا في طنجة شكوى يهودي مُحْتَمٍ بفرنسا جاءه وكيل أمين الأعشار مصحوباً بحمالين ليحجز كمية من الجلود اتهمه بأنه يريد رميها من سور الملاح (وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة) .

(523) انظر روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 301 .

إلى العدالة الشرعية أي إلى القاضي ، وإنما ترجع إلى السلطة الدنيوية . ومن الغريب أن المحتسب لم يكن يتدخل إطلاقاً في الخصومات التجارية : فاختصاصه ذو طابع حرفي محض ، إلاّ ما يتعلق بالأوزان والمكاييل وإقامة التسعيرة الأسبوعية .

تدخل الخصومات التجارية مبدئياً في اختصاص عامل المدينة ، ويتنازل عنها في الواقع لفائدة شبه محكمة تجارية تعرف باسم « عرف التجار »[524] وكان أعضاؤها الثمانية يُعيَّنون من طرف زملائهم ، وتخضع تسميتهم لموافقة المخزن ، أي عامل مدينة فاس[525] . وكانوا يجتمعون في فندق العطارين بالقرب من السوق الذي يحمل نفس الاسم ، أو بفندق رحبة القيس[526] في الحي التجاري ، أو بدار المخزن عندما يتعلق الأمر بقضية هامة بكيفية خاصة ، برئاسة نائب العامل . ولم تكن الأحكام تصدر طبق الشريعة ، وإنما حسب (عرف) فاس[527] وتنفيذ الأحكام يقع على كاهل نائب العامل .

معظم الخصومات المعروضة على هذه المحكمة تتعلق بمدينتين

---

(524) انظر عن هذه المحكمة روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 301 ؛ وعبد الوهاب لحلو ، المقال المذكور ، ص. 14 . وكانت بتونس محكمة مماثلة مختصة بالنسبة للقطر التونسي كله ، مؤلفة من ممثلين لتجار صفاقس وجربة إلى جانب ممثلي مدينة تونس .

(525) وكان مثل ذلك بتونس .

(256) صار هذا الفندق بعد ذلك مقراً للبنك الأنجليزي ، ثم احتله بعد إغلاق هذا البنك أحد أعيان تجار فاس ، الحاج أحمد بو عيّاد .

(527) فعلاً كان إلى جانب القانون الشرعي بفاس عرف قضائي يطبق على جميع الحالات التي لا تدخل حتماً تحت طائلة القانون الشرعي . وربما كانت من بقايا العهد الذي كانت فيه فاس مدينة بربرية بالدرجة الأولى ؛ وبهذه الصفة كان لها عرف خاص ينتقل أساساً أباً عن جد . لكن كثيراً من المؤلفين الفاسيين ألّفوا فيه كتباً . انظر ج. بيرك ، محاولة في الطريقة القضائية المغربية (3 عن نظرية العرف والعمل) .

ملاحظة : يدخل كلام لوطورنو هنا في نطاق تهافت الفرنسيين على العرف لمحاولة إظهار ضعف موقف الإسلام في المغرب . وهو يدل على قصوره في ميدان الفقه ، إذ أصول العمل الفاسي معروفة . انظر كتابنا الحركة الفكرية ، 1 :304 (مترجم) .

معاندين ، وكان القضاة يلتجؤون عند الضرورة إلى الخبراء (المقومين) وهما اثنان دائماً من التجار المختصين في الفرع المختصم فيه . وعندما يقضى على المدين يضرب له أجل قصير للأداء ؛ فإذا حل الأجل زج به في السجن إذا لم يستطع دفع المبلغ المحدد . ولكي يتخلص من هذا العقاب ، كانت له وسائل عديدة ، أبسطها ، لكنها تترك القضية معلقة ،«أن يلتجىء إلى حرم أحد الأضرحة التي يحق اللجوء إليها»[528] ، وهي طريقة للحصول على أجل إضافي يمكن أن يكون طويلاً جداً . لكن هذا (اللجوء) في الواقع بمثابة سجن ، لأنه بمجرد ما يخرج اللاجىء من مأمنه يكون معرضاً ليقبض عليه ويساق إلى السجن . وكان من الأفضل عدم اللجوء إلى هذه الوسيلة اليائسة . لذلك فإن المدين البائس كان يبحث عن ضامن يؤدي عنه كفالة ، وتلك أضمن الوسائل لمن كان له أصدقاء مخلصون قادرون على دفع المبلغ اللازم . وإذا لم تكن كفالة أمكن للمدين أن يقدم رهناً من المنقولات (حلي ، زرابي ، بضاعة) أو من العقار . وفي هذه الحالة الأخيرة يكتب رسم من طرف عدلين . وعند حلول أجل تحدده المحكمة ، يصير الرهن ملكاً للدائن .

وان ما تتوجه إليه الدور الأوروبية لهو « عرف التجار » عندما يكون عليها أن تسوي خلافاً لم يمكن تسويته عن طريق التفاهم الحبي . وهي لا تقوم بذلك أبداً تقريباً بصفة مباشرة ، بل بواسطة الطريق الديبلوماسي لإعطاء وزن أكثر لمطالبها . فكانت تشعر قنصلها أو وكيلها القنصلي بالقضية ، فينقل هو بدوره المسألة أمام المخزن الذي يحيلها على العامل ، أو بالأحرى على نائبه . وحينئذ فقط يقع إشعار المحكمة التجارية ، فتسمى لجنة من أربعة تجار ، كانوا يضربون دائماً تقريباً لزميلهم أجلاً ، بلغت ثروته ما بلغت[529]. وتسترسل القضية من لجنة إلى أخرى ، ومن أجل إلى أجل شهوراً أو سنين .

---

(528) انظر ما يأتي ، الباب 8 ، الفصل 3 .

(259) التقرير الديبلوماسي والقنصلي ، رقم 1.633 ص. 17 .

وكانت الإفلاسات نادرة ، إلا فيما يتعلق بالتجار المتخصصين في التجارة مع أوروبا[530] يمثل المفلس أمام المحكمة ومعه اثنا عشر شاهداً . وهناك تسوى وضعية دائنيه ، ثم يذهب الى القاضي الذي يتعرف على إعساره ، ويسلم إليه وثيقة تدعى « كاغد العدم » وبفضلها يكون بمنجاة من متابعة دائنيه ، بشرط ألا يملك شيئاً غير ملابسه المستعملة . وكان المفلس محتقراً لدى الجميع . على أن غرماءه يسارعون إلى التشهير بمغامرته السيئة في المدينة كلها ، مستعملين العبارة الشائعة : « فلان اطلع عليه ازرق » وليس له من وسيلة إلا الاغتراب .

وبالجملة فان التشريع التجاري بفاس كان يمثل طبيعة تقليدية أساساً ، ويطبق بإنصاف وحزم إلاّ إذا تعلق الأمر بعلاقات التجار الفاسيين بالخارج فيقوم حينئذ بتضامن أقوى من جميع القواعد المقبولة عادة .

---

(530) تقول رسالة لنائب قنصلنا مؤرخة في 31 مارس 1898 أنه في مطلع هذه السنة ، أعلن إفلاس عدد من تجار فاس ، والتجؤوا إلى عدة أضرحة بعد أن وضعوا أموالهم في مأمن ، فضاع لكثير من الدور الأوروبية ، وبخاصة الألمانية ، أموال في هذه الحالة .

5/5

الفصل الخامس

علاقات فاس بالخارج

كان الهدف من البيانات التي أدلينا بها لحد الآن هو التلميح بالمظهر الداخلي للتجارة الفاسية . كان ذلك ، إن صح القول ، دراسة للقلب بقطع النظر عن الدم الذي يجري فيه . وحان الوقت الآن لفحص النظام الدموي كله ، بتفرعاته وحركته . لكن ، قبل أن نصف علاقات فاس بالخارج ، يجب أن نقول بأي وسائل كانت تقام هذه العلاقات ، أي أن نتحدث عن البريد ووسائل النقل .

البــريـد :[1] النظام البدائي - لم تكن توجد بفاس مصلحة بريدية رسمية ، قبل إحداث مصالح أوروبية ، لكن المبادرة الخاصة كانت قد عوضت العجز الحكومي ، فكان حقيقة مكتب للبريد أقيم في دكان بين سقاية وفندق ساحة النجارين ، وصفه[2] الرحالة الإسباني موركًا بدقة كافية ، إذ يقول :

---

(1) انظر عن البريد بفاس قبل الحماية ، ش. روني - لوكلير، المقال المذكور ص. 246 -248 ، ومولييراس، فاس، ص. 259 - 262، وهنا وهناك؛ وق. بنعبد الجليل، دبلوم غير منشور؛ وعبد الوهاب حلو ، المقال المذكور ؛ وتقارير دبلوماسية وقنصلية رقم 1804 ، ص. 32 ، ورقم 1476 ، وص. 28 ، ورقم 2.603 ، ص. 15 ؛وج. ديروش المغرب ، ص. 217 وما بعدها ؛ وخوصي ماريادي موركًا ، ذكريات مغربية ، ص . 333 ؛ ووثائق المفوضية الفرنسية بطنجة ، هنا وهناك .

(2) موركًا ، المرجع المذكور . إنني مدين بهذا المرجع والترجمة التالية لزميلي وصديقي روبير ريكار ، الاستاذ بكلية الآداب بجامعة باريز راجياً منه أن يجد هنا عبارة امتناني الودي .

فاس ، في 25 ماي 1873

« صديق العزيز[3]

« لقد كتبت إليك قبل بضعة أيام بواسطة يهودي كان متوجهاً إلى طنجة . وأراسلك اليوم ، حباً للإطلاع ، بواسطة بريد فاس ، حيث انني اكتشفت وجود بريد بها . ففي دكان بسيط تكتنفه من جهة سقاية ذات أنبوبين كانت جميلة جدّاً ، والبوابة الكبرى لفندق النجارين التي ما زالت عجيبة ، من جهة أخرى ، نشاهد ثلاثة رجال يرتدون كساء أبيض ، سمر الوجوه ، جالسين على حصير رديء . يُسَبّح اثنان منهم بدون مبالاة ، وقد علقت في الجدران أكياس أو خرجات من الدوم ، أو قراب . ويشاهد حول الدكان عدد من الرجال ، متمددين أو جالسين ، بعضهم يحملون (القراب) على ظهرهم ، وآخرون بدون قراب . فالدكان هو مكتب البريد ، والرجال الذين فيه هم أمين الرقّاصة (وهو المتصرف ، ورجل ثقة للحمالين) ، وخليفتاه (مساعداه أو نائباه) ، والذين يوجدون قرب الدكان هم الحمالون أو ناقلو البريد . وهم دائماً على أهبة للانطلاق وحمل رسالة إلى أية نقطة من الساحل ، متعهدين بردّ الجواب ، كل ذلك مقابل عشرة مثاقيل (50 أو 60 ريالاً) . وإذا سلمت إليهم الرسالة ، كما سيحدث بالنسبة لهذه ، دون أن يحدد لهم أجل ، فإن الخدمة تساوي ثماني موزونات تمثل عشرة (كوارطوس) أو ثمانية وأربعين (أوتشاقوص) مغربية » .

كان الرقاصة فعلاً يشكلون طائفة على رأسها أمين ، كسائر الطوائف ، وأصبح مكتب هذا الأمين بطبيعة الحال شيئاً فشيئاً مكتب البريد شبه الرسمي بفاس .

كان حاملو البريد عامة صحراويين طوالاً رقاقاً رشيقين ومتينين ، يمشون

---

(3) هذه الرسالة موجهة إلى الدكتور تِبوسّم (وهو اسم مستعار لد . رفائيل باردودي فيكْويُروا) .

بخطوات واسعة وباتزان ثابت ؛ كان سيرهم يضرب به المثل بفاس ، بحيث إذا أريد ذكر أحد يسرع في مشيته ، استعملت العبارة : « كأنه رقاص حامل للبريد »[4] .

وقد أثار انتباه العديد من الرحالة الأوروبيين هؤلاء المشاة الذين لا يبالون بالتعب فرسموا لهم صوراً . وإليكم مثلاً الوصف الذي كتبه أندري شڤريون[5]: «يلاقينا كل يوم تقريباً أو يلتحق بنا حامل بريد من فاس . إنه راجل ، منفرد ، يكاد يكون عارياً ، أسود لامع بالشمس وبالعرق ، يمشي بخطوات واسعة ، وصلابة واتزان الآلة الحثيث . يقطع هؤلاء الحمالة للرسائل الرسمية بدون انقطاع (إذ لا يستغرق توقفهم سوى بضع دقائق) الخمسة والثلاثين فرسخاً الفاصلة بين فاس والقصر، عبر الطرق الجبلية المختصرة ؛ ويقطعون في بعض الأحيان حتى الستين فرسخاً الفاصلة بين فاس وطنجة إذا كانت رسالة مخزنية مستعجلة ، ولا يقضون إذ ذاك سوى ثلاثين ساعة . . . . يزاولون مهنتهم خلفاً عن سلف ، يستشف منهم تدريب موروث ، وبنية خاصة » . ويصفهم روني ـ لوكليربدوره[6] : « مرتدين قيمصاً لا غير ، مربوطاً في الخصر بحزام من جلد ، وجلباباً ممزقاً ، متقلدين أو حاملين على ظهورهم كيساً من جلد يحتوي على البريد . يسيرون حفاة ، ليل نهار ، بخطى ثابتة ، وبيدهم عصا دون أن يقفوا لحظة ، وهم يقضمون قليلاً من الرغيف يتغذون به[7] ويشربون من الأنهار التي يقطعونها . وبذلك يحققون في المعدل من خمسة إلى ستة كيلومترات في الساعة ، وذلك لمدد متواصلة من أربعين إلى خمسين ساعة . لا يحملون أي سلاح ، ويحاولون اختراق الأماكن الخطيرة ليلاً . . . . . يضعون أكبر ثقة في الرقاصة ، وهي ثقة

---

(4) عبد الوهاب لحلو ، محاضرة ألقيت على أصدقاء فاس في 10 مارس 1938 .

(5) المرجع المذكور ، ص. 59 -60 .

(6) المغرب الشمالي ، ص. 133 .

(7). حسب عبد الوهاب لحلو ، كانوا يتزودون إضافة إلى ذلك بإبريق شاي وإناء زيت .

في محلها تماماً . يحاول هؤلاء القوم المساكين أن يستجيبوا ما أمكنهم لمتطلبات هذه المهنة الشاقة الخطيرة . ففي فصل الشتاء يغرق الكثير منهم وهم يقطعون الأنهار عوماً . هذا ، ويتقاضى هؤلاء المشاؤون المخلصون أجرة حسنة في الجملة من ستين إلى مائة بسيطة لكل رحلة ، حسب الوقت الذي قضوه في قطع المسافة المفروضة » . ويحقق بعض هؤلاء الرجال أعمالاً رياضية باهرة حقاً : يذكر بونصال[8] ذلك الرقاص الذي التحق بطنجة سنة 1892 ، في ظرف يومين ونصف ، وتوقف بها عشر ساعات ثم عاد إلى فاس عشية اليوم السادس : كان ذلك رقماً قياسياً .

ورغم أن هؤلاء الحمالة للبريد كانوا يتجنبون بعناية ألا يحملوا معهم السلاح ، حتى لا يخطر ببالهم الدفاعُ عن أنفسهم في حالة هجوم ، إلا انهم لم يكونوا دائماً في مأمن الخطر ، مثل ذلك الحمال الذي هوجم أثناء مقام مولييراس بفاس[9] فسلب وجرح ، وإن كان النهابون بصفة عامة يكتفون بالاستيلاء على البريد . وهذا الحدث كثير الوقوع ، ذلك لأنني عثرت بين 27 سبتمبر 1894 و 29 مارس 1895 على ذكر خمسة هجومات على البريد الفرنسي الرسمي[10] . وكان المخزن ينظم أحياناً بعض الغارات التأديبية ، لكنها كانت باهظة التكاليف وتبقى بدون مفعول[11] . ويبدو أنَّ هذا النهب لم

(8) المرجع المذكور ، ص. 113 .

(9) المرجع المذكور ، ص. 433 -436 .

(10) **وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة** ، هنا وهناك . وقعت أربعة من هذه الهجومات على خمسة في اتجاه طنجة ـ فاس ، وذلك في 27 سبتمبر1894 حوالي الساعة الثانية صباحاً ، وفي 12 نوفمبر، و18و20، و5ديسمبر، وأخيراً في 9 يناير 1895. وخلال الهجوم الأول لم تنج من السلب إلا رسالتان مضمونتان وحوالي عشر رسائل عادية من مجموع 5 أشياء مضمونة و300 رسالة و20 طرداً لعينيات تشكل حمل الرقاص .

(11) لما علم قنصل فرنسا بفاس ، عام 1907 ، أن ثلاثة أكياس بريدية سرقت مؤخراً وكانت توجد بقرية في قبيلة بضاضوة، أقنع المخزن بتنظيم غارة لاسترجاعها. وقتل خمسة عشر شخصاً ولم يعثر إلا على كيس فارغ وبضع رسائل (**وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة** ، رسالة بتاريخ 7 فبراير 1907) .

يكن كله مستوحى من حب الاغتصاب ولكنه آتٍ في الغالب من مجرد كره الأجنبي ، إذ كان يتفق مراراً عديدة أن يعثر من جديد على رسائل ممزقة إرباً إرباً[12] .

لم تكن طائفة حملة البريد تقبل ، كجميع طوائف الغرباء[13] أعضاء جدداً إلا إذا كانت لهم كفالة من شخص معروف موسر . كان هذا الاحتياط ضرورياً ، لأنّ الطائفة كانت تستغل بمفردها المصلحة البريدية ، دون التقيد بأي قانون رسمي ؛ كان لا بد أن تفرض على نفسها نظاماً صارماً، وإلّا لكانت جميع التعسفات ممكنة ولاضمحلت المنظمة . كانت الطائفة ، على ما يبدو ، تحسن اختيار رجال حازمين لرئاستها : فقد احتُفظت بفاس بذكرى آخر أمين يدعى حميدة كرجل ذي جاه كبير ، ملك ثقة المدينة بأسرها[14] . فكان لا بد من الاتصال به لإرسال رسائل وطرود ، أو للحصول ، عند الاقتضاء، على حامل بريد خصوصي .

كان حملة البريد يتقاضون أجراً عن كل رحلة ، وتتغير أجرتهم ، حسب « الفصول ، وأهمية المهمة ، والمسافة التي ستقطع »[15] ؛ ولم تكن قط تقلّ عن 25 بسيطة حسنية ولم تتعدَّ إلّا استثناءً تاماً 150 بسيطة حسنية . كانت هذه الأسعار تطبق في الرحلات الشاذة ؛ فإذا أريد بعث رسالة عادية كان يؤدى عنها سعر ثابت وهو درهمان (أو ثمانية أوجه) . وحتى الذين كانوا يتراسلون دوماً مع الخارج ، مثل كبار تجار الساحة ، كان لهم اشتراك : يؤدون كل شهر من 10 إلى 15 بسيطة حسنية إلى الأمين ، وفي مقابل ذلك كانت رسائلهم

---

(12) روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور .

(13) انظر الكتاب 5 ، الفصل 2 .

(14) عبد الوهاب لحلو ، المحاضرة المذكورة.

(15) نفس المرجع . يشير معتمدنا القنصلي بفاس إلى أنه ، عام 1888 ، توصل رقاص حامل لرسالة مستعجلة بعشرة ريال لقطع المسافة بين فاس وطنجة ذهاباً وإياباً في ظرف ستة أيام (رسالة بتاريخ 8 ذي القعدة 1305/17 يوليوز 1888) .

تحمل مجاناً ، بل يؤتى بها أو تستلم في المحل[16]، بينما كان على الزبناء العاديين أن يسلموا أظرفتهم إلى دكان ساحة النجارين ، ويعودوا لتسلمها عند وصول البريد. كانت الانطلاقات في تاريخ محدد ، يومي الاثنين والخميس ، لكن في ساعات متغيرة[17] .

البريد الأوروبي - تغير كل شيء عندما نظم الأنجليز مصلحة بريدية بين طنجة وفاس ، ابتداءً من 16 فبراير 1892[18]. أقام هذه المصلحة م. ماك ليد ، الذي كان آنذاك تاجراً ، والذي كُلف بعد بضعة أشهر بمهام نائب قنصل بريطانيا العظمى بفاس . وإذا كان البريد الانجليزي قد أُنشئ لأغراض تجارية محضة وبقي مدة طويلة مصلحة خاصة ، فإنه تضرر بالإضافة إلى قلة عدد حملة بريده (اثنان في الأسبوع على الأكثر) من عدم انتظامهم[19] . لم تكن له إذن أهمية كبرى في حدّ ذاته ، لكن منشآته استُعملت كنموذج، تلاها إحداث عدة مصالح أجنبية وحتى مصلحة شريفة (مغربية) .

وفعلاً ، فإن المبادرة الأنجليزية التي جاءت بعد إقامة مواصلة بريدية فرنسية بين الجديدة ومراكش سنة 1891 ، أغضبت بعض تجار فاس الذين اتصلوا بالمخزن وأقنعوه بإحداث مصلحة بريدية مغربية ؛ وبرسالة شريفية مؤرخة في 2 جمادى الثانية 22/1310 ديسمبر 1892 ، كُلف أحد الأعيان الفاسيين ، وهو الحاج عثمان التويمي بنجلون ، بوضع أسس هذه المنشأة الجديدة[20] . وتبدأ ارسالة هكذا : « بلغ إلى شريف علمنا أن بعض الدول الأوروبية رغبت في إحداث بريد لربط الصلة بين الجديدة ومراكش ، فقررنا منع هذه البدعة بتدارك رغبة هؤلاء الأجانب وإنجاز ما عزموا عليه». وها هي

---

(16) نفس المرجع .

(17) وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة .

(18) نفس المرجع .

(19) روني - لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 247 استمر البريد الأنجليزي بفاس إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة 1938 .

(20) رسالة ذكرها نهليل ، الرسائل الشريفية ، رقم 79 .

خاتمتها : « ستصلكم مع هذه الرسالة الطوابع والأكياس المُعَدة للرسائل . وقد أمرنا باشا مدينتكم أن يساعدكم في تنفيذ هذه التعليمات واتباع أوامرنا . والسلام» . والواقع أن القرار الشريف وصل بعد فوات الأوان ولم ينفذ ، على ما يبدو ، إلاّ ببطء . لم تكن الخدمة الشريفية مزدهرة قط ، والسبب في ذلك راجع ، حسب تقرير لنائب القنصل البريطاني بفاس[21] ، إلى سوء تنظيمها وكونها لم تكن تأخذ رسائل موجهة إلى الخارج ، ولم تنضم إلى الاتحاد البريدي . ومن جهة أخرى لم تكن طريقة أخذ الواجبات نقداً بدون تنابر لتساعد مصالح الخزينة الشريفة ، فتلاشت هذه المصلحة وتطلبت مصاريف باهظة .

أما البريد الفرنسي ، فقد عرف نجاحاً مغايراً تماماً . ففي 11 يوليوز 1892 ، دشن م . فاباريس ، وكيل دار كُوتش وشركائه بطنجة[22] مصلحة بريدية منتظمة بين طنجة وفاس ، بقدر حاملين اثنين للبريد في الأسبوع (بينما لم يكن للأنجليز سوى واحد) ، مع محطتين ، إحداهما بالقصر الكبير والأخرى بدوار ملاينة على واد سبو ؛ وابتداء من شهر شتنبر ، وبمناسبة مقام سفارة الكونت دوبينيي بفاس ، قام حامل ثالث للبريد بالمواصلة مع طنجة كل أسبوع[23] .

وتبنت الحكومة الفرنسية المصلحة لحسابها ابتداء من فاتح فبراير 1893 وأنشأت وكالة بريدية بفاس كان م . فاباريس أول من عين لها رسمياً ؛ وأدى اليمين في 9 فبراير[24]. وحولت الوكالة البريدية إلى قباضة بعد سنة[25] في فبراير 1894[26] . وألحقت بنيابة القنصلية لفرنسا ، بمجرد وصول أول رئيس رسمي

(21) محاضر دبلوماسية وقنصلية ، رقم 1476 ، ص. 28 .

(22) انظر ما سبق الكتاب 3 ، الفصل 2 .

(23) موليبراس ، المرجع المذكور ص. 259 -262 .

(24) رسالة غير منشورة للدكتور ليناريس ، مؤرخة في 10 فبراير 1893 .

(25) موليبراس ، المرجع المذكور .

(26) كانت أول وكالة فرنسية أنشئت بطنجة سنة 1860 ؛ وتحولت إلى قباضة عادية سنة 1887 وإلى قباضة رئيسية سنة 1893 (ديروش ، المرجع المذكور) .

لها،م. دومارسيلِّي :فكان معطي معلومات عن سير هذه القباضة[27] بالنسبة للفترة الممتدة من 4 غشت إلى 31 ديسمبر 1894 ، بقوله : « بلغ عدد الرسائل التي وصلتنا 73 ، منها 46 آتية من المفوضية ، و 4 من الشعبة ، و 23 من الخواص ؛ ووقع إرسال 98 رسالة ، 62 منها إلى المفوضية ، و 4 إلى الشعبة ، و 16 إلى السلطات المغربية ، و 16 إلى الخواص، أي أن مجموع المراسلات 171 رسالة . . . . . وقد كلفت نيابة القنصلية بالبريد ، الذي يحتوي على مصلحته . إرسال واستلام ست إرساليات بريدية في الأسبوع » . وأحدثت وكالة بريدية بالملاح في 16 ابريل 1899[28]؛ كان يشرف عليها تاجر يهودي يتسلم البريد ويوزعه ، ويبيع التنابر ، ويضمن الرسائل والطرود ، لكنه لم يكن يؤدي الحوالات ولا يستلمها[29] . ومنذ 1900[30] انفصل البريد الفرنسي عن القنصلية ، وأقيم في زقاق رياض جحا بحي الديوان ؛ وكان يشرف عليه آنذاك يهودي بمساعدة ساعي بريد مسلم يحسن التكلم بالفرنسية إلى حدّ ما .

وأنشأ الألمان بدورهم سنة 1899 وكالة بريدية بفاس ملحقة في الملاح، مقلدين النظام الفرنسي في كل شيء ، لكن بأسعار أدنى بالنسبة لبعض المراسلات وتسامح كثير جداً في وزن الطرود[31].وكان البريد الألماني يشرف عليه مستخدم من دار ريشتير ، ويقع في حي الصاغة ، قرب جامع القرويين .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى وجود مكتب بريدي إسباني ، منذ فاتح يوليوز 1909،يديره مستخدم إسباني . وفكرت حكومة مدريد في تنظيم مصلحة بريد

---

(27) في تقرير بتاريخ 19 يناير 1895 ، أورده م. بوبون .

(28) **وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة** ، رسالة بتاريخ 22 يوليوز 1909 .

(29) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور .

(30) موليراس ، المرجع المذكور ، ص. 150 .

(31) كان الألمان يقبلون الطرود من 3 كلغم ، بينما يرفض الفرنسيون ما فوق 300 غرام (روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور) .

من فاس الى مليلية عبر تازا[32]، لكن عدم الأمن في الجهات التي كان لا بد من المرور بها لم يساعد على تحقيق هذا المشروع ، ولم تحصل المصلحة الإسبانية على كبير نجاح لأنها لم تكن تقبل غير العُملة الإسبانية[33] .

ولا بد بالتالي من ذكر معلم مساعد بمدرسة الاتحاد الاسرائيلي يدعى بنسمحون أنشأ سنة 1893 مصلحة بريدية بين فاس وصفرو ، وأخرى سنة 1897 بين فاس ومكناس . وكان مقصوده ، على ما يبدو ، المضاربة في التنابر البريدية التي أصدرها بهاتين المناسبتين . ولم يكن لكلتا المصلحتين سوى وجود عابر .

كانت المصالح الأوروبية كلها قائمة على نسق واحد : ملحقة بقنصليتها ويديرها مستخدم مقتدر بمساعدة مغاربة ، وتستعمل رقاصة متنافسة فيما بينها ، مما يعود بالخير العميم على المغاربة ؛ وكان أحسنها اتساقاً وأكثرها حرصاً على امتلاك الزبناء الفاسيين هي المصلحة الفرنسية والمصلحة الألمانية . نظمت الأولى ، سنة 1904 ، رحلات نحو طنجة أيام الأحد ، والثلاثاء والجمعة ، ونحو مكناس في نفس الأيام ، وكان البريد يأتي من طنجة مبدئياً أيام الاثنين ، والخميس والسبت ، ومن مكناس أيام الأحد ، والثلاثاء والجمعة ، لكن مُدد الطريق كانت تتضاعف في حالة رداءة أحوال الطقس ، ولم يكن التوقيت الرسمي إذّاك إلّا بيانياً[34] . وكانت رحلات البريد الألماني نحو طنجة تتم أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ، ونحو مكناس أيام الأحد ، والثلاثاء والجمعة ؛ بينما كان وصول بريده من طنجة مبدئياً أيام الأحد ، والثلاثاء والجمعة ، ومن مكناس أيام الإثنين والأربعاء والجمعة[35] .

---

(32) وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة ، رسالة بتاريخ 22 يوليوز 1909 .

(33) نفس المرجع .

(34) موليراس ، المرجع المذكور ، ص. 150 ؛ وروني ـ لوكلير ، المرجع المذكور . يشير سان ـ روني طايانديي (المرجع المذكور، ص. 255) إلى أن البرقيات بين فاس وفرنسا كانت تستغرق ، أيام الشتاء ، خمسة أيام للوصول ، إذ كان الإبراق بها يقع من طنجة .

(35) روني ـ لوكلير ، نفس المرجع .

ولما جاءت سفارة م. سان ـ روني طاياندبي إلى فاس في يناير 1905، نظم البريد الفرنسي ست رحلات بريدية في الأسبوع في كل اتجاه بين فاس وطنجة ؛ وعلى الفور أضاف البريد الألماني رحلة بريدية رابعة ، وبلغ وتيرة ست رحلات بريدية في الأسبوع بمجرد إقامة سفارة الكونت دوطاطّنباخ بالمدينة الإدريسية (11 ماي 1905) . وبالعكس من ذلك ، بعد إبرام الاتفاقية الودية على الأقل ، فإن علاقات البريد الفرنسي بالبريد الأنجليزي أصبحت طيبة : بل حصل اتفاق سنة 1907 يتكامل بريدهما في خط فاس ـ مكناس ـ الرباط[36] .

كانت هذه المكاتب المختلفة تُسَيِّر المراسلة الرسمية للقنصليات ، وكذلك المراسلة التجارية لأهل فاس ؛ وكان هؤلاء يتراسلون مع أوروبا أو بلدان أخرى ، وبخاصة مع وسطائهم بطنجة والعرائش : كانوا يطلعون بعضهم بعضاً على كل ما كانوا يسلمونه لمرافقيهم الذين كانوا يحملون نقوداً وبضائع بين فاس والساحل ، وحيث إن حملة البريد كانوا أسرع بكثير من القوافل ، كانت المراقبة دائماً سهلة[37] . ولم تكن الرسائل الواصلة إلى فاس تحمل في الغالب إلا اسم المرسل إليه ؛ فكان المستخدمون يحتفظون بها إذن في المكتب إلى أن يأتي المعنيّ بالأمر ليتسلمها ؛ وإذا ما حدث أن تأخركثيراً ، فإن المكاتب الأوروبية كانت كلها تستخدم أهل البلد الذين يقومون بالبحث فيجدون حيناً المرسل إليه[38]

القوافـــل : ـ كان نقل البضائع والمسافرين بين فاس وسائر مناطق المغرب يتم بواسطة القوافل . ولم يكن المخزن يتدخل في هذه الحركة أكثر مما كان يتدخل في الحركة البريدية ، فتلك مسألة تهم الخواص[39] .

---

(36) وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة .

(37) ق. بنعبد الجليل ، دبلوم غير منشور .

(38) المرجع المذكور .

(39) انظر عن القوافل البيليوغرافيا المذكورة بصدد السفارات الأوروبية فيما سبق ، الكتاب 3 =

كانت الدواب المستعملة هي الخيول والبغال ، والحمير ، وكانت تشترك عادة في نفس القافلة[40]. كما كانت تستعمل الإبل لنقل الأحمال الثقيلة جداً ،لكنها كانت تساق في قوافل متميزة ، لأنها كانت ابطأ سيراً بكثير من سائر الدواب .

كانت هذه الحيوانات كلها في ملك طائفة الحمّارين (حمّار ، ج حمّارة ، أو جمّال ج جمّالة) مقسمة إلى عدة مقاولات متميزة ، لكل واحدة منها مديرها (المعلم) الذي كان غريباً عن فاس ، مثل سائر أعضاء الطائفة . وكان قواد القوافل من أصول مختلفة جداً ، بحسب المناطق التي كانوا يقطعونها ؛ فكان لا بد لهم أن يعرفوا لا الخاصيات الجغرافية لخط سيرهم فحسب ، ولكن أيضاً العوائد الجاري بها العمل ، والشخصيات ذات النفوذ التي قد يحتاجون إلى الاعتماد عليها . وهكذا فإن الذين كانوا يتولون السفر بين فاس وطنجة كانوا من جبالة ناحيتي وزان وطنجة[41]، والذين كانوا يترددون بين فاس وتافيلالت كانوا صحراويين . وكان أشهر قواد القوافل في بداية القرن العشرين هم « المعلمون » الأيسر ، وبلفهدي ، والعلمي ، وعلي قليبو ، ورئيس الطائفة هو الأمين الشرقاوي .

كان رئيس الطائفة هذا يحمل اسم « باش حمّار »[42] في عهد مولاي الحسن ، وهو الذي كان يقع الاتصال له لتنظيم القوافل في جميع

= الفصل 2 ؛ وانظر ايضاً روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ص.48 -249؛وق.بنعبد الجليل ، دبلوم غير منشور ؛ وعبد الوهاب لحلو ، المحاضرة المذكورة؛ومؤلفين مختلفين، هنا وهناك .

(40) كانت قافلة أوبان ـ على سبيل المثال ـ مؤلفة من 52 بغلاً و 16 فرساً و 4 حمير (أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 83) .

(41) لحلو ، نفس المرجع ؛ ومعلومات شفوية . كانوا يدعون حمّارة سواحلية:ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص 284 .

(42) ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص 284 وما بعدها . يحرص المؤلف على ألا يقع الخلط بين « باش حمّار» و« قائد الحمّارة» الذي كان موظفاً للقصر يرأس فرقة البغالين للمخزن .

الاتجاهات ؛ يعينه المخزن ، فيحدد الأسعار ويتفاوض مع مختلف مجموعات النقالين الذين كانوا يدفعون له واجب 5% من الثمن المتفق عليه . يقول ميشو- بلّير إنه كان « شبه مدير لمكتب سفريات ». كما أنه كان يقوم بدور خبير في النزاعات ، مثل سائر رؤساء الطوائف المهنية ، ملزماً بإمداد المخزن بالدواب التي قد يحتاج إليها في حالة حركة عسكرية أو نقل غير عادي : فكان بالجملة وكيلاً لمصادرات السلطان فيما يخص الدواب[43] . وكان مقرّه بفندق الحبابي قرب باب عجيسة . كادت تختفي هذه التسمية في دولة مولاي عبد العزيز ، فلم يعد أمين النقالين سوى أمين كالآخرين : وكان آخرهم هو الأمين الشرقاوي الذي كان يحتفظ مع ذلك بسلطة كبيرة إلى حدّ ما ، لأن مصالح الاستخدام كانت أكثر أهمية من النزاعات الطائفية العادية .

ولم يكن النقالون يُقبلون في زمرة الطائفة إلا إذا تقدموا بضامن أو أكثر من الموسرين المعروفين في المكان ، على غرار جميع الحرفيين الغرباء عن فاس . وذلك احتياط مفيد ، لأن البضائع لم تكن تصل دائماً كاملة ، لا سيما إذا كان الطقس رديئاً . إنني لا أقصد الحُزم التي تضيع عند اجتياز نهرٍ ، أو تُترك في الطريق من جراء هلاك دابة ، ولا كذلك التي يسلبها قُطاع الطريق ، إذ كانت تلك مخاطر مهنة التاجر ، ولا يُعدُّ النقالون مسؤولين عنها بحال من الأحوال . لكن كان يحدث أن تتوقف قافلة بسبب رداءة الطقس أياماً عدة أمام نهر فائض خطير العبور ، أو في طريق صلصالي أصبح غير مسلوك ؛ فلا يتردد إذ ذاك رئيس النقالين في أن يعرض للبيع في عين المكان طرداً أو طردين من الحمولة المكلف بها ليطعم الناس والحيوانات . وكان يدعي لدى وصوله أنه

(43) كانت مصادرات المخزن متكررة ، وتقع حتى ضد المحميين الأوروبيين : كان م. دو لاروش، نائب قنصل فرنسا بالعرائش، قد نظم سنة 1888 مصلحة نقل بين العرائش وفاس ، بالنسبة للبضائع الواردة من أوروبا ؛ وفي 14 غشت 1889 حجز عامل فاس إبله للنقل المخزني ، وإن كان م. دو لاروش قد احتاط بحماية دواب سمساره، بواسطة الوكيل القنصلي الفرنسي بفاس . فاحتج هذا الأخير، لكن بدون جدوى ، ولم تتغير الوضعية بعد عدة أسابيع (رسالة نائب قنصل فرنسا بالعرائش ، في 4 سبتمبر 1889) .

تعرض لهجوم أو لضربة من القدر ، أو كان يروي أنه اضطُر إلى التخفيف من الثقل في إحدى المحطات وأنه سوف يأتي بالطرد الناقص عند رحلته القادمة . فلم يكن الطرد يصل قط حتى يملّ المرسَلُ إليه ويقدّم شكاية بذلك .

كان العامل اذن يستدعي ، كما هو الشأن في جميع مثل هذه الحالات ، لجنة من الخبراء ، مؤلفة من أمين قواد القوافل وأحد أعيان التجار ، ويعتمد اعتماداً مطلقاً على استنتاجات اللجة[44] . فإذا كان قائد القافلة المتهم عاجزاً عن الإدلاء بالحجة عما يدعيه ، كان عليه أن يؤدي اليمين في ضريح سيدي عبد الرحمن المليلي ، ويمسح عينيه بحلقتي باب المدخل إلى الضريح ؛ فإذا كان يمينه كاذباً ، تعرض لفقدان البصر . ويشاع بفاس أن هذه المعجزة قد شوهدت بالفعل: يروي السيد قاسم بنعبد الجليل[45] حكاية ذلك الناقل الذي أحس بألم شديد في عينيه ، بعد أن مسحهما بحلقتي الباب الرهيب ، فلم يستطع أن يفتحهما بعد ذلك ؛ واعترف على الفور ، وبذلك تمكن التاجر المغصوب من استرجاع قسط لا يستهان به من الأموال التي خشي أن يفقدها إلى الأبد . ويضيف الراوي بمزاح : « أليس من المحتمل الظن بأن فقدان المتاع جعل تاجرنا حاذقاً فلجأ إلى آخر حيلة تحت جنح الظلام وطلى بالفلفل السوداني الحلقتين الكاشفتين للغيب ؟ » .

كانت مثل هذه الحالات نادرة جداً ، لأن قائدي القوافل كانوا يبرهنون في معظمهم عن ثقة كبيرة ؛ كانوا جشعين حريصين على اكتساب أثمان باهظة[46]؛ فإذا تم الاتفاق كان من الممكن الاعتماد عليهم ؛ « كانوا محترمين متمتعين بشيء من الشهرة لدى جميع السكان ، خاصة الموظفين والتجار الذين غالباً ما كانوا في حاجة إلى خدماتهم »[47] .

---

(44) ق. بنعبد الجليل ، دبلوم غير مطبوع . وكان التاجر المكلف بمثل هذه القضايا قُبَيْل الحماية ، هو الشريف سيدي الغالي العمراني .

(45) نفس المرجع .

(46) روني ـ لوكلير ، المرجع المذكور ، ص 248 .

(47) عبد الوهاب لحلو ، المرجع المذكور ؛ انظر أيضاً روني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص=

إذا أراد أحد تجار فاس القيام برحلة ، ذهب إلى أحد الفنادق المستعملة كمربط دواب لأهم مجموعات النقالين ، إلى فندق الجمالة ، في الموقع الحالي لسينيما بوجلود ، أو إلى فندق الشماعين السابق الذكر ، أو إلى فندق بوخريص قرب باب عجيسة[48] . وهناك يدخل في مفاوضات مع أحد رؤساء القوافل . كان لابد من الاتفاق على اليوم ، لعدم وجود تاريخ ثابت لخروج القوافل ، والاتفاق على الثمن بصفة خاصة لأنه كان يختلف تبعاً للمسافة التي ستقطع ، ولنوع الحمل وأهميته ، وللفصْل ، وأخيراً للوضعية السياسية للمناطق التي يقع المرور بها . ونظراً لكون جميع هذه العناصر كانت تتغير في نفس الوقت ، لكن في اتجاهات مختلفة ، كان لابد من الاحتراس الشديد حتى لا يقع المرء تحت رحمة النقالين . وهذه بصورة تقريبية جداً الأسعار المطبقة في أوائل القرن العشرين على المسافة الأكثر استعمالاً ، أعني بين فاس وميناءي العرائش وطنجة .

	فاس ـ العرائش	فاس ـ طنجة
حمل جمل	من 20 إلى 35 بسيطة حسنية	من 40 إلى 70 بسيطة حسنية
حمل بغل	من 25 إلى 40 بسيطة حسنية	من 60 إلى 90 بسيطة حسنية[49]

وعدَّ القنصل مَاكْ لـيد[50] من جهته أن النقل من فاس إلى طنجة كان

= 134 حيث يقول : « وهناك مغاربة آخرون اكتسبوا ثقة الجمهور وهم البغّالون المكلفون بنقل مبالغ هامة من النقود . . . ولا تذكر حالة لبغال واحد هرب حاملاً معه المبلغ الذي سلم إليه » .

(48) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(49) هذه الأرقام أعطاها الدكتور سير ديرا (المرجع المذكـور ، ص 3)ونقلها روني ـ لوكلير. (المرجع المذكور ص 248) . وحسب ميشو ـ بـلّير (موجز غير منشور عن فاس) ، فإن الأسعار كانت كما يلي في فصل الصيف : طنجة ـ فاس : النقل بالبغال 35 بسيطة إسبانية ، وبالإبل 50 بسيطة ؛ العرائش ـ فاس ، بالبغال 30 بسيطة ، وبالإبل 40 بسيطة .

(50) ذكره ك . فيديل ، **تجارة المغرب في 1900 و 1901** ، ص 14 . وإنّ الفرق بين أرقام ماك لود =

يتطلب 0 بسيطة حسنية 70 لكل طن ولكل ميل عند استعمال الإبل ، وبسيطة حسنية 45 عند استعمال البغال ؛ وأخيراً فإن نائب قنصل فرنسا بفاس كان يقدر سنة 1899[51] أن ثمن النقل بالكيلو بين فاس والساحل كان في المعدل 0 فرنك 20 في الصيف ، و 0 فرنك 40 في الشتاء .

وليلة الانطلاق ، كان الناقل وأعوانه يقومون بعمليات الحزم ؛ فإذا كانت لديهم إبل ، كانت الأحمال تزن حتى 125 كيلو (تحمل كل دابة اثنين منها متوازنين بدقة) ولا تتعدى زِنَةُ الحمل 90 كيلو بالنسبة للبغال ، و 40 كيلو بالنسبة للحمير[52] . كان لابد من إتقان لفّ الرزم جيداً ، إذ كانوا يُنزلون الأحمال عن الدواب في كل محطة ثم يضعونها على ظهورها غداة الغد . فإذا كان اللف ضعيفاً لم يتحمل كل هذه المعالجات باليد التي كانت تتم في خضم الاضطراب والصياح والرفس[53] . وإذا ما تعلق الأمر بشيء ثقيل لا يمكن تقطيعه ، وُضع على شبه محفة كانت تربط بجملين أو بغلين ، أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة ؛ وهكذا كان في استطاعة جملين أن يحملا حتى 600 كيلو[54] . وأخيراً فإن الأشياء الثقيلة الكبيرة الحجم ، مثل الآلات ، كانت توضع على عجلات ثقيلة من خشب يجرّها الثيران ، ولا تستطيع أن تسير إلاّ في فصل الجفاف . كان ذلك ترَفاً لا يستطيع القيامَ به إلاّ المخزن[55] .

= وأرقام الدكتور سيرديرا ناتج فقط عن أن أرقام الأول صالحة لسنة 1900 ، بينما أرقام الثاني صالحة لسنة 1903 .

(51) **وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة** ، رسالة بتاريخ 10 ابريل 1899 .

(52) انظر سيرديرا وروني ـ لوكلير ، المرجع المذكور .

(53) انظر عند روني ـ لوكلير (المرجع المذكور،ص.249) قائمة مستفيضة جداً وموضوعة لأغراض عملية عن مختلف أنواع التلفيف الشائعة الاستعمال .

(54) سيرديرا ، المرجع المذكور .

(55) روني ـ لوكلير، المرجع المذكور . يوضح نفس المؤلف (المغرب الشمالي، ص. 87) من جهة أخرى أن المخزن نفسه كان يعاني كثيراً من إرسال الأشياء البالغة الثقل إلى فاس : يذكر أنه رأى بالعرائش أسداً من البرونز ، وسككاً حديدية لقطار ذي طريق ضيق وثلاثة إطارات =

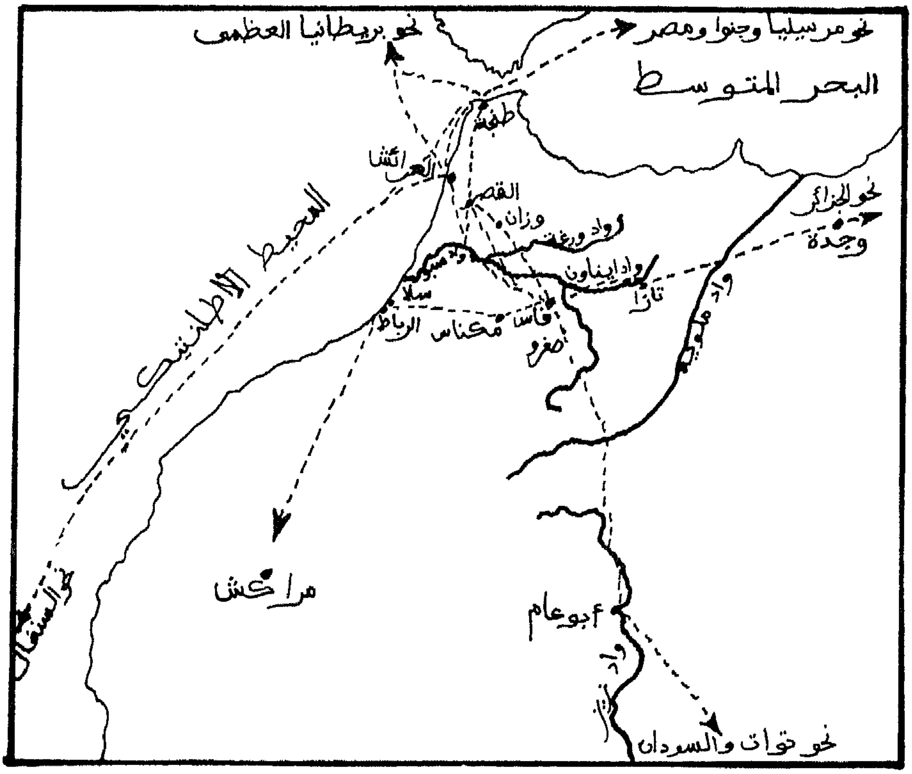
وعلاوة على البضائع ، كانت القوافل تنقل الأموال أيضاً ، لأن النظام البنكي كان ما يزال بدائياً ، ولأن الأداءات كانت تدفع في جلها نقداً . كان ذلك يتطلب من المرسل عملاً كثيراً ، إذ كان عليه أن يُبعد القطع النقدية المزوّرة ، وأن يعدَّ مرة أولى وثانية القطع الصحيحة ، وأن يفرزها وينظمها في أكياس صغيرة من قماش يختمها بالشمع ، وأن يزن الكل ويثبت الوزن الصافي على الكيس[56] . ثم يحمل الذخيرة إلى أرباب القوافل في سرية كاملة ، خشية التأثيرات السيئة أو نظرات التطفل ، فيسلمها يداً بيد إلى رئيس البغالين . وكان على هذا الأخير أن يحمل الأمانة إلى مراسل زبونه (القبّال) فور وصوله إلى العرائش أو طنجة ؛ وكانت أجرته تتراوح بين 5 و 15 بسيطة حسنية ، حسب أهمية الإرسال . كان لا يدفع أي توصل ، لأن الثقة كانت سائدة ؛ ورغم ذلك كان التاجر يرسل مع القافلة أحياناً رجلاً أو رجلين من عنده[57] . كما كان يحرص على تنبيه مراسله برسالة يطلعه فيها على نوع الإرسال ، واسم قائد القافلة واليوم المحتمل للوصول ، وبذلك يكون قد اتخذ جميع ما يمكن من الاحتياطات .

ومن المعلوم أن التأمين كان منعدماً : فكان كل من المال والبضائع تحمل على مسـؤولية التجار . فإذا لم تصل إلى المرسل إليه بسبب النهب أو رداءة أحوال الطقس ، لم يكن هناك أي حق للرجوع على أحد . فكان لابد إذن من الاعتماد على الله وأوليائه ، الأمر الذي لم يكن يقصر فيه التجار الفاسيون ، إذ كانوا يتوسلون إلى المولى إدريس فيما يخص متاعهم ويودعون في صندوق ضريحه حتى عشرة ريالات لاكتساب رعايته . وكانوا يشعرون طوال فترة ربحهم بشبه احتياج إلى التصدق وتقوى الله تعالى . له الحمد ! وكان الله

= عظيمة كانت تضم ـ حسبما قيل له ـ قاطرة وعربتين . كان قد نظم في فصل الصيف ، موكب لنقل كل ذلك إلى فاس ، ولكن بعض المتعصبين اعترضوا طريقه على مسافة 50 كيلومتراً من البحر ، وأرغموه على الرجوع على أعقابه .

(56) جميع هذه التفاصيل منقولة عن عبد الوهاب لحلو ، المرجع المذكور .

(57) ق، بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .



الرسم 29
الإشعاع الاقتصادي لفاس

سبحانه لا يكاد يخيّب عباده[58] .

كانت القافلة تنطلق في اليوم المعين[59]، فتغادر فاسا من باب عجيسة أو باب محروق إذا كانت متوجهة نحو الساحل أو مكناس أو وَزان ، ومن باب فتوح إذا كانت متوجهة إلى تازا ، أو صفرو أو تافيلالت ؛ ثم كانت تسير طيلة أيام ، عبر الجبال والسهول ، على المسلك الذي رسمته منذ قرون حوافر الدواب . كانت البغال تقضي خمسة أيام للوصول إلى العرائش ، إذا سار كل شيء على ما يرام ، والإبل ثمانية أيام ؛ وكان لابد للأولى من ثمانية أيام لبلوغ طنجة ، واثني عشر يوماً للثانية . كانت الطريق إلى العرائش تمرّ بنزالة فراجي ، ونزالة الضويات ، ووادِ مكّس ، ومشرع الحدّ ، ودوار ملاينة ، وبعده يعبر نهر سبو في مشرع بلقصيري على معديات ، مقابل « خمسة ريالات عن كل زوج من الدواب »[60] تدفع للقائد الحباسي ، وقرية الحباسي ، وللّاميمونة . وكانت الطريق إلى طنجة تتبع نفس الخط إلى سبو ، ثم تلتحق بالقصر الكبير عبر سوق أربعاء سيدي عيسى بن الحسن ، والفوّارات وعرباوة . وكانت هناك طريق أخرى تدعى « طريق الصيف » تلتحق بسبو عند مشرع بللّعرج ، وتعبر ورغة عند مشرع الباشا ، ورضات عند مشرع أولاد المويمي ، وتلتقي بالطريق السابقة عند عرباوة[61] . وكانوا يلتحقون بطنجة ، من القصر، في أربع مراحل عبر واد المخازن ، وبرّيان ، ونزالة سجلدة .

---

(58) يبدو أنه كان في القديم حامٍ معتمدٌ عند القوافل ، شبه سان كريسطوف في الإسلام . وفعلاً ، فإنه ورد في سلوة الأنفاس (جزء 1 ، ص. 359) بصدد سيدي علي الجمل ، الذي كان معاصراً لمولاي إسماعيل ما يلي : « إنه كان يزطط القوافل بهمته . وربما كان يخرج لباب المدينة ويأخذ من أرباب القافلة درهماً لكل جمل من جمالها ، فيذهبون فيربحون في سلعتهم ويرجعون للبلد سالمين غانمين . واتفق في يوم من الأيام أن بعض أرباب القافلة تشطر معه في جمل فلم يعطه عليه شيئاً . فخرج فيهم اللصوص ونهبوا لهم ذلك الجمل وحده ولم ينهبوا غيره » .

(59) انظر الرسم رقم 29 .

(60) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 83 -84 .

(61) ميشو بلّير ، الغرب ، ص. 79 -81 .

وكان لا بد من حوالي عشرين ساعة للذهاب من فاس إلى وزان بسير فعّال . كانوا يتسلقون مرتفعات جبل تغات ، ويتبعون إلى نهر سبو أحد مسالك طنجة الذي كان يدعى « المسلك الفوقي ».وبعد عبور النهر ، كانت الطريق معلمة بمزارع (عزيب) شرفاء وزان ، وكانوا في أمان[62] .

كان مسلك مكناس يتبع تقريباً رسم الطريق الحالية ، ويعبر الوديان على جسور بناها عبد الرحمن دي سولتي [63] .وإذا أرادوا أن يسرعوا، كان بإمكانهم قطع المسافة بين فاس ومكناس في يوم واحد ، لكن جل القوافل كانت تقطع المسافة في مرحلتين .

وكانت صفرو على بعد ست ساعات من فاس ، كمحطة أولى نحو تافيلالت ، ونقطة انطلاق الطريق المدعوة طريق السلطان ؛ كان الوقوف بعد ذلك بتاغزوت عند أيت مكّيلد ؛ وبأنجيل فيما وراء مضايق رصيفة ؛ وبقصابي الشرفاء في وادي ملوية ؛وبنزالة بعد اجتياز ممر تالغومت ؛وبجرس في ناحية الريش ؛ وبتعلاّلين شمالي قصر السوق ؛ وبقصور سيدي بوعبد الله في مدغرة ؛ وبالدويرة في الرتب ؛ وتحت أسوار المعاضيد ، وهو أكبر مركز نخيل في تيزيمي ، ويكون الوصول أخيراً إلى أبوعم،عاصمة تافيلالت،بعد مسيرة عشرة أيام على الأقل . وكان المرور في بعض الأحيان القليلة بمضيق تونفيت بدلاً من تالغومت[64] .

وكان المرور أخيراً بوادي اللبن للالتحاق بوجدة ،ثم بإقليم التسول، وبعيداً شمالي تازا لتفادي هجومات غياتة الأشداء ما أمكن ، لكنهم كانوا إذ

---

(62) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 456 وما بعدها .

(63) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 3 .

(64) انظر دوسيگونزاك ، التوغل الاقتصادي في الجنوب المغربي ، في معلومات جماعية ، يونيو 1905 ، ص. 208 ، وميرسيي ، موجز اقتصادي عن تافيلالت ، نفس المرجع ، ص.220 ، وهارّيس ، تافيلالت ، ص 303 -304 .

ذاك يخاطرون بإثارة نزوة النهب عند الحياينة[65] .

وكان هذان الخطان الأخيران يمران وسط قبائل متمردة ؛ فلا تستطيع القوافل التوغل فيها إلاّ إذا أمَّنت لنفسها ، مقابل مال تدفعه ، حماية عدد معين من القبائل ذات المكانة الممتدة مضارِبُها في الطريق . وكانت هذه الإتاوة في الغالب تتضمن الإمداد بخفير من المسلحين يسمى « رطّاطة »[66] ؛ كانت دائماً باهظة الكلفة ، تتغير حسب الظروف ، ولا تقدم ضماناً مطلقاً ، لأن القبيلة الضامنة (الزطّـاط) لم تكن دائماً مطاعة حتى من طرف ذويها .

وأخيراً ، من أراد الذهاب من فاس إلى مراكش ، كان عليه أن يعرج على الرباط والجديدة في الغالب ، ليتجنب الكتلة المتراصة لقبائل زمّور ، وزعير ، وزيان ؛ وكان السلطان نفسه مضطراً إلى المرور من هناك ، ما عدا إذا نظمت حركة عسكرية مهمة ، كانت دائماً خطرة[67] . على أن الاتصالات المباشرة بين العاصمتين كانت نادرة .

كان لجميع القوافل الملتحقة بفاس أو الصادرة عنها تقريباً طابع تجاري . إلا أن بعضها كان مع ذلك من نوع خاص ، مثل قوافل السفراء الأجانب ، وقوافل الشخصيات الدينية كشرفاء وزان ، وقوافل المخزن التي كانت تحمل المؤن والمال للمدن النائية في المملكة ؛ وكانت هذه الأخيرة

---

(65) « لم تكن الطريق بين فاس وتازا آمنة قط ، إلاّ أنه تكونت قافلة هامة جداً قبل أسبوع للاتجاه نحو تلمسان ، وهي محملة كالعادة بمنتجات الصناعة المحلية ، بما فيها الأقمشة ، والملابس ، والأحذية ، إلخ . وأوقفت منذ المرحلة الأولى من جراء التفاوض حول الثمن الذي فرضته القبائل المجاورة للسماح لها بالمرور . وانطلقت ثانياً فنهبها عن آخرها الحياينة ، وكان الهجوم يوم عيد المولد النبوي » . (رسالة نائب قنصل فرنسا بفاس بتاريخ 16 سبتمبر 1894 ، **وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة** .

(66) انظر عن هذه اللفظة ومدلولها ، إ. لاووست ، **كلمات وأشياء بربرية** ، ص. 126 ؛ ومونطاني ، **تطور سلطة قواد تاكَونطافت** ، ص. 174 ؛ وبرونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 210 ، هامش 8 .

(67) روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ، ص. 159 .

تسير تحت إمرة قائد أو حراسة خفير عسكري . لم يكن هذا القدر من الاحتياطات ضماناً للأمن ؛ وبدلاً من أن تنضم تحت حماية قوافل المخزن ، كانت القوافل العادية تبتعد عنها بسرعة . يروي شـڤريون [68] أنه التحق في مسيرته نحو فاس « بقافلة الذخيرة التي تحمل إلى فاس حصيلة جمارك طنجة » . وكان القائد ، وهو نفسه لا يشعر بالأمان التام عند اختراقه إقليم شراردة ، يريد أن يسير مع قافلة المؤلف ، لكن دليل هذا الأخير رفض قائلاً : « إنه من بالغ الخطر أن يستعمل في خفر أكياس الذخيرة الشريفية ! » .

وكانت هناك أيضاً قوافل الحجاج الذين كانوا يجتمعون بفاس وينطلقون نحو طنجة في أوائل أيام الصحو ، وذلك للإبحار على متن سفن فرنسية أو أنجليزية في اتجاه جدة[69] .

وأخيراً خطر للأنجليز أن ينظموا قوافل سياحية . يشير القنصل ماك ليد في تقريره بتاريخ 1897[70] إلى أن وكالة كوك أدرجت فاسـاً في لوائح أسفارها ، لكنه يلاحظ أن المسافة بين طنجة وفاس ذهاباً وإياباً كانت تتطلب 35 ليرة لكل شخص ، وهو مبلغ باهظ بالنسبة لمسافري الطبقة الثانية والثالثة[71] . ورغم ذلك فإنه يشير إلى مجيء 38 سائحاً إلى فاس سنة 1899[72] منهم 30 من الأنجليز والأميركـيين ومعهم 10 نساء . ولم يذكر سنة 1905 سوى أربعة أو خمسة زوار ، نظراً للحالة السياسية المضطربة[73] .

كان البريد والقوافل هي الوسائل الوحيدة التي كانت لفاس من أجل

---

(68) نفس المرجع ، ص 74 -75 .

(69) انظر سالمون ، **التجارة الأهلية بطنجة** ، ص 51 .

(70) **محاضر دبلوماسية وقنصلية** ، رقم 2131 ، ص. 18 .

(71) يعود الكاتب سنة 1898 (تقرير رقم 2296 ، ص. 13) إلى هذه المسألة التي يوليها كبير اهتمام .

(72) **محاضر دبلوماسية وقنصلية** ، رقم 2603 ، ص. 13 .

(73) نفس المرجع ، رقم 3597 ،ص. 53 .

الاتصال بالخارج . نرى أنها لم تكن لتساعد على امتداد حركة التجارة حتى بالنسبة للأهالي . فقد كان الناس دائماً في هذه المسالك التي تكاد تكون مسطرة معرضين للتقلبات الجوية ، ولقطاع الطريق ، واضطراب القبائل . لذلك كانوا يفضلون السفر في الفصل الجميل وفي فترة الهدوء السياسي[74] ، لكنهم لم يكونوا قط على ثقة من أي شيء .

تيارات المبادلات بفاس : ـ كانت تجارة فاس على عدة مستويات ، فعلى المستوى الإقليمي قبل كل شيء ، كانت فاس مركزاً لناحية فلاحية غنية آهلة بالسكان حيث تصل المبادلات فيها إلى حجم عظيم ؛ ثم على المستوى المغربي ، لأن التجارة الفاسية كانت تتعدى كثيراً ناحية شمال المغرب ، وتمتد إلى جل المراكز الهامة للمملكة الشريفة ؛ وأخيراً على المستوى الدولي ، إذ كان التجار الفاسيون يعقدون اتصالات تجارية مع مختلف بلدان أفريقيا وأوروبا .

فاس مركز اقتصادي إقليمي : ـ تقع المدينة الإدريسية في ناحية غنية ومأهولة بالنسبة للمغرب . فهي مجاورة لسهل سايس ، قريبة من سهلي سبوو ورعة المتوسطين ، والهضاب العليا للأطلس المتوسط ؛ يعني ذلك أن فاساً هي بطبيعة الحال مطمح أنظار سكان كثيفين إلى حد مّا ، متكاملي الموارد في الغالب . فهنا زراعة الحبوب ، وهناك تربية المواشي والمنتجات الغابوية ؛ هنا زراعات الربيع ، وهناك زراعات الصيف . يتجلى دور فاس كمكان للتبادل الإقليمي في أزقتها وساحاتها ، من خلال ذهاب البدو وإيابهم

---

(74) إلا أن بعضهم لم يترددوا في الارتماء وسط قبائل هائجة : لقد سبق أن ذكرت حالة ل. هارّيس الذي ذهب من طنجة إلى فاس في ربيع 1909 ، مخالفاً الرأي القاطع لوزير بريطانيا العظمى بطنجة . (انظر ما سبق ، الكتاب 3 الفصل 2). ويتحدث لوكْلي هو الآخر (تاريخ مغربي ، ص.90) عن وكيل التبغ الذي كان مسافراً ، في ربيع 1911 ، إلى فاس بصحبة حَماته وأثاثه المحمول على الإبل ، في وقت كانت طلقات البندقيات تذهب من جميع الجهات. ووصل سالماً .

الذي لا ينقطع خاصة يوم الخميس ، وهم يتميزون بملابسهم الأكثر خشونة ، ولهجاتهم الغريبة ، ونسائهم السافرات تقريباً .

من المعلوم أن وظيفة فاس هذه كسوق إقليمية ترجع إلى عهد تأسيسها . لقد أكد ذلك ليون الإفريقي الذي لم يَفُتْهُ ، وهو يستعرض نواحي المغرب الشمالي ومدنه ، أن يشير في عدة مناسبات إلى نوع مبادلاتها مع فاس . فهذه بلاد بني زروال[75] التي ترسل الى فاس فواكهها (العنب ، والتفاح والسفرجل ، والليمون) وأقمشتها ؛ وبني يازغة[76] التي تنتج منسوجات من الصوف تباع بسوق فاس « بثلاثة ، أو أربعة أو حتى عشرة مثاقيل للقطعة » والزيت بقدر كبير إلى حد ؛ وبني بهلول (البهاليل)[77] الآهلة بالحطابين التي تزود فاساً بالحطب ؛ وسبه المركه[78] (سهل ثيكو ؟) الذي يُموّن فاساً بالفحم وخشب الجوائز والروافد ؛ وبني وليد[79] التي ترسل إلى فاس العنب لتجفيفه ، والتين ، واللوز ، والزيتون ؛ وبني واد الفتح[80] التي تورد « كمية وافرة من البقس ، الذي يستعمله صناع الأمشاط بفاس في مصنوعاتهم ويأخذون منه كمية وافرة كل سنة » ؛ وبني وارثين (آيت واراين ؟)[81] الذين يأتون إلى فاس بقمحهم وماشيتهم مع كمية كبيرة من الأرز . وهذه أمثلة فقط ، إذ تطول قائمة الأماكن التي يذكر ليون الإفريقي أو مارمول علاقاتها التجارية بفاس .

وقد بقيت هذه العلاقات إجمالاً ، في أوائل القرن العشرين ، مع تغيير

---

(75) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص 279 و 301 .

(76) نفس المرجع ، ص. 356 .

(77) نفس المرجع ، ص. 362 .

(78) نفس المرجع ، ومارمول ، الكتاب 2 ، ص. 310 .

(79) ليون الإفريقي ، ص. 294 .

(80) يتعلق الأمر ببلدة قريبة من تطوان يطلق عليها مارمول (جزء 2 ص 249) اسم بني واد فليح أو بني واد الفتوح .

(81) مارمول ، جزء 2 ، ص. 202 .



الرسم 30

فاس ، مركز اقتصادي اقليمي

بيّنا على هذا الرسم أسواق البادية التي يغشاها تجار فاس . وأشرنا إلى المدن التي تدور في فلك فاس كتازا ، وصفرو ، ووزان التي كانت تستخدم كمراكز ثانوية لتوزيع منتجات فاس.

طفيف ناتج عن عدم الأمن الذي كان يجعلها عرضية غير منتظمة ، لا سيما نحو الشرق (ناحية تازا) ونحو الجنوب (الأطلس المتوسط) .

وكانت فاس تستورد من الشمال (من سهلي سبو وورغة ، ومنحدرات الريف) الحبوب والفواكه ، وبخاصة الزيتون ؛ ومن الأطلس المتوسط ، جلود الحيوانات ، والصوف والغنم ، والخشب ، والفحم[82] والبرتقال المتأخر الأوان ؛ ومن سهلي سايس وزرهون الحبوب ، والعنب ، والزيتون . وكانت المدينة تُعْطي بالمقابل منتجات صناعتها (الملابس ، والأدوات المنزلية ، والأسلحة ، وأدوات الفلاحة) وكذا الأشياء التي كانت تستوردها من أوروبا .

يستحيل عدّ هذه المبادلات ، إذ لم تكن موضوع إحصاءات ، ولو تقريبية ، مثل التجارة مع أوروبا ، لكنه يمكننا أن نطمئن إلى أنها كانت تحتل مرتبة هامة جداً في الاقتصاد الفاسي[83] . وقد لوحظ ذلك جيداً بعد الحماية ، في عهد كانت فاس ، وهي مندمجة في الاقتصاد المغربي وحتى في الاقتصاد الدولي ، تستطيع أن تظهر فيه متحررة إلى حدّ ما من الحوادث المحلية الممكنة الوقوع : إن تجارة فاس لم تتضرر إلى أقصى حد إبان الأزمة الاقتصادية العالمية من 1930 إلى 1934 ، ولكنها تضررت من 1935 إلى 1937 بسبب السنوات الفلاحية العجاف التي كادت تقضي على القدرة الشرائية للبوادي المجاورة .

كانت المعاملات التجارية تتم في معظمها بفاس نفسها ، في الأسواق المختصة الآنفة الذكر[84] . فكان القرويون يفدون جماعات جماعات صغيرة

---

(82) ميشو بلّير ، **فاس والقبائل البربرية عام 1910** . كان الخشب يأتي ، حسب ترتيب الجودة المتناقصة ، من آيت مكَيلد ، وآيت يوسي ، وآيت مطير ؛ أما الفحم فكانت تعطيه آيت يوسي على الخصوص .

(83) يذكر مارشان (**الوضعية التجارية بفاس عام 1906** ، **في معلومات استعمارية ديسمبر 1906** ، ص. 421 -422) عدة محصولات سيئة متتالية .

(84) انظر ما سبق ، ص. 371 وما بعدها .

بدوابهم ، التي تكثر بصفة خاصة يوم الخميس من أجل سوق البهائم ؛ فإذا ما باعوا بضائعهم ، أنفقوا من المال الذي ربحوه كله أو بعضه في شراءاتهم بأسواق وسط المدينة . كان الذين يأتون من الضواحي المباشرة ينطلقون عند الفجر ، ويقضون النهار بفاس ، ثم يعودون عند الغسق ؛ وأما الساكنون على بعد بضع مراحل ، الذين لا يتنقلون إلا نادراً من وقت لآخر ، فكانوا يمضون أياماً عديدة بالمدينة لقضاء جميع حوائجهم وينزلون بالفنادق أو دور الضيافة الآنفة الذكر(85) . كانت المعاملات مع القرويين تكتسي نشاطاً أكثر في الفصل الجميل ، بعد الحصاد وقطف العنب وجني الزيتون . وكان فصل الكساد (فصل الشتاء وبداية الربيع) الذي كان يطابق رداءة أحوال الطقس وفساد الطرق يعرف ركوداً واضحاً جداً في العلاقات التجارية مع البادية المجاورة .

إلاّ أن تجار فاس كانوا أكثر يقظة وإقداماً من أن يكتفوا بانتظار أن يقصدهم الزبون من البادية : كانوا يذهبون ليعرضوا عليه البضائع في عين المكان . كانت هذه التجارة يتولاها باعة صغار بالتقسيط مسلمون أو يهود ، ويعملون شركاء مع رأسماليين بفاس يقتسمون معهم الأرباح(86) . بعد مدة غير محددة كان الباعة الجوّالون يذهبون ببضعة حمير ليقوموا بجولات في الأسواق الموسمية المجاورة . وكان خط المرور الأكثر استعمالاً هو الآتي : سوق الثلاثاء لقرية با محمد ، وسوق الأربعاء لأولاد جامع ، وسوق الخميس لحجاوى، وسوق الجمعة لأولاد عيسى ، وسوق السبت لأولاد عيسى ، وسوق الحد لشراركة (بوشابل) وسوق الاثنين لشراركة . والأسواق الأخرى التي كان الباعة الجوّالون الفاسيون يترددون عليها هي : سوق ثلاثاء النحيد ، وسوق

(85) انظر ما سبق الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(86) تقارير دبلوماسية وقنصلية رقم 3597 ،ص. 52 . يشير هذا التقرير من جهة أخرى إلى أن هذا النوع من التجارة قد انخفض جداً منذ 1903 : وبينما كان استرجاع الديون تتفاقم صعوبته من جراء عدم الاستقرار وضعف الحكومة المغربية ، كان تجار فاس الكبار يروّجون رؤوس أموالهم في مضاربات مربحة جداً في الصرف أو الحبوب .

أربعاء تيسة ، وسوق خميس الكُور ، وسوق السبّت لأولاد جامع ، وسوق الثلاثاء للأوداية قرب قنطرة واد مكّيس[87] . وكان بعض الصناع ، الفخارون على الأقل ، يستعملون نفس الطريقة : فإذا أبطأ البيع بفاس ، كان أحد صناع الخزف الأبيض يحمل على حمار أشياء تستعمل عادة ويذهب الى البادية لبيعها ، وخاصة في نواحي صفرو والحياينة[88] .

وكما نرى ، فإن الفاسيين لم يكونوا يغامرون بأنفسهم قط داخل بلاد البربر ، لكن كان لهم هنالك سماسرة يدعون سوّاقة ، يعرضون بها المنتجات المصنوعة أو المستوردة من قِبل الفاسيين ، ويأتون منها بالبهائم والخشب والفحم الضرورية للمدينة[89] . وكان يهود صفرو يلعبون دوراً هاماً على الخصوص في هذه التجارة[90] التي كانت مرتكزة على نظام قرض طويل الأمد ، بدرجات متتالية ، وعلى استعمال معقول للدواب : فكانت الحيوانات التي تأتي إلى فاس بالفحم أو خشب غابات الأطلس المتوسط تحمل في الإياب غذاء العمال الذين لم يكونوا يستطيعون الحصول على ما هو ضروري في عين المكان[91] .

كانت التجارة مع البربر مُربحة ، حسب ميشو ـ بلّير ،[92] إذ كان هؤلاء الجبليون يظهرون أكثر سذاجة من أهل السهول . فعندما كانوا يبيعون لهم بضاعة بثمن مربح ، كانوا يضيفون قائلين : « حق مولاي ادريس » ومعناه عند هؤلاء القوم السذج : « بحق مولاي إدريس » ، بينما ينوي التاجر الفاسي : «[أضيف إلى الثمن] الحقّ الذي سأدفعه إلى مولاي إدريس » .

---

(87) ميشو ـ بلّير ، **فاس والقبائل البربرية عام 1910** ـ الرسم رقم 30 .

(88) ڤيوو ، ولوطورنو ورياي ، **دراسة غير منشورة عن الفخارين** .

(89) أوبان ، نفس المرجع ، ص. 302 **وبحث حول الطوائف** ، ص. 97 .

(90) لوطورنو ، **النشاط الاقتصادي بصفرو** ، ص.285 . يعرف هؤلاء السماسرة اليهود بصفرو باسم دوّاس .

(91) ميشو ـ بلّير ، المرجع المذكور .

(92) نفس المرجع .

لم يقتصر التجار الفاسيون على النواحي البربرية وحدها في استعمال الوسطاء ، بل كانوا يلجؤون إليهم أيضاً في النقط النائية عن منطقة نفوذهم : فكانت هناك بالإضافة إلى صفرو ، وتازا ، ووزان ، مراكز ثانوية لتوزيع منتجات فاس . وكان تجار هذه المدن الصغيرة ، وبعضهم من أصل فاسي ، يشتركون مع تجار كبار من فاس فيتسلمون بضائعهم ويروجونها في مدينتهم الصغيرة ، وخاصة في القبائل المجاورة[93] . وكان اليهود يقومون طبعاً بدورهم في هذه التجارة ، وخاصة بصفرو ، حيث كانوا أكثر عدداً .

والحاصل أن فاساً كانت تقوم في ناحية شمال المغرب بالدور الطبيعي لمدينة تقع في وسط قروي : فكانت تستوعب قصد التصدير ، وللاستهلاك فيها بصفة خاصة ، المنتجات الفلاحية للبوادي المجاورة ، وتعطيهم في المقابل منتجات مصنوعة إما بفاس ، أو بالخارج ؛ وكان القسط الأكبر من هذه المبادلات يتم في المدينة ذاتها ، وقسط آخر يقع في الأسواق الموسمية بالبادية ، وقسط ثالث يتم عن طريق مدن ثلاث تابعة هي صفرو ، وتازا ووزان .

فاس ، مركز اقتصادي مغربي : ـ كانت علاقات فاس الاقتصادية مع سائر المغرب أقل انتظاماً ، لكنها تستحق الوقوف عندها هنيهة . فقد كانت موجودة في القرن السادس عشر ، كما تشهد بذلك المعلومات التي نجدها عند ليون الإفريقي ومارمول . فكلاهما[94] يشير إلى أن فاساً كانت ترسل الحبوب إلى درعة وتجلب منها التمر والنيلة ، وأن اللحافات المنسوجة بفيكيك كانت تباع بفاس[95] ، وكذا التمر والسكر وجلود سوس المدبوغة [96]، والجلود

(93) أوبان ، المقال المذكور ، ومغرب اليوم ، ص. 480 ، وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص . 231 .

(94) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 219 ؛ ومارمول ، جزء 3 ، ص. 11 .

(95) ليون الإفريقي ، الكتاب 3 ، ص. 240 ؛ومارمول ، جزء 2 ، ص. 30-31 .

(96) ليون الإفريقي ، الكتاب 1 ، ص. 262 و 271 .

المدبوغة ببلاد زيان التي كانت تستبدل بمنسوجات فاس ؛ وأن التجار الفاسيين بتادلا ، كانوا يبيعون « الأقمشة ، والسكاكين ، والسيوف ، والسروج ، واللجامات، والقلنسوات، والإبر وعدة أدوات أخرى» ؛ وفي مقابل ذلك كانوا يشترون « أفراساً ، وبرانس و . . . ورقيقاً ، وجلوداً قرطبية وأشياء مماثلة[97] ، وأن أهل فاس كانوا يستوردون من أنفا (الدار البيضاء) القرع والبطيخ الناضجين منذ شهر أبريل ، قبل قرع فاس وبطيخها بكثير[98] ؛ وأنهم كانوا يستوردون من إقليم أزغار (الغرب) القمح ، والماشية ، والصوف ، والسمن ، والجلود [99] وهلم جرا .

إن عدم الاستقرار أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد قلص هذه المبادلات ، لكن لم يستنزفها ؛ كانت فاس قبل الحماية ما تزال لها علاقات تجارية مع مجموع المغرب ، ولكن ، بينما كانت تزود النواحي البعيدة قليلاً بمواد الاستهلاك العادي ، لم تكن تتبادل مع النواحي النائية سوى مواد جيدة ، ذات سعر قادر على تحمل مصاريف النقل الباهظة .

وكانت أهم التيارات التجارية لفاس ، داخل المغرب كما يلي :

1 ـ الاتجار مع ميناءي العرائش وطنجة : ـ كان أهم هذا الاتجار عبارة عن بضائع مستوردة من أوروبا أو مصدّرة إلى خارج المغرب ، وسأعود إليها . غير أن الصناعة الفاسية كانت تبيع بعض منتجاتها في كلتا المدينتين ، ولا سيما في طنجة ، حيث كانت الخزفيات ، والمطرزات ، والأشياء الحريرية ، والمنسوجات الصوفية ، وجزء من جلود الأحذية المدبوغة أو غير المدبوغة تأتي من فاس[100] .

---

(97) نفس المرجع ، الكتاب 1 ، ص 291 .

(98) نفس المرجع ، الكتاب 2 ، ص. 11 .

(99) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 213 ؛ ومارمول جزء 2 ، ص. 205 .

(100) سالمون ، **التجارة الأهلية وسوق طنجة** ، ص. 38 و 39 و 49 .

2 ـ الاتجار مع المغرب الشرقي ووجدة : ـ وهنا أيضاً كان أكبر جزء من البضائع يعبرُ حدود المغرب ويُوجَّه إلى الجزائر ؛ إلاّ أن بعضها كان يتوقف في الطريق : فحسب لامارتينيير[101]، كان تجار مسون وهم يهود فقراء مذقعون ، يبيعون سنة 1891 إلى القبائل المجاورة بضائع جلّها مستورد من فاس ؛ وكانت كلّ من تازا ، ووجدة ، ومدن صغيرة من درجة دنيا ، مثل گرسيف ، ودبدو ، تشكل مراكز لاستيعاب ونشر بضائع آتية من فاس .

3 ـ الاتجار مع تافيلالت : ـ وبالرغم على بعد المسافة ، ومصاعب الطريق التي تقطع الأطلس المتوسط ، ثم الأطلس الكبير ، على ارتفاع أكثر من 2.000 متر ، وتخترق أرض قبائل محاربة ، فقد عرف هذا الاتجار دائماً بعض النشاط . كان يهم من جهة الشاي ، والتوابل والشموع ، والخردوات ، والكتب ، والنعال ، والأقمشة القطنية ، والأقمشة الحريرية ، والسكر ، ولوازم إسراج الخيل التي كانت تطلبها تافيلالت من فاس ؛ ومن جهة أخرى التمر ، وتاكّاوت ، والجلود المدبوغة والرقيق ، والمنتجات السودانية ، كالعنبر ، وريش النعام ، والتبر والصمغ التي كانت تستوردها فاس من تافيلالت[102] . لم تكن المواد المستوردة إلى فاس تستهلك كلها محلياً والعكس بالعكس : فتمرُ تافيلالت إنما كان يمرّ بفاس ، بنسبة كبيرة ، ويُصدَّر بعد ذلك إلى أنجلترا ، حيث كانوا يقدرونه تقديراً عظيماً ؛ كما أن المواد المصنَّعة الفاسية الواردة إلى تافيلالت كانت في الغالب توزّع ثانياً على القبائل المجاورة إلى ناحية درعة ، بل وحتى إلى السودان[103] .

والحاصل أن فاساً وتافيلالت لم تكونا بالنسبة لمعظم مبادلاتهما سوى محطتين للإرسال في طريق أوروبا من جهة ، والعالم الأسود من جهة أخرى :

---

(101) المرجع المذكور ، ص. 358 .

(102) انظر هارّيس ، تافيلالت ، ص. 297 ؛ وميرسيي مذكرة اقتصادية عن تافيلالت ؛ و ك . فيديل ، تجارة المغرب في 1900 و 1901 ، ص. 135 -137 .

(103) انظر الكتب المذكورة .

تلك آثار عهد كانت تجارة بلاد السودان إنما تتم بواسطة القوافل . وقد كان هذا التيار قوياً لدرجة أن تنمية العلاقات البحرية لم تستطع القضاء عليه نهائياً .

وكانت الحصة المربحة أكثر ، إن لم تكن الأهم في العلاقات بين فاس وتافيلالت ، تتكون من التمر[104] .

4 ـ **الاتجار مع سائر المغرب** : ـ لم تكن علاقات فاس بسائر المغرب سوى علاقات عرضية : فكانت نواحي الدار البيضاء وموانئ الساحل الأطلنطي ، وتادلا ، ومراكش ، وسوس ، إما بالغة البعد من العاصمة الإدريسية ، أو مفصولة عنها بستار بالغ الكثافة من القبائل المتمردة ، ليمكن حدوث تيار للمبادلات . ومع ذلك فإن المواد الكمالية للصناعة الفاسية ، كالفخار ، والنعال ، والمطرزات ، والأقمشة الحريرية كانت منتشرة في جميع المدن وكثير من البوادي المغربية . كان السبب في ذلك بالتأكيد هو القيمة الممتازة لهذه الأشياء ، ولكن أيضاً لكون تجار فاسيين سبق أن أقاموا في جميع المراكز التي كان من الممكن أن تصل إليها بضائع فاس بكمية معقولة . كان عدد منهم بوزان[105] ، وتازا ، وصفرو[106] ، ومكناس ، والدار البيضاء[107] ، وأزمور[108] ، ومراكش[109] ؛ على أن تجار فاس لم يحدّوا روح تصرفهم في ذلك ، بل لم يترددوا في الاغتراب وحتى في الحصول ولو مؤقتاً على جنسية أجنبية[110] لتنمية تجارتهم[111] . وقد سبقت الإشارة إلى أن حرفيي طوائف

---

(104) انظر عن تجارة التمر ما يأتي : العلاقات التجارية بين فاس وأنجلترا .

(105) أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 396 .

(106) نفس المرجع ، ص.480 .

(107) كانت الجالية الفاسية بالدار البيضاء قليلة الأهمية آنذاك ، وقد تزايدت تزايداً عظيماً منذ انطلاق هذه المدينة .

(108) ش. لوكور ، الشعيرة والأداة ، ص. 185 .

(109) أوبان ، المرجع المذكور ، ص.37 .

(110) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، ص.179 .

(111) انظر عن الجاليات التجارية الفاسية بالخارج، ص.444 وما بعدها .

البناء ، مثل الفسيفسائيين والنقاشين والمزخرفين على الجبس والخشب ، كانوا يدعون إلى خارج فاس لزخرفة القصور(112) .

وباختصار ، كانت هنالك ثلاثة تيارات تجارية منتظمة : نحو الشمال ، ونحو الشرق ، ونحو الجنوب ؛ ومبادلات غير منتظمة ، مع سائر البلاد ، تتعلق خاصة بمواد الرفاهية في الصناعة الفاسية .

3 ـ **علاقات فاس التجارية مع الخارج** : ـ يمكن افتراض أن تجار فاس عقدوا منذ زمن مبكر جداً علاقات تجارية خارج المغرب ، إذ لا شك أن الأندلسيين والقيروانيين الذين استقروا بفاس بعد تأسيسها بقليل احتفظوا بالاتصال مع بلادهم الأصلية ، واضطروا بطبيعة الحال إلى عقد تيارات تجارية معها(113). كما أن الجالية اليهودية المستقرة بها منذ البداية كانت على اتصال محتمل مع جاليات يهودية أخرى بإفريقيا الشمالية وربما بإسبانيا . وعند انعدام كل وثيقة دقيقة ، نجد أنفسنا قاصرين في ذلك على افتراضات محتملة لكن غير مؤكدة .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن وثائق معظمها أوروبية تُمكّن ، إبتداءً من القرن السادس عشر ، من تأكيد وجود علاقات اقتصادية بين فاس وعدة بلدان أجنبية . ويشير كلينار إلى وجود تجار أوروبيين أقاموا « في دار كبرى تسمى عادة الديوان »(114) . ويؤكد هذا كل من ليون الإفريقي(115) ومارمول(116) ، كما يؤكده دييكُودي طورّيس(117) ، الذي يذهب إلى أن الملوك السعديين شيدوا

---

(112) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 3 ، ص.346 .

(113) انظر ما سبق ، الكتاب 1 ، الفصل 3 .

(114) رسالة بتاريخ 12 ابريل 1542 (نشرة روش ، عدد 1 ، ص.186 ، دورة 3 ، ص. 138).وانظر أيضاً لوطورنو ، المقال المذكور ، ص.51 .

(115) الكتاب 2 ، ص.37 .

(116) الكتاب 2 ، ص.161 .

(117) نفس المرجع ، ص.132 و 323 . وعن التجار المسيحيين في القرن السادس عشر ، انظر أيضاً ديمازيير ، أندري دو سبوليط ، ص. 57 .

« ديواناً » ثانياً للتجار المسيحيين بفاس الجديد ، قرب قصرهم ، لأن الأمن لم يعد ولا شك بعدُ مضموناً في قلب المدينة(*) . وتثبت مراسلة « السمسار » البرتغالي سيباستيان دي ڤيكاص هذه المعطيات(118) .

وكانت لفاس آنذاك علاقات تجارية مع البرتغاليين الذين كانوا يشترون منها الجلود والقمح والحبوب بواسطة « سمسار » عُيّن رسمياً من طرف ملك البرتغال ، وبواسطة تجار خصوصيين أيضاً(119) ؛ ومع الأنجليز الذين كانوا يشترون السكر ، وملح البارود ، والذهب ، والنحاس ، والشمع ، والجلود ، واللوز ، والتمر، والزرابي ، والخيول أحياناً ، ويبيعون الجوخ ، والقماش ، والطرابيش ، والشاشيات ، والرخام ، والحلي ، والأحجار الكريمة ، والسلاح ، والعدة ، والمواد الأولية الضرورية للصناعة الحربية ، كالحديد ، والقصدير ، والرصاص ، والكبريت(120) ؛ ومع البنادقة الذين كانوا يحملون إلى المغرب ، عبر ميناء بادس (ڤيليز دي كُوميرا)(121)، بضائع مختلفة ويصدرون منه « إلى تونس ، وأحياناً كثيرة إلى البندقية ، أو حتى إلى الإسكندرية وبيروت » ؛ وأخيراً مع الجنويّين الذين كانت لهم محطة بسلا يذهبون منها للاتجار حتى إلى فاس(122) .

وقد تضايقت هذه المبادلات التجارية في بعض الأوقات بسبب الاضطرابات التي أدمت فاساً وناحيتها ، وخاصة النصف الأول من القرن السابع عشر ، قبل إقامة الدولة العلوية ، وطوال القرن الثامن عشر إبان فتن دولة مولاي عبد الله . ورغم ذلك فإن التيار لم ينقطع قط . إنه تغير ابتداء من

(*) بل لم يكن سكان مدينة فاس يقبلون سكنى غير مسلم في مدينتهم ، لذلك كان اليهود والنصارى يقيمون بفاس الجديد .

(118) مصادر أوروبية لتاريخ المغرب ، البرتغال ، الجزء 3 ، هنا وهناك .

(119) ر. ريكار ، الحصون البرتغالية بالمغرب وتجارة الأندلس ، ص. 138 و 150.

(120) ج. كايي ، التجارة الانجليزية مع المغرب .

(121) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص.275 .

(122) نفس المرجع ، 2 :37 .

القرن السابع عشر ، ومن جراء تلاشي الجنويين والبندقيين ، بينما برز الفرنسيون[123] وأصبح التيار عظيماً جداً ابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع عشر مع تطور الاتصالات البحرية .

وفي أوائل القرن العشرين ، كان لتجار فاس علاقات منتظمة مع عدة بلدان إفريقية وأوروبية .

الاتجار مع افريقيا : ـ كانت فاس تتجر مع أربعة بلدان إفريقيا : الجزائر ، ومصر ، والسودان ، والسينغال .

1 ـ **الجزائر** : كانت تجارة فاس ، من جانب الجزائر ، تكاد تكون تجارة تصدير فحسب : فإذا كانت بعض البضائع الفرنسية ـ وهي نادرة حقاً ـ تأخذ طريق وهران لتصل إلى فاس ، فيمكن القول إن أي إنتاج جزائري محض لم يكن يتجاوز الحدود . فالمنتجات الفلاحية الجزائرية مماثلة تقريباً لمنتجات شمال المغرب ، والصناعة العصرية قليلة النمو جداً ، وأعمال الحرف الجزائرية لم تقترب ولو قليلاً من جودة الأعمال الحرفية الفاسية . إلاّ أنه كانت ترد من الجزائر عُلب الكبريت ، وورق السجائر ، والتبغ ، ومناديل الحرير[124] .

كانت فاس تُصدّر إلى الجزائر خاصة الماشية والأحذية والمنسوجات . وكان أحد ضباط بعثتنا العسكرية[125] يقدّر مصدّرات المنسوجات ب 300 حمل

---

(123) جاء الفرنسي إيموند دومولون إلى فاس في ربيع 1532 لشراء ريش لتزيين القبعات ، وعاد إليها سنة 1533 مع سفارة بيير دوبيتون (ديمازيير ، المرجع المذكور ، ص.29) .
وفي سنة 1577 ، عين الملك هانري الثالث قنصلاً ، هو المارسيلي گيوم بيرار ، و « وسيطاً للدول » . ولم يلبث مرسيلي آخر ، هو كاسطيّان ، أن خلف الأول (الدكتور لوسيان ـ گرو ، المغرب الاقتصادي ، ص.24) . . . .

(124) تقرير البعثة العسكرية الفرنسية (القبطان طوماس) بتاريخ 18 فبراير 1893 ، في وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة .

(125) نفس المرجع .

بغل في السنة ، موزعة على ثلاث أو أربع قوافل، وتمثل قيمة 300.00 فرنك على الأكثر . أما الماشية فكان نائب قنصلنا يقدّر أن فاساً صدرت منها ، سنة 1898 ، 3.000 إلى الجزائر[126] . كانت هذه المبادلات منظمة من طرف تجار فاسيين مقيمين بوجدة وبالجزائر ، خاصة في مراكز مغنية ، ونمور ، ورأس الماء ، وبيدو ، وغيليزان ، وسيك ، وسعيدة ، وبيريكو ، وتلمسان ، ومستغانم ، والعريشة ، وعين تموشنت ، ومعسكر ، وسيدي بلعباس ، ووهران ، والجزائر العاصمة ، وقسنطينة ، وعنابة ، وحتى إلى تونس وطرابلس ؛ فعلى سبيل المثال كان بالجزائر العاصمة شخص اسمه دادي ممثلاً للتاجر الفاسي محمد الكوهن[127] .

وقد تضايق التيار التجاري بين فاس والجزائر بسبب الاضطرابات التي نشأت في المغرب الشرقي منذ قدوم مولاي عبد العزيز ، وتوقف نهائياً ابتداء من ثورة بوحمارة (يونيو1902)[128] .

2 ـ **مصر** : ـ لا بد من اعتبار العلاقات التجارية بين فاس ومصر كنتيجة للحج . ففي الوقت الذي كان يتم الحج فقط عن طريق البر ، كان الفاسيون يسافرون حاملين معهم بضائع من بلادهم يبيعونها هنا أو هناك لتغطية مصاريف رحلتهم[129] . وكانت القاهرة إحدى المدن التي يتوقفون

---

(126) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4.وحسب ك. فيديل (**تجارة المغرب في 1900 و 1901**) ، فإن الجزائر قد ارسلت سنة 1899 بما قدره 838.514 فرنك مع البضائع إلى المغرب ، وبما قدره 600.000 فرنك سنة 1900 . وكان السكر (الآتي بلا شك من مرسيليا) يمثل ثلثي هذه الارسالات ، الموجهة خاصة إلى المغرب الشرقي . وقد توصلت الجزائر ، في نفس الفترة ، بما قدره .4.474.047 فرنك من البضائع سنة 1899 وبما قدره 11.370.5756 فرنك سنة 1900 ، وجلها مؤلف من حيوانات حية . ولم تكن فاس تراقب مجموع هذه التجارة ، وكانت بعيدة كل البعد عن ذلك .

(127) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص.232 .

(128) استؤنفت التجارة منذ الحماية على مدى واسع إلى حد . وبدأت فاس ترسل إلى الجزائر من جديد منتجات نسيجها وبعض الأحذية .

(129) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 1 .

بها توقفاً أكثر للاتجار ؛ وكانت بعض منتجات الصناعة الفاسية تحظى فيها بالاستحسان ؛ وأقيمت علاقات تجارية حتى خارج الحج . هذا هو السبب الذي من أجله كانت فاس تصدِّر إلى مصر النعال والأكسية (الحياك) بواسطة أربعة وعشرين تاجراً يروّج كل واحد منهم مجموع مبيعات من 10.000 إلى 60.000 ألف فرنك سنوياً . وكان لهم بالقاهرة ممثلون مغاربة يقيمون في منازل هناك[130] .

3 ـ **السودان الفرنسي** : سبق أن أشرت ، بصدد علاقات فاس مع تافيلالت[131]، إلى أن فاساً قد أقامت منذ قديم ، بواسطة هذه الـواحـة الموجودة فيما قبل الصحراء ، تياراً للمبادلات مع النواحي السودانية[132] ،وهو تيار غير منتظم وقليل الأهمية ، انقطع تقريباً مِن جراء الاحتلال الفرنسي لتوات ، واستخدام السكة الحديدية لكولومب بشار[133] . وتدخل فيه حصة لا يستهان بها من الرقيق[134] .

4 ـ **السينـغـــال** : جاء أول فاسي ، هو مولاي علي الكثيري ، ليستقر

---

(130) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص.233 . وانظر عن تنظيم الجالية الفاسية بالقاهرة ، ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 6 . أصيبت التجارة مع مصر بصعوبات النقل، ابتداء من 1914 . وثبتت على أي حال حتى 1925 ، وهو التاريخ الذي توقفت فيه كلياً . إنَّ تجار النعال والإسكافين والشريف سيدي عبد الحي الكتاني مجمعون على الاعتراف بأن النعال المعدة لمصر كانت معيبة في الصنعة ، وأن هذا هو أحد الأسباب الرئيسية في توقيف هذه التجارة (ڭيور ، ولوطورنو ، ڤياي ، الإسكافون ، ص.47) .

ويضيف الشريف الكتاني أسباباً أخرى ، وهي صعوبات الصرف المترتبة عن الأزمة النقدية الفرنسية ، ومنافسة الأحذية الأوروبية في مصر ، والسياسة الأنجليزية الرامية إلى فصل مصر عن السودان ، حيث كان لنعال فاس منفذها الرئيسي .

(131) انظر ما سبق ، ص. 425 .

(132) يقول هارّيس (تافيلالت ، ص.274) في هذا الصدد : « أبوعم هو المكان الذي يتمركز فيه ويعيش التجار الفاسيون الذين لا يملكون فعلاً التجارة المحلية كلها فحسب ، ولكن أيضاً تجارة السودان فيما وراء ذلك » .

(134) ديلبريل ، مذكرة حول تافيلالت ، ص.221 .

بالسينغال قصد الاتجار في الكتب الدينية حوالي 1880 فقط . وسرعان ما باع المصنوعات الجلدية والأقمشة ، ثم التحلق به عدة مغاربة ، أصلهم من فاس أو من ثغور الساحل الأطلنطي ، جاؤوا كلهم تقريباً عن طريق البحر . وبلغ عددهم 112 سنة 1905 ، وأقاموا بسان لوي ، وداكار ، وروفيسك ، وتييس ، وتروان ، وعلى طول النهر إلى كاييس ؛ احتكروا تجارة النعال وقسطاً من تجارة المنسوجات ؛ وكانت النعال وحدها تصنع بفاس ، بينما تأتي المنسوجات من أوروبا[135] . وكان الفاسيون هم الأكثر غنى ، إن لم يكونوا الأكثر عدداً : يذكر روني ـ لوكلير سبعة تجار مسلمين من فاس لهم علاقات منتظمة مع السينغال ويحصلون على مجموع مبيعات إجمالي قدرها 240.000 فرنك في السنة[136] .

والحاصل أن فاساً كانت تحافظ على تجارة تصديرية ، مع ثلاثة من هذه البلدان الأربع، تلك التجارة التي كانت تسفر في الوقت العادي عن مجموع مبيعات سنوية قدرها نحو مليون من الفرنكات .

الاتجار مع أوروبا : ـ كانت المبادلات بين فاس وأوروبا من نوع آخر مختلف تماماً ، لأن منتجات الصناعة الفاسية لم يكن بالإمكان بيعها خارج إفريقيا إلاّ كأشياء غريبة ، دون أن تكون موضوع تجارة متسعة ومنتظمة . بالإضافة إلى أننا قد أشرنا إلى أن المنتجات الفلاحية التي تطلبها أوروبا من

---

(135) الدكتور دانفريڤيل ، المغاربة في إفريقيا الغربية الفرنسية ، في المعلومات الاستعمارية ، مارس 1905 .

(136) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 233 . كان هؤلاء التجار هم : « مولاي علي الكثيري (60.000 فرنك في السنة ، وثلاثة شركاء بالسينغال) ، والحاج إبراهيم السوسي (50.000 فرنك ، وأربعة شركاء) ، والحاج أحمد العسري 50.000 فرنك) ، والحاج التهامي الديوري (20.000 فرنك) ، والسيد محمد بن عبد القادر بنجلون (20.000 فرنك ، أبوه مقيم بالسينغال) ، والحاج عبد الرحمن لحلو 20.000 فرنك) ، وبنطلحة 20.000 فرنك) » . بقيت تجارة النعال مزدرهة جداً وما زال عدد من الفاسيين مستقرين دائماً بالسينغال .

المغرب كانت تأتي خاصة من السهول الاطلنطيقية، فلم تكن فاس تستطيع إذن أن ترسل شيئاً كثيراً إلى أوروبا: بضعة آلاف من رؤوس الماشية عندما كانت الطريق عبر الجزائر مفتوحة ، وجلود غير مدبوغة ، وبعض المواد السودانية قبل أن تقطع بتوات الطريق المؤدية إلى السودان ، وبعض الكتل من شمع النحل ، وقليل من الصوف ، وتمر تافيلالت ، والبشنة التي كان الأنجليز على الخصوص يستعملونها لصنع الويسكي[137] ، والغاسول ، وشعر الماعز ، وجلد البقر، وكروش ومصارين الحيوانات المذبوحة في المدينة[138] .

إذا جمع كل هذا فإنه لم يكن يمثل مبلغاً ضخماً للمبيعات كل سنة ، إذ كانت تقدر قيمة التمر ، وجلود الماعز والبقر المصدرة سنة 1901 و 1902 من فاس بـ 600.000 فرنك[139] .

كان الأمر إذن يتعلق خاصة باستيرادات تتعلق بأشياء متنوعة جداً ، تبلغ قيمتها عدة ملايين من الفرنكات . وفعلاً فبالنسبة للمواد الست الرئيسية أي

---

(137) م. دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، ص. 98 -101 .

(138) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 244 -245 .

(139) نفس المرجع ، ص. 244 . وحسب التقرير الاحصائي والتجاري بتاريخ 17 أبريل 1898 ، فإن فاساً قد صدرت بين مارس 1897 ومارس 1898 ما قيمته 2.030.400 بسيطة حسنية (أي 1.410.000 فرنك بسعر ذلك الوقت) ، مفصلة كما يلي :

تمر	250.000 ب.ح.	نعال	1.250.000
جلود البقر	120.000 ب.ح.	شمع	43.000
جلود تافيلالت	12.000	جذور نباتات	13.500
جلود الماعز	140.000	الغاسول	15.000
جلود الضأن	35.000	شعر الماعز	40.000
الصوف الخشن	4.400	عاج	5.000
أكسية (حياك)	100.000	قرون	2.500

فإذا طرحنا من هذا المجموع 135.000 ب.ح . الممثلة لثمن النعال والحياك التي لم تكن معدة لأوروبا ، بقيت 680.000 ب.ح ، أي أقل من 500.000 فرنك حسب سعر الصرف .

السكر ، والشاي ، والشموع ، والجوخ ، والأقمشة القطنية ، يقدم روني لوكلير[140] رقماً لمجموع مبيعات قدرها 3.675.000 فرنك في 1901 و 5.000.000 في 1902 . يجب ألا نرى هنا ـ يقول المؤلف نفسه ـ معلومات في غاية الدقة ، لكننا نجد فيه مع ذلك إشارات ثمينة عند انعدام إحصائيات يقينية .

كانت فاس في أوائل القرن العشرين ، تتجر خاصة مع ألمانيا ، وأنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وفي درجة أدنى مع إسبانيا ، والنمسا ، وسويسرا ، وبلجيكا ، وروسيا .

1 ـ ألمانيا : ـ تكاد فاس لمْ تكن تصدر شيئاً إلى هذه البلاد ، باستثناء جلود جافة ومملحة ، وكروش ومصارين الحيوانات المذبوحة ، كانت توجه الى هامبورك .

وعلى النقيض من ذلك كانت ألمانيا تحتل الرتبة الثالثة فيما تستورده فاس ، بعد فرنسا وأنجلترا . فكانت ترسل إليها قبل كل شيء منتجات الصناعة الألمانية : جوخ ، وحرير ، وآنية ، ومصنوعات زجاجية ، ومواد صباغة ، ولُعَب ، وحلويات ، وحاكيات ، وآلات الخياطة[141] إلخ . . . وكانت من بعد تحاول ان تُقصي منافسيها بالترويج في سوق فاس لمواد تقدم كأنها موادهم تماماً ، لكنها أقل جودة وبثمن بخس ؛ وهكذا فإن دارموروكو مانيسمان وشركاءها قد حاولت إزاحة الشموع الأنجليزية (لندن كاندليس) بعرضها على الفاسيين شموعاً كان لها نفس المظهر الخارجي[142] . وقد جهد الألمان كذلك ، حوالي 1904 ، في تقليد الجوخ الأنجليزي ، المدعو ملف كسكسو ، الذي كان يصلح لخياطة القفاطين وصدرات الرجال[143] . وأخيراً ،

(140) نفس المرجع ، ص. 234 .

(141) وضع روني ـ لوكلير لائحة مفصلة لهذه الأشياء (المقال المذكور ، ص.243 — 241) .

(142) م. دوبيرينيي ، المرجع المذكور ، ص.95 .

(143) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص.235 .

كان الألمانيون يقومون عن طيب خاطر بدور الوسطاء ، ممثلين لدور تجارية سويسرية أو نمساوية[144] ؛ وحوالي 1905 استطاعت هامبورك أن تحتل مكانة في تجارة الشاي الصيني بفاس ، آخذة هكذا في الاحتكار الفعلي للأنجليز[145] . وكانت المستوردات الألمانية تقدر بالنسبة للجوخ والمصنوعات الحريرية بـ 300.000 فرنك سنة 1901 ، و 325.000 فرنك سنة 1902 ؛ لكنه ينبغي فيما يخص المجموع أن ترفع هذه الأرقام بكيفية كبيرة جداً بسبب السلع المختلفة التي كان الفاسيون يستوردونها من ألمانيا أو عن طريق ألمانيا .

لم يكن تفوق تجارة الألمانيين الذي لا جدال فيه ناتجاً عن عدد محلاتهم التجارية المقامة أو الممثلة بفاس ، إذ كان لدار ريشتير وحدها وملحقة[146] لدارين ألمانيتين أخريين ممثل واحد يهودي[147] . وعلى العكس من ذلك لم يكن أي فاسي مقيماً بألمانيا ؛ وعلى النقيض من ذلك كان العديد من الممثلين الألمانيين يأتون لتفقد زبنائهم الفاسيين : وتحتفظ الأوساط التجارية بفاس بذكرى المسمى بانس من لايبسيش ، الذي كان يقوم بزيارات منتظمة[148]. ولم يكتف هؤلاء الوكلاء ببيع سلعتهم ، بل كانوا يدرسون التجارة الفاسية ، ويأخذون عينات يحرصون على أن يقلد صنعها بدقة في ألمانيا حتى بعيوبها . لم يكن الألمانيون يحاولون إذن أن يفرضوا على الفاسيين هذه البضاعة أو تلك ، وإنما كانوا يتكيفون بكل دقة مع أذواق زبائنهم ، ويمنحوهم زيادة على ذلك آجالاً واسعة للأداء . كانت نتيجة ذلك كله أن المنتجات الألمانية ، ولو أنها عادية الجودة على العموم ، كانت تجد منفذاً هاماً في سوق فاس .

---

(144) نفس المرجع ، ص.243 ، هامش 1 .

(145) دوبيرپني ، المرجع المذكور ، ص.93 .

(146) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 .

(147) انظر روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص.232 .

(148) معلومة شفوية .

2 ـ أنجلتـــرا : ـ لا يمكننا أن نقول هل الاستيرادات الأنجليزية هي التي كانت منتصرة بفاس ، أم الاستيرادات الفرنسية . فإذا رجعنا إلى البيانات التي يدلي لها روني ـ لوكلير بالنسبة للسلع الست الرئيسية المستوردة ، فإن الانتصار كان لأنجلترا سنة 1901 ، بما قدره 1.575.000 فرنك في مقابل 1.250.0000 فرنك لفرنسا ؛ لكن فرنسا جاءت في المقدمة ، سنة 1902 بما قدره2.125.000 فرنك مقابل مليونين لأنجلترا . ويمكننا إذن أن نعتبر بأن الدولتين كانتا تحتلان الـرتبة الأولى بتعـادل تقريبـاً ، مع مـراعاة بعض الاضطرابات الناتجة عن الظروف .

كانت أنجلترا تستورد من فاس البشنة ، وشمع العسل ، ولا سيما التمر .

كان هذا الأخير يمثل قيمة سنوية ، انطلاقاً من فاس ، من 2 إلى 300.000[149] فرنك. وكانت تغيرات هذه التجارة كبيرة ، كما نشاهد ذلك ، لكونها كانت منوطة بعدة عوامل . لم يكن حتما محصول زراعي وافر ضماناً لتجارة رابحة ، لأن الأثمنة كانت إذ ذاك تنخفض جداً ، وسرعان ما تصل السوق الأنجليزية إلى الامتلاء . وهكذا فإن المحصول الزراعي لسنة 1899 كان ضعف المحصول المعتاد وناضجاً بكيفية غير عادية ، فتسبب في انخفاض 50% في سوق الندرة [150] .

ومن جهة أخرى ، عندما كانت القبائل الجبلية تثور وتقطع الطريق الرابطة بين تافيلالت وفاس ، كان التمر يوشك ألّا يصل في الوقت المناسب

---

(149) يدلي روني ـ لوكلير (المقال المذكور ، ص.244) برقم 300.000 فرنك لسنة 1901 ، وبرقم 200.000 فرنك لسنة 1902 . ويشير ك . فيديل (المقال المذكور ، ص.137) بالنسبة إلى نفس الفترة إلى 200 حتى 250.000 فرنك.كانت فاس تحتفظ للاستهلاك المحلي بقسط من إرسالات تافيلالت ، ويختار التجار المشترون أجود التمر للتصدير ، حريصين شيئاً فشيئاً على انتقاء فعلي وعلى التلفيف المتقن (تقارير دبلوماسية وقنصلية ، رقم 2131 ،ص. 17) .

(150) تقارير دبلوماسية وقنصلية، رقم 2603 ، ص. 12 .

إلى لندرة قبل أعياد ميلاد المسيح . وذلك ما حصل سنة 1895[151]: فعلى إثر وفاة مولاي الحسن ، نشبت فتن عند آيت يوسي وآيت إزدك ، الأمر الذي اضطرت من أجله قوافل التمر أن تسلك طريقاً طويلاً وتصل إلى فاس متأخرة بشهر ؛ ومع ذلك اشترته لندرة لكن بثمن منخفض .

كما أن المخزن كان يتدخل أحياناً : فقد فرض سنة 1898[152] ، أداء رسوم عن التصدير في فاس وفي ميناء الإبحار في آن واحد ، الشيء الذي رفع كثيراً ثمناً كان بعدُ غالياً[153] . فتضامن التجار والقناصل للاحتجاج وحصلوا في النهاية على مصالحة ، لكن التمر كاد ألّا يصل في الأعياد ! .

كانت المستوردات الأنجليزية تتكون أولاً من خيوط نسيج القطن التي كان يستعملها بعض حاكة فاس ، ومختلف المنسوجات : منسوجات قطنية ، كان الأنجليز يحتكرونها تقريباً[154] ، وأقمشة منافسة لأقمشة ألمانيا ،

---

(151) نفس المرجع ، رقم 1210 ، ص.15 .

(152) نفس المرجع ، رقم 2131 ، ص.17 .

(153) كان ك . ڤيديل (المقال المذكور ، ص.137) يعدّ بأن حملا من التمر (وزنه 50 كلغ) اشتُري في تافيلالت بثمن 6,85 فرنك كان ينتقل حتى لندرة بمبلغ 30,85 فرنك بسبب مصاريف النقل ومختلف الرسوم ، وهي مفصلة كالآتي :

ثمن النقل من تافيلالت إلى فاس	9,35 فرنك
الزطّاطة .	3,75
المكس بفاس	2,00
النقل من فاس إلى طنجة	5,00
المكس بطنجة	3,75
النقل من طنجة إلى لندرة	7,00

فإذا أضفنا إلى هذه الأرباح المعتادة للوسطاء والمضاربة المعهودة في التجارة الفاسية ، فلن نستغرب لكون نفس الكمية من التمر قد بيعت في لندرة حتى بـ137,50 فرنك .

(154) يقدر سيرديرا ، (المرجع المذكور ، ص. 12) بـ 8.000.000 بسيطة حسنية قيمة الأقمشة القطنية التي تستوردها فاس كل سنة . فإذا رجعنا إلى أرقام روني ـ لوكلير (المقال المذكور ، ص . 234) لسنة 1901 (800.000 فرنك) ولسنة 1902 (900.000 فرنك) يمكن الظن بأن سيرديرا قد أفرط في تقدير المستوردات القطنية الى فاس (اذ زاد صفراً في المبلغ) .

ومنسوجات حريرية محتفظة بالتفوق في سوق فاس بالرغم على منافسة السلع الفرنسية والألمانية ؛ وأخيراً أشياء جاهزة : مناديل ، وجوارب قصيرة وطويلة ، وخُمُر ومنشفات ، ولحافات ،وأغطية أسِرَّة [155] .

ثم تأتي المواد الغذائية : توابل كالإبزار ، والزنجبيل ، والكحول والمشروبات الروحية الرديئة لزبناء الملاح ، وخصوصاً الشاي ، بمبلغ 300.000 فرنك في 1901 و350.000 فرنك في 1902 [156] ؛ وكان استيراد الشاي ، حتى حوالي 1905 ، يكاد يشكل احتكاراً للأنجليز .

وكان هؤلاء يرسلون أيضاً إلى فاس مختلف الأشياء الضرورية للحياة المنزلية ، كالشموع التي كانت تصل قيمتها إلى نفس مبلغ مجموع مبيعات الشاي ، وأدوات الشاي : (بابورات) وغلّايات ، وأباريق ، وصينيات من معدن مفضض) وأسِرَّة الزينة النحاسية التي اعتاد أهل فاس أن يضعوها في طرفي قاعاتهم للاستقبال ، وبعض الساعات الصغيرة والكبيرة .

وأخيراً ، فإن مختلف المواد الأولية كورقات النحاس ، والحديد الخام ، وخيط الخياطة ، وأنواع شتى من الخيوط ، وكتان التلفيف ، والنفط[157] ، كانت تأتي أيضاً من أنجلترا .

كانت التجارة الأنجليزية هذه راسخة جداً في عوائد فاس ، وقد نالت المنتجات الأنجليزية ، منذ عهد طويل جداً ، إعجاب الفاسيين بجودتها واعتدال أثمنتها . إذ تسجل منذ القرن السادس عشر علاقات اقتصادية بين

---

(155) انظر اللائحة المفصلة لهذه المنسوجات والأدوات الجاهزة عند روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 236 - 240 .

(156) نفس المرجع ، ص. 234 .

(157) كان النفط أمريكياً أصلاً . ففي عام 1905 ، استقرت شركة أمريكية بفاس ، هي كولونيال أُيل كمپني ، وخفضت أثمانها آملة أن تعوض خصاصها في الربح ببيع أكثر . وهذا هو حسب علمي أول اتصال مباشر ، والوحيد قبل الحماية ، للتجارة الأمريكية بفاس (تقارير دبلوماسية وقنصلية ، رقم 3597 ، ص. 46) .

فاس وأنجلترا[158] . وتمتنت روابط التقدير والثقة هذه أكثر بإقامة عدد من التجار الفاسيين المهمين جداً[159] بأنجـلترا . لكن تجدر الإشارة إلى أن المبادلات بين فاس وأنجلترا بقيت مستقرة ، في أوائل القرن العشرين ، بينما كانت معظم الدول الأوروبية الأخرى ، وخاصة منها فرنسا وألمانيا ، تُحسِّن مواقفها . وقد ذكر القنصل ماك لود مراراً هذا الركود في تقاريره[160] ، وعزا ذلك إلى عدم اكتراث الدُّور التجارية الأنجليزية الكبرى التي لم تر من الضروري أن تقيم في عين المكان[161] ، وتكاد لا ترسل إلى فاس وكلاء تجاريين متجولين ، بخلاف الفرنسيين والألمانيين . ويبدو أن الأنجليز رأوا أنّ سوق فاس كما كانت عليه آنذاك ، لم تكن كفيلة بتطوير جدي ، وأنه من الأحسن الانتظار لتكون الأرضية أكثر أمنا ويمكن التقدم فيها أكثر .

3 ـ فرنســـا : ـ كانت فرنسا تتوصل من فاس بالبشنة ، والشمع ، وشيء من التمر ، والصلصال ، وشعر الماعز ، ولا سيما الجلود المجففة ، والصوف ، وذلك شيء قليل في الجملة .

ومن جانب الاستيراد ، كان السكر يأتي في المقدمة : فقد زودت فرنسا فاسا بما قيمته 900.000 فرنك سنة 1901 ، وبما قيمته 1.200.000 فرنك سنة 1902[162] وبكميـة منه تبلغ 4.000 طن بين فـاتـح فبـرايـر1898 وفـاتـح فبراير1899[163] . كان هذا الموقف المساعد ناتجاً عن جهود معمل التكرير

(158) انظر خاصة ج . كايي ، المقال المذكور .

(159) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 6 ، ص. 445 - 446 .

(160) انظر خاصة التقارير الدبلوماسية والقنصلية ، رقم 1304 ،ص. 29 - 30 ، ورقم 2296 ،ص. 12 - 13 .

(161) كان محل تجاري أنجليزي من لندرة ، هو لورك بروضرس وشركاؤه الوحيد الممثل بفاس من طرف يهودي مغربي (روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 232) .

(162) نفس المرجع ، ص. 234 .

(163) تقرير النائب القنصلي ماليبرتوي بتاريخ 1899 ، ذكره ك . فيديل ، المقال المذكور ،ص. 79 .

لشانطيني - على - اللوار الذي كان يبيع بأثمان مناسبة بضاعة جيدة مقدمة حسب ذوق الفاسيين ، ويفرض الأداء ، لا عند الشحن ، ولكن لدى جمرك العرائش[164] .

وكانت فرنسا ترسل إلى فاس ، علاوة على ذلك ، بعض المواد الغذائية ، خاصة منها مواد المستعمرات ، كالأرز ، والبُن ، والقرفة ، وخمر الأبسنت للملاح . لكن ذلك كان قليلاً بالمقارنة مع المنسوجات : وفعلاً فإن مصانع النسيج الفرنسية كانت تزود القيصرية بأقمشة صوفية بقدر متزايد ، ومنسوجات حريرية (قطيفة ، ودبياج ، وموصلي ، وأطلس ساطان)[165] وحتى ببعض المنسوجات القطنية الرخيصة الثمن . وكان مجموع ذلك يمثل مبلغاً قدره350.000 فرنك سنة1901 و 925.000 فرنك سنة 1902[166]. يضاف إلى ذلك ربطات الحرير ، وخيوط الصوف والحرير الممزوجين (شارة) .

وعلاوة على ذلك ، كانت فاس تطلب من فرنسا بعض الأعشاب الطبية ، والكاغد ، وقليلاً من المصنوعات الزجاجية ، ومرايا كبيرة وصغيرة ، وساعات بُوزانصون الصغيرة والكبيرة ، وصناديق من الفولاذ ، وأدوات النجارة ، والزركشة و ورق اللعب من النوع الإسباني ، والصابون[167] .

كانت هذه التجارة تمرّ كلها تقريباً بواسطة دارين تجاريتين من مرسيليا ، هما دار پاكي ودار دوڤيل ، وكان لكليهما حسابات جارية مع تجار مغاربة ؛ وكان عدد من الفاسيين بدورهم يقيمون بمرسيليا[168]. إلاّ أن بعض التجار كانت

---

(164) نفس المرجع .

(165) كانت فاس قد استوردت سنة 1898 ، من فرنسا 3.000 متر من الأطلس - ساطان - (تقرير قنصلي بتاريخ 10 أبريل 1899) .

(166) روني - لوكلير ، المقال المذكور ، ص . 234 .

(167) انظر القائمة المفصلة لهذه البضائع عند روني - لوكلير ، المقال المذكور ،ص. 240 - 241 .

(168) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 ، الفصل 6 ،ص. 446 .

لهم علاقات مباشرة مع بعض الدور التجارية بباريس[169]. كما كان لعدد من الدور الفرنسية فرع بفاس : بوطبول إخوان ، برنشفيك وشركاؤه فورت وشركاؤه ، الشركة المغربية وماكسيم آلبي[170] .

4 ـ إيطاليا : ـ كانت إيطاليا تتلقى من فاس قليلاً من الشمع والصوف ، بكمية لا أهمية لها ، وتزودها بمنسوجات الحرير ، والحرير الخام ، بمبلغ قدره 200.000 فرنك سنة 1901وسنة 1902 [171] ، وأدوات الزركشة ، والرخام لتبليط الساحات والأحواض ، والمواد الملونة ، وربطات القطن ، والأدوات ، والمواقد التي تشتعل بالكحول ، وساعات صغيرة وكبيرة ، ونبيذ القيرموت للملاح . كان هذا الاتجار يتم عبر جنوة التي يقيم بها بعض الفاسيين[172] .

5 ـ بلدان أوروبية أخرى : كانت لفاس طبعاً علاقات مع إسبانيا التي كانت ترسل إليها شيئاً من التمر والجلود الفجّة ، وتستجلب منها بعض منسوجات برشلونة ، وأثاثاً ، وشراب الأنيسون وأحذية للملاح ، وبذور الأشجار المثمرة والأزهار ، والشكلاط الذي كان يشتهيه الفاسيون ، ولو أنه كان منحط الجودة .

وكانت النمسا ترسل عبر جنوة قليلاً من السكر وطاقيات لليهود والمسلمين ؛ كما كانت سويسرا تزوّد فاساً بالأقمشة ، وأدوات الساعات ، وآلات الخياطة ؛ وترسل روسيا الساعات الصغيرة والكبيرة . وأخيراً كانت بلجيكا تنافس فرنسا لكن من بعيد ، لتوفير السكر الذي قدمت منه ما قيمته

---

(169) انظر لاطاف ، المرجع المذكور ، ص. 55 .

(170) انظر ك . فيديل ، المصالح الفرنسية والمصالح الألمانية بالمغرب ، ص. 260 .

(171) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 234 .

(172) انظر ما يأتي ، الكتاب 5 الفصل 6 ، ص. 446 ؛ وانظر عن البضائع المستوردة من إيطاليا ، روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 243 .

300.000 فرنك سنة 1901 وسنة 1902[173] ؛ وكانت الكمية المستوردة سنة 1898 ، هي 844طن[174] .

كانت تجارة فاس مع الخارج تمرّ كلها تقريباً عبر ميناءي العرائش وطنجة ، باستثناء القوافل المتجهة نحو الجزائر ، ونحو السودان[175] . كانت السلع تحمل على الدواب بين فاس والشاطئ[176] . وفي كِلَا الميناءين كان وسطاء العبور (القبّالة) يتكفلون بشحن السفن بالحُزم وإنزالها منها . وكانت لهم بفضل البريد اتصالات منتظمة مع زبنائهم بفاس . وكانوا أهل ثقة ـ على ما يبدو ـ إذ لا وجود لأي أثر لنزاعات أو احتجاج في شأنهم[177]. وغالباً ما كانوا من أصل فاسي أو شركاء لبعض الفاسيين .

ولولا الموج العالي الخطير لنهر اللكوس ، لكان حقاً في استطاعة تجار فاس أن يجيزوا تجارتهم عبر العرائش بدل طنجة ، حيث كانت المسافة أقصر جداً (170 عوض 240 كلم)[178] والطريق أسهل كذلك ، لأن القوافل إذا لم تتعد العرائش كانت تتفادى اجتياز خمسة أنهر ، من بينها اللكوس ، الأمر الذي كان يشكّل أحياناً مخاطر كبيرة في الأيام الممطرة[179] . وذلك ما جعل فيليب الثاني يعتبر العرائش « كميناء فاس الحقيقي ، وبهذه الصفة كان أهم نقطة في

---

(173) نفس المرجع ، ص. 234 . وانظر أيضاً نفس المرجع ، ص. 243 .

(174) ك . فيديل ، المقال المذكور ، ص. 79 .

(175) يذهب روني ـ لوكلير (المقال المذكور ، ص. 233) حتى إلى التأكيد بأنه نظراً لعدم الاستقرار ، كانت بضائع فاسية كثيرة ترسل بحراً إلى الدار البيضاء ، والجديدة ، وأسفي ، والصويرة .

(176) انظر ما سبق ، ص. 411 وما بعدها .

(177) انظر روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 233 .

(178) عن خطوط السير من فاس إلى طنجة والعرائش ، ومدة السفر ومصاريف النقل ، انظر ما سبق ، ص. 414 وما بعدها .

(179) ميشو ـ بلّير ، مذكرة غير منشورة حول فاس .

الشاطىء »[180] لكن صعوبة إنزال البضائع الناتجة عن الموج العالي كانت تدفع الفاسيين إلى إرسال جميع البضائع القيّمة إلى طنجة أو جلبها منها ؛ وكانت البضائع الثقيلة وحدها (كالأقمشة القطنية ، والشاي ، والشموع ، والحديد ، والسكر) هي التي تمر بالعرائش ، وتحمل منها إلى فاس على متن الإبل[181] .

---

(180) أوبان ، المرجع المذكور، ص. 92 .

(181) نفس المرجع ، ص. 94 .

6/5

الفصل السادس

مظهر التجارة الفاسية

تدل الإشارات السابقة على أنّ التجارة الخارجية لفاس كانت تعاني من عجز كبير : فالمستوردات حسب الأرقام التقريبية التي ذكرها روني ـ لوكلير تفوق المصدرات بنسبة 5 إلى 1 تقريباً . وعلى فرض أن هذه الإشارات ليست صحيحة تماماً ، فإن الواقع يظل يقينياً : وهو أن ميزان مبادلات فاس مع الخارج كان سلبياً جداً .

على أن من الأكيد أن التجارة الفاسية كانت تعول أصحابها ، وأن ليس هناك أية علامة جدية تسمح بالقول إن المدينة افتقرت خلال السنوات الخمس والعشرين التي سبقت الحماية . فيجب إذن أن نستنتج من ذلك أن رخاء فاس كان يأتي من مبادلاتها داخل المغرب . وبالرغم على عدم وجود أية إحصائيات متعلقة بهذه النقطة ، فمن حقنا أن نقول إن تجار فاس كانوا في بداية القرن يبيعون في المدينة وفي الناحية وفي مجموع المغرب ، ما قيمته أربعة ملايين فرنك على الأقل ، وربما باعوا أكثر من ذلك قليلاً . وهكذا يتعادل أكثر مما يلزم النقصُ الحاصل في التجارة مع الخارج .

إن مبادلات فاس مع النواحي المغربية البعيدة تمثل في الواقع شيئاً قليلاً ، وإن التجارة الإقليميـة هي التي كانت تعطي التجار أوفر نصيب من أرباحهم . فقد كانت ناحية شمال المغرب خصبة على العموم ، مناخها لا

يبدو شديد التغير ؛ والمحصولات جيدة أو على الأقل يغلب متوسطها على رديئها ؛ وذلك ما يضمن للتجارة الفاسية أماناً وأرباحاً كافية .

ومع ذلك ظل هذا التوازن عارضاً ، لأن الفلاح المغربي لم يكن يدّخر شيئاً : فأقلّ ظرف طارئ يجعله في ضيق شديد . إذا حدث قحط فإنه لا يعود يفكر إلاّ في ألاّ يموت جوعاً ، ولا يشتري شيئاً من المدينة ، وبذلك يحرمها من قوام تجارتها . على أن فاساً لا تلبث أن تتأثر بطريقة أخرى ، لأن المواد الغذائية تصبح فيها قليلة ويرتفع ثمنها كثيراً . إن الفاسيين الذين هم أكثر فطنة من البدو ، لا يبقون دائماً بدون ادخار : إن هؤلاء الحضريين الذين تعودوا منذ قرون على الصمود أمام ما يُضرب عليهم من حصار ، وعلى تحمل نتائج السنوات العجاف، قد صاروا يتكيفون مع هذه الأحداث السيئة : فعندما يلاحظون البوادر الأولى لأي اضطراب كان من جهة السماء أو البشر، يقومون بالادخار من كل نوع ، بحيث يتمكنون على العموم من الخروج سالمين من المخاطرة[1] . أتحدث هنا عن الناس الموسرين المتبصرين ، لأن الفقراء لا يملكون وسائل الحماية ولا يتمكنون من العيش إلا بصعوبة في وقت الأزمة.

لم يكن المناخ العامل الوحيد لتغيرات التجارة الفاسية : فلا بد أيضاً من أن يعتبر مع الصرف الذي عَرَفَ قَفَزَاتٍ فجائية مزعجة ، خاصة في عهد مولاي عبد العزيز ، ومع الحياة السياسية بالمغرب التي اضطربت كثيراً بعد موت مولاي الحسن[2] بالثورات الدورية للقبائل التي تصل إلى أبواب المدينة ،

---

(1) شوهد ذلك سنة 1939 : فقبل إعلان الحرب عندما أدرك الفاسيون أن أحداثاً خطيرة كانت تتهيأ ، اشتروا كميات عظيمة من المواد الغذائية والثياب بصفة خاصة . وبذلك تمكنوا من تحمل تقلبات الحرب دون خسائر .

(2) تضاعف ثمن القمح والشعير عندما نُعي مولاي الحسن (منتصف يونيه 1894)، ثم عادا إلى ثمنهما الطبيعي عندما وصل مولاي عبد العزيز إلى فاس في متم يوليوز (تقارير ديبلوماسية وقنصلية ، رقم 1633 ، ص. 15 -16) .

ومغامرة بو حمارة ، والمنافسة بين مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ ، إضافة إلى تقلبات المناخ ، فتشوش أكثر على اتزان التجارة الفاسية .

لكن سيلاحظ أن ذلك كله ، باستثناء الصرف ، كان ذا طابع محلي محض : لم تكن فاس في ذلك الوقت تشارك في الحياة الاقتصادية العالمية ؛ فلم تكن مبادلاتها تتأثر بتقلبات التجارة الدولية : سعودها ونحوسها مرتبطة بما كان يقع بين الريف والأطلس المتوسط وزرهون ومضيق تازا . لذلك فإن الارتفاعات والانخفاضات إذا كانت مفاجئة ، فإنه لم يكن لها الاستمرار ، طبيعة « موجة القعر » للأزمات الدولية الكبرى .

كان ثمن الأدوات المجلوبة من أوروبا مرتفعاً جداً : فكان التجار الأوروبيون يبحثون عما يؤمنهم من الأخطار التي يستوجبها نقل بضائعهم إلى فاس ، ويبيعونها بثمن أغلى قليلاً من أوروبا . كما كانت مصاريف النقل بين الساحل وفاس ، ومخاطر الضياع أو السرقة ، تحمل التجار الفاسيين هم أيضاً على أن يرفعوا الثمن . أضف إلى ذلك أنه في فترات انعدام الأمن ترتفع أسعار القوافل بنسب قوية : في مطلع سنة 1904 تضاعفت قيمة البضائع الأوروبية على إثر مصاعب النقل[3] . فكان السكر والشموع والشاي والثياب المستوردة تساوي أغلى بكثير من ثمنها بأوروبا ، وسيلاحظ أن الأمر لا يتعلق فقط بمواد الرفاهية ، بل يشمل كذلك أيضاً منتجات الاستهلاك العادي ، حتى في البادية ، مثل السكر[4] والشاي .

كان ثمن المنتجات المحلية ، كما هو الشأن في كل مكان ، موضوع تغيرات موسمية . إنني لم أجد تسعيرات أسبوعية تمتد لسنة كاملة ، لكن نائب

---

(3) رسالة نائب قنصل فرنسا بفاس بتاريخ 18 فبراير 1904 .

(4) كان ثمن السكر بفاس سنة 1906 حسب التسعيرة 10 ريالات ونصف للقنطار أي 1 فرنك 05 للكيلو ، في حين كان يباع بباريز في نفس الفترة بثمن يتراوح بين 0 فرنك 75 سنتيم و 0 فرنك 80 سنتيم بالتقسيط .

قنصل فرنسا فكّر في وضع التسعيرات بفاس فيما بين 15 يوليوز وفاتح ديسمبر 1895 : وهكذا يمكن أخذ فكرة دقيقة عن تغيرات الأسعار على مدى نصف سنة تقريباً بالنسبة لبعض الأدوات أو المواد الغذائية الأهلية المبيعة في سوق فاس .

وها هو الجدول [5] ، والقيمة فيه بالبسيطة الحسنية ، (انظر الصفحة التالية) . ومن المفيد مقارنة هذه الأثمان بمعدل الأثمان التي يقدمها مارشان[6] لسنة 1906 .

قُلة الزيت	4 ريالات ونصف	= 22,50 ب ح
مد القمح	1 ريال ونصف	= 7,50 ب ح
مد الشعير	1 ريال	= 5,00 ب ح[7].
مد الفول	1 ريال	= 5,00 ب ح

(5) وثائق المفوضية الفرنسية بطنجة .

(6) المقال المذكور .

(7) في الوقت الذي كانت تنمو فيه حركة بوحمارة شرقي فاس ، في اكتوبر 1903 ، وصل الشعير إلى 9 ب ج . للصاع (رسالة نائب قنصل فرنسا بفاس 4 اكتوبر 1903) . أوبان (المرجع المذكور ص. 422) يشير حتى إلى أنه خلال هذه السنة 1903 في فترة لم يحددها ، ارتفع ثمن الصاع من الشعير حتى بلغ 12,50 ب ح . وارتفع ثمن الخبز بنسبة الثلثين .

وفي نهاية سنة 1903 وبداية 1904 كانت الحالة تزداد سوءاً : فخلال عدة شهور بلغ ثمن صاع القمح من 16 إلى 18 ب ح. بدلاً من 3 في الوقت العادي ، وكان ارتفاع ثمن الشعير أقوى من ذلك أيضاً . فصمّم المخزن العزم حينئذ على إفراغ مطامير قصبة الشراردة ، وانخفضت الأسعار ، ولم يعد الخبز يساوي أكثر من ثلاثة أضعاف ثمنه المعتاد . (رسالة نائب قنصل فرنسا بفاس في 18 فبراير 1904) . . . . وفي مارس 1906 بلغ ثمن صاع القمح (23 كلغ.) 23 ب ح ، وصاع الشعير (17 كلغ ، 500) 15 ب ح . (نفس المرجع ، 29 مارس، ص. 1906). وحسب قنصل أنجلترا (تقارير ديبلوماسية وقنصلية رقم 3597، ص. 50) فإن صاع القمح الذي كان يساوي 1 ب ح. 75 سنة 1891 ، بلغ ثمنه 22 ب ح. 50 سنة 1905 . وكان يضاف إلى هذا الثمن % 12في مارس 1906 ؛ وانتقل صاع الشعير من 0 ب ح 60 سنة 1891 إلى 12 ب ح سنة 1905،وإلى 15 ب ح في مارس 1906.

مد الذرة	1 ريال	= 5,00 ب ح في اكتوبر ونوفمبر
مد الذرة	4/5 ريال	= 20/25 ب ح في ماي
مد الحمص	3 ريال	= 15 ب ح
قنطار شَعَر الماعز	11 ريال	= 55 ب ح

تساعد هذه المقارنة على التأكد من أن ثمن هذه المنتجات الاستهلاكية العادية قد ارتفع بنسب قوية جداً : فالفول والحمص والذرة والقمح والشعير تساوي خمسة أضعاف ثمنها في سنة 1895 ، وهو ارتفاع ناتج عن انخفاض قيمة العملة المغربية الذي كان يسير بسرعة عظيمة في عهد مولاي عبد العزيز ، ولكن أيضاً بسبب غلاء المعيشة على إثر الجدب المفرط لسنة 1905 .

	15يوليوز	1 غشت	1 شتنبر	15 اكتوبر	1 نونبر	1 دجنبر
اللوز (القنطار القشاشي)	135- 125	125	125	125	115	115.100
القمح (المد)	2	2	2- 1,75	1,75.1,50	1,75.1,35	1,75.1,50
الشعير (المد)	1	1	1- 0,85	0,90.0,80	0,80	0,90.0,75
البقر (للرأس)	125- 40	125- 40	100- 30	125- 90	120	75- 30
حامض معقد بالسكر (للمائة)	2	2	1,75	2 أخضر	0°60	0°50
زيتون معقد (القنطار البقالي)	35- 30	35	40	30 أسود	27,50	25
زيتون معقد حامض (القنطار البقالي)	60.50	50	--	75 مر	40	17,50 مد
القنطار القشاشي	75- 50	50	40	40	--	75
الغاسول (القنطار)	7°50	7°25	6°42	6°50	7°50	7°50
الشمع الأصفر (قنطار عطاري)	170	165	150	145	150	155
الكامون (قنطار عطاري)	45	35	40	42,50	42,50	40
الفول (مد)	3- 2,75	3- 2	3- 2	2,50	3- 1	3- 2
البصل (مائة)	2,50- 2	1,50	2,50	7,50 قنطار	7°50	8°50
البيض (مائة)	3,60	2,25	2,50- 2	2,25	2,75.2,50	2,50
الحمص (مد)	3,60- 3	3,25- 2	3,25- 2	--	--	3- 2
كزبرة (قنطار عادي)	33,75.31,50	35- 32,50	50	--	--	25
زيت الزيتون (القلة)بفاس	15	14,25	14,30	12,85	14,35	7,50
زيت الزيتون (بالبادية)	--	10,75	10,80	8,75	10,75	7,50

	15 يوليوز	1 غشت	1 شتنبر	15 اكتوبر	1 نونبر	1 دجنبر
الذرة (مد صغير)	1,25	1,25	1,25	1	75,0	--
الزعفران (رطل عطاري)	--	38- 50	30	21,10	47,50- 30	38- 20
جلد البقر (كبير)	35- 10	37,50- 25	25- 7,50	15- 5	17- 5	20- 5
الفيلالي (قنطار)	375	300- 250	300- 250	250- 200	250- 200	250- 200
جلد الماعز كبير (طريحا)	55	45	44,50	30- 25	30	35
جلد الماعز صغير (طريحا)	10	10- 7,50	10- 7,50	10,50- 5	6	7°50
جلد الجدي (طريحا)	10	7,50	--	3,25	7- 6	6
جلد الغنم مع الصوف (طريحا)	20	20	21,50.17	25- 20	17,50	20
صوف غير مغسول(قنطار درازي)	مائة:126	200	150.140	2,50- 1,10	2,50- 2	3- 2
حايك (رفيع)	30- 25	20- 15	22,50- 17,50	--	25.12,50	20- 12,50
حايك (متوسط)	10	10,70	10,75	--	15.8,25	11,25- 9
حايك (محربل)	17,50	22,50- 15	22,50- 15	--	25- 13,50	17- 15
حايك (كسا بلدية)	10,75	12,50- 850	12,50- 11,25	--	15- 7,50	--
حايك (حواشيه حرير)	15,30	30- 12,50	--	--	--	35- 12,50
شعر الماعز	40	40	40	--	--	32

وهذه أثمان مواد غذائية أخرى ذكرها مارشان ولا توجد للأسف في تسعيرة 1895 :

السكر (قنطار عطاري)	10 ريالات ونصف
القهوة (قنطار عطاري)	22 ريال
الشموع (100 علبة)	17 ريال
الدقيق (قنطار قشاشي)	10 ريال
العدس (مد)	1 ريال ونصف
أتاي (رطل عطاري)	3 -4 بسيطات حسنية
زيت القطن (قلة)	4 ريالات
بيترول (صندوق من قربتين)	5 ريالات + 1 بسيطة حسنية
صوف الجزة (قنطار عطاري)	18 ريال
جلد الغنم (قنطار عطاري)	13 ريال

كانت أثمان المعيشة تتغير إذن بنسب عظيمة جداً تبعاً للفصول والظروف السياسية . وكانت هذه التغيرات تمس بصفة خاصة الفقراء الذين لا يملكون الوسائل للتزود ، فيشترون بما تيسر لديهم من يوم لآخر . والآخرون الذين كانوا يشترون في الوقت المناسب ذخيرتهم السنوية[8] يعيشون إجمالاً بسعر زهيد . ففي عهد مولاي حفيظ ، لم تكن أسرة متوسطة الحال مركبة من عشرة أشخاص تنفق أكثر من عشرة فرنكات في اليوم في معيشتها ، أي 4.000 فرنك في السنة على الأكثر . وتنفق أسرة متركبة من عشرين شخصاً يومياً 6 فرنكات في اللحم والخضر والخبز ، وتستهلك نحو 12 فرنكاً من الذخيرة . وأخيراً فإنه كان من النادر أن تكون لأكبر العائلات حاجة لأكثر من 30 فرنك في اليوم[9] .

(8) كانت المدخرات بالنسبة لأسرة من عشرين شخصاً تتكون من نحو 360 ليتراً من الزيت في السنة ، و200 كيلو من السمن ، و100 مد من القمح مع قليل من العسل ، والبصل ، واللحم المصبر . وقد تفضل الأمين الحاج محمد بن عبد القادر برادة فأمدني بهذه المعلومات التي أشكره عليها وأعبر له عن بالغ امتناني .

(9) معلومات شفوية من نفس المصدر .

التجار الفاسيون : إن الظروف التي سبق ذكرها توحي بأن للتجارة الفاسية طبيعة راسخة في المضاربة[10] . نظراً لعدم استقرار الأثمان والأسعار ، فإن أرباب التجارة كانوا ميالين إلى المجازفة ، يدفعهم إلى ذلك تغير الصرف واختلاف العملات من جهة ، وطبيعة المؤسسة التقليدية للبيع بالمزاد من جهة أخرى . وكانت المضاربة تمارس أيضاً على البضائع المستوردة أو المعدة للتصدير مثلما تمارس في المبادلات المحلية ، ليس فقط على الأشياء الثمينة ، ولكن أيضاً على منتجات ضروريات الحياة : تقول الأسطورة المحلية إن تاجراً ، أو بالأحرى قاضياً ـ واحسرتاه ! ـ كان يضارب بالحبوب أيام العسرة ، فمُسخ فيما مضى من الزمن لقلاقاً عقاباً له[11] . كانت المضاربة تكتسي غالباً ، كما هو الحال عندما تبلغ أوجها ، طابعاً تجريدياً تقريباً : يحدث أن تجاراً يجعلون من أنفسهم مشترين ، أو بالعكس يبحثون للتخلص من سلعة ما زالت في الطريق ولا يعرفون تماماً جودتها[12] ، أمثال رجال الأعمال الأوروبيين الذين يشترون أو يبيعون أسهم مقاولات يكادون يجهلون عنها كل شيء ما عدا القيمة في البورصة وحظوظ الارتفاع أو الهبوط . هكذا كانت المضاربة التجارية بفاس قد أصابت منذ ما قبل الحماية ، طبيعة تجريدية مجردة من الماديات ، مبنية على الحساب بكيفية خالصة ، هي في الغالب ملكها في الصفقات الدولية .

وإلى جانب ذلك ، كان التجار الفاسيون يظلون مرتبطين بتقاليد دقيقة للغاية ينفقون معها هم أنفسهم عن طيب خاطر . كانوا يولون عناية قصوى في تقديم البضائع ، ويتطلبون أن يكون التقديم دائماً مطابقاً حتى في أبسط

---

(10) انظر روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 306 .

(11) يحكي شفريون (المرجع المذكور ، ص. 238 -239) أيضاً قصة تاجر فاسي ماتت زوجته ذات مساء ، فاغتنم ظلام الليل وربط تحت إبطي الميتة وباطن ركبتيها أربع خبزات . وكان يأمل بعمله هذا أن يفسد جميع ما يوجد بفاس من قمح ودقيق ، ليتمكن من بيع إرسالية مهمة من القمح كان ينتظر وصولها من العرائش بأثمان خاصة باهظة .

(12) انظر سيوس ، فاس والفاسيون ، ص. 29 .

الجزئيات . فقوالب السكر « يجب أن تلف في كاغد أزرق داكن متموج ، وتعلق من أعلاها بحلقة من خيط . وتكون البطاقة حمراء حاملة علامة الصنع بالحروف العربية . . . »[13] وكان كل تقديم مخالف يثير الحذر وتراجع المشترين . وكذلك كان الشأن في الثياب ، لكل نوع منها تجهيزه الخاص وعرضه الذي لا يمس. ولم يكن يقبل أي تغيير لهذه المعطيات التقليدية مهما صغر[14] .

وكانت الأداءات أيضاً خاضعة لعادات ثابتة . فالفاسيون ينتظرون أولاً الاستفادة مما قد يقع من انخفاض بين فترة الطلب وتسليم البضاعة ، لا عبء ارتفاع محتمل[15] . ثم يظهرون ثانياً أنهم ليسوا بسيِّئي المعاملة ولكن بطيئين في الأداء ، لأن مبدأهم ألَّا يقع الاداء إلا « بعد النظر والرضى بحصيلة البضاعة . فكانوا لذلك يستعدون للدفع عندما يبتدئ رواج البضاعة»[16] . لكن لم يكونوا يقبلون أن يؤدوا فوائد عن التأخير ، عملاً بالمثل المشهور بفاس : « خْلِيتْ العْدُو ، وللاَّ الإسكوندو »[17] .

هذا التباطؤ في الأداء كان عظيماً أحياناً : فكثيراً ما حدث أن (اطرة) لمدة أربعة أشهر لم تسدّد إلا على رأس ستة أشهر أو ثمانية . وذلك آتٍ من أن التجار الصغار لم يكونوا يؤدون ما عليهم لتجار الجملة إلاَّ بعد أن يبيعوا البضاعة ، ومن المضاربة في أسعار الصرف أيضاً[18] وكان الأداء يقع في الميناء الذي تنزل فيه البضاعة بالنسبة للمبالغ القليلة ، بضاعة في الرصيف وأما الطلبيات المهمة ، فان اداءها لم يكن يقع إلا بعد وصول البضاعة إلى

---

(13) روني لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 240 .

(14) ق . بنعبد الجليل ، ديبلوم غير منشور .

(15) م. دي پيرينيي ، المصدر المذكور ، ص. 92 .

(16) ق . بنعبد الجليل ، ديبلوم غير منشور .

(17) نفس المصدر .

(18) ق . بنعبد الجليل ، ديبلوم غير منشور ؛ وروني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 304 و 306 .

فاس تبعاً لأجلٍ يحدد مسبقاً ، لكنه كان يقبل كثيراً من التأخر ، كما وقعت الإشارة آنفاً . وقد تعوَّد الأنجليزيون ، والألمانيون بصفة خاصة ، على هذه التصرفات ، بينما كان الفرنسيون يظهرون أكثر تصلباً في المطالبة بالدفع[19] .

* * *

كان التجار الصغار البائعون بالتقسيط والتجار الكبار البائعون بالجملة يكوّنون طبقتين اجتماعيتين ، كما رأينا ذلك سابقاً[20] ، لكن يكادون يُكوِّنون أيضاً جنسين بشريين ، ومجموعتين مختلفتين تماماً في سلوكهما .

فتاجر التقسيط لم يكن ينظر إلى ما وراء أسوار المدينة الإدريسية ،وحتى إلى ما وراء حيه الخاص ، إذا تعلق الأمر بصاحب دكان بسيط : فكان يتحمل التقلبات الاقتصادية أكثر ممّا لا يبحث عن الاحتياط لها . وكانت التقلبات الوحيدة التي يتحرك وسطها كما يشاء هي عمليات البيع بالمزاد العلني ؛ لذلك كان يحصل في بعض الأحيان على رخاء معتدل ، لكنه لم يكن يحصل إطلاقاً على ثراء . ومن خلال قراءاتي الطويلة واتصالاتي الشخصية ، تجلى لي تاجر التقسيط بفاس متديناً مع ذلك ، مثابراً على الصلوات في جامع القرويين أو في مسجد آخر يختاره ، مسبِّحاً بسرور ، قارئاً كتاباً يحُثّ على التقوى في انتظار الزبناء ، عاقلاً مهتماً بالقيل والقال . وهو دائماً تقرياً «مواطن فاسي»، وحتى شريف أحياناً ، وغالباً من سلالة يهودية ، وقليلاً ما يكون أصله من إقليم مغربي آخر (باستثناء حالة باعة الزيت والمواد الغذائية بصفة عامة)[21] .

التجار الفاسيون بالخارج : كان التجار الكبار يكوّنون مجموعة خاصة ، تذهب بهم روحهم التجارية بعيداً إلى ما وراء حدود فاس بل وحدود المغرب . لا تقودهم هذه الروح إلى التعامل مع المسيحيين فحسب ، ولكن

---

(19) روني ـ لوكلير ، المقال المذكور ، ص. 305 .

(20) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 .

(21) نفس المرجع .

أيضاً إلى الهجرة لتنمية تجارتهم . فمنذ عهد بعيد كان عدد كثير منهم يقيم في المدن المجاورة بصفرو، وتازا ، ووزان ، ومكناس[22] حيث يحتفظون باتصال وثيق مع فاس. وآخرون يذهبون إلى أبعد من ذلك في طنجة، ومراكش[23] وتافيلالت[24] ووجدة ؛ وفي بداية القرن بدؤوا يستقرون بالدار البيضاء ، حيث سيكوّنون بعد ذلك جالية ناجحة[25] .

ولم يتردد كثير منهم في المقام مدة طويلة بالخارج . وقد سبق أن أشرت إلى وجودهم في الجزائر ، وخاصة في عمالة وهران[26] موزعين في مراكز عديدة كبيرة وصغيرة ، ولم يكونوا يكوّنون جالية متماسكة . وكذلك كانوا في السنغال[27] موزعين في مدن أو قرى عديدة ، من سان ـ لوي إلى تنبكتو ، مع مواطنين قادمين من مختلف جهات المغرب .

وعلى العكس من ذلك كان المغاربة في مصر كلهم مجتمعين في القاهرة حيث يكونون جالية حقيقية ، تحت سلطة رجل كقنصل شبه رسمي يدعى وكيل المغاربة . وكان سنة 1897 فاسياً يدعى الحاج محمد الحلو ويتاجر في القاهرة منذ سنين طويلة وعلى اتصال دائم بمسقط رأسه[28] ، وكان عدد المغاربة في القاهرة سنة 1898 حسب ميشو- بلير ، زهاء 1200 ، ووكيلهم فاسي آخر يدعى ابن شقرون .

---

(22) انظر ما سبق ، ص. 424 .

(23) أوبان ، المصدر المذكور ، ص. 37 .

(24) و. هارّيس ، المصدر المذكور ، ص. 229 و 274 .

(25) منذ أن أصبحت الدار البيضاء المدينة التجارية الكبرى بالمغرب ، انتقل إليها الفاسيون بكثرة لتعاطي تجارة الثياب بصفة خاصة ، والأدوات الفنية الأهلية . حتى إن لهم قيصرية تحمل اسمهم (هوبير ، رسالة غير منشورة في الدراسات العليا للإدارة الإسلامية) .

وحسب معلومات شفوية تفضل هوبير بالتقاطها لي، فإن الفاسيين الأولين المستقرين بالدار البيضاء في حدود 1830 قد يكونون من آل ابن زاكور . ولم تلتحق بهم أسر أخرى إلا ابتداء من 1875 -1880 ، وكان مجموعهم نحو عشرين قبل الاحتلال الفرنسي .

(27) نفس المرجع ، ص. 430 .

(28) انظر أحمد رزوق ، رحلة من طنجة إلى مكة ، ص.6 .

لم يكن الفاسيون في هذه البلاد الإسلامية الثلاثة يشعرون بالغربة : يجدون فيها عادات كعاداتهم ، ولغة قريبة من لغتهم ، ومساجد ، وحمامات ، وأهم الأشياء التي اعتادوها . لكنهم كانوا مدفوعين بشيطان التجارة لا يقفون عند هذا الحد ، ويذهبون إلى أوروبا ليقيموا بها مدة طويلة في جبل طارق (باب أوروبا) وجنوة ، ونابلي بإيطاليا ، ومرسيليا بفرنسا ، ولندرة ، وخاصة مانشيستر بأنجلترا . وكان عددهم في منشيستر نحو اثني عشر تاجراً يمثلون نفس العدد للدور التجارية بفاس[29] . على أنه في أي مكان آخر كان فاسي واحد يمثل داراً تجارية واحدة : فكان في جنوة المدعو أحمد بن الطالب (أحمد بو طالب)[30] ؛ وفي مرسيليا السيد المهدي الحلو الذي أسس سنة 1874 داراً للعمولة تعرف في فاس باسم دار الحلو[31] وفي جبل طارق الشريف سيدي محمد بو طالب[32] الذي كان يقوم بدور وسيط العبور ، وأيضاً بدور قنصل المغاربة التطوانيين أو الطنجيين الذين كانوا يأتون لقضاء أيام في الحصن ليبيعوا البيض والدجاج ومنتجات مغربية أخرى .

وكيفما كان اتجاه هؤلاء المهاجرين الموقتين فإنهم كانوا يركبون من طنجة في سفن أنجليزية في الغالب ، وفرنسية أحياناً ، وأقل من ذلك في سفن ألمانية أو إيطالية[33]. وكانوا يذهبون لمدة طويلة على العموم ، لأن ثمن السفر

---

(29) انظر روني ـ لوكلير (المصدر المذكور ، ص. 231) الذي يذكر أسماء التجار الستة المقيمين في منشيستر سنة 1904 : ابن خالف (محمد بن يخلف) ، مفضل بن اعياد (المفضل بوعياد) ، الحاج بناصر بناني ، ابن السيد محمد كَسوس بن بوبكر (السيد محمد بن بوبكر كَسوس) ، أحمد بن جلول (احمد بن جلون) ، السيد محمد جلول (السيد محمد بن جلون) . ويقدم السيد قاسم بن عبد الجليل (رسالة غير منشورة) أيضاً اسم السيد عبد الغني القباج .

(30) كان الوكيل الفاسي بجنوة يدعى ، حسب ق . بن عبد الجليل ، السيد محمد الدباغ .

(31) نفس المصدر .

(32) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 1 ، ص. 289 وهامش 3 .

(33) كان السفر عن طريق السكة الحديدية عبر إسبانيا مكلّفاً أكثر ؛ لذلك لم يكن التجار الفاسيون يسلكون قط هذا الطريق .

كان يمنعهم من كثرة الذهاب والإياب ؛ وكان المقام لمدة ست سنوات أو عشر أو حتى عشرين سنة أمراً عادياً متبعاً ؛ ولم يكن بعضهم يرجع إلى فاس إلا عند شيخوختهم بعد أن يسلموا دار عمولتهم إلى أحد أبنائهم أو أقاربهم .

وفي الخارج الذي يستقبلون فيه على العموم أحسن استقبال ، كانوا يهتمون قبل كل شيء بقضاياهم التجارية ، متصلين بالأبناك ودور الاستيراد والتصدير[34]؛ لكنهم يشاركون أيضاً في الحياة المحلية بمجرد ما كانوا يحصلون على ممارسة لغوية كافية ؛ فكانوا يظهرون في المباريات ، والمسرح ، والحفلات . كانوا يرتدون ملابس أوروبية باستثناء غطاء الرأس ، غير أنهم كانوا يحتفظون في بيوتهم على كثير من عادات البلاد : فإذا كان أثاثهم مختلطاً فإن طعامهم يظل مغربياً خالصاً . وكانوا يعملون حتى على الاستجلاب من فاس لبعض المواد التي لا توجد في أوروبا مثل النعناع المجفف . ويمارسون طبعاً شعائرهم الدينية ، لكن في بيوتهم ، لأنه لم يكن قد بُني آنذاك أي مسجد في أوروبا الغربية . وكان بعضهم يستصحب معه زوجته : فكان بعضهن يرتدين لباساً أوروبياً ويعشن كنساء البلاد التي يوجدن فيها ؛ وعندما يعدن إلى فاس يرجعن إلى حياتهن التقليدية .

ذهنية التجار الكبار : ـ كانت هذه التجارب تغيّر طبعاً نظرية تجار فاس الكبار . ولا حاجة إلى القول بأنهم كانوا يظلون مسلمين متقين ؛ وقد رأينا أنهم كانوا يحتفظون حتى في بلدهم المختار بأهم تقاليد أسلافهم ، لكن السهولة التي تقدمها الحياة العصرية للتجارة كانت تستهويهم بطريقة لا ترد ؛ فكان اتجاههم للحياة العصرية ذا طابع تقني قبل كل شيء . ودفعتهم هذه الوضعية إلى أن يتخذوا ، في موضوع سياسة المغرب الخارجية ، موقفاً مخالفاً تماماً لموقف العلماء وعامة الشعب . قد يكون من المبالغة القول بأنهم كانوا

(34) كان لهم في منشيستر شبه مكتب مشترك يدعى «أوفايس» حيث يتفاوضون في شؤونهم التجارية .

يتمنون تدخلاً أوروبياً ، إلا أنهم لم يكونوا ينكرونه بنفس الحدة التي للآخرين . وقد أعطى سان ـ روني طاياندي عن هذا الموضوع إشارتين لعلهما متفائلتان قليلاً ، إلا أنه مع ذلك ينبغي أخذهما بعين الاعتبار . الأولى ، وهي التي تبدو أصدق لهجة ، تتعلق بخبر الاتفاق الفرنسي ـ الأنجليزي المؤرخ في 8 أبريل 1904 ، عقد ميلاد التفاهم الودي ، فقد كتب : « .... إن قلق التجار الفاسيين يتلطف بشيء من الأمل في التقدم الاقتصادي »[35] . والاشارة الثانية كتبت في مطلع سنة 1905 ، وتُدخل فارقاً دقيقاً إضافياً ، ولا تبدو أنها تعبر تماماً عن ذهنية كبار التجار : « إن تجار المدن كادوا يكونون وحدهم من بين الأهالي المنتبهين لمشاريعنا، متمنين لها النجاح »[36] .

من المؤكد أن رجال الأعمال هؤلاء لم يكونوا يمثلون سوى جزء من الرأي ضئيل عدداً ؛ لكن أفكارهم كانت معروفة عند المخزن ولها وزنها عنده . فقد كان السلطان في الواقع يعيّن من بينهم المكلفين بماليته وكبار موظفيه في الجمارك : فالثروة السياسية لآل التازي والمقري آتية من هناك . وهكذا كان للتجار قدم عند المخزن ، لكن ذلك ليس كل شيء : فعندما كان السلطان يريد التفاوض مع الدول الأجنبية في قضايا تجارية مهمة ، وقياماً بواجبه في المشاورة ، يطلب رأي التجار، لا سيما تجار فاس . وهكذا في سنة 1892 ، عندما أطلعه وزير بريطانيا العظمى سير شارل إيڤان سميث على مقترحات الاتفاق التجاري ، جمع لجنة مكونة « من تجار ، وقدماء مديري الجمارك ، ومختلف المحاسبين »[37] .

وبعيداً عن الميدان السياسي المحض ، كان التجار يبرهنون عن تسامح

(35) المصدر المذكور ، ص. 173 .

(36) نفس المرجع ، ص. 138 .

(37) رسالة غير منشورة للدكتور ليناريس ، 5 يونيه 1892.

لم يكن عموماً من صنيع مواطنيهم . فبالعكس من أن يغذوا أقل عداوة فيما يخص اليهود الذين كانوا مع ذلك منافسيهم المباشرين ، كانوا يربطون معهم أحسن الصلات الشخصية ، ويذهبون حتى إلى استدعائهم إلى ولائم الأعراس[38] . وكانت العلاقات مع الأوروبيين مطبوعة بأكبر تحفظ ، لأنهم لم يكونوا يتعارفون كثيراً ، لكن أعظم المجاملات كانت هي السائدة : وقد سبق أن ذكرت آنفاً عن هذه النقطة شهادة لوتي ، وهارّيس[39] ، وأذكر أنه في أبريل 1912 أنقذ جماعة من التجار الفاسيين حياة فرنسيين .

الطبائع التجارية بفاس : - كان التجار الفاسيون يبدون في معاملاتهم ماهرين جريئين ، وأحياناً قاسين ، كما تشهد بذلك هذه الرواية لميشو - بلّير[40] .

« منذ نحو ثلاثين سنة[41] عندما كنت بفاس ، ذهبت لزيارة تاجر من أصدقائي كان له فندق صغير خاص بين مولاي إدريس والقرويين ، وجدته يحسب نقوداً له كانت مخزونة في صندوق حديدي قديم أنجليزي . ولكي ينظم نقوده المختلفة ، جعلها في قدور حساء من خزف مختلفة الأحجام ، في أكبرها الريالات الحسنية ، وفي التي تليها أنصاف الريالات وأرباعها ، وأخيراً في أصغرها قطع اللويز (الذهبية) ؛ وكان فيها بالتأكيد ما ينيف مجموعه عن مائة ألف فرنك . وعندما كان التاجر يحسب ، كان يسجل بقلم رصاص على قصاصات ورق . وكان عليَّ أن أُظهر للخدم الواقفين بالباب أنني من أخلص أصدقاء سيدهم المقربين إليه ليتركوني أدخل على الرغم من التعليمات الصارمة المعطاة لهم بدون شك . ولعدة أسباب ، لا يحب المغاربة أن يراهم

(38) لقد شاهدت بنفسي هذا العمل وتأكدت منه من طرق شهادة يهود ومسلمين أنه لم يكن استثنائياً حتى قبل 1912 .

(39) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، ص. 177 .

(40) محاضرات ، ص. 319 -322 .

(41) أي حوالي 1896 أثناء إحدى المرات التي أقام فيها ميشو - بلّير بفاس كخليفة للقنصل بالنيابة .

الناس يعدّون نقودهم . ولما عرفني التاجر من طرف عينه ، طلب مني أن أجلس دون أن يلتفت إليّ ، وتابع حساباته وتنظيم ريالاته ولويزاته في القدور . ولما أنهى عمله أقفل الصندوق بعناية ، وأقبل عليّ وأخرج سبحته ونطق باسم « الله » في نَفَس عميق ، وبدأنا نتحدث . . . وبينما نحن نتكلم دخل أحد الخدم ليعلن وصول تاجر آخر كنت أعرفه أيضاً . وبعد تبادل التحيات العادية ، وحيث كنت أريد الانصراف لِلّياقة ، فإن صاحب الفندق ألح في بقائي قائلاً : إنني صديق يمكن أن يقال أمامه كل شيء إلخ . . . . عزم الوافد الجديد حينئذ على أن يشرح سبب زيارته : إنه بحاجة إلى نقود ويطلب سلفاً لبضعة أشهر،مقترحاً أن يضع فيه كرهن رسم ملكية دار جديدة قريبة من الفندق . ولما سمع صديقي التاجر حديث السلف ، تغير وجهه الذي كان لحد الآن هاشا باشا ، وغدا بسرعة جاداً متهجماً وأجابه قائلاً : « تعلمون كم أكون مسروراً لأقدم لكم يد المساعدة ، لكن للأسف ليس عندي نقود ناضة في هذا الوقت ، ويمكنني أن أقسم لكم على ذلك بسيدي فلان وسيدي فلان . . . وإني آسف لذلك غاية الأسف » .

« ومثلما كان السائل يلح كان الآخر يجدد أيمانه ، وأمام هذا التراكم للأكاذيب السافرة مع الإقسام بجميع صلحاء الإسلام ، لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في قدور الخزف المرتبة بعناية في صندوق الحديد القديم الأنجليزي . وأخيراً وأمام الإلحاح شبه اليائس للمقترض ، أجابه صاحبي أيضاً بقوله : « ليس عندي نقود للأسف ، لكن عندي سكر » فردد الآخر بتنهد عميق « سكر ، سآخذ سكراً » . وأخذ التاجران عندئذ يحسبان لمعرفة عدد أكياس السكر اللازمة للمبلغ المالي المطلوب . ولم أتمالك نفسي من أن أدرك أن صاحبي الغني كان يعدّ لسلف لمدة ثلاثة أشهر ضعف ثمن السكر بسعر السوق تماماً . كان هذا كما قلت لكم ، منذ نحو ثلاثين سنة ، وكان ثمن السكر بفاس آنذاك سبع ريالات أو سبعاً وثلاثين بسيطة حسنية للكيس : فحسب في هدوء بسبعين بسيطة تؤدى بعد ثلاثة أشهر ، وذلك ما

يعادل 400 % في السنة . ووقع الاتفاق على أن يرسل صاحبي الكمية اللازمة من أكياس السكر ، وأن تسجل شروط السلف في رسم عدلي ، وأن يرسل المقترض لصاحب الدين رسم ملكية الدار كرهن . وأخيراً انصرف المقترض بطبيعة الحال مغالياً في التشكرات ، وبعد انصرافه ببضع دقائق ، فإن صاحبي المقرض الذي لم يكن عنده ولو كيس واحد من السكر بالرغم على تصريحاته ، نادى أحد موظفيه التجاريين ، وأعطاه كلمة وأرسله إلى بعض تجار السكر وكلّفه بأن يحمل هذا السكر إلى المقترض ، ويكتب العقد عند العدول ، ويحمل رسم الملكية رهناً للسلف . ولما أنهى ذلك أخذ سبحته وهمهم خلال لحظات بصلوات أو بحسابات ، ثم صفق فحضر خادم آخر مسرعاً وقال له التاجر : « سيباع السكر بعد الظهر في الفندق الفلاني (فندق المقترض) فاشتره لحسابي واحمله إلى فلان (الذي أخذ منه السكر منذ قليل) ، لكنك لا تشتره بأكثر من 32 بسيطة ونصف للكيس وهو الحد الأقصى » . فأجابه الخادم : « نعم سيدي » وانصرف .

« وبعد مرور نحو سنة رجعت إلى فاس فوجدت فندق صاحبي قد انتقل إلى الدار التي ارتُهنت عنده عند شراء السكر المتحدث عنه آنفاً . فقال لي التاجر الطيّب : « كنت في شيء من الضيق في الفندق الآخر ، فطلب مني صديقي فلان (مشتري السكر في السنة الماضية) أن أشتري منه هذه الدار ، فاشتريتها منه إرضاءً لخاطره : ولا بد من تبادل المساعدة بين الأصدقاء وبين المسلمين ، لكني لم تكن لي بها حاجة حقاً » . إن ما نسي صديقي الكريم أن يقوله هو أن الدار كانت تساوي نحو عشرين ألف فرنك فأخذها منه بثمن مائة وبضعة أكياس من السكر ، قرابة خمسة آلاف فرنك . لم يستطع مشتري السكر أن يؤدي الدين في أجله الحالّ بعد مرور ثلاثة أشهر ، وبعد شهر أو شهرين ، جدد الأجل مع تضعيف المبلغ مرة أخرى . وأمام استحالة الأداء عند حلول الأجل الثاني ، طالب المقرض بماله وأخذه بتحويل ملكية العقار المرتهن عنده في السكر . وفي ظرف سنة كانت القضية مقفلة » .

يتعلق الأمر هنا طبعاً بحالة شاذة : ودون أن نذهب إلى القول بأن مؤلف مع رجوع الذاكرة إلى الوراء صاغ المشهد في قالب روائي ، يمكن لتفكير بأن وقاحة المقرض وجشعه خارقان للعادة . لكن مبدأ القضية كان كثير الوقوع في المغرب : ويتحدث عنه نائب القنصل البريطاني بهذه العبارة[42] : « الربا ممنوع في الشريعة الاسلامية ، لكنه يمارس مع ذلك . وهذه هي الطريقة : يشتري المقترض من المُقرض بضائع السكر والقطن ، على أن يؤدي ثمنها إلى أجل بعيد ، لكن مع ثلاثين أو خمسين في المائة زائدة فوق السعر . ويقع الاعتراف بالدين بواسطة رسم عدلي : فيبيع المقترض حينئذ سلعه عن طريق المزاد ، وفي غالب الأحيان يبيعها إلى المقرض بثمن منخفض ، فيقوم الفرق الناقص مقام الفائدة . لكن هذه الديون لا يمكن تسديدها في سنوات القحط ولا يستطيع المقرضون أنفسهم مواجهة التزاماتهم . وهذه العادات أكثر انتشاراً في فاس من أي مكان آخر في المغرب » .

إذا كان عدد كبير من التجار ينفرون بعامل الورع من ممارسة مثل هذه الأساليب ، فليس أقل حقيقة من ذلك أن الجو التجاري بفاس كان مفعماً بالقساوة مشتملاً على كل ما يجري عند أكثر المضاربين بشدة . فلم يكن الإثراء بواسطة المبادلات العادية ؛ فالأعمال التجارية ، هنا كما هي في الأماكن الأخرى ، كانت هي الأعمال التجارية ، والإنسان غير حنون على الإنسان . ومع ذلك إذا قارنا تصرفات التجار الكبار بفاس مع الأخلاق التجارية في الإسلام ، فإن علينا أن نعترف بأن الطبائع الفاسية تبدو وكأنها قاسية بصفة خاصة . فهل ربما يجب أن يرى في ذلك نتيجة للأصل العرقي لعدد من التجار الفاسيين الذين لم يتخلصوا تماماً من ذهنيتهم القديمة كأقلية تترقب جميع الفرص .

* * *

(42) تقارير ديبلوماسية وقنصلية ، رقم 1476 ، ص. 27 .

لقد سبق أن نبهت على أن اليهود كانوا يحتلون درجة ثانوية في الحياة الاقتصادية بفاس . وذلك واقع لا يجب الإلحاح عليه كثيراً ، لأنه يمثل شذوذاً في القاعدة العامة لإفريقيا الشمالية . ففي تونس ، والجزائر ، ووهران ، وطنجة كان اليهود يحتلون أهم المراكز التجارية ، وعلى الأقل مراكز التجارة بالجملة والتعامل مع الخارج[43] . وقد رأينا ، بعكس ذلك ، أن التجار الرئيسيين بفاس كانوا جميعاً مسلمين . حقاً إن التجارة الإسرائيلية كانت موجودة ، لكن في درجة ثانوية وفي ميادين محدودة : بعض الدور التجارية بالجملة المتصلة بالدور اليهودية في طنجة من جهة ، والتجارة اليهودية في صفرو من جهة أخرى ، واحتكار فعلي لبعض المواد ، كالخمور والكحول والخرداوات ، والنشاط التقليدي لصرف العملة ، ودور مهم في تجارة الحبوب : ذلك هو حظ اليهودي في تجارة فاس : وينتج عن ذلك أن الثروات الكبرى كانت قليلة بالملاح ، وأن حظ اليهود بالتالي كان أعظم في الصناعة منه في التجارة .

يجد المرء نفسه حالاً مُغرىً بالتفكير في أن هذا الواقع يُفهم بالأرومة الإسرائيلية لعدد كثير من التجار الفاسيين . والواقع أنه يوجد من بين الأسماء التي ذكرها روني ـ لوكلير في قائمته للتجار الرئيسيين عدد كثير ينتمون إلى أسر من أصل يهودي : كآل الحلو ، وبرّادة ، وكُسوس ، وبنيس ، وبنجلون ، وبنقشرون ، وبنكيران ، والكوهن ؛ ويكونون نحو النصف من النخبة التجارية بفاس . لكن يجب التفكير بأن الإسلاميين اختلطوا منذ القرن الرابع عشر (للميلاد) بالأسر ذات الأرومة الإسلامية الأصيلة ومن مختلف الأقاليم ، وحتى بالرقيق ، وبأن الوراثة كان لها من الوقت ما يكفي لتتحول تحولاً عميقاً .

---

(43) لا أعرف من بين المدن التجارية بأقطار المغرب غير صفاقس التي بقيت التجارة فيها إجمالاً بين أيدي المسلمين .

لذلك يظهر أنه من التهور إعطاء أهمية قاطعة لهذا العامل العنصري ، الذي هو مع ذلك غير قطعي ، وقابل للنقاش كثيراً . ويظهر أن الأكثر إنصافاً الاعترافُ بأن مختلف العناصر العرقية التي انصهرت في بوتقة فاس أنتجت نخبة مليئة بالحيوية والدأب على الإنشاء، عرفت كيف تخلق لها وحدها تيارات مهمة ، وتدافع أياً كان عن الأوضاع التي اكتسبتها[44] .

إن هذه الملاحظة ، لا تصلح فقط للمشكل المحدود في العلاقات بين التجار المسلمين والتجار اليهود ، بل تمتد إلى التجارة الفاسية بصفة عامة . هناك ميل لإرجاع الازدهار التجاري بفاس إلى موقعها الجغرافي ، وهو تبرير مقبول حقاً ، لكنه يمكن أن ينطبق تقريباً أيضاً على مكناس ؛ لكن مكناس لم تكن لها قبل الحماية سوى أهمية تجارية ضئيلة . ففي حالة فاس ، ليس العامل الجغرافي هو المؤثر وحده ، وإنما يبقى العامل البشري جوهرياً . إن الفاسيين وقد استفادوا من ظروف ملائمة ، عرفوا كيف يستغلونها أحسن استغلال ، ولم يريدوا أن يخضعوا لمبادلات محلية كانت سابقاً مربحة ؛ لكنهم اتصلوا بأقطار المغرب كله حتى مصر شرقاً ، وحتى السودان والسنيغال جنوباً، وأوروبا شمالاً، متكيفين بسرعة مع أساليب اقتصادية مختلفة في الغالب تمام الاختلاف مع أساليبهم ومتباينة فيما بينها ، واجدين دائماً من بينهم رجالاً قادرين على التسيير الحسن لمشاريع متنوعة جداً ، مستعدين للمزيد من توسيع أفقهم بمجرد ما تسمح الظروف بذلك[45] .

---

(44) يكفي دليلاً على ذلك أن أذكر الطريقة التي عرف بها التجار الفاسيون كيف يحافظون على مرتبتهم ، بعد إقامة الحماية ، أمام التجار الأوروبيين الذين جاؤوا ليقيموا بجانبهم . وتجب الإشارة كذلك إلى أن الفاسيين عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم مكاناً في التجارة بالدار البيضاء إلى جانب الأوروبيين واليهود .

(45) من المعلوم أن التجار الفاسيين وسّعوا نطاق عملهم كثيراً منذ إقامة الحماية ، فانتشروا انتشاراً واسعاً في المغرب كله ، ولا سيما في الدار البيضاء ، وضاعفوا من جهة أخرى اتصالهم بالعالم كله . فإذا كان موقفهم قد ضعف في مصر ، فإنه بقي قوياً في السنيغال حتى تنبكتو،

. . . .

= بالرّغم من مزاحمة السوريين واللبنانيين . وبالنسبة لفرنسا ، إنهم على اتصال تجاري مع مرسيليا ، وليون،وباريز، والشمال ، والألزاس ، وحتى مع مدن صناعية صغرى مثل : إيفيطو ؛ وأسس كثير منهم في باريس على الخصوص دوراً تجارية ناجحة ، واحتفظوا بالعلاقات التقليدية مع أنجلترا وإيطاليا . وقد توجه عدد من الفاسيين قبل حرب 1939 -45 إلى ألمانيا وحتى إلى اليابان لإقامة علاقات تجارية معها . وغداً سيكون دور الولايات المتحدة وغيرها من البلدان على ما يحتمل . وبالجملة فإن التجار الفاسيين يشاركون أكثر في التجارة الدولية .

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 86/1/1000/73

سحب جديد : 2000/1/92

التنضيد الإلكتروني : سامو برس

الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٨٢٧٧٠٢-٨٢٨١٥٧ - بيروت - لبنان

ASSOCIATION DES AUTEURS MAROCAINS POUR LA PUBLICATION

Roger le Tourneau

FÈS

Avant Le Protectorat

Traduit en arabe par

D. Mohamed Lakhdar D. Mohamed Hajji

Tome 1

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B.P. 113/5787 - BEYROUTH

F È S

Avant Le Protectorat

Roger le Tourneau

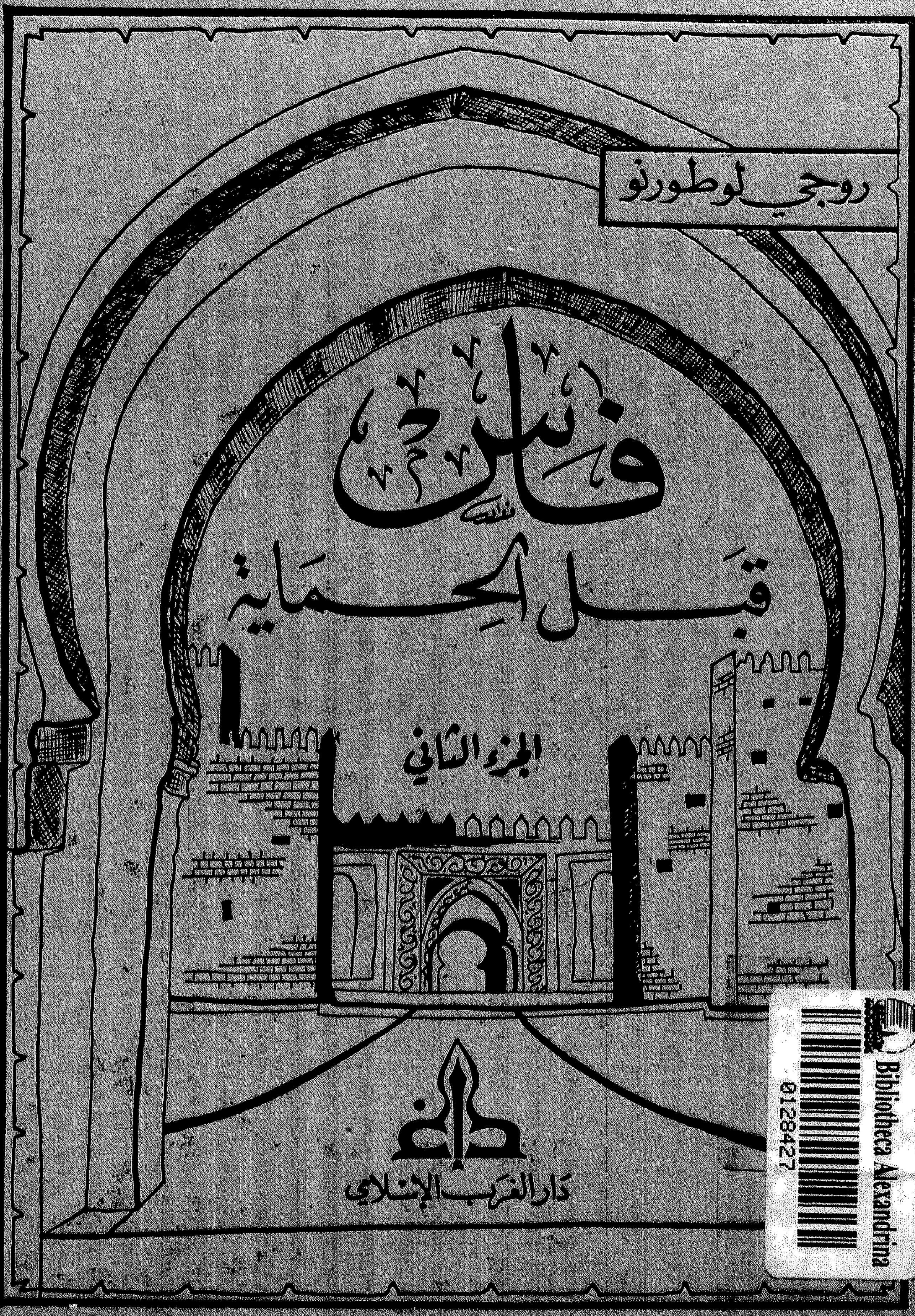
FÈS
Avant Le Protectorat

Traduit en arabe par

D. Mohamed Lakhdar **D. Mohamed Hajji**

Tome 1

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B.P. 113/5787 - BEYROUTH



روجي لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الثاني

دار الغرب الإسلامي

فاس قبل الحماية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

روجي لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الثاني

ترجمه إلى العربية

محمد حجي
دكتور دولة في الآداب والعلوم الانسانية

محمد الأخضر
دكتور دولة في الآداب والعلوم الانسانية

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

6

الكتاب السادس

الحياة الفكرية

إن فاساً بالإضافة إلى كونها مدينة صناعة وتجارة ، هي أيضاً مدينة معرفة ، وإن كانت أقل قِدماً من منافستيها القاهرة وتونس(*) ، إلا أن الجامعة الإسلامية بفاس معاصرة مع ذلك لجامعتنا السربون وقد تنافس الشعراء في مدح علم فقهائها . وكان دائماً بجانب الوسط الصناعي والتجاري وسط فكري مركزه جامعة القرويين .

(*) العكس هو الصحيح ، والحجج التاريخية عديدة ثابتة دامغة . انظر ـ مثلاً ـ الكتاب الذهبي لجامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف (245 - 859/1379 - 1960) نشر وزارة التربية الوطنية المغربية ، مطبعة فضالة ، المحمدية 1960ـ بحوث عديدة لكبار العلماء من الشرق والغرب ـ (مترجم) .

الفصل الأول

1/6

جامعة القرويين (1)

في أي تاريخ بالضبط يمكن التحدث عن جامعة فاس ؟ من الصعب الجواب عن هذا السؤال بدقة . إذا كانت الرواية الإسلامية ، التي يقصها **روض القرطاس وزهرة الآس** ، تبين بالضبط التاريخ الذي أسس فيه جامع القرويين ، فإنها ساكتة عن الزمان الذي أُضيفت فيه الجامعة إلى الجامع . من المحتمل أن دروساً ألقيت في القرويين في وقت مبكر جداً ، ومن المحتمل كذلك أن جامع القرويين لم يكن وحده الذي ألقيت فيه الدروس لمدة طويلة ؛ ذلك أن وجود مدرستين أخريين بجانب الجامع الكبير بفاس الجديد يثبت - على ما يبدو - أنه كان بفاس حتى ثلاثة مراكز للتعليم ، بل وحتى أربعة ، إذا نحن فرضنا ، كما هو المحتمل ، أن « مدرسة أبي عنان » - كما يقول ليون الإفريقي - أي المدرسة البوعنانية ، كانت مستقلة ذاتياً زماناً طويلاً . لكن جامع القيروان تغلب عليها في النهاية ، واستطاع أن يختص لنفسه بالتعليم

(1) انظر عن هذه الجامعة ، الكتاب الأنف الذكر لدولفان ، وبيريتيي ، مدارس فاس ،ص. 346 - 356 ، وأوبان ، المرجع المذكور ؛ ومولييراس ، المرجع المذكور ، (هنا وهناك) ؛ وب . مارتي ، مغرب الغد ، من ص 1 إلى 81 ؛ وف . فابر، في المغرب الجديد : دور جامعة إسلامية ، في : حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، عدد 51 ، 1938 ، ص. 195 - 207 . بالإضافة إلى ما استفدته من قراءة بعض الملخصات لمركز الدراسات العليا الإدارية الإسلامية المخصصة لجامعة فاس .

العالي في فاس . وقد تحقق ذلك في دولة السعديين ، كما يدل على ذلك توسيع خزانة الجامعة الذي قام به السلطان السعدي أحمد المنصور ، في أواخر القرن السادس عشر[2] . فلما أقيمت الحماية ، كانت قد مضت إذن ثلاثة قرون على الأقل منذ أن احتل علماء جامع القرويين الصف الأول في الحاضرة وشكلوا شبه طائفة ، هي طائفة الفقهاء .

التنظيم العام : كانت جامعة فاس جامعة دينية أساساً ، على غرار سائر الجامعات الإسلامية التقليدية ، تستهدف تلقين المؤمنين معرفة أتمّ ما يمكن للحقائق التي يجب الإيمان بها ، والسلوك الذي يتعين اتخاذه بارتباط مع هذه الحقائق . فإذا كانت تدرس بها مواد لا صلة مباشرة لها بالإلهيات كالنحو ، والمنطق ، والهندسة ، مثلاً ، فلأن هذه المواد كانت تساعد على إدراك أحسن للحقائق الجوهرية ، أو على القيام بالفرائض بكيفية أحسن ؛ لكنهم لا يعيرونها قيمة باطنة .

وإليكم ، حسب پيريتيي[3]، لائحة العلوم التي كانت تدرس بجامعة القرويين في السنوات الأولى من القرن العشرين .

1 ـ الحديث ، وكان يدرس كل يوم في أشهر رجب ، وشعبان ، ورمضان . وكان الكتاب الرئيسي المستعمل هو صحيح البخاري[4] .

2 ـ أصول الفقه ، وكانت تدرس في العشي ، وبذلك تعتبر مادة ثانوية .

3 ـ الفقه ، وكان يدرس في الصباح ، وتدعى هذه هذه المادة أحياناً بالبحر ، لأنها لا حدود لها كالبحر . وكانت أهم المؤلفات المستعملة هي

---

(2) يدل كون ثلاث مدارس مرينية ـ الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ـ شيدت حول جامع القرويين ، على أنها كانت بعدُ متفوقة في منتصف القرن الرابع عشر .

(3) المرجع المذكور ، ص . 334 وما بعدها .

(4) يذكر پ . مارتي (المرجع المذكور ص. 56) علاوة على صحيح مسلم ، موطإ الإمام مالك وشمائل الترمذي .

مختصر سيدي خليل ، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ، و**المرشد المعين** لابن عاشر ، **وتحفة** ابن عاصم .

4 ـ النحو . وكان يُلقن في المساء ، من طرف أساتذة مبتدئين بصفة عامة ، حسب كتابين تقليديين ، هما **الآجرومية** ، وهو مؤلف كلاسيكي لابن آجروم ، **والألفية** (وهو مؤلف لابن مالك يشتمل على ألف بيت كما يدل على ذلك اسمه) .

5 ـ البيان ، والمعاني والبديع[5]،وكان الذين يقومون بتلقينها من الأساتذة الأجلّاء .

6 ـ المنطق ، وكان قليل الرواج بفاس .

7 ـ العروض ، وكان يدرس يومي الخميس والجمعة .

8 ـ الحساب ، وكان يدرس خارج الجامعة ، في أحد مساجد حي البليدة ، وهو جامع الارنجة .

9 ـ التوحيد ،وهو علم مندرج في الفقه،ويدرس **بالرسالة** وابن **عاشر** .

10 ـ القضاء والأحكام ، وهو علم مندرج كذلك في الفقه ، ويدرس **بالتحفة** و **لامية الأفعال** لابن مالك[*] .

11 ـ الأدب ؛ في القديم كانت تشرح مقامات الحريري بفاس ، لكن هذه العادة اضمحلّت ، واصبح كل التعليم الأدبي عبارة عن دراسة لقصيدتي **البردة** والهمزية ، مع شروحهما . وكان ذلك التعليم يُلقَى كل مساء خلال الخمسة عشر يوماً التي تسبق المَولد النبوي ؛ وكانت تسمى هذه الدروس المولديات[6] .

---

(5) يدل كل اسم من هذه الأسماء الثلاثة في الواقع على فرع من فروع البيان ، هي : العرض ، والابتكار ، والتعبير . ولفظ البلاغة هو الذي يدل عامة على البيان . انظر مارتي ، المرجع المذكور ص.58 .

(*) كذا بالأصل ، وهو تخليط ، إذ المقصود لامية الزقاق (مترجم) .

(6) وحسب پ . مارتي (المرجع المذكور ص.52 - 60) يجب أن تذكر أيضاً الفرائض وفلسفة النحو (الوضع) .

وكانت تلقن بفاس علوم أخرى ، لكنها اضمحلت شيئاً فشيئاً، كالتفسير الذي انقطع تعليمه في دولة سيدي محمد بن عبد الرحمن[7]. ويمكن أن يذكر أيضاً من بين العلوم الميتة : التنجيم[8] ، والكلام ، والتصوف الذي اضمحل منذ 1906 ، واللغة ، والتصريف ، والتاريخ الذي ربما لم يدرس قط بفاس ، والجغرافيا ، والطب ، والجدول . ويبدو أن الكيمياء لم تدرس قط بصفة رسمية ؛ ونظراً لكونها مكروهة في السُّنة ، فإنها كانت من نصيب اليهود .

وكانت العلوم الآنفة الذكر تشكل البرنامج ، إنْ صحَّ هذا التعبير ، للجامعة وهو لا يمت بصلة إلى ما نقصده بهذا اللفظ في مؤسساتنا للتعليم العالي ، لأنه لم يكن محدداً من طرف السلطة الجامعية بالنسبة لكل درس ولكل سنة دراسية ، ولكنه مبين في خطوطه العريضة ، بحسب تقاليد قديمة ، وهي تقاليد إسلامية جارٍ بها العمل في المجال الإسلامي كله ، وسنة مغربية كانت تعطي الأولوية للفقه .

لم تكن السلطة الجامعية إذن تنشغل بالبرامج . ومن جهة أخرى ، لم تكن جامعة القرويين منظمة على غرار الجامعات الأوروبية ، ولا حتى على غرار جامعات إسلامية أخرى كجامعة تونس[9] . كانت تحت مراقبة قاضي الجماعة بفاس،وهو الذي كان يعين الأساتذة ويعرضهم على موافقة المخزن[10]

---

(8) كان عالم فاسي وحيد قادراً على استعمال الأسطرلابات ولوحات اللوغاريتم هو : السيد محمد الغزاوي ، لكنه لم يكن يدرسها .

ملاحظة :

ليس هذا صحيحاً . ويكفي ذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم سيدي محمد العلمي الفلكي الشهير هذا العلم بفاس (مترجم) .

(9) انظر عن إعادة تنظيم جامعة الزيتونة ، المشرف ، إصلاح التعليم بالجامع الكبير (الزيتونة) بتونس ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1930 ، جزء 4 ص.441 - 415 .

(10) إن المؤلفين الأوروبيين الذين تعرضوا لهذه المسألة قبل الحماية غير متفقين مطلقاً حول الحصة الراجعة لكل من القاضي والمخزن في تعيين الأساتذة ، بينما توضح المذكرة حول التعليم بالمغرب (وثائق القسم السوسيولوجي . مذكرة مجهولة المؤلف عن التعليم ،ص. 38 من النص المطبوع على الآلة الكاتبة) بأنهم كانوا يعينون من طرف القاضي ، لكن=

كما أسلفنا[11] ؛ كما أنه كان يراقب نشاطهم ، لا سيما في ميدان الفقه ، وبالتالي كان هو الذي يدير ميزانية الجامعة ، بما له من إشراف على إدارة الأوقاف ، لأن هذه الميزانية لم يكن يمونها غير الأحباس . والحاصل أننا نرى أن استعمال كلمة « رئيس الجامعة »[12] ليس مبالغاً فيه قطعاً ، لكننا نقدر مع ذلك الفارق الكامل بين قاضي فاس ومدير جامعة أوروبية .

لم يكن يساعد القاضي ، في مهامه الإدارية ، لا هيئة إدارية (كالكتابة) ولا نواب مكلفون بالنظام العام للجامعة (حراس) ولا مجلس استشاري مماثل لمجلس الجامعة . فكان تنظيم المؤسسة الموقرة إذن مصغراً بقدر الإمكان ، كانت الإدارة المالية مسندة إلى مصلحة أحباس القرويين ، وحراسة الطلبة الداخليين إلى قيمين سأتحدث عنهم فيما بعد[13] .

كان العمل بالسنة الدراسية غير معروف ، فجل الطلبة الجدد يأتون في الخريف ، بعد انتهاء أشغال الحقول[14] ، إذ كان الكثير منهم يفِدون من البادية ، لكن أي شيء لم يكن يمنعهم - مبدئياً - من المجيء في أي وقت من السنة . لم يكونوا يطالبون بأي تسجيل ، لأن التعليم مجاني ، وإنما يتقدمون فقط إلى الأساتذة الذين كانوا يريدون حضور مجالسهم . كما أن مدة

= باقتراح من المخزن ، وذلك من عهد مولاي الحسن . ويبين بيريتي (المرجع المذكور ، ص.315 - 316) أن تعيينهم يتم على ثلاثة أشكال متتالية : كان القاضي يعينهم بدون تدخل المخزن ، إلى دولة مولاي الحسن ؛ ثم قام القاضي بالتعيينات بأمر من المخزن ؛ وأخيراً ، وابتداء من 1906، وهو تاريخ وفاة آخر قضاة الجماعة، عين المخزن الأساتذة بظهير(انظر نموذجاً للظهير عند بيريتي ، المرجع المذكور ، ص . 321) وتطابق المعلومات الشفوية التي جمعتها هذه الكيفية الأخيرة لتقديم الأشياء .

(11) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 1 .

(12) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 315 .

(13) من المعلوم أن جامعة فاس أعيد نظامها ، منذ إقامة الحماية . فقد أنشئ لهذا الغرض ، منذ سنة 1914 ، مجلس للإصلاح ، برئاسة وزير العدل ، مع فرع محلي بفاس ، عوّض رئيسُه القاضيَ في دوره « كرئيس للجامعة » . وظهير 1933 هو الذي منح الجامعة نظامها الحالي .

(14) دولفان ، المرجع المذكور ، ص. 88 .

الدراسات لم تكن محددة : تقتضي العادة متابعة الدروس طوال خمس سنوات على الأقل[15] ، لكن الكثير من الطلبة كانوا يتجاوزون هذا الأجل ، بل كان منهم حتى الطلبة الدائمون . لا وجود لأي امتحان يقر الدراسات ؛ فكل مَن آنس من نفسه أنه حصل على رصيد كاف يطلب من أساتذته إجازة تشهد بأنه درس (كتب) المؤلفين الفلانيين ويعرفها تمام المعرفة .

كانت الدروس تعطل في بعض المناسبات[16] : ففي شهر رمضان كانت تعوض بقراءة الحديث بجامع القرويين وبزاوية سيدي قاسم بن رحمون . وفي شهر صفر وبداية ربيع الأول كانت بعض الحصص تخصص لشرح **الهمزية** ، يقوم بذلك قاضي فاس .

وكان الطلبة يستفيدون من عطلة ثلاثة أسابيع بمناسبة الأعياد الثلاثة الكبرى[17] ، وثلاثة أيام من أجل عيد عاشوراء وشعبان[18] ، ويوم واحد للعيد الصيفي : العنصرة ، في 24 يونيو من السنة اليوليوسية . ومن جهة أخرى كانت الدروس تتوقف في كل أسبوع ، يوم الخميس بعد الزوال ويوم الجمعة بكامله ، وثلاثة أيام بمناسبة وفاة أستاذ عادي ، وسبعة أيام بمناسبة وفاة « أستاذ كبير » ، وشهراً بمناسبة احتفال الطلبة في الربيع . وأخيراً ، كانت تنقطع الدروس ، إذا مات السلطان ، إلى أن يُبايع خلفه[19] .

---

(15) نفس المرجع في نفس الصفحة .

(16) **مذكرة حول التعليم العالي** ، الآنفة الذكر ، ص. 42 - 49 . انظر أيضاً بيريتيي المرجع المذكور ، ص. 299 وما بعدها .

(17) وحسب ب . مارتي (المرجع المذكور ، ص. 50) كانت هذه العطل خمسة وعشرين يوماً بالنسبة للمولد النبوي ، وخمسة عشر يوماً بالنسبة لعيد الفطر ، وشهراً بالنسبة لعيد الأضحى .

(18) يذكر ، مارتي (نفس المرجع) عطلة خمسة أيام بمناسبة عاشوراء ، ولا يقول شيئاً عن شعبان .

(19) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 301 . وكان القاضي أيضاً يدرس هو الآخر ويحدد التاريخ بالضبط لابتداء العطل وانتهائها .

نرى بالتالي أن طلبة فاس لم يكونوا يعملون أكثر من ثلثي السنة ، كتلاميذ مؤسساتنا للتعليم العالي تماماً ، إلاّ أن فترات العطل لم تكن فارغة كل الفراغ ، إذ كانت تستعمل لدروس عرضية ، مثل الرياضيات .

كان كل نهار مقسماً إلى ستة أجزاء تتمدد أو تتقلص حسب الفصول ، لأن تحديدها لم يكن معتمداً على تقسيم اصطناعي للزمان ، ولكن على جريان الشمس . فكان الميقات ، في اعتدال الربيع [أو الخريف] ، هكذا : يبدئ الدرس الأول بعد صلاة الصبح[20] ، والثاني (بين الأول والثاني) حوالي الساعة السابعة صباحاً ؛ والثالث (الثاني) حوالي الثامنة والنصف ؛ والرابع (الثالث) حوالي العاشرة ؛ والخامس (الزوال) حوالي الحادية عشرة والنصف، والسادس (الظهر) حوالي الواحدة بعد الزوال. وكانت الدروس تتوقف عشية مع صلاة العصر[21] . كانت الساعات الأربع الأولى مخصصة للفقه ، والساعتان الأخيرتان للمواد الأخرى[22] .ويستريح التلاميذ بضع دقائق بين كل درس وآخر .

الأساتذة : لم يكن تعيين الأساتذة من طرف المخزن يتم نتيجة مباراة أو إمتحان ، لأن هذه الطريقة كانت مجهولة[23] ، ولكن حسب المسطرة

---

(20) عند الشروق ، أي عندما تبزغ الشمس في الأفق ، بعد صلاة الصبح .

(21) وحسب بيريتي (المرجع المذكور ص. 299) كان بعض الأساتذة المتطوعين يدرسون بين العصر والمغرب . بالإضافة إلى أنه ، في شهر صفر وحتى عيد المولد النبوي (12 ربيع الأول) كان القاضي نفسه يشرح الهمزية ، بين العشاءين (المغرب والعشاء) على ضوء الشموع وقناديل الزيت .

(22) مذكرة غير منشورة حول التعليم ، وپ . مارتي ، المرجع المذكور ، ص.51 . ولا يذكر بيريتي (المرجع المذكور ص.299) سوى خمسة أقسام . وعلاوة على هذا كانت تنظم محاضرات ذات طابع إرشادي بعد صلاة العشاء في عدة مساجد ، ولم تكن موجهة خصيصاً للطلبة .

(23) إلا أن تعيين أساتذة القرويين ، حسب دولفان (المرجع المذكور ص. 71) كان يتم بعد امتحان عمومي إلى دولة مولاي عبد الرحمان (1822) .

التالية : كل طالب حامل لإجازة مسلمة من أساتذته[24] كان له الحق في أن يدرس بجامعة فاس . وكان يُدعى عادة فقيهاً ويقوم بالتدريس في إحدى زوايا قاعة الصلاة التي لم تكن بعدُ مشغولة ، دون استلام أي راتب من الدولة ، ولا أية أجرة من الطلبة ؛ وكان بإمكانه الحصول على شيء من المال بإعطائه دروساً خصوصية في جامع أو مسجد[25] .

وبعد أن يكون قد درَّس بعض الوقت بهذه الكيفية، قائماً بشبه تدريب بيداغوجي ، يكون بإمكانه أن يَلتمس تعيينه كأستاذ رسمي (مدرس) ؛ ولهذا الغرض كان يطلب « شهادة من عدة علماء ، يصرحون فيها بأن درس الفقيه يحضره ناس كثيرون حتى تحول إلى كرسي[26] » ؛ كانت تلك هي الشهادة التي لا بد إذ ذاك من تبليغها إلى السلطان، إما بواسطة صديق ذي مرتبة عالية، وإما بإضافة «قصيدة استعطاف» وتوجيهها إلى أحد الوزراء ليحصل على رعايته . فإذا ارتأى السلطان أن التعيين ملائم ، وجه إلى القاضيين ظهيراً على هذا الشكل : « إلى قاضيينا الأرضيين ، فلان وفلان ، رعاكما الله والسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد : فإن الطالب فلان (الاسم الشخصي والعائلي) من جملة الذين يستحقون مرتبة كذا ، نظراً لمثابرته في تدريس العلم الشريف ، وقدرته على تعليم الطلبة بجامع القرويين عمَّرها الله . وعليه ، فنأمركما أن تأمرا ناظر أحباس القرويين بأن يدفع له مبلغاً مناسباً ، ولا بد ، والسلام » .

---

(24) وحسب دولفان (المرجع المذكور ص.22) كانت الإجازة على العموم بالصيغة الآتية : « بعد العبارة المتداولة : لقد سلمت لفلان ، الحامل لهذه الشهادة المكتوبة بيمناي ، إجازة لتدريس كل ما حفظه من درسي أو جمعه من كلامي ، وتطلقت على صحيح البخاري ، ومختصر سيدي خليل ، إلخ . . . » . ويذكر نفس المؤلف (ص.101 - 103) نص إجازة لسيدي عبد الرحمن الفاسي . وكانت الإجازة محررة عادة من طرف أستاذ يوقعها هو أيضاً ، بينما يضيف الأساتذة الآخرون عبارة « كذلك » ويوقعون . انظر عن الإجازة و . مارسي . تقريب النووي ، باريس ، 1902 ، ص. 115 وهامش 2 .

(25) پيريتيي ، المرجع المذكور . ص.319 .

(26) نفس المرجع ، ص. 320 .

ومنذئذٍ يصبح المرشح من جملة الهيئة التعليمية للجامعة التي كانت منقسمة إلى خمس طبقات ترتيبية ؛ وللانتقال من إحداها إلى الأخرى، كانت الطريقة هي ذاتها المتبعة للإحراز على منصب أستاذ رسمي : كان السلطان يختم ظهيراً أو كان الصدر الأعظم أيضاً يبعث برسالة الى قاضي فاس ، بناءً على شهادة الأساتذة الرئيسيين . والحاصل أننا نرى أن نظام التوظيف كان هو نظام الطائفة ، بإثبات المخزن .

وكانت رواتب فقهاء فاس زهيدة : ذلك لأنها حددت منذ عهد طويل جداً ولم تتغير قط ، رغم الانخفاضات المتتالية للعملة ؛ وكانت تتراوح بين 15 أوقية و 200 مثقال للشهر[27]. وزيادة على هذه الرواتب الزهيدة ، كان أساتذة الجامعة يتسلمون من الأوقاف تعويضات مختلفة عن المهام الدينية التي كانوا يقومون بها أنفسهم أو بواسطة نائب عنهم في مساجد المدينة وزواياها ، كخطبة الجمعة ، والإمامة ، وقراءة الحزب والشفاء واللطيف والحديث النبوي (كرسي التوريق)[28]. فكانوا يربحون هكذا حتى 1.000 مثقال شهرياً .

بالإضافة إلى أن المخزن كان يقدم لهم كل سنة هدايا عينية ، ككسوة كاملة بمناسبة عيد كبير ، وكمية متفاوتة من القمح حسب الطبقة التي ينتمي إليها الأستاذ :

90 مد لأساتذة الدرجة الأولى

60 مد لأساتذة الدرجة الثانية

---

(27) إن الخمس عشر أوقية التي كانت تعادل ريالاً ونصف ريال في بداية القرن التاسع عشر ، لم تعد تساوي بعد ذلك إلا عُشر الريال ، أي أكثر بقليل من 0,50 فرنك في بداية القرن العشرين ؛ فكانت الـ 200 مثقال تعادل في بداية القرن العشرين نحو 71 بسيطة حسنية .

(28) پيريتيي ، المرجع المذكور ص.325 - 328 . ويطلق اسم « كرسي » بفاس على الكراسي ذات المسندات المخصصة للأساتذة الكبار ، وكذا على التي كانت تستعمل لقراءة الحديث النبوي . ويتعلق الأمر هنا بهذه الأخيرة توجد منها ستة بجامع القرويين ، وواحد في كل مسجد من المساجد الرئيسية .

45 مد لأساتذة الدرجة الثالثة
30 مد لأساتذة الدرجة الرابعة
15 مد لأساتذة الدرجة الخامسة[29] .

وكان هذا القمح يُعطى مرتين : الثلثان في بداية الخريف ، والثلث في نهاية الشتاء . وكان المخزن يعطي أساتذة القرويين أيضاً خابيتين من الزيت ، وثمن ثور لعمل القديد المصبر في نهاية الصيف ، وزبدا . وباختصار بعض المواد الأساسية لمعيشة فاسي موسر . وكان السلطان يقدم لهم من جهته صلة نقدية بمناسبة كل عيد من الأعياد الثلاثة :

4 ريالات لأستاذ الدرجة الأولى
3 ريالات لأستاذ الدرجة الثانية
2 ريالين لأستاذ الدرجة الثالثة
1 ريال لأستاذ الدرجة الرابعة
1 ريال لأستاذ الدرجة الخامسة[30] .

وأخيراً كان الأساتذة يسكنون في عقارات حبسية ، أو إن لم تكن دار شاغرة ، كانوا يتقاضون تعويضاً عن السكنى لكنه محسوبٌ ، كما تحسب الرواتب ، وفق الأسعار القديمة ، أي أدنى بكثير من قيمة الكراء الحقيقية[31] .

---

(29) تعطي المذكرة حول التعليم نفس الأرقام ، وأرقام دولفان (المرجع المذكور ، ص 57) هي الآتية :

60 مد للدرجة الأولى
40 مد للدرجة الثانية
30 مد للدرجة الثالثة
10 مد للدرجة الرابعة

(30) حسب پيريتيي ، (المرجع المذكور ، ص. 332) انتهى العمل بالصلة منذ ثورة بوحمارة .

(31) يبين پيريتيي (المرجع المذكور ، ص.333) أن تعويض السكن كان يتراوح بين 4 و 5 ريالات في الشهر ، في حين كان الكراء المعتدل في بداية القرن العشرين يصل الى 15أو 20 ريالاً في الشهر .

وبعد كل حساب كان أساتذة القرويين يرون حياتهم المادية مضمونة تقريباً ، بمجرد ما يصبحون أساتيذ كرسي ؛ وإن كانت الموارد المنوطة بوظيفتهم هزيلة إلا أنها تتيح لهم على الأقل عيشةً لائقة . ومن جهةٍ أخرى ، كان الكثير منهم يفتي في مقابل مبلغ يتراوح بين 1 و100 ريال حسب أهمية الفتوى وشهرة صاحبها . كما أن العديد منهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الفاسية الميسورة ، ويملكون عقارات في المدينة : دكاكين ، وبساتين ، ومزارع في النواحي ، وباختصار موارد لا بأس بها في الغالب . وأخيراً ، كانت الفوائد المنوطة بوظيفتهم تعطى لهم مدى الحياة، لأن مبدأ التقاعد لم يكن معروفاً؛ فكان الأساتذة الطاعنون في السن الذين لم يعودوا يستطيعون القيام بالتدريس يستقرون في منزلهم ، محتفظين براتبهم ، وبالهدايا المألوفة وبالتمتع بالسكنى .

لم يكن الأساتذة تابعين للمخزن إلا من أجل تعيينهم وترقيتهم ، على أن يبرهنوا في مقابل ذلك ، عن ولائهم له[32] . وفيما عدا ذلك كانت لهم الحرية المطلقة : فلا نظام يفرض عليهم الحصص ولا البرنامج . لكن العادة التقليدية كانت وراءهم تطالبهم على الأقل بدرس في اليوم ، وأن تكون إقامتهم بفاس[33] وأن يحضروا بانتظام ، اللهم إلا إذا كانوا مسافرين أو حاجّين بيت الله الحرام .

أما مادة تعليمهم ، فكانت مسألةً بينهم وبين تلاميذهم . فعندما كان يحتل أستاذ جديد مكانه بالجامعة ، أو يختم أستاذ قديم قراءة كتاب ، كان التلاميذ يتشاورون فيما بينهم وينتدبون بعض زملائهم ليطلبوا من الشيخ أن يتفضل باستئناف تفسير هذا الكتاب أو ذاك . ولم يكن من النادر أن يرى عدد

---

(32) كان العداء الصريح للمخزن قد يتسبب في حذف الراتب (پيريتيي ، المرجع المذكور ،ص. 318

(33) دولفان ، المرجع المذكور ، ص57 .

من الأساتذة يدرسون نفس الموضوع في آنٍ واحدٍ . وكان التخصص مبدئياً غير معروف ، إذْ من المفروض أن يكون كل أستاذ قادراً على تلقين أيةِ مادة من المواد الجاري بها العمل . إلا أن المواد التي تعد ثانوية ، كالنحو مثلاً ، كانت تؤول إلى حديثي العهد بالتدريس ، بينما كان الأقدمون يحتفظون بالمواد الأساسية ، وخاصةً الفقه .

وكان أساتذة الطبقة الأولى ، وعددهم 17 في سنة 1904 ،[34] يتمتعون بسمعة كبيرة ، ويدعون « العلماء الكبار » بالإضافة إلى أنه كان لبعضهم شهرة تكميلية ، وهم الذين كان لهم الحق في الحصول على كرسي . فكان جميع أساتذة الطبقة الأولى يتمتعون مبدئياً بهذه المزية ؛ وفي الواقع لم يكن هناك سوى ستة كراسي في بداية القرن العشرين ، وكان سيدي محمد بن جعفر الكتاني هو الوحيد الذي يعتلي كرسياً لشرح **صحيح البخاري** . وحسب پيريتيي الذي يروي هذا التفصيل[35] ، كان هناك ثلاثة أساتذة آخرين في ذلك العهد يتمتعون بهذه المزية ، وهم الفقهاء السيد أحمد بن الخياط ، والسيد محمد القادري ، والسيد التهامي ڭنون ، لكن أحداً منهم لم بستعملها احتراماً إنسانياً منهم. ووضع پيريتيي كذلك[36] قائمة بالأساتذة العاملين بجامعة القرويين سنة 1906 ، تضمنت 41 اسماً ، وحسب المعلومات التي استقيتها من الفاسيين الذين كانوا يدرسون ، في ذلك العهد ، بالقرويين ، كان هنالك نحو ثلاثين مشهورين كعلماء حقيقيين بالمدينة .

لا يمكن القول إن هؤلاء الأساتذة كانوا يشكلون هيئة حقيقية ، إذ لم يكونوا مجموعين في منظمة شبيهة بالطوائف الاقتصادية ، وكانوا ، على غرار العلماء في الغالب ، منقسمين على أنفسهم بسبب مشاحنات شخصية لا تغتفر . كما كانت بينهم تحزبات قليلة الاستقرار جداً ينضم إليها هذا أو ذاك

---

(34) أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 281 .
(35) المرجع المذكور ، ص. 317 .
(36) المرجع المذكور ، ص. 344 - 345 .

حسب نزوته وفائدته الوقتية ، ولم تكن منقطعة الصلة عن تحزبات المجتمع الفاسي . لا يتصرفون كتلة واحدة إلا لتنصيب سلطان جديد ، أو للاستجابة إلى الفتاوى التي كان العاهل يطلبها منهم أحياناً .

وكانت فاس تقدر علماءها أيما تقدير : لا ترى فيهم شيوخاً يستلزم سنهم الاحترام ، ومثقفين ينشرون سمعتها في أقطار المغرب والعالم الإسلامي فحسب ، لكنها كانت تعتبرهم أيضاً كمرشدين روحيين ، وأناس تبحروا في العلم الوحيد الذي يحسب له حسابه ، ألا وهو العلم الصادر عن الله تعالى . فكيف يمكن الاستغراب من كون هؤلاء العلماء يعجبون بأنفسهم ؟ إن عدداً من الرحالة الأوروبيين ، كعلي باي ومولييراس ، وغيرهما عابوا كفايتهم وقالوا إنهم لا يعرفون شيئاً كثيراً ، إذا اعتبرنا كل شيء ؛ وحاولوا حتى أن يحملوهم على تقييم تفاهة معرفتهم ؛ وظن الأول أنه توفق إلى ذلك[37] ، وغضب الثاني لعدم تمكنه من إقناعهم . وكان ذلك دليلاً على عدم الاطلاع على الوسط الذي كانوا على صلة به : فالقرويين ، وفاس ، والمغرب كانت كلها منكمشة على نفسها، بدون أي اتصال تقريباً مع سائر العالم ، مستفيدة بالتنزيل الذي كان عشرات الملايين من البشر يعتبرونه الحقيقة الوحيدة . كان ذلك كافياً لتقوية فقهاء فاس في تأكدهم من تفوقهم ، لا سيما وأن مواطنيهم لم يكونوا يجادلونهم فيه .

إلا أنه لا شك في أن شيوخ القرويين لم يعودوا كما كان سلفهم . فقد عاشوا مدة طويلة جداً في عزلة حتى عن العالم الإسلامي ، كي لا يصابوا بنوع من التصلب . لكنهم كانوا يحتفظون على الأقل بذخر نفيس ، هو سنة التعلق بالأشياء الروحية ، وكرامة لياقات تستوجب الاحترام . وعندما كانوا يحضرون في المواسم العمومية أو الأفراح العائلية ، ملتفين في ثياب شفافة ناصعة البياض ، متزنين في إشاراتهم وحديثهم ، متيقنين من حظوتهم ، كان الناس

(37) نفس المرجع ، ص. 129 وما بعدها .

يحيطون بهم ، ويقبلون كتفهم ، وينصتون بإمعان إلى كلامهم ، ويسألونهم نصيحةً أو سنداً في النوازل الصعبة . ولم يكن للسلطان الجديد نفسه حكم ثابت إلا بعد أن يكون فقهاء فاس قد اعترفوا بمشروعيته في تصريح علني يقرأ في جميع مساجد المملكة الشريفة . فكانوا إذن يتمتعـون في وسطهم الاجتماعي بتأثير كبير جداً .

الطلبة : ـ من المستحيل معرفة عدد الطلبة في أوائل القرن العشرين. فالمعلومات التي لدينا حول الطلبة « الداخليين » غير مضبوطة ، اذ تتراوح الأرقام بين330 و450[38] ؛ ويستحيل بالأحرى الحصول على بيان ولو تقريبي عن عدد التلاميذ « الخارجيين ». فيكون الاقتصار إذن على تقديرات مبهمة جداً. غير أنه حسب شهادة الفاسيين أنفسهم ، يمكن التيقن من أن عدد الطلبة انخفض جداً حوالي نهاية القرن التاسع عشر : ففي بداية حكم مولاي الحسن كان عددهم يناهز الألف[39] ، بينما لم يعد يبلغ سوى 600 أو 700 في أوائل القرن العشرين[40] .

كان هؤلاء الطلبة منقسمين إلى صنفين متميزين بوضوح : الفاسيون ، والغرباء عن فاس (الآفاقيون) . كان الفاسيون ينهون دراستهم الابتدائية بالمدينة ويتابعون عيشهم في أسرتهم ؛ وكانوا ، في الغالب ، شباناً موسرين ينتمون إلى بيئةٍ مشبعة بالتقاليد الفكرية ويحضرون دروس الجامعة، راغبين في أن يعودوا أساتذة فيها ، ويحصلون على وظيف عمومي ، أو على بعض المبادىء الثقافية الضرورية كذلك لمن ينضم الى نخبة فاس قبل الاشتغال بالتجارة . كما كان يوجد بعض أبناء الصناع وأصحاب الدكاكين أو خدام المخزن ممن لاحـظ نجابتهم أحد معلمي القرآن أو أصدقاء العائلة ، وكانوا

---

(38) من 330 إلى 390 ، حسب پيريتي، نفس المرجع ص 305) و 450 تقريباً حسب المذكرة حول التعليم .

(39) پ. مارتي ، نفس المرجع ، ص.27 .

(40) يعطي دولفان، نفس المرجع ، ص.22 عدداً يناهز 700 حوالي 1888 .

يحاولون الارتقاء في السلم الاجتماعي عن طريق العلم .

وكان الطلبة الآفاقيون شديدي الاختلاف ، لا من حيث أصلهم فحسب ، ولكن بالخصوص من حيث الكيفية التي ينظرون بها إلى دراساتهم ومستقبلهم.وإذا كانوا في معظمهم فقراء،فإن تفكيرهم في ارتقاء بعض درجات السلم الاجتماعي أقلّ من تفكيرهم في الحصول على معاشهم . لذلك كانوا يأتون إلى الجامعة لا للبحث عن العلم ، والارتياح وإمكانيات العمل التي تمنحها ، ولكن للبحث حقاً عن بعض المعلومات البسيطة الضرورية ليزاولوا في قريتهم وظائف معلم القرآن ، أو كاتب عمومي ، أو عدل ، أو كاتب للقاضي أو القائد .

ولانشغالهم بأمور مختلفة الى هذا الحد ، لم يكن الفاسيون والغرباء يحتكون كثيراً بعضهم ببعض ، إذ كان كل شيء يفرق بينهم : التكوين الفكري ، والعادات ، وأسلوب العيش . كان الفاسيون ينظرون إلى أصحابهم القرويين بتسامحٍ ، إن لم يكن بازدراء ؛ وكان الآخرون يحترزون من هؤلاء الشبان الوقحين المستهزئين ويحسدونهم على ألا يكونوا إطلاقاً مهتمين بالخبز اليومي . ولم يكونوا يجتمعون معاً إلا في إبان عيد الطلبة .

كان بعض « الآفاقيين » ممن لهم مال أو أصدقاء ، يجدون حجرة بالمدينة ، لكن جلهم من الفقراء والذين لا صلة لهم بالمدينة ، كانوا ملزمين بالبحث عن ملجأٍ في المدارس . وكانت ست مدارس فقط هي التي ما زالت تستقبل الطلبة ، هي مدرسة الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ، والشراطين حول جامع القرويين ، ومدرسة باب عجيسة[41] ، وأخيراً مدرسة مولاي عبد الله في الحي الذي يحمل نفس الاسم بفاس الجديد ، حيث كان

---

(41) أوبان ، المرجع المذكور ، مذكرة حول التعليم ، بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 265 - 271 .

يجتمع طلاب مبتدئون يتممون حفظ القرآن[42]،قبل متابعة الدروس بالقرويين والدخول إلى مدرسة أخرى .

كانت مدرسة الصفارين تؤوي نحو 60 طالبا ينتمي جلهم إلى سوس ، وزرهون وبني زروال . كما كانت ملجأً للوافدين الجدد الذين يقطنون هناك ريثما يجدون حجرة في المدرسة التي وقع اختيارهم عليها[43] . وكان المدنيون يسكنون مدرسة العطارين ، ففيها شبان من طنجة ، والعرائش ، والقصر ، والقبائل المجاورة ، وكان عددهم يتراوح بين 50 و60 طالباً[44] . ولم يكن يسكن في مدرسة باب عجيسة غير جباله ، ويتراوح عددهم بين 40 و60 طالباً ؛ وكانت أصغر المدارس كلها وأقلها اعتباراً[45] . كما كانت المدرسة المصباحية ملتقى الطلبة من جنوبي غربي المغرب : مراكش والحوز ، وعبدة ، والشياظمة ، ودكالة ، وتستطيع إيواء حتى 140 طالباً . في حين كانت مدرسة الشراطين أوسعها جميعاً حيث يقطن 150 داخلياً ، ويوجد بها الجزائريون ، والفيلاليون ، والريفيون وأهل المغرب الشرقي . وهكذا كان لكل مدرسة زبناؤها وبالتالي مظهرها الخاص . ومع ذلك لم أجد أي بيان يسمح باعتقاد أنه كان أي عداء بينها إطلاقاً ، لأن التضامن بين هؤلاء الغرباء عن المدينة الناتج أيضاً عن دراساتهم وهمومهم المادية ، كان ينتصر على اختلاف مشاربهم .

كل هذه المدارس كانت خاضعة لنفس النظام . « يدير » كل واحدة منها

---

(42) بيريتيي ، نفس المرجع ، ص.286 ، مذكرة حول التعليم . ويشير بيريتيي (ص.278) من جهة أخرى إلى أن عدة حجَر بالمدرسة البوعنانية كان يحتلها قدماء الطلاب ؛ ونفس الشيء بالنسبة لمدرسة الصهريج (نفس المرجع ، ص.273 ، لكن هاتين المدرستين كانتا أبطلتا بصفة رسمية . .

(43) انظر السيد الفاتحي التازي ، في وثائق أصدقاء فاس؛ وبيريتيي، المرجع المذكور، ص. 265 .

(44) نفس المرجع ، ص.288 .

(45) نفس المرجع ، ومذكرة حول التعليم .

مقدم وهو بواب في نفس الوقت وخادم وحارس ، يعيّنه الطلاب أنفسهم ويعزلونه ، لكن يعترف به المخزن الذي لم يكن يشترط فيه إلّا أن يكون أعزب ، ويؤدي له كأجرة من 20 إلى 30 مثقالاً في الشهر ، أي من 7 إلى 10 بسيطات حسنية؛ بالإضافة إلى أنه كان يسكن في حجرة صغيرة قرب الباب الرئيسي ، ويتسلم بعض الهدايا من الطلبة ، وأرباحاً زهيدة عن توزيع الخبز والزيت الممنوح للإنارة ، وأجرة طفيفة عن الأذان . ومن الأكيد أن مثل هذا المرشد لم يكن ليزعج الداخليين كثيراً[46] .

كان هؤلاء يسكنون في حجيرات تقع في الطابقْ الأول ، وعند الاقتضاء في الطابق الثاني للعمارة ، حول الفناء المركزي ، أو حول الساحات الصغيرة المتلاصقة . كانت هذه الحجرات مبدئياً فردية ، إلّا أنها في الواقع تؤوي اثنين أو حتى ثلاثة ، رغم ضيقها . كانوا ينامون فيها ، ويعملون ، ويطبخون ، بل ويستقبلون الزوار بها كذلك . وكان الطلبة يجدون بها بعض الراحة ، لشدة ما تعودوا عليه في منازلهم القروية الخشنة . وكانت السكنى بالمجان لأن المدارس ملك للأحباس ؛ لكن استعمال حق المفتاح قد تسرب إلى هنا كغيره من الأماكن، لأن بعض عائلات فاس كانت تنتفع بحجرة تسلمها لمن شاءت من الطلبة ؛ وكانت جل الغرف تسلم ، في مقابل مال ، للمكترين الجدد من طرف سابقيهم ، وذلك بسبب الإصلاحات التي من المفروض أن يكون هؤلاء قد أدخلوها عليها[47] ، والمقدم هو الآخر لم يكن غريباً عن هذه المتاجرة البسيطة[48] .

كانت الأحباس تقدم للطلبة الماء الصالح للشرب ورغيفاً كل يوم ،

---

(46) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.288 .

(47) كانت هذه العادة معمولاً بها أيضاً في المدرسة الإقليمية العليا بباريس بالنسبة لقاعات العمل (غرف)

(48) كان شراء حق المفتاح يساوي من 20 إلى 200 ريال حسب الحالات (أوبين ، المرجع المذكور ، ص.281) .

يوزعه المقدم ولو خلال العطلة[49] . وفيما عدا ذلك كان على كل واحد أن يحصل بنفسه على قوته[50] . فمن كانت لهم بعض الموارد كانوا يستحضرون أو يتسلمون من أهلهم المؤن : وهكذا كان أحسنهم حظاً يدخرون للسنة صاعاً من الكسكسو ، و 20 رطلاً من السمن الذائب المحفوظ في قربة ، و 50 كيلو من اللحم المصبر ، وكيساً من التين ، وكيساً من التمر ، وكيساً من الزبيب[51] .

لكن أغلبهم لم يكونوا يتمتعون بمثل هذه الثروات ؛ فكان عليهم إذن إمّا أن يكتفوا بخبز الأحباس ، وإما أن يجدوا وسيلة للحصول على بعض الطعام . وكان لذلك طريقتان معروفتان جداً عند الطلبة يلجؤون إليهما معاً : الأولى كسب شيء من المال عن طريق القيام بقراءات دينية في أحد المساجد ، أو الزوايا أو بمناسبة وفاة ، أو مزاولة مهنة كاتب لأحد أعيان فاس ؛ والثانية ، وهي الأكثر استحساناً ، تناول طعام من عند أحد أغنياء فاس : كانت العادة تقتضي منذ القديم أن تقوم الطبقة الموسرة بعمل صالح لوجه الله بإطعام طالب أو عدة طلاب ؛ ويذكر[52] أن أحد أعيان فاس الجديد كان يتصدق حتى بثلاثين طبقاً من الكسكسو على الطلبة في كل يوم . لم يكن هؤلاء يتناولون الطعام على مائدة المتبرع ، بل كانوا يستلمون معاشهم اليومي بباب منزله ، كالمتسولين أو الضيوف الغير المعروفين .

---

(49) كان التزويد بالخبز يؤمنه حبس خاص ، هو حبس الخبز . فكانت إدارة الأحباس تتفق مع طحان ليزود يومياً الفرن المعين بالكمية الضرورية من الدقيق ؛ فكان مقدم كل مدرسة يذهب إليه لتسلم خبز مؤسسته . ولم يكن خبز الطلبة ، خلافاً لما كان يخبز بقصد البيع ، خبزاً بائتاً قط .

(50) كان المخزن قديماً يمنح صلة للطلبة بمناسبة الأعياد الكبرى ، قدرها مائة ريال لكل مدرسة . وقد ألغيت هذه العادة حوالي 1900 (مذكرة حول التعليم) .

(51) الفاتحي التازي ، قصة الطالب سيدي العزيز ، في وثائق أصدقاء فاس ، وبودجيت ميكين ، المرجع المذكور ، ص. 307

(52) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.291 يشير نفس المؤلف إلى أن هذه العادة كانت على وشك الانقراض في بداية القرن العشرين .

كان طلاب فاس ، على غرار جميع طلاب العالم ، يجدون بين دراساتهم والبحث عن قوتهم ، مزيداً من الوقت للتسلية ؛ فكانوا يجتمعون ليلاً فيما بينهم في حجيراتهم على الضوء المرتعش لشمعة أو مصباح زيتي وهم يتحدثون ويتناولون الشاي ؛ كان موضوع الحديث ، حسب النزوة والأفراد ، هو دروس اليوم أو مناقشة فقهية ، ولكن أيضاً الأساتذة والحوادث الصغيرة بالمدينة ، والمغامرات الغرامية لهذا أو ذاك ، لأن هؤلاء الغرباء الأقوياء لم يكونوا دائماً نماذج للفضيلة . وكانوا ينظمون في فصل الربيع نزهات في بساتين فاس والتلال المحيطة بها ، يستدعون لها أحياناً أستاذاً أو أستاذين[53] ، كما كانوا يستدعونهم في المدارس .

وأخيراً ، كانت هنالك احتفالات جامعية يساهم فيها جميع الطلبة ، الفاسيون وغيرهم على السواء. فإذا ختم أحد الأساتذة شرح **مختصر** سيدي خليل[54] كان الطلبة يرفعونه على أكتافهم ويحملونه بانتصار إلى القاعة الكبرى للمدرسة المصباحية، حيث يأتي الجمهور لتهنئته[55] بعد أن يكون قد قدم له تلاميذه بالباب هدية التمر والحليب ، مثلما تقدم للسلطان عند دخوله إلى المدينة . ومن جهة أخرى ، عندما يكون أستاذ قد أنهى شرح كتاب هام ، كان ينظم حفلة استقبال تسمى الختمة . وبعد تناول الطعام يلقي على تلاميذه محاضرة حول المادة التي ختمها فيقدم له التلاميذ وأعيان المدينة هدايا .

وأكبر احتفال طلابي كان بلا مراء هو حفل سلطان الطلبة الذي كان ينظم في ربيع كل سنة . لا فائدة في الرجوع إلى أصل هذا الاحتفال الذي كتب عنه الراحل پ. دوسينڤال مقالاً نهائياً[56]. ويرجع هذا الأصل إلى ما قبل النصف

(53) پيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 305 . وكان بعض الأساتذة في القديم ينظمون حتى شبه تفسحات مدرسية ، لكن هذه العادة انقطعت حوالي آخر القرن التاسع عشر .

(54) يذكر پ مارتي (المرجع المذكور) أن أستاذاً قضى ثمانية وعشرين سنة في شرح هذا الكتاب ، وأن آخرين يُنهون شرحه في ظرف سنتين أو ثلاث سنوات .

(55) بيل ، **كتابات عربية** ، ص. 232 .

(56) پ. دوسينڤال ، **أسطورة اليهودي ابن مشعل وحفل سلطان الطلبة بفاس** ، في هيسبريس ، =

الثاني من القرن السابع عشر . فجل الذين كتبوا عن فاس تحدثوا قليلاً أو كثيراً عن هذا الحفل الذي يثير مجرد اسمه حب التطلع ويذكر بمشاهد رائعة ؛ وقد حضرته بنفسي عدة مرات ، لكن في عهد كان قد فقد، حسب قول من يستطيعون القيام بمقارنات ، الكثير من بهائه .

لم تكن الإعدادات بأقل أهمية من الحفل ذاته . ففي بداية الربيع ، حوالي منتصف أبريل ، بعد إشعار المخزن بلهجة سلطوية مضحكة بعزم الطلبة على تنظيم عيدهم ، كانت وظيفة السلطان تعرض للبيع بالمزايدة . ومن العادة أن يرغب فيها طلاب المدارس فقط ، ولا يشارك الطلاب الفاسيون في المسابقة . لكن أعيان فاس يحضرون وهم الذين يوصون السلطان الوقتي ، إذ من المتفق عليه منذ زمن قديم جداً أن هذا الأخير بإمكانه أن يطلب من العاهل (الحقيقي) أن يمن على هذا أو ذاك ، أو أن يعفو أيضاً عن أحد المحكوم عليهم أو المعتقلين . فإذا كان لبعض أعيان فاس قريب أو محمي في هذه الحالة ، كانوا يعملون على تحقيق انتخاب سلطان الطلبة الذي يطلب في مقابل ذلك العفو المرجو . لذلك كانت المزايدات تتغير من سنة إلى سنة ، حسب عدد وثروة من كان في صالحهم أن يضمنوا نجاح مرشح ما : فقد بلغت المزايدة سنة 1889 حتى إلى 100 ريال[57] ولم تبلغ سنة 1886 إلا 50 ريالاً[58] .

كان المبلغ المحصل عليه يشكل مالاً أولياً لتنظيم الحفلة ، لكنه لم يكن كافياً . فكان الطلبة ينتشرون في المدينة لجمع التبرعات ، وهم يقلدون جباة الأسواق ، والقاضي أو شيخ التجار ؛ كان التجار والأعيان يتبرعون عن طيب

= عدد 5 ، 1925 ، الثلاثة الأشهر الثانية ص. 137 -218 . توجد بهذا المقال ببليوغرافيا كاملة عن الموضوع . وفي علمي لم يكتب شيء منذ ذلك العهد روايات بعناصر جديدة .

(57) طروطر ، المرجع المذكور ، ص. 188 .

(58) تشارمز ، المرجع المذكور ، ص. 303 . وحسب پ مارتي (المرجع المذكور ص.45) ، فإن وظيفة سلطان الطلبة اشتريت بـ 22.500 فرنك سنة 1923 وبـ 13.500 فرنك فقط في 1924 .

خاطر، كما كان الطلبة يطلبون من الشخصيات المخزنية وقواد القبائل على شكل رسائل شريفة تلزمهم بدفع مبلغ كذا[59] . وكان الطلبة يلجؤون أحياناً إلىٰ مباريات خارجية : يستأجرون أحـد الفاسيين المعـروفين بفصاحتهم ويجعلون منه المُنَشِّط لمهزلتهم .

وكانوا يجمعون المال ويعدون جهاز التخييم في نفس الوقت ، إذ كان لا بد من التخييم بضعة أيام على ضفاف وادي فاس في عالية المدينة ، على مرأى من أسوار دار المخزن . وكانت المصالح الاقتصادية للقصر وعامل فاس

---

(59) وفيما يلي نموذج لرسالة من هذا النوع نقلها تشارمز (المرجع المذكور ص. 306 -308) وأطلعه عليها كاتب مغربي من بعثة فرنسا كان قد توصل بها :

« الحسين الغمـاري ، سلطان الطلبة ـ رعاك الله

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ! إلى خديمنا الأرضي العالم العلامة سيدي أحمد البدوي ، أمنكم الله ووقاكم من كل شر وحفظكم من كل ضرر !

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، من قبل مولانا أيده الله ونصره وبعد ، فإن مولانا سلطان الطلبة الحائز لكل الفضائل والموزع لكل الخصائل الحميدة ، يأمركم بأن تبلغوا هذا الكتاب إلى السيادات الكريمة المؤيدة بالدين الاسلامي ، المسافرة برفقتكم ، أي الآتية معكم من الجزائر ، أبلغوهم بأن جيشنا السعيد سيعسكر نهار يوم السبت ، إن شاء الله ، على ضفتي وادي الجواهر ، بين سكان بني برغوث وبني بق ، وبني فار .

وقد فرضنا عليهم لمؤونة جيشنا المحروس بالله إتاوة لا تعدّ ولا تحصى، فضلاً عن الإتاوة التي فرضت لصالح مولانا نصره الله ، إلخ . . .

وامروا بالطاعة والاستسلام ، حتى يبعثوا إلينا بألف فحل من جنس الخيل يمتطيها البعوض وتسرج بقشور البلوط ، وكذلك بألف خنزير سمين جداً لأتباع السلطان .

وأكرموا حامله حتى لا يستطيع حمل ما ستهبون له ، واصحبوه بحرس حتى يصل إلينا بأمان بسبب كثرة قطاع الطريق في بلاد غريبة (حلويات) والفتن التي يقوم بها سكان كعب غزال (حلويات أخرى) .

يجب ألا يقع تأخير في إرسال هذه الهدايا والسلام ! وحرر في شهر اللبن عام السكر والشاي وما شابههما .

وإن لم يمتثلوا لأوامرنا ، أرسلنا عليهم قبائل البعوض التي لا تتركهم في راحة إلا إذا أعطوا ما ذكر في رسالتنا . والسلام . عام 1622 .

وكانت تحمل هذه الرسالة الجميلة كتوقيع ، طابعاً اشبه ما يكون بطابع الملك » .

يضعون عادة رهن إشارة الطلبة الخيام الضرورية والدوابّ التي تنقلها .

وفي هذه الأثناء ، يكون السلطان الجديد قد اختار وزراءه وأعيان حاشيته من بين زملائه بالمدرسة ، ما عدا صاحب الصندوق الذي كان تقريباً دائماً رجلًا جدياً ومحنكاً ، تاجراً أو موظفاً[60] .

وكان سلطان الطلبة يتلقى يوم الجمعة الموالي لانتخابه ، من المخزن شعائر سلطنته ، أي : المظلة ، وَالمنشة، والفرس ، والحرس . فيقوم إذ ذاك بخروجه الأول ، مصحوباً بموسيقى الموكب بمزاميرهم وطبولهم و (نفافيرهم) ، وسط جمهور غير منظم . يذهب إلى جامع الأندلس ثم يخرج من المدينة عبر باب فتوح ، ويصعد إحدى ربوات روضة باب فتوح ، ويستجم أمام ضريح سيدي ابن حرزهم (حرازم)[61] مولى الطلبة ، حيث أقبر كذلك ، حسب الرواية التقليدية ، مولاي رشيد ، منشىء الحفلة .

وكان الموكب يشكل مرة ثانية ، يوم الغد السبت ، بنفس النظام ، ويتوجه هذه المرة نحو باب محروق ليلتحق بسهل واد فاس عبر باب الساكمة . ويكون المخيم قد نصب هنالك ؛ فيضاف إلى أخبئة الطلبة خباء عامل فاس الجديد المكلف بالسهر على النظام ، وأخبئة الفاسيين العديدين الذين كانوا يأتون للاستراحة والتسلية لبضعة أيام برفقة الطلبة ، في مقابل هدايا كما لا يخفى . كانوا يقضون هناك أسبوعاً على الأقل وهم يأكلون ، ويشربون الشاي ، ويستقبلون الأصدقاء، ويمرحون ويستمعون إلى الموسيقى . وكانت فاس كلها تتقاطر على هذا المخيم ، إذا كان الطقس جميلًا ولو قليلًا .

وفي اليوم الثالث أو الرابع ، يقدم شخص من الأسرة الشريفة حاملًا هدية السلطان ، وهي عبارة عن مؤن ونقود ، كما يرسل اليهود هدية ، لكنها

(60) پ . دوسينفال ، المقال المذكور ، ص. 140

(61) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2

هزلية إذ تكون البقر والغنم المعلن عنها في الواقع قططاً وفئراناً في أقفاص. وأخيراً في اليوم السادس ، كان السلطان الحقيقي ، إن وجد بفاس ، يزور سلطان الطلبة : وفي هذا الاحتفال الذي يمتزج فيه البروتوكول بالسخرية امتزاجاً شديداً[62] يلتمس خلاله سلطان الطلبة المن والعفو التقليديين والإذن باستمرار الحفلة أسبوعاً. وفي أثناء الليلة الأخيرة للمخيم ، كان على سلطان الطلبة أن يتخلص دون أن يراه أحد ويلتحق بمدرسته بدون أبهة ، وإلا تعرض من طرف أصحابه إلى لطمات عنيفة ، واستحمام إجباري وغير ذلك من الكوارث من هذا النوع .

إننا لا نستطيع أن نلح كثيراً على الطابع الهزلي المتصنع لهذه الحفلة التي كان الطلبة لا يخشون تقليد أكبر أصحاب الرتب المخزنية العليا حتى بمحضرهم ، لكن مع مراعاة المراسيم المعمول بها في الحاشية الشريفة بكل دقة . وهكذا كانت تسليتهم تتخذ طابعاً متصنعاً غريباً جداً ، لا يشبه في أي شيء الخشونة وتجاوز آداب الحياة في الحي اللاتيني .

ويؤكد التاريخ انطباع الثبات الذي يتركه حفل سلطان الطلبة ، إذ لم يسمع قط أن طلبة فاس تسببوا في اضطراب خطير بالحاضرة ، ولم يرو أي مؤرخ أن المدارس قاومت حصارات أو أن حي القرويين كان مسرحاً لعمليات استراتيجية[63] ؛ بل على الأكثر كان الداخليون بالمدارس يعبرون أحياناً عن غضبهم بكيفية عنيفة إذا أصبح الخبز رديئاً أو غير منتظم التوزيع[64] .

---

(62) انظر عن التفاصيل پ. دوسينفال ، المقال المذكور ، ص 143 -145 ، ودوتي ، **الخطبة الهزلية بحفل الطلبة بالمغرب** .

(63) بدون الرجوع حتى إلى العهد الوسيط ومعارك الطلبة مع رماة المحازة ، فإننا نتذكر أن الحي اللاتيني ، في ربيع 1925 ، كان في حالة غليان طوال يومين أو ثلاثة أيام ، وأنه شوهدت صفوف من المتظاهرين وهم يقومون بحركات دائرية في دروب جبل سانت ـ جونفياف ، وأن الشرطة اضطرت إلى محاصرة كلية الحقوق . لا شيء مثل ذلك بفاس .

(64) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 291 .

ويمكن الاستغراب من كون أربعمائة أو خمسمائة من الشبان الأشداء طلبة المدارس ، لم يقع التحدث عنهم بأكثر من هذا . لعل اهتمامهم بشرفهم كطلبة للاّهوت كان من أسباب ذلك ؛ لكنني أظن أنه يجب البحث عن أهم داع لذلك في الواجب الاجتماعي الكبير الذي يفرضه الوسط الفاسي . فكان العشرات من القرويين الوافدين على فاس كل سنة يشعرون فوراً كأنهم واقعون في شرك مجتمع يخدعهم بثقافته ، ومدنيته ، وتهذيبه ، ولم يكونوا في البداية سوى مفتونين . حقاً إنهم بعد شهور قلائل وبمساعدة العادة ، كان بإمكانهم أن يعارضوا ويفلتوا من هذا الافتتان ، لكن هيهات ! لم يعودوا بعدُ ما كانوا عليه عند وفادتهم ؛ فقد سبق أن رسخ فيهم شعور الاحترام تحت تأثير أساتذتهم ، والمحيط العام ، وحتى أصحابهم القدامى ، فيسوقهم كما يسوق سائر المدينة ، وهو يفيدهم بأن الطالب شخص على حدة ، شبه مقدس ، لا يمكنه أن يساهم في الاضطرابات الباطلة للحاضرة ، تحت طائلة فقد الحظوة إزاء نفسه . وقد تعلموا عدم الاستسلام للاندفاعات الوقتية ، وعدم القيام بأي شيء إلا وفق التقاليد والقاعدة بدون زيادة شيء عليهما . وحتى الهزل كان اصطلاحياً محدداً بدقة عن طريق العادة .

وكان نفس الشيء بالنسبة لدراساتهم : فلا مبادرات فردية ، ولا مجهود خلاق(*) ، إذ لم يكن يهمهم اكتشاف حقيقة متغيرة باستمرار ، ولكن التلقي للحقيقة التي كشفها للناس رسول الله بكاملها ممن أخذوها بدورهم عمن سبقهم ، وأن يكونوا جديرين بتبليغها كما هي لخلفهم . ومن أجل ذلك ، كان لا بد من التشبع جيداً بالمعارف والطرق للعلماء الأساتذة ، وأن يصطنعوا لأنفسهم ذاكرة لا تخون وأن ينصتوا ويحصلوا . وهكذا كان طلبة فاس يحتذون شيئاً فشيئاً بشيوخهم الذين كانوا يولونهم أكبر احترام ويؤدون لهم جميع

(*) العجب للمؤلف يكتب هذا وقد عاش بفاس فترة مخاض الحركة الوطنية المغربية وتطورها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ورأى وسمع وتحقق بالمبادرات المدهشة التي كانت لطلبة القرويين ! (مترجم)

الخدمات الممكنة بغية استحقاق عنايتهم . لم يحاولوا قط رد فعل ولا تشككاً مبدئياً ، ولا شيء لديهم أغرب من موقف روح ثورية لم يكونوا حتى يستنكرونها ، لأنها لم تكن تخطر ببالهم . فالعقيدية والامتثالية هما الخاصيتان الغالبتان للقرويين ، وعندما كان النزق ورغبة الشباب في الانفجار يتجليان ، فإن المسالك المرسومة جيداً لحفلة الطلبة كانت منصوبة أمامهم لتوجيههم : فمنذ ثلاثمائة سنة ، كان شباب فاس يشفي غلته بمحاكاة المخزن الساخرة التقليدية ، وبالدعابات حول البراغيث ، والبق والفئران ، وبجو البهجة الشعبية المتزنة الذي يكتنف كل ذلك .

مؤسسات التعليم الأخرى : ـ لا ينبغي الاعتقاد بأن المجهود المبذول لتحديث التعليم المغربي يعود تاريخه كله إلى الحماية . فقبل 1912 كانت فاس مسرحاً لبعض المحاولات في هذا الاتجاه ، محاولات أصبحت بدون غد ولا نتيجة عملية ، ولا بد من الاعتراف بذلك ، لكنها محاولات من المفيد الإشارة اليها .

على إثر هزيمة إيسلي مباشرة عزم مولاي عبد الرحمن ،وقد أدرك أن الجيش الشريف لن يستطيع أبداً أن يقاوم الجيوش الأوروبية ما لم يتغير ، على إنشاء مدرسة للتقنيين أقامها بمدرسة دار المخزن واتخذت إذ ذاك اسم مدرسة المهندسين[65] ؛ وكانت تعطى بها دروس في العلوم بعض الوقت ، تحت إشراف الشريف مولاي إدريس البلغيتي ،لكن هذه المحاولة لم تكن لها نتيجة .

واستؤنفت هذه المحاولة سنة 1906 من طرف وزير الحرب الحبّاص الذي استحضر إلى فاس مصرياً ، هو رشيد أفندي ، وأسند إليه تعليم الرياضيات التي كان يدرسها في نفس دار الوزير لأحد عشر تلميذاً على نفقة المخزن . ولم تدم هذه المحاولة أكثر من سابقتها .

وحاول الاتحاد الفرنسي ، من جهته ، أن يفتح مدرسة للمسلمين ، كما

(65) انظر في هذا الصدد بيل ، كتابات عربية ، ص. 97-116 ، وبيريتيي ، مدارس ص. 275

فعل بالنسبة لليهود : وكان الأمر يتعلق بدرس باللغة الفرنسية لفائدة الكبار يقوم به مستخدم بالبريد ، وهو جزائري مسلم . أخفقت محاولة أولى سنة 1899 ـ 1900 ، ولم تعرف محاولة ثانية نجاحاً أكثر سنة 1906 -1907 وذلك لأسباب سياسية في كل مرة[66] .

(66) مذكرة حول التعليم . ولم تفتح بفاس المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية الأولى الا سنة 1911 .

2/6

الفصل الثاني

الكتب والخزانات

لم يكن الاتجار في الكتب مزدهراً جداً ، رغم وجود جامعة ، كما بينت ذلك سابقاً[1]،وليس أكثر كذلك من القرن السادس عشر[2] . وذلك ناتج عن صعوبة الاستيراد وضعف الإنتاج المحلي ، وعن المكانة المتفوقة المخصصة للذاكرة في التعليم ، وعن العدد القليل للكتب المستعملة بالقرويين أيضاً . وأخيراً فإن الطلبة لما كانت لهم أوقات فراغ ، فإنهم لم يكونوا يترددون في استنساخ النصوص التي هم في حاجة إليها ، يستعيرونها ممن هم مزودون بها أكثر منهم أو يجدونها بخزانة الجامعة .

الخـــزانـــات : ـ هذه الخزانة[3] [خزانة القرويين] التي قيل إن السلطان المريني أبا عنان (القرن الرابع عشر) هو الذي أسسها ، والسلطان السعدي أحمد المنصور هو الذي وسعها ، كانت غنية جداً في القديم . وقد

---

(1) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 ، ص. 376 -377 .

(2) يدلي ليون الإفريقي برقم 30 دكاناً للكتبيين ، بينما لم يبق منها سوى 10 حوالي 1900 ؛ لكن التفاصيل التي يقدمها كلينار ، عن بيع الكتب بالمزاد (ر . لوطورنو ، كلينار ، ص. 60- 59) تدل على أنها كانت شيئاً نادراً في ذلك العهد ، إذ كانت تباع جزءاً جزءاً .

(3) انظر عن خزانة جامعة القرويين، على الخصوص بيريتيي ، المرجع المذكور ص. 357 - 367 ؛ محمد بن الحسين العراقي ،خزانة جامعة القرويين ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس؛ وأ بيل ، فهرس الكتب العربية لخزانة جامع القرويين بفاس ، 1918 ،وزهرة الآس ، ص. 148 -151 .

تردّت شيئاً فشيئاً إلى حالة مؤلمة من التلف والإهمال ، إذ كانت الكتب مكدسة بعضها فوق بعض بغير نظام ، معرضة بسهولة للأرضة . ونظراً لانعدام أي فهرس ، أو سجل للاستعارة ، فإن الكثير من المستعيرين غفلوا عن رد ما استعاروه من الكتب ، بحيث إنه كان يقدر في بداية القرن العشرين عدد الكتب ب2.000، منها 1600 مخطوط، معظمها ضئيل القيمة. كانت حراسة الخزانة تسند مبدئياً إلى مراقب أحباس القرويين ، لكنه كان يحيل هذه المهمة على طالب (مكلف) يوافق عليه المخزن . ونظراً لاختفاء عدد كبير من الكتب ، فقد مُنعت الاستعارة وأصبح على الطلبة أن يطالعوا الكتب في عين المكان ، ويبدو أنهم قليلاً ما كانوا يلجؤون إلى هذه الإمكانية .

وكان يوجد بالقرويين أيضاً ، في الجامع بالذات ، خزانة صغيرة للكتب المستعملة عادة ، أي بعض المصاحف الشريفة وكتب الحديث ، يكلف بها طلبة يحتفظون بمفاتيحها بالتناوب . وتكونت خزانات مماثلة في جامعي الأندلس والرصيف . وكان هؤلاء الطلبة ، كقيم خزانة الجامعة ، يتقاضون من المخزن أجرة قدرها 10 مثاقيل في الشهر[4] .

وهناك خزانة أخرى هي خزانة دار المخزن ، التي أنشأها مولاي عبد الرحمن ووسعها مولاي الحسن . كانت في بناية ملحقة بالقصر ، قرب مشور باب بوجات تزود من الخزانات الخاصة التي تصبح ، لا وارث لها . ولم يكن الدخول إليها سهلاً لوجودها داخل القصر[5] .

وأخيراً كانت هناك بعض الخزانات الخاصة ، المشهورة بغناها ، أهمها خزانة الشريف مولاي إدريس بن عبد الهادي، الذي كان أحد علماء القرويين والمالكين الأثرياء .وكانت تذكر أيضاً خزانة الفاسيين الواقعةبملحقات ضريح سيدي عبد القادر الفاسي ، وخزانة زاوية سيدي أحمد التيجاني بحي البليدة ،

---

(4) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 359 .
(5) نفس المرجع ، ص. 367 .

وأخيراً خزانة الكتانيين[6] . ومن المعلوم أن عدداً كثيراً من الفاسيين غير هؤلاء كانوا يملكون خزانات ، لكن نظراً لقلة الكتب ، لم تكن تحتوي على أكثر من عشرات ، وقليل منها على بضع مئات من المؤلفات .

الطباعة الحجرية : - لقد اكتفى الكتاب المغاربة لمدة طويلة باستنساخ مؤلفاتهم باليد ، اللهم إلا إذا طبعوها في مصر كمؤلف الاستقصا[7] . ولم تنشأ مطبعة حجرية بفاس إلا على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن ، أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[8] .

ويبدو أن الفكرة جاءت من حجاج أشادوا للسلطان بالوسيلة التي شاهدوا استعمالها في الشرق ؛ كما يبدو أن المخزن منح تسهيلات لأول طابع ، وهو الحاج الطالب الأزرق الذي أقام مطبعته بدرب الحمام ، قرب سوق الجوطية ، بعدما استحضر من الشرق جهازاً وتقنياً تركياً[9] . وأول كتاب طبع بفاس هو شرح الغزالي للشيخ مرتضى(*). ونظراً لربح هذه التجارة ، فإن عائلتين أو ثلاث عائلات ، هم القادريون ، وآل ابن الخياط ، وربما آل ابن سودة[10] ، أنشؤوا مطابع في مختلف أحياء المدينة ، وخاصة في البليدة

---

(6) نفس المرجع . لقد أصبحت خزانة الكتانيين لحسن الحظ ملكاً للعلامة سيدي عبد الحي الكتاني الذي جعل منها أجمل خزانة بفاس وفتحها بسخاء في وجه الباحثين .

(7) في مثل هذه الحالة ، كان أحد التجار الفاسيين ، الذي له علاقة منتظمة مع مصر يشتري المخطوط من المؤلف ثم يتكفل بالنشر (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 280) .

(8) توجد عن الطباعة الحجرية بفاس بعض المعلومات المتفرقة عند پيريتيي المرجع المذكور ، ص. 363 -366 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص.280 ؛ ودولفان، المرجع المذكور ، ص. 86 ؛ ومولييراس ، المرجع المذكور ، ص. 150 ؛ وبيرك، نوازل ؛ ص.17 الهامش 8 . وقد استكملت مراجعي لدى السيد محمد بردلة، طباع بفاس من قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس الذي تفضل بإفادتي عن هذه الحرفة التي عرفها جيداً .

(9) پيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 363 .

(*) بل أول ما طبع على الحجر بفاس هو سنن الترمذي ، واسم أول طابع مغربي الحاج الطيب الأزرق لا الطالب ؛ انظر المنوني ، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ، 1:215 -216 ، والهامش 2 . (مترجم) .

(10) پيريتيي ، نفس المرجع ، ومعلومات شفوية .

والمخفية . غير أن هذه الصناعة الجديدة التي لم يكن لها منافسون بالمغرب ، لم يَتوفر لها أزيد من أربع مطابع[11]، أنجزت الأشغال الأولى للمخزن[12] على ما يبدو . ثم إن الطابعين عملوا بلا مواد لحساب المؤلفين ، أو بالأحرى كان هؤلاء يُمدونهم بالورق[13]،ويؤدون أجرة عالم مكلف بفحص الكتاب من حيث سلامة الاعتقاد الديني[14] ، وأجرة الطابع الذي كان يقدم هو الآخر المداد واليد العاملة ، أي النساخ[14] وعمال المطبعة ، وكان عددهم اثنين على الأقل . وكان يستعمل أسلوب آخر ، وهو أن الطابع الحجري ، الذي هو كتبي أيضاً ، كان يقوم بدور الناشر ، أي أنه كان يتحمّل جميع مصاريف الطبع ويدفع حقوق المؤلف كلما باع خمس عشرة نسخة أو عشرين[16] .

وحيث إن فاساً هي المدينة المغربية الوحيدة التي تطبع الكتب ، فإن البيع كان سهلاً ، رغم قلة جودة ما يطبع من الكتب بمداد رديء دون اهتمام براحة القارىء . كانت المدينة نفسها تستوعب قسطاً كبيراً منها ، ويباع الباقي في المدن الكبرى الأخرى بالمغرب ، كالرباط، وسلا ، ومراكش ، وتطوان وطنجة . ولم تكن الكتب المطبوعة على الحجر بفاس تباع خارج المغرب ، ومع ذلك اشترى بعضَها أوروبيون على سبيل حب الاطلاع، وخاصة منهم الألمان[17] .

---

(11) وقد أتلفت الأخيرة سنة 1944.

(12) دولفان، المرجع المذكور ، ص . 86 .

(13) وقع استيراد الورق أولاً من مصر، ثم من فرنسا بواسطة دار لحلو وسسوسان. ولم يُصنع قط بفاس .

(14) لم يكن العالم المصحح يمارس مراقبة رسمية ، لكنه يقدم ضمانة بأن العقيدة سليمة . وهو احتياط من طرف الناشر أن يطلب منه رأيه .

(15) كان الناسخ المطبوع اسمه في آخر كل مجلد ، كما هو معلوم ، عالماً ذا خط جميل . وكان أشهرهم ، سنة 1906 هم الفقيه البادسي ، وثلاثة إخوة من أولاد السيد عبد الرحمن ابن سودة ، كانوا يتقاضون من 3 إلى 4 بسيطات حسنية عن كل ملزمة من 8 صفحات (بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص 364)

(16) كانت تعرض أول نسخة على الكاتب أو ورثته الذين كان بإمكانهم توقيف الطبع ، إذا رأوا أن النشرة رديئة .

(17) لم يحاول طابعو فاس أن يُصدِّروا مطبوعاتهم ، وإنما كانوا يسحبون 300 أو 500 نسخة . وحتى =

وقد شكلت الكتب التعليمية (بما في ذلك الفقه ، والنحو ، والتوحيد[18] ، والهندسة ، والتنجيم) الرصيد الأساسي لهذه المطبعة الفاسية ، الأمر الذي يبرهن على علاقتها الوثيقة بجامعة القرويين ، والمكانة المكينة التي كانت تحتلها هذه الأخيرة في الحياة الفكرية بفاس . وقد استهوت الطابعين بفاس أيضاً كتب الرحلات إلى الحجاز[19] والكتب التاريخية . وهكذا نشرت مؤلفات كجذوة الاقتباس لابن القاضي[20] ، والجيش العرمرم لمحمد أكنسوس[21] ، ونزهة الحادي لِلإفراني[22] ، ونشر المثاني للقادري[23] وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني[24] ، وكتب أخرى كثيرة من نفس النوع. أما الشعر وما قد نسميه الأدب فإنهما لم يحتلا إلا مكاناً صغيراً في هذه المجموعة[25] . وسواء تعلق الأمر بالفقه أو التاريخ أو الشعر ، فإن جل الكتب المطبوعة على الحجر بفاس كانت معروفة لدى الجمهور في شكل مخطوطات : ونسبة الكتب الجديدة ضعيفة جداً .

---

* لو أرادوا ذلك ما استطاعوا لأن طريقتهم في الطبع كانت بطيئة : فكان لا بد من 100 يوم تقريباً من العمل لطبع مؤلف واحد من 400 صفحة في 500 نسخة (معلومات أفادنيها بردلّة)

(18) من جملة كتب التوحيد ، يمكن ذكر المؤلفات السبعة لماء العينين المطبوعة بفاس عند الأزرق ما بين 1310 و1323 . وقد وضع لها المتبصر تحليلاً موجزاً في مجلة العالم الإسلامي ، عدد 1 (يناير 1908) ص.349.

(19) مثلاً رحلة العياشي . انظر عن هذا المؤلف ، ليفي - بروفنصال ، شرفاء ، ص.264.

(20) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.248-250.

(21) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.204-213.

(22) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.120-131.

(23) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.319-326

(24) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.377-385

(25) انظر عن المؤلفات المطبوعة بفاس، ابن شنب ، وإ . ليفي - بروفنصال ، محاولة لوضع فهرس مسلسل تاريخي لمطبوعات فاس ، في المجلة الأفريقية عدد 62 (1921) ص . 158 - 173 و275 - 290 و63 (1922) ص . 170 و185 و333 و347 . وقد اخذ هذه اللائحة بالترتيب الأبجدي هـ . بيريس وأ . ساميري في مجلة الدراسات العربية ، عدد 32 (مارس - أبريل 1947) ، ص . 63 - 70 .

وقد حاول المخزن أن ينشئ بفاس مطبعة حجرية ، وكان مولاي حفيظ هو الذي خطرت هذه الفكرة بباله سنة 1910. فاستحضر آلة ألمانية بحروف من لايبسيش ، بواسطة سوري يدعى يمني[26] .لكن الحماية أقيمت في هذه الأثناء ونُبذت الآلة الجديدة في مخزن اللوازم أو بيعت بخسارة ، لا أدري .

الأوساط الأدبية : لا شيء أكثر غرابة عن فاس من الحياة الأدبية على النحو الذي نتصور فيه بفرنسا منذ القرن السادس عشر على الأقل . فلسنا نجد بفاس ذلك العالم للمفكرين الذين يتعيشون بقلمهم، ملتفين حول العاهل، كما كان ذلك في عهد لويس الرابع عشر ، أو حول شخصيات عظيمة مثل ما كان عليه الأمر في القرن السادس عشر ، أو مجتمعين في الصالونات كما حدث في القرن الثامن عشر ، أو في المقاهي ، كما هو الأمر في القرن التاسع عشر أو في أيامنا هذه . فالكاتب المحض ليس له حق المواطنة بفاس ، لأن الأدب المحض لا وجود له ؛ وبالتالي ، فالعلم هو الذي يشغل الأفكار النيرة بفاس لا الفن : فما فائدة الجمال إن امتُلكت الحقيقة ؟

لذلك كان الذين يتبوؤ ن الصف الأول في الحياة الروحية بفاس طبعاً ، هم العلماء ، والأساتذة ، وفقهاء القرويين . وبدونهم يجب القول بأنه لم يكن هناك أحد. وهكذا كانت الحياة الروحية تظهر مشوبة بنقيصة خطيرة جداً، إذ كانت كلها من صنع رجال صُهروا كلهم في قالب واحد ، وكُوّنوا بالطرق المشددة لجامعة القرويين . كان المستقل نموذجاً لروح لا يتصور ؛ وكانت النساء ذوات ثقافة ضعيفة جداً ، لا يشاركن أو قلما يشاركن في الحياة الفكرية . ومن هنا كانت العقلانية الفاسية تجد نفسها موضوعة تحت علامة المعرفة والعقدية . لم يكن يعرف هناك خيال لمبدع ، وكان الشعر مصوغاً في قوالب ونماذج ، والفقه والتوحيد يحتلان الرتبة الأولى تماماً كما هو الحال بالجامعة .

---

(26) معلومات من السيد محمد بردلّة.

ومن جهة أخرى ، فإن الاهتمامات الفكرية لم تكن تمس سوى وسط محدود جداً : ففضلاً عن أساتذة القرويين ، وبعض الطلبة ، طلبة فاس ، وعدد قليل من الموسرين النيرين ، كان مجموع السكان يبدون احتراماً لمظاهر الفكر ، لكنهم لا يشاركون فيها : فالقيام بالواجبات الدينية ، وهموم الحياة اليومية ، وبعض التسليات كان ذلك كافياً لملء الحياة[26] .

وكانت أهم مظاهر الحركة الفكرية هي الاجتماعات العمومية أو الخصوصية . فإطار الأولى دائماً مبنىً ديني ، من مسجد أو زاوية ، حيث كانوا يجتمعون للإنصات إلى عرض ذي صبغة دينية ، يقوم به أحد علماء المدينة ، أو أحد الغرباء العابرين في قليل من الأحيان . وكانت مثل هذه الاجتماعات تعقد خاصة في رمضان وفي الأسابيع السابقة للمولد النبوي ، والإقبال عليها كبير بصفة عامة .

وكان ارتياد الاجتماعات الخصوصية أكثر بطبيعة الحال ، تنظم في دار أحد الأغنياء أو العلماء الذين يقدم لضيوفه طعاماً أو شاياً حسب الظروف . وكان المشاركون يرتبطون فيما بينهم بصلات ، وتسير محادثتهم بلا رابط ، متخذة أحياناً شكل مناقشة عامة وأكاديمية ، ومتحولة أحياناً إلى مناظرة حادة بين شخصين معروفين بفصاحتهما . وقد أعطى موليراس[28] وغيره كثيرون أمثلة عن هذه الاجتماعات التي كانت الكلمة تؤول فيها دائماً إلى المسنين الذين هم أكثر علماً ؛ وإذا فعل شاب شيئاً آخر غير الإنصات ربما يكون قد ارتكب خطأً كبيراً .

وكانت أشهر الاجتماعات تعقد ، حوالي 1906 ، عند الشريف مولاي

---

(27) ما زالت هذه البيانات صالحة للفترة الحالية . فالطلبة ، سواء منهم طلبة القرويين والمؤسسات العصرية ، أكثر عدداً ، ودائرة الموسرين المثقفين اتسعت أكثر ، لكن بأبعاد ما زالت بعد ضعيفة . ولن يكون الأمر كذلك في آخر هذا القرن ، لأن تطور التعليم والصحافة والإذاعة سيوتي أكله قريباً .

28) المرجع المذكور ، ص.374 وما بعدها .

إدريس بن عبد الهادي ؛ وكان من ضيوفه المعتادين منشد للشعر الملحون (شيخ الكلام) هو الحاج إدريس الغرباوي ، وشريف فيلالي ، هو مولاي علي الملقب « سرواله » ، لأنه كان يترك سرواله دائماً يسقط على رجليه، وكاتب مخزني ، هو الحاج محمد الكردودي ، وشيخ تجاوز عمره المائة ، هو الحاج الحسين مبارك ، وتاجر ثري هو مولاي علي الكتيري . تُعزف الموسيقى في هذه الاجتماعات ، وتُنشد الأشعار وتدور المحادثة حول موضوعات مختلفة[29] .

وكان بعض الملوك يعجبهم أن يجمعوا حولهم الأدباء وأن يخففوا عنهم من هموم الحكم بدراسة المؤلفات الفكرية ؛ وهكذا كان مولاي الحسن يحب قراءة **صحيح البخاري** بصحبة أحد قضاة مكناس ، هو الحاج أحمد بن سودة[30]

وكان ينقص هذه الحياة الفكرية الاتصال مع الخارج . فقد كان أحد الحجاج يحمل معه أحياناً من الشرق بعض الأفكار الجديدة ، لكن لانتقادها على العموم. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما رجع الشيخ الطيب بن كيران من الأراضي المقدسة، كتب نقداً للمذهب الوهابي؛ وفي أواخر سني القرن التاسع عشر ، قام الفقيه سيدي المهدي الوزاني بنفس الشيء بخصوص مذهب الشيخ عبده .

حقاً إن بعض الصحف والمجلات الشرقية كانت تصل إلى فاس ، **كالمؤيد والأهرام** من القاهرة ، وكان للأولى نحو خمسين مشتركاً بفاس ، **والوطن** من بيروت ، ومجلة **الشرق** التي كان ينشرها يسوعيو بيروت[31] . وكانت تقرأ هذه المنشورات بصفة خاصة من أجل الأخبار السياسية التي كانت

---

(29) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.334.

(30) نفس المرجع .

(31) نفس المرجع ، ص.369.

تعطيها . ولا يمكن القول إنها أثرت في شيء على الفكر الفاسي[32] .

كل هذا يبدو ـ لأول وهلة ـ تافهاً جداً . وهو كذلك فعلاً إذا حاولنا القيام بمقارنات مع الغرب ، لا حتى غرب القرن العشرين بغليانه الفكري المذهل ، ولكن بغرب القرن الخامس عشر ، مثلاً ، الذي يعطي انطباع عصر توقف على الأقل فيما يخص الأدب الفرنسي ؛ وهو كذلك أيضاً إذا فكرنا في الشرق العربي في بداية القرن العشرين المتحمس كله بنهضته ، الغني بالشعراء والمترجمين والكتاب والمجدّدين .

لكنه من عدم الإنصاف النظر إلى فاس من هذه الزاوية . فإذا ما أردنا أن ننظر إلى الأشياء كما يجب ، ينبغي أن نتذكر المغرب الهائل الغير المثقف في مطلع قرننا : فإنه لا يعيش روحياً إلّا من عادة شفوية تمتزج فيها جميع أنواع العناصر ، وهي اعتقادات محلية لما قبل الإسلام ، وعادات اجتماعية ثابتة ، وبقايا من الإسلام متفاوتة التشويه حسب النواحي . فالمبدأ الوحيد لوحدة هذه البلاد الكبرى المتباينة والمتجزئة ، هو الإسلام الذي يذكي شعلته فقهاء القرى أو القبائل . إن هؤلاء المفكرين البسطاء قد حصلوا بفاس على زادهم الضعيف ، أو أخذوه عن أجدادهم المتعلمين بفاس . وكلما حاولنا ارتقاء سلسلة التكوين لمعلمي القرآن ، والعدول ، والصالحين الذين يحافظون على الإسلام وحضارته في البوادي المغربية ، كلما كنا أكثر حظاً في العثور إن عاجلاً أو آجلاً على حلقة صنعت بجامعة القرويين .

ومن وجهة النظر هذه ، فإن الحياة الفكرية بفاس تكتسب قيمة أخرى تماماً . نعم ، لم يعد بعدُ إشعاع الحاضرة الإدريسية ، في بداية القرن العشرين ، ما كان عليه أحياناً ، إبان كانت فاس دماغ إمبراطوريات قوية يمتد

---

(32) ليس الأمر كذلك اليوم . فالإقبال كبير على الجرائد والمجلات والكتب الشرقية بفاس : تصل جل المجلات الشرقيه إلى خزانة جامعة القرويين ، ويقبل الطلبة كثيراً على مطالعتها ، وتساهم السينما والراديو في تقوية اهتمام الفاسيين بأشياء الشرق العربي .

سلطانها على إفريقيا الشمالية كلها وجنوب إسبانيا . ففي العهد الذي يهمنا كان هناك أربعة جزائريين فقط يتابعون دروس الجامعة ، وهم وحدهم الأجانب الذين يمكن العثور عليهم . لكن إذا كان الأجانب ينقطعون ، فإن المغاربة ما زالوا يفدون من كل أرجاء المملكة الشريفة ، سواء من سوس أو من الريف أو من السهول الأطلنطيقية أو تافيلالت ، أو من طنجة وتطوان ، أو من تازا ومراكش . إن فاسا بفضل علمائها وإشعاعها الفكري ، لم تصل إلى شمال المغرب ، ومُثَلَّث تازا ـ طنجة ـ الرباط فحسب ، ولكن وصلت فعلاً إلى المغرب بأسره . ألسنا نرى هكذا أن فاساً تلوح كأنها عامل للوحدة الفكرية في بلاد مقسمة إلى أقصى حد ؟ ومن جراء ذلك تحتفظ في أعين السكان المدنيين وحتى القرويين بحظوة عظيمة ، مرموزٍ إليها ـ إن صح التعبير ـ بالامتياز المعترف به لفقهائها في منح السلطان الجديد الذي يعتلي العرش نوعاً من التنصيب ، وإمداده عند الاقتضاء بسند آرائهم المأذون لها . لأن الجامعة لا تقتصر على تكوين التلاميذ ، بل هي أيضاً مؤتمنة على الحقيقة الدينية ، ومكلفة بالسهر على احترام مبادئها . وبذلك تكتسب سلطة حقيقية .

تلك هي العناصر المتعلقة بالقيمة الفكرية لفاس ، وليست هي الوحيدة . ومهما أمكن أن تظهر لنا هذه الحياة الفكرية ضيقة نحن الأوروبيين القلقين دوماً والمتحركين ، فإن لها على الأقل الفضل في وجودها ببلاد يكون فيها ذلك الشيء نادراً . مما لا شك فيه أن فاساً عرفت كيف تحتفظ في المغرب بتذوق أو على الأقل باحترام أشياء الفكر . ذلك أن مفهوم الثقافة لم يَضِع بها قطّ ، وتبرهن منشآت مثل معامل الطباعة الحجرية بفاس على أنها لم تكن لفظة وهمية ، وأنها ما زالت تستجيب لحاجة ما ، إذ كانت تغذي باستمرار صناعة صغيرة . نعم ، إنها ثقافة جافة شيئاً مّا ، مكونة قبل كل شيء من تحليلات ومناقشات فقهية ، تتفوق فيها بكثير الذاكرة والمؤهلات المنطقية للفكر عل المخيلة والحساسية ، لكنها ثقافة عميقة وفعالة تمنح للفرد في مجال الفكر نفس الموقف الذي كانت تمنحه له القاعدة في ميدان الأخلاق . ربما

كانت الشجرة ضامرة هزيلة المظهر ، لكن ماء الحياة يجري فيها دوماً ، مليئاً بإمكانيات العمل. وحتى تظهر ظروف ملائمة، فإن العقلانية الفاسية ستخضرُّ من جديد ويساعدها الحظ في إعطاء ثمار جميلة ، لأنها ستنطلق من أرومة متينة .

ما كانت هذه الظروف لتأتي بعد ، وإن كانت فاس قد دخلت قبلُ في دائرة العالم الحديث بفضل اقتصادها . كان هناك تباين واضح ، حوالي 1910 ، بين الحياة الفكرية بفاس ونشاطها الاقتصادي . لقد بدأ هذا الأخير يتطور قبل إقامة الحماية الفرنسية بكثير : فأصبحت المبادلات مع أوروبا وعدة بلدان إفريقية متكاثرة منتظمة ، والطرق الغربية في الأداء والقرض متأقلمة ، والعملة الأوروبية ذاتها جارية . وعلى الصعيد الفكري بقيت فاس بعكس ذلك منكمشة تماماً على نفسها ، وفية بإصرار لتقاليد كانت مثمرة ودامت موقرة ، لكنها كانت مفتقرة لهواء جديد . ولم يكن مثل عدم التوازن هذا بين الاقتصاد والفكر ليدوم ؛ فكان من المحتوم أن تدخل المدينة الإدريسية سريعاً جداً في تصال مع الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي الشرقي ، ولو تحت تأثير تجارها والحاجيات الجديدة التي كانوا يخلقونها بين مواطنيهم .

7

الكتاب السابع

آداب فاس

إن جميع المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن فاس أُذهلوا من شدة نظمها الاجتماعية والأسروية ، الشيء الذي حدا بهم إلى أن يتناولوا ، بالتفصيل في غالب الأحيان ، آداباً كانت تظهر لهم طريفة . ذلك ما حصل لليون الإفريقي الذي خصص عروضاً مطولة للزفاف والعادات الأهلية للأرستوقراطية الفاسية ؛ وفي فترة أقرب إلينا ، ألف الأخوان طارو مجلداً كاملاً ، لا يتسع المجال هنا لمناقشة استنتاجاتهما العامة فيه ، مخصصاً لأسلوب معيشة أهل فاس .

أما أنا ، فسأحاول تركيب عدد كثير من العناصر المشتتة مضيفاً إليها ، عند الاقتضاء ، ثمرة عشر سنوات من الملاحظات الشخصية ومن اتصالات تكاد تكون يومية .

1/7

الفصل الأول

الثروات والطبقات الاجتماعية

من المحتم أن تلعب الثروات دوراً هاماً في الصرح الاجتماعي بفاس ، نظراً لامتداد الحياة الاقتصادية . إلّا أنها ليست العامل الوحيد للتمييز ، حيث إن الدين والمعرفة المرتبطين به كل الارتباط ، يحتلان مكانة من الدرجة الأولى في حياة الحاضرة ويشاركان من جهتهما في تشكيل النخبة الفاسية . يمكن التفكير في أن مزاولة الوظائف العمومية هو الآخر وسيلة للنجاح ، لكن سرعان ما نتحقق بأن خدام المخزن الفاسيين ، وعلى الأقل في أواخر القرن التاسع عشر ، كانوا كلهم تقريباً ، إما تجاراً يحتاج السلطان جيداً إلى تجربتهم ، وخاصة في علاقاته مع أوروبا ، أو فقهاء تعتمد الحكومة على كفاءتهم في التحرير وتبحرهم في الفقه الإسلامي . فلا يمكن إذن أن نذكر وجود طبقة مخزنية متميزة تماماً بفاس ، اللهم إلا من بين أهل فاس الجديد ؛ لكن الأمر إذ ذاك يتعلق بحاضرة من جهة ، وبعالم على حدة ، وبسواد الشعب عامة من أصل قروي في أغلب الأحيان ، وبخدام أكثر منهم مساعدين ، ليسوا حقاً في عداد المجتمع الفاسي .

نوع الثروات : ـ يكاد يكون الغني بفاس من أصل تجاري . فإذا تركنا جانباً بعض مجموعات من الشرفاء ، كشرفاء وزان الذين كانوا ينتفعون ، أباً عن جد ، بأوقاف (عقارات أو أراض زراعية) ، أمكن القول إن جميع الأسر المثرية بالمدينة كانت تقريباً مدينة برخائها للتجارة . وبما أن التوظيفات

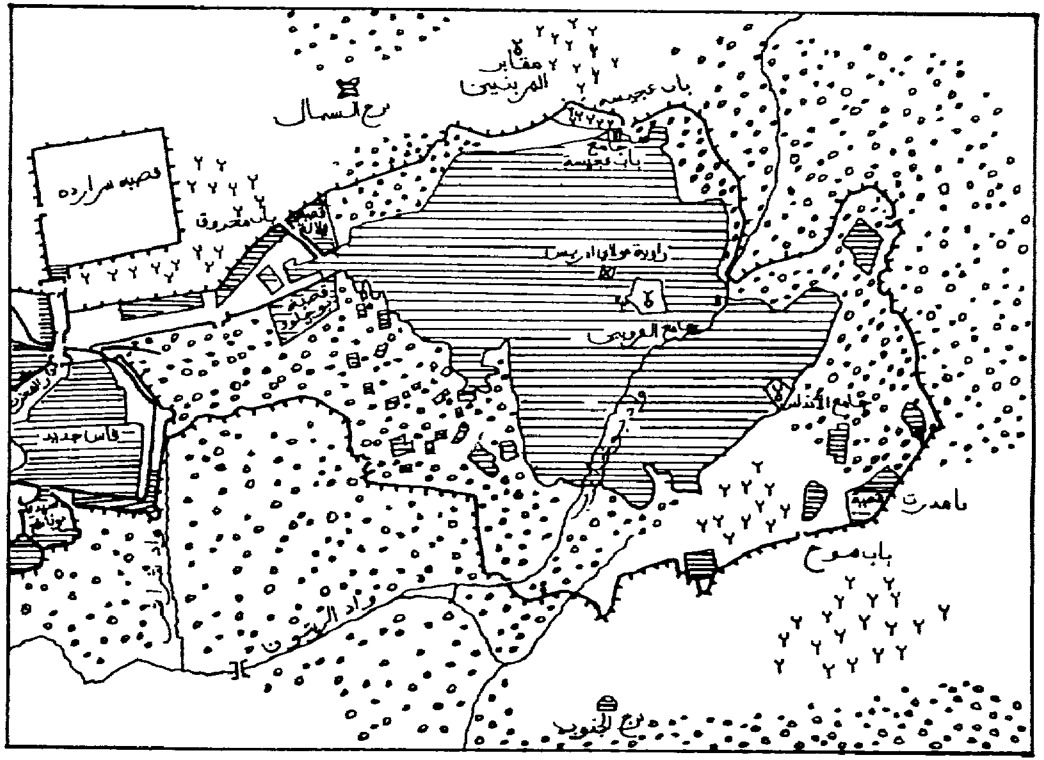
المنقولة كانت محدودة قليلة الثبات مكروهة في نظر الشريعةالإسلامية،فإن جل الثروات المشكّلة هكذا كانت تُستثمر في العقارات . وبمجرد ما كان أحد التجار يحصل على أرباح كافية ، يشتري بقعة أرضية ليشيد عليها داراً . وهكذا ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، شرع آل المقري ، والتازي ، وبنسليمان ، وبنيس ، ونقتصر على ذكر أشهرهم ، في تشييد منازل هامة في حي الدوح ، حيث كانت توجد في ذلك العهد عدة قطع أرضية للبناء . كانوا يبدؤون بتشييد دار سكنية ، أفسح وأجمل من التي كانوا يعيشون فيها سابقاً[1]، ثم إذا ما أضيفت ثروات أخرى إلى الأولى، كانوا يشترون أو يبنون عقارات للإيجار ، كالدكاكين ، والفنادق ، والمعامل ، والمرابط ، والاصطبلات ، والدور السكنية .

كما كانوا يشترون البساتين المسقية ، ليزرعوا فيها الخضر ، والأشجار المثمرة ، والأزهار ، وتمكنهم من قضاء بضع ساعات أو بضعة أيام مع أفراد عائلتهم ، إن ساعد الفصل على ذلك . وكان معظم هذه البساتين يقع داخل الأسوار ، في اتجاه الدائرة[2] ؛ وكان أجملها ، لكونها مسقية أحسن ، هي الواقعة في القسم الجنوبي - الغربي لحي العيون والجانب الغربي لحي رأس الجنان والقلقليين ؛ وكانت الأخرى تحد شمالاً الطالعة والشرابليين ، محتلة كل القسم الشمالي - الشرقي لفندق اليهودي ، المسمى الزنجفور ، والقسم الشرقي للبليدة ، بين واد زرهون وواد بوخرارب . ولم يكن الحي الحالي للفخارين ، على الضفة اليمنى ، سوى بساتين ، من باب سيدي بوجيدة إلى تامدرت ، مروراً بكْرواوة : ولم يكن يقطع خضرة بهذا القدر إلا وجود المعامل والأفران . وكانت أيضاً كلها بساتين الفضاءات العارية الممتدة بين جامع الأندلس وباب فتوح ، شرقي روضة باب الحمراء ، كلها بساتين أيضاً ، وبالتالي كل القسم الجنوبي - الغربي للمخفية كان هو أيضاً مكسواً بالخضرة .

---

(1) كانوا يحتفظون أحياناً بعقارين ، أحدهما للإقامة في الصيف ، والآخرة للإقامة في الشتاء .

(2) انظر الرسم رقم 31.



الرسم 31

بساتين فاس

(حسب الرسم الإعدادي للضابط لاراس ، 1905)

والحاصل، أنه كانت لجميع الأحياء الدائرية منطقتها الخاصة بالبساتين، ما عدا زقاق الرمان الذي كانت بجانبه الشمالي مقبرة سيدي علي المزالي ومعاصر وحظائر ، وحي واد الزيتون الذي كانت تمتد فيه مقبرة باب الحمراء الواسعة وبعض القطع الأرضية الناتئة الحجر .

كانت البساتين تمتد أيضاً خارج الأسوار ، مغطية المنطقة المكتنفة جنوباً بوادي الزيتون وشمالاً بالمدينة ، من باب جِيَف إلى باب جديد ؛ كما كانت موجودة في وادي بوفكران في اتجاه صفرو ، على الربى الجنوبية وراء مقابر ومصلى الباشا ، على طول منحدر وادي فاس إلى سبو ، وفي منحدر وادي الملاح ، بين فاس وزالاغ ؛ وأخيراً في الوادي الصغير المحاذي للأسوار شمالاً إلى عين أزليطن ، انطلاقاً من باب محروق .

كانت هذه البساتين تحمل أسماء مختلفة حسب نوعها الخاص : فالبستان المسقي يسمى عرصة ، والبستان الغير المسقي يسمى جناناً[3] والبساتين الواقعة في جانب النهر تدعى سهيلات ؛ وأخيراً يسمى البستان الخاص بأسره رويضاً (تصغير روض)[4] وغالباً ما كان يطلق على مقبرة .

وعلاوة على بساتين المدينة أو الضاحية ، كان الفاسيون يملكون عدة أراض زراعية يستثمرونها بواسطة مزارعين ، وكانت ممتلكاتهم عديدة خاصة في لمطة ، وذلك منذ عهد طويل جداً ، حسب ليون الإفريقي[5] .

---

(3) حسب كولان (مراكش ، ص. 234) فإن لفظة عرصة (ج عراصي) معناها بستان صغير ، وجنان (ج جنانات) معناه بستان كبير .

(4) مارتان ، (الكدّاں ، ص. 439 و639).

(5) جزء 2 ، ص 196 . انظر أيضاً أوبان ، المرجع المذكور ، ص.388 : ممّا يدل على الارتباط الوثيق بين لمطة وفاس كون سكان هذه الناحية غير مجموعين ضمن قبيلة قائمة بذاتها ، ولكنها خاضعة لعامل فاس .

لم يحدّ امتداد الملكية الفاسية سوى عدم الأمن . وقد تزايدت بكثير ، منذ الحماية ، في جميع الجهات ، وحتى في الجبل الربري .

كانت هذه العقارات على اختلاف أنواعها ، مقسمة عامة إلى أقصى حد ، بسبب العدد الكثير من التركات التي بقيت على الشياع . وهذه العادة التي اتُّخذت في الأصل لصيانة حقوق القاصرين ، أصبحت راسخة جداً في الإسلام كله ، وغالباً ما كانت تقرُّها مؤسسة الأحباس الخاصة وتمنع نقل ملكية العقار المعالج بهذه الكيفية . وحتى بدون أحباس كان الشياع يبطىء كثيراً المعاملات العقارية ويتحول الى وزن ثقيل يسحب بمشقة(6) .

كانت العقارات الحضرية ذات دخل حسن ، لأن المساحات المبنية تكاد لا تكفي لحاجيات المدينة ؛ وقلما كانت المحلات السكنية أو المحلات التجارية والصناعية تبقى شاغرة ، فكانت تكتري بثمن مناسب .

وكانت البساتين أقل إنتاجاً مما كان يتصور ، نظراً لغزارة الماء ، لأن جل المالكين الفاسيين كانوا يريدون أن يكسبوا أشجاراً يتركونها تنمو دون

---

(6) إليكم ما كتبه ميشو- بلّير في هذا الصدد (وصف فاس ، ص.288) :

« إن أولاد الحاج الطاهر يستغلون بانفسهم الفندق الذي بقي على الشياع بينهم مثل تركتهم كلها ؛ وهذه حالة كثيراً ما تعترض بفاس ، تارة لتلافي تشتيت العقارات الأبوية ، خاصة إذا كان أحد الورثة قليل الغنى ليشتري من جديد أسهم الآخرين فيكون لا بد من البيع للأجانب ، وتارة لأن كل الأملاك أو بعضها قد أوقفها الهالك ، لمنع بيعها والاحتفاظ بعقارات الأسرة سالمة .

وتوجد هذه العقارات في ملك عدد من الورثة يتزايدون في كل جيل ، بحيث ينتهي بهم الأمر إلى أن كل واحد منهم لا يَسْتَلِمُ سوى حصة لا يعتدّ بها . وإن تقسيم الكراءات ، وقد عقّده وجود ورثة في مختلف الدرجات يستحق كل واحد منهم أسهما متفاوتة القيمة ، يفضي إلى مناقشات غالباً ما تنتهي إلى معارك حقيقية ، وإلى دعاوي لا تنتهي هي الأخرى أبداً . يمثل الإرث كله بمثقال واحد ، ويتم تقسيم هذا الإرث حسب تجزآت المثقال الذي يساوي 10 أوقيات ، وكل أوقية 4 موزونات ، وكل موزونة 6 فلوس ، أي 240 فلوس للمثقال الواحد ، الأمر الذي يمكّن من تقسيم إرث الى 240 سهماً وإعطاء كل واحد ما يستحقه تبعاً لتجزآت المثقال . يذهب كل مساء جميع ورثة الحاج الطاهر بناني أو ممثلوهم إلى الفندق الذي يملكونه والذي يحرسه « جلّاس » يقبض واجبات الفندق . تقتطع أجرة هذا الحارس من المبلغ الإجمالي ويقسم الباقي على جميع الورثة . وبالنسبة للكراءات الشهرية ، فإن المداخيل تقسم كل شهر » .

تشذيب ، فتخنق النباتات الواقعة تحتها ، إذ كانت في الغالب بساتين للتنزه أكثر منها للدخل . وفي الأماكن التي يحدد فيها عدد الأشجار الكبيرة والصغيرة كانت البقول أو غيرها من النباتات كالكتان والقنب[7] والبطيخ والقرع[8] تنمو بغزارة . وكان المدنيون يسهرون بأنفسهم على استغلال هذه البساتين ، مستعملين اليد العاملة الريفية لجماعة البستانيين (جناينية)[9] .

وبخصوص الأراضي الزراعية البعيدة عن المدينة ، كان أهل فاس يتعاملون مع مزارعين بالخمس (خمّاس ، ج . خمّاسة) وغالباً ما كانت تنشب بينهم خلافات . كما أنهم كانوا أحياناً يعملون بالمشاركة الفلاحية مع فلاحين أثرياء من الناحية . ولم يكن لبعض سكان فاس ، خاصة في أحياء العدوة ، انشغال آخر غير تدبير ممتلكاتهم التي كانوا يقضون فيها قسطاً كبيراً من وقتهم ، مهتمين بالنفع الذي يكسبونه من ملكهم أكثر من اهتمامهم بالتقنية الفلاحية ، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان المدن في العالم . لم يكن أحد منهم يقطن قط في أراضيه ، فلا يزيدون على الإقامة بها بضعة أيام في الربيع مع أفراد عائلتهم إذا كانت القبائل هادئة ، أو الذهاب إليها مدة يومين أو ثلاثة أيام لحاجة ماسة . كانوا يكرهون السكنى خارج فاس ولا يعملون مع ذلك شيئاً ليكون مقامهم أكثر راحة : فبقدر ما كانوا يحبون المنازل الفسيحة الكثيرة الترفيه بفاس ، بقدر ما كانوا يقتصرون في المباني التي يشيدونها في ممتلكاتهم على أبسط ما يمكن[10] .

---

(7) روني - لوكلير ، المغرب الشمالي - ص . 159 ؛ وميشو - بلّير ، إصلاح إدريسي، ص. 407.

(8) مارتان ، الكذّان ، ص. 624.

(9) بحث رقم 161 ؛ وريكار ، رقم 11 . كان يفصل في النزاعات المتعلقة بالسقي نحو ستة خبراء فلاحين (شيوخ الفلاحة) ، وكان على رأسهم قائد يساعده تقني مكلف بتوزيع الماء (مول الواد) .

(10) لقد تغيرت هذه العقلية منذ الحماية ؛ فقد بنى العديد من أهل فاس دوراً عصرية خارج فاس ، لا في محطات صيفية فقط مثل صفرو ، وإيموزار كندر ، وإفران ، ولكن في وسط البادية ، في سايس ولمطة ، أو في نواحي واد إنّاون ، وواد اللبن ، شرقي المدينة .

كانت التوظيفات العقارية تعتبر محقّقة وذات دخل منتظم ، لكنها لم تكن تعطي أرباحاً ضخمة في فترة الاستقرار الكبير للعقار ، كما لم تكن قابلة للمضاربة . ولهذا فإن الفاسيين الأغنياء ، الذين كانوا بطبيعتهم مغامرين ، لم يكونوا يستثمرون كافة رؤوس أموالهم في العقارات . لم تجتذبهم الصناعة التي ـ كما قلنا ـ[11] تغذي صاحبها ولا تغنيه ، ولم يزد بعضهم على توظيف قسط من المال في معصرة أو معمل صابون : أما باقي الصناعات فكانت تترك تقريباً للصناع .

بقيت إذن التجارة بجميع أشكالها : تصدير ، ولا سيما استيراد شتى المواد بدون أي اختصاص ، والشركة مع أصحاب دكاكين أو تجار ما زالت ثروتهم قليلة ، والمضاربة ذات الطابع المحلي حول المواد الغذائية والمواد الأولية الصناعية الغير المنتظمة الوصول كمواد الدباغة ، وعمليات الصرف ، وتجارة الفضة أخيراً رغم التعليمات القرآنية التي كانوا يعملون على اتباعها حرفياً[12] .

كانت هذه العمليات تحتفظ بطابع شخصي متميز جداً ، لأن فاسا لم تعرف نظام الشركات المجهولة الاسم ؛ والمشاريع الكبرى المشتركة والاحتكارات كان الرأسماليون يتصرفون فيها بنظام مشتت ، يعمل كل واحد لصالحه ، دون تشكيل تلك المحالفات الظاهرة أو الخفية التي تميز العالم الغربي للتجارة . كانت الجمعيات التجارية موجودة حقاً ، لكنها مقتصرة على اثنين أو ثلاثة من الأقارب أو الأصدقاء ، أو مبرمة بين فاسيين مهاجرين وفاسيين مستقرين بفاس ، كانت تلعب دوراً ثانوياً لا أساسياً ، في اقتصاد المدينة .

إن وجود أسر غنية جداً بفاس أمرٌ لا جدال فيه ؛ ومن الصعب وضع قائمة لها مع انعدام بيانات واضحة في إمكان المصلحة الطبوغرافيا وسجلات

---

(11) أنظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 3 ص.359.

(12) أنظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 6 ص. 448 وما بعدها .

الضرائب أن تعطيها في بلدان أخرى ؛ ويستحيل تماماً ، لنفس الأسباب ، الإدلاء بأرقام لا يمكن أن تزود بنقط مفيدة للمقارنة مع أوروبا ، من جراء التنوع البالغ لطرق المعيشة . إلا أنه مع ذلك يمكن التوضيح بعدم وجود تلك الثروات العملاقة الخيالية ، مثل التي تنسب إلى بعض الأمراء الهنود، وإنّما توجد ثروات عديدة (يستحيل تحديدها بالضبط) مماثلة جداً لثروات البرجوازية الفرنسية العليا لنفس الفترة ، من حيث التسهيلات المعاشية التي نقدمها . تأتي بعد ذلك عدة أسر تملك دوراً بالمدينة وخداماً كثيرين ، وتعيش في رخاء ، تنتمي كلها إلى ما يمكن أن نسميه بالبرجوازية ؛ لكن برجوازية فاس كانت أوسع من ذلك ، متضمنة أيضاً المثقفين ، ولم يكونوا كلهم أغنياء ، وكتاب المخزن أو الأحباس ، وصناعاً مثرين أو مصاهرين لأفضل أسر المدينة .

والحاصل أن الطبقية الاجتماعية لم ترتكز فحسب وبشدة على الغني ، وإنما كانت روابط الأسرة ، والثقافة ، والوظيفة الاجتماعية يُحسب لها حسابها أيضاً ، لا بقدر الصفة الدينية مع ذلك .

الشرفـــاء : ـ وفعلاً كان أحفاد الرسول (شريف، ج. شرفاء) يتمتعون على العموم بتقدير كبير جداً . ويجب هنا أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار عدة فوارق دقيقة . حقاً إن الشريف كان في حد ذاته موضوع إجلال ، لكن منهم الغني والفقير ، وينتمي بعضهم إلى أُسر أكثر شهرة من غيرها ، وبالتالي فإن بعضهم لا محالة قد يسترعون الانتباه بفضل شخصيتهم القوية ، ويتمتعون جميعاً بحُظوة إلهية خاصة ، وبنوع من التأثير خاص بهم وحدهم ، يورث أباً عن جد ، يسمى بالبركة ؛ ويمكن لهذه البركة أن تنعكس على كل من يقترب من الشخص المنتفع بها بنشر جو مساعد حولها يجعل الحياة الدنيوية أسهل ويذلل طريق السلامة ؛ ومن هناك النفوذ الأكيد الذي يتمتع به الشرفاء بفاس ،

(13) انظر ليڤي ـ بروڤنصال مادة شرفاء ، في دائرة المعارف الإسلامية ،جزء 4 ، ص . 401 ؛ وفان أراندوك، مادة شريف ، نفس المرجع ، ص. 336-349.

وكذلك في المغرب كله .

كان للشرفاء ، علاوة على هذا النفوذ المعنوي ، مزية حكم خصوصي يجعل منهم أشخاصاً على حدة شيئاً مّا في المجتمع المغربي .

كانوا موزعين إلى عدة مجموعات حسب أصلهم ، وتتميز قبل كل شيء من بينهم طبقتان كبيرتان : أعقاب الحسن من سلالة مولاي إدريس ، وأعقاب الحسين . ينقسم الأولون إلى أسر عديدة : الأدارسة بمعنى الكلمة ، أي الدباغيون ، والعلميون ، والكتانيون ، والوزانيون ، والعلويون[14] . وينقسم أعقاب الحسين وهم أقل عدداً ، إلى فرعين اثنين : الصقليون ، ويسمون هكذا لأنهم جاؤوا من صقلية بعد أن أقاموا بالأندلس[15] ، والعراقيون ، وأصلهم من بلاد ما بين النهرين .

كان على رأس كل من هذين المجموعتين رئيس أو ممثل يسمى المزوار[16]، يعينه نظراؤه ويوافق عليه المخزن، كان صلة وصل بين الشرفاء والسلطات ، خاصة فيما يتعلق بتسليم وتوزيع الهدايا الممنوحة لهم من طرف المخزن ، أو بالأملاك التي كان يخصص لهم ريعها . وفعلاً ، فإن العادة اقتضت أن تساعد الأمة الإسلامية هؤلاء الأشخاص الصالحين على أن يعيشوا عيشة راضية ؛ لذلك كان السلطان يقدم هدايا ، على الأقل للأدارسة ، بمناسبة الأعياد الكبرى ، ويمنح حتى معاشاتٍ لبعضهم . ومن جهة أخرى

---

(14) أنظر عن الشرفاء الأدارسة ، الذين ينفرعون بدورهم إلى طاهريين ، وعمرانيين إلخ . سالمون ، **الشرفاء الأدارسة** وابن الطيب القادري ، **الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني** . وانظر عن الشرفاء الفيلاليين ، سالمون ، **الشرفاء الفيلاليون** .

(15) سالمون ، **الشرفاء الفيلاليون** ، ص.115.

(16) كلمة من أصل بربري ، أنظر عنها ليفي ـ بروفنصال مادة مزوار ، في **دائرة المعارف الإسلامية** ، جزء 3 ص. 616 . كان رئيس الشرفاء الفيلاليين أي العلويين ، يحمل لقب نقيب . وكان على رأس الشرفاء الأدارسة مقدم ليس شريفاً ، وكان الشرفاء الأجانب (وهم جزائريون بخاصة) تحت سلطة شريف اسمه بكّراوي ، أصله من فيحيج (أوبان ، المرجع المذكور ، ص 333) .

كانت تخصص لهم مداخيل بعض الأملاك الدينية ، ويتفق أحياناً أن يخصص السلطان لهذه المجموعة أو تلك فتوحات هذا الضريح أو ذاك عندما يصبح لا وارث له . وهكذا فإن الهدايا المقدمة لسيدي أحمد الشاوي التي كانت تعد من أغزر الهدايا بفاس ، كانت تخصص للشرفاء القادريين[17] .

وكان الشرفاء المرموقون أكثر من بين جميع شرفاء فاس هم الشرفاء الأدارسة ؛ إليهم كانت تؤول الهبات نقداً والفتوحات عيناً (شموع وأضحيات) التي كان أهل فاس أو أهل البادية يحملونها بكثرة إلى ضريح ولي المدينة الصالح . كان يدبر هذه الأموال ويوزعها رئيس المجموعة الإدريسية الذي كان يختار ، وهذا شيء غريب ، بالتناوب من بين أسرتين أندلسيتي الأصل ، لكن بدون رابطة شرف ، هما أولاد الرامي[18] وأولاد أكومي . وكان للمقدم الرسمي دائماً مساعد شبه رسمي ، من الأسرة الأخرى[19] .

ومهما كان الفرع الذي ينتمي إليه الشرفاء ، فإنهم كانوا معفين من كل ضريبة ، وحتى من واجبات السوق ، وهي مزية كانوا يحرصون عليها كثيراً ؛ كما كانوا يتمتعون بحرية كبيرة ، غير أن العادة كانت تحرمهم من معظم الوظائف العمومية ، ما عدا وظائف العدول وكتاب المخزن . وكان السلطان يلجأ أحياناً إلى المساعي الحميدة لهذا الشريف أو ذاك في المفاوضات الصعبة ، لأن النفوذ الديني المنوط بشخصهم كان يساعدهم في الغالب على النجاح حيث قد يخيب أي شخص آخر . كما أنهم كانوا يتدخلون في المعاملات بين الخواص ، يتوسطون لتهدئة الخلافات ، أو للمساعدة على عقد الزواج ، وذلك على جميع مستويات السلم الاجتماعي . نرى إذن

---

(17) أوبان ، المرجع المذكور .

(18) كان مقدم مولاي إدريس ، في أوائل القرن التاسع عشر ، هو الحاج إدريس الرامي (علي باي ، المرجع المذكور ، جزء 1 ، ص. 183 وما بعدها) . ولقد تعرفت أيضاً على مقدم يسمى الرامي ، عوضه ابنه ، وهو من قدماء ثانوية مولاي إدريس ، عند موته .

(19) نفس المرجع ، ص. 175-176 . . إن أولاد أكومي يحتفظون دائماً بمفاتيح الضريح ، ويسكن أحدهم حجرة صغيرة قرب الضريح الذين يفتح بابه لزوار الليل ، في مقابل جائزة .

أنهم ، بحكم نسبهم الخاص ، كانوا يقومون بدور محكّمين ومصالحين ، ويؤثرون لا في المدينة فحسب ، ولكن أيضاً في البادية المجاورة كلها ، تأثيراً عميقاً جداً .

العلمـــاء : - كـانت الشخصيات الـدينية ، أي فقهـاء جـامعـة القرويين ، يلعبون دوراً مماثلاً ويتمتعون بنفوذ من نفس الدرجة . لاشك أنهم لم تكن لهم البركة بمعنى الكلمة ، ولكنهم كانوا يملكون العلم الذي يخول هو الآخر نعماً خاصة . إن اكتساب العلم ، (بالمعنى الإسلامي للكلمة) لم يراع من الزاوية الإنسانية المحضة ، والتربوية المحضة ، بل كان يكتسي أيضاً مظهراً تلقينياً « إن العلم - كما يقال عادة بفاس - يؤخذ من فم الرجال لا من أوراق الكتب ».وكما أن التدريب على قواعد طائفة دينة لم يكن ممكناً إلا بواسطة أصحاب سلسلة صوفية ثابتة القواعد ، فكذلك لم يكن التدريب على المواد الإسلامية يخوله إلا علماء معترف بهم شرعاً كورثة لسنة صحيحة . ومن الملاحظ نموذجياً أن المترجمين المغاربة لا يفوتهم أبداً ، عندما يتعرضون لحياة عالم ، أن يذكروا أسماء شيوخه ، ذلك أنه لا يكاد يُتصور وجود متعلم بنفسه ، ولا وجود له تقريباً مع مفهوم العلم كهذا .

لم يكن نفوذ العلماء مقتصراً على دائرة الطلبة والمثقفين ، بل كانت المدينة كلها ، من الحمال إلى العامل وحتى السلطان نفسه ، تُكنُّ لهم احتراماً كبيراً . ألم يكونوا ممتزجين كل الامتزاج بحياة الحاضرة ، بواسطة الفتاوي التي كانوا يقدمونها ، وجميع المفاوضات العمومية أو الخصوصية التي كان يطلب منهم إيضاحات بشأنها ؟

فكان إذن كل من العلماء والشرفاء محكمين بحكم طابعهم الديني ، معدودين بصفتهم هذه من جملة أعيان المدينة ، مهما كانت وضـعية ثروتهم .

المخزنيـــون : - لم يتمتع المخزنيون بنفس التأثير ، لكون سلطتهم زمنية محضة ؛ ولم يكونوا يعتبرون إلاّ كممثلين لسلطة لا يتحملها الفاسيون في

الغالب . كان منهم نوعان بفاس : إما منتمون إلى أسر التجار والعلماء وكانت لهم من هذا الواقع مكانتهم المرموقة في نخبة الحاضرة ، بصرف النظر عن الوظيفة التي كانوا يزاولونها ؛ وإما مجرد موظفين وخدام المخزن ، وأحياناً عبيد قدامى ، أصلهم من فاس الجديد أو غرباء تماماً عن فاس : ولم يكن هؤلاء يتمكنون إلا نادراً من إحراز مكانة في المجتمع الفاسي . كانوا يقتبلونهم فيه عندما لم يكن بد من ذلك ، لكنهم لم يندمجوا فيه حقاً ، وكانوا يفضلون الدوران حول القصر ويعيشون في أغلب الأحيان بفاس الجديد .

لم يكن التجار والعلماء والشرفاء يشكلون طبقة اجتماعية متماسكة كل التماسك ، حيث إن الأصول الأسروية ، ودرجة الثقافة ، والموافقات والمفارقات التقليدية ، كانت تفرقهم وتجعلهم شيعاً تنعقد بينهم أو تنفسخ محالفات حسب الظروف . كان بعض الأدباء المعززين بتقاليد روحية وثقافية طويلة ، كآل الفاسي ، وابن سودة ، ينظرون بشيء من التسامح الساخر إلى كبار التجار الإسلاميين (من أصل إسرائيلي) دون أن يسلموا من حسدهم سراً على نجاحهم الدنيوي . ولا يمكن القول إن فاسا كانت تقاطع هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام منذ عهد قديم ، وبرهنوا بكيفية غير مشبوه فيها عن تشبثهم بالإسلام وساهموا في إشهار المدينة وتعميرها بتجار موسرين ، وعلماء مشهورين ، وموظفين ماهرين ؛ غير أنها كانت تضع بينهم وبين الفاسيين العريقين بعض الفوارق الطفيفة ، تكاد لا تلمس ، لكنها حقيقية فعلاً ولا يمكن أن يعفّي عليها الزمن . كان الفاسيون الحقيقيون يسمونهم البلديين ، ولم تقبل قط أية خطّابة أن تنظم لهم بعض الاحتفالات المخصصة للأرستوقراطية الفاسية[20] .

وأما الأسر الأندلسية ، فكانت محتفظة بالافتخار أنها وارثة لحضارة لامعة ، وبالشعور أنها ساهمت بكيفية واسعة في الإنماء المتناسق للمدينة ،

(20) انظر ما يأتي ، الكتاب 7 الفصل 3 ، ص.519.

لذلك كانت ميالة إلى اعتبار نفسها متفوقة على قوم جاؤوا من جميع جهات المغرب ليستقروا بفاس بعدها ، وينتفعوا بالرفاهية والتهذيب اللذين حملوهما إليها .

وبالرغم على أن هذه التنوعات ، وهذه المنافسات أو هذه الأصناف من الغيرة الكامنة لم يكن لها كبير عاقبة، إلّا أنها كانت تضفي على الحياة الفاسية فوارق دقيقة غير متناهية من الألوان ، لا يدركها سوى الفاسيين القاطنين بالمدينة منذ عهد طويل .

طبقات السكان الأخرى : ـ كان أصحاب الدكاكين ، والصناع ، والموظفون الصغار يشكلون مجموعة متماسكة ، تحت النخبة التي رسمتُ خطوطها الرئيسية منذ قليل . ولما كانوا مقيمين بفاس منذ أجيال فإنهم يعتبرون أنفسهم مواطنين للمدينة ومشبعين بأفضل تقاليدها . وكان هذا السواد من الشعب المتمدن بعمق ، رغماً عن خمول حياته أو عدم ثباتها ، يشكل الاحتياطي الذي كانت النخبة الفاسية تنتظم فيه ثانية بدون انقطاع . وقد ساعدتهم أجيال الأجداد المستقرة بفاس على أن يكتسبوا شيئاً فشيئاً روح اللياقات المحلية ، بحيث إنهم كانوا على أتم الاستعداد ، بعون الله ، ليمثلوا بشرف في جملة المرموقين من الناس .

وكان يعيش تحتهم سكان لم يستقروا بعد كما يجب ، مؤلفون عامة من عناصر قروية ، ورعاع لم يهذبوا بعد كما يجب ، عنيفون أحياناً ، يترددون على الفنادق وأكواخ حي الفخارين ، والمنازل الحقيرة المعلقة عند قدم الأسوار . لم يتوصل الكثير منهم إلى التكيف مع الطبائع المعقدة لهذه الحاضرة الكبرى ، فيذهبون ليضلوا ثانية في قبيلتهم الأصلية ، بعدما عاشوا خاملين شهوراً أو أعواماً في الأحياء الدائرية . واكتسب بعضهم الآخر ، وهم أكثر ليونة ، شيئاً فشيئاً لياقات إخوانهم الجدد الحضريين ، دون أن يقطعوا مع ذلك كل صلة مع الخارج . لكن سرعان ما تمّحي هذه العلاقات ، فتستوعب الحاضرة ، وأوشك أن أقول : « تهضم » مادتها الجديدة ، فيختفي الحديث

العهد في المدينة ، تاركاً الأحياء القريبة من الأبواب إلى نازحين آخرين ؛ فكان الفيلاليون والجبليون يتحولون إلى فاسيين بتطور بطيء يُذكّر بتحولات بعض الأنواع الحية[21] .

وكانت الطبقية الاجتماعية ، بفاس الجديد ، مرتكزة على أسس مختلفة كثيراً ، لم تكن تعتبر فيها لا التجارة ولا العلم ، وحتى إجلال الشرفاء كان يخبو أمام الشريف الحاكم وأمام أسرته، وكان الصرح كله ينتظم سيراً مع المخزن ؛ والدرجة والوظيفة تحددان للأفراد والأسر مكانتهم . فكان أعيان فاس الجديد إذن هم القواد ، سواء كانت مهمتهم مدنية أو عسكرية ؛ كان بعضهم ، وهم من أصل قبائل الناحية ، يحكمون وحدات القوات المسلحة المقيمة حول فاس أو في المدينة المخزنية ؛ ويأتي بعضهم من جميع نواحي المغرب. وكان كثيرون منهم سمر البشرة لم يعرفوا وضعية الأحرار إلا منذ عهد قريب ، الأمر الذي لم يكن يلطّف من عجرفتهم وفظاظتهم البتة .

وكان يتعيش تحتهم جمهور خدام القصر ، وهم مختلفون جداً أصلاً ووضعية ، ثم العسكر الجائع الساذج الذي كان يشكل فائض سكان فاس الجديد .

كانت المدينة كلها موضوعة تحت الشعار المزدوج ، وهو الطاعة للعاهل وحاشيته ، والجهل البسيط المتأصل . فلا شيء يقارن مع الشخصية القوية للمدينة الفاسية القريبة بهذا القدر . هل هما مدينتان ؟ لا بل عالمان مختلفان ؛ فمن جهة مجتمع مدرج الألوان ، غني بالتقاليد ، متشعب إلى أقصى حد ، يشتبك فيه العلم ، والغنى ، والنشأة بطرق كثيرة لتشكل مجموعاً مليئاً بالحيوية ؛ ومن جهة أخرى ، حاضرة إدارية واضحة الطبقية جداً ، يرتكز الكل

---

(21) لقد رسم زميلي السابق وصديقي ف . بونجان بكيفية مشوقة ودقيقة جداً في نفس الوقت ، هذه الأوساط الفاسية الحديثة ، التي ما زالت بعد شبه قروية ، في روايته : **اعترافات إحدى بنات الليل** .

فيها على الإرادة أو نزوات صاحب الأمر والنهي ، وكانت العادة الوحيدة فيها هي الامتثال بدون مناقشة ، وحتى بدون تأمل ، والهدف الوحيد هو اكتساب مرضاة شخصيات أعلى درجة مؤقتاً ، ومن يدري ؟ ربما استرعاء انتباه السلطان نفسه أيضاً في يوم من الأيام .

* * *

العلاقات الاجتماعية : ـ كانت العلاقات بين مختلف الطبقات الاجتماعية للمدينة مطبوعة بطيبة القلب وبالبساطة ، فلا يمكن أن يشب بينها ـ حسب معرفتي على الأقل ـ أي أثر لمعارضة يتعذر إصلاحها ، ولا أية علامة للصراع الطبقي . لا أريد أن أقول إن الوئام كان سائداً دائماً وإن المشاجرات الداخلية كانت غير معروفة ، فالتاريخ يدل على العكس . لكن هذه الحزازات ، وهي وليدة معارضات زائلة ومتقلبة بين جموع لا بين طبقات ، كانت من نوع سياسي لا من نوع اجتماعي .

كان ذلك ناتجاً عن أسباب عدة . فالناس ، قبل كل شيء ، يعرف بعضهم بعضاً ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ ولا شيء أكثر في إذكاء المعارضات بين مجموعات اجتماعية من عدم معرفة بعضهم البعض . وسواء ساعدهم القدر أم لم يساعدهم ، فإنهم كانوا يلتقون جميعاً في المسجد ، أو الفرن ، أو السقاية ، بله وحتى في الحمام . كانت النساء يتجاورن من سطح إلى سطح ويساعدن بعضهن بعضاً ، ويلعب الأطفال جميعاً في الزقاق . لم تكن الخصومات منعدمة بالتأكيد ، ولكن لا بد من أن تكون هناك طبائع متنافرة ومواضيع خلاف طفيفة ما دام يوجد ناس يعيشون جنباً لجنب . لم تكن هذه المشاجرات تتجاوز المرحلة الفردية . وكانت أواصر الأسرة تزيد أكثر في تضامن الفاسيين العميق . لقد تعرفت على أحد أعضاء أسرة من التجار الراسخين تزوجت أخته بإسكاف معوز ، فلم تكن هي ولا زوجها يعاملان بعجرفة ، بل كانا يُقتبلان كما يجب أن يقتبل أحباء أقرباء .

وكانت الآداب الإسلامية تساعد على التناسق الجيد بين الطبقات الاجتماعية : ومن المعلوم أن هذه الآداب في مبدئها قائمة على المساواة العميقة . وكان العمل بفاس مطابقاً للمذهب : فكل ما كان يحصل لهؤلاء أو أولئك كان يعتبر كأثر للمشيئة الربانية : فالله يُعطي يوماً هذا ما قد يعطيه ذاك غداً ، ولا يجب الاستغراب ولا الاستنكار من ذلك ، لأن « الله أعلم » ولا بد للمخلوق أن ينحني أمام أوامره . ومن جهة أخرى ، ففي مقابل النعم التي يمنحها القدر للأغنياء والأقوياء كانت عليهم واجبات : أن يعملوا بحق الفقراء أي حق الله ، بمناسبة الأعياد الشرعية ، والأفراح العائلية،وذلك بإطعام المتسولين والطلبة . كانوا لا يتظاهرون بالاحتفاظ بكل شيء لأنفسهم وحرمان الغير .

لقد رأينا أن الرأسمالية الفاسية لم تكتس الشكل المطلق السلطة واللّافردي الذي اتخذته في مجتمعاتنا العصرية . لم يكن العمال يشعرون بأنهم مستغلون من طرف أقلية شرهة يكدّون لرفاهيتها المفرطة ؛ وقد كان الصناع حينما يستدعون إلى الأفراح العائلية عند الأغنياء الذين يعرفونهم يشاركونهم في رغدهم - إن صح التعبير - ، وكان يخصص في كل زفاف كبير يوم لصغار القوم ، وهكذا كان بذخ البعض يصبح شيئاً مّا بذخ الجميع .

وأخيراً ، كانت المدينة بأسرها ترتكز على هيكل قوي متين من تقاليد تنظّم ، منذ قرون ، الحياة المشتركة وتمتد إلى جميع الطبقات الاجتماعية : لم تكن هناك تقاليد الأغنياء وتقاليد الفقراء ، ولكن حقاً تقاليد فاس يعرفها الجميع ويجتهد في احترامها . وعندما أقول : الجميع ، أعني جميع الأسر المستقرة بفاس المعترف بها بالإجماع كأسر فاسية . كان الغرباء (البرّانيون) أي المياومون ، والفصليون ، وأولئك الذين يحاولون الاستقرار يعيشون شيئاً مّا على هامش سائر السكان ، بعادات خصوصية ومتغيرة حسب أصل الأشخاص . كان أولئك يشكلون ، إذا شئنا ، شبه بروريتاريا يجهلها أهل فاس ولا ينظرون إليها بدون ازدراء . إلاّ أنه لم تنشأ بين هؤلاء القوم أية روح

طبقية : وإذ كانوا قليلين جداً بالنسبة لمجموع الفاسيين ، فإنهم كانوا أيضاً مختلفين كثيراً بعضهم عن بعض حتى يشكلوا كتلة واحدة . ومن جهة أخرى ، كانوا يشكلون جمهوراً غير مستقر جداً : بعضهم يندمج شيئاً فشيئاً ضمن السكان الفاسيين ، وبعضهم يعودون إلى مسقط رأسهم . فكان هؤلاء السكان المتقلبون يتفككون ويتألفون ثانية باستمرار دون أن يستطيعوا أبداً أن يشكلوا مجموعة متماسكة .

2/7

الفصل الثاني

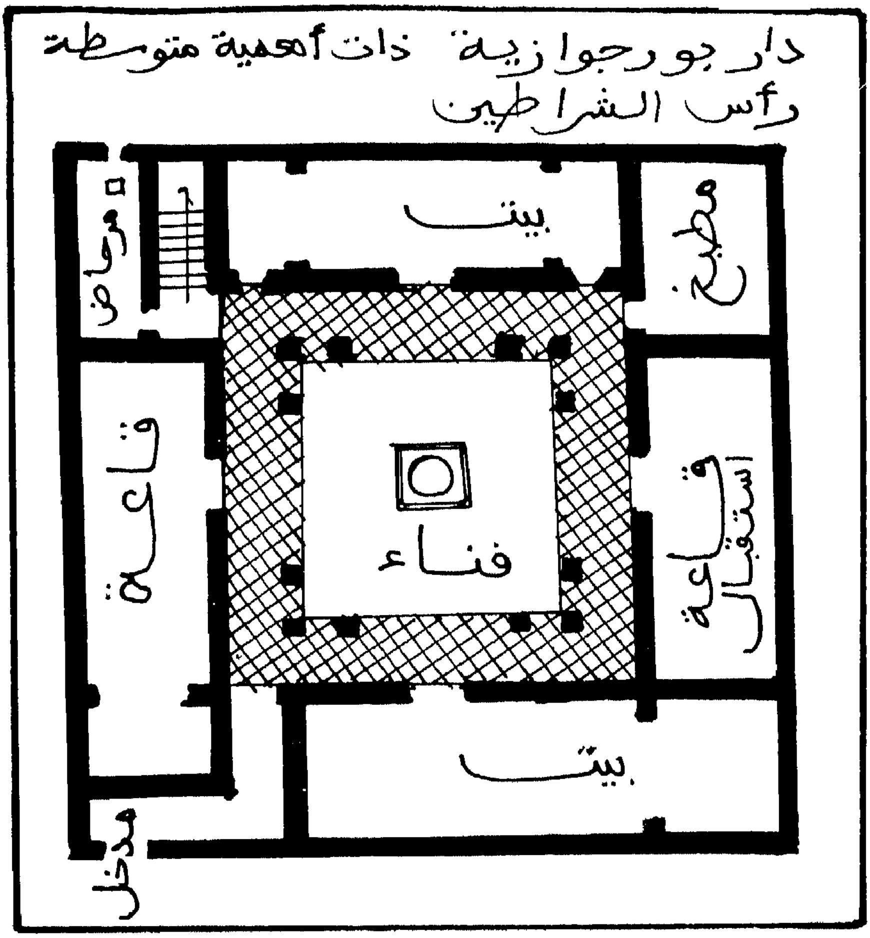
مشهد الحياة العائلية

الـــدار : ـ إن الدار الفاسية على نفس النموذج العام للدور الحضرية في إفريقيا الشمالية كلها : فهي مؤلفة من ثلاث أو أربع حجرات مستطيلة تحيط بصحن مركزي مربع ، مفتوح دائماً تقريباً للهواء الطلق ويجري فيه الماء في فسقيات وسقايات . وهذا التصميم العام قابل لتغيرات حسب ما تكون الدار مُعدة للفقراء أو الأغنياء ، واقعة في وسط المدينة أو في الدائرة ، أو بفاس الجديد .

وإذا اعتبرنا هذه البيانات ، أمكننا التمييز بين ثلاثة نماذج رئيسية لدور فاس ، وهي :

1 ـ دار بدون طابق علوي ، مؤلفة من ثلاث حجرات أو أربع رئيسية ، ومدخل وعدة خلوات تستعمل كمطبخ ومرحاض ، وغرفة المهملات ، حول صحن متفاوت الأبعاد . تلك هي الدار العادية بفاس الجديد وفي الأحياء الفقيرة لدائرة المدينة ؛ وتستعمل غالباً لإسكان أسر عديدة تحتل كل واحدة منها حجرة أو حجرتين .

2 ـ دار ذات طابق أو طابقين (زيادة على السفليّ) منسقة وفق نفس التصميم العام لسابقتها ، لكن غرف المهملات أكثر عدداً بسبب الطبقات ، ويظهر الصحن بها أضيق ، ولو كان فسيحاً بنفس القدر ، بسبب عمقه . ويسلّح



الرسم 32
تصميم طبقة أرضية لدار بالأحياء المركزيّة
(حسب رسم إعدادي لم . جان دولاروزيير)
القسم ذو المربعات مغطى برواق الطبقة العلوية .

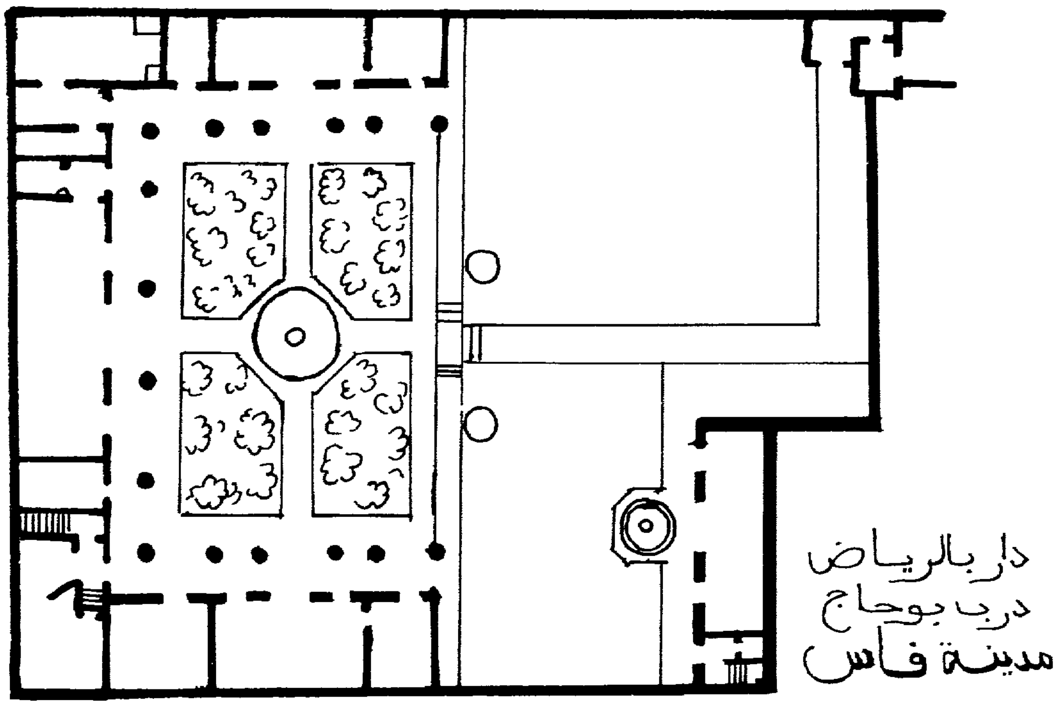
أحياناً من فوق بقضبان الحديد ليمكن من التظليل في الصيف بالأقمشة ويمنع كذلك اللصوص من التسرب عبر السطح . ويتم الاتصال بين حجرات الطوابق بواسطة شرفة داخلية تمتد على واجهات الصحن الأربع . ويكون الدرج دائماً ضيقاً ، منتصباً ، مستقيماً محتلاً أقل مكان ممكن . وهذا النوع من الدور هو الموجود في جميع الأحياء المركزية للمدينة حيث الفراغ قليل ، وثمن الأرض مرتفع جداً .

3 ـ دار غنية مؤلفة أحياناً من عدة صحون أو من صحن واحد فسيح جداً . وقد يحدث غالباً ، في الأحياء الدائرية ، أن يكون هذا الصحن مسدوداً من ثلاث جهات فقط. ويفضي بجهته الرابعة إلى حديقة مسوَّرة (رياض) . وإذا كانت الدار واقعة في منحدر إحدى ربى المدينة أشرف الطابق الأول على منظر شامل عجيب : قليل من المدينة في المستوى الأول ، ثم رُبى مرقطة بالخضرة ، ثم أفق من الجبال الثلجية . ومن المعلوم أن في جميع المنازل الغنية سقايات وأحواضاً ونافورات يضج ماؤ ها ، وقد تحتوي أيضاً على حمام خصوصي يغني النساء عن الخروج للاغتسال[1] .

وسواء كانت كل هذه المباني كبيرة أم صغيرة ، حقيرة أم غنية ، فإن الآجر والحجر والخشب والملاط والجير هي موادها الفقيرة . كانت الدور الفقيرة تكتفي بذلك وببعض مربعات الفخار الغير الملمع لتبليط الصحن والحجرات ؛ وكان الصحن في المنازل المتواضعة يبلط بمربعات صغيرة من الفسيفساء الملونة (زليج) وكذلك غرف السكنى . وكلما ازداد الرخاء ، كثر الزليج ، مثلما يكثرعشباللبلاب في أرضية رطبة : يتسلق الأعمدة ، ويغطي الجدران إلى علو طفل ، ويزخرف السقايات بألوانه ورسومه اللامتناهية ،وتتوج نقوش على الجص أعلى الأعمدة وما فوق الأبواب . وكانت جوائز السقف

---

(1) انظر الرسم 32 و33 . إنني مدين بهاذين الرسمين لصديقي يوحنا دولاروزيير ، مفتش مصلحة التعمير لناحية فاس .



الرسم 33
دار بالرياض في أحد الأحياء الخارجية
(حسب رسم إعدادي لم . حان دولاروزيير)

مصبوغة بألوان ناضرة ، ويوضع الرخام بدل الزليج في الصحون وعتبات الحجرات ، والماء يجري في أحواض منحوتة بفن . وباختصار كان هيكل الآجر والجوائز يزدان بكثير من الزخارف فيشكل مظهراً ساحراً .

وكيفما كانت هذه الديار ، فقد كانت كلها مغطاة بسطوح ، تقضي فيها النساء جزءاً من وقتهن ؛ وكان لابد للوصول إليها من تسلق سلّم وعر غُطي منفذه بشبه محرس مبني بالآجر . وكانت هذه السطوح تزعج المالكين لأن إحكام سدها لا يصمد طويلاً تحت وابل مطر فاس الشديد ؛ لذلك كان لابد من طلائها بالجير مرتين في السنة ، مرة قبل أمطار الخريف ومرة قبل أمطار الربيع .

وكان لجميع ديار فاس مظهر عتيق متجهم إذا شوهدت من خارج : ذلك لأن العادة كانت تقتضي ألاّ يُعاد أبداً طلاء الجدران المطلة على الزقاق ؛ فكانت لذلك تكتسي لوناً أرمد أسمر تزيده دكنة بيوت العنكبوت المنسوجة في زوايا الظل المثقلة بغبار عتيق ؛ ولا توجد نوافذ أيضاً في هذه الجدران المبقعة ، ولا حتى تلك الشبابيك التي تضفي على الأقل نغمة من التنوع على واجهة عارية ؛ وإنما توجد فرجات فقط ، تكاد تكون كوات رمي ، معدة لإعطاء شيء من النور إلى حجرة السلّم والتمكن من مراقبة الزقاق بكيفية خفية . وكان باب الدار المؤلف من مصراع واحد ثقيل مصفحاً بمسامير غليظة سوداء ، وسرعان ما كانت تقلبات الجو تعطيه مظهر شيء قديم كريه .

لم تكن الحجرات تستمد النور إلا من الصحن المركزي ؛ وبديهي أن الواقعة منها في السفلي ، في دار ضيقة الصحن ، كانت مظلمة جداً حتى في الصيف . وكانت كل حجرة يدخلها الضوء على العموم من باب واسع مفتوح في وسط الحاجز ، من جهة الصحن ، ونافذتين متناسقتين مع الباب . ولا زجاج لسد هذه الفتحات. فإذا أريد الاتقاء من البرد، كان لا بد من إغلاق مصراعي النوافذ ومصراعي الباب الثقيلين ، حيث فتح باب صغير إضافي يكفي فقط لمرور إنسان ، بمعنى أنه كان هناك اختيارٌ بين البرد والظلام . وإذا كانت

هذه الحجرات مستحبة في الصيف ، لكونها تعطي الظل والبرودة ، فإنها لم تكن معدة للشتاء ، لاسيما وأن أية مدخنة لم تكن تمكن من تسخينها[2] .

وكانت هناك مرافق في عدة منازل موسرة ، منها الإسطبل لبغلة رب المنزل ، وحجرة ذات مدخل منعزل واقع على الزقاق (مصرية) حيث كان بالإمكان إيواء الضيوف أو استقبال الزوار دون أن يزعج ذلك الحياة العادية للدار .

الأثــاث : ـ كان الأثاث ، كالمنزل ، هو نفس الأثاث للجميع في مبدئه ، بما فيه من فرش ووسادات ، وستائر الباب ، وصناديق ، ورفوف من خشب ومواقد صغيرة من طين مشوي للفحم ، وأدوات المطبخ (كالمراجل ، وأطباق منيعة للنار أم لا ، وأباريق ، ولوازم الشاي) ، وموائد مستديرة منخفضة لتناول الطعام . لا يوجد شيء أو يكاد مما نسميه بالأثاث : فإن الكراسي ، والمقاعد المريحة ، والمكاتب ، والخزانات ، والطاولات ، والمناضد الصغيرة كانت غير معروفة أو معروفة قليلاً جداً ، حتى عند الأغنياء .

كانت الأشياء المذكورة منذ قليل مختلفة كمية وجودة ، حسب حالة مالية مالكها . كان الموسرون يضيفون إليها زرابي رباطية حيناً ، وزرابي مستوردة في أغلب الأحيان ، ولا تكاد توجد زرابي بربرية إطلاقاً . كما كانوا يملكون أسِرَّة للزينة من نحاس أصفر مستوردة من أنجلترا ، توضع في طرفي قاعات الاستقبال ؛ وكانوا أخيراً مغرمين بالساعات الكبيرة أو الجدرانية لكن كأثاث للتزيين ، لا كآلات لحساب الزمن[3] .

---

(2) تشتمل بعض المنازل الغنية الحديثة البناء على التسخين المركزي ،لكن ذلك ما زال نادراً جداً . وإذا اشتد البرد كانوا يستعملون المجامر .

(3) أضيف منذ بضع سنوات إلى هذا الأثاث جهاز راديو بحجم كبير في الغالب ، كما يمكن مشاهدة خزانات مكتبات ومكاتب وأحياناً أثاث قاعة الأكل .

ولإصلاح الساعات الصغيرة والكبيرة كانوا يلجؤون إلى ساعتيين (مواكْنية من كلمة ما كْانة =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد يتخيل المرء أن هذه الحجرات بدون أثاث ، ولا صور ، ولا تحف ، كانت توحي بالتقشف ؛ كلا ، فإن النور الخفيف كان يُلطف صلابة الجدران البيضاء ، والزليج والزرابي التي تغطيه جزئياً ، تسلي العين بسرور ، لا سيما الفرش المنضدة إلى عمق الحجرة المرتفعة بثلاثين سنتيماً على الأقل ، المحشوة بالصوف المدكوك والمغطاة بأقمشة ظريفة مستوردة ، والمحمّلة بكثير من الوسائد المزخرفة بالطرز الفاسي الدقيق الملون . وغالباً ما كانت توجد أيضاً مرآة مؤطرة تقطع بياض الحيطان الشديد .

اللبـــاس : - لم يكن أي فاسي يغامر بنفسه ، قبل 1912 ، ليرتدي شيئاً آخر غير اللباس التقليدي ؛ كان بعضهم ممن سافروا يلبسون الزي الأوروبي إذا كانوا في مانتشيستر أو مرسيليا ، لكن لم يكن حتى يخطر ببالهم أن يرتدوا مثل هذ اللباس بفاس[4] .

إنني لأخصر عندما أقول اللباس التقليدي ، لأن اللباس ، حسب أوصاف ليون الإفريقي ومارمول ، أحد الأشياء النادرة بفاس التي تغير شكلها كثيراً بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. يصف لنا ليون الرجال «وهم يغطون رؤوسهم(*) بقلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم ليلاً في

ج مواكن = ساعة صغيرة ، ساعة كبيرة، ريكار رقم 105 ؛ وماسيبيون رقم 62) وكانوا قليلي العدد محدودي الكفاءة ، لأنهم لم يذهبوا إلى أوروبا لدراسة آلية الأشياء التي يخدمونها

(4) لقد اتخذ اليوم كثير من المتطورين اللباس الأوروبي ، حتى في المدينة ، ولا يشكلون بعدُ سوى أقلية قليلة، وغالباً ما يرجعون إلى اللباس التقليدي في الاحتفالات العائلية أو الدينية، إذ هذا من باب اللياقة بالنسبة لهم وتجدر الإشارة ، مع ذلك إلى أن الذين يتخذون هذا الزي لا يتعدى سنهم الأربعين ، ولم يترك أي فاسي مُس لباس آبائه . وليس الأمر كذلك في الحزائر ، وتونس ، حيث تم التطور منذ عهد أطول . أما النساء فقليلات جداً هن اللوائي بدّلن زيهن ، وحتى المتطورات منهن . انظر عن اللباس بفاس قبل الحماية ، ليون الأفريقي ، ص 116-117 ؛ ومارمول ، جزء 2 ، ص 190-193 ؛ وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص 342 ، وتشارمز ، المرجع المذكور ص 175-179 ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ص 315-316 ؛ وفيير ، المرجع المذكور ، ص 214-216

(*) ليون الافريقي ، وصف إفريقيا ، الترجمة العربية المغربية ، الطبعة الثانية 1 :251-252.

إيطاليا (طاقيات النوم)، لكن بدون ما يغطي الأذنين، ويلفون حول القلنسوة عمامة من كتان تدور مرتين حول الرأس وتمر تحت الذقن . . . » وها هم الفاسيون إذن بعمامة الدقن على غرار بعض الصحراويين .

وإليكم ، حسب مارمول ، لباس النساء الكريمات النسب عندما كن يخرجن : « . . . إذا خرجن ، وخاصةً الأندلسيات الأصل ، لبسن سراويل طويلة متموجة جداً للتظرف ، لأن لباسهن لا يصل إلاّ إلى منتصف الساق . وينتعلن خفين بقدر أقدامهن تماماً ، مصنوعين من الجلد المغربي الناعم جداً والمطرز بالحرير الملون. . . »[5]. فنحن بعيدون من امرأة 1900، التي تغطي رأسها بحايكها ، الملتفة في فستانات مسدلة حتى الكعبين ، المنتعلة نعلين أسودين . كان الزي النسوي بفاس ، في عهد مارمول ، ويقول ذلك بصراحة[6] ، هو زي موريسكيات غرناطة ؛ لكن رد الفعل الديني في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر أتى على ذلك وأرغم النساء على حشمة أكثر .

ومن جهة أخرى ، فإن اللباس ، سواء كان مختصاً بالرجال أم بالنساء ، قد تحمّل عواقب تضخم الاستيرادات الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : فقد انتشر كثيراً استعمال الطربوش المصنوع بأوروبا ، على حساب الشاشية التقليدية المصنوعة محلياً . كما أن الأقمشة المستوردة أزاحت بشدة المنسوجات الأهلية ؛ وبدلاً من أن تكون مخصصة لكبار الأغنياء ، كما كانت عليها الحالة في القرن السادس عشر[7]، فقد تمكنت الطبقة المتوسطة من شرائها .

ورغماً على هذه التغيرات الهامة لأنها كانت تبدل شبح الأشخاص ، فإن الاقتصاد العام للبذلة بقي هو ذاته ، اقتصاد اللباس في جميع البلدان العربية ،

---

(5) جزء 2 ، ص 192

(6) نفس المرجع ، ص 193

(7) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 100 .

أي : قميص (تشامير)، وسروال، وحذاء (بلغة ، ج. بلاغي)[8] كانْ يلبسها الجميع ، رجالاً ونساءً ، صيفاً وشتاءً . وكان هؤلاء وأولئك يضعون فوق ذلك ألبسة مختلفة حسب الجنس والفصل .

كان الرجال يرتدون مجموعة مؤلفة من صدريةٍ مسدودة مطرزة ، وسروالاً من الجوخ ، وسترة قصيرة مفتوحة مطرزة ذات كمين مفتوحين إلى المرفقين . كان الكل من نفس اللون ويسمى جـبـادورملطم[9] . وكانوا يلبسون فوقه غندورة رقيقة ، بكمين أو بدونهما ، وهي أشكال متعددة[10] . وكان بالإمكان شدها في الخصر بحزام يحمل أسماء مختلفة حسب نوعه[11]: كان هذا لباس المنزل ، يضيفون إليه في الشتاء رداءً مسدولاً حتى القدمين (قفطان) . وكان الرجال عندما يستعدون للخروج ، يلبسون جلباباً واسع الكمين فيه غطاء للرأس ، يتغير لونه حسب الذوق العام (مـوضا) ،و معطفاً واسعاً من صوف داكن اللون في غالبِ الأحيان (سلهام) ، أو معطفاً أبيض من صوف وحرير أو من صوف وقطن (كساء) . وعلى الرأس عمامةٌ بيضاء (رزة) أو عمامةً من حرير مطرز (شان أو شراشاكر)[12] ، أو قلنسوة لينة ملفوف عليها عمامة (شاشية)[13]، أو في الأخير قلنسوة صلبة مخروطية

---

(8) كان لابد للنساء ، إذا أردن المشي في الزقاق ، أن ينتعلن نعلين أسودين مربعي الأطراف (ريحية) ؛ وكن يرتدين ، بمناسبة الأعياد والاحتفالات ، أحذية مزخرفة بشرابات فوق الرّجل (شربيل ، ج. شرابيل) ؛ وفي الدار كن يستعملن أحذية مماثلة لأحذية الرجال .

(9) لم يكونوا يرتدون السترة في الصيف ، ويلبسون فقط صدرية خفيفة تسمى (بدعية) .

(10) كانت الغندورة الكثيرة الاستعمال ، واسعة إلى حد ، ذات كمين طويلين تحمل اسم دراعية ؛ وكانت غندورة المثقفين مصنوعة من قطن رفيع ، تسمى فرجية . وأخيراً كانت هناك غندورة ذات كمين قصيرين جداً يلبسها خاصة الحلاقون وتسمى من أجل هذا حجامية .

(11) كان الحزام المصنوع من الجلد المطرز يسمى (مضمّة)؛والحزام من الجلد البسيط (سَمْطة)، والحزام من الصوف (كُرْزِيّة) .

(12) كان غطاء الرأس هذا يشتريه الحُجاج من الشرق ؛ ويدلّ مجرد اسمه على أنه لم يكن من أصل مغربي .

(13) كان المستخدمون التابعون للمخزن يلبسون قلنسوة مستدقة الرأس بدون عمامة .

الشكل ، مستوردة من أوروبا (طربوش) .

كان النساء يلبسن في الشتاء ، فضلاً عن ملابسهن التحتية ، رداءً من جوخ (قفطان) مسدولاً حتى الكعبين ومزرراً من أمام ؛ وفي الصيف رداءً من نفس التفصيل، لكن بلا كمين (بدعية) ؛ وفوق الرداء شبه قميص شفاف[14] ، يتراءى من خلاله ملطفاً لون الرداء . ويُشد في الخصر بحزام من جلد مطرز (مضمة) أو من حرير مطرز بخيط ذهبي ذي أهداب ثقيلة (حزام) . وكانت جدائل متقاطعة في الظهر (تخمال) تمنع كمي القفطان من عرقلة الحركات ؛ وفي الرجلين ، وعلى الأقل في الفصل البارد ، جوربان من قماش قطني (رجلات أو رجلين السروال) ؛ وعلى الرأس زينة معقدة ، لكنها أنيقة جداً (حنطوز)[15] خصص لها كابريال تشارمز الوصف الآتي : « هي شبه تاج أسقف موسع في الجانبين ينتهي إلى أعلى في خطٍ منحنٍ أنيق جداً ، يسمى حنطوز . وإليكم الأشياء الكثيرة والمتنوعة التي يتألف منها . يوضع على الشعر الممشوط المضفور بشكلات سبطة خمار من التول الأسود المنتهي في الطرفين بأشرطة ذهبية عريضة ، هي (الشربية) . ويوضع على (الشربية) التاج المصنوع من حرير أحمر مبطن ينتصب في طرفيه خماران مثلثان مبطنان كذلك عاليان بقدرٍ كافٍ : ذلك هو (الحنـظور) بمعنى الكلمة . ويشدّ بخيط مطاط يمر تحت جديلة شعر مؤخر الرأس ؛ وتبسط على (الحنطوز) عصابتان مطرزتان بالذهب ، تسميان (حفيظات) ؛ وأخيراً ، ينظم على (الحفيظات) بفنٍ منديلان من حرير منسوج بالذهب يسميان (سبنيات) ، يغطّيان الحنطوز تماماً ويتدليان على الظهر بثنيات خفيفة . وتضاف كذلك أحيانـاً لآلئ وجواهر . وإذا ما غير وضع (السبنيات) ولونها وقع التوصل إلى تنسيقات

---

(14) كان القميص الأبيض يسمى (فرجية) ، والقميص المطبوعة فيه الرسوم أو المطرزة في قماشه (منصورية) أو (دفينة) .

(15) لقد ذهبت كلياً هذه الزينة ، حتى عند النساء المسنات ، فلم تعد النساء يلبسن الآن إلا مناديل ملونة ذات منظر ألطف ، وغالباً ما يكُنَّ مكشوفات الرأس وشعرهن مضفور بعصابات مبسوطة . كانت المناديل تسمى (سبنيات الميزان) ، لأنها كانت تُباع بالوزن .

متنوعة جداً. وبأية كيفية وضعت (السبنيات) إذا انتهى تزيين الرأس، يرفع جانباً الشربية ، حتى تسدل هذه اللفائف الذهبية مباشرةً على الكتفين .

« ويوضع أحياناً إكليل على الحنطوز ، ولكن ذلك خطأ في الذوق لا تسمح به لأنفسهن سوى النساء الطائشات أو اللواتي يردن عرض ثرواتهن . . . وتضع (الحنطوز) النساء المتزوجات فقط . أما الفتيات فإنهن يعقدن فقط منديلاً في مؤخر الرأس أو شبه عصابة على الجبين »[16] .

وإذا أرادت النساء الكريمات النسب الخروج تلثّمن لزوماً بلثامٍ أبيض غليظ يترك العينين مكشوفتين ، ويلتحفن بقطعة طويلة من قماش أبيض (حايك) يحجب أشكالهن تماماً[17] .

ولا بد من أن نضيف أن نساء فاس كن يتخضبن كثيراً : الكحل للعينين ، والحمرة للخدين مع المسحوق والنقط السوداء ؛ ولم يكن ينقصهن سوى مراهم التجميل التي بدأت الآن تظهر إلى الوجود. كما أنهن كثيراً ما كن يخضبن اليدين والرجلين بالحناء ، إما بلون موحد ، وإما برسوم كن يلجأن في تسطيرها إلى نساء محترفات (معلمات حنايات)[18] .

وكان الحلي من الذهب والفضة المرصع غالباً بالجواهر الملونة ، موضوع افتخار كبير ، كحلي الجبين ، والأكاليل ، وأقراط الأذن ، والقلادات ، والأساور وحتى الخلاخل . وكان الحلي يُعار عن طيب خاطر بين الصديقات بمناسة الاحتفالات[19] .

---

(16) كانت تدعى هذه العصابة المنسوجة بالحرير والخيط الذهبي (أوقاية) .

(17) يميل الحايك اليوم أكثر فأكثر إلى التنازل للجلابة ، وهي معطف خفيف ذو كمين مع غطاء الرأس يسمح بالتحرك أكثر .

(18) ميشو ـ بلّير ، قصور ، ص. 649 ، هامش 1 .

(19) ڤيير ، المرجع المذكور . انظر في هذا الصدد مجموعة الحلي القديمة بمتحف البطحاء بفاس .

كانت هذه الملابس والزينات تخضع طبعاً (للموضا) ؛ فلم يكن يتغير تفصيل الملابس ، وظل ثابتاً إنه لم يخطر ببال الخياطين الفاسيين أن يدخلوا عليه أدنى تعديل. إنما الذي كان يتغير ، بالنسبة للرجال والنساء معاً ، هو اللون وجودة الأقمشة المستوردة : فكان الأنيقون والأنيقات بفاس يولونهما اهتماماً بالغاً. وأظن أن باعثي (الموضا) كانوا هم المستوردين الرئيسيين للمنسوجات ، وذلك لأسباب يسهل إدراكها ؛ وحيث إنهم كانوا يعدون من جملة النخبة الفاسية ، لم يكن يتعذر عليهم « ترويج » لون أو قماش جديد[20] .

---

(20) إن الحماية لم تكن إلا لتزيد في تنمية ظاهرة (الموضا) : فقد ظهرت شيئاً فشيئاً إلى الوجود ربطاتُ العنق ، والأحذية الأوروبية ، والجوارب الطويلة ، وملابس النساء الداخلية ، وسرعان ما أصبحت موضوعات (الموضا) . وحتى الحوادث السياسية لها تأثيرها أحياناً في هذا المجال ؛ فقد رجع عدة شبان أنيقين إلى الجلابة والعمامة ، على إثر مسألة الظهير البربري مباشرة ؛ وبعد ذلك حوالي 1932 ، انتشرت القلنسوة العراقية بكثرة عند الوطنيين الشباب . وقد أعطى بائعو القماش ، على غرار زملائهم الأوروبيين ، للمنسوجات الخاضعة (للموضا) أسماء جذابة ولكنها ليست دائماً ذات ذوق جيد . وإليكم لائحة وضعها العقيد سالانيي (محاضرة غير منشورة حول فاس) لسنة 1942 : « **الشالات** : خصلة السيدة ـ قبعة الماريشال بيطان ـ شفاء جلالة الملك ـ الطيور في السما والشاقور في رأس الحما ـ وعجز الرامي ـ ورجلا الزوج المخذوع في الدرج .

الموصليات : الثلج فوق الجبل ـ الْبَسْنِي وانْسَني ـ بعيد عني ـ دعابة ـ سقيتك أيها الحمام الظريف » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

3/7

الــــزواج

إن الأسرة بفاس هي العنصر الأساسي للحياة الاجتماعية ، شأنها في ذلك شأن إفريقيا الشمالية كلها والعالم العربي أجمع . ليس للفرد المنعزل سوى أهمية ثانوية ، لا يقوم بدوره الاجتماعي إلا بصفته عقباً لسلالة ما ، كما أنه لا يعدّ في البادية إلا كعضو من قبيلة أو فخذ منها ، وفي الحياة الاقتصادية ينخرط في طائفةٍ حرفية أو في سوق .

فينبغي إذن قبل كل شيء دراسة سلوك الأسرة بفاس ، ابتداءً بالعقد الذي يشكلها ويؤبّدها ، ألّا وهو الزواج[1] .

من الواجبات الاجتماعية المفروضة على المغاربة تأسيس أسرة : لذلك نجد في المغرب العربي عدد العازبين أو العانسات قليلاً جداً ؛ ولا تستثنى فاس من هذه الظاهرة . سوف لا أدرس هنا الأحكام القضائية للفقه الإسلامي التي يخضع لها عقد الزواج ، ولكنني سأتحدث فقط عن الاحتفالات المعقدة الدقيقة الذي تنظم الاحتفاء بالزواج[2] .

---

(1) انظر عن الزواج بفاس ، ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 120 -125 ؛ وڤيستيرمارك ، حفلات الزواج ، هنا وهناك ؛ وج.ج. طارو ، فاس ، ص. 130 -185 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص. 322 -326 ، وق. بنعبد الجليل ، حفلات الزواج بفاس ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس ؛ وج. جوان، دراسة رسوم الزواج. للمقارنة مع الزواج بتونس(هـ . دو مونتيبتي ، الزواج الاسلامي بتونس) .

(2) من المفروغ منه أن المعلومات الآتية تهمّ خاصة العائلات الموسرة ؛وفي الأوساط المتواضعة تكون مراسيم الخطبة والزواج أقل دقة ، غير أنها تخضع لنفس القواعد العامة .

الخطبـــة : ـ كانت أم الأسرة على العموم هي التي تختار خطيبة ابنها[3]. وقد يتفق أن يكون اختيارها موجهاً حسب التقاليد : فلابن العم الحق في أن يتزوج ابنة عمه ، وهي ابنة الأخ وفق العادة الجارية ببريطانيا ، له الحق قبل كل طالب زواج آخر، «وكل أسرة تحترم نفسها تحترم هذه العـادة »[4]. وغالباً ما تكون أم الأسرة كذلك قد لاحظت أثناء احتفالات كانت قد استدعيت إليها ، فتاة مكتملة ، محتشمة ، خدومة ، خبيرة باللياقات ؛ أو لمحت أيضاً في الحمام فتاة سليمة وخاصة محكمة البنية . فإن لم تتمكن من تحديد اختيارها بنفسها لسبب من الأسباب ، كانت تلجأ إلى صديقات ، وإلى الخاطبات[5]، أو في حالة العائلات المتواضعة الى الدلالات[6] اللاّئي يعرفن الكثير من الناس ويستطعن تقديم معلومات مفيدة . وعلى أي حال ، فليس الفتى هو الذي كانت له المبادرة في اختيار خطيبته ، ويمكن القول إنه لم يكن يعرفها قبل يوم الزفاف إلا بالأوصاف التي قدمتها له أمه ، أو أخواته أو إحدى قريباته[7]. وقد يحدث، في حالة الارتباط بين الأقرباء أو بين العائلات التي تجمع بينها صداقة وثيقة ، أن يقرر الزواج ، وعلى الأقل في ذهن الآباء ، قبل بلوغ الشابين السن اللائق بكثير ؛ لكنهم كانوا ينتظرون للتفكير في الزواج أن يدرك الفتى سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة ، وأن تبلغ الفتاة الحلم أو تكاد[8] .

---

(3) وكان العمل جارياً بنفس الشيء في تونس : انظر هـ . دومونتيلي، المرجع المذكور ، ص. 31 .

(4) بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . فإذا أريد رفض زواج ، قيل إن الفتاة مخطوبة لابن عمها (ڤيستيرمارك ، الزواج ، ص . 22) .

(5) انظر ما ياتي، ص. 526 وما بعدها . وكان الرجوع في تونس إلى سمسارات يهوديات (خطابة ج. خطبات) ، (هـ . دومونتيلي ، المرجع المذكور ، ص. 31) .

(6) ج. ج. طارو ، فاس ، ص. 135 .

(7) ليس للشاب ، في الساعة الراهنة ، بادرة الاختيار ، مع أن حركة لصالح هذا التجديد أخذت تتضح بجلاء شيئاً فشيئاً ، لكنه استطاع في عدة حالات ، أن يرى أو يلمح خطيبته أو أن يطلب مشاهدة صورة فوتوغرافية لها .

(8) لقد تأخر سن الزواج ، منذ الحماية ، لاسيما بالنسبة للرجال : فالتعود على القيام بدراسات ـ

وإذا تم اختيار أم الأسرة ، أفضت بذلك إلى زوجها ، فإذا وافق على الزواج ، قررا معاً إشعار ابنهما بذلك ، لكنه من الصعب التحدث مع شاب حول هذا المشروع ، وهنا نرى الاحتشام البالغ يبرز ، وهو من العادة المتبعة بين الآباء والأبناء . فكان يعهد إذن في الغالب ، من أجل ذلك ومن أجل عدة أشياء، إلى وسيط يكون قريباً أو قريبة، أو حتى صديقاً محترماً، تمكنه تجربته وتأثيره في الشاب من التعرض لهذا الموضوع الصعب[9] . فإذا أخبر الشاب وصفت له أخته ، إن كانت له أخت (وهي مطلعة على الأمر طبعاً) ، الفتاة المختارة قائلةً : « اسمع ، يا أخي العزيز ، إنها غزالةٌ ، لها جسم من حرير ، وقدّ رشيق ، قامتها عجيبة : فلا هي مفرطة الطول ولا مفرطة القصر ، ولا مفرطة السمن ولا مفرطة الهزال ، انسجام تام ! شعر كث ، وردتان في الخدين ، وأنف دقيق كحبة القمح ، وعينان سوداوان عليلتان ، وظلّ الأهداب على خديها . لكن أين هو اللسان الذي يمكنه أن يصف جمالها ؟ »[10] .

وإذا اقتنع الشاب ، قام أبواه فوراً بالمفاوضات من أجل الخطبة ، أي طلب الزواج . وأمه أيضاً هي التي كانت تقوم بالمسعى الأول : تصحب معها عدة قريبات لها في أجمل زينتهن ، وتذهب لزيارة أم الفتاة ، فتطلعها على مشروع الزواج بعد تبادل التحيات المعتادة ؛ وكانت تصطدم أحياناً برفض مهذب لكنه بات ، لا يفيد الإلحاح معه ؛ وإلا فتقول أم الفتاة إنها ستستشير زوجها ويمكنها أن تعطي جواباً مبدئياً بعد بضعة أيام ، ثم على « الرجال » أن يتدبروا الأمر فيما بينهم . وكانت الزائرة تحاول أيضاً أن تغتنم هذه الفرصة لترى فجأة البنت التي جاءت تخطبها ؛ لكن الفتيات كن يحترسن ولا يتركن دائماً أنفسهن للمفاجأة ؛ فكانت اللياقة تفرض عليهن أن يختفين ما أمكنهن

طويلة ، والرغبة في عدم الزواج إلا بعد التأكد من وضعية ثابتة ، كانت أسباباً يقينية لهذا التطور ؛ لكنه يجب أيضاً أن يعتبر التحرير التدريجي للشبان الذين يخشون أن يقرروا الزواج مبكراً جداً ، بينما يميلون أكثر فأكثر إلى المساهمة في اختيار رفيقتهم .

(9) انظر ج. ج. طارو ، فـاس ، ص. 133 -135 .

(10) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

ذلك . وفي هذه الأثناء ، كان أبو الفتاة يستخبر ، عند الاقتضاء ، عن أسرة طالب الزواج (أي الحالة المالية ، والمصاهرات ، والكرامة) وحول سلوكه ؛ ولا يفوت النساء من جهتهن أن يقصدن الخاطبات اللواتي يعرفن جميع أسر المدينة ويستطعن إعطاء معلومات نفيسة . وبعد بضعة أيام ، كانت أم الشاب تقوم بزيارة ثانية وتستشف الجواب المعد لها « من مجرد الكيفية التي كانت تُستقبل بها »[11]:كانت ترى حيناً هـل أُنفـق الكثير لاستقبالها أم بالعكس وقع التظاهر بمفاجأة مجيئها . وفي حالة القبول كانت أم الفتاة تنطق بالعبارة شبه الشعائرية الآتية : « حتى لو طلبت مني عيني ، ما ترددت في إخراجهما لك يا للاً ، لن يجعل الله إلا خيراً ، لكن لا بد أن يلتقي الرجال ويتحدثوا في ذلك »[12].بالإضافة إلى أنهن يتعرضن ، أثناء هذه الزيارة إلى المسائل المالية التي كانت النساء يتحدثن بينهن فيها بكامل الحرية ؛ وكان كل شيء يسوى ذلك اليوم في خطوطه العريضة .

وإذ ذاك يدخل أرباب الأسرة إلى المسرح . فكان أبو الشاب يذهب عند أبي الفتاة في يوم جمعة بالأحرى ـ لتوفر وقت أكثر ذلك اليوم ـ ، وقد اصطحب معه لأجل المناسبة أربعة أشخاص أو خمسة من الأقرباء او الأصدقاء وذوي المكانة ، من بينهم شريف في أغلب الأحيان[13] . كان الاجتماع يبتدئ عادة بتناول الطعام ، ثم إن اثنين من الزوار يختليان بالمضيف على حدة ويشرعان في الحديث على الوجه التالي تقريباً : « سيدي ، إن الغرض من زيارتنا هو أن نخطب ابنتكم الكريمة الفاضلة ، للاّ فلانة ، للسيد فلان ، نجل صديقنا كلنا وأخينا الحاضر هنا فلان»، وكان أبو الفتاة يرد على هذا بقوله أخيراً : « ليست ابنتي منذ الآن سوى إحدى بنات السيد فلان ، وأعتبرها ابنة له منذ هذه اللحظة بالذات »[14]

---

(11) نفس المرجع .

(12) نفس المرجع .

(13) كان اللقاء حسب ڤيستيرمارك ـ (ص. 23) يتم في أحد المساجد .

(14) . بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

كان جميع هذا الظرف من المحادثة منظماً من قبل بمجرد ما تم الاجتماع ؛ لكن الشيء الذي لم يكن محدداً مسبقاً والذي كان يفضي إلى مناقشة حقيقية هو مبلغ المهر (الصداق) الذي على زوج المستقبل أن يدفعه . وإذ ذاك يشاهد داخل الحجرة الظليلة الهادئة ، التي لم يقطع صمتها سوى همس المذاكرة وخرير نافورة الماء ، الذهاب والإياب للمفاوضين بين ربي الأسرة ، ذلك الذهاب والإياب الذي يسميه بظرافة الأخوان طارو (بالي المهر)[15] . كان أبو الفتاة يدلي برقم [16] يبلغ إلى أبي الخاطب ، ويقترح هذا الأخير رقماً آخـر وينتهون إلى اتفاق في مقابل تنازلات متبادلة . وفي الأخير ، يكون كل شيء قد تقرر ويمكن تحديد تاريخ الخطوبة الرسمية .

وما إن كانت البشرى تزفّ إلى أهل المنزلين حتى تنطلق الزغاريد، وتستعد أم الشاب للقيام بزيارة جديدة لأم الفتاة (كمالة العطية)[17]؛ وقد أرسلت من قبل بعض الهدايا إلى زوجة الابن المستقبلة تتألف من قطع قماش وتمر، وشموع ، وحناء (حناء النسبة = حناء المصاهرة) ، وكان تسليم هذه الهدايا ، الذي يتم تحت حراسة خاطبة ، مناسبة لاحتفال عائلي[18] . ثم تقوم أم الشاب بمسعاها ، بصحبة عدة قريبات ، فتقام لها مأدبة فاخرة ، وبعد تناول الشاي كانت تذهب لتتفقد زوجة ابنها المستقبلة ، مدعية أنها تريد زيارة الدار ، وقد اختفت هذه الأخيرة عن أنظار الزائرات ، بصفتها شابة مؤدبة جداً ؛ وإذا ما

---

(15) المرجع المذكور ، ص. 141 .

(16) يختلف مبلغ المهر كثيراً حسب الأسر . وكان « الصداق » في نظر فيستيرمارك (المرجع المذكور ، ص. 63) حوالي عام 1920 ، يتراوح من 70 إلى 100 ريال بالنسبة للبكر ، ومن 30 إلى 40 ريالاً بالنسبة للأرملة أو المطلقة ، في أوساط البورجوازية الصغيرة ، وقد يصل إلى 600 ريال في الأسر الغنية . وكان المهر ، حسب بنعبد الجليل سنة 1939 من 14 إلى 15000 فرنك في الأسر الموسرة .

(17) كانت تستعمل في البادية ، حيث كان الكلام سليماً أكثر ، العبارة الفصحى : تكميل العطية . التي كان لها نفس المعنى .

(18) كان هذا الاحتفال يكتسي طابعاً أكثر اتساعاً منه في الأوساط البورجوازية ويسمى (الزغاريت) الزغاريد .

اكتشفت أخيراً ، تطاوعت للتقبيل دون أن تنبس ببنت شفة ، لأن اللياقة تفرض عليها التمسك بالصمت[19] .

وإلى هنا لم يعرف الزواج المتوقع إلاّ من طرف الأسرتين ومن عدد قليل من الوسطاء الكتومين الذين وقع الاتصال بهم. نلاحظ أنه يكتسي ، منذ البداية ، طابعاً مخالفاً تماماً للزواج كما تتصوره المجتمعات الغربية : فعندنا ، حسب القانون الكنسي والقانون المدني معاً ، يكمن جوهر الزواج بالذات في إرادة الاقتران التي يعبر عنها بحرية رجلٌ وامرأة : ما زال يحدث في الغالب أن تتدخل العائلات بكيفية قطعية كثيراً أو قليلاً ، لكن العوائد تميل شيئاً فشيئاً إلى أن تنطبق مع المذهب وتجعل من الزواج نتيجة قرارين فرديين . أما في فاس ، كما في جميع البلدان الإسلامية ، فكانت العائلات ـ وما تزال ـ هي التي لها مبادرة القرارات؛ كان الشاب يطالب بالإفصاح عن الاختيار الذي اختير له (والذي كان يقره عادة) لا الفتاة أبداً ، فكانت ملزمة بالخضوع إلى رغبة أبيها بموجب السلطة التي كانت له عليها[20] .

كان الأمرُ يتعلق إذن بقرارات فردية أقل منها عائلية ، إذ أن الزواج كان مصاهرة أسرتين قبل أن يكون اقتران رجل بامرأة .

كانت الخطبة الرسمية تقام بعد ذلك بقليل ، يوم جمعة ، عند صلاة العصر ، حيث يجتمع رجال الأسرتين مع أصدقائهم ، وحلاقيهم الذين يكونون كلفوا بتبليغ الاستدعاءات ، في مسجد أو ضريح المولى ادريس ، أو في زاوية ينتمي إليها أبو الفتاة[21] . وبعد صلاة الجماعة ، تجتمع المجموعتان

---

(19) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(20) هكذا كانت تسير الأمور مبدئياً وفي الواقع كانت الفتاة تجبر وتستشار ، ما عدا في بعض الأسر البالغة الصرامة تماماً كما في تونس (هـ. دومونتيلي ، المرجع المذكور ، ص. 15) .

(21) يقام بتونس احتفال مماثل بين النساء في منزل الخطيبة ، بينما يقرأ الرجال الفاتحة في إحدى الزوايا (نفس المرجع ، ص. 33) .

وجهاً لوجه ، ويدعوهما أحد أفرادهما : شريف أو مقدم طائفة أو إمام ، بعد أن يقف بينهما ، إلى التهيؤ للدعاء ؛ فإذا اتخذ الجميع الهيئة الشعائرية بِمدّ الأيدي وتوجيه الأكف إلى السماء ، قرأ مسير الاحتفال بصوت منخفض أول سورة في القرآن ، وهي الفاتحة ، فإذا أتم القراءة « مسح وجهه وصدره بيديه » وهو يلثمهما برفق عندما تمسان شفتيه» وينطق بالعبارة: «الحمد لله رب العالمين »[22] . وبعد أن يحذو جميع الحاضرين حذوه ، يصطفون في الصحن في شبه قوس دائرة ، ثم يتقبل كلا الأبوين تهانيَ أصحابهما قائلين لها : « مباركة سعيدة هذه المصاهرة ! » أو : « الله يكمل بخير ! » وأخيراً ، يتقبل كل أب تهانيَ أعضاء المجموعة الأخرى[23] .

كانت الفاتحة هي العمل الديني الوحيد بمعنى الكلمة الذي كان يطبع مراسيم الزواج ؛ حقاً إن الدين لم يكن مختفياً تماماً فيما بعد ، إذ كانت الخاطبات يرتلن في عدة مناسبات أناشيد في حمد الله والصلاة على رسوله ، لكن كل شيء كان يتمّ خارج أماكن العبادة ، وبدون أية صلاة شرعية تقريباً . فليس للزواج الإسلامي قطعاً طابع الأسرار المقدسة الذي تضفيه عليه معظم الفرق المسيحية .

كانت الأسرتان تحددان فترة الخطبة من ستة أشهر إلى سنتين حسب الظروف . وكان الخاطب طوال هذه المدة لا يغفل عن أن يرسل إلى زوجته المستقبلة هدايا (تفكـرات)[24] بمناسبة الأعياد الإسلامية ، كقطع من القماش ، وفساتين وحلي . لم يكن الغرض من ذلك أن يسر الخاطب زوجته المستقبلة فحسب ، ولكن ليظهر فعلاً علنياً بأنه ما زال يحتفظ دائماً بالتعهد القائم بينهما .

---

(22) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور ، ڤيستيرمارك ، **الزواج** ، ص. 25 .

(23) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . ويذكر ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ص. 26-28) حفلاً عائلياً يسمى ليلة الفاتحة ، لم أعثر على أثر له في الأوساط الموسرة الفاسية .

(24) من فعل فكّر . يعبر الخاطب هكذا لخطيبته أنه يتذكرها ويخبر الجميع بذلك (ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور)

المهر والعقد : ـ كان أداء المهر يمثل نهاية الخطبة وبداية أفراح الزفاف ، ويقترن بتحرير العقد . كان الأبوان يحددان تاريخه قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، إذ كان لا بد من القيام بالاستدعاءات والاستعدادات . تقام وليمة كبرى في كلتا الدارين بقائمة طعام تقليدية : الدجاج المحشو ، ولحم الغنم باللوز و(البريوات)[25]. ويكون عدلان قد استدعيا عند أبي الشاب ؛ وبعد تناول الطعام ، يطلب مضيفهما-منهما أن يعدّا أمامهما المبلغ المتفق عليه نقداً مدوياً[26] ؛ ويوضع المبلغ في أكياس لحمله إلى أبي الفتاة ، يواكبه العدلان وأربعة من الأصدقاء الأمناء . كان على الوافدين الجدد أن يجلسوا فوراً حول المائدة ، وبعد أداء هذا الواجب ، كانوا يدفعون إلى المسلم إليه المبلغ الذي ائتمنوا عليه ، ثم يحرر العدلان العقد . ونضلاً عن الشروط المتعلقة بالمهر ، كان العقد ينص عادةً على أن زوج المستقبل سيضع في خدمة زوجته أمة ، يذكر ثمن شرائها ؛ كما أنه بالإمكان أن يتضمن شروطاً خاصة كمنع زوج المستقبل مثلاً من إسكان امرأته خارج فاس[27] أو حق المرأة في أن تطلق نفسها إذا تزوج عليها زوجها .

(25) تسمى هكـذا حلويات مورقة مصنوعة من العسل واللوز ، على صورة رسالة مطوية على شكل مثلث (نفس المرجع) .

(26) كانت هذه التفاصيل صالحة بالنسبة للفترة السابقة للحماية ؛ وقد استمر العمل مدة طويلة بالنقود المعدنية بعد مجيء الفرنسيين ؛ لكن الآن أصبحت الأوراق البنكية سارية المفعول . وقد أشعرت (في صيف 1946) بأن (الموضا) الأخيرة تقتضي دفع المهر على شكل شيك .

(27) هذا نص عقد الزواج الذي ذكره ق. بنعبد الجليل (المرجع المذكور) :

« الحمد لله المصدر الوحيد لجميع النعم ، على ما يجب له . والصلاة والسلام على نبينا ومولانا ، وعلى آله وصحبه الذين قاموا بعده بنصرة الدين.وبعد ، بفضل الله تعالى ، ومشيئته الربانية ، ومعونته النفسية وتحت رعايته الكريمة ، زوج السيد الحاج بنسالم ابنه السيد الحسن بالآنسة لـلاّ زيسب ، بنت الحاج عبد الله ، البكر المصونة ، في حجر والدها وتحت رعايته ، وهي حِلٌ للزواج وذلك بمهر مجموعه أربعة عشر ألف فرنك (14.000 فرنك) بالنقود الجاري بها العمل .

=

لا حاجة إلى التذكير هنا بالتفاصيل بطابع المهر الذي يدفعه الزوج ؛ لا شك أنه كان في القديم يمثل ثمن شراء الفتاة ؛ وقد صار مع مرور الزمان صداقاً يهبه الزوج لزوجته ، ويتحول فوراً إلى أشياء لتجهيز منزل الزوجين الشابين . على أن أبا الفتاة ملتزم عادةً بأن ينفق على الأقل مبلغاً مماثلاً للمبلغ الذي تسلمه لبيت الزوجين الشابين ، اللهم إلّا إذا كانت شروط مضادة مصرح بها في العقد. وهكذا فإن الصداق لا يشكّل جهاز العروس فحسب ، ولكن أيضاً الأثاث الذي يرى ضرورياً، نظراً للوسط الاجتماعي للزوجين الشابين[28] .

= « وتوصل أبو الزوجة من أبي الزوج المذكور بالمبلغ كله بمرأى من العدلين الممضيين أسفله وأبراه منه إبراءً تاماً .

« وقد تزوج المذكور المذكورة في أسعد طالع ، حسب الشريعة الإسلامية وما يأمر به القرآن من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

« وزوج أبو البنت المذكورة ابنته بما خولّه الله له من سلطة عليها وإمكانية التصرف باسمها لصالح مستقبلها ومصالحها .

« وقبل الزوج قبولاً تاماً شخصياً هذا العقد الذي أبرمه أبوه باسمه ، والمتعلق بإقرانه المبارك بالزوجة المذكورة أعلاه ، والتزمه وأقر به .

«جعل الله اقترانهما المبارك مقروناً بالسعادة الدائمة والفرح غير المشوب، وساعد في تنفيذ أوامره، وإرادته وعونه الجميل .

«اطلع المذكورون على هذا العقد وتوصلوا به . . .

« فيما يلي إمضاءات العدلين ومصادقة القاضي » . يقارن مع نموذج العقد التونسي الذي ذكره هـ. دومونتيلي، (المرجع المذكور ، ص. 20 -21) .

(28) هذه حسب ق . بنعبد الجليل (نفس المرجع) قائمة النفقات (أرقام 1939) التي يجب أن يتحملها موسر كبير فاسي عندما يزوج ابنته .

« تأثيث منزل مغربي خاص مشتمل على فرش سميكة من الصوف مختلفة الأشكال والأبعاد : 5 لحافات كبيرة ، وشبه لحافين مربعين من الصوف يدعيان « كليسات » توضعان على جانبي مدخل الحجرة .

« وتتطلب هذه اللحافات عامة من مجموعتين إلى ثلاث مجموعات من الوسادات : مجموعة من مطرزات فاس ، وأخرى من الديباج ، وثلاثة من القطيفة المقصبة . وعلى العموم من مجموعتين إلى ثلاث مجموعات من شبه قماش لتنشيتهما مجموعة من قماش قطيفي مقصب ، وثانية من مطرزات فاس ، وثالثة من الديباج أيضاً . تدعى هذه الغطاءات (سنايف مفرد سفيفة ؛ وتلاميط مفرد تلميطة) .

« يشتري الحاج عبد الله 8 قناطير من الصوف لصنع اللحافات
والوسادات المذكورة ثمن الصوف 800 فرنك للقنطار أي 6.400 فرنك .
الكريطون ومصاريف الخياطة 800 فرنك
تدفع 5 غطاءات للتطريز بالرسم الفاسي جميع هذه الغطاءات
مطرزة بالحرير الأسود . تستعمل الطرازة 10 كلغ من الحرير المصبوغ
بالأسود والذي يكلف الحاج عبد الله 120 فرنك للكيلو ، أي 1.200 فرنك .
يؤدي للطرازة 1,50 فرنك للثُمن أو لثمن الأوقية . وتتقاضى
أجرة ، بعد الحساب النهائي ، قدرها 384 فرنك للكيلو ، أي 3.840 فرنك .
كما تدفع قصد تطريزها بالحرير الأسود لفافة من الخيط الأبيض طولها 3 أمتار، مطرزة
بالرسم الفاسي، تدعى (محرمة) تسدل على العروس لدى خروجها من استحمامها
الأخير قبل زفها إلى زوجها سعر التكلفة: رطل حرير، النسيج وأجرة الطرازة 800 فرنك .
ويتطلب اللحافان المربعان أيضاً غطاءات مطرزة كلها بالأسود
تكلف 2 كيلو من الحرير بسعر الكلفة 180 + 768 (الأجرة) أي 950 فرنك .
تتطلب مجموعة من 6 وسادات تقليدية فاسية 8 كلغم من الحرير
المصبوغ بالأحمر بقدر 98 فرنك للكيلو ، أي 784 فرنك .
يؤدي للطرازة 1,25 فرنك لثُمن الحرير أو 1/8 الأوقية ، في
المجموع 320 للكيلو ، أي 1 280 فرنك .
ويشتري كذلك الحاج عبد الله 55,5 متراً من مطروزات ليون ،
بقدر 50 فرنك للمتر ، أي 2.775 فرنك .
تصنع مجموعة من 5 أغطية للحافات (سفايف) ومجموعة من 9 وسادات
مختلفة الأشكال والأحجام ، وتبطين هذه الوسادات وتزيينها وتفصيلها 325 فرنك .
كما يصنع ستار من ديباج ليون يسدل إلى نصف علو باب مدخل
حجرة العرس 1.000 فرنك .
وتتطلب طنفسة من القطيفة الخضراء والحمراء المدعاة (حياتي) 1.100 فرنك .
وتساوي مجموعة من 3 لحايف (مفردها لحيفة) وهي شبه لحاف
ريش تبسطها المرأة الفاسية على الأرائك الثلاث التي لا تستعمل كفراش 400 فرنك .
ويشتري بساطاً من صنع انجليزي 900 فرنك .
ويشتري غطاءي سرير 200 فرنك .
وغطاء سرير من الصوف الأحمر ، من صنع أنجليزي 800 فرنك .
وقطعتين من الكريتون 60 متراً 240 فرنك .
وستارين من الحرير المطرز 600 فرنك .
يستلزم الأثاث بمعنى الكلمة المؤلف من الصوف والمطرزات تقريباً 24.600 فرنك .

ويقتضي جهاز العروس النفقات التالية :

أ ـ الملابس (أقمشة وفساتين ، من المنسوحات ، الخ) 3.000 فرنك

ب ـ 4 قفاطين : واحد من الديباج 400 فرنك ، وواحد من القطيفة 200 فرنك وواحد من الغردين380فرنك وواحدمطرز بالذهب 200 فرنك 1.180 فرنك .

جـ ـ حزام وحذاء مطرزة بالذهب 300 فرنك .

د ـ (التخمال) حلية الكتفين 250 . فرنك .

هـ ـ 4 مجموعات من اثني عشر منديلاً مطرزة تطريزاً جيداً 1.000

و ـ وأشياء مخصصة للزوج وتتكلف بها الفتاة خصيصاً: ملابس لوازم الحلاقة ، حزام فاس وحزام السراويل طاقة (تازية) فرنك. 600 . فرنك.

ز . هدايا معدة لأبوي الزوج وأقربائه (فستانات ، مناديل) 2.600 فرنك.

ن ـ ادوات اضافية ذات قيمة معينة . كؤوس من البلور ، اقداح من الخزف ، لوازم الحلويات ، العطور ، وأوان فضية 2.000 . فرنك.

حـ ـ صندوق العروس 250 فرنك.

ط ـ حزانة صغيرة تصلح كصوان السفرة 300 . فرنك.

يبلغ اذن مجموع جهاز العروس 11 400 فرنك .

« اضف الى هذا النفقات التي يتحملها الحاج عبد الله لتوفير لباس لائق لأولاده وبناته بمناسبة هذا الزفاف .000 4 فرنك ومصاريف الاقتبال أثناء الزواج بذاته : 4.000 فرنك .

« فسيصرف إذن الحاج عبد الله بمناسبة هذا الزواج مبلغاً قدره 000 44 فرنك .»

تقارن هذه القائمة بالمعلومات الآتية التي يدلي بها ليون الافريقي المرجع المذكور ، 1 : 254 - 255 . (الطبعة العربية الثانية ـ1: 121 - 122) .

« واليوم يصرف الأب أو الوالي زيادة على الثلاثين مثقالاً التي هي قدر الصداق مبلغاً من مائتين إلى ثلاثمائة مثقال لتجهيز الزوجة بما يلزم من ملابس وأثاث البيت ، لكن لا يعطي عقار ولا كروم ولا أرض مزروعة .وتقتضي العادة أن تقدم هدية مركبة من ثلاثة أثواب من جوخ رقيق ، وثلاثة أخرى من حرير أو « تفتة » أو مخمل أو دمقس ، وعدد من القمصان وأغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير ، ومخدات ووسائد ، وتهدي كذلك ثمانية فرش ، أربعة منها للزينة ، توضع فوق الحزائن في كل طرف من الغرفة ، وأربعة مغطاة بنسيج صوفي خشن تستعمل للنوم ، بالإضافة إلى فراشين مبطنين بجلد يستعملان كذلك لتزيين الغرفة ، وزربية صوف طويلة من نحو عشرين ذراعاً ، وثلاثة أغطية وجهها من جوخ وظهرها من كتان ، وما بينهما محشو بالصوف . وعند النوم يطوى هذا الغطاء شطرين بحيث يكون أحدهما فوق الآخر ، لأن طوله يقل عن ثمانية أذرع . وعلاوة على ذلك تقدم ثلاثة أغطية للسرر غلافها من حرير جميل التطرير من الجهتين ، وبداخلها كتان محشو قطناً ، وغطاء آخر أبيض الغلاف محشو بالقطن ، لكنه خفيف للصيف . وأخيراً يقدم سجف =

كانت هذه النفقات تضاف إلى مصاريف احتفالات الزواج وتفرض تبعة ضخمة على من يزوجون ابنتهم . وقد سبق لليون الإفريقي(29) أن سجل بأن العدبد من الناس أفلسوا في ذلك ؛ وحدث نفس الشيء في أوائل القرن العشرين ، حيث إن عدة أسر متواضعة استدانت للأبد بموجب الحياء البشري ، حتى لا « تبرز » أقل من غيرها(30) .

وإذا دفع الصداق ، حدد تاريخ الزواج الذي كان ينظم دائماً تقريباً في الصيف ، حتى لا يأتي المطر لإيقاف الاحتفالات العديدة التي كانت تجري بالفناءات . كان هذا التاريخ مرتبطاً أقل بكثير بما يوافق العائلتين(31) منه بالأيام التي تكون فيها الخاطبات والأجواق حرة ، لا سيما إذا تمّ الاتصال بأحسن جوق وبأفضل جماعة من خاطبات المدينة : كان لا بد من عدة أشهر سابقة للاتفاق مع رئيس الجوق ومع الخاطبة الرئيسة لتحديد اليوم .

التهييئات : - إذا تم الاتفاق على كل شيء، شُرع في التهييئات. كانت أم الفتاة توفد امرأة حاملة معها كبة من الخيط لتأخذ مقاييس الحجرة التي ستسكنها ابنتها بعد زواجها : وبهذه الكيفية كانت تتمكن من تفصيل الأرائك على القدر المرغوب. وفي مقابل ذلك ، كانت المرأة المرسلة تعود بكبتين،

= (حائطي) من صوف رفيع مقسم إلى مستطيلات صغيرة على نموذج علم سفينة أو غير دلك من النماذج ولهذا الحائطي شرائط ملسنة من جلد مذهب علقت عليها خصل من حرير مختلفة الألوان . وقد ثبت على كل خصلة منها زر حريري ليمكن تعليق هذا السجف على الحائط .

هذا ما يضاف الى المهر ، وربما أضيف اليه أكثر من ذلك . . . » .

(29) نفس المرجع . يقارن أيضاً بما ذكره هـ دومونتيتي (المرجع المذكور، ص. 68 — 65) عن نفقات الزواج بتونس .

(30) وحوالي 1925 ، قام بعض العقلاء بمساندة السلطة الملكية بحملة لإرجاع نفقات الزواج إلى أبعاد معقولة . وقد أحرزت نتيجة ، لكن السوق السوداء « بدلت هذا التعقل » . وقد علمت سنة 1945 أن الكثير من الفاسيين يفرضون مهراً قدره 000 20 فرنك لزواج ابنتهم . وكان (المثل) متناسباً بطبيعة الحال .

(31) كان مع ذلك يحسب ألف حساب لتواريخ الخطبة ، لكنها لم تكن تذكر طبعاً · كان أبوها يعين تاريخاً دون إعطاء توضيحات لذلك ، فلا يلح أحد

إحداهما من الخيط الذهبي ، والأخرى من الحرير الأخضر ، تخصصان لضفر جديلة رائعة تمثل طول رجل الفتاة ؛ وهكذا كان الخاطب يتمكن من طلب الأحذية المطرزة التي سيهديها إلى زوجته يوم إتمام الزواج[32] .

كانت الخاطبات يُرسلن إلى دار الزوج ، قبل خمسة أيام من ليلة الزفاف ، كل ما كن في حاجة إليه لتجهير غرفة العرس . كان هذا النهار بسمى (نهار التنقيل) ويكون مناسبة لاحتفالين تحضرهما العازفات (الطبالات) في كلتا الأسرتين[33] . وكان يوم الغد يسمى (نهار الزينة) أو نهار الفرش[34] . كانت الخاطبات يُعددن فيه بعناية كل ما كان يلزم الفتاة أن تحمله إلى منزلها الجديد (كالأرائك ، والوسائد ، والزرابي ، والمشابك ، والمسامير ، وحلقات الستائر، الخ . . .) ثم يرسلنه إليه . ويذهبن بأنفسهن لتجهيز قبة العرس (دخشوشة) . ولهذا الغرض كن يكدسن اللحافات الواحدة فوق الأخرى لتشكيل حاجز لا يترك بينه وبين الحائط سوى عرض لحاف هو سرير العرس ، كان حاجز اللحافات وجدران الحجرة تزين بأقمشة مطرزة وطنافس (حياتي)[35] .

وقبل ذلك بخمسة عشر يوماً ، كانت الشابة تذهب كل ليلتين إلى الحمام للاغتسال سبع مرات[36]؛ وكانت المرة الأخيرة، المطابقة لليلة ما قبل الدخول إلى المنزل الزوجي ، تتسم باحتفال (التقبيب) : الغسل بالدلاء . كانت العروس تأتي ، محفوفة بالقريبات والصديقات ؛ وكانت مستخدمات الحمام (الطيابات) ينتظرنها بالباب ثم يصحبنها باحتفال إلى أكثر القاعات انعزالاً وهن يصلين على النبي ويزغردن. كانت قريبتان تجردان الفتاة من ثيابها ، وهي مغمضة العينين مطبقة الشفتين ، خوفاً من عفاريت المكان .

---

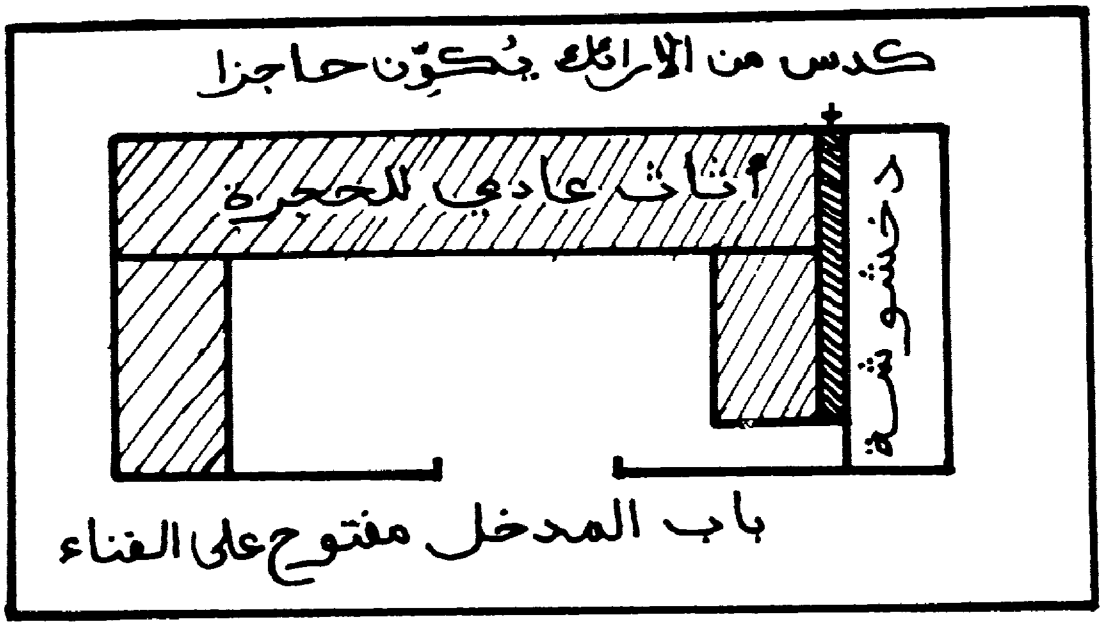
(32) ق بنعبد الجليل ، المرجع المذكور

(33) انظر ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 118

(34) نفس المرجع ، ص 118 - 119 .

(35) انظر الرسم رقم 34 .

(36) وشاع شيئاً فشيئاً تبسط الأشياء. فلم تعد كثير من العروسات يذهبن إلى الحمام إلا مرة واحدة ، قصد (التقبيب) .



الرسم 34

ترتيب غرفة الزفاف

كانت سبعة دلاء من الماء الدافئ ـ مصففة هناك ، تغرف المستخدمات بالتوالي من كل واحد منها بإناء مكي (طاسة مَكِّوِيَّة) ويصببن الماء على رأس العروس التي تصبح منذئذ ، عند انتهاء الحفل ، تحت وقاية الملائكة[37] . ثم يلبسنها ملابس جديدة و « يضعن على رأسها ثوباً فاخراً مطرزاً بالاسود (محرمة) يطابق تقريباً خمار العروس الأوروبية » . وتستأنف المستخدمات غناءهن : فبعد التنويه بجمال الشابة وإعادة الصلوات على النبي ، كن يأخذن شيئاً من المال واللباس الذي كانت ترتديه الفتاة عند وصولها والذي لم تعد ترتديه بعد . نرى أن الأمر يتعلق بشعائر تطهير ومرور ، حيث إن الفتاة قد دخلت منذ قليل في مرحلة جديدة من حياتها ، قاطعة على الفور كل علاقة بالماضي .

وبعد عودتها إلى دارها ، كانت توضع في خدر ، وهذا ثاني رمز لقطع الصلة مع حياتها السابقة : وبعد تناول العشاء، كانت إحدى الرسامات بالحناء (معلمة حناية) ترسم على يديها ورجليها الرسم الخاص بالعروسات الذي هو تقليد تقريباً لبعض نماذج تطريز فاس (الحناء بالتقويسة)[38] . ومنذ ذلك الوقت ، وما دامت أفراح الزفاف ، بل كدت أقول : الانسلاخ ، كان على المرأة الشابة أن تعيش على حدة ، إلى أن تتخذ حالة المرأة المتزوجة ، بعد انتهاء الطقوس .

وفي اليوم الموالي ، أو بالأحرى في العشية الموالية (إذ كانت تقام جميع هذه الحفلات تقريباً في آخر النهار وأثناء الليل) كانت الحفلة المدعوة (قوالب صغار)[39] . وابتداءً من الساعة الخامسة ، كان الفناء يمتلئ بنساء أنيقات جئن لتناول الشاي ، بينما تبقى الفتاة في خدرها مع صديقاتها

(37) ڤيستيرمارك ، **المرجع المذكور** ، ص. 120 (38) **نفس المرجع**، ص . 121 .

(39) يطلق لفظ « قالب » (ج قوالب) على قالب سكر . من المحتمل أن هذا الحفل ، كالذي يليه (قوالب كبار) ، كان متسماً في القديم بتسليم قوالب سكر ، وهي مادة نادرة في ذلك العهد . فاختفت هذه العادة وفقد أهل فاس حتى ذكراها

الحميمات اللائي كن يساندنها ويشجعنها في هذه المحنة الكبرى . ومنذ ذلك اليوم وطوال مدة الحفلات، كانت مدعوتان (برزات) تلعبان دوراً خاصاً . كانتا قريبتين من أهل الزوج ، حديثتي عهد بالزواج تقفان على جانبي الباب داخل الغرفة الزوجية غير مخضبتين، ولكنهما مرتديتان لباساً كلباس العروس. وكان رهن إشارة كل واحدة منهما خاطبة تساعدها على ارتداء لباسها[40] .

وفي عشية الغد (قوالب كبار) ، حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً ، تأتي الخاطبات ؛ وبعد أن يتناولن غذاءً فخماً ، ويشربن الشاي ويتحدثن ،كن يستسلمن هنيهةً إلى النوم . وكانت الدار تنتفض في جوف الليل، حوالي الساعة الثالثة صباحاً : كان ذلك الوقت « لخدمة العروس » كما تعبر عن ذلك الخاطبات برطانتهن . يأخذن في تخضيبها بشدة ، إلّا إذا كانت شريفة أو عربية ، ويغطينها بفستانات ثقيلة ، وحلي ولفائف من قماش الصلب تحيط بوجهها ؛ وها هي تشبه تلك الصور اللامعة المجمدة للعذراء التي يطاف بها أيام العيد في البلدان المتوسطية[41] .

كانت خاطبتان تمسكان بيدها ، بعد أن غطتا وجهها بخمار ، فتقودانها بخطى بطيئة حول الفناء ، في وسط دائرة زاهرة بالزائرات ، بينما تصلي الأخريات على النبي ، حاملات شموعاً موقدة . كان الموكب يعود إلى وسط الفناء ، ويوضع الصنم على طاولة ذات حافات (مائدة) مزدانة بأقشمة مطرزة ؛ ترفع الخاطبات هذا الحمل على أكتافهن فيرقصن في الفناء[42] على ضوء الشموع ، وصوت الطبول والطبلات لجوق من النساء ، تشجعهنّ

---

(40) لا بد أن يفهم بدون شك من هذه العادة الحرص على تضليل الجن الذين يريدون سوءاً بالعروس · فحضور ثلاث نساء مزينات بنفس الكيفية اثنتان منهن خارجتان عن إصابتهم ، من شأنه أن يحدث فيهم البلبلة .

(41) انظر ج جوان ، دراسة رسوم ، ص. 330 - 331،واللوحتين 13 و 14 .

(42) انظر ج جوان نفس المرجع ، اللوحة 15 . كان هذا الرقص عبارة عن تحركات بطيئة ، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء ، ربع دورة إلى اليمين وربع دورة إلى اليسار . وكان ممكناً أن يدوم طويلاً جداً .

الزغاريد الحادة للمتفرجات الفرحات .

فإذا انتهى هذا الحَفل الغريب (الدورة) أعادت الخاطبات العروسة إلى قبتها ، حتى تستريح لحظة ؛ وبعد قليل كن يرجعن بها إلى باب الغرفة في مقابل الفناء ، وهي مستقيمة تماماً جامدة ؛ تمر هنيهات من الصمت صمت الانتظار القلق ، فيرفعن عنها الحجاب ، كاشفات أخيراً عن ذلك الوجه الصنمي المطبق العينين ، الذي صار لا يعرف تقريباً من كثرة الخضاب والزينة ، ويصحن حينئذ : « هاي هي مرهونة» . فتتقدم أم العروس لتحرير هذه « الرهينة » التي تمكنت منها الخاطبات ، لإخراجها من حالة التماثيل هذه التي وضعتها فيها العادة ، متبوعة بجميع الحاضرات ، فتضع قطعة نقدية في القدح الذي تمسكه إحدى منظمات الحفل (السلام) .

وبعد انتهاء العرض كانت الخاطبات ينشدن مدائح زوجة المستقبل (تعشيق) · كان ذلك شبه لازمة على نفس النموذج دائماً ، لكن تفاصيلها تختلف حسب الخاصيات الجسمانية للعروس : « ها هي ! ، صلاة اللّه وسلام النبي عليك يـا للاَّ ، والسر عليك ، يا تمر العروسات . ها التمر المجهول ، ها العسل المصفى ، ها الزين بلا ملح ، ها تكاك الحمام، ها رشاقة الخيزران ، ها هي، ها هو زين عائلة فلان، ها هي، ها هي»[43]! وكانت جوقة الخاطبات تردد مرتين أو ثلاث مرات لازمة المدائح بأعلى صوت .

وإثر ذلك ، كانت ظِئر العروس تحملها أمام معلمة (نكّافة) ـ الخاطبة الرئبسية ـ تضفر شعرها بالكيفية اللائقة بالعرائس (سلتة)[44] وتعيد على يديها ورجليها رسماً ثانياً بالحناء (الوشي)[45] .

---

(43) ق. بنعبد الحليل ، المرجع المذكور

(44) ڤيستيرمـارك ، المرجع المدكور ، ص. 242 .

(45) يطلق لفظ وشي ، في العربية الفصحى على « نوع من قماش الحرير المختلف الألوان المطرز بالذهب أحياناً » (دوزي ـ ملحقات ، جزء 2 ص. 809

ثم تُجلس على منبر ذي ثلاث درجات ، فتشرع الحاضرات بالتوالي في تسليم هدايا الزواج إلى إحدى الخاطبات ، كقطع من القماش الثمين ، أو حلي[46] ، أو نقود . فكانت الخاطبة تبرز الهدية إلى الحاضرات، وتنطلق بمدح المتبرعة وتشكرها باسم العروس التي - تقول - :«لن يفوتها أن ترد لها هذا الجميل في أول مناسبة وأسعدها»[47]. وكانت تتلقى من كل متبرعة مبلغاً من المال جزاء على عملها الحميد . وبعد تسليم الهدايا ، التي كانت تحمل اسم (غرامة) تدفع الخاطبة إلى رب البيت لائحة الهدايا : فالهبات العينية كانت مخصصة للعروس ، والمال يستعمل لأداء مصاريف الزواج . وأخيراً كانت الخاطبة الرئيسة ، بعد انتهائها من التزيين والحناء ، تسمح للعروس بتذوق راحة تستحقها كثيراً : كان ذلك نهار الراحة .

وكان الخاطب في هذه الأثناء كلها ، يعيش بدوره عيشة غير عادية : فقد سبق لأبيه أن استعار داراً مجاورة لداره تؤوي لبضعة أيام الشاب وأصدقاءه ، تسمى دار إسلان[48] ، بينما كان منزل الزفاف، وهو منزل والد الشاب ، يحمل اسم دار العرس . كان الخاطب يتوجه إلى تلك الدار في العشية السابقة لليلة الزفاف ، أو حتى ليلة الزفاف ، مصحوباً بأترابه الشباب (والناس المسنون كانوا ضيوفاً على أبيه بدار العرس) وكان هذا الشباب يتعاطى دعابات تقليدية : يعتبر العريس كسلطان ، ويخدمه أصدقاؤه كوزراء وجنود[49] ؛ وأهم

---

(46) كان الحلي هدية الأقرباء ، كالأب ، والأم ، والأخوات، والخالات . وكان امتياز المنبر مخصصاً للأسر الكريمة من أصل شريف أو عربي .

(47) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . كانت كل أسرة تتخذ محاسبة حقيقية للهدايا المستلمة ، بمناسبة زواج أو غيره من المناسبات ، وتكون ملتزمة عادة بردها بكل دقة . كان ذلك شبه تعاونية في المناسبات الكبيرة للحياة . ويذكر هـ . دومونتيتي (المرجع المذكور ص. 40) أن نفس الطريقة كانت تتبع بتونس .

(48) إسلان كلمة بربرية معناها أعراس ، وعلى الأقل في بعض اللهجات (ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 78).ويعبر عنها ، في العربية الفصحى ، بدار السلوان ، وهذه هي العبارة المذكورة في ورقات الاستدعاء المستعملة حالياً .

(49) ڤيستيرمارك المرجع المذكور ، ص. 240 - 241 .

خدمتهم كانت هي القيام بمهامه ومعاقبة المتأخرين بغرامات أو « رهائن » طريفة .

كان جوق من المغنين يعزف بلا كلل قطعاً من مجموعته، بينما يقوم الحلاقون بتقديم الشاي أو الطعام ، حسب الوقت .

وكان حلاق الأسرة يحمل إلى دار العرس ، في المساء السابق لأول لقاء الزوج بالمرأة ، كرسياً كبيراً من خشب مصبوغ بألوان فاتحة ، ثم يبحث عن الشاب بدار اسلان . يتكون موكب ، فيحمل بعض فتيان الشرف الزوج على أكتافهم، في وسط الضحكات ، ويذهبون به ، مغطى الرأس ، إلى كرسي الحلّاق، الموضوع في الفناء . كان الحلاق يسوي الفوطة ، لكن قبل الشروع في عمله ، كانت الخاطبة الرئيسية تبلل شعر الصبور بغصن ريحان ، ثم يلصق شبان الموكب على جبهته أو يدخلون بين شفتيه قطعاً نقدية معدة للحلاق . وكان أحد غلمان الحلاق يصيح عند كل عطية : « اللّه مع فلان » ، ويضع المال على فوطة ؛ وكان ضيوف الأب يشاركون أيضاً في الاحتفال ، بحيث كان الحلاق يستطيع أن يجمع بمناسبة زفاف كبير ثروة صغيرة[50] كافية لشراء حانوته إن لم يكن بعد مالكاً لها .

---

(50) حتى مائتي ريال ، حسب ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ، ص. 117) ، كان ملزماً فقط بإعطاء 2,50 بسيطة حسنية إلى كل واحد من الحلاقين الذين جاؤوا ليساعدوه ، ويقتسم الباقي مع غلمانه الذين كان لهم الحق في خمس المبلغ (ثمن أوجه في المثقال) مهما كان عددهم ، بينما الأخماس الأربعة الأخرى كانت من نصيب الحلاق الرئيسي . وكانت تحدث أحياناً مناقشة بين الحلاقين ،لا من أجل القسمة التي كانت منظمة بدقة وفق العادة ، ولكن لأن حلاق الأب وحلاق الابن ، إذا كان لكل واحد منهما حلاق ، كانا يتنافسان حول الشرف .. وفائدة الاحتفال . وفي حالة عدم وقوع تسوية حبية كان النزاع يعرض على خبراء الطائفة الحرفية ، أو على المحتسب . فكانت الفتوى في المادة كالتالي : إذا كان الشاب زبوناً للحلاق منذ أقل من ستة أشهر ، أُقصي حلاقه ، وإلاّ قسمت الأرباح (بحث شخصي حول الحلاقين 1945) .

كان هذا الحفل يسمى « الغرامة على العريس في الشيلية » ، أو فقط « الشيلية » (الكرسي) فإذا انتهى الحفل ، كان الحلاق يقوم بعمله ، فيحلق رأس الخاطب ويزين لحيته عند الاقتضاء، ثم يعود الموكب إلى دار إسلان بنفس الكيفية .

كانت إذن الأيام القلائل السابقة للزفاف أيام تدريب ، بالنسبة للـزوج وبالنسبة للعروس ، لكنه يلاحظ أن الواجبات المفروضة على الرجل لم تكن لها أهمية بمقدار الواجبات المفروضة على المرأة ، بل أبعد من ذلك ، لأن التغيير الذي سوف يطرأ عليه أقل أهمية بكثير ؛ فليس عليه أن يمر من أسرة إلى أخرى ، إذ سيبقى يعيش ، كذي قبل ، في منزل أبويه ، بالإضافة إلى أن خلقته لن تتبدل جذرياً ، فلا حاجة إذن في أن تتخذ له الاحتياطات المتعددة اللازمة لتؤمن له تحولاً سعيداً .

احتفالات الزفاف : ـ بعد انتهاء كل هذه الاستعدادات ، كانوا يصلون اخيراً إلى الزفاف بمعنى الكلمة (ليلة الدخول) . في تلك الليلة كان الفرح في الديار الثلاث التي كان يقام فيها الزواج ، الداران العائليتان ودار الخاطب .

كان منزل الفتاة ، في بداية الليل ، مسرحاً لأهم مشهد . وحتى حوالي الساعة الواحدة صباحاً ، كان الفناء والطابق السفلي محجـوزين للرجال ، بينما النساء كلهن ، ومعهن العروس ، ينزوين في الطابق الأول ، حيث يلقين من هناك نظرات عابرة على الفناء المضاء ويستمعن إلى أصداء الجمع : كان هناك جـوق للمـوسيقى الأنـدلسيـة يشنف الأسمـاع ، بينمـا يُجلس الحـلاقـون الضيوف الذين استقبلهم رب البيت في عتبة الفناء ويسارعون في خدمتهم. كان الفناء يفرغ حوالي منتصف الليل ، ولا يبقى سوى الأصدقاء الحميمين الذين يتناولون حوالي الواحدة صباحاً العشاء التقليدي في انتظار مجيء الموكب العرسي .

كان ينظم احتفال مماثل عند والد الزوج ؛ وبعد العشاء ، يذهب الحلاقون حوالي الثانية صباحاً للبحث عن شبان دار إسلان الذين يكونون بدورهم قد أولموا قبل ساعة الاحتفال . ويتألف موكب في هذه الدار يتقدمه أطفال يحملون شموعاً بأيديهم ، ثم ينتشرون في الأزقة الضيقة الملتوية للمدينة ، تحت إيقاع صرخات الفرح للأطفال ، والصلوات والأناشيد التي يرتلها الجميع معاً .

وكان موكب آخر قد تألف في فناء دار العروس ؛ فيقتبل الموكب الأول لكن ليس دون مقاومة ، وربما كان ذلك تذكاراً للعهد الذي كان الزواج يبتدئ فيه باختطاف حقيقي ؛ كان مبعوثو الزوج مضطرين إلى قرع الباب طويلاً قبل التمكن من الدخول . فإذا انتهت هذه المقاومة الرمزية ، شرع الموكبان معاً في الغناء إلى أن تتأهب الفتاة. كانت تلك ساعة الفراق والدموع ؛ فإذا ارتدت العروس « حائكها » ذهبت لتودع أباها وهي تبكي . لقد أصبحت هذه الدموع مضرب المثل بفاس ؛ يحكى أن أباً ، وهو متأثر من رؤ ية ابنته البكر في أسى شديد ، اقترح عليها أن يزف اختها الصغيرة مكانها ، فأجابت وهي تشهق : « لا ، لا ، كلّهن بكين ولكنهن ذهبن (كل شيء بكى ومشى)[51] » .

كان الموكب الزفافي يتشكل : في المقدمة رجال أسرة الزوج ، ثم الخاطبات ، تتبعهن العروس في ست أو ثمان من قريباتها ، مرتديات لباساً مماثلاً لها تماماً حتى لا تدري الجن مَن التي سيمسُّونها بسوء ، إذا ما التقوا بالموكب[52] . ويأتي في المؤخرة أقرباء العروس رجالاً وشباناً . وتحمل الخاطبات والأطفال شموعاً تضيء طريق هذا الموكب المرح : كان الفريقان من الرجال يتبادلان في الأزقة خطاباً شعائرياً تقليدياً ، يقول أقرباء الزوج :

---

(51) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(52) اضمحلت هذه العادة وجعلت عوائد جديدة تخلفها . فقد شوهد خلال صيف 1946 موكبُ العروس فيه مرتديةٌ جلبابها ، وهي محفوفة بحوالي ثلاثين فتاة لابسات الزي الأوروبي وسافرات: كان جلهن تقريباً من قديمات تلميذات مدارس البنات التي أنشأتها الحماية

« عباها ، عباها واللّه ما خلّاها » فيرد عليهم الآخرون : « عباتو عباتو ، لوّاتو في كساتو»[53]. ولم يكونوا يترددون في إحداث ضجيج كبير؛ يطرق الأطفال الأبواب بشدة لإيقاظ النائمين حتى يؤمّن للموكب العرسي أكبر إشهار .

كان الموكب يجتنب ما أمكن مجرى الماء الذي هو مقام الجن ؛ فإذا اتفق أنه لا بد من المرور بجدول ، كانت امرأة تقف بين العروس والماء وتلقي شيئاً من الملح ، لإبعاد الخصوم المستترين عن الأنظار .

وإذا كان الزوج شريفاً أو من أسرة عربية زفّت عروسه إليه على شبه « كرسي » تعلوه قبة ، يقدمه ويحمله القبارون (الصحّافة)[54] . ولم يكن للأسر الأخرى الحق في علامة الشرف هذه ، فلا الخاطبات ولا القبارون يسلمون الكرسي إليها ولو بأغلى ثمن .

كان الموكب يتفرق أمام باب دار العرس. يهمُّ الرجال بالدخول، لكنهم يُطردون بدون مراعاة. ويعود أقرباء العروس إلى منزلها ، ويذهب أقرباء الزوج إلى دار إسلان ؛ ولم يكن يدخل مع العروس إلى منزلها الجديد سوى النساء . فتتقبّلها خادمة تعمل مع الخاطبات ، وهي وصيفة (كُلاسة) تساعد العروس طوال احتفالات الزفاف . وبعد أن تستريح قليلاً ، كانت الخاطبات يُلبسنها الرداء الذي كانت قد لبسته في منزلها ويخضبنها . ثم يقدنها وهي محجوبة إلى عتبة غرفة الزفاف، ويقدّمن لها رغيفين تضعهما تحت إبطيها ومجموعة من المفاتيح ؛ تحيط بها اثنتان منهن ، إحداهما تمسك قدحا من لبن ، والأخرى طبقاً من تمر . فتتقدم أم الزوج ، وتعطي قطعة من نقود

---

(53) وقيستير مارك، المرجع المذكور ، ص. 147 .

(54) نفس المرجع . ويشير ليون الافريقي (القسم 2 ، ص 122) إلى أن هذه العادة القديمة جداً بالتأكيد ، كانت متبعة في شمال المغرب كله (ويستير مارك ، المرجع المذكور ، ص. 148 - 149) . لقد أهملت هذه العادة ، وما زالت القبة تحمل للأسر الشريفة ، لكن العروس لم تعد تطلع فيها .

للخاطبات ، « وترفع الحجاب الذي كان يغطي وجه امرأة ابنها التي تبقى مطبقة العينين ، وتقبلها بخفة على وجنتها وتسدل الحجاب ؛ ثم تشرب جرعة من لبن في القدح الذي تقدمه لها (النكّافة) وتأخذ تمرة من الطبق الذي تقدمه لها (النكّافة) الأخرى وتعود الى مكانها »[55] .

وهكذا فإن العروس كانت تتقبل بادئ ذي بدء تهانئ (سلام) حماتها ، فكانت تتبناها أسرة زوجها حتى قبل اقترانها به . ثم كانت الخاطبات يحملنها على الأكتاف ، كما فعلن سابقاً ، بعد إعادة حفل المنبر ، كما حدث ذلك ليلة « القوالب الكبار » ، لكن بدون أن يكرر رهن العروس وتسليم الهدايا .

وفي هذه الأثناء ، كانت خاطبتان تذهبان للبحث عن الزوج في دار إسلان حوالي الساعة الخامسة صباحاً ، حاملتين إليه « جلابة » وبرنسا من الصوف الرفيع والحرير الأبيض (كساء) . وكان أصدقاؤه يساعدونه على وضعها فوق ملابسه ويصحبه الجميع إلى باب دار العرس ، شبانا وخاطبات : كان الشبّان لا يدخلون[56] لكنهم يؤدون الغرامة للخاطبات ، ويدخل الزوج وحده إلى الفناء ويفتح لنفسه الطريق بين جمهور المدعوات ليلتحق بغرفة زوجته ، وغطاء رأسه مسدل على عينيه . كان يقف وراءها ، بينما الخاطبات ينوهن بها مرة ثانية . ثم إن الخاطبات يُدرن الشابة إلى جهة زوجها ويُزلن الحجاب عن وجهها ، فيتقابل الزوجان للمرة الأولى ، في أغلب الأحيان . تكون تلك اللحظة مؤثرة بالنسبة لهذين المخلوقين ، لا سيما في المحيط الاصطناعي المتوتر الذي كانا يعيشان فيه منذ أيام عدة ؛ كان كلاهما ينتظر هذه

---

(55) ق. بنعبد الجليل ، نفس المرجع .

(56) حسب ڤيستيرمارك (المرجع المذكور، ص. 198 - 199)، كان أصدقاء الزوج يصحبونه حتى عتبة غرفة العرس بعد أن التحقت المدعوات بالطابق الأول، وقد أنبئن بزغاريد الخاطبات .

وقبل مغادرة الزوج ، كانوا يتلقون هدية التمر والحليب لفائدة الخاطبات . وهذه العادة المذكورة هكذا كانت متبعة في الأوساط الشعبية ، لا سيما في العائلات الوافدة مؤخراً من البادية ، لا في الأوساط البجورجوازية .

اللحظة بإحساس قريب جداً من القلق ، فكان بعض الشبـان الضعيفي الأعصاب لا يتحملون صدمة النظرة الأولى فيعرفون فترة من الصحف .

وسرعان ما تضع الخاطبات حداً لهذه النظرة الأولى التي كانت تنبئ بسعادة الزواج أو تعاسته ، فيأخذن العروس إلى قبة العرس ، ثم يدخلن الزوج . كان هذا الأخير يضع يده اليمنى على كتف رفيقته ويهمهم بآية من القرآن تكون عادة هي آية الكرسي[57] . كانت الخاطبات يخلصن الشابة من جميع الحلي التي عليها ، وينظفن وجهها المكسو بالخضاب ، ويتركنها مع زوجها ، وهي لابسة قميصاً رقيقاً وسروالاً « ناصع البياض ، وهو رمز البكارة » . كان هذان المخلوقـان ، وهما سيتصلان بعد قليل ، يجدان نفسهما وجها لوجه للمرة الأولى . كانت اللياقة تفرض ألا يتم الزواج ذلك الصباح ، كما كان التعب والانفعال يعززانها[58] .

وكان أول يوم بعد « ليلة الدخول » يدعى الصباح[59].كان الزوج يذهب في الصباح الباكر إلى دار إسلان،حيث يلتقي من جديد بأقرب الأصدقاء إليه ، ثم يعود إلى القبة الزوجية لتناول الفطور . وبعد قضاء هنيهة بدار إسلان كان يزور امرأته في منتصف العشية تقريباً ، وهي مزينة مثل صنم ، وجالسة على كدس من الوسائد ، مغمضة العينين ؛ وهذا العرض ، الذي كان سيتجدد في الأيام التالية ، لم يكن يدوم أكثر من ربع ساعة .

وفي هذه الأثناء ، كانت فتيات الأسرة بارزات بفناء الدار التي غادرتها

---

(57) القرآن ، السورة 2 ، الآية 256 .

(58) من المعلوم أن هذه إشارة عامة قابلة لتغيرات فردية متعددة . وبالعكس من ذلك في فاس الجديد عند العائلات الوافدة مؤخراً من البادية ، كان لا بد من أن يتم الزواج ابتداءً من أول لقاء بين الزوجين .

(59) كان جوق مؤلف من الطبالين والغياطين يأتي في الصباح الباكر، بفاس الجديد، وفي الأوساط الشعبية بالرباط ، ليتمنى للزوجين صبيحة سعيدة ، مقابل مكافأة (ڤيستيرمارك ، نفس المرجع ، ص . 199 -200) .

العروس ، وهن متزينات بحلي فاخر (وعددهن ثلاثون أحياناً) . وكانت هذه في الغالب مناسبة تتاح للأمهات ليخترن زوجة لابنهن المقبل على ذلك .

وبعد تناول طعام العشاء ، كان الزوج يعود إلى القبة ، وتكون تلك الليلة عادة ليلة إتمام الزواج[60] . وفي ساعة مبكرة من نهار الغد (الصبوحي) كانت جميع النساء المتزوجات يجتمعن وهن ينتظرن الخاطبات اللوائي كن يحملن بعد قليل سراويل العروس وهي ملطخة بالدم ، بعد أن عرضنها على أبوي الزوج فأعطياهن مالاً كعلامة على فرحهما . وتنصرف المدعوات فوراً لتستأنف الدار حياتها المعتادة[61] . وفي عشية نفس اليوم كانت تجري بدار العرس حفلة يقدم الزوج خلالها هدايا إلى زوجته[62] ، وتقع حين إبراز العروس حسب نفس الطقوس المتبعة في الأمس .

وفي اليومين التاليين (نهار ثاني الصبوحي ونهار ثالث الصبوحي) ، كانت العروس تبرز في آخر العشية ويزورها زوجها ، بينما يستمر توافد المدعوات على دار العرس . وابتداء من يوم الغد (النهار الثاني للصبوحي) كانت دار إسلان تفقد طابعها الخصوصي ، لكن الزوج كان يقضي فيها باستمرار جميع أيامه مع أعز أصدقائه ، وهم يلعبون الورق ، ويتداعبون أو يتحدثون[63] .

---

(60) إذا تم الزواج من أول ملاقاة الزوجين ، كان الخبر يؤجَّل إلى يوم الغد ، وذلك حسب اللياقة ؛ لكن ذلك لم يكن يخدع أحداً ، إذ كان الكل ينشر خبره .

(61) حسب ڤيستيرمارك ، (المرجع المذكور ، ص. 201) إذا اتفق أن لم يتم الزواج ذلك اليوم ، كان الضيوف يمكثون حتى يتم ، ولكن مع ذلك بدون تجاوز الأجل الذي هو تسعة أيام . وهذا الشرط الصالح لفاس الجديد لم يكن يهم الأوساط البورجوازية بالمدينة ، حيث إنه إن لم تتم حفلة السروال تفرقت النساء رغم ذلك .

(62) إليكم قائمة هذه الهدايا التي وضعها السيد قاسم بنعبد الجليل (المرجع المذكور) : أربع قطع من النسيج النفيس ، وزوجان من الأحذية المطرزة بالذهب ، وحزام مطرز بالذهب ، وثلاثة مناديل ، وصندوق صغير للتجميل (وهذه طبعاً بدعة متأخرة بكثير عن إقامة الحماية) ، وعطور ، وثلاثة أو أربعة أرطال من خشب الصندل ، وزوجٌ من الأقراط الذهبية المرصعة بالأحجار النفيسة ، ومرآة كبيرة .

(63) كان بالإمكان في المنازل الفسيحة ، أن يقيم الزوج بالطابق الأول ، تاركاً دار إسلان .

وكان اليوم الخامس يحمل اسم « نهار حل الراس » : وفعلاً كانت الخاطبات يحللن زينة الرأس الخاصة بالعروس (سلتة) ويعوضنها بزينة النساء المتزوجات ، وهي ضفيرة في كل جانب من جانبي الرأس . كانت المدعوات كثيرات العدد لمشاهدة هذه الحفلة التي كانت تخلد ذكرى تبديل الحالة للشابة ؛ فكن يرتدين ملابس فاخرة ، « فويل للتي ترتدي نفس ملابس البارحة ، إذ كانت موضوع انتقادات كثيرة ومحط جميع الأنظار »[64] . إلا أن العروس ، وهي دائماً مزينة بأبهى الحلي ، كانت تلبس ملابس أكثر بساطة : كانت الحلي وزينات الرأس تعوّض بمنديل مطرز (سبنيّة) وواسع بقدر ما يسدل على الوجه . وكانت الخاطبات يجلسنها على عتبة الغرفة ، مولية ظهرها للفناء ، فيأتي إذ ذاك الزوج ويتناول من يدي إحدى الخاطبات ضفيرة من شعر زوجته ، ويجدّ في حلها بعض الشيء ؛ وبعد ذلك ، كان يلصق بجبينها قطعة من ذهب ويسلمها للخاطبات ليزين رأسها . وإذا تم كل ذلك ، قدمت إلى المدعوات بدون خضاب فاتحة عينيها . وكان والد العروس يرسل ذلك اليوم أيضاً ، من قبل ابنته ، الهدايا المعتادة إلى أقرباء الزوج وقريباته ملفوفة في أقمشة مطرزة ، وكانت عبَارة عن قفاطين ، وفوط مطرزة ، وَمَناديل مختلفة . كان ذلك ما يسمى بالصواب[65] . وأخيراً كانت العروس تتسلم من أمها ثلاث موائد مملوءة إحداها بالبيض المصلوق ، والثانية بخبز الأبازير المحلى (قراشل) والثالثة باللوز المقلي ؛ كانت هذه الهدية تدعى « الحمّام » لأن العروس كانت تستحم في المساء بمساعدة الخاطبات[66] .

---

(64) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . كانت المدعوات يبدلن ملابسهن كل يوم ، وفي غالب الأحيان مرتين وحتى ثلاثة مرات في اليوم

(65) تدل لفظة صواب على هذه الهدية في كلام فاس ، ولكن أيضاً بصفة أعم ، على كل تبادل للمجاملات التي كانت تتم في خامس يوم للزفاف وسادسه . الصواب معناه ما يليق ، ما يجب أن يعمل .

(66) كان يجري هذا الاستحمام ، إما في الحمام العمومي (ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 242) وإما في إحدى ملحقات غرفة العرس «المحوّلة إلى قاعة للنظافة » (ق . بنعبد الجليل ، المرجع المذكور) .

وفي اليوم السادس المسمى (نهار الغسيل)من أجل الاستحمام ليلاً، كانت الخاطبات قبل إبراز العروس للجمهور يسوين على رأسها قلنسوة النساء المسنات من أصل عريق (حنطوز) . ثم يتم العرض ، لكن ثلاث مرات متتالية[67]،ترتدي فيها العروس كل مرة لباسا مغايراً (لباسات) . وغالباً ما كان أبو المرأة الشابة يرسل أيضاً إلى صهره في ذلك اليوم أربع أو ست موائد ، إحداها من كعب غزال ،وأخرى من غريبة ، وواحدة أو اثنتان من المحنشة ، وواحدة أو اثنتان من البسطيلة[68] . وكان قسم من هذه الأطعمة (الفطور) على الأقل يوضع جانباً ترقباً للغداء الذي كان يجمع ، في اليوم الثامن أو بعده ببضعة أيام ، رجال الأسرتين (البوسة أو بوسليت) ، والذي كانت العروس تتعرف فيه على رجال أسرة زوجها .

وأخيراً في اليوم السابع بعد أن يكون الزوجان قد قضيا آخر ليلة في قبة العرس ، كانت الخاطبات يأتين لإصلاح كل شيء ثم يغادرن دار العرس . ومنذئذ يعود الزوجان مخلوقين عاديين كغيرهما ، بعدما خضعا للعوائد التابعة لتبديل حالتهما . ومع ذلك كانت العروس تصنع الخبز في اليوم التاسع « حتى يكثر دائماً في الدار » وتحضر طبقاً من السمك ، لأن « أكل السمك يجلب حسن الحظ »[69] .

وكانت العروس ترتدي بهذه المناسبة لباس الطباخات : فوطة ملفوفة حول الخصر ، وقباقب في الرجلين ، لكن الفوطة كانت من القماش الرقيق المطرز ، والقباقب مرصعة بالصدف . ومن المحتمل أن تحضير السمك الذي

---

(67) سبع مرات حسب ڤيستيرمارك (ص. 243) .

(68) كعب غزال حلويات من عجين اللوز ، وغريبة حلويات أخرى حافة من السميد والسكر ، والمحنشة عجين اللوز ، والقرفة والسكر والسمن معطر بماء الزهر ومغلف في عجين مورق ملفوف على شكل حلزون ؛ والبسطيلة شبه فطيرة مورقة ، محشوة بلحم الحمام ، والبيض ، واللوز والتوابل ، ويذر السكر فوقها .

(69) ڤيستيرمارك ، ص. 261 إني أتساءل هل هذا التفسير صالح إذ لا يعرفه أصدقائي الفاسيون .

كان يعتبر صعباً جداً في القديم ، كان بمثابة تجربة تُمِكّن أم الزوج من تقييم الخصال المنزلية لزوجة ابنها ؛ لكن الحفلة لم تحتفظ بعد مع مرور الزمان ، إلاّ بقيمة رمزية ، هي بداية المرأة الشابة في الحياة المنزلية .

كان الزفاف الذي وُصف قبل قليل ، أول زفاف لكلا الزوجين . فإذا سبق لأحدهما أن تزوج ، كانت تطرأ على الحفل تغييرات متفاوتة الأهمية حسب الحالات .

فقبل كل شيء ، إذا كانت الزوجة أرملة أو مطلقة (هجّالة) ، كان الصداق المطلوب من الزوج مبدئياً أقل من الصداق المطلوب بالنسبة للبكر ، فيكون الفارق عادة هو الضعف .

وإذا تزوجت أرملة أو مطلقة من عازب (عزري) كانت الاحتفالات المذكورة تلغى بالنسبة لدار العروس قبل زفها إلى دار العرس ؛ وكان أبو المرأة الشابة يكتفي بوليمة يستدعي لها أناساً من أقاربه . لكن من الوقت الذي تغادر العروس فيه منزل أبويها كانت حفلات الزفاف تجري كما وصف سابقاً .

وفي الحالة العكسية ، أي إذا لم يسبق للعروس أن تزوجت قط ، ولكن الزوج أرمل أو مطلق أو متزوج بأخرى ، فإن الاحتفالات فيما يخص الفتاة ، كانت هي نفس الحفلات الموصوفة سابقاً ؛ لكن تحذف دار إسلان وجميع الحفلات المتعلقة بها . وأخيراً إذا كان الزوجان معاً سبق لهما زواج ، فإن جميع الحفلات تحذف . وفي اليوم المعين يكتفي الزوج بإيفاد امرأة أو امرأتين للإتيان بخطيبته ، عند غروب الشمس ، ويقيم وليمة في منزله مساء .

وبخصوص الطلاق وتعدد الزوجات ، ليس هناك مبدئياً شيء خصوصي يذكر ، لأن فاساً تتبع أحكام الفقه المَالكي كغيرها من مدن إفريقيا الشمالية . إلاّ أنه يجب اعتبار العادة الفاسية (العمل الفاسي) التي تدخل على هاتين المسألتين قيوداً صعبة جداً . فالطلاق بالأخص نادر جداً عند البورجوازية الفاسية . وبمجرد ما يصبح الطلاق مهدداً ، يجتهد الأقارب والأصدقاء في

حمل الزوج على العدول عنه ؛ وفعلاً فإن الطلاق مكروه جداً ويتسبب في الفضيحة ، ما عدا في حالات استثنائية ، وهو بالعكس من ذلك كثير الانتشار في الاوساط الشعبية . كما أن تعدد الزوجات ـ على ما يبدو ـ لم يكن يشكل القاعدة العامة[70] .

* * *

كان من الضروري أن نلح طويلاً على احتفالات الزواج ، وذلك لعدة أسباب . فقبل كل شيء ، إن الزواجات كانت وما زالت ، أحداثاً في غاية الأهمية ، لا في حياة الأفراد والعائلات فحسب ، ولكن في حياة الحاضرة بأسرها . ففي الفصل الجميل تعير هذه المدينة المكتظة بالسكان قسماً من انتباهها إلى الزواجات؛ ويكون عدد المدعوين عظيماً، يصل أحياناً إلى عدة مآت ، وتكون النفقات باهظة ، إلى درجة أنها تؤثر تأثيراً حقيقياً في اقتصاد فاس : فلنفكر في الأقمشة النفيسة المستوردة من الخارج ، وفي الطلبات المقدمة إلى الصناعات المحلية ، وفي المواد الغذائية المستهلكة أثناء هذه الأيام من الأفراح ، وفي الأنقال التي يقوم بها الحمالون ، وأخيراً في طوائف الحرف ، كطوائف الخاطبات والعازفين المرافقين للموكب ، والجوق الموسيقى ، والحلاقين الذين يكسبون عيشهم ، طوال عدة شهور بمساهمتهم في احتفالات الأعراس .

إن حفلات الزواج ، وهي عنصر لا يستهان به في الحياة الاقتصادية ، كانت أيضاً تسلية عظيمة : فخلال سبعة أيام ، أو عشرة إذا عددنا الاحتفالات التحضيرية ، كانت أسر كاملة ، لا سيما الأطفال والنساء ، لا يفكرون إلا في ذلك ولا يعيشون إلا له . مهما كان عدد حفلات الزواج قليلاً فإقامة ثلاثة أعراس أو أربعة بين الأهل او المعارف كان ذلك يعني قضاء أكثر من شهر في الأفراح والولائم . فلا نستغرب في هذه الحالات أن يُقبل الفاسيون على دفع

(70) إن المتطورين حالياً يعارضون تعدد الزوجات في غالب الأحيان . وفيما يخص الخطبة والحياة الزوجية ، فإنهم يميلون إلى التصورات الغربية التي ليست متناقضة مع الشريعة الإسلامية .

حصتهم لأداء مصاريف هذه الملاهي ، شريطة أن يعاملوا بالمثل . لقد رأينا في عدة مناسبات أن جميع المدعوين أو المدعوات كانوا مقيدين بالعادة ، لا لتقديم الهدايا للعروسين فحسب ، كما هو جار به العمل بأوروبا ، ولكن للمساهمة في دفع أجر الحلاقين والخاطبات[71] .

عندما نشاهد الأشياء من خارج ، نكون ميالين إلى الاحتفاظ قبل كل شيء بذلك المظهر الاحتفالي للزواج الفاسي . يجب ألا نقف عند هذا الحد ، ولكن نعتبر حقاً المظهر الجوهري لهذا العمل ، أي اقتران شخصين وأسرتين ، والوسائل الكفيلة بتسهيل هذا الاقتران . إن لهاتين السلسلتين من الأحداث المتداخلة جداً بعضها في بعض ، نفس الجوهر ، إذ أنهما تشكلان معاً طقوساً عـابرة[72] وتؤثران في الزوجة بالأخص ، حيث إنها تمر من المجموعة العائلية الأصلية إلى المجموعة العائلية المتبناة ، وتمر من حالة البكر إلى حالة المرأة المتزوجة . وأخطر وقت وذروة المأساة هي طبعاً الليلة التي تغادر فيها الفتاة منزل أبويها ، وتجد نفسها ، للمرة الأولى ، أمام زوجها . ينبغي ، تلك الليلة، أن تتخذ أكبر الاحتياطات ، وأن تحترم بدقة الطقوس التي اشتهرت ، منذ أجيال ، بأنها تستطيع أن تسهل أكثر تغيير الحالة المـزدوجة المفروضة على المرأة . لكن جميع الطقوس السابقة لهذا الوقت الحرج والتابعة ، لها هي الأخرى قيمة كبرى ، لأنها تساهم أيضاً لا في تأمين سعادة شخصين فحسب ، ولكن بصفة خاصة في رسوخ الفرع الجديد الناشئ من شجرة الحياة ، بالإضافة إلى أنها تعطي الزواج كل الإشهار المطلوب في الفقه الإسلامي . ومن ثم الضرورة المعترف بها شيئاً فشيئاً ، لوجود طائفة المحافظاتِ على التقاليد ، وهن الخاطبات .

---

(71) إن الذين يزوجون أولادهم ، في الأوساط الموسرة ، يمكنهم جيداً أن يتخلوا عن هذه الإعانة من المدعوين . فإذا قبلوها ، فذلك للاحتراز من أن تستحي العائلات ذات الوسائل المحدودة من قبول المساهمة، المواتية لهم كثيراً، من ضيوفهم في مصاريف الزفاف .

(72) انظر ڤيستيرمـارك ، المرجع المذكور ، ص. 292

الخـاطبـــات : ـ لقد رأينا ، طوال الوصف السابق ، أن هؤلاء النساء كن حاضرات بدون انقطاع ، وعاملات بدون توقف ؛ فلا يجب اعتبارهن كمجرد مكريات للملابس والزينات ، ولا أن يخصص لهن دور ثانوي كدور منظمي شؤون جنائزنا ، أو بوابينا أو قواسي كنائسنا مثلاً . بل يجب أن يعتبرن المحافظات على عادة أساسية ، وكاهنات طقوس الزواج ، إن لم يكن هذا اللفظ جارحاً لإحساس مجتمع إسلامي . وفضلاً عن ذلك فهن مؤهلات تماماً بحكم دورهن ، لا سيما الوصيفة التي لا تفارق الزوجين أبداً أثناء الأيام السبعة الأولى من وصالهما ، لِيُستعملن كشاهدات إذا ما حدث نزاع في المسائل الزوجية . إن شهادتهن تكتسي لدى العادة الفاسية قيمة تكاد تعادل شهادة عدل .

هذا شيء عظيم لكنه ليس كل شيء : ذلك أن هؤلاء الخاطبات (نكّافة ج نكّاكْف أو نكافات أو ماشْطة أيضاً ، ج ماشطات)[73] لم يكن دورهن يقتصر على إنجاح احتفالات دقيقة ، مؤمّنات هكذا أمن المنازل ؛ بل كنّ يتدخلن بكيفية صارمة في الغالب ، في حياة فاس الباطنية . لذلك ينبغي أن توجه إليهن الأنظار لحظة .

ومن غريب المفارقات أن هؤلاء المحافظات على العادة لا ينتمين إلى

---

(73) معنى الكلمة العربية نكّاف (مؤنثهُ نكّافة) هو : حذِر متحفظ (والنطق بنكّافة تحريف عامي) ولفظ ماشطة هو اسم فاعل مؤنث للفعل مشط فلا بدَّ إذن من اتخاذها في الاشتقاق بمعنى ، ماشطة ، ملبسة . لكنها كانت تطلق ، منذ القرن السادس عشر ، عادة على «التي تصحبُ العروس إلى دار الزوج ، « ليلة الزفاف » (دوزي ، **ملحقات** ، جزء 2 ، ص. 594). وليس من باب الصدفة في اللهجة الدارجة الفاسية، أن يستعمل دائماً لفظ نكافة، لأن دور هؤلاء النساء يفوق بكثير دور مجرد ملبسات ،،قد يليق جداً هنا استعمال لفظ قابلة، لو لم يكن له عندنا معنى آخر . ونظراً لتنوع دورهن بفاس ، لم أتردد في استعمال لفظ خاطبات ، وإن لم يترجم حرفياً لا هذا ولا ذاك من اللفظين العربيين .

إن المعلومات التي جمعتها حول خاطبات فاس تكاد تكون كلها نتيجة تحرٍ شخصي قمت به محلياً في ربيع 1945 . وأشكر بالأخص السيد علال الكردودي التلميذ السابق بثانوية مولاي إدريس الذي أدخلني عند الأمينة الحاجة فاطمة التازية .

أصل عريق ، وعلى الأقل في شكلهن الحالي . إن ليون الإفريقي يتحدث حقاً عن « نساء يكلفن بتزيين العرائس »[74] لكن ، حسب التفاصيل التي يدلي بها ، يبدو جيداً أنهن يقمن فقط بدور ملبسات[75]، مقتصرات على « تهييء » العروس قبل ذهابها إلى بيت العرس . ولا يمكن بالضبط تحديد التاريخ الذي أخذت فيه الخاطبات يتظمن أنفسهن ويتخذن الأهمية التي رأيناها لهن ؛ إلا أننا يمكن أن نفترض بأن ذلك كان حوالي بداية القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وهو التاريخ الذي تكاثر فيه العبيد السود بالمغرب[76] ؛ وحتى بداية القرن العشرين ، كانت الخاطبات كلهن تقريباً زنجيات معتقات .

كن يشكلن ، في أوائل القرن العشرين ، طائفة[77] تديرها أمينة (مؤنت أمين) . كانت تُقترح على المحتسب من طرف معلمات الطائفة وتلعب تقريباً نفس الدور لرؤساء طوائف حرف الرجال : كانت تستعمل كخبير في النزاعات التي قد تحدث بين أعضاء الطائفة ، أو بين الخاطبات والزبناء ؛ ومن جهة أُخرى ، كانت تعرض على المحتسب تعيين المعلمات للموافقة عليهن . وكانت دائماً امرأة مسنة غنية ، محترمة[78] .

كانت الطائفة مقسمة إلى عدة جماعات تسمى (رباعات)[79] على

---

(75) وإليكم حديثه عنهن (الترجمة العربية المغربية ط. الثانية ، 250:1) : « وفي اليوم التالي تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس فيمشطن شعرهن ويزين خدودهن بالحمرة ، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد مع رسوم جميلة ، لكن هذه الأصباغ لا تدوم طويلاً . وفي هذا اليوم تكون الوليمة الثانية ، فتوضع العروس فوق منصة ليشاهدها الجميع ، ويقدم الطعام للسيدات اللواتي قمن بتجميلها » .

(76) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(77) وهو شيء استثنائي في فاس بالنسبة للنساء : انظر ما سبق ، الكتاب 5 الفصل 2 ، ص. 295 ، هامش 1 .

(78) لقد حظيت لدى الأمينة الحالية باقتبال مشرف جداً . إنها تناهز الثمانين من عمرها ـ حسب ما قيل لي ـ وتظهر السلطة والفطنة . وخلافاً لزملائها رؤساء الطوائف الحرفية ، احتفظت بكل نفوذ الطوائف في العهد القديم .

(79) يرجع هذا الاسم على الأرجح الى العهد الذي كانت الطائفة فيه تضم أربع جماعات فقط .

رأس كل واحدة منها معلمة . كان عددها سبع (رباعات) في دولة مولاي عبد العزيز ، هي رباعة زايدة شقرونة ، وزايدة بنانية ، ومباركة العبدلاوية ، والحاجة مريم ، وزايدة الحبابية ، وهي الأمينة ، والياسمين الميسورية ، وياقوت السلاوية . وبمجرد قراءة هـذا السرد ، يتبين أن جميـع هؤلاء المعلمات تقريباً كن يحملن أسماء أسر فاسية عريقة : كبنشقرون ، وبناني ، والعبدلاوي ، والحبابي ، والسلاوي . لكن أية واحدة من بين هؤلاء لم تكن فاسية الأصل : ويدل اسمهن الشحصي (زايدة ، مباركة ، والياسمين . والياقوت) بوضوح على أنهن إماء . وفعلاً كن كذلك حقاً ، أو بالأحرى كن معتقات[80] ما زلن يحملن أسماء مواليهن السابقين ، كما فعلن عندما كن يخدمنهم في بيوتهم[81] . ومن جهة أخرى ، كان هذا المولى السابق في أغلب الأحيان هو الضامن لهن ، إذ لا واحدة منهن كانت تستطيع أن تنخرط في الطائفة لو لم يكن لها ضامن معروف جداً بالمدينة : فكان ثمن الزينات المتداولة بأيدي هؤلاء النساء ، والاطلاع الخطير الذي سرعان ما كن يكتسبنه على حياة فاس الباطنية ، يستلزمان أن تكون قيمتهن الأخلاقية مضمونة . فمن كان يا ترى قادراً على ذلك أكثر من المولى الذي عشن عنده ومنذ ولادتهنّ أحياناً ؟ ولم يكن هذا الضامن كافياً دائماً ، إذ كان لا بد من جهة أخرى أن تكون طالبة الخدمة معروفة من واحدة أو عدة خاطبات مثبتات . فكان لمبدإ العلاقات الشخصية ، الراسخ بفاس بهذا القدر ، تأثير بالنسبة لهذه الطائفة أكثر من أية طائفة أخرى .

كانت معلمة كل جماعة تساعدها ثلاث أو أربع نساء ماهرات في المهنة

---

(80) منذ إلغاء الرق واضمحلاله تدريجياً ، فإن الزنجيات الحالكات السواد الموسومات بعلامات في وجوههن قد عُوِّض شيئاً فشيئاً بنساء بيض ، جلهن خادمات قديمات ، من أصل بدوي ، لا توجد من بينهن أية امرأة من أصل فاسي . وبما أن هده الحرفة ليست حرفة امرأة حرة كان من العار أن تراولها امرأة فاسية .

(81) لم تقتصر علاقاتهن على هذا ، بل إن السيد أو ورثته هم الذين كانوا يرثونهن إذا متن ، لا أبو المواريث ، طبقاً لقانون الولاء .

(صانعة ج صانعات) ومتحليات بضمانات أخلاقية خصوصية ، بالإضافة إلى عدد غير محدد من العاملات (متعلمات) معظمهن على درجة من البلادة ، بحيث لا يرتقين أبداً إلى الدرجة العليا . وكان عدد أكبر الرباعات يصل إلى أربعين زنجية ، وأقلها من خمس عشرة إلى عشرين فقط[82] . كانت للمعلمة على مستخدماتها سلطة واسعة غالباً ما كانت تتجسد في اتخاذ عقوبات بدنية ؛ فلم تكن العاملات ولا المتعلمات يستطعن الولوج في رباعة أخرى بدون إذنها الصريح أو بدون إذن المحتسب ، وكان ذلك نفس الشيء ، لأن المحتسب في الخلافات القائمة بين معلمة وعاملة ، كان دائماً يؤيد المعلمة . وبالتالي فقد توطد تضامن متين بين مختلف المعلمات : فلم تكن أية واحدة منهن تحاول إغراء مستخدمات زميلاتها . بالإضافة إلى أنهن كن يتمتعن باعتبار لا ينكر ، يتناسب وثرواتهن وعدد مستخدماتهن .

لم يكن يقلّ سنُّ أية امرأة من هؤلاء النساء عن الخامسة والعشرين ، ويجاوز معظمهن الثلاثين . كما أن أية واحدة منهن لم تكن متزوجة ، وهذه قاعدة مطردة في الطائفة ؛ فاذا اتفق لإحداهن أن تزوجت ، فإنها تنقطع فوراً عن مزاولة حرفتها . وكان ممنوعاً عليهن أيضاً ربط العلاقات بالرجال من غير زواج ، لكن ألسنة السوء تؤكد بأن المغامرات الغرامية من نوع آخر لم تكن غير معروفة عندهن ؛ إلا أنهن على العموم كن مشهورات بحسن السلوك ، معروفات بالتدين . ألم يكن يشاركن التجار في شراء الرداء الذي يهدى كل سنة لتغطية ضريح المولى إدريس ؟ ألم تكن أغنياتهن كلها مختصة بالتسبيح لله أو بمدح رسوله ؟ وسنرى أخيراً أنهن لم يغفلن قط تقديم هدية إلى المولى إدريس عندما كن يتسلمن عربون الزواج أو عندما كنّ يتقاسمن أرباحهنّ . كانت كل واحدة منهن تسكن في بيتها ، لا يأتين عند المعلمة إلا لحاجيات خدمتهن أو من أجل استقبالات ودية .

---

(82) عدد جماعات الخاطبات حالياً هو ست جماعات ، ولا تضم أية واحدة منها أكثر من سبع او ثماني نساء . وهذه حجة أكيدة على أن الاحتفالات العرسية فقدت الكثير من روعتها .

كن يتعيشن مبدئياً من حرفتهن لا غير ، فكان كل شيء يسير على ما يرام إبان حفلات الزواج ، لكن عندما كانت تحل البطالة الشتوية ، كان الكثير منهن بدون موارد ، لا سيما العاملات (المتعلمات) ؛ فكان بعضهن يتعاطين حينئذ أعمال التطريز مثلاً ، في انتظار عودة الربيع والأعراس ، وكانت الأخريات يلتجئن بضعة أسابيع أو شهور الى منزل سيدهن القديم ، على أن يساهمن في الأشغال المنزلية كذي قبل ؛ كما كانت أخريات يحصلن على استضافة ثمانية أيام في أسرة زبونة ، وثمانية أيام في أسرة أخرى ، ويقضين فصل الكساد كيفما تيسر لهن . كانت الأسر تقبل هذه الضيافة دون كبير امتعاض لأنها كانت تُكسبها أكثر عناية الخاطبات .

كان نشاطهن الرئيسي يباشر، كما رأينا ذلك، بمناسبةالأعراس. كان لهن دور في بعض الاحتفالات العائلية الأخرى . فكن ينظمن في اليوم الموالي لسابع يوم ولادة أول طفل عرض الوليد (برزة) ، وعلى الأقل في الأسر الكبيرة[83] .

وبمناسبة (الختان) كان يقع استدعاؤهن غالباً لقراءة دعوات مباركة يعرفنها وحدهن ، ويتسلمن أجرة متناسبة مع كرم العائلة . فضلاً عن أن بعض الجماعات كانت تكري ملابس الختان . وبعد مرور يومين على الحفل ، وتحت ستار الرجوع لاستعادة هذه الملابس ، كن يقمن بزيارة ويتسلمن بعض الهدايا علاوة على مقابل الكراء . وأخيراً بمناسبة العودة من الحج والوفيات ، كن يستدعين أحياناً لقراءة الصلوات على النبي .

وكن يشاركن كذلك في الاحتفالات الرسمية : فلدى الدخول الرسمي للسلطان إلى فاس ، وعندما كان عامل جديد أو وزير جديد يتقلد مهامه ، كن يصنعن دُمى (أبيضيات) مزينة كالعرائس بحلى حقيقية تعرض على العاهل أو

---

(83) لقد اختفت هذه العادة تماماً . كان رب البيت يكافئهن كما يجب ؛ وكن يستلمن علاوة على ذلك بعض النقود من المدعوات اللاتي كن قد ساعدنهن في تزيينهن .

الشخصية الكبيرة ، عند مروره ، فيتوصلن بمنحة مالية ، جزاء لهن ، ويستدعين إلى قضاء ثلاثة أيام أو أربعة بالقصر .

وكان نشاطهن في الأعراس يباشر بثلاث كيفيات مختلفة :

أولاً : كانت المعلمات كما أسلفنا ، يُستشرن في غالب الأحيان لاختيار الزوجين ؛ وكان في وسعهن الإدلاء بمعلومات مفيدة لكثرة ما يعرفن من الأسر .

ثانياً : كن يكرين الملابس والحلي الضرورية للعروس . كانت كل الجماعات تملك ملكاً خاصاً الملابس الأساسية ؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للحلي واللوازم اللباسية الأخرى ، لأن جل المعلمات لم يكنَّ غنيات حتى يقتنين كل ما كان لا بد منه . كنَّ إذن يكترينها من بعض الأسر البارزة ، كآل لحلو ، وبنيس ، ومكوار وغيرها كثير ؛ وكان الكراء لمدة شهر ، مقابل عربون . كانت الخاطبات يتصلن عادة بعدة مقرضين ، لأن هؤلاء وهم قليلو الاهتمام بالتعرض إلى المخاطر الكبرى ، كانوا يرفضون التخلي عن كثير من الأشياء النفيسة . وفعلاً ، ففي حالة سرقة (وكان هذا شيئاً نادراً ، لكنه ممكن الحدوث) لم تكن الخاطبة الرئيسة تعوض سوى نصف ثمن الشيء الضائع[84] . وتقوم الخاطبات بدورهن بإكراء هذه الأشياء لأسرة العروس ، لكن باليوم ، لا بالشهر ، ومن ثم يأتي ربح لا يستهان به .

ثالثاً : كانت « النكَّاكَف » ينظمن حفلات الزفاف ، كما أسلفنا القول ، غير مقتصرات على التخفيف على العائلات من الاهتمام بتهييء العروس وتأثيث غرفة العرس ، بل حريصات على أن تكون جميع الشعائر محترمة بدقة ، حسب الرتبة الاجتماعية للزوجين . ولم تعد بعد المعلمات وحدهن المسؤولات ، في هذا المجال الثالث لنشاطهن ، كما هو الشأن بالنسبة للمجالين الأوليين ؛ فكن يكتفين بإعطاء تعليماتهن وتسليم الملابس والزينات

---

(84) لقد تطورت أحياناً هذه العادة ، حيث إن المقرض يتحمل الآن جميع المخاطر .

المتفق عليها لنائباتهن ، ولا يظهرن إلا نادراً في الاحتفالات ؛ وكن يفضلن المكوث في منازلهن لتوزيع العمل ، وللقيام بأنفسهن بحراسة الأشياء النفيسة التي لم يكنَّ يستعملنها .

لم تكن المعلومات التي تعطيها الخاطبات من أجل قران تكافأ مباشرة ؛ كانت تستوجب للتي أدلت بها غذاء فاخراً ، وهدايا وصداقة (زبانة) الأسرة المعنية بالأمر ؛ كانت تكسبها بالأخص الاعتبار والمراعاة المشوبة بالخوف .

كان ثمن كراء الملابس والحلي يختلف حسب جودة السلع[85] وحسب الرتبة الاجتماعية والحالة المالية للزبناء أيضاً ؛ كان يتراوح عادة بين 100 و 200 ريال ، ويؤول بكامله إلى المعلمة . كانت هذه الأخيرة تفرض دائماً دفع العربون قبل الحفل بعشرين يوماً تقريباً ، وتبعث بقسط منه في الحين إلى زاوية مولاي ادريس .

كان معظم الأرباح التي تحققها الخاطبات يأتي من جمع التبرعات أثناء حفلات الزفاف . كان تبرعان في ليلة « القوالب الكبار» وواحد في حفل التعاهد، وآخر عند تسليم الهدايا[86]؛ بالإضافة إلى أن الخاطبات الأربع اللائي كن يحملن العروس على أكتافهن (دورة) يستلمن من 10 الى 20 ريالاً . وكان تبرع آخر خلال «ليلة الدخول» بمناسبة الترحيب بالعروس (غرامة الحليب وسلامة البوسة). وكان حفل «السراويل» يستوجب هدايا جديدة للخاطبات : هدية من الزوج ، وهدايا من النساء اللواتي بُشرن بذلك[87] . كما أن تقديم الهدايا من الزوج إلى امرأته كان يأتي ببعض المال[88] ، وكذلك تزيين الشعر ، في « نهار حل الرأس » . وأخيراً عندما كانت الخاطبات ينهين

---

(85) لم تكن الخاطبات يطالبن بأي ثمن كراء ، عندما كان يتعلق الأمر مثلاً بأسرة شريفة توجد في ضيق مادي .

(86) كانت كل مدعوة تعطي ريالاً أو اثنين .

(87) هؤلاء كن يعطين من ريال واحد إلى أربعة ريالات حسب إمكانياتهن .

(88) كانت العطايا هذه المرة زهيدة أكثر ، تتراوح بين قرش وريال .

عملهن ، بعد مرور سبعة أيام ، كان الزوج يسلم لهن هدية أخيرة تدعى « غرامة سبع أيام » .

وفضلاً عن هذه التبرعات الإجبارية ، كانت المعلمة تتوصل دائماً تقريباً قبل الزواج بهدايا عينية ، كمناديل مطرزة ، وسكر ، وعسل ، وشموع ، وحناء ؛ وغالباً ما كانت المستخدمات ، خلال الاحتفالات يأخذن هدايا أخرى من أسرة الزوج . وأخيراً ، كان من العادة أن تهدي الأسر المخزنية ملابس إلى المعلمة ومناديل (خرقات) إلى المتعلمات .

كانت الهدايا العينية تعود إلى قابضتها ؛ أما الهدايا المالية ، فكانت تجمع في صندوق مشترك (قبض) يوكل بحراسة المعلمة ؛ فكانت توزعه مرة أو مرتين في السنة ، أمام اثنتين من مستخدماتها ، غير غافلة عن وضع حفنة من الريالات جانباً لضريح المولى إدريس . كان نصف المبلغ المقسوم يعود إلى المعلمة ، والنصف الآخر يوزع على المستخدمات . ومعلوم أن لمساعدات المعلمة (صناعات) الحق في ضعف ما تأخذ الخادمات (المتعلمات) . من الواضح أنه ، في نهاية فصل مليء جداً ، لا بد أن يكون المبلغ الذي سيوزع جسيماً ، فلا غرابة أن تكون بعض المعلمات غنيات حقاً .

كان زبناء الخاطبات محدودين تقريباً في مدينة فاس ، لأن أهل فاس الجديد والقصبات ، وكلهم تقريباً من أصل بدوي ، كانوا لا يحتفلون بأعراسهم على الشكل الفاسي ، وحتى لو أرادوا ذلك كان جلهم غير قادرين عليه لفقرهم المذقع . أما بالنسبة إلى القصر ، فلم يكن العبيد منعدمين فيه لتنظيم الأعراس الملكية . كانت إذن البورجوازية الفاسية هي التي تستعمل مصالح الخاطبات ؛ وكان يحدث أن تستحضر أسرة فاسية انتقلت إلى مكناس ، أو الرباط أو سلا أو مراكش ، الخاطبات من فاس للاحتفال بزفاف . كان ذلك نادراً ، لأن المعلمة كانت تشترط ، زيادة على الأجور والهدايا المعتادة ، أن تعفى الجماعة كلها من كل نفقة أثناء مقامها خارج فاس ؛ وكان

القليل من الناس يستطيعون تحمل مثل هذا الترف .

هكذا كانت أولئك النساء اللائي كان لهن تأثير حقيقي في الأسر الفاسية ، وبالرغم على أصلهن الوضيع لم يكن محبوبات جداً لشراهتهن الكبيرة ، كما أنهن لم يكن مبجلات إذ كيف كان بإمكان فاسي أن يقدر امرأة بدون ثقافة ، كانت خادمة منذ عهد قريب ؟ لكنهم لم يكونوا يستطيعون التخلي عنهن لكونهن مطلعات أكثر من غيرهن ، على التقاليد العرسية ، ساهرات على احترامها ، ينجين العائلات من كثير من المشاغل المادية . فكانوا يخشونهن بالأخص لكونهن يعرفن المجتمع الفاسي تمام المعرفة ، لا تنقصهن الأسلحة للدفاع عن أنفسهن وحتى للهجوم . فلأن تتفق معهن امرأة كان ذلك بالنسبة لها الأمل في اجتناب ضرة أو طلاق ، لأن الخاطبات ، وهن يتصلن بالرجال ، لم يكن يترددن في وعظهم . لكن الويل للمرأة التي لم تكن تحسن استهواءهن ، إذ كان في استطاعتهن أن يوصين زوجها بطلاقها أو بالتزوج ثانياً . كن ـ وما زلن ـ تخشاهن العائلات التي أدركت لها بنت أو عدة بنات الزواج ، لأن ميلهن إلى الغيبة ، أو حتى النميمة ، كان معروفاً جيداً .

ولما كان للخاطبات سلطة يستعملنها هكذا ، كن يتجنبن بعناية الخوض في المغامرات الغرامية ، حتى لا يوجهن السلاح ضدهن لو قبلن دور الوسيطات ؛ ومع ذلك فان ألسنة السوء تقول إنهن إذا كن يرفضن خدمة (إيروس) فإنهن أقل صرامة إزاء (أفروديت ليسبوس) ، والله أعلم ! .

لا بد أن نتمنى أن يقوم كاتب فاسي يوماً مّا بتشخيص هؤلاء الخاطبات في مشهد رواية أو كوميديا ؛ فسوف تكون له مادة غزيرة مع هؤلاء النساء الغريبات اللائي يعشن عازبات منقطعات لطقوس الحب ، في بساطة وخشونة ، ومع ذلك يحافظن على عادة ثابتة متشددة ، وهن إماء قديمات ، يفرضن استبداداً صارماً على المنازل البورجوازية بفاس ، طوال أفراح الأعراس . سوف ينطقهن الكاتب بلغة وقار مصطنع ومتدين تتخللها تعجبات وألفاظ تقنية ،

وسيصفهن جشعات، مترقبات كل فرصة للاغتياب والثرثرة، يحسنّ الحديث إلى الرجال أحياناً ، وهديهم أحياناً إلى الصراط المستقيم ، مولعات بالأعياد ، وصراخ الزغاريد ، وجمهور النساء المتزينات ، مشبعات بشرفهن المهني ، كجميع الاختصاصيين بفاس ، يخشاهن الناس ويكرهونهن أحياناً ، ولكنهن لا يعوضن[89] .

(89) لقد نقصت أهمية الخاطبات منذ أن تزايد بسرعة عدد المتطورات . ومن المحتمل أن تطور الفتيات سيقضي عليهن نهائياً ، وأننا سنشاهد ، بفاس وبتوس معاً (انظر في هدا الصدد هـ . دومونتيلي، نفس المرجع ، هنا وهناك) ، تغريباً لحفلات الزفاف ، وتبسيطاً يجعل تدخل الخاطبات شيئاً فشيئاً عديم الجدوى . وهذا التطور هو الآن في طريق الإنجاز .

4/7

الفصل الرابع

الأولاد

يشجع الإسلام ، كالمسيحية ، على إنجاب الأولاد ، فكانت العائلات الكثيرة الأطفال إذن هي القاعدة في جميع أوساط فاس[1]. وكان الزوجان العقيمان يعرفان بأنهما مصابان بعلة من العلل أو بلعنة غير طبيعية ، وغالباً ما كانت النساء اللواتي لا أولاد لهن يذهبن لشرب ماء عين محاذية لضريح مولاي إدريس ليصبحن حوامل ، ويجتنبن هكذا الطلاق أو مجيء ضرة .

يمكن القول إذن بأن جل الزوجات الشابات كن ينتظرن ولداً ابتداء من أول سنة لزواجهن . وبمجرد ما يحملن يصبحن موضوع عناية خاصة ، كان يكفيهن ، لاسترعائها ، استعمال العبارة الطريفة الشائعة : « إنني بين روحين » (راني بين روحين)[2] .

---

(1) يمكن القول حالياً بأن تحديد النسل لم يطبق بفاس ، ما عدا من طرف بعض المتطورين الذين يعملون على تحديد عدد أولادهم أقل مما يعملون على الإبعاد بين الولادات ، وذلك حتى لا يفرضوا كبير عناء على زوجاتهم . كانت الرغبة الدائمة لمن يتزوجون هي أن ينجبوا أولاداً ، وأولاداً كثيرين .

(2) انظر عن الولادة وما يحيط بها من حفلات ، أوبان ، المقال المذكور، ص. 428-429 . وقد حظيت من جهة أخرى بالتمكن من تصفح محاضرة لأحمد الصفريوي بعنوان : شعائر الولادة (وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس) ودراسة للسيدة ماص (الطفولة الصغيرة بفاس والرباط)، دبلوم للدراسات العليا غير منشور .

الطفولة الصغيرة : ـ كانت المرأة في حالة المخاض يحيط بها جمهور من القريبات ، والصديقات ، والجارات والمتطفلات ، وتساعدها قابلة[3] . وللتخفيف من آلام الوضع والتعجيل بالولادة، كن يلجأن إلى أدوية امرأة مسنة ، كما يوجد ذلك هنا وهناك عبر العالم ؛ فكانت المريضة مثلاً تشد بيديها على حبل موثوق بمسمار مثبت في الجدران (حبل للاّ فاطمة الزهراء)[4]، ولإنزال غشاء الجنين كن يدعون النفساء إلى النفخ في قنينة واستنشاق مسحوق طابة لتعطس ، وما إلى ذلك . . .[5] وفي حالة صعوبة الولادة العسيرة ، كن يلجأن إلى أطفال الكتاب المجاور الذين يمسكون قماشاً وضعت في وسطه بيضة من أطرافه الأربعة ، ويتجولون في أزقة الحي وهم ينشدون : « امرأة تتوجع من ولادتها ، اعتقها يا مولانا ، بحق آيتي طه وياسين وبالقرآن الحكيم »[6] .

كانت القابلة تتسلم الوليد في خرقة بيضاء ، ومن هناك المثل القائل بخصوص السيء الحظ : « لا شك أنه استلم في خرقة سوداء». وبمجرد ما تنتهي النظافة ، كانت الحاضرات يسرعن لمشاهدته ويضعن عليه قطعة نقدية ، قائلات « تبارك الله ! » كان الأب يُخبر فوراً فيذبح ديكاً . وكانوا يرحبون بالوليد البكر إذا كان بنتاً ، ويعتبرونها من حسن الطالع[7] .

وابتداء من يوم الغد ، كانت أفراح الولادة تبدأ بشاي يقدم إلى النساء

---

(3) معناه حرفياً : التي تقتبل . كانت لكل أسرة قابلتها الرسمية ، وهي عادة أرملة من أصل وضيع ، كانت تكتفي بمزاولة حرفتها ، وليس لها لا سلطة الخاطبات ، ولا جشعهن ، ولا تأثيرهن . كانت تتوصل بهدية يوم الولادة (بشارة) وتجازى في سابع يوم ، حسب موارد الأسرة ، فضلاً عن هـدايا عَينية ، وتساهم في جميع الولائم المنظمة بمناسبة الولادة (السيدة ماص ، المرجع المذكور)؛ وكانت تتسلم زكاة الفطر بمناسبة عيد الفطر ، أي القمح الممنوح للفقراء (الصفريوي ، المرجع المذكور) .

(4) السيدة ماص ، المرجع المذكور .

(5) نفس المرجع .

(6) م . الزغاري ، المسيد ، ص.2 .

(7) أوبان ، المرجع المذكور .

اللواتي كن يأتين في ملابس فاخرة ، حاملات هدية نقدية (زرورة) . كانت العائلات الكبرى تستحضر مغنية ، وتكتفي العائلات الأخرى بالغناء فيما بينها على إيقاع الطبلات ، وعلى كل حال كانت تحدث ضجة كبرى. يقول مثل فاسي : إن تجمعات النساء شبيهة بتجمعات الضفاضع ، إذ أنها تجري بالضجيج[8]. ومنذ ذلك الحين إلى اليوم السابع كانت النفساء والطفل يزورهما العديد من النساء ، ولمعظم هؤلاء الزائرات نوايا خالصة وتهانئ كثيرة بحسن الطالع ؛ لكن قد يحدث أن تكون من بينهن من يحاولن الإساءة باستعمال « العين الشريرة » ، الأمر الذي من أجله كن يكثرن من الأدعية الكفيلة بإبطال تأثيرهن السيء .

وفي اليوم الثالث كان الولد يطلى بالحناء ، وهي عشبة مانعة للعفونة ونافعة ، وقد رأينا ذلك بصدد الزواج[9]. وفي اليوم الخامس كان موكب يحمل جهاز الوليد الذي يهديه أهل النفساء : فكانت تلك مناسبة لإقامة حفل جديد وأغنيات جديدة .

وأخيراً ، كان اليوم السابع (السابع أو نهار السمية) هو الأكثر احتفالاً . يجتمع الرجال باكراً في فناء الدار ليشاهدوا الأب وهو يذبح كبشاً قائلاً : « بسم الله والله أكبر ، على سمية فلان (ـ اسم الولد ـ). » وكانوا يقولون أحياناً : « إني أسميك فلاناً ، ابن فلان » . ولم يكن الاسم يختار قبل الولادة قط ، خشية أن يسبب مصيبة ، وكان هذا الاختيار خاضعاً لقواعد متغيرة جداً حسب العائلات . وكان الأب ، بعد ذلك ، يقدم لأصدقائه طعاماً تقليدياً (عقيقة) والنساء يعدن إلى المسرح عشية للحفل المدعو تهليلة (تطهير): كان الولد يغسل لأول مرة ثم ، بعد إلباسه ملابس جميلة ، كن يجتزن به في شكل موكب عتبة البيت الذي ولد فيه ويطفن به في الدار كلها لتقديمه إلى حيز المكان ؛ وأخيراً كان يوضع في مهده ، والشموع موقدة على رأس السرير .

---

(8) أحمد الصفريوي ، المرجع المذكور .

(9) الكتاب 7 ، الفصل 3 ، ص . 514 .

كان كل ذلك مصحوباً بالغناء والرقص (تحضيرة) .

كانت هذه الأيام السبعة تشكل أول فترة من حياة الوليد ، ثم كانت تفتح فترة جديدة لم يكن الطفل يغادر خلالها مسقط رأسه . وفي يوم الأربعين ، يحمله موكب من النساء الى ضريح مولاي إدريس ، وهناك كانوا يقصون له شعره ، دون أن يهملوا ذبح أضحية وتسليم هدية إلى المقدم . كانت هذه الحفلة تشكل تقديم الولد إلى ولي المدينة . وقبل إعادته إلى أمه ، كانوا يذهبون به ليقدموه إلى أقربائه . والحاصل أن ذلك يكون أول اتصال للولد بحياة الحاضرة .

وأخيراً ، وفي تاريخ غير محدد ، كانوا يحملونه إلى الحمام ليستحم فيه لأول مرة ، وكانت الأسر الغنية تنظم به حفلاً .

نرى إذن أن الوليد ، بعد أن أُعطي اسماً يحمله طول حياته ، كان يقدم بالتوالي إلى الجن المقيمين بالمكان الذي سيعيش فيه ، ثم إلى الولي حامي المدينة ، وأخيراً إلى الأهل والأقارب ، وهكذا كان يندَمج تدريجياً في الوسط الذي سيعيش فيه سنوات طوالاً ، إن شاء الله . ونشير كذلك إلى أن معظم الحفلات التي أعطينا عنها نظرة وجيزة منذ قليل ، كانت وقفاً على النساء .

وفعلاً كانت الطفولة الأولى كلها خاضعة للنساء ، لم يكن للرجال دخل فيها إطلاقاً[10] ، حتى إنه غالباً ما كانت النساء يقلن عن الرجال : « ما عندهم

---

(10) وبخصوص هذه النقطة ، وغيرها كثير ، فإن المتطورين بصدد تغيير العادة نفاس . فسرعان ما تيقنوا بأن الكثير من العوائد السلفية كانت قليلة الاتفاق مع مبادئ الصحة العصرية. لذلك فقد أخذ العديد منهم على عاتقهم العلاجات التي ينبغي أن تعطى للوضع ، معلنين الكفاح ، في كثير من الحالات ، ضد جميع نساء أسرتهم ، من جدات، وقريبات ، وخادمات عجائز ، وأحياناً حتى ضد أزواجهم . يهتمون خصيصاً بتغذية الطفل ، وكثيراً ما يلجؤون إلى هيئات مثل « نقطة الحليب » التي يعرفون أنهم سيجدون بها ما يليق بالرضع . وقد آتى تشبثهم أُكُلَه ، حيث إن النساء اللاتي يلجأن من تلقاء أنفسهن إلى الطرق العصرية للرضع كثيرات الآن ، ويحملن رضيعهن إلى المستوصف ؛ كما أن تنمية مدارس البنات الإسلامية ساهمت في هذا التطور بكيفية واسعة .

كبدة في أولادهم»[11]. وهذا تصريح في غاية الإطلاق ، لأن الآباء سواء بفاس أو غيرها من الأماكن ، كانوا يحبون أطفالهم ، لكنه تصريح حقيقي بمعنى الكلمة أنهم لم يكونوا ينشغلون كثيراً بهم في الحياة اليومية ، تاركين للنساء مهمة تربيتهم وتكوينهم . ولم يكن الأب يهتم بابنه اهتماماً فعالاً إلا عندما يدخل إلى المدرسة ؛ أما البنات فكن دائماً يدرن في فلك أمهاتهن ونساء المنزل .

وإذا كان الطفل الفاسي يترعرع في وسط هؤلاء النساء المتباينات كثيراً سواء من حيث السن أو الوضعية، ولكنهن يعشن مجتمعات طوال اليوم بما فيهن الأم، والجدات، والخالات، وبنات العم، والإماء بالنسبة للأغنياء، والجارات بالنسبة للفقراء ، فإنه لم يكن يتمكن من اتخاذ العوائد المنتظمة التي نجتهد في إعطائها لأولادنا منذ سنهم الباكر . إلا أن الكل كان مجمعاً تماماً أو تقريباً على تلقينه احترام اللياقات « والقاعدة » ، ولو تطلب الأمر عقوبات بدنية . ومن جهة أخرى ، فبمجرد ما كان الطفل يبلغ السن الكافي لإدراك ما يجري حوله ، كان يكسب أيضاً حساً دقيقاً للملاءمات الطبيعية والمخالفات المواتية . وهذه تربية تختلف عمقاً عن تربيتنا ابتداء من المواقف والحركات إلى الانشغالات الأخلاقية ؛ لكنها متكيفة جداً مع غاياتها ، لأنها كانت تنمي في الطفل على جميع أنواع المظاهر ، الشعور بالانتماء إلى مجموعته ، وتقدم له الطرق للتصرف الحسن إزاءها .

المسيـــد : ـ كان التعليم يلقن خارج الدار ، ما عدا في حالات استثنائية . كان الصبيان يذهبون إلى الكتاب (المسيد)[12] وإن كانوا لا يذهبون إليه كلهم لأن التعليم كان قليل الانتشار نسبياً في الأوساط الفقيرة ،

---

(11) مدام ماص ، المرجع المذكور .

(12) انظر عن « المسيد » بفاس پيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 309 وما بعدها . وكذلك الدراسة الممتازة لصديقي السيد محمد الزغاري « المسيد » في مجلة التعليم العمومي للمغرب ، عدد 159 .

حيث كان الآباء غالباً ما ينقصهم تقليد فكري ولا يملكون خاصة المال الكافي لأداء تكاليف التمدرس . وعلى العكس من ذلك يمكن القول إن جميع أبناء الأسر الموسرة كانوا يختلفون إلى الكتاب بكيفية متفاوتة ؛ بحيث إن شباب فاس ، على العموم وبقدر ما يمكننا أن نحكم عند انعدام المعلومات الإحصائية ، كان متعلماً جداً بالنسبة لمجموع المغرب ، وحتى بالنسبة لمدن أخرى من مدن المملكة الشريفة . فكان عدد الكتاتيب ، في المدينة وحدها ، 120 كتاباً ، منها 24 في عدوة الأندلس و96 في عدوة القرويين وقصبة فيلالة[13] .

لا فائدة في وصف قاعة الدرس ، والأدوات المدرسية والطرق التربوية «للمسيد»، لأن جميع كتاتيب العالم الإسلامي منظمة بنفس الكيفية ومعروفة منذ عهد قديم . لذلك سوف أكتفي ببيان بعض التفاصيل الخاصة بفاس .

وأغرب من هذا كله أن معلمي القرآن (فقيه ج فقهاء) لم يكونوا فاسيين ؛ فبينما كانت العادة تقتضي أن يكون الحلاقون وكثير غيرهم من أهل الحرف مدنيين منذ عهد طويل ، كان معلمو الشباب كلهم تقريباً يستخدمون من خارج فاس من بين جبالة وفيلالة . حقاً إنه كان يعترف لهم بتدين وورع ، لكنهم مع ذلك لم يكونوا سوى قرويين خشنين ، تهذبوا قليلاً أو كثيراً بفضل بضع سنوات من الدراسة بفاس . ورغم هذا الأصل المتواضع، كان معلمو القرآن محترمين من لدن التلاميذ بطبيعة الحال (كانت القضبان الموضوعة دائماً في متناول المعلم تساهم في ترسيخ الاحترام في هذه الأدمغة الفتية) ، وكذلك من لدن أولياء التلاميذ ، لا سيما الآباء الذين يكنّون الاحترام الواجب لخدام الدين وملقني العلم ؛ ولم يكن يغضبهم أن يروا أبناءهم خاضعين لسلطة عنيفة أحياناً ولكنها صارمة ، من شأنها أن تعادل بنجاح التسامح الطبيعي لربات البيت .

---

(13) انظر القائمة المفصلة عن هذه الكتاتيب ، عند بيريتيي، المرجع المذكور ، ص. 309 .

إلا أن هذا الاحترام لم يذهب إلى مكافأة الفقيه بسخاء . فكان كل واحد من التلاميذ يدفع له ، بموجب شبه عقد تقليدي[14] من 0.25 إلى 0.50 بسيطة حسنية كل يوم أربعاء[15] ، وذلك ما كان يؤمن له ربحاً يتراوح بين 5 و 10 بسيطات حسنية في الأسبوع . بالإضافة إلى أنه كان يستلم هدايا نقدية أو عينية بمناسبة الأعياد المدرسية والأعياد الدينية ، وكل ذلك لم يكن يغنيه .

كان الأب هو الذي يقدم ابنه إلى المعلم الذي اختاره ، عندما يبلغ الطفل ست سنوات تقريباً من عمره . لم يكن يسجله ، بل يسلمه إلى الفقيه مستعملاً العبارة التقليدية : « ها هو ابني ، وهو ابنك منذ الآن فصاعداً تسهر على تربيته . اضربه ، وإذا قتلته أنت دفنته أنا »[16] .

من البديهي أن المعلمين لم يكونوا يعبؤون باتخاذ هذا التصريح حرفياً لكنهم لم يكونوا يدخرون وسعاً في العقوبات البدنية : وهي عبارة عن مجرد ضربات بالقضيب على الرأس أو الكتفين بالنسبة للأخطاء الطفيفة ، وجلد باطن الأقدام بالنسبة للمخالفات الأكثر خطورة . وكان يوم الثلاثاء يعتبر من هذا القبيل مشؤوماً بكيفية خاصة[17] .

لم تكن مدة الإقامة بالكتاب محددة ، إذ كان الغرض المقصود هو حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ؛ فكان البعض في تحصيل ذلك أسرع من البعض الآخر ، كما أن الكثير كانوا يتوقفون في الطريق ويغادرون الكتاب بعد خمس سنوات أو ست أو حتى في أقل من ذلك .

---

(14) كان معلم القرآن يسمى : الفقيه المشارط (الفقيه المتعاقد) (مذكرة حول التعليم) .

(15) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 277 . تتذكر أن الأربعاء كان يوم سوق بفاس (انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 ، ص 389 ، هامش 6) . كان المعلم في البادية يؤجر يوم السوق ، وقد ثبتت هذه العادة العريقة القروية في المدينة الكبيرة .

(16) الزغاري ، المرجع المذكور . كان آباء التلاميذ ، وعلى الأقل في بداية الحماية ، يستعملون نفس العبارة عند تقديم أبنائهم إلى المدرسة الفرنسية .

(17) نفس المرجع .

كانت الحياة الدراسية متسمة بشتى التسليات[18] ، يُحتفل بالأعياد الدينية قبل كل شيء : فكان عيد الأضحى مناسبة لولائم الصبيان (عشيشة قديرة) التي تنظم عند الأسر ؛ وكان سابع المولد النبوي يقضيه الأطفال في الكتاب أو في مسجد مجاور وهم يمرحون ويولمون ؛ وكانت عاشوراء تُحمل فيها الشموع إلى المعلم ، ويسهرون في الكتاب المضاء بالأنوار ، ويحفظون فيه منذ الفجر درساً قصيراً ليبدؤوا السنة على أحسن حال .

وكانت أيضاً أعياد خاصة بالكتاب ، أحدها يسمى الختمة ، عندما يحفظ أحد التلاميذ الحزب الأول من القرآن[19] .

كان الفائز يصحبه رفاقه إلى منزله ، وهو مرتدٍ ملابس مطرزة بالذهب ، ومحمول على الأكتاف كالعروس . وإذا حفظ تلميذ القرآن كله ، أقيم احتفال يدعى « حبيبنا »[20] . وبعد تناول الأطعمة والاستماع إلى أناشيد المغنيين الدينيين (المسمعين)[21]، يبسطون سفرة بيضاء وضعت في وسطها لوحة بطل الاحتفال ما زال مكتوباً عليها آخر نص حفظه ، محفوفة بإطار من رسوم فنية . كان الحاضرون يلقون قطعاً نقدية على اللوحة إلى أن تغطى : كان ذلك يوفر أكبر ربح للفقيه[22] .

إن أساليب التربية في الكتاب تبدو لنا بدائية ، حيث إننا نشك في أن يكون تعليمٌ هو عبارة عن مجرد تقوية للذاكرة بهذا القدر مكوّناً حقاً ؛ إلاّ أنه لا بد من الاعتراف بأن كل الذين مروا من الكتاب قد انطبعوا به انطباعاً عميقاً واحتفظوا له بذكر جيد . إنهم نسوا ضربات القضيب على باطن الأقدام ،

---

(18) الزغاري ، المرجع المذكور .

(19) إننا نعلم أن القرآن مقسم إلى 60 قسماً (حزب) موحدة الطول ، وذلك تسهيلاً للتعليم .

(20) يسمى هكذا لأن إحدى القصائد التي كانت تنشد بهذه المناسبة كانت في مدح حبيبنا سيدنا محمد (الزغاري نفس المرجع) .

(21) انظر عن هؤلاء المعنيين ، أ. شوطان ، الموسيقى المغربية، ص. 108 .

(22) نفس المرجع ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 278

والأصوات المتنافرة الأنغام التي تحفظ بأعلى صوت نصوصاً مختلفة ، ليحتفظوا فقط بذكر الحفلات البالغة الرونق بالنسبة للمخيلات الصبيانية ، وتلقين الحقيقة الدينية ، والمعلم العجوز الذي كانوا يسمونه "احتراماً ، « نعم آس »[23]، والذي يعطي دروساً في الأخلاق والاستقامة في نفس الوقت الذي يُحفَّظ فيه القرآن الكريم .

مؤسسات البنـات : ـ كانت البنات يلازمن الدار ، على العموم ، وتسهر على تربيتهن كلّ من أمهاتهن ، ومرضعاتهن ، وجميع نساء المنزل . ومع ذلك كانت هناك دور للتربيةالنسوية على نوعين : معامل التطريز (دار معلمة) ، ومدارس بمعنى الكلمة تدعى مدارس البنات .

كانت المعامل[24] عادة تحت إشراف امرأة واحدة ، أرملة أو مطلقة من أصل محترم ، محتاجة إلى كسب قوتها . كانت تجمع عشر بنات صغيرات ، أو اثنتي عشرة من أسر فاضلة ، فتعلمهن التطريز وآداب اللياقة . ويتعلق الأمر هنا بمؤسسة حرة صرفة ، لا نستطيع أن نعطي عنها أي رقم ولو تقريبي .

كما كانت هناك مدارس حقيقية للبنات ، مماثلة لمدارس الصبيان ، لكنها أقل عدداً . كان عددها حوالي خمس عشرة مدرسة في أوائل القرن العشرين[25] موجودة في الأحياء البورجوازية وحدها تقريباً . كانت بنات الطبقات الفقيرة لا يختلفن إلى المدرسة ، وقليل منهن يختلفن إلى معامل التطريز .

---

(23) هو اختصار « نعم يا سيدي » . وقد أصبحت هذه العبارة اسماً علماً للفقيه من كثرة استعمالها للاستجابة إليه فيقال (« ذهبت عند نعم آسي . . وقال لي نعم آسي . . . وفعل نعم آسي . . . ») .

(24) انظر في هذا الصدد ما دام ش. برونو ـ دافيد ، مطروزات الرباط ، ص. 3-12 ؛ وف. بونجان ، اعترافات بنت الليل ، هنا وهناك .

(25) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 278 ، وبيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 312 الذي يضع قائمة لها .

وسواء هنا أو هناك كن يتلقين تكويناً خلقياً واجتماعياً أكثر منه فكرياً. وحتى إذا كن يذهبن إلى المدرسة، حيث كان اجتهادهن أقل من اجتهاد الأطفال، لم يكن يتجاوزن قط مرحلة التعليم الأولي.

الختـــان : ـ كان الختان حادثة مهمة في حياة الأطفال، ويجري في تاريخ غير محدد، فيما بين السنة الثانية والسابعة أو الثامنة من العمر. ويحمل الطفل إلى المسجد المختار و (غالباً ما كان زاوية المولى إدريس). كانوا يضعونه على فرس أو بغلة، بعد أن يلبسوه ملابس جميلة مطرزة بالذهب، غالباً ما كانوا يكترونها لأجل المناسبة؛ ثم يتحرك الموكب على صوت المزامير والطبول، ويرجع بعد انتهاء العملية، متبعاً نفس الاحتفال. وكان القيام بهذه الشعيرة مناسبة لاحتفال عائلي.

كان حلاق الأسرة هو الذي ينجز العملية. لقد رأينا آنفاً[26] أن الحلاقين كانوا يتدخلون في الأعراس والاستقبالات، محتلين في الحياة الفاسية مكانة كبيرة تستحق أن نتوقف عندها هنيهة[27]، لكن دون أن تكون لهم أهمية الخاطبات.

الحلاقــون : ـ كان الحلاقون (حجامة) يشكلون، مثل سائر أرباب المهن، طائفة يديرها أمين[28]، وتضم حوالي أربعين معلماً. كان يساعد كل واحد منهم عامل إلى ثلاثة عمال، ومتعلم إلى ثلاثة متعلمين، أي في المجموع 140 شخصاً تقريباً. كانوا كلهم فاسيين منذ عهد قديم، ويزاول الكثير منهم الحرفة خلفاً عن سلف[29]، بينما يدخل الآخرون إلى الحرفة عن

---

(26) انظر ما سبق، ص. 508 -517.

(27) لقد جمعت في عين المكان المعلومات التي ستأتي، وذلك خلال بحث قمت به في ربيع 1945. انظر كذلك موليراس، المرجع المذكور، ص. 431؛ وأوبان، المرجع المذكور، ص. 328.

(28) كان دلك الأمين، في دولة مولاي عبد العزيز، هو المعلم العباس الفاسي.

(29) تضم حالياً هذه الطائفة بعض الغرباء، وكانت قديماً مخصصة للفاسيين وحدهم؛ غير أن جميع المعلمين المشهورين ما زالوا ينتمون إلى المدينة الإدريسية، وما زال الاستخدام الوراثي معمولاً به ولا يقبل الغرباء إلا بتزكيات جدية.

طريق العلاقات[30] .

كانت دكاكين الحلاقين مجتمعة خاصة في أحياء وسط المدينة ، حيث كانت المعاملات التجارية وحيث النشاط كثير ، كما كانت توجد في الشارعين الكبيرين بفاس الطالعة الكبيرة والطالعة الصغيرة . ولم يكن منها بعدوة الأندلس كلها سوى خمسة (واحد بالصفاح ، وأربعة بالنخالين) ، وهذا دليل آخر على نقص عدوة الأندلس بالنسبة لعدوة القرويين . وكانت عدة أحياء ، كسويقة ابن صافي ، والبليدة ، ورأس الجنان ، والمخفية ، خالية منها تماماً . كانت هذه الدكاكين مؤثثة فقط بمقاعد ، وقد علقت على جدرانها المواسي والمقصات[31] . وفيها كان يجتمع العاطلون ، بالرغم على ضيق المكان وفقره ، ليتبادلوا الأخبار والقيل والقال ، أو لقراءة جريدة من جرائد المشرق .

كان الحلاقون يعملون أيضاً في المنازل ، لأن فنهم لم يكن مقتصراً على حلق الشعر واللحية ، ولكنه كان يمتد أيضاً إلى عمليات أخرى متنوعة لا يستطيعون إنجازها في دكاكينهم . كانوا ، على غرار حلاقنا فيگارو وأضرابه ، يضعون المحجمات ، ويشرطون ويفصدون[32] ، وينزعون الأسنان ،

---

(30) لقد أصبح أحد مخبري حلاقاً في الظروف التالية : كان يذهب إلى الكتاب وهو ابن صانع . فاتفق يوماً أنه تشاجر مع شريف شاب وأشبعه ضرباً ؛ فكانت الفضيحة كبيرة إلى درجة أنه لم يتجرأ على العودة إلى المدرسة . فاقترح عليه حلاق صديق لأبيه أن يأتي عنده ليتعلم الحرفة ، وكان قد رآه مضجراً لا يلوي على شيء . فأحب المهنة ، وأخيراً خلف الذي أنعم عليه .

(31) فضلاً عن المواسي الست التي كان الحلاق يحتاج إليها لمزاولة حرفته ، كانت عنده قرابة عشرين يضعها رهن إشارة الزبناء الذين كانوا يستعيرونها منه للذهاب إلى الحمام .

لقد تغير جداً أثاث دكاكين الحلاقين، إذ أنه يتضمن الآن مرايا وأرائك على غرار الدكاكين الأوروبية التي توجد بها مجموعة من العطور المستوردة .

(32) كانوا يفصدون دوماً مرة في الربيع ، في القفا بالنسبة للرجال ، وفي الذراع بالنسبة للنساء والأطفال .

ويعرفون بعض الأدوية التجريبية ، ويجيدون بعض العمليات الجراحية البسيطة ؛ كما كان البورجوازيون الأنيقون يستدعونهم ليلفوا لهم العمائم حول رؤوسهم أيام الأعياد ، وغالباً ما كانوا يلجؤون إليهم لذبح دجاج وليمة . وأخيراً كانوا المنظمين للأفراح والخاتنين[33] .

هكذا لم يكن الحلاق الفاسي مجرد حرفي مثل الآخرين ، ولكن بحق صديق متواضع للأسرة ، يُلجأ إليه في عدة مناسبات . وكان لا يأخذ في مقابل ذلك إلا أجرة تافهة . كان للزبناء الرسميين شبه اشتراك يؤدونه أسبوعياً أو شهرياً ولا يمثل شيئاً كثيراً . بل كان الحلاقون يعملون أحياناً مجاناً : إذا وقعت أسرة في ضيق وكانوا قد خدموها مدة طويلة رأوا ذلك واجباً عليهم ، ثم إنهم كانوا يعلمون أنهم سيقبضون أجرتهم إن عاجلاً أو آجلاً . لقد رأينا أن الأعراس كانت بالنسبة لهم نعمة غير متوقعة[34] ، وكان نفس الشيء بالنسبة لعمليات الختان ، وقص شعر الطفل لأول مرة ، والرجوع من الحج ؛ كانوا لا ينسونهم في الاستقبالات ، وتصلهم بعد الدراس حصتهم من الحبوب ، وكذلك بعد جني الزيتون ؛ وفي وقت أداء الزكاة كانوا يعدون من جملة أصحاب الصدقات .

كان الحلاقون يعرفون ، كالخاطبات ، فترة أقل نشاطاً في الشتاء ، لقلة الأفراح من جميع الأنواع في ذلك الفصل . وكان زبناؤهم الرئيسيون هم الفاسيون الموسرون كما هو الحال بالنسبة للخاطبات . ولم يكن يتم لهم الولوج إلى القصر أكثر منهن[35] : ذلك أنهم كانوا يُعتبرون فقراء ، فلا

---

(33) لم يكونوا يطالبونهم بإجلاس الضيوف والقيام بالخدمة فحسب ، ولكن يستشيرونهم مسبقاً فيما يشترون . فإذا أراد فاسي أن يستقبل جماعة كبيرة، استدعى حلاقه فبين له عدد الأكباش ، والدجاج ، والحمام ، التي لا بد أن تُشترى ، حسب عدد المدعوين ، والدرجة الاجتماعية للمضيف ، والرونق الذي أراد أن يعطي للحفل . ولو كان (هاريا كُون) فاسياً لاستشار حلاقه .

(34) انظر ما سبق ، ص. 517 .

(35) كان حلاقو السلطان ، الذين لا يعملون بالمدينة ، يؤخذون كلهم تقريباً من مكناس .

يساهمون في « الهدية » المقدمة إلى العاهل من طرف مختلف الطبقات الاجتماعية للمدينة ، ولكن كانوا يأتون في هيئة كسائر الطوائف لتحية السلطان لدى دخوله الرسمي إلى المدينة .

كانوا ينظمون كل سنة ، في يوم أربعاء من فصل الخريف ، موسمهم الطائفي بضريح سيدي علي بوغالب[36] وليّهم . كان المعلمون الرئيسيون (المعلمين الكبار) يحددون تاريخ الموسم ويعلنونه بواسطة مناد عمومي ، ليتصلوا بأكثر عدد ممكن من الناس ، بما فيهم القرويون العابرون . وفي عشية الموسم مساء ، كان كل معلم يحمل طابقاً من إعداده أو مالاً لشراء ما يتطلبه الحفل ؛ وكانوا يستحضرون مغنين وأناساً قادرين على قراءة **دلائل الخيرات**[37] قراءة جيدة . كان أعضاء الطائفة يدخلون إذ ذاك إلى جناح الضريح المخصص للرجال ويقرؤون الدعوات التقليدية ؛ ثم يحتفلون مع ضيوفهم طوال الليل ، وفي الصباح الباكر ، من يوم الغد كانوا يقيمون بصحن الضريح ويختنون جميع الأطفال الذين يعرضون عليهم ، حتى منتصف النهار . لم يكن المعلمون يقبلون أي أجر ، بينما العمال والمتعلمون يرخص لهم باستلام هدية نقدية (حلاوة) . كان عدة مئات ، وأحياناً عدة آلاف من الأطفال يمرون بين أيديهم ذلك النهار . وكان عملهم ينتهي في آخر الصباح ، لكنهم كانوا يمكثون في عين المكان العشية كلها لمراقبة الجراح[38] .

---

(36) انظر عن هذا الولي ، الذي كان في حياته حلاقاً جراحاً ، سلوة الأنفاس ، جزء 2 ، ص 17 - 24 .

(37) هو مجموعة من الصلوات على النبي ، من تأليف الإمام الجزولي ، وعنوانه الكامل هو : **دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار** ، وانظر عن الجزولي محمد بن شنب ، مادة الجزولي ، في **دائرة المعارف الإسلامية** ، جزء 1 ، ص. 1062

(38) كما كان يحدث أن يستدعيهم إلى سيدي علي بو غالب أحد زبنائهم ، قدم إلى هناك للتمس من الولي شفاء خارقاً للعادة ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يسهّلوا تحقيق الكرامه المنتظرة ، لكونهم الأبناء الروحيين للولي . وكان حلاق عجوز لذلك العهد مشهوراً خصصاً بنجاح تشفعاته . وقد أخذ هذا الجانب من نشاط الحلاقين يتقلص مع تطور علم المداواة العصري . ورغماً عن ذلك فإنهم يحتفظون بقسط كبير من خصائصهم التقليدية .

وإذا كان الحلاقون يشبهون الخاطبات في كونهم يشاركون مثلهن في عدة حفلات عائلية، ويعدون كأجراء يؤدون خدمة معينة في مقابل مبلغ معين أقل منهم كأصدقاء من نوع خاص ، تربطهم بالأسر أواصر شخصية ، فإنهم كانوا مع ذلك بعيدين كل البعد من أن يباشروا تأثيراً بهذا القدر على المدينة ولعل مرد ذلك إلى أن التقاليد التي كان عليهم أن يحتفظوا بها كانت قليلة جداً ، ولأنهم لم يكونوا قط المحافظين ولا المحتفلين بشعيرة معقدة ، لكن ليس هذا سوى تعليل ثانوي . فالمهمّ ، في نظري ، هو أنهم لم يكونوا يعرفون حقاً الأسر ، لعدم مشاركتهم في الحياة النسوية التي لم يكونوا يطلعون عليها أكثر من سائر رجال الحي . في حين كانت الحياة العائلية ترتكز طبعاً على النساء .

5/7

الفصل الخامس

الحياة العائلية

لا يمكننا أن نتحدث عن حياة عائلية موحدة ، إذ كان لكل واحد من مختلف الأوساط الاجتماعية حياته الخاصة ، وكانت تقاليد خصوصية تتغير من أسرة إلى أخرى داخل نفس الوسط .

كانت نساء الشعب بحكم قوة الأشياء يعشن عيشة أكثر حرية من نساء البورجوازية ، لعدم وجود خدم عندهن ، واشتراكهن في غالب الأحيان مع عائلات أخرى في نفس المنزل . كما أن نساء التجار كن خاضعات لقواعد أقل صرامة من نساء الأسر العربية أو الشريفة أو المخزنية[1] . إلا أنه يمكننا أن نستخلص بعض القواعد الأساسية ، وهي بالتالي مشتركة بين جميع الأوساط المدنية بشمال إفريقيا ، قبل اتصالها بالحضارة الغربية .

كانت للأم ، قبل كل شيء ، المسؤولية التامة في تربية الأطفال من الجنسين ، ما داموا في صباهم ، وفي تربية البنات إلى أن يتزوجن ؛ تساعدها في ذلك قريباتها وجاراتها في الأوساط الشعبية، وقريباتها وإماؤها في الأوساط الموسرة . وكان الزوج لا يتدخل إطلاقاً ، ولا يلجأ إليه إلا في حالات استثنائية .

---

(1) انظر عن الحياة السوية بعاس ، أ.م. كُواشون ، المرأة البورجوازية المتوسطة الفاسية؛ وج. ج. طارو ، المرجع المذكور ، (الفصل 9 ، النساء والحب) ؛ وعن الأوساط الشعبية ، ف. بونجان ، المرجع المذكور ، هنا وهناك .

ومن جهة أخرى ، كانت النساء يخرجن أقل ما يمكن ، إذ كان مجالهن هو المنزل . لا ينبغي أن يبالغ في هذا الاحتجاز الذي كان نسبياً ورسخ في العوائد حتى إنه لم تكن تتصور كيفية أخرى للحياة ؛ غير أنه من الأكيد أن النساء كن يقضين حقاً أياماً كاملة دون أن يخرجن من منزلهن ، وأنهن كن لا يخرجن وحدهن إلا نادراً في الأوساط البورجوازية على الأقل . كان كل ذلك يعطيهن انطباعاً غامضاً جداً لحرية يشتقن إليها ، أو إلاّ أن يأخذنها أخذاً .

كان لنساء الشعب ما يشغلهن في المنزل ، إذ كان على عاتقهن العبء الكامل للأشغال المنزلية ؛ كما كن يقضين الوقت الباقي في غزل الصوف أو التطريز ، ليضفن الموارد الأخرى إلى ربح أزواجهن الهزيل . فكن لذلك منشغلات بجد على العموم . فبعد إعداد الغذاء ، والغسيل ، ومعالجة الأطفال ، والغزل أو التطريز بضع ساعات ، لم يكن يبقى لهن بعد ذلك وقت طويل للثرثرة في الصحن أو السطح .

وكان لنساء البورجوازية والأسر الكبيرة انشغالات من نوع آخر : كان وجود خادمات عديدات يعفيهن تقريباً من كل الاهتمامات المنزلية والعلاجات المادية للأطفال ، لكنهن كن يحتفظن في هذا المجال بدور المراقبة . وكانت لهن ، من جهة أخرى ، التزامات اجتماعية كثيرة وصارمة في هذا المجتمع المتمسك بالشكليات ، كالاجتماعات ، والزيارات ، والحفلات العائلية والإعداد للاستقبالات التي يُقيمها الزوج ، والاهتمامات بالزينة . كان بعضهن يتعاطين أعمال الخياطة في مقابل أجرة ، ولا سيما الطرز ، موفرات بذلك بعض الموارد الشخصية ، بكيفية خفيفة ، لأن مثل هذه الأعمال لم تكن تتلاءم ومرتبتهن الاجتماعية . وبعد الانتهاء من هذه الأشغال ، كانت تبقى أمامهن ساعات طوال من الفراغ يقضينها في المذاكرة بينهن في الدار ، وفي لعب الورق ، والتعاطي للموسيقى ، أو في السطح عند آخر النهار ، عندما تميل الشمس إلى الأفق ، وذلك هو الوقت الذي كان السطح محجوراً لهن .

لقد وصف عدد من الكتاب[2] المنظر الساحر لسطوح فاس في الأصيل ، وهي مليئة بنساء في ملابس متعددة الألوان ، تتناسق ظلالها الباهتة التي تلطفها « المنصورية » مع عذوبة العشي ، يتحدثن من دار إلى دار ، ويتسلقن أحياناً الجدران الصغيرة المنصوبة بين السطوح المتجاورة. ويقال في هذا الصدد إنه يمكن لمن يعرف جيداً سطوح فاس ، أن يقطع مسافات طويلة في المدينة دون أن ينزل إلى مستوى الأرض . وفي ليلة الأعياد ، تغطى جميع السطوح بحشود من النساء ـ الأزهار ، يراقبن ظهور هلال العيد[3] . وكثير من الرجال يشاهدون هم أيضاً الغروب اللامع ، متسلقين التلال المحيطة ، دون أن تفوتهم الفرصة لإلقاء نظرة عابرة على العديد من الحسناوات النائيات . ويتفق حتى أن بعض الخاطبين يتجهزون بمنظار ، وهم متلهفون لرؤ ية ملامح زوجتهم في المستقبل من قبل . تلك هي ساعة التسلية ، ساعة الحياة في الهواء الطلق وفي العشي الحلو.

كانت الفرص المتاحة للخروج متعددة نسبياً ، حتى بالنسبة لسيدات البورجوازية ، كقضاء مسائل شخصية ، إذ كانت النساء يتصرفن بحرية في ممتلكاتهن ، وزيارات عند القريبات أو الصديقات ، حيث كن يقضين عادة أياماً كثيرة ؛ وولائم أو حفلات عائلية ، وزيارات المقابر يوم الجمعة ، حيث كن يذهبن عادة مع الأولاد ويثرثرن وهن جالسات على القبور[4] ؛ وزيارات أضرحة الصالحين ، وخاصة زاوية مولاي إدريس[5] ، وضريح سيدي أبو جيدة يوم الأربعاء على بعد بضع مئات من الأمتار خارج الباب الذي يحمل نفس

---

(2) وخاصة لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 192 -193 ، وتشارمز ، المرجع المذكور ص. 175 وما بعدها .

(3) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 ، ص. 588 .

(4) لقد اضمحلت هذه العادة منذ 1900 تقريباً ، إذ أن باشا فاس ارتأى ، بإيعاز من بعض الأزواج المتشككين ، أنها قد تشجع على الفجور .

(5) كانت هذه الزيارات أحياناً كوسيلة للنساء اللاتي كن يسأمن في الدار ويرغبن في القيام بجولة (محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص . 60) .

الأسم[6] ، والاغتسال في الحمامات .

هل كانت زيارات أضرحة الصالحين تظهر تقوى حقيقية ؟ لا يسعنا تأكيد ذلك ، لأن نساء فاس كن بصفة عامة متطيرات أكثر منهن متدينات ، مع اعتبار جميع الاستثناءات الفردية ، لقلة ثقافتهن عادة ، ولعدم تمكنهن من الاختلاط بالرجال في الحفلات العمومية . وهذا مانع خطير في دين تكتسي فيه أعمال الإيمان المشترك أهمية بهذا القدر . والحاصل أنهن كن بعيدات عن المذهب والشعائر ، بقوة الأشياء . كان الفرض الوحيد الذي يتشبثن به هو الصيام[7] : فكان أول صيام الطفلة مناسبة لحفل عائلي يقام يوم 26 رمضان ، عندما كانت تبلغ السابعة أو الثامنة من عمرها ؛ فكانت المدعوات يجتمعن في السطح ، عند صلاة العصر ، ويؤتى بالطفلة وهي في تمام الزينة ، فيشرعن في الغناء على إيقاع الطبلات ، إلى غروب الشمس ، ثم يدخلن إلى الدار فتفطر الطفلة في أبهة بشرب اللبن ، ويختم النهار بحفلة عشاء . وفضلاً عن الصوم ، كانت بعض العجائز يذكرن الله بسبحاتهن . ولا تذهب هذه الأعمال إلى أبعد من ذلك .

كان نسك نساء فاس موجهاً بالأحرى إلى الصلحاء والجن ؛ إلى الصلحاء لكونهم شفعاء عند الله أقل منهم أشخاصاً ذوي طاقة خارقة للعادة وقادرين على مساعدة الناس حيث لا يكون مفعول للوسائل الطبيعية[8] ؛ وإلى

---

(6) لم يكن سيدي أبو جيدة فحسب ولي النساجين ، ولكن أيضاً حامي النساء : فكان الزوج الذي تؤثر عليه زوجته يسمى : « خدام سيدي أبو جيدة » . وقد تُركت هذه الزيارة سنة 1908 ، لعدم استقرار البادية ولو قريباً من الأبواب (مارتان ، الكدّان ، ص. 147) . ومنذئذ ، طفقت النساء يذهبن يوم الأربعاء إلى ضريح سيدي بو غالب ، حيث كن يستمعن إلى الروائيين وإلى التنبؤ بالمستقبل (ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص. 272).

(7) انظر أ. م. كُواشون ، المرجع المذكور ، ص. 9 .

(8) كان سيدي عبد الدائم يؤمن انقياد الأزواج ، وسيدي حنين الفاسي يهدىء صراخ الصبيان لدى فطامهم ، وسيدي المهدي يؤدب الأطفال العنيدين ، وسيدي البصري يقوي ذكاءهم ، وللاّ يـدونة تشوقهم إلى العمل إلخ . . . ، أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 314 .

الجن بصفة خاصة حيث كن يعتبرنهم كمرافقين مستترين ، وكشبه سكان روحيين مختلطين كامل الاختلاط بالسكان العاديين ، قادرين على القيام بحيل خبيثة للإخوان الإنسيين أو على مساعدتهم ، حسبما كونهم على استعداد تام أم لا .

إن الأمر محتمل مع ذلك بالنسبة للجن ، إذ أن القرآن يعترف بوجودهم ؛ لكن نساء فاس كن يلجأن كذلك إلى السحر والعرافة ، فكن يتصلن من أجلهما بشرذمة يستغلون سذاجة العامة ، كطائفة كُناوة[9] وعرافي سوس[10] و (الشوافات)[11] وحتى أحبار اليهود الشيوخ[12] . كان هؤلاء وأولئك يبيعون لهن « حروزاً » ومسحوقات سحرية ورُقى ناجعة لتحقيق رغباتهن[13] .

---

(9) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(10) انظر عن « الطالب السوسي » ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 ، ص 193 . كان السحرة ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، وكانوا يستأجرون امرأة لتخبر العائلات بقدومهم. أ- م گوانشون ، المقال المذكور ، ص. 7 .

(11) كن زنجيات ، إماء قديمات مثل الخاطبات ، يوفقن على أي حال بين الإسلام وبعض شعائر الأرواح التي كن يحتفظن بذكراها . كن يعالجن الأمراض التي تسببها الجن ، ويتكهن بالمستقبل . وكن في اتصالات تجارية - إن صح التعبير - مع كُناوة الذين كن يوصين بتوسطهم في الحالات الخطيرة ، وكذلك مع بعض التجار الذين كانت بَضائعهم ناجعة - حسب قولهن - لتجنب هذا الداء أو ذاك . كانت أسر عديدة تضع فيهن ثقة مطلقة . وقد أدى تأثيرهن مضافاً إلى تأثير الخاطبات والإماء الخادمات ، إلى أن جميع نساء فاس تقريباً كن يمزجن كلامهن، في بعض الأحيان ، بعبارات مأخوذة من لغات إفريقية .

(12) محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص. 237 ، هامش 1 .

(13) نفس المرجع ، هنا وهناك . كانت بعض الآيات القرآنية تستعمل طبعاً كطلاسم، منها الآية 256 من السورة 2 (البقرة) ، والسورة 72 (الجن) والسورة 112 (الإخلاص) والسورة 113 (الفلق) . كان جل هذه العوائد يستعمل لغايات غرامية . كانت المخطوبات مثلًا يلجأن أحياناً إلى (عشاء الفال) حتى تكون لهن فكرة عن زوجهن في المستقبل . وكانت الفتاة ، عملًا بتعليمات « طالب » ، تلطخ الجانب الأيسر من وجهها باللون الأحمر والأسود ، وتعد طابقاً من الكسكسو بيدها اليسرى ، ثم تذهب إلى سبع حمامات ، وسبع طواحن ، وسبعة أفران للخبز ، وسبعة جداول للماء ، لتستدعي جن هذه الأماكن لتناول العشاء . وكان نساء=

وهكذا فإن العالم الذهني لنساء فاس ينبغي أن يعتبر مختلفاً بعض الاختلاف عن عالم الرجال : كانت تختلط فيه المعتقدات الجاهلية ، والخرافات التي جاء بها العبيد من إفريقيا السوداء ، وبعض طرق عزائم اليهود ، مع تقديس الصلحاء المسلمين ، ومع عوائد خارجة تماماً عن الإسلام . فسواء كن عجائز أم شابات ، غنيات أم فقيرات ، كان لجميعهن تصور مماثل تقريباً للعالم الذي كن يرين فيه العمل المستمر لقوات خفيفة .

* * *

كان لكل واحد من الزوج والزوجة وسيلتهما الخاصة في العيش وأفكارهما واعتقاداتهما . فلم تكن حياتهما المشتركة منظمة كحياتنا ، من جراء هذه الفوارق الهامة[14] . قد يكون من عدم التبصر المجازفة هنا ببيانات عامة ، إذ أن الطبائع ، وسن الزوجين والتقاليد العائلية ، كانت تُلوّن بدرجات كثيرة سلوكهما ، وكان للوضعية الاجتماعية طبعاً حصتها الوافرة في التأثير . إلاّ أنه يمكننا إعطاء بيانات صالحة في معظم الحالات .

كانت المرأة تشتغل بالحياة الداخلية للمنزل : المطبخ ، والأشغال المنزلية ، وغسل الملابس ، ومعالجات الأطفال ، كان ذلك ميدانها الخاص

= الدار يجتمعن ، يوم الخميس في منتصف الليل ، بباب المنزل ويتلون في الظلام عبارة الترحيب الموجهة إلى الزوار المستترين عن الأنظار . كان الكسكسو جاهزاً ، فيجلس الضيوف الغير الطبيعيين على المائدة. وبعد انتهاء الوقت المناسب للفراغ من تناول الطعام كان جميع الحضور يصعدون إلى السطح ، وهنالك توقد نيران ويقذف فيها « الطالب » باحتفال كبير، بشتى العقاقير باسم الفتاة التي تستشير الغيب . وكان يصف زوج المستقبل حسب الأشكال التي يكتسبها اللهيب (وكان من قبل قد أخذ عنه جميع المعلومات الضرورية)، فكان يستلم جائزة مهمة بعد انتهاء الحفل . (أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 314 ، نقله ل. هارّيس ، المرجع المذكور ، ص. 179 -180) . وكانوا أحياناً يناجون النجوم (أ ـ م. گْواشين ، المقال المذكور ، ص. 8) .

(14) وهنا أيضاً بدأ احتكاك الحضارة الغربية يعطي أكله . يمكننا أن نذكر بعض الفاسيين الحديثي العهد بالزواج تبنوا منذ بضع سنوات ، عدداً معيناً من العوائد الأوروبية ، كالذهاب معاً إلى السينما ؛ لكن هذا التطور ما زال بطيئاً بسبب سلطة العادة الفاسية .

الذي لا يتدخل فيه الزوج إلا لتقديم انتقادات أو تهنئات ، لكن دون الدخول في التفاصيل . كانت للزوج اليد العليا على النفقات التي كان يراقبها عن كثب ، إذ هو الذي ينفق . كما كان يتكلف بالتموين والشراءات بصفة عامة ، لأن زوجته لم تكن تستطيع الخروج إلى الشارع باستمرار للاتصال بأصحاب الدكاكين ، ولأن الخادمات لم يكنَّ يوحين دائماً بالثقة الكافية لتكليفهن بمثل هذه المهام . وكان الزوج يقوم بدور المقتصد في عدة أسر ، وغالباً ما كان ذلك باتفاق تام مع زوجته ، يطلعها عما يقوم به لا بالنسبة للمنزل فحسب ، ولكن أيضاً بالنسبة لمسائله الخاصة ؛ ومع ذلك يبدو أنه بقدر ما يمكننا أن نأخذ فكرة عن أشياء دقيقة إلى هذا الحد ، أن وحدة النظريات والعمل القائمة في عدة منازل غربية كانت نادرة أكثر بفاس ، من جراء التكوين بالذات المغاير للرجل والمرأة .

وهنا يطرح مشكل سلوك الزوجين . فلأن يكون هناك أزواج تخونهم زوجاتهم ، ولأن تكون الأخبار الفاضحة تغذَّى بفاس بقدر ما تغذَّى في أنحاء أخرى من العالم ، لا أحد يستطيع أن ينازع في ذلك . سيقول المتفائلون إن المغامرات كانت أصعب وبالتالي أقل منها في أماكن أخرى ، وذلك بسبب مكوث النساء في المنزل المفروض عليهن بالعادة . وسيجيب المتشائمون بأن الاحتياطات لا تفيد في شيء وأن جاذبية الصعوبة تعوض ـ وزيادة ـ الحواجز الموضوعة في طريق العشاق . والشيء الوحيد الذي يمكننا أن نقوله ، هو أن المغامرات الشاذة ، وعلى الأقل في الظاهر ، كانت تحتل مكانة في هذا المجتمع الذي كان الجنسان يعيشان فيه منعزلين أكثر منها في المجتمعات الغربية .

* * *

لم تكن الحياة الزوجية سوى أحد مظاهر الحياة العائلية ، إذ كان من النادر ، لا سيما في الأوساط البورجوازية ، أن يعيش زوجان منعزلين ؛ فكان كل منزل يؤوي أسرة ، أي رب المنزل مع زوجته أو زوجاته ، وبناته غير

المتزوجات ، وكذلك أبناؤه مع نسائهم وأولادهم ؛ ويكمل الأسرة خدم أو عبيد ، بعدد متفاوت حسب اليسر .

كانت لرب المنزل مبدئياً سلطة مطلقة على أهل البيت كلهم . وفعلاً كان الكل يُكنُّ له كبير الاحترام ، ولكن ، في حالة ما إذا أراد أن يطغى ، كانت العادة تضع حداً لطغيانه . هذا ، وقد كان في غالب الأحيان ، يكتفي بدور المشرف على النفقات العائلية ، والحكم المحترم من أعضاء الجماعة ، إذ لم تكن المناقشات تنعدم ، لا سيما عند النساء .

إن هذه المجموعة البشرية الصغرى ، الخاضعة لسلطة شخص واحد خضوعاً تاماً والمقيمة في منزل واحد ، لم تكن تمثل مع ذلك التماسك الذي نتصوره بطبيعة الحال ، إذ كانت الفوضى كامنة وراء واجهة من النظام . ففي معظم الأسر الفرنسية ، مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها ، كان تناول الطعام مناسبة للاجتماع تكتسي طابعاً يوشك أن يكون مقدساً ، لا يطاق أي تأخير عنه . ولم تكن البورجوازية الفاسية نفسها تعرف هذه العادة ، وبالأحرى العمال[15] . كان الرجال ، في غالب الأحيان ، يتناولون الطعام في حجرة ، والنساء والأطفال في حجرة أخرى ، والخدم في حجرة ثالثة . مع أنه لم يكن من النادر أن يضطر الأبناء إلى الأكل جانباً إذا استدعى الأب ضيوفاً . ومن جهة أخرى ، كان كل واحد يأتي في الساعة التي تلائمه: فإما أنه كان يجلس للطعام عندما يكون الآخرون قد أكلوا نصفه ، وإما أنهم كانوا يقدمون له الطعام على حدة . وكان شاي المساء بعد العشاء « يجمع العائلة كلها ، وهو الوقت الوحيد للحياة العائلية الكاملة »[16] . وغالباً ما كان الشاي يطول في

---

(15) كانوا يتناولون ثلاث وجبات في اليوم ، بصفة عامة: الأولى بعد صلاة الصبح (وهي عبارة عن حساء في غالب الأحيان) ، والثانية بعد صلاة الظهر ، والثالثة بعد صلاة العشاء . كانت أهم وجبة عند البورجوازيين هي وجبة الغداء في الظهر . وكان العديد من الصناع ، بالعكس من ذلك ، لا يتناولون إلا أكلة خفيفة في الظهر في مكان العمل ، ويتناولون وجبتهم الرئيسية في المساء . (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 313) .

(16) نفس المرجع .

سهرة تتناول فيها امرأة الكلمة أحياناً لتقص حكاية[17] ؛ فكانت تبدؤ ها في أبهة بعبارة شائعة تسترعي الانتباه وتخلق الجو الملائم[18] ، ثم تشرع في الحكاية التقليدية ، مثل الحكايات التي جمعها محمد الفاسي وديرمينغم في مجموعتها الشهيرة[19] .

كان يحدث طبعاً أن تكون الخلية العائلية مضطرة إلى التفكك ، عندما تتضخم الأسرة حتى لا تستطيع الدار أن تؤويها ، أو عندما كان أحد الأبناء المتزوجين يجد الفرصة ليتخذ له منزلاً خاصاً ، ولا سيما لدى وفاة رب الأسرة . عندئذ ، كان أحد الأبناء ، وهو البكر عادة ، يصبح رب المنزل ، فيذهب إخوانه المتزوجون ليسكنوا في مكان آخر .

---

(17) كانت بعض النساء معروفات في المدينة كلها بموهبتهن في الحكاية ، لكنهن لم يكن يستعملنها إلا ليلاً ، لأن العادة كانت تمنع أن تروى القصة في النهار ، تحت طائلة « أن يكون لهن أولاد قرع » ؛ ما عدا إذا استطعن بكيفية خارقة للعادة أن يعددن إحدى عشرة جائزة في السقف (محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص. 16) .

(18) ها هي العبارة شبه الشعائرية كما يذكرها محمد الفاسي وديرمينغم في حكاياتهما الفاسية : (إنني أحترم طريقة كتابة الكلمات التي استعملاها وكذا ترجمتها) : « كان حتى كان ، حتى كان الله في كل مكان ، ما تَخْوَى منه لا أرض ولا مكان ، حتى كان الحبق والسوسان ، في حجر النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى كان ، إلخ . . » .

(19) حكايات فاسية ، وحكايات فاسية جديدة .

الفصل السادس

6/7

المـوت

إذا حضر أحدَهم الموتُ حثوه على النطق بالشهادة ؛ وإذا اشتد النزع ، استدعوا طالباً لتلاوة بعض آي القرآن حتى يخفف الله ختام أوقات عبده . وفي نفس الوقت كان رجال الأسرة والأصدقاء يجتمعون في مسجد أو زاوية للدعاء لنفس الغاية[1] .

وبعد الموت مباشرة ، كان أحد أعضاء الأسرة يذهب لإخبار (الصحافة) المكلفين بالجنائز[2] . كانوا يحددون معهم ساعة الدفن ومكانه ، وذلك في أقرب وقت ممكن ، لا سيما في حالة مرض مُعدٍ . وكان من النادر ألّا يوارَى ميت في قبره في ظرف أربع وعشرين ساعة . وكان أنسب الأوقات هو منتصف النهار عند صلاة الظهر وصلاة العصر ، ونادراً عند غروب الشمس .

---

(1) أ ـ م . كواشون ، المقال المذكور ، ص. 37 .

(2) كان أهل فاس وحدهم الذين يلجؤون إلى (الصحافين) . ففي فاس الجديد ، وقصبة فيلالة ، وأوساط المدينة التي ما زالت بعدُ شبه قروية ، بما فيها الفيلاليون وغيرهم ، كان رجال العائلة والأصدقاء هم الذين يدفنون الميت . لقد جمعت المعلومات التالية حول (الصحافين) أثناء تحرٍّ قمت به سنة 1945 ، لدى أمين الطائفة : انظر أيضاً ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 314 وما بعدها .

كان رئيس طائفة (الصحافة) يمكث باستمرار بباب سوق الحناء المفضي إلى سوق الفخارين ، وبمجرد ما كان يُخبر ، يعين اثنين أو ثلاثة من الصحافين وعدداً مماثلاً من الحفارين[3] من أجل الدفن . وفي هذه الأثناء ، كانت العائلة تشتغل بغسل الميت ، إما باستحضار الغسالين[4] أو بقيام أهل الدار بهذه المهمة .

وفي الوقت المعين ، كانوا يأتون من أحد المساجد المجاورة بمحمل الأموات[5] . وفي وسط صراخات الألم للنساء ، يتقدم بعض الأصدقاء لحمل الجثة إلى عتبة المنزل ، حيث كان (الصحافون) يتكلفون به ، فيحمله اثنان بينما يبقى الثالث مستعداً لينوب عن صاحبيه عندما يحسان بالتعب . وكان الرجال المؤلفون للموكب ، أثناء المسير ، يقرؤون في لحنين جماعيين عبارات دينية مثل : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

كان الموكب يتوجه مباشرة إلى المقبرة ، إذا تعلق الأمر بناس فقراء ؛

---

(3) كان (الصحافون) والحفارون ، حسب ميشو- بلير (المترجم المذكور) يشكلون طائفة واحدة ، إلا أن معلوماتي في هذه النقطة لا تتطابق مع معلوماته . ففي 1945 على الأقل كان الحفارون يشكلون طائفة صغيرة مؤلفة من ستة معلمين بأمينهم الخاص ، لكنهم كانوا يعملون باتصال وثيق مع (الصحافين) . وكان لهم ، مثلهم ، مقرهم بباب سوق الحناء ، حيث كانت أدواتهم مرتبة في حجرة صغيرة . ولم يكن الحفارون يقفون قديماً في سوق الحناء ، ولكن قرب سوق العشابين ، في زقاق حي فندق اليهودي الذي ما زال يحمل اسمهم (الحفارين) .

(4) كان عدد الغسالين نحو العشرة ولم تكن لهم طائفة . كانوا قوماً فقراء لا يكسبون عيشهم جيداً ، حسب المثل الفاسي الذي يقول : « الحفار لابد من إغنائه . والصحاف لابد من إعطائه ما يليق به ، والغسال تفاوض معه» . ولم يكن بالإمكان أن يُحمل إلى المدينة من كان يموت خارجها قبل الدفن : فكان يغسل في مكانين ، قرب باب محروق بجوار ضريح سيدي بلقاسم ، وفي مقبرة باب فتوح قرب ضريح سيدي درّاس بن إسماعيل .

(5) كان النعش (أو المكب) يعوض بالنسبة للنساء بتابوت يستعمل فقط لحمل الجثمان إلى المقبرة .

فإذا تعلق الأمر بشخص متدين أو هام ، كان الموكب يمر دائماً بمسجد تختاره الأسرة ، هو جامع القرويين أو جامع مولاي إدريس ، دائماً بالنسبة للجنائز الكبرى . كان الإمام بعد الصلاة العادية ، يدنو من النعش[6] ويقرأ دعاء خاصاً ، وكان هذا الاحتفال يدوم وقتاً قصيراً جداً.

ثم كان الموكب يستأنف سيره نحو المقبرة[7] متبعاً نفس الاحتفال كذي قبل . وكان القبر قد حفره الحفارون . كان إما مجرد حفرة مستطيلة قليلة العمق ، على عرض الجسم بالذات ، أو كانت أوسع من ذلك. فتملأ جوانبها بالآجر المعد لعمل البناء المتواضع على العموم الذي سيشيد فيما بعد[8] .

كانت الجثة توضع على حصير (سجادة) بجانب الحفرة ؛ ثم إن العميان الذين كانوا يستدعون بالمناسبة يرتلون سورة ياسين ، كما كان يحدث أن يأتي الفقهاء لقراءة الدعوات . وبعد انتهاء هذه الواجبات ، كان أحد (الصحافين) ينزل إلى القبر ليتسلم الجثة ، فيضع تحت رأسها الكفن المثني على شكل وسادة ، ويدير الوجه إلى اليمين . كان الذي يساعد (الصحاف) على وضع الجثة في القبر يتلو هذه الكلمات الشعائرية : « أنا وايّاك في حماية النبي » . إذ ذاك ، وبينما الأقرباء يتقبلون تعازي الحاضرين ، كان أحد أعضاء الأسرة يدفع في عين المكان الأجرة (للصحافين) والحفارين ،

---

(6) كان يوضع تحت الثريا الكبرى بالقرويين وقرب القبة التي فيها ضريح مولاي إدريس . وقد أعد ، في الجوامع الهامة ، موضع خاص يسمى جامع الجنائز ، ولا يُحمل إليه الجثمان إلا عند خطر القذارة .

(7) ليس في المقابر العمومية (باب محروق وباب عجيسة خاصة) مصاريف لشراء الأرض . والأمر بخلاف ذلك في المقابر المحاذية للزوايا ، فلابد من دفع واجب شراء الأرض فيها . وكانت قيمة ذلك تتراوح بين 50 و 200 ريال في أوائل القرن العشرين . (ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 315) . ومن جهة أخرى ، كانت كثير من الأسر البورجوازية لها مقابر خصوصية ، (روضة) على أرضية تملكها .

(8) في هذه الحالة كان يأتي الحفارون وعددهم ثلاثة : المعلم ، ومساعد وسقاء لبل الأسمنت . والبناء بمعنى الكلمة يقوم به البناؤون .

فيذهبون فورا إلى حال سبيلهم[9] .

نلاحظ أن مراسم الجنازة تختلف جداً عن مراسم الولادة أو الزفاف . فلها طابع إسلامي محض . فالطفل الذي يولد ، والزوجان الملتحقان بالحياة الزوجية ، سوف يحسبون حسابهم في هذه الدنيا ، ليس فقط مع السلطة الإلهية ، ولكن مع السلطات الخفية التي تخالط حياة الإنس ، ومن هناك مراسم الولادة والزواج المعدة لاكتساب عطف الجن أو على الأقل حيادهم . أما المؤمن الذي يموت فلا يبقى له حساب إلا مع ربه . فلا تأثير للجن عليه ؛ لهذا فإن المراسم الدينية بمعنى الكلمة هي الوحيدة التي تصحب الجنائز .

وسيلاحظ كذلك كم تختلف هذه المراسم غن المراسم المسيحية : كل شيء يدعو المسيحي المشرف على الموت إلى أن يلقي نظرة أخيرة على حياته وأن يتوب من خطاياه ما دام الوقت باقياً . إن الجنائز المسيحية مطبوعة بعلامة الخوف ؛ وما الصلوات على الموتى سوى توسل طويل إلى الله ليرحم . أما الصلوات الإسلامية ، فهي بالعكس تشف بالهدوء والثقة : فما دام المؤمن قد نطق بالشهادة ، فلا حاجة إلى الخوف على سلامته ، لشدة ما يتغلب الإيمان على الأفعال .

كما أن شعائر الموتى لا تكتسي نفس الطابع كما هي عليه في البلاد المسيحية : فمن المعلوم أن المقابر ليست مُسَوَّرَة وبالإمكان التجول فيها بكامل الحرية . ليس من النادر بفاس أن يصادف فيها مجرد متجولين ، وحتى الدباغون ينشرون فيها جلودهم إذا كانت جدران المدابغ وسطوحها غير

(9) لم يكن هناك سعر محدد للصحافين ، ولم يكونوا يقبضون أجرة مبدئياً ، ولكن صدقة ، تماماً كالعُمي الذين كانوا يتلون القرآن العظيم . فكان إذن كل واحد يعطي حسب إمكانياته ؛ ولم يكن من النادر ، في الجنائز الكبرى ، أن يعطي الحاضرون صلة للصحافين ؛ كان المبلغ المتوسط ، حوالي 1940 من 10 إلى 15 ريال . ولم يكن الأداء دائماً بدون مناقشة . كانت جميع المبالغ التي يقبضها الصحافون تسلم إلى أمين الطائفة الذي كان يوزع في المساء حصيلة النهار على جميع أعضاء الطائفة بالتساوي .

كافية[10] ؛ وكانت النساء قديماً يزرنها يوم الجمعة ، مع الأطفال والجواري ، ويتناولن فيها الشاي وهن يتحدثن . فلا شيء يُذكر بيوم الموتى وزياراتنا الحزينة لمقبرة أجدادنا . ليس هذا حكماً مسبقاً على المشاعر الكمينة في صميم الأفئدة ، لكنني أستطيع القول إن الموتى بفاس يحتلون مكانا أقل في فكر الأحياء مما هو عليه في فكرنا .

(10) هذا صحيح خاصة بالنسبة لمقابر باب الحمراء ، وسيدي علي مزالي وباب عجيسة .

الفصل السابع

7/7

التسليات

لفاس ، بالمغرب ، سمعة مدينة متقشفة : فالجدران القاتمة ، والأزقة الضيقة ، وثقل هواء مشبع في غالب الأحيان بالرطوبة ، كل ذلك يساعد على إعطاء هذا الانطباع للضيف العابر . ويشعر بذلك أيضاً[1] الفاسيون الذين سافروا وتمكنوا من القيام بالمقارنات ؛ لأنهم يحسون ، منذ طفولتهم ومهما كانت وضعيتهم ، بالعادة الاجتماعية تضغط عليهم ، وهي أطغى من جميع الأحكام المكتوبة ومن جميع القوانين . ليس معنى هذا أن التسليات كانت منعدمة فيها قبل الحماية[2] ، لكنها كانت خاضعة ، كغيرها « للقاعدة » ، القهرية . كانت متسمة بطابع المنتظر ، وطابع المماثل دائماً ، وطابع المنظم

---

(1) انظر روني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص. 161 .

(2) لقد تكاثرت التسليات منذ قدوم الفرنسيين . إن أجهزة الراديو متعددة عند الخواص ، وهناك مقاهٍ أكثر عدداً يختلف إليها الناس أكثر من ذي قبل ، وعلى الأقل الشباب ، والكثير منها مجهز بمكبرات الأصوات المدوية . وتوجد بالمدينة « قاعتان للسينما » ، وأصبح البستان العمومي لبوجلود ومقهى المرينيين من قبيل العوائد ، يملك الكثير من الفاسيين الموسرين سيارتهم . وأخيراً ، بقطع النظر عن الملاح الذي كان موجوداً قبل الحماية ، فإن المدينة الجديدة تقدم لأهل فاس ، في أيام فراغهم ، مناسبات للتجول وتمنح عدة جمعيات رياضية للشباب المسلمين : مدرجات ، وملاعب للقوى ، ومسابح ، وملاعب لكرة المضرب ، الخ . . . فالملاهي أكثر عدداً وتنوعاً من ذي قبل . ورغم ذلك تبقى فاس مدينة متعجرفة ، بينما كانت مراكش لها دائماً سمعة البهجة حرة طليقة وقد احتفظت بذلك .

مسبقاً الذي يمنع الشخص من التفتح تحت وقع الأمر المفاجئ .

التسليات اليومية : ـ لقد رأينا فيما سبق أن وتيرة الحياة الاقتصادية كانت بطيئة إلى حد ما : فلا شيء من الحركة المضطربة المتواصلة لكبريات مدن الغرب ، بل مجهود مقدر بحذر يترك للجميع ، أغنياء كانوا أم فقراء ، ساعات من الراحة اليومية . فإذا كانوا يستيقظون باكراً ، فإنهم كانوا يتوقفون عن العمل ابتداء من منتصف العشي ، فتبقى الأمسية حرة .

كانت العامة تختلف إلى بعض المقاهي التي كانت في نفس الوقت مكاناً لتدخين الكيف[3] ؛ وهي ضيقة ، مظلمة ، قذرة ، يديرها جزائريون[4] في غالب الأحيان ، وبعيدة عن أن تكون لها نفس الأهمية الاجتماعية التي لمقاهينا في الغرب ، ولا حتى لمقاهي المدن الإسلامية في الجزائر وتونس .

لهذا كان الناس المساكين يفضلون الذهاب ، إذا كان الجو جميلاً ، إلى بوجلود ، وباب فتوح أو باب عجيسة ، وهي الأبواب الثلاثة المسلوكة ، ليقفوا في حلقة بعض مسلي الجماهير ، أو حول مشعوذ ، أو عراف ، أو مرقص قردة أو حيات ، أو ممثل بالإيماء ، أو مسايف بالعصا ، وبخاصة حول قصاص . كان جل هؤلاء غرباء عن فاس يترددون من مدينة إلى مدينة لكسب معاشهم وهم في حالة فاقة . إلا أنه كان من بينهم بعض الفاسيين ، من

---

(3) كان استعمال « الكيف » (وهو مخدّر من القنب) كثير الانتشار بفاس في الأوساط الشعبية . انظر ل. هارّيس ، المرجع المذكور ، ص. 133 ؛ وش . دوفوكو ، المرجع المذكور ، ص. 34 ، هامش 2 . وقد يكون شارب « الكيف » أحد أشخاص الكوميديا الفاسية لو كُتبت : هو شخص معروف في المدينة مخبل وغريب الطبع . ويتناول هذا المخدر عدد كبير من الصناع ، وعندما شكلت وكالة التبغ ، أخذت تصنع « كيفاً » غير مؤذ لا يُرضي المتعودين عليه . لذا ، نشط تهريب « الكيف » جداً بين المنطقة الإسبانية وفاس .

(4) انظر ما سبق ، سكان فاس ، ص. 199 ؛ وليناريس ، رسالة غير منشورة بتاريخ 25 ديسمبر 1894 : يشير ليناريس إلى أن الحكومة الشريفة ، بعدما أمرت بإغلاق المقاهي وأماكن تدخين (الكيف) لأسباب سياسية (كان ذلك بعد وفاة مولاي الحسن بقليل) احتج أصحاب المقاهي الجزائريون وأيّدهم نائب قنصل فرنسا .

الصناع أو قليلي الدخل ، يتحولون في المساء إلى مهرجين ، مضيفين هكذا شيئاً إلى أجرتهم الزهيدة ، دون أن يفوتهم السرور بأن يراهم الناس أو ينصتوا إليهم .

القصاصـــون : كان جل القصاصين (فـداوي . ج فداويـة أو فداوة)[5] يُعرفون باسم قصاصي الغزوات . كانوا ينشدون ، على إيقاع دف ، غزوات العرب في قديم الزمان . كان جل المستمعين (وعددهم نحـو الخمسين في الشتاء ، وحتى مائتين في الفصل الجميل) مطلعين على الحكايات ، فيصححون أخطاء الراوي أو يلقنونه إذا اتفق أن خانته ذاكرته ؛ لكنهم كانوا يشعرون بسرور كبير وهم يستمعون مرات متعددة إلى رواية الانـطلاقات على الأفـراس ، والمبارزات ، والخيـانات ، والإقـدامات ، متهدهدين أو متأثرين بالعبارات الرتيبة المتكررة دوماً[6] .

وكان القصاص الأكثر تفوقاً الذي يجمع حوله حفلاً حفيلاً هو قصاص باب عجيسة ، أبا إدريس الفداوي . كان يقوم كل يوم ، بين صلاة العصر والمغرب ، عند مخرج باب عجيسة على تلال المقبرة الصاعدة نحو قبور بني مرين[7] ؛ وفي ظل الأسوار الصهباء كان يروي يوماً بعد يوم قصة طويلة يعرف كيف يجعلها حية ، وأحياناً مؤثرة[8] . ومع ذلك فإن أبا إدريس ، وهو خراز

---

(5) انظر عن القصاصين ، ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص. 272 . وفضلاً عن تجربتي الشخصية ، فقد استفدت كثيراً من المعلومات التي تفضل تلميذي القديم وصديقي ، السيد أحمد الصفريوي ، فزودني بها .

(6) لنتذكر عبارات الإليادة أو المفاخرة ، أو أبسط منها ، الجمل الشائعة في خرافاتنا .

(7) كان أبا إدريس يحكي أثناء الفصول كلها . فإذا كان الطقس رديئاً ، انحاز كل من القصاص والمستمعين إلى الأسوار فتسير الحكاية سيرها رغماً عن الريح والبرد القارس والمطر .

(8) تروى في شأنه الحكاية الآتية : ذات مساء ، بعد غروب الشمس ، دخل أحد الصناع إلى منزله ، وبمجرد ما وصل إلى الباب صاح بزوجته في لهجة من الغم الشديد : « مات اليوم أعظم الرجال، قالت المرأة: «ومن هو يا ترى» وقد فوجئت بهذا النبأ ـ هو معروف» (وكان أحد الأبطال الذين يحكي أبا إدريس مغامرتهم المأسوية) . قالت : «معروف ؟ إنك تحكي علي حماقات » فأجاب « كيف ! ألا تهتمين بمعروف ؟ إنك طالق » فطلقها .

حرفة ، لم يكن يعرف لا القراءة ولا الكتابة . كان قد استمع إلى حكايات رائعة فطفق يرويها بدوره بموهبة عجيبة ؛ حتى يقال إن شهرته قد بلغت إلى مولاي عبد العزيز الذي رغب في أن يستمع إليه وتستمع إليه نساء القصر (وقد همّ بأن يفقأ عينه من أجل ذلك) ؛ لكن ابا ادريس امتنع من مغادرة باب عجيسة للالتحاق بدار المخزن ، وتدخل الناس لدى العاهل ليتركه لأهل فاس .

كانت ذخيرته تشمل ثلاث قصص كبرى : قصة عنترة التي تدوم عاماً ، وقصة الإسماعيلية التي تدوم ستة أشهر ، وقصة سيف ذي اليزن ، وهي حكاية عجيبة على شاكلة ألف ليلة وليلة ، تدوم أربعة اشهر . وكان يدرج بين قصتين كبيرتين قصة قصيرة لا تستغرق أكثر من جلستين أوثلاث جلسات . وقبل نهاية العشية ، كان أحد المستمعين يجمع التبرعات ويسلمها إلى أبا إدريس[9] .

وكان أيضاً بإمكان الصناع والفقراء أن يتعاطوا لعبة الورق[10] ، وهم يتحدثون فيما بينهم ، أو أن يتجولوا في مسالك مدار فاس مع كناريهم المغرد[11] .

كانت تسليات البورجوازيين أكثر تنوعاً ، إذ كانوا يتعاطون لعبة الورق ، مثل الصناع ، كما يلعبون الشطرنج[12] أيضاً ، وذلك منذ قرون[13] ؛ بالإضافة

---

(9) مات أبا إدريس ، وخلفه صاحب مقهى في الهواء الطلق ، قد جمع شيئاً فشيئاً كل حكايات المعلم ، وهو يبيع القهوة للمستمعين ، لكنه لم يحصل على موهبته .

(10) يتعلق الأمر بالورق الإسباني . كانت الألعاب الأكثر استعمالاً ، والتي تسمى « الرندة » ، و « شكامبة » و « التريس » ، تطابق المعركة و « التعبيدة » والماتيل ، مع بعض التعقيدات الإضافية (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 331) .

(11) انظر أحمد الصفريوي ، كاناري عزور .

(12) يروي موليبراس (المرجع المذكور ، ص. 460 -461) أنه لعب الشطرنج ، بفندق التطوانيين ، مع بائع ثياب غني يسمى محمد بن عبد القادر بنيس .

(13) يشير ليون الإفريقي (قسم 2 ، ص. 129) إلى لعبة الشطرنج بفاس . كان الفاسيون ماهرين فيها : ألم ينتصر أحد زملائي بالثانوية الإسلامية بفاس ، وهو مولاي أحمد الأشبيهي ، على =

إلى أنهم كانوا مولعين بالعلب الموسيقية والحاكيات ، منذ أن أرسلتها إليهم أوروبا[14] .

ألم تكن المذاكرة هي التسلية المرغوب فيها أكثر ؟ إن أهل فاس قوم يألفون ويحبون المحادثة في المساء مع الأصدقاء : كانت الجواري يُحضرن ما يلزم لصنع الشاي ، وكان ابن الدار ، إن وجد هناك ، يُهيؤه دون أن ينبس ببنت شفة ، بينما يتحدث أبوه بصوت خفي مع الصديق أو الأصدقاء الذين يستقبلهم ذلك اليوم ، كانت المحادثة تجري بدون رابط ، تختلط فيها الحالة السياسية ، والأخبار المحلية ، والنكات الساخرة ، والأخلاق ، والدين ، متقطعة بفترات صمت هادئة أو بصوت الحناجر وهي تحتسي الشاي الحار .

وكانت الاستدعاءات للغذاء أو العشاء[15] متكررة ، كانت توجه في الليلة السابقة أو حتى في الصباح ، لكن لا تُقدَّم إطلاقاً . كان الغذاء يشتمل على بعض الأطباق من اللحم بالخضر ، متفاوتة العدد حسب أهمية الاستقبال ، والكسكسو باللبن ، والفواكه ، والحلويات بالعسل ؛ وكانت الجواري يُدرن الطست قبل الأكل وبعده ، حتى ينظف كل واحد يديه وفمه . وكان الشاي يقدم إثر الطعام وتُدار مبخرة ليطيب كل واحد ثيابه . كان كل ذلك يتم وفق قواعد اللياقة ، وفي غاية الدقة والأدب .

هذه كلها مُتع في الداخل . أما متع الهواء الطلق ، فكانت أقل اجتذاباً

اللاعب الشهير إليخين ، الذي لم يتعرض إلى هذه الخيبة سوى مرتين أثناء جولته في المغرب ؟

(14) انظر موليبراس، المرجع المذكور ، ص. 181 . كان للأنجليز الاحتكار التام تقريباً في بيع الحاكيات بفاس . وأدركوا فوراً أنهم سوف لا يبيعون منها إلا إذا استطاع الفاسيون أن يستمعوا إلى الموسيقى التي تروقهم . لذلك سجلوا في عين المكان أغنيات وألحانا جوقية ، فكانت النتيجة هي المنتظرة ، ولم يكن رضى النساء أقل من رضى الرجال .

(15) إنني أستعمل كلمة « عشاء » عمداً ، إذ كانوا يستدعون لا لتناول الطعام ، ولكن لقضاء الليل ، نظراً للصعوبة التي كانوا يجدونها في الالتحاق بمنازلهم ليلاً ، بسبب إغلاق أبواب الحي (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 332)

لهؤلاء السكان الفاترين . إلا أن بعضهم ، ولا سيما الشبان ، كانوا يذهبون للصيد في ناحية واد فاس بعالية المدينة وسافلتها[16] ؛ وكان آخرون يمارسون المسايفة بالعصا ، والمصارعة ، وكان هنالك حتى موضع مخصص للاعبي الكرة[17] . وأخيراً فقد أشرنا فيما سبق[18] إلى جمعيات الرماية التي كانت موجودة بفاس . لم يذهب كل ذلك إلى بعد كبير ، لذلك لا يسعنا ذكر الافتتان بالرياضة[19] .

البغاء والحياة الغرامية :ـ كان البغاء نادر الظهور ، منعزلاً في الأحياء الفقيرة ، ويكاد يكون معيباً في المدينة التقية البورجوازية . ليس معنى هذا أن الفاسيين كانوا أعفَّ من غيرهم ، لكن احترامهم للياقات ، والسهولة التي كانوا يجدونها عند الإماء والمغنيات وبعض الأرامل أو المطلقات ، والسن الباكر الذي كانوا يتزوجون فيه ، وكراهيتهم للعفوية والسوقية ، كل ذلك كان يقصيهم عادة عن المومسات الحقيقيات .

كانت هؤلاء من نصيب القرويين العابرين ، والعمال الفصليين ، والجنود ، وعدد معين من الصناع . كن يعشن ، وهن أيضاً قرويات ، في الطابق الأول ببعض الفنادق ، بجوار الأبواب الرئيسية للمدينة[20] . كن يكترين

---

(16) نفس المرجع ، ص. 339 .

(17) توجد بسلوة الأنفاس (جزء 2 ، ص. 42 و43) إشارة إلى ملعب الكرة برأس القليعة .

(18) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 3 ص. 254 ؛ والكتاب 5 ، الفصل 3 ، ص. 364 .

(19) لقد تغيرت الأشياء كثيراً منذ إقامة الحماية . فأصبح الشباب الفاسي مولعاً أكثر فأكثر بالرياضات والحياة في الهواء الطلق ، وأخذ عدد الهواة يتزايد بدون انقطاع ، لاسيما منذ حوالي عشر سنوات ، في الكشفية من جهة ، وكرة القدم وكرة السلة والسباحة، وألعاب القوى ، في درجة أدنى ، في الميدان الرياضي بمعنى الكلمة .

(20) يذكر مارتان (الكدان ، ص. 625 ، وهنا وهناك) اثنين منها ، أحدها مباشرة قرب جامع الأندلس ، في طريق باب فتوح ، والآخر في أسفل درب اللمطي ، قرب قنطرة بين المدن . كان بعضها أيضاً قرب باب عجيسة ، كما كانت قصبة تامدرت وقصبة بوجلود مكانين للبغاء . وكذا بعض مناطق حي مولاي عبد الله بفاس الجديد الذي أصبح منذئذ الحي الرسمي للبغاء (ميطرودو لاموط ـ كابرون وطرينكا ، المرجع المذكور ، ص . 27) .

غرفتهن من صاحب الفندق الذي كان يطالب بإضافة دفع واجب قدره 0,25 بسيطة حسنية عن كل زائر . كان بواب الفندق يُستعمل كخادم ويوفر لهن ، مقابل مال ، الكؤوس والصينيات اللازمة لإقامة الشاي . كن مستقلات بعضهن عن بعض ، فلا شيء يشبه « ماخوراً » .

وكانت مومسات أخريات ، فاسيات في غالب الأحيان ، يعشن في دور خصوصية[21] . تكتري منازلهن عجائز يقمن بدور وسيطات وربات الماخور . وكان يحدث أن تذهب هؤلاء النساء إلى منزل الرجال في بعض « المصريات » الخفية .

كن جميعهن تحت مراقبة مقدم الحي الذي يعشن فيه ، وكان هذا الأخير يقتطع العشر للمومسات التابعات له كما أسلفنا[22] ؛ وإذا امتنعن من الأداء تعرضن للإزعاجات أولاً ، والى مضايقات خطيرة إذا أصررن على موقفهن .

كم كان عدد هؤلاء النساء ؟ لا تسمح أية علامة بإعطاء أدنى بيان عنه . والذي يبدو يقيناً ، هو أن عددهن كان ضعيفاً باعتبار عدد السكان . كم كان الفرق كبيراً مع بغاء مراكش المنتشر في كل مكان ، لإرضاء آلاف المتجولين الوافدين كل يوم من البادية على مدينة الجنوب الكبرى ! .

عندما كان البورجوازيون يريدون مغامرة غرامية ، وجهوا أنظارهم نحو المغنيات ، وهن النساء الوحيدات ، مع الخاطبات ، اللائي كان في استطاعتهم ان يروا وجوههن . كما كان في وسعهم أن يفكروا في الأرامل والمطلقات العديدات اللواتي كن يعشن وحدهن ، مشكلات ما يمكن أن يسمى « عالم الغانيات » بفاس . كان التصريح عادة مسبوقاً بإرسال قالب

---

(21) يشير مارتان، المرجع المذكور، إلى وجودها بزنقة الياسمينة، وزنقة الفواح، وقرب فندق العطار . وكانت هذه الدور طبعاً تحدث ضجة وتتسبب دورياً في احتجاجات الناس المستقيمين بالحي .

(22) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 2 ، ص. 128 .

سكر[23]؛ وإن لم يكن للراغب محلّ مناسب ، وجد بسهولة صديقاً مراعياً يُعيره حديقة أو مقصورة ملائمة للمغامرة يقضي فيها بضع ساعات : فإذا كانت المبادئ الأخلاقية صارمة ، فإن تطبيقها كان يترك المجال للتوفيقات[24]. وأخيراً كان العديد من الرجال ، وليسوا فقط من الطبقات الشعبية ، جريئين إلى درجة أنهم كانوا يقتربون من النساء في الزقاق عند الخروج من الحمام أو عند كل مناسبة أخرى ، فيعرضون عليهن اقتراحاتهم بدون مراوغات[25]؛ لأن الفاسيين ، وهم قوم عمليون ، لا يحبون ضياع الوقت في تغزل معقد فيتعرضون تواً إلى المهم ؛ لم يكونوا يدخلون دائماً على المسائل الغرامية التهذيب الذي كانوا يحسنون إدخاله على عدة مظاهر أخرى لحياتهم .

التسليات الغير العاديـــة : ـ وهناك تسليات أخرى خارجة عن العادة ، كان أكثرها جرياناً هو حقّاً الأفراحُ العائلية التي سبق أن أشرت إليها . كانت ثلاثة عناصر تعطيها القيمة : الأناقة ، والموسيقى ، والطبخ ؛ ويمكن أن تضاف إليها ، بالنسبة للمسـنين ، المحادثة ، لأن اجتماعات الأسرة كانت تعطيهم فرصة أخرى للقاء من جديد وللمذاكرة .

سوف لا ألح على التزين ، كانت النساء أكثر اهتماماً به من الرجال ، كما هو الشأن في أماكن أخرى ، مع هذا الفارق وهو أنهن لم يكن يتزين إلا ليسترعين إعجاب النساء الأخريات ، لا ليرضين الرجال . ورغم ذلك ، فإن أناقة الرجولة لم تكن لفظة وهمية بفاس : كان التنسيق الجيد للعمامة ، ورقة المعطف وبياضه ، وشكل النعال ولونها ، كل ذلك يميز الذين يحسنون لباسهم الأنيق بالأخص . وكان في الطبقة الفقيرة بالنسبة للرجال والنساء على حد سواء ، ما يقابل « لباسنا ليوم الأحد » .

---

(23) لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 195 .

(24) انظر ڤيير ، المرجع المذكور ، ص. 209 وما بعدها .

(25) انظر في هذا الصدد مشاهد عديدة نموذجية في الرواي الآنفة الذكر من تأليف ف. بونجان ، اعترافات بنت الليل .

الموسيقـــى : ـ كان أهل فاس يحبـون الموسيقى حبـاً جماً ، وبالضبط موسيقاهم ، أي الموسيقى الأندلسية[26]. كانت وقفاً على أربعة أجواق أو خمسة تتألف من ستة موسيقيين على الأقل . كان رئيس الجوق مع واحد أو اثنين من أصحابه فقط لا يشتغلون إلا بالموسيقى ، أما الآخرون ، وهم صناع أو أصحاب دكاكين ، فكانوا يجدون فيها ملهاة تروقهم وفرصة لتحسين أرباحهم المعتادة . كان لكل جوق تقاليده الخاصة ، ومقاطعه المعروفة عند رئيس الجوق وحده في جميع تشعباتها . وكان المعلم الشيخ (وهكذا كان يسمى رئيس الجوق) لا يفشي سره إلاَّ في آخر لحظة إلى مَن اختاره ليكون خلفاً له . كان الجوق الأكثر اعتباراً هو الذي يستطيع أن يعزف أكثر عدد من المقاطع . لقد شاخ هذا الفن الرفيع الملون الموروث عن إسبانيا المجاورة ، كعدة أشياء أخرى بفاس، وَبَلِي دون أن يتجدد. إن عدد مقاطعه تتناقص ببطء، وربما جودتها كذلك، فلم يبق سوى بقايا ما زالت ساحرة، لكنها بدون قوة[27] .

كانت العامة لا تحتقر الموسيقى الأندلسية ، ولكنها لا تستطيع إلا نادراً أن تسمح لنفسها ، على غير العادة ، بأن تستأجر جوقاً ، فكانت تلجأ في أغلب الأحيان إلى موسيقيي المواكب من الطبالين والغياطين[28] الذين كان

(26) انظر عن الموسيقى الأندلسية ، أ . شوطان ، الموسيقى المغربية ، ص. 107 -153 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص. 343 -344 .

(27) حاولت مصلحة الفنون الأهلية ، التي أنشأها الماريشال ليوطي ، أن تحيي هذا الفن المحتضر ، فأحدثت بفاس ، بإيعاز من منشطه م. پروسپير ريكار ، وبمساعدة الباحث في الموسيقى المجرب م . أليكسيس شوطان ، معهدا للموسيقى الأندلسية أدى خدمات كبرى ، موقفاً على الفور تقهقراً زاحفاً . إلا أن رؤساء الأجواق المسنين أظهروا تقاعساًوعدم كفاءة في التجديد . ومن المؤمل ، كلما زاد تأثير الشباب ، أن تستعيد الموسيقى الأندلسية بهاءها العتيق ، في شكل جديد . ولابد أيضاً من الإشارة إلى تأثير الموسيقى الشرقية التي يتذوقها الشباب الفاسي الآن جداً ، والتي تشهرها الأسطوانة ، والراديو ، والسينما الناطقة .

(28) انظر عن هؤلاء الموسيقيين ، ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 323؛ وأ .شوطان ، المرجع المذكور ، ص. 165 -168 . كما أن صديقي أحمد الصفريوي أفادني عنهم بمعلومات قيمة .

فنهم أقل تهذيباً ، لكن نفسهم طويل لا ينفد ، فكانوا يحدثون الضجيج على الأقل وينجزون أحياناً ما هو أحسن[29] . كان أمينهم ، لأنهم كانوا يشكلون طائفة[30] ، يقيم بدكان في درب الكزولي ، بحي زقاق الرمان . كان يُبحث عنه هناك لاستخدام الموسيقيين .

كما كان هناك أشياخ[31] ينشدون قصائد من الملحون ويصحبونها بلحن يسمى « كُريحة » (خلافاً للموسيقى الأندلسية المسماة « آلة »)[32]؛ كان منهم نحو خمسين بفاس ، لا يستطيع سوى بعضهم أن يكسبوا معاشهم من فنهم . وكان يوجد من بينهم كذلك ممثلون بالإيماء ومضحكون يقدرهم أهل فاس من جميع المستويات كل تقدير ، رغماً عن فكاهاتهم الإباحية أو من أجلها .

وأخيراً كانت بفاس مغنيات[33] أدركت بعضهن الشهرة . كن يشكلن طبقتين متميزتين : «المغنّيات» و « الشيخات »[34] . كانت الأوليات ، وهن

---

(29) أتذكر أني سمعت ، في إحدى ليالي رمضان الباردة ، عزفاً منفرداً صافياً كالبلور ومؤثراً جداً « لِغياط » يعزف من أعلى صومعة . كان ذلك تعبيراً لروح قلقة ، ومحتدمة ، وآسفة ، ومجردة . كان فناناً بسيطاً ، ولكنه فنان بالتأكيد .

(30) وبمعنى أدق طائفة ثنائية ، لأنهم كانوا ينقسمون إلى مجموعتين ، إلى طبالي فاس ، وطبالي الجبل . كان الأولون ، وعددهم نحو العشرين ، ينتمون إلى المدينة ويقيمون عادة كل أيام الجمعة جلسة موسيقية في ضريح المولى إدريس، وكان الآخرون ينقسمون إلى عدة مجموعات يدير كل واحدة منها شيخ ، حسب قبيلتهم الأصلية : كان هناك مجموعة بني حسن ، ومجموعة بني وليد ، ومجموعة التسول ، ومجموعة صنهاجة ، ومجموعة الحياينة . كان لكل واحدة لواؤها الخاص لا يُنشر إلا في مناسبات خاصة، (كاقتبال الملك أو شخصية كبيرة، أو موسم ولي). كان هؤلاء جبالة لا يقيمون جلسة موسيقية في ضريح مولاي إدريس . ومن جهة أخرى كانت هذه المجموعة أو تلك تؤمن لنفسها خدمات راقص شاب . وسواء كانوا جبليين أم فاسيين ، فإن الطبالين كانوا يخصصون حصة كبيرة للارتجال .

(31) انظر عنهم ، أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 344 .

(32) انظر عن هذا النوع من الموسيقى ، أ . شوطان ، المرجع المذكور ، ص. 153 -165 .

(33) انظر عنهن أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 345 ، وڤيير ، المرجع المذكور ، ص. 206 وما بعدها . ومن جهة أخرى جمعت بعض المعلومات الإضافية لدى مغنية قديمة أصبحت خاطبة ، في ربيع 1945 .

(34) تجدر الإشارة إلى وجود « الحضارات » وهن مغنيات مسنات متخصصات في الأغاني الدينية .

أكثر عدداً بكثير[35] المغنياتِ من الـدرجة الثانية ؛ كان تفوقهن ناتجاً عن فتنتهن على الأقل بقدر ما هو ناتج أكثر من صوتهن . كانت « الشيخات » يشكلن أربع جماعات أو خمس ، في كل واحدة ستة أشخـاص على الأقل[36] . وكانت قائمتهن ، وهي متنوعـة جداً ، تشتمـل على أغنيات أندلسية[37] ، وقصائد من الملحون ، وحتى أغنيات جزائرية . وكانت نجم الفرقة[38] تغني بانفراد ، على إيقاع دف صغير (داب) وتصفيق صاحباتها اللائي كن يستأنفن اللاّزمة معاً[39] . كانت الشيخات يشاركن في عـدة احتفالات عائلية (زفاف ، وسابع يوم الولادة ، إعذار ، إلخ . . .).وكن مطلوبات جداً من بورجوازية المدينة . كان رب المنزل ، يُهدي فوراً إلى زاوية مولاي إدريس ، وقد سبق له أن دفع لهن العربون ، ويجازيهن على خدماتهن بمبلغ قليل من المال ، وهو خمسة ريالات أو ستة ، لكنه كان يستضيفهن لمدة عدة أيام أحياناً ، وفي كل جلسة كان يتم جمع تبرعات من الضيـوف لفائدتهن . وأخيراً كانت العادة تقتضي ، عندما كن يرقصن ، أنهن يجثون أمام كل ضيف فيلصق على جبينهن قطعة نقدية ؛ فكانت المنافسة تساعدهن على تحصيل حتى 80 إلى 100 ريال في المساء الواحد ، لشدة ما كان شغف البورجوازيين الفاسيين[40] عظيماً بهنّ . ومن جهة أخرى كانت المغنيات

---

(35) كن يشكلن حوالي ثلاثين جماعة .

(36) كانت مجموعة الحاجة زينب التي غالباً ما كانت تشتغل عند السلطان ، تضم ست عشرة عازفة (متعلمات) .

(37) لقد أورد أوبان (المرجع المذكور) ترجمة أشهر هذه الأغنيات (وهي : يا أسمي التي تذكر بالفردوس المفقود . . .) .

(38) كانت أشهر المغنيات في بداية القرن العشرين هي خدوج السبتية ، والحاجة بريكة بنت ابن علال ، التي يورد أوبان حكايتها ، وكذا الحاجة زينب الآنفة الذكر .

(39) كان الكثير منهن لا يعرفن سوى اللازمات ، وكانت أخريات بالعكس يحفظن تدريجياً قائمة « المعلمة » .

(40) يقدر أوبان ، حسب ما استقاه من معلومات ، أن بريكة كانت تقبض من 3000 إلى 4000 ريال في السنة . كانت المبالغ المحصل عليها تقسم إلى قسمين ، كان النصف منها يؤول للمعلمة ، والنصف الثاني يقسم بين المتعلمات . ومع ذلك لم تكن المغنيات غنيات ، إذ كن مبذرات . تقول ألسنة السوء إنهن كنّ في الغالب ميالاتٍ إلى شرب الخمر .

الشهيرات يخترن زبناءهن ولا يذهبن إلا عند الأغنياء والمرموقين من الناس ؛ كن مطلوبات أحياناً حتى من مراكش ، بينما لم تكن أية مغنية غريبة لتقدم على أن يستمع إليها بفاس .

الطـــبخ :- لم تكن الاستقبالات بالتالي تجري بدون أكل فاخر . فإذا نظم أحد الأغنياء الفاسيين احتفالاً جميلاً بجوق ممتاز، لم يكن يستطيع أن يقدم لضيوفه أقل من غداء جيد . كانت الأسر العظمى تملك في المنزل خادمة طباخة ، ولكن في حالة احتفال كبير يستدعى إليه عدة مئات من الأشخاص ، كان لا بد من مدها بالمساعدة . فكانوا يلجؤون من أجل ذلك إلى خدم إضافيين (طباخ ، مُؤنثه طباخة)[41] وكانوا من الجنسين . كان الرجال قليلي العدد ، حوالي عشرة ، لكنهم كانوا يديرون الطائفة[42] ، وهي الطائفة الوحيدة المختلطة بفاس ، حسب علمي . كانت النساء كلهن زنجيات معتقات ، وعددهن نحو خمسين[43]، كن يشتغلن تحت مسؤولية أمين الطائفة الذي لم يكن يتردد في توبيخهن وضربهن عند الاقتضاء . كن خرافيات للغاية ، لا يشعلن مواقدهن إطلاقاً قبل إحراق شيء من البخور الطيب (الجاوي ، والشب ، إلخ . .) ، ودون تلاوة بعض العبارات التعوذية . وكن يغنين أغنيات سودانية وهن يشتغلن في عملهن ، ولا ينقطعن عن الحديث والحكايات .

كانت المهمة الوحيدة للطباخين والطباخات هي تهييء قائمة طعام معدة مسبقاً ، بتوابل معينة ؛ وكانوا في الغالب يأتون بأدواتهم . كان الرجال يؤجرون عيناً ، فيأخذون بعض الأطباق ويتسلمون كذلك قطعة أو قطعتين من

---

(41) جمعت المعلومات التالية ، خلال تَحَرٍّ شخصي ؛ ومن جملة من سألتهم أمين الطباخين ، الحاج محمد كَنون ، وهو يعمل الآن في فندق أهلي بقصبة بوجلود أنشئ حديثاً .

(42) كان أمين الطباخين يعين من طرف المخزن ، لأن طائفتهم بدون شك كانت كثيراً ما تستدعى لتعمل بالقصر حيث كانوا يحتاجون إلى قوم ثقات .

(43) حسب أمين الطائفة ، كان ظهير شريف يمنع النساء الحرات من مزاولة الحرفة ، لا لكون الأمر يتعلق بشغل من عمل الرق ، ولكن حتى لا يكون الطبخ من إنجاز نساء تكون لهن روابط بفاس ، وقد يغتنمن حرفتهن لبلوغ ثأرهن .

الثياب[44]! وكان يحق للطباخات أن يأخذن سلب الدجاج فيبعنه ، وأجرة قليلة مناسبة للعمل المطلوب منهن . وكانت الحرفة مربحة في الصيف والخريف ، لكن ، نظراً لأن البطالة تكاد تكون شاملة في الشتاء ، كان لجميعهم ، رجالاً ونساءً ، حرفة أخرى[45] .

كانوا كلهم يعرفون التشكيلة العادية للأطعمة المستعملة بفاس ، لكن كل واحد منهم كان له طبقه المفضل الذي يحسنه بكيفية خاصة . وكان أكبر تنوع يسود طبعاً في القوائم ، حسب الوسط الاجتماعي للمضيف وأهمية الحفل : كان يسير من الطابق البسيط للحم الضأن المشوي باللوز ، المتبوع بالكسكسو بالدجاج ، إلى ولائم المخزن الفاخرة التي كان يُقدم فيها نحو عشرين طبقاً متتالية[46] .

ورغم أن هذا الطبخ مغاير لطبخنا وغريب عن ذوق الأوروبيين، فإنه مع ذلك لا يقل لذة ورقة، وإن كانت المقومات الأساسية قليلة العدد، وهي : الضأن ، والدجاج ، والحمام ، والكسكسو ، والدقيق ، واللوز ، والليمون الحامض ، وتوابل مختلفة ، والعسل ، والسمن ، والزيت ، والبيض ، واللبن ، والسمك نادراً ، وقليل من الخضر ، وقليل من الفواكه ، ولحم

---

(44) كانت الأشغال المنجزة لفائدة المخزن استثنائية . فكان الطباخون يقبضون جائزة نقدية ، قد حددها حتى مولاي حفيظ .

(45) كانت النساء يغزلن الصوف أو يغسلن الثياب في فصل الكساد .

(46) إليكم قائمة أطعمة قدمت في بلاط مولاي عبد العزيز : البسطيلة (فطيرة مورقة مصنوعة بالحمام) ـ تفاية (لحم الضأن المشوي المصنوع باللوز) ـ المروزية (لحم مشوي بالتوابل والعسل واللوز) ـ الدجاج المعمّر (دجاج محشو بالكسكسو أو الأرز مع الزبيب واللوز) ـ دجاج مشرمل (دجاج مقطع بالبصل والمعدنوس) ـ دجاج مفند (دجاج بالبيض) ـ قمامة (لحم مطبوخ جيداً بالبصل والعسل والتوابل) ـ الصويري (دجاج أو لحم ضأن بالزعفران) ـ كسكو مدفون بالدجاج (كسكو بالدجاج مع البصل والزعفران) ـ كسكو مسوس (كسكسو بالسكر والقرفة) ـ الروز بوفلفل (أرز بالفلفل) ـ الروز المكوي (أرز مبخّر) والروز المحلبي (أرز باللبن) ـ والسفّة (سميد) ـ الحلاوي (وهي حلويات متنوعة) .

الطرائد المنعدم تقريباً . بهذا الزاد القليل ، كان الطباخون الفاسيون ، وهم ورثة تقاليد أندلسية حسب جميع الاحتمالات ، قد استطاعوا أن يشكلو قائمة من الأطباق متنوعة بقدر كاف ، وأن يحققوا تجانسات مدهشة للتوابل لكنها لذيذة ، وأن يشكلو فناً حقيقياً للطبخ كان أهل فاس يعتزون به عن جدارة ويعطي برهاناً آخر عن حضارتهم العتيدة[47] .

كانوا هكذا ينظمون استقبالات بمناسبة أهم أحداث الحياة العائلية أو الأعياد الدينية ، كما كانت هناك مجرد استقبالات حبية واستقبالات رسمية ، تقدمها خاصة الشخصيات المخزنية على شرف ضيف عابر ، أو سفير أوروبي ، مثلاً[48] . وحسب المجاملة الشرقية ، فإن المضيف لم يكن يساهم في الغذاء ، حتى يراقب حسن تنسيقه ويسهر على ألَّا يفوت أحدَ ضيوفِه شيء .

فأناقة اللباس وسحر الموسيقى ورقة الأكل الفاخر ، وتهذيب المجاملة ، كل ذلك كان يتضافر على أن يجعل من هذه الاجتماعات شيئاً متمماً ، ومرضياً للحواس والفكر معاً . وإننا لندرك مدى السرور الذي كان أهل فاس يجدونه في ذلك .

وفي الفصل الجميل الذي كان هو « فصل فاس » ، كثيراً ما كانوا يذهبون إلى البادية ليقضوا فيها النهار ، يتناولون الأكل ويتنزهون ، ذلك ما يسمى هناك « النزاهة »[49] . كانت بساتين المدينة ، داخل الأسوار أو عند

---

(47) لقد شرع بعض فرنسيي فاس في جمع أهم وصفات الطبخ الفاسي واستخلاص موجز طبخي منها . وفعلاً ، فإن مثل هذا الموضوع يستحق أن يخصص له مؤلف ، يكون طبعاً مبنياً على تجربة طويلة .

(48) كان الوزراء ، في هذه الحالة ، يبدون غالباً اللياقة في أن يقدموا إلى ضيوفهم الرفاهيات المعتادة عندهم : كخوان ذي ارتفاع عادي ، وكراسي ، وسكاكين ، وملعقات ، وشوكات ، وقد يستعيرونها منهم لانعدامها بفاس ، (الكونت دوبويسوري ، المرجع المذكور ، ص. 65) .

(49) عادة « النزهة » قديمة بفاس : يشير إليها ليون الإفريقي (القسم 2 ، ص 111) ، وكذا المؤلف=

قدمها ، المسرح المعتاد لها[50] ، فيكلفون « زرزاية » بأن يحملوا إليها الحصر والزرابي واللحافات التي كانوا يضعونها في ظل أوراق الشجر . وفي وقت الأكل ، كان الخدم يأتون حاملين على رؤوسهم أطباقاً ما زالت حامية . وكان جوق من العازفين أو المغنيين يُستدعى أحياناً لتنشيط الاحتفال، فيقضون النهار في عفوية لطيفة . وإذا أبصروا صديقاً عابراً أو حتى غريباً يبدو عليه أن الفرح اجتذبه ، استدعوه عن طيب خاطر[51] .

الأعياد والحفلات العمومية : ـ وأخيراً كانت الأعياد الدينية والحفلات الرسمية تتيح لأهل فاس نوعاً أخيراً من التسلية . كانت المدينة كلها تساهم في الأولى بنفس الحماس الديني[52] ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للحفلات الرسمية . فالبورجوازيون لم يكونوا يتذوقون كثيراً هذه الأفراح المفروضة ، لأنها كانت أولاً تتطلب منهم ثمناً غالياً ، ولأنها كانت ثانياً تزعجهم في عوائدهم ، دون أن تحمل لهم أي تعويض .

كان تبوُّءُ سلطان جديد العرش ودخوله الرسمي إلى فاس ، ووقوع حدث سعيد في الأسرة الشريفة ، مناسبة حتماً لتقديم هدية إلى العاهل ؛ وكان الأعيان طبعاً يتحملون أثقل عبئها . فإذا أُعلن عن مجيء سفير أجنبي ، كان ذلك ينبئ عن « مؤونة »[53] قد تدوم طويلاً . وإذا كانت مجرد رسالة من

المجهول فى تاريخ الدولة السعديه (ص. 30. وعلى ناني (المرجع المذكور، ص. 194-195).
كانت النزهة في البادية التي استدعي إليها هذا الأخير .

(50) لقد اتسع كثيراً مجال « النزهة » ، منذ أن ساد الأمن وانتشر استعمال السيارة بين أهل فاس ، يذهبون الآن قصد التنزه إلى صفرو ، وعلى ضفتي سبو ، وفي سهل سايس ، أو حتى في الجبل جهة إيموزار كندر أو إفران . وقد أعطى الفرنسيون المثال .

(51) حدث لي نفس الشيء في أول إقامتي بفاس ، وكان ذلك في يوم رائع من شهر فبراير . كنت ذلك اليوم ضيفاً على فاسيين لم يعرفوني وقد تفضلوا باستدعائي إلى نزهتهم ، عندما لاحظوا أسي أنظر ـ بدون تحفظ ـ إلى ما كان يجري في بستانهم .

(52) انظر ما سبق ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

(53) انظر عن هذه الكلمة ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، ص 170 .

السلطان تخبر بانتصار على قبيلة متمردة ، كان من اللازم أن يعطلوا ، ويزينوا بالأعلام ويدفعوا الأجرة للاجواق في الأسواق الرئيسية ، ويقدموا هدية إلى رسول العاهل : ومن ثمة زيادة في نفقات ونقصان في الربح[54] . ومن جهة أخرى ، كان لا بد من الصعود إلى باب دكاكن ، وباب ساكُمة أو مشور باب بوجات ، في الغبار وسط الازدحام . ولم يكن جَمال المشهد ليعوض دائماً هذه المضايقات .

أما سوقة فاس الجديد والتصبات والأحياء الدائرية ، فكانوا على العكس من ذلك يحبون كثيراً هذه التسليات المجانية ، ويزدحمون عند مرور العاهل أو الأسرى الذين تأتي بهم « المحلة » الشريفة ، ويحضرون أفواجاً تظاهرات الطوائف الصوفية[55] ، أو عقوبات اللصوص والثوار[56] . وكان هؤلاء السوقة ، وهم هادئون عادة ، يصابون في مثل هذه الأوقات بهياج جماعي قد يؤدي بهم إلى ارتكاب أبشع العنف[57] . كانت الأنظار تلمع بوميض تائه ، والصدور تلهث ، والمشية تسرع ، وكان صراخ أول من تثور أعصابهم يحفز الآخرين ؛ ولم تكن النساء أقل تحمساً ، وإن كن يقفن في المؤخرة بعض الشيء . فكان إذ ذاك هذا الجمهور الجاهل كأنه رفعه موج من الهمجية ، آتٍ من أعماق التاريخ ، وقت أن كانت الوحوش تمرح في شِعْب إدريس[*] .

وفي نهاية مطاف هذه النظرة الإجمالية عن الحياة الاجتماعية لمسلمي

---

(54) انظر الرسالة المؤرخة في 33 مارس 1898 ، التي يذكر فيها نائب قنصل فرنسا أن مولاي عبد العزيز يخبر سكان فاس بالانتصار الذي أحرزه على قبائل الشاوية الثائرة ، وذلك يترتب عنه حتماً البطالة والمسرات ، تحت طائلة الغرامة وحتى السجن .

(55) انظر ما سبق ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(56) انظر عند لوكّلي (موت الروكي ، ص203 -205) رواية النكال بأصحاب بو حمارة .

(57) هكذا تفسر الاحداث الدامية لابريل 1912 .

(*) لقد أخرجت ذكرى « أيام فاس الدامية » المؤلف عن تظاهره بالاعتدال فراح يتفنن في شتم مواطنينا بما ينبيء عن كامن الحقد والاحتقار. (مترجم) .

فاس ينبغي أن نجمع هذا المقدار من البيانات المتفرقة ونحاول تمييز الظاهرة في عموميتها الكاملة .

فأول علامة تعريفية ، تفرض نفسها بادئ ذي بدء وتبرز معززة من التحليل ، هي وجود عادة قوية كانت تنظم تقريباً جميع أعمال الحياة الاجتماعية . ليست هذه ظاهرة شاذة في بلد إسلامي ، ولكنها كانت تتجلى هنا بحدة غريبة[58] . كانت هذه العادة تتحكم في جميع أعمال الحياة الفردية ، وجميع العلاقات الاجتماعية ، وذلك منذ قرون . وفعلاً ، إذا تعذر القول ، عند انعدام الوثائق ، في أي عهد يمكن اعتبار هذه العادة قد نشأت ، فلنا اليقين في أنها كانت سائدة بكامل قواها في أوائل القرن السادس عشر ، عندما كان ليون الإفريقي يعيش بفاس . فالوصف الذي خلفه لنا عنها يمكن أن يطبق ، نقطة نقطة تقريباً ، على فاس في بداية القرن العشرين . والفارق الوحيد الهام ، هو أن الخلاعة كانت أكثر انتشاراً في وضح النهار على عهد الوطاسيين : كان الأشرار الذين يحدثنا عنهم ليون[59] يشكلون عصابة حقيقية معترفاً بها رسمياً تقريباً ، إذ كانوا يستفيدون من وضعية عسكرية خاصة ، وكانت الخمر تباع جهاراً[60] . إن الإصلاح الديني الذي كان سيفضي بعد سنوات قليلة من مجيء الدولتين الشريفتين لم يكن قد أعطى أكله بعد ، ولم يكن قد أرغم الفسقة على التستر . ولكن فيما عدا ذلك ، سواء تعلق الأمر بحفلات الزفاف أو الإعذار أو الأطعمة ، أو الاعتقادات الخرافية ، والمغنيين ، والمهرجين ، أو النزهات في البادية ، فكل ما يرويه ليون يمكن أن يقال أيضاً في دولة مولاي حفيظ .

كانت هذه « القاعدة » موجبة ومدققة خاصة في الأوساط البورجوازية ،

---

(58) إن عادة سلا وحدها ، في المغرب ، هي التي يمكن مقارنتها بعادة فاس ، وربما تجاوزتها شدة في بعض النقط . وفي تونس ، لا بد من الذهاب إلى صفاقس للعثور على شيء مماثل .

(59) القسم 2 ، ص 84 -87 .

(60) القسم 2 ، ص 109

ولكنها كانت تمتد أيضاً إلى العائلات الأكثر تواضعاً ، ولو بأقل حدة : كان الغرباء المقيمون بفاس يتركون شيئاً فشيئاً عوائدهم القديمة ليتكيفوا مع العادة الفاسية ؛ وحتى المارّون بها ، كالحمالين البربر ، كانوا يخضعون إلى عدد معين من الأحكام القرنية ، بمجرد ما كانوا يصلون إلى المدينة الإدريسية . وباختصار ، إن الشخصية الفاسية كانت قد اكتسبت ، على مر القرون ، قدراً من القوة ، وقدراً من المتانة ، إلى درجة أنها أصبحت منيعة على المستوردات الخارجية[61] .

إن قاعدة اجتماعية بهذا المقدار من الدقة مطبوعة حتماً بالشكلية . فيكفي ، في عدة حالات ، أن تكون المظاهر سليمة حتى يكون جميع الناس مسرورين، ما عدا « أَلْسِيسْت » (المتشائم) المولعْ بالمطلق . ومن ثم جاء النمو الحتمي للنفاق : فليس من الصدفة أو النزوة الفردية إذا كانت ترجمة « تارتوف » (المنافق) لم يمكن تمثيلها بفاس[62] . كانت هذه الرواية تكشف عورة عدد مفرط من البورجوازيين حتى إنهم لا يمكنهم إلّا أن يؤيدوا منعها ، وعلى الأقل في صميم أفئدتهم . ولا يتعلق الأمر هنا فقط بالنفاق الديني ، ولكن بكل أنواع النفاق . وما الحكاية التي أوردتها بصدد الربا[63] إلا دليل عن ذلك . وهي الانتقام الوحيد للأفراد تجاه واجب اجتماعي ضاغط بإفراط ، لأن نموذج الثائر المتمرد ، الكثير الوجود في المجتمعات الغربية ، كان منعدماً بفاس . كان الشواذ الوحيدون المسموح لهم هم المتوهمون المعتدلون الذين جعل منهم الرأي الشعبي أولياء ، وأحياناً أثناء حياتهم[63] . أما الباقون فلم

---

(61) كان لا بد من نحو عشرين سنة من الحماية حتى يبدأ التأثير الغربي يُحَسُّ به جلياً بماس ، ومع ذلك فإن التعبيرات الأولى لم تمس سوى عوائد سطحية .

(62) ترجم قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس هذه المسرحية سنة 1928 ، وكانوا يتهيئون لتمثيلها بلباس مغربي ، فإذا بتدخلات فاسية قوية جداً حملت السلطة الفرنسية على منع هذا التمثيل . ولم يقع حتى الآن

(63) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 6 ، ص 448 .

(64) يوجد وصف هؤلاء الأشخاص « على الهامش » في جميع مجموعات المناقب . وتتضمن سلوة الانفاس العديد منهم . ويمكن حتى أن يشاهد في كتاب الكونت دوبويسوري الآنف الذكر صورة امرأة وسط كانت تتجول في الأزقة دون أن تحدث أية فضيحة .

تكن لهم سوى وسيلة للتخلص من القاعدة الاجتماعية ، ألا وهي الانصراف . لكن النفاق كان هناك ليحجب النقائص الفردية ، منقذاً في نفس الوقت تماسك الهيكل الاجتماعي .

وهناك علامة أُخرى مميزة هي أن المحافظين على هذه العادة لم يكونوا دائماً من سكان المدينة ، كما قد يُظن ذلك ، ولكنهم أحياناً غرباء ، مثل معلمي الكتاتيب الجبليين الذين كانت أفضل أُسر المدينة تسلّم إليهم أبناءها ؛ أو حتى إماء قديمات ، مثل الطباخات والخاطبات . فكأنَّ أهل فاس كانوا يخشون أن يسهروا بأنفسهم على حسن تنسيق أخلاقهم ويفضلون أن يستأجروا على ذلك مرتزقة هم أقل ميولاً إلى المجاملات . وعلى كل حال ، فإن هؤلاء الغرباء قد أصبحوا ضروريين . فلْنفكر فيما عسى أن يكون لا مصير الاقتصاد فحسب ، ولكن أيضاً مصير الحياة الاجتماعية بفاس ، في حالة ما إذا اقتضى تقلب القدر أن تغادر جميع طوائف الأجانب المدينة : فمن يا ترى يخبز ؟ وكيف يتم الزواج ؟ ومن يحسن تلقين القرآن للأطفال ؟ .

كما يلاحظ أن تماسك أهل فاس لم يكن يبعد الحواجز العازلة . لا يمكن التحدث عن المعارضة ، كما هو الشأن في المجتمعات الغربية ، وعن صراع الطبقات ؛ لكن يجب أن نقتنع بأن سهولة وأُلفة العلاقات بين الصانع والتاجر الغني ، كانتا تسيران جنباً إلى جنب مع أخلاق متباينة تماماً ، فاللياقات كانت تختلف جداً من وسط إلى آخر . وكان للناس المساكين ، كما هو الشأن في كل مكان ، مجاملات أقل تعقداً من مجاملات الأرستوقراطيين ، لأن التهذيب كان قد عودهم أقل على تمالك أنفسهم . وكانت ردود فعلهم أكثر عفوية ، وانقيادهم إلى الحركة الجماعية أكثر سهولة .

وكان التناقض كبيراً أيضاً ، في كل طبقة اجتماعية ، بين حياة الذكور وحياة الإناث ، ويتفاقم ذلك كلما وقع الاقتراب من الطبقات المسيرة .

فالرجال ، والنساء ، والعلماء ، وأصحاب المخزن ، والتجار ،

وأصحاب الدكاكين ، والصناع ، والعمال اليدويون ، والعمال الفصليون ، كل ذلك كان يمثل جماعات تسلك سلوكاً حسب آداب خصوصية ، في وسط التجانس الفاسي .

ومن جهة أخرى ، يندهش المرء عندما يلاحظ أن هذه المدينة، التي هي وليدة الإسلام ومؤلفة في الأصل من عناصر اعتنقت الإسلام منذ قديم ، بقيت متشبثة بعوائد وشعائر جاهلية أو شبه إسلامية : فالاعتقاد في الجن ، والعفاريت ، والسحر ، والشعوذة ، أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة فاس ، يقع العثور عليه في كل لحظة ، سواء تعلق الأمر بالحب ، أو الأطفال أو الطبخ أو معالجة النظافة . هل كان ذلك بقية رصيد بربري عتيق متجدد على الدوام ؟ أم هو تأثير العبيد السود ؟ كلها تفسيرات صالحة ، لكنه يمكن أن يُرى فيها كذلك بكيفية أعم الموقفُ المعتاد للبشر أمام رموز الحياة وشكوكها ، ذلك الموقف الذي يصبغه الدين والأخلاق بشتى الألوان ، ولكنه يثبت دائماً في أفئدة الناس . ومن هذا الجانب ، فإن فاساً إنسانية لا غير .

وأخيراً فإن عامة النسق اللوني رمادي سوداوي ، فالمرح ، واللامبالاة ، والنزوة ليست من القسمات الفاسية ، لأن القاعدة الصارمة لا تساعد على العفوية ، إنها تلبس الناس لباساً موحداً وتجعلهم ينتبهون دائماً إلى أدنى حركاتهم . يعيشون في فاس محترسين بدون انقطاع ، قلقين من أنفسهم . هناك مدن أخرى مقنَّعة بهذا القناع من التحفظ أو التحسب ، كلْيُون بفرنسا ، وعدة مدن في الشمال يُكسبها ذلك حسن الهيئة، ولكن يسلُبها الفتنة ، لأنها أماكنُ لا يضحكون فيها إلَّا إذا كان من اللائق أن يضحكوا ، ولا يبكون فيها إلَّا إذا كان من اللائق أن يبكوا. وعلى التمادي فإن تحفظاً بهذا القدر يُتعب ؛ لا يُخفي العديد من أهل فاس أنهم يملون أحياناً حاضرتهم : فمن يستطيع منهم مغادرتها غادروها لوقت ما ، يذهبون ليتفتحوا في مكان آخر ، ولكنهم ولو أقاموا بعيداً عنها ، فإنهم يتركون أفئدتهم بفاس الرمادية ، المُجبرة ، اللائقة ، وينتهي جلّهم بالعودة إليها .

الفصل الثامن

8/7

عوائد الملاّح

إطار الحياة الاجتماعية : ـ لما كان يهود فاس منطوين على أنفسهم، مالكين شخصياً جزءاً من حياتهم الاقتصادية ، متشبثين كثيراً بدينهم ، فمن البديهي أن تكون لهم مؤسسات اجتماعية خاصة .

كانت بيئة الحياة الاجتماعية مختلفة إلى حد مَّا مع بيئة الفاسيين المسلمين ؛ وكانت المنازل أحياناً مشيدة حسب نفس التصميم العام للمدينة ، أي فناء محاط بحجرات مستطيلة في ثلاثة جوانب على الأقل، ولكن نظراً لضيق المكان الذي فيه اليهود ، كان حجم الأفنية أصغر ، والحجرات أضيق ؛ على أن كثيراً من الدور كانت تبتعد عن هذا التصميم النموذجي : فالعديد منها ينقصها الفناء لربح حجرة أو حجرتين، ولم يكن من النادر وجود دُور ذات شُقق . وعلاوة على ذلك ، وهذا فارق هام ، كانت في الجدران نوافذ مفتوحة على الخارج وذات شبابيك بصفة عامة . وهكذا لم يكن الملاح يعرف الألفة الغيورة التي للمنازل الإسلامية . وأخيراً كانت جدران الدور الخارجية مبرقشة بألوان براقة ، كالأزرق ، والأصفر ، والوردي، والأحمر القاني ، التي كانت تشكل مفارقة مع الرتابة القاتمة لجدران المدينة .

كما كان اللباس موحياً هو الآخر . فزيُّ الرجال[1] مفروض عليهم

(1) انظر عن زي الرجال ، برونو ومالكة ، نفس المرجع ، ص. 239 -241 ، هامش 3 و 4 و 5 .

بالعادة الإسلامية[2] : أي طاقية سوداء جاثمة على القفا[3] ، ومعطف أسود ، ورجلان في نعال بدون جوارب . كانت مختلف أجزاء اللباس وتفصيلها تُذَكِّر عن قرب بالأزياء الإسلامية[4] ، لكن زينة النساء كانت من نوع آخر ؛ فكن يخرجن سافرات الوجوه ، مغطيات شعرهن بمنديل ذي أهداب « معقود في شبه تاج شبيه بحنطوز المسلمات ، مع شبكة لإمساك الشعر »[5] . وكان خمار ذو أهداب أيضاً يغطي أكتافهن ، ويلبسن قميصاً يغطي القسم الأعلى من جسمهن وإزاراً يغطي القسم الأسفل ، وينتعلن خفافاً عريضة في الأعلى أضيق من نعال المسلمات . وكن يرتدين داخل المنزل فستانات ذات ألوان براقة « مزينة بشرائط ومطرزة بالذهب ، وسترات من الجوخ مزينة كذلك بشرائط من ذهب ، وواقيات الصدر مطرزة ، وحزامات من الحرير »[6] وربما وجب البحث عن أصل هذا الزي في إسبانيا ؛ وعلى كل حال ، فإننا نرى أنه لم يتأثر البتة بزي النساء المسلمات ، ويمثل تشابهاً مع الزي النسوي لأوروبا .

كان الأثاث أيضاً يشهد بذوق يهود فاس ، وعلى الأقل أغناهم ، في حب التجديد . وإليكم وصف أندري شڤريون لداخل منزل زاره بالملاح :

---

(2) لا نعرف بالضبط في أي عهد فُرض اللون الأسود على اليهود ؛ إن العادة الشعبية للملاح تعزو المسؤولية إلى مولاي اليزيد أواخر القرن الثامن عشر (برونو ومالكة ، نفس المرجع ،ص 199) . هذه علامة ولكنها ليست حجة قاطعة .

(3) أو بالنسبة لبعض الشيوخ ، منديل أزرق قاتم بنقط بيضاء (انظر أوبان ، نفس المرجع ، ص 365) .

(4) كان الرجال مهملين غالباً في أزيائهم ولو كانوا أغنياء ، ويرتدي جلهم الآن اللباس الأوروبي

(5) برونو ومالكة ، نفس المرجع ، ص. 316 ، هامش 10 ؛ وأوبان ، نفس المرجع ص 362 ؛ ودو أمسيس ، نفس المرجع ، ص 274 وفي الحالة الراهنة يضع الكثير منهم على رؤوسهم قبعات أوروبية ، وآخرون مناديل من الحرير زاهية الألوان ، موضوعة فقط على الشعر . وأما زينة الرأس التي يصفها أوبان ، فإنها لم تشاهد ألبتة ، ما عدا بالنسبة لبعض العجائز .

(6) انظر دو أميسيس ، نفس المرجع ، ص. 236 و 274 .

« نحن الآن في غرفة الشرف ، بالطابق الثاني ، جالسون باحتفال على كراسي وأرائك مزخرفة من طراز العهد الأمبراطوري الثاني ، . . . ومناضد صغيرة متلوية ، وعدد وافر من المرايا في أطر من الذهب الأمريكي ، وصوانات من خشب أصفر ، كل هذا الأثاث حُمل من الشاطئ على ظهور الجمال . ثم علامات الدين : مصورات ملونة ألمانية ، يلمع فيها داوود وسليمان متوجين ، وكتابات عبرية بحروف مربّعة . . . ولكن الأكثر غرابة من هذا الخليط من الزينة ، هو سرير حقيقي بْرُوطُونيـي ، سرير مقفل ذو نوافذ ، مزخرف بنقوش أزهار ، موضوع في طرف الغرفة » .

كان الفقراء مضطرين كثيراً إلى الاكتفاء بنفس الأثاث كالمسلمين الذين هم في وضيعتهم ، أي لحافات من صوف ، وصناديق ومائدات مستديرات قصيرات من الخشب الأبيض[7] .

كان يهود فاس يعيشون عيشة تقليدية في هذه البيئة الملونة بالتجديد ، وكـان للشريعة الدينية تأثير عظيم : لم يكن الغرب قد وضع عليها طابعه بعد[8] .

الطبقية الاجتماعية : ـ كانت توجد بالملاح ، كغيره من الأماكن ، طبقات اجتماعية ، لكنها أقل ما يمكن تفرقة . فكما هو الشأن في المدينة ، كان الأغنياء والفقراء يحتكون بسلام ، يكادون لا يميزون بأزيائهم[9] ،

---

(7) من البديهي جداً أن تكون ميول اليهود الموسرين إلى الأثاث الاوروبي قد نمت مع إقامة الحماية وقد شيدوا « فيلات » في المدينة الجديدة حيث يقيمون في سعة ، واشتروا أثاثاً كاملاً ، مفضلين طراز هانري الثاني أو الأثاث العصري الخالص.

(8) لقد تغيرت الأشياء جداً منذ الحماية ، إذ أن اليهود ، وخاصة منهم الشبان ، اتخذوا عدة عوائد غربية وحرصوا عليها : فالأطفال يؤمنون بالأب نويل ويحملون أسماء شخصية فرنسية ، ويذهب الفتيان والفتيات إلى المسبح والتنس ، ويتغازلون ، ويرقصون ، وتنظم العائلات حفلات راقصة خاصة ويبدو في بعض الأوقات أن الشبان الذين تهذبوا في ثانوياتنا ومدارسنا ينكرون ماضيهم ، ليس فقط فيما كان يشتمل عليه من عبودية وخزي ، ولكن في كليته .

(9) هذا صحيح خاصة بالنسبة للرجال . أما نساء الأسر الموسرة فكنّ يتأنقن في لباسهن أكثر من الفقيرات .

ويلتحمون بعضهم ببعض خوفاً من أخطار مهددة باستمرار. كانوا كلهم مهددين في حالات الاضطرابات ، ولم تكن لهم في فترة العنف وسيلة أخرى عارضة جداً غير الاتحاد . ومن جهة أخرى ، كانوا جميعاً يتعارفون ، أكثر مما عليه سكان المدينة الإسلامية ، وذلك من جراء ضيق الحي .

كانت الثروات من المنقولات على الخصوص . فاليهود يملكون معظم منازلهم[10] لكن تكتلاً في هذا القدر الضئيل من المساحة الذي كانت فيه ملكيات الجماعة متعددة ، لم يكن يصلح كقاعدة لثروات عقارية حقيقية . ومن جهة أخرى كان اليهود يملكون بعض الدور بفاس الجديد وعدداً قليلاً من الغرف بفندق النجارين . وفي خارج فاس لم يكونوا يملكون ولو شبراً واحداً من الأرض[11] .

فكان إذن متاع الاسرائيليين مؤلفاً خاصة من النقود ، والسلع ، والحلي ، وكلها أشياء يسهل حملها أو إخفاؤ ها عند وقوع أحداث خطيرة .

لم تكن الثروة العنصر الوحيد للطبقية الاجتماعية . كان آل كوهن وآل ليفي ما يزالون يتمتعون بمزايا دينية تقليدية ، دون أن يستفيدوا مع ذلك بنفس القدر من الاعتبار الذي كان للشرفاء في الوسط الإسلامي[12] . وبالعكس من ذلك ، كانت الأسر الرِّبِّينية ، وخاصة أسر الربّيّين الكبار ، تتمتع بنفوذ عظيم مهما كانت درجة يُسرهم . كان علم الرِّبّيّين وطابعهم الديني يفوق كل شيء آخر . ولعلهم وهم كهان ، كان لهم في الملاح تأثير أكثر من فقهاء الجامعة الإسلامية في المدينة .

(10) غير أنه يُذكر بعض المسلمين الذين لهم أملاك بالملاح ، كآل التازي مجبر (وهم ولا شك يهود قدامى أسلموا) الذين كانوا يملكون به ثلاث عمارات .

(11) يملك يهود فاس الآن قطعاً أرضية وعمارات في المدينة الجديدة ، وقد اكتسبوا عدة ممتلكات في البادية المحيطة . إن نوع الثروة اليهودية قد تغير بكيفية مدهلة .

(12) انظر بونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 321 و322 - 323 ، هامش 9 و10 .

الحياة العائلية : ـ كان الزواج باكراً في غالب الأحيان[13] أكثر مما هو عليه في المدينة . إن هذه العادة قد رسخت في الأخلاق إلى درجة أنها كانت تنظم مصير الزوجات غير البالغات : فلم يكن باستطاعتهن العودة إلى المنزل الأبوي ما دام لم يتم الدخول بهن . وخلال كل هذه الفترة التي قد تطول ، كان على أمهاتهن أن يهتممن بهن في بيت الزوجية .

كان الأبوان يدبّران الاتصالات وطالما دامت الخطوبة[14] التي كان يحتفل بها باكراً جداً في وقت يكون الزوجان المستقبلان ما يزالان طفلين، كان على الخاطب والمخطوبة أن يتظاهرا بعدم تعارفهما ؛ وقد كانا يتعرضان لتوبيخات كبيرة إذا لم يكونا قد تحاشيا في الزقاق بعناية . كانت الاتصالات الزوجية تتم بالعلاقات ، دون حاجة إلى وسطاء أمثال الخاطبات وبائعات الزينة بالمدينة .

كانت الأعراس تدوم[15] رسمياً سبعة أيام وسبع ليال ، ولكن نظراً للاستعدادات : (الحمام ، والحناء ، وعرض جهاز العروس ، إلخ . .) ومختلف واجبات العروسين ، كان لابد حقاً من قضاء شهر على الأقل في حياة غير عادية . كان كل شيء يجري بين الأهل والضيوف ، ولا شيء يُذكِّر بخاطبات المدينة .

كانت الحفلات بمعنى الكلمة تبدأ يوم الأربعاء مساء (ليلة الروحان). فينظم موكب من طرف الجمعية الخيرية (لهيبرا)[16] يسوق الزوج إلى منزل

---

(13) لقد جمعت قسماً كبيراً من التفاصيل التي ستأتي خلال تَحَرٍّ قمت به في عين المكان ، وتمصل م. يهودا بسمحون، الأنف الذكر ، فساعدني في ذلك أكبر مساعدة . انظر أيضاً **النصوص اليهودية العربية بفاس** ، من تأليف لوي برونو وإلياس مالكة ، وي . د . سيماخ . **تاريخ** .

(14) كانا في الواقع يتعارفان جيداً ، حيث إن الجنسين لم يكونا منعزلين ، كما هو الشأن في المدينة ، وكان جميع من في الملاح يعرف بعضهم بعضاً .

(15) انظر برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص 332 - 343

(16) انظر عن هذه الجمعية ما يأتي ، ص 576 .

العرس[17] ويتيح فرصة لمهزلة كان الشبان يقلدون فيها السلطان ، والوزراء ، والباشا ، مثلما يفعل المسلمون يوم عاشوراء[18] . وكان موسيقيون إسرائيليون يصحبون الموكب ويساهمون بعد ذلك في جميع الاحتفالات غير الدينية ، ويتولّى رِبّيٌّ إذ ذاك منح بركة قصيرة . كان بالإمكان أن يتم الدخول ذلك اليوم ، حسب الظروف ؛ وعلى كل حال لم يكن باستطاعة الزوج أن يخرج من منزله مدة سبعة أيام ، كما أن الأطعمة الغزيرة والاستقبالات كانت تتوالى لمدة سبعة أيام كذلك ، متسببة في مصاريف باهظة ، مثلما هو الحال في المدينة . كانت الأسر المثرية تستدعي الْجَفَلَى ، فكان هناك نهار الرِبّيّين ، ونهار الطلبة ، ونهار التجار ، إلخ . . . وطبعاً لم يكونوا ينسون عامة السوقة .

كان الخميس يوم الهدايا (هدية) المعلن عنها جهراً ، كما هو الشأن في المدينة ، وبهذه المناسبة توزّع الصلات على الفقراء . وكان السبت هو يوم الاحتفال الديني : يذهبون إلى البيعة ، وبالأحرى بيعة الزوج ، حيث كانت تتعاقب الصلوات والأناشيد الطقوسية ، ويُقرأ عقد الزواج . وفي المساء يقام حفل كبير يسمع فيه جوق موسيقى ؛ ويوم الاثنين يحق للمرأة الشابة الطلوع إلى سطحها الجديد ، وكانت هذه مناسبة لاحتفال آخر يحضره المغنون ؛ وأخيراً يوم الأربعاء ، كان يحق للعريس أن يخرج من منزله ليلتحق وحده بوالدي زوجته ، فيقدمان له غداء ؛ كما كان يقوم بعدة زيارات عائلية أخرى . كانت الروعة تنقطع آنذاك ، فيتمكن الزوج من استئناف أشغاله المعتادة يوم الخميس . وبعد خمسة عشر يوماً من تمام الدخول ، كانت تقام مأدبة ويتاح للزوجة الشابة أن تذهب لترى أمها : وكان هذا الحفل يحمل الاسم الإسباني « طورنا بودا » .

ويمكن أن يلاحظ ، من خلال هذه البيانات الوجيزة ، أن الاحتفالات

(17) كانت العروس تمشي راجلة ، ولكن إذا كانت صغيرة جداً ، تجلس في أريكة يحملها حمال على رأسه (برونو ومالكة ، ص. 344) .

(18) انظر عن هزلية عاشوراء ، ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

اليهودية بالزفاف تأثرت إلى حدّ ما بالعوائد الإسلامية : فخطبة الزواج ، والهدايا المقدمة إلى العروس خلال الخطبة ، والموكب العرسي ، والهزلية التي تصحبه ، ونشر الهدايا ، والاستقبالات التي كانت تستدعى إليها مختلف هيئات الحاضرة ، وزيارة الزوج لأبوي العروس ، وإلزامه قضاء حياة غير عادية طوال سبعة أيام ، كل ذلك كان أكثر شبهاً بما يجري في المدينة الإسلامية من ألاَّ يتأثر بها . لكن الطابع الديني للزواج كان متسماً بحفل في البيعة ، وهذا جزء عبري خالص ، وبذكريات إسبانية عتيقة كانت ما زالت قائمة في حفل «الطورنابودا» . وأخيراً فإن عدة تفاصيل ، مثل الأهمية المنوطة بتمام الدخول ، ومنع العروس من رؤ ية أمها قبل أن تصبح امرأة فعلاً ، لم تكن لا إسلامية محضة ، ولا يهودية محضة ، ولكنها سامية .

* * *

لم يكن اليهود يتصورون الزواج بدون إنجاب ، مثلهم في ذلك مثل المسلمين . لذلك ، وإن كان القانون يبيح أربع نساء شرعيات ، فإن العادة لم تكن تسمح بتعدد الزوجات إلا إذا كانت المرأة لم تلد في ظرف عشر سنوات من الزواج[19] .

كان أَبَوَا الزوجة الشابة يهديان جهاز الوليد ، عند دخول الشهر التاسع من الحمل : وكان ذلك فرصة لفرح عائلي[20] . وتحاط المرأة عند المخاض بقريباتها وتساعدها قابلة يهودية[21] . لم يكن الأب يحضر عند الوضع ، وإنما

(19) كانت جل العقود تنص بكيفية قاطعة على أن المرأة إذا كان لها عدة أبناء لا يمكن أن تفرض عليها ضرة . إلا أن روني - لوكلير (المغرب الشمالي ، ص. 150) يشير إلى أن تعدد الزوجات بالملاح كان شيئاً جارياً به العمل وربما نستطيع حل هذا التناقض بين المذهب والواقع بالتذكير أنه من جراء الزواجات المتخذة دوماً العديدة ووسائل الصحة التي يُرثى لها ، كانت حالات العقم أكثر عدداً من الحالة الطبيعية .

(20) برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 287 ، والهوامش .

(21) كانت هؤلاء القابلات ، وكلهن مسنات تقريباً ، مشهورات بعملهن في المدينة كلها . كانوا يستحضرونهن أحياناً للولادة الصعبة في القصر ، أو حتى في المدينة ، عند الأسر التي كان =

كان يُخبر بمجرد ما يولد الطفل . وفور الولادة والنظافة الأولى ، تُتخذ بعض الاحتياطات ضد التأثيرات الشريرة التي من المحتمل أن تحدث ، فكانت القابلة تخط في جبين الطفل علامة سحرية بسواد الدخان ، و« يعلقن فوق باب الدخول رأس ديك ، وأكاليل من العجين المشوي ، وخمسة فلافل حمراء وبعض الأشواك »[22] وفي اليوم التالي للولادة ، كان أحد أقارب المرأة يطوف في الحجرة التي ينام فيها الوليد عند منتصف الليل ، شاهراً سيفاً حتى يبعد العين الشريرة ، ويتكرر نفس الحفل يومياً إلى اليوم السابع[23] . وكانت النفساء ، في هذه الأثناء ، تتقبل زيارات عديدة .

كان اليوم السابع يكتسي أهمية رئيسية على الأقل بالنسبة للصبيان[24] ، إذْ كانوا يختنونهم ويعطونهم أسماءهم خلال حفل نصف ـ ديني ، ونصف ـ عائلي[25] .

إننا ندرك أن المخطط العام لما كان يجري بالملاح عند الزواج وعند الولادة يشابه كثيراً الوسط الإسلامي ؛ ويتعذر تحديد الحصة الحقيقية من الواقع لهذين العنصرين في الصلات المعينة مقدماً ، وتناقض مجتمعين كانا يعيشان جنباً لجنب ويؤثر الواحد منهما على الآخر بكيفية جذرية .

لها علاقة مع التجار الإسرائيليين (معلومات يهودا بنسمحون ، انظر أيضاً برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 289 هامش 6)

(22) نفس المرجع ، ص. 290 ، هامش 15 .

(23) نفس المرجع ، ص 262 و 293 .

(24) كانت ولادة البنت أقل تقديراً جداً ، نفس المرجع ، ص . 387 ، هامش 53) من ولادة الذكر ، إضافةً إلى أن حياة الذكور ، حسب أحكام القانون ، كانت مطبوعة بحفلات طقسية أكثر .

(25) نفس المرجع ، ص . 296 - 300 . كان الأبوان هما اللذان يختاران الاسم ، ولم يكن قط اسم الأب أو الأم ، ولكن بصفة عامة اسم جد متوفى أو صالح يُجلّ خاصة . وكان الإعذار يشهره ، وكانت البنيّة تتلقى اسمها في تاريخ غير معين بحضور ربّي ، وكان حفل عائلي صغير يطبع هذا الحدث .

كانت المماثلات تبقى واضحة في ميدان تربية الأطفال . ففي السنوات، الأولى يخضعون للنساء : الأم ، والجدات ، والقريبات أو الخادمات[26] . ونظراً للتكديس ، كان الأطفال يعاملون بشدة أكثر مما هم عليه في المدينة ، لكن طرق الصحة والتربية كانت تكتسي عدة ملامح مشتركة .

كان أبناء الأسر المتشبثة بالتقاليد - وهي الأكثر عدداً - يذهبون قصد تعلمهم إلى مدارس تلمودية (صلاة) شبيهة جداً بالكتاتيب القرآنية : نفس المعلم من أصل متواضع ، ونفس الأماكن غير المريحة[27] ، ونفس الطريقة البيداغوجية المركزة أساساً على الحافظة . غير أنه ، ابتداء من السنوات الأولى للقرن العشرين ، كان يلاحظ بها بعض آثار يسيرة للتجديد ، إذ كان التلاميذ يدرسون نصوصهم في أوراق مطبوعة ، ولم يكونوا يطالبون بالكتابة إلا إذا تقدموا في دروسهم . ومن جهة أخرى ، كانوا لا يكتبون إلا يوم الجمعة صباحاً ، بقلم رصاص في البداية ، ثم بقصب مبري ؛ وكانوا يستعملون لهذا الغرض « ورق الرسائل من مقاس تجاري ، ذا مربعات من اللون الأزرق الفاتح ، ومداداً أسود مستورداً من أوروبا . . . »[28] .

كان الشبان الراغبون في متابعة دراساتهم يذهبون إلى إحدى المدارس العليا الأربع أو الخمس ، (إيشيبا أو ياشيبوط) بفاس ، حيث كان لهم معلم ربِّيٌّ شهير[29] . وعند تخرجهم منها قد يصبحون كهنةً يحتفلون بالقداس ، أو معلمين في مدرسة تلمودية ، أو عدولاً . أما أحبار المستقبل ، فكان تكوينهم يتم عند سلفهم ، بعد تخرجهم من « إيشيبا » ويعترف بهم كأحبار بعد مدة غير

---

(26) لم يكن بالملاح عبيد ، وعلى الأقل منذ انعدام الأسرى المسيحيين ؛ ولكن كانت هناك خادمات يهوديات أو حتى مسلمات ، لأن نساء فاس الجديد الفقيرات كن يقبلن أن يخدمن في وقت عادي عند الأسر الموسرة بالملاح .

(27) كانت توجد عادة في بيعات صغيرة ، وكان عددها نحو عشرة في ملاح فاس .

(28) نفس المرجع ، ص. 239 . ومنذ 1917 أُدمجت مختلف المدارس التلمودية في واحدة يلقن فيها التعليم حسب طرق بيداغوجية عصرية ، وبأدوات مدرسية من الطراز الأوروبي .

(29) كانت كل مدرسة تضم من 15 الى 20 تلميذاً .

محددة عندما يكتسبون سمعة كافية من المعرفة ، والحصول على ضمان (شبه إجازة) من معلميهم[30] .

وكان المتطورون ، ـ وكانوا يوجدون بالملاح قبل الحماية ـ يرسلون أبناءهم إلى مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العالمي التي أنشئت بفاس منذ 1880 ، فيتعلمون فيها اللغة الفرنسية ويتلقون تعليماً ابتدائياً عصرياً[31] .

لم تكن هاتان السلسلتان من المدارس معاً كافيتين لاستيعاب جميع أطفال سكان الملاح ، وكثيراً ما كان من بينهم الأميّون لاسيما البنات .

كان الصبيان يلجون الحياة الدينية للجماعة ، في حوالي الثالثة عشرة من عمرهم ، ويحملون التميمة[32] ؛ وفي صبيحة ذلك اليوم كان الأبوان ينظمان بالمنزل العائلي اجتماعاً مساء يحضره رِبّي ومنشدون ؛ ويكون مناسبة ليُظهر فيه الشاب معرفته الدينية ، وذلك باستظهار خطبة يكون رِبيُّه قد لقّنه إياها . وكان الحلاق ، أثناء هذا الاحتفال ، يقص شعر بطل الحفل فيجازيه الحاضرون بصلاتهم[33] . وفي يوم الحفل بمعنى الكلمة كان الطفل الصغير ، وهو لابس خمار الصلاة والتميمةُ على ذراعه ، يقاد إلى البيعة من طرف الرِّبّي وأقربائه الذكور ، فيلقي خطاباً جديداً حفَّظه إياه رِبيّه عن ظهر قلب ؛ ثم يجلس على أريكة عند الخروج ، فيحمل حمالُ الكلِّ على رأسه ويذهب الموكب المؤلف من رجال العائلة ونسائها ، وقد جاؤوا لينتظروا بباب

(30) يبدو أنه كان بفاس في القديم مدرسة ربِّية « حاخامية تحمل الاسم التقليدي » « بيت حميدراس » ، وقد حطمت البيعة التي كانت تؤويها أيام مولاي اليزيد فذهبت المؤسسة بذهاب البيعة (برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص . 201 ، هامش 1) .

(31) لقد عرفت مدارس الاتحاد ، منذ الحماية نمواً هائلاً . فالذين يتجاوزون مرحلة التعليم الابتدائي ـ وهم كثيرون ـ يلتحقون بالثانويات الفرنسية لمتابعة دروسهم

(32) ذلك هو الحفل المدعو « تفيلّين » . انظر برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 319 - 324 .

(33) نجد هنا ثانية الحلاق ، كما هو الشأن في المدينة ، في دوره كمساعد في الاحتفالات العائلية ، ويجازيه الضيوف ، مثل ما يجري عند المسلمين .

البيعة ، وليلتحق بالمنزل على إيقاع جوق موسيقي وفي وسط ابتهال شعبي . ولم يكن الحفل ينتهي بدون مأدبة[34] .

* * *

كانت الحياة العائلية شبيهة بالحياة في المدينة : فالعائلات في الملاح أيضاً مجموعة لا بحسب الزوجين ، ولكن حول رب الدار الذي كان يحتفظ بأبنائه إلى جانبه ولو كانوا متزوجين ، ما دام التكديس لم يَعُدْ مفرطاً . ولم يكن هناك أيضاً الزوجان مستقرين تماماً ، وعلى الأقل نظرياً ، إذ كان يحق للزوج أن يطلق زوجته؛لكن هناك أيضاً كانت العادة والمصالح تفرض حدوداً لنزوة الرجال ، لأن الزوج ، في حالة الطلاق ، كان ملزماً برد الصداق الذي أتت به إليه امرأته عندما تزوّجها[35] ؛ غير أنه ينبغي الإشارة إلى أنه لا وجود في الملاح لأولئك الإماء السود اللائي كان لهنّ دور مهم في الأسر الإسلامية بفاس . ويبدو أن الالتحام العائلي بالملاح كان أقوى ، وأن تأثير الأب على أولاده كان أشد ، وأن العائلة كانت تجتمع أكثر[36] . قد يعزى ذلك إلى أن الرجال والنساء كانوا يعيشون في تفرقة أقل بكثير .

المـوت : ـ إذا دنا الأجل ، دخلت الطائفة (هيبرا)[37] إلى المسرح . كان فعلاً لملاح فاس ، على غرار كل الجماعات اليهودية ، طائفة

---

(34) يقارن الموكب بموكب الإعذار عند المسلمين .

(35) لقد احتفظ يهود فاس بعادة العيشة ضمن الأسرة أكثر منها حسب الزوجين ولو نزحوا إلى المدينة الجديدة غير أن المتطورين ، وهم قدماء تلاميذ الاتحاد والثانوية ، يميلون إلى اتخاذ عوائد أوروبية في ذلك كما في الباقي .

(36) كانوا يتناولون الوجبات الرئيسية على الأقل مثلاً جماعةً . كان عددها أربعة في النهار : الفطور بعد صلاة الصباح حوالي السابعة أو الثامنة ، والغداء في منتصف النهار ، والأكلة الخفيفة وعلى الأقل بالنسبة للأطفال في العشي ، والعشاء الذي كان يقدم متأخراً ، حوالي التاسعة أو العاشرة ليلاً .

(37) انظر برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص. 231 - 234 ؛ وسيماخ ، المرجع المذكور ، ص . 90 .

موضوعة تحت إشراف الحاخام سيميون بار يوحاي[38]، تضم نحو أربعين عضواً ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، ويتحلون كلهم بتديّـن كبير[39] . كانوا مقسمين سبعة أقسام ، بعدد أيام الأسبوع ، يمتثل كل قسم لأوامر « مقدم » يتولى الحراسة مرة في الأسبوع ، وعند أدنى إشارة يجمع فريقه في أقرب وقت للقيام بالواجب الديني المطلوب منه . كما كانت هناك طائفة للنساء[40] وأخرى للأطفال[41] . كان يدير الطائفة « شيخ » لم تكن مهامّه وراثية بمعنى الكلمة ، لكن العادة كانت تقتضي أن يختار دائماً تقريباً من نفس العائلة .

كانت الطائفة تلعب دوراً هاماً في الشعائر الجنائزية ، كما سنرى ذلك ، لكن نشاطها لم يكن يقف هناك ، إذ كانت تساهم أيضاً في حفلات الزفاف ومعظم الحفلات العائلية . وكان أعضاؤ ها أحياناً يتدخلون لإصلاح ذات البين بين الزوجين ، ويحرصون على المراعاة الصارمة لعوائد السبت[42] ، ويقومون جميعاً يوم السبت بتلاوات دينية متبوعة بشروح[43] . وهكذا يقدر التأثير الذي كان لهذه الجمعية على الحياة الخلقية والروحية للملاح . ونميل طبعاً إلى مقارنتها بجماعة القربان المقدس التي كانت مزدهرة بفرنسا في القرن السابع عشر ، والتي يبدو أن موليير فكّر فيها عندما ألف روايته « تارتوف »[44] .

كان أعضاء « هيبرا » يسرعون بمجرد ما كانوا يستدعون إلى فراش مريض في حالة خطيرة للسهر عليه وتلاوة صلوات من شأنها أن تخفف آلامه .

---

(38) انظر عن العلاقة الأسطورية لهذا القديس الإسرائيلي الكبير (القرن الثاني للميلاد) مع الطائفة ، برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص . 233 ، هامش 2 .

(39) حسب ياهاس فاس ، فإن « الهيبرا » ، التي كانت تحمل كذلك اسم « غميلوث حسيديم » ، كانت تضم 70 عضواً سنة 1879 (سيماخ ، المرجع المذكور ، ص . 90) .

(40) برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص . 233 .

(41) معلومات م . يهودا بنسمحون .

(42) نفس المرجع ، ص. 232 .

(43) نفس المرجع .

(44) انظر راوول ألّبي ، تفسير الأتقياء للتوراة .

وإذا أشرف المريض على الموت ، حفزوه على الاعتراف بذنوبه ، ورتلوا صلوات المحتضرين وقرؤوا عوضاً عنه الشهادة (شيما) الآتية : « اسمع يا إسرائيل ، ربنا الإله رب واحد . والصلاة على اسم مجد ملكه ، دائماً وأبداً ، إن الرب هو اللّه »[45]. وبمجرد ما كان يلفظ نفسه الأخير، يقوم بعضهم بالغسل الجنائزي ، بينما يشتغل الآخرون باختيار مكان القبر وحفره ؛ وفي وقت الدفن ، الذي كان يلي الوفاة عن قرب[46] يتكفل بعض الزملاء بالمحمل ، بينما يتبع الآخرون الجثة وهم يرتلون صلوات على روح الراحل[47] . كان موكب الجنازة يلتحق بالمقبرة على إيقاع عويل العائلة . وهناك وبعد صلوات أخرى « كانوا يعرضون للبيع بالمزاد حظوة إنزال الميت في قبره »[48]. وقبل مغادرة المقبرة كان ولد الراحل يتوقف بالباب ليقرأ صلاة أخيرة .

وكانت الأسرة، رجالاً ونساء ، تستمر في الصلاة سبعة أيام ، لا تخرج البتة إلا للذهاب ، كل صباح ، لقراءة الزبور على الرمس المغطى بالتراب الطري ، وتكفّ حتى عن الغسل ؛ وكان الرجال منذئذ لا يقصون شعر رأسهم ولحيتهم طوال سنة كاملة . وكان يقدم طعام جنائزي في اليوم السابع ، وهو عبارة عن وجبة خفيفة شعائرية لا مأدبة فاخرة . ثم كانت تأتي سلسلة الذكريات مع زيارة المقبرة في كل مرة : السبت الموالي لليوم السابع ، وآخر سبت من الشهر الأول ، واليوم الثلاثون ، وأول سبت من آخر شهر السنة ، وهو الذكرى بمعنى الكلمة. كان القبر يبقى على حاله مدة تسعة أشهر ، ثم كانت العائلة تشيد عليه ضريحاً صغيراً بسيطاً جداً ، ويوم تدشين هذا الضريح ، كانت العائلة تتناول غداء في المقبرة وتوزع الصدقات . وبعد

---

(45) نفس المرجع ، ص . 377 .

(46) كان بالإمكان أن يحدث ذلك حتى في الليل : لهذا السبب كان كل عضو من أعضاء « الهيبرا » يحمل فانوساً .

(47) كانت جميع هذه الخدمات بالمجان تماماً ، وكانت الجماعة تتلقى صلات بمناسبة الأعياد فتعوض الأعضاء المعوزين .

(48) نفس المرجع ، ص . 376 .

الذكرى الأولى كانوا يذهبون إلى المقبرة بمناسبة الأعياد والذكريات . وكان الأطفال يصومون في تلك الأيام[49] .

يلاحظ أن الشعائر الجنائزية كانت أكثر تعقيداً بكثير مما هي عليه في المدينة ، وأن الأموات ـ على ما يبدو ـ كانوا يحتلون مكاناً أكبر وأعظم في انشغالات الأحياء . كانت التأثيرات الاجتماعية تتراجع أمام الاعتقادات تجاه الموت : كان المجتمع اليهودي بقدر ما يتأثر بالمجتمع الإسلامي ، في حفلات الزفاف والولادة، والإعذار ، بقدر ما يحتفظ بشخصيته إذا مات أحد أعضائه . حقاً إن الجنائز الإسلامية كانت مطبوعة بالألم ، لكنها لم تكن تخلو من هـدوء ؛ أما الجنائز اليهودية ، وهي أقرب جداً من الجنائز المسيحية في هذا الجانب ، فكانت مطبوعة بالأسى ، والرعب ، واللجوء المؤلم للرحمة الإلٓهية : فكانت الحفلات الدينية بها أكثر عدداً بكثير ، وتمتدّ فترة أطول .

* * *

التسـليـات : ـ رأينا منذ قليل أن الحفلات العائلية ، حزينة كانت أم فرحة ، عديدة بالمـلاح ؛ ومع أنها ذات طابع ديني بصفة عامة، إلاَّ أنها لم تكن تجري بدون طعام ولا موسيقى .

والطبخ اليهودي ولو أنه كان يعد بنفس توابل الطبخ الإسلامي ، وعلى الأقل في تهيـيء اللحم ، لم يكن يتسم لا بنفس النوع ولا بنفس الرقة بصفة خاصة . ويظهر أحد ألوان الطعام الأكثرة شهرة ، وهي « السخينة »[50] ، ثقيلاً

---

(49) يشار إلى أنه ، إذا مات يهودي خارج الملاح ، لا يمكن إدخال جثته إليه، وتؤدّي مخالفة هذه القاعدة إلى تعرض المدينة لأسوإ الكوارث (وهذه العادة صالحة أيضاً بالنسبة للمدينة ، وكذا بالنسبة للجماعات الإسرائيلية بأوروبا الوسطى ، حسب م . بنسمحون) . فكان إذن اليهود المتوفون في هذه الظروف يدفنون في مقبرة خاصة ، تقع على ربوة ظهر المهراس قبالة الملاح .

(50) تسمى هكذا لأنها تطبخ ليلة يوم استهلاكها ولأنها تبقى ساخنة ، إذ تحفظ في إناء محكم السد

وبسيطاً جداً ، إذا ما قورن بأنواع الطبخ الإسلامي . إنه طبخ قوم في ضيق شديد غالباً ، لا يتمتعون بالتفتح ولا بالاطمئنان الضروريين لفن طبخي جيد[51] .

بمجرد ما كان يفد عليهم زائر ، يقدّمون له شاياً بالنعناع مهيئاً بنفس طريقة المدينة ومصحوباً « بكعب غزال » وحلويات جافة شبيهة بالتي عند المسلمين . وكان اليهود يهيؤون ، بمناسبة أعيادهم الدينية ، أطعمة طقسية أو مجرد تقليدية ، كحلويات « بُوريم »[52] أو رغائف عيد الفصح[53] . وأخيراً كان أكثر ما يميز اليهود عن المسلمين ، هو تناول المشروبات المسكرة ، كالخمر « كاشير » ، وماء الحياة[54] المصنوع بالزبيب ، والمشروبات الروحية المستوردة من أوروبا . كان بائع الخمور يقيم بالملاح منذ ما قبل الحماية[55] .

وبخصوص الموسيقى ، قلّما كان اليهود يستحضرون الأجواق الأندلسية بالمدينة ، إذ كان لهم جوقان شبيهان تماماً بالأجواق الإسلاميـة . كانت قائمة أغانيهما مؤلفة من مقاطيع عِبرية ، ولا سيما من ألحان أندلسية . وكان بعض الموسيقيين اليهود يذهبون حتى إلى نظم أغنيات عربية ملحونة لا يستنكفُ البورجوازيون المسلمون عن الاستماع إليها. كان هؤلاء الموسيقيون يتعلمون عند موسيقيين مسلمين أو عند موسيقيين يهود من الصويرة مشهورين لدى كل

= إلى يوم العد في منتصف النهار ، لأن الإسرائيليين يحرم عليهم استعمال النار يوم السبت ، حتى غروب الشمس . انظر عن « السخينة » برونو ومالكة ، (المرجع المذكور ، ص . 253 ، هامش 2) .

(51) انظر عن الطبخ بملاح فاس ، برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، هنا وهناك ؛ بالنسبة للتحليات ، ص 253 ، هامش 3 ؛ وبالسبة للحلويات ، ص 315 هامش 6 إلخ .

(52) نفس المرجع ، ص . 262 ، هامش 5 و 6 .

(53) نفس المرجع ، ص . 272 ، هامش 7 .

(54) انظر عن الخمر « الكاشير » نفس المرجع ، ص . 365 ، وعن ماء الحياة ، نفس المرجع ، ص. 267 ، هامش 20 ، وص 281 هامش 15 .

(55) كان رعاع المسلمين ، وبخاصة مسلمي فاس الجديد ، يترددون عليه باستمرار .

الجماعات اليهودية بالمغرب[56] . وكان يوجد بجانب الأجـواق ، مغنون شعبيون أمثال « أشياخ » المدينة ، ومضحكون . ولا بد بالتالي من ذكر المنشدين (بّيوتيم) ، المتخصصين في الأناشيد الدينية الذين كانوا يشاركون في الحفلات العائلية[57] . وقلما كانت أجواق « الشيخات » المسلمات تُطلب في الملاح[58] .

فبالنسبة للموسيقى ، وكذا بالنسبة لأشياء أخرى كثيرة ، كان اليهود إذن يعتزلون، بمعنى أنهم كانت لهم أجواقهم الخاصة ؛ وإن المبادلات الموسيقية لم تكن كثيرة بين الملاح والمدينة ، لكنهم لم يكن تأثرهم أقل عمقاً بالألحان الأندلسية ؛ ولا غـرابـة في ذلـك ، لأن كثيـراً منهم ينتمي إلى أصـول أندلسية .

كانت جميع طبقات المجتمع اليهـودي تُقبل على لعبتي الضـامة والورق ، والشطرنج بكيفية أقل ؛ وكان الافتتان باللعب كبيراً بالملاح ، بالرغم على استنكار المتدينين منهم ؛ فكان الحلوانيون يذهبون حتى إلى المراهنة بحلوياتهم مع الشبان والأطفال بمناسبة عيد « پّوريم »[59] .

---

(56) نفس المرجع ، ص. 323 ، هامش 12 ، ومعلومات م. يهودا بنسمحون . انظر أيضاً شهادة دولاكروا (رحلة أ. دولاكروا إلى المغرب ، ص. 96) .

(57) برونو ومالكة ، المرجع المذكور، ص. 293 ، هامش 7؛ وشوطان المرجع المذكور ، ص. 149 -153 .

(58) لقد نشرت ، منذ إقامة الحماية ، آلةُ الحاكي والراديو الموسيقَىْ الغربيةَ بالملاح ؛ وفي نفس الوقت تقهقرت الأجواق اليهودية وتراجعت في الغالب أمام أجواق المدينة ؛ وأخيراً فقد ظهرت إلى الوجود « الشيخات » اليهوديات .

(59) نفس المرجع ، ص. 262 ، هامش 5 . انظر عن الافتتان باللعب ، نفس المرجع ص. 265 ، هامش 15 . كان اللعب مخصصاً للرجال ؛ أما النساء اللائي كن يتعاطينه فكن يُعتبرن عاهرات . ويوجد بتونس نفس الميل إلى اللعب بين شبان وأطفال السكان اليهود . وكان يشاهد سنة 1941 دكاكين مليئة فقط بألعوبات كرة القدم الميكانيكية ، يحَاصرها ، من الصباح إلى المساء ، شباب جائع . وفضلاً عن الشبان ، كان هناك نظارة يتراهنون حول نتيجة الأشواط ؛ لم تكن المناقشات نادرة ، وتفضي أحياناً إلى سباب وطعنات سكين ، وحتى الشرطة كانت مضطرة إلى التدخل من حين إلى آخر.

كانت الطبقة السفلى تختلف إلى الحانات المسماة (تبرنة) باسم إسباني ، وإلى مقهى مغربي يدخن فيه « الكيف » . وكان الشبان يستطيعون أن يمرحوا ويلعبوا ـ لا نستطيع أن نقول يتريضون ـ في فضاء من المقبرة ما زال بعدُ خالياً من القبور .

كان البغاء متستراً جداً ، إذ يُقمع بصرامة من طرف الشرطة : كانوا يحلقون للعاهرة رأسها ويرغمونها على التجول عبر الملاح كله وهي تعترف بخطئها تماماً كبائعي اللحم الفاسد بالمدينة (التطويف) ؛ بالإضافة إلى أن المومسات كن يُدفنَّ في زاوية خاصة بالمقبرة .

وكان اليهود يغامرون بأنفسهم ، في الربيع أحياناً ، فيخرجون من الملاح ليتنزهوا على ضفاف واد فاس أو في حدائق دار دبيبغ ، في الموقع الذي كانت ستشيد فيه المدينة الجديدة الجديدة . وكان يتفق حتى أن يضع بورجوازيون مسلمون حديقتهم في دائرة فاس رهن إشارة عائلة يهودية صديقة لتقيم بها نزهة[60] . ولم يكن مثل هذا الخروج ممكناً طبعاً إبان الفتن .

الأعياد الدينية : ـ كان السبت يوم ابتهاج[61] تستعد النساء له منذ الليلة السابقة ، فينظفن الدار ويهيئن الأطعمة ليوم الغد وينجزن جميع طقوس السبات . كانت الصبيحة تخصص للصلاة التي تقام جماعة بالبيعة ، لكن العشية كانت تشكل وقتاً للراحة والتسكع : كانت النساء يتجولن في الزقاق الكبير وهن مرتديات أبهى ملابسهن ، ويتحدثن فيما بينهن ، بينما ينظر إليهن الرجال شهوة من طرف خفي : نتذكر التفسح التقليدي في المدن الإسبانية آخر العشي . وبعد تناول العشاء ، كانت السهرة تستمر غالباً إلى وقت متأخر جداً .

وأخيراً كانت الأعياد الدينية مناسبة لحفلات وشعائر مختلفة ، ولكن

---

(60) نفس المرجع ، ص. 273 ، هامش 11 .

(61) برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 251 -259 .

أيضاً لأفراح يساهم فيها جميع السكان . كان عيد الفصح (پّيساح) المحتفل به في الربيع يدوم ثمانية أيام (يعطل العمل في اليومين الأولين والأخيرين) ، وكان يُسبق بتنظيف المنازل تنظيفاً دقيقاً ، ويشتري الأغنياء ملابس جديدة ، توزع منها الجماعة على الفقراء . كان ذلك وقت النزهات والزيارات العائلية . و (الحلُّولة) في أول ماي هي ذكرى وفاة الرِّبّيّ الشهير سيميون باريوحاي ؛ وتخلد أيضاً في هذا اليوم ذكرى الحاخام الشهير عمران بن ديوان المدفون في أسجن قرب وزان ، ويذهب إلى زيارة قبره العديد من الإسـرائيليين[62] . ويذهب الذين يبقون بفاس إلى المقبرة لقضاء الليل فيها ، فينصبون الأخبئة وترتل فيها الطائفة أناشيد دينية . ويأتي عيد الحصاد (سابعوط) بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح: ويدوم عيد الحصاد هذا أو عيد البواكير يومين . ويكون عيد إستير (يّوريم) ، في بداية مارس ، مناسبة لتقديم هدايا إلى الأطفـال: يُعطَون مالاً لشراء الألعوبات التي يشتاقون إليها وحلويات كثيرة . ويأتي في الخريف عيد المظال ، المسمى بفاس « سكّوت » (نوايل) لأن اليهود يتناولون طعامهم ، طوال ثمانية أيام ، في (نوايل) من قصب تقام على السطوح أو في إحدى زوايا زقاق هادئ تذكيراً بإقامة اليهود في الصحراء .

ويخصص اليوم التاسع لعيد « سمحت ـ تورا » (فرح التوراة) تختم فيه القراءة السنوية للتوراة ، ويُعطل فيه العمل مثل عيد الفصح ، يومين في ابتداء العيد ويومين في الأخير ؛ ويكون رأس السنة (روش الشنة) ، الذي يُحتفل به في آخر سبتمبر ، مناسبة ليومين من الابتهاج ، وصلاة طويلة ، وقراءات دينية ، وزيارات رأس السنة . ويتسم الصفح الكبير (كيبّور) الذي يحل عشرة أيام من « روش الشنة » بصيام 26 ساعة وذبح عدد كثير من الدجاج يحمل جميع خطايا السنة[63] . وأخيراً ، فإن « حانوكا » في أوائل ديسمبر ، يُحتفى

---

(62) انظر سيماخ ، قديس وزان .

(63) انظر عن جميع هذه الأعياد ، برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، بالنسبة لعيد الفصح ، ص. 268 -271 ؛ وبالنسبة لحلّولة ، ص. 276 -278 ؛ وبالنسبة لعيد الحصاد ، ص. 317 ، =

فيه بذكرى معجزة يهودا ماكابي الذي أوقد جميع مصابيح معبد أورشليم وجعلها تشتعل ثمانية أيام بقنينة واحدة من الزيت فقط . ويوقد اليهود خلال الأيام الثمانية التي يدوم فيها هذا العيد بالتعاقب القناديل (الفتايل) الثمانية لمصباح يستعملونه للمناسبة .

* * *

تتجلى من هذا التحليل الوجيز الخطوط الآتية :

1 ـ كانت الحياة الاجتماعية لليهود محدودة بأسوار الحي : فإذا خرجوا منه لم يعودوا سوى أشخاص خاضعين للأحكام التي كانت الجماعة الإسلامية تحددها لهم من طرف واحد، فاقدين هكذا قسماً كبيراً من شخصيتهم ومبادرتهم . وباستثناء بعض النزهات في البادية عندما يكون الأمن سائداً، وإيفاد بعثة من الأعيان في المناسبات الكبرى لتقديم ولاء الملاح إلى السلطان أو ممثلة ، فإن التظاهرات الجماعية لليهود لم يكن مسموحاً بها خارج حيهم .

2 ـ أن عادات المسلمين وأعرافهم كانت قد دخلت إلى الملاح واندمجت في الحياة الاجتماعية اليهودية، وذلك في عدة نقط . وقد تم هذا التأثير المتبادل بكيفية أسهل بقدر ما كان المجتمعان المتواجدان ، وكلاهما من أصل سامي ، يملكان رصيداً مشتركاً من النظم والتقاليد . ومن جهة أخرى احتفظت الجماعة الإسرائيلية بفاس ببعض العادات الإسبانية ، نظراً لعدد اليهود المنتمين إلى إسبانيا .

3 ـ كانت الحياة الاجتماعية خاضعة للدين ، أكثر بكثير مما كانت عليه عند المسلمين . إننا نعلم الدقة التي تنظم بها الشريعة العبرية أقل أعمال وحركات كل واحد من أتباعها . وكانت جماعة فاس خاضعة لها بدقة ، على

= هامش 13 ، وبالنسبة لپّوريم ، ص. 260 -261 ؛ وبالنسبة لعيد المظال ، ص. 282 -286؛ وبالنسبة للفصح الكبير هنا وهناك .

غرار سائر الجماعات الإسرائيلية بشمال إفريقيا ؛ إلَّا أنهم ، وحتى في الميدان الديني الذي كان الإسرائيليون مع ذلك يحاولون في غيرة على أن يحتفظوا فيه بنظمهم الخاصة ، قد تأثروا بالبيئة المحيطة بهم . وفعلاً ، فإننا نميزفيهم، مثلما نميز في المسلمين ، ميلاً واضحاً إلى إجلال الصلحاء ، سواء كانوا قدامى يقدسهم قسم من العالم الإسرائيلي ، كالحاخام سيمون باريوحاي ، أو اقتصرت سمعتهم على اليهودية المغربية ، كقديس أسجن ، أو تعلق الأمر بقديسين محليين ، كالشابة سليكا ـ هاتشوال التي فضّلت الموت على التخلي عن دينها ، حوالي 1830[64] .

وفضلاً عن تقديس الأولياء ، كان يهود فاس يُقبلون كثيراً ، هم كذلك ، على تعظيم الجن والعلوم الخفية (السحر ، والعرافة ، والكيمياء) الكفيلة بإبعاد التأثيرات المؤذية عن طريق التعزيم . ومثل هذه العمليات كانت تتذوقها خاصةً النساء والطبقات الشعبية[65] .

إلَّا أنه لا يجب الاعتقاد بأن الجماعة اليهودية بفاس قد فقدت الاتصال ببيت المقدس : إنها كانت تبعث إليه دورياً حُجَّاجاً وطلبة كانوا يشكلون هنالك ، مع يهود مغاربة آخرين ، جالية صغيرة نشيطة . وكانت فاس في المقابل تستقبل كل عام تقريباً زيارة حاخام يجمع التبرعات . كان يأتي تارة من بيت المقدس ، وتارة من طبرية ، وأخرى من صفد ، مكلفاً في مهمة جمع الأموال للجالية المغربية بفلسطين ، بالإضافة إلى تبليغ السلام إلى جماعات المغرب[66] .

---

(64) انظر عن سليكا ـ هاتشوال القصة المحولة إلى شبه رواية لرأي ، ذكريات رحلة إلى المغرب ، ص. 139 -176؛ وبرونو ومالكة ، المرجع المذكور ص. 139 -176 ؛ وبرونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 213 -217 .

(65) برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص. 368 -374 . انظر أيضاً بيارني ، إثنوغرافيا مغربية ، ص. 57 .

(66) معلومات شفوية . انظر أيضاً برونو ومالكة ، ص 221 ، هامش 13 .

ومن جهة أخرى ، وبالرغم من وجود مطبعة بالملاح ، كان إسرائيليو فاس يتزودون بكتب التوراة من فيينا بالأخص ، ويستوردون مسائل التعبد من النمسا وألمانيا ؛ وأخيراً فإن الملفات المخطوطة للشريعة كانت تُستنسخ دائماً في بيت المقدس لحساب شخص يُهديها إلى بيعة يختارها .

4 ـ لقد نشأ في بداية القرن العشرين ميل للتجديد من بين قدماء تلاميذ مدرسة الاتحاد الإسرائيلي ، وهو ميل مغذى بأفكار فرنسية كانت تتسرب شيئاً فشيئاً إلى الملاح بواسطة معلمي الاتحاد . لم تكن بعد سوى خيالات ، لأن السلطة الإسلامية كانت ما تزال ذات ثِقل قوي ؛ والمدافعين عن التقاليد كانوا من الكثرة والقوة بحيث لا يتمكن مثل هذا الميل من أن يتفتح بحرية . ومع ذلك فمن الأهمية بمكان الإشارةُ إلى هذا الغليان الفكري، والأمل في التحرير الذي كان يساور عدداً معيناً من الأفكار الشابة منذ ما قبل الحماية .

8

الكتاب الثامن

الحياة الدينية

نجد الإسلام في كل مكان هو الذي يشكل حقاً جو الحياة الفاسية ، سواء تعلق الأمر بالنظم الحضرية ، أو بالتجارة والصناعة والحياة العائلية . ويكتسي الشعور الديني أشكالاً مختلفة بحسب ما إذا كنا على صلة بالنساء أو بالعامة أو التجار أو المثقفين ؛ لكنه كان إجماعاً مَهْمَا كان المظهر الذي يتخذه : فالمفكر الجريء ، واللاديني ، أو حتى اللاّمبالي ، قوم لا يُعرفون بفاس في الواقع[1] .

فلا بد إذن من التعرض لهذا الموضوع ، على دقته ، إذ لا يمكن تصور فاس بدونه . أريد أن يقتنع المسلمون الذين سيشرفونني بقراءة ما أكتبه جيداً بأنني أُكِنُّ للإسلام وقواعده احتراماً تاماً ، أتمنى أن أكون قادراً على التعبير عنه في الصفحات التالية . وإن اتفق أن بعض كلماتي أحرجت هذا أو ذاك ، فإنني أريد ألا يستنتج منه سوء نيتي ، حيث إنني قد أكون مخطئاً فقط أو غير معبِّر كما ينبغي .

(1) إنني أستعمل هنا صيغة المضارع عمداً ، لأن الأشياء لم تتغير قط منذ الحماية . فإن كان بعض المتطورين ، وعددهم قليل جداً ، قد زُعزعوا في عقيدتهم الإسلامية ، فإنهم لا يُظهرون أي شيء في سلوكهم : فقد بقوا وما زالوا على ما كانوا عليه ، من الوجهة الاجتماعية ، ويتصرفون كمسلمين مقتنعين ، لا في الزقاق فقط ، لئلا يثيروا استنكار الجمهور ، ولكن أيضاً في منازلهم ، حتى يداروا الحساسية الدينية لآباء مسنين . فإذا كانوا فقط بين أصدقاء من نفس العمر أشعروا بمروق نامٍ أو أكدوه بصراحة : فحرية التفكير بخصوص الدين ليست بعدُ واقعاً مكتسباً .

1/8

الفصل الأول

واجبات المؤمن

من المعلوم أن الإسلام يفرض على المسلمين خمس فرائض تسمى « أركان الدّين » ، هي الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج .

الركن الأول واجب باطني لا يُعبَّر عنه إلا بالنطق بعبارة الانتماء إلى الإسلام ، وهي « شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله » . وهي بفاس مثل ما هي عليه في سائر العالم الإسلامي ، بدون أدنى تفاوت خاص .

* * *

الصــلاة : ـ كذلك ليست هناك أية ملاحظة خاصة عن الفرض ذاته ؛ يعلن المؤذن عن صلوات الإسلام الخمس اليومية من أعلى المنارات ، ويرفع في آن واحد وفي أهم الجوامع كلها علماً أبيض فوق الصومعة المعدة لهذا الغرض . ويستجيب الرجال بانتظام لفريضة الصلاة ، فإن لم يكن البورجوازيون متيقنين من الذهاب الى المسجد في الساعة المعينة ، حملوا تحت إبطهم (لبدة) من الملف الأحمر أو الأزرق أو الأخضر ، متأكدين هكذا من القيام بالصلاة أنّى كانوا[2] . وصلاة النوافل منتشرة جداً ، إذ ليس من النادر أن يشاهد تاجر في دكانه أو برجوازي في منزله وهو يُسبّح(*) .

---

(2) أصبح حمل سجادة حتى عادة لكثير من الفاسيين ، لا سيما المثقفين والشرفاء منهم . ويكاد هذا الشيء يكون جزءاً ضرورياً من لباسهم لدى خروجهم إلى الشارع .

(*) (كذا) . وقد اختلط على المؤلف أمر الذكر بصلاة النوافل (مترجم) .

وكما هو معمول به في جميع البلاد الإسلامية ، فإن صلاة الظهر ، يوم الجمعة، تكتسي احتفالاً خاصاً: يُرفع في بداية النهار علم أزرق قاتم على الصوامع ، ويعوض حوالي الساعة العاشرة صباحاً بعلم أبيض ؛ وفي الساعة المعينة التي تختلف في ذلك اليوم بحسب المساجد[3]، يجتمع المؤمنون بكثرة في أحد الجوامع السبعة عشر حيث الصلاة تعقبها خطبة[*]،وتسمى جوامع الخطبة ، أو المساجد الجوامع كذلك ، بسبب المنبر الذي يصعد اليه الخطيب[4] .

يُختار عادة الخطباء من أسرتين شهيرتين بفصاحتهما وديانتهما ، هما آل ابن سودة ، وأعقاب سيدي عبد القادر الفاسي[5]؛ ويتقاضون أجرهم من موارد أملاك الأحباس المخصصة بالذات لهذا الغرض[6] ، وقدرها حسب بيريتيي[7] من 80 إلى 100 ريال شهرياً في الصيف ، ومن 40 إلى 50 ريالاً في الشتاء .

وتتميز الأعياد الرئيسية (عيد الفطر وعيد الأضحى) بصلاة رسمية في

---

(3) منتصف النهار بالنسبة للجامع الأعظم بفاس الجديد ، ومولاي إدريس ، وجامع الأندلس ؛ والساعة الواحدة والنصف زوالاً بالنسبة للقرويين ، والثالثة زوالاً بالنسبة لباب عجيسة (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 272)

(*) هنا أيضاً خلط واضح عند المؤلف ، فالصلاة هي التي تعقب الخطبة. (مترجم) .

(4) وها هي لائحة الجوامع السبعة عشر بفاس ، حسب بيريتيي (مدارس ، ص. 327) : القرويين ، مولاي إدريس ، الرصيف ، سيدي أحمد الشاوي ، الشرابليين، المُنْيَة (قرب قنطرة بوروس)، البوعنانية ، سيدي أحمد ابن ناصر (حي العيون) ، الديوان ، باب عجيسة بالنسبة لعدوة القرويين ، الأندلس، والواد ، بالنسبة لعدوة الأندلس ، جامع قصبة فيلالة ، جامع بوجلود ، الجامع الأعظم ، جامع الحمراء ، مولاي عبد الله بالنسبة لفاس الجديد . يضاف إلى هذه اللائحة الآن جامع الفخارين الذي شُيد سنة 1934 . وانظر أيضاً بهذا الصدد دولغان ، المرجع المذكور ، ص 66 .

(5) كان خطيب جامع الأندلس والمُصلّى بباب الفتوح دائماً من أسرة ابن سودة ، وكان خطيب الجامع الأعظم بفاس الجديد ومصلى باب الساكمة دائماً من أسرة الفاسيين .

(6) فعلى سبيل المثال ، كانت موارد الرحبة بالطالعة تستعمل لأداء أجرة خطيب جامع بوجلود .

(7) المرجع المذكور ، ص. 328 .

الهواء الطلق بمصلى باب فتوح ومصلى باب ساكمة[8] . وهذان المصليان عبارة عن مجرد جدار صغير أبيض فُتح في وسطه محراب يُبين اتجاه مكة ، وعن يمينه ثلاث درجات للخطيب . وتُنشر على الأرض ، أيام العيد ، حصر يجلس عليها المؤمنون لأداء الصلاة .

وفضلاً عن أماكن الصلاة هذه التي هي في متناول العديد من المؤمنين ، فإن لأهل فاس عدداً هائلاً من أماكن عبادة أخرى ، كالمساجد الصغيرة ، والزوايا ، وقاعات الصلاة بالمدارس ، إلخ . . . وعددها 700 بناية في المجموع ، حسب ليون الإفريقي[9] ، وهي مئات عديدة بالتأكيد .

من المعلوم أنه لا رهبانية في الإسلام ، لكن لا بد من وجود مستخدمين قارين لصيانة أماكن الصلاة وتحضير مراسم العبادة . وها هو ، على سبيل المثال ، مجموع مستخدمي جامع للاّ غريبة بفاس الجديد ، كما تُعرّفنا به كتابة من القرن الخامس عشر[10] : إمام ، قيّم الخزانة ، يتقاضى 12 ديناراً عشاريا[11] في الشهر ؛ وقارئ لكتاب الشفا[12] ، يتقاضى 6 دنانير ؛ ومؤذن ، كان يحرص أيضاً على صيانة المصابيح والميضآت ، ويتقاضى 10 دنانير ؛ وخادم مكلف بتنظيف الميضآت والنافورة ، يتقاضى دينارين ؛ وحارس

---

(8) ويسمى أيضاً مصلى باب الشريعة ، أي باب محروق . وهذه العبارة طبعاً من بقايا العهد الذي لم يكن فيه بعدُ أيُّ حاجز بين هذا الباب والمصلى ، إذ لم تكن قصبة الشراردة قد شُيدت بعد .
ويدعى الآن عادة مصلى باب الساكْمة أو مصلى السلطان . (انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 138) .

(9) المرجع المذكور ، ص 68.

(10) بيل ، كتابات عربية ، ص. 68 -69 .

(11) كان الدينار العشاري في ذلك العهد قطعة تساوي عشرة دراهم ، ومن ذلك اتخذ اسمه .

(12) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، ألف في سيرة الرسول (عليه السلام) للقاضي عياض كاتب أندلسي من النصف الأول للقرن الثاني عشر . انظر دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 2 ، ص. 602 -603

(*) بل القاضي عياض مغربي سبتيّ المولد مراكشيّ الوفاة . (مترجم) .

يتقاضى 4 دنانير ؛ وقيم على استحضار الزيت وإنارة المصابيح ، وأجرته ديناران ونصف . بالاضافة الى أن الامام والمؤذن كانا يسكنان في حجرتين صغيرتين ملاصقتين للجامع . وجميع مصاريف إقامة التشعائر على نفقة أملاك الأوقاف .

رمضـــان : ـ كان صوم شهر رمضان مطبقاً بالإجماع[13] . من المعلوم أنه يحرم على المؤمنين طوال هذا الشهر ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، تناول الطعام والشراب ، والتدخين والجماع ؛ وهي أوامر شاقة في كل فصل من فصول السنة لا سيما في الصيف .

وكان الاستعداد لهذه الفترة الطويلة من التكفير عن الذنوب يتم في ثلاثة أيام من الابتهاج ، هي الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر شعبان . كانت النساء يصعدن إلى السطوح ويقذفن بالمفرقعات والصمامات ، بينما يفرقع الأطفال المفرقعات في الأزقة . كانت هذه الطلقات النارية غير المنقطعة ، ودخان البارود المتصاعد من المدينة، تجعل الطيور (الخطافات) تتردد في طيرانها للالتحاق آنذاك بأوكارها في عقيق واد فاس . وفي اليوم الأخير تكون السطوح أكثر اكتظاظاً ، ويتسلق الرجال الربى المجاورة ليرقبوا من جهة الغرب الهلال الدقيق الذي يُعلن عن الشهر المعظم . وفي أعلى برج المنجمين ، قرب جامع القرويين ، كان رجال الفن مستعدين ليشهدوا ظهور الكوكب ، وبأيديهم آلات عتيقة . وبمجرد ما كانوا يرونه ، يخبرون القاضي الذي يأمر بطلقة مدفعية لإطلاع السكان على الحدث .

كانت حياة الحاضرة إذ ذاك ، ولمدة شهر ، تغير وتيرتها . ففي الصباح بعد صلاة الفجر ، كان يُظنُّ أن فاسا مدينة ميتة ، لولا أن الصبيان الذين لم يكونوا يصومون يستولون على الأزقة ليتعاطوا بحرية ألعابهم ويقوموا بضوضاء

---

(13) وما زال مطبقاً كذلك حتى اليوم ؛ ولعل الذين يخونون أنفسهم اليوم ـ يوجدون وسيوجدون دائماً ـ لكنهم ما زالوا يتسترون ليأكلوا ويشربوا . أما مجموع السكان ، فإنهم متمسكون بهذا الواجب الديني ، على جميع المستويات .

شديدة . وأما الكبار فكانوا يستريحون جزءاً لا يستهان به من الصبيحة ، اللهم إلا إذا كان لهم واجب مستعجل . وقبيل منتصف النهار ، كان بعض التجار ، وبعض الصناع ، وما زال أثر النعاس فيهم ، يفتحون دكانهم لزبناء قلائل . ولم تكن الحركة تُستأنف إلا اعتباراً من منتصف النهار ، عندما يشرع الناس في التزود لطعام الليل .

وكلما مرت الأيام ، ازداد القلق ، وانتظر المؤمنون بفارغ الصبر الأذان والطلقة المدفعية[14] لصلاة المغرب والإفطار . وكان المساكين يتزاحمون حول الطهاة وبيدهم قدح من حساء يتصاعد بخاره ، مستعدين أن يتناولوا منه جرعة بمجرد ما يصبح ذلك حلالاً ؛ ويتأهب المدخنون ، وعددهم قليل إذ ذاك ، لإيقاد سيجارتهم[15] ، بينما المتأخرون ينزلون بسرعة من الأزقة المنحدرة، مسرعين للالتحاق بمنازلهم . وما أن يعلن عن الإفطار حتى تتصاعد ضجة الانبساط من الحاضرة كلها[16] . ويقطع الصيام حيناً بتناول قدح من الحساء الساخن (حريرة) المعد خصيصاً خلال شهر رمضان .

يتناولون الشاي ، بعد العشاء ، وغالباً ما كانوا يستقبلون بعض الأصدقاء فيقضون وقتاً طويلاً وهم يتحدثون ويلعبون الورق أو الشطرنج ؛ بحيث إنهم ينامون في وقت متأخر، ليس قبل أن ينصتوا إلى النفارين[17] وهم يرسلون من أعلى إحدى الصوامع أنغاماً جشاء وخفيضة من آلاتهم الطويلة ، ثم إلى الغياط[18] وهو يبث في الليل نغمته الرقيقة . وبينما الناس غارقون في النوم ،

---

(14) كانت الطلقات المدفعية بتطوان تعوض بصوت البوق (ويندوس ، المرجع المذكور ، ص. 128) .

(15) إن تبرم المدخنين في شهر رمضان أصبح يضرب به المثل .

(16) لقد سمعتها مراراً متعددة من أعلى ربوة المرينيين .

(17) كان صوت النفارة ، وهم دائماً اثنان ، يسمع ثلاث مرات في الليل .

(18) كان الغياط يسمع صوته مرتين، بعد مرور ساعة ونصف على صلاة العشاء ، ثم قبل الفجر . وانظر عن الأنغام التي يلحنها النفارون والغياطون ، أ. شوطان ، أنغام شعبية ، ص. 285- 283 .

حوالي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً حسب الفصل ، كانت أبواب المنازل تُزعزع بضربات الدقاقين (أو الدقاقة)[19] الذين لا يتراجعون ما لم يسمعوا صوتاً ناعساً . فكان ينبغي تناول طعام الليل الثاني (السحور) قبل الصبح بكثير ، لاجتناب كل مخالفة لقاعدة الصيام . فكانوا إذن يأكلون في كل دار تحت ضوء الشموع ، ثم يعودون إلى النوم بعد أداء صلاة الصبح .

لم يكن منتصف رمضان ، كمنتصف الصوم الكبير عندنا ، فرصة لمسرات كبرى أو لإمساك قصير عن الصوم ، لكن الاجتماعات العائلية كانت أكثر عدداً وأكثر مرحاً تلك الليلة . وفي اليوم السادس والعشرين ، كانوا يُلزمون الأطفال الذين سيبلغون الحلم في السنة الموالية بالصيام ، وتُقام حفلة عائلية من أجل ذلك[20] . لكن أكبر احتفالات الشهر كانت بدون منازع هي ليلة السابع والعشرين أو ليلة القدر ، التي يُحتفل فيها بذكرى أول وحي أنزله الله على رسوله . وجرت العادة بأن يتلى القرآن بكامله في أهم مساجد المدينة . كان قراء متطوعون ، وقد يكونون أطفالاً حافظين لكتاب الله ، يتعاقبون طوال الليل لترتيل الآيات الكريمة في قاعات الصلاة المضاءة ، بينما يلعب الصبيان في الصحن بكامل الحرية . وفي الأزقة كان يسير جم غفير من الناس : كانت فاس كلها هناك . والتجار والصناع يقدمون الشاي في أسواقهم أو فنادقهم . وكثير من نظرات الابتهاج تفحص السماء ، إذْ حسب التقاليد الشعبية تطوف الملائكة حول الأرض ، مستعدين لتبليغ دعوات العباد إلى الله ، وعلى كل من شاهد نوراً في السماء أن يدعو بدعاء يستجاب لا محالة . ليلة إيمان قوي ، ليلة رجاء يكاد يكون يقينياً ، بعد شهر من كبح الشهوات إرضاء لله ! لا بد من معاينة مشهد هذا الحبور الجدي الواثق بنفسه لإدراك

(19) كان عدد الدقاقين نحو أربعين بالنسبة للمدينة ، اثنان أو ثلاثة لكل حي . وبطنحة كان يصحبهم عازف على طبلة (سحار) . انظر أوبين، (المرجع المذكور ، ص. 81) . كان كل من العازفين والدقاقين يتقاضون من الأوقاف أجرة قليلة (نحو خمسين فرنكاً للشهر سنة 1937) ؛ لكن سكان حيهم كانوا يقدمون لهم هدايا عينية ، لا سيما الدقيق.

(20) انظر ما سبق ، الكتاب 7 ، الفصل 5 .

مدى المشاعر العميقة التي تُنشط التقوى الجماعية لفاس .

وكانت الزكاة ـ وهي الفرض الرابع للمسلمين ـ تُعطى يوم عاشوراء . كان لكل واحد فقراؤه المعتادون الذين لم يكن يقدّم لهم الطعام فحسب ، كما هو معمول به في كل الأعياد الكبرى ، ولكن أيضاً مبلغاً من المال ، كما تفرضه شريعة الزكاة .

الحـــج : ـ من المعلوم أن فريضة الحج ليست مطلقة ، بمعنى أنه واجب فقط على من استطاع إليه سبيلاً : فالشريعة الإسلامية تمنعه منعاً كلياً على كل من كان ذهابه ، مثلاً ، سيُوقع أسرته في الفاقة . فكان إذن عدد الفاسيين الذين يؤدون هذه الفريضة غير كبير نسبياً بطبيعة الحال ، ومع ذلك كان الحجاج يتوجهون تقريباً كل سنة إلى مكة ، ويعود منها آخرون .

وقبل غزو الجزائر ، كان السفر يتم عن طريق القوافل حتى القاهرة ، حيث كان المغاربة ينضمون إلى الجماعات العديدة للحجاج المصريين . وكانت فاس نقطة تجمع حجيج شمال المغرب : فكانت تشكل بها قافلة تسمى محملاً ، كالقافلة المصرية ، وتوضع تحت إدارة (شيخ الركب)[21] . وكان الجمالون يؤخذون بالأخص من قبيلتي الخلط وطليق ، المنتميتين إلى الحجاز ، ويطلق عليهم اسم حمارة النبي[22] . من المفروض أن القافلة كانت هامة ، على الأقل عندما كانت الظروف مواتية ، لأن جل الحجاج كانوا يحملون معهم بضائع لتغطية نفقات سفرهم بتعاطي التجارة . كانوا يحملون

---

(21) نجد عند ويندوس ، المرجع المذكور ، ص. 207 -208 المعلومات الآتية حول تنظيم قوافل الحج في القرن الثامن عشر :

« يرأس هذه القوافل شخص يستأجر أكبر جزء من شمع السلطان ويسمى من أجل ذلك « سطا نكيرو » . وعمله ضخم إلى حد أنه يستخدم إخوانه أو بالأحرى يقبلهم ضمن شبه شركة معه . توكل القوافل إليهم وتذهب كل ستة أشهر ، برئاسة أحدهم . وأثناء المسير يلتحق بها دائماً تجار من الجزائر وتونس يجعلون أنفسهم تحت حماية أخي « السطانكيرو » ويسمى « ملك القافلة » . وتنطلق عادة اثنتان من هذه القوافل في نفس الوقت : عندما تخرج الواحدة من فاس ، ترجع الأخرى من مكة » .

معهم منتجات من الصناعة الفاسية (كالأقمشة ، والأنسجة الحريرية ، والنعال ، وأشياء من النحاس) ، وزرابي مغربية ، وقرمزية ، وحتى بعض سلع إفريقيا السوداء ، مثل ريش النعام[23] .

كانت القافلة تنطلق من باب فتوح ، في وسط تزاحم كبير للجمهور[24]، مُتجهة شطر الشرق . وكانت الرحلة العامة معلَّمة بمدن تازا ، وتلمسان ، ومَـدية ، وقسنطينة، وتونس ، وطرابلس ، والطريق الساحلية . وكانت تحدث تغييرات محتملة حسب الظروف : فإن كانت الطريق غير آمنة ، أمكن الالتحاق بقافلة تافيلالت عبر صفرو ، ووادي ملوية ، ووادي زيز[25]، ومن هناك مباشرة إلى طرابلس ، بمحاذاة الحد الجنوبي للأطلس الصحراوي ؛ وكان بالإمكان هنالك أيضاً الاتجاه شطر الجنوب ، إن اقتضت الظروف ذلك ، والالتحاق بالقاهرة عبر سبوا ، أو حتى الفزان . وكثيراً ما كان يحدث أن تُعرِّج القافلة على الجزائر أو بسكرة ، مثلاً ، بطلب من التجار الذين تكون لهم قضايا هنا أو هناك . وأثناء السير كان الحجاج ينضمـون إلى الجماعـة المغربية . ولما أقامت فرنسا الحماية بالجزائر ، انقطعت القوافل واضطر الحجاج إلى الإبحار من طنجة .

---

(22) مارتان ، **الكدان** ، ص.621 .

(23) طوماسي ، **المغرب وقوافله** ، ص. 33 وما بعدها ، ويندوس ، المرجع المذكور ، ص. 207 -208 .

(24) وإليكم الكيفية التي يتحدث بها صاحب كتاب **الاستقصا** عن هذا الذهاب (والمعلومات التي يدلي بها تتعلق بدولة مولاي سليمان [أوائل القرن التاسع عشر]) : « جرت العادة بخروجه ـ الركب النبوي ـ من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال وإبراز الأخبية بظاهر البلد ، وقرع الطبول وإظهار الزينة. وكانت الملوك تعتني بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما » . 8 ـ120 من طبعة الدار البيضاء .

(25) انظر نشر **المثاني** ، ترجمة كُرول ، ص. 90 -91 .

ومهما كانت الطريق المختارة ، فإنهم كانوا يتغيبون مدة طويلة ، تدوم عدة أشهر وحتى عدة سنين أحياناً . ولم يكن بعضهم يرجع البتة ، إمّا لكونهم هلكوا في الطريق ، وإمّا لكونهم استقروا بالقاهرة[26] أو غيرها .

وكانت عودة الحجاج مناسبة لأفراح كبيرة : كان الناس ينتظرونهم بأبواب المدينة ، ثم يصحبونهم إلى صريح المولى إدريس ، حيث كانوا يصلون حتى قبل اجتياز عتبة منزلهم . وبعد ذلك كانوا يُقيمون في دورهم حفلات كبرى يستدعون إليها العديد من الناس[27] .

(2(انظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 6

(2) انظر ما سبق, الكتاب, 7 ، الفصل 7 .

2/8

الفصل الثاني

الأعياد الدينية

كانت هذه الأركان تشكل هيكل الحياة الدينية ، ثم أضافت اليها التقاليد الإسلامية والعادات المحلية قواعد كثيرة جداً .

كانوا يحتفلون في فاس بأعياد دينية كل سنة ، كما هو الشأن في العالم الإسلامي كله ؛ وكان عدد هذه الأعياد أربعة : العيد الصغير (عيد الفطر) ، والعيد الكبير (عيد الأضحى) والمولد النبوي ، وعاشوراء ، ولكل واحد منها طابعه الخاص .

العيد الصغير : ـ أو عيد الفطر يقام مباشرة عقب انتهاء رمضان ، في فاتح شهر شوال . كان الجمهور يحتشد في المُصلَّيين بباب ساكْمة وباب فتوح ، يجتمع في الأول أكبر عدد من الناس ، لأن السلطان أو خليفته كان يأتي إليه في موكب فخم ليترأس الصلاة ؛ ثم بعد ذلك يمتطي فرسه ليتلقى ولاء ممثلي المدينة والقبائل المجاورة[1] . وكان قائد المشور يقدم الوفود بهذه العبارة التقليدية : « أهل فاس ، نعم سيدي » . فينحني طويلاً أهل فاس ، وعلى رأسهم العامل ، قائلين جميعاً : « الله يبارك في عمر سيدي» ، ويجيبهم قائد المشور بقوله : «الله يبارك فيكم ويصلحكم ، قال لكم سيدي » . ثم يأتي

(1) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص 138 .

دور فرسان القبائل الذين ينحنون على أعناق خيولهم وهم راكبون ، فيرددون عبارة الولاء. وفي بعض الأحيان كان أحد المعتمدين الدبلوماسيين الأوروبيين أو البعثات العسكرية المعتمدة لدى الحكومة الشريفة يأتون لتقديم تهانئهم للعاهل . فكان قائد المشور يجيبهم إذ ذاك بقوله : « مرحبا بكم ، قال لكم سيدي » .

وعندما كانت شمس الصباح تضيء هذا المشهد ، كان المنظر عظيماً : كان النظر يمتد بعيداً على المدينة الملكية القريبة جداً ، وسهل سايس المفتوح نحو الغرب ، وجبال تغات ، وزلاغ ، والريف ، والأطلس المتوسط . وفي هذا الإطار الفخم ، كان بياض البرانس ، وبرقشة الجلاليب والرايات ، والبذلات الأوروبية ، تنثر ارتسامات رائعة . وكانت حفلة الولاء تجري بدون تباطؤ لا فائدة فيه أمام سلطان ساكن صامت .

وبعد أن يتلقى السلطان ولاء الوفود الحاضرة ، يلتحق بقصره في الموكب التقليدي ، بينما يعود الناس إلى منازلهم للاحتفال بالعيد . لكن لم يكن الناس ينسون تهييء زكاة الفطر (الفطرة) قبل كل شيء، حتى لا يكون المعوزون مضطرين في ذلك اليوم إلى مغادرة منازلهم بحثاً عن القوت . وهذه الزكاة تساوي مبدئياً أربعة أمداد من القمح . وكان يستفيد منها أيضاً معلم القرآن ، والقابلة ، والعجائز الفقيرات من العائلة التي فقدت مواردها[2] .

وكانت الأفراح تدوم نظرياً سبعة أيام ؛ إلا أنه في الواقع ، كان الكثير من الناس يستأنفون أشغالهم المعتادة منذ اليوم الرابع أو الخامس ، ليعطلوا مرة أخرى في اليوم السابع . كان العيد عبارة عن وجبات عائلية وزيارات يتبادلون أثناءها التهاني .

العيد الكبير : - أو عيد الأضحى،يُحتفل به في العاشر من ذي الحجة ، وهو نفس اليوم الذي كان الحجاج الوافدون من جميع أقطار العالم الإسلامي يضحون فيه بكبش في منى ، قرب مكة ، تخليداً لتضحية

(2) أحمد الصمريوي ، الليلة السابعة والعشرون لرمضان ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

إبراهيم(*) . كان الاحتفال يقام بفاس على الشكل الذي يقام به في العيد الصغير : يتوجه السلطان أو ممثله في موكب عسكري إلى مصلى باب ساكْمة ، حيث يترأس الصلاة في الهواء الطلق . تم يجتاز باباً صغيراً مفتوحاً في جدار المصلى ، على يمين المحراب ، فيجد هنالك كبشاً يمسكه بقوة خدام القصر . وفي وسط جمهور متعطش لرؤية كل شيء يَصُدُّه الجنود والخدام بعناء كبير ، كان السلطان يتولى إذ ذاك ذبح الحيوان . فيأخذ على الفور الحمارون والبغالون بالمدينة الأضحية التي ما زالت تختلج ، ويحملونها على دابة ، منطلقين في عَدْوٍ سريع إلى منزل قاضي فاس الجديد ؛ فإذا وصلوا إليه قبل أن يموت الكبش ، كانت تلك علامة على أن السنة ستكون مباركة . وفي تلك الأثناء ، كان السلطان يمتطي فرسه باحتفال ويذهب لتلقي الولاء من الوفود الحاضرة ، على نحو ما يقع في العيد الصغير . ويجري احتفال مماثل ، وإن كان أقل رسمية ، بمصلى باب فتوح ، ولا يتضمن طبعاً تقديم الولاء .

تذبح طوال الصباح أكباش في معظم منازل فاس . يشتري الأغنياء منها لأفراد دارهم الكثيرين ، ولفقرائهم المعتادين ، وغالباً ما كان الضعفاء يشتركون مثنى أو ثلاثاً في شراء ضحية يقتسمون لحمها . وكان المحتاطون منهم الذين لهم الإمكانيات يقتنون كبشهم قبل عدة أسابيع ، ويُسمِّنونه في منزلهم ، لأن الأثمان ترتفع قبيل العيد(3) . وبعد أن يكون رب البيت ، أو صديق أو جزار قد قطع الكبش ، يوضع الفخذان على حدة ، لأنه كان من الظرف إهداؤهما إلى مَن له الفضل عليهم ، ويؤكل الباقي خلال العيد . وكان هذا العيد يدوم سبعة أيام ، كالعيد الصغير ، ويحتفى به بنفس الكيفية .

(*) اختلط الأمر على المؤلف فظنّ أن الحجّاج يضحون بمنى . والكل يعلم أن الأضحية سنة في حق غير الحجاج . ولا يَذْبَح منهم في منىً إلاَّ مَن وجَب عليه الهديُ بسبب محالفة ارتكبها . أما سائر الحجاج فلا يضحّون . (مترجم) .

(3) عن شراء الأكباش للعيد الكبير ، انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل الرابع .

المولد النبوي : ـ يقع المولد في 12 ربيع الأول[4] ، وقد قرر السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق أن يحتفل رسمياً بهذا العيد[*] ، فأصبح منذئذ يوازي تقريباً العيدين السابقين من حيث الأهمية . وقبل شهرين ، يشرع في القرويين وعدة مساجد بفاس في شرح قصيدة في مدح النبي من نظم الشيخ المصري البوصيري بعنوان **الهمزية** . وكانت تقرأ ، ليلة العيد ، في أهم زوايا المدينة ، قصيدة أخرى لنفس المؤلف ، هي **البردة** . وطوال الليل كله تفتح المساجد وهي مضاءة للمؤمنين الذين يتوجهون إليها بوفرة ، بينما تخصص العائلات سهرتها لقراءات دينية . وعند الفجر ، وهو الساعة المفترضة لولادة النبي ، يُطلق الرجال عيارات نارية ، وتولول النساء ، ثم تبدأ الأفراح : الأطعمة والاستقبالات ، وتجمعات النساء في السطوح تتعاقب مدة سبعة أيام ، بينما يحتفل خصيصاً باليوم السابع . وهي أيضاً الفترة التي تقيم فيها الطائفتان الشعبيتان حمادشة وعيساوة احتفالهما المختص بأرباب المهن[5] .

عاشوراء : ـ كان الطابع الديني لعاشوراء ، وهي عاشر شهر محرم ، أقل ارتساماً بكثير من طابع الأعياد السابقة ، ذلك اليوم هو ذكرى وفاة الحسين ، ابن فاطمة وعلي ؛ وحسب العادة الشعبية بفاس ، كانت تخلد ايضاً وفاة فاطمة وحتى وفاة النبي[6] . ومهما يكن من أمر ، فقد كان بالتأكيد يوم حداد في الأصل : وفعلاً كانت عدة جموع من الشرفاء يتخذون الحداد ،

---

(4) انظر ب. باكينيون ، المولد بالمغرب ؛ وجوبان ، المرجع المذكور ، ص. 428 وما بعدها .

(*) أول مَن سنَّ الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب هو أمير سبتة العالم أبو القاسم الْعَزْفي ، مؤلف كتاب الدرّ المنظم في السيرة النبوية . وبعث بنسخة منه إلى الخليفة المرتضى الموحدي بمراكش ، فصادف منه ذلك قبولاً واستحساناً ، وصار المغرب كله يحتفل بالمولد النبوي إلى أيامنا هذه (مترجم) .

(5) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(6) معلومات تفضل م. لـوي بـرونو ، المدير الشرفي لمعهد الدراسات العليا المغربية ، فأطلعني عليها .

بعضهم من فاتح محرم ، وبعضهم شهراً كاملاً قبل عاشوراء . وربما يعزى إلى فكرة الحداد هذه منع الطبالين والغياطين من استعمال آلاتهم طوال شهر محرم ؛ وعند انتهاء الشهر يعزفون أمام أحد أبواب ضريح المولى ادريس ، بينما تغنّي (الشيخات) في إحدى ملحقات الضريح ، وهي دار القيطون[7] . وبعد ذلك ينقضي كل شيء ويسمح لهؤلاء وأولئك باستئناف أجواقهم .

وفي الحقيقة ، فإن مظهر الحداد لعاشوراء كاد يختفي تماماً ، وأصبح هذا العيد بالعكس عيداً للأطفال ، وعيداً للضوضاء ، وحتى عيداً لكرنڤال هزلي . فمن العسير تصور تبديل أتم للوجه .

توزع يوم عاشوراء هدايا على الأطفال ، مثلما نفعله بمناسبة رأس سنتنا . وهو حقاً شبه رأس سنة ، مع عشرة أيام من التأخير . هل كانت عدوى بين عاشوراء ورأس العام ، مثلاً ، الذي يحتفل به في تونس[8] ؟ ولماذا هذا التوزيع للعب آنذاك ؟ تعطي العادة التقليدية بفاس تفسيراً ، له على الأقل فضلُ الفتنة والظرف ، فتقول إنه عندما كان النبي محتضراً أخذ أطفال البيت في البكاء ، فأُعطوا لعباً لتسليتهم ؛ كما أنها تروي أن أبناء الحسين غُمروا بالهدايا للتخفيف من حزنهم يوم أن مات أبوهم ؛ وتؤكد في الأخير أنه ، عقب موت فاطمة مباشرة ، اقتربت ملائكة على صورة الإنس من ابنيها وهما عائدان من الكتاب لم يعرفا بعدُ مصيبتهما ، فأهدت إليهما لعباً حتى لا يستسلما بإفراط للألم . وهذه ثلاث شبكات رائعة طرزت في نفس الموضوع .

ومهما يكن من أمر ، فقد رسخت جيداً عادة القيام بإدخال السرور على الأطفال في ذلك اليوم ، وكانت تَفِدُ بعدُ لعبٌ عديدة من أوروبا ليلة الحماية : طيور من الصفيح مصبوغة بألوان زاهية وهي ترفرف بأجنحتها ، وطواحين هوائية ، ونواقيس ، وصفارات زهيدة الثمن . وقد برع الألمان في هذا

---

(7) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 3 .

(8) انظر ب. مارتي ، السنة الطقسية الإسلامية بتونس ، ص. 2-3 .

الميدان وأخذوا يزوّدون بهذه المناسبة دكاكين العطارة الذين تعاطوا هذه التجارة ؛ وكانت الصناعة المحلية تساهم هي الأخرى في العيد : فكان الفخارون ، قبل بضعة أسابيع ، يصنعون كمية وافرة من أنابيب موسعة الفوهة في الطرفين ومتفاوتة الحجم ، تغطى الفتحة الكبرى بمعى بقر مجفف وممدّد ، ويزخرف الخزف برسوم مزركشة ، مقتبسة من الزخرفة العادية لخزفة فاس ، ويشكل الكل طبلة (تعرجة) يستطيع كافة الفاسيين تقريباً شراءها ، نظراً لزهادة ثمنه . ومن آخر الصبّيحة إلى ساعة متأخرة من الليل ، كانت أفنية الدور وسطوحها ترنّ بمرح من تناغم الطبلات .

وبالنسبة لتلاميذ الكتاتيب القرآنية على الخصوص ، كانت عاشوراء كذلك عيد النور . فقبل أسبوع كان كل تلميذ يحمل إلى معلم القرآن قدحاً من الزيت ، ثم يهيؤون كلهم إنارة قاعة الدرس ، خلال الأيام التالية ، تحت إشراف المعلم . كانوا يذهبون إلى مُراقب أحباس القرويين ليتسلموا الثريات والمصابيح فيملؤونها زيتاً ويعلقونها في السقف . وكان التلاميذ يأتون من بيوتهم ، ليلة العيد ، باللحافات والزرابي فتتحول قاعة الدرس إلى بهو . وبعد صلاة المغرب ، توقد المصابيح ، ويحضر الضيوف ، ويقدم الشاي ، ويُقضى الليل هكذا[9] . يقال إن كل هذه الأضواء تسطع تخليداً لذكرى الشمعة التي أوقدت عند رأس النبي وهو في الاحتضار . ومن جهة أخرى ، كانت توقد أيضاً في عدة بيوت قناديل ذكرى الطهارة ؛ كما كان يخلّدُ ذكرى الرسول قصاصون (مداحة) يروون حكاياتٍ متعلقة به ، أحدهم يقيم أمام سيدي فرج ، والآخر أمام دكان يسمى حوينت النبي (دكان النبي الصغير)[10] .

هل كان استعمال النور هذا من أصل إسلامي محض ، كما تريده الرواية التقليدية ؟ إننا لنتردد في تأكيد ذلك عندما نعلم أن الأطفال ، ليلة العيد

(9) انظر الزغاري ، المسيد (الكتاب) ، ص. 204 .

(10) كان هذا الدكان ، حسب سلوة الانفاس (جزء 1 ،ص. 221) لحلاق رأى النبي محمداً في المنام . ويوجد هذا الدكان في أسفل زقاق الحجر ، مواجهاً لمدخل درب الدرماني .

مساء ، كانوا يشعلون نيران المباهج في الأزقة ويقفزون فوقها[11] ، وأن النساء كن يوقدن على السطوح نيراناً من التبن أو من بقايا الحطب .

وهناك عادات أخرى كانت تزيد أيضاً في هذا الشعور بتأثير العوائد الغريبة عن الإسلام . كان أطفال الكتاب القرآني ، عقب الليلة المضيئة التي وصفناها منذ قليل ، يحفظون درساً قصيراً لتكون بداية السنة جيدة ؛ كما كان الصناع يذهبون إلى معاملهم ، والتجار إلى دكاكينهم ، ليكون العام مزدهراً . وفي البيوت عند مطلع الفجر ، كانت تفتح جميع الحقائب ، والصناديق ، والخزائن ، والأبواب ، حتى ينشر الله بركته بدون عائق . وتعطى الزكاة للمساكين تذكيراً بالمال الذي أعطي للفقراء في جنازة النبي ، ولكن كذلك حتى لا ينقص أي شيء العام كله . فمن العسير ألا تظهر في كل هذه الأعمال آثار السحر السري(*) .

بالإضافة إلى أن عاشوراء كانت أيضاً عيد تجديد : تُشترى فيها ثياب جديدة ، ويحلق الرجال رؤوسهم ، ويقصون أظفارهم . وتؤكد الرواية التقليدية أن ماء بئر زمزم يأتي بمعجزة ، ليغذي يوم عاشوراء العيون ، والسقايات ، والحمامات العمومية[12] ، وكل من اغتسل بهذا الماء تيقن من أنه لن يمرض العام كله . كما أنهم كانوا يصومون أيضاً بوصية من الرسول - حسب ما قيل - للنجاة من الموت خلال السنة الجديدة .

وأخيراً ، فإن بعض العادات كانت تظهر بجلاء أنها غريبة عن الإسلام . فحوالي المساء ، وخاصة في العائلات الموسرة ، كانت النساء يصعدن إلى السطوح ثم يغنين أغنية للاّ متانة[13] تحت إيقاع الآلات حول شعلة من نار .

---

(11) ڤيستيرمارك ، بقايا ، ص. 179 .

(*) يخلط المؤلف بين العبادات الثابتة في الإسلام كالزكاة ، وبين العادات العابرة التي لا أصل لها وتختلف من مكان إلى آخر ، وسيتكرر مثل هذا الخلط دون أن نعلق عليه لظهوره .

(12) يسجل نفس الاعتقاد في مكان آخر بنضرومة مثلاً .

(13) يعطي بيارني (إيثنوگرافيا ، ص. 146) عن هذه الأغنية روايتين ، إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط .

ومن جهة أخرى كانت العادة جارية ، في عدة عائلات ، أن يُلبسوا مكنسة جديدة حِليةً جميلة ويجلسوهـا على كرسي كشخص جالس ، محتفلين هكذا بزفاف المكنسة التي يسمونها بهذه المناسبة « أبليسة »(14) .

= تذكر سلوة الانفاس (جزء 1 ، ص 212) امرأة تدعى للاّ مـنانة المجذوبية ، التي توفيت في بداية القرن الثالث عشر للهجرة (آخر القرن الثامن عشر) ودفنت في حي زقاق الرمان . لا يعطي المؤلف أي تفصيل عن حياتها ولا يذكر هل كانت لها أية علاقة مع غناء عاشوراء. يشير أوبان (المرجع المذكور ، ص. 90) إلى أن مدينة العرائش كانت تحت ولاية امرأة تدعى للاّ منانة ، دون أي بيان آخر .

وحسب الرواية المحلية ، كان لأمر يتعلق بولية الغرب ، لكن هذا كل ما تعرف عنها الرواية . وها هو نص الأغنية كما هي معروفة بفاس ، وتتضمن عناصر من أغنية طنجة وأخرى من أغنية الرباط .

آلــلاّ مــنــانــة
أكبيــرة المصــرانــة
آجي تكـوني بنتي
نـدير لـك عبـانـة
من الخوخ والرمانة
الســاقيـة تسقينـا
والـواد مـا يـدينـا
بـابا علي خَـرُّوبـة
شـاشيتُ مثقـوبــة
دارْ لغـرابْ يْقاقي
قال له بابا لاين ماشي؟
ـ ماشي عـند القاضي
ـ فايْنْ هو القاضي ؟
ـ القاضي مْشى يتغذى
ـ الله يعطيه الغدّة

لا أدري هل يجب إعارة هذه الأغنية أي معنى من المعاني ؛ لعلها تروق النساء فقط ، لأن كلماتها تناسب تماماً إيقاع الطبلة .

(14) لقد استفدتِ كثيراً من هذه المعلومات التي تفضل م. ل. برونو فاطلعني على مذكرات غير منشورة حول هذا الموضوع .

وأخيراً كان جنود الجيش الملكي ، ولا سيما المنتمين إلى الحوز ، ينظمون بمناسبة عاشوراء استعراضاً هزلياً يدعى « بساط » باسم الدار - اللعبة المصنوعة من الكاغد المقوى ، تركب على إطار من خشب ، يطوفون بها على رأس موكبهم[15] . كان بعضهم يحملون فوانيس ، وآخرون يعزفون ، بينما بعضهم مقنّعون ، وآخرون متنكرون في صورة حيوانات ، وقضاة ، وزنوج ، وبَغيات ، ويهود ، ويهوديات ، ونصارى ، وجن ؛ وكان يذهب بعضهم إلى صنع صورة هزلية لباخرة بخارية . وكان الاستعراض يجري بدار المخزن ليلة عاشوراء ، وفي الأيام التالية عند الأعيان في مقابل هدايا بطبيعة الحال . ويتخلل الموكب تمثيليات قصيرة متنوعة ، لا يراعى فيها اليهود ، ولا النصارى ، ولا حتى الأعيان وذوو السلطة ، والكل بكلام خليع جداً .

وفضلاً عن كل العوائد والاحتفالات التي مر وصفها ، كان الفاسيون يقضون صباح يوم عاشوراء في الزيارات لسنة سعيدة ، وفي تجوال الأطفال في أجمل ثيابهم .

كان لا بد من الإلحاح على عيد عاشوراء ، لأنه توجد بها نقطة اتصال بين الْبِرّ الإسلامي ، كما هو موجود في العالم الإسلامي بأسره[16] ، وبين اعتقاد شعبي مغربي محض ، أو على الأقل شمالي - إفريقي ، مؤلّف من عناصر دخيلة ، ربما كانت سابقة للإسلام . فتارة يوصل بينها حسب الاستطاعة وبدون دلائل يقينية ، بالحديث النبوي ، وتارة أخرى ، كما في حالات احتفال التنكر العسكري أو عرس المكنسة ، تستمر بدون صبغة ، ولا لباس إسلامي .

---

(15) انظر عن هذا العرض ، فيستيرمارك ، بقايا ، ص. 186 وما بعدها ؛ أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 288 ، وإ . لاووست ، نيران الابتهاج ص. 255-256 ، الذي ينقل صوراً فتوغرافية للدور - اللعبات (اللوحات ، 1 ,2 ,3) .

(16) بالرغم على أنها لم يسنّها النبي ، فإن عاشوراء يُحتفى بها في العالم الإسلامي كله ، وفي الأوساط الشيعية أكثر . (انظر ماسينيون ، حولية العالم الإسلامي ، ص. 17-19) .

ولجميع هذه الأعياد الدينية تأثيرها طبعاً في الحياة الاجتماعية : فهي مناسبات لولائم ، واستقبالات ، وزيارات ، وجولات في الأزقة ، ولأفراح عمومية بالنسبة للأطفال . فكان مقاولون ينصبون في ساحة بـوجلود أو بالساحات العارية في باب فتوح لعبة خيل من الخشب ، تدور عمودياً (ناعورة) كان صبيان فاس يتدربون بواسطتها وفي مقابل مبلغ زهيد ، على مناهج المنطاد[17] .

(17) انظر لاووست ، المقال المذكور ، اللوحتان 9 و 10 . وفي الحالة الراهنة ، تكاد لعبات خيل أكثر حداثة وتنوعاً تعوّض الناعورة العتيقة .

3/8

الفصل الثالث

إجلال الأولياء

إننا نعلم كم هو منتشر بإفريقيا الشمالية إجلال الأولياء ، وليست فاس شاذة عن القاعدة ، إذ الصلحاء بها مبجّلون في جميع الأوساط . وأحسن دليل على ذلك المؤلفات العديدة في مناقب الصالحين المزدهرة فيها . غير أنه تجدر الإشارة إلى أن إجلال الأولياء لم يعرف دائماً الصيت الذي عرفه في أوائل القرن العشرين : فقد ازداد أهمية من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر ، وعلى الأقل في المدن . لكن ينبغي الاعتقاد بأنه كان يجد أرضية خصبة بالأخص ، إذ أنه تكاثر بكيفية مدهشة ، وثبت إلى أيامنا هذه بدون وهن .

المولى إدريس : ـ يوجد المولى ادريس على رأس الأولياء المعظمين بفاس دون منازع ، وقد أتيحت لي الفرصة مراراً متعددة خلال هذه الدراسة[1] لبيان علامات الاحترام التي كان المولى إدريس موضوعاً لها . غير أن هذا الاحترام لم يكن قديم العهد جداً . يبين سالمون في مقال نشر **بالوثائق المغربية**[2] أن أمراء زناتة ، الذين خلفوا الأدارسة جهدوا في محو جميع ذكريات أسلافهم ، وحذفوا كل الاحتفالات المقامة حول ضريح إدريس الثاني ، حتى إنهم تمكنوا ـ على ما يبدو ـ من أن يجعلوا الناس ينسونهم .

(1) انظر بالأخص الكتاب 5 ، الفصل 2 .

(2) إجلال مولاي إدريس ، في وثائق مغربية ، جزء 3 .

لكن في عام 1437/841 ، عندما كان يهيأ لترميم جامع الشرفاء ، كُشف عن قبر الولي وكذا عن جثمانه ، فإذا به لم يتغير إطلاقاً[3] . أحيت حيناً هذه الكرامة الإجلال المتروك ، وقد وسع السعديون المقبرة الخاصة (الروضة) التي توجد فيها الجثة الشهيرة . ومن 1130 إلى 1717/1132 - 1719 ، عمل الفاسيون بالمجان لتشييد القبة الحالية ، بإيعاز من السلطان مولاي إسماعيل[4] . وأخيراً أمر السلطان مولاي عبد الرحمان ، عام 1824/1240 ، ببناء الجامع الجديد الواقع حالياً شرق القبة .

لم يزل هذا الضريح يجلب لاسكان فاس الذين يقصدونه في شتى المناسبات فحسب[5] ، ولكن تهوي إليه أيضاً أفئدة القبائل المجاورة وحتى البعيدة ، بحيث لا يمكنهم المرور بفاس دون أن يؤدوا فروض الولاء للمولى إدريس . ففي كل وقت من النهار يُملأ بجمهور من الرجال والنساء من جميع الطبقات يزورونه للتوسل ببركة الصالح في شتى الظروف . يدخل جلهم إلى الضريح للاقتراب من القبر ، لكن منهم من يكتفون ، في توسلهم بلمس الفتحة النحاسية حيث توضع من خارج الهدايا في صندوق مولاي إدريس. وذلك كاف للاستفادة من بركة الصالح . وقبر مولاي إدريس مكان يحج إليه الناس حسب مراسم مقررة [6] .

لا يُكتَفى بطلب الإعانة من ولي فاس الصالح ، بل تُطلب منه أيضاً

---

(3) انظر محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار العاطرة، المطبوع على الحجر بفاس عام1314هـ.

(4) يحكى حتى أن الملك أمر بإخراج الجثمان من القبر ليتحقق شخصياً من صحته . فوجده كما كان عليه تماماً قبل ثلاثة قرون ؛ بحيث إنه ، عندما ضغط بإبهامه على خد الصالح ، شاهد به نفس العلامة التي تشاهد على جسم حي . إني مدين بهذه المعلومة وغيرها كثير مما يلي لتلميذي السابق وصديقي الشريف السيد محمد بن إدريس الإدريسي ، حفيد مولاي إدريس .

ملاحظة : كذا نقل المؤلف هذه الحكاية دون تعليق . والكلّ يعلم أن المولى إدريس توفي عام 213 هـ أي أنه كان قد مرّ على وفاته ستة قرون لا ثلاثة ! (مترجم) .

(5) انظر ما سبق ، الكتاب 5الفصل 2 ؛ والكتاب 7، الفصل 3 و 4 ؛ والكتاب 8 ، الفصل 1 .

(6) وصف سالمون هذه الشعائر في مقال بعنوان : **إجلال المولى إدريس** ، ص. 421- 427 .

الحماية ، لأن حق الالتجاء منوط بهذا الضريح الموقر[7] ؛ نحن لا نعرف التاريخ الذي أحدث فيه ، إلا أنه ينتمي ـ على ما يبدو ـ إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر ، على عهد السعديين أو العلويين . وعلى كل حال ، فإن الرواية تنسب إلى مولاي إسماعيل تحديد المنطقة المقدسة (الحرم) ، وهو الذي أمر بترصيف الأزقة داخل هذا النطاق ووضع علامات للحدود بجذوع من خشب تسدّ المسالك في مستوى قامة الإنسان .

ويتضمن الحرم الإدريسي على نحو ما وضع عليه ، فضلاً عن الضريح ذاته ، عدة أزقة تجارية ومبانٍ مختلفة هذا بيانها[8] :

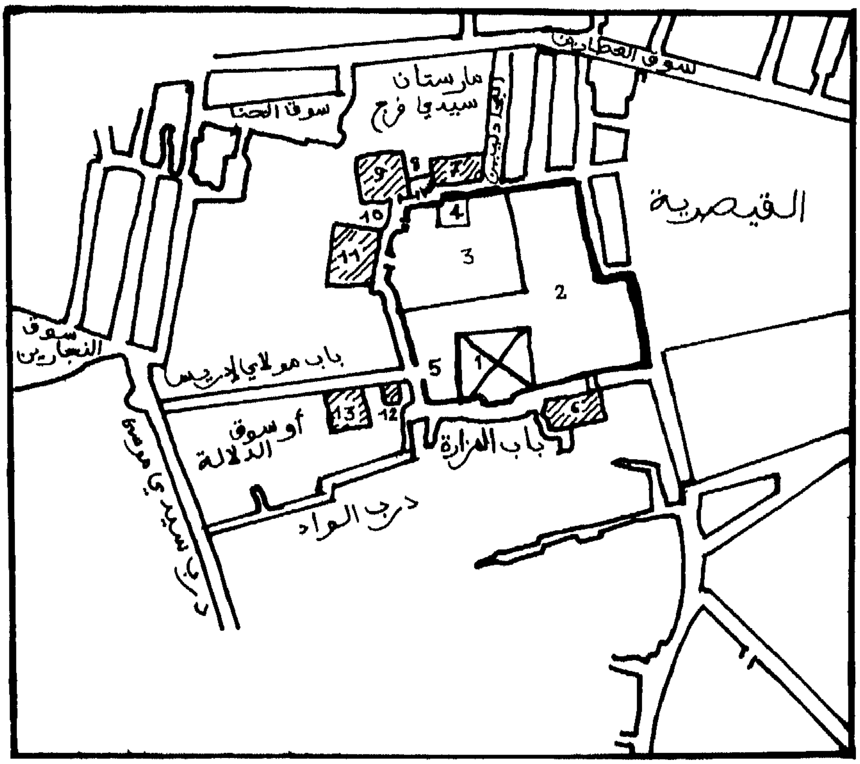
1 ـ دار (بلّارج) المفضية إلى سوق الدلالة (سوق البيع بالمزاد) المسماة أيضاً باب مولاي إدريس ، التي سميت هكذا لأنها شيدت بثمـن بيع قلادة من الجوهر حملها لقلاق في منقاره . وهذه الدار ملك لأحباس مولاي إدريس . وبجوارها قبر للاّ كـنزة . تعتقد المخيلة الشعبية بأنها أم الولي الصالح ، لكن المثقفين يؤكدون بأن للاّ كـنزة هذه إنما هي حفيدة للولي ، كانت تملك دكاناً بهذا المكان وحصلت على الإذن بإقبارها فيه . وفي هذا القبر صندوق يمكن للمؤمنين أن يضعوا فيه هدايا توزع على أعقاب هذه المرأة الصالحة .

2 ـ دار القيطون أو دار الزاوية ، المفضية إلى درب الدويرة ، الواقعة ـ على ما يقال ـ في نفس المكان الذي نصب فيه المولى إدريس خباءه ، عندما أقام في العدوة الحالية للقرويين . وتستعمل هذه الدار كملجإ للنساء اللائي يحتمين بالولي .

---

(7) كان حق الالتجاء هذا المنوط ببعض الأضرحة جارياً به العمل بالمغرب ، وكان يُقره عادة ظهير شريف . وتتمتع عدة أضرحة بفاس بهذه المزية ، وهي زوايا سيدي أحمد الشاوي ، وسيدي عبد القادر الفاسي ، وسيدي أحمد التيجاني ، وسيدي علي بو غالب ، ومولاي أحمد الصقلي (رسالة من معتمدنا القنصلي بفاس بتاريخ 15 رجب 23/1311 يناير 1894) ؛ انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 291 -292 .

(8) انظر الرسم رقم 35 .



الرسم 35

الحرم الإدريسي

(حسب رسم إعدادي للشريف سيدي محمد بن إدريس الإدريسي)

1 . ضريح الولي الصالح 2. قاعة الصلاة (الجامع الجديد) 3. ساحة 4. الصومعة 5. باب التومية 6. دار الخطيب 7. المجزرة 8. دار الوضوء 9. جامع المقلقين 10.. باب الطباليين 11 . دار القيطون 12. قبر للاكنزة 13. دار البلارج درب الدويرة هو الزنقة المحيطة بالحرم . ومحيط الحرم مُعلّم بخط غليظ وكذلك الجذوع التي تعترض طرق مدخل الحرم .

3 ـ وعلى بعد قليل من هناك ، في نفس الزقاق ، يوجد جامع الْمُقَلّقِين[9] الذي يُستعمل كملجإ للمحتمين بالحرم . يسدل بعضهم ستائر بين السواري ليتخذوا شبه غرفة ، ويؤتى لمن هم أكثر غنى باللحافات والأغطية ، وينام الآخرون على حصر المسجد .

4 ـ ومجزرة ، مفصولة عن هذا المسجد بكنيف ، تذبح بها الحيوانات المقدمة إلى مولاي إدريس . وكانت تصلح أيضاً كملجإ لليهود الذين كانوا يحتمون بالولي . كانوا يدخلون إلى الحرم من سوق العطارين القريب جداً[10] . ولم يكن يبقى لهم إلا مسافة قصيرة للالتحاق بملجئهم ، اذ كان لا بد لهم من اتخاذ ما أمكنهم من الحذر في هذا الحرم الممنوع مبدئياً على غير المسلمين[11] .

5 ـ وقبالة صندوق المولى إدريس ، دار الخطيب الموصولة بالضريح بممر هوائي يمكن الخطيب من الذهاب من منزله مباشرة إلى الزاوية .

فالحرم المقام حول ضريح مولاي إدريس يجاوز إذن بكثير حدود الزاوية بالذات ليمتد إلى جزء من الحي[12] وقد أُعد هكذا لاستقبال عدد كبير من اللاجئين ، وهو بالتالي بقدر الولي الكبير الذي هو مدين له بوجوده . يقتبل كل الذين يستطيعون الوصول إليه ، مهما كان أصلهم ومهما كانت الدواعي التي

---

(9) سمي هكذا لأن الصلاة تقام به عند أول أذان .

(10) انظر الرسم رقم 35 .

(11) ألغي هذا المنع بالنسبة للنصارى منذ إقامة الحماية ، وأُقِرّ مبدئياً بالنسبة للإسرائيليين المغاربة .

(12) كان قد ترتب عن ذلك واجبات خاصة على المستعملين لهذه الأماكن ، كانوا كلهم ملزمين بالاحترام التام لأحكام الشريعة الإسلامية : يمنع عليهم التدخين ، والنطق بكلمات غير لائقة ، وبيع أو شراء أشياء محرمة كالتماثيل ، وإلقاء نظرات شهوانية على النساء والأطفال الصغار ، ومكالمة النساء الأجنبيات .

ولم تكن تحترم دائماً هذه القواعد ، إذ كان درب الواد ، وهو درب يفضي إلى قرب الباب الرئيسي للضريح (باب التومية) ، معروفاً بكونه أحد محلات اجتماع المهربين وشاربي الكيف .

دفعتهم : من لصوص ، وموظفين مخلين بوظيفتهم ، ولاجئين سياسيين[13] ، وعبيد آبقين ، ومدينين عاجزين عن سداد دينهم ، ونساء بائسات في منازلهن ، وحتى القتلة[14] ؛ فما داموا قد اجتازوا الحدود المحرمة ولم يخرجوا عنها فإنه يتعذر انتهاك أشخاصهم ، ولا أحد ، حتى السلطان نفسه ، يستطيع أن يخرجهم منه بالقوة[15] . كان يصل عددهم قديماً حتى أربعين مجتمعين ، بينما يكون أحياناً ثلاثة أو أربعة فحسب ، ونحو العشرة في المعدل . ونادرة هي الأيام التي لم يكن يوجد فيها هناك أي لاجىء[16] .

يستقبل الشرفاء الأدارسة اللاجئين ، لكنهم لا يعولونهم ، ولهذا كان عليهم أن يطلبوا من الخارج قوتهم وكل ما يحتاجون إليه . ولم يكن ذلك بالشيء العسير ، إذ كان لأي واحد الحرية في الوصول إليهم . ولا يستفيدون من هذه الحرية ليُحمل اليهم ما هو ضروري فحسب ، ولكن أيضاً للتفاوض عن طريق وسيط مع من يتابعونهم إن كانت هناك إمكانية للتصالح . ولا مُخاطرة في هذه المفاوضات بالكشف عن مخبإ اللاجىء ، لأن مقدم مولاي إدريس مضطر إلى إطلاع الخصم ، سواء كان المخزن أو الخواص ، على وجود ضيفه الجديد ، وذلك في مقابل الحماية التي يقوم بها . وعليه، تكاد تكون منافذ الحرم كلها محروسة دائماً في حالة ما إذا حاول أحد اللاجئين الفرار ، وهو أمر غير محتمل .

---

(13) هكذا فإن أخا السلطان مولاي الحسن نفسه ، وهو المولى الحسين عندما فشلت مؤامرته ضد أخيه ، التجأ إلى ضريح مولاي إدريس ومكث فيه سنين عديدة إلى أن وقع العفو عنه .

(14) يضاف إلى هذه القائمة ، منذ الحماية ، الهاربون من الجندية ومُهَرِّبو الكيف .

(15) لا تعرف إلا حالة استثنائية لهذه القاعدة ، وهي أن مولاي عبد العزيز ، الذي ضُغط عليه بإلحاح من لدن ممثلي الدول الأوروبية ، أمر بأن يُخرج من الحرم قاتل المبشر كوبير (انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2) ويُعدم . ومع ذلك فقد لجأ إلى حيلة ، لأنه لم يجرؤ على اختطافه عنوة (انظر ما يأتي) .

(16) ففي شهر نونبر 1944 مثلاً ، كان نحو عشرة أشخاص يستفيدون من حق الالتجاء : ثلاثة هاربين من الجندية ، وقاتل ، وسارق ، ومهرب كيف ، وموقد حريق ، وثلاث أو أربع نساء تخاصمن مع أزواجهن أو عائلاتهن .

وقد يكون أحياناً من اللازم ، مع ذلك ، أن يغادر هذا اللاجئ أو ذاك ملجأه ، لبضع ساعات على الأقل ، إما لكون حالة المفاوضات تتطلب اتفاقاً مباشراً ، وإما لكون المسطرة القضائية تفرض استنطاقاً أو مقابلة . فابتكر الشرفاء إذن وسيلةً لبسط حمايتهم مؤقتاً إلى ما وراء الحرم : يُسلِّمون لمن يُستخرجُ لوحةً قرآنية قيل إنها كانت في القديم للمولى إدريس ، يضمها اللاّجئ تحت ثيابه ويذهب ، مصحوباً بالمقدم نفسه أو بأحد مستخدمي الضريح . وإذا كان على عدد من اللاجئين أن يخرجوا في آن واحد ، فإن المقدم يصحبهم ، وهو يحمل اللوحة المقدسة[17] . وكانت المفاوضات تنجح على العموم فيطلق سراح اللاّجئ بعد أيام قلائل .

لم يكن إجلال المولى إدريس محدوداً في الضريح ذاته ، بل يمكن أن يُشاهد في عدة نقط بالمدينة ، وخاصة في الطالعة الكبيرة ، وفي عالية قنطرة بوروس ، والزقاق الرئيسي لحي الكدّان كُوىً صغيرة داخل حائط يحفظها شباك ، تسمى مزارة مولاي إدريس . وهكذا فإن الذين لا يسعهم الوقت للذهاب إلى الضريح يمكنهم من ذلك أن يُعَبِّروا هناك عن ولائهم للولي الكبير .

لا حاجة للعودة إلى صلحاء فاس الآخرين الذين هم كثيرون جداً وسبق أن أعطيت عنهم معلومات في عدة مقاطع من هذه الدراسة[18] . غير أنه تجدر الإشارة إلى أن جل هؤلاء الأشخاص المعظمين لا ينتمون إلى ما وراء القرن الخامس عشر الميلادي ، أي العهد الذي انتشر فيه إجلال الصلحاء انتشاراً كبيراً في المغرب كله .

---

(17) هذه هي الطريقة التي استعملها مولاي عبد العزيز لإلقاء القبض على قاتل كُوبير . أقنعه بالخروج تحت حماية لوحة مولاي إدريس . وصحبه بعض الجنود إلى القصر كأنه لم يكن شيء ، لكن ، لمّا وصل إلى ساحة دار المخزن ، نُزعت منه اللوحة : فبطل السحر واستطاعوا أن يقبضوا عليه . انظر سالمون ، حق الالتجاء للقوانين ، في وثائق مغربية ، جزء 3 ، ص. 146 .

(18) انظر بالأخص ، الكتاب 5 ، والكتاب 8 ، هنا وهناك .

يجب ألاّ نعتقد بأن الفاسيين يقتصر تعظيمهم على صلحاء فاس ، بل إنهم يساهمون برغبة في المواسم المنظمة على شرف صلحاء المناطق المجاورة . وهكذا ، ففي شهر ماي يصعدون جماعات منهم إلى ضريح سيدي أحمد البرنوصي ، الجاثم على ربوة بين زلاغ وتغات . يقام الموسم في المنحدرات الصلبة للسفح الشمالي ؛ وفي وسط شجيرات البطم المثوية ، يأتي إليه جبالة لإقامة مسابقتهم وهم راجلون ؛ ولا يخلو من التجار المتنقلين ، ولا من العرافين ونشالي المعاطف ؛ وخلال يومين وليلة يقضون أوقاتاً في التسلية تحت حماية الولي الصالح . كما أن موسمي سيدي حرازم ومولاي إدريس زرهون يجتذبان الفاسيين أيضاً .

ولا يكتفي التدين الشعبي،حتى بفاس، بتعظيم الأولياء ، بل يلجأ إلى عوائد طبيعية بلا منازع ولا علاقة لها بالإسلام . . وفضلاً عن الأهمية المعارة للجن ، والعفاريت ، والقوات الخفية ، التي ليست في تناقض صريح مع السنة الإسلامية ، فإن بعض الأشجار موضوع إجلال حقيقي . وأحسن مثال لذلك الشجرة المقدسة المجاورة لضريح سيدي ميمون الفخار بحي الفخارين . وهذا الرجل الصالح مدفون في قبر بسيط يكاد يكون مهجوراً ، وتنمو فوقه شجرة قوية أغصانها مكسوة بخيوط من الصوف وخصلات من الشعر وأشياء خليطة يعلقها عليها السكان المجاورون . هل الشجرة هي التي اجتذبت الصالح ، أم أنها صرفت لفائدتها شيئاً فشيئاً الإجلال الذي كان الفخار الصالح موضوعه ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب عن ذلك ، لكنه من اليقين أن للشجرة في الساعة الراهنة أتباعاً أكثر عدد من أتباع الصالح[19] . ويمكن ذكر أمثلة أخرى لا لبس فيها ولا غموض داخل أسوار فاس ، مع هذا التحديد ، وهو أنها توجد فقط في الأحياء الشبه القروية بأرباض المدينة .

---

(19) لقد اختفت الشجرة منذ أن كتبت هذه الأسطر : وقد تمكنت من معاينة الحدث في شهر يونيو 1948 . هل كان ذلك ناتجاً عن موت طبيعي ، أم عن انتصار للسنة على الاعتقاد الباطل ، أم نتيجة أشغال الطرقات والبناء المنجزة في هذا الحي ؟ لا أستطيع أن أوضح ذلك .

4/8

الفصل الرابع

الطرق الصوفية

إن الطرق الصوفية ، سواء بفاس أو في سائر أنحاء المغرب وإفريقيا الشمالية كلها ، كانت منتشرة جداً . فكان بهذه المدينة ـ حسب إحصاء أُنجز سنة 1939-235 .16 طرقياً ، بالنسبة لعدد السكان المسلمين الذين قُدروا آنذاك بـ 125.000 نسمة[1] . إن الإحصاءات ، في هذا الموضوع الدقيق ، ليس لها سوى قيمة بيانية ، فينبغي إذن ألّا يعار كبير أهمية لهذا الرقم ؛ لكنه تجب الإشارة إلى أن النسبة المئوية للطرق باعتبار مجموع السكان أكثر هنا من أية مدينة أخرى بالمملكة الشريفة .

من المعلوم أن الطرق كإجلال الصلحاء والشرفاء ، اتسعت بالأخص منذ القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، في الوقت الذي اتخذ فيه الإسلام بالمغرب المظهر الذي هو عليه الآن[2] .

إنها جمعيات لأناس أتقياء يجتمعون ليقوموا ببعض الأذكار التي أوصى المتصوف الكبير المسلم بأنها كفيلة بتسهيل تحصيل معرفة الحقائق الإلهية

(1) ج. سپيلمان ، دراسة غير منشورة حول طرق المغرب وزواياه .

(2) انظر عن الطرق الصوفية المؤلفات الكلاسيكية لديبون وكبّولاني ؛ ورنّ ؛ وميشو . بلّير ؛ وقد ساعدني الحظ من جهة أخرى على التمكن من تصفح الدراسة غير المنشورة لج . سپيلمان : حول طرق المغرب وزواياه .

وفتح طريق النجاة . وتميزت هذه الجمعيات شيئاً فشيئاً بعضها عن البعض ، بعد أن كانت مشتركة الأصل ، سواء من حيث شعائرها أو من حيث توظيفها . فمنها ما تُخصص الحصة الكبرى للتلاوة والتأمل، بينما توصي الأخرى بالمواسم والتقشف العام . تأخذ الأولى عادة أتباعها من بين المثقفين والبورجوازيين ، والأخرى من بين الطبقات الشعبية . وأخيراً ، فقد تفتحت بعضها هنا ، وبعضها هناك : فالطرق التي تتمتع بوضعية متفوقة في الجزائر ، كالطريقة الرحمانية ، مجهولةفي الواقع بالمغرب ؛ وحتى في المغرب ، لا تتمتع مختلف الطوائف بنفس الحظوة التي تتمتع بها في فاس أو مراكش ، أو الريف أو تادلا . كما نعلم أن بعضها على الأقل لا ينظر إليها المسلمون الخُلّص بعين الرضى . فقد نُشر للسلطان مولاي سليمان أمرٌ ضد الطرق الشعبية والمواسم[3] . وبالرغم على هذا الموقف للرئيس الديني للمملكة المؤيد من طرف العلماء ، فإن جميع الطرق احتفظت بحيوية عظيمة جداً ، وكانت تعرف دائماً الحظوة الشعبية في أوائل القرن العشرين .

كانت الطرق الأكثر عدداً بفاس هي : التيجانية[4] ، والدرقاوية ، والوزانية ، والعيساوية ، والحمدوشية ، والدغوغية ، والكتانية ، وأخيراً طريقة كْناوة الزنجية[5] .

---

(3) قد اتخذ سيدي محمد ، الملك الحالي ، نفس الموقف فمنع التظاهرات العمومية للطرق الشعبية (1934) ، واتخذ مؤخراً (في صيف 1946) ، قراراً بمراقبة جميع الطرق بالمغرب .

(4) توفي سيدي أحمد التيجاني بفاس وأقبر بها .

(5) يعطي النائب القنصلي لفرنسا بفاس ، في تقريره الإحصائي والتجاري بتاريخ 17 أبريل 1898 ، قائمة بالطرق الصوفية وعدد زواياها المحلية ، هكذا : التهامية (وزانيين : 4 زوايا ، عيساوة : 18 ، الدغوغيين : 2 ، الصقليين : 2 ، التيجانيين : 1 ، اليوسفيين : 1 ، الناالوتيين : 1 ، الجزوليين : 1، كناوة : 4 ، هداوة : 1 ، القاسميين : 1 .
لا يجب أن تعار كبير أهمية لعدد الزوايا المحلية ، لأنه لا يطابق حتماً عدد الأتباع . وهكذا ، فإن زوايا عيساوة لم يكن في كل واحدة منها أكثر من خمسين مريداً ، بينما كانت الزاوية التيجانية تضم عدة مئات .

وكانت نخبة فاس ، من علماء الجامعة ، وكبار موظفي المخزن ، والتجار تنضمُّ باختيار إلى مجموعات التيجانيين ، ودرقاوة ، والكتانيين ، والوزانيين، وبكيفية استطرادية الصقليين والناصريين .

وفي اوائل القرن العشرين ، كانت الطريقة التي يُقبل الناس عليها أكثر من غيرها هي الطريقة التيجانية[6] ، مع كون الزاوية الأم بعين ماضي بالجزائر ، وأن رئيس الطريقة ، سنة 1903 ، كان جزائرياً . ويقال إن عدداً من أقرباء الملك أو المقربين إليه انضموا إليها ؛ وكذلك علماء مشهورون ، مثل الحاج محمد كَنون ، وأعضاء هامون من المخزن ، ولا سيما مساعدي وزير الحرب الكباص[7] . فقد سبق لهذه الطريقة أن توسعت في أوائل القرن العشرين ، إذ كانت تضم فرعين محليين ، سنة 1907 ، بدلاً من فرع واحد ، سنة 1898 .

وكان لطريقة درقاوة[8] صبغة صوفية واضحة[9] جداً . فكانت تجلب إليها

---

(6) أسست عام 1781/1196 -82 على يد سيدي أحمد التيجاني .

(7) تقرير سنة 1907 (وثائق بعثة فرنسا بطنجة) .

(8) أسست في آخر القرن الثامن عشر على يد مولاي العربي الدرقاوي المدفون بجبل العلم ، شمال شرقي وزان .

(9) انظر في هذا الصدد مقدمة ديرمينغم لخمرية ابن الفارض . يذكر المؤلف الرسالة الآتية ألتي يصف فيها شاب فاسي يعرفه اجتماعاً لدرقاوة (ص. 64 ، هامش 1) :

« . . . ما زلت أرى الزاوية التي كنت أتردد إليها في زقاق صغير بحي البليدة ، منعزل تماماً وهادئ . كنت أقصدها كل يوم جمعة حوالي الساعة الرابعة مساء . كان الفقراء يأتون الواحد تلو الآخر ، ويضعون نعالهم في ركن من الأركان ، ثم يتقدمون ببطء وسكوت ، فينزعون غطاء رأسهم ، وَيَشُدُّون على أيدي إخوانهم بكيفية خاصة ، وينحنون .

« وعندما يكون عدد المريدين هاماً إلى حد مّا ، يتناول المقدم رسالة القشري (« الكتاب الأم ») كما تسمى أو مؤلفا آخر من نفس النوع ، فيقرأ بعض المقاطع بصوت رخيم جداً وهو يشرحها . يلقي المريدون بعض الأسئلة ويتناقشون مع المقدم أو فيما بينهم ، لكن بكثير من النظام والهدوء . وعندما تكون الروح قد غذيت بهذه القراءة وهذه المناقشات ، يشكلون دائرة ويرتجل الذكر على إيقاع إنشاد جميل يحتاط المنشد ألاّ ينشد منذ البداية أبيات ابن الفارض، سلطان العاشقين، خشية إثارة نشوة المريدين بكيفية مفاجئة وبإفراط. وتنشد أبيات =

أقواماً من جميع المستويات المتعطشين إلى الاتحاد الروحي مع الألوهية.
ومن الممكن أن تعتبر الفروع المحلية كأنشط المراكز لحياة فاس الروحية.
كان أتباع الطريقة يحجون إلى ضريح مؤسسها كل عام، يذهبون راجلين

= شعراء آخرين، كالمقدسي، والششتري، والبغدادي، والحراق، بوتيرة جد بطيئة. يقوم الحاضرون بحركة ذهاب وإياب من الأمام إلى الخلف، وهم يصاحبون الإنشاد مرددين: لا إله إلا الله. تحمرّ الخدود، وتطبق عيون البعض، وتجحظ بالعكس عيون الآخرين. يزداد الإيقاع، فينهض الجميع وقفة واحدة وتختصر عبارة «لا إله إلا اللّه» مجرد «الله».

«الكل وقوف الآن يستمعون إلى أبيات ابن الفارض، لكن فقط إلى التي لها صبغة صوفية قليلة البروز، يهيج الفقراء ويأخذون في الرقص. إذ ذاك يَتخلّصُ المغني بصفة غير محسوسة إلى قصائد لسلطان العاشقين ذات تصوف أكثر تعمقاً.

«تنطلق «هو» «هو» حادة من كل الجهات. وليس من النادر أن يشاهد مُسمّع، وقد استولى عليه النَّفَس الصوفي الذي ينشره بيت من أبيات ابن الفارض، وأخذه الحال، فشرع في الرقص. والفقراء الجالسون خارج الدائرة الذين لا يرقصون لسبب من الأسباب، يصاحبون إيقاع الذكر بحركات معتدلة. وغالباً ما يتفق لهم، وقد ثملوا بمعنى بيت من الأبيات، أن يقفزوا إذ ذاك فجأة، وهم يطلقون صرخة فرح، ويشاركون في الرقص.

«يتزايد الهيجان، وينصّب العرق على الأبدان، وتنحل العمائم وتنقلب الرؤوس، وتتوجه الأنظار المذعورة إلى السماء، وقد خطفتها رؤية نور لا يوصف... شيء يتعذر، بل يستحيل تفسيره.. إن خمرية ابن الفارض قد أثملت الأرواح. «هو» «هو» يُصبح النفَسُ أقوى وأسرع. كل ذلك في نظام تام متزن، ويُسيِّر الذكرَ المقدمُ أو فقير آخر موقر، في وسط دائرة.

«وإذا ما لاحظ بعض الفتور عند بعضهم، أثار هو نفسه بيتاً رائعاً لابن الفارض، متبعاً نفس الإيقاع للمغني. يُفيق الغافل ويستعيد المتعب شجاعته «هو»، «هو»... لا يسمع الآن سوى نَفَس الصدر الذي ينقص شيئاً فشيئاً. إن الخليقة الضعيفة تفنى أمامه. لم يعد المُسمّعون بعدُ يُنشدون جماعة، بل ينشدون واحداً واحداً موالاً لابن الفارض طبعاً (فمن يا ترى يملّ ابن الفارض؟). تنعش «هو»، «هو» القلوب ويسيل العرق على الوجوه وتفتح الأفواه. إذ ذاك يصيح المنشد:

«إن غاب عن مقلتي، فهو في. «هو في! هو! هو!» تعلو بسمة جميع الوجود «هو في! هو في!» هو! هوا» ذلك الفناء التام! لم يعودوا هنا. لا وجود لهم. يرعب «هو في» الجميع، حتى الذين لا يُنشدون أو يمرون صدفة بالزقاق حيث توجد الزاوية المتواضعة. تتهاوى السيقان. ويجلسون أخيراً فتنشد بعض الأبيات أيضاً، وخاصة: «آه لو كان كل ذلك يدوم لي...» يتصافحون من جديد. هم سعداء. ويشعرون بأن روحهم ازدادت خفة».

وبيدهم عصا الحاج ، وعلى رأسهم عمامة خضراء تميزهم .

كان الوزانيون أو التهاميون[10] موزعين إلى أربع زوايا محلية حسب أصلهم العرقي : أهل توات ، والفيلاليون ، والتلمسانيون. وكانوا ثلاثتهم يعقدون اجتماعاتهم بزاوية درب الشرشور (حي الشربليين) ، وأهل فاس الذين كان مركزهم زاوية سيدي قاسم بن رحمون بزقاق الحجر (سويقة ابن صافي)[11] . إن هذه المجموعات ، المكوّنة من أقوام من جميع المستويات ، لم يكونوا يستهينون بالأبهة الخارجية . وإذا زار أحد الشخصيات الرئيسية للطريقة أتباعه بفاس ، كان أعضاء الزوايا الأربع يستقبلونه خارج الأسوار بالرايات والطبول والمزامير ، فكان للموكب منظر رهيب لدى دخوله إلى المدينة[12] . وكان الحج إلى وزان كلّ سنة في الخريف . تذهب الزوايا الأربع كل على حدة في نظام لا يتغير ، وأهل توات بالمؤخرة . كانت كل واحدة منها تحمل الهدايا التقليدية : يعطي أهل فاس المال ، والنعال ، والشموع ، وعود الصبر ، والحلويات ، ومأكولات معدة سابقاً ؛ وكان التلمسانيون ، وهم في الغالب فقراء ، يحملون مبلغاً من المال لا يتعدى خمسين ريالاً ؛ ويهدي الفيلاليون قليلاً من المال ، والسميد ، والمكنسات ؛ أما أهل توات ، الذين ليس لهم غير إرادتهم الحسنة وقوة سواعدهم ، فكانوا يتولون التنظيف السنوي لمدينة وزان[13] .

وعند الكتانيين[14] كان يلتقي علماء القرويين بالتجار وبعض الصناع .

---

(10) بل كانوا يحملون اسم الطيبيين بالجزائر . كان مولاي التهامي ومولاي الطيب كلاهما يتمتع ببركة مؤسس الطريقة في القرن التاسع عشر . وقد أسس هذه الطريقة مولاي عبد الله الشريف الوزاني حوالي 1660 .

(11) ميشو ـ بليّر ، دار وزان ، ص. 38 ، هامش 1 .

(12) أوبان ، المرجع المذكور ص. 477 .

(13) نفس المرجع .

(14) أسست زاوية الكتانيين بفاس حوالي 1850 ، على يد سيدي محمد بن الكبير الكتاني ، ونظّمها حفيده الذي كان يحمل نفس الاسم حوالي 1890 .

وقد اتخذ مسيرو هذه الطريقة موقفا سياسياً واضحاً يوم أن خُلع مولاي عبد العزيز وبويع مولاي حفيظ ، فتعرضت إذ ذاك الطريقة لسخط المخزن ، ولم يكن لها بفاس النفوذ الذي كانت تؤهلها له أصولها الفاسية الصرفة .

وكان الصقليون[15] يضمون إليهم على الخصوص أعضاء أسرة المؤسس ، أي تجاراً ومثقفين .

كانت الطرق الشعبية ، كعيساوة ، وحمادشة والدغوغيين ، والقادرية ، وهدّاوة ، تجد أتباعاً خاصة من بين الصناع[16] وسكان الأحياء الدائرية. وتتميز بتنظيم اجتماعات عمومية كبرى تعقد في الأزقة وتفضي إلى أعمال أقل ما يقال عنها إنها مدهشة . كان الرعاع يجدون فيها ما يشفي غليلهم ، هم الذين في حاجة إلى إحساسات العنف ؛ لكن المثقفين والمؤمنين المتقين كانوا يستنكرون هذه التظاهرات ، ويعتبرونها مخالفة للسنة ومعتدية على شرف الإسلام . غير أنه لا يجب الانبهار أمام هذه التظاهرات العمومية ، الكريهة أحياناً ، لأن الطرق التي وصفناها منذ قليل ، كانت تعقد مثل غيرها جلسات خصوصية (حضرات) تتجلى فيها تقوى مبسطة بالتأكيد ، لكنها مخلصة وقوية[17] .

كان كل من عيساوة ، وحمادشة والدغوغيين يقيمون موسماً بمناسبة عيد المولد النبوي ، بمدينة مكناس ، بجوار ضريح سيدي مَحمد بن عيسى بالنسبة لعيساوة[18] ، وفي الكتلة الجبلية لزرهون بالنسبة للطائفتين الأخريين اللتين أُقبر

---

(15) أسس هذه الطريقة في القرن الثامن عشر مولاي أحمد الصقلي المدفون بفاس في زاوية درب سبع لويات .

(16) حسب بحث حول **الطوائف** (ص . 140 - 141)، كان حمادشة يؤخذون خاصة من بين الحمالين ، والفرانين ، ومستخدمي الحمامات ، والدباغين والإسكافين ؛ بينما يؤخذ عيساوة من بين الحدادين والدباغين، ولا سيما من بين الجزارين .

(17) انظر في هذا الصدد وصف اجتماع لجبالة في رواية فرانسوا بونجان ، **اعترافات بنت الليل** ، ص . 58 - 63 .

(18) انظر عن هذه الطائفة دراسة برونيل ، **بحث حول الطائفة الدينية لعيساوة بالمغرب** .

مؤسساهما في قريتين بهذه الناحية[19] . كان موسم عيساوة محدداً حسب العادة التقليدية بيوم المولد النبوي بالذات؛ وقبل ذلك بخمسة وعشرين يوماً أو ثلاثين يوماً ، كانت فروع فاس الخمسة والثلاثون تشرع في جمع التبرعات لتنظيم الاحتفال بكيفية لائقة وتحضير الهدايا على شرف الصالح وأعقابه . وقبل المولد بثلاثة أيام ، كانت جميع فروع الطائفة تخترق المدينة في شكل موكب قبل الانطلاق إلى مكناس . ورغم الصبغة السنية المشبوه فيها ، كان الموكب يجتذب كل سنة على مدى طريقه جمهوراً غفيراً من النظارة ، لا يأنف البورجوازيون من أن يختلطوا فيه بالرعاع[20] . وبعد أن يصعدوا الطالعة الكبيرة حيث كانت النساء ينظرن إليهم من السطوح وعددهنّ كثير ، كان عيساوة يلتحقون بباب محروق ، ثم باب ساكمة . كان رئيس زاوية فاس (مقدم المقدمين) يسير على رأس الموكب ، ممتطياً فرسه ، ويتبعه حاملو الهدايا . يتقدم بعد ذلك أطفال وهم يمسكون قماشاً أخضر مبسوطاً ، وهو الذي سيغطى به قبر الصالح ، والذي كثيراً ما كان النظارة يقذفون فيه بهدايا جديدة عند مروره . ثم حاملو الأعلام[21] ثم المنضوون ، فرعاً فرعاً ، وهم يقومون برقصاتهم الوحشية[22] ، ويمشون الهوينا على إيقاع الطبول والمزامير . وكان موسيقيون راكبون على الخيول يسيرون في المؤخرة . كان هذا الموكب مهيباً بعد في حد ذاته ، بتنظيمه ، وطوله ، وبطء تقدمه ، لكن الشيء الذي كان يكسبه قيمته عند الفاسيين هو الجوّ السائد فيه : جو الشطح أو الجذب ، حسب الأمزجة ، وعلى كل حال الإحساس بتجاوز الذات ، الانفعال بقطع

(19) انظر عن هاتين الطريقتين ، ج هيربير ، **حمادشة والدغوغيون** .

(20) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 431 وما بعدها ، وپ . ريكار ، **المولد بفاس : عيساوة** .

(21) كان بالإمكان أحياناً مشاهدة كيس من السميد معلق بسارية راية ، كانت قد سلمته إلى الطائفة امرأة تتمنى أن تكون أماً ؛ وإذا ما أرجع إليها مشبعاً ببركة الصالح ، أكلت السميد وقُضيت حاجتها .

(22) كان الجميع يكتفون بهز الصدر والرأس على إيقاع أسرع فأسرع ، وكان بعضهم يقلدون بعض الحيوانات الوحشية أو الآهلة . انظر في هذا الصدد دراسة برونيل ، ص . 168 - 220 .

الأواصر الدنيوية مدة من الزمن ، والمغامرة فيما وراء الحقيقة ، ونشوة الابتهاج الجماعي الذي ربما تفتقر إليه دورياً الأرواح الإفريقية أكثر من غيرها . ما كان يهم بعد ذلك أن تتحول الأجسام إلى آلات مجنونة ، وأن تضحى العيون حائرة ، وأن تذكّر الحركات بأعنف الحماقات ؟ لم تكن هذه سوى وسائل لإرغام الروح على التحرر من غشائها المادي والتقرب إلى الله .

كان حمادشة والدغوغيون يذهبون بعد بضعة أيام ، حيث إن موسمهم لم يكن يقام بزرهون إلا في سابع عيد المولد . وكان موكبهم يجلب عدداً أقل من النظارة ، وإن لم يكن أقل إثارة للإعجاب ، إذ كانوا يحملون أنواعاً من الشواقير ، والدبابيس يشدخون بها رؤوسهم ليُسيلوا الدم .

وفضلاً عن هذه التظاهرات العمومية ، والاجتماعات الخصوصية التي كانت تعقدها بزواياها ، كانت هذه الطوائف الشعبية غالباً ما يستدعيها خواص ، من الطبقة الدنيا عموماً ، يريدون أن يعطوا حفلة عائلية بهاء أكثر ، أو أن يطلبوا من الله منة خاصة .

وفي مثل هذه الظروف ، كانوا يتصلون أيضاً وبصفة خاصة بكْناوة . وكما يدلّ اسمهم على ذلك[23] ، فإن الأمر يتعلق بزنوج ، كانوا قد وفدوا بكثرة على المغرب ابتداءً من القرن السادس عشر ، واكتسبوا في الأخير أهمية لا بأس بها ، حتى في مدينة ذات شخصية قوية كفاس ، وحتى في ميدان محروس بعناية قصوى بقدر ما كان عليه ميدان الاعتقادات. لم تكن طائفة كْناوة تقبل كأعضاء سوى السود ، على غرار طائفة الخطابات . ولم تكن بالتالي طائفة كسائر الطوائف ، فقد يكون أتباعها مرتبكين جداً في بيان مؤسس طريقتهم وتوضيح السلسلة الصوفية التي تصلهم بالشيوخ العارفين في

---

(23) معنى كْناوي (ج . كْناوة) هو : قوم من غينيا . انظر عن كْناوة ، محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص . 32 ؛ وأوبان المرجع المذكور ، ص . 321 ، وميشو بلّير ، الرقيق بالمغرب ، ص . 422 - 427 .

الإسلام . ولو كانوا قادرين على إعطاء معلومات حول أصلهم ، لأمكنهم أن ينتسبوا إلى أحد أولياء بلاد السودان المحتكة بالمعارف الإسلامية ، لكنها ما زالت مليئة باعتقادات وعوائد تتعلق بالأرواح . لم يكونوا يقولون شيئاً لأنهم فقدوا منذ زمن طويل ذكرى كل ذلك ، محتفظين فقط بعوائد غريبة كانوا يتداولونها فيما بين المريدين ، وتؤثر تأثيراً كبيراً في مخيلة الفاسيين ، لاسيما النساء ، بإغرابها وطابعها العجيب .

كانت شعائرهم غريبة : يرتدون لاحتفالهم لباساً خاصاً مطرزاً بصدف صغير أبيض أو غوري ، وقلائد من نفس هذا الصدف[24] ، لا يتصورون أن تجري شعائرهم في صمت،لذلك يستعملون آلات موسيقية هي: طبل طويل أسطواني ، مجلوب طبعا من بلاد السودان ، وصناجات معدنية ،وإن لم يكن، فمقصات كبيرة من النوع الذي يستعمله الإسكاف أو الخياط ، يضربون عليها بقضيب من حديد ، و(مندولينات) صغيرة شبيهة (بالكُمبري) البربري لكنها ذات وتر واحد ويسمونها « كُانكًا » . كان ذلك كل ما يؤلف جوقهم ، جوق صاخب بدون تلون ، مخالف تماماً للجوق الأندلسي الدقيق . كانت هذه الآلات مصحوبة بأغان لا يفهمها أهل فاس ، لأنها بلغة أو عدة لغات إفريقية ؛ وهل كان كُناوة أنفسهم المقيمون بالمغرب منذ عهد سحيق يفهمونها بعد ؟ ربما كانوا يعرفون مدلولها العام الذي احتفظت به عادة الطائفة لكنهم نسوا التفاصيل .

لم يكونوا يعقدون ـ على ما يبدو ـ جلسات مخصصة للأدعية كغيرهم من الطوائف ، لكنهم كانوا ينظمون في الهواء الطلق ، يوم الجمعة ، اجتماعاً يرقصون فيه ويغنون ؛ فكان ذلك يسرّ المتسكعين والأطفال جداً في مقابل هدية زهيدة . وحوالي 1870 ، كان لعب كُناوة هذا يجري بساحة المخفية[25] .

---

(24) يمكن مشاهدة حلية كُناوة بمتحف البطحاء بفاس .

(25) إفادة شفوية .

وفي منتصف شعبان ، كان يقام موسمهم السنوي ، خارج باب فتوح ، في مكان يدعى شريج (صهريج) كْناوة[26] ،وكان عبارة عن ذبائح ورقصات. وخلال كل هذا الشهر ، كانوا يذهبون ليلاً من حمام عمومي إلى آخر ليقيموا حفلة التطهير واكتساب رضى جن المكان .

لكنه يجب البحث عن أهم نشاطهم في جانب آخر ، ذلك أنهم كانوا قبل كل شيء عرافين ، ومتطببين ، ورقائين ، إذ لم يكن يعزى لهم التصرف مع الجن فقط ، ولكن أيضاً مع العفاريت . وفعلاً ، كانوا يناجون أشخاصاً شياطين كسيدي إبراهيم ، وسيدي ميمون ، وسيدي حمو ، وللاّ ميرة ، والسلطان سمهروش[27]؛ فكان الناس يلجؤون إليهم إذا ما اعتبروا أنهم أمام حالة استحواذ ، أو فقط أمام حالة مرض عصبي[28] . كانت النساء على الخصوص هن اللائي يستدعينهم ، لكونهن أقل اهتماماً من الرجال بسنة الإسلام . كانوا يدخلون حتى عند الأسر الأكثر احرر وتقوى ، تستحضرهم إماء سود يُنوهنَ لدى سيداتهن بفضائلهم وقوتهم ؛ بالإضافة إلى أنه يجب التذكير بأن الدم الأسود كان موجوداً في عدد كثير من العائلات البرجوازية ، وأنه من جراء هذا ، ربما كانت صلات غامضة اختيارية تلعب دورها هي الأخرى . وهكذا ، فقد اكتسب كْناوة شيئاً فشيئاً بالمدينة ، كمثيلاتهم الخطابات وبواسطة النساء ، تأثيراً لا ينكر .

---

(26) برونيل ، المرجع المذكور ، ص . 165 .

(27) ميشو- بلّير ، المرجع المذكور .

(28) انظر بعض المعلومات عن جلسات الرقية عند برونيل ، المرجع المذكور ص . 163 - 164 .

5/8

الفصل الخامس

التدين الفاسي

لم تكن ممارسة الفرائض ، والأعياد الدينية ، وتقديس الصلحاء ، والانتماء إلى الطرق الصوفية ، التظاهرات الجماعية الوحيدة للتدين بفاس .

ففي آخر القرن التاسع عشر اتفق أن فاسيا يدعى ابن حيون أصيب بمرض خطير ، وفزع من صمت الليل ، فأسس قبل موته منظمة « رِفاق المرضى »[1] للتخفيف من وحشة الليل على من يتألمون . كانوا عشرة مؤذنين يتعاقبون خلال الساعات الخمس الأخيرة من الليل في صومعة جامع القرويين على ترديد بعض الأذكار ، وكان آخرهم يرفع مشعل الفجر . ولمّا كانوا يتتابعون دائماً بنفس الترتيب ، كان المرضى يعرفون الساعة بمجرد سماع أصواتهم ويحسون بانتعاش بسبب هذا الوجود الخفي التقي . كان ثلاثة مؤذنين يفعلون نفس الشيء في منارات ضريح مولاي إدريس ، وجامع الرصيف ، وجامع الأندلس ، بالنسبة لأنصاف الساعة الثلاثة الأخيرة من الليل فقط .

وكانت هنالك شعائر أخرى لا تتفق كثيراً مع السنة . فعندما يستمر الجفاف وتقام في البادية كلها تجمعات لطلب الغيث[2] ، كان أهل فاس

---

(1) أوبان المرجع المذكور ، ص 271 - 272 ، ول . هارّيس ، المرجع المذكور ، ص . 127 .

(2) بيارني ، إيثنوكْرافيا ، ص 142 ، وهنا وهناك .

يشاركون في ابتهال الفلاحين : فكان الفخارون هم أول من يأتون للتوسل إلى مولاهم سيدي ميمون الفخار[3] ليشفع لهم لدى العلي القدير حتى ينزل المطر . إذا كان الفخارون يطالبون بالمطر مستشفعين بمولاهم الصالح ، وهم في حاجة إلى الصحو من أجل أعمالهم ، فإن ذلك يدل على حالة استعجال ، ومن المفروض أن الله يستجيب دعاءهم .

وإذا استمر الجفاف ، كان الأطفال المنتمون إلى تلمسان[4] يذهبون بطلب من المخزن ، للبحث عن أحجار مستديرة ملساء (الصمّ) مثل التي توجد في مجاري الأنهار . كان عليهم أن يلتقطوا منها 70.000 يضعونها في 70 كيساً ، ويتكون موكب يذهب إلى ضريح سيدي علي بن حرزهم[5] لقضاء الليل في الدعوات . كانوا يرتلون خاصة : ﴿ **وهُو الذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَه ، وهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾(*) . وفي الصباح كان الموكب يتوجه إلى واد سبو فيرمي الأكياس في النهر، ويطلب العون من مولاي إدريس.

وفي حالة اليأس ، كانوا يلجؤون إلى صلاة الاستسقاء التي كان بالإمكان أن يترأسها السلطان نفسه . لم تكن تتضمن سوى ابتهالات إلى الله تعالى ، لا يخالطها أي عمل سحري خفي . وهنا أيضاً كان ستار خفيف من

---

(3) وحسب **سلوة الأنفاس** (جزء 2 ، ص 4) ، كانوا يلجؤون كذلك إلى سيدي الحاج بودرهم ، الذي كان قبره بجوار قبر سيدي ميمون الفخار . واليكم رواية المؤلف : « ولما ضاق الحال بالمسلمين من حبس المطر وخيف على الزرع اجتمعوا وجاؤوا إلى الشيخ سيدي محمد ـ رضي الله عنه ـ وقالوا له : أردنا أن نستسقي وأردنا منك أن تخرج معنا ، فقال لهم : على بركة الله . فخرجوا حتى إذا كانوا بباب الفتوح توجه الشيخ ـ رضي الله عنه ـ لزيارة الشيخ سيدي الحاج بودرهم ـ وكان يكثر من زيارته ـ حتى إذا بلغ ضريحه التفت إلى أصحابه وقال : أعطوني أشرب ، فأتوه بقلة فشرب منها ورمى بها إلى السماء فرجع الشيخ ورجعوا وبات المطرُ الكثير في تلك الليلة . . . » .

(4) كانوا يقصدون أهل تلمسان الذين كانوا يعتبرون منذ أن هاجروا مختارين ، كلاجئين محترمين ، وكمجاهدين ، وبذلك كان لدعواتهم قيمة خاصة وفعالية .

(5) انظر عن هذا الأثر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 .

(*) الآية 28 من سورة الشورى .

الإسلام يغطي أحياناً شعائر قديمة جداً .

وهناك اعتقادات باطلة لم تتستر حتى بهذا اللباس الرقيق للسنة ، كأعياد حاكوزة والعنصرة . كان العيد الأول المطابق لفاتح يناير من اليومية اليوليانية مناسبة للتأنق في الطعام ، حتى كان المستطيعون يغرقون في الأكل والشرب خلال أربعة أيام ، يأكلون بالأخص الفطائر المحلاة[6] . أما العنصرة ، فكان يُحتفل بها في الصيف[7] . كانت النساء والأطفال يتنافسون في رش جميع مَن يلاقونهم بالماء ، بدون أن يتشكى أحد من ذلك ، وذلك من أعلى سطوح المنازل أو في الأزقة . ويُحكى أنه في القديم ـ وكم يقال عن القديم ! ـ لم يكن حتى الباشا نفسه والموظفون السامون للمخزن ينجون من هذه الرشاشات المسالمة[8] .

وأخيراً ، يمكن أن تذكر بفاس ، كغيرها من الأماكن ، اعتقادات باطلة تتعلق بجميع أعمال الحياة ، لم يعرف لها بعدُ أحدٌ لا معنى ولا أصلاً . لماذا كان يوم الثلاثاء يُعتبر يوم شؤم ، ينبغي ألا ينجز فيه شيء مهم[9] ؟ لماذا كانت الديكة البيضاء مرغوباً فيها بصفة خاصة ؟ لماذا كانت تعزى لحمر الشعير فضيلة مداواة بعض الأمراض ؟ ذلك إرث قديم تتداوله المجموعات البشرية جيلاً بعد جيل ، دون أن يمكن القول هل يتعلق الأمر بمجرد عوائد آلية تعممت واتخذت شيئاً فشيئاً مدلولاً خارقاً للعادة ، أو بأعمال واعية كل الوعي ومكيفة مع هدف واضح ، لكنها أفرغت من محتواها مع مرور الزمن وفقدت كل معنى .

* * *

---

(6) بياري ، إيثنوكرافيا ، ص . 84 وما بعدها .

(7) في 7 يوليوز 1903 : انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 440 .

(8) يقارن هذا العيد بشعائر عيد الحصاد في الملاح .

(9) إذا حدثت وفاة يوم الثلاثاء ، قيل . « جنازة متنوعة » ، أي سيموت أحد أفراد عائلته في نفس السنة . (بياربي ، إثنولوجيا ، ص . 11) .

إن تظاهرات التديّن الجماعية الآنفة الذكر (الدعوات في الهـواء الطلق ، وصوم حاضرة بكاملها) لا بد أن تثير شعورنا نحن الفردانيين في الشؤون الدينية . إنها الشهادة القاطعة على اندفاع إجماعي نحو الألوهية .

وفضلاً عن هذه المواسم التي كانت تحتل مكانة كبرى في حياة الفاسيين ، يجب اعتبار أعمال التدين الفردية التي يمكنها أن تعطي ، أكثر من أي علامة أخرى ، فكرة عن التعرف على الحالة الروحية لفئة بشرية ، لأنها لا تتضمن حصة الآلية والتقليد بدون الروح المرتبطة بكل عمل جماعي . إذا سبق للمرء أن عاش بفاس ، فإنه لا يمكنه ألّا يتأثر بجو التدين الذي يشمّه فيها : ففكرة اللّه موجودة في كل مكان ، من أدنى أعمال الحياة ، ابتداء من عبارات المجاملة التي يتردد فيها اسم اللّه باستمرار ، وفي جميع طبقات المجتمع ، إلى الحكم المقتبسة من القرآن أو السنة النبوية ، التي تشكل شبه لوحـة خلفية للمحادثات اللبقة . إذا كان تاجر ينتظر الزبناء ، أخذ يسبّح وهو يقرأ دعوات صالحة . يُرى المؤمنون في كل وقت من أوقات النهار يدخلون المساجد ، لا الرئيسية منها فحسب ، ولكن في المصليات العديدة التي تصادف في جميع الأحياء . وهؤلاء النساء اللواتي يتعلقن بضريح المـولى إدريس ، وهن منقطعات تماماً عما يحيط بهن ! وهذه الأنظار المنورة كلياً بإيمان لا يشوبه شيء في ليلة السابع والعشرين من رمضان !

ولأن يكون هنا أو هناك مجرد نزعة تقليدية ، وألّا يكون الفاسيون أفضل من معظم الناس ، فلا أحد يستغرب ذلك . لكن ذلك لا يستطيع أن يغير انطباع التديّن العميق المنبثق من فاس ، تديّن متوازن بسيط ، بدون حركات تظاهر ، وبدون اندفاعات مفرطة ، عادة لطيفة في مخالطة الأشياء الغير الطبيعية أصبحت معها شبه طبيعية . عندما نقرأ كتاباً في التراجم ، مثل **سلوة الأنفاس** ، كثيراً ما نجد فيه بيانات من هذا النوع : « كثيراً ما كان يخرج من داره في نصف الليل ، فيذهب إلى الحمام فيتوضأ ثم يقصد زيارة مولاي

إدريس . . . ثم يعود إلى داره »[10] .

كما نجد أيضاً : « ولا تجده ثلث الليل الأخير نائماً قط صيفاً ولا شتاء ، بل يخرج لضريح مولاي إدريس ـ رضي اللّه عنه ـ ويشتغل بقراءة الدلايل هناك . وكان زَوَّاراً للأحياء والأموات ، ملازماً لكراسي العلم والوعظ . وكانت له حانوت بالرصيف يبيع فيها الخضر ، ويسكن بجزاء ابن برقوقة . وكان من أصحاب الشيخ سيدي محمد بن يوسف الحسناوي ملازماً له لا يفارقه قط . وبلغ به ـ رحمه اللّه ـ عام الخمسين الجهدُ الجهيد من الجوع حتى ظهر به أثره ، ولم يسأل من أحد شيئاً لكثرة صبره وشكره . تُوفي عن سن عالية ، ودفن بزاوية شيخه سيدي محمد بن يوسف المذكور ، وكانت له جنازة عظيمة حفيلة ، حضرها أهل الخير والصلاح والأشراف والعلماء وجميع المنتسبين . ورأى بعض أهل الخير رؤ يا تدلّ على حضور النبي ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ لموته »[11] .

* * *

عندما نتأمل في منظر فاس من أعلى هضبة قبور المرينيين ، تستلفت الأنظار بقوة القبةُ الهرمية التي تغطي قبر مولاي إدريس ، وكذا الخطوط المتوازية لسقوف جامع القرويين . وعندما نقرأ كتب تاريخ أو تراجم نكاد نجد في كل صفحة ذكر جامع القرويين .

ويمكن لهذين المعبدين معاً أن يلخصا تدين المدينة : أحدهما هو ملجأ العلم الإسلامي ، البوتقة التي انصهر فيها الفقهاء ، ومعهد السنة الجافة قليلاً والشكلية للمغرب الأقصى ، إنه يمثل مظهر الدماغ للتدين الفاسي . إن ضريح المولى إدريس هو مركز التدين الشعبي الذي لا يكترث بمذهب ، لأنه

---

(10) من ترجمة سيدي عبد القادر بن أبي حيدة الفاسي (**سلوة الانفاس** ، جزء 1 ، ص. 335) .

(11) من ترجمة سيدي محمد بن عطية التلمساني ، المتوفى حوالي 1163/1750 (**سلوة الأنفاس** ، جزء 1 . ص. 353) .

لا يعرفه جيداً ، ولأنه الذي يفزعه بعض الشيء قدرة اللّه على كل شيء وعظمته ، فيشعر بالحاجة إلى وسيط ليُسبِّح بحمده ويقدِّس له . إن التدين في مـولاي إدريس أكثر عاطفية ، وأكثر مادية . ينتصب المعبدان جنباً لجنب تقريباً ، كأنهما يشهدان بقرابتهما الوثيقة في الإسلام المغربي .

ذلك لأن التدين يكتسي فعلاً بفاس ، كغيرها من الأماكن وليس في البلاد الإسلامية فحسب ، مظاهر متنوعة جداً حسب المزاج ، والأصل ، والثقافة للأفراد . إلاّ أن له كذلك سمات مشتركة عديدة .

فهو قبل كل شيء منتشر عالمياً ، ليس فحسب أنه لا توجد بفاس لامبالاة في الشؤون الدينية ، ولكن حتى الفتور. لا نجد بها أمثال أولئك المسيحيين الذين ، بعد تعميدهم وتقريبهم لأول مرة ، لا يعودون يذهبون إلى الكنيسة إلا بمناسبة الأعياد الكبرى ، على أن يوافقهم ذلك . إن التربية، والأسرة ، والبيئة الاجتماعية بفاس تتعارض مع مثل هذه الطريقة في العبادة ، مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي نواجهها .

وهذا التدين العالمي هو أيضاً تدين هادئ . إن المغرب ، خلافاً لكثير من البلدان الإسلامية الأخرى ، لم يعرف صراعاً دينياً منذ تاريخ سحيق . فمنذ العهد المرابطي ، اضمحلت كلياً الفرق الضالة والبدع ، ولم يكن حتى تعايش بين مذهبين سنيين ، كما هو الحال بالجزائر وتونس ، فالمـذهب المالكي هو الوحيد المتبع منذ ما يقرب من عشرة قرون . بل يبدو أن فاساً وجدت توازنها الديني قبل سائر المغرب . فلا يُلمس في أي وقت من تاريخها الطويل أثرٌ للزندقة أو لاختلافات عقدية من شأنها أن تفضي إلى اضطرابات فيها شيء من الخطورة . لقد تطورت الحياة الدينية لمدينة إدريس تحت تأثير الرصانة ، بعيدة عن الشكوك والتمزقات التي عرفتها جهات أخرى من العالم الإسلامي .

لا شك أن هذا راجع إلى أن الفاسيين ، سواء في الميدان الديني أو

غيره ، لم ينفصلوا عن اعتدالهم الطبيعي . فلا وجود عندهم لمتصوفين كبار ، كالحلاج ، ولا لمصلحين دينيين ، كابن تومرت ، يريدون أن يفرضوا مذهباً مطلقاً على جميع السكان ؛ بل تديّن قوي ، شديد ، عند الجميع ، غير عاجز أبداً عن اندفاعات صوفية ؛ لكن قبل كل شيء « إنسانية ، سلسة القيادة » ، أكثر تميزاً باستمرارها ومساواتها منها بتناقضاتها ، ومتسامحة لا مع أتباع الديانات الكتابية الأخرى فحسب (لا يسعنا أن ننسى بأن ميمون ، حسب الرواية التقليدية ، درس بجامع القيروان، وأن الكاهن القانوني كلينار قضى شهوراً بفاس دون أن يُخفي وضعيته) ؛ ولكن أيضاً مع مختلف الميولات للإسلام المغربي،مُولية نفس العطف للصوفية والمتنورين الوديعين،والفقهاء المالكيين ، وأتباع الصالحين ، والعامة المتمسكين جهلاً باعتقادات عتيقة يغطيها فحسب ستار إسلامي خفيف . المهم في نظر الجلّ أنه ، في كل يوم ، وفي كل ساعة تقريباً،تؤكد آلاف النفوس إيمانها باللّه الأحد ، وأنه تتصاعد دوماً من معابد فاس المتعددة ، في نبرات من اليقين ، ألحان تتوجه إلى اللّه تعالى بالحمد ، ويقوم فيها كل واحد بدوره مع نفس الإيمان حسب إمكاناته .

الخاتمة

إن مدينة فاس قد تغيرت كثيراً منذ عهد مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ . أخذت تتطور ، على إثر الاتصال المباشر بالحضارة الأوروبية ، ببطء أولاً ، ثم بسرعة وعمق أكثر . وقد خُصص كتاب لهذا التطور[1] لعله يعطي حصة مفرطة بعض الشيء للإحصائيات ، أي للأحداث الاقتصادية على حساب الأحداث الاجتماعية ؛ لكن عيبه الرئيسي هو أن عمره يناهز خمس عشرة سنة ، تطورت فاس خلالها حسب وتيرة سريعة .

* * *

إن المنظر العام للمدينة، سواء من رُبى الشمال أو ربى الجنوب قد طرأت عليه تغييرات محسوسة منذ 1912 . فالخضرة تركت المجال للبناء . حقاً إننا نلمح هنا وهناك ، داخل الأسوار ، مجموعات من الأشجار ، لكنها تنقص سنة بعد سنة ؛ فإذا كانت بساتين فاس ما تزال موجودة بفضل الله ، فإنها توجد خارج الأسوار . وحتى فاس الجديد قد تغير منظره هو الآخر . لقد حلت محل المدينة ـ الثكنة ، والمدينة ـ الإدارية للعهد القديم حاضرةٌ كثيرة السكان جامعة لأجناس مختلفة ، أقل ثروة بكثير من جارتها المدينة الإدريسية ، لكنها أكثر تمدناً مما كانت عليه سالفاً، وأكثر دكاكين وسكاناً مستقرين . ومنذ الآن ،

---

(1) ح لوكا ، فاس في المغرب الحديث .

تتدفق المدينة كلها خارج أسوارها ، وتنشأ هنا وهناك مدن من القصدير . تتوقع التصميمات الحضرية إحداث أحياء إسلامية جديدة من طراز حديث ، وحتى مدينة إسلامية جديدة، ستكون هي الخلية الرابعة الإسلامية بفاس ، إذا ما رجعنا إلى التاريخ .

كل هذا يبين بوضوح أن سكان فاس المسلمين قد تكاثروا بوفرة : كانوا أقل من 100.000 ساكن سنة 1912 ، فصاروا 125.000 سنة 1936 ، و 165.000 سنة 1946 . لقد تغيرت الأرقام ، وكذلك تشكيلة السكان ، لأن التزايد لم ينتج فقط عن غلبة الولادات على الوفيات ، ولكن أيضاً عن هجرة هامة . ما زالت البوادي المجاورة تعطي إمداداً كبيراً من النازحين الجدد ؛ لكن جنوب المغرب (تافيلالت ، ودرعة ، وسوس) يرسل الآن إلى فاس وحدات كبيرة من العمال اليدويين ، والعمال المتخصصين ، وأصحاب الدكاكين الصغيرة ، بينما كان إمداده في القديم محدوداً جداً . يجد هؤلاء المهاجرون المتضورون جوعاً في الغالب مكاناً بالأحرى في فاس الجديد ، وفي بعض الأحياء الدائرية بالمدينة ومدن الصفيح ؛ أما قلب المدينة القديمة فيبقى مقفلاً في وجوههم.

وتزايد أيضاً عدد السكان اليهود في نفس النسق، مرتفعاً من 8.000 نسمة سنة 1912 إلى 14.000 نسمة سنة 1946، لكن فقط بعامل الفائض في الولادات، لأن الإمدادات الخارجية طفيفة . وإذا كان اليهود متضايقين في ملاح 1912 ، فإنهم لم يعدوا يطيقون الإقامة فيه ، وإن كان قد وُسع على أي حال . فتدفقوا على فاس الجديد (في أحياء بوطويل ، وسيدي بو نافع والزبّالة) وعلى المدينة الجديدة بصفة خاصة .

نشأت فعلاً ، مدينة جديدة[2] لتؤوي السكان الأوروبيين الذين جاؤوا

(2) إن كلمة المدينة الجديدة هي التسمية الرسمية ؛ لكن المسلمين بفاس يسمونها دار دبيبغ ، لأن البناءات الأولى شيدت بجوار المعسكرات المقامة حول قصبة دار دبيبغ التي بناها مولاي عبد الله .

ليستقروا بفاس بعد إقامة الحماية . أقام هؤلاء السكان من نوع جديد في البداية في الأرباض الموجودة (الأحياء الغربية للمدينة القديمة ، وفاس الجديد ، والملاح) ؛ إلاَّ أنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم في ضيق ، فطفقوا يقيمون شيئاً فشيئاً في ضاحية من نمط أوروبي شيدت جنوبي فاس الجديد ، في الطَّرف الشرقي لسهل سايس . أسست هذه المدينة سنة 1917 ، ونمت خاصة ابتداء من 1925 ، وهي الآن تؤوي حوالي خمسة عشر ألف أوروبي ، أغلبهم فرنسيون .

إن تزايد عدد السكان ، وتكاثر الضواحي ، وإدخال وسائل النقل الحديثة طرحت مشاكل مرور لم يوجد لها بعدُ الحل المعقول . لقد أصبح الآن مرور السيارات ممكناً ، ليس بدون صعوبات وعراقيل ، في الملاح ، وفاس الجديد ، وبعض الأحياء الدائرية للمدينة (في حيي الفخارين والدوح) ، لكنه ما زال ممنوعاً في كافة المدينة من جراء ضيق الأزقة وطبيعة الأرض . وحيث إن فاساً تتكيف أكثر فأكثر مع الطرق الحديثة للحياة ، فإنه يتحتم عليها أن تحل عاجلاً هذا المشكل الصعب ، ولكنه أساسي .

وهناك مسألة أخرى معلقة أخرت الحربُ إيجاد حل لها ، لكنها ستطرح من جديد، بمجرد رجوع اقتصاد السلم، هي مسألة اقتصادية الصناعة. فالحِرَفية القديمة لفاس لم تتكيف مع الاقتصاد الحديث ، بالرغم على جمال منتجاتها وجودتها الحقيقية . فهي تنتج قليلاً جداً ، بأثمنة باهظة ، كما أن جودة صنعها ، في عدة مجالات ، لا تستطيع أن تنافس جودة التقنيات الأوروبية . فالتحول في طريق الإنجاز ، إذ صارت المعاصر العتيقة ذات المدارات ، ومؤسسات نشر الخشب بالأيدي تختفي أمام المعاصر والمناشر الميكانيكية ، وبدأت أيضاً الطواحن المتحركة بالكهرباء تحلّ محل الطواحن الرائعة المتحركة بشلالات واد فاس . وليس هذا سوى بداية . فيجب أن ننتظر دخول الصناعات الجوهرية ـ صناعات الجلد والنسيج ـ باكراً في نفس الطريق ، وذلك يقتضي رؤوس أموال وتدريب اليد العاملة . لا شك أن رؤوس

الأموال ستقدم من طرف التجارة الفاسية التي سرعان ما تكيفت مع نسق المعيشة العصرية والتي لن تلبث أن تتخلى عن لا مبالاتها التقليدية إزاء الحرفية ، اقتداء بالتجار الكبار في تونس وصفاقس(3) . أما تدريب اليد العاملة فإنه يهيأ إلى حد مّا في المدارس المهنية ، وسيهيأ أكثر فأكثر عن طريق تنمية التعليم الابتدائي الذي يرمي إلى إعطاء الأطفال تكويناً أساسياً جديداً وعقلية جديدة .

* * *

وبالفعل فإن التغيرات الاقتصادية الجارية مصحوبة حتماً بتغييرات فكرية . إن فاساً تملك منذ الآن مدارس ابتدائية للبنين والبنات ، وبعض الدروس المهنية ومؤسسة ثانوية فرنسية إسلامية ، هي ثانوية مولاي إدريس ، بالإضافة إلى أن الشبان المسلمين يستطيعون متابعة دروس الثانوية المختلطة الفاسية الكائنة بالمدينة الجديدة ما زال كل هذا غير كاف وبعيداً عن شكله النهائي ، إذ أن الكثير من الأطفال يجهلون النظام الفكري للمدرسة العصرية ، وليسوا سوى ميالين ،خاصة في الميدان التقني ، إلى اتباع الروتينية العتيقة . لكن ، عندما نقيس قدرة تكيف الفاسيين ، على مر التاريخ ، يمكننا التأكد من أن الأجيال الصاعدة ستدرك أهمية تعليم مساير لحاجيات الزمان ؛ وبالتالي ، فإن قدماء المدارس العصرية ، وقد صاروا كثيرين ، موجودون هنا للدفع في هذا الاتجاه .

وحتى جامعة القرويين نفسها تميل إلى التطور ، لا لكونها تترك أهدافها السلفية لتنطلق في دراسة العلوم الدنيوية ؛ لكن السلطة الشريفة وبعض علمائها يريدون أن تُقبل على اكتساب العلم بكل معنى الكلمة بطرق مجددة سبق أن برهنت عن قيمتها في جامعة الأزهر بالقاهرة أو في الزيتونة بتونس . إن

---

(3) لابد من الإشارة إلى أن العديد من التجار الفاسيين استثمروا رؤوس أموال في المعاصر والطاحونات الميكانيكية .

مثل هذه الانقلابات لا تحدث بدون مقاومة ، فالعادة ، في مجال الاعتقادات الجوهرية ، سريعة الحساسية وتخشى أن تنزلق التجديدات إلى الثورة . لكن وتيرة العالم بأسره ومثال البلدان الإسلامية بالشرق الأوسط أقوى من ألا تضعُف هذه المقاومات مع مرور الزمان .

وإلى جانب الاجتماعات التقليدية التي ما زال المسنون يتحدثون فيها برصانة ، مرصعين أحاديثهم بحكم دينية ، تُعقد الآن اجتماعات الشبان ـ أولـئك « الشبان » الذين يناهز أكبرهم سناً الخمسين من عمرهم ـ اجتماعات حامية ، متحمسة أحياناً ، تحتل فيها السياسة الدور الأول ، ويتردد صداها في الحاضرة ، ويتحدث عنها ، وتشرح : « فالشبان » في وضع توجيه الرأي العام الفاسي ، ومن ثم الرأي العام المغربي .

ونظراً لكون فاس أشعت أكثر بكثير مما كانت عليه قبل الحماية : سواء في المخزن بالرباط ، أو في التجارة بالدار البيضاء ، فإن أهل فاس يحتلون وظائف دينية وإدارية في عدة نقط من المملكة الشريفة ، متكيفين بسرعة ، أقوياء بثقافتهم الإسلامية التقليدية وتعليمهم العصري ، حاذقين في استغلال الوضعيات الطارئة وحياكة المناورات ، وهم ميالون إلى أن يشكلوا الأغلبية في نخبة مغرب اليوم . إنهم ليسوا محبوبين في كل مكان ، لكنهم ينجحون دائماً تقريباً في أن يفرضوا أنفسهم ، بفضل روح مبادرتهم ومثابرتهم ، وأحياناً بفضل الاحترام والخوف اللذين يحدثونهما حولهم .

* * *

لهذه التغييرات في الأفكار حتماً انعكاسها على الأخلاق ، وهي تغييرات بطيئة الحدوث،لأن العادات اليومية هي الأقـوى ثباتـاً،لكنها إذا تحـركت تضخمت وتسارعت أكثر فأكثر . لقد استمرت نساء فاس في معيشتهن كأن شيئاً لم يتغير حولهن ، ومن جراء هذا ، بقيت الحياة اليومية تحت ثقل تقاليدهن الثابتة تقريباً ما عدا القليل النادر جداً على ما كانت عليه طوال

قرون ؛ لكنهن أيضاً لم يلبثن أن اتصلن بالعالم الخارجي ، بواسطة المدرسة ، والمذياع ، والسينما ، والأسفار ، والمعالجات الطبية ، ومستشفيات الولادة ، تحت تأثير أزواج متحضرين أيضاً . لقد تغير لباسهن في بعض جزئياته ، وكذلك أفكارهن حول عدة أشياء: لم يعد الأطفال يربون في كثير من العائلات الموسرة على الشكل القديم ، ولا يتم الزواج في بعضها تماماً كما كان عليه في القديم . ما زالت علامات تغيير جذري ضعيفة ، حتى إن عدداً كبيراً من الرحالة يخالون أنهم سيجدون بفاس حياة القرون الوسطى . وبالفعل ، فإن إطار التقاليد ما زال متيناً ، ليس كما كان عليه منذ عشرين عاماً فقط . إن ظاهرة التطور سائرة ، كيف ستنمو؟ إلى أين ستنتهي ؟ المهم هنا هو أن نعرف أنها بدأت وأنها لن تتوقف في وقت مبكر .

إذن ، أخذ الفاسيون يستجيبون لحضارة مخالفة جداً لحضارتهم . إن فاساً ، بالرغم عن الظواهر ، حاضرة في غمرة التطور على غرار أخواتها الإسلامية في الشرق . هل يعني هذا أن مظهرها سيتغير كلياً وأنها ستصبح ، بعد خمسين سنة ، أو مائة ، ضائعة المعالم ؟ إن شخصية قوية مثل شخصيتها لا تضيع في عشرات من السنين ، ولا حتى في قرن ، وربما حتى إلى الأبد . قد يحدث يوماً مّا أن تصل الشاحنات إلى قلب المدينة وأن تتعاطى الفاسيات الأنيقات لعبة المضرب بسروال قصير أو يستحممن بلباس البحر « من قطعتين » ، الأمر الذي ليس من شأنه أن يغير روح فاس ، اللّهم إلا يعد امتزاج للسكان يستحيل توقعه .

ومهما تكن الظروف ، فإنه يبدو لي أن أهل فاس سيكونون دائماً معروفين ، دائماً شبيهين بأنفسهم ، بفضل ما اجتمع فيهم من أوصاف عدة تطبعهم بشبه سمة مميزة .

هي قبل كل شيء تقنية متقدمة للحياة المشتركة ، تساعدهم على أن يتضايقوا أقل ما يمكن ، وتجد تعبيرها في المراسيم التقليدية ، « القاعدة » ،

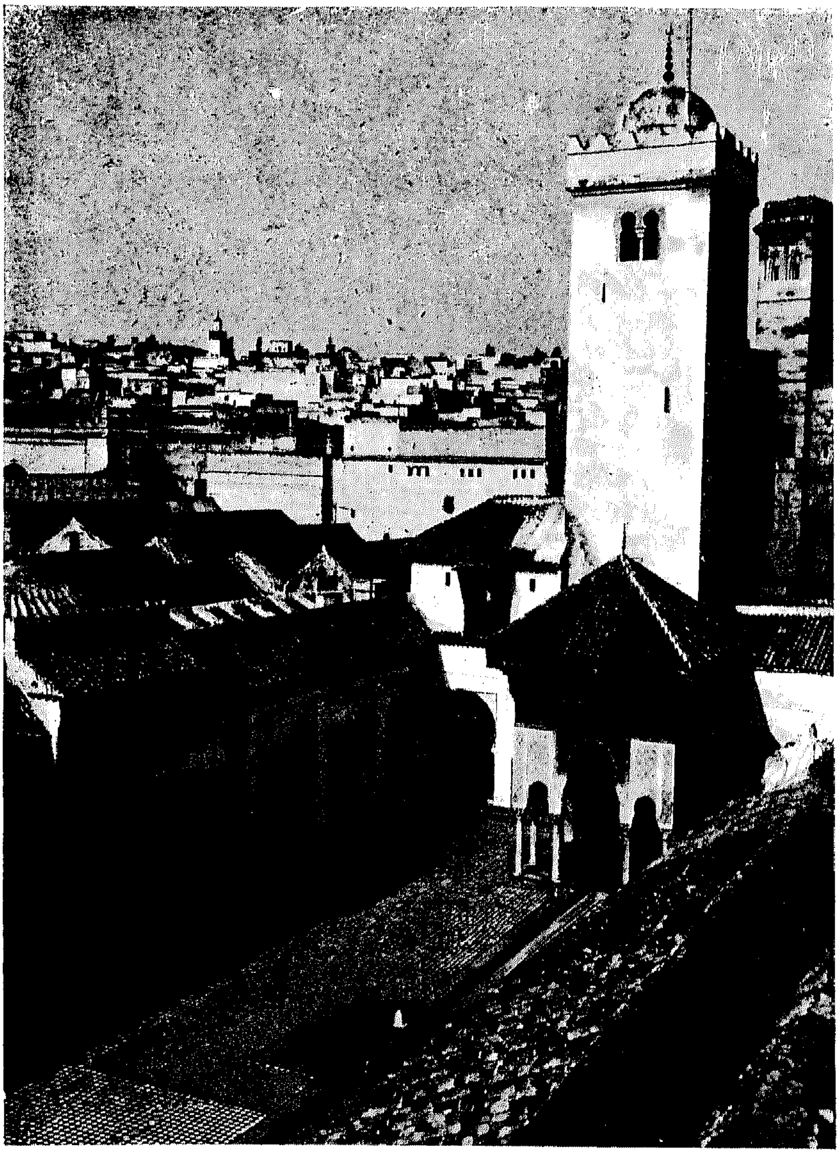
الموضوعة لجميع الاحتمالات العادية للحياة . لقد برهنت هذه المراسيم عن قيمتها ، ويمكنها أن تتغير في هذه الجزئية أو تلك ، لكنها لن تمس في مبدئها الجوهري ألا وهو التزام الفرد بتلطيف تفاعلاته الشخصية مراعاة للغير . وتتجلى خاصة في الآداب التي يحبها الفاسيون والتي تفضي طبعاً إلى الضيافة ولين الجانب . إننا كثيراً ما نجد أهل فاس متعجرفين ومنزوين . هذا صحيح بمعنى أنهم لا يستسلمون لأول وهلة إلى الغريب ؛ لكن إذا قُدم لهم هذا الأخير من طرف ضامن معروف ،أو إذا رأوه كيف يعيش وسبروا غور محاسنه ومساوئه ، واتخذوا حكماً لصالحه ، فإنه يعامل كواحد منهم ، مع تلك الخفة في العلاقات التي تُعتبر إحدى مفاتن المجتمع الفاسي ؛ فيصبح إذ ذاك عليه أن يخضع لقواعد مقبولة ، ويساهم بالمقابل في جميع المحادثات : لا يعودون يخشون التلطف أمامه بتلك « البذاءات » التي يحبونها كثيراً بفاس ، ولكنهم لا يستعملونها إلا فيما بينهم . وعلى النقيض من ذلك ، فإن سوء التربية ، وقلة الأدب لا يُحتملان لأنهما يُشكلان مخالفات خطيرة للقاعدة الاجتماعية ، وربما كانت أخطر المخالفات إذا اعتبرنا جوهر الأشياء : فويل للخشن ! لا مكان له هنا ، وإذا اتفق أن أصرَّ على البقاء تعرَّض لحادثات جد مزعجة : فالفاسيون ليسوا أولئك الذين يسمحون بمس خطير لنظامهم الاجتماعي دون معاقبة ، ويحسنون إيجاد تأديبات دقيقة ، لأن مكرهم عظيم ، وقد تكون سخريتهم قاسية .

إن المراسيم الفاسية مشبعة بالدين ، كجميع أعمال الحياة الفردية أو الحياة الجماعية . إنه تدين خالص بدون ريب ولا يجحده أحد ، كما رأينا ذلك آنفاً ؛ لكننا لا ننكر أنه معزز بالفكرة الصائبة أن المدينة الإدريسية، أكثر من أية حاضرة أخرى بالمغرب الأقصى ، هي ملجأ الإيمان ، والعلم الرباني ، والأخلاق الأكثر ملاءمة لمبادئ الإسلام . وسواء في ميدان الإيمان والأعمال الصالحة ، أو في كثير من الميادين الأخرى ، فإن الفاسيين يشعرون بأنهم يُتخذون قدوة ، لذلك يجب عليهم ألا يظهروا بأنهم أدنى من أنفسهم .

وأخيراً ، فإن أهل فاس في معظمهم يعرفون كيف يخلقون بين الميولات الكثيرة التي تعمل في صميمهم توازناً نادراً جداً في هذه الأرض المغربية النازعة بسهولة إلى المُغالاة . وإن حساسيتهم القوية جداً ، المقاربَة أحياناً لقابلية التأثر، لتنطلق بإدراك ثاقب للواقع وبقدرة على التكيف يستغرب منها ، لا سيما وأن حياة فاس لم تطرأ عليها تغييرات كثيرة طوال قرون . إن ذوقهم في الرفاهية وميلهم للرخاء يعادله ذوق لا يقل حِدةً في النشاط المفيد ؛ إن اهتمامهم بمتاع الدنيا يجد معادلاً نافعاً في احترامهم للأشياء الروحية ، ويعادل قابليتَهم المفرطة أحياناً للتأثر ذهن أساسي جيد يمكّنهم من ألا ينخدعوا بأنفسهم وليس أكثر بغيرهم ، بحيث إنه مع كل شيء إذا تركنا الإطراء جانباً ، يمكن اعتبار فاس كنجاح ، والمراهنة على أن هذا النجاح سيدوم ، لأنه يرتكز على مجموعة متناسقة من الصفات المساعدة على ازدهار الحياة في المجتمع .

لعل هذا كله ناتج عن مواهب طبيعية أو سماوية ، ولا يسعنا أن ننكر بأن فاساً استفادت منذ البداية من ظروف جغرافية استثنائية وثروات بشرية قيمة ثمينة ، الشيء الذي لا يمنع من كون الفاسيين عرفوا كيف يستغلون هذه الوضعية المفضلة ، لأنهم أحسنوا بذل الجهود الضرورية ، وخاصة في التنظيم ليعيشوا مجتمعين عيشة راضية ، ويكوّنوا كتلة في غاية التماسك والتلاحم والأصالة .

فاس قبل الحماية في صور



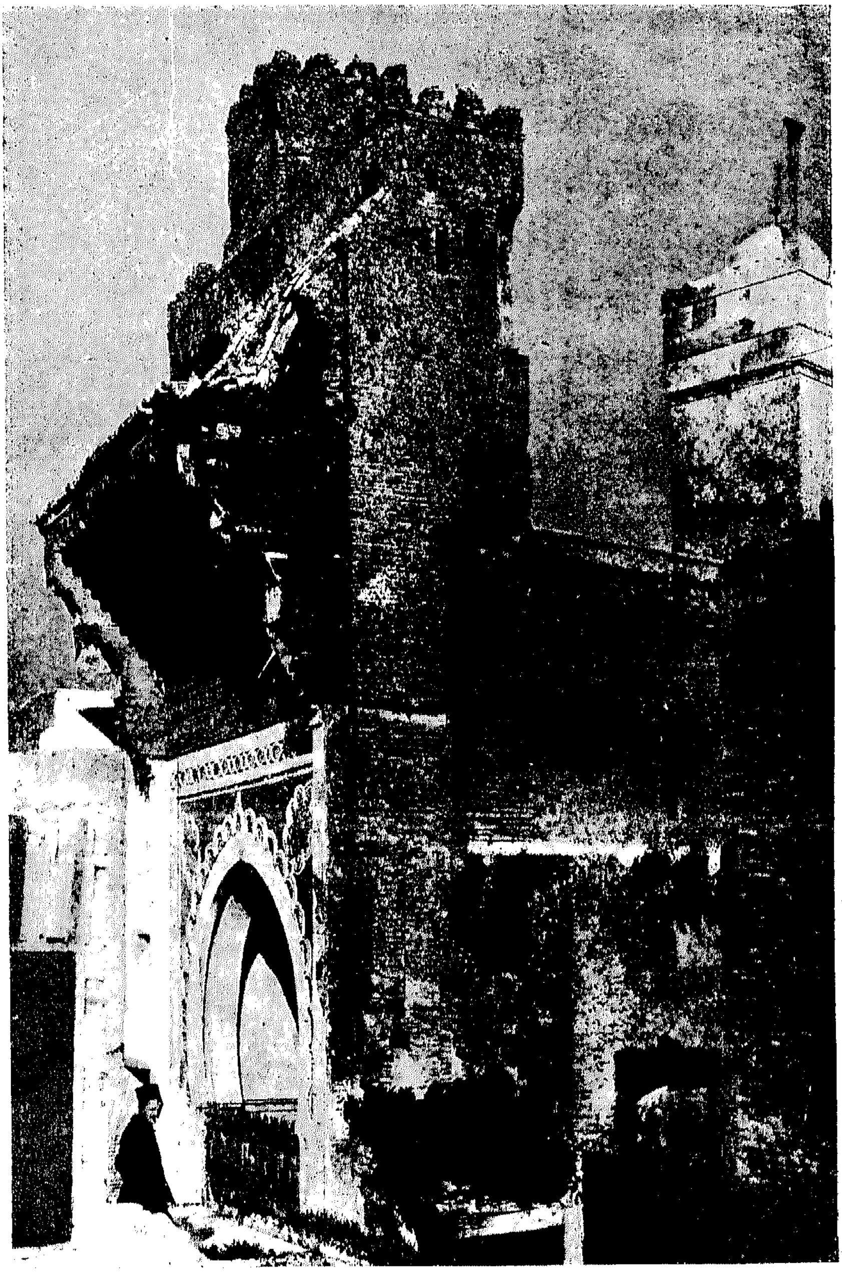
اللوحة 1

من اقدم آثار فاس : صومعة جامع القروين (القرن العاشر للميلاد)

وفي اسفل الصومعة جناح سعدي ، وهو نظير أجنحة فناء الأسد بحمراء غرناطة . ويوجد جناح مواز في الطرف الآخر للفناء .

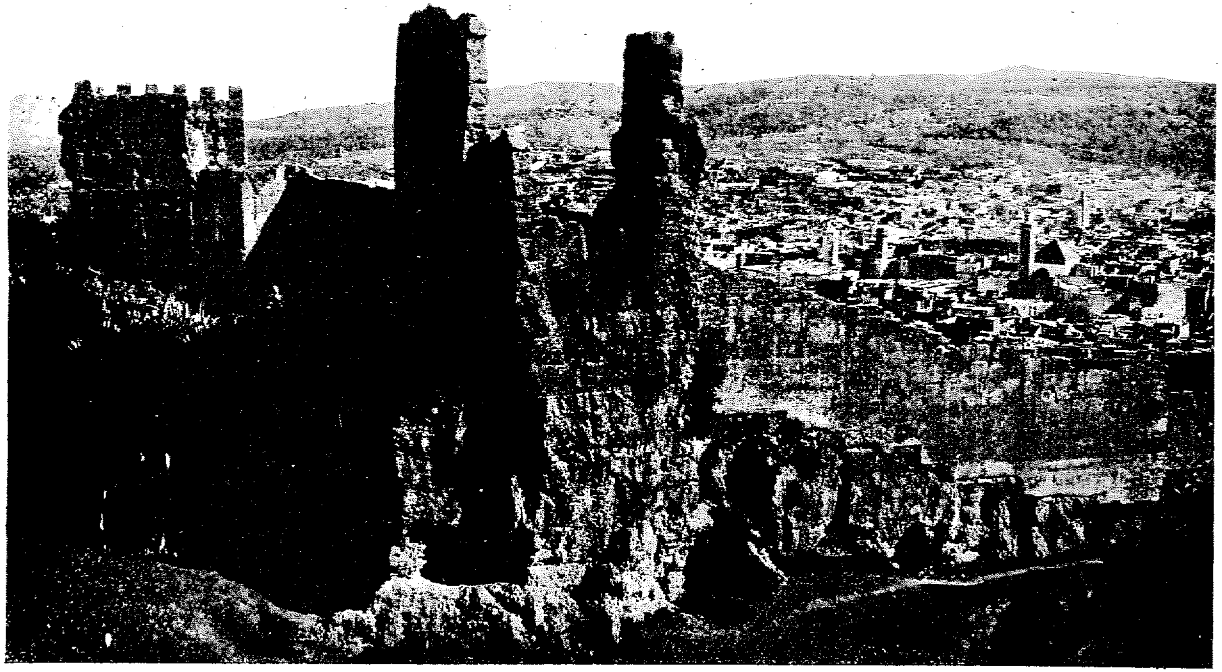
وإلى يمين الصومعة ، برج الفلكيين . وإلى اليسار قبب قاعة الصلاة .

وفي مؤخرة الصورة الأحياء العليا لعدوة القوريين .



اللوحة 2

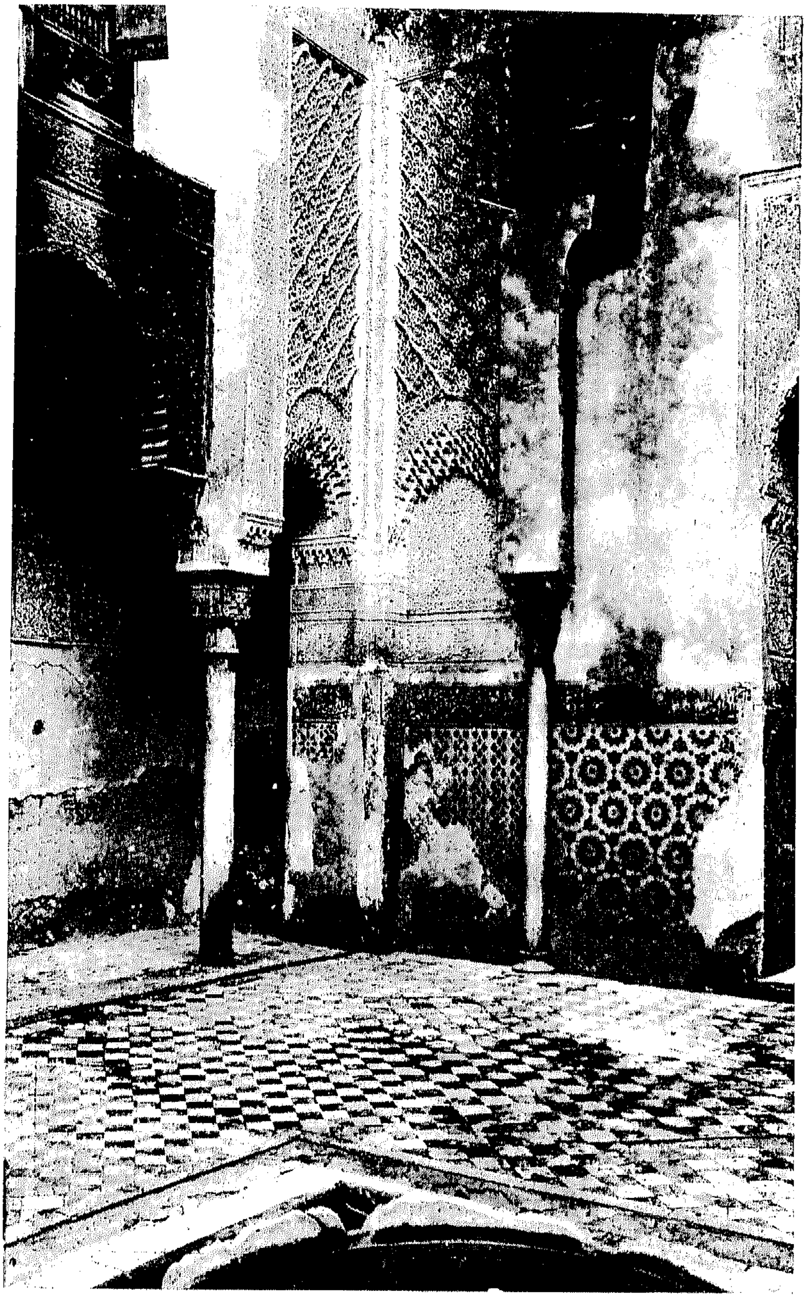
صومعة جامع الأندلس ، وهي شبيهة بصومعة جامع القرويين (القرن العاشر للميلاد) وباب الجامع ، الذي يشاهد هنا قبل ترميمه ، ينتمي إلى العهد المريني .



اللوحة 3

جزء من السور الموحدي بفاس (القرن الثالث عشر م .)

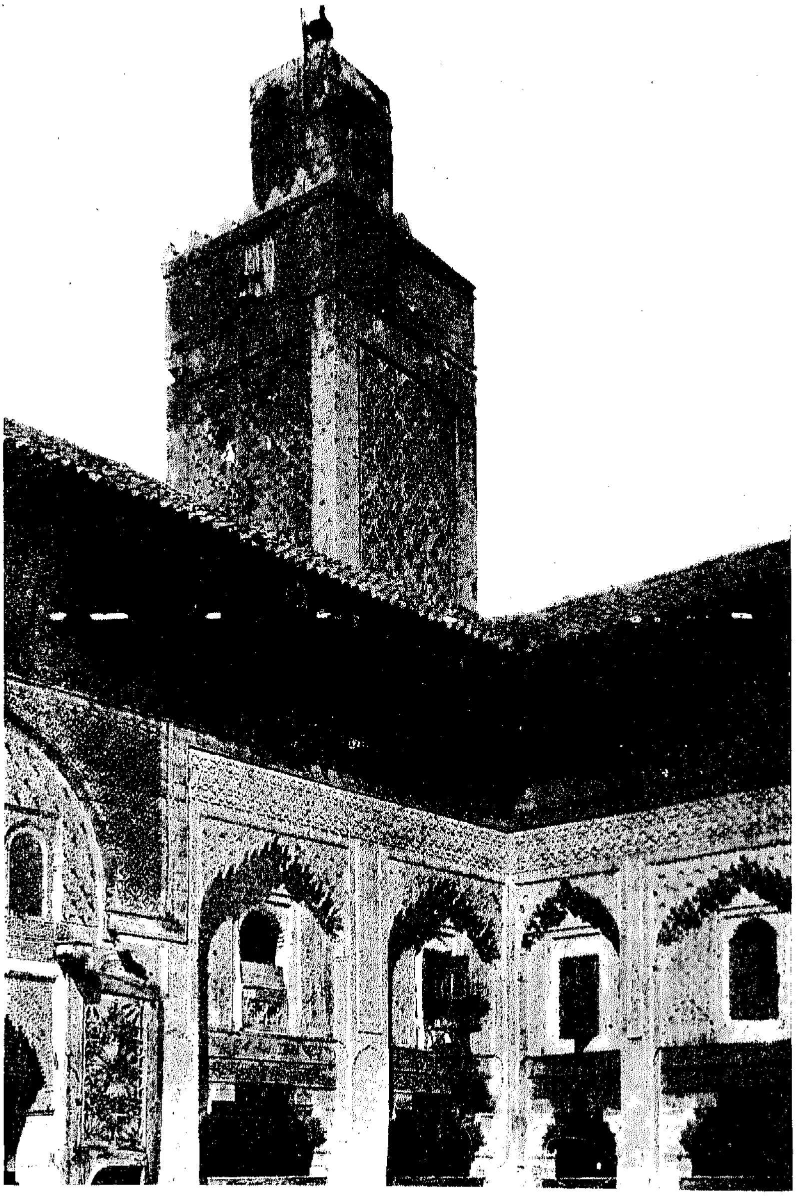
يشاهد جزء من عدوة القرويين ، ومن اليسار إلى اليمين صوامع كل من جامع القرويين ، وزاوية مولاي إدريس (وهي ملتصقة بالقبة الهرمية للضريح) ، وجامع الرصيف . وعلى الربوة المقابلة ، الجزء الجنوبي لعدوة الأندلس .



اللوحة 4

ركن من فناء مدرسة العطارين (من العهد المريني)

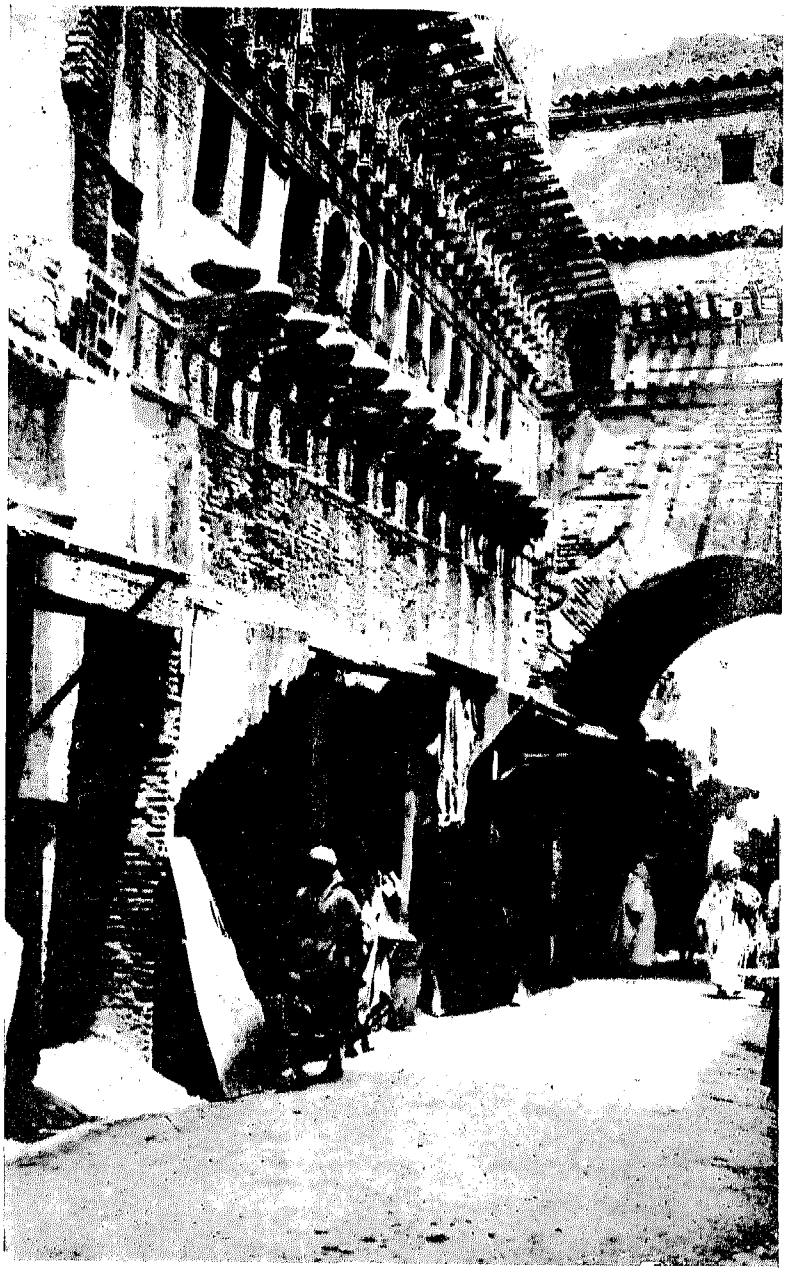
وفي الأعلى ، عن اليسار ، نافذة لحجرة أحد الطلبة .



اللوحة 5

فناء المدرسة البوعنانية وصومعتها .

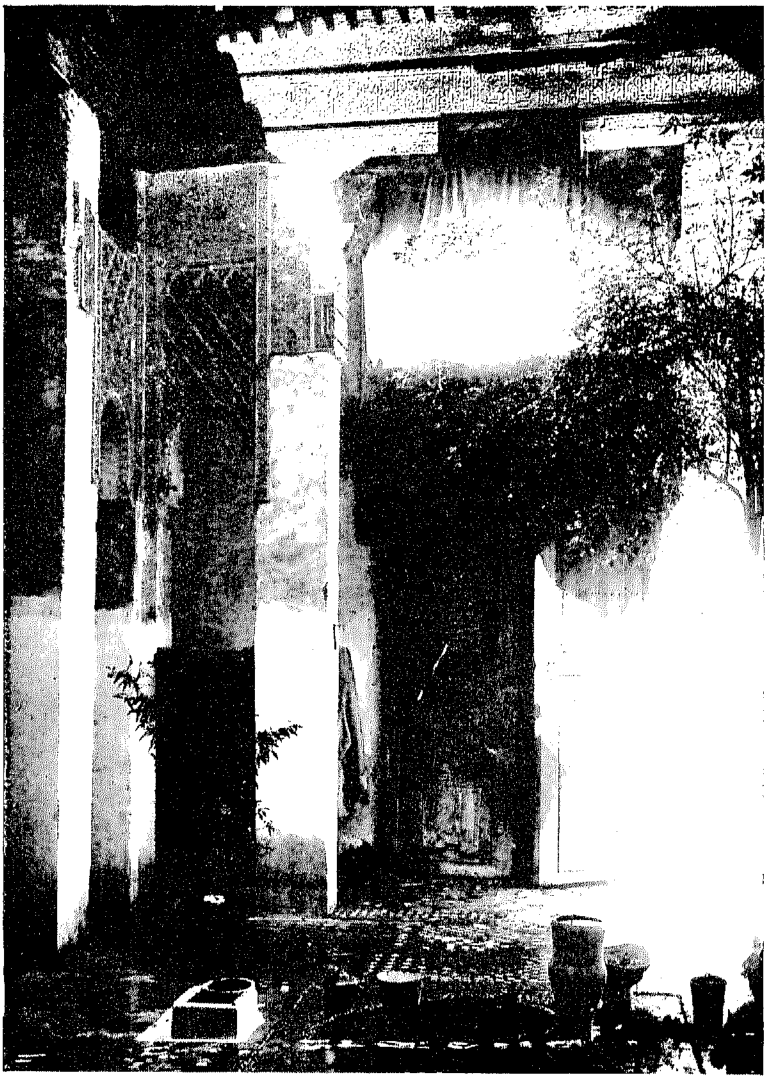
نشاهد هنا الواجهات الموجهة شطر الغرب والجنوب التي بقيت محفوظة بكيفية غريبة لكونها لم تتعرض إلا قليلاً لرداءة الطقس . وفي الطابق الأول ، نوافذ حجر الطلبة ، وإلى اليسار ، باب إحدى قاعات الصلاة .



اللوحة 6

دار الماكانات (من العهد المريني)

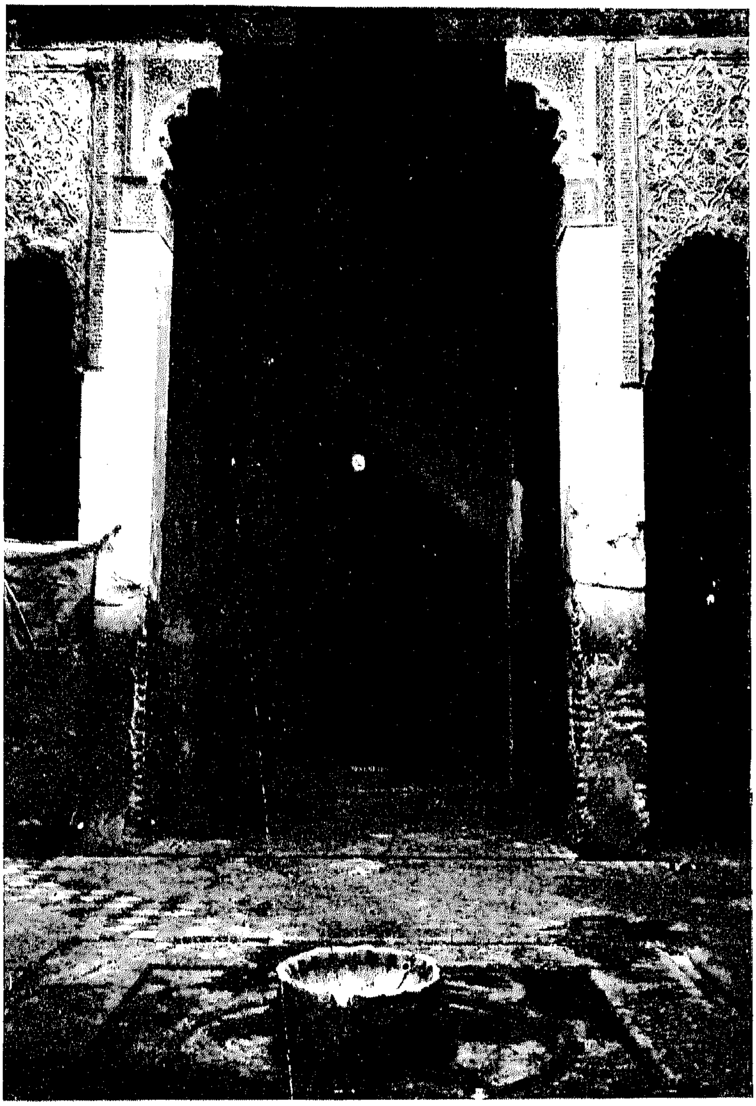
توجد المدرسة البوعنانية في الجانب الاخر من الزقاق . ونشاهد ، على مستوى الطابق الأول ، الصوانج البرونزية التي ربما كانت تستعمل لدق الساعات .



اللوحة 7

دار مرينية

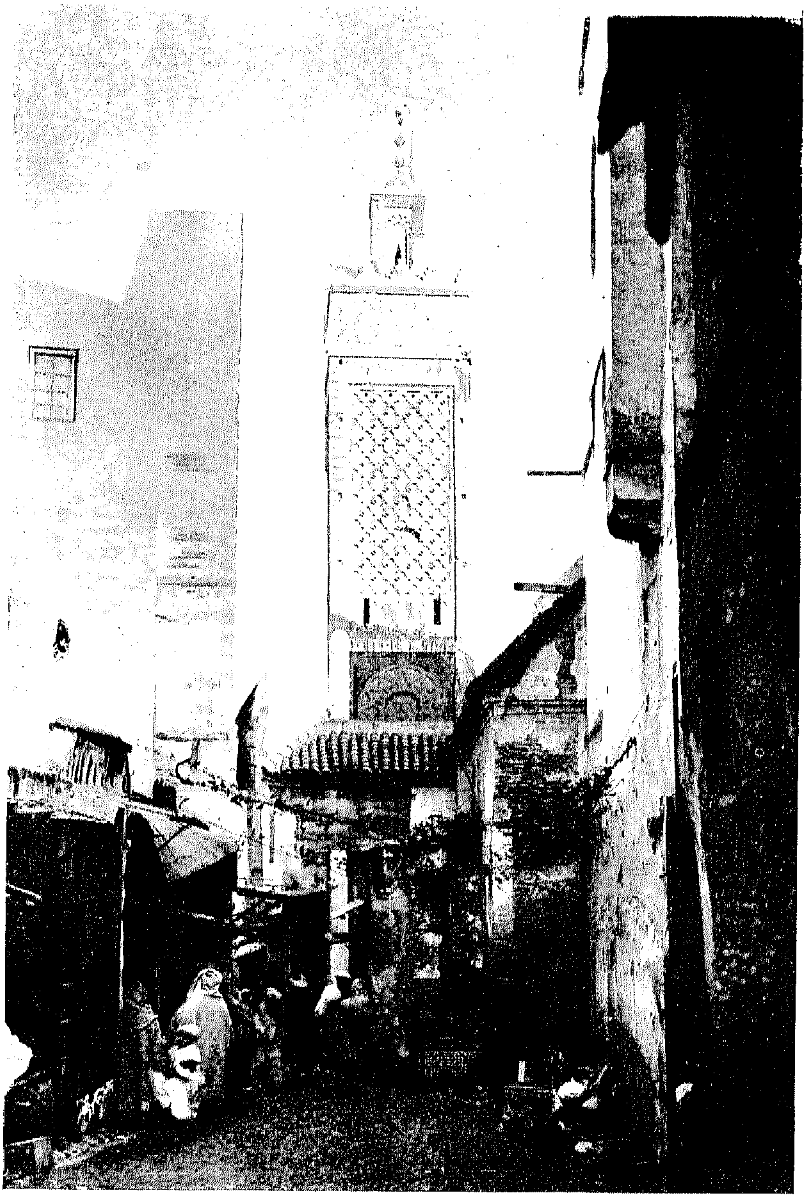
يقطن هذا المنزل حالياً أناس مساكين ، ينبغي مقارنة هذه اللوحة باللوحتين 85 و 86 .



اللوحة ٥

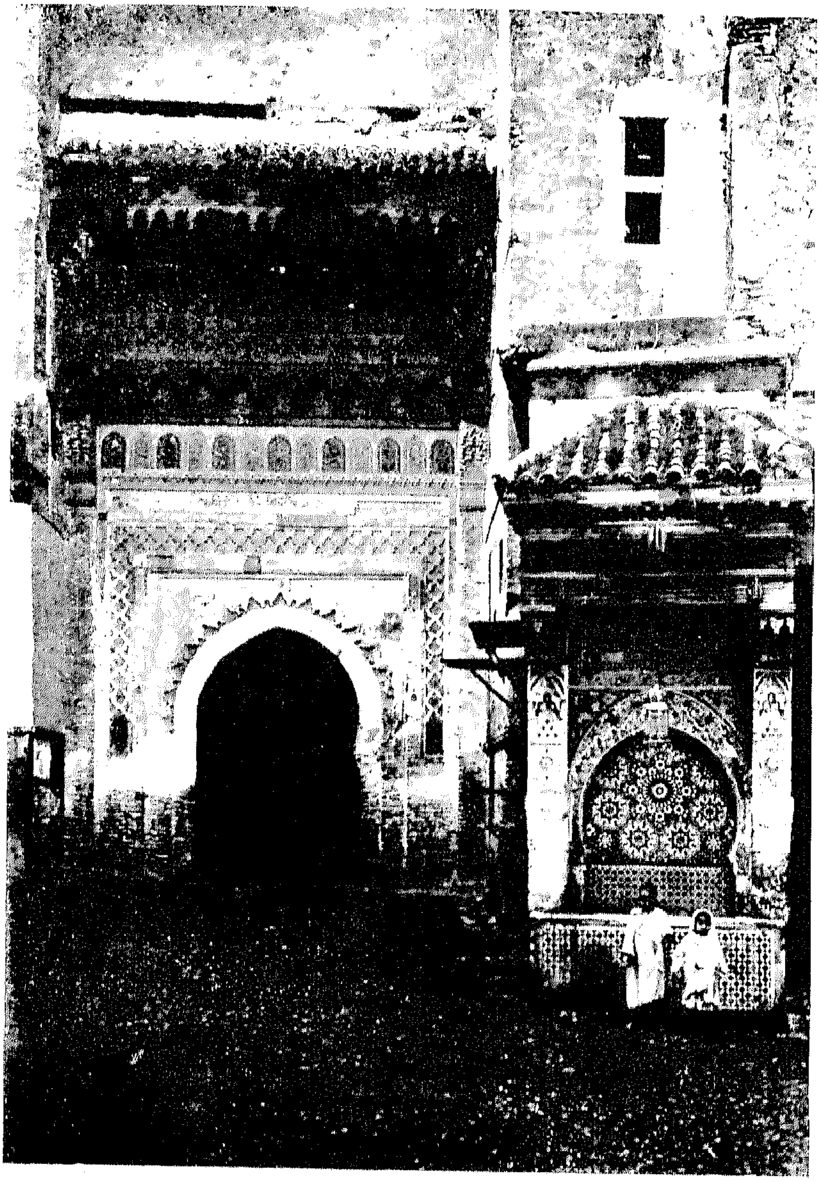
دار مرينية أخرى

نفس التنسيق كسابقتها .



اللوحة ٧

صومعة جامع الشرابليين (من العهد المريني)



اللوحة 10

باب فندق النجارين وسقايته (القرن الثامن عشر م)

ستجد مشهداً للفناء الداخلي لهذا المستودع في اللوحة 51 .



اللوحة 11

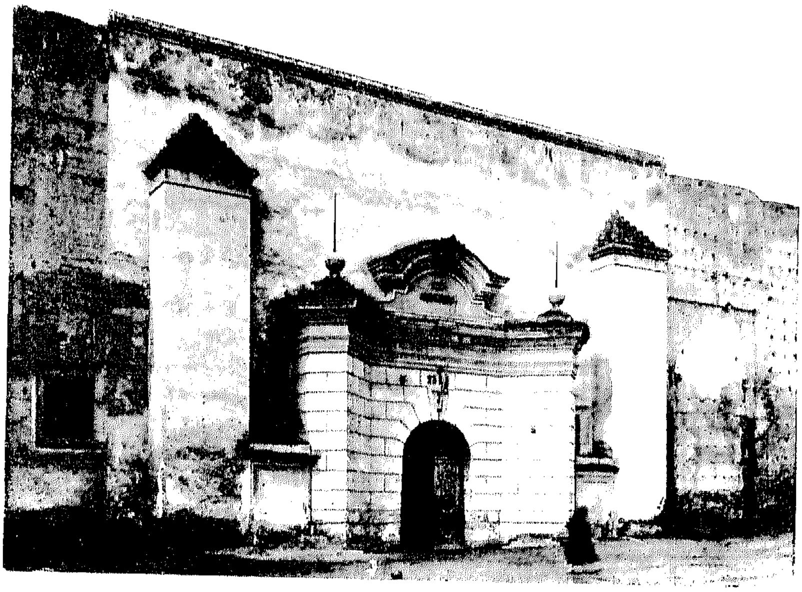
باب قبيبات السمن وفي مؤخرة الصورة باب الدكاكن الهائل (من العهد المريني) . وبينهما ، المشور الجديد .



اللوحة 12

باب الدكاكن أو باب السبع (من العهد المريني)

وعن اليمين باب الماكنة (انظر اللوحة 13) وما وراء باب الدكاكن ، المشور القديم



اللوحة 13

باب الماكنة (اواخر القرن التاسع عشر م) .

لا علاقة لطراز هذا الباب بمجموع بنايات فاس ، لأن الحجر المنحوت الذي استعمل لتأطير الباب من الأشياء غير المعروفة عادة . ويطابق تاريخ 1311 المثبت في أعلى الباب السنتين 1893 -1894.



اللوحة 14

الجامع الكبير بفاس الجديد وحي مولاي عبد الله.

في مقدمة الصورة ، مبان على طول أحد أفنية دار المخزن ، ويشاهد ، عن يسار الصومعة ، قرب قمة الربوة ، السور الأبيض لمصلى باب الساكمة . ويبين البرج المثمن الأضلاع موقع باب الساكمة . وبين هذا البرج والصومعة قصبة ابن دباب .



اللوحة 15

في المقدمة السوق المغطى ، الذي كان يغلق بباب . وأول صومعة هي صومعة جامع البيضاء ، والثانية (وهي من العهد المريني) صومعة جامع الحمراء .



اللوحة 16

منظر شامل للملاح

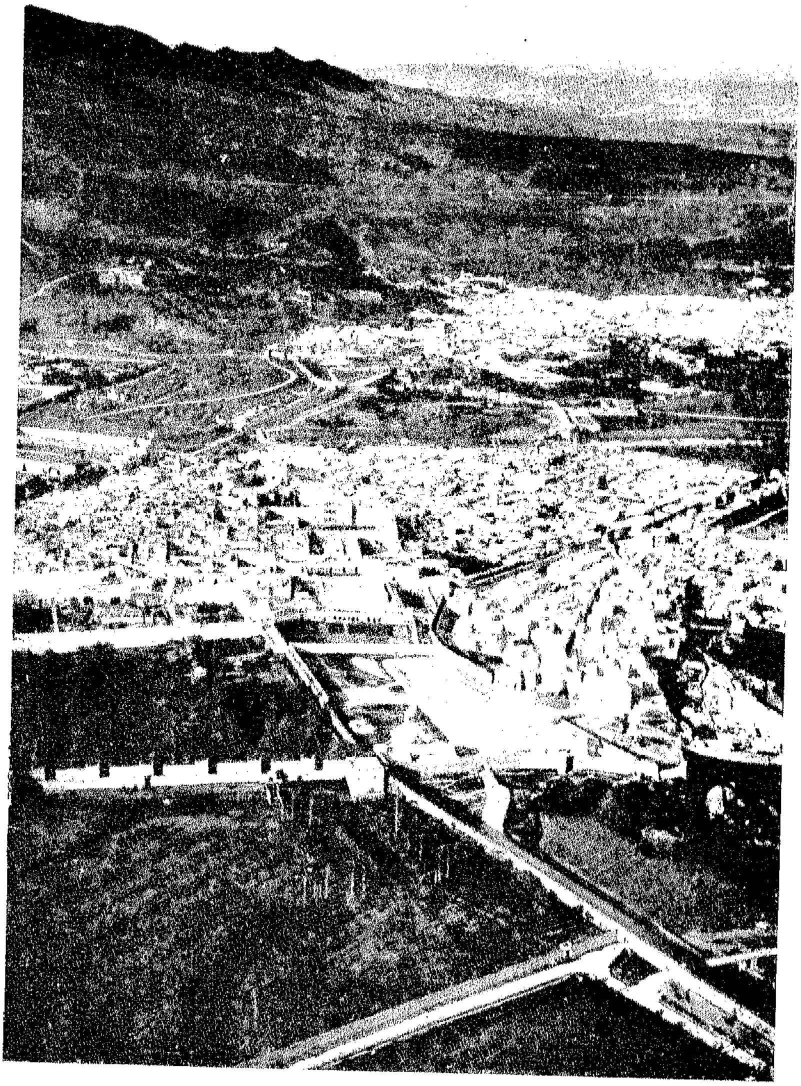
اخذت الصورة من أول منحدرات ظهر المهراس ، في الجانب الجنوبي الشرقي للحي اليهودي . وفي المقدمة ، أفران ومعمل لمصنع الآجر للمسلمين ، وتشاهد وراء الجدار الحديث البناء جداً ، المقبرة الجديدة للملاح ، وتلوح في وسط البنايات ، بعض آثار السور المريني (انظر في هذا الصدد اللوحة 77) .



اللوحة 17

زنقة السكاكين

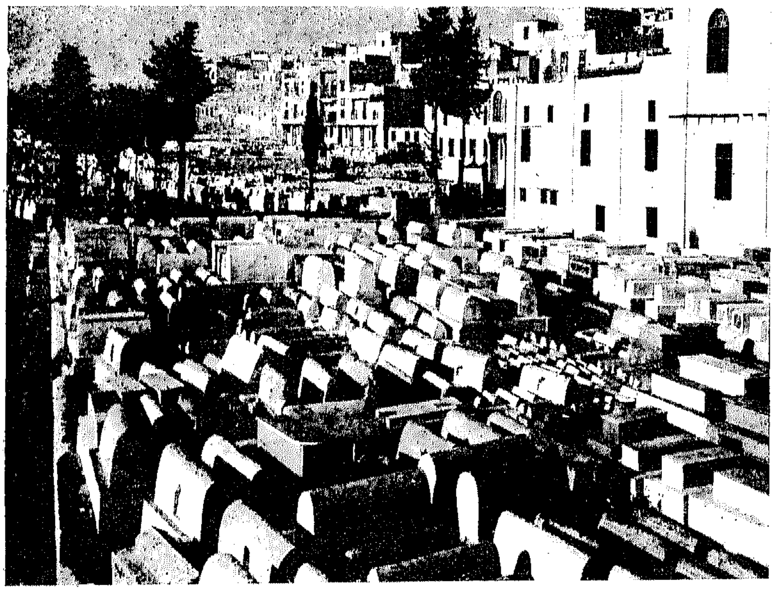
في مؤخرة الصورة ، باب حي اليهود (باب الملاح) . وعن اليمين ، دكاكين لليهود ، ولا سيما الجوهريون منهم ، وعن اليسار ، دكاكين للمسلمين ومخبزة أقيمت بعد الحماية . وفي مقدمة الصورة يهودي بالزي الأسود التقليدي .



اللوحة 18

منظر شامل لفاس الجديد والملاح (صورة جوية)

في المقدمة ، أكدال السلطان . وفي المستوى الثاني وعن اليسار ، السور المزدوج للقصر ، وعن اليمين ثكنة الريفيين ، يفصلها عن المقبرة القديمة لليهود (وهو السياج الصغير الواقع يميناً) جدار ما زال يعد بادياً ، وقد أصبح الكل ساحة التجارة . وفي المستوى الثالث ، الكتلة الإسلامية لفاس الجديد ، وفي الوسط القصر ، وعن اليمين الملاح ، ويحده سور على شكل قوس دائرة . وفي المستوى الرابع ، مضيق بوجلود وبساتين الدوح . وفي المؤخرة ، الأحياء العليا لعدوة القرويين ومنحدرات زلاغ .



اللوحة 19

مقبرة اليهود الجديدة

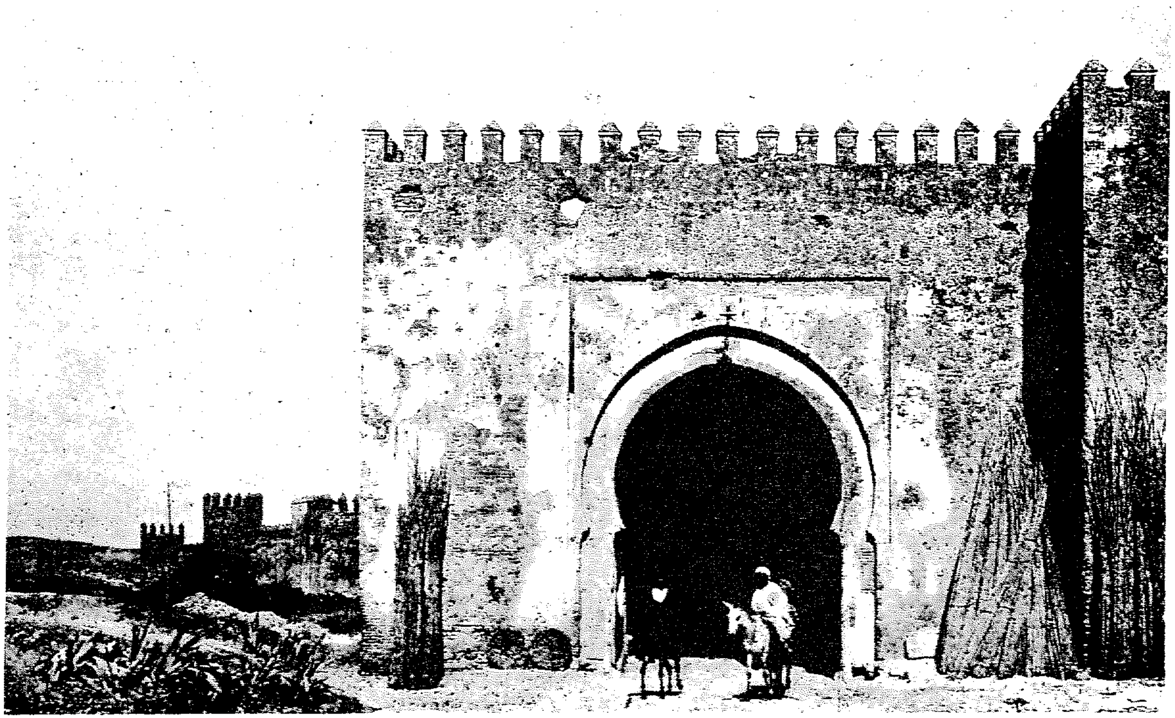
تلاحظ المباني المختلفة الأشكال التي تغطي القبور . وينبغي مقارنتها بالمقابر الإسلامية (انظر اللوحة 94) .



اللوحة 20

باب قصبة فيلالة (من العهد السعدي او العلوي)

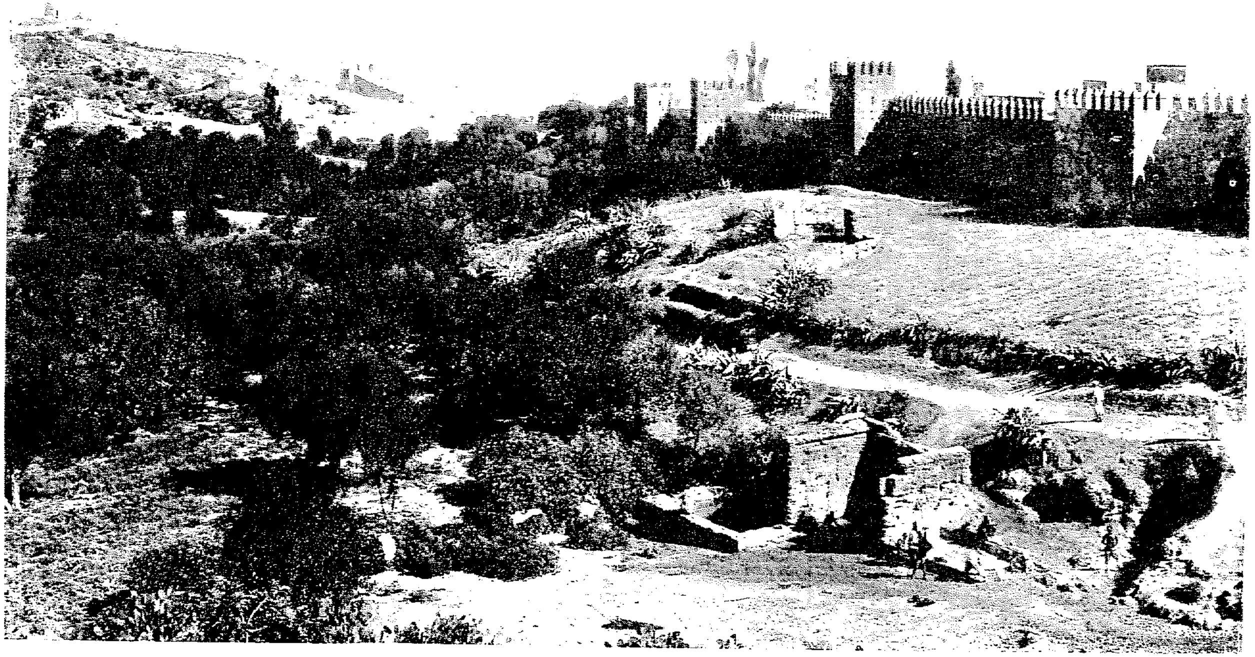
يشكل هذا الباب المنفذ الوحيد لهذا الحي المحاط بأسوار عالية على دائرته كلها .



اللوحة 21

باب محروق (من العهد الموحدي ، وقد رمم فيما بعد) .

كانت رؤوس الثوار تعلق في الشرفات التي تعلو الباب ، وكان عمود التشهير (انظر الكتاب 1) ملتصقاً بالبرج اليمني ،
وحزم القصب الموضوعة في كلا جانبي المدخل معدة للسلالين الذين يعملون خارج الباب وداخله .
ان الراكبين الذين يشاهدون في مقدمة الصورة يمكنون من التأكد بأن وصف **زهرة الآس** (انظر الفصل 1) ليس مبالغاً فيه البتة .



اللوحة 22

شِعب باب محروق

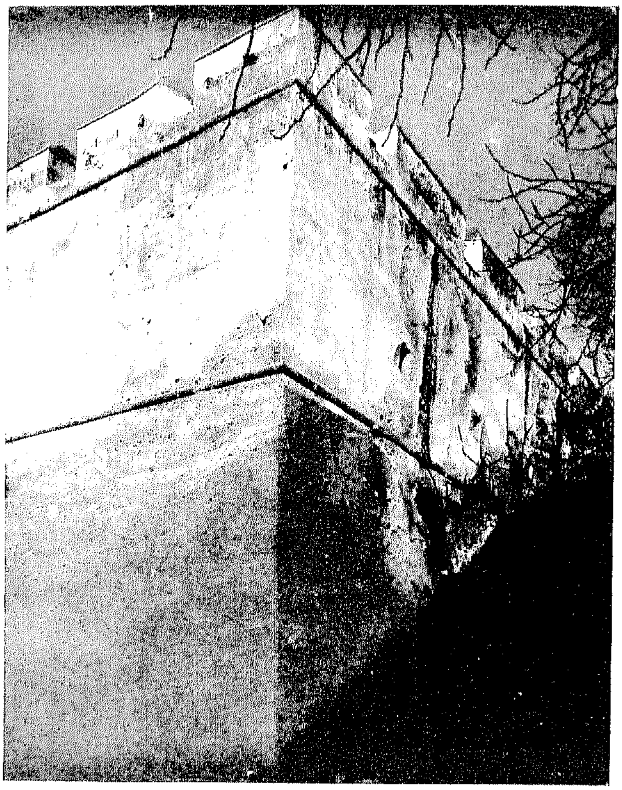
في المقدمة آثار ضريح صغير بجوار عين جارية . وعن اليمين أسوار قصبة فيلالة ، ثم أسوار المدينة . وفي المؤخرة هضبة المرينيين على اليسار ، وروضة سيدي علي المزالي ، وفي الوسط صومعة مع باب عجيسة ، وفوق الصومعة ربوة عنق الجمل .



اللوحة 23

أفران الجير على هضبة المرينيين

إن خط الربوات الذي يحيط بفاس شمالاً مبعثرة فيه أفران مماثلة . وتتوقع في المستوى الثاني ، وجود شعب المدينة .



اللوحة 24

برج الشمال :

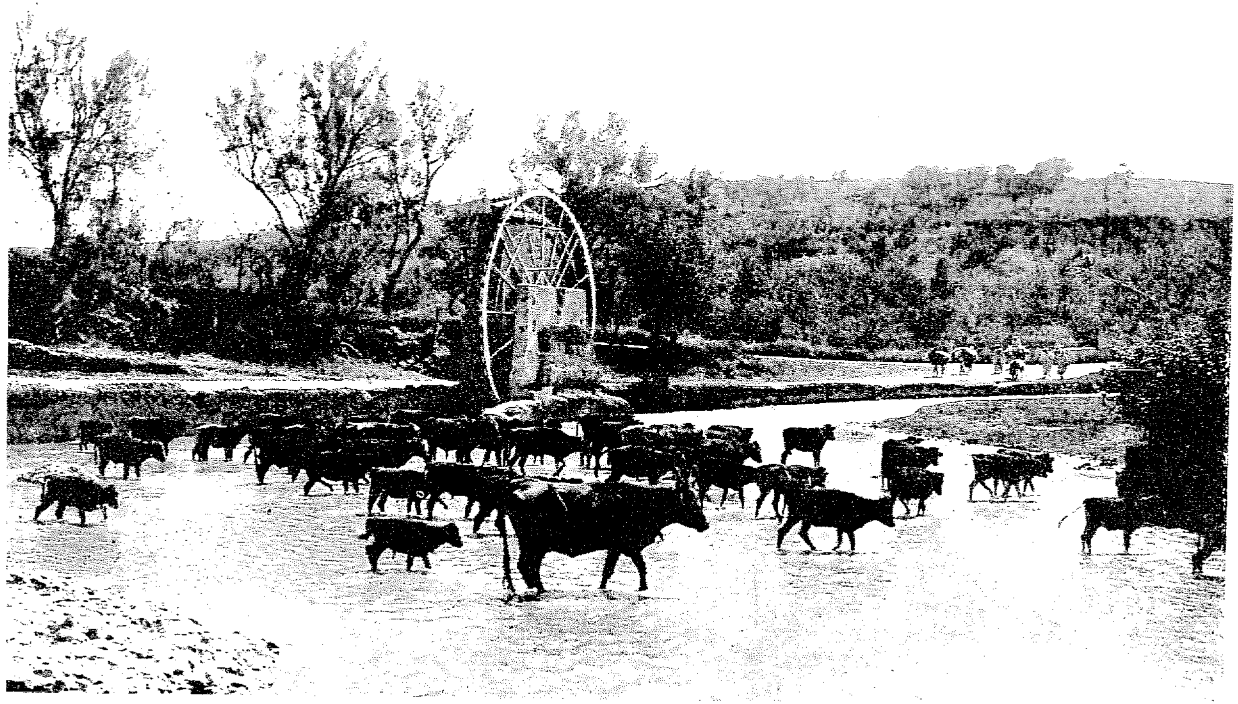
هذه الزاوية الجنوبية الشرقية للحصن الذي هو على شكل نجمة ، وشيد شمالي فاس في العهد السعدي .



اللوحة 25

واد الزيتون في عالية الباب الجديد

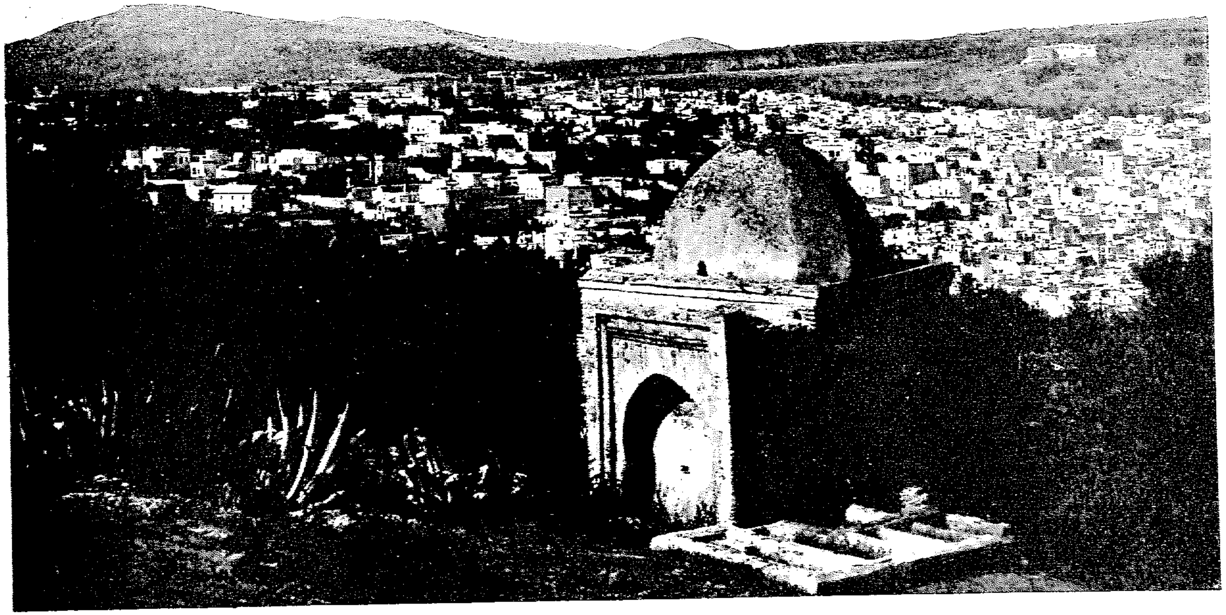
يشتغل بعض المساكين بغسل ثيابهم فيه ، حسب عادة قديمة ، ويلاحظ كثرة الأشجار التي تعشش فيها اللقالق والنغاف . وفي الأعلى واليمين أوراق حي العيون .



اللوحة 26

واد الزيتون قبل دخوله إلى المدينة

بعد أن طفح بمياه بوفكران التي تلقاها منذ قليل ، يمتد واد الزيتون واسعاً قبل دخوله إلى المدينة حيث يصبح واد مصمودة ، وفي الماء ، احد قطعان بقر فاس ، وفي المستوى الثاني ناعورة للسقي . وفي المؤخرة قرويون قدموا لبيع بضاعتهم بفاس .



اللوحة 27

منظر للمدينة من الجنوب

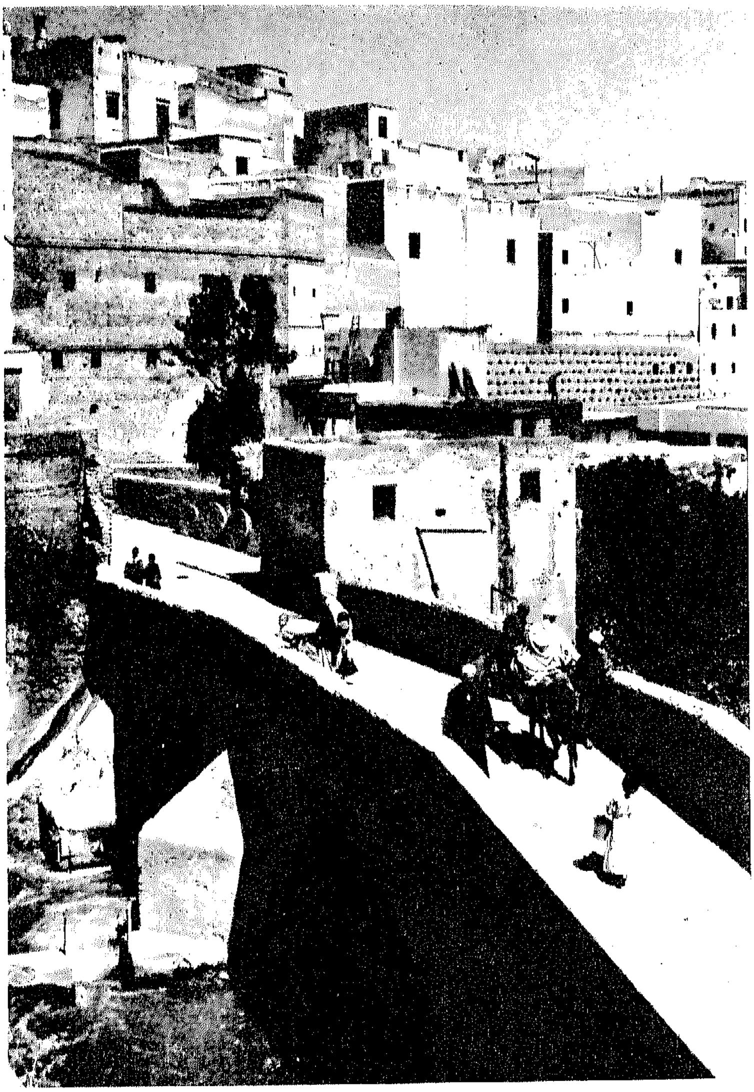
في المقدمة ضريح ومقبرة باب فتوح . وفي المستوى الثاني الجزء الجنوبي الغربي لعدوة القرويين ، ببساتينه ومنازله الجميلة ذات الفناء المكشوف نحو الشرق . وفي المؤخرة جبل تغات عن اليسار ، وفي الوسط قصبة شراردة ، وعن اليمن برج الشمال .



اللوحة 28

تضاريس فاس

منظر التقط من الحي المدعى « الجرف » . ان تراجع الديار يمكن من تقييم وعورة المنحدر .
وعلى اليمين : صومعة جامع الرصيف ، وخلفه بساتين الكدان (باب سيدي بوجيدة) وعلى عدوة الأندلس .
وفي المؤخرة وإلى جهة اليسار جبل زلاغ .



اللوحة 29

تضاريس فاس

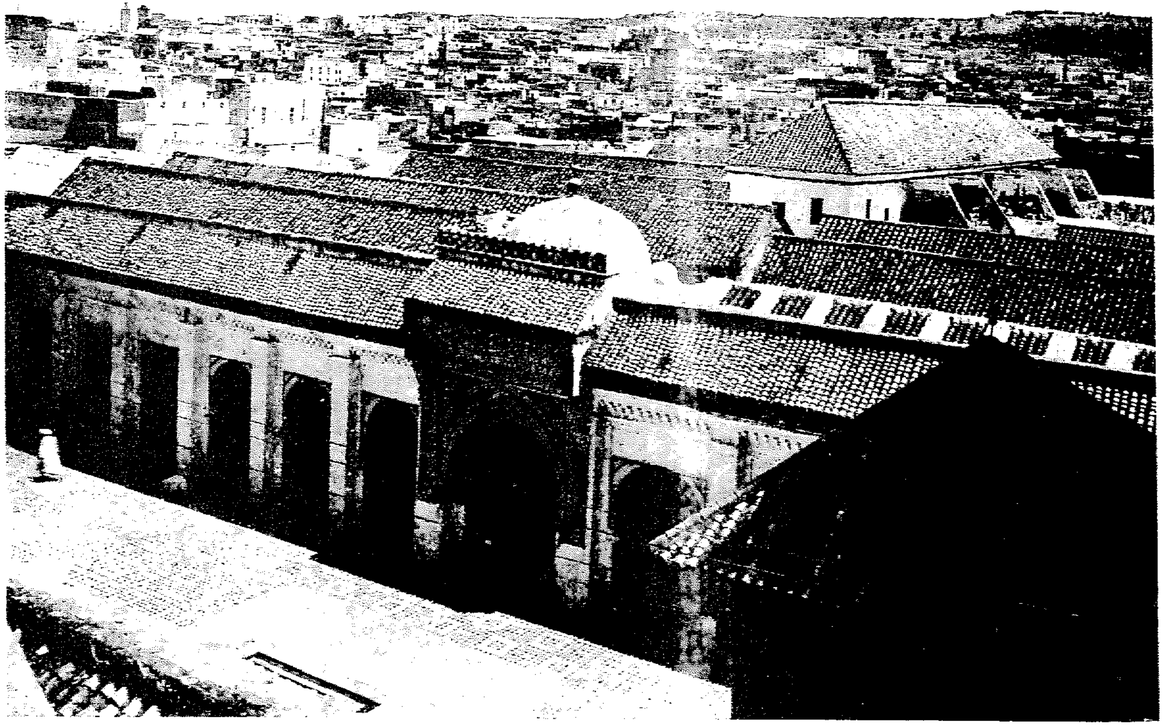
عدوة القرويين التقطت بين قنطرة بين المدن ، يلاحظ ان النهر يكاد يكتنفه مباشرة جرف وعر إلى حد ما .



اللوحة 30

عدوة القرويين : مولاي إدريس والقيصرية

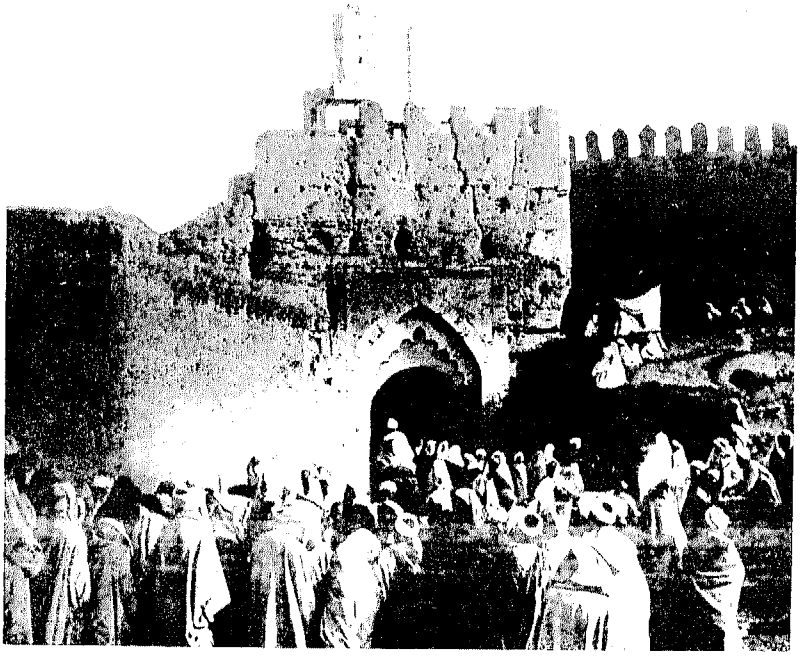
في المقدمة ، القيصرية بدكاكينها بدون طابق وازقتها المظللة بسياجات من قصب مرتفعة بعض الشيء من أجل التهوية . وفي المستوى الثاني زاوية مولاي إدريس (من القرن الثامن عشرة) وفي المؤخرة ، منحدرات الشرابليين ، وفي أقصى اليمين برج الشمال .



اللوحة 31

عدوة القرويين : جامع القرويين

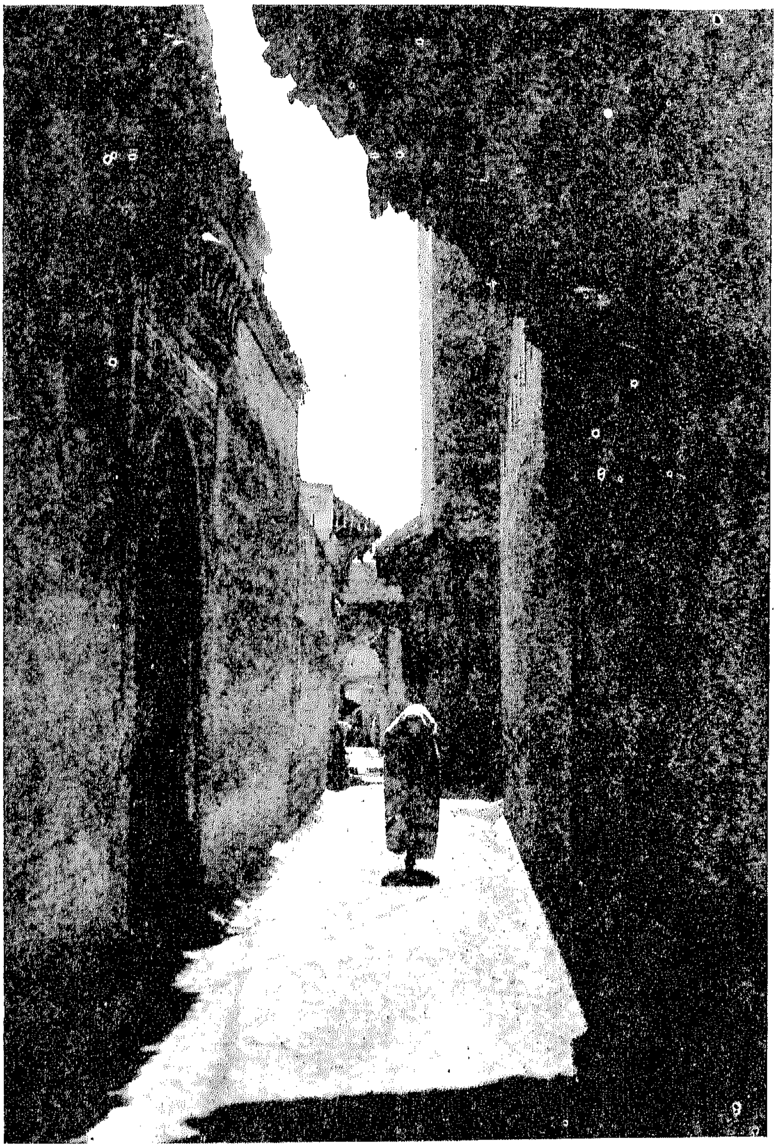
أخذ المنظر ، مثل سابقه ، من سطح مدرسة العطارين . في المقدمة ، الصحن ، وعن اليمين القبة الهرمية لأحد أجنحة السعديين (انظر اللوحة 1) الجناح الذي يغطي المحراب مُعلًّى والباب المواجه له فوقه قبة . وفي المؤخرة ، عدوة الأندلس والأحياء الوسطى . وفي أقصى اليسار ، باب وصومعة جامع الأندلس المقببة .



اللوحة 32

عدوة القرويين : باب عجيسة

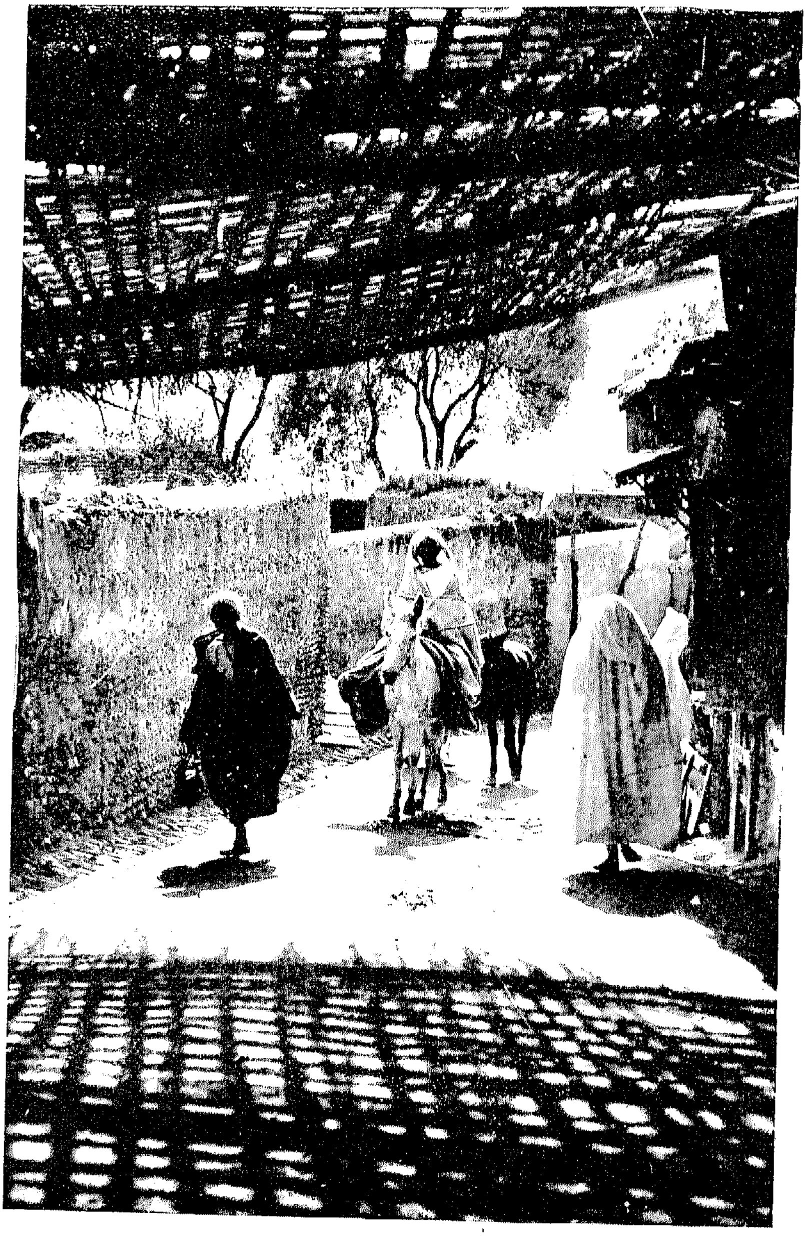
إن باب عجيسة أقل أبواب فاس عظمة ، وهو مفتوح في السور الموحدي (وإن كان ترميم حديث جداً قد غير مظهره بكيفية محسوسة) ، ولكنه ليس أقل طروقاً كما تشهد به هذه الصورة . وخلف الباب ، صومعة جامع باب عجيسة .



اللوحة 33

عدوة القرويين : زقاق حي مركزي (سويقة ابن صافي)

زقاق محاط بجدران بدون نوافذ ، وإن كانت البنايات أقل علوا مما هو معتاد ، لأن الأمر لا يتعلق بدور سكنية ، ولكن بأضرحة تضم مقابر خصوصية ، وفي الوسط امرأة من الطبقة المتوسطة او الشعبية .



اللوحة 34

عدوة القرويين : زقاق دائري (فندق اليهودي)

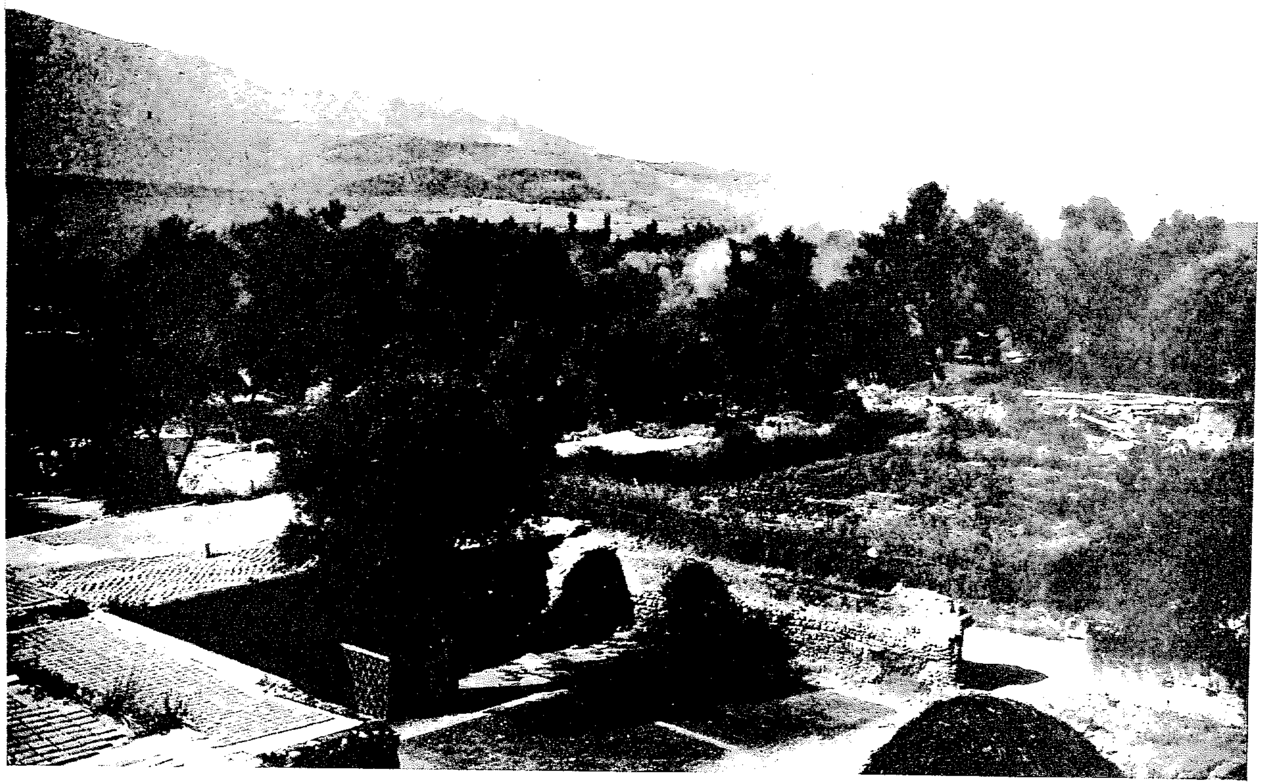
زقاق اوسع من السابق (الأرضية أقل ثمناً) ، دور منحدرة بسيطة ، سكان شبه قرويين ، كما يبينه الزي .



اللوحة 35

عدوة الأندلس باب الجامع

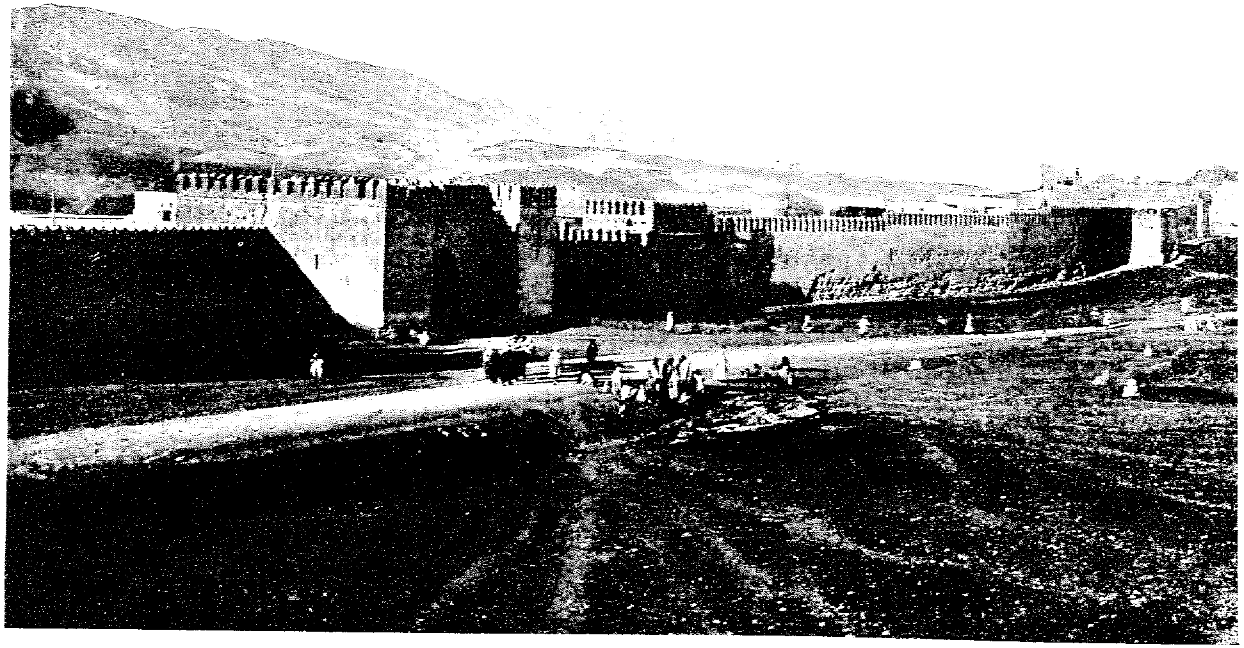
الباب بعد ترميمه : يجب مقارنته باللوحة 2 .



اللوحة 36

عدوة الاندلس ، حي الفخارين .

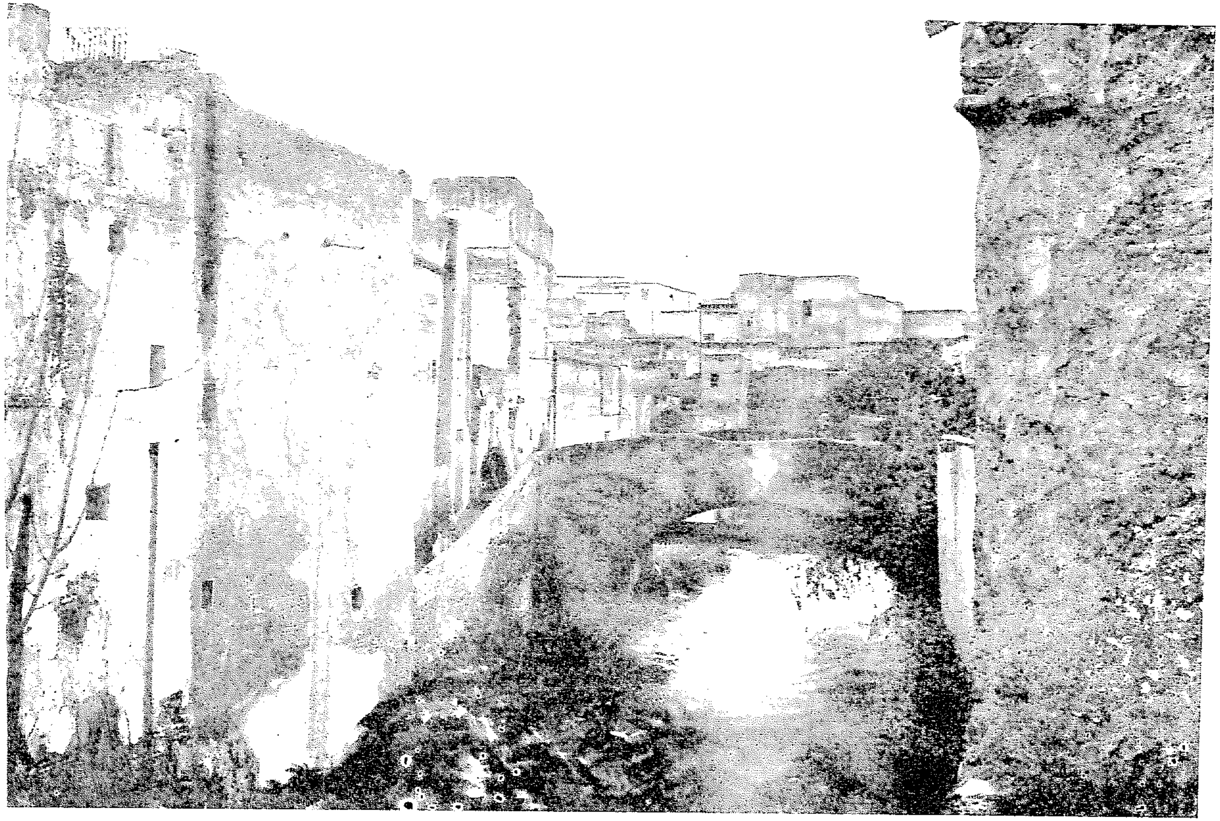
في المقدمة ، ساحة معمل ومبان يُجَفَّف على سطوحها الآجر ومواد أخرى ، وهنا وهناك ، وسط شجر الزيتون ، ادخنة الأفران ، وفيما وراء ، بساتين كُرواوة وزلاغ . ولولا المعامل لكان يتوهم انها في قلب البادية .



اللوحة 37

عدوة الأندلس باب فتوح

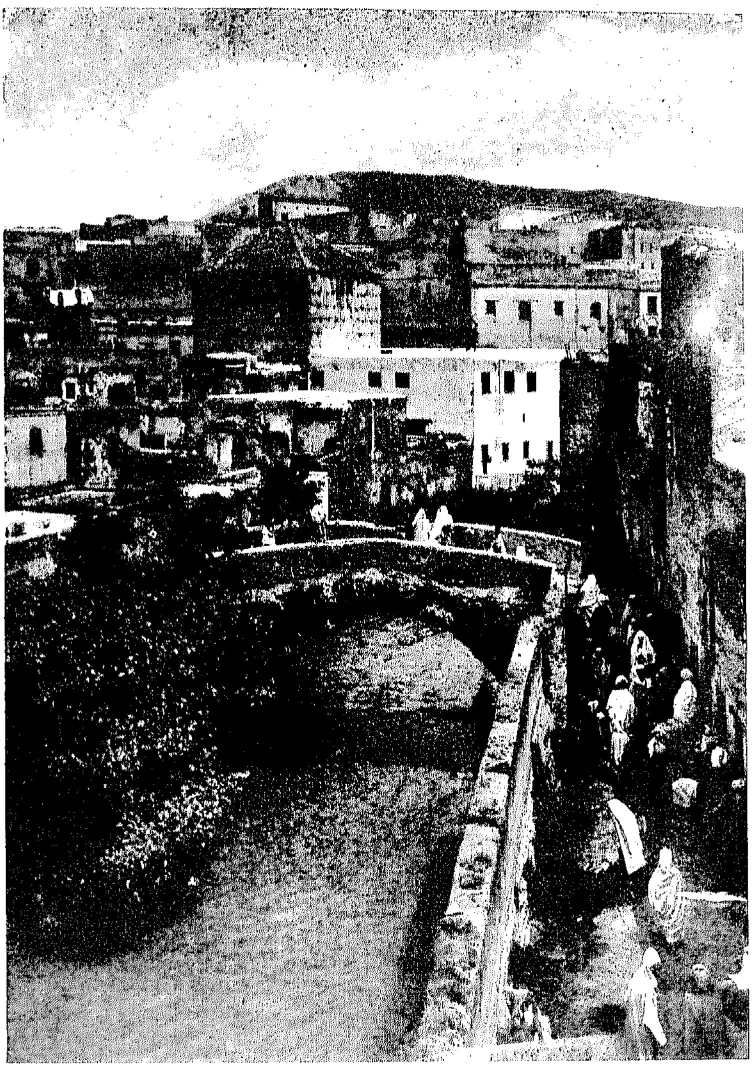
لقد رمم هذا الباب ، كما هو الآن ، في اوائل القرن التاسع عشر . وعلى اليمين قصبة تادرت ، وفي المؤخرة زلاغ . التقطت هذه الصورة من أول منحدرات روضة باب فتوح .



اللوحة 38

قنطرة الصباغين تشاهد من الشمال

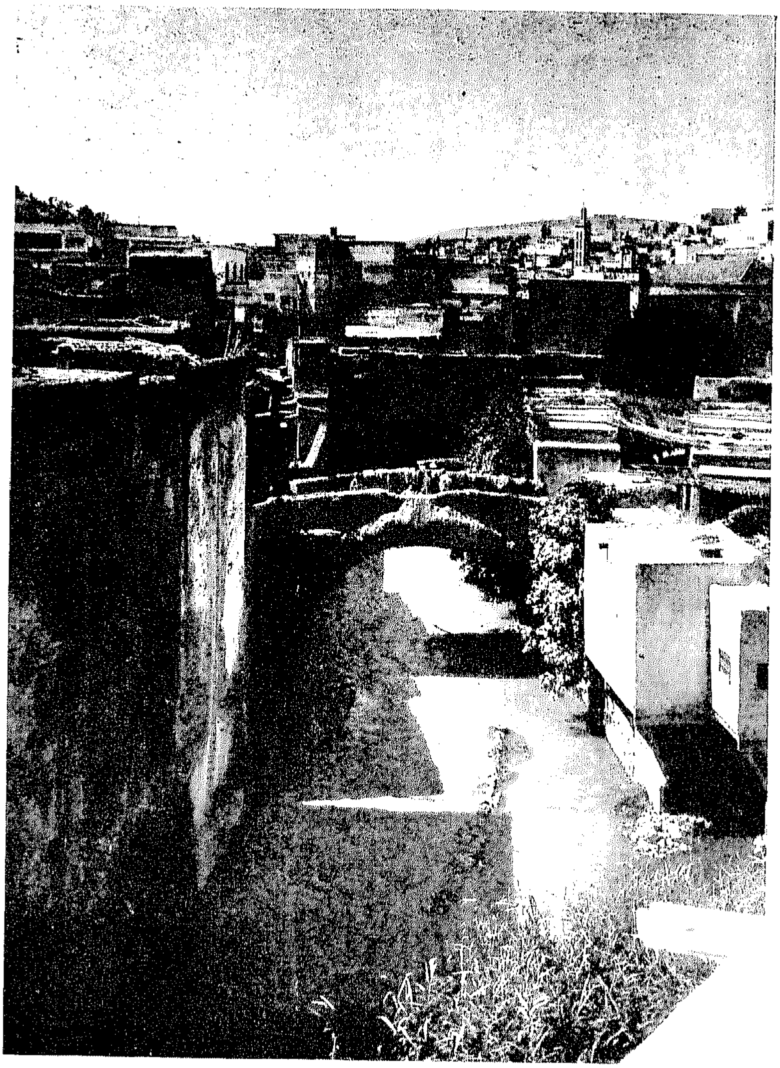
نرى على يسار القنطرة الدرب المسمى كُرْم ابن زكّون وهو ينحدر . يلاحظ ان أي زقاق لا يمدد هذه القنطرة إلى اليسار ، أي إلى عدوة الأندلس .



اللوحة 39

قنطرة الصباغين تشاهد من الجنوب

الزقاق على اليمين في المقدمة هو محج الخرشفيين ، والبناء ذو القبة الهرمية هو قاعة الصلاة لمدرسة الصفارين ، وعن يساره ، تشاهد الصومعة الصغيرة لهذه المدرسة ، وفوقها يجفف لباس الطلبة ، والنوافذ التي ترى حولها هي نوافذ الأنوال (الأطرزة) المجاورة .



اللوحة 40

واد فاس في وسط المدينة

في المقدمة ، قنطرة الدباغين ، وفي المستوى الثاني ، قنطرة الطرافين ، محاطة بالدكاكين من كل جانب . وعلى اليمين ، بين القنطرتين معامل الدباغين . وفي الأعلى إلى جهة اليمين ، سقف جامع الرصيف ، ثم صومعة ضريح سيدي عبد القادر القاسي ، وهي مزدانة بنوافذ مموهة خضراء . وفي المؤخرة، ربوة ظهر المهراس وفوقه حصن عصري صغير .



اللوحة 41

الدكتور ليناريس

طبيب البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب من 1878 إلى 1901 .

صورة نقلت في مجلة المعهد الصحي للمغرب (جزء 9 ، 1932) .



اللوحة 42

الدكتور ليناريس في سنة 1890

رسم مائي لرومبيرج ، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط .



اللوحة 43

القائد ماك لين

صورة نقلها ج . ڤيير (في المغرب ، ص 64) .



اللوحة 44

استقبال بعثة فرنسية من طرف السلطان مولاي عبد الرحمن بمكناس

رسم مأخوذ من « البوم » أوجين لاكروا . يشاهد في الوسط السلطان ممتطياً فرسه ، تقيه مظلته ويحيط به الأعيان ، وأمامه المجموعة الصغيرة من الأوروبيين ، والجنود مصطفون من كل جانب ، وفي الأعلى ، على اليمين ، إشارة لعربة ، ربما هي عربة السلطان .



اللوحة 45

استقبال بعثة المانية بفاس من طرف السلطان مولاي الحسن (1893)

رسم من إنجاز بيركمان ، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط . ان السلطان ، وقد ظللته المظلة التقليدية وأحاط به خدامه ووزراؤه ، من بينهم قائد المشور متقلداً سيفاً يرفع جبته . يخاطب السفير الذي يرى مواجهة ، ومقرنته في يده . وضابط الجنود البروسيين ، الذي يشاهد جانبياً ، وفي يده ورقة ، هو بدون شك ترجمان البعثة . يدور المشهد في مشور باب بوجات . ويظهر في الأعلى وعن اليمين زلاغ وبرج الشمال .



اللوحة 46

سوق « البراغيث » بفاس الجديد .

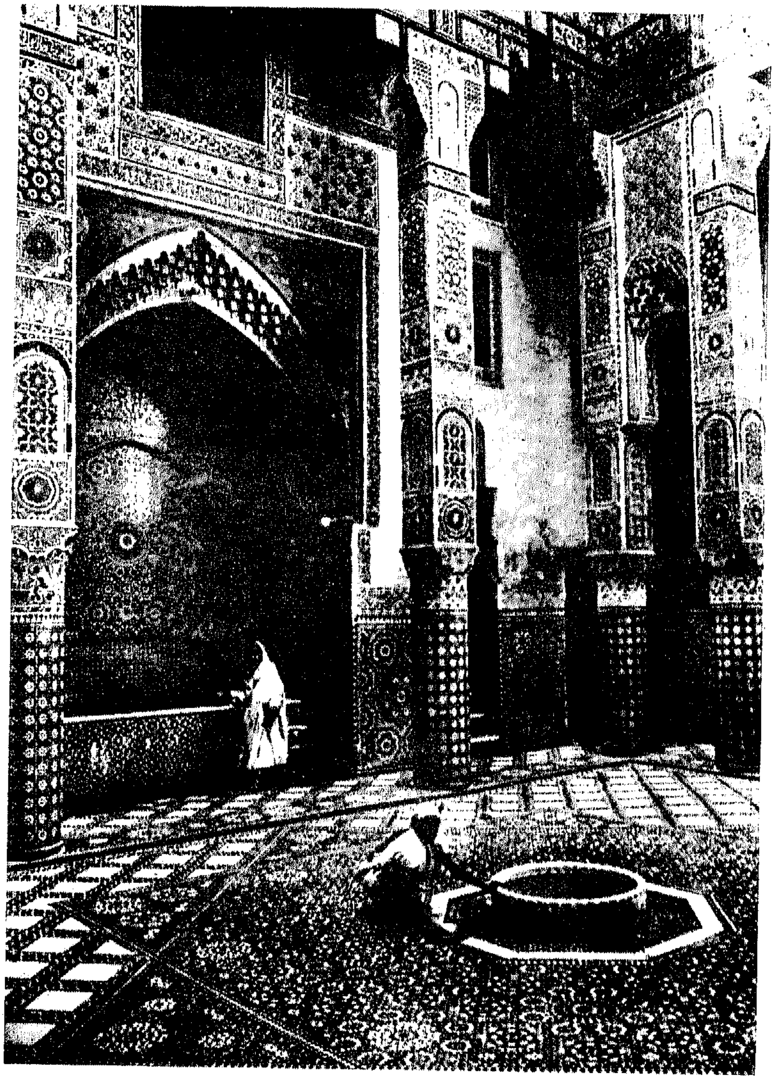
يشاهد مشعوذون سوسيون وهم يبيعون عقاقيرهم وتمائمهم . ويحيط بهم جمهور من الناس يدل زيهم على أنهم ليسوا فاسيين ، بل قرويين ، والكثير منهم فيلاليون أقاموا منذ قليل او بصفة مؤقتة بفاس .



اللوحة 47

بائع الاسفنج

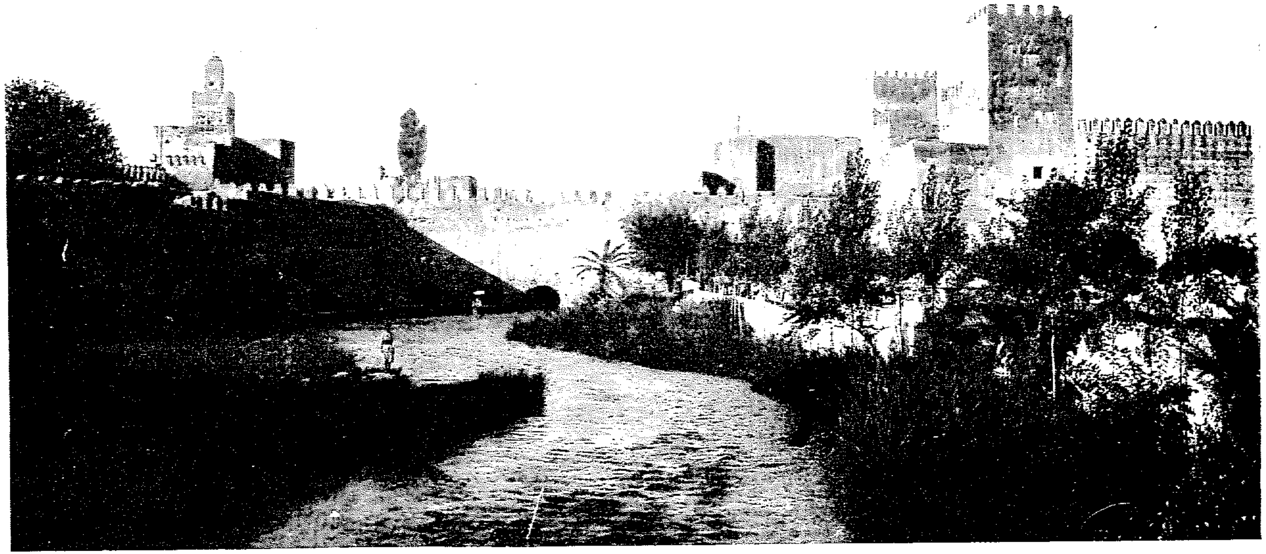
يمسك الطفل الجاثم على حماره ثلاث اسفنجات مربوطة بشريط من العشب يخترقها في وسطها .



اللوحة 48

أمة سوداء في فناء

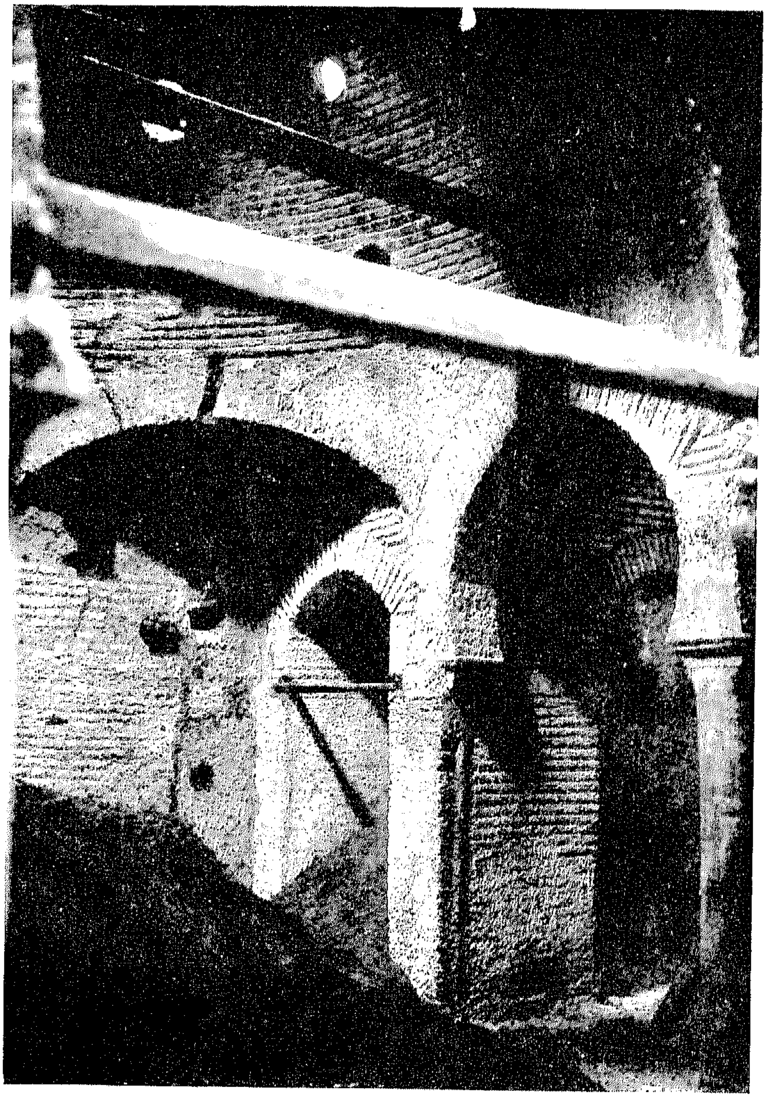
دار في وسط المدينة من بناء حديث (اوائل القرن التاسع عشر) في غاية الزخرفة .



اللوحة 49

تقسيم واد فاس بباب الدكاكن

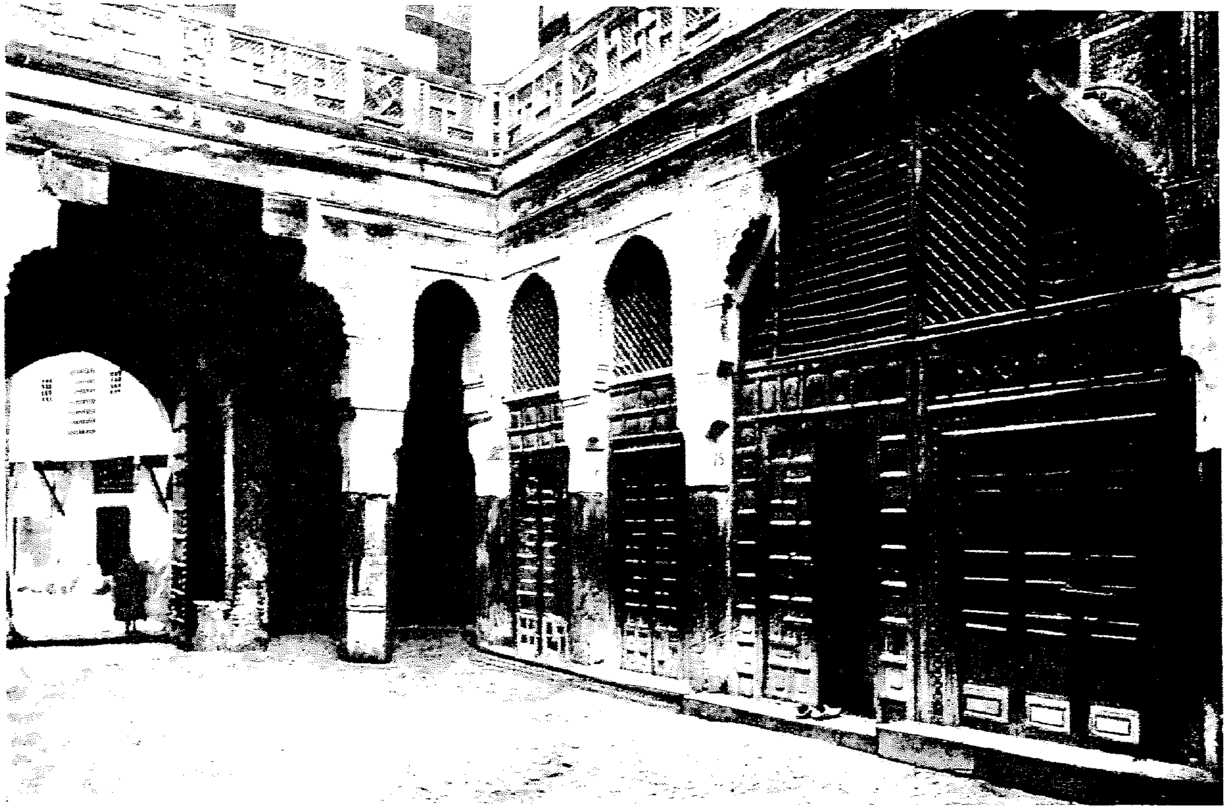
تشاهد ثلاث قبب من جملة الأربع التي يوزع من خلالها واد فاس بعد مروره تحت المشور القديم ، ويتوقع وجود الرابعة على اليمين خلف الصومعة ؛ كما يظهر الجدار الذي يفصل القبب مثنى ، وعلى اليمين بروج باب الدكاكن ، وعلى اليسار ، صومعة جامع فاس الجديد .



اللوحة 50

قاعة حمام

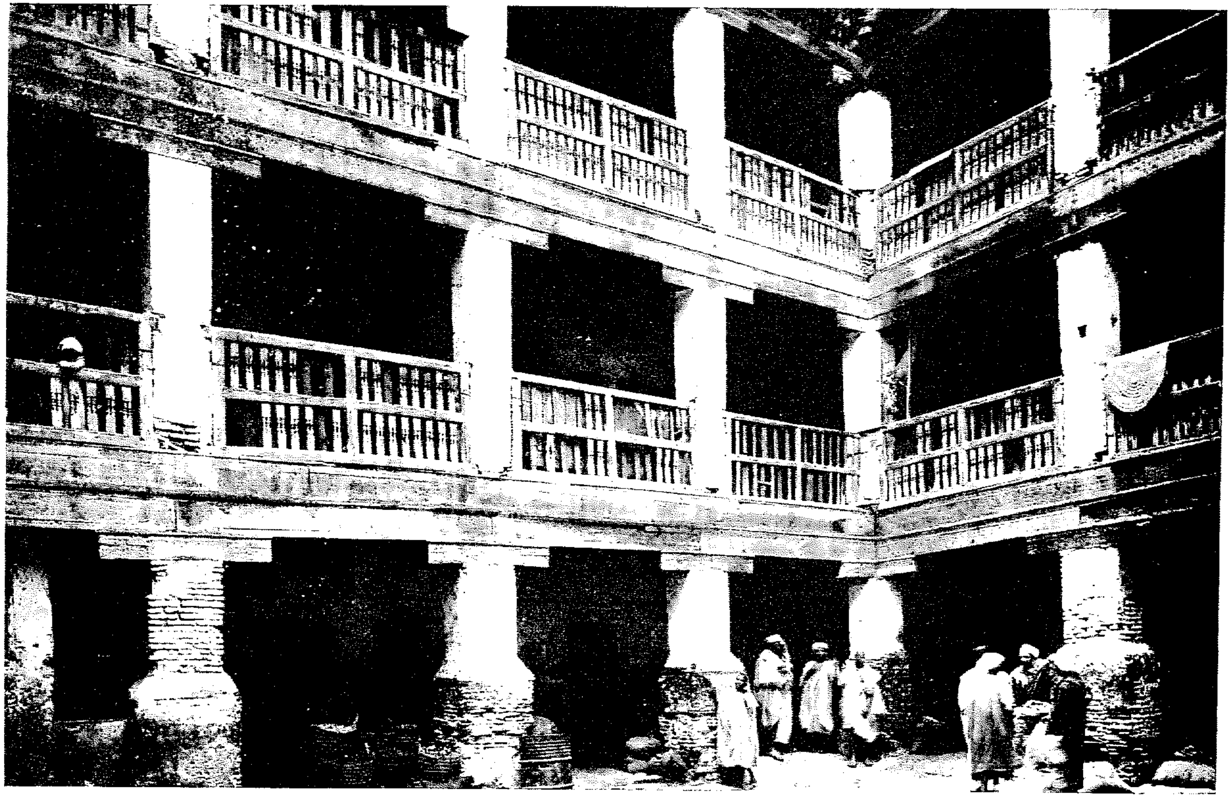
قاعة دافئة لحمام ابن عباد (حي القطانين) ، أخذت هذه الصورة اثناء ترميم المبنى ، ينفذ عادة الضوء من الكوات المستديرة التي تشاهد وهي مفتوحة في القبة التي تغطي القاعة .



اللوحة 51

الفناء الداخلي لفندق النجارين

مستودع يصلح فقط للباعة بالجملة للمدينة والملاح . انظر واجهة هذا المبنى (اللوحة 10) .



اللوحة 52

فناء فندق الشماعين

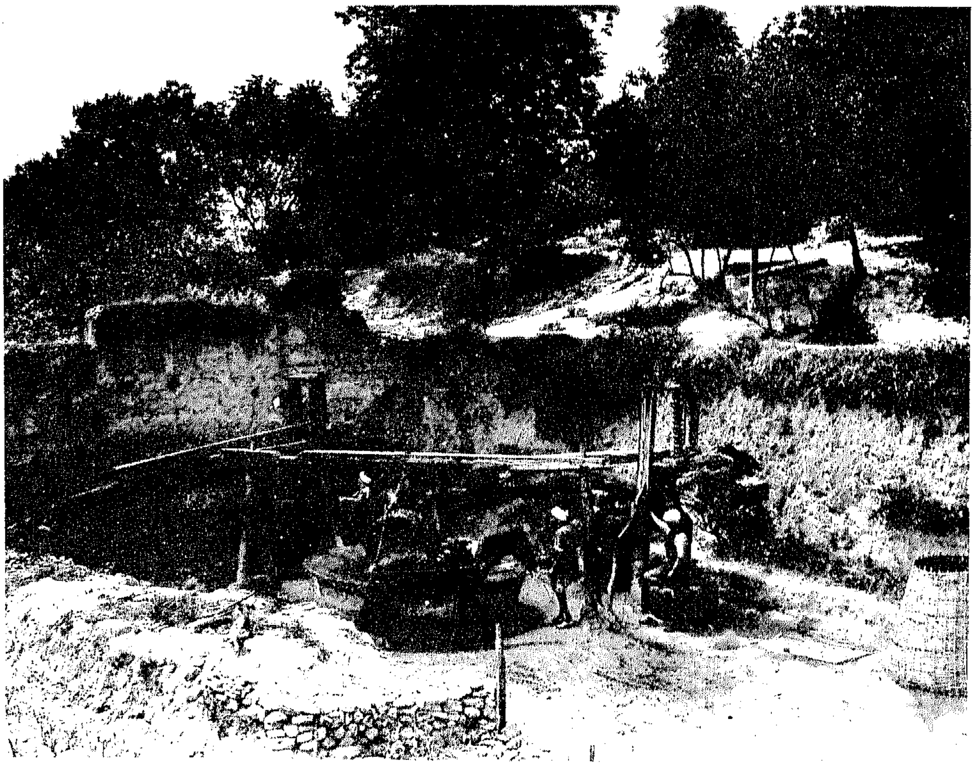
كان هذا المستودع ، وشكله برجوازي أقل من سابقه ، يستعمل كمحطة للقوافل ، وسوق الثمار والخضر الجافة ، التي ترى منها سلال تحت الرواق الشمالي للسفلي ، ويؤوي في غرف الطوابق عدداً معيناً من الصناع ولا سيما من الطرافين .



اللوحة 53

الطواحين على واد فاس

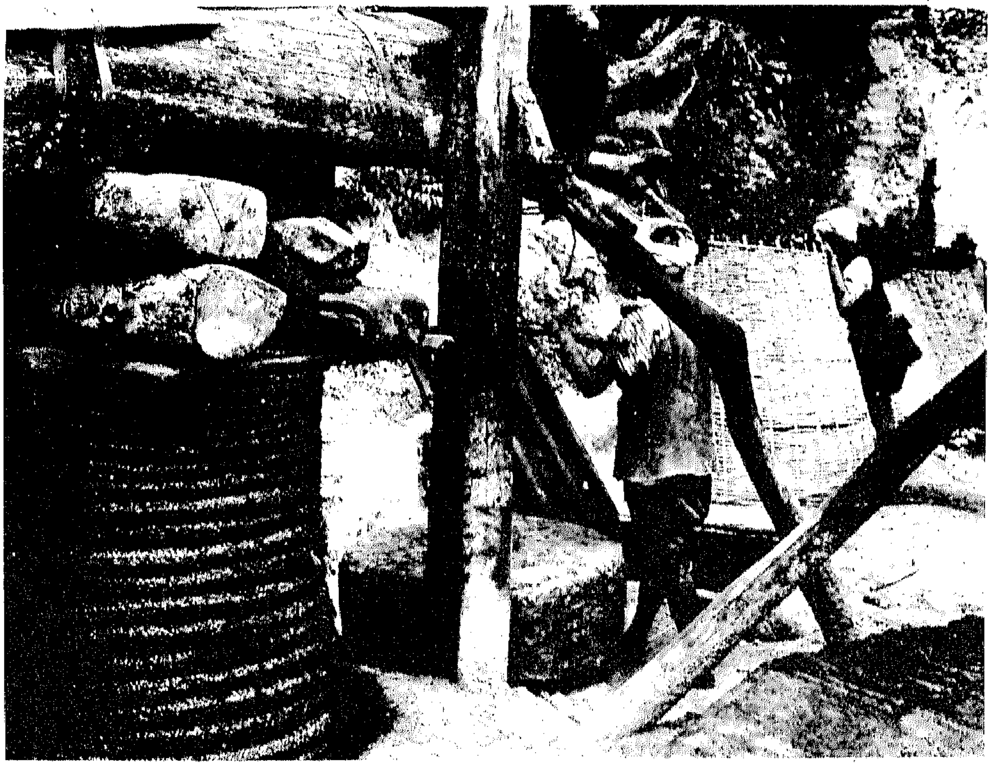
التقطت الصورة من عالية قنطرة بين المدن ، وتكثر الطواحين في هذا المكان على الخصوص حتى تكاد تسد النهر .
وتشاهد على اليمين وفي الوسط القبب التي يخرج منها الماء بعد أن يكون أدار الرحى .



اللوحة 54

معصرة زيت ذات مدورة (حي زقاق الرمان)

تشاهد على اليمين سلّة كدس فيها الزيتون الذي سيعصر ، وفي الوسط الرحى للسحق ، يديرها بغل (بل فرس) ، وعن يمين وشمال الرحى معاصر ذات لوالب (انظر اللوحة التالية) .



اللوحة 55

معصرة زيت

يشاهد هنا كدس من القفف المملوءة بالعجين المستخرج من السحق وتعصرها كتلة من الخشب يحركها دولاب (انظر اللوحة السابقة) .



اللوحة 56

صانع البراذع : (ناحية باب عجيسة)

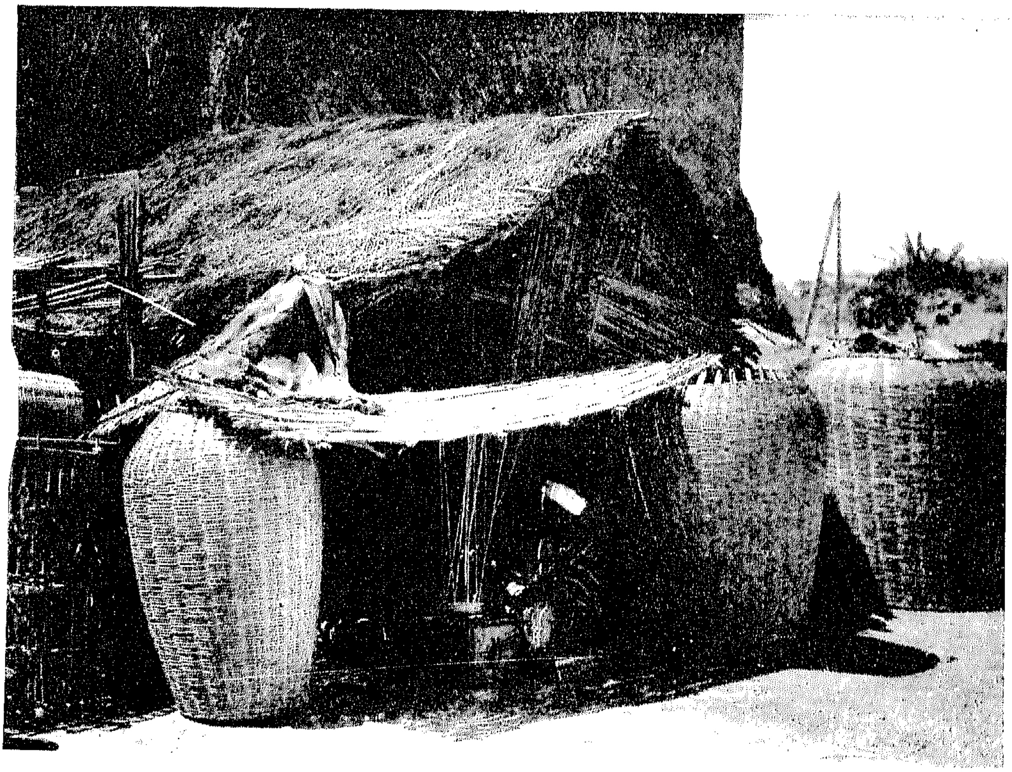
قماش محشو بالتبن على هيكل خشبي ، تعد هذه البراذع لحمالي فاس والبدويين .



اللوحة 57

سلال بباب محروق

يصنع هذا الصانع مكنسات من الدوم بالمقبض او بدون مقبض ، وسلالاً من القصب أو الخيزران ، وتشاهد الخيزرانات وهي مسندة على الجدران ، وتستعمل كمادة خام، وتنبت في البساتين بفاس.



اللوحة 58

سلال خارج باب محروق

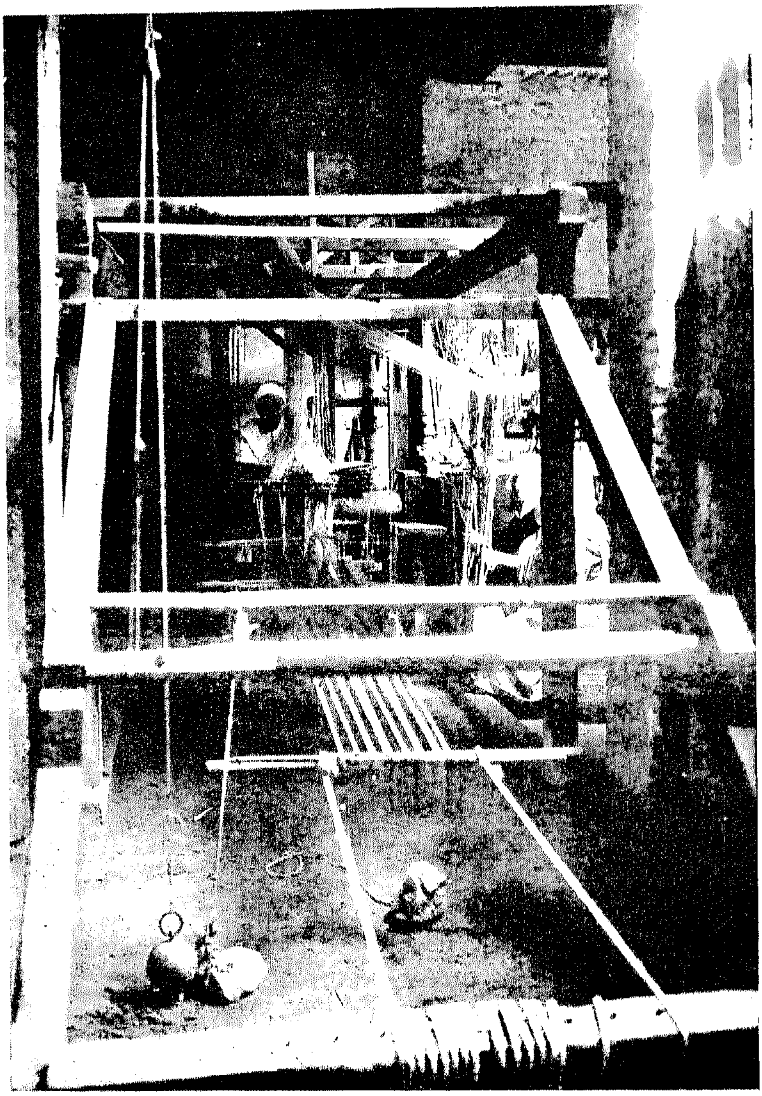
تشاهد على اليمين سلال كبيرة للحبوب (محفة) ، وعلى اليسار اقفاص دجاج وفوقها قفص حمام او طيور مغردة .



اللوحة 59

مدبغة بفاس وهي تشتغل

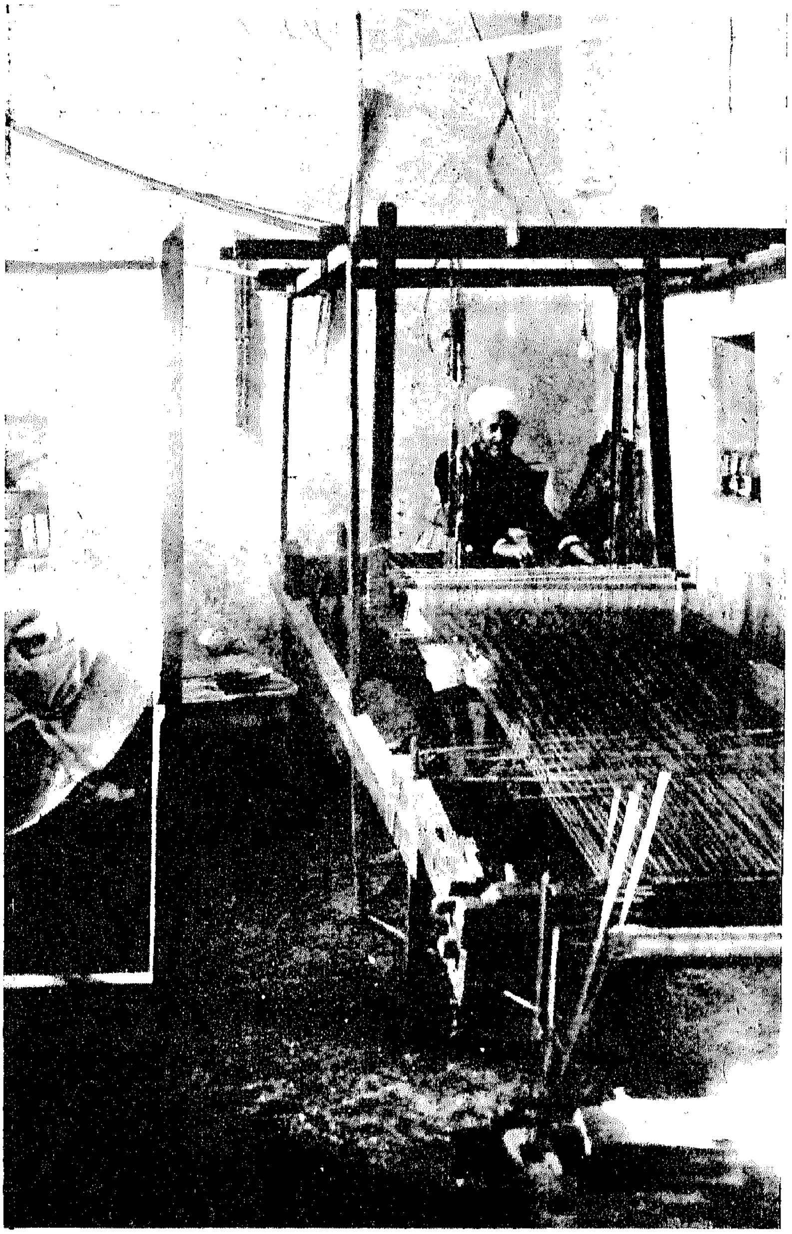
تبين الصورة أحد الأجزاء الثلاثة لمدبغة شوارة . وتشاهد في المقدمة الجفان والأحواض ، الجفان فردية ، والحوض الموجود على اليسار ، مشترك بين جميع دباغي الجزء ، وهو يستعمل لغسيل الجلود . وتوجد في الطريق العليا معامل تطرية الجلد ، وعلى السطوح وعلى طول الجدران جلود الماعز وهي تجفف .



اللوحة 60

معمل نساج

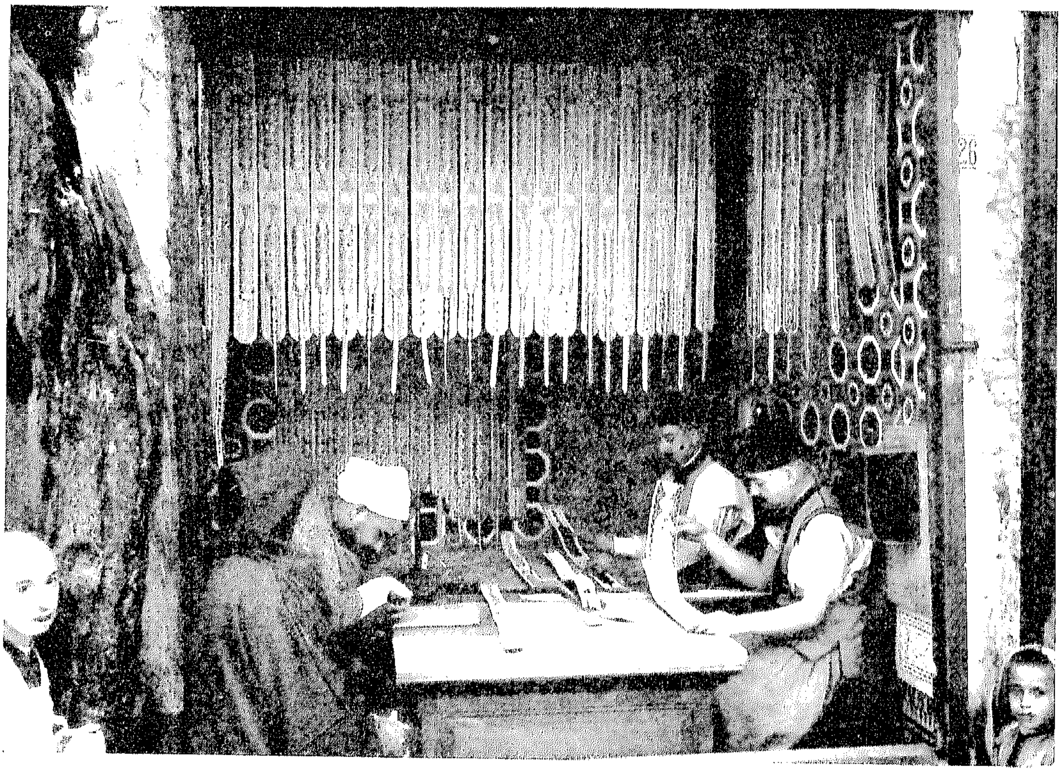
نول ذو حبالة كبيرة مجهز لنسج مناطق الزينة لنساء فاس .



اللوحة 61

نول النسيج

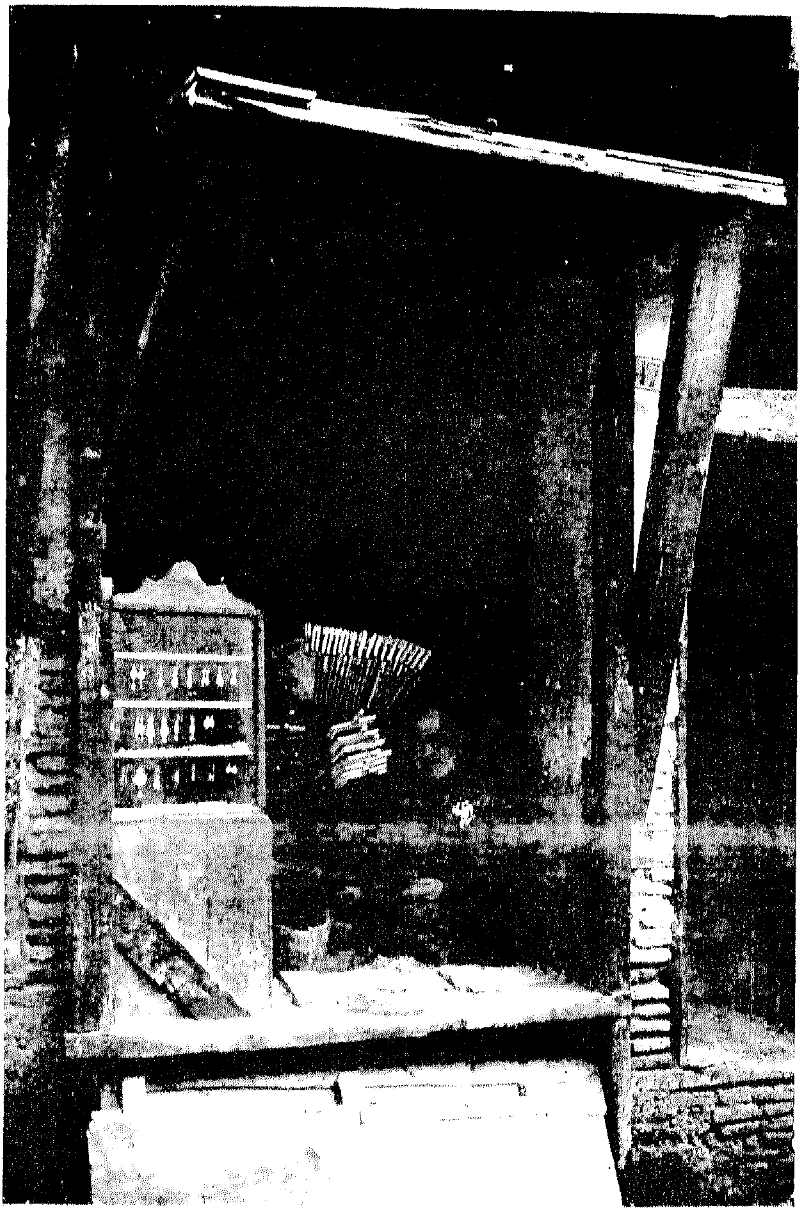
نول ذو حبالة كبيرة مجهز لنسج أغطية من الكريب . لا يشغل هذا النول إلا عاملاً واحداً ، بينما الأنوال للمنسوجات العادية ، وهي أكثر عرضاً ، تشغل عاملين اثنين .



اللوحة 62

معمل لصانع المناطق

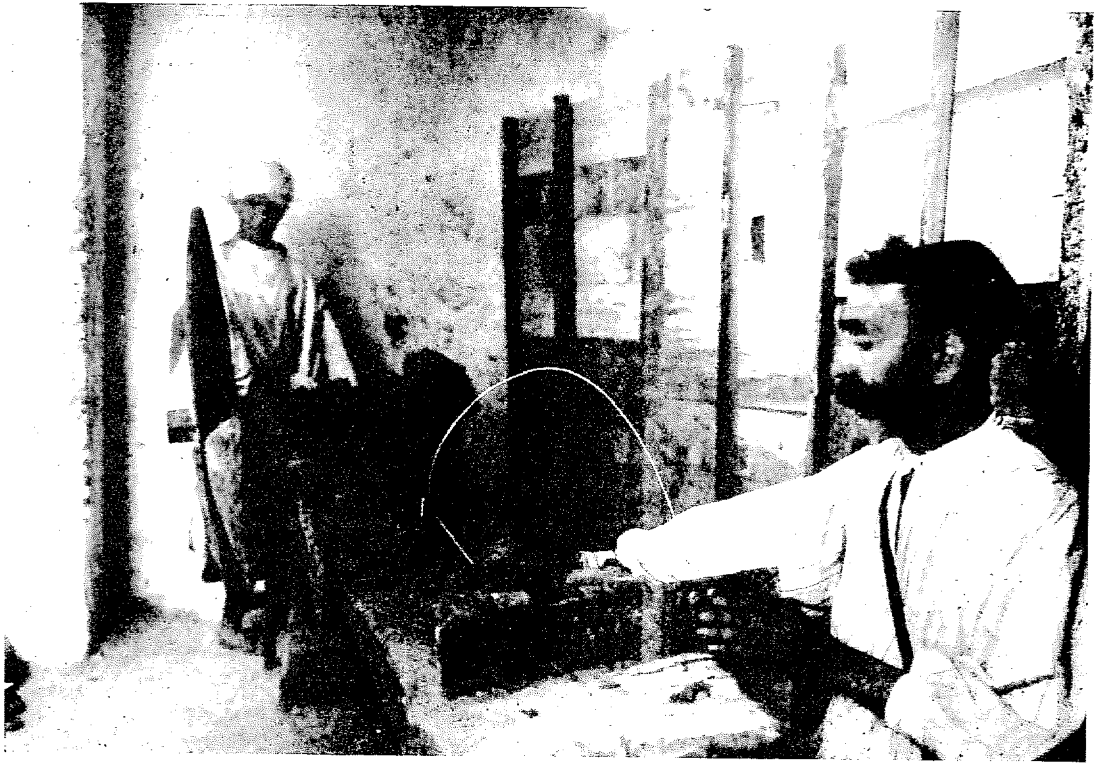
المناطق من الجلد المغشى تماماً بتطريزات بالخيط الذهبي والفضي . يرتدي الصناع الموجودون على اليمين اللباس الفاسي ، لأن هذه الحرفة يزاولها صناع من أصل مدني موسرون نسبياً . والشخص الموجود في المقدمة على اليسار برجوازي أو أحد العلماء جاء ليقضي بعض الوقت عند الصناع ، كما يفعل الكثير منهم .



اللوحة 63

الصناع اليهود ، صانع نفاشات الصوف

صانع مقيم بالمدينة (ناحية قنطرة بورُوس) في داخل الدكان نفاشات جاهزة للبيع . وعلى اليسار خزانة ذات رفوف صغيرة تحتوي على حلي من الفضة معد للبدويين العابرين أو للسكان شبه البدويين في الأحياء المحيطة .



اللوحة 64

الصناع اليهود : قالد الذهب والفضة

حرفة بدائية أقيمت بالمدينة (بدار السكة) . العامل اليهودي (في المقدمة) يساعده عون مسلم .

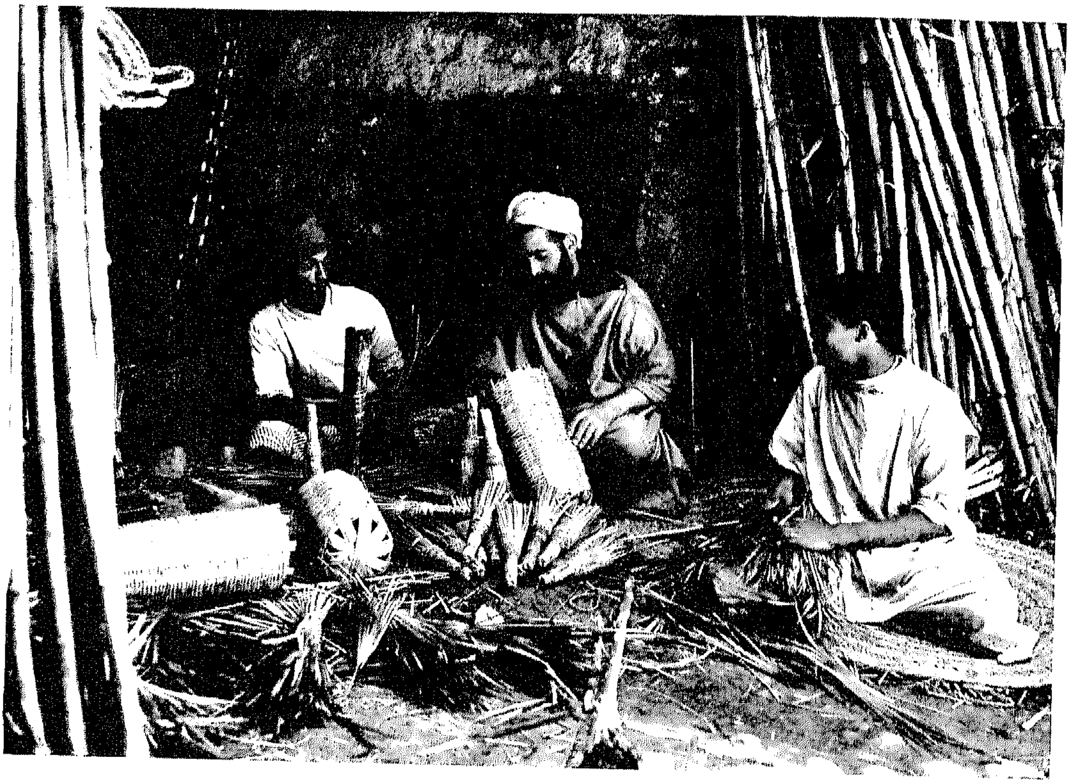


اللوحة 65

الصناع اليهود : مطرق الذهب

العامل بصدد تذويب الذهب ، لافراز الفضلات ، وبعد ذلك سيصنع سبائك سيطرقها للحصول على ورقات من الذهب متناهية الدقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



اللوحة 66

أشخاص مثاليون لصناع فاس

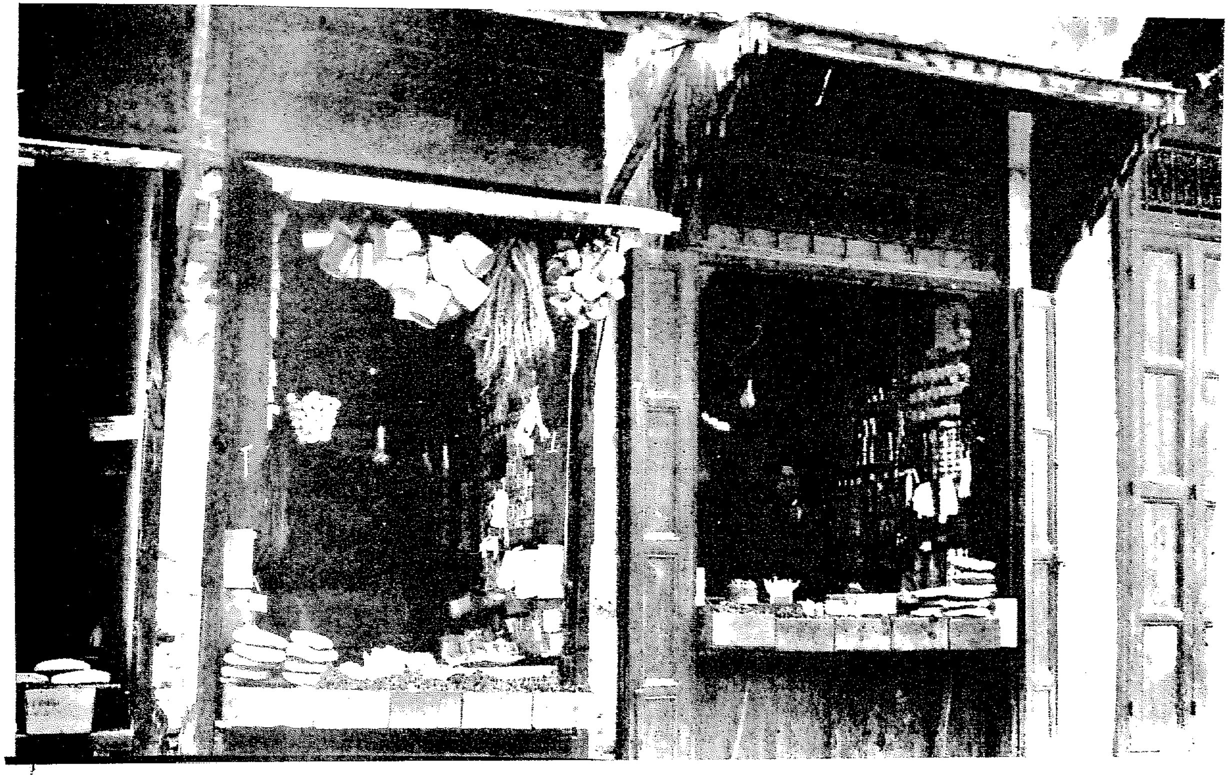
الشخص الذي يوجد في الوسط مقيم بفاس منذ زمن ، وقد اتخذ اللباس والهيئة لأحد الصناع القاسيين . والذي يظهر على اليسار صحراوي احتفظ بطاقية ولباس الغرباء . والذي يرى عن اليمين من أصل زنجي واضح : لا شك أنه ولد بفاس من أب فاسي وأم زنجية .



اللوحة 67

معالجة ركائز الأرز بباب عجيسة

ان الخشب الذي حمل من الأطلس المتوسط قد فصل جوائز من طرف النشارين على الطول ، خارج الباب . وستنقله البغال الى سوق الخشب الذي هو قريب جداً ، لكنه داخل الأسوار .



اللوحة 68

دكاكين التغذية لسوق صغير بأحد الأحياء (باب عجيسة)

ان هذه الدكاكين العصرية للتغذية ليست موافقة تماماً للشكل القديم ، نظراً للمواد الجديدة التي توجد فيها (علب التصبير ، أوان من الألـمنيـوم الخ) . الا أنه يشاهد فيها ، كما كان ذلك في القديم ، الخبز المعد لعابري السبيل ، والحبال ، والبيض والفواكه اليابسة



اللوحة 69

سوق متخصص : سوق الخضر (الجوطية)

أقيمت دكاكين بائعي الخضر عن يمين الساحة وتتابع في الزقاق الذي يمتد بهذه الساحة . وعلى اليسار سوق السمك ، وهو يمون الآن من الساحل ، كما تبين ذلك الصناديق الموجودة في المقدمة .



اللوحة 70

« رف » للقيصرية

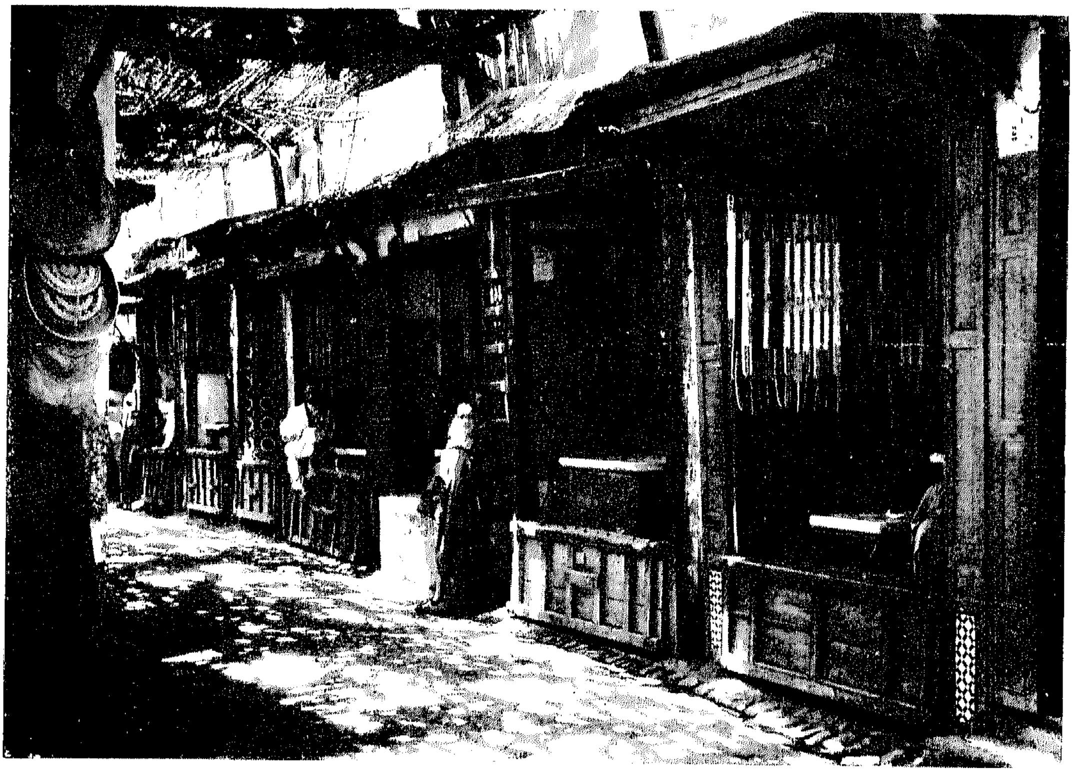
رف « لثياب جاهزة معدة للقرويين » (قبة المديني) . تشاهد ، وهي معلقة في أطناف الدكاكين ، جلالب للأطفال ، وترى من خلف قرويتان تتميزان بزيهما (مكشوفتا الرأس، بلا حائك ، ولا جلابة ، وحافيتان) وهما تقومان بشراءات .



اللوحة 71

سوق متخصص : سوق الحناء

في الأسفل ، بائعو الحناء ، والسلعة منشورة أمامهم ، وفي الطابق الأول بائعو الخزف الخشن . وتضفي شجرة التوت الموجودة في الوسط ، ظلاً منعشاً .



اللوحة 72

سوق متخصص ، سوق المضمّيين

ان الدكاكين السبعة التي تشاهد هنا ، الواحد بجانب الآخر ، متخصصة في صنع المضمات المطرزة بالذهب والفضة وبيعها (انظر اللوحة 62) .



اللوحة 73

سوق متخصص : سوق الخزف غير الملمع

جرات ، وقارورات ، وصحون ، وبرادات من الطين الأبيض ، والبرادات الموجودة عن اليسار قد زينت بالقطران من طرف البائعين انفسهم .



اللوحة 74

بيع الجلود المدبوغة بالمزاد

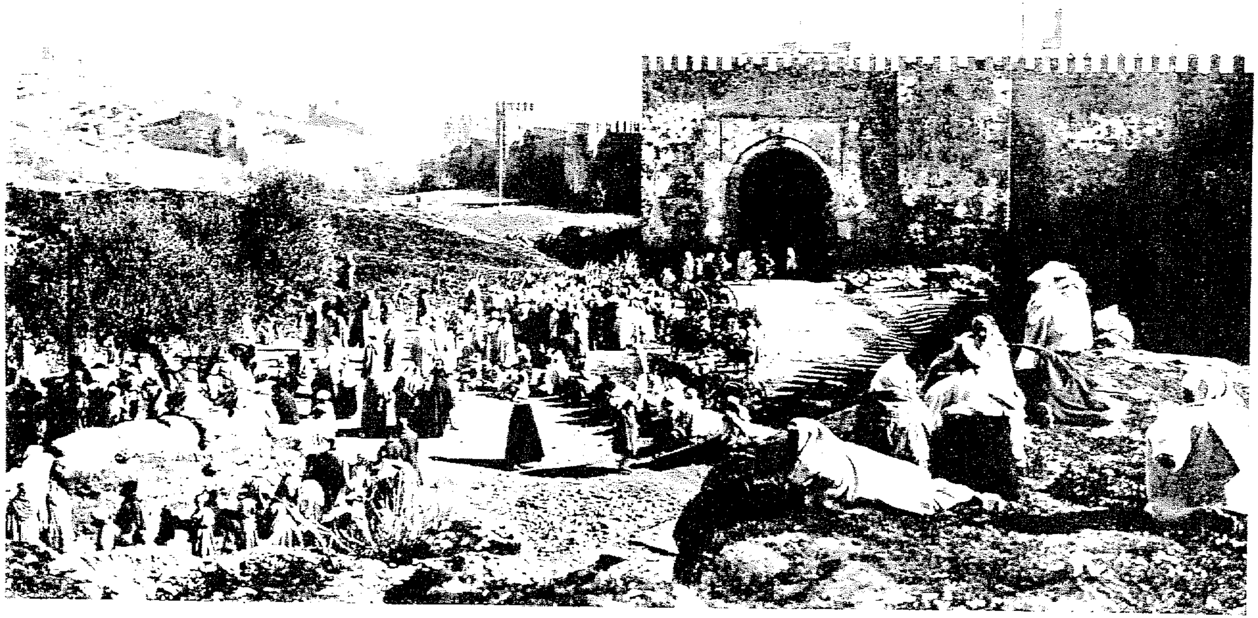
يقام البيع بفناء فندق السبطريين ويشاهد هنا الشراة ، والباعة والدلالة مختلطين بعضهم ببعض ، والمعاملات التجارية على أشدها .



اللوحة 75

منظر سوق الخميس

يتسارع جمهور القرويين ، في المقدمة أخبية الحلاقين المتنقلين أو العرافين . وفي المؤخرة ، بين القبور جمهور من المتطفلين أحاطوا بمشعوذ .



اللوحة 76

سوق الخميس قرب باب محروق

فلاحون جاثمون يبيعون بضاعتهم ، وقد دارت حلقة حول مهرج ، وفي المقدمة ، على اليمين متطفلون ، يجتاز فلاحون الباب ليقوموا بشراءات في المدينة .



اللوحة 77

سوق الخضر بالملاح

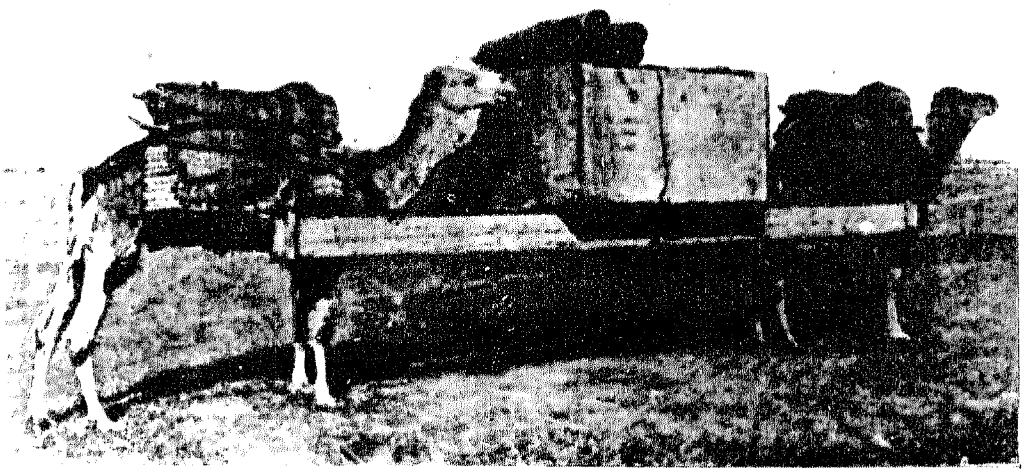
ان المسلمين ، وهم يتميزون بزيهم ، كثيرون جداً ، هم الباعة . ويحمل عدد كبير من النساء اليهوديات على أكتافهن الخمار التقليدي بأهدابه الطويلة . والنوافذ مفتوحة في جميع دور هذا الحي الحقير . وفي المؤخرة ، آثار برج مريني يرسم الحدود الأولية للحي .



اللوحة 78

مسلك للقوافل

رسم من انجاز اوجين لاكروا . يتعلق الأمر بمسلك يلتحق بسهل الغرب عبر فتحة واد الردم الذي يلي على اليمين ، وهو يمتد على طول كتلة جبل زرهون غرباً . وفي المقدمة ، فارس مسلح ، وفي المستوى الثاني دابة محملة ، في مؤخرة قافلة صغيرة .



اللوحة 79

جملان يحملان محفة

شبه محمل من خشب توضع عليه الطرود غير القابلة للتقسيم والتي هي مفرطة الثقل بالنسبة لحيوان واحد .



اللوحة 80

عالم خارج من جامع القرويين

يرتدي العالم لباساً أبيض ، ويتأبط تحت ذراعه الأيسر لبدته التي يشاهد طرفها .



اللوحة 81

طالب يشتغل

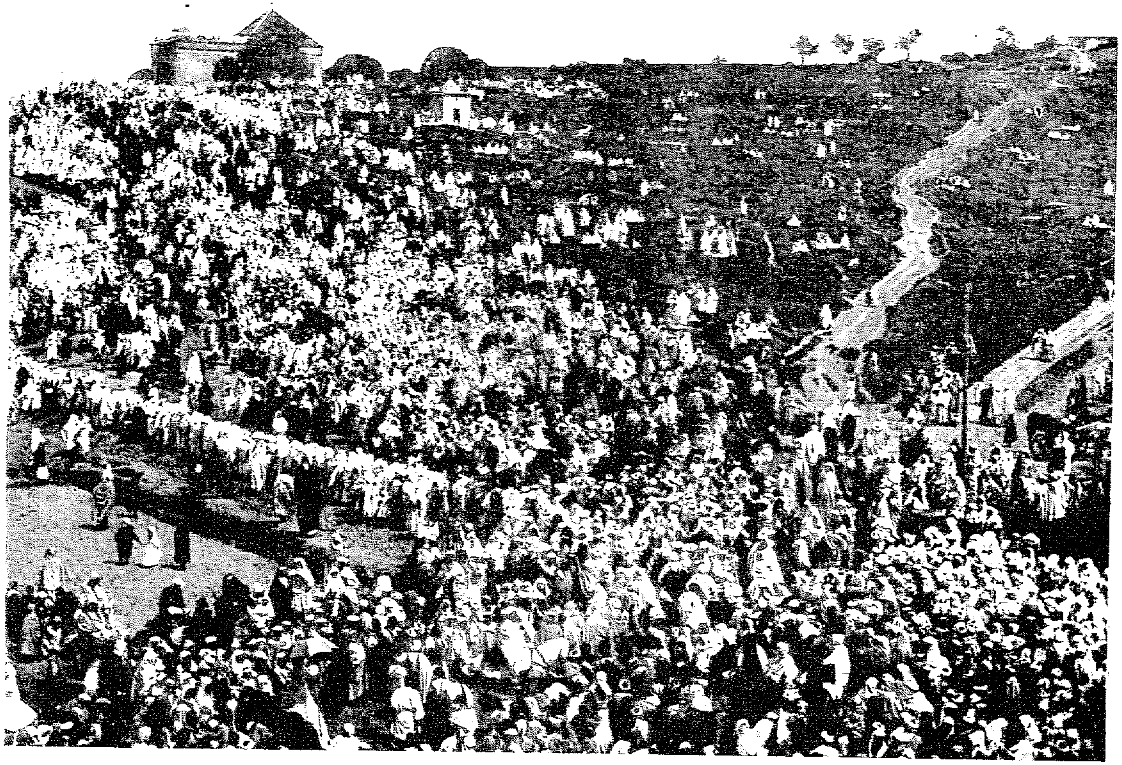
يطالع الطالب (وهو قروي مسن) كتاباً قد فك أوراقه ، وهو جاثم على فراشه . وتوجد مفاتيح حجرته عند رجليه .



اللوحة 82

حفلة سلطان الطلبة

وصول الموكب الى ضريح سيدي علي بوغالب في المقدمة السلطان ممتطياً فرسه، ومظللاً بمظلته ، ومحاطاً بخدمه . وحوله جمهور المتطفلين ، من بينهم نساء كثيرات العدد جداً ومقنعات . وفي المؤخرة حي العيون وبرج الشمال .



اللوحة 83

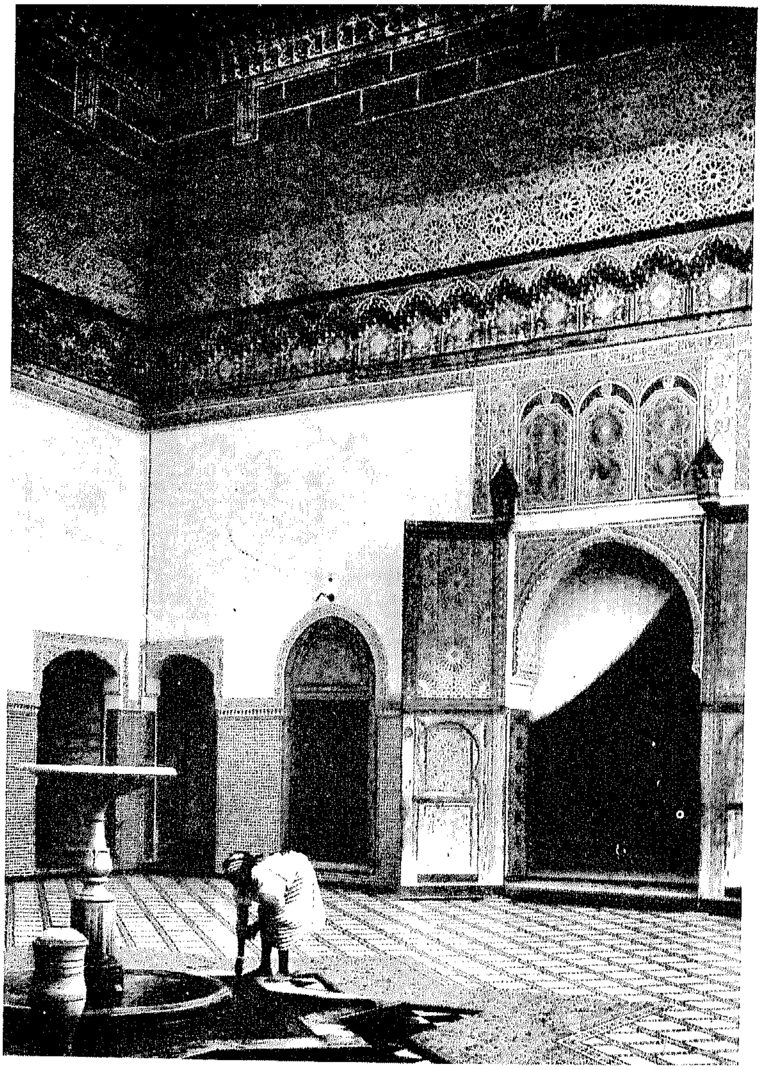
حفلة سلطان الطلبة



اللوحة

نموذج للمطبعة الحجرية بفاس

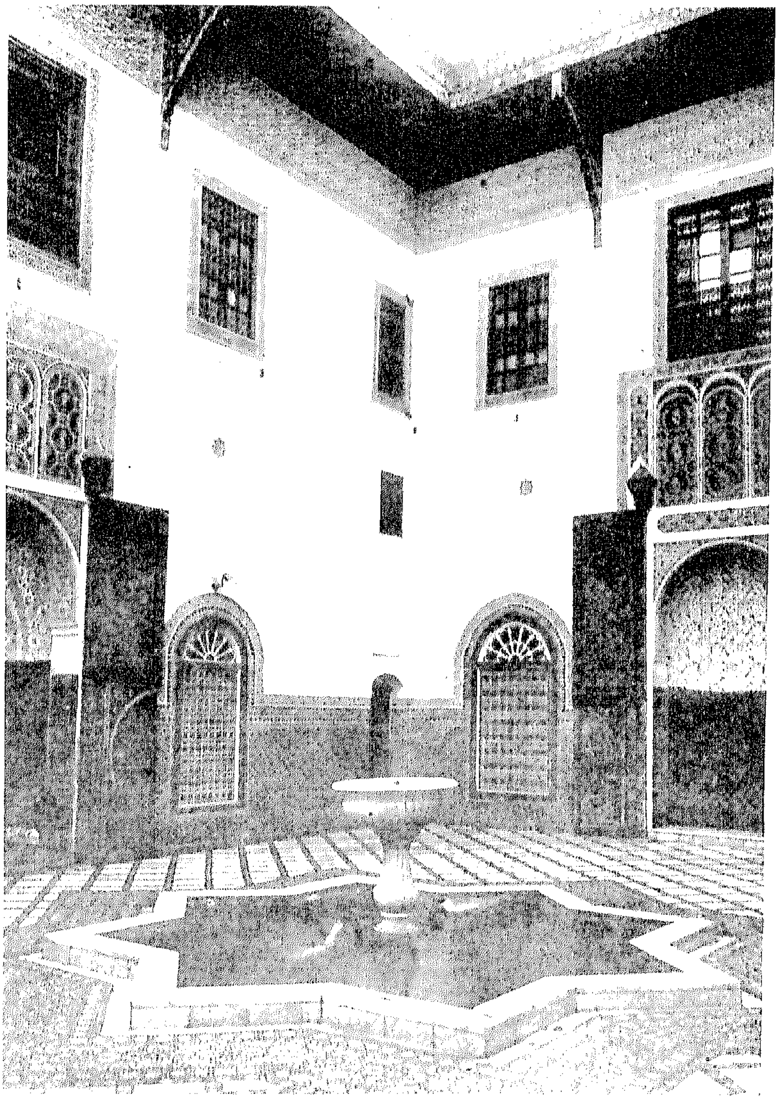
صحيفة من سلوة الأنفاس (جزء 1 ، ص 346) مستخرجة من ترجمة خصصت للشرفاء الطاهريين الصقليين لحي الكُيزا. النص المكتوب داخل الإطار هو بخط الناسخ ، والهوامش المكتوبة بخط آخر . هي اضافات زيدت فيما بعد على نسخة الرباط ، وهي غير مثبتة في نسخة الجزائر .



اللوحة 85

قناء دار فخمة

التلبيط بالرخام برقع من الزليج ، وحول الصحن ، زخرفة فاخرة من الفسيفساء المتعددة الألوان ، وعلى طول الجدران ، يرتفع الزليج تقريباً الى علو قامة الانسان ، وقبة الأبواب مؤطرة برسم من الجص المنقوش ، كما يوجد رسم آخر من الجص فوق الباب الرئيسي . والمصراعان من الخشب المنقوش ، وتشاهد بويبات مفتوحة فيه ، ويمكن أن يسدل ستار مطوي لسد المدخل دون أن يوصد الباب . وفوق الجزء الأبيض للجدران قطع هائلة من الخشب المنقوش المصبوغ . وفوق الجزء الأبيض للجدران قطع هائلة من الخشب المنقوش المصبوغ . وفوق الجزء الأبيض للجدران قطع هائلة من الخشب المنقوش المصبوغ . والباب الصغير عن اليسار هو الذي يفضي الى الزقاق ، عبر ممر على شكل حربة ، والباب المجاور له على اليمين هو باب مدرج أو ملحقة .



اللوحة 86

داخل دار برجوازية

نفس الترتيب الذي في اللوحة 84 ، مع ترف أقل بعض الشيء . ان غرف الطابق موصول بعضها ببعض بممر لا بشرفة .



اللوحة 87

رياض قصر البطحاء

هو عبارة عن مستطيل واسع مسيج من جميع الجوانب ، وفي كلا الطرفين الصغيرين مباني اقتبال أو سكن ، وعلى طول الطرفين الكبيرين ، رواق مكشوف . وفي الوسط ، أربعة مستطيلات كبيرة من البسط الخضراء ، تفصل بينها مجازات من الفسيفساء المتعددة الألوان ، وفي الوسط الحصن الصغير الذي يرى في المقدمة .



اللوحة 88

أزياء مغربية حسب (أوجين لاكروا)

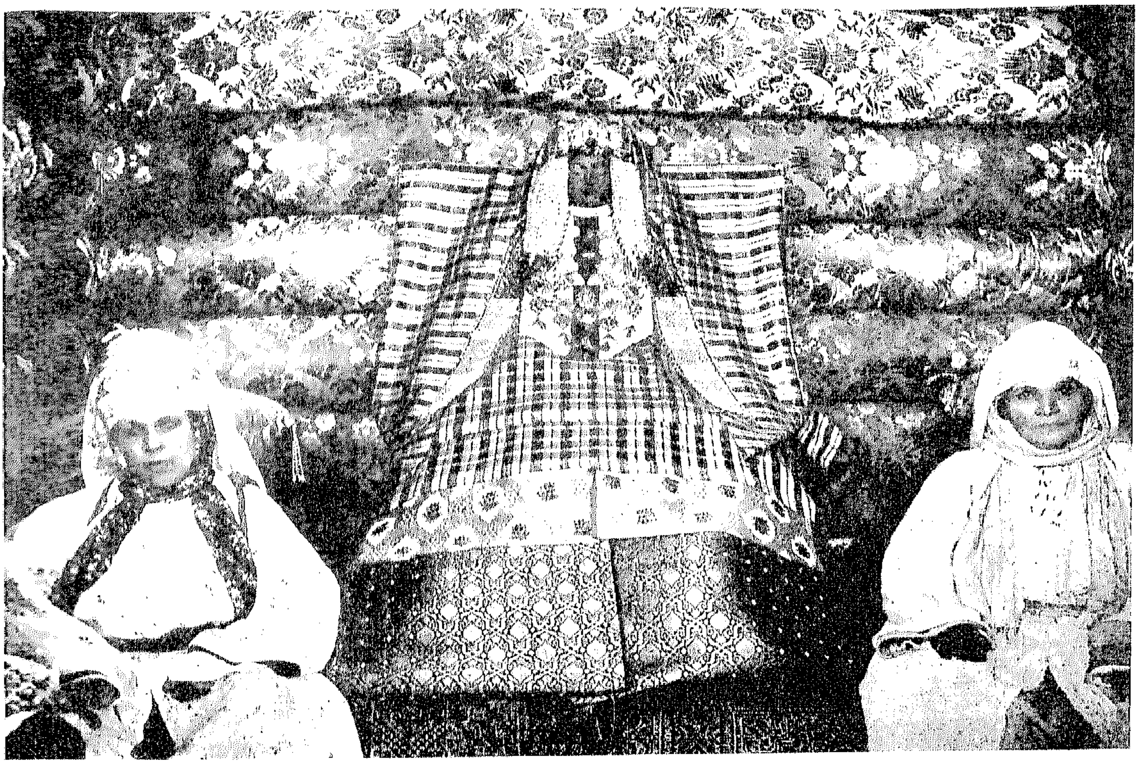
في الأعلى من جهة اليسار ، برجوازي مرتد لباساً أبيض ، ملتف في كسائه ، متأبط لبدته تحت ذراعه اليسرى . وفي الأسفل التوارك المميز لرجل أدخل منذ قليل ذراعه في كم جلبابه . وفي الأسفل على اليمين ، ثنيات خمار النساء .



اللوحة 89

أزياء مغربية حسب (أوجين لاكروا)

لا يصادف الا بفاس الشخصان المرسومان في الأسفل على اليمين . والذي يوجد على اليمين شخصية مخزنية ملتفة بمعطف طويل أبيض ، والآخر أحد خدم المخزن ، وهو يرتدي « قفطاناً » ملوناً ، يرى أسفله ، فوقه « فرجية » طويلة بيضاء ، مشدودة بخزام رخو . وهذا الزي هو أيضاً زي البرجوازيين المسنين عندما يكون الطقس بارداً .



اللوحة 90

عرض عروس

تمثل العروس هنا دمية ، لكن الملابس حقيقية، وهي متكئة على كدس من الوسادات المغشاة بقماش ليون . وفي كلا الجانبين خاطبتان . أخذت الصورة سنة 1939 حيث لم تعد بعد جميع الخاطبات زنجيات .



اللوحة 91

كتاب قرآني

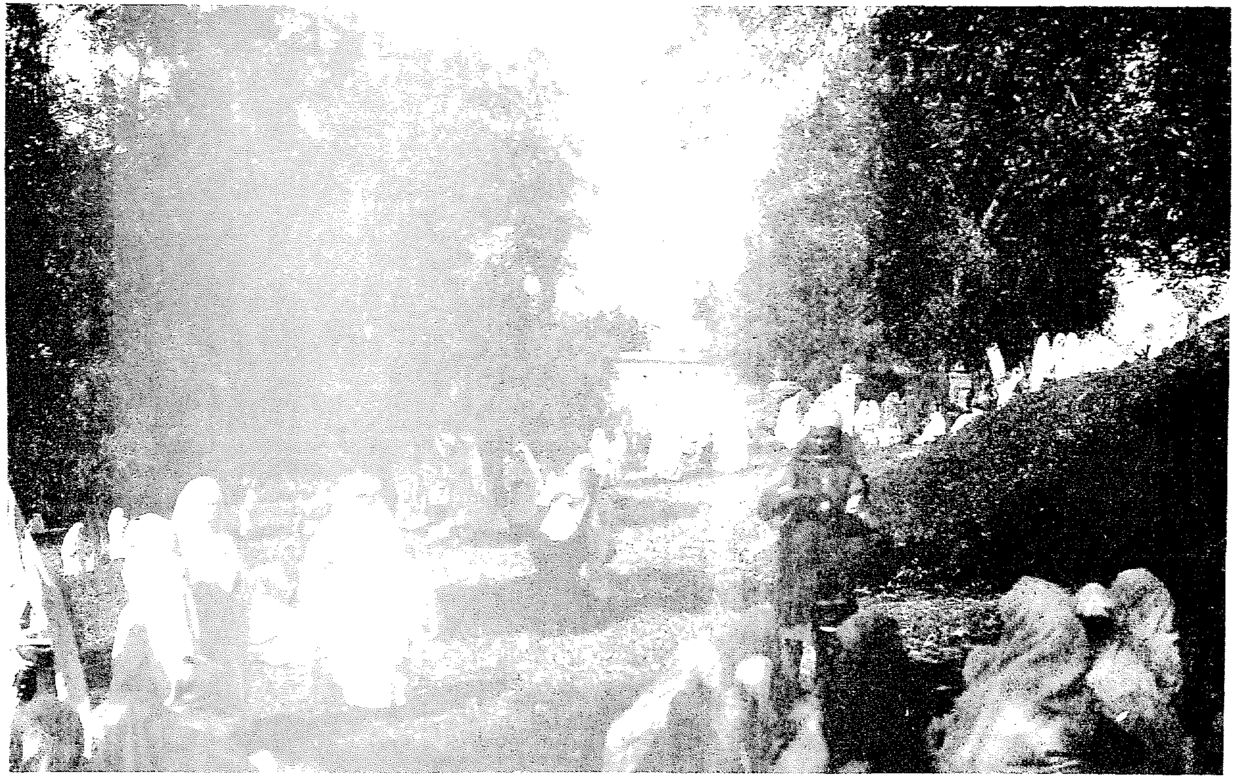
الأطفال محيطون بالمعلم وهم جالسون على حصر ضريح يستعمل كقاعة دراسة (في حي كَرْنيز) وتلاحظ من بينهم ، في الوسط ، صبية محجبة ، ومعظم الألواح معلقة في جدار المؤخرة . ويمسك المعلم قضيباً في يمناه .



اللوحة 92

نساء في المقبرة يوم الجمعة

يجري المشهد في مقبرة باب فتوح ، خارج الأسوار . تنتمي النساء ، وهن محجبات ومرتديات الحايك (انظر اللوحة 88) الى المجتمع الرفيع ، وكثيراً ما يكن مصحوبات باولادهن . وفي الوسط ، أمة متميزة بوجهها المكشوف ، وهي تقود ابني مولاتها ممسكة بيدهما .



اللوحة 93

نساء في المقبرة يوم الجمعة

في المقدمة ثلاث نساء ، من بينهن أمة ، وهن جالسات مع أطفال ، ويتأهبن لتناول الشاي . وفضلاً عن الصبيان الصغار ، فان الرجال الوحيدين الذين يسمح لهم بالدخول الى المقبرة ذلك اليوم هم السقاؤون ، ويرى أحدهم في المستوى الثاني على اليمين .



اللوحة 94

اقبار « فقير » في مقبرة باب الحمراء

لقد غطى القبارون الجثة منذ قليل ، وتتلى الصلوات الأخيرة ، والسور الذي يشاهد طفل فوقه ليس سور المدينة ، ولكن السور الداخلي الذي يقي حي الكَزيرة . وفيما وراء شجر الصفصاف وأعلى أسوار رياض السيد فضول غرنيط وفي المؤخرة الأحياء العليا لعدوة القرويين ، والتغات عن اليسار وبرج الشمال عن اليمين .



اللوحة 95

عزف في موكب

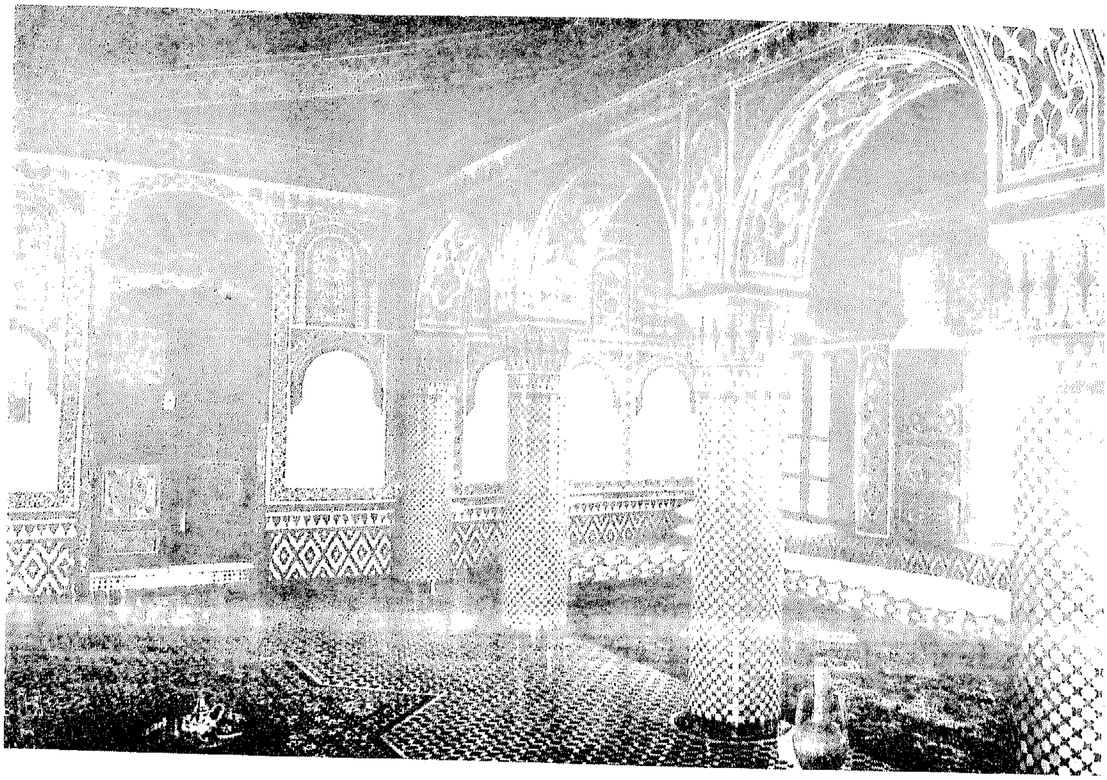
يُشاهد هنا ، من رسم (أوجين دولاكروا) ضارب على الطبل ونافخ في « الغيطة » وشدقاه منفوخان من شدة النفخ .



اللوحة 96

موكب حمالي الأطباق

تمثل هذه الصورة ، التي أخذها (الكونت دوبويسوري) في قصر البطحاء (جهة الشرق ، انظر اللوحة 87) خدام المخزن حاملين لممثل الحكومة البلجيكية غذاء قدمته اليه الحاشية الشريفة ، الأطباق الساخنة مغطاة بغطاء ملمع ، والمخروطات الكبيرة المنسوجة بالحلفاء التي تشاهد في المؤخرة تغطي أطباق الكسكسو ، والحلويات « والبسطيلة » . ويعد أربعة عشر طبقاً على الأقل .



اللوحة 97

داخل دار يهودية

زخرفة شبيهة بزخرفة الدور الاسلامية ، لكنها مفرطة شيئاً ما . ويدل لمعان الزليج على أن الأمر يتعلق ببناء حديث جداً .



اللوحة 98

زي اليهوديات في أوائل القرن التاسع عشر

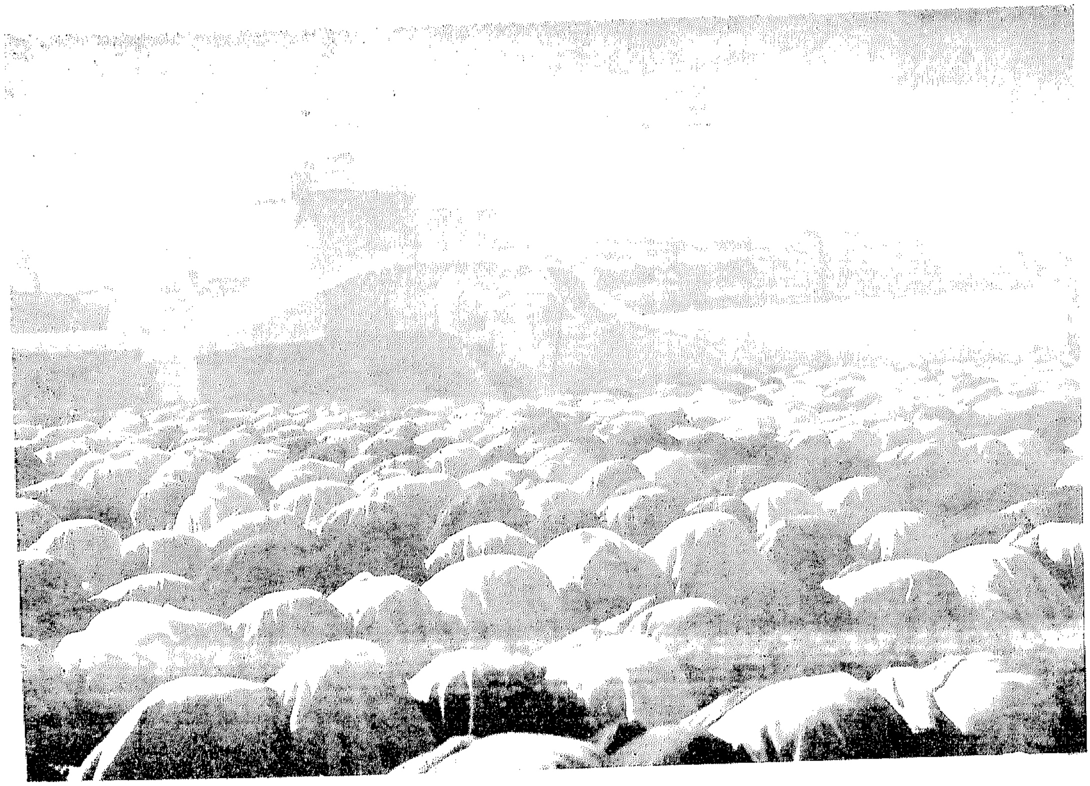
صورة مائية أنجزها (أوجين لاكروا) بمكناس . ليس زي يهوديات فاس مخالفاً في شيء لهذا الزي ، الذي يلاحظ شبهه بالملابس النسوية القديمة بأوروبا .



اللوحة 99

زي اليهوديات في أوائل القرن التاسع عشر

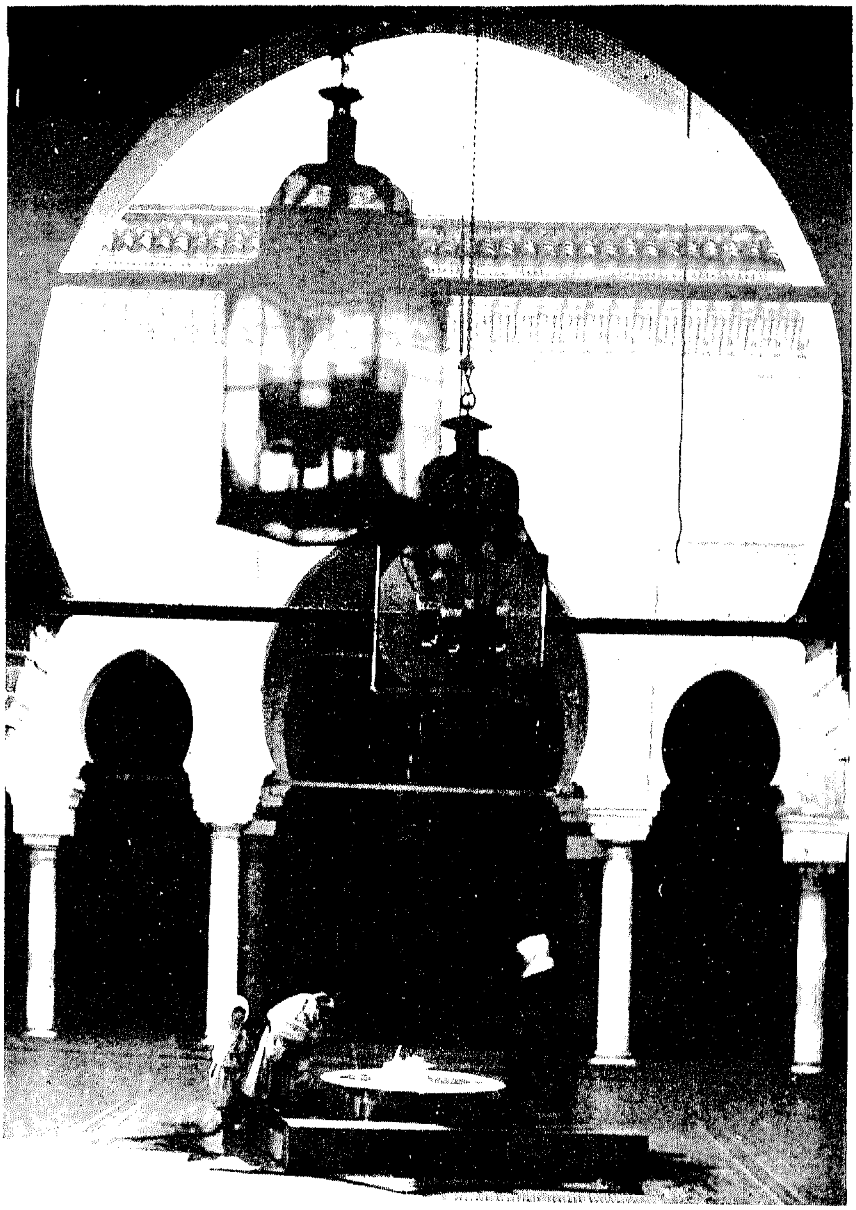
رسم من انجاز (أوجين دولاكروا) حلى متعـدد (نلاحظ حتى أقراطاً كبيرة تدعمها أنواط مربوطة في زينة الرأس) . وسترة فضفاضة تبلغ الخصر (بوليرو) بلون ناصع (ويلاحظ على اليسار وفي الأسفل التقييد : « بنفسجي ») وفوقه تطريزات ذهبية . زي فاخر وجذاب .



اللوحة 100

صلاة الجمعة بمصلى باب ساكمة

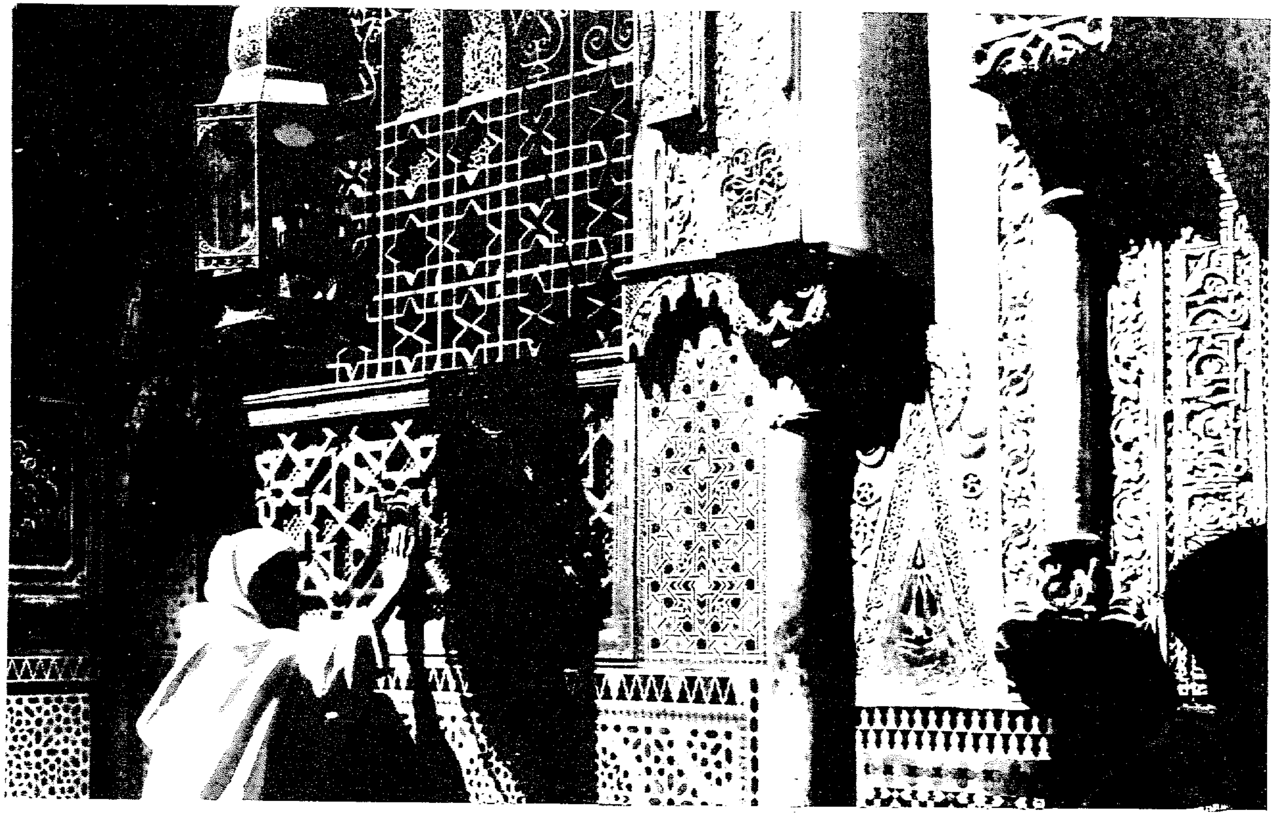
يظهر البناء في المستوى الثاني الاتجاه نحو مكة (القبلة) . ويرى في المقدمة المؤمنون وهم ساجدون نحو المدينة المقدسة . وفي المؤخرة ، على اليسار ، صومعات فاس الجديد ، وعلى اليمين ، سهل سايس ، وحدائق دار دبيبغ ، والأطلس المتوسط (جبل كندر) والبنايات البيضاء للمدينة الأوروبية .



اللوحة 101

صحن ضريح مولاي إدريس

في المؤخرة قاعة الصلاة ، وعلى الحائط لوحة كبيرة يمكن أن يقرأ فيها اسم الله بأحرف كبيرة ، ويوجد قبر الولي والقبة الهرمية التي تحتضنه عن يمين الصورة ، والصومعة عن اليسار (انظر اللوحة 30 والرسم 35) .



اللوحة 102

صندوق مولاي إدريس

تمثل الصورة الجدار الخارجي للضريح (الجانب الجنوبي ، انظر الرسم 35) . إن الشخص الذي يرى عن اليسار يضع يده على فتحة الصندوق حتى يتشبع بالبركة المنبثقة منها .



اللوحة 103

موسم سيدي أحمد البرنوصي

أخبية الزوار ودوابهم في الجانب الشمالي للجبل ، بين المصطكا والبطم ، ويرى ، في المقدمة ، قرويون ، لكن الفاسيين يوجدون هنالك بكثرة : ويشاهد منهم واحد ، مباشرة عن يسار الدابة في المقدمة .



اللوحة 104

موسم سيدي أحمد البرنوصي

يشكل الزوار حلقة ليشاهدوا المشعوذين أو اطلاق البارود من طرف راجلين وفي المؤخرة ، تلال لمطة .



اللوحة 105

استعراض عيساوة بمناسبة المولد النبوي

صورة التقطت من خارج الأسوار ، بين باب محروق وباب ساكمة ، وترى على اليمين رايات الطائفة . ويحضر هذا المشهد نساء عديدات .

G. SALMON. *Sur quelques noms de plantes en arabe et en berbère*, in Arch. Mar, VIII (1906), 1-98.

André E. SAYOUS. *Fès et les Fassis,* extrait de la Revue Économique Internationale (juin 1930), Bruxelles, 1930.

E. SECRET. *Moulay Yacoub guérisseur,* in Arch. inéd. des Amis de Fès.

E. SECRET. *Les hammams de Fès,* in Bull. de l'Institut d'Hygiène du Maroc, nouv. série, II (1942), 61-77.

Ahmed SEFRIOUI. *La nuit du vingt-septième jour du Ramadan,* in Arch. inéd. des Amis de Fès.

Ahmed SEFRIOUI. *Les rites de la naissance,* ibid.

de SEGONZAC. *La pénétration économique du Sud marocain,* in Rens. col., juin 1905, 205-210.

Y. D. SÉMACH. *Une chronique juive de Fès, "le Yahas Fès" de Ribbi Abner Hassarfaty,* in Hesp., XIX (1934), 79-94. *(Chronique).*

Y. D. SÉMACH. *Le saint d'Ouezzan, Ribbi Amran ben Divan, et les saints juifs du Maroc,* in Bull. de l'ens. publ., du Maroc, mars 1937 et juin 1938 *(Le saint d'Ouezzan).*

SERVICE DES TRAVAUX MUNICIPAUX DE FÈS. Plan de Fès au 1/1.000e.

Fathi TAZI. *Histoire du Taleb Sidi Laaziz,* in Arch. inéd. des Amis de Fès.

H. TERRASSE. *La Mosquée des Andalous à Fès,* Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XXXVIII, Paris, s.d.

H. TERRASSE. *Une porte mérinite de Fès IDID*, in Annales de L'Institut d'Etudes Orientales, VI (1942 - 1947).

Dr. WEISGERBER. *La ville de Fès,* in Rev. fr. de l'étranger et des colonies et Exploration, t. XXIV (1899), 591 et suiv.

Dr. WEISGERBER. *Description de la ville de Fès,* in C. R. de la Soc. de Géographie, juin 1899.

Mohammed ZEGHARI. *Le msid,* in Bull. de l'ens. publ. du Maroc, n° 159 (1938), p. 198-206.

Dr. RENAUD. *La peste de 1818 au Maroc*, in Hesp., III (1932), 21 et suiv.

Dr. RENAUD. *Recherches historiques sur les épidémies du Maroc. Les pestes du milieu du XVIII^e siècle*, in Hesp., XXIV (1939), 293-319.

Ch. RENÉ-LECLERC. *Le commerce et l'industrie à Fez*, in Rens. col., juillet-août-septembre 1905, 229-253, 295-321, 337-350.

Ch. RENÉ-LECLERC. *Fondouks*, in France-Maroc, 1917.

P. RICARD. *Le Dar Adiyel*, in France-Maroc, 15 sept. 1919.

P. RICARD. *Les métiers manuels à Fès*, in Hesp., IV (1924), 205-224.

P. RICARD. *Le Mouloud à Fès; Les Aïssawa*, in France-Maroc, 14 mars 1917.

P. RICARD. *Le souq et Morqtane et les broderies de Fès*, in France-Maroc, n° 1, 1917.

P. RICARD. *Renaissance de la reliure d'art à Fès*, in Bull. de l'ens. publ. du Maroc, 1922.

P. RICARD. *L'artisan de Fès*, in France-Maroc, 15 sept. 1918.

R. RICARD. *Les deux voyages du P. Fernando Contreras à Fès*, in Hesp., XIX (1934), 39-44.

R. RICARD. *Le Maroc septentrional au XV^e siècle d'après les chroniques portugaises*, in Hesp., XXIII (1936), 89-143.

R. RICARD. *Les places portugaises du Maroc et le commerce d'Andalousie*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938), 129-156.

de LA RONCIÈRE. *La première mission française au Maroc*, in Le Correspondant, 25 juin 1901.

Lt-Col. SALANIÉ. *Causerie inédite sur Fès*, in Arch. des Services Municipaux de Fès,

G. SALMON. *Le commerce indigène et le marché de Tanger*, in Arch. Mar., I (1904), 38-55.

G. SALMON. *Les chorfa idrisides de Fès*, in Arch. Mar., I, 425-459.

G. SALMON. *Les chorfa Filala et Djilala de Fès d'après Ibn al-Tayyib al-Qadiry*, in Arch. Mar., III, 97-118.

G. SALMON. *Le droit d'asile des canons*, in Arch. Mar., III, 144-153.

G. SALMON. *Le culte de Moulay Idris et la Mosquée des Chorfa à Fès*, in Arch. Mar., III (1905), 413-429.

MICHAUX-BELLAIRE. *Essai sur l'histoire des confréries marocaines,* in Hesp., I (1921), 141-159.

MICHAUX-BELLAIRE. *Fès et les tribus berbères en* 1910, in Bull. de l'ens. publ, au Maroc, n° 37 (janv. 1922).

MICHAUX-BELLAIRE. *Conférences,* in Arch. Mar., XXVII (1927).

MICHAUX-BELLAIRE. *Le Touat et les chorja d'Ouezzan,* in Mémorial Henri Basset, II, 139-151.

MICHAUX-BELLAIRE et SALMON. *El Ksar el Kebir,* in Arch. Mar., II (1904).

R. MONTAGNE. *Le développement du pouvoir des caïds de Tagontaft,* in Mémorial Henri Basset, II, 169-184.

E. MONTET. *Études orientales et religieuses,* Genève-Paris, 1917 (Sur Fès, p. 269-276).

Guy MORIZET. *La Medina (Fès et Bali). Emplacement des principaux fondouks,* plan au 1/2.000^{e}.

al MOUTABASSIR. *Ma el Aïnin,* in R. M. M., I (1907).

M^{lle} MUZEAU. *Note sur le trousseau des nouveau-nés marocains,* in Arch. inéd. des Amis de Fès.

P. ODINOT. *La grande route directe de Fès à Marrakech au XVI^{e} siècle,* in Bull. de la Soc. de Géogr. du Maroc, 1921, t. II, fasc. 7 et 8.

L^{t} ORTHLIEB. *Plan de Fez au 5.000^{e}, levé d'oct. 1912 à avr. 1913.*

Paul PAQUIGNON. Le Mouloud au Maroc, in R. M. M., XIV (1911), 525-536.

Paul PAQUIGNON. *Quelques documents sur la condition des Juifs au Maroc,* in R. M. M., IX (1909), 112-123.

E. PAUTY. *Le plan de l'Université Qarawiyin à Fès,* in Hesp., III (1923), 515-523.

E. PAUTY. *Les hammans du Caire,* Impr. de l'Inst. fr. d'Égypte, 1933.

H. PÉRÈS. *La poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades,* in Hesp., XVIII (1934), 9-40.

PÉRÉTIÉ. *Les medrasas de Fès* (d'après les notes de G. SALMON), in Arch. Mar., XVIII (1912), 257-372.

REISSER.*Monographie de Sefrou* (1916), in Arch. inéd. du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.

Dr. RENAUD. *La peste de* 1799 *d'après des documents inédits,* in Hesp., I (1921).

Paul MARTY. *L'année liturgique musulmane à Tunis*, in R. E. I., 1935, I, 1-38.

Paul MARTY. *Les institutions israélites au Maroc*, in R. E. I., 1930, III, 297-332.

Mme MAS. *La petite enfance à Fès et à Rabat*, Diplôme d'études supérieures inédit.

Boris MASLOW. *Les mosquées de Fès et du Nord du Maroc*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XX, Paris, 1937.

MASLOW et TERRASSE. *Une maison mérinide à Fès*, in IIe Congrès de la Féd. des Soc. Sav.d'Afr. du Nord, II,503-510.

L. MERCIER. *Notice économique sur le Tafilalet*, in Rens. col., juin 1905, 210-221.

L. MERCIER. *L'administration marocaine à Rabat*, in Arch. Mar., VII (1906).

L. MERCIER. *Les mosquées et la vie religieuse à Rabat*, ibid., VIII (1906).

MICHAUX-BELLAIRE. *Note sur l'enseignement au Maroc*, in Arch. inéd. de la section sociologique du Maroc.

MICHAUX-BELLAIRE. *Notice inédite sur Fès*, in Arch. inéd. de la Mission scientifique du Maroc.

MICHAUX-BELLAIRE. *Les impôts marocains*, in Arch. Mar., I (1904), 56-96.

MICHAUX-BELLAIRE. *Description de la ville de Fès*, in Arch. Mar., XI (1907), 252-330 *(Descr. de Fès)*.

MICHAUX-BELLAIRE. *L'organisation des finances au Maroc*, in Arch. Mar., XI (1907), 171-251.

MICHAUX-BELLAIRE. *La maison d'Ouezzan*, in R. M. M., V (1908), 23-89.

MICHAUX-BELLAIRE. *Une tentative de restauration idrisite à Fès*, in R. M. M., V, 393-423.

MICHAUX-BELLAIRE. *Au palais du Sultan marocain*, in R. M. M., V, 647-662.

MICHAUX-BELLAIRE. *Un rouage du gouvernement marocain*, in R. M. M., V, 242-256.

MICHAUX-BELLAIRE. *L'esclavage au Maroc*, in R. M. M., XI (1910), 422-427.

MICHAUX-BELLAIRE. *Le Gharb*, in Arch. Mar., XX (1913).

Cne LARRAS. *Plan de Fès au* 1/5.000^e^.

R. LE TOURNEAU. *Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour à Fès*(1540-1541), in Hesp., XIX(1934), 45-63.

R. LE TOURNEAU. *L'activité économique de Sefrou,* in Hesp., XXV (1938), 269-286.

R. LE TOURNEAU, NOYELLE et VICAIRE. *La technique du tissage à Fès et les moyens propres à l'améliorer,* in IV^e^ Congrès de la Féd. des Soc. Sav. d'Afr. du Nord, II, 885-893.

LE TOURNEAU et VICAIRE. *La fabrication du fil d'or au Mellah de Fès,* in Hesp., XXIV (1937), 67-88.

LE TOURNEAU et VICAIRE. *L'industrie du fil d'or au Mellah de Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. III, n° 13, juillet 1936, 185-190.

LE TOURNEAU et VICAIRE. *Les damasquineurs de Fès,* communication inéd. présentée au V^e^ Congrès de la Féd. des Soc. Sav. d'Afr. du Nord (1939).

LE TOURNEAU et VICAIRE. *Les tisserands de Fès,* étude inédite.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Les ruines almoravides du pays de l'Ouergha,* in Bull. archéologique, 1918, p. 194 et suiv.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Notes de toponymie hispano-maghribine: les noms des portes, le "bab ech-chari'a" et la "chari'a" dans les villes de l'Occident musulman au Moyen Age,* in Annales de l'Institut d'Études Orientales, II (1936), 210-234.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *La fondation de Fès,* in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938), 23-52.

Dr. LINARÈS. *Voyage au Tafilelt avec S. M. le Sultan Moulay Hassan en* 1893, in Bull. de l'Institut d'Hygiène du Maroc, 1932, III et IV.

MAITROT de lA MOTTE-CAPRON et Dr. TRENGA. *Un correspondant de Révolution. Journal d'un Israélite de Fès* (1908-1910), in Bull. de la Soc. de Géogr. d'Alger, 1936.

MARCHAND. La situation commerciale à Fez en 1906, in Rens. col., déc. 1906, 421-422.

L. MARTIN. *Description de la ville de Fès, quartier du Keddan,* in R. M. M., IX (1909), 433-443 et 621-642 *(Keddan).*

Germaine MARTY. *Étude sur les musulmans allogènes à Tunis: Tunisiens, Tripolitains, Algériens, Marocains,* Diplôme d'études supérieures inédit, Alger, 1947. Fragment publié in IBLA, n° 42 (2^e^ tr. 1948), p. 159-188.

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Le commerce des babouches à Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol.III, n° 11 (janvier 1936), 36-42.

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Les relieurs de Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. III, n° 12 (avril 1936), 107-114.

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Les potiers de Fès* (étude inédite).

R. HENRY. *Où se trouvait la Zaouïa de Dilâ?* in Hesp., XXXI (1944), 49-54.

J. HERBER. *Les Hamadcha et les Dghoughiyyîn,* in Hesp., III (1923), 217-236.

HUBERT. *Casablanca,* mémoire inédit in Arch. du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.

F. JABRE. *Dans le Maroc nouveau: le rôle d'une Université musulmane,* in Ann. d'Hist. Ec. et Soc., n° 51 (1938), 195-207.

JOLY. *Les industries à Tétouan,* in Arch. Mar., VIII (1906), 196-329, XI (1907), 261-393, XV (1909), 80-156, XVIII (1912), 187-256.

Jeanne JOUIN. *Iconographie de la mariée citadine dans l'Islam nord-africain,* in R. E. I., 1931 (IV), 313-339.

Paul JUGANT. *Les huileries à Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. VI, n° 24, 99-104.

G. KAMPFFMEYER. *Texte aus Fès,* Berlin, 1909.

Abdelwahab LAHLOU. *Note sur la banque et les moyens d'échanges commerciaux à Fès avant le Protectorat,* in Hesp., XXIV (1937), 223-232.

Mohammed LAKHDAR. *Les étapes du pèlerin de Sijilmassa à La Mecque et Médine,* in IVe Congrès de la Féd. des Soc. Sav d'Afr. du Nord, II, 671-688.

Mohammed LAKHDAR. *Les izerzaïn ou portefaix berbères de Fès,* in Hesp., XIX (1934), 193-194.

E. LAOUST. *Noms et cérémonies des feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti-Atlas,* in Hesp., I (1921), 253-316.

J. LAPANNE-JOINVILLE. *Les métiers à tisser de Fès. Vocabulaire des termes techniques du tissage,* in Hesp., XXVII (1940), 21-98.

Mohammed LARAKI. *La bibliothèque du l'Université Qarawiyine,* in Arch. inéd. des Amis de Fès.

LARRAS. *La population du Maroc,* in La Géographie, XIII, 5, 15 mai 1906.

Encyclopédie de l'Islam, Leyde-Paris, 1908-1937, 4 vol. et un suppl., notamment art. AL-DJAZULI (I, 1062) (Ben Cheneb), FAS (II, 76) (G. Yver), IDRIS (II, 478) (R. Basset), 'IYAD (II, 602) (Ben Cheneb), KAISARIYA (II, 700) (M. Streck), MELLAH (III, 523) (G.-S. Colin), MIZWAR (III, 616) (Lévi-Provençal), MUHTASIB (III, 751) (R. Lévy), SHARIF (IV, 336) (Van Arendonck), SHORFA (IV, 401) (Lévi-Provençal).

Camille FIDEL. *Le commerce du Maroc en* 1900 *et* 1901, Paris, 1903.

Camille FIDEL. *Les intérêts français et les intérêts allemands au Maroc,* in Rens. col., juillet 1905-253-265.

H. GAILLARD. *Le commerce de Fès en* 1902, in Rens. col., déc. 1904.

GALLOTTI. *Vieilles lampes, vieilles lanternes,* in France-Maroc, n° 1.

Henri GODBARGE. *Deux corporations berbères à Fès: les "izerzaïn" et les "igerraben",* in Arch. inéd. du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.

A.-M. GOICHON. *La femme de la moyenne bourgeoisie fasiya,* in R. E. I., 1929, I.

A.-M. GOICHON. *La borderie au fil d'or à Fès. Ses rapports avec la broderie de soie; ses accessoires de passementerie,* in Hesp., XXVI (1939), 49-98 et 241-281.

P. GRYMOULT. *L'Université de Fez et les intellectuels marocains,* in Mercure de France, 15 juin 1920.

F. GUAY. *Le mariage d'un fils de famille à Fès,* in IVe Congrès de la Féd. des Soc. Sav. d'Afr. du Nord, II, 791-804.

R. GUYOT. *Les moulins hydrauliques de Fès et la corporation des meuniers qui les servent,* communication inéd. présentée au VIIe Congrès de l'Institut des Hautes Études Marocaines (1928).

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *La corporation des tanneurs et l'industrie de la tannerie à Fès,* in Hesp., XXI (1933), 167-240 *(Tanneurs).*

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *L'industrie de la tannerie à Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. II, n° 9 (juillet 1935), 219-226.

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *L'industrie de la poterie à Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. II, n° 10 (octobre 1935), 268-272.

GUYOT LE TOURNEAU et PAYE. *Les cordonniers de Fès,* in Hesp., XXIII (1936), 9-54 *(Cordonniers).*

J. CAILLÉ . *Les dépenses d'une mission française à la cour chérifienne en 1825,* in Hesp., XXX (1943), 163-181.

J. CAILLÉ. *Le commerce anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI^e siècle. Importations et exportations,* in Rev. Afr., LXXXIV (1940).

CARBONNIER, GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Étude inédite sur les maroquiniers de Fès.*

C^te Henry de CASTRIES. *Note historique sur le Palais de Bou Djeloud à Fez,* Casablanca, 1918.

J. CÉLÉRIER. *Les conditions géographiques du développement de Fès,* in Hesp., XIX (1934), 1-19.

Pierre de CÉNIVAL. *La légende du Juif Ibn Mech'al et la fête du Sultan des Tolba à Fès,* in Hesp., V (1925), 137-218.

François CHARLES-ROUX. *Ambassades françaises à Fès,* in Le Monde français, vol. IV (nov. 1946), 355-368.

A. CHOTTIN. *Airs populaires recueillis à Fès,* in Hesp., III (1923), 275-285.

G.-S. COLIN. *Noms d'artisans et de commerçants à Marakech,* in Hesp., XII (1931), 229-240.

H. COUFOURIER. *Une chronique de la vie de Moulay al-Hassan,* in Arch. Mar., VIII (1906), 330-395.

COUSTAUD. *L'oued Fès,* mémoire inédit de fin de stage pour le contrôle civil du Maroc.

J. DELAROZIÈRE. *Habs Zebbala à Fès Jdid (étude sur un héri),* in IV^e Congrès de la Féd.des Soc. Sav.d'Afr.du Nord,II,619-628.

J. DELAROZIÈRE et H. BRESSOLETTE. *La Grande Noria et l'Aqueduc du Vieux Mechouar à Fès-Djedid,* ibid.,II,627-640.

DELBREL. *Note sur le Tafilelt,* in Bull. de la Soc. de Géogr., 1894, 2^e tr., p. 199-227.

G. DELPHIN. *Fas, son universı é et l'enseignement supérieur musulman,* Paris, 1889.

Jean DENY. *Instructeurs militaires turcs au Maroc sous Moulay Hafidh,* in Mémorial Henri Basset, I, 219-227, Paris, 1928.

E. DOUTTÉ. *La khot'ba burlesque de la fête des t'olba au Maroc,* in Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes, p. 197-219, Alger, 1905.

H. DUVEYRIER. *Le chemin des ambassades de Tanger à Fâs et Meknâs en* 1885, in Bull. de la Soc. de Géogr., 1886, 3^e tr.

A. BEL. *Sidi Bou Medyan et son maître Ed-Daqqâq à Fès*, in Mélanges René Basset, I, 31-68.

K. BENABDELJELIL. *Lee commerce des tissus à Fès avant le Protectorat*, mémoire de stage pédagogique inédit.

K. BENABDELJELIL. *Les cérémonies du mariage à Fès*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.

Mohammed BENCHENEB et E. LÉVI-PROVENÇAL. *Essai de répertoire chronologique des éditions de Fès*, in Rev. Afr., LXII (1921), 158-173 et 275-290; LXIII (1922), 170-185 et 333-347.

Ahmed BENNANI. *Le canari d'Azzouz*, in Bull. de l'Ens. publ. au Maroc, n° 180 (1944).

J. BERQUE. *Les Nawazil el muzâra'a du Mi'yar Al Wazzânî (étude et traduction)*, Rabat, 1940.

J. BERQUE. *Deux ans d'action artisanale à Fès*, in Questions nord-africaines, 1939, n° 15. Tiré à part, Paris, 1940, 28 pp.

R. BLACHÈRE. *Fès chez les géographes arabes du Moyen Age*, in Hesp., XVIII (1934), 41-48.

G.-H. BOUSQUET et J. BERQUE. *La criée publique à Fès*, in Rev. d'Économie politique, mai 1940, p. 320-345.

M. BOUYON. *Des "rekkas" du consul de Marcilly aux avions d'Air-France*, in Progrès de Fez, 19 janvier 1941.

H. BRESSOLETTE. *Enquête sur le peuplement indigène et le niveau de vie à Fès Jdid*, mémoire inédit présenté pour l'admission au stage du Brevet de Hautes Études d'Administration Musulmane.

Louis BRUNOT. *Textes arabes de Rabat*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XX, Paris, 1931.

Louis BRUNOT. *Notes sur le parler arabe des Juifs de Fès*, in Hesp., XXII (1936), 1-32.

BRUNOT et MALKA. *Textes judéo-arabes de Fès*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XXXIII, Rabat, 1939.

BRUNOT et MALKA. *Clossaire judéo-arabe de Fès*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XXXVIII, Rabat, 1940.

Ch. BRUNOT-DAVID. *Les broderies de Rabat*, Collection Hespéris, vol. IX, Rabat, 1943.

M.-T. BURET. *Madame la mosquée des fleurs d'oranger*, in Mémorial Henri Basset, I, 117-127.

B. SIDBON BEYDA. *La question monétaire au Maroc*, Paris, 1921.

N. SLOUSCH. *Étude sur L'histoire des Juifs au Maroc*, 2e partie, in Arch. Mar., VI (1906), 1-167.

G. SPILLMANN. *Étude inédite sur les confréries et zaouia du Maroc*, in Archives du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.

J. du TAILLIS. *Le Maroc pittoresque*, Paris, 1905.

H. TERRASSE. *L'Art hispano-mauresque des origines au XIIIe siècle*, Paris, 1932.

H. TERRASSE. *Villes impériales du Maroc*, Grenoble, 1937.

J. et J. THARAUD. *Fez ou les bourgeois de l'Islam*, Paris, 1930.

Jos. VATTIER. *Ames maghrébines*, Paris, 1931.

B. VERNIER. *Le Fezzan*, Alger, s. d. (1944).

Edward WESTERMARCK. *Les cérémonies du mariage au Maroc*, traduction J. ARIN, Paris, 1921.

Edward WESTERMARCK. *Survivances païennes de la civilisation mahométane*, Paris, 1935. *(Survivances)*.

J. WEULERSSE. *Antioche, essai de géographie urbaine*, in Bulletin d'Études orientales, IV (1934), 27-80.

IV. *Études particulières et articles.*

Anonyme. *La réorganisation des habous au Maroc*, Rabat, 1916.

I. S. ALLOUCHE. *Un plan des canalisations de Fès au temps de Mawlay Isma'il d'après un texte inédit, avec une étude succincte sur la corporation des kwadsiya*, in Hesp., XVIII (1934), 49-63.

'Abderrazak 'AMMOR. *Les zerzayas*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.

Dr. d'ANFREVILLE. *Les Marocains en A. O. F.*, in Rens. col., mars 1905, 155-156.

Archives inédites de l'Association des Amis de Fès, recueil de conférences dactylographiées (1933-1942).

A. BEL. *Les industries de la céramique à Fès*, Paris, 1918.

A. BEL. *La fabrication de l'huile d'olive à Fès et dans la région*, in Bull. de la Soc. de Géogr. d'Alger, XXII (1917), 121-137.

A. BEL. *Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la Mosquée d'el-Qarouiyine à Fès*, Fès, 1918.

A. BEL. *Inscriptions arabes de Fès*, Paris, 1919 *(Inscr. ar.)*.

W. MARÇAIS. *L'Islam et la vie urbaine*, in C. R. de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1928, 96 et suiv.
W. MARÇAIS. *Textes arabes de Tanger*, Paris, 1911.
W. MARÇAIS. *Comment l'Afrique du Nord a été arabisée*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938).
L. MARTIN. *Le régime de la protection au Maroc*, in Arch. Mar., XV (1909), 1-32.
P. MARTY. *Le Maroc de demain*, Paris, 1925.
L. MASSIGNON. *Le Maroc dans les premières années du XVI^e siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain*. Mémoires de la Société historique algérienne, t. I, Alger, 1906 (Sur Fès, p. 219-236).
L. MASSIGNON. 1. *Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc*, in R. M. M., LVIII (1924).
2. *Complément à l'enquête de 1923 - 1924 sur les corporations musulmanes*, in R. E. I., II (1928), 273 - 293.
Budget MEAKIN. *The land f the Moors*, London, 1901.
Budget MEAKIN. *The Moors*, London, 1902.
Louis MILLIOT. *Démembrement du habous*, Paris, 1918.
Henri de MONTÉTY. *Le mariage musulman en Tunisie*, Tunis, 1941.
F. NATAF. *Le crédit et la banque au Maroc*, Paris, 1929.
Charles PENZ. *Les captifs français du Maroc au XVII^e siècle* (1577-1699), Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, vol. XLI, Rabat, 1944.
C^te M. de PÉRIGNY. *Au Maroc, Fez, la capitale du Nord*, Paris, 1917.
Plan de réformes marocaines, élaboré et présenté à S. M. le Sultan du Maroc, au Gouvernement de la République Française et à la Résidence Générale au Maroc par le Comité d'Action marocaine, éd. fr., 1934.
L^t-Col. Sir Robert PLAYFAIR and Dr. Robert BROWN. *A Bibliography of Morocco from the earliest times to the end of* 1891, London, 1892.
P. RICARD. *Maroc*, Collection "Les guides bleus", Paris, 1936.
P.-L. RIVIÈRE. *Traités codes et lois du Maroc*, t. I, Paris, 1924.
J. SAUVAGET. *Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^e siècle*, Paris, 1941.

Jean GALLOTTI. *Le jardin et la maison arabe au Maroc*, 2 vol., Paris, 1926.

E.-F. GAUTIER. *Le passé de l'Afrique du Nord; les siècles obscurs*, Paris, 1937 (Sur le royaume de Fès, pp. 299-316).

Léon GODARD. *Description et histoire du Maroc*, Paris, 1860.

Dr. Lucien GRAUX. *Le Maroc économique*, Paris, 1928.

F. GUAY. *La ville de Fès et ses rapports avec le monde musulman*, in Rev. alg. et tun. de législation et de jurisprudence, t. 47, p. 239-252.

W. HARRIS. *Tafilet*, London, 1895.

HUBERT-JACQUES. *Les journées sanglantes de Fez*, Paris, 1913.

H. KOEHLER. *L'église chrétienne du Maroc et la mission franciscaine* (1221-1790), Paris, 1934.

E. LAOUST. *Mots et choses berbères*, Paris, 1920.

P. LAVEDAN. *Qu'est-ce que l'urbanisme?* Paris, 1926.

P. LAVEDAN. *Géographie des villes*, Paris, 1936.

Ch. LE COEUR. *Le rite et l'outil, essai sur le rationalisme social et la pluralité des civilisations*, Paris, 1939.

Maurice LE GLAY. *La mort du Rogui*, 10ᵉ éd., Paris, 1926.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Histoire de l'Espagne musulmane*, t. I, Le Caire, 1944.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *L'Espagne musulmane au Xᵉ siècle*, Paris, 1932.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Les historiens des Chorfa; essai sur la littérature historique et biographique au Maroc du XVIᵉ au XIXᵉ siécle*, Paris, 1922.

G. LUCAS. *Fès dans le Maroc moderne*, Collection des centres d'études juridiques du Maroc, t. XV, Paris, 1937.

Donald MACKENZIE. *The califate of the West*, London, 1911.

Didier Madras et Boris Maslow. ***Fès Capitale artistique de l'Islam,*** *Casablanca, 1947.*

Elie MALKA, *Essai d'ethnographie traditionnelle des Mellahs*, Rabat, 1946.

G. MARÇAIS. *Manuel d'art musulman. Architecture*, 2 vol., Paris, 1926-1927.

G. MARÇAIS. *Remarques sur l'esthétique musulmane*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938), 55-71.

G. MARÇAIS. *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, 1946.

III. *Ouvrages généraux et études d'ensemble.*

AL MUCHRIF. *La réforme de l'enseignement à la Grande Mosquée (Zitouna) de Tunis* in R. E. I., 1930, IV, 441-515.

Annuaire du Monde Musulman publié par Louis MASSIGNON, 3e éd., Paris, 1929.

J. BERQUE. *Essai sur la méthode juridique maghrébine,* Rabat, 1944.

S. BIARNAY. *Notes d'ethnographie et de linguistique nord-africaines* publiées par L. BRUNOT et E. LAOUST. Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. III, Paris, 1924.

François BONJEAN. *Les confidences d'une fille de la nuit,* Paris, 1939.

François BONJEAN. *L'âme marocaine,* Rabat-Paris, 1948.

Joseph BOURRILLY. *Éléments d'ethnographie marocaine,* publiés par E. LAOUST, Paris, 1932.

Marcel BOUSSER. *Le problème des transports au Maroc,* Collection des centres d'études juridiques du Maroc, t. X, Paris, 1934.

René BRUNEL. *Essai sur la confrérie religieuse des Aïssaoua au Maroc,* Paris, 1926.

Jérôme CARCOPINO. *Le Maroc antique,* Paris, 1943.

Alexis CHOTTIN. *Tableau de la musique marocaine,* Paris, 1939.

Marcel CLERGET. *Le Caire, étude de géographie urbaine et d'histoire économique,* 2 vol., Le Caire, 1934.

Emile DERMENGHEM. *L'éloge du vin (al-khamriya). Poème mystique d'Ibn al-Fâridh,* Paris, 1931.

DESMAZIÈRES. *André de Spolète.*

G. DESROCHES. *Le Maroc, son passé, son présent, son avenir,* Paris, 1913.

DOUTTÉ. *Notes sur l'Islam maghrébin,* Paris, 1900.

DOZY. *Supplément aux dictionnaires arabes,* Leyde-Paris, 2e éd., 1927.

Mohammed el FASI et DERMENGHEM. *Contes fasis,* Paris, 1926.

Mohammed el FASI et DERMENGHEM. *Nouveaux contes fasis,* Paris, 1928.

Henri GAILLARD. *Une ville d'Islam: Fez,* Paris, 1905.

W. HARRIS. *Le maroc disparu,* Paris, 1929.

Maurice LE GLAY. *Chronique marocaine de* 1911, Paris, 1933.

W. LEMPRIÈRE, surgeon. *A tour from Gibraltar to Tangier, Sallee, Mogodore, Santa Cruz, Tarudant and thence over mount Atlas to Morocco.*, London, 1791.

Léon L'AFRICAIN. *Description de l'Afrique,* nouv. éd. annotée par Ch. SCHEFER, 3 vol., Paris, 1896-1898 (sur Fès, T. II).

Pierre LOTI. *Au Maroc,* Paris, éd. de 1928.

MARMOL. *De l'Afrique,* traduction de Nicolas PERROT d'A-BLANCOURT, 3 vol., Paris, 1667.

H. de La MARTINIÈRE. *Souvenirs du Maroc,* Paris, 1919.

MOUETTE. *Relation de la captivité du sieur Mouëtte dans les royaumes de Fez et de Maroc,* Paris, 1683.

MOULIÉRAS.. *Fez,* Paris, 1902.

José Maria de Murga. *Recuerdos Marroquies del Moro vizcaino José Maria de Murga,* Bilbao, 1868.

PIDOU de SAINT-OLON. *État présent de l'EMpire du Maroc,* Paris, 1694.

Rapport statistique et commercial du 17 avril 1898 in Arch. de la Mission scientifique du Maroc.

Ch. RENÉ-LECLERC. *Le Maroc septentrional. Souvenirs et impressions (été* 1904), Alger, 1905.

REY. *Souvenirs d'un voyage au Maroc,* 1844, Paris, 1845.

E. RICHET. *Voyage au Maroc,* Paris, 1912.

Gérard ROHLFS. *Voyages au Maroc* (1861) in Rev. Afr., VII, 205-226.

G. ROULLEAUX-DUGAGE. *Lettres du Maroc,* Paris, 1915.

G. SAINT-RENÉ TAILLANDIER. *Les origines du Maroc français. Récit d'une mission* (1901-1906), Paris, 1930.

TROTTER. *Our mission to the court of Morocco in* 1880 *under Sir John Drummond Hay,* Edimbourgh, 1881.

Gabriel VEYRE. *Au Maroc.Dans l'intimité du Sultan,* Paris, 1905.

John WINDUS. *A journey to Mequinez, the residence of the present emperor of Fez and Morocco, on the occasion of commodore Stewart's embassy thither for the redemption of the British captives in the year* 1721, London 1725.

Cte Conrad de BUISSERET. *A la cour de Fez*, Bruxelles, 1907.

René CAILLIÉ. *Journal d'un voyage à Tombouctou et à Jenné*, 3 vol., Paris, 1830 (sur Fès, III, p. 113-118).

L. de CAMPOU. *Un empire qui croule: le Maroc contemporain*, Paris, 1886.

Cte Henri de CASTRIES. *Sources inédites de l'histoire du Maroc*, **publieés sous la direction de M. de Castries.**

D^r CERDEIRA. *Maroc, Fez* in Memorias diplomaticas y consulares e informaciones (Ministerio de Estado-Centro de Informacion comercial), n° 73, 1904.

Gabriel CHARMES. *Une ambassade au maroc*, Paris, 1887.

L. de CHENIER. *Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc*, 3 vol., Paris, 1787.

André CHEVRILLON. Un crépuscule d'Islam (Fez en 1905), 5^e éd., Paris, 1923.

Nicolas CLÉNARD. *Correspondance* publiée par A. RŒRSCH, 3 vol., Bruxelles, 1940-1941.

Captain H. E. COLVILLE. *A ride in petticoats and slippers*, London, 1880.

Eugène DELACROIX. *Le voyage d'E. Delacroix au maroc*, fac-similé de l'album du Musée du Louvre; introduction par Jean GUIFFREY, Paris, 1909.

DIEGO DE TORRES. *Histoire des Chérifs*, traduite par M. le duc d'Angoulême le père, annexée au t. III de l'ouvrage de Marmol (voir *infra*).

Diplomatic and consular reports edited at the Foreign Office and the Board of trade, London: n° 1304 (1892), 1476 (1893), 1633 (1894), 1810 (1895), 1995 (1896), 2131 (1897), 2296 (1898), 2603 (1899), 2723 (1900), 3597 (1905).

Documents diplomatiques. Question de la protection diplomatique et consulaire au Maroc, Paris, 1880.

J. ERCKMANN. *Le Maroc moderne*, Paris, 1885.

V^te Charles de FOUCAULD. *Reconnaissance au maroc*, 2 vol., Paris, 1888.

Lawrence HARRIS. *With Mulai Hafid at Fez behind the scenes in Morocco*, London, 1909.

W. HARRIS. *The land of an African Sultan. Travels in Morocco*. London, 1889.

LISTE DES OUVRAGES CONSULTÉS ET CITÉS

I. *Sources arabes.*

II. *Documents et voyageurs européens*

E. de AMICIS. *Le maroc,* traduit de l'italien par H. BELLE, Paris, 1882.

Anonyme. *A Fez, la journée de prière,* in Rev. des Deux mondes, 1906, XXXII, 871 - 905.

Anonyme [Aubin] *Fez, dernier centre de la civilisation musulmane,* in Rev. de Paris, 15 février (851 - 872), 1er mars (173 - 196), 15 Mars (424 - 448), 1904.

AUBIN. *Le Maroc d'aujourd'hui,* Paris, 1904.

BADIA Y LEBLICH [Ali Bey] *Voyages d'Ali Bey el Abbassi en Afrique et en Asie,* 3 vol., Paris, 1814 (sur Fès, 1, ch. VIII).

Cristobal BENITEZ. *mi viaje por el interior del Africa,* Tanger, 1899.

BONSAL. *Morocco as it is,* London, 1894.

BRAITHWAITE. *Histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier Empereur Muley Ismael,* tr. fr., Amsterdam, 1731.

الفهارس

- فهرس الموضوعات .
- فهرس عام لأعلام الأشخاص والقبائل والأمم والأماكن والكتب .
- فهرس خاص بمواقع فاس .
- فهرس الخرائط والرسوم .
- فهرس الصور الفتوغرافية الملحقة بالكتاب .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * *

الجزء الثاني

* * *

* * *

الموضوع	الصفحة

فهرس عام
لأعلام الأشخاص
والقبائل والأمم والأماكن والكتب

ـ أ ـ

- ح -

- خ -

- ر -

- ش -

- غ -

- ف -

- م -

* * *

فهرس خاص بمواقع فاس

- أبــواب -

أحياء

أزقـة . دروب . سـاحـات . قناطر . . .

أسواق ومراكز اقتصادية

جوامع وزوايا ومدارس

بساتين ودور وقصور

فنادق

أبراج ومؤسسات عسكرية

حمّامات وعيون وأودية

مقابر وأضرحة

مختلفـــات

* * *

فهرس
الخرائط والرسوم

الصفحة

الخريطة	الصفحة

* * *

فهرس الصور الفوتوغرافية الملحقة بالكتاب

اللوحة	الصفحة

اللوحة	الصفحة

اللوحة الصفحة

اللوحة	الصفحة

* * *

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 86/1/1000/73

سحب جديد : 2000/1/ 92

التنضيد الإلكتروني : سامو برس

الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٨٣٨١٥١-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

ASSOCIATION DES AUTEURS MAROCAINS POUR LA PUBLICATION

Roger le Tourneau

FÈS

Avant Le Protectorat

Traduit en arabe par

D. Mohamed Lakhdar D. Mohamed Hajji

Tome 2

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B.P. 113/5787 - BEYROUTH

FÈS

Avant Le Protectorat

Roger le Tourneau

FÈS

Avant Le Protectorat

Traduit en arabe par

D. Mohamed Lakhdar D. Mohamed Hajji

Tome 2

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B.P. 113/5787 - BEYROUTH